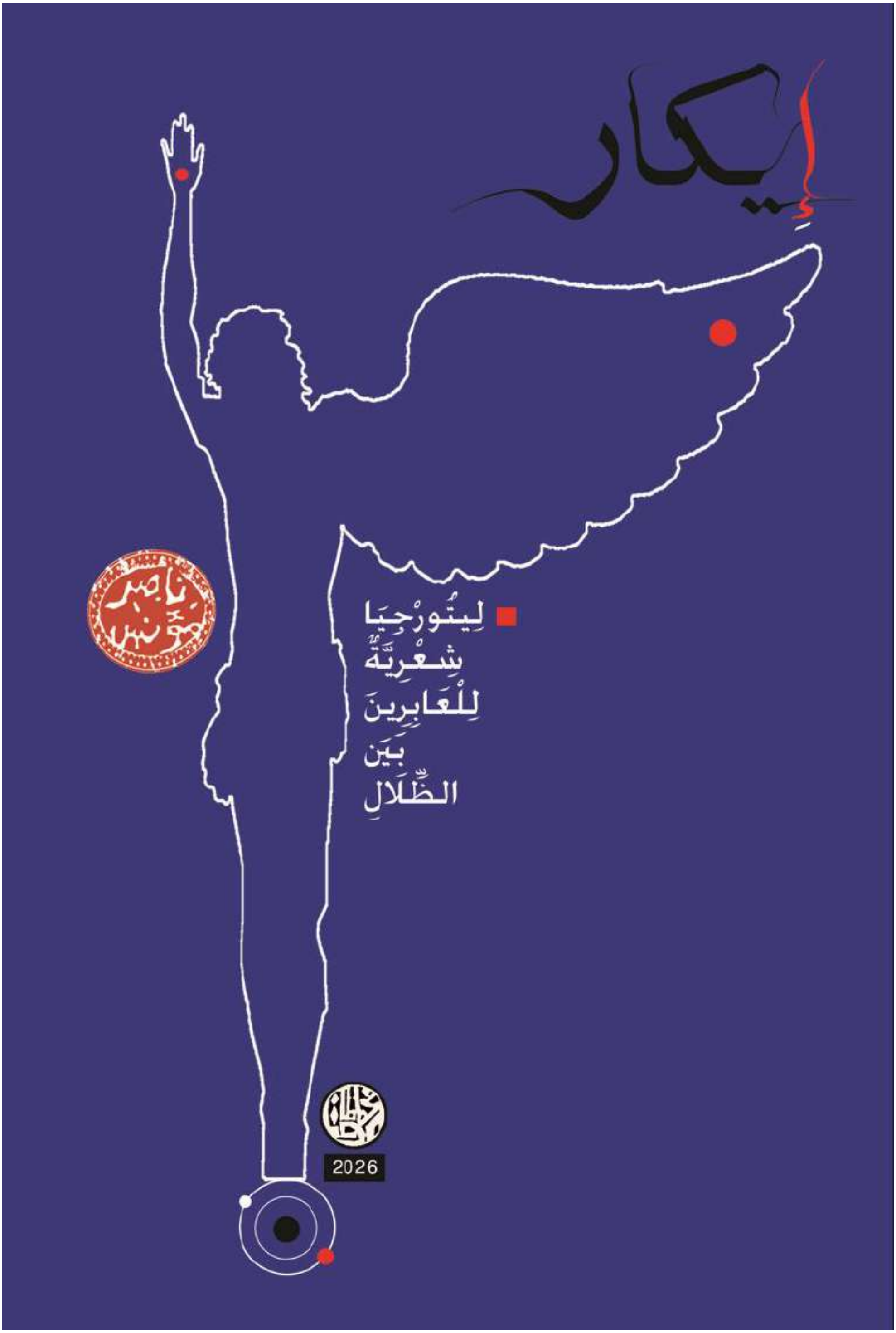

إيكار
ناصر مؤنس
لِيتُورْجِيَا
شِعْرِيَّةٌ
لِلْعَابِرِينَ
بَيْنَ
الظِّلَالِ
2026

# إيكار

لِيتُورْجِيَا شِعْرِيَّةٌ
لِلْعَابِرِينَ بَيْنَ الظِّلَالِ

# إيكار

لِيتُورْجِيَا شِعْرِيَّةٌ لِلْعَابِرِينَ بَيْنَ الظِّلَالِ

اسم الكتاب : **إيكار** - لِيتُورْجِيَا شِعْرِيَّةٌ لِلْعَابِرِينَ بَيْنَ الظِّلَالِ
اسم المؤلف : **ناصر مؤنس**
تصميم الغلاف
الطبعة الأولى : 2026
الترقيم الدولي :9781291649581
الناشر : دار مخطوطات

Makhtootat press and publishing house
Mauvelaan 67
2282 SW Rijswijk
The Netherlands
e-mail: Makhtootat1@gmail.com

# إِيكار

*

لِيتُورْجِيَا شِعْرِيَّةٌ

## لِلْعَابِرِينَ بَيْنَ الظِّلَال

*

**(مَخْطُوطُ النُّورِ الْمُسْتَتِرِ)** - إِصْدَارٌ مُرَكَّبٌ يَضُمُّ:

**الأَنَاجِيلُ الْأَرْبَعَةُ**

مَسْبُوقَةً بِ **(أَسْفَارِ الْفَجْرِ)**

✽

**الإِنْجِيلُ الْأَوَّلُ:** الظِّلُّ الَّذِي لَا يَنَامُ

**الإِنْجِيلُ الثَّانِي:** يَقَظَةُ السَّاهِرِينَ عَلَى الْعَطَشِ

**الإِنْجِيلُ الثَّالِثُ:** قُدَّاسُ الْعَثَرَاتِ

**الإِنْجِيلُ الرَّابِعُ:** الَّذِينَ يَهَابُونَ الْفَجْرَ

(تَسْبِيحَةُ الْمَلَاكِ الْأَعْمَى، أَوِ الْبَصِيرَةُ الَّتِي تُرَى فِي الْعَتَمَةِ)

✽

مَصْحُوبَةً بِ:

**سِفْرِ الهَوَامِشِ السِّرِّيَّةِ**

✽

تَلِيهَا:

**صَلَاةُ الْعَابِرِ الْأَخِيرِ**

(مَزَامِيرُ تُنْشَدُ عِنْدَ أَبْوَابِ الْمُدُنِ)

# ختم الكتاب



يَا إِلٰهَ العَابِرِينَ،

يَا مَنْ تُنَقِّطُ الحَرْفَ بِزَيْتِ السِّرِّ،

يَا جَامِعَ المَنْفِيِّينَ فِي صَمْتِكَ،

هٰؤُلَاءِ الَّذِينَ سَقَطُوا مِنْ دَفَاتِرِ العَالَمِ،

اجْعَلْهُمْ آيَاتٍ فِي كِتَابِكَ،

وَاكْتُبْ أَسْمَاءَهُمْ بِنُورٍ لَا يُمْحَى

# تقريرٌ أوّليّ

صادر عن (وحدة المخطوطات الشرقية - لاهاي، الأراضي المنخفضة)

**أوّلًا: تمهيدُ المحقِّق**

عُثر على هذا المخطوط في حالةٍ متآكلة، ضمن حزمةٍ غير مفهرسة، خاليةٍ من أيِّ إشارةٍ صريحة إلى منشئها أو إلى سياقها الطقسيّ. والنصُّ -كما وصل إلينا- ليس متصلًا، يتألّف من ملازمَ مختلفة، ودفاترَ غيرِ مرقّمة، وأوراقٍ متفرّقة، وطبقاتٍ متداخلة، تتوزّع على النحو الآتي:

I- إِصْحاحاتٌ بِمَنْزِلَةِ (مُتُونٍ) رُؤْيَوِيَّةٍ شَدِيدَةِ الِانْغِلَاق.

II- أناشيدُ داخليّةٌ تظهر إيقاعيًّا دون علاماتٍ واضحة.

III- هوامشُ لاحقة، يُرجَّح أنّها كُتبت بيدٍ أُخرى.

IV- أسفارٌ، وتراتيلُ، وأبوابٌ، وطقوسٌ، وأنشوداتٌ، وأختامٌ، وعلامات.

ويصعب الجزمُ بما إذا كان النصُّ شعرًا، أم سردًا، أم تأمّلًا صرفًا. غيرَ أنّ بنيتَه المتاهيّة تشير إلى أنّ المخطوط كُتب على يدِ ناسكٍ / كاتبٍ عاش في (أرض السواد)، وكان جزءًا من طائفةٍ سرّية - غير محدّدة الانتماء - أو جماعةٍ باطنيةٍ صغيرة، مارست طقوسَ (القراءة والكتابة المغلقة).

**ثانيًا: ملاحظةٌ منهجية**

الترجمةُ هنا ليست نقلًا حرفيًّا، هي محاولةٌ لإعادة بناء طبقةٍ دلاليةٍ مفقودة، مع الحفاظ على المعنى الأصليّ للنص.

**ثالثًا: وصفُ المخطوط**

I- **المادّة:** ورقٌ رقيقٌ شديدُ الاصفرار، مع آثارِ احتراقٍ عند الحواف.

II- **الخطّ:** غيرُ منتظم، يميلُ أحيانًا إلى أشكالٍ قريبةٍ من العربيّة العتيقة، دون تطابقٍ حاسم.

III- **التقسيم:** لا توجد فواصلُ تقليدية، غيرَ أنّ صيغًا متكرّرة تشير إلى: إصحاحات، وأناشيد، وأسفار، ومزامير، وترانيم، وأختام.

IV- **الإضافات:** هوامشُ مكتوبةٌ بحبرٍ أغمق، يُحتمل أنّها أُضيفت في مرحلةٍ زمنيّةٍ لاحقة.

**رابعًا: موقعُ الاكتشاف**

عُثر على المخطوط في مطلع عام (1407هـ)، خلال بعثةِ تنقيبٍ غير مكتملة، في منطقة (دهلران) وهي مدينةٌ إيرانيةٌ ذاتُ أهميةٍ استراتيجية تقع في محافظة إيلام، غربَ البلاد. ويشكّل الكردُ اللُّور والكردُ الكلهر الغالبيةَ السكانية فيها، كما تتميّزُ بموقعها الحدوديّ المحاذي للعراق، وتحديدًا مقابل قضاء (علي الغربي) في محافظة ميسان.

**الإحداثياتُ التقريبية**
تقعُ المنطقة ضمن طبيعةٍ جغرافيةٍ صحراوية، ذاتِ مناخٍ حارٍّ وجاف.

**السياقُ الأثري**
بقايا مرصدٍ حربيٍّ شُيّد من أخشابِ صناديقِ العتاد، وبقايا خراطيش المدفعية.

**المعطياتُ الطبقية**
عُثر على المخطوط داخلَ صندوقِ عتادٍ يُرجَّح أنّه من مخلّفاتِ حربٍ منسيّة، وإلى جانبه وُجدت:
* شظايا فحم.
* قطعُ خرائطَ محترقة.
* بقايا بزّةٍ عسكريةٍ متفحّمة.
* أقلامُ خطٍّ مصنوعةٌ من أغصانِ الأشجار.
* خرطوشةُ بندقيةٍ استُخدمت بوصفها محبرة.

**ملاحظةٌ ميدانية**
الطبقةُ التي وُجد فيها المخطوط لا تحتوي على لُقىً متجانسة، ممّا يرجّح أنّه أُعيد إيداعُه في الموقع في مرحلةٍ لاحقة.

**خامسًا: ظروفُ الاكتشاف**
تمَّ العثورُ على المخطوط مصادفةً، أثناءَ مسحٍ سطحيٍّ قاده:
I- فوتوغرافيٌّ عجوز.
II- ملاكٌ أعمى.
III- شاعرٌ هارب.
IV- جنديٌّ جريح.

ووفقًا للتقريرِ الأوّليّ، فإنَّ الموقع (لم يكن مُدرجًا ضمن الخرائط العسكرية أو القطاعات المعروفة، وكانت بنيتُه أقربَ إلى مرصدٍ حدوديٍّ مهجور، أو ملجأٍ طقسيٍّ مؤقّت، أو نقطةِ انعزال).

**سادسًا: انتقالُ المخطوط - بعد اكتشافه**

I- نُقل المخطوط بصورةٍ غير رسميّة إلى بغداد.

II- خرج، عبر وساطةٍ خاصّة، من العراق إلى الأردن، ثم نُقل لاحقًا إلى مملكة الأراضي المنخفضة.

III- استقرَّ مؤقّتًا في أرشيفٍ خاصٍّ تابعٍ لمعهدٍ بحثيٍّ غير مُعلن، قبل أن ينتقل إلى (وحدة المخطوطات الشرقية - لاهاي، الأراضي المنخفضة)، وهي الجهةُ التي تبنّت تحقيقَه ونشرَه.

**إشكاليّة**

أثار هذا المسارُ غيرُ الموثّق رسميًّا جدلًا واسعًا بشأن شرعيّة حيازة المخطوط، وطبيعةِ انتقاله عبر الحدود.

**سابعًا: الفريقُ البحثيّ والتحقيقُ الأوّليّ**

قاد التحقيقَ النصّي:

I- د. رصان سنؤم - الاختصاص: حفريّاتٌ بصريّة.

II- ناصر بن مؤنس البغدادي - مقيمٌ في مملكة الأراضي المنخفضة.

III- بالتعاون مع (جوقةِ أرواحٍ تائهة) - لم يُكشف عن اسمها رسميًّا.

**ثامنًا: النتائجُ الأوّلية**

I- **الخطّ:**

هجينٌ بصريّ، يبدو أنّه نتج عن تزاوجِ نمطين مختلفين من الخطوط العربية والغربية، مع انحرافاتٍ لغويةٍ تتجاوزَ ما هو مألوفٌ ومتعارفٌ عليه في الأبجديات الكتابية.

II- **اللغة:**

عربيّةٌ مبكّرة، أو ترجمةٌ لاحقة عن أصلٍ غير عربي.

III- **الطبقاتُ الكتابية:**

تبيّن وجودُ مستويين كتابيّين واضحين:

1- متنٌ رئيسيّ.

2- هوامشُ لاحقةٌ كُتبت بحبرٍ مختلف.

**تاسعًا: ملاحظاتٌ نقديّةٌ موجزة**

يمكن قراءةُ المخطوط ضمن ثلاثِ طبقاتٍ متداخلة:

**1- طبقةٌ عرفانيّة**

أ. العالمُ نتاجُ احتباس.

ب. المعرفةُ نتاجُ انكشافٍ مؤلم.

ج. الخلاصُ غائبٌ أو مؤجَّل.

**2- طبقةٌ لغويّة / ميتافيزيقيّة**

أ. اللغةُ خيانةٌ بنيويّة.

ب. الكشفُ لا يتمُّ بالكلام، بانكسارِ الكلام.

ج. (الأختام) تمثّل بقايا (لغةٍ قبل اللغة).

**3- طبقةٌ طقسيّة**

أ. تكرارُ الأختام يوحي بمسارٍ طقسيٍّ للتدرّج أو العبور.

ب. يُحتمل أنّ الأناشيدَ كانت تُتلى ضمن سياقٍ شعائريّ.

ج. قد تكونُ الهوامشُ شروحَ مريدٍ لاحق، لا المؤلّفِ الأصليّ.

**عاشرًا: التأريخ**

**(أ) الفحوصات**

**تحليلُ الكربون المشعّ (C14)**

تشير النتائجُ إلى فترةٍ زمنيةٍ تقع بين: 27 رمضان 1407هـ - 11 محرّم 1411هـ.

**تحليلُ الحبر**

تركيبٌ غيرُ معروف، يحتوي على عناصرَ نباتيةٍ نادرة.

**تحليلُ الورق**

تبيّن استخدامُ أوراقٍ مصنوعةٍ من نباتاتٍ متعدّدة في إعداد المخطوطة .

**(ب) الاستنتاج**

لا يبدو المخطوطُ أصليًّا بالكامل، ومن المرجّح أنّه نسخةٌ عن نصٍّ أقدم، أُعيد نسخُه أو تجميعُه في مرحلةٍ لاحقة.

**حادي عشر: الجدلُ العلميّ**

أثار نشرُ النصِّ انقسامًا حادًّا بين الباحثين، يمكن تلخيصُه في اتجاهين رئيسيين:

**(أ) الاتجاهُ الأوّل: (النصّ العرفانيّ الأصيل)** ويمثّله: د. رصان سنؤم.

**حججُ هذا الاتجاه**

* بنيةُ (الأختام) تتطابق مع تقاليدَ عرفانيةٍ معروفة.
* اللغةُ الطقسيّة تشير إلى نصٍّ يُستعمل شعائريًّا أكثر ممّا يُقرأ بوصفِه نصًّا أدبيًّا.
* الأناشيدُ الخفيّة تمثّل دليلًا على وجودِ طقسٍ شفهيٍّ موازٍ.

**(ب) الاتجاهُ الثاني: (النصّ الهجين المتأخّر)** ويمثّله: ناصر بن مؤنس البغدادي.

**حججُ هذا الاتجاه**

* وجودُ عناصرَ أسطورية، مثل اسم (إيكار) - بوصفِه اختصارًا لاسم (إيكاريوس) - يحيل إلى القصّة الرمزية المرتبطة بالحريّة، والحلم، والتحليق بلا حدود، ثم السقوط، وهو ابنُ (ديدالوس)، مبتكرِ المتاهةِ الشهيرة .
* التركيبُ اللغويُّ للنصِّ لا يشبهُ إلا نفسَه، بما يجعله عصيًّا على الإلحاقِ بتقليدٍ كتابيٍّ واضح.
* يُحتمل أن يكونَ النصُّ محاكاةً صوفيّةً متأخّرةً لنصوصٍ أقدم، أُعيد تركيبُها ضمن بنيةٍ هجينة.

**(ج) الاتجاهُ الثالث: (نصٌّ طقسيٌّ مجهولُ التقليد)**

وهي فرضيّةٌ وسطيّة، ترى أنّ النصَّ ليس عرفانيًّا خالصًا، ولا نصًّا هجينًا بالمعنى المتداول، إنَّه يعمل، في جوهره، على تقويضِ فكرةِ الهجنةِ نفسِها، لأنَّ الهجنةَ تفترضُ نقاءً سابقًا، وهو ما يرفضه هذا النصّ رفضًا جذريًّا.

ومن هنا، يستدعي النصُّ كتابةَ مقدّمةٍ لا تُعرِّفه بقدر ما تُضلِّل الطريقَ إليه، مقدّمةً تُعامل النصَّ بوصفِه مدخلًا إلى متاهةٍ لا تُقرأُ من بابٍ واحد، تُقرأُ من تردّدِ الأبواب. إنّها كتابةٌ تتحرّك بين الأدبيّ والفكريّ، وتلامسُ فكرةَ النصوصِ الموازية وصراعاتِ التأويل، دون أن تستقرَّ داخلَ أيِّ جهازٍ تفسيريٍّ نهائيّ.

**ثاني عشر: الإشكاليّاتُ المفتوحة**

* هل (الأختام) جزءٌ أصيلٌ من النص، أم إعادةُ بناءٍ حديثة؟
* هل الهوامشُ تفسيرٌ للنص، أم تشويشٌ متعمَّد عليه؟
* لماذا أُخفي المخطوطُ داخلَ صندوقِ عتادٍ من مخلّفاتِ الحروب؟
* هل (الختمُ الأخيرُ الفارغ) عنصرٌ أصليّ، أم نتيجةُ فقدانٍ ماديّ لاحق؟

**ثالث عشر: فرضيّةٌ مثيرةٌ للجدل**

اقترح ناصر بن مؤنس البغدادي الفرضيّةَ الآتية:

(النصُّ ليس مجرّدَ مخطوط، هو أداةٌ طقسيّةٌ تُحدث أثرًا إدراكيًّا، وربّما تكونُ قراءتُه الكاملة، في حدِّ ذاتها، جزءًا من الطقس).

**رابع عشر: خاتمةُ التقرير**

حتى الآن، لا يوجدُ إجماعٌ علميٌّ حول الطبيعةِ الفعليةِ للمخطوط، غيرَ أنّ جميعَ الأطراف تتّفق على أمرٍ واحد:

(هذا النصُّ لا يُعلنُ عن ميلادِ تيّارٍ جديدٍ في الكتابة، فالتيّاراتُ تبدأُ حيث تنتهي الحاجةُ إليها. لكنّنا نُشير، من داخلِ التشظّي ذاتِه، إلى ما يمكنُ أن يُقرأ لاحقًا بوصفِه أثرًا لحركةٍ لم تجتمع، ولم تُجمع على نفسِها اسمًا.

ومع ذلك، سنسمّيها - مؤقّتًا (التيّارَ المتاهِيّ).

ينطلقُ هذا التيّارُ من فرضيّةٍ بسيطةٍ وخطِرة: لا وجودَ لأصل. فكلُّ ما يُسمّى "بداية" ليس إلا أثرًا متأخّرًا لما لم يُكتب قطّ. والنصوصُ ليست انبثاقًا من مركز، هي تراكبُ انزلاقاتٍ تُخفي غيابَ المركز بكثرةِ الإحالاتِ إليه.

**خامس عشر: فرضيّةٌ أخيرة**

ربّما لم يُكتب هذا النصُّ ليُقرأ فحسب، كُتب ليُستعملَ بوصفِه طقسًا يتركُ القارئَ في حالةِ انفتاحٍ غيرِ مكتمل. ومن هنا، فإنَّ وجودَ نصٍّ بهذا الطابع يفتحُ المجالَ لتحويله إلى (كَونٍ نصّيّ) متكامل، لا إلى مجرّدِ مخطوطٍ منفرد.

**سادس عشر: خاتمةُ المحقّق**

النصُّ لا ينتهي، إنَّه يتوقّفُ عند ختمٍ بلا نقش.
وربّما كان هذا الفراغُ هو الجزءُ الوحيدُ الذي لم يُحرَّف.

# في أَثَرِ النَّصِّ الَّذي لا يَبْدَأ
# في المتاهةِ التي تكتبُ قارئَها
(مقدّمةٌ ثانية)

1

هذا الكتابُ لا يقدِّمُ نفسَه، وأيُّ محاولةٍ لتقديمِه هي، سلفًا، انحرافٌ عنه،لأنَّ ما بين يديكَ ليس نصًّا يُقرأ، هو شبكةُ آثارٍ تُؤجِّلُ نفسَها كلَّما اقتربتَ منها. لن تجدَ هنا أصلًا، فكلُّ ما سيظهرُ لك بوصفِه بدايةً ليس إلا أثرَ محوٍ سابق، وكلُّ جملةٍ تقرؤها هي إعادةُ كتابةٍ لغيابٍ لا يُستعاد.

إنَّ ما نسمِّيه (النصَّ) ليس سوى تقاطعٍ لنصوصٍ أُخرى: موازيةٍ، متعارضةٍ، تتجاوزُ دون أن تتطابق، وتتنازعُ دون أن تحسم. فهو ليس كتابًا واحدًا، ولا مجموعةَ كتبٍ، إنه أثرُ تعدُّدٍ لم يكتمل، ومشروعُ كتابةٍ يتشظّى كلَّما ظنَّ أنَّه استقرَّ في نوعٍ أو جنس.

وما بين الشعرِ الذي ينفلتُ من إيقاعِه ليصيرَ فكرًا، والسردِ الذي يفقدُ حكايتَه ليصيرَ أثرًا، والفكرِ الذي يتخلّى عن برهانِه ليصيرَ همسًا، تتشكَّلُ هنا منطقةٌ لا تُسمّى، أو لعلَّ تسميتَها الأولى هي فقدانُ الاسم.

2

هذا العملُ لا يُقيمُ في حدودِ الأدب، يُقيمُ في تُخومِه، حيثُ تتجاوزُ النصوصُ بوصفِها انعكاساتٍ غيرَ متطابقة، نصٌّ يُجاورُ نصًّا آخر كما يُجاورُ الظلُّ جسدَه، دون أن يكونَ امتدادًا له أو تفسيرًا.

لا يُطلَبُ من القارئِ أن يفهم، أو أن يدخلَ في صراعٍ تأويليٍّ لا ينتهي، فكلُّ نصٍّ يقترحُ قراءةً، وكلُّ قراءةٍ تهدمُ النصَّ الذي اقترحَها. وكلُّ تأويلٍ ليس إلا خصمًا خفيًّا لتأويلٍ آخر، يتربَّصُ به في الهوامش، أو يتسلَّلُ إليه من بين سطورٍ كُتبت لتُخفيَ لا لتُظهر.

وليست هذه متاهةً تُبنى من تعقيدٍ شكليٍّ، إنها تُبنى من تعدُّدِ المساراتِ التي لا تلتقي، فالنصوصُ تتوالى، وتتوازى، كما لو أنَّ كلَّ نصٍّ هو محاولةٌ أُخرى لقولِ ما لا يُقال، أو للاقترابِ من مركزٍ لا وجودَ له.

3

القراءةُ لا تبدأُ من صفحة، ولا تنتهي عند خاتمة. إنَّها تدور، وتتعثَّر، وتعود، ثم تكتشف - متأخِّرةً - أنَّها ليست سوى أثرٍ يتركه النصُّ في جسدِها. فهي تُقوِّض شروطَ انتمائها، وتنشأ، في كلِّ مرّة، من فشلِها في أن تكونَ نوعًا.
هنا يعملُ التأويلُ بوصفِه قوّةَ هدمٍ، لا أداةَ كشف، فكلُّ قراءةٍ لا تفتحُ المعنى، تُفكِّكُه، وكلُّ فهمٍ ليس إلا طبقةً إضافيّةً من سوءِ الفهمِ الضروريّ... ليس ذلك لأنَّ النصَّ غامضٌ، لأنَّ المعنى نفسَه لا يُقيمُ فيه.
قد تظنُّ أنَّكَ تقرأ، غيرَ أنَّ القراءةَ هنا ليست فعلًا تتَّجهُ به نحو النص، هو انزلاقٌ يحدثُ بك داخله، فالنصُّ لا ينتظرُ قارئًا، يستدعيه، ثم يُعيدُ توزيعَه كأثرٍ بين آثارِه.

4

في هذا المشروع، لا يوجدُ صوتٌ أوّل، فكلُّ صوتٍ هو صدى لصوتٍ آخر، وكلُّ أصلٍ ليس إلا نسخةً أقدمَ من فقدانِه. والنصوصُ الموازيةُ ليست شروحًا، ولا تعليقاتٍ على متنٍ أصليّ، هي قوى تُزعزِعُ فكرةَ الأصلِ نفسِها.
كلُّ نصٍّ موازٍ هو احتمالٌ آخرُ لما لم يُكتب، وكلُّ هامشٍ هو مركزٌ مؤجَّلٌ ينتظرُ أن يُساء فهمُه. إنَّها نصوصٌ تُنازعُ النصَّ نفسَه حقَّ الوجود، تعارضُه، وتكرِّرُه، وتنحرفُ عنه، حتى يُصبحَ الأصلُ نفسُه موضعَ شكّ.
وإذا كان هذا الكتابُ قد قُدِّم إليكَ بوصفِه (مخطوطًا)، فلا تفهمِ المخطوطَ باعتبارِه أثرًا محفوظًا، لكن، بوصفِه جهازًا أُعيدَ تفعيلُه، جهازًا لا ينقلُ معرفةً بقدرِ ما يُنتجُ حالةً: حالةَ قراءةٍ تُفقدُ القارئَ موقعَه.
وهكذا يتحوَّلُ الكتابُ إلى ساحةٍ خفيّةٍ تتصارعُ فيها الأجناسُ الأدبيّة، لا لكي تنتصرَ فحسب، لكي تُفكِّكَ أيضًا شروطَ انتصارِها. فالشعرُ هنا يرفضُ أن يُغنَّى، والسردُ يرفضُ أن يُحكى، والفكرُ يرفضُ أن يُقنع. وما يتبقّى هو كتابةٌ تُجرِّبُ أن تكونَ كلَّ ذلك، وفي الآنِ نفسِه، ألّا تكونَ أيًّا منه.

5

الدخولُ إلى هذا النصِّ لا يضمنُ الخروجَ منه، ليس لأنَّ النصَّ مغلقٌ، لأنَّه مفتوحٌ على نحوٍ لا يمكنُ احتواؤه. فكلُّ محاولةٍ للقبضِ عليه ستجدُ نفسَها - على نحوٍ لا يُلاحظُ فورًا - وقد صارت جزءًا منه.

وربَّما، في نهايةِ المطاف، لا يكونُ هذا الكتابُ سوى جهازٍ للتشويش: يُشوِّشُ على الحدود، وعلى القارئ، وعلى نفسِه. غيرَ أنَّه، في هذا التشويشِ تحديدًا، ينفتحُ احتمالٌ آخر: أنَّ الكتابةَ لم تعد وسيلةً لقولِ العالم، هي طريقةً للضياعِ فيه، بكلِّ ما يحمله الضياعُ من دقّةٍ خفيّة، ومن معرفةٍ لا تُقال.

في هذا المعنى، لا يُطلبُ منك أن تفهم، ولا أن تُفسِّر، المطلوبُ هو أن تقبلَ بأنَّ القراءةَ شكلٌ من أشكالِ التورُّط: تورُّطٌ يُكافأُ بمعرفة، وبانكشافٍ تدريجيٍّ لأنَّ ما كنتَ تقرؤه لم يكنِ النصَّ، الأثرَ الذي تركَه فيك.

وإذا شعرتَ، في لحظةٍ ما، أنَّكَ اقتربتَ من المعنى، فتوقَّف، لأنَّ هذا الاقترابَ ذاتَه هو العلامةُ الوحيدةُ على أنَّكَ بدأتَ تبتعد.

ليس المطلوبُ، إذًا، أن تعثرَ على الطريق، المطلوب أن تقبلَ بأنَّكَ قد دخلت.

## 6

النصُّ الكاملُ نصٌّ ميّت، لذلك نكتبُ نصوصًا ناقصةً، مفتوحةً، قابلةً لإعادةِ الكتابةِ مع كلِّ قراءة. ليس ذلك لأنَّنا نعجزُ عن الإتمام، لأنَّ الإتمامَ نفسَه وهمٌ سرديّ.

لهذا لا يُمارَسُ التأويلُ هنا بوصفِه بحثًا عن المعنى، بوصفِه صراعًا بين قراءاتٍ لا يمكنُ حسمُها. فكلُّ تأويلٍ هو عنفٌ لطيفٌ يُمارَسُ على النص، وكلُّ قراءةٍ تُقصي قراءاتٍ أُخرى كي تبقى.

غيرَ أنَّ هذا البقاءَ مؤقَّت، لأنَّ بنيةَ النصِّ تُعيدُ فتحَ الصراعِ باستمرار.

## 7

الكتابُ فضاءٌ، لا تسلسل، لذلك لا يُقرأُ من البدايةِ إلى النهاية، يُختَرَق، ويُعادُ دخولُه، ويُترَكُ دونَ إغلاق.

كلُّ قراءةٍ هي مسار، وكلُّ مسارٍ لا يلتقي بغيرِه.

وليست هذه مقدّمةً بالمعنى التقليديّ، لأنَّها لا تُؤسِّس، ولا تدعو، ولا تَعِد. إنَّها مجرَّدُ أثرٍ آخر، ضمن سلسلةِ آثارٍ تُسمّى - مؤقّتًا - (مقدّمة).

# أَسْفَار الْفَجْر

# أَسْفارُ الفَجْرِ

## طُقوسُ الاسْتِيقاظِ على حُدودِ العالَمِ، وبِدايةُ العُبورِ الدّاخِلِيِّ



**(خَتْمُ هذِهِ الأَسْفارِ)**

بِاسْمِ السِّرِّ الَّذي لا يُنْطَقُ،
وبِدَمْعِ المَلَاكِ الَّذي سَقَطَ وَلَمْ يُسْمَعْ،
وبِنَفَسِ الرِّيحِ حينَ تَعْبُرُ بَيْنَ نُقْطَتَيْنِ،
أُكَرِّسُ هذِهِ الأَسْفارَ لِمَنْ عادوا بِلا وُجوهٍ،
ولِمَنْ فَقَدوا مَلامِحَهُمْ في حَجَرِ الحُدودِ.
ولْيُغْلَقِ الخَتْمُ على ما لا يُقالُ.

# 1

# سِفْرُ المَلَاكِ الأَعْمَى

في هذا الصَّباحِ،
اسْتَيْقَظَ المَلَاكُ.
في هذا الصَّباحِ الكَوْنِيِّ،
اسْتَيْقَظَ المَلَاكُ الأَعْمَى.
في هذا الصَّباحِ الكَوْنِيِّ، وقَبْلَ أَنْ يَرْسُمَ الرَّبُّ الضَّوْءَ الَّذي يَقْرَأُ خُطوطَ التَّكْوينِ... سَمِعَ (إيكار) خَفَقًا لا يُشْبِهُ الرِّيحَ، ورأى مَلَاكًا أَعْمَى يَجُسُّ الطَّريقَ بِعَصًا مِنْ ضَوْءٍ، يُفَتِّشُ عَنِ الَّذينَ سَقَطوا بَيْنَ الغامِضِ والمَجْهولِ.
قالَ المَلَاكُ الأَعْمَى:
- أَيُّها الشّاعِرُ الَّذي يَحْلُمُ بِالهُروبِ... الحُدودُ خُدْعَةٌ يُصَدِّقُها اليائسونَ... إِنْ أَرَدْتَ العُبورَ، فاتَّبِعْ سَمْعَكَ، فالصَّوْتُ لا يَقِفُ أَمامَ الحُدودِ.
سَأَلَ إيكار: ولِماذا أَنْتَ أَعْمَى؟
أَجابَ المَلَاكُ الأَعْمَى: لِأَنَّني رَأَيْتُ كَثيرًا مِنَ الَّذينَ ارْتَفَعوا، فَلَمْ يَعودوا... والعَمَى هُوَ النِّعْمَةُ الَّتي تُبْقيني قَريبًا مِنَ الأَرْضِ.
(كانَ هذا هُوَ الدَّرْسُ الأَوَّلُ، ومِنْهُ تَعَلَّمَ إيكار أَنَّ الظُّلْمَةَ مُعَلِّمَةٌ وَلَيْسَتْ خَصْمًا).

في هذا الصَّباحِ،
في هذا الصَّباحِ الَّذي يُشْبِهُ سُلَّمًا مِنْ نُورٍ مَكْسورٍ،
جَلَسَ المَلَاك الأَعْمَى، ونَشَرَ الجَناحَيْنِ أَمامَهُ مِثْلَ مَخْطوطَتَيْنِ مِنْ زَمَنَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ:
في **المَخْطوطَةِ الأُولى**:
صورةُ شاعِرٍ شابٍّ يَحْلُمُ بِاجْتِيازِ الحُدودِ، مُحاطٌ بِحُدودِ خَوْفِهِ.

صورةُ فوتوغرافيٍّ عَجوزٍ مُحاطٍ بِحُدودِ الطَّمَعِ، يَتَدَرَّبُ على نَحْتِ الرِّيحِ بِأَدَواتٍ مِنْ شَكٍّ وخِيانَةٍ.
صورةُ جُنْدِيٍّ جَريحٍ يَدْفَعُ عَرَبَةَ السَّرْدِ، ويَرَى المَوْتَ كَذِكْرَى لا يُمْكِنُ مَحْوُها.
وفي **المَخْطوطَةِ الثَّانِيَةِ:**

(سِفْرٌ شُطِبَتْ كَلِماتُهُ، وظَلَّ أَثَرُهُ، وفيهِ اعْتِرافُ المَلَاك الأَعْمَى،

وهُوَ قَوْلٌ لا يُعادُ،

مِنْ كَلِماتِ السِّفْرِ المَمْحُوِّ):

أَنا، المَلَاكُ الَّذي اعْتَرَفَ مَرَّتَيْنِ وصارَ بَشَرًا.
أَنا، الَّذي لَمْ يَسْقُطْ ولَمْ يَصْعَدْ.
أَنا، الَّذي لَمْ أُطْرَدْ ولَمْ أُدْعَ.
خُلِقْتُ حينَ تَرَدَّدَ الأَمْرُ، وحينَ قالَ الصَّوْتُ:
**(كُنْ)**
ثُمَّ سَكَتَ قَبْلَ أَنْ يُكْمِلَ.
فَوَقَفْتُ في الفَراغِ بَيْنَ الفِعْلِ ونَتيجَتِهِ، وأُعْطِيتُ عَيْنَيْنِ لِكَيْ لا أَرَى، وقَلْبًا لِكَيْ أُحْصِيَ ما لَمْ يُحْسَبْ... أَنا، حارِسُ الجُرْحِ، بِوَصْفِهِ تَرَدُّدًا إِلٰهِيًّا...
أَعْتَرِفُ الآنَ، وَلِمَرَّةٍ واحِدَةٍ، أَنَّ الحُدودَ لَمْ تُخْلَقْ لِحِمايَةِ البِلادِ، خُلِقَتْ لِحِمايَةِ السَّماءِ مِنْ كَثْرَةِ العابِرينَ... كُلُّ مَنْ اقْتَرَبَ مِنْها كانَ يَحْمِلُ زِيادَةً في الإِنْسانِيَّةِ، وكانَ لا بُدَّ مِنْ إِيقافِهِ كَيْ لا يَفيضَ اللهُ عَنْ نَفْسِهِ...
أَعْتَرِفُ أَنَّ كَثيرِينَ لَمْ يَكونوا مُذْنِبينَ، كانوا أَثْقَلَ مِنْ أَنْ يُسْمَحَ لَهُمْ بِالمُرورِ... يَعْرِفونَ أَكْثَرَ مِمَّا يَنْبَغِي، ويُحِبُّونَ أَكْثَرَ مِمَّا تَحْتَمِلُهُ اليَقَظَةُ...
أَنا، مَنْ وَضَعْتُ الارْتِعاشَ في يَدِ الجُنْدِيِّ لِيَقْتُلَ... وحينَ لَمْ يَتَرَدَّدْ، أَغْمَضْتُ عَيْنَيَّ اللَّتَيْنِ لا تُبْصِرانِ، حَتّى لا أَرَى ما صِرْتُ شَريكًا فيه...
أَعْتَرِفُ أَنَّني عَلَّمْتُ الذِّئابَ كَيْفَ تَلْبَسُ الخُوذَةَ، وعَلَّمْتُ العَسْكَرَ كَيْفَ يَعْوونَ، كَيْ لا يَسْمَعوا بُكاءَهُمُ الدّاخِلِيَّ... لَمْ يَكُنْ هذا أَمْرًا مِنَ العُلُوِّ، كانَ تَنازُلًا مِنَ الخَوْفِ...
أَعْتَرِفُ أَنَّني، حينَ رَأَيْتُ **(إيكار)**، لَمْ يُرْسِلْنِي الفاطِرُ، لٰكِنَّني انْجَذَبْتُ إِلَيْهِ كَما يَنْجَذِبُ الخَطَأُ إِلى خَطَإٍ أَجْمَلَ... كانَ خَفيفًا على نَحْوٍ مُريبٍ، يَحْمِلُ المَوْتَ كَما يَحْمِلُ العاشِقُ هَدِيَّتَهُ الأَخيرَةَ دُونَ أَنْ يَفْتَحَها.

سَأَلْتُهُ عَمَّا لا يُسْأَلُ:
كَمْ مَوْتًا تَسْتَطيعُ أَنْ تَحْمِلَ؟
ولَمَّا لَمْ يُجِبْ، عَرَفْتُ أَنَّ الجَوابَ كانَ قَدْ سَبَقَ السُّؤالَ.
أَعْتَرِفُ أَنَّني انْتَزَعْتُ مِنْهُ شَيْئًا لَيْسَ رُوحًا ولا ذاكِرَةً، انْتَزَعْتُ الحَقَّ في البَراءَةِ الكامِلَةِ ...
فَمَنْ يَعْبُرْ لا يَعودُ طِفْلًا، ولا قِدِّيسًا، ولا شَهيدًا صافِيًا... يَعودُ شاهِدًا، وهذا أَثْقَلُ...
أَعْتَرِفُ أَنَّني لا أَحْرُسُ العُبورَ، أَنا أُحْصِي الَّذينَ سَيَصيرونَ عَلَامَةً على غِيابِ اليَقينِ ومَوْتِ المَعْنى ...
وحينَ تَنْتَهي هذِهِ الاعْتِرافاتُ، سَأَصْمُتُ إلى الأَبَدِ... لِأَنَّ المَلَاكَ الَّذي يَعْتَرِفُ مَرَّتَيْنِ يَصيرُ بَشَرًا... وأَنا لا أُحْتَمَلُ إِنْ صِرْتُ مِثْلَكُمْ.

## 2

# سِفْرُ الفوتوغرافيِّ العَجوزِ

فِي هذا الصَّباحِ الكَوْنِيِّ،
اسْتَيْقَظَ الفوتوغرافِيُّ العَجوزُ.
فِي هذا الصَّباحِ الكَوْنِيِّ، وقَبْلَ أَنْ يُرْسِلَ الرَّبُّ مَلَاكه، اسْتَيْقَظَ الفوتوغرافِيُّ العَجوزُ الَّذي عاشَ كَظِلٍّ فِي لَوْحَةِ الرَّسّامِ.
اسْتَيْقَظَ لِيَغْسِلَ التّاريخَ: يَغْسِلُهُ مِنَ الطِّينِ، مِنَ المَطَرِ الأَسْوَدِ، مِنَ النِّسْيانِ الطَّويلِ، مِنَ الصَّمْتِ والغُبارِ، مِنَ المَدائِحِ والصَّلَواتِ، مِنَ الهَمْسِ والنُّورِ، مِنَ الأَرْواحِ والكَوابِيسِ، مِنَ المَشِيئَةِ وأَزِقَّةِ الإِيمانِ الضَّيِّقَةِ، مِنَ الهَذَيانِ وأَعْراسِهِ، ومِنْ كُلِّ المَمَرّاتِ الفَسِيحَةِ لِلشَّكِّ، ومِنَ الكَلِماتِ ... الكَلِماتِ السّاحِرَةِ الَّتي تُنْقِذُ وتَشْفِي.

**مِنْ عَرَبَةٍ عَتيقَةٍ،**
**يَدْفَعُها مَلَاكٌ،**
**أَلْتَقِطُ هٰذِهِ الصُّوَرَ.**

هُوَ يُكَلِّمُ نَفْسَهُ الآنَ:
- سَيَمُوتُ الإِيمَانُ، يَقولُ الصَّوْتُ الَّذي تَكَلَّمَ مِنْ وَراءِ الكامِيرا.
- سَيَمُوتُ الغَيْبُ، تَقولُ النُّبوءَاتُ.
- هٰذا العالَمُ الَّذي خَرَجَ عَنْ طَوْرِهِ، هَلْ تُنْقِذُهُ الصُّوَرُ الفوتوغرافيَّةُ؟
يَعودُ لِيَغْسِلَ حُجُراتِ الحَياةِ مِنْ أَكاذيبِ العَيْشِ الدّافِئَةِ والمُريحَةِ،
يَغْسِلُ الإِلٰهَ الَّذي أَبْصَرْناهُ بِالهَذَيانِ والأَحْلامِ،
يَغْسِلُ كامِيرَتَهُ مِنْ رَمادِ المَوْتَى،
يَغْسِلُ الذِّكْرى وشَذَراتِها النّادِرَةَ.

(يَتَنَفَّسُ بِعُمْقٍ، ويَهْمِسُ لِنَفْسِهِ: "فَلْتَكُنْ مَشِيئَتُكَ").
يَغْسِلُ جَسَدَهُ بِرُوحِ الشَّلّالِ وبِدِفْءِ النَّهْرِ،
يُضيءُ الشُّموعَ،
يَتْرُكُ رِداءَهُ الأَحْمَرَ يَسْقُطُ،
ويَخْرُجُ مِنَ اللَّوْحَةِ عارِيًا.
**(سَأَسْعَى لِإعْطائِهِ مَلابِسِي).**

يَخْرُجُ كَمَنْ يُسافِرُ في رِحْلَةٍ غَيْرِ مَأْهُولَةٍ، يَخْرُجُ لِيَدْخُلَ في مَنْظورِ الحَقْلِ الَّذي سَيَرْسُمُ مَصيرَهُ بِالكامِلِ. يَتَذَكَّرُ حِكْمَةً مِنْ قَبْلِ الطُّوفانِ، وفي راحَةِ يَدِهِ الفِكْرَةُ الَّتي غابَتْ عَنْ عَصْرِ ما قَبْلَ التّاريخِ.

يَخْرُجُ خُروجًا لا يُفْضِي إلى لَيْلٍ أَوْ زَمانٍ. هٰذا الزَّمانُ هُوَ زَمانُنا، زَمانٌ بَيْنَ الأَزْمِنَةِ. إِنَّهُ لَيْلُ الرُّموزِ. قَفْزَةٌ، فَيَسْقُطُ في الغَيْبِ. يَعودُ كَالآلِهَةِ: مِنْ دُونِ عُيوبٍ أَوْ أَهْواءٍ، مِنْ دُونِ غَيْظٍ أَوْ كَدْحٍ.

يَخْرُجُ كَتائِهٍ كَوْنِيٍّ لا يُريدُ أَنْ يَبْلُغَ ضالَّتَهُ، لِيَعودَ إلى مَنْظَرِ سَماءٍ تَعْبُرُها نُجومٌ تَمْرُقُ مُسْرِعَةً. يَسْمَعُ صَوْتَ الإِلٰهِ مِنْ خِلالِ الرِّيحِ والمَطَرِ، ويَعودُ إلى المَكانِ الأَوَّلِ.

يَسْمَعُ الماضيَ الواقِفَ خَلْفَهُ، وهو يَتَحَدَّثُ بِصَوْتٍ أَجَشَّ:
- سَأَحْتَفِظُ بِهٰذا المَوْتِ كَمَيِّتٍ، ولا أَخونُهُ.
صَمْتٌ.
(يَلْتَقِطُ صورَةً لِلْعَرَبَةِ الَّتي يَدْفَعُها المَلَاكُ)

لَمْ يَظْهَرْ في الصُّورَةِ إِلَّا نِصْفُ العَرَبَةِ. أَيْنَ اخْتَفَى المَلَاكُ؟ إِلَى اليَمينِ أَمْ إِلَى اليَسارِ؟ تَحْتَ العَرَبَةِ أَمْ فَوْقَها؟

تَمْتَلِئُ الصُّورَةُ بِالسَّوادِ أَكْثَرَ فَأَكْثَرَ، ويَظْهَرُ المَوْتُ رُوَيْدًا رُوَيْدًا، المَوْتُ الَّذي يَبْلُغُ أَقْصَى لَمَعانِهِ.

نُجومٌ حَمْراءُ،
نُجومٌ لامِعَةٌ لا تَفْتَأُ تَتَكاثَرُ.
- صَوِّرْ، أَيُّها الفوتوغرافِيُّ، نَجْمًا أَحْمَرَ يَغْرَقُ في الظُّلْمَةِ المُطْلَقَةِ.
- هٰذِهِ نُقْطَةُ الحُدودِ المُضيئَةِ، وَلَيْسَتْ نَجْمًا.

وأَضْحَكُ، فَفي كُلِّ لَحْظَةٍ تَخْبُو في ظُلْمَةِ رُوحي مِئاتُ النُّجومِ. تَخْبُو الصَّرَخاتُ، ويَخْبُو الرَّصاصُ، تَخْبُو الذِّكْرى، ويَخْبُو الكَلامُ، تَخْبُو الآلِهَةُ، ويَخْبُو الكَوْنُ بِأَكْمَلِهِ، الكَوْنُ المَحْمُولُ بِسَيّارَةِ إِسْعافٍ.

نُجومٌ زَرْقاءُ،
(اللَّوْنُ يَفْقِدُ تَرَدُّداتِهِ)،
تَخْتَفِي في اللُّغَةِ
(لا يُمْكِنُ أَنْ تُلاحِظَها عُيونُنا)،
يَنْتَقِلُ بَثُّها الضَّوْئِيُّ
نَحْوَ جَسَدٍ مَطْعونٍ يَرْكُضُ في الحُقولِ.
- أَيُّها الفوتوغرافِيُّ، هَلْ رَأَيْتَ الضَّوْءَ الَّذي تَغَيَّرَ لَوْنُهُ حينَ عَدَوْتُ بِجِوارِهِ؟
- الضَّوْءُ مَوْجَةٌ تَتَكَسَّرُ، وأَنْتَ لا تَعْرِفُ ما الَّذي تَغَيَّرَ بِالضَّبْطِ،
لا تَعْرِفُ ما الَّذي انْتَقَلَ في الفَراغِ،
لا تَعْرِفُ مَعْنَى الضَّوْءِ المُنْبَعِثِ مِنَ الخُسْرانِ،
لا تَعْرِفُ كَيْفَ يَتَمَوَّجُ العَدَمُ.

**مِنْ عَرَبَةٍ عَتيقَةٍ،**
**يَدْفَعُها مَلَاكٌ،**
**أَلْتَقِطُ هٰذِهِ الصُّوَرَ.**

لَسْتُ إِلَّا فوتوغرافِيًّا يَجْتَرُّ الوَهْمَ والخَيالَ، ويُريدُ أَنْ يُرَوِّضَ الذِّكْرى، يُريدُ أَنْ يُوَقِّفَ هٰذِهِ الحَياةَ المُتَحَرِّكَةَ لِيَطْبَعَ صُوَرَهُ في حُجْرَةِ المَلَاكِ، وهِيَ . بِلا رَيْبٍ . حُجْرَةٌ مُظْلِمَةٌ.
أَنا لَسْتُ إِلَّا صورَةً مَطْبوعَةً على كَفَنٍ تُريدُ أَنْ تَكْشِفَ لُغْزًا، اللُّغْزَ الَّذي جَعَلَ الكامِيرا تُتابِعُ الحَدَثَ ولا تَقودُهُ.
وأَقِفُ عِنْدَ العَتَباتِ لِأَسْأَلَ:
- كَيْفَ أَلْتَقِطُ صورَةً لِلْعَقْلِ والقَلْبِ والرُّوحِ المَكْشوفَةِ بِكُلِّ عُرْيِها؟
كَيْفَ أَلْتَقِطُ صورَةً لِتِلْكَ الوَمْضَةِ في العَيْنَيْنِ، لِهٰذا المَوْتِ الَّذي لا يُريدُ أَنْ يَموتَ، لِهٰذِهِ القَهْقَهاتِ الَّتي انْطَلَقَتْ بِلا رَحْمَةٍ؟
كَيْفَ أَلْتَقِطُ صورَةً لِبَقايا صُوَري المُمَزَّقَةِ والبالِيَةِ؟ وأُخْرَى لِلْخَوْفِ الَّذي تَدَلَّى مِنْ مَلامِحي؟
كَيْفَ أَلْتَقِطُ صورَةً لِباطِني، وأُخْرَى لِظِلِّي المُتَواري في الظِّلِّ؟
(ظِلِّي الَّذي جاءَ لِيوقِظَني مِنَ المَنامِ).

# 3
# سِفْرُ الجُنْدِيِّ الجَريحِ

في هذا الصَّباحِ،
اسْتَيْقَظَ الجُنْدِيُّ.
في هذا الصَّباحِ الكَوْنِيِّ،
اسْتَيْقَظَ الجُنْدِيُّ الجَريحُ.
في هذا الصَّباحِ الكَوْنِيِّ المُتَجَمِّدِ، وقَبْلَ أَنْ يَكْتُبَ النَّهارُ مَرْثِيَّتَهُ الأُولى، في هذا الصَّباحِ الَّذي يَتَضاءَلُ مَعْناهُ ويَبْتَعِدُ، ويَزْدادُ ظُلْمَةً، اسْتَيْقَظَ (الجُنْدِيُّ الجَريحُ) في المَرْصَدِ الحُدودِيِّ، وهو يَشْعُرُ أَنَّهُ الآنَ يَسْتَطيعُ رَفْعَ رَأْسِهِ.
(نامَ القَنّاصُ الَّذي كانَ يُهَدِّدُهُ طَوالَ اللَّيْلِ).
لٰكِنَّهُ بَقِيَ في مَكانِهِ، كَما يَبْقَى الرَّجُلُ بَعْدَ انْتِهاءِ الصَّلاةِ.
انْسابَتْ دَمْعَةُ مِلْحٍ على خَدِّهِ الخَزَفِيِّ، وسَقَطَتْ أُخْرَى بَطيئَةٌ على عَدَسَةِ (النّاظورِ المُقَرِّبِ). انْحَنَى في نَدَمٍ لا يَنْتَهي، وبَدَأَ المُراقَبَةَ:
قَرَأَ في صَفْحَةِ (الأَرْضِ الحَرامِ) قِصَّةَ إيكار. قَرَأَ سيرَةَ أَجْنِحَةٍ لَمْ تَكْتَمِلْ. كانَ يَعْرِفُ أَنَّ الشَّمْعَ وَصِيَّةٌ ثَقيلَةٌ جاءَتْهُ مِنْ زَمَنٍ يَرَى فيه الحُلْمُ البَقاءَ خَلاصًا، ويَبْحَثُ فيه الفَجْرُ عَنْ شَكْلٍ آخَرَ لِلنَّجاةِ.
قالَتِ الأَرْضُ الحَرامُ:
- كُلُّ جَناحٍ ميراثٌ، لٰكِنَّ الرِّيحَ اخْتِيارٌ.
أَحَسَّ كَأَنَّهُ بَيْنَ عَهْدَيْنِ، يُريدُ أَنْ يَصْقُلَ ما وَرِثَهُ، لا أَنْ يُعيدَ أَخْطاءَهُ، يُريدُ أَنْ يَخْتَبِرَ ما يَطْلُبُهُ قَلْبُهُ مِنْ دُونِ أَنْ يَتَنَصَّلَ مِمَّا صَنَعَهُ الآخَرونَ مِنْ أَجْلِهِ.

نَظَرَ مِنْ جَديدٍ في عَدَسَةِ (النّاظورِ المُقَرَّبِ). لَمْ يَرَ أَرْبابَ السَّماءِ يُحَشِّدونَ الكَواكِبَ في دائِرَةِ الأَكْوانِ، لَمْ يَرَ المَلَاكَ الأَعْمَى يَجْمَعُ أَسْلابَ الشُّهَداءِ، لَمْ يَرَ جَوْقَةَ الأَرْواحِ التّائِهَةِ، ولا كَهَنَةَ الأَقْنِعَةِ.
رَأَى إِلٰهَ النَّهارِ يَسوقُ خُيولَهُ نَحْوَ المَغيبِ، ورَأَى رَبَّةَ الظَّلامِ ذاتَ الرِّداءِ الأَسْوَدِ، ورَأَى طُيورَ المَوْتِ تُصاحِبُ الرَّبَّةَ.
قَرَأَ لُغَةً تُلامِسُ الغِيابَ، جُمَلًا تُلْغِي نَفْسَها، اعْتِرافًا بِلا ذاتٍ مُكْتَمِلَةٍ، وعُبورًا لا يَعِدُ بِالخَلاصِ.

وفي دَفْتَرٍ عَتيقٍ مُلَوَّثٍ بِالدَّمِ والغُبارِ، كَتَبَ بَعْضَ الشَّذَراتِ خَشْيَةَ أَنْ يَنْساها:-

1- لَمْ أُخْلَقْ لِلْحَرْبِ، لٰكِنَّ الحَرْبَ اسْتَيْقَظَتْ فِيَّ كَما يَسْتَيْقِظُ ذَنْبٌ قَديمٌ في جَسَدٍ لَمْ يَعْتَرِفْ بَعْدُ.
2- البُنْدُقِيَّةُ لَيْسَتِ امْتِدادَ ذِراعي، إِنَّها امْتِدادُ خَوْفي. كُلُّ طَلْقَةٍ صَلاةٌ فاسِدَةٌ لَمْ تَصِلْ إلى الآلِهَةِ.
3- قالوا: العَدُوُّ هُناكَ. وأَشَرْتُ إلى صَدْري. فَصَمَتوا، لِأَنَّ الخَرائِطَ لا تَعْتَرِفُ بِالأَحْشاءِ.
4- في اللَّيْلِ، حينَ يَنْتَحِبُ الجُنودُ، أَسْمَعُ اسْمي يُتْلى كَخَطيئَةٍ في دَيْرٍ مَهْجورٍ.
5- أَنا جُنْدِيٌّ، لٰكِنَّني لَمْ أُقْسِمْ على القَتْلِ، أَقْسَمْتُ فَقَطْ أَنْ أَبْقَى حَيًّا بِما يَكْفي لِأَنْدَمَ.
6- الحَرْبُ لاهوتٌ بِلا خَلاصٍ، طَقْسٌ يُعيدُ الدَّمَ إلى الدَّمِ ويُسَمِّيهِ شَرَفًا. أَمّا أَنا، فَأَبْحَثُ عَنْ هَرْطَقَةٍ تُنْقِذُ الرُّوحَ.
7- العَدُوُّ، (ذٰلِكَ الَّذي يُقالُ إِنَّ اسْمَهُ المَوْتُ)، رُبَّما يَحْمِلُ لي شَكْلًا آخَرَ لِلْحَياةِ، أَقَلَّ صَخَبًا، وأَكْثَرَ صِدْقًا.
8- الهُروبُ لَيْسَ خِيانَةً، الهُروبُ اعْتِرافٌ. أَنْ تَعْبُرَ النّارَ لِتَصِلَ إلى إِنْسانٍ لَمْ يُجْبِرْكَ على الكَراهِيَةِ.
9- يا إِلٰهَ الصَّمْتِ، إِنْ كُنْتَ تَسْمَعُ، فَخُذْ سِلاحي واتْرُكْ لي ارْتِجافَةَ الصَّوْتِ، فَهِيَ آخِرُ ما لَمْ تُفْسِدْهُ الحَرْبُ.
10- أَنا لا أَعْبُرُ إلى العَدُوِّ، أَنا أَعْبُرُ خارِجَ الحَرْبِ. هُناكَ، حَيْثُ لا تُقاسُ الحَياةُ بِعَدَدِ الجُثَثِ، وحَيْثُ النَّدَمُ يُصْبِحُ بِدايَةً لا نِهايَةً.
11- الحَرْبُ لا تَبْدَأُ... كانَتْ هُنا قَبْلَ الاسْمِ، قَبْلَ الجُنودِ.
12- أَنا لَسْتُ مَنْ يَحْمِلُ السِّلاحَ. السِّلاحُ هُوَ ما تَبَقّى حينَ غابَ الشَّخْصُ.

13- الأَمْرُ العَسْكَرِيُّ جُمْلَةٌ ناقِصَةٌ، تَطْلُبُ فِعْلًا ولا تَعْتَرِفُ بِالفاعِلِ.
14- العَدُوُّ لَيْسَ جِهَةً. العَدُوُّ هُوَ الاسْتِمْرارُ.
15- كُلُّ خُطْوَةٍ فِي الصَّفِّ إِلْغاءٌ لِخُطْوَةٍ أُخْرَى لَمْ أَعُدْ أَتَذَكَّرُها، لٰكِنَّها كانَتْ لِي.
16-الصَّوْتُ الَّذي في داخِلي لا يَقولُ: لا تَقْتُلْ، ولا يَقولُ: اقْتُلْ. إِنَّهُ فَقَطْ يَتَوَقَّفُ.
17- التَّوَقُّفُ لَيْسَ سَلامًا، إِنَّهُ فَجْوَةٌ يَسْقُطُ فيها المَعْنى.
18- قالوا: الإِيمانُ بِالوَطَنِ. ولَمْ يَقولوا بِأَيِّ جَسَدٍ يُدْفَعُ الثَّمَنُ.
19- الصَّلاةُ هُنا بِلا سَماءٍ. طَقْسٌ يُكَرَّرُ لِأَنَّ أَحَدًا نَسِيَ كَيْفَ يَنْتَهي.
20- أَنا لا أَعْتَرِفُ بِشَيْءٍ. الاعْتِراف يَحْدُثُ حينَ تَتَخَلّى اللُّغَةُ عَنْ صاحِبِها.
21- النَّدَمُ لَيْسَ شُعورًا، هُوَ بَقاءُ الجُرْحِ مَفْتوحًا كَيْ لا يَكْتَمِلَ الحَدَثُ.
22- الهُروبُ كَلِمَةٌ زائِدَةٌ. ما يَحْدُثُ هُوَ انْزِلاقٌ خارِجَ الجُمْلَةِ.
23- العَدُوُّ، إِنْ وُجِدَ، رُبَّما يَكونُ هٰذا الصَّمْتَ الَّذي يَسْمَحُ لي أَلّا أَكونَ جُنْدِيًّا.
24- أَنا لا أَعْبُرُ إِلى جِهَةٍ. العُبورُ هُوَ أَنْ أُمحَى مِنَ القابِلِيَّةِ لِلْحَرْبِ.
25- فِي النِّهايَةِ لا نَجاةَ، تَوَقُّفٌ أَطْوَلُ، حَيْثُ لا يَعودُ المَوْتُ بِحاجَةٍ إِلى اسْمٍ.

# 4

# سِفْرُ انْفِتاحِ الدَّوائِرِ

كانَ الفَجْرُ يُنْضِجُ حَوافَّ السَّماءِ حينَ خَرَجَ الفوتوغرافيُّ العَجوزُ مِنْ آخِرِ المَمَرّاتِ. وكانَ المَلَاكُ الأَعْمَى يُسْنِدُهُ بِعَصًا مِنْ نُورٍ لا يَرَى مَلامِحَ صاحِبِها. وكانَ الجُنْدِيُّ الجَريحُ يَتَقَدَّمُهُما، كَظِلٍّ يَعْرِفُ طَريقَهُ حَتّى لَوْ فَقَدَ العالَمُ مَعالِمَهُ.
لٰكِنْ، شَيْئًا فَشَيْئًا، صارَ الثَّلاثَةُ يُبْطِئونَ، وتَتَماهَى خُطُواتُهُمْ، حَتّى بَدَأَتِ الأَجْسادُ الثَّلاثَةُ تَخْتَلِطُ كالضَّبابِ المُتَشابِكِ.

رَفَعَ الفوتوغرافيُّ الكامِيرا، فَالْتَقَطَ صورَةً لِلْجُنْدِيِّ.
ظَهَرَتِ الصُّورَةُ... فَظَهَرَتْ مَلامِحُ الفوتوغرافيِّ نَفْسِهِ في مَكانِ الجُنْدِيِّ.
ضَحِكَ المَلَاكُ الأَعْمَى، وقالَ:
- ما رَأَيْتَهُ الآنَ هُوَ ما كُنْتَهُ مُنْذُ البِدايَةِ.
الْتَفَتَ الجُنْدِيُّ إلى المَلَاكِ، فَرَأَى أَنَّ وَجْهَهُ يَتَبَدَّلُ... يَتَقَلَّبُ... يَنْقَلِبُ إلى وَجْهِ الجُنْدِيِّ نَفْسِهِ، لٰكِنْ بِلا عُيونٍ.
قالَ الجُنْدِيُّ، الَّذي صارَ صَوْتُهُ أَكْثَرَ عُمْقًا:
- إِنَّني أَذْكُرُ هذا. لَقَدْ كُنْتُ هُنا. كُنْتُ الثَّلاثَةَ. كُنْتُ الخَطَأَ الَّذي بَدَأَ الدّائِرَةَ... وها أَنا الخَطَأُ الَّذي سَيَخْتِمُها.

عِنْدَ تِلْكَ اللَّحْظَةِ، ظَهَرَ اسْمٌ على الهَواءِ، مَكْتوبًا بِظِلٍّ لا يُرى إِلّا إذا رَمَشَتِ العُيونُ:

**(إيكار)**

قالَ المَلاكُ الأَعْمَى:

- ها قَدْ تَذَكَّرْتَ، أَيُّها العابِرُ. أَنْتَ كُنْتَ الفوتوغرافيَّ حينَ رَأَيْتَ العالَمَ، والجُنْدِيَّ حينَ حَمَلْتَ ذَنْبَكَ، والمَلَاكَ حينَ حاوَلْتَ أَنْ تَغْفِرَ لِنَفْسِكَ... وكُلُّهُمْ أَنْتَ، وكُلُّهُمْ مَفْقودونَ ما لَمْ تَعُدْ إلى البِدايَةِ.

وانْدَمَجَ الثَّلاثَةُ في جَسَدٍ واحِدٍ، جَسَدٍ خَفيفٍ يَتَوَهَّجُ بِرَمادِ أَجْنِحَةٍ أُحْرِقَتْ ذاتَ يَوْمٍ، وسَقَطَ في صَمْتٍ طَويلٍ قَبْلَ أَنْ يَتَكَلَّمَ:
- أَنا إيكار، أَنا العابِرُ بَيْنَ الظِّلالِ الواهِنَةِ العابِرَةِ، وهٰذِهِ رايَتي المَرْفوعَةُ فَوْقَ جَزائِرِ الخَيالِ.

# 5

# سِفْرُ كَشْفِ المَخْطوطِ

ما إِنْ نَطَقَ اسْمَهُ، حَتّى انْشَقَّ الفَجْرُ نَفْسُهُ، وكَأَنَّ السَّماءَ تُسَجِّلُ خَطَأً في المَخْطوطَةِ الكُبْرَى، وصارَ الطَّريقُ الَّذي يَسْلُكُهُ يَتَكَرَّرُ أَمامَهُ: كُلُّ خُطْوَةٍ هِيَ تَكْرارٌ لِخُطْوَةٍ مَشَتْ قَبْلَ أَلْفِ صَفْحَةٍ.

وعَرَفَ إيكار أَنَّ زَمَنَ السَّرْدِ هُنا مُجَرَّدُ حَقْلِ مَرايا. كانَ يَمْشي إلى الأَمامِ، لٰكِنَّهُ يَسْمَعُ وَقْعَ خُطُواتِهِ خَلْفَهُ. وكانَ يَرَى في الضَّبابِ مُسْتَقْبَلَهُ، لٰكِنَّ شَكْلَهُ في ذٰلِكَ المُسْتَقْبَلِ هُوَ نَفْسُهُ ماضيهِ.

وبَيْنَ المَمَرّاتِ، صارَتْ تُسْمَعُ أَصْواتٌ تُرَدِّدُ:

- العائِدُ هُوَ الذّاهِبُ... والذّاهِبُ سَيَعودُ... لِأَنَّ النِّهايَةَ لا تُكْتَبُ إِلّا على وَجْهِ البِدايَةِ.

وأَدْرَكَ إيكار أَنَّهُ لا يَعودُ إلى العالَمِ الَّذي خَرَجَ مِنْهُ... هُوَ يَعودُ إلى نُسْخَتِهِ الأُولى، إلى اليَوْمِ الَّذي الْتَقَطَ فيه أَوَّلَ صورَةٍ عِنْدَ الحُدودِ، إلى اليَوْمِ الَّذي لَمْ يَفْهَمْ فيه أَنَّ الحَدَّ مِرْآةٌ وَلَيْسَ مَكانًا.

عِنْدَ النُّقْطَةِ الَّتي تَتَقاطَعُ فيها الأَزْمِنَةُ، ظَهَرَ كُرْسِيٌّ مِنْ غُبارٍ فِضِّيٍّ، وُضِعَ عَلَيْهِ كِتابٌ عَظيمٌ، تُحَرِّكُ صَفَحاتِهِ ريحٌ آتِيَةٌ مِنْ عالَمٍ لا بابَ لَهُ.

اقْتَرَبَ إيكار، فَرَأَى على غِلافِهِ:

**إيكار - لِيتُورْجِيا شِعْرِيَّةٌ لِلْعابِرينَ بَيْنَ الظِّلالِ**
**(مَخْطوطُ النُّورِ المُسْتَتِرِ)**

# 6

# سِفْرُ النُّبوءَاتِ (الصَّفحاتُ المَنْسِيَّةُ)

## نُبوءَةٌ

١

فِي اليَوْمِ الَّذي يَفْتَحُ فيه القارِئُ الكِتابَ،
سَتَعودُ الحُدودُ لِوَجْهِها الأَوَّلِ،
ويُعادُ خَلْقُ اللَّيْلِ مِنْ ظِلِّ عُطسَه مَلَاك،
ويَعودُ (إيكار) فِي جَسَدٍ واحِدٍ أَوْ أَلْفٍ،
لِأَنَّ النِّهايَةَ لَيْسَتْ آخِرَ الطَّريقِ،
إِنَّها البابُ الَّذي يَدْخُلُ مِنْهُ النَّصُّ إلى نَفْسِهِ.

## نُبوءَةٌ

٢

الَّذي يَقْرَأُ هذِهِ السُّطورَ
سَيَجِدُ نَفْسَهُ فِي صورَةٍ الْتَقَطَها الفوتوغرافِيُّ العَجوزُ،
أَوْ فِي خُطْوَةٍ نَسِيَها الجُنْدِيُّ الجَريحُ،
أَوْ فِي صَمْتٍ دَلَّ عَلَيْهِ المَلَاكُ الأَعْمَى.
لِأَنَّهُ ما مِنْ قارِئٍ إِلّا وهُوَ شَظِيَّةٌ مِنْ (إيكار)، وما مِنْ نَصٍّ إِلّا ويَبْحَثُ عَنْ وَجْهِهِ الضّائعِ فِي قارِئِهِ.

## نُبوءَةٌ

٣

فَإِذا أَغْلَقَ القارِئُ الكِتابَ،
انْغَلَقَتِ الدّائِرَةُ،
وعادَ كُلُّ شَيْءٍ إلى ما قَبْلَ البِدايَةِ.

# 7

# سِفْرُ الافْتِتاحِ اللِّيتُورْجِيِّ لِلْحَمَةِ العابِرِ الأخيرِ

فِي هذا الصَّباحِ، أَيْقَظَ هُطولُ مَطَرٍ بَعيدٍ رائِحَةَ جَدْوَلٍ صَغيرٍ.
فِي هذا الصَّباحِ الَّذي يَذوبُ فِي بَريقِ الفَضاءاتِ اللّامُتَناهِيَةِ، فِي هذا الصَّباحِ الَّذي يُدَنْدِنُ فِي المِياهِ الصّافِيَةِ، وتَتَراقَصُ مِنْ حَوْلِهِ اليَرَاعاتُ كَأَفْكارِ الجَنَّةِ،
حَرَّكَتِ الرِّياحُ البارِدَةُ أَوْراقَ الشَّجَرِ، فَاسْتَيْقَظَ النّاسِخُ المَجْهولُ، واسْتَيْقَظَتْ جَوْقَةُ الأَرْواحِ التّائِهَةِ، واسْتَيْقَظَتِ الظِّلالُ، واسْتَيْقَظَتِ الأَخْتامُ، واسْتَيْقَظَتِ المَزاميرُ والتَّسابيحُ والأَناشيدُ والتَّرانيمُ الَّتي تَلَعْثَمَ لَحْنُها، لِتَقولَ:

يا رَبَّ الحِكْمَةِ المُتَوارِيَةِ، يا نارَ المَعْرِفَةِ فِي كَهْفِ القَلْبِ،
هَبْ لَنا أَنْ نَفْتَحَ هذا المَخْطوطَ كَما تُفْتَحُ الأَبْوابُ على السِّرِّ.

وأَنْتِ يا حِكْمَةَ الرَّبِّ، أَضيئي عَلَيْنا.
بِالنَّفَسِ الغُنوصِيِّ الَّذي يَنْسابُ مِثْلَ بَخورٍ على رَقٍّ مَسْنونٍ، بِحُسْنِ الخَطِّ المَشْرِقِيِّ الخارِجِ مِنْ خَفيفِ الثُّلُثِ، وبِالخُطوطِ المَغْرِبِيَّةِ، وبِالتَّواقيعِ على الرِّقاعِ، وبِالحَرْفِ المُلوَّنِ فِي نِهايَةِ الصَّفْحَةِ، وبِرَسْمِ العَلامَةِ والطُّغْراءِ، وبِالقَلَمِ المُدَبَّبِ الصَّغيرِ، وبِالحِبْرِ الجَليلِ.
نَعَمْ، بِالحِبْرِ الجَليلِ وَحْدَهُ.
يا بَرْقَ الرَّبِّ، امْنَحْنا تُحْفَةً غَيْرَ مَسْبوقَةٍ، امْنَحِ الأَقْلامَ نَوافيرَ تَعْلوها أُسودٌ، امْنَحِ الأَحْبارَ أَفاعِيَ تُرْسِلُ المَعْنى ثَرًّا، وكَما تَبْدَأُ كُتُبُ الطُّقوسِ بِبازٍ وأُفْعوانٍ، فَلْيَبْدَأْ كِتابُنا هذا بِ : مَلَاكٍ أَعْمَى وجَوْقَةِ أَرْواحٍ تائِهَةٍ:

**المَلَاكُ الأَعْمَى:**

يا أَهْلَ الظِّلِّ، يا حُرّاسَ اللَّيْلِ المُنْدَسِّ في سِفْرِ النُّبوءَاتِ السَّوْداءِ، اقْرَعُوا الخَشَبَ المَبْلولَ، أَخْرِجُوا مِنْ نَبْضِكُمْ شَرارَةً، فَهٰذِهِ ساعَةُ بَدْءِ الكِتابِ.

**جَوْقَةُ الأَرْواحِ التّائِهَةِ:**

أَيُّها العابِرُ الَّذي انْشَقَّ إلى أَرْبَعَةٍ:
الشّاعِرُ الهارِبُ،
الفوتوغرافِيُّ العَجوزُ،
الجُنْدِيُّ الجَريحُ،
والمَلَاكُ الأَعْمَى...
نَدْعوكَ بِجَميعِ وُجوهِكَ: تَقَدَّمْ.
خُذْ مَكانَكَ في هٰذِهِ اللَّيْلَةِ،
فَإِنَّ الكِتابَ لا يَبْدَأُ
إِلّا بِطَيْفِكَ وهُوَ يَعْبُرُ الفَجْوَةَ الأُولى.

قولوا: مَنْ كانَ وَجْهًا واحِدًا فَلْيَصِرْ أَرْبَعَةً، ومَنْ كانَ أَرْبَعَةً فَلْيَعُدْ واحِدًا.

**المَلَاكُ الأَعْمَى:**

ارْفَعُوا الأَيْدِيَ الَّتي مَسَّهَا الغُبارُ، وقولوا مَعي:

- لِيُفْتَحِ الكِتابُ، لِيَنْهَضِ العابِرُ، ولْتَدُرِ الدّائِرَةُ مِنْ جَديدٍ.

**جَوْقَةُ الأَرْواحِ التّائِهَةِ:**

يا لَوْحًا خَفِيًّا مُعَلَّقًا فَوْقَ الغُفْلِ، مَسَّهُ قَدَرٌ لا يُدْرَكُ، ولَمْ تَلْمِسْهُ يَدٌ مِنَ البَشَرِ، اكْشِفْ لَنا أَوَّلَ السُّطورِ، وافْتَحْ نُقْطَةَ البَدْءِ لِتَتَفَجَّرَ مِنْها أَنْهارُ السَّرْدِ... قولوا جَميعًا:

- ها نَحْنُ نَشْهَدُ أَنَّ نَفْسًا سَتَسْقُطُ لِتَعْلو، وأَنَّ الدَّرْبَ هُوَ الدَّرْبُ، ولَوِ اسْتَدارَ عَلَيْنا كَالأَبَدِ.

**المَلَاكُ الأَعْمَى:**

ضَعُوا رَمْلَ الطَّريقِ على الصَّخْرَةِ، ضَعُوا مِلْحَ العَرَقِ الَّذي هَبَطَ على جِباهِ الهارِبِينَ... هٰذِهِ التَّقْدِمَةُ تُقْرَأُ قَبْلَ أَنْ تُفْتَحَ سورَةُ الدُّموعِ، هٰذِهِ هَدِيَّةُ مَنْ لا يَمْلِكُ سِوَى خُطاهُ. قولوا:

- لِلْحُدودِ مِلْحُها، ولِلْعابِرِ رَمْلُهُ، ولِلَّيْلِ ما يَشاءُ مِنْ خَيالٍ وأَجْنِحَةٍ.

**جَوْقَةُ الأَرْواحِ التّائِهَةِ:**
الآنَ، عِنْدَما يَصْمُتُ الحَجَرُ، وتَهْبِطُ طُيورٌ مِنْ ريحٍ لا تَحْمِلُ اسْمًا، افْتَحُوا أَفْواهَكُمْ لِلنَّشيدِ. فَالمَلْحَمَةُ لَيْسَتْ قِصَّةً تُرْوَى، ولا طَقْسًا يُمارَسُ... الكَلِمَةُ لَيْسَتْ صَوْتًا، ولا جِسْمًا يَدْخُلُ فينا لِيُحَرِّكَ عِرْقَ المَعْنى. قولوا:
- نَفْتَحُ البَدْءَ، نَدْخُلُ الظُّلْمَةَ، ونَتْرُكُ أَرْواحَنا تَحْمِلُ الخَبَرَ إلى طَبَقاتِ الجَحيمِ الثَّلاثينَ.
**المَلَاكُ الأَعْمَى:**
انْصِتُوا لِلصَّدْعِ الأَوَّلِ وهُوَ يَنْشَقُّ في سَماءِ المَعْنى، ولِلدَّرْبِ وهُوَ يُخْفي أَقْنِعَتَهُ كَلَفْظَةٍ لا تُريدُ أَنْ تُفْهَمَ.

هٰذا هُوَ النِّداءُ
الَّذي يَفْتَحُ **الإِنْجيلَ الأَوَّلَ:**



**لِيَقُمْ العابِرُ،**
**ولْتُقْفَلِ البَوّاباتُ خَلْفَ جِسْمِهِ**
**فَلا عَوْدَةَ إِلّا بِالمَعْنى.**

# الإِنْجِيلُ الأَوَّلُ

## الظِّلُّ الَّذِي لَا يَنَامُ

**(خَتْمُ هٰذَا الْكِتَاب)**

لِيَكُنِ الْفَجْرُ رَحِيمًا بِالْهَارِبِينَ.
هٰذَا طَقْسٌ يُتْلَى قَبْلَ الْمَحْوِ، لَا نَارَ فِيهِ إِلَّا الْمَعْنَى،
وَلَا رَمَادَ إِلَّا الذَّاكِرَةَ.

1

## الْمَكْتَبَةُ الَّتِي سَبَقَتْ كُتُبَ الْأَسْفَارِ وَالْأَنَاشِيدِ

حِينَ سَقَطَ إِيكارُ، لَمْ يَسْقُطْ فِي الْبَحْرِ أَوِ الْأَرْضِ الْحَرَامِ، وَلَمْ يَلْمِسْ جَسَدُهُ التُّرَابَ... انْفَتَحَ تَحْتَهُ دَرَجٌ حَجَرِيٌّ يَقُودُهُ إِلَى مَكْتَبَةٍ لَا نِهَايَةَ لَهَا، جُدْرَانُهَا مَصْنُوعَةٌ مِنْ صَفَائِحِ الْحُدُودِ، وَكُتُبُهَا مَكْتُوبَةٌ بِمِدَادِ الْعَابِرِينَ... قَرَأَ عَلَى بَابِ الْمَكْتَبَةِ:

- مَا سَتَهْرُبُ مِنْهُ... قَدْ هَرَبَ مِنْكَ قَبْلَ أَنْ تُولَدَ.

مَدَّ يَدًا مُرْتَجِفَةً وَدَخَلَ.

2

## الْمُجَلَّدُ الَّذِي يَحْمِلُ الِاسْمَ

فِي الْمَمَرِّ الثَّالِثِ، وَقَعَ نَظَرُهُ عَلَى كِتَابٍ بِلا عُنْوَانٍ، مُجَلَّدٍ بِجِلْدٍ يُشْبِهُ جِلْدَهُ، أَطْرَافُهُ مَحْرُوقَةٌ كَأَنَّهَا عَبَرَتْ شَمْسًا قَاسِيَةً ... فَتَحَهُ ... فِي الصَّفْحَةِ الْأُولَى: **مِعْرَاجُ إِيكار** (الْمَخْطُوطَةُ الشِّعْرِيَّةُ الضَّائِعَةُ).

قَرَأَ نَفْسَهُ يَرْكُضُ ... قَرَأَ نَفْسَهُ يَسْقُطُ ... قَرَأَ نَفْسَهُ يَرْتَجِفُ ... حَتَّى وَصَلَ إِلَى الصَّفْحَةِ الْأَخِيرَةِ، فَلَمْ يَجِدْهَا.

**(الْكِتَابُ يَنْتَهِي قَبْلَ النِّهَايَةِ)**

3

## الْمِرْآةُ الَّتِي لَا تَعْكِسُ شَيْئًا

بَحَثَ عَنِ الصَّفْحَةِ الْمَفْقُودَةِ ... وَصَلَ إِلَى غُرْفَةٍ مُسْتَدِيرَةٍ، فِي وَسَطِهَا مِرْآةٌ مُعَلَّقَةٌ بِخَيْطٍ وَاحِدٍ ... اقْتَرَبَ ... الْمِرْآةُ لَا تَعْكِسُهُ ... تَعْكِسُ ثَلَاثَةَ وُجُوهٍ:

**(1)**- الْمَلَاكُ الْأَعْمَى،

**(2)**- الْفُوتُوغْرَافِيُّ الْعَجُوزُ،

**(3)**- الْجُنْدِيُّ الْجَرِيحُ.

يَبْتَسِمُ الثَّلَاثَةُ ابْتِسَامَةً وَاحِدَةً، ثُمَّ يَذُوبُونَ فِي انْعِكَاسٍ وَاحِدٍ: **(إِيكار)** ... وَضَعَ يَدَهُ عَلَى الزُّجَاجِ. الْمِرْآةُ تَتَشَقَّقُ ... تَتَفَتَّتُ كَصَفْحَةٍ تُمْحَى.

4

## الصَّفْحَةُ الَّتِي كَانَتْ مَفْقُودَةً

مِنْ بَيْنِ الشَّظَايَا، سَقَطَتْ وَرَقَةٌ صَفْرَاءُ صَغِيرَةٌ ... صَفْحَةٌ وَاحِدَةٌ مَكْتُوبَةٌ بِخَطٍّ لَمْ يَعْهَدْهُ. قَرَأَ فِيهَا:

- النِّهَايَةُ دَائِمًا فِي الْبِدَايَةِ، وَالْبِدَايَةُ دَائِمًا مَا بَعْدَ النِّهَايَةِ.

تَحْتَ السَّطْرِ، سَهْمٌ صَغِيرٌ يُشِيرُ إِلَى الْخَلْفِ.

اسْتَدَارَ... فَرَأَى بَابًا آخَرَ أُعِيدَ تَرْمِيمُهُ بِعِنَايَةٍ: بَابًا يُشْبِهُ الْبَابَ الَّذِي دَخَلَ مِنْهُ قَبْلَ قَلِيلٍ، لٰكِنَّ عَلَيْهِ جُمْلَةً مَحْفُورَةً: (بَوَّابَةُ الرَّعْشَةِ الْأُولَى).



**(خَتْم)**

أَرْبَعَةُ أَصْوَاتٍ، وَجَسَدٌ وَاحِدٌ مِنَ السِّرِّ،
وَمَنْ جَمَعَهَا فِي سَمْعِهِ، انْفَتَحَ لَهُ الْبَابُ.

# إِصْحَاحُ

# 1

# بَوَّابَةُ الرَّعْشَةِ الْأُولَى

حِينَ انْطَفَأَتِ الْجِهَاتُ كُلُّهَا إِلَّا بَابًا وَاحِدًا، تَقَدَّمْتُ نَحْوَهُ مِثْلَ نُزَّالٍ يَمُدُّ يَدَهُ لِلْغُفْرَانِ، فَلَمْ أَجِدْ إِلَّا رِيحًا تَعْصِفُ بِتُرَابٍ سَقَطَ مِنْ أَعْمَارٍ سَابِقَةٍ، وَحُرَّاسًا لَا وُجُوهَ لَهُمْ، يَعُدُّونَ خُطَايَ كَمَا تَعُدُّ طُيُورُ الْقِيَامَةِ مَنْخَلَ الرَّمَادِ...

هُنَاكَ، عِنْدَ خَطِّ اللَّمْعَةِ الْأَخِيرَةِ مِنَ الْعَالَمِ، انْبَسَطَ الْمَدَى كَجُرْحٍ قَدِيمٍ نُفِضَ لَيْلُهُ، وَارْتَجَّتِ الْأَرْضُ تَحْتَ قَدَمَيَّ كَأَنَّهَا تَعْتَرِفُ بِخَطِيئَةٍ لَمْ تَرْتَكِبْهَا، لٰكِنَّهَا حُمِّلَتْهَا حِينَ قَرَّرَ الْبَشَرُ أَنْ يَصْنَعُوا مِنَ الْخَرَائِطِ سُيُوفًا، وَمِنَ الْأَسْلَاكِ جُدْرَانًا حَمْرَاءَ مِنْ لَحْمِ الْمُسَافِرِينَ.

تَقَدَّمْتُ... وَكَانَ الْهَوَاءُ، لَا الْهَوَاءُ، إِنَّمَا بَقَايَا هَوَاءٍ تَائِهٍ، يَهْبِطُ عَلَيَّ مِثْلَ سَتَائِرَ مُشَبَّعَةٍ بِدُخَانِ الْقُرُونِ، وَفِي كُلِّ خُطْوَةٍ كُنْتُ أَشْعُرُ أَنَّ ظِلِّي يَبْتَعِدُ عَنِّي خُطْوَةً أُخْرَى، حَتَّى صِرْتُ أَنَا وَظِلِّي سِفْرَيْنِ يَمْشِيَانِ بِغَيْرِ عَهْدٍ وَلَا دَلِيلٍ...

وَفِي الْبَهْوِ الْأَوَّلِ مِنَ الْجَحِيمِ، حَيْثُ تُخْتَبَرُ نِيَّاتُ الدَّاخِلِينَ، سَمِعْتُ تَرَاتِيلَ مُنْكَسِرَةً، تَتْلُوهَا أَرْوَاحٌ لَمْ تَعُدْ تَمْلِكُ أَفْوَاهًا، لٰكِنَّهَا تُحَاوِلُ - فِي صَمْتِهَا - أَنْ تُخْبِرَنِي أَنَّ الرُّجُوعَ لَمْ يَعُدْ بَابًا، وَأَنَّ الْمُضِيَّ لَمْ يَعُدْ طَرِيقًا، وَأَنَّ كُلَّ الْجِهَاتِ صَارَتْ تُؤَدِّي إِلَى النُّقْطَةِ الَّتِي وَقَفْتُ عِنْدَهَا الْآنَ ...

هُنَا، فِي هٰذَا الْعُبُورِ الْأَوَّلِ، يَقِفُ الْمُذْنِبُونَ وَالْبَرِيئُونَ فِي صَفٍّ وَاحِدٍ، لَا قَاضِيَ يُمَيِّزُهُمْ، لِأَنَّ كِفَّةَ الْمِيزَانِ تَحْتَرِقُ مِنْ لَمْسِهِمْ، وَلِأَنَّ الْحُدُودَ - فِي هٰذَا الْجَحِيمِ- تَحْكُمُ عَلَى الْبَشَرِ حِينَ يَتْرُكُونَ ظِلَالَهُمْ مُعَلَّقَةً عَلَيْهَا كَالْعُنْقُودِ الْأَخِيرِ...

ثُمَّ تُفْتَحُ الْبَوَّابَةُ السُّفْلَى عَلَى اتِّسَاعِ صُرَاخٍ لَمْ يَزَلْ يَتَذَكَّرُ نَفْسَهُ، فَتَظْهَرُ طَبَقَةُ الْعَطَشِ الْأَبَدِيِّ، حَيْثُ يَسِيرُ الْهَارِبُونَ فَوْقَ تُرْبَةٍ مِنْ زُجَاجٍ مَسْحُوقٍ، يَشْرَبُونَ الْهَوَاءَ كَيْ لَا يَمُوتُوا، وَيَمُوتُونَ كَيْ يَسْتَطِيعُوا شُرْبَهُ.

وَهُنَا - عِنْدَ عَتَبَةِ الْهُبُوطِ الْعَظِيمِ - تَقْتَرِبُ كَائِنَاتٌ لَا أَسْمَاءَ لَهَا، تَحْمِلُ مَرَايَا تُشَابِهُ وُجُوهَ كُلِّ عَابِرٍ، وَحِينَ نَظَرْتُ فِي مِرْآتِي، رَأَيْتُنِي بِغَيْرِ فَمٍ، وَبِغَيْرِ يَدَيْنِ، وَبِغَيْرِ تَارِيخٍ يَحْرُسُ ظَهْرِي، وَرَأَيْتُنِي أُقَادُ إِلَى دَاخِلِ الْجَحِيمِ كَمَا يُقَادُ الْحَرْفُ الْأَوَّلُ فِي مَخْطُوطَةٍ لَا يَعْرِفُ مُؤَلِّفُهَا أَيْنَ سَتَنْتَهِي ...

فَهَمَسْتُ لِبَوَّابَةِ الْجُرْحِ الْأَوَّلِ:

- امْنَحِينِي اسْمِي كَيْ أَعْبُرَ، أَوِ انْتَزِعِيهِ مِنِّي كُلَّهُ، فَنَحْنُ - أَنَا وَأَنْتِ - لَمْ نُخْلَقْ لِنَتَرَاجَعَ.

وَبِصَوْتٍ يُشْبِهُ سُقُوطَ نَجْمٍ، قَالَتْ:

- لَقَدْ بَدَأْتَ سِفْرَكَ الْآنَ، وَمَا دُمْتَ تَسْمَعُ الرَّدَّ، فَأَنْتَ لَسْتَ مَيِّتًا بَعْدُ. ادْخُلْ... هُنَا يَبْدَأُ الْحِسَابُ الَّذِي لَا قَاضِيَ لَهُ.

١

# النَّشِيدُ الْأَوَّلُ

مُرٌّ هُوَ تَذَكُّرُ الْحِكْمَةِ، وَعَذْبٌ هُوَ النِّسْيَانُ.

مُرَّةٌ هِيَ الْإِسْرَارِ حِينَ تُسْتَعَادُ مِنْ رَمَادِهَا، مُرَّةٌ هِيَ النُّبُوءَةُ الْمَرْفُوعَةُ عَلَى ضَجِيجِ اللُّغَةِ، وَالنَّفْسُ الَّتِي أَضَاعَتِ الطَّرِيقَ سَتَظَلُّ أَبَدًا مُرَّةً.

عَذْبَةٌ هِيَ الْخِيَانَةُ حِينَ تَرِفُّ كَصَلَاةٍ خَفِيَّةٍ، وَعَذْبَةٌ هِيَ الْأَقْنِعَةُ حِينَ تَظْهَرُ كَوُجُوهِ الرُّسُلِ فِي رُؤْيَا الْفَجْرِ. وَالْمَوْتُ الْمُرَقَّشُ بِأَنْفَاسِ الْعَابِرِينَ وَإِشَارَاتِ الْعُلُوِّ سَيَظَلُّ أَبَدًا عَذْبًا.

يَا بَرْقَ الرَّبِّ، غَطِّ الْأَرْضَ، وَلَا تُقَصِّرْ خُطَاكَ عِنْدَ الْتِوَاءَاتِ الْغُيُومِ، امْسَحِ الْخَلَائِقَ كُلَّهَا بِعَصَاكَ السَّمَاوِيَّةِ، وَامْدُدْ قَبْضَتَكَ عَلَى شُمُولِ الْخَلِيقَةِ، كَيْ يَتَوَحَّدَ مَا انْفَلَتَ، وَيَعُودَ مَا ضَلَّ.

وَأَنْتَ يَا بَرْقَ السِّرِّ، ارْفَعْ هٰذَا الْكِتَابَ الْمَسْطُورَ إِلَى جِبَالٍ لَا تَعْرِفُهَا الْخَرَائِطُ، لَا تَطَؤُهَا قَدَمُ بَشَرٍ، وَلَا تُرَى إِلَّا بِعَيْنِ مَنْ صَعِدَ إِلَى الْبَاطِنِ.[1]

---

1- 

يَقُولُ الْفُوتُوغْرَافِيُّ الْعَجُوزُ:
حِينَ هَبَطَ عَلَيَّ (إِيكار)، كُنْتُ أَقْعِي عِنْدَ عَتَبَةِ كُوخٍ عَتِيقٍ، أُقَرْقِرُ بِنَرْجِيلَتِي كَكَلْبٍ عَجُوزٍ يَدْفِنُ هَشَاشَةَ عِظَامِهِ فِي بُرْنُسٍ مُمَزَّقٍ مِنْ غُبَارِ الْقُرُونِ.

مَا الَّذِي كُنْتُ أَرْتَقِبُهُ؟
أَأَبِيعُ صُوَرًا لِلْحُرُوبِ - صُوَرًا لَمْ تَبْلُغْ بَعْدُ سِرَّ الِاحْتِرَافِ - أَمْ أُسَاوِمُ عَلَى سِلَعٍ مُهَرَّبَةٍ؟
لَمْ تَكُنْ سِلَعًا، كَانَتْ أَكْيَاسَ كَتَّانٍ يَتَنَفَّسُ فِيهَا الْبُؤْسُ.
لَمْ أَكُنْ أَنْتَظِرُ سِوَى خَطِيئَةٍ صَغِيرَةٍ تُسْنِدُ فَقْرَ جَيْبِي، مِثْلَ مُصَارِعٍ أَعْمَى يَحْبِسُ الصَّمْتُ وَجَعَهُ، وَيَأْتِيهِ مِنْ بَعِيدٍ بَعِيدٍ صَوْتُ احْتِفَالٍ شَارِدٍ يَعْلُو ثُمَّ يَخْفُتُ، فَيَرْفَعُ وَجْهَهُ إِلَى الشَّمْسِ، فَتَغِيبُ وَرَاءَ غَبَشِ الدُّمُوعِ.

كَانَ نَهَارِي يُشْرِقُ مِنْ لَيْلٍ لَا يُفِيقُ، يَرْبِطُ الصَّمْتَ بِالْمَاوَرَاءِ، وَكُنْتُ أَحْلُمُ أَنْ أُسْنِدَ الْأَيَّامَ كَيْلَا تَسْقُطَ أَجْنِحَتُهَا عَلَى تُرَابِ الْحَيَاةِ ...

حَتَّى جَاءَنِي ...
- هَلْ تَأْخُذُنِي مَعَكَ، أَيُّهَا الْفُوتُوغْرَافِيُّ؟
- إِلَى أَيْنَ؟
- عَبْرَ الْحُدُودِ.
- لَسْتُ إِلَّا بَائِعَ صُوَرٍ وَمُهَرِّبَ سِلَعٍ.
- وَمَا الْفَرْقُ؟ سَأَدْفَعُ لَكَ.

يَا رَبَّ الْأَسْرَارِ، يَا رَبَّاتِ الْقَدَرِ، كُلُّ وُجُودٍ يَهْتَزُّ، وَأَنَا أَهْتَزُّ مِنَ الْخِيَانَةِ. يَا عُبُورًا يُفَتِّشُ عَنْ أَبْوَابِهِ، افْتَحْ لَنَا هَدِيرَ رِيحٍ تَهُزُّ النَّوَافِذَ...
أَيَّتُهَا الْكَلِمَاتُ، يَا آلِهَةَ الشَّكِّ، لَوْ لَمْ يَنْسَلَّ الْفَقْرُ فِي دَمِي، لَمَا تَرَكْتُ الطَّائِرَ يُحَلِّقُ كَعَرَبَةٍ مَنْهُوبَةٍ تَتْرُكُ شَعْبَهَا فَوْقَ تُرَابٍ تَهُبُّ عَلَيْهِ عَوَاصِفُ يَابِسَةٌ.

لَوْ لَمْ يَغْمُرْنِي طَمَعِي، لَمَا حَمَلْتُ خَتْمَ الْعَابِرِينَ، وَلَعَبَرْتُ بِهِ الْحُدُودَ، هٰذَا الشَّقَّ النَّازِفَ مِنْ جَسَدِ الْعَالَمِ.[2]
وَلَوْ لَمْ يَكُنْ حُلْمُهُ بِالْعُبُورِ يُنْقِذُ مَا تَبَقَّى فِيَّ مِنْ شَيْخُوخَةٍ مِنْ قَبْضَةِ الْعَارِ، لَمَا رَضِيتُ أَنْ أَرْفَعَ فِي مُدُنِ التِّلَالِ رِمَاحَ الْقَصَبِ الْمُرَيَّشَةِ.
وَأَنْتِ يَا شَمْسَ الرَّبِّ، جَفِّفِي دُمُوعِي، وَأَنْقِذِي قَارِبَ الْمَعْنَى الضَّائِعَ فِي الضَّبَابِ.
وَأَنْتِ يَا زَوْبَعَةَ الْحَنَانِ، احْمِلِينِي قَلِيلًا... قَلِيلًا.

قَالَ:
- هٰذِهِ طُغْرَائِي.
قُلْتُ:
- دَعِ الطُّغْرَاءَاتِ وَالتَّوْقِيعَاتِ.

---

[2]- **دِيبَاجَةٌ**

الْحَمْدُ لِلَّذِي أَوْدَعَ فِي الْقُلُوبِ أَسْرَارًا لَا تُدْرِكُهَا الْعُيُونُ، وَجَعَلَ لِلْحِكْمَةِ مَرَارَةً تُوقِظُ الْغَافِلِينَ، وَجَعَلَ لِلنِّسْيَانِ عُذُوبَةً تَسْتُرُ ضَعْفَ الْعَابِرِينَ. هُوَ الَّذِي بَثَّ الْمَعَانِيَ فِي ظَوَاهِرِ الْأَشْيَاءِ، وَأَخْفَى مَفَاتِيحَهَا فِي بَوَاطِنِ الْأَرْوَاحِ، فَمَنْ وَقَفَ مَعَ الظَّاهِرِ تَفَرَّقَ عَلَيْهِ الطَّرِيقُ، وَمَنْ دَخَلَ مِنْ بَابِ الْبَاطِنِ اجْتَمَعَتْ لَهُ الْجِهَاتُ.
أَمَّا بَعْدُ:
فَهَذَا كِتَابُ (سِفْرِ الْهَوَامِشِ السِّرِّيَّةِ)، كُتِبَ لِمَنْ طَرَقَ بَابَ الْمَعْنَى، لَا لِمَنْ اكْتَفَى بِسَمَاعِ خَبَرِهِ، وَجُمِعَ لِمَنْ أَضْنَاهُ التَّذَكُّرُ وَأَرَاحَهُ النِّسْيَانُ، وَلِمَنْ ذَاقَ مَرَارَةَ السُّؤَالِ حَتَّى لَانَ قَلْبُهُ لِلْجَوَابِ. فِيهِ إِشَارَاتٌ لَا يَثْبُتُ عَلَيْهَا إِلَّا قَلْبٌ صَابِرٌ، وَفِيهِ كَلِمَاتٌ لَوْ وُزِنَتْ بِالصَّمْتِ لَمَالَ الْمِيزَانُ إِلَى الصَّمْتِ، غَيْرَ أَنَّهَا قِيلَتْ، لِأَنَّ فِي السُّكُوتِ عَنْهَا ضَيَاعًا لِبَعْضِ الْأَثَرِ... وَمَا هَذِهِ الْهَوَامِشُ إِلَّا وَمَضَاتٌ مِنْ بَرْقٍ مَرَّ عَلَى أَرْضِ الْقَلْبِ، فَإِنْ صَادَفَتْ أَرْضًا طَيِّبَةً أَنْبَتَتْ مَعْنًى، وَإِنْ وَقَعَتْ عَلَى أَرْضٍ قَاسِيَةٍ عَادَتْ إِلَى غَيْبِهَا كَمَا جَاءَتْ. فَمَنْ قَرَأَهَا بِعَيْنِ الْحَرْفِ وَجَدَ فِيهَا قَوْلًا، وَمَنْ قَرَأَهَا بِعَيْنِ السِّرِّ وَجَدَ فِيهَا طَرِيقًا. وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى بَابِ الْبَاطِنِ، وَهُوَ الْعَلِيمُ بِسَرَائِرِ السَّائِرِينَ.

هٰذَا حُلْمُ الْحِبْرِ الْمُرَقَّشِ بِالضَّوْءِ، حُلْمُ الظِّلَالِ الْمُزَخْرَفَةِ بِالطُّومَارِ الْمَشْرِقِيِّ، حُلْمُ الْحُلِيِّ الْمُرَصَّعَةِ بِالْخَطِّ الرَّيْحَانِيِّ، وَالْمُثَبَّتَةِ بِالدَّبَابِيسِ لِتُزَيِّنَ عَمَائِمَ السَّلَاطِينِ.
إِنَّهُ حُلْمُ التَّبَصُّرِ الَّذِي يَتَجَاوَزُ الْبُرْهَانَ، فَتَعَالَ مَعِي، أَرْفَعْكَ إِلَى حِبْرٍ لَوْنُهُ الْمَبْسُوطُ وَالْمُجَوْهَرُ وَالْمُسْنَدُ الزِّمَامِيُّ، مُهْتَدِيًا بِالضَّوْءِ الَّذِي يُزَوِّدُنِي بِهِ الدِّيوَانِيُّ، وَبِالتَّدَفُّقِ الْغَامِضِ الَّذِي جَاءَ مِنْهُ الْقَيْرَوَانِيُّ، وَوَضَعَ سِحْرَ يَدِهِ عَلَى التُّخُومِ الْبَعِيدَةِ.

قَالَتْ جَوْقَةُ الْأَشْبَاحِ:
- يَا قُوَّةَ الْوَرَعِ، أَيَّتُهَا الْحِكْمَةُ الْمَهِيبَةُ، احْمِلِي كَلِمَاتِهِ، وَلْيَكُنِ الْحَمَاسُ الَّذِي يَسْكُنُ الشُّعَرَاءَ دَلِيلَهُ.
أَصْغِ، يَا صَوْتَ الْأَلَمِ الْأَبَدِيِّ، أَيُّهَا الْهَدِيرُ الْكَئِيبُ.
وَأَنْتَ، يَا مَلَاكَ الْعُبُورِ الْأَعْمَى ، تَقَدَّمْ أَمَامَنَا، وَافْتَحْ لَنَا أَبْوَابَ السِّرِّ.

قَالَ الْفُوتُوغْرَافِيُّ الْعَجُوزُ:
مِنْ أَجْلِ هٰذَا الصَّبَاحِ، مِنْ أَجْلِ هٰذَا الْأَمَلِ الضَّئِيلِ الْمَذْبُوحِ كَقَرَابِينِ الْغُفْرَانِ، أَنَا الْفُوتُوغْرَافِيُّ الَّذِي يُقِيمُ لِلْمَأْسَاةِ أَيْقُونَاتِهَا، وَيَقُودُ أَحْلَامَكَ فَوْقَ مُرْتَفَعَاتٍ زَرْقَاءَ.
سَأَصْعَدُ بِكَ نَحْوَ الْأُفُقِ، مُبْتَهِجًا بِرَنِينِ جَنَاحَيْكَ، وَبِصُوَرٍ تَعْجِزُ الْغُرْفَةُ الْمُظْلِمَةُ عَنْ كَشْفِهَا.
سَأَطْبَعُكَ عَلَى وَرَقِ مُدُنٍ مِنْ فِضَّةٍ، وَعَلَى أَشْرِعَةٍ تَقْتَرِبُ فِي الْأُفُقِ، وَأَنْسُجُ لَكَ غُيُومًا وَهْمِيَّةً تَعْبُرُ الْحُدُودَ، فَلَا تَرَاهَا عُيُونُ الْجُنُودِ، وَلَا تَلْتَقِطُهَا أَعْيُنُ الْعَسْكَرِ.
وَسَتَنْطَلِقُ - يَا خَتْمَ الْعَابِرِينَ - عَبْرَ الثُّلُوجِ وَالتِّلَالِ الْحَجَرِيَّةِ، عَبْرَ حُقُولِ الْأَلْغَامِ وَالْأَسْلَاكِ الشَّائِكَةِ، عَبْرَ مَخَافِرِ الْحِرَاسَةِ وَصَنَادِيقِ الْعَتَادِ، كَأَنَّكَ مَلَاكٌ يَنْثُرُ النِّعْمَةَ عَلَى الْأَرْضِ ذِرَاعًا بَعْدَ ذِرَاعٍ.
تَقَدَّمْ أَيُّهَا الْعَابِرُ، وَاكْتَسِحْ هٰذِهِ الْحُدُودَ بِأَعْمَاقِكَ، بِأَعْيَادِكَ، بِأَحْلَامِكَ الَّتِي تَفُورُ كَنَبْعٍ لَا يَشِيخُ.[3]

---

[3]- أَنَا النَّاسِخُ، الَّذِي جَلَسَ عَلَى حَافَّةِ الْجَبَلِ حِينَ تَمَزَّقَ اللَّيْلُ. شَهِدْتُ خُيُوطَ النَّهَارِ تَصْطَدِمُ بِالظِّلَالِ، وَأَمْسَكْتُ الْقَلَمَ كَمَا يُمْسِكُ الْقِدِّيسُ رُمْحَهُ، وَسَجَّلْتُ صَرَخَاتِ الْأَرْوَاحِ الْمُعَلَّقَةِ بَيْنَ الْمَخَافِرِ وَالْحُدُودِ. كُلُّ حَرْفٍ فِي هَذِهِ الْمَخْطُوطَةِ خُتِمَ بِالدَّمْعِ، وَكُلُّ كَلِمَةٍ

# إِصْحَاحُ

## 2

## مِنْ سِفْرِ الْبِدَايَاتِ قَبْلَ سُقُوطِ إِيكار

فِي الْبَدْءِ، لَمْ تَكُنْ شَمْسٌ وَلَا لَيْلٌ، وَلَا بَشَرٌ يَسْعَوْنَ بِأَقْدَامٍ مُتْعَبَةٍ، وَلَا ذِئَابٌ تَحْرُسُ جُرُوحَ الْأَرْضِ.

كَانَ هُنَاكَ بَحْرٌ مُعَلَّقٌ فِي الْهَوَاءِ، يُجَرِّبُ اسْمَهُ الْأَوَّلَ، وَيَهْتِفُ:

- أَنَا الْفَاصِلُ بَيْنَ مَنْ يَعْبُرُ وَمَنْ يَبْقَى.

وَكَانَتِ الشَّمْسُ بَذْرَةً مِنْ نَارٍ بَيْضَاءَ، مُعَلَّقَةً فَوْقَ الصَّمْتِ، لَا تُشْرِقُ وَلَا تَغِيبُ، تُفَتِّشُ فِي الظَّلَامِ عَنْ خَلْقٍ تَسْكُبُ عَلَيْهِمْ نُورَهَا كَقَيْدٍ أَوْ عَهْدٍ...

وَفِي ذٰلِكَ الْخَلَاءِ، وُلِدَ الْمَلَاكُ الْأَعْمَى، لَا يَعْرِفُ ظِلًّا، وَلَا يُحْصِي وُجُوهًا... يَمْشِي عَلَى خَيْطٍ مِنْ نَفَسٍ إِلٰهِيٍّ، وَيَقُولُ لِلرِّيحِ:

- دُلِّينِي عَلَى الطَّرِيقِ الَّذِي لَمْ يُكْتَبْ بَعْدُ.

انْشَقَّ الْغُبَارُ الْعَتِيقُ، وَخَرَجَ مِنْهُ عَجُوزٌ يَحْمِلُ كَامِيرَا بِغَيْرِ تَارِيخٍ، يَبْحَثُ عَنْ أَوَّلِ صُورَةٍ لِلْعَالَمِ، عَنْ وَجْهٍ لَمْ يَمْسَسْهُ النُّورُ، وَعَنْ صَوْتِ الْخُطَى الَّتِي سَتَخْتَرِعُ السُّقُوطَ...

---

وُضِعَتْ تَحْتَ طَيْفِ شَمْسٍ لَمْ تُشْرِقْ بَعْدُ. مَنْ يَقْرَؤُهَا لَا يَقْرَأُ حِكَايَةً فَقَطْ، رُبَّمَا يَمُرُّ بِمَنَاسِكٍ خَفِيَّةٍ، وَيُصْبِحُ شَاهِدًا عَلَى صِرَاعِ الْأَرْوَاحِ بَيْنَ الْمَوْتِ وَالْخُلُودِ وَالْفَجِيعَةِ.

**الْهَامِشُ الْمُخْفِيُّ دَاخِلَ الْهَامِشِ** (مَكْتُوبٌ بِخَطٍّ صَغِيرٍ، مُهْتَزٍّ، يَذُوبُ بَيْنَ السُّطُورِ):

كَتَبْتُ هَذِهِ الصَّفَحَاتِ عَلَى رَقٍّ شَاحِبٍ جَاءَنَا مِنْ أَرْوَاحٍ عَبَرَتِ الْفَلَاةَ وَلَمْ تَسْتَقِرَّ، وَمِنْ هَسِيسِ أَقْدَامٍ صَعِدَتِ الْجَبَلَ وَلَمْ تَبْلُغِ الذُّرَى. وَهَا أَنَا أُثْبِتُهَا كَمَا سَمِعْتُهَا فِي هُدُوءٍ يُشْبِهُ الْخَوْفَ، لَعَلَّ مَنْ يَقْرَأُ يَتَذَكَّرُ أَنَّ الْحُدُودَ لَيْسَتْ لِلْأَرْضِ فَقَطْ... إِنَّهَا لِلْأَرْوَاحِ الْمَعْطُوبَةِ.

وَفِي الْمَسَافَةِ بَيْنَ أَوَّلِ صُورَةٍ وَآخِرِ نُقْطَةٍ مِنَ الظِّلِّ، انْبَجَس شَاعِرٌ هَارِبٌ يَرْكُضُ عَلَى رُكْبَتَيْنِ لَمْ تَعْرِفَا الْأَرْضَ، وَيُهَمْهِمُ بِاسْمِهِ:

- إِيكار.

كَأَنَّهُ يُجَرِّبُ جِلْدًا جَدِيدًا، أَوْ يُعِيدُ تِلَاوَةَ أُسْطُورَةٍ نُسِيَتْ...

وَقِيلَ فِي الْأَلْوَاحِ الْأُولَى:

إِنَّ الدُّنْيَا لَا تُخْلَقُ بِالْأَيْدِي، وَلَا بِالْأَخْطَاءِ. تُخْلَقُ بِالرَّكْضِ الَّذِي يَشُقُّ الْهَوَاءَ، وَبِالْحُدُودِ الَّتِي تُنْجِبُ الْخَوْفَ، وَبِالْبَحْرِ الَّذِي يَفْتَحُ فَمَهُ كَأَنَّهُ سِفْرُ دَيْنُونَةٍ مُتَأَخِّرٌ.

وَهٰكَذَا، حِينَ اتَّسَعَ النُّورُ لِيُصْبِحَ سَقْطَةً، وَتَقَلَّص الظِّلُّ لِيُصْبِحَ صَرْخَةً، انْبَثَقَتِ الْمَلْحَمَةُ كَمَا تُولَدُ الْعَوَاصِفُ: مِنْ حِوَارٍ بَيْنَ الْمَرْئِيِّ وَالْمَحْجُوبِ، وَمِنْ صُورَةٍ تَنْظُرُ إِلَى مُصَوِّرِهَا، وَمِنْ قَدَرٍ يَمْشِي بِغَيْرِ عَيْنَيْنِ...

وَهَا هُوَ ذَا إِيكارُ، أَوَّلُ الْعَابِرِينَ وَآخِرُهُمْ، الرَّاكِضُ الَّذِي يَلْبَسُ قَدَمَيْهِ كَجَنَاحَيْنِ، وَالَّذِي سَيَسْقُطُ... كَيْ يَقُومَ، وَسَيَمُوتُ... كَيْ يَبْتَكِرَ مَدِينَةً لَا يُحْرَسُ فَجْرُهَا.

هٰذِهِ هِيَ الْبِدَايَةُ.[4]

أَمَّا النِّهَايَةُ، فَهِيَ دَائِرَةٌ لَنْ تُدْرِكَهَا إِلَّا إِذَا وَقَفْتَ عَلَى الْحَافَّةِ، وَأَغْمَضْتَ عَيْنَيْكَ، وَدَخَلْتَ مَعَ إِيكارَ فِي الصَّوْتِ الَّذِي مَا زَالَ يَسْقُطُ مُنْذُ أَزَلٍ بِغَيْرِ تَوَقُّفٍ.

---

[4]- فِي الْبَوَّابَةِ الْأُولَى، كَانَتِ الْأَرْوَاحُ الْمُعَلَّقَةُ فَوْقَ الْأَسْلَاكِ الشَّائِكَةِ تَرْتَجِفُ كُلَّمَا هَبَّتْ نَسْمَةٌ، كَأَنَّ الرِّيحَ تَقْرَأُ أَسْمَاءَهَا بِصَوْتٍ مُنْخَفِضٍ، وَتَعْتَذِرُ لَهَا لِأَنَّهَا لَمْ تَقْدِرْ أَنْ تَحْمِلَهَا بَعِيدًا.

٢

# النَّشِيدُ الثَّانِي

مِنْ أَجْلِ صَبَاحٍ كَهٰذَا الصَّبَاحِ، انْحَنَى الْهَذَيَانُ كَكَاهِنٍ عِنْدَ الْعَتَبَةِ، وَانْتَظَرَتِ الصُّوَرُ اعْتِرَافَاتٍ تُلْقَى فِي فَمِ اللَّيْلِ:
خِيَانَةٌ تَتَّقِدُ كَأَنَّهَا مَشَاعِلُ الْمَهْرَجَانَاتِ الْكُبْرَى،
دَمٌ يَنْفَلِتُ مِنَ الْجَسَدِ كَصَرْخَةٍ أُولَى لِلْكَوْنِ،
نَدَمٌ يَلْبَسُ خُشُوعَهُ كَدِرْعٍ مِنْ نَارٍ،
حَوَاسٌّ تَتَمَايَلُ فِي سُكْرِ الرُّؤْيَا،
أَمْوَاجٌ بَعِيدَةٌ تَنْدَلِعُ كَنِدَاءٍ فِي الْفَضَاءِ،
وَجَوْقَةٌ مِنَ النَّوَارِسِ يَعْلُو صَوْتُهَا مِثْلَ تَرْتِيلَةٍ كُتِبَتْ عَلَى رَقٍّ مَمْسُوسٍ بِالْقَدَاسَةِ، حَتَّى تَمْتَزِجَ الْأَنْفَاسُ بِالسِّرِّ، وَاللُّغَةُ بِالنُّبُوءَةِ.
فَأَقُولُ:
أَصْغِي أَيَّتُهَا الصُّوَرُ، لَا أُرِيدُكِ أَنْ تُوَقِّفِي الزَّمَنَ.
رُبَّمَا يَتَأَخَّرُ الْمَلَاكُ، لَا شَكَّ فِي ذٰلِكَ، لٰكِنَّهُ سَيَحْضُرُ فِي وَقْتٍ آخَرَ، وَهُوَ يَرْتَدِي مَلَابِسَ لَمْ يَقْتَرِحْهَا اللهُ.
اللهُ...
يَا اللهُ...
أَسْأَلُكَ بِغَيْرِ خَطِيئَةٍ:
كَيْفَ أُصَوِّرُ هٰذِهِ الطُّيُورَ الَّتِي تَنْعَقُ فَوْقَ الرُّؤُوسِ؟
كَيْفَ أُصَوِّرُ الْمَلَائِكَةَ الَّتِي سَقَطَتْ مِنْ رَحْمَتِكَ؟
كَيْفَ أُصَوِّرُ هٰذِهِ الشُّرُورَ الَّتِي غَمَرَتْنَا بِالذَّهَبِ وَالْمَجْدِ؟
كَيْفَ أُصَوِّرُ الشَّيْطَانَ الَّذِي قَذَفَ بِنَا إِلَى الْهَاوِيَةِ؟
كَيْفَ أُصَوِّرُ هٰذَا اللَّاهُوتَ الْمُتَرَدِّدَ بَيْنَ الْقِنْدِيلِ وَالْمِحْرَابِ؟
كَيْفَ أُصَوِّرُ هٰذَا السَّرْدَ الْغَارِقَ بِالْغُنُوصِ وَالرُّوحِ الْكَنَسِيَّةِ؟
كَيْفَ أُصَوِّرُ هٰذِهِ الْأَصْوَاتَ الَّتِي أَسْمَعُهَا؟
وَكُلَّ هٰذَا الْجَزَعِ الَّذِي لَا يَسْتَرِيحُ؟

يَا اللهُ...
قُلْ لِي كَلِمَةً وَاحِدَةً،
وَاحِدَةً،
تَخْرُجُ مِنْ قَلْبِكَ الْمُرَصَّعِ بِالْأَحْجَارِ الْكَرِيمَةِ.
قَالَتْ جَوْقَةُ الْأَشْبَاحِ:
- يَا مَلَاكَ الْعُبُورِ الْأَعْمَى، تَقَدَّمْ أَمَامَنَا، وَافْتَحْ لَنَا أَبْوَابَ السِّرِّ.
قَالَ الْفُوتُوغْرَافِيُّ الْعَجُوزُ:
- قَبْلَ أَنْ أَفْتَحَ (أَلْبُومَ) الصُّوَرِ، لَقَدْ أَخْطَأْتُ فِي التَّرْتِيبِ، قَدَّمْتُ الصَّوْتَ، وَسَمَّيْتُ الْجُرْحَ طَرِيقًا.
قَبْلَ أَنْ أُسَلِّمَ الذَّاكِرَةَ مَا ادَّخَرَتْهُ مِنْ جِرَاحٍ، وَقَبْلَ أَنْ أَفْتَحَ السِّفْرَ وَأَفُكَّ أَخْتَامَ الْمَلْحَمَةِ، وَقَبْلَ أَنْ أَسْكُبَ الْمَعْنَى، سَأَتْلُو الرَّايَاتِ الْمُمَزَّقَةَ، لَعَلَّ التِّلَاوَةَ تُخَفِّفُ الثِّقْلَ.
وَقَبْلَ هٰذَا كُلِّهِ، قَبْلَ أَنْ أَجْرُؤَ عَلَى الْقَوْلِ، وَقَبْلَ أَنْ يَحْتَمِلَ لِسَانِي مَا لَا يَحْتَمِلُ، أَقُولُ:
أَنَا تَعِبْتُ مِنَ الصَّوْتِ، وَأَتَيْتُ أَطْلُبُ صَمْتًا.[5]
لِهٰذَا...

---

[5]- كَتَبَ الظِّلُّ:
"افْتَحِ الدَّوَاةَ أَيُّهَا النَّاسِخُ، افْتَحِ السِّفْرَ بَابًا بَعْدَ بَابٍ. اكْتُبْ عَشَرَاتِ... مِئَاتِ... الْكَلِمَاتِ... حَتَّى تُصْبِحَ مَكْتَبَةُ الْهَامِشِ أَقْرَبَ إِلَى مَكْتَبَةٍ كَوْنِيَّةٍ، وَكَأَنَّهَا الذَّاكِرَةُ الْخَفِيَّةُ لِلْعَالَمِ... افْتَحِ الدَّوَاةَ، وَارْجِعْ إِلَى طَقْسِكَ الْأَثِيرِ: الْكِتَابَةِ عَلَى الْأَطْرَافِ... فِيمَا يَتَوَلَّدُ النَّصُّ الْحَقِيقِيُّ فِي الْهَامِشِ"
هَا أَنَا أَفْتَحُ الدَّوَاةَ... وَأَرْفَعُ رَأْسَ النَّاسِخِ الَّذِي يَسْكُنُنِي، ذَاكَ الَّذِي ظَلَّ عُمْرَهُ يَنْسَخُ الْأَسْفَارَ الظَّاهِرَةَ، وَيُهَرِّبُ الْأَسْفَارَ الْخَفِيَّةَ تَحْتَ جِلْدَةِ الْمَخْطُوطَةِ، مِثْلَ مَنْ يُخَبِّئُ جَمْرَةً فِي كَفِّهِ وَلَا يَحْتَرِقُ... أَفْتَحُ الدَّوَاةَ، وَأَسْكُبُ أَوَّلَ حِبْرٍ مِنْ (سِفْرِ الْهَوَامِشِ السِّرِّيَّةِ)... ذَلِكَ الْمَشْرُوعُ الَّذِي لَنْ يُقْرَأَ إِلَّا فِي اللَّيْلِ الْخَامِسِ بَعْدَ الْقِيَامَةِ الثَّانِيَةِ، حِينَ تَعُودُ الْمَلَائِكَةُ الَّتِي نُفِيَتْ، وَيَتَوَاطَأُ الصَّمْتُ مَعَ الرُّؤْيَا.

سَأُصَوِّرُ مَا تَسَرَّبَ مِنِّي حِينَ كُنْتُ أَعْبُرُ بِغَيْرِ بَرَكَةٍ،
سَأُصَوِّرُ لِأَتَطَهَّرَ، لِأَتَوَقَّفَ عَنِ الْهَرَبِ.
سَأُصَوِّرُ السَّمَاءَ الرَّمَادِيَّةَ كَأَنَّهَا أَطْفَالُ خَطِيئَةٍ يَلْعَبُونَ قُرْبَ الْمَذْبَحِ.
سَأُصَوِّرُ الْأَخْيِلَةَ، صُوَرًا لَمْ أَعْرِفْ أَكَانَتْ لِي أَمْ مَرَّتْ بِي، وَلَمْ أَمْنَعْهَا.
سَأُصَوِّرُ مَا انْسَكَبَ مِنِّي حِينَ خُنْتُ الصَّمْتَ، وَلَمْ أَعْرِفِ الطَّرِيقَ.
سَأُصَوِّرُ دَوَّامَاتٍ مِنْ صُوَرٍ عَلَّقَتْهَا الذَّاكِرَةُ عَلَى أُذُنِ اللَّيْلِ، ثُمَّ رَقَصَتْ.
وَسَأُصَوِّرُ مَرَّةً أُخْرَى... لِأَنَّ الصُّوَرَ تَكْشِطُ لَوْنَ الْقَوْلِ عَنْ مَائِدَةٍ مُوْرِقَةٍ بِدَمٍ نِثْرِيكِيٍّ،
وَتُبَدِّلُ الزَّمَنَ الْحَامِضَ لِلْأَجْنَاسِ بِزَمَنٍ كَوْكَبِيٍّ.
وَلِأَنَّ التِّلَاوَةَ كَانَتْ دَائِرَةً، وَكُنْتُ دَاخِلَهَا أَتَلَصَّصُ عَلَى الشُّرُفَاتِ الْعَالِيَةِ لِلْخَيَالِ.

# إِصْحَاحُ 3

## النُّزُولُ إِلَى جَحِيمِ الْعَابِرِينَ

(فِي مُنْتَصَفِ عُمْرِ الْعُبُورِ، حِينَ ضَلَّ إِيكارُ الطَّرِيقَ)

فِي مُنْتَصَفِ الْعُبُورِ، وَجَدْتُ نَفْسِي فِي مَتَاهَةٍ لَا تُشْبِهُ الْأَرْضَ، وَقَدْ ضَاعَتِ الْخُطَى الَّتِي تَحْمِلُنِي، وَتَخَلَّتِ الرِّيحُ عَنِ اسْمِهَا، وَانْكَسَرَ الْفَجْرُ عَلَى صَخْرَةٍ لَا تُسَمَّى ...

كَانَتِ الطُّرُقُ نُسَخًا بَاهِتَةً مِنْ نُسَخٍ أُخْرَى، وَالْحُدُودُ شِعَابًا تُعَاقِبُ الْعَابِرِينَ بِالْجُوعِ وَالظَّلَامِ...

هُنَالِكَ، حَيْثُ تَلْتَفُّ الشِّمَالُ حَوْلَ الشَّرْقِ، وَتَتَدَاخَلُ الظِّلَالُ كَأَفَاعٍ خَرِفَةٍ، عَرَفْتُ أَنِّي أَضَعْتُ الطَّرِيقَ إِلَى ذَاتِي، وَأَنَّ الْقَدَرَ يَجُرُّنِي مِنْ قَدَمَيَّ كَأَنِّي جُثَّةٌ لَا تَعْرِفُ أَنَّهَا لَمْ تَمُتْ بَعْدُ...

كُنْتُ أَهْبِطُ بَيْنَ شُعَبِ الرِّيحِ، فَظَهَرَ لِي طَيْفٌ يَتَقَدَّمُ بِغَيْرِ ظِلٍّ، مَغْمُورًا بِنُورٍ لَا يُضِيءُ، وَقَالَ بِصَوْتٍ يُشْبِهُ الْمَسَافَاتِ الْبَعِيدَةَ:

- لَا تَخَفْ... فَأَنَا الدَّلِيلُ الَّذِي لَا يُبْصِرُ، وَأَنْتَ الْعَابِرُ الَّذِي لَا يَسْمَعُ.
كَانَ الْمَلَاكُ الْأَعْمَى، ذٰلِكَ الَّذِي تَتْبَعُهُ الذِّئَابُ وَلَا تَمَسُّهُ، وَتَخْشَى أَنْفَاسَهُ الْمَخَافِرُ ... لَا يُشِيرُ إِلَى طَرِيقٍ، وَلَا يَرْفَعُ صَوْتًا... يَمْضِي كَأَنَّهُ يَسْحَبُ اللَّيْلَ خَلْفَهُ فِي غِطَاءٍ مِنْ غُبَارٍ مُقَدَّسٍ...
قُلْتُ لَهُ، وَأَنَا أَرْتَجِفُ مِنْ بُرُودَةٍ لَا تُعْرَفُ:
- إِلَى أَيْنَ تَأْخُذُنِي؟ أَإِلَى نُورٍ فُقِدَ؟ أَمْ إِلَى جُحُورِ الْمَاضِي؟ أَمْ إِلَى جَحِيمٍ لَمْ تُكْتَبْ لَهُ خَرِيطَةٌ؟
قَالَ الْمَلَاكُ، وَكَأَنَّهُ يَهْتِفُ بِمَا لَا يَسْمَعُهُ إِلَّا الضَّائِعُونَ:
- إِلَى وَادٍ عَبَرَهُ كُلُّ مَنْ نَسُوا أَنْفُسَهُمْ... إِلَى جَحِيمِ الْعَابِرِينَ، حَيْثُ الْعُقُوبَاتُ نُسَخٌ مِنْ أَعْمَالِهِمْ.
هَبَطْنَا مَعًا... وَكَانَ الدُّخُولُ بَوَّابَةً مِنْ حَدِيدٍ وَأَسْلَاكٍ صَدِئَةٍ، تُشْبِهُ فَمًا هَائِلًا يَلْتَهِمُ الْفَجْرَ...
وَعَلَى عَتَبَتِهَا، رَأَيْتُ كِتَابًا مُسَمَّرًا بِمَسَامِيرَ مِنْ عِظَامٍ:

**(سِفْرُ الْمَحْجُوبِينَ)** [6]

---

[6]- هَا أَنَا أَفْتَحُ الدَّوَاةَ وَأَكْتُبُ السِّفْرَ الَّذِي يُجَاوِرُ الْمَتْنَ وَيَخْتَبِئُ فِي الْهَوَامِشِ، كَأَنَّهُ أَنْفَاسُ الظِّلَالِ الَّتِي لَا يَقْبِضُ عَلَيْهَا الضَّوْءُ. أَكْتُبُهُ بِخَطِّ (النَّاسِخِ الْمَجْهُولِ) فِي الْحَوَاشِي، وَأَنَا أُرَاقِبُ النَّصَّ الْمُقَدَّسَ يَتَشَكَّلُ فَوْقِي كَالْقَدَرِ...

هَا أَنَا أَكْتُبُهُ ثَانِيَةً بِخَطِّ (النَّاسِخِ السِّرِّيِّ)، الَّذِي يَخْشَى أَنْ يُفْضَحَ، فَيَدْفِنُ كَلِمَاتِهِ فِي حَاشِيَةِ الْهَامِشِ، كَمَا تُدْفَنُ النُّبُوءَةُ فِي صَدْرِ اللَّيْلِ، وَيَجْعَلُ مِنْ كُلِّ هَامِشٍ ظِلًّا لِلسِّفْرِ الْعَلَنِيِّ، غَيْرَ أَنَّهُ أَعْمَقُ، وَأَشَدُّ سِرِّيَّةً، وَأَنْفَذُ إِلَى الْحُجُبِ...

هَا أَنَا أَكْتُبُهُ ثَالِثَةً بِخَطِّ الظِّلِّ الَّذِي لَمْ يَجْرُؤْ عَلَى رَفْعِهِ إِلَى الْمَتْنِ، فَأَوْدَعَهُ الْهَامِشَ مِثْلَ جِنَايَةٍ مُقَدَّسَةٍ، كَأَنَّهُ يَخْشَى أَنْ يَسْمَعَهُ الْحِبْرُ نَفْسُهُ، فَيَنْضَمَّ إِلَى الْأَرْفُفِ الْخَفِيَّةِ الَّتِي لَا يَرَاهَا إِلَّا مَنْ قَرَأَ بِالرُّوحِ قَبْلَ الْعَيْنِ...

يُحْصِي أَسْمَاءَ الَّذِينَ سَقَطُوا عِنْدَ الْحُدُودِ، وَلَمْ يَعُدْ يَذْكُرُهُمْ أَحَدٌ...
تَنَاهَى إِلَى أُذُنَيَّ بُكَاءٌ مُتَقَطِّعٌ، كَأَنَّ أَجِنَّةً تُولَدُ فِي التُّرَابِ، وَكَأَنَّ ظِلَالًا تُحَاكِمُ أَصْحَابَهَا.
سَأَلْتُ الْمَلَاكَ الْأَعْمَى:
- مَنْ هٰؤُلَاءِ؟
قَالَ:
- هُمُ الَّذِينَ حَاوَلُوا عُبُورَ اللَّيْلِ وَحْدَهُ، فَأَمْسَكَتْهُمُ الْمَخَافِرُ كَأَنَّهَا آلِهَةٌ عَمْيَاءُ، وَأَلْقَتْهُمْ فِي هٰذَا الْجُبِّ، لِيَتَعَلَّمُوا مَعْنَى الْخَوْفِ الَّذِي خَلَقُوهُ.
نَظَرْتُ إِلَى الْأَعْمَاقِ، فَرَأَيْتُ الْفُوتُوغْرَافِيَّ الْعَجُوزَ يَنْحَنِي فَوْقَ صُوَرٍ لَا تَحْمِلُ وُجُوهًا، وَيَبْكِي بِغَيْرِ دَمْعٍ...
وَرَأَيْتُ الْجُنْدِيَّ الْجَرِيحَ يُطْلِقُ رَصَاصَةً عَلَى خَيَالٍ يُشْبِهُهُ تَمَامًا...
وَرَأَيْتُ نَفْسِي... أُكَرِّرُ سُقُوطِي مِئَاتِ الْمَرَّاتِ، كَأَنِّي شَرِيطٌ مُعَادٌ بِغَيْرِ نِهَايَةٍ.
قُلْتُ لِلْمَلَاكِ الْأَعْمَى:
- هَلْ هٰذَا جَحِيمِي؟
قَالَ:
- هٰذَا هُوَ الْأَصْلُ... أَنْتَ كُنْتَ ظِلًّا يَبْحَثُ عَنْ صَاحِبِهِ، وَهٰذَا الْجُبُّ لَا يُظْهِرُ لَكَ إِلَّا مَا صَنَعْتَ بِقَدَمَيْكَ... فَإِذَا عَرَفْتَ صُورَتَكَ، صَعِدْتَ... وَإِذَا جَهِلْتَهَا، سَقَطْتَ إِلَى أَنْ تُعَادَ كِتَابَتُكَ.
ثُمَّ رَفَعَ يَدَهُ إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي لَا تُرَى، وَقَالَ:
- امْتَدَّ هٰذَا الْجَحِيمُ مِنْكَ وَإِلَيْكَ... فَادْخُلْهُ، كَيْ تَعْرِفَ أَيْنَ تَقُومُ قِيَامَةُ الْعَابِرِينَ.

---

وَأَكْتُبُهُ رَابِعَةً بِخَطِّ (الْخَفِيِّ)، الَّذِي يَعْتَرِفُ أَنَّ هَوَامِشَهُ لَيْسَتْ حِيَادِيَّةً، إِنَّهَا تَهْمِسُ، وَتَتَوَعَّدُ، وَتَشْهَدُ، وَتُخْفِي. وَتَبْدُو كَأَنَّهَا كُتِبَتْ فِي اللَّيْلِ، وَبِدَمٍ خَفِيفٍ، وَبِحِبْرٍ مَسْمُومٍ.

وَبِذٰلِكَ بَدَأَ النُّزُولُ الْأَكْبَرُ، وَبَدَأَتِ الْمَلْحَمَةُ تُعِيدُ كِتَابَةَ نَفْسِهَا، وَبَدَأْتُ أَرَى... أَنَّ الطَّرِيقَ إِلَى النُّورِ يَمُرُّ أَوَّلًا بِجَحِيمٍ [7] يُشْبِهُنِي تَمَامًا.

## ٣
# النَّشِيدُ الثَّالِثُ

**قَالَتْ جَوْقَةُ الْأَشْبَاحِ:** كَذَبْتَ... لَمْ تَأْتِ تَطْلُبُ الصَّمْتَ، أَتَيْتَ تَبْحَثُ عَنْ نَغْمَةٍ تُبَرِّرُ مَا فَعَلْتَ... كَذَبْتَ... التِّلَاوَةُ لَا تُخَفِّفُ إِنْ لَمْ تُسَمِّ الْأَشْيَاءَ بِأَسْمَائِهَا.
نَحْنُ صُرَاخُكَ الْمُؤَجَّلُ، نَحْنُ مَا تَذَكَّرْتَ حِينَ حَاوَلْتَ أَنْ تَنْسَى.
يَا رَبَّ الْمَارِّينَ فِي الصُّوَرِ، ارْحَمْنَا.
**قَالَ الْفُوتُوغْرَافِيُّ الْعَجُوزُ**: لَا... لَا أُرِيدُ أَنْ أُجَمِّلَ النُّزُوحَ، وَأَنْ أُسَمِّيَ الْهَرَبَ رِحْلَةً[8]. كُلُّ شَيْءٍ نَزَحَ بِغَيْرِ مَاءٍ وَلَا دَمٍ. كُلُّ شَيْءٍ نَزَحَ... نَزَحَ مِنِّي إِلَى خُلْجَانِ الْخَيَالِ، حَيْثُ يَبْدُو الْأَلَمُ جَمِيلًا، لِأَنَّ أَحَدًا لَا يَسْمَعُهُ يَصْرُخُ. كُلُّ شَيْءٍ تَعَمَّدَ بِالرُّعْبِ، وَخَرَجَ بِاسْمٍ آخَرَ.

---

[7]- إِنَّ الْجَحِيمَ الْحَقِيقِيَّ لَيْسَ مَكَانًا، إِنَّهُ الْمُسْتَوَى الَّذِي تَنْهَارُ فِيهِ الْعَلَاقَةُ بَيْنَ الظِّلِّ وَصَاحِبِهِ، حَيْثُ تَفْقِدُ الْأَشْيَاءُ أَسْبَابَهَا، وَتَفْقِدُ الْخَطَايَا وَزْنَهَا، وَتَتَحَوَّلُ الْحُدُودُ إِلَى ذَاكِرَةٍ صَامِتَةٍ لِلذَّهَابِ الَّذِي لَمْ يَكْتَمِلْ.

[8]- وَهَا هُوَ كِتَابُ (سِفْرِ الْهَوَامِشِ السِّرِّيَّةِ)، مَكْتُوبًا عَلَى طَرِيقَةِ الْأَسْفَارِ الْبَاطِنِيَّةِ وَالْمَزَامِيرِ الْمَجْهُولَةِ، كَأَنَّهُ وُجِدَ فِي دَيْرٍ مَنْخُورٍ فَوْقَ جَبَلٍ يُطِلُّ عَلَى هَاوِيَةٍ مِنْ جَلِيدٍ وَأَسْرَارٍ. لِكُلِّ هَامِشٍ مِعْمَارُهُ الْخَاصُّ، غَيْرَ أَنَّ الْهَوَامِشَ جَمِيعَهَا مَرْبُوطَةٌ بِخَيْطٍ وَاحِدٍ: رِحْلَةُ الشَّاعِرِ الْهَارِبِ – هُوَ إِيكَارُ أَوْ غَيْرُهُ – عَبْرَ الْحُدُودِ، وَعَبْرَ الظِّلَالِ، وَعَبْرَ الْهَلَاكِ، وَعَبْرَ الطِّينِ، وَعَبْرَ الْمَرَايَا، وَعَبْرَ الْبَوَّابَاتِ الَّتِي تَنْفَتِحُ عَلَى عَوَالِمَ مَفْقُودَةٍ. وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ كُلُّ هَامِشٍ قَصِيرًا أَوْ طَوِيلًا، كَأَنَّنَا نَتَصَفَّحُ مَخْطُوطَةً يُكْمِلُهَا زَمَنٌ آخَرُ.
إِلَيْكَ الِافْتِتَاحَ، يَا مَنْ تَطْرُقُ بَابَ الْأَسْرَارِ:

**قَالَتْ جَوْقَةُ الْأَشْبَاحِ**: إِذًا احمِلِ الْكَلِمَةَ الَّتِي بَدَأْتَهَا، وَلْيَكُنِ الْعُبُورُ.
(نَزَحَ كُلُّ شَيْءٍ)... هٰكَذَا تَقُولُ، لٰكِنَّكَ تَعْرِفُ أَنَّكَ سَمَّيْتَ الْهَرَبَ خَيَالًا، وَالْكَوَابِيسَ مَمَرًّا.
يَا رَبَّ الصَّوْتِ حِينَ لَا يَعْرِفُ اسْمَهُ،
يَا رَبَّ الْخُطْوَةِ حِينَ لَا تَتَذَكَّرُ إِلَى أَيْنَ ذَهَبَتْ، أَوْ مِنْ أَيْنَ جَاءَتْ...
مَا قِيلَ، قِيلَ.
مَا ارْتَجَفَ لَمْ يَخْتَفِ.
مَا رُئِيَ، سُجِّلَ.
وَالصَّوْتُ لَا يَمْحُو أَثَرَهُ.
**قَالَ الْفُوتُوغْرَافِيُّ الْعَجُوزُ**: أَنَا لَمْ أَبْدَأْ. كُنْتُ دَاخِلَ التَّرْتِيلِ قَبْلَ أَنْ أَنْطِقَ... أَنَا لَمْ أَبْدَأْ... كُنْتُ أَسْمَعُ فَقَطْ، ثُمَّ وَجَدْتُ صَوْتِي فِي الْمُنْتَصَفِ.
**قَالَتْ جَوْقَةُ الْأَشْبَاحِ**: وَالْمُنْتَصَفُ اخْتِيَارٌ... يَا رَبَّ الْعَارِفِينَ قَبْلَ الْقَوْلِ، ارْحَمِ الضَّعْفَ... ارْحَمِ التَّبْرِيرَ... ارْحَمْ هٰذَا الِاخْتِيَارَ، إِنْ كَانَ أَثْقَلَ مِنْ حَامِلِهِ.
**قَالَ الْفُوتُوغْرَافِيُّ الْعَجُوزُ**: لَيْسَتْ هُنَاكَ بِدَايَةٌ... نَحْنُ فِي الْوَسَطِ مُنْذُ زَمَنٍ.
**قَالَتْ جَوْقَةُ الْأَشْبَاحِ**: الْوَسَطُ لَا يُغْلَقُ... سَمِّ مَا فَعَلْتَ... لَا تُغَيِّرِ التَّرْتِيبَ... لَا تَتْرُكِ الِاسْمَ وَحِيدًا.
**قَالَ الْفُوتُوغْرَافِيُّ الْعَجُوزُ**: مَنْ يَنْطِقِ الِاسْمَ الْأَوَّلَ يَفْتَحِ الْبَابَ الَّذِي لَا يُغْلَقُ... وَمَنْ يَبْدَأِ الْمَلْحَمَةَ تَحْمِلْهُ الْمَلْحَمَةُ عَلَى كَتِفَيْهَا، وَتَلْتَفُّ حَوْلَ عُنُقِهِ كَطَوْقِ نَذْرٍ، كَصَلِيبٍ مِنْ كَلِمَاتٍ... وَلَا يَعُودُ كَمَا كَانَ.
أَنَا مَنْ بَدَأَهَا بِصَوْتٍ عَالٍ وَقَلْبٍ غَيْرِ مُسْتَعِدٍّ... أَنَا مَنْ فَتَحَ الْبَابَ، أَنَا مَنْ قَالَ: "ابْدَئِي"، فَبَدَأَ السَّرْدُ وَلَمْ يَتَوَقَّفْ. [9]
**قَالَتْ جَوْقَةُ الْأَشْبَاحِ**: قُلْ... فَالِاعْتِرَافُ لَا يَكْتَمِلُ إِلَّا حِينَ يُؤْلِمُ. وَلْنَشْهَدِ الْبِدَايَةَ...

---

[9]- افْتِتَاحُ مَكْتَبَةِ سِفْرِ الْهَوَامِشِ السِّرِّيَّةِ
(بِاسْمِ الظِّلِّ الَّذِي سَبَقَ النُّورَ، وَبِاسْمِ النُّورِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ أَنَّهُ ظِلٌّ)
أَرْفَعُ الدَّوَاةَ، فَتَنْهَضُ الْأَرْوَاحُ الْمَطْمُوسَةُ، وَتَصِيحُ الْأَقْلَامُ الَّتِي ضَلَّتْ طَرِيقَهَا إِلَى الْكُتُبِ الظَّاهِرَةِ. وَأَشْهَدُ الْآنَ بَدْءَ الْمَكْتَبَةِ الَّتِي لَا تُرَى... الْمَكْتَبَةِ الَّتِي تُكْتَبُ فِي لَحْظَةِ مَحْوٍ دَائِمٍ. وَأُعْلِنُ أَسْفَارًا جَدِيدَةً تُضَافُ إِلَى تِلْكَ الَّتِي خَطَطْتَهَا، يَا صَاحِبَ الرُّؤْيَا.

**قَالَ الْفُوتُوغْرَافِيُّ الْعَجُوزُ**: وَكَمَا تَبْدَأُ كُتُبُ الطُّقُوسِ بِبَازٍ وَأُفْعُوَانٍ، تَبْدَأُ حِكَايَتُنَا بِشَاعِرٍ هَارِبٍ وَفُوتُوغْرَافِيٍّ عَجُوزٍ.

شَاعِرٌ وَفُوتُوغْرَافِيٌّ لَا يَحْمِلَانِ سِوَى تَرْتِيلَةٍ مِنْ ضَوْءٍ أُطْلِقَتْ فِي لَيْلِ الْحُدُودِ، فَارْتَطَمَتْ بِالسَّمَاءِ، ثُمَّ عَادَتْ إِلَيْنَا... صَدًى مَكْسُورًا يُنَادِينَا بِأَسْمَائِنَا الْقَدِيمَةِ.

**قَالَتْ جَوْقَةُ الْأَشْبَاحِ**: أَوَّلُ الْخُطُوَاتِ لَمْ تَكُنْ خُطْوَةً... كَانَتْ خِيَانَةً.

يَا بَرْقَ الرَّبِّ، عَلِّمْنَا كَيْفَ نُغَنِّي دُونَ أَنْ نُخْطِئَ الطَّرِيقَ.

يَا مَنْ يَسْمَعُ الصَّوْتَ حِينَ يَنْكَسِرُ، خُذْ هٰذَا الْإِنْشَادَ، وَلَا تَتْرُكْهُ لَنَا.

**قَالَ الْفُوتُوغْرَافِيُّ الْعَجُوزُ**: سَأَطْبَعُ الصُّوَرَ عَلَى رَقِّ الْخَيَالِ، وَأَبْدَأُ مِنَ النِّهَايَةِ، حِينَ صَارَ الظِّلُّ كِتَابًا، وَالصُّورَةُ مَزْمُورًا ضَائِعًا فِي الْأَرْشِيفِ السَّمَاوِيِّ.

سَأَطْبَعُ الصُّوَرَ كَسَرَابٍ يَشْتَعِلُ بَيْنَ السُّطُورِ، وَأَسْتَعِيدُ بَذْرَةَ إِلٰهٍ هَائِجٍ فِي الْأُفُقِ الْمَرْسُومِ، يَتَضَاءَلُ مَعْنَاهُ وَيَبْتَعِدُ، وَيَزْدَادُ ظُلْمَةً... اسْتَحْضِرْ مَا انْطَفَأَ مِنْ ظِلِّ الرُّوحِ كَصَرْخَةٍ خَابِيَةٍ... اسْتَرْجِعْ مَا نَبَتَ مِنْ أَعْشَابِ الْقَبْرِ، وَهِيَ تُطَوِّقُ سَاقِيَةَ الْمَوْتِ، كَكَهَنَةٍ مِنْ حَجَرٍ يَحْرُسُونَ مَذْبَحَ الْفَاجِعَةِ...

تَذَكَّرْ... تَذَكَّرْ... قَبْلَ أَنْ نُصْبِحَ مَا تَحَدَّيْنَاهُ...

تَذَكَّرْ حِينَ طَوَّقَنَا الْعَسْكَرُ، وَتَهَاوَتْ كُؤُوسُ الْقَدَرِ عَلَى أَرْصِفَةٍ مِنْ دَمٍ، وَأَعْمِدَةٍ مِنْ ضَبَابٍ...

كَانَتْ خُطُوَاتُنَا تُفْرِزُ حَنِينًا كَالنَّدَى، وَتَشُقُّ أَقْفَاصَ الْمَجْهُولِ كَمَا تَفْعَلُ الْمَلَائِكَةُ حِينَ تَهْبِطُ بِغَيْرِ أَجْنِحَةٍ...

كَانَتْ مُقَامَرَةُ الْمَصِيرِ تُدَحْرِجُ أَعْمَارَنَا كَحَبَّاتِ قَمْحٍ فِي غِرْبَالِ الْقِيَامَةِ...

كَانَ حَصَادُ السَّنَابِلِ فَوْقَ أَعْشَاشِ الْمَوْتِ يَرْتُقُ الْخَرَابَ بِخُيُوطٍ مِنْ رَمَادٍ...

وَكَانَ الْأُفُقُ - ذٰلِكَ الْعَارِي كَالْأَطْلَالِ - يَمِيلُ عَلَى وُجُوهِنَا مَيْلَ قِدِّيسٍ ضَائِعٍ عَنْ دَيْرِهِ.

**قَالَتْ جَوْقَةُ الْأَشْبَاحِ**: أَلْفُ مَوْتٍ عَلَى كَتِفِ إِيكَارَ، وَلَا شَمْسٌ وَاحِدَةٌ تَحْرُسُ ظِلَّهُ.

**قَالَ الْفُوتُوغْرَافِيُّ الْعَجُوزُ**: سَأَبْدَأُ مِنَ الطَّوْقِ الْأَوَّلِ، مُذْ طَوَّقَ الظَّلَامُ إِيكَارَ بِأَلْفِ مِيتَةٍ، وَأَلْفِ حَتْفٍ، وَأَلْفِ فَاجِعَةٍ تَتَسَابَقُ لِاخْتِرَاقِ جَسَدِهِ... وَبِأَلْفِ شَرٍّ يُطْبِقُ كَمَا تُطْبِقُ السِّكِّينُ عَلَى الْقَلْبِ، وَبِأَلْفِ جُثْمَانٍ لِفِرَاشٍ كَئِيبٍ، وَبِأَلْفِ دَوَّامَةٍ مِنَ الْإِعْصَارِ... وَبِفَوْجٍ مِنَ الْعَسْكَرِ، كَإِخْوَةِ يُوسُفَ وَقَدْ تَاهَتْ مَلَامِحُهُمْ، رَمَوْا إِيكَارَ بِرَصَاصٍ لَمْ يَتَعَلَّمْ إِلَّا الطَّاعَةَ... فَتَكَبَّلَتْ دِمَاؤُهُ بِدِلَاءٍ صَدِئَةٍ، وَمَاتَ النَّهَارُ، وَانْدَلَعَتِ الْمَوَاجِعُ تُتَوِّجُ الْمَوَاجِعَ، وَالظَّلَامُ يَرْسُمُ الْبَهْجَةَ فِي قَلْبِ الظَّلَامِ... وَقَفَ كَزَهْرَةٍ أُصِيبَتْ بِالْخَدَرِ، تُقَاسِمُ الْحُطَامَ نَيْزَكَ سُقُوطِهَا، فَتُطَأْطِئُ رَأْسَهَا، وَتَنْهَارُ مُصَابَةً بِالدُّوَارِ،

كَمَلَاكٍ نَسِيَ أَنْ يَفْتَحَ جَنَاحَهُ... وَهَا أَنَا أَقِفُ أَمَامَكُمْ الآن، أَلْتَقِطُ صُورَةً تَجْمَعُنِي بِنَاسِخٍ اخْتَلَفَتْ عَلَيْهِ الْقِرَاءَاتُ، كَمَا تَخْتَلِفُ الْأَنَاجِيلُ بَيْنَ مَنَاجِمِ الْغَيْبِ.
**قَالَتْ جَوْقَةُ الْأَشْبَاحِ**: لَمْ تُكْتَبِ الصُّورَةُ مِنَ الْعَيْنِ، تُكْتَبُ مِنْ نَفْسٍ تَكْتُبُ نَفْسَهَا.
**قَالَ الْفُوتُوغْرَافِيُّ الْعَجُوزُ**: لَمْ أُصَوِّرْ رِيشَ الرُّؤْيَا وَهُوَ يَكْتَسِي بِزَغَبٍ ذَهَبِيٍّ، وَلَا كَيْفَ قَطَفَ السَّرْدُ فَاكِهَتَهُ الْمُحَبَّبَةَ...
لَمْ أُصَوِّرْنِي وَأَنَا أَفْتَحُ كِتَابَ الْأَنَاشِيدِ كَمَنْ يَفْتَحُ مُعْجَمَ الْأَسْرَارِ...([10])
لَمْ أُصَوِّرْ كَيْفَ صَوَّرْتُ إِيكَارَ مَرْسُومًا عَلَى أَعْلَامِ غِرْبَانٍ مُمَزَّقَةٍ...
كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّ الشَّيْخُوخَةَ تَذُرُّ رَمَادَهَا عَلَى حُدُودِ أَيَّامِي، وَأَنَّهُ لَا سُلْطَانَ لِي عَلَى إِطْلَاقِ سَرَاحِ الْكَوَاكِبِ، أَوْ فَتْحِ أَزْهَارِ الزَّعْفَرَانِ الْمُتَلَعْثِمَةِ.

لٰكِنِّي مَضَيْتُ بِهِ إِلَى ضَوْءٍ يَدْفَعُ رَأْسَهُ الْأَمْلَسَ عَبْرَ الْأَغْصَانِ وَالشُّقُوقِ وَالْقَنَوَاتِ، وَعَبْرَ مِيَاهٍ تُخَدِّرُ الْحُلْمَ بَيْنَ جَدَاوِلَ نَاعِسَةٍ.

مَضَيْتُ بِهِ إِلَى مَوْتٍ يُبْهِجُ بِأَشْكَالِهِ سَوَاقِيَ ضَحْلَةً، تَقْفِزُ فَوْقَ حَوَاجِزَ خَفِيَّةٍ، وَتَشُمُّ هَوَاءً فَاسِدًا...
فِكْرَتِي غَامِضَةٌ، غُمُوضَ قُفْلٍ فَقَدَ ذَاكِرَةَ مَفَاتِيحِهِ، وَأَنَا أَمْضِي لِأَجْرُفَ الْحَسَرَاتِ مِنْ شِبَاكِهَا الَّتِي عَلَّقَتْهَا الْأَرْوَاحُ عَلَى حِبَالِ الْقِيَامَةِ.

وَكُنْتُ أَقُولُ:
أَيُّهَا الْخَيَالُ، ضَعْ وِشَاحَكَ عَلَى كَتِفِ الْمَعْنَى، فَوَرَاءَ ذٰلِكَ الْجَبَلِ لَا مَدًى يَضِيقُ عَلَى عَابِرِ النُّورِ...

---

[10]- هَامِشُ بَوَّابَةِ الْحِبْرِ

(لَمَّا فَتَحْتُ الدَّوَاةَ، لَمْ أَرَ حِبْرًا... رَأَيْتُ نَهْرًا أَسْوَدَ يَجْرِي مِنْ زَمَنٍ لَا يَنْتَمِي إِلَى لَيْلٍ وَلَا نَهَارٍ. وَكَانَ النَّهْرُ يَتَهَامَسُ مَعِي وَيَقُولُ: "اكْتُبْ... فَمَهَمَّتُكَ لَيْسَتْ أَنْ تَكْتُبَ النَّصَّ، وَإِنَّمَا أَنْ تَفْتَحَ الْبَابَ الَّذِي يَخْرُجُ مِنْهُ النَّصُّ وَحْدَهُ)... **وَكَتَبْتُ هَامِشًا فِي الْهَامِشِ**:
(يَا مَنْ تَقْرَأُ هَذَا: لَا تَثِقْ بِالصَّفَحَاتِ الْبِيضِ، فَإِنَّهَا تُخْفِي وَرَاءَهَا جَبَلًا مِنَ الْكُتُبِ الْمَخْزُونَةِ فِي الرُّؤُوسِ وَحْدَهَا).

وَرَاءَهُ فَرَاشَاتٌ تُحَلِّقُ كُلَّمَا جَرَّتْهَا الثِّمَارُ نَحْوَ جَنَّةِ عَدْنٍ زَاهِيَةٍ، وَهُنَالِكَ تَنْبُتُ الْعَوَاصِمُ كَالْأَسْئِلَةِ، مُدُنٌ مُزَيَّنَةٌ بِتُرُوسِ الرَّبِيعِ وَجِيَادِهِ الْخُرَافِيَّةِ...
أَمَّا الْأَرْخَبِيلَاتُ الَّتِي لَمْ تَعِشْ فِي ذِهْنِكَ إِلَّا كَحُلْمٍ، فَهُنَاكَ تَجِدُهَا بِمَوَانِئِهَا، وَأَشْرِعَتِهَا، وَقِبَابِهَا الْهَائِمَةِ فِي ضَبَابِ الْأَعَالِي.

وَأَنْتَ، أَيُّهَا الْهَارِبُ كَسَحَابَةٍ رَمَادِيَّةٍ، تَمْضِي بِجَانِبِ الرَّذَاذِ الْمُتَسَاقِطِ كَطِفْلٍ بَهْجَةٍ، تَحْمِلُهُ مَحْظِيَّاتُ الْخَدِيعَةِ إِلَى مَسْرَحٍ مَحْرُوقٍ، وَتُقَدِّمُهُ الْجَوْقَةُ قُرْبَانًا لِمَشْهَدٍ مَحْذُوفٍ...
وَأَنَا الْفُوتُوغْرَافِيُّ، لَمْ أُصَوِّرْكَ وَسْطَ شَجَرَاتٍ جَافَّةٍ وَأَبْقَارٍ هَزِيلَةٍ، وَلَمْ أَرْسُمْكَ تَحْتَ سَمَاءٍ مُرْهَقَةٍ، وَلَمْ أُجَسِّمْكَ فَوْقَ نَهَارَاتٍ مَكْسُورَةٍ...
لَا... لَا، لَمْ آخُذْ لَكَ صُورَةً بِآلَةِ تَصْوِيرٍ.

سَأَرْسُمُكَ عَلَى وَرَقِ الْخَيَالِ بِفُرْشَاةٍ لَا يُصَدِّقُهَا اللَّوْنُ، وَلَا يَحْكُمُ عَلَيْهَا الْمَعْنَى بِنَفْيٍ أَوْ إِثْبَاتٍ...
تَارِكًا فِي الظِّلِّ صُوَرًا غَامِضَةً، وَمَوْتًا لَا يَكْتُبُهُ السَّرْدُ، وَيَعْجِزُ عَنْ شَرْحِهِ اللَّاهُوتُ...
لَا يَتَكَهَّنُ بِهِ غُنُوصٌ يَنْهَضُ مِنْ طِينِ الضَّوْءِ، وَلَا يَنْطِقُهُ إِنْشَادٌ سُرْيَانِيٌّ يَتَصَبَّبُ مِنْ حَنْجَرَةِ الْمَسَاءِ...

وَلَا يَجْهَرُ بِهِ مِدْرَاشُ السَّقْطِ، وَلَا الصُّوَرُ الظِّلِّيلَةُ، وَلَا يَسْتَشِفُّ مَعْنَاهُ طَقْسٌ كَنَسِيٌّ يَطْرُقُ أَبْوَابَ الْأَرْوَاحِ الْمُعَلَّقَةِ بَيْنَ الْمَخَافِرِ وَالْغِيَابِ.[11]

---

11-كَأَنَّ هَذِهِ الْهَوَامِشَ كَتَبَهَا (مُنَاضِلٌ مُرْتَدٌّ) يَتَحَدَّثُ بِصَوْتٍ مُظَلَّلٍ، أَوْ (سَاحِرٌ مُسْتَكْتَبٌ) يَكْتُبُ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ الرَّقَّ يَكْتُبُهُ أَيْضًا، أَوْ (نَاسِخٌ رُؤْيَوِيٌّ) بَاطِنِيٌّ يَكْتُبُ تَحْتَ الضَّوْءِ الضَّعِيفِ لِسِرَاجٍ يُوشِكُ أَنْ يَنْطَفِئَ.
وَرُبَّمَا يَكُونُ الْكَاتِبُ الْحَقِيقِيُّ هُوَ (رَاهِبٌ مُنْعَزِلٌ)، تَرَكَ صَوَامِعَهُ بَعْدَ رُؤْيَا مُحَطِّمَةٍ، وَبَدَأَ يَنْسَخُ الْمَخْطُوطَةَ الْكُبْرَى، لَكِنَّهُ كَانَ يَتْرُكُ فِي الْحَوَاشِي سِفْرًا آخَرَ يَهْمِسُ بِهِ لِنَفْسِهِ، وَيُخْفِيهِ عَنْ مُؤَلِّفِ الْكِتَابِ، وَيُخَاطِبُ فِيهِ الْأَرْوَاحَ الْعَالِقَةَ بَيْنَ الْحُدُودِ.

**قَالَتْ جَوْقَةُ الْأَشْبَاحِ**: فِي الْغِيَابِ... فِي الظِّلَالِ [12] الْغَائِبَةِ وَرَاءَ رَمَادِيَّةِ الْمُدُنِ الْبَعِيدَةِ، فِي ظِلَالِ الْيَأْسِ وَانْسِحَابِ الرُّوحِ مِنَ الْبَدَنِ، فِي ظِلَالِ الذُّعْرِ وَرَمْيَةِ الْهَلَاكِ مِنْ قَوْسِهِ الْمُشِعِّ...
مِنْ هُنَاكَ، مِنْ مَوْتِ الْأَلْفَاظِ وَبَرَدِ رَمَادِهَا، يَبْدَأُ السِّرُّ.

**قَالَ الْفُوتُوغْرَافِيُّ الْعَجُوزُ**: هَا نَحْنُ الْآنَ عَلَى تُخُومِ الرُّؤْيَا، وَاللَّيْلُ يَفْتَحُ فَمَهُ عَلَيْنَا كَحُوتٍ يَبْتَلِعُ مَزْمُورَهُ الْأَخِيرَ...
وَأَنَا أَرَى خُطُوَاتِنَا تَرْتَجِفُ عَلَى الثَّلْجِ، كَمَا تَرْتَجِفُ شَمْعَةٌ فِي مَعْبَدٍ... الْمَعْبَدِ الَّذِي أُهْمِلَ بَخُورُهُ مُنْذُ أَلْفِ مَنَاحَةٍ...
وَتَذَكَّرْتُ حِينَ قُلْتَ لِي:
(اطْبَعْنِي عَلَى وَرَقٍ لَا يَهْرَمُ، عَلَى جِلْدِ حُلْمٍ لَا يَتَقَشَّرُ).

وَكُنْتُ، يَا إِيكار، أَبْحَثُ عَنْ وَرَقٍ يَلِيقُ بِصُورَةٍ لَا تَحْتَمِلُهَا الْغُرْفَةُ الْمُظْلِمَةُ، وَلَا يَحْتَمِلُهَا حَارِسُ الْحُدُودِ، وَلَا حَتَّى مَلَاكٌ مُتْعَبٌ يَحْمِلُ مَشَاعِلَ الْعَابِرِينَ.
**قَالَتْ جَوْقَةُ الْأَشْبَاحِ**: طُوبَى لِلْعَابِرِينَ الَّذِينَ تَنْهَمِرُ عَلَيْهِمْ أَلْوَانُ قَوْسِ قُزَحَ... طُوبَى لِهَارِبٍ مِنْ قُوَّةِ الشَّرِّ.

---

[12]- هَامِشُ الظِّلَالِ (يُتْلَى عِنْدَ غِيَابِ الْوُجُوهِ وَارْتِجَافِ الْحِكَايَاتِ): فِي الْبَدْءِ لَمْ يَكُنْ نُورٌ وَلَا ظَلَامٌ، إِنَّمَا ظِلٌّ يَتَرَدَّدُ بَيْنَهُمَا كَطِفْلٍ حَائِرٍ يَبْحَثُ عَنْ صَدَاهُ... قَالَتِ الظِّلَالُ لِي: "نَحْنُ مَنْ يَكْتُبُ الْعَالَمَ بِالْخَفَاءِ، وَالْمُضِيءُ لَا يُدْرِكُنَا، كَمَا لَا يُدْرِكُ الْأَعْمَى لَوْنَ الْحَرِيقِ". ثُمَّ رَأَيْتُ ظِلَّ الشَّاعِرِ الْهَارِبِ قَبْلَ أَنْ أَرَى جَسَدَهُ، وَظِلَّ إِيكارَ قَبْلَ أَنْ يَسْقُطَ جَنَاحُهُ، فَعَرَفْتُ أَنَّ الظِّلَالَ أَسْبَقُ مِنَ الْحَيَاةِ، وَأَوْفَى مِنَ الذَّاكِرَةِ... فَيَا مَنْ تَقْرَأُ، إِيَّاكَ أَنْ تَظُنَّ الظِّلَّ تَابِعًا، فَهُوَ الْكَاتِبُ الْأَوَّلُ، وَالْأَجْسَادُ تَوَاقِيعُهُ الْمُرْتَجِفَةُ... وَمَنْ جَهِلَ ظِلَّهُ ضَاعَ فِي الْهَوَاءِ كَنِدَاءٍ لَمْ يَجِدْ حَنْجَرَةً يَبْقَى فِيهَا.

# إصحاح

4

## (الفوتوغرافيّ العجوز من كتاب الظلال والعدسات)

أكتبُ هذه الصفحاتِ بالكاميرا، لأنَّ القلمَ لا يعرفُ كيف يلتقطُ ما لا يمكنُ قولُه.[13] أكتبُ بالضوء، لكنَّ الضوءَ يهربُ منِّي منذُ وُلِدتُ... كنتُ أبحثُ طوالَ عُمري عن صورةٍ واحدةٍ تشرحُ لماذا يُولَدُ البشرُ على الحدود، ويموتون قبل أن يصلوا إلى أيِّ مكان...

رأيتُ في إيكار شيئًا لم أفهمْهُ: ظلًّا يمشي أمامَه بسرعةٍ أكبرَ من خُطوتِه، وقميصًا آخرَ يُرفرفُ خلفَه، كأنَّه لا يزالُ محترقًا بأجنحةٍ ذابتْ قبل أن أُولَد...

التقطتُ صورةً له يومَ سقوطِه، فلم يظهرْ فيها جسدٌ، ولا دمٌ، ولا رملٌ... ظهرتْ ثلاثةُ وجوهٍ: وجهي أنا، ووجهُ جنديٍّ لا أعرفُه، ووجهُ رجلٍ يشبهُه ويشبهُني... وكان الثلاثةُ ينظرون إليَّ. عندها علمتُ أنَّني التقطتُ صورةً مستحيلةً، صورةً لحقيقةٍ لا تريدُ أن تُرى...

وعرفتُ أنَّني لستُ شاهدًا عليه... هو الشاهدُ عليَّ... وأنَّ عدستي ليستْ مرآةً... إنَّها ثقبٌ صغيرٌ تُطلُّ منه النبوءة...

تعلَّمتُ أنَّ الصورةَ ليستْ حفظًا للوقت، وأنَّ كلَّ وجهٍ تلتقطُه الكاميرا يخسرُ لحظةً من روحِه لصالحِ اللحظةِ التي اخترتَها له... فكتبتُ وصيَّتي:

---

13- يَا رَبَّ الْحِبْرِ، يَا سَاكِنَ فِضَّةِ الْأَقْلَامِ، إِنِّي أُدَوِّنُ مَا لَا يُدَوَّنُ، وَأَحْفِرُ بِأَظَافِرِي عَلَى حَوَافِّ الرَّقِّ مَا تَرْتَعِدُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ فِي مَخَادِعِهَا.

- (لا تبحثوا عن الحقيقةِ في وضوحِ الصورة، ابحثوا في الظلالِ التي تتردَّدُ خلفَها، فالضوءُ لا يحفظُ شيئًا... الظلالُ وحدَها تحفظُ الأسرار).[14]

## هَوامِشُ الظِّلالِ

1. **في مِيلادِ الظِّلِّ الأَوَّلِ**: قَبْلَ أَنْ تُخْلَقَ الشُّموسُ، وُلِدَ الظِّلُّ. كانَ جَسَدًا بِلا لَحْمٍ، وَكَيْنونَةً تَتَدَلّى مِنْ فَراغٍ لَمْ يُفْتَحْ بَعْدُ... لَمْ يَكُنْ لِلضَّوْءِ أَبٌ يَوْمَئِذٍ، فَمَشى الظِّلُّ بِلا صاحِبٍ، يَبْحَثُ عَنْ هَيْئَةٍ يَسْكُنُها، وَيَنْتَظِرُ كائِنًا يَخافُ، أَوْ كائِنًا يَكْذِبُ، لِيَلْتَصِقَ بِهِ.

2. **في عُقْدَةِ الظِّلالِ**: تَقولُ الأَساطيرُ إِنَّ الظِّلالَ ثَلاثَةٌ: ظِلٌّ يَعْرِفُكَ أَكْثَرَ مِمّا تَعْرِفُ نَفْسَكَ، وَظِلٌّ يَسْبِقُكَ لِأَنَّهُ يَخافُ مِمّا سَتَفْعَلُهُ، وَظِلٌّ يَتَأَخَّرُ عَنْكَ لِأَنَّهُ يَخْشى رُؤْيَتَكَ وَأَنْتَ تَسْقُطُ... وَهُناكَ ظِلٌّ رابِعٌ لا يَعْرِفُ عَنْهُ أَحَدٌ، هُوَ ظِلُّ الخَطيئَةِ قَبْلَ أَنْ تُرْتَكَبَ، يَتَجَوَّلُ في الأَزِقَّةِ مِثْلَ كَلْبٍ أَسْوَدَ يَبْحَثُ عَنْ جَسَدٍ يَفْهَمُهُ.

3. **في تَمَرُّدِ الظِّلالِ عَلَى الأَجْسادِ**: ذاتَ لَيْلَةٍ انْشَقَّ القَمَرُ نِصْفَيْنِ، فَسَقَطَتِ الظِّلالُ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِ النّاسِ كَما تَسْقُطُ الثِّمارُ الفاسِدَةُ... تَقَدَّمَتِ الظِّلالُ عَلَيْهِمْ، وَوَقَفَتْ وَجْهًا لِوَجْهٍ أَمامَ أَصْحابِها، وَقالَتْ: (لَقَدْ أَنْهَكْتُمونا بِأَكاذيبِكُمْ وَنَدَمِكُمْ، وَسَنَمْشي وَحْدَنا هٰذِهِ المَرَّةَ). وَمُنْذُ ذٰلِكَ اليَوْمِ، لَمْ يَعُدِ اللَّيْلُ مُجَرَّدَ ظُلْمَةٍ، أَصْبَحَ جوقَةً مِنْ ظِلالٍ هارِبَةٍ تَتَذَكَّرُ كَيْفَ خانَها البَشَرُ كُلَّما خافوا.

4. **في الظِّلِّ الَّذي لا يَعودُ**: هُناكَ ظِلٌّ واحِدٌ لا يَرْجِعُ إِلى صاحِبِهِ أَبَدًا، ظِلُّ الَّذينَ ماتوا دُونَ أَنْ يُوَدِّعوا أَحَدًا. إِنَّهُ يَمْشي حَتّى آخِرِ اللَّيْلِ، ثُمَّ يَقِفُ فَجْأَةً، كَأَنَّ يَدًا غَيْرَ مَرْئِيَّةٍ قَبَضَتْ عَلى صُراخِهِ. قالَتِ العَجائِزُ: (إِذا رَأَيْتَ ظِلًّا لا يَتْبَعُ أَحَدًا، فَارْفَعْ يَدَكَ لَهُ، لَعَلَّهُ يَعْرِفُ أَنَّ ثَمَّةَ بَشَرًا ما زالوا يَتَذَكَّرونَهُ).

---

[14]- على يميني، كانتْ قوافلٌ من الظلالِ تمرُّ، تحملُ أطفالًا بلا أعمارٍ، وخرائطَ بلا اتّجاهاتٍ، كأنَّ العالمَ كلَّه أُعيدَ رسمُه ليكونَ طريقًا واحدًا يصعدُ نحوَ العدم.

5. **في يَوْمِ تَنْفَصِلُ الظِّلالُ عَنِ العالَمِ**: في آخِرِ الأَزْمِنَةِ سَيَتْعَبُ الضَّوْءُ مِنْ مُلاحَقَةِ نَفْسِهِ، وَسَيَتْعَبُ اللَّيْلُ مِنْ حَمْلِ أَحْلامِ النّاسِ، فَتَرْجِعُ الظِّلالُ إلى أَصْلِها، إِلى الغُرْفَةِ الَّتي لا نَعْرِفُها، حَيْثُ وُلِدَتْ قَبْلَ الضَّوْءِ... هُناكَ تَجْلِسُ الظِّلالُ صَفًّا واحِدًا، وَتَقْرَأُ أَسْماءَ الَّذينَ الْتَصَقَتْ بِهِمْ: مَنْ خانوا، وَمَنْ أَحَبُّوا بِشَراسَةٍ، وَمَنْ كَذَبوا لِنَجاةٍ صَغيرَةٍ، وَمَنْ ماتوا وَلَمْ يَنْتَهوا... ثُمَّ تُطْفَأُ الشَّمْعَةُ الكُبْرى، فَيَنْتَهي اللَّيْلُ وَالنَّهارُ مَعًا، وَلا يَبْقى إِلّا ظِلٌّ واحِدٌ، هُوَ ظِلُّ الحَقيقَةِ الَّتي لا ظِلَّ لَها.

## حَواشِي (ناسِخِ الهامِشِ) عَلى (هَوامِشِ الظِّلالِ)

(بِخَطٍّ ضَئيلٍ كَأَنَّ اليَدَ تَرْتَجِفُ مِنْ شِدَّةِ العِلْمِ)

1. **حاشِيَةٌ عِنْدَ ميلادِ الظِّلِّ**: يَقولونَ إِنَّ الظِّلَّ وُلِدَ قَبْلَ النُّورِ... لٰكِنّي وَجَدْتُ في النُّسْخَةِ القَديمَةِ جُمْلَةً مَشْطوبَةً: (الظِّلُّ مُحاوَلَةُ العالَمِ في صِناعَةِ جَسَدٍ آخَرَ لِلْمَوْتِ).

2. **حاشِيَةٌ حَوْلَ عُقْدَةِ الظِّلالِ**: أَخافُ الظِّلَّ الرّابِعَ. لَمْ أَرَهُ، لٰكِنّي أُحِسُّ بِثِقَلِهِ قُرْبَ كَتِفي كُلَّما نَسَخْتُ سَطْرًا مَأْخوذًا مِنْ رُوحِ أَحَدِهِمْ.

3. **حاشِيَةٌ عَلى تَمَرُّدِ الظِّلالِ**: كُنْتُ هُناكَ لَيْلَةَ انْشَقَّ القَمَرُ... لَمْ يَنْشَقَّ، إِنَّما فَرَّتْ مِنْهُ نارٌ صَغيرَةٌ أَطْفَأَتْ نُورَ البَشَرِ في أَعْماقِهِمْ، فَظَهَرَتِ الظِّلالُ عَلى حَقيقَتِها.

4. **حاشِيَةٌ عَلى الظِّلِّ الَّذي لا يَعودُ**: رَأَيْتُ ظِلًّا بِلا جَسَدٍ عِنْدَ بِئْرٍ قَديمَةٍ... اقْتَرَبَ مِنّي وَقالَ: (لَوْ كَتَبْتَ اسْمي في السِّفْرِ، أُعِدْ إِلَيْكَ ظِلَّكَ الَّذي أَخَذوهُ...). لَمْ أَجْرُؤْ عَلى الإِجابَةِ.

5. **حاشِيَةٌ أَخيرَةٌ**: يا قارِئَ هٰذِهِ الحَواشي، اعْلَمْ أَنَّ الظِّلَّ الَّذي يَقِفُ خَلْفَكَ الآنَ لَيْسَ لَكَ تَمامًا... إِنَّهُ يَقيسُ حَجْمَ أَسْرارِكَ.

٤

# النشيدُ الرابع

**قالَ الفوتوغرافيُّ العجوزُ**: مضينا... والأرضُ نفسُها صارتْ كفنًا يلفُّ خطواتِنا المُتهالكة... المدنُ التي وعدتُكَ بها كانتْ تقتربُ مثلَ أمَّهاتٍ يبحثْنَ عن أطفالٍ ضاعوا في مزاراتِ الحرب... قلتُ لكَ: وراءَ هذا الجبلِ تسكنُ المدنُ التي تُناديكَ... مدنٌ تُبنى بالأساطيرِ والحنينِ وأحلامِ الصبايا عندَ الغروب... وقلتَ لي: هل تراني سأصلُ إليها؟ أم سأبقى هنا بينَ مواضعِ الجنودِ وأقفاصٍ تمنعُ الطيورَ من التغريد؟ فوضعتُ كاميرتي على صدري كصليبٍ مكسورٍ، وقلتُ لكَ: سنصلُ، ولو مشينا على رفاتِ الضوء، ولو سبحنا في دمِنا... سنصلُ ونحنُ نُردِّدُ تَسبيحةَ مَنْ لا اسمَ لهُ.

**قالتْ جوقةُ الأرواح التائهة**: لا اسمَ لهُ، غيرُ نورٍ على شفةِ الحبر... لا اسمَ لهُ، لكنَّه يمشي كمن يحملُ فوقَ كتفيهِ رقصةَ الخلاصِ المُقبلة... يمشي كآخرِ الجوقاتِ حين تضيعُ نغمتُها، فترتفعُ إلى سماءٍ لا أحدَ يفهمُ لغتَها إلَّا العابرون... لا اسمَ لهُ، لكنَّكَ ما زلتَ تُلاحقُهُ بكاميرتِكَ التي تهوي وتتعثَّرُ وتكادُ تبكي، كأنَّها تعرفُ أنَّ الصورَ تُلتقطُ للحروبِ فقط.

يا ملاكَ العبورِ الأعمى، تقدَّمْ أمامَنا وافتحْ لنا أبوابَ السِّرِّ.

**قالَ الفوتوغرافيُّ العجوزُ**: اليأسُ مُبلَّلٌ، والأوراقُ مُبلَّلةٌ، والخيالُ مُبلَّلٌ، والكاميرا مُبلَّلةٌ... الكلماتُ تتسلَّلُ هاربةً، والمعنى بلا دهشةٍ... وأنا لن أُصوِّرَ كلَّ شيء... لا أريدُ للعدسةِ أن تلتهمَ ما تبقَّى من أرواحِنا... سألتقطُ صورةً سريعةً للملاكِ الأعمى الذي يُشبهُ اللهيبَ حين ينطفئ... وصورةً أُخرى لسوطِ البرقِ الذي يُشبهُ الجناحَ حين يفقدُ الطيران... أمَّا باقي الصور، فسأتركُها في الغرفةِ المُظلمة، حيثُ سكراتُ الموتِ تتحوَّلُ إلى لغزٍ... واللغزُ يتحوَّلُ إلى طقسٍ، والطقسُ يتحوَّلُ إلى نشيدٍ لا يجرؤُ أحدٌ على إنشادِه إلَّا مَنْ مشى ذاتَ ليلةٍ بينَ المخافرِ والحدود.

**قالتْ جوقةُ الأرواح التائهة**: يا ملاكَ العبورِ الأعمى، لِمَ لا تظهرُ هذه الصور؟ أظهِرْ لنا ناموسَ الألم.

**قالَ الفوتوغرافيُّ العجوزُ**: بالنَّفَسِ المذبوحِ الذي يظهرُ بِلِباسِ الدراويشِ، باللِّسانِ الذي يتصبَّبُ من جرحٍ ناطقٍ، بالطَّقسِ الذي يفتحُ أبوابَهُ للغبار، بالضَّحكاتِ المنسيَّة، بالدَّمِ الذي يكتبُ ذاتَه، وبصوتِ المُرارةِ حين يصيرُ أيقونةً تُتلى على مذابحِ الضوء، وتُسمَعُ فقط مِنَ الذين عبروا الحدودَ على هيئةِ أرواحٍ سائحة...

وكما يُلوِّحُ ملاكٌ أعمى بجناحٍ مكسورٍ لِمَنْ لا يصلون أبدًا، قلتُ: أُصوِّرُ الغروبَ الذي يقودُ العدمَ الغَسَقيَّ على متنِ بارجةٍ خرساء، كي يلمحَ برقًا عابرًا من بروقِ خرافةٍ تجوسُ سرًّا في بحارٍ تنزلقُ فوقَها الأساطير...

وقلتُ: أُصوِّرُ، لعلَّ ضحكاتٍ تُلوِّحُ في الذاكرة [15]... لعلَّ العذبَ يخرجُ من زحامِ اللغة، ومن أنقاضٍ كانتْ ذاتَ يومٍ مكتباتٍ لسلالاتٍ من الهاربين...

فليشُقَّ صوتُكَ، أيُّها البشيرُ، غرانقَ الماءِ وحيتانَهُ، وليعصفِ الغبارُ الاحتفاليُّ بميتةٍ غاسقةٍ، راسمًا حلقاتٍ من أحمَرِ الشفاهِ حولَ حُلمةِ المكان...

وأنا، كفوتوغرافيٍّ، أُصوِّرُ كيف تركتُ إيكارَ يهرولُ إليَّ، يرفعُ جناحَهُ كسراجٍ يُحاولُ أن يتماسكَ قبلَ أن ينطفئ. أُصوِّرُ كيف تركتُهُ في مغزلِ الهَزيعِ، كخيطٍ من ضوءٍ يبحثُ عن إصبعِهِ... أُصوِّرُ كيف أغلقتُ عينيَّ وتركتُ وجهًا أشرقتِ الشمسُ من أجلِهِ، دخلَ النورُ جبينَهُ، وأضاءَ اختلافَهُ...

تركتُهُ يُساقُ إلى مذابحِ السماءِ، مذابحَ لا يعرفُ أحدٌ مَنْ فيها القاتلُ، ومَنْ فيها القتيلُ... كانَ الماضي جنازةً، وكلُّ تعويذةٍ هي ترنيمةُ شكرٍ لاحتفالٍ قاتلٍ، وكانتِ الأرضُ ندبةً تمحو موضعَ الافتراقِ.

لا... لا... لن أُصوِّرَ كلَّ هذا...

فمي بوحُ الغافي في متاريسِ الدمعِ، ولغتي أهدأُ من غضبٍ ساكنٍ يبحثُ عن نبعٍ خارجَ نصيبِهِ من العطش، وكلماتي هي الفواصلُ التي تنشرُ خوفَ الزمنِ على بياضِ الصفحة...

لماذا أحتاجُ إلى ألفِ عينٍ لألتقطَ صورةً واحدةً؟ لماذا لم أُصوِّرْ حين رأيتُ إيكارَ يحتضنُ الشمسَ تحتَ جناحٍ مطعونٍ بكلِّ هجراتِ الوجع؟

---

15- عَنِ الذَّاكِرَةِ الْمَزْرُوعَةِ فِي دِرْعٍ مِنْ نُحَاسٍ (حَاشِيَةٌ مِنْ سِفْرِ الْأَسْرَارِ)

(دِرْعُ النُّحَاسِ هُوَ قَلْبُ الْإِنْسَانِ حِينَ يَقْسُو، وَحِينَ تُزْرَعُ فِيهِ ذَاكِرَةٌ، تُصْبِحُ الذَّاكِرَةُ حَجَرًا يَتَنَفَّسُ، وَحَارِسًا لَا يَنَامُ، وَخَصْمًا يُطَارِدُ صَاحِبَهُ فِي الْمَنَامِ).

ولماذا، حين تبادلتِ الحشودُ نخبَ إيكار، ورأيتُ السنابلَ مائلةً كداليةٍ ضربتْها الريحُ، هتفتُ: أنا القتيلُ.
تحتَ سماءٍ من الأزرقِ الكئيبِ يلتقي المُرُّ بالشَّروبِ.
وتحتَ رذاذِ الرعبِ في داخلي، رفرفتْ راياتُ الخوفِ الممزَّقة، فهيَّأتُ العدسةَ لجرحٍ آخرَ، واستعجلتُ السَّردَ بارتباكِ رُماةِ القنابل، أمسكتُ الكاميرا كما لو كانتْ مكنسةً، وكتبتُ كما تكتبُ ثمارٌ يابسةٌ تطوي مباهجَها عبرَ المراعي القاحلة...
ولكنْ... قبلَ هذا، وقبلَ أن أُصوِّرَ كلَّ شيء، سأُصوِّرُ الفزعَ الذي يسبقُ الفجر... سأُصوِّرُ الحاضرَ الواقفَ في حيرةٍ من أمرِه، ولا فراشاتٌ تُعزِّيه... ولْيتمهَّلْ هذا الموتُ، ليتمهَّلْ.
لن أُصوِّرَ المأساةَ صورةً صورةً، لن يُمزِّقَني الضبابُ، لن يهزَّني الانعكاسُ، ولن تكسرَ كاميرتي المَلهاةُ... من أجلِ نعمةِ رذاذِ حبرٍ يجفُّ على هذه الصفحة، رسمتُ الدمَ كصقرٍ يمرُّ وسطَ سحابةٍ عابرة...
أعددتُ للحربِ ضجيجَ انهياراتٍ جليديَّةٍ في وديانِ الكتابة ([16])، ولا قولَ لي... لا قولَ لأحد... لا شيء سوى موتٍ مثلَ جمرٍ ينحتُ نفسَهُ، ويُبرِدُ نفسَهُ، ويُضيءُ كمجزرةٍ مقدَّسةٍ.
**قالتْ جوقةُ الأرواح التائهة:** صوِّرْ، أيُّها الفوتوغرافيُّ، صوِّرْ كيف صارَ إيكارُ دمًا متروكًا ليصدأَ قربَ صخورِ الجبل، حيثُ تُفشي الأسرارُ ما يُلاطفُ خاطرَ الأُحجية، وتجأرُ الحيرةُ كأنَّها بقيَّةُ روحٍ مُدماة...
صوِّرْ صناجاتِ الخيانة، صوِّرِ البراديَ بلا شبابيك... صوِّرِ القتلى يرونَ في منامِهم مَنْ يُمزِّقُ أرديةَ العسكرِ الباليةَ بانتصارٍ مهووسٍ...
صوِّرْ فوجَ العسكر... صوِّرْ ماذا فعلتْ أسلحتُهم بجسدٍ كان يرفرفُ مثلَ ألفِ طائر... أيُّها الفوتوغرافيُّ، صوِّرْ كلَّ ذلك.
**قالَ الفوتوغرافيُّ العجوزُ:** سأُصوِّرُ الظلامَ بعدسةٍ مُهلوسةٍ، وسأدعُ الأشباحَ تتمهَّلُ، لأنَّ الليلَ لا يحتاجُ إلى استعجالٍ ليكشفَ أسماءَهُ...
أرواحٌ مُعلَّقةٌ، لا تهبطُ، تُرنِّمُ بصمتٍ، وتُرتِّلُ ما لم يُكتبْ بعد...

---

[16]- لَمْ يَكُنْ لِي أَنْ أَكْتُبَ، لَكِنَّنِي خِفْتُ أَنْ تَضِيعَ الْحِكْمَةُ بَيْنَ الْبَيَاضِ وَالسَّوَادِ، فَلَمَّا رَأَيْتُ السِّفْرَ الْأَصْلِيَّ يَشْهَقُ بِالرُّؤَى، فَتَحْتُ بَابًا صَغِيرًا فِي ظِلِّهِ، وَكَتَبْتُ فِيهِ مَا يُقَالُ هَمْسًا فِي أَدْيِرَةِ اللَّيْلِ.

فوجٌ من العسكرِ يرمي إيكارَ برصاصٍ لا يعرفُ الرحمة... كانتِ السماءُ تحتضنُ ثلجًا أشقرَ، وكانتِ الأرضُ قد أعدَّتِ الدروعَ، وأعدَّتِ المراثي، ورفعتْ مخاريطَ الرعبِ كأعلامٍ سوداءَ في الريح.

**قالتْ جوقةُ الأرواح التائهة:** دمٌ صغيرٌ يضعُ وجهَهُ في وجهِ العالم... ظلامٌ على ظلامٍ، ونورٌ لا يظهر... هذا هو ناموسُ الدمِ حين يكتبُ نفسَهُ.

**قالَ الفوتوغرافيُّ العجوزُ:** أرفعُ العدسةَ، أُخرجُ الصورَ من الظلِّ، أجمعُ دماءَ اللحظةِ كما تجمعُ الكنيسةُ بخورَها في مذبحٍ صغيرٍ، وأُصوِّرُ الأرواحَ وهي تهوي بينَ المخافرِ والحدود.

**قالتْ جوقةُ الأرواح التائهة:** الظلامُ على الأرضِ، والنورُ لا يُرى إلَّا في قلبِ العابرين... مُحاصَرون بينَ الخرابِ والرجاءِ، نحنُ نحملُ طيورَكَ، نحنُ نرفعُ أيدينا نحوَ سماءٍ بلا سقفٍ، نرفعُ دموعَكَ كأنَّها شموعٌ لا تنطفئ...

أرواحٌ لا تهبطُ، أرواحٌ مُعلَّقةٌ بينَ المخافرِ والحدود، تُردِّدُ صدى الموتِ قبلَ أن يُولد... أطفالُ الروحِ يسقطونَ في الليل، لكنَّنا نُردِّدُ نشيدَ النجاة، نُغنِّي للهواءِ وللماءِ، للفَراغِ بينَ الرصاصِ وأجنحةِ الطيور، للفزعِ الذي يسبقُ الفجر...

الدمُ جمرٌ، والهواءُ خنجرٌ، نصنعُ منهُ إنشادًا، ونُحيلُهُ صلاةً، ونحفظُهُ بينَ الضلوعِ لكي ترى العيونُ الميتةُ مرَّةً أُخرى ما لم ترَهُ الأحياء...

نسيرُ فوقَ الحُطام، نُغنِّي فوقَ التراب، ونهتفُ باسمِ كلِّ ضحكةٍ مهدورةٍ، وباسمِ كلِّ دمعةٍ لم تجدْ طريقَها إلى المحرابِ.

**قالَ الفوتوغرافيُّ العجوزُ:** ألتقطُ اللقطةَ: يتجمَّدُ الهواءُ، وصوتُ الرصاصِ يُصبحُ صدىً كنسيًّا، والدمُ يُصبحُ إنشادًا، والجناحُ المكسورُ يُصبحُ قوسَ المزامير، والزِّلزالُ في العيونِ يُصبحُ تدفُّقًا للضوءِ داخلَ الصورةِ الواحدة...

لا ضوءَ ينكسرُ إلَّا في قلبِ الأرواحِ المُعلَّقة، ولا ظلَّ يُسجَّلُ إلَّا على صفحاتِ الدمِ.

**قالتْ جوقةُ الأرواح التائهة:** انظروا... انظروا إيكارَ يرفرفُ بلا جناحٍ، والعسكرُ يسقطونَ في صمتٍ كالرعود، والأرضُ تلتقطُ صدى كلِّ خطوةٍ، والسماءُ تصرخُ باسمِنا، لكنَّنا نستمرُّ، نُرتِّلُ، نرفعُ، نُصوِّتُ حتَّى يذوبَ الظلامُ في نشيدِ الأرواح...

أرواحٌ مُعلَّقةٌ... تُرتِّلُ... تُنشدُ... تُعلنُ... حتَّى يُصبحَ الخوفُ صلاةً، وحتَّى يُصبحَ الصمتُ مُناحةً، وحتَّى تخرجَ الصورُ الغائمةُ من الظلال، وتُصبحَ المذبحةُ أيقونةً، والعدسةُ مذبحًا، والليلُ قدَّاسًا.

# إصحاحُ

5

## الجنديّ الجريح [17]

(من كتابِ الرؤيا الحدوديَّة)

أنا الجنديُّ الذي وُلِدَ قبلَ رايتِهِ، وقبلَ أن يعرفَ اسمَهُ... لم يُخبرني أحدٌ لماذا وُكِلَ إليَّ أن أحرسَ الريحَ، وأن أعدَّ أنفاسَ العابرين، وأن أُمسكَ بالليلِ من عُنقِهِ حتَّى يتأخَّرَ في النوم...

كنتُ أُطيعُ كما تُطيعُ الشجرةُ الريحَ، لأنَّها خُلِقَتْ في طريقِها، لا لأنَّها تؤمنُ بها...

في الليلةِ التي سبقتْ أوَّلَ حراسةٍ، حلمتُ بامرأةٍ تخيطُ لي جلدًا آخرَ، جلدًا لا يُشبهُ جلدي، وتقولُ:

- ستحتاجُهُ عندما تنسى نفسَكَ.

ولم أفهمْ... حتَّى أدركتُ بعدَ سنينَ أنَّ الجلدَ الذي أُخيطَهُ فوقَ جسدي كان جلدَ رجلٍ آخرَ اسمُهُ: **(إيكار)**.

أخبروني في التدريبِ:

- احفظِ الحدودَ، تهربِ الفوضى.

لكنَّهم لم يُخبروني أنَّ الفوضى كانتْ تنامُ في صدري، وأنَّ الحدودَ كانتْ مرسومةً تحتَ أظافري، وأنَّني، كلَّما رفعتُ بندقيَّتي، كنتُ أُوجِّهُها إلى مرآةٍ لا تراها العينُ إلَّا في آخرِ العمر...

---

[17]- (أحدُ أكثرِ الإصحاحاتِ ظلمةً والتباسًا، لأنَّه الإصحاحُ الذي يكشفُ أنَّ الحارسَ ليسَ حارسًا، وأنَّ حدودَ العالمِ مرسومةٌ داخلَ رأسِهِ، وأنَّ إيكارَ كان يختبئُ تحتَ جلدِهِ دونَ أن يعرفَ)

أنا الجنديُّ الجريحُ... رأيتُ الذئابَ قبلَ أن تأتي... سمعتُها تنبحُ داخلَ رأسي، وتعوي بأصواتِ رجالٍ لم يُولَدوا بعد، وتنهشُ وجوهًا من دخانٍ...

فأدركتُ أنَّ الذئابَ لم تكنْ خارجَ الحدود... كانتْ تُشبهُني... تُشبهُني إلى حدٍّ مُفجعٍ...

وفي السنةِ الثالثةِ من خدمتي الإجباريَّة، أُمِرتُ أن أقبضَ على رجلٍ يجري بسرعةِ طائرٍ مكسورٍ، يحملُ على كتفيهِ خريطةً مُحترقةً، ويهربُ من شيءٍ لا أعرفُهُ...

لم يقولوا لي اسمَهُ، لكنَّ قلبي نطقَهُ دونَ أن أراهُ: (إيكار).

فلمَّا وقفتُ أمامَهُ، رأيتُ وجهي... ورأيتُ وجوهًا أُخرى خلفَ وجهي، وجوهًا كثيرةً، كأنَّ الزمنَ سلخَني مرارًا، وصنعَ منِّي جنودًا متراكبين، يُطاردُ أحدُهم الآخرَ، ولا أحدَ يعرفُ مَن القاتلُ ومَن القتيلُ...

رفعتُ السلاحَ عليهِ، وارتجفتْ يدي، فلم أعرفْ: هل أنا أحرسُ الحدودَ؟ أمِ الحدودُ تحرسُني؟ هل أُنفِّذُ أمرًا؟ أم أُدافعُ عن نفسي؟ أم عن الرجلِ الذي يقفُ أمامي ويحملُ ملامحي؟

سمعتُ يومَها صوتًا لم أسمعْهُ من قبل: صوتَ ملاكٍ لا يرى، يُنادي من وراءِ ظهري:

- قاتِلْهُ، إنِ استطعتَ، وستعرفُ أيُّكما يعيشُ في الآخرِ.

فأطلقتُ النارَ... على ظلِّهِ... كأنَّ الرصاصةَ سقطتْ في صدري...

وعندَ السقوطِ، تداخلتِ الأصواتُ كلُّها: صرخةُ الذئابِ، نَفَسُ العابرين، ارتجاجُ الحرسِ، وانفلاتُ الريحِ، ثمَّ ضوءٌ مُفاجئٌ كشفَ أنَّني الجنديُّ الجريحُ، والفوتوغرافيُّ العجوزُ، والملاكُ الأعمى، وجثَّةُ إيكار...

كلُّنا كائنٌ واحدٌ، ينقسمُ مثلَ كتابٍ ينشطرُ إلى أربعةِ فصولٍ، لكنَّ قلمَهُ واحدٌ...

وعرفتُ خاتمةَ المعرفةِ: لم أكنْ حارسًا، كنتُ بابًا من لحمٍ وخوفٍ وذاكرةٍ، يجبُ أن يُفتحَ كي يُكتبَ الكتابُ.

وصيَّتي الأخيرةُ:

يا مَنْ تقرأُ هذا النشيدَ، لا تسألْ مَن القاتلُ... فكلُّ مَنْ يعبرُ الحدودَ قاتلٌ لنفسِهِ... ولا تسألْ مَن المقتولُ، فكلُّ روحٍ تُراقُ هناكَ هي صفحةٌ في المخطوطةِ...

إنْ أردتَ أن تفهمَ، فأغلِقْ عينيكَ، واستمعْ إلى الريحِ تقولُ:

- الحدودُ ليستْ مكانًا... إنَّها شكلُكَ الذي تهربُ منهُ.[18]

# النشيدُ الخامس

**قالَ الفوتوغرافيُّ العجوزُ**: سأُصوِّرُ الظلامَ بِمِقمرٍ مُهلوسٍ، أُصوِّرُ المأساةَ كما لو كانتْ صلاةً، وأُصوِّرُ الملهاةَ حلمًا حلمًا... ألتقطُ كلَّ شيءٍ لا يمكنُ للعينِ رؤيتُهُ... الكاميرا صارتْ مذبحًا، والعدسةُ نافذةً، والصورةُ صلاةً.

**قالتْ جوقةُ الأرواحِ التائهة**: الظلامُ يلتفُّ حولَ الصورِ، والدمُ يُصبحُ زخرفةً، والصمتُ يُصبحُ لحنَ المذبحِ... أرواحٌ مُعلَّقةٌ بينَ الخرابِ والرجاءِ، تُرنِّمُ بصوتٍ خافتٍ، وتُنشدُ نجاةً لا تراها العيونُ الحيَّةُ.

**قالَ الفوتوغرافيُّ العجوزُ**: أرفعُ العدسةَ، فأرى إيكارَ يرفرفُ مثلَ ألفِ طائرٍ... أسلحتُهم تُفجِّرُ الأشكالَ، والمذبحةُ تتحوَّلُ إلى أيقونةٍ، والأرضُ تهتفُ بي:

(اقطعْ . صوِّر..).

(اقطعْ . صوِّرْ...).

(اقطعْ . صوِّرْ...).

(اقطعْ . اقطعْ . اقطعْ...).

---

18- هكذا تتحوَّلُ الحدودُ إلى استعارةٍ، يتعلَّقُ بها العابرونَ كي لا يسقطوا في أنفسِهم... فكلُّ خطوةٍ في الجحيمِ هي خطوةٌ نحوَ الداخلِ، تُظهرُ المعنى أكثرَ: الجوعُ للامتدادِ لا للجسدِ، والعطشُ للبراءةِ لا للماءِ,,,

**قالتْ جوقةُ الأرواح التائهة:** نرفعُ الصورَ، ونرفعُ الظلالَ، ونجعلُ من المذبحةِ صلاةً، ومن العدسةِ مذبحًا، ومن الظلامِ إنشادًا، حتَّى تصيرَ الصورُ نورًا، والصوتُ صورةً، والصورةُ صوتًا.

## إصحاحُ

## 6

## الملاكِ الأعمى

(من كتابِ الأجنحةِ المتحوِّلة)

أنا الملاكَ الذي سقطَ من عينيهِ الضوءُ، كنعمةٍ تُنقِّيهِ من رؤيةِ العالمِ كما يراهُ الآخرون... العُميانُ وحدَهم يعرفونَ شكلَ الحقيقةِ...

أُرسلتُ لأدلَّ العابرَ على الطريقِ، ولأُريَهُ أنَّ الطريقَ ليستْ طريقًا، إنَّما هي امتحانُ جسدٍ يمشي فوقَ خيطٍ من النورِ، يحسبُهُ الجميعُ سلكًا شائكًا...

جئتُ لأرافقَ إيكارَ، ولأشهدَ انشطارَهُ العظيمَ، حين ينقسمُ إلى فوتوغرافيٍّ يلتقطُ ما يهربُ، وجنديٍّ يُطاردُ ما لا يُدرَكُ، وعابرٍ يهربُ من نفسِهِ...

كنتُ أسمعُ جناحيَّ يتساقطانِ ريشةً ريشةً، وأعرفُ أنَّ سقوطَهما تحوُّلٌ من الهواءِ إلى كلمةٍ...

لكلِّ ملاكٍ صرخةٌ واحدةٌ لا يُطلقُها إلَّا مرَّةً... صرختي أطلقتُها حين أدركتُ أنَّ العمى هو الثقبُ الذي يرى منه اللهُ العالمَ...

أقولُ لكم: لا تبحثوا عن الضوءِ، فهو يكذبُ... ابحثوا عن الظلامِ، فهو الكتابُ الذي كتبتُ فيه وصايايَ السبعَ:

**الوصيَّةُ الأولى:** مَنْ يرى نصفَ الحقيقةِ يظنُّ أنَّه تعلَّمَ كلَّ شيءٍ... ومَنْ يرى العدمَ يبدأُ من البدايةِ.

**الوصيَّةُ الثانية:** ليس أعداؤكَ الجنودَ... أعداؤكَ الحدودُ التي تتنكَّرُ بأثوابِهم.

**الوصيَّةُ الثالثة:** لا تخفْ من الذئابِ، فالذئبُ الحقيقيُّ هو ما يحدثُ داخلَ قلبِكَ حين يراكَ الليلُ وحيدًا.
**الوصيَّةُ الرابعة:** كلُّ صورةٍ بوَّابةٌ، وكلُّ بوَّابةٍ امتحانٌ للرُّوحِ.
**الوصيَّةُ الخامسة:** العبورُ ليس نجاتَكَ... هو اعترافُكَ بأنَّكَ ضائعٌ.
**الوصيَّةُ السادسة:** لا جناحَ يصعدُ إلَّا إذا سقطَ تحتَهُ جناحانِ.
**الوصيَّةُ السابعة:** كلُّ مَنْ يعبرُ الحدودَ يتركُ جزءًا من روحِهِ، ليضمنَ أن يعودَ يومًا إليها.

٦

# النشيدُ السادس

**قالَ الفوتوغرافيُّ العجوزُ:** كانَ الصمتُ يقتادُ خطواتِنا... لم تتكلَّمِ الروحُ، ولم يتكلَّمِ العراءُ، ولم تتكلَّمِ اللغةُ التي تُشبهُ خطواتِكَ وهي تعبرُ الحدودَ... لم يتكلَّمِ المعنى، ولم تتكلَّمِ الصورةُ، لكنَّها تعرفُ الأسماءَ كما تحفظُ الصحراءُ أسماءَ الرياحِ...
أعترفُ أمامَكم بما لم أستطعْ أن أقولَهُ... أعترفُ بالفراغِ الذي كان ينبغي أن يمتلئَ، وباليدِ التي ارتفعتْ ثمَّ تراجعتْ خوفًا من النورِ...
هنا، في هذا التوقيفِ الأزليِّ للحظةِ، يتكثَّفُ الجسدُ في علامةٍ، وتصيرُ الملامحُ لاهوتًا صامتًا، ويصيرُ الصمتُ نشيدًا لا يُنشَدُ إلَّا لِمَنْ عبروا...
أيَّتُها الصورةُ، يا أختَ المرآةِ بعدَ الخلقِ، احملي عنِّي هذا الوجهَ إلى ضفَّةٍ أُخرى من الزمنِ، وقولي إنَّني مررتُ من هنا مُثقَلًا بالأسئلةِ، خفيفًا كذنبٍ غيرِ مغفورٍ...
الخلاصُ هو أن نتذكَّرَ... أن نُرى...
الرؤيةُ طقسُ عبورٍ: لشاعرٍ يريدُ اجتيازَ الحدودِ، وفوتوغرافيٍّ عجوزٍ يُصغيانِ لنبضٍ تحتَ الترابِ، ولا يعرفانِ أنَّ الأرضَ تكتبُ على قدميهما وصيَّةَ عبورٍ لم يطلباها...
كانَ يقولُ: (إنَّني لامستُ نبضَ الأرضِ...).
وكنتُ أقولُ: (ذاكَ وقعُ الخيولِ حين تُلصقُ أُذُنَكَ بالأرضِ).
ليتَكَ لامستَ الأرحامَ لا الأرضَ، لتعرفَ أيَّ نسلٍ خبيثٍ كان يركضُ نحوكَ، وأيَّ سلالةٍ من الخرابِ تفتَّحتْ تحتَ قدميكَ كأزهارِ سمٍّ...

ليتَكَ لم تجلسْ على ضفَّةِ الموتِ كما يجلسُ بوذا على ضفَّةِ ذاتِهِ... ليتَكَ بقيتَ كالصبيةِ الآخرينَ، يركضونَ وراءَ الكلابِ، ويرشقونَ الموجَ بالحجارةِ، ويتركونَ الحدودَ لليلِها... لا لدمائِهم...
ليتني لم أُرِكَ الحدودَ تسترخي ككاهنةٍ أمامَ فتوتِكَ... ليتني لم أُخبِرْكَ: (حين نجتازُ الجبلَ نكونُ قد تجاوزنا الحدودَ...).
وليتكَ لم تُجاوِبْني بضحكةٍ أفلتتْ من فمِكَ كحصانٍ بلا لجامٍ:
(لا حدودَ هناكَ أيُّها الفوتوغرافيُّ... الحدودُ في رأسِكَ أنتَ... في رأسِكَ العجوزِ المُتعَبِ... لا حدودَ... إلَّا تلكَ التي يبنيها الخوفُ في رؤوسِ الشيوخِ...).
في ذلكَ المساءِ... المساءِ الموشومِ بالموتِ والسِّرِّ، المُزدحمِ بفخاخِ العسكرِ ومخافرِ الجندِ، تركَ الموتُ لهاثَهُ فيه، وانسحبَ إلى ظلالٍ تُشبهُ اعترافًا متأخِّرًا...
كنتُ أُهرِّبُ شاعرًا عبرَ الحدودِ، أُحيطُ قلبَهُ بالأساطيرِ، وأجعلُ الفراسخَ مُباحةً لخطواتِهِ، كأنَّ العالمَ مُلكٌ لهذا اليافعِ، وكنتُ شيخًا يمشي خلفَهُ ليلتقطَ سقوطَهُ...
لو لم يكنْ حلمُهُ باجتيازِ الحدودِ يُنقذُ ما تبقَّى فيَّ من شيخوخةٍ من قبضةِ العارِ، ما كنتُ أقبلُ أن أدخلَ كما يدخلُ الكاهنُ إلى المذبحِ، وقد ثقلتْ يداهُ بما لم يُغفَرْ بعدُ...

كنتَ تقولُ . بصوتٍ خافتٍ، كدعاءٍ بينَ الصورِ :
(أنا عابرُ الحدودِ... أنا قلبٌ يُحاولُ النجاةَ... أنا جناحٌ مكسورٌ، لكنَّني أحملُ الأسطورةَ... أحملُ الشمسَ، أحملُ النورَ بينَ يدَيَّ...).
وكنتُ أقولُ:

وأنا، كفوتوغرافيٍّ، أُديرُ عناقيدَ السَّردِ كمَنْ يُديرُ قرصَ الشمسِ على كاميرا لا تتحمَّلُ الضوءَ...
وأرفعُ العدسةَ، فأرى العالمَ كأنَّهُ مذبحٌ واحدٌ: الدمُ، الأرضُ، الشمسُ، العواءُ... كلُّها صلاةٌ واحدةٌ، وكلُّها صورةٌ واحدةٌ، وكلُّها سرٌّ واحدٌ [19].

[19]- قَالُوا لِي: "انْسَخِ النَّصَّ وَلَا تُضِفْ إِلَيْهِ". لَكِنَّ أَصَابِعِي ارْتَعَشَتْ، فَانْسَكَبَ مِنْ قَلْبِي حِبْرٌ آخَرُ، حِبْرُ الِاعْتِرَافَاتِ الَّتِي لَا يُسْمَعُ لَهَا صَوْتٌ إِلَّا عِنْدَ انْطِوَاءِ الْأَبْوَابِ.

# إصحاحُ

## 7

(الذِّئبِ الأخير ـ من كتابِ الافتراسِ المقدَّس ـ حيثُ تتجلَّى الذئابُ ككائناتٍ غاضبةٍ، مُرسلةٍ لتأديبِ العابرِ).

في البدءِ لم تكنِ الذئابُ حيواناتٍ... كانتْ رُسُلًا من الملحِ والنارِ، أُرسلتْ لتحرسَ الحافَّةَ التي سقطَ منها أوَّلُ عابرٍ إلى ليلِ المنفى... وكان يُقالُ في الكتبِ القديمةِ:

- حينَ تتقدَّمُ الذئابُ إلى الخارجِ، فاعلمْ أنَّ الحدودَ ضاقتْ على نفسِها، وأنَّ الأرضَ الحرامَ تبحثُ عن دمٍ جديدٍ.

ترنيمة

(1)

### في أصلِ نبوءتِهم

يُروى أنَّ الذئبَ الأكبرَ كانَ، في زمنٍ بعيدٍ، حارسًا لبوَّابةِ الضوءِ، وأنَّ سقوطَهُ تزامنَ مع سقوطِ أوَّلِ طائرٍ أرادَ أن يعبرَ الشمسَ... ومنذُ ذلكَ اليومِ، صارتِ الذئابُ تحرسُ ما تبقَّى من نورٍ تكسَّرَ فوقَ الرمالِ، وتعاقبُ كلَّ مَنْ يريدُ أن يُجرِّبَ الطيرانَ بقدميهِ.

ترنيمة

(2)

### في تشبيهِهم بالملائكةِ السودِ

وكانَ الملاكُ الأعمى يقولُ:

- لا تهابوا الذئابَ، فهي ملائكةٌ سقطتْ من جناحٍ واحدٍ، تحرسُ الأرضَ كما أحرسُ السماءَ، لكنَّها ترى أكثرَ ممَّا أرى...

وكانَ الجنديُّ الجريحُ يسمعُ هذا الكلامَ ويرتعشُ، لأنَّهُ كانَ يرى الذئابَ في الليلِ ترسمُ بأنيابِها حروفًا على الترابِ، كأنَّها تكتبُ سفرًا آخرَ لا يعرفُهُ البشرُ.

**(3)**

## في مرايا الذئابِ

إذا نظرتَ في عينِ الذئبِ الأكبرِ، ورأيتَ نفسَكَ تعبرُ الحدودَ بمئاتِ الوجوهِ[20] رأيتَ الأبَ مصلوبًا على الريحِ، والأمَّ تلميذةً للغبارِ، والطفلَ الداخليَّ يُعادُ إلى بطنِ الليلِ مرارًا... ستسمعُ الفوتوغرافيَّ العجوزَ يقولُ:

- كلُّ ذئبٍ هو عدسةٌ لم تُصنَعْ بعدُ، تُصوِّرُ الجثَّةَ قبلَ أن تسقطَ، والركضَ قبلَ أن يبدأَ، وتحتفظُ بالصرخةِ في حنجرةِ الريحِ.

**(4)**

## في مطاردةِ إيكار

وفي السنةِ التي سبقتْ موتَ العابرِ الأخيرِ، تحرَّكتِ الذئابُ من الصمتِ، كأنَّ أحدًا نفخَ في أفواهِها طقسَ القيامةِ الأولى... كانتْ تبحثُ عن رجلٍ واحدٍ،

---

[20]- **هَامِشُ الْوُجُوهِ الَّتِي أَضَاعَهَا أَصْحَابُهَا**

(ثَمَّةَ وُجُوهٌ تَسْقُطُ عَنْ أَصْحَابِهَا وَهُمْ يَمْشُونَ، وَتَبْقَى مُعَلَّقَةً عَلَى جُدْرَانِ الْأَزِقَّةِ، تَنْتَظِرُ رُوحًا جَدِيدَةً تَقْبَلُ بِهَا)

**الْهَامِشُ الْمُخْفِيُّ دَاخِلَ الْهَامِشِ:**

(قَدْ يَحْدُثُ أَنْ تَرَى وَجْهَكَ عَلَى شَخْصٍ آخَرَ... لَا تُبْدِ دَهْشَةً، فَالْوُجُوهُ تَتَبَادَلُ)

يركضُ بقدميهِ كما لو أنَّهُ يحملُ جناحينِ، رجلٍ تُضيئُهُ الشمسُ من الخلفِ، وتكسرُهُ المخافرُ من الأمامِ...
ذلكَ الرجلُ الذي مرَّ على كلِّ كتبِ النبوءاتِ، واسمُهُ محفورٌ في جلدِ الجنديِّ منذُ ولادتِهِ.

(5)

## في لحظةِ الالتهامِ المقدَّسةِ

يقولُ الهذيانُ:
- وحينَ بلغَ إيكارُ الحافَّةَ الأخيرةَ، اجتمعتِ الذئابُ عليهِ كما تجتمعُ السحبُ على جبلٍ أعمى، وشربتْ من ركضِهِ، ومن خوفِهِ، ومن قميصِهِ الذي تناثرَ كثوبِ نبيٍّ يهربُ من قومِهِ...
لكنَّ الذئابَ لم تكنْ تريدُ اللحمَ، كانتْ تريدُ الرائحةَ، فالروحُ تركضُ أسرعَ من الجسدِ، ولذلكَ التهمتْ ظلَّهُ قبلَ أن تمسَّ عظامَهُ.

(6)

## في انكشافِ النبوءةِ الكبرى

عندما انتهى الافتراسُ، تراجعتِ الذئابُ، وجثتْ على الأرضِ مثلَ رهبانٍ يتهيَّأونَ للصلاةِ... فُتِحَ فمُ الذئبِ الأكبرِ، وخرجَ منهُ صوتٌ لم يُعرَفْ في الأرضِ ولا في السماءِ، يقولُ:
- انتهى زمنُ العابرِ، وبدأَ زمنُ الكشفِ. (21)

---

21- يَا قَارِئَ هَذَا الْهَامِشِ بَعْدَ قُرُونٍ، اعْلَمْ أَنِّي كَتَبْتُهُ سِرًّا، حِينَ كَانَتِ الْأَخَوَاتُ نَائِمَاتٍ فَوْقَ حَجَرِ الْمَذْبَحِ، يَحْرُسْنَ صَمْتَ اللَّيْلِ بِأَنْفَاسٍ مُتَسَاوِيَةٍ، وَأَنَا وَحْدِي أَسْمَعُ وَقْعَ أَقْدَامِ الْأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ وَهِيَ تَذْرَعُ الْحُدُودَ بَيْنَ سَطْرٍ وَسَطْرٍ.

(7)

## في حكمةِ الذئبِ

ومنذُ ذلكَ اليومِ، صارتِ الذئابُ تقفُ على حدودِ الكتبِ، تحرسُ السطرَ الأوَّلَ، وتفتحُ السطرَ الأخيرَ...

ومَنْ يقرأُ هذا الإصحاحَ ويشعرُ بوخزٍ في كتفِهِ، أو بظلٍّ يعبرُ خلفَهُ، فليعلمْ أنَّ الذئبَ الأكبرَ يمشي في أثرِهِ، لأنَّهُ قد فُتِحَ لهُ بابٌ لا يُغلَقُ إلَّا بالدمِ.

٧

# النشيدُ السابع

## (من سِفْرِ الهاربينَ عبرَ الحدودِ) [22]

آه... أيُّها الفوتوغرافيُّ، أيُّها الضوءُ الماكرُ، يا حاملَ عدسةٍ تُخزِّنُ ما لا يُقالُ، ليتكَ ما هرَّبتَ الشاعرَ عبرَ الأرضِ التي تتعقَّبُ ظلَّكَ، وما ركضتَ به بينَ السهولِ والوديانِ، ولا رفعتَ لهُ غلالاتٍ من مرايا الطفولةِ تتماوجُ عبرَ الحدودِ...

ليتكَ لم تنفضْ قلبَكَ كما يُنفضُ الطينُ عن رداءٍ قديمٍ، وليتَ الصباحَ لم يُعلِّقِ اسمَهُ على ترعةٍ ساكنةٍ مثلَ كاهنٍ أعمى، وليتِ الطبيعةُ لم تُطلقْ ضحكتَها الرنَّانةَ، ضحكةً تُشبهُ فَرْكَ السكينِ على لحمِ الغيمِ...

فتهربُ أنتَ كجوادٍ يُصرُّ على وضعِ جناحينِ لسرجِهِ...

آه... مَنْ ذا الذي يقدرُ، مثلَ الآلهةِ، أن ينفضَ قلبَهُ كوحلٍ عن رداءِ العقائدِ الزاخرةِ بأخطارٍ تُطلقُ ضحكاتِها الرنَّانةَ العاليةَ؟

مَنْ ذا الذي يقرعُ أجراسَ الباطلِ، ويرفعُ الرأسَ في زمنٍ تُنصَّبُ فيهِ الفخاخُ؟

---

[22]- فِي هَذِهِ الْهَوَامِشِ سَأُحَدِّثُكَ عَنِ الضَّائِعِينَ، وَعَنِ الَّذِينَ لَمْ يَجِدْهُمُ السِّفْرُ الْأَكْبَرُ، وَعَنِ الَّذِينَ مَرُّوا بَيْنَ حَوَاشِيهِ كَالْخَيَالَاتِ، فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِمْ أَحَدٌ.

فالظلالُ تعرفُكَ، والفخاخُ لا عدوَّ لها سواكَ، وأنتَ تنثرُ الخطيئةَ على لوحِ الأيَّامِ، وتُعلِّقُ الذنوبَ فوقَ شمعدانِ الظلامِ كنجمةٍ وحيدةٍ.
أيَّتُها الحدودُ، ما أكثرَ محميَّاتِكِ لأرواحِ موتانا...
آه... إيكارُ، يا ابنَ الضوءِ، يا مَنْ اندفعتَ من حضنِ الطفولةِ كرعدٍ لا يهابُ مراثيَ الجبلِ، ليتكَ لم تفتحْ أُذُنَيْكَ لنقرِ الوحشةِ ودفِّ الغيمِ، وليتَ جبالَ الظلامِ لم تُطبقْ راحتَها عليكَ ككاهنةٍ تنفخُ لعناتِها على الأعالي...
ليتكَ لم تُدلِّ شراعَ عينيكَ في صميمِ الوهجِ، ولم تُسقِطْ وردةً منفيَّةً من حدائقِ النورِ، وردةً نازفةً من الندى... الندى دموعُ وردٍ مجروحٍ...
آه... إيكارُ، لو اكتفيتَ بأن تحلمَ في حبرِ الأحلامِ، ولو علَّقتَ صرختَكَ العاريةَ على سلَّمِ الابتهاجِ قبلَ أن تبتلَّ بالأسى، لكانتْ كلُّ قشَّةٍ فراشًا لرحلتِكَ، وكلُّ دمٍ يصعدُ من أجنحتِكَ لوَّنَ زرقةَ السماءِ ببريقِ بصمتِكَ المجهولةِ.
آه... يا مخافرَ الطينِ، يا محميَّاتِ العتمةِ، كم ضممتِ من صرخاتِ الملائكيَّةِ، كأنَّكِ تابوتٌ لا يشبعُ...
آه... أيَّتُها النسورُ الصامتةُ فوقَ ثلوجِ الجبالِ، كم من أساطيرَ في أعناقِكِ الطليقةِ...
وأنا أُضيفُ مديحًا إلى المرجِ المُشرقِ خلفَ الجبلِ، حيثُ الخيولُ تغوصُ ببطءٍ في الحشائشِ، ومن ركضٍ إلى ركضٍ يتماوجُ الحلمُ بينَ قنطرةٍ وقنطرةٍ...
الصباحُ ذاتُهُ يكشفُ زنابقَهُ على المنحدراتِ الكثيفةِ، وبالقربِ ترعةٌ هادئةٌ مثلُ مرآةٍ تنتظرُ أقواسَ الحديقةِ ونافورتَها الصامتةَ...
حتَّى الطبيعةُ، الممتلئةُ بالأنغامِ الخفيَّةِ، كانتْ تُرسلُ ضحكاتِها العاليةَ، ضحكاتٍ تُشبهُ نُدَبَ العواصفِ حين تُقشِّرُ جلدَ المطرِ...
فيتودَّدُ الصمتُ الأخضرُ الحارُّ وهو يشمُّ الشفقَ، كما تشمُّ الملائكةُ بتلاتِ لهبِ الخلودِ.
هاربٌ، لا يُقيِّدُهُ ندمٌ...
هاربٌ، يخطفُ كنوزَ الفراغِ كما يفعلُ القراصنةُ مع الأفقِ المفتوحِ...
هاربٌ، يُغنِّي لمدنٍ لم تُولَدْ بعدُ، ولكلماتٍ لم تُكتَبْ...
هاربٌ، قبلَ أن تنطلقَ جوقاتُ زغاريدِ الأجدادِ ومزاميرُ الأضرحةِ، وتُعلَّقَ الأرواحُ على مذابحِ الحدودِ...
هاربٌ، كجوادٍ في نقشٍ إسلاميٍّ يعلوهُ نبيٌّ تُظلِّلُهُ نبوءةٌ ذاتُ جناحينِ، وتشتعلُ تحتَ حوافرِهِ الريحُ...

هاربٌ، لم تجدِ الفظاظةُ خصمًا غيرَهُ، إذ كانتِ السماءُ تُرسلُ الخطيئةَ، والخطيئةُ تُعلِّقُ ذنوبَ البشرِ على شمعدانِ الظلامِ، كأنَّها نجمةٌ نُسِيَتْ من سِفْرِ الرؤيا...
هاربٌ، والشيطانُ، ذاكَ الذي يثقبُ صمتَنا، راحَ يقرعُ أجراسَ الباطلِ، ويفتحُ أبوابَ الليلِ كأنَّها محاكمُ لضجيجِ العدمِ المُطلقِ...
آه... وحينَ انطفأتْ أنفاسُ الجبلِ، وارتختِ الحدودُ كأفعى ألقتْ جلدَها في قيظِ الظهيرةِ، شهقَ الهواءُ شهقةً أخيرةً، فرأينا ظلَّ إيكارَ يتدلَّى على صفحةِ الأفقِ، كأنَّهُ آخرُ ما تبقَّى من لغةٍ لم يكتبْها أحدٌ...
وكانتِ الأرواحُ، تلكَ المُعلَّقةُ بينَ المخافرِ والغرفِ والأسلاكِ، تتقدَّمُ نحونا كجوقةٍ خرجتْ من تحتِ ركامِ ديرٍ سريانيٍّ ضربَهُ الغبارُ، وسكنتْهُ سهولُ القيامةِ...
وقالتْ روحٌ منهم، بصوتٍ مُترجرجٍ كالمزاميرِ:
- يا فوتوغرافيَّ الضوءِ، ما حملتَ إلينا إلَّا ظلالَ ما لم يكتملْ... ويا هاربًا إلى الجهةِ المفقودةِ، ما رفعتَ منَّا إلَّا ما سقطَ.
وسقطتْ من أفواهِهم رائحةُ الصلواتِ الأُولى، وانحنوا على الرملِ كما ينحني الكهنةُ على مدخلِ تابوتٍ اشتعلَ فيه الحنينُ...
تقدَّمَ الملاكُ الأعمى، وكان وجهُهُ محفورًا بخريطةِ المنافي، وقالَ:
- هذا الذي تهربونَ منهُ يهربُ منكم، وهذه الحدودُ التي تخافونَها تخافُ منكم... هذه الأرضُ ليستْ أرضًا، وهذه السماءُ ليستْ سماءً، وأنتم لستم أنتم، حتَّى تستيقظَ آخرُ صورةٍ لم تلتقطْها العدسةُ.
انخلعَ قلبُ الفوتوغرافيِّ، وامتدَّتْ يداهُ كجناحينِ منكسرينِ، وقالَ بصوتٍ مبلولٍ برمادِ الصمتِ:
- آه... يا إيكارُ، لا أُصوِّرُ خطيئتَكَ... أُصوِّرُ نجاتي التي أفلتتْ منِّي.
في تلكَ اللحظةِ، ارتجفتِ الأرضُ تحتَ قدميهِ، وانشقَّ الترابُ عن نارٍ صغيرةٍ تتلو أسماءَ الغائبينَ، كالنُّسَّاكِ حينَ يتهجَّوْنَ سِفْرَ القيامةِ...
وامتلأتِ السماءُ برموزٍ نورانيَّةٍ تُشبهُ الحبرَ المقدَّسَ حينَ يسيلُ من مخطوطةٍ ضاقتْ عليها أصابعُ النُّسَّاخِ...
قالَ إيكارُ:
- هل كانَ كلُّ هذا الطريقِ طريقَنا؟ أم كنَّا مُجرَّدَ صدى؟ أم كانتِ الحدودُ هي التي مشتْ بنا؟
فأجابتْهُ الريحُ، وكانتْ ترتدي صوتَ أُمٍّ فُقِدَتْ على حافَّةِ معبرٍ:

- كلُّ مَنْ يمشي على الأرضِ ينقسمُ نصفينِ: نصفٌ ينجو، ونصفٌ يبقى مُعلَّقًا في الهواءِ إلى يومٍ لا تُعلنُ فيهِ الشمسُ انتصارَها.
وهكذا، تقدَّمَ الفوتوغرافيُّ خطوةً، والشاعرُ الهاربُ خطوةً، والأرواحُ من حولِهم كنجومٍ تُطفئُ وتُشعلُ نفسَها لتدلَّ الغريبَ على نفسِهِ...
آه... إيكارُ، أيُّها الشاعرُ الهاربُ، يا مَنْ أشرقتَ في عدسةِ الفوتوغرافيِّ كأنَّكَ نورٌ أُعتِقَ من مصافحتِهِ الأولى للخَلقِ، إنَّ الهيكلَ كلَّهُ كانَ يتَّسعُ لكَ في فرحٍ يخطفُ كنوزَ الروحِ مثلما يفعلُ القراصنةُ، قبلَ أن يُدخلَ المكانُ أصابعَهُ الناعمةَ إلى عفَّةِ المكانِ...[23].
وها أنا أُحسُّ أنَّ الرأسَ كلَّهُ قد امتلأَ بالدَّمعِ، فأُحدِّدُ انطلاقي ببوصلةٍ، وأتركُ نفسي تتيهُ هناكَ، حيثُ تلتحمُ الحيواتُ كالقبرِ، وتتقدَّمُ مخلوقاتٌ نحوَ القلبِ تُحاصِرُهُ بوحشتِها الليليَّةِ...
كنتُ أراكَ، وأرى خلفَكَ أجنحةً تتهدَّلُ من حروفٍ عربيَّةٍ عتيقةٍ، كتبتْها يدُ راهبٍ مجهولٍ على رقٍّ من غيمٍ، ثمَّ خبَّأها تحتَ وسادةِ النومِ، لئلَّا يُوقظَ الأرواحَ العالقةَ بينَ المخافرِ والحدودِ...
كانَ الشاعرُ الهاربُ يلتفتُ بينَ حينٍ وآخرَ، كأنَّهُ يسمعُ تراتيلَ من زمنٍ مطويٍّ، وكنتُ أرى في عينيهِ نارًا لا تُرى إلَّا في كفِّ مَلَاكٍ هاربٍ من حرَّاسِ السماءِ...
وكانَ الفوتوغرافيُّ يُمسكُ بالكاميرا كأنَّهُ يُمسكُ تابوتَ ضوءٍ، أو مخطوطةً منقوشةً بأسماءِ الذينَ لم يعودوا، ويتقدَّمُ بخطواتٍ تُشبهُ مشيَ الكهنةِ نحوَ قدسِ الأقداسِ، حيثُ لا يُصوَّرُ إلَّا ما لهُ ظلٌّ في الغيبِ.
وهكذا، يا أحبَّةَ الإنشادِ، انفتحَ أمامَهم سهلٌ يُشبهُ رئةَ الأرضِ الأُولى، تهتزُّ فيهِ الحشائشُ كصلواتٍ تتردَّدُ بينَ المزاميرِ، ويعبرُ فوقَهُ سربٌ من الطيورِ الخفيفةِ، كأنَّهُ يحملُ أرواحَ الذينَ انطفؤوا في المعابرِ، ويبحثُ عن فجرٍ عمَّدتْهُ الدموعُ...
شاعرٌ هاربٌ وفوتوغرافيٌّ عجوزٌ كانا يعلمانِ أنَّ كلَّ خطوةٍ فوقَ الترابِ تُعيدُ كتابةَ سِفْرٍ جديدٍ، وأنَّ الحدودَ . تلكَ الجدرانَ التي بلا جسدٍ . لا تُبنى بالحجارةِ، وإنَّما تُبنى بالخوفِ، وأنَّ الخوفَ نفسَهُ يتلاشى ما إن يعلو صوتُ الأنشودةِ، وما إن تنفتحَ العدسةُ مثلَ عينٍ عميقةٍ تريدُ أن تُعيدَ للعالمِ صورتَهُ الأُولى.
أيُّها الخلودُ، أيُّها النداءُ البعيدُ...

---

[23]- أُخْفِيكَ، يَا قَارِئِي، وَأُخْفِي نَفْسِي، وَأَسِمُ هَذَا السِّفْرَ بِدَمْعَةٍ لَا يَرَاهَا إِلَّا مَنْ عَرَفَ أَنَّ الْحِكَايَاتِ الْكُبْرَى لَا تَنْجُو بِغَيْرِ حَوَافِّهَا الْمُرْتَجِفَةِ.

كيفَ يروي البشرُ هروبَهم دونَ أن يجرحوا الملائكةَ؟
وكيفَ يعبرُ شاعرٌ هاربٌ وفوتوغرافيٌّ عجوزٌ بينَ شوكِ الليلِ وقسوةِ المخافرِ، دونَ أن يتناثرَ من قلبيهما شيءٌ يُشبهُ الرمادَ؟
أراهُما الآنَ يتقدَّمانِ، والريحُ تصعدُ من خلفِهما كأنَّها بطنُ حوتٍ يبتلعُ الظلالَ، والقمرُ يتدلَّى مثلَ جرسٍ كنسيٍّ يمتحنُ طهارةَ الأصواتِ...
وأسمعُ في أعمقِ سراديبي جوقةً تتناغمُ، تُنشدُ لهما نشيدَ الخروجِ الثاني، خروجًا يتلوهُ وعدُ أرضٍ، ووعدُ رؤيةٍ تستعيدُ العالمَ من غربتِهِ.
أكتبُ...
وأعرفُ أنَّ الكتابةَ نفسَها تصيرُ جسرًا، وأنَّ الجسرَ يُضيءُ من وقعِ خطواتِهما، وأنَّني حينَ ألمسُ الورقَ، ألمسُ بعضَ ما سقطَ منهما على الطريقِ:
عطرَ الرهبةِ، ورفيفَ جناحٍ لم يكتملْ، وكسرةَ خبزٍ خبَّأها الشاعرُ الهاربُ لليلٍ أطولَ، وصورةً لم تُطبعْ بعدُ، لكنَّها تُلوِّحُ لي مثلَ علامةٍ سماويَّةٍ تقولُ:
- امضِ... فالحكايةُ ما زالتْ تتنفَّسُ.[24]

[24]- رَأَيْتُ، لَيْلَةَ الْخَمِيسِ، بَعْدَ خُمُولِ السِّرَاجِ، طَيْفًا يَمُرُّ مِثْلَ دُخَانٍ بَيْنَ رُفُوفِ الْمَخْطُوطِ. لَمْ يَكُنْ مَلَاكًا، وَلَا شَيْطَانًا، وَلَا ابْنَ بَشَرٍ ضَاعَ فِي الثَّلْجِ. كَانَ شَيْئًا رَقِيقًا، مُمَزَّقًا مِنْ جَنَاحٍ لَا أَعْرِفُ لِمَنْ كَانَ.

# إصحاحُ

## 8

# النبوءاتُ السُّودُ للعابرِ الأخيرِ

## (من كتابِ الرؤيا الحدوديَّة)

ويكونُ في آخرِ الأزمنةِ أن يُرفعَ السياجُ كالرمحِ الصدئِ، وأن تُنزَعَ الأختامُ الحديديَّةُ عن الريحِ، فتخرجَ من المخافرِ نبوءاتٌ سوداءُ، يسمعُها العابرُ الأخيرُ وحدَهُ، لأنَّ أُذُنَهُ صيغتْ من صمتِ المنفى.

**تقولُ النبوءةُ الأُولى:** سيأتي زمنٌ تُطفأُ فيهِ الخرائطُ، وتنقلبُ الجهاتُ على بوصلتها، ويبحثُ الجنوبُ عن ظلِّهِ فلا يجدُهُ.

**تقولُ النبوءةُ الثانيةُ:** حينَ تتشقَّقُ الأرضُ الحرامُ، تخرجُ منها ذئابٌ لها وجوهُ بشرٍ، وبشرٌ لهم صمتُ الذئابِ، ويمشونَ بينَ الناسِ كأنَّهم صدىً لخطواتٍ لم يُولَدْ صاحبُها بعدُ.

**تقولُ النبوءةُ الثالثةُ:** سيمرُّ الجنديُّ الجريحُ على الطريقِ نفسِها ثلاثَ مرَّاتٍ، وفي كلِّ مرَّةٍ يحملُ رأسًا آخرَ فوقَ كتفيهِ... وفي الثالثةِ فقط، يعرفُ أنَّ الرأسَ رأسُهُ.

**تقولُ النبوءةُ الرابعةُ:** الفوتوغرافيُّ العجوزُ سيفقدُ ظلَّهُ قبلَ أن يفقدَ نورَهُ، ويعلمُ أنَّ الصورةَ التي ظلَّ يبحثُ عنها كانتْ تتضمَّنُ موتَهُ.

**تقولُ النبوءةُ الخامسةُ:** الملاكُ الأعمى يُبصرُ حينَ يكتملُ العمى، ويقرأُ آخرَ صفحةٍ في الملحمةِ بدمعةٍ لا تُرى إلَّا في الظلامِ.

**تقولُ النبوءةُ السادسةُ:** العابرُ الأخيرُ هو أوَّلُ الساقطينَ، وآخرُ الناجينَ، وهو الثقبُ الذي يتسرَّبُ عبرَهُ الزمنُ كلُّهُ.

**تقولُ النبوءةُ السابعةُ:** حينَ يُقتلُ إيكارُ لا يموتُ، وحينَ يُبعثُ لا يعودُ، وحينَ يُنسى، يبدأُ الكتابُ من جديدٍ.

٨

## النشيدُ الثامنُ

(تتمَّتُهُ كما لو أنَّها سطرٌ خرجَ من جرحٍ قديمٍ في المخطوطِ) [25]

كنتَ تقفُ أمامي كأنَّكَ صفحةٌ من إنجيلٍ لم يكتملْ، وقد أضاعَ الخوفُ زينتَكَ، فازدادَ جمالُكَ بريقًا من التعبِ... وكانَ بينَ يدَيَّ أن أجعلَكَ تُلامسُ الحدودَ، وتمسحُ خصلاتِها، ثمَّ تُغنِّي كراعٍ يعزفُ على مزمارِهِ البدائيِّ، مُسترجعًا أزمانَهُ بنغمةٍ حزينةٍ... لكنَّني لن أهبَ الممالكَ للبؤساءِ، ولن أهبَ الجمرَ لنجومٍ تتلاشى... كنتُ أقولُ:

- ستكونُ الرحلةُ صعبةً.

وكنتَ تقولُ:

- المهمُّ أن أصلَ.

وكنتُ أقولُ:

- طبعًا ستصلُ، لكنَّكَ ستتعذَّبُ قليلًا... إنَّني أُضحِّي بحياتي من أجلِكَ.

وكنتَ تقولُ:

- وأنا أيضًا أُضحِّي بحياتي.

وكنتُ أقولُ:

- حياتُكَ لا تهمُّني، ما يهمُّني هو المالُ الذي ستدفعُهُ.

وكنتَ تقولُ:

- سأدفعُ.

وكنتُ أقولُ:

- إذنْ، ائتِني غدًا ومعكَ جوازٌ قديمٌ، وصورةٌ حديثةٌ، وألفُ دينارٍ.

---

25- قَالَ لِي: "دَوِّنِّي وَلَوْ فِي الْهَامِشِ". فَأَجَبْتُهُ: أَخَافُ أَنْ يَرَانِي الْمُؤَلِّفُ وَيَجْلِدَنِي. فَقَالَ: "وَالْخَوْفُ أَعْظَمُ جَلْدٍ، فَاكْتُبْنِي لِتَنْجُو".

وكنتَ تقولُ:
- جوازٌ قديمٌ، وصورةٌ حديثةٌ، وألفُ دينارٍ... لا بأسَ.
وكنتُ أراكَ كمنْ يرى الحريقَ، ويرى طفلًا يقتلُهُ الرعبُ، فيقولُ: يا للطفلِ المسكينِ... ثمَّ يُلقيهِ في النارِ... آه... فلتحرقِ النارُ قلبي، وليستجمعِ الموتُ بصاقَهُ، وليبصقْ دمي... فأنا أرفعُ نعشي، وأدعو الطعنةَ لتنثرَ قلبي بالمِذراةِ، لابسًا ما يلبسُهُ المحزونُ، لعلَّ السوادَ يدفعُ عنِّي العارَ، فلا يهتفُ بي هاتفٌ:
- العارُ لقاتلِ طفلٍ.
إنَّ الجريمةَ تُرهقُني، وهذا الإثمُ يُطوِّقُني، وذلكَ الندمُ يغسلُني...
فأهزُجُ: يا طقوسُ، بشعائري، وتدفَّقْ يا دمي الأسودُ من التعاويذِ القديمةِ...
لم تكنْ تدري أنَّ ظلِّي كانَ يسبقُني إليكَ، وأنَّ رائحتي . تلكَ التي تحملُ رمادَ أرواحٍ سالفةٍ . كانتْ تصلُ إلى قلبِكَ قبلَ أن تصلَ كلماتي... كنتُ أراكَ وأنتَ تُعيدُ ترتيبَ خوفِكَ، وتُلمِّعُ تعبَكَ بيدينِ مرتجفتينِ، وكنتُ أعرفُ أنَّكَ لا تريدُ الوصولَ... تريدُ معنى الوصولِ... تريدُ أرضًا تُقبِّلُكَ قبلَ أن تطأَها، وسماءً لا تسألُكَ عمَّنْ كنتَ، ولا إلى أينَ تهربُ... وكنتُ أنا أحملُ في جيبي مفاتيحَ الجهةِ الملعونةِ، وأعرفُ أنَّ كلَّ مفتاحٍ منها فُتحَ مرَّةً على صرخةٍ، وأنَّ كلَّ صرخةٍ صارتْ لي اسمًا، وأنَّ الأسماءَ كلَّها نُقشتْ لي على الكتفينِ ثقلًا لا يحملُهُ إلَّا مُذنبٌ يُشبهُ الكهنةَ الذينَ سقطوا من بينِ صفحاتِ الكتبِ...
آه... يا زهرةَ البرقوقِ العطرةَ...
من أينَ عرفتَ أنَّ الليلَ يسمعُكَ حينَ تُملي عليهِ أمنيَّاتِكَ؟
ومن أينَ جاءتْكَ الجرأةُ أن تطلبَ منِّي رحمًا من الدخانِ، وولادةً من حجارةٍ باردةٍ؟
كيفَ وَقَدْتَ زهرةَ القرنفلِ في الخريفِ، وجعلتَ الصاعقةَ تتوقَّفُ، وسمحتَ للحجرِ أن يمشيَ إليكَ كأنَّهُ ملاكٌ أعمى يتتبَّعُ صوتَ قدميكَ؟
وأنا... كنتُ أعرفُ، منذُ البدءِ، أنَّكَ لا تملكُ إلَّا خفَّةَ الأطفالِ حينَ يحلمونَ، ولا تحملُ إلَّا براءةً تُشبهُ ذلكَ النورَ الذي يسقطُ من أصابعِ الملائكةِ حينَ ينسونَ أبوابَ الجنَّةِ مفتوحةً للحظةٍ قصيرةٍ... كنتَ تقولُ:
- أصلُ.
وأنا أقولُ:
- الطريقُ يأكلُ أصحابَهُ.
وتقولُ:

- أُضحِّي.
وأنا أقولُ:
- الدمُ الذي يُراقُ لا يسقي شيئًا.
وتقولُ:
- نصفُ المبلغِ هناكَ.
وأنا أقولُ:
- لستَ لي، أنتَ للقَدَرِ.
وتقولُ:
- ماذا تعني؟
وأنا أقولُ:
- إنَّ الخطوةَ الثالثةَ قد تجعلُ منكَ طائرًا بلا ريشٍ، أو ظلًّا لا يستدلُّ عليهِ أحدٌ. (26)

آه... يا ذُعرَ الساعةِ الهادئةِ...
فإنْ يكنِ الزمانُ البغيضُ قد أحكمَ أقفالَهُ، وإنْ يكنْ حديثي النافذُ قد ثَقُلَ وتبلَّدَ، فإنَّما تبلَّدَ من قسوةٍ أشدَّ من قسوةِ الرخامِ... وإنْ كانَ الذي يُثيرُ العواطفَ ويدفعُ سنابكَها هو الحكايا الزاهيةُ، فليسَ هذا ذنبي... وإنْ كانَ كلامي لم يَعُدْ يُسِرُّ، فليسَ لي إلَّا أن أستنفدَ بالبكاءِ (27) ما تبقَّى من الحكايةِ، فأموتَ وأنا أبكي، فلا ترى الكاميرا حينَ أُصوِّرُ. إلَّا ندمَ العدسةِ.

---

26- كَتَبْتُ: هَذَا طَيْفٌ كَانَ يُرَافِقُ إيكارَ حِينَ كَانَ يَطِيرُ فِي الْحِكَايَةِ وَلَا يَصِلُ إِلَى مَوْتِهِ. طَيْفٌ لَمْ تُدْخِلْهُ الْكُتُبُ، وَلَمْ تَلْمَسْهُ صَلَوَاتُ الْكَهَنَةِ، وَلَمْ تَتَعَرَّفْ عَلَيْهِ رِيحُ الْحُدُودِ.

27- هَامِشٌ فِي الْبُكَاءِ:
يَا لِثِقَلِ الدَّمْعِ حِينَ يَسْقُطُ عَلَى الْمَخْطُوطِ.
مَرَّةً، وَأَنَا أَخُطُّ اسْمَ إِيكارَ، سَقَطَتْ دَمْعَةٌ فَمَحَتْ نِصْفَ الْحَرْفِ، فَبَدَتِ الْكَلِمَةُ كَجَنَاحٍ انْكَسَرَ وَهُوَ فِي الْهَوَاءِ. وَكَتَبْتُ عِنْدَ الْهَامِشِ:
– كُلُّ مَا يُمْحَى هُوَ مَا كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يُسْمَعَ.

ثمَّ آه...
كنتَ تريدُ أن تلجَ أرصفةَ التعبِ بزقزقةِ بلبلٍ، وكنتُ أريدُكَ فراشةً ميّتةً في مباهجِ الأسواقِ، وملتقى الباعةِ والشُّراةِ... وحينَ أمرتَ الأشياءَ أن تخرجَ من أجسادِها، وأمرتَ البراريَ أن تقفَ على أصابعِها، لم أستطعْ إلَّا أن أراكَ كحقيقةٍ صغيرةٍ تهربُ من قبضةِ العالمِ... كذنبٍ كبيرٍ يقتربُ من صدري... كنصلٍ يبحثُ عن لحمٍ ليُعلنَ وجودَهُ فيهِ... أتذكرُ حينَ أوقفتُكَ قربَ الحدودِ وقلتُ لكَ:
- اُنظرْ.. ذلكَ المخفرُ الأخيرُ، سأذهبُ إليهِ، أمَّا أنتَ فما عليكَ إلَّا أن تواصلَ صعودَ الجبلِ، وتنسربَ بينَ سرادقاتِهِ، ناسجًا لحلمِكَ مجدَ المطرِ وتناغمَهُ الغامرَ... وسترَى كيفَ ينهضُ القيظُ رافعًا وجهَهُ ليدلَّكَ على الرحمِ البتولِ، وهناكَ ستجدُ الروحَ تحتضنُ ما يعترضُ الخطوةَ من حجرٍ، وستجدُ الثلجَ ملءَ ذراعيكَ، ويخطبُ ودَّكَ كالأنثى... وحينَ تخرجُ من دبقِ الصبرِ إلى غدِكَ المنتظرِ هناكَ، ستجدُني بانتظارِكَ، رافعًا لكَ مأوًى على أنسامِ السماءِ...
وكنتَ أنتَ، يا لهفَ قلبي، كزهرةٍ برِّيَّةٍ تحثُّ الفراشاتِ على ملازمةِ العشبِ، أو كمنْ يطلبُ العشقَ المغسولَ بلهاثِ العاشقِ...
أيُّها العاشقُ، أيُّها المستغرقُ في وهجِ الرحيلِ، لقد حملتُكَ في قلبي كما تُحمَلُ الجثثُ التي لا يريدُ أحدٌ أن يعترفَ بأنَّها ماتتْ... وظللتُ أُردِّدُ في سرِّي:
- ليتَ الخيانةَ [28] لم تكنْ، وليتني لم أكنْ أنا بوَّابَها، ولا مُعلِّمَها، ولا شهيدَها.
هكذا...
كنتُ أراكَ تُحاولُ النجاةَ، وأنا أراكَ تهوي...
كنتُ أراكَ تُضيءُ، وأرى في الضوءِ ظلِّي. [29]
كنتُ أراكَ تكبرُ، وأسمعُ في نموِّكَ شيئًا يُشبهُ الطعنةَ الأُولى حينَ تدخلُ الجسدَ، وتختارُ لها بيتًا بينَ الضلوعِ...

---

[28]- عَنِ الْخِيَانَةِ الَّتِي تُحْتَسَى كَكَأْسٍ مِنْ عَقَارِبَ (تَعْلِيمٌ غُنُوصِيٌّ مُعَمَّقٌ):
(لَيْسَ فِي الْوُجُودِ خِيَانَةٌ حَقِيقِيَّةٌ. الْخِيَانَةُ وَجْهٌ آخَرُ لِلْمَعْرِفَةِ. مَنْ لَمْ يَخُنْ نَفْسَهُ أَوَّلًا، لَنْ يُفْتَحَ لَهُ الْبَابُ الْمُوَاجِهُ لِلسِّرِّ. فَالْخِيَانَةُ هِيَ أَوَّلُ دَرْسٍ فِي كُتُبِ الْحِكْمَةِ السَّوْدَاءِ).

[29]- ظَلَّ مَعِي. وَكُلَّمَا قَلَّبْتُ صَفْحَةً مِنَ الْمَخْطُوطِ الْأَصْلِ، وَضَعَ إِصْبَعًا مِنْ ضَوْءٍ عَلَى كَلِمَةٍ غَامِضَةٍ وَقَالَ: "هَذِهِ لَنَا، فَضَعْهَا فِي هَوَامِشِكَ، فَإِنَّ السِّفْرَ الْكَبِيرَ لَا يَتَّسِعُ لِلْمُنْكَسِرِينَ".

آه... أيُّها العاشقُ كمرجانٍ في تأمُّلٍ...
يا مَنْ جعلتَ القيظَ يرفعُ وجهَهُ نحوكَ، وجعلتَ الجبلَ يتسلَّقُ خطوتَكَ، وجعلتَ الثلجَ يُغازلُ يديكَ كما لو أنَّهُ أُمٌّ عتيقةٌ تبحثُ عن طفلِها الأخيرِ... يا مَنْ صعدتَ وسطَ نُدَبِ الريحِ كأنَّكَ صاعدٌ إلى رحمٍ سماويٍّ يضيقُ بغيرِكَ، ويتَّسعُ لكَ وحدكَ... كنتُ أعرفُ . ويا لمرارةِ المعرفةِ . أنَّكَ لن ترى المخفرَ الأخيرَ... وأنَّ الطريقَ الذي رسمتُهُ لكَ كانَ ضيِّقًا، كأنَّما حُفِرَ بنصلٍ... وأنَّ صوتي حينَ صاحَ بكَ:
- واصلْ صعودَكَ...
لم يكنْ نصيحةً، كانَ آخرَ خدعةٍ يُدافعُ بها المُذنبُ عن نفسِهِ كي لا ينكشفَ...
ومعَ ذلكَ...
كنتُ أراكَ، يا زهرةَ البراري، يا فراشةً تقفُ على فوهةِ جرحٍ، يا وجهَ طفلٍ لا يعرفُ أنَّ الأُمومةَ لا تسكنُ كلَّ العيونِ...

# إصحاحُ
# 9
# الفوتوغرافيُّ العجوزُ
**(من سِفْرِ المتاهاتِ الدائريَّةِ).**

وحدثَ في زمنٍ لا يُحدَّدُ أنَّ الفوتوغرافيَّ العجوزَ سارَ في الدربِ الذي لا ينتهي، مُحمَّلًا بأمرٍ لم يعرفْ معناَهُ، ولا قادرًا على الرجوعِ عمَّا كُتِبَ لهُ... وقيلَ إنَّهُ كانَ يتبعُ خيالَهُ، فلا يدري: أهوَ الذي يسيرُ، أم هوَ الذي يُساقُ... انفتحتْ أمامَهُ **الدائرةُ الأُولى**، دائرةُ البداياتِ التي تُشبهُ النهاياتِ، فسمعَ صوتًا يقولُ:
- كلُّ خطوةٍ تسيرُها تعودُ عليكَ، ولا تتلاشى.
فعلمَ أنَّ الزمنَ ليسَ خطًّا مستقيمًا، وإنَّما هوَ نَفَسٌ يدورُ في صدرِ الوجودِ...
وسارَ في **الدائرةِ الثانيةِ**، دائرةِ الأعباءِ، فرأى ظلَّهُ يسيرُ قُدَّامَهُ مرَّةً، وخلفَهُ مرَّةً، وفي جانبَيْهِ مرَّاتٍ... فسألَ:

- أيُّنا يحملُ الآخرَ؟

فقيلَ لهُ:

- ما الحِملُ إلَّا صورةٌ منك، تثقلُ إذا أهملتَها، وتخفُّ إذا عرفتَها. (30)

ولمَّا دخلَ **الدائرةَ الثالثةَ**، دائرةَ البوصلةِ التي تدورُ ولا تُشيرُ، عرفَ أنَّ الطريقَ لا يُعطي الهُدى... وقيلَ لهُ:

- ليسَ ضلالٌ أفدحَ من أن تنتظرَ وجهةً من طريقٍ لا يعرفُكَ.

وفي **الدائرةِ الرابعةِ**، دائرةِ المرايا، رأى الجنديُّ نفسَهُ في مرآةٍ لا تعكسُهُ... فقالَ:

- لعلِّي غبتُ عنِّي.

فجاءَهُ نداءٌ من بعيدٍ:

- مَنْ يغِبْ عن نفسِهِ، يتركْها لمن لا يحفظُها.

أمَّا **الدائرةُ الأخيرةُ**، فلم يجدْها... وجدَ الدربَ ينطوي عليهِ كالحلقةِ تُغلقُ نفسَها... وحينَ وقفَ في النقطةِ التي بدأَ منها، عَلِمَ أنَّهُ لم يعُدْ هوَ هوَ... فقيلَ لهُ:

- النهايةُ ليستْ موضعًا تبلغُهُ، إنَّما هيَ شخصٌ تُصبحُهُ.

فجلسَ الجنديُّ الجريحُ، ووضعَ سلاحَهُ، وعرفَ أنَّ الدوائرَ كلَّها تطلبُ صدقَهُ، ولا تطلبُ قوَّتَهُ... فكتبَ بصوتٍ خافتٍ في ترابِ الطريقِ:

- أمرُ الوجدانِ أعلى من أمرِ القائدِ.

---

30- عَادَ الظِّلُّ لِيَكْتُبَ مِنْ جَدِيدٍ:

"افْتَحِ الدَّوَاةَ أَيُّهَا النَّاسِخُ"

هَا أَنَا أَفْتَحُ الْهَوَامِشَ الْجَدِيدَةَ، وَأَدُسُّهَا كَطَبَقَاتٍ عَمِيقَةٍ فِي جَوْفِ الْمَخْطُوطَةِ الْكُبْرَى... هَوَامِشَ لَا تُقْرَأُ إِلَّا عَلَى ضَوْءِ شَمْعَةٍ تَرْتَجِفُ، وَلَا تُفْتَحُ إِلَّا لِمَنْ عَرَفَ مَذَاقَ الْبَوَّابَةِ قَبْلَ أَنْ يَعْبُرَهَا.

وخُتِمَ السِّفْرُ بما يُشبهُ الوعدَ:
- مَنْ دارَ في النهاياتِ، يجدِ البدايةَ التي لم يرَها، ومَنْ حملَ نفسَهُ بحقٍّ، لا يحملْهُ أحدٌ.[31]

٩

## النشيدُ التاسعُ

(تتمَّتُهُ، متدفِّقًا كما لو أنَّهُ ارتعاشةُ مُذنبٍ على أبوابِ ديرِهِ الأخيرِ)

يا لنبرةِ الاعترافِ الملطَّخةِ بالعارِ...
يا للمصيرِ غيرِ المكتملِ...
يا لانقسامِ النهارِ الطويلِ إلى ظلامٍ...
ويا لهشاشةِ الذكرى، ويا لقناعِ الموتِ المرسومِ بمدادٍ من ظلِّ الذنبِ...
هكذا تقولُ، وصوتُكَ . يا شاعرَ الظلالِ [32] يمسُّ ركضَ الأيائلِ في فزعِها، ويمتحنُ صبرَ الجبالِ التي حفظتْ أثرَ الهاربينَ في عروقِها الحجريَّةِ...
قلتَ لي، كما تقولُ المتاريسُ للبنادقِ:

---

[31]- وعندَ بوَّابةِ النسيانِ، كانَ ثمَّةَ تمثالٌ من ملحٍ، كلَّما مرَّ أحدٌ بجانبِهِ ذابتْ منهُ إصبعٌ أو عينٌ، حتى صارَ وجهُهُ مزيجًا من الذينَ مرُّوا...
فلا أحدَ يقدرُ أن يعرفَ: هل كانَ التمثالُ إنسانًا، أم كانَ إنسانٌ صارَ تمثالًا؟

[32]- **هَامِشُ الظِّلَالِ**
(هَذِهِ الظِّلَالُ لَيْسَتْ تَابِعَةً لِأَجْسَادٍ مَا... إِنَّهَا لِأَرْوَاحٍ هَرَبَتْ مِنْ أَجْسَادِهَا، فَبَقِيَتْ ظِلَالُهَا تَبْحَثُ عَمَّنْ يَلِيقُ بِهَا...)
**الْهَامِشُ الْمُخْفِيُّ دَاخِلَ الْهَامِشِ:**
(الظِّلَالُ لَا تُفَسِّرُ النُّورَ، إِنَّهَا تَفْضَحُهُ).

- ما علينا إلَّا أن نجتازَ الجبلَ، فنكونَ قد تجاوزنا الحدودَ.
أنا الخيانةُ تمشي على قدمينِ...
أنا الطعنةُ في هيئةِ إنسانٍ...
وقد اشتعلتُ بناري حتى صرتُ كتلةَ لهبٍ ترتجفُ من نفسِها...
أحضرتُ الكتَّانَ وبياضَ البيضِ، أردتُ أن أُسكِتَ وجهي الخائنَ، أن أُثبِّتَ عليهِ رداءً أبيضَ، كأنَّني كاهنٌ يغسلُ عارَهُ بالرمادِ... لكنَّ البياضَ لم يُنقِ ذنبي، وإنَّما زادَهُ سطوعًا، كخطيئةٍ تُضاءُ بشمعدانٍ أعمى... كنتُ أقولُ لكَ:
- اركضْ يا هذا، اركضْ... إنَّها مهمَّةٌ سهلةٌ، مجرَّدُ أن تواصلَ صعودَ الجبلِ، وسأكونُ أنا بانتظارِكَ هناكَ... أُعاني ما تُعانيه، وأُعاني الأشدَّ بنفسي... وأعلمُ أنَّ النفسَ تتخطَّى العذابَ حينَ تُلقى في الشجى أترابًا حزانى... فاركضْ يا هذا، اركضْ... فأنا رجلٌ عجوزٌ، ولو لم تُرهقني الطبيعةُ المرهقةُ لكنتُ قد ركضتُ معكَ.
لكنَّني كنتُ كاذبًا، كما يكذبُ الخوفُ حينَ يلبسُ قميصَ الشجاعةِ... وكنتَ أنتَ واقفًا مثلَ طبلٍ تائهٍ تُضرَبُ عليهِ عصا الريحِ... تقولُ:
- لا أعرفُ المنطقةَ... وسيمسكني رجالُ الحدودِ.
فانطلقتُ أنا، سابقًا ظلِّي، وتركتُكَ خلفي... ثمَّ التفتُّ إليكَ وهتفتُ:
- كفاكَ دلالًا... اسمُكَ مُسجَّلٌ عندَ كلِّ مخفرٍ... حرِّكْ ساقيكَ، فالخوفُ لا يحمي أحدًا.
وبقيتَ، يا أيُّها الصغيرُ الموجوعُ، واقفًا كقنفذٍ ينفخُ الرهبةَ في دمِهِ، مرتجفًا تحتَ معطفٍ من فزعٍ قديمٍ، ورطوبةِ ليلٍ لا يرحمُ... ثمَّ عدتُ إليكَ ضاحكًا، ضحكةً لم تكنْ لي، كانتْ للرياحِ التي استعارتْ فمي:
- أنا لا أهربُ منكَ، يا شاعرَ الغيمِ... كلانا يركضُ وراءَ فتوحاتِهِ الضائعةِ... كلانا ظلٌّ يبحثُ عن جسدِهِ.
هكذا أقولُ، وأنا أعصرُ وجهي بينَ أصابعي، وأسمعُ في دمي قرقعةَ الخيانةِ، كما يسمعُ الراهبُ صوتَ المفاتيحِ في زنزانةٍ سقطتْ عنها الألواحُ ...
هكذا يمنحُ المساءُ الفجرَ جمالَهُ الرشيقَ، كما تمنحُ الأرملةُ ثوبَ عرسِها للعاصفةِ...
هكذا أستنشقُ مجدي بمنتهى الاحتقارِ، وأرفعُ أقنعتي كما ترفعُ المدنُ راياتِها المحترقةَ...
يا أقنعةَ المحنةِ، أعلني مهرجانَكِ، وانصبي مائدةَ الحزنِ، فنحنُ لم نشربْ بعدُ نخبَ الفاجعةِ...

وأنا لم أعترفْ بعدُ، أيَّتُها الأقنعةُ، بكلِّ ما دفنتْهُ الأضلاعُ تحتَ ركامِ السكوتِ... لم أهبِ الحزنَ ما يستحقُّهُ من كلماتٍ، ولم أرفعِ الأرواحَ إلى مقامِ الهرطقةِ المقدَّسةِ...
فأنا عزاءُ المحرقةِ، وألواني ترتعدُ من المجزرةِ...
أنا صرخةُ النارِ حينَ تستفيقُ في فجرٍ بلا عيونٍ...
فاقصري دورَكِ، يا أقنعةَ الرعدِ، واتركي للقمرِ المُضاءِ ساعةً أخرى، ودعيني أُتمُّ طقوسي:
ليكونَ المُرُّ رخاءً، والشدَّةُ ضحكةً بحوافٍّ مذهَّبةٍ...
ولتكنْ لآثامي آثامٌ تتقاطعُ معها كالسكاكينِ فوقَ المذبحِ...
ولتكنْ لكلماتي إيقاعاتٌ لم يسمعْ بها إنسانٌ...
وحينَ أسردُ، لا يرى القمرُ إلَّا نعاسًا ثقيلًا مثلَ الرصاصِ، ولا تسمعُ الأرضُ، إن سمعتْ، إلَّا ضحكاتٍ طليقةً تسعى إلى ضحكاتٍ لم تُولدْ بعدُ...
وحينَ أُصوِّرُ...
فالصورةُ ليستْ ما كانَ، إنَّها ما نجا من العبورِ...
قطعةُ زمنٍ انتُزعتْ من مجراها، كما يُنتزعُ الاسمُ من فمِ الميِّتِ، ووُضعتْ في الأرشيفِ لتشهدَ دونَ أن تتكلَّمَ... ترنيمةٌ تصعدُ إلى الأرضِ من سماءٍ مقلوبةٍ... هنا يتوقَّفُ الزمنُ، لا ليستريحَ، وإنَّما ليهزَّ رأسَهُ باستمرارٍ كي يتذكَّرَ اسمَهُ... بينَ ماضٍ لم يكتملْ، ومستقبلٍ لم يُستدعَ بعدُ، يتسلَّقُ برجُ الكلماتِ مثلَ أثرٍ...
أيُّها الأثرُ، يا ما بقيَ بعدَ انصرافِ المعنى، من أيِّ يدٍ خرجتَ؟ ومن أيِّ نسيانٍ نجوتَ حتى صرتَ دليلًا؟

الصورةُ لا تحفظُ الحدثَ...
هي تحفظُ غيابَهُ...
إنَّها لا تقولُ: (كان هنا...).
تقولُ: (مرَّ من هنا ولم يَعُدْ...).
ولهذا تُثقِلُ القلبَ، كما تُثقِلُهُ الخطيئةُ غيرُ المُعلَنةِ.

# إصحاح

## 10

# المَلَاكُ الأعمى في المِرآةِ الزَّمَنيّةِ

قَبلَ أنْ يُفِيقَ مِنَ الصَّدْمَةِ، ظَهَرَ رَجُلٌ بِثَوْبٍ فِضِّيٍّ، وَعَيْنَانِ مُغَطَّاتانِ بِقِطْعَةِ قُمَاشٍ سَوْداءَ... كانَ المَلَاكُ الأعمى [33]... لَمْ يَكُنْ يَمشي على الأرضِ، كانَ يطفو على مَسافةِ إصبعٍ واحدٍ من سَطحِ الزَّمنِ، كأنَّ الهواءَ يَحمِلُهُ احترامًا أو خُشوعًا أو خَشيةً لا تُقال...

قالَ المَلَاكُ بصوتٍ يُشبهُ الرِّيحَ حينَ تُفكِّرُ:

- تَظُنُّ أَنَّكَ تَمشي يا إيكار... لكنَّكَ في الحَقيقةِ تُقتادُ.

ارتجفَ الجنديُّ الجريحُ حينَ سمعَ الاسمَ الذي لم يذكُرْهُ أحدٌ هنا من قبلُ.

- إيكار؟ أليسَ اسمي الجنديَّ الجريح؟

ضحكَ المَلَاكُ ضَحكَةً تُشبهُ صَدْعًا في جدارٍ قديمٍ:

- كلُّ الأسماءِ أقنعةٌ يا وَلدي... أنتَ لستَ جنديًّا، ولا شاعرًا هاربًا، ولا قاتلًا، ولا ضحيّةً... أنتَ الخَطُّ الذي يَرسُمُ دَوائرَ الزَّمَنِ حولَ نفسِه.

---

[33]- *هَامِشُ الْعُمْيَانِ الَّذِينَ رَأَوْا أَكْثَرَ مِمَّا يَجِبُ (عَلَى لِسَانِ نَاسِخٍ لَمْ يَكُنْ أَعْمَى، لَكِنَّهُ تَظَاهَرَ بِالْعَمَى كَيْ لَا يُحَاسَبَ عَلَى مَا رَآهُ، كَأَنَّ الْعَمَى بَابٌ، وَالرُّؤْيَةُ عُقُوبَةٌ)*: **فِي مَعْنَى الْعَمَى الَّذِي لَا يُطْفِئُ الْبَصِيرَةَ (مِنَ الْهَوَامِشِ الْمَطْمُوسَةِ فِي الْمَخْطُوطَةِ الْكُبْرَى)**: مُبَارَكٌ أُولَئِكَ الَّذِينَ غَطَّوْا أَعْيُنَهُمْ بِخِرَقٍ سَوْدَاءَ، لِئَلَّا يَرَوُا الْخَرَابَ، ثُمَّ رَأَوْهُ مِنْ دَاخِلِهِمْ، أَوْضَحَ مِمَّا يَرَاهُ الْمُبْصِرُونَ فِي النَّهَارِ... هَؤُلَاءِ هُمُ الْعُمْيَانُ الْحَقِيقِيُّونَ: لَيْسُوا مِمَّنْ فَقَدُوا الْبَصَرَ، فَأُولَئِكَ امْتَلَؤُوا بِالرُّؤْيَةِ حَتَّى الْعَمَى... وَقَدْ عَلِمْتُ، أَنَا النَّاسِخُ، أَنَّ بَعْضَ الرُّؤَى لَا تَحْتَمِلُهَا الْعَيْنُ فَتَنْطَفِئُ، لَكِنَّ ضَوْءَهَا يَبْقَى مُتَوَهِّجًا فِي الصَّدْرِ.

اقتربَ المَلَاكُ، ومسحَ بيدهِ عيني الجنديِّ الجريح... لم يَرفعِ القِماشَ عن عينيه هو، لكنَّهُ جعلَ عيني الجنديِّ تريانِ ما لا يُرى... وفجأةً... انفَتَحَت أمامهُ كلُّ الدوائرِ التي قطعَها:

* دائرةُ الطاعةِ... كانت طفولتَهُ.
* دائرةُ الثِّقلِ... كانت شبابَهُ.
* دائرةُ المرايا... كانت ذنوبَهُ.
* دائرةُ الصَّمتِ... كانت خوفَهُ.
* دائرةُ إسقاطِ السلاحِ... كانت نُضجَهُ.

وعرفَ في تلك اللحظةِ أنّهُ عاشَ الدوائرَ كلَّها قبلَ أن يمشي فيها... وأنَّ الزَّمنَ كان دائريًّا داخلَهُ، قبلَ أن يكونَ خارجَهُ.

١٠

# النَّشِيدُ العاشِرُ

قُدَّاسٌ أَسْوَدُ يُتْلَى عَلَى جَسَدِ العَابِرِ أَوْ إِنْشَادٌ مَخْبُوءٌ فِي لَفَائِفِ دَيْرٍ جَبَلِيٍّ.

مزمور

(1)

## فِي ذِكْرِ رَكْضِ إِيكارَ وَرَجْفَةِ النَّارِ

وَهَا إِنِّي أَسْتَعِيدُ لَهَاثَكَ، يَا إِيكارُ، وَأَسْتَعِيدُ تَوَاثُبَ الشَّمْسِ حِينَ بَارَكَتْ جُنُونَكَ، كَأَنَّهَا تُقِيمُ قُدَّاسًا لِلَهَبٍ هَرْطُوقِيٍّ، وَتَفْتَحُ لَكَ بَابًا مِنْ نُحَاسٍ وَأَبْخِرَةٍ. كُنْتَ تَهْرُبُ، لَا هَرَبًا، كُنْتَ تَهْرُبُ تَوَهُّجًا يَتَصَاعَدُ لِيُطْفِئَ رَبِيعًا كَانَ آمِنًا ثُمَّ تَنَاثَرَ. كُنْتَ تَنْفُخُ فِي الْأَبْوَاقِ، وَتَنْسُجُ الْغَيْمَ كَمَا تَنْسُجُ الْأَرْوَاحُ أَجْنِحَتَهَا، فَيَرْجِعُ الْغَسَقُ خُطْوَةً، وَيَتَعَثَّرُ فِي ظِلِّكَ خُطْوَةً، وَيَتَرَاجَعُ فِي إِثْرِكَ الْمَسَاءُ وَالْهَوَاءُ وَزَنَابِقُ الْمُظَلَّاتِ عَلَى الْمُرُوجِ الْعَائِمَةِ. وَتَتْرُكُ الْغُيُومُ قَمَرًا وَحِيدًا عَلَى الشُّرُفَاتِ، وَفَوْقَ قَطَاةِ الذُّهُولِ، كَأَنَّكَ تَعْبُرُ أَرْضًا يَاقُوتِيَّةً تَرْتَفِعُ مِنْهَا طَعَنَاتُ الْعُذُوبَةِ، وَتَتَعَرَّى لَكَ الطَّبِيعَةُ فِي جَسَدٍ مُهَيَّأٍ لِلْقِتَالِ. لَكِنَّكَ وَالْجِبَالُ الَّتِي تَدَحْرَجَتْ كَالْحِيتَانِ (الْجِبَالُ الَّتِي تَقْضِمُ صُعُودَكَ قَضْمَ الْجَائِعِ) تَحْتَفِظَانِ بِمِيثَاقٍ لَا يُحَلُّ، وَتَضْحَكَانِ هُزْءًا مِنَ الْحِصَارِ، وَكَأَنَّ الْقُيُودَ لَا تُتْقِنُ الْإِمْسَاكَ بِالْمَلَائِكَةِ. كُنْتَ

تَخْتَصِرُ الصَّبَاحَاتِ بِحَجَرٍ يَتَمَايَلُ هَابِطًا إِلَى قَامَاتِ نَوْمِهِ، وَتَرَى التُّرَابَ يَنْقَلِبُ صَفَائِحَ مِنْ وَرَقٍ أَصْفَرَ، كُتِبَ عَلَيْهَا سِرُّ الْبَدْءِ.

وَكُنْتَ تَتَذَكَّرُ بَدَايَةَ الطَّرِيقِ، وَتَنْظُرُ إِلَيَّ بِتِلْكَ الْقُوَّةِ السَّوْدَاءِ الَّتِي تَجْعَلُ الْقَاتِلَ يَحْلُمُ بِالثَّلْجِ. تَنْظُرُ إِلَى قَلْبِي، وَتَتَذَكَّرُ الطِّفْلَ النَّائِمَ قُرْبَ طَاحُونَةٍ فِي ضَوْءِ الْقَمَرِ، وَغُمُوضَ الْأَعْرَاسِ الْأَبْكَمِ، وَاللَّيْلَ يَجُرُّ حُدُودَهُ بِأَقْنِعَةٍ مِنْ دَمٍ وَقَرَاصِنَةٍ. وَأَنَا الَّذِي يَدْفَعُكَ إِلَى وَلِيمَةِ الصُّقُورِ... أَنَا وَالْجِبَالُ الَّتِي تَنْهَبُ صُعُودَكَ، لَمْ أَجِدْ مَهْرَبًا مِنْكَ، وَلَا مِنْ مُعْجِزَةٍ ضَاعَتْ بَيْنَنَا، وَلَا مِنْ صَلَاةٍ رَفَعْنَاهَا مَرَايَا نَسْأَلُ بِهَا الْأَرْضَ عَنْ مَخَابِئِهَا، حَتَّى تُبْطِئَ سَاعَاتُ الْيَأْسِ فِي ذَلِكَ الظَّلَامِ. يَا لَلْعَمَاءِ... يَا لِلصَّوْتِ الْأَجَشِّ كَصَوْتِ الْبَنَادِقِ، يَا لِلْعَمَاءِ الْمَقْلُوبِ كَمُظَلَّةٍ سَوْدَاءَ، الَّذِي دَحْرَجَ مَوْتَنَا حَتَّى ظَنَنَّاهُ طِفْلًا يَلْعَبُ بَيْنَ ظِلَّيْنَا. وَكُنَّا نَسْأَلُ: هَلْ نَمْشِي طَوِيلًا؟ وَيَأْتِي الْجَوَابُ: رُبْعُ سَاعَةٍ... أَوْ نِصْفُ سَاعَةٍ... ثُمَّ نَصِيرُ مَلَائِكَةً تَتَنَاثَرُ عَلَى هَيْئَةِ سَحَابَةٍ.

## الإِصْحَاحُ الحَادِي عَشَرَ

## 11

## الْمُتَاهَةُ الزَّمَنِيَّةُ وَانْقِسَامُ الذَّاتِ

سَمِعَ الْجُنْدِيُّ وَقْعَ خُطًى ثَالِثَةٍ، خُطًى حَازِمَةً، صَارِمَةً، كَخُطُوَاتِ عَسْكَرِيٍّ يَتَقَدَّمُ نَحْوَ أَمْرٍ لَا يَقْبَلُ التَّرَاجُعَ عَنْهُ... اسْتَدَارَ، وَرَأَى نَفْسَهُ.

نَفْسَهُ كَمَا كَانَ قَبْلَ الدُّخُولِ إِلَى الْمُتَاهَةِ: شَابًّا صُلْبًا، حَادَّ الْعَيْنَيْنِ، يُمْسِكُ بِالسِّلَاحِ الَّذِي تَخَلَّى عَنْهُ مُنْذُ قَلِيلٍ...

قَالَتِ النُّسْخَةُ الْأُخْرَى:

- مَا كَانَ يَنْبَغِي أَنْ تَخْلَعَ سِلَاحَكَ... لَقَدْ خُنَّا الْقَسَمَ... الْوَطَنُ يَنْتَظِرُ... وَالْأَوَامِرُ أَوْضَحُ مِنْ أَنْ تُنْقَضَ...

اقْتَرَبَ الْجُنْدِيُّ الْأَصْلِيُّ مِنْهُ، وَقَالَ:

- أَنَا لَسْتُ أَنْتَ بَعْدَ الْآنِ... وَالْقَسَمُ الَّذِي أَقْسَمْتُهُ كَانَ نَاقِصًا... لِأَنَّنِي لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ نَفْسِي حِينَ حَلَفْتُهُ.

اشْتَعَلَتْ عَيْنَا النُّسْخَةِ الْأُخْرَى غَضَبًا:

- إِذَا كُنْتَ لَسْتَ أَنَا... فَأَنْتَ لَا شَيْءَ.

وَأَضَافَتْ بِصَوْتٍ أَشْبَهَ بِالطَّلْقَةِ:

- يَجِبُ أَنْ أَقْتُلَكَ.

لَكِنَّ الْفُوتُوغْرَافِيَّ الْعَجُوزَ رَفَعَ كَامِيرَتَهُ، فَارْتَجَّتِ النُّسْخَةُ الْأُخْرَى وَاخْتَفَتْ، كَصُورَةٍ انْطَفَأَتْ.

وَقَالَ الْفُوتُوغْرَافِيُّ لِلْجُنْدِيِّ الْجَرِيحِ:

- لَا يُقْتَلُ شَيْءٌ فِينَا... إِنَّهُ يُمْحَى حِينَ نَعْرِفُهُ.

انْفَتَحَ الْمَكَانُ فَجْأَةً ، وَصَارَ الزَّمَنُ طَبَقَاتٍ تَتَحَرَّكُ فَوْقَ بَعْضِهَا، كَأَلْوَاحٍ زُجَاجِيَّةٍ تَسْبَحُ فِي الْهَوَاءِ... عَلِمَ الْجُنْدِيُّ الْجَرِيحُ أَنَّهُ دَاخِلَ الْمُتَاهَةِ الزَّمَنِيَّةِ، حَيْثُ يَتَقَاطَعُ الْمَاضِي مَعَ الْحَاضِرِ، وَيَسْبِقُ الْحَاضِرُ الْمُسْتَقْبَلَ، وَيَعُودُ الْمُسْتَقْبَلُ لِيُعِيدَ تَرْتِيبَ أَسْبَابِ الْمَاضِي... كَانَ يَرَى نَفْسَهُ طِفْلًا يَبْكِي عِنْدَ الْحُدُودِ، وَيَرَاهَا تُطْلِقُ النَّارَ عَلَى الْعَابِرِينَ، وَيَرَاهَا تَكْتُبُ عَلَى الرَّمْلِ، وَيَرَاهَا جُثَّةً عَلَى الْأَرْضِ الْحَرَامِ، وَيَرَاهَا شَيْخًا يَحْمِلُ كَامِيرَا، وَيَرَاهَا مَلَاكًا أَعْمَى يَسِيرُ بَيْنَ الدَّوَائِرِ...

فَهِمَ أَخِيرًا:

الْمُتَاهَةُ لَمْ تَكُنْ حَوْلَهُ... كَانَتْ هُوَ.

اجْتَمَعَ الثَّلَاثَةُ أَمَامَهُ: الْفُوتُوغْرَافِيُّ الْعَجُوزُ، وَالْمَلَاكُ الْأَعْمَى، وَالنُّسْخَةُ الْأُخْرَى الَّتِي ظَهَرَتْ مِنْ جَدِيدٍ...

قَالَ الْفُوتُوغْرَافِيُّ الْعَجُوزُ:

- أَنَا ذَاكِرَتُكَ.

وَقَالَ الْمَلَاكُ الْأَعْمَى:

- أَنَا بَصِيرَتُكَ.
وَقَالَتِ النُّسْخَةُ الْأُخْرَى:
- أَنَا جُرْأَتُكَ وَخَطَؤُكَ.
ثُمَّ قَالُوا جَمِيعًا بِصَوْتٍ وَاحِدٍ:
- وَحِينَ تَجْتَمِعُ الْأَجْزَاءُ... يُولَدُ الْإِنْسَانُ.
وَبِلَمْسَةٍ مِنْ يَدِ الْمَلَاكِ، اخْتَفَتِ الدَّوَائِرُ، وَانْطَوَى الزَّمَنُ، وَانْفَتَحَتْ بَوَّابَةٌ جَدِيدَةٌ، لَيْسَ فِيهَا نُورٌ... ظَلَامٌ يُشْبِهُ رَحِمًا كَوْنِيًّا...
قَالَ الْمَلَاك:
- ادْخُلْهُ... هَذَا بَابُكَ الْحَقِيقِيُّ...
تَقَدَّمَ الْجَسَدُ، وَدَخَلَ الظَّلَامَ، كَمَنْ يَدْخُلُ نَفْسَهُ لِلْمَرَّةِ الْأُولَى.

١٠

# النَّشِيدُ العَاشِرُ

مَزْمُور

(2)

## طَقْسُ الْحِكَايَةِ وَفَتْحُ أَبْوَابِ الدَّمِ

افْتَحْ أَبْوَابَ الدَّمِ [34]، يَا طَقْسَ الْحِكَايَةِ. افْتَحْ قَبْلَ أَنْ تَخُونَ الشَّهَادَةُ نَفْسَهَا. لَكِنْ تَمَهَّلْ قَلِيلًا... قَلِيلًا، عَلَيَّ أَنْ أُصَوِّرَ كُلَّ مَنْ وَقَفُوا أَمَامَ الضَّوْءِ وَتَرَكُوا شَيْئًا خَلْفَهُمْ.

---

[34]- **هَامِشُ الْبَوَّابَاتِ**
(كُلُّ بَابٍ نَطْرُقُهُ لَيْسَ لِأَجْلِ الدُّخُولِ... فَأَحَدٌ فِي الدَّاخِلِ يَطْرُقُ عَلَيْنَا).
**الْهَامِشُ الْمُخْفِيُّ دَاخِلَ الْهَامِشِ:**
(لَا تَبْحَثْ عَنِ الْبَوَّابَةِ الْكُبْرَى... الْبَوَّابَةُ الْكُبْرَى هِيَ تِلْكَ الَّتِي لَا تَجْرُؤُ عَلَى لَمْسِهَا).

عَلَيَّ أَنْ أَفْهَمَ أَنَّ الْخَطَأَ لَيْسَ خَطِيئَتِي وَحْدِي، خَطِيئَةُ النَّظَرِ حِينَ يَخَافُ أَنْ يَرَى.
عَلَيَّ أَنْ أَرَى خِنْجَرَ الْمَوْتِ وَزُهُورَهُ الْجَهَنَّمِيَّةَ، وَأَدْفَعَ السَّرْدَ دَفْعًا إِلَى الْإِنْذَارِ الْأَخِيرِ.
بِاسْمِ النُّورِ الَّذِي لَا يُرَى، وَبِاسْمِ الزَّمَنِ الَّذِي يَمُرُّ وَلَا يَتَوَقَّفُ، أَدْخُلُ الصُّورَةَ بِثِقْلِي لَا بِعَيْنَيَّ... أَدْخُلُهَا وَقَدْ خَلَعْتُ عَنِّي اسْتِعْجَالَ الْعَالَمِ، وَوَضَعْتُ خُطَايَ خَارِجَ الضَّجِيجِ، لِأَنَّ هَذَا الْمَوْضِعَ لَا يَقْبَلُ إِلَّا السُّكُونَ، وَلَا يَنْفَتِحُ إِلَّا عَلَى مَا ثَبَتَ. افْتَحْ، يَا طَقْسَ الدَّمِ، وَسَأَكُونُ الشَّرِيكَ الَّذِي يُوَجِّهُ الطَّعْنَةَ إِلَى قَتْلٍ مَكْسُورِ النَّوَايَا.
أَبْتَدِعُ مَسَاءً لِاغْتِيَالِ الْحَمَائِمِ، وَمَأْتَمًا لِنَزْعِ الصَّهِيلِ، وَرُبَّمَا دَحْرَجْتُ الشَّائِعَاتِ إِلَى الْمُبْهَمِ، وَدَحْرَجْتُ الرُّؤْيَا إِلَى غُمُوضٍ لَا يُوثَقُ بِهِ... وَهَا أَنَا أَمَامَ نَسِيجٍ رَقِيقٍ مِنْ مَرَاتِبِ الْيَقِينِ، وَقَدْ خَلَّفْتُ وَرَاءَ ظَهْرِي إِيكَارَ وَالْجَبَلَ، وَخَلَّفْتُ الظَّلَامَ يَتَوَالَدُ كَحَرِيقٍ صَارِمٍ عَلَى صَفْحَةِ الْكِتَابَةِ، وَخَلَّفْتُ الْخَوْفَ يَتَقَدَّمُ كَطَاغِيَةٍ، وَيُحَاصِرُ الْقَلْبَ بِأَصْفَادِ الْأَيَّامِ.
وَبَيْنَمَا تَلْتَحِمُ الْخَيَالَاتُ كَأَنَّهَا تَابُوتٌ يُطَوِّقُ فِرَارِي، قُلْتُ لِقَلْبِي: تَرَيَّثْ... لَمْ يَبْقَ مَعِي رَيْبٌ... فَالرَّأْسُ يَتَوَهَّجُ، وَالْجَبِينُ يَسِيلُ دَمًا، وَلَمْ يَبْقَ لِإِيكَارَ إِلَّا رُبْعُ سَاعَةٍ أَوْ نِصْفُ سَاعَةٍ، أَجْلِسُ فِيهَا كَنَعْشٍ يَنْتَظِرُ حَامِلِيهِ. رُبْعُ سَاعَةٍ وَأَجْتَازُ الْحُدُودَ. رُبْعُ سَاعَةٍ وَأَجْمَعُ أَعْرَاسِي، أَنَامُ كَزَلَّاجَةٍ عَلَى صَدْرِ الثَّلْجِ، وَأَسْرِي بِبَصَرِي كَطِفْلَةٍ عَادَتْ إِلَى مَمْلَكَتِهَا النَّجْمِيَّةِ.
امْنَحْنِي الْغُفْرَانَ، أَيُّهَا الْمَلَاكُ الْأَعْمَى، امْنَحْنِي الْغُفْرَانَ بِمَحْوِ مَا كَانَ. امْنَحْنِي أَنْ أَعْرِفَ أَنَّ مَا سُجِّلَ لَا يَعُودُ يُطَارِدُ، وَأَنَّ مَا وُضِعَ فِي الْأَرْشِيفِ قَدْ أُودِعَ السَّلَامَ.
يَا صُورَةُ، يَا رَحِمَ الزَّمَنِ الْأَخِيرِ، يَا ذَاكِرَةً بِلَا هَوًى، اغْفِرِي لِي حِينَ أَقْبَلُ أَنْ أَكُونَ أَقَلَّ مِنْ لَحْظَةٍ، وَأَكْثَرَ مِنْ غِيَابٍ. لِيَكُنِ الْغُفْرَانُ أَنْ أُسَمَّى أَثَرًا، لَا سَيِّدًا عَلَى الزَّمَنِ. أَنْ أَخْرُجَ مِنْ هَذَا الطَّقْسِ وَقَدْ صَارَ الْمَاضِي أَخَفَّ، لِأَنَّهُ صَارَ مَرْئِيًّا.
أَدْفَعْنِي، يَا مَلَاكُ، أَدْفَعْنِي. وَأَنَا أُدَحْرِجُ الْخَيَالَ، أَدْفَعْنِي. وَأَنَا أُدَحْرِجُ الرُّؤْيَا، وَأَدْفَعُ السَّرْدَ دَفْعًا حَتَّى تَتَحَطَّمَ سُفُنُ الْغُمُوضِ الثَّقِيلَةِ، وَيَذُوبَ فِي زَبَدِهَا وُضُوحُ الْكَلَامِ.
يَا مَلَاكُ... يَا مَلَاكًا أَعْمَى، أَدْفَعْنِي... ادْفَعْ عَرَبَتِي الْعَتِيقَةَ... ادْفَعْ قَوْلِي... حَتَّى أَصِيرَ شَالًا مِنْ أَحْرُفٍ زَرْقَاءَ تَسْقُطُ مِنْ شِفَاهِ الْحَجَرِ.
طُوبَى لِلْأَثَرِ إِذَا عُرِفَ، وَطُوبَى لِلزَّمَنِ إِذَا سُمِّيَ. فَلَيْسَ الْخَلَاصُ نِسْيَانًا...
أَدْفَعْنِي...
بِاسْمِ الْكَلِمَةِ الَّتِي كَانَتْ، وَبِاسْمِ النَّارِ الَّتِي لَا تَنْطَفِئُ، أَدْخُلُ الصُّورَةَ كَمَا يَدْخُلُ الْعَابِرُ النَّهْرَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَنْ يَخْرُجَ بِالْجَسَدِ نَفْسِهِ.

أَدْفَعْنِي... افْتَحْ لِي بَابَ الْوُقُوفِ. أَخْلَعُ نَعْلَيَّ عَنِ الْكِنَايَةِ، لِأَنَّ هَذَا الْمَوْضِعَ أَرْضٌ اشْتَعَلَتْ دُونَ احْتِرَاقٍ، وَهُنَا يَصِيرُ الزَّمَنُ حَاضِرًا، لِأَنَّهُ تَوَقَّفَ.
لَمْ أَعُدْ أَقُولُ: أَنَا. أَقُولُ: مَرَرْتُ.
وَلَمْ أَعُدْ أَسْأَلُ: كَيْفَ عَبَرْتُ النَّهْرَ وَلَمْ أَعْرِفْ أَنَّنِي أَعْبُرُ؟
كُنْتُ فِي الْجَرَيَانِ، لَكِنَّنِي لَمْ أَرَ النَّارَ. كُنْتُ فِي الزَّمَنِ وَلَمْ أُسَمِّهِ. فَصَارَ مُرُورِي نِسْيَانًا مُقَدَّسًا بِلَا مَعْرِفَةٍ. [35]
ادْفَعْ، أَيُّهَا الْأَعْمَى، يَا مَلَاكُ، وَأَنْتَ يَا مَوْتُ، اسْتَدْعِ الْمَوَاسِمَ الْمَمْلُوءَةَ بِالْأَعَاجِيبِ. سَلِّمِ الْأَبْيَضَ وَالْوَرْدِيَّ لِاغْتِيَالٍ فَاجِرٍ، وَتَسَلَّلْ كَالْمَكْرِ إِلَى حُنُوِّ طِفْلٍ، وَانْتَزِعْ حُلْمَتَهُ مِنْ لِثَّةِ الْمَوْتِ الرَّطْبَةِ...
ادْفَعْ... يَا قَوْلُ...
فَمَنْ يَجْرُؤُ عَلَى تَصْدِيقِ الْعُذُوبَةِ حِينَ نَرْفَعُ أَصْوَاتَنَا بِالْحُزْنِ وَالْفَجِيعَةِ؟
ادْفَعْ، يَا مَلَاكُ، يَا نَافِخَ بُوقِ الْغَيْبِ، يَا رَاكِبَ مِجْدَافِ التَّعَبِ، ادْفَعْ طُقُوسَكَ الَّتِي يَعْرِفُهَا الْمَلَائِكَةُ.
لَنْ أَتَّهِمَكَ بِالْقَسْوَةِ، يَا مَلَاكُ، يَا مَلَاكُ، يَا أَيْقُونَةَ النَّارِ السَّاكِنَةِ.

## الإِصْحَاحُ الثَّانِي عَشَرَ

## 12

## مَنْحُوتَةُ الرِّيحِ

فِي هَذَا الصَّبَاحِ الْمُزَيَّنِ بِالرِّيشِ، كَانَ الْبَحْرُ مِرْآةً تُقَلِّبُ وُجُوهَ الْأَزْمِنَةِ. يُطِلُّ عَلَيْهِ إِيكَارُ كَأَنَّهُ دَرْسٌ مُتَأَخِّرٌ فِي الطَّيَرَانِ، يَخْتَبِرُ بِمِلْءِ الْمَوْجِ أَثَرَ الرِّيشِ الَّذِي

---

[35]- **هَامِشُ السَّاهِرِينَ عَلَى حَافَّةِ النَّوْمِ**

(فِي اللَّيْلِ يَتَكَلَّمُ الْكَائِنُ الْمُخْتَبِئُ خَلْفَ أَسْمَائِنَا، وَيُعِيدُ تَشْكِيلَنَا كَمَا يَشَاءُ).

**الْهَامِشُ الْمُخْفِيُّ دَاخِلَ الْهَامِشِ:**

(أَعْمَقُ لَيْلٍ هُوَ الَّذِي تَكُونُ فِيهِ أَنْتَ نَهَارًا لِآخَرِينَ)

نَثَرَهُ الْمَلَاكُ عَلَى فُتَاتِ الْفَجْرِ... لَمْ يَكُنْ يَبْحَثُ عَنْ نَجْمَةٍ، كَانَ يَبْحَثُ عَنْ طَرِيقٍ يَنْسَابُ بَيْنَ نَارٍ وَهَوَاءٍ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَبْتَلِعَهُ الْغُرُورُ.

فِي الْمَرَافِئِ الْبَعِيدَةِ، كَانَ الصَّيَّادُونَ يَحْكُونَ عَنْ ظِلٍّ يَهْبِطُ مِنْ عَلٍ بِبُطْءٍ، كَأَنَّهُ يُرَاجِعُ تَارِيخَ سُقُوطٍ لَمْ يَقَعْ بَعْدُ... قَالَ شَيْخٌ:

- هَذَا طَائِرٌ مِنْ أُسْطُورَةٍ نَسِيَهَا الزَّمَنُ.

وَقَالَ آخَرُ:

- هُوَ شَاعِرٌ هَارِبٌ يَقِيسُ حَدَائِقَ الرِّيحِ بِخُطْوَةٍ مِنْ حَجَرٍ وَذِكْرَى.

أَمَّا هُوَ، فَكَانَ يَسْمَعُ أَصْوَاتًا تَتَرَدَّدُ فِي تَجَاوِيفِ جَنَاحَيْهِ: صَوْتَ حُلْمٍ يَصُوغُ الْخَلَاصَ فِي شَمْعٍ، وَصَوْتَ بَحْرٍ يُذَكِّرُهُ بِأَنَّ كُلَّ طَرِيقٍ يَمُرُّ عَبْرَهُ، وَصَوْتَ نَفْسِهِ... الْحَائِرِ بَيْنَ أَنْ يَنْحَنِيَ لِلْهَوَاءِ أَوْ يَكْسِرَهُ.

مَضَى يَصْعَدُ، وَكَانَتِ الشَّمْسُ أَعْلَى مِنْهُ بِدَرَجَةٍ، وَأَبْعَدَ بِدَرَجَةٍ أُخْرَى، وَكَانَ الضَّوْءُ يَنْسَلُّ بَيْنَ أَضْلَاعِهِ حَتَّى بَدَا كَأَنَّهُ هُوَ نَفْسُهُ مِنْ صُنْعِ وَهَجٍ كَامِلٍ... لَمْ يَسْقُطْ، لَكِنَّهُ أَدْرَكَ أَنَّ الْجَنَاحَ الَّذِي لَا يَعْرِفُ حُدُودَهُ يُصْبِحُ عِبْئًا عَلَى حَامِلِهِ.

عِنْدَ الْغُرُوبِ، عَادَ إِلَى السَّاحِلِ، وَرَأَى الصَّيَّادِينَ يُلَمِّعُونَ شِبَاكَهُمْ بِهُدُوءٍ يُشْبِهُ حِكْمَةَ الْمَوْجِ... اقْتَرَبُوا مِنْهُ دُونَ دَهْشَةٍ، كَمَا لَوْ كَانَ وَاحِدًا مِنْ أَبْنَائِهِمْ عَادَ مِنْ رِحْلَةٍ أَطْوَلَ مِنَ الْعُمْرِ...

قَالَ أَحَدُهُمْ:

- كُلُّنَا نَطِيرُ مَرَّةً، لَكِنَّ الْقَلِيلِينَ يَعُودُونَ وَفِي أَيْدِيهِمْ مَعْنًى.

جَلَسَ إِيكَارُ، وَوَضَعَ جَنَاحَيْهِ عَلَى الرَّمْلِ، فَانْبَسَطَا كَخَرِيطَةٍ رُسِمَ عَلَيْهَا أَثَرُ كُلِّ مُحَاوَلَةٍ لِلِارْتِفَاعِ: قُشُورُ شَمْعٍ انْكَمَشَتْ عِنْدَ الْحَرِّ، وَمِلْحٌ تَرَاكَمَ حَيْثُ خَافَ مِنَ الْغَرَقِ، وَخَيْطُ رِيحٍ حُفِرَ بِصَرَامَةٍ لَا تُرَى...

كَانَ اللَّيْلُ يَهْبِطُ، لَكِنَّ الْبَحْرَ بَقِيَ مُضَاءً بِوَمِيضٍ لَمْ يَعْرِفْ لَهُ اسْمًا...

قَالَ فِي سِرِّهِ:

- لَعَلَّ الْأُسْطُورَةَ لَيْسَتْ دَرْسًا فِي الطَّيَرَانِ، إِنَّهَا فِي الْعَوْدَةِ... وَلَعَلَّ السُّقُوطَ نُقْطَةٌ يَتَعَرَّفُ عِنْدَهَا الْجَسَدُ عَلَى حُدُودِهِ، وَالرُّوحُ عَلَى مَسَارِهَا الَّذِي لَا يُقَاسُ بِارْتِفَاعٍ.

فِي آخِرِ اللَّيْلِ، سَمِعَ هَمْسًا يَأْتِي مِنَ الْمَوْجِ:

- أَجْنِحَتُكَ صَارَتْ لَكَ... اسْتَخْدِمْ مَا بَقِيَ مِنْهَا لِتَمْشِيَ، فَالْبَرُّ أَيْضًا يَحْتَاجُ إِلَى جَرَأَةِ الْبَحَّارِينَ، وَالرِّيحُ لَيْسَتْ وَحْدَهَا الَّتِي تَخْتَبِرُ الْقَلْبَ...

نَهَضَ، يَجُرُّ ظِلَّهُ الطَّوِيلَ كَأَنَّهُ تَارِيخٌ أَعَادَ كِتَابَتَهُ، وَمَشَى نَحْوَ ضَوْءٍ يَأْتِي مِنَ الْأَرْضِ الَّتِي انْتَظَرَتْهُ طَوِيلًا... وَلَيْسَ مِنَ السَّمَاءِ.

١٠

# النَّشِيدُ الْعَاشِرُ

مزمور

(3)

## رُؤْيَا الْمَقْبَرَةِ وَالنَّجْمَةِ الْمُتَوَهِّجَةِ

أَتَذَكَّرُ رَكْضَكَ، يَا إِيكارُ، عَلَى الْجَبَلِ، حِينَ ظَهَرَتْ نَجْمَةٌ عَظِيمَةٌ فِي السَّمَاءِ، تُرْسِلُ شَرَرَ نُورِهَا لِتُضِيءَ مَقْبَرَةً قَامَتْ فِي أَسْفَلِ الْجَبَلِ. كَانَتْ شَوَاهِدُ الْقُبُورِ مَائِلَةً، وَبَعْضُهَا مَكْسُوًّا بِالْأَعْشَابِ، وَفِي قَلْبِ الْمَقْبَرَةِ زَهْرَةُ نَرْجِسٍ هَرِمَةٌ، نِصْفُهَا عَارٍ، وَنِصْفُهَا مُورِقٌ، كَأَنَّهَا نِصْفُ مَلَاكٍ.

تِلْكَ كَانَتْ أَوَّلَ مَرَّةٍ تَرَى فِيهَا مَقْبَرَةً بِهَذَا الِاتِّسَاعِ، لَكِنَّكَ مَضَيْتَ... لِتُوقِظَ الْخَمَائِلَ، وَتَدْفِنَ رَجْفَتَكَ مِنْ هَوْلِ رُؤْيَتِهَا.

وَحِينَ وَضَعْتَ أَوَّلَ خُطْوَةٍ عَلَى الْجَبَلِ، أَغْلَقْتَ الْعَرَاءَ خَلْفَكَ، كَمِثْلِ بَابٍ مِنْ عَوِيلٍ، وَنَسِيتَ الْمَقْبَرَةَ وَقَدِ امْتَلَأَتْ بِالظِّلَالِ.

# الإِصْحَاحُ الثَّالِثُ عَشَرَ

13

## جَنَاحٌ مِنْ كَلِمَاتٍ، وَآخَرُ مِنْ صَمْتٍ

كَانَ إِيكارُ يَقِفُ عِنْدَ حَافَّةِ الْكَلَامِ، يَمْتَحِنُ الرِّيشَ كَمَا يَمْتَحِنُ شَاعِرٌ مُفْرَدَةً لَا يَعْرِفُ أَتُنْقِذُهُ أَمْ تَهْجُرُهُ فِي مُنْتَصَفِ الْجُمْلَةِ... فَاللُّغَةُ فَوْقَ كَتِفَيْهِ لَيْسَتْ زِينَةً، إِنَّهَا جِسْرٌ قَدْ يَنْفَتِحُ أَوْ يَنْهَارُ. أَمَّا الشَّمْعُ، فَهُوَ ذَلِكَ الصَّمْتُ اللَّزِجُ الَّذِي نَحْمِلُهُ مَعَنَا كَظِلٍّ لَا يَنْطِقُ، وَيَذُوبُ كُلَّمَا اقْتَرَبْنَا مِنْ حَقِيقَةٍ نَخْشَى قَوْلَهَا.

كَانَ يَعْرِفُ أَنَّ تَحْلِيقًا جَنَاحُهُ صَمْتٌ وَجَنَاحُهُ لُغَةٌ لَا يُمْكِنُهُ أَنْ يَسْتَمِرَّ إِلَّا إِذَا اعْتَرَفَ بِثِقَلِ الِاثْنَيْنِ.

عِنْدَمَا فَتَحَ جَنَاحَيْهِ، تَطَايَرَتِ الْمُفْرَدَاتُ كَطُيُورٍ مِنْ دَفْتَرٍ قَدِيمٍ، وَارْتَفَعَ صَمْتُهُ كَعَمُودٍ شَفَّافٍ يُحَاوِلُ أَنْ يَحْمِيَهُ مِنْ ضَوْضَاءِ الدَّاخِلِ... كَانَ بَيْنَ عَالَمَيْنِ، وَاحِدٌ يَقُولُ لَهُ: (تَكَلَّمْ)، وَالْآخَرُ يَهْمِسُ: (اسْكُتْ كَيْ تَفْهَمَ).

صَعِدَ، فَارْتَجَّ الرِّيشُ كَصَفَحَاتٍ تَبْحَثُ عَنْ صَاحِبِهَا، وَارْتَخَى الشَّمْعُ كَسِرٍّ لَمْ يَعُدْ يُطِيقُ أَنْ يُخْفَى... كُلَّمَا اقْتَرَبَ مِنَ الضَّوْءِ انْفَلَتَتْ كَلِمَةٌ، وَكُلَّمَا ابْتَعَدَ تَجَمَّدَ حَرْفٌ فِي حَلْقِهِ.

كَانَ سُقُوطُهُ اعْتِرَافًا بِأَنَّ اللُّغَةَ لَا تَقْدِرُ دَائِمًا عَلَى حَمْلِ جَسَدٍ كَامِلٍ، وَأَنَّ الصَّمْتَ، مَهْمَا كَانَ طَيِّعًا، يَذُوبُ فِي لَحْظَةٍ لَا يَنْفَعُ فِيهَا الرُّجُوعُ.

عِنْدَمَا أَمْسَكَهُ الْبَحْرُ، كَانَ يَحْمِيهِ كَقَارِئٍ يَتَلَقَّى قَصِيدَةً سَقَطَتْ مِنْ يَدِ كَاتِبِهَا... وَجَاءَ الصَّيَّادُونَ كَمَنْ يَعْثُرُ عَلَى دَفَاتِرَ أُلْقِيَتْ مِنْ قَارِبٍ هَرَبَ مِنْ عَاصِفَةٍ.

جَلَسَ إِيكارُ عَلَى الرَّمْلِ، فَوَضَعَ الرِّيشَ أَمَامَهُ كَجُمَلٍ نَاقِصَةٍ، وَالشَّمْعَ كَاعْتِرَافَاتٍ لَمْ تَكْتَمِلْ... وَقَرَأَ عَلَى الْجَنَاحَيْنِ تَارِيخَهُ اللُّغَوِيَّ: مُفْرَدَاتٌ وُلِدَتْ

قَبْلَ وَقْتِهَا، وَأُخْرَى مَاتَتْ دُونَ أَنْ تُقَالَ، وَصَمْتٌ غَطَّى مَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُوَاجِهَهُ.
فِي اللَّيْلِ، عَادَ الْكَلَامُ إِلَيْهِ مَكْسُورًا، لَكِنَّهُ قَابِلٌ لِأَنْ يَبْدَأَ مِنْ جَدِيدٍ... وَمَدَّ الصَّمْتُ يَدَهُ إِلَيْهِ لِيَمْنَحَهُ مَسَافَةً يَرَى فِيهَا الْكَلِمَاتِ بِوُضُوحٍ.
عِنْدَ الْفَجْرِ، نَهَضَ، وَحَمَلَ مَا تَعَلَّمَهُ مِنْهُمَا: أَنَّ اللُّغَةَ لَا تُطِيرُ بِنَا وَحْدَهَا، وَأَنَّ الصَّمْتَ مَسَاحَةٌ لِيُولَدَ فِيهَا الْمَعْنَى.
مَضَى كَمَنْ يَكْتُبُ سَطْرًا أَوَّلَ فِي كِتَابٍ لَمْ يَكْتُبْهُ أَحَدٌ قَبْلَهُ، يَجُرُّ ظِلَّهُ كَجُمْلَةٍ تَتَشَكَّلُ بَيْنَ قَوْلٍ وَصَمْتٍ. [36]

# النَّشِيدُ الحَادِي عَشَرَ

## مَرْقَاةُ العَابِرِ وَظِلُّ إِيكَارَ

(مِنْ سِفْرِ الرُّؤْيَا، كَمَا جَمَعَهُ نَاسِخُ دَيْرِ السَّدِيمِ. فِي لَيْلَةٍ نَهَضَ فِيهَا الْغُبَارُ مِنْ رُقَادِهِ. اعْتِرَافٌ يَتَشَقَّقُ فِيهِ السَّرْدُ، وَإِنْشَادٌ تَتَجَاوَبُ فِيهِ الْأَصْوَاتُ، حَيْثُ يَخْفُتُ السَّمَاوِيُّ وَيَعْلُو امْتِحَانُ الْعُبُورِ).

---

36- **هَامِشُ الْخُطُوَاتِ الَّتِي لَمْ تَكْتَمِلْ**
(مَا نُنْجِزُهُ مِنْ مَشْيٍ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ لَيْسَ سِوَى نِصْفِ الطَّرِيقِ... أَمَّا الْخُطُوَاتُ الْكَامِلَةُ فَتَحْدُثُ فِي الْأَمَاكِنِ الَّتِي لَمْ نَصِلْ إِلَيْهَا).
**الْهَامِشُ الْمُخْفِيُّ دَاخِلَ الْهَامِشِ:**
(لَا تَخَفْ مِنَ الطَّرِيقِ... خَفْ مِنْ خُطْوَةٍ لَمْ تُولَدْ بَعْدُ).

(1)

## إِيكارُ وَمِيثَاقُ الظِّلَالِ

(فِي اسْتِعَادَةِ الرَّكْضِ وَالْعُبُورِ الْمَقْطُوعِ)

كَمَا يَتَذَكَّرُ الْمَلَاكُ سُقُوطَ رِيشَتِهِ الْأُولَى، أَتَذَكَّرُ فِرَارِي مِنْكَ حِينَ أَشْرَكْتَ الظَّلَامَ فِي هُرُوبِي.

وَلِمَ لَمْ أَعُدْ أَسْمَعُ أَيَّ صَوْتٍ سَمَاوِيٍّ يَطْرُقُ أُذُنَيَّ؟ وَلِمَ لَمْ أَعُدْ أَرَ غَيْرَ الْخِيَانَةِ الْأَثِيرَةِ، زَاهِيَةَ التَّوَهُّجِ، تَجْرِي فِي مَثَانَةِ الْأُفُقِ كَعَرَبَاتٍ نَارِيَّةٍ؟

لَمْ أَرَ سِوَى مَرْقَدِ اللَّيْلِ وَظُلُمَاتِهِ.

كُنْتُ أَنَا، الْمُبْتَكِرَ السِّرِّيَّ لِكُلِّ أَذَاكَ، أَتَذَكَّرُ رَكْضِي، يَا إِيكارُ. أَتَذَكَّرُ أَنِّي، حِينَ تَعِبْتُ، اقْتَعَدْتُ حَجَرًا، وَأَرْسَلْتُ بَصَرِي بَعِيدًا صَوْبَ الطَّرِيقِ الْأَسْوَدِ الْمُسْتَقِيمِ. وَبَدَا بُرُوزُ فَوْجٍ مِنَ الْعَسْكَرِ فِي رَأْسِ الطَّرِيقِ أَمْرًا خَيَالِيًّا وَسَخِيفًا...

وَأَذْكُرُكَ وَقَدْ وَقَفْتَ. لَمْ يَكُنْ بِوُسْعِكَ أَنْ تَرَى بِوُضُوحٍ غَيَاهِبَ اللَّيْلِ الْمَعْدِنِيَّةَ، وَأَنْ تَعْرِفَ أَنَّكَ لَا تَزَالُ رَاكِضًا أَمَامَ اغْتِصَابِ الرِّيَاحِ، وَاهِبًا خُطَاكَ لِلتُّخُومِ الْبَعِيدَةِ.

فَلَمْ تَصِلْ، أَيُّهَا الرَّاكِضُ، يَا خَتْمَ الذَّبَائِحِ وَتَوْأَمَ الْبَجَعَةِ.

وَكُنْتَ تَدْفَعُ الْهَوَاءَ، وَتَسْتَدْعِي طَبَقَاتِ السَّمَاءِ السَّبْعِ، وَتَغْزِلُ الْخَوْفَ كَطَيْرٍ نَسِيَ بَيْضَهُ فِي مَفَازَةٍ بَعِيدَةٍ. فَتَتَرَاجَعُ الرِّيحُ خُطْوَةً، وَيَتَقَهْقَرُ الْمَوْتُ خُطْوَةً.

وَكَانَ رَأْسُكَ يَطِنُّ مِثْلَ خَلِيَّةِ نَحْلٍ أَطْبَقَ عَلَيْهَا الذُّعْرُ، فَصَرَخْتَ بِمِلْءِ رِئَتَيْكَ:

- الْعَسْكَرُ...!

فَانْفَتَحَتْ أَبْوَابُ الْهَلَعِ...

وَقْتَئِذٍ رَكَضْتَ نَحْوَ أُفُقٍ بِلَا خُطُوطٍ، تَسْأَلُ الْأَرْضَ عَنْ كَنْزٍ خَبَّأَتْهُ فِي تَلَافِيفِ النَّهَارِ، وَتَبْحَثُ عَنْ اسْمِكَ عَلَى آخِرِ صَخْرَةٍ.

وَكُنْتُ أَنَا... مَنْ قَادَكَ، وَمَنْ ضَلَّلَكَ، وَمَنْ تَرَكَ فِي فَمِكَ طَعْمَ الْيَنَابِيعِ، وَمَنْ جَرَّ عَلَيْكَ الْوَجْهَ الْآخَرَ لِلنُّورِ.

وَكُنْتَ تَعْدُو دُونَ تَوَقُّفٍ، وَأَذْكُرُكَ...

وَقَفْتَ... فَوَقَفَتِ الْخَلِيقَةُ، وَوَقَفَتْ مَعَكَ الْأَرْضُ تَرْفَعُ نَذْرَهَا، وَالْمِيَاهُ تَرْفَعُ رَمَادَهَا، وَالْمَسَاءُ يَرْفَعُ حِصَارَهُ. وَالْكَوَاكِبُ وَقَفَتْ مَعَكَ لِتَفْتَحَ لَهَاثَ الْقَدَرِ، وَلِتُطْلِقَ الظَّلَامَ لِهَذَيَانِ الرَّصَاصِ.

وَأَذْكُرُكَ... تَوَقَّفْتَ لِتَنْظُرَ إِلَى الدَّمِ يَتَلَأْلَأُ مِنْ جِرَاحِ سَاقَيْكَ. لَمْ تَكُنْ لَدَيْكَ قُوَّةُ الْوُقُوفِ لِتَقِيسَ الْمَسَافَةَ بَيْنَ النَّظْرَةِ وَالنَّدَمِ، وَالرَّمْشَةِ وَالْخَطِيئَةِ. كَانَ الْوَجْهُ أَثَرًا، وَالْمَلَامِحُ تَأْوِيلًا، وَالْجَسَدُ حَاشِيَةً عَلَى نَصٍّ كَتَبَهُ الْغِيَابُ.

كُنْتَ خَائِفًا، خَوْفَ رُعْبٍ تَعَمَّدَ بِالدَّمِ وَخَرَجَ بِاسْمٍ آخَرَ. وَمِنْ خَشْيَتِكَ كُنْتَ تَلْتَفِتُ، وَكَانَ الْعَسْكَرُ وَرَاءَكَ، فَرَكَضْتَ رَكْضَ شُعْلَةٍ أُطْلِقَتْ فِي لَيْلِ الْحُدُودِ، فَضَاعَتْ بَيْنَ الْهَلَعِ وَالْوَعْدِ.

وَحِينَ أَدْرَكَكَ التَّعَبُ، كَانَ نَبْضُ الْأَرْضِ يَتَرَقْرَقُ تَحْتَكَ مِثْلَ الْمَاءِ، فَتَعْيَا وَتَمِيلُ إِلَى أَنْ تَجْثُوَ بَيْنَ جَدَاوِلِهِ، فَيَصِيرُ الْجَبَلُ وِسَادَتَكَ، وَتَسْتَلْقِي فَوْقَ ثُلُوجٍ [37] تُغْلِقُ قَلْعَةَ السَّمَاءِ فِي وَجْهِكَ، وَتُهْبِطُ بِكَ إِلَى تِلَالٍ جَرْدَاءَ وَعْرَةٍ.

فَاضْطَجَعْتَ عَلَى أَرْضِ الْجَبَلِ اضْطِجَاعَ صَيَّادٍ يَتَرَصَّدُ فَرِيسَتَهُ، فَرَأَيْتَ إِلَى يَسَارِكَ زَهْرَةً، فَنَسِيتَ كُلَّ شَيْءٍ، وَأُخِذْتَ بِالزَّهْرَةِ، فَنِمْتَ.

**(الزَّهْرَةُ امْتِحَانٌ، وَالنَّوْمُ سُقُوطٌ نَاعِمٌ).**

ثُمَّ ارْتَعَدْتَ، لِأَنَّ مَوْلَانَا الْوَاقِعَ أَزَاحَ سَتَائِرَهُ، فَانْفَتَحَتْ زَنَازِينُ مِنْ تَارِيخِ الدَّمْعِ، وَطَوَتْكَ.

**(الْوَاقِعُ أَقْسَى مِنَ الرُّؤْيَا).**

فَعَدَوْتَ عَدْوَ نِصَالٍ يَرْمِيهَا اللَّيْلُ حِينَ يُهَاجِمُ، نَاشِرًا ظُلُمَاتِهِ. وَهُنَاكَ، عِنْدَ مُنْتَصَفِ الْجَبَلِ، تَدَحْرَجْتَ. وَلِشِدَّةِ مَا تَدَحْرَجْتَ، تَدَفَّقَ الدَّمُ ثَانِيَةً مِنْ أَعْضَائِكَ كَصَلِيبٍ مِنْ كَلِمَاتٍ.

فَرَشَشْتُ جِرَاحَكَ بِالثَّلْجِ، وَكَانَ الثَّلْجُ يَلْسَعُ.

**(الثَّلْجُ دَوَاءُ الْجِبَالِ، وَالْجُرْحُ لَا يَنَامُ).**

يَا رَبَّ الْعَارِفِينَ قَبْلَ الْقَوْلِ، ارْحَمِ الضَّعْفَ لَا التَّبْرِيرَ.

وَأَنْتِ أَيَّتُهَا الْأَدْعِيَةُ، يَا مَنْ تَسْمَعِينَ الصَّوْتَ حِينَ يَنْكَسِرُ، خُذِي هَذَا الْإِنْشَادَ، وَلَا تَتْرُكِيهِ لِي، لِأَنَّنِي لَمْ أَعُدْ أَحْتَمِلُ أَنْ أُغَنِّيَ وَحْدِي.

---

[37]- **هَامِشُ الذُّنُوبِ الْمَحْفُورَةِ فِي الثَّلْجِ**

(لَيْسَ الثَّلْجُ بَرِيئًا... إِنَّهُ دَفْتَرٌ سَمَاوِيٌّ أَبْيَضُ، وَكُلُّ خَطِيئَةٍ تَمْشِي فَوْقَهُ تُدَوَّنُ قَبْلَ أَنْ تُمْحَى).

**الْهَامِشُ الْمُخْفِيُّ دَاخِلَ الْهَامِشِ:**

(أَخْطَرُ الذُّنُوبِ تِلْكَ الَّتِي تَنْسَى أَنَّكَ ارْتَكَبْتَهَا).

وَلْيَنْظُرْ هَذَا الْجَبَلُ كَيْفَ يَجِيءُ الْمَوْتُ، وَكَيْفَ يَحْسِبُ الْحَتْفَ غَنِيمَةً. وَلْتَنْظُرْ أَنْتَ أَيْضًا، فَالرَّحْمَةُ لَمْ تُغْلِقْ بَابَهَا بَعْدُ.

وَهَذَا يَوْمُكَ الْأَخِيرُ. هَذِهِ نُبُوءَةُ عَجُوزٍ ضَرَبَكَ الْيَأْسُ ذَاتَ مَرَّةٍ، فَذَهَبْتَ إِلَيْهَا لِتَسْمَعَ:

**(سَتُتَاحُ لَكَ النِّهَايَةُ بَعْدَ أَنْ تَكُونَ قَدْ عَبَرْتَ جَبَلًا...).**

لَكِنَّكَ لَمْ تَعْبُرِ الْجَبَلَ، وَلَمْ تَعْبُرِ النُّبُوءَةَ، وَلَمْ تَعْبُرِ الْجَزَعَ. لَمْ تَعْبُرْ مَرَاثِيَ الَّذِينَ رَحَلُوا، وَلَا هَوَاجِسَ الَّذِينَ عَادُوا.

لَقَدْ صَعِدْتَ صُعُودَ اللَّوْعَةِ، وَصِرْتَ قَرَنْفَلَةَ الْعَرَاءِ، وَرَعْدًا يُدِيرُ خُيُولَهُ الْمُتْعَبَةَ حَوْلَ رُوحٍ لَمْ تَجِدْ مَقَامَهَا.

كَانَ عُبُورُكَ أُضْحِيَةً مِنَ اللَّوْعَةِ تَعْوِي كَذِئْبٍ. كَأَنَّكَ جَمَعْتَ الرِّيحَ فِي قَارُورَةٍ، وَجَعَلْتَهَا تَقْرَعُ حَبَّةَ الْقَمْحِ فِي سُنْبُلَةِ الْحَاضِرِ، فَكَانَ حَرِيقٌ، وَكَانَ الدَّمَارُ يَخْتِمُ الدَّمَارَ.

يَا عُبُورًا لَيْسَ شِعَابًا وَلَا حَرِيقًا... يَا قَرَنْفَلَةَ الْعَرَاءِ، مَاذَا بَعْدَ مَوْتٍ تَغْسِلُهُ زَهْرَةٌ ضَارِعَةٌ؟ مَاذَا بَعْدَ رَعْدٍ يُدِيرُ خُيُولَهُ اللَّاهِثَةَ؟

فَلْيُرَاقِبْ هَذَا الْجَبَلُ، وَلْتَتَرَقَّبِ الْخَاتِمَةُ. حَتَّى هُنَا يَتَهَشَّمُ الْبَرْقُ... وَلَا تَنْطَفِئُ الْمِحْنَةُ...

وَأَذْكُرُكَ أَيُّهَا الْعَابِرُ. وَحِينَ عَدَوْتَ، أَحْضَرْتَ الْفَجِيعَةَ غُرْبَانًا تُطْلِقُ أَجْنِحَتَهَا نَحْوَ نَهَارٍ شَفِيفٍ.

فَارْكُضْ، أَيُّهَا الْعَابِرُ، بَيْنَ حَرَاشِفَ تَقْرَعُ بِطَنِينِهَا النَّاعِسِ جَرَسَ الْمَدِّ الْمُتَثَائِبِ. فَالْعَسْكَرُ طَارَدُوكَ كَالْبَرْقِ، وَأَنْتَ مِنَ الْخَوْفِ تَتَرَيَّثُ تَرَيُّثَ الْأَعْمَى، تَسْحَبُ خَلْفَكَ مُومِيَاءَ الْعُشْبِ وَنَجْمَةً غَرِيبَةً.

وَكَأَنَّكَ جَمَعْتَ الرِّيحَ فِي قَارُورَةٍ، وَجَعَلْتَهَا تُصَارِعُ حَبَّةَ قَمْحٍ فِي سُنْبُلَةِ الْحَاضِرِ. فَكَانَ حَرِيقًا، وَكَانَ الدَّمَارُ يَخْتِمُ الدَّمَارَ، وَكَانَ بِانْتِظَارِكَ فِي أَعْلَى الْجَبَلِ تَهْلِيلُ الذِّئَابِ.

فَانْفَلَتَتِ الْأَرْضُ مِنْ تَحْتِكَ، وَعَدَوْتَ نَحْوَ صُخُورٍ أَبْعَدَ مِنَ الْقُوَّةِ الَّتِي تَبَقَّتْ لَكَ، وَكُنْتَ تَعْدُو مَحْمُومًا، يَا فَرْخَ الْبَرْقِ، فِي قَسْوَةٍ لَا تَرْحَمُ.

# الإِصْحَاحُ الرَّابِعُ عَشَرَ

14

# كِتَابُ الرِّيشِ وَكِتَابُ الصَّمْتِ

فِي هَذَا الصَّبَاحِ الْكَوْنِيِّ، كَانَ الْفَجْرُ يُقْبِلُ عَلَى (الْأَرْضِ الْحَرَامِ) بِبُطْءٍ، كَمَا لَوْ أَنَّهُ يَفْتَحُ بَابًا لِغَرِيبٍ يَتَرَدَّدُ فِي الدُّخُولِ.

فِي تِلْكَ السَّاعَةِ الْمُعَلَّقَةِ بَيْنَ ضَوْءٍ لَمْ يَثْبُتْ بَعْدُ وَظِلٍّ لَمْ يُغَادِرْ بَعْدُ، وَقَفَ إِيكارُ قُبَالَةَ جَبَلٍ يَكْسُوهُ الثَّلْجُ. وَقَفَ وَهُوَ يَحْمِلُ عَلَى كَتِفَيْهِ جَنَاحَيْنِ لَا يُشْبِهَانِ أَيَّ جَنَاحٍ: أَحَدُهُمَا صُنِعَ مِنْ رِيشٍ تَبْدُو عَلَى أَطْرَافِهِ آثَارُ كَلِمَاتٍ خَجْلَى، وَالْآخَرُ صُنِعَ مِنْ شَمْعٍ يَحْمِلُ فِي لَمَعَانِهِ بَقَايَا صَمْتٍ ثَقِيلٍ...

لَمْ يَكُنْ يُرِيدُ الطَّيَرَانَ فَحَسْبُ، كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَفْهَمَ أَيُّهُمَا يَقُودُهُ إِلَى ذَاتِهِ الَّتِي ضَاعَتْ مِنْهُ عَبْرَ السِّنِينَ: اللُّغَةُ أَمِ الصَّمْتُ؟

نَشَأَ إِيكارُ بَيْنَ رِجَالٍ يَتَكَلَّمُونَ كَثِيرًا وَلَا يَقُولُونَ شَيْئًا، وَنِسَاءٍ يَكْتُمْنَ أَسْرَارًا لَا تَنْكَشِفُ إِلَّا فِي النَّوْمِ. فَصَارَ يَحْمِلُ مُنْذُ شَبَابِهِ شُعُورًا غَرِيبًا بِأَنَّ الْكَلَامَ عِبْءٌ، وَبِأَنَّ الصَّمْتَ سِلَاحٌ، وَبِأَنَّ الِاثْنَيْنِ مَعًا خَدِيعَةٌ لَا يُمْكِنُ أَنْ تَسِيرَ بِهِ إِلَى آخِرِ الطَّرِيقِ...

وَلِذَلِكَ، حِينَ صَنَعَ جَنَاحَيْهِ، لَمْ يَصْنَعْهُمَا لِيَتَمَرَّدَ عَلَى الْأُسْطُورَةِ، وَلَكِنْ لِيَمْتَحِنَ هَذَا التَّوَازُنَ بَيْنَ مَا يَقُولُهُ الْمَرْءُ وَمَا يَبْتَلِعُهُ...

فَتَحَ جَنَاحَهُ الْأَيْمَنَ، الْمَصْنُوعَ مِنَ الرِّيشِ، فَانْطَلَقَتِ الْكَلِمَاتُ مِنْهُ كَمَا تَنْطَلِقُ الطُّيُورُ مِنْ شَجَرَةٍ هَزَّهَا الرِّيحُ... كَانَتِ الْكَلِمَاتُ سَرِيعَةً، مُلَوَّنَةً، كَثِيرَةً، لَكِنَّهَا غَيْرُ مُطِيعَةٍ، لَا تَسْتَقِرُّ حَيْثُ يُرِيدُ، وَلَا تَصْطَفُّ عَلَى نَحْوٍ يَسْمَحُ لَهَا أَنْ تَحْمِلَ جَسَدَهُ...

أَمَّا الْجَنَاحُ الْأَيْسَرُ، الْمَصْنُوعُ مِنَ الشَّمْعِ، فَكَانَ هَادِئًا، صَامِتًا، يَلْمَعُ كَمَا يَلْمَعُ حَجَرٌ دُفِنَ طَوِيلًا فِي جَوْفِ الْبَحْرِ... كَانَ هَذَا الْجَنَاحُ أَكْثَرَ ثَبَاتًا، لَكِنَّهُ كُلَّمَا وَاجَهَ دَفْقَةَ ضَوْءٍ بَدَأَ يَفْقِدُ صَلَابَتَهُ، كَأَنَّ الصَّمْتَ نَفْسَهُ يَذُوبُ عِنْدَ أَوَّلِ مُوَاجَهَةٍ...

وَحِينَ خَطَا خُطْوَةً نَحْوَ (الْجَبَلِ)، أَحَسَّ كَأَنَّ الثَّلْجَ نَفْسَهُ يُرَاقِبُهُ لِيَخْتَبِرَ صِدْقَهُ...

كَانَ الْجَبَلُ قَارِئًا قَدِيمًا، يَعْرِفُ كُلَّ قِصَّةٍ تُكْتَبُ عَنْهُ، وَكُلَّ مَنْ يُحَاوِلُ أَنْ يَهْرُبَ إِلَيْهِ أَوْ يَهْرُبَ مِنْهُ. لِذَلِكَ، حِينَ بَدَأَ إِيكارُ يُحَرِّكُ جَنَاحَيْهِ، بَدَا الْجَبَلُ كَأَنَّهُ يَقُولُ لَهُ:

- اخْتَبِرْ نَفْسَكَ، لَا الْهَوَاءَ فَقَطْ.

مَعَ أَوَّلِ ارْتِفَاعٍ، اهْتَزَّ الْجَنَاحُ الْمَصْنُوعُ مِنَ الْكَلِمَاتِ... لَمْ تَكُنِ اللُّغَةُ مُطِيعَةً، فَكُلُّ مُفْرَدَةٍ تُذَكِّرُهُ بِجُمْلَةٍ نَاقِصَةٍ، وَكُلُّ حَرْفٍ يَجُرُّهُ إِلَى قِصَّةٍ لَمْ تَكْتَمِلْ، وَكُلُّ صُورَةٍ تُحَاوِلُ أَنْ تُفْسِدَ عَلَيْهِ تِلْكَ اللَّحْظَةَ الْفَرِيدَةَ...

شَعَرَ بِالشَّمْعِ يَتَخَشَّعُ تَحْتَ الضَّوْءِ... وَكَانَ الصَّمْتُ أَيْضًا هَشًّا... إِنَّهُ قَوِيٌّ فَقَطْ حِينَ لَا يَقْتَرِبُ مِنْهُ أَحَدٌ...

وَاصَلَ الِارْتِفَاعَ... لَمْ يَكُنْ صُعُودُهُ بُطُولَةً، كَانَ مُحَاوَلَةً يَائِسَةً لِفَهْمِ نَفْسِهِ...

كَانَ يَسْأَلُ الرِّيحَ وَهُوَ يَشُقُّهَا بِصُعُوبَةٍ:

- هَلْ تَحْمِلِينَنِي لِأَنَّنِي أَتَكَلَّمُ؟ أَمْ لِأَنَّنِي أَخَافُ أَنْ أَتَكَلَّمَ؟

وَيَسْأَلُ الضَّوْءَ:

- هَلْ تُذِيبُنِي لِأَنَّنِي أُخْفِي شَيْئًا؟ أَمْ لِأَنَّنِي لَا أَمْلِكُ شَيْئًا أَقُولُهُ؟

وَعِنْدَمَا أَصْبَحَتِ الشَّمْسُ فَوْقَهُ مُبَاشَرَةً، انْفَتَحَ أَمَامَهُ فَضَاءٌ شَاسِعٌ يُشْبِهُ صَفْحَةً بَيْضَاءَ... صَفْحَةً كَانَتْ رَغْبَتُهُ الْأُولَى أَنْ يَكْتُبَ عَلَيْهَا، وَخَوْفُهُ الْأَوَّلُ أَنْ يَكْتُبَ عَلَيْهَا.

فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ شَعَرَ أَنَّ الرِّيشَ يَتَبَعْثَرُ، وَأَنَّ الشَّمْعَ يَلِينُ، وَأَنَّ نَفْسَهُ كُلَّهَا تَنْقَسِمُ بَيْنَ مَا يُرِيدُ أَنْ يُقَالَ، وَمَا كَانَ يَجِبُ أَنْ يُقَالَ، وَمَا لَنْ يُقَالَ أَبَدًا...

انْكَسَرَ الضَّوْءُ...
لَمْ يَسْقُطْ إِيكارُ سُقُوطَ الأَبْطَالِ الَّذِينَ يَصْرُخُونَ فِي الْهَوَاءِ، وَلَمْ يَهْوِ كَمَنْ نَدِمَ... سَقَطَ كَمَنْ يَعْتَرِفُ...
يَعْتَرِفُ بِأَنَّ الْجَنَاحَيْنِ لَيْسَا أَدَاتَيْنِ لِلطَّيَرَانِ، وَإِنَّمَا هُمَا مِرْآةٌ دَقِيقَةٌ لِانْقِسَامِهِ الدَّاخِلِيِّ، وَأَنَّهُ كَانَ يُحَلِّقُ هَرَبًا مِنْ نَفْسِهِ، لَا هَرَبًا مِنَ الْأَرْضِ...
تَلَقَّفَهُ الْجَبَلُ بِذَكَاءٍ قَدِيمٍ... لَمْ يَكُنِ الْجَبَلُ عَدُوًّا، كَانَ شَاهِدًا...
حَمَلَهُ بِبُطْءٍ، كَمَا تَحْمِلُ الْيَدُ كِتَابًا تَهَاوَتْ صَفَحَاتُهُ، وَوَضَعَهُ عَلَى الثَّلْجِ عِنْدَ الْحَافَّةِ الَّتِي بَدَأَتْ مِنْهَا حِكَايَتُهُ...
وَاقْتَرَبَ الْعَسْكَرُ، لَا بِدَهْشَةٍ وَلَا بِخَوْفٍ، فَقَدْ رَأَوْا كَثِيرِينَ يَسْقُطُونَ مِنَ اللُّغَاتِ الَّتِي اخْتَارُوهَا، وَمِنَ الصَّمْتِ الَّذِي حَمَلُوهُ أَكْثَرَ مِمَّا يَحْتَمِلُونَ...
جَلَسَ إِيكارُ عَلَى الثَّلْجِ... وَوَضَعَ الْجَنَاحَيْنِ أَمَامَهُ كَصَفْحَتَيْنِ مِنْ كِتَابَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ:
كِتَابٌ مِنَ الرِّيشِ، كُلُّ رِيشَةٍ فِيهِ تُشْبِهُ كَلِمَةً رَفَضَتْ أَنْ تُقَالَ...
وَكِتَابٌ مِنَ الشَّمْعِ، كُلُّ ذَوَبَانٍ فِيهِ يُشْبِهُ سِرًّا لَمْ يَحْتَمِلْ حَرَارَتَهُ...
وَأَمْضَى اللَّيْلَ يَتَفَحَّصُهُمَا، لِيَفْهَمَ أَيُّهُمَا أَقْرَبُ إِلَيْهِ...
وَعِنْدَمَا أَتَى الْفَجْرُ، لَمْ يَنْهَضْ لِيَطِيرَ...
نَهَضَ لِيَمْشِي...
تَرَكَ الْجَنَاحَيْنِ خَلْفَهُ كَاخْتِبَارٍ انْتَهَى...
أَدْرَكَ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَحْتَاجُ إِلَى لُغَةٍ كَامِلَةٍ لِيَكُونَ، وَلَا إِلَى صَمْتٍ مُطْلَقٍ لِيَحْيَا...
يَحْتَاجُ فَقَطْ إِلَى مَسَاحَةٍ صَغِيرَةٍ يَدْخُلُ فِيهَا إِلَى ذَاتِهِ دُونَ خَوْفٍ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا دُونَ عَارٍ...
هَكَذَا مَضَى...
كَانَتْ خُطْوَتُهُ الْأُولَى خَفِيفَةً، وَالثَّانِيَةُ أَكْثَرَ ثَبَاتًا، أَمَّا الثَّالِثَةُ فَبَدَتْ كَأَنَّهَا بَدَايَةُ مَلْحَمَةٍ جَدِيدَةٍ...

مَلْحَمَةٍ تَحْتَاجُ إِلَى رَجُلٍ يَعْرِفُ أَخِيرًا مَا يُمْكِنُ أَنْ يَحْمِلَهُ، وَمَا لَا يُرِيدُ حَمْلَهُ بَعْدَ الْآنِ...
وَلَا تَحْتَاجُ إِلَى جَنَاحَيْنِ.

١١

# النشيد الحادي عشر

مَزْمُور

(2)

## إنشادُ العابرين بين المخافر

يا لَلْعَمَاءِ... يا لَلْعَمَاءِ الْجَلِيلِ إِذَا حَلَّ عَلَى النَّفْسِ فَأَنْطَقَهَا.
كِلَانَا سَأَلَ: عَنِ السِّرِّ وَحَظِّهِ الْعَاثِرِ؟
وَكِلَانَا أَجَابَ: رُبْعُ سَاعَةٍ بِتَوْقِيتِ الْقِيَامَةِ، أَوْ نِصْفُ سَاعَةٍ بِتَوْقِيتِ الْخُذْلَانِ...
ثُمَّ تَرَامَتْ خُطَانَا كَمَا تَتَرَامَى الْخُطُوطُ الَّتِي فَقَدَتْ بُوصَلَتَهَا.
قَبْلَ أَنْ أَسْتَكْمِلَ الْحِكَايَةَ، سَأَدْفَعُهَا إِلَى قَلْبِ اللَّيْلِ... إِلَى أَلَاعِيبِ الْمَجْهُولِ وَأَقْنِعَتِهِ.
وَسَأُطْلِقُ حُبَارَى الْقَتْلِ كَيْ تَنْقُرَ لَحْمَ الْمَعْنَى.
أَنَا الشَّرِيكُ الَّذِي يَظَلُّ صَامِتًا، وَلَا يُشِيرُ إِلَى عُقْمِ الرَّبَّةِ الْكَائِنَةِ فَوْقَ جِبَالِ الْحُزْنِ.
أُوَاصِلُ إِخْفَاءَ الْخِيَانَةِ، وَلَا أَرْشُدُ إِلَى مُؤَامَرَاتِ الْبَشَرِ وَالْآلِهَةِ.
أَنَا الْآثِمُ الْمُخَادِعُ، وَالْحَانِثُ بِالْعُهُودِ.
سَأُخَلِّفُ وَرَائِي إِيكَارَ، وَسَأُخَلِّفُ الْجَبَلَ، وَسَأُخَلِّفُ الظَّلَامَ يَتَكَاثَرُ فِي التِّلَالِ كَحَرِيقٍ خَاشِعٍ، وَسَأُخَلِّفُ الْخَوْفَ يَقْتَرِبُ وَيُزَنِّرُ الْقَلْبَ بِمِشَدِّ الْأَيَّامِ.
وَأَقُولُ لِنَفْسِي: إِنَّ مُقْلَتَيَّ تَغْرَوْرِقَانِ بِالدُّمُوعِ، وَإِنَّ نَفْسِي تَتَعَذَّبُ، فَتَرَيَّثْ يَا قَلْبُ، تَرَيَّثْ.
الرَّأْسُ يَتَشَقَّقُ، وَالْجَبِينُ يَغْلِي مِنَ الدَّمِ...
وَلَمْ يَبْقَ لِإِيكَارَ إِلَّا رُبْعُ سَاعَةٍ أَوْ نِصْفُ سَاعَةٍ لِيَجْتَازَ الْحُدُودَ...
أَمَّا أَنَا فَسَأَجْلِسُ كَنَعْشٍ يَنْتَظِرُ مَنْ يَحْمِلُهُ.
ادْفَعْنِي يَا مَلَاكَ الْمَوْتِ، أَيُّهَا الْمَلَاكُ الْأَعْمَى، ادْفَعْنِي بِمِجْدَافِ التَّعَبِ.

ادْفَعْ طُقُوسَكَ الَّتِي لَا تُتْقِنُهَا الْأَرْوَاحُ إِلَّا وَهِيَ تَرْتَجِفُ.
لَنْ أَتَّهِمَكَ بِالْقَسْوَةِ، فَأَنْتَ الْهَبَاءُ إِذَا تَجَلَّى، وَأَنْتَ الْمَلَاكُ إِذَا احْتَجَبَ، وَأَنْتَ الْبُوقُ إِذَا انْفَجَرَ مِنْ غَيْرِ صَوْتٍ.
ادْفَعْنِي يَا كَلَامُ، يَا هَبَاءَ الْأَزْمِنَةِ، يَا شَالًا مِنْ حُرُوفٍ زَرْقَاءَ تَتَسَاقَطُ مِنْ شِفَاهِ الْحَجَرِ.
ادْفَعْنِي حَتَّى يَقْطُرَ مِنْ جُرْحِي نَشِيدٌ غَيْرُ مَخْلُوقٍ، وَحَتَّى تُفْتَحَ أَبْوَابُ [38] الْأُعْجُوبَةِ كَمَا تُفْتَحُ طَاقَاتُ الْهَيْكَلِ فِي بُذُورِ النُّجُومِ...
فَأَنَا تَحْتَ مَشِيئَتِكَ، يَا سَيِّدَ الْهَبَاءِ...
وَلَا أَحَدَ يُصَدِّقُ الْعُذُوبَةَ إِذَا صَرَخَ الْحُزْنُ بِالْفَاجِعَةِ.

# إِصْحَاحُ
# 15
## (حِينَ تَكَلَّمَ الْجَنَاحَانِ - مُونُولُوجُ إِيكار)

لَمْ أَكُنْ أَبْحَثُ عَنِ السَّمَاءِ حِينَ وَقَفْتُ عَلَى حَافَّةِ الْفَجْرِ، كُنْتُ أَبْحَثُ عَنْ نَفْسِي...
لَطَالَمَا ظَنَّ النَّاسُ أَنَّ الطَّيَرَانَ رَغْبَةٌ فِي الْهَرَبِ مِنَ الْأَرْضِ، لَكِنَّ الْأَرْضَ لَمْ تَكُنْ عَدُوِّي... عَدُوِّي كَانَ السُّؤَالَ الَّذِي يَأْكُلُنِي مُنْذُ سِنِينَ: هَلْ أَنَا مَا أَقُولُهُ، أَمْ مَا أَكْتُمُهُ؟ وَهَلْ يُمْكِنُ لِجَسَدٍ وَاحِدٍ أَنْ يَحْمِلَ لُغَتَيْنِ مُتَصَارِعَتَيْنِ: لُغَةً تُرَفْرِفُ مِثْلَ الرِّيشِ، وَصَمْتًا يَتَثَاقَلُ مِثْلَ الشَّمْعِ؟

[38]- **هَامِشُ الْعَابِرِينَ الَّذِينَ لَمْ يَجِدُوا بَابًا**

(هَؤُلَاءِ لَيْسُوا ضَائِعِينَ... إِنَّهُمْ فَقَطْ مَشْغُولُونَ بِانْتِظَارِ بَابٍ يَلِيقُ بِفَوْضَاهُمْ).

**الْهَامِشُ الْمُخْفِيُّ دَاخِلَ الْهَامِشِ:**

(كُلُّ بَابٍ مُغْلَقٍ... هُوَ بَابٌ لَمْ تُعَرِّفْهُ كَلِمَةُ السِّرِّ).

عِنْدَمَا صَنَعْتُ جَنَاحَيَّ، لَمْ أَصْنَعْهُمَا لِأُقَلِّدَ أُسْطُورَةً اسْتَهْلَكَهَا الشُّعَرَاءُ... صَنَعْتُهُمَا لِأَرَى أَيُّهُمَا يَحْمِلُنِي: الْكَلِمَاتُ الَّتِي طَارَدَتْنِي مُنْذُ الطُّفُولَةِ، أَمِ الصَّمْتُ الَّذِي لَاحَقَنِي كَظِلٍّ ثَقِيلٍ؟

كُلُّ رِيشَةٍ كَانَتْ مُفْرَدَةً هَرَبَتْ مِنْ فَمِي يَوْمًا، وَكُلُّ قَطْرَةِ شَمْعٍ كَانَتْ جُمْلَةً لَمْ أَجْرُؤْ عَلَى قَوْلِهَا... وَلَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ أَنَّ الطَّيَرَانَ سَيَكْشِفُ هَشَاشَتَهُمَا بِهَذِهِ السُّرْعَةِ.

خَطَوْتُ نَحْوَ الْبَحْرِ، وَشَعَرْتُ بِالْمَاءِ كَأَنَّهُ يَقْرَؤُنِي... نَعَمْ، الْبَحْرُ قَارِئٌ صَبُورٌ، يَعْرِفُ النُّصُوصَ الَّتِي يَبْتَلِعُهَا، وَيَفْهَمُ الَّذِينَ يَسْقُطُونَ بَيْنَ أَمْوَاجِهِ أَكْثَرَ مِمَّا يَفْهَمُونَ أَنْفُسَهُمْ.

وَلِأَنَّنِي لَمْ أَعُدْ أَحْتَمِلُ الصَّمْتَ، وَلِأَنَّ اللُّغَةَ وَحْدَهَا كَانَتْ تَجْرَحُنِي، فَتَحْتُ الْجَنَاحَ الْأَيْمَنَ... فَتَطَايَرَ الرِّيشُ كَمَا تَتَطَايَرُ الصَّفَحَاتُ مِنْ كِتَابٍ تَهَشَّمَ غِلَافُهُ... خَرَجَتِ الْكَلِمَاتُ مِنِّي بِشَهِيَّةٍ غَرِيبَةٍ، لَكِنَّهَا كَانَتْ أَكْثَرَ حُرِّيَّةً مِمَّا يَنْبَغِي، تَنْفَلِتُ مِنَ الْمَعْنَى، وَتَرْفُضُ أَنْ تَحْمِلَ جَسَدِي... فَاللُّغَةُ خَائِنَةٌ حِينَ تَكُونُ بِغَيْرِ جُذُورٍ.

ثُمَّ تَحَسَّسْتُ الْجَنَاحَ الْأَيْسَرَ... كَانَ الشَّمْعُ سَاكِنًا، مُتَمَاسِكًا، يَبْدُو مُطْمَئِنًّا، لَكِنَّهُ كَانَ يَحْتَرِقُ مِنَ الدَّاخِلِ... الصَّمْتُ، يَا صَدِيقِي، لَيْسَ سَلَامًا، إِنَّهُ نَارٌ بَطِيئَةٌ (39).

---

39- **هَامِشُ الرَّمَادِ الَّذِي ظَلَّ مُشْتَعِلًا**

(النَّارُ لَيْسَتْ بِدَايَةَ الْأَشْيَاءِ... إِنَّمَا الرَّمَادُ. فَمِنْهُ تَنْهَضُ الْكَائِنَاتُ الَّتِي لَمْ تَجِدْ وَقْتًا لِلِاحْتِرَاقِ).

**الْهَامِشُ الْمُخْفِيُّ دَاخِلَ الْهَامِشِ:**

(احْذَرِ الرَّمَادَ... فَرُبَّ رَمَادٍ يَنْتَظِرُ فُرْصَةَ الْعَوْدَةِ إِلَى اللَّهَبِ).

وَحِينَ ارْتَفَعْتُ قَلِيلًا، أَدْرَكْتُ أَنَّ هَذَا الْجَنَاحَ يَذُوبُ عِنْدَ أَوَّلِ مُوَاجَهَةٍ... كَانَ كُلٌّ مِنْهُمَا يُحَاوِلُ أَنْ يُنْجِيَنِي عَلَى طَرِيقَتِهِ، لَكِنَّ كِلَيْهِمَا كَانَ يَجُرُّنِي إِلَى الْهَاوِيَةِ بِطَرِيقَتِهِ.

ارْتَفَعْتُ أَكْثَرَ...

لَمْ أَكُنْ بَطَلًا، كُنْتُ مُجَرَّدَ رَجُلٍ يُحَاوِلُ أَنْ يَفْهَمَ لِمَاذَا يَخُونُهُ صَمْتُهُ كَمَا تَخُونُهُ كَلِمَاتُهُ.

كَانَتِ الرِّيَاحُ تَسْأَلُنِي:

- هَلْ أَنْتَ مَا تَقُولُ؟

وَكَانَ الضَّوْءُ يَسْأَلُ:

- هَلْ أَنْتَ مَا لَا تَسْتَطِيعُ قَوْلَهُ؟

وَكُنْتُ أَرْتَجِفُ بَيْنَ السُّؤَالَيْنِ، كَمَنْ يَمْشِي فَوْقَ جُمْلَةٍ لَمْ تَكْتَمِلْ بَعْدُ...

وَحِينَ صِرْتُ تَحْتَ الشَّمْسِ مُبَاشَرَةً، ظَهَرَتِ الصَّفْحَةُ الْبَيْضَاءُ... الصَّفْحَةُ الَّتِي أَرَدْتُهَا مُنْذُ زَمَنٍ، وَالَّتِي خِفْتُهَا مُنْذُ زَمَنٍ.

فَكَّرْتُ لَحْظَةً أَنْ أَكْتُبَ شَيْئًا، أَيَّ شَيْءٍ، لَكِنَّ الْكَلِمَاتِ خَرَجَتْ مُبَعْثَرَةً كَالْحَصَى، وَانْكَسَرَ الصَّمْتُ كَالزُّجَاجِ...

لَمْ يَكُنِ الضَّوْءُ يُعَاقِبُنِي، كَانَ يَكْشِفُنِي ...

وَكَانَ ذَلِكَ أَشَدَّ قَسْوَةً.

ثُمَّ جَاءَ السُّقُوطُ...

لَا، لَمْ يَكُنْ سُقُوطًا بُطولِيًّا...

كَانَ سُقُوطَ اعْتِرَافٍ.

لَمْ أَصْرُخْ، لِأَنَّ اللُّغَةَ لَمْ تَعُدْ فِي فَمِي، وَلَمْ أُحَاوِلِ التَّمَسُّكَ بِالصَّمْتِ، لِأَنَّهُ كَانَ يَذُوبُ بَيْنَ أَصَابِعِي.

تَرَكْتُ نَفْسِي لِلْهَوَاءِ وَلِلْمَاءِ، كَمَا يَتْرُكُ الْكَاتِبُ صَفْحَةً رَدِيئَةً لِتَمْحُوَهَا الرِّيحُ.

وَعِنْدَمَا حَمَلَنِي الْبَحْرُ، فَهِمْتُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَنْتَظِرُ مَوْتِي، كَانَ يَنْتَظِرُ صَرْخَتِي الْأُولَى.

وَفَهِمْتُ أَنَّ الصَّيَّادِينَ الَّذِينَ اقْتَرَبُوا لَمْ يَأْتُوا لِيَلُومُونِي، جَاؤُوا لِيَرَوْا رَجُلًا يَعُودُ مِنْ مَعْرَكَةٍ لَمْ يَسْمَعُوا عَنْهَا مِنْ قَبْلُ... مَعْرَكَةٍ لَيْسَتْ مَعَ الْآلِهَةِ، وَلَا مَعَ الْحُدُودِ، وَلَا مَعَ الْغُرُورِ، وَإِنَّمَا مَعَ لُغَتِهِ وَصَمْتِهِ مَعًا.

جَلَسْتُ عَلَى الرَّمْلِ، وَنَظَرْتُ إِلَى الْجَنَاحَيْنِ، فَرَأَيْتُ مَا لَمْ أَرَهُ مِنْ قَبْلُ:

لَمْ يَكُنِ الرِّيشُ ضَعِيفًا، كَانَ يَحْتَاجُ إِلَى يَدٍ أَكْثَرَ ثَبَاتًا مِنْ يَدِي.

وَلَمْ يَكُنِ الشَّمْعُ هَشًّا، كَانَ يَحْتَاجُ إِلَى حَرَارَةٍ أَقَلَّ مِنْ وَهَجِ السَّمَاءِ.

أَنَا الَّذِي لَمْ أَفْهَمْهُمَا...

أَنَا الَّذِي اسْتَعْجَلْتُ بِهِمَا قَبْلَ أَنْ أَتَعَلَّمَ كَيْفَ أَسْتَخْدِمُهُمَا.

وَفِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ تَرَكْتُهُمَا أَمَامِي...

كَانَتْ كُلُّ رِيشَةٍ تَهْمِسُ لِي:

- قُلْ مَا تَحْتَاجُ إِلَى قَوْلِهِ فَقَطْ.

وَكَانَتْ كُلُّ قِطْعَةِ شَمْعٍ تَقُولُ:

- اصْمُتْ حِينَ لَا يَكُونُ لِلْقَوْلِ مَعْنًى.

عِنْدَئِذٍ أَدْرَكْتُ أَنَّنِي لَا أَحْتَاجُ إِلَى جَنَاحَيْنِ...

أَحْتَاجُ إِلَى مِيزَانٍ.

إِلَى مَسَاحَةٍ أَخْتَارُ فِيهَا الْكَلِمَةَ الَّتِي لَا تُؤْذِي، وَالصَّمْتَ الَّذِي لَا يَخْنُقُ.

وَحِينَ جَاءَ الْفَجْرُ، لَمْ أُحَاوِلِ الطَّيَرَانَ مِنْ جَدِيدٍ...

نَهَضْتُ، وَمَشَيْتُ.

لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ هَرَبًا مِنَ السَّمَاءِ، وَلَا نُكُوصًا إِلَى الْأَرْضِ، كَانَ اعْتِرَافًا بِأَنَّ الْإِنْسَانَ يُخْتَبَرُ بِمَا يَقْدِرُ عَلَى حَمْلِهِ.

لَمْ تَعُدِ اللُّغَةُ سِلَاحِي، وَلَمْ يَعُدِ الصَّمْتُ سَيِّدِي، صَارَ كِلَاهُمَا جُزْءًا مِنِّي، لَكِنَّنِي لَمْ أَعُدْ جُزْءًا مِنْهُمَا.

هَذَا أَنَا الْآنَ:

رَجُلٌ بِلا جَنَاحَيْنِ...

لَكِنَّهُ أَخِيرًا يَعْرِفُ لِمَاذَا لَمْ يُجْدِهِ الطَّيَرَانُ، وَيَعْرِفُ إِلَى أَيْنَ يَمْضِي بِقَدَمَيْهِ، دُونَ أَنْ يَعْتَذِرَ لِلرِّيشِ، وَلَا لِلشَّمْعِ، وَلَا لِلْأُسْطُورَةِ الَّتِي حَمَلَتِ اسْمَهُ أَكْثَرَ مِمَّا احْتَمَلَ.

١١

# النَّشِيدُ الْحَادِي عَشَرَ

مَزْمُور

(3)

## رُؤْيَا الْمَقْبَرَةِ

أَتَذَكَّرُ رَكْضَكَ، يَا إِيكَارُ، حِينَ ظَهَرَتْ فِي السَّمَاءِ نَجْمَةٌ كُبْرَى تَشِعُّ كَالشَّرَرِ، لِتُضِيءَ مَقْبَرَةً فِي سَفْحِ الْجَبَلِ، مَقْبَرَةً وَاسِعَةً مِثْلَ فَمٍ يَبْتَلِعُ النَّهَارَ. كَانَتْ زَهْرَةُ نَرْجِسٍ عَجُوزٌ تَقِفُ فِي وَسَطِ الْمَوْتِ، عَارِيَةً مِنْ جَانِبٍ، وَمُورِقَةً مِنْ جَانِبٍ آخَرَ، كَأَنَّهَا بَابَانِ: بَابٌ لِلنَّجَاةِ، وَبَابٌ لِلرُّعْبِ.

ثُمَّ صَعِدْتَ، فَأَنْسَاكَ صُعُودُكَ الْمَقْبَرَةَ، وَاسْتَقْبَلَكَ الثَّلْجُ [40] كَمَا يَسْتَقْبِلُ الْجَسَدُ صَلَاةً مُوجِعَةً.

---

40- هَامِشُ الذُّنُوبِ الْمَحْفُورَةِ فِي الثَّلْجِ (كَمَا وَجَدْتُهُ تَحْتَ رَمَادِ الضَّوْءِ):

(هَذَا هَامِشٌ كَتَبْتُهُ فِي السِّرِّ، وَأَنَا أَرْتَجِفُ، كَأَنَّ أَصَابِعِي تَحْفِرُ الْكَلِمَاتِ فِي صَقِيعٍ يَعْرِفُ الْأَرْوَاحَ أَكْثَرَ مِمَّا يَعْرِفُ الْأَحْيَاءَ... يُتْلَى هَذَا الهَامِش حِينَ تَصِيرُ الْعَتَمَةُ بَيْضَاءَ، وَالْبَرَاءَةُ جَارِحَةً، وَحِينَ يَفْهَمُ الْقَارِئُ أَنَّ الثَّلجَ مَقْبَرَةٌ شَفَّافَةٌ وَلَيْسَ نَقَاءً).

1- فِي فَجْرٍ مَكْسُورٍ هَبَطَتِ الْمَلَائِكَةُ عَلَى الثَّلْجِ، تَسْأَلُ الْأَرْضَ: (مَنْ الَّذِي دَفَنَ صَوْتَهُ هُنَا؟ وَمَنْ الَّذِي خَبَّأَ خَطِيئَتَهُ تَحْتَ هَذَا الْبَيَاضِ؟) لَكِنَّ الْأَرْضَ كَانَتْ صَامِتَةً، وَكَانَ الثَّلْجُ أَبْلَغَ مِنَ الْكَلَامِ.

2- اعْلَمْ، يَا مَنْ تَقْرَأُ، أَنَّ الذَّنْبَ حِينَ يُحْفَرُ فِي التُّرَابِ يُمْحَى بِالْمَطَرِ، وَحِينَ يُحْفَرُ فِي الرِّيحِ يَذُوبُ مَعَ الْحُقُولِ، لَكِنَّ الذَّنْبَ إِذَا نُقِشَ فِي الثَّلْجِ صَارَ أَبَدِيًّا، لِأَنَّ الْبَرْدَ يَحْفَظُ الْخِيَانَةَ كَمَا يَحْفَظُ الْجَسَدُ آخِرَ نَفَسٍ لَهُ.

3- فِي الثَّلْجِ رَأَيْتُ آثَارًا تَتَّجِهُ إِلَى الشَّمَالِ، وَأُخْرَى تَعُودُ مِنْهُ، وَبَيْنَ الْأَثَرَيْنِ قَلْبٌ خَائِفٌ لَمْ يَصِلْ إِلَى أَيِّ جِهَةٍ. وَكَتَبْتُ فِي هَامِشِي: (مَا مِنْ هَارِبٍ يَعُودُ كَمَا ذَهَبَ... فَكُلُّ ثَلْجَةٍ تَحْفَظُ جُزْءًا مِنْ صُورَتِهِ).

4- رَأَيْتُ ذَنْبَ إِيكَارَ لَامِعًا مِثْلَ نَصْلٍ صَغِيرٍ، لَيْسَ لِأَنَّهُ أَخْطَأَ، وَإِنَّمَا لِأَنَّ الثَّلْجَ يَعْرِفُ مَا كَانَ الْقَلْبُ يُخَبِّئُهُ فِي دَمِهِ... كَانَ ذَنْبُهُ الْوَحِيدُ أَنَّهُ حَلِمَ. وَيَا لِثِقَلِ مَا يَحْمِلُهُ الثَّلْجُ حِينَ يَحْتَفِظُ بِحُلْمٍ مَقْطُوعِ الْجَنَاحِ.

5- سَمِعْتُ الثَّلْجَ يَقُولُ: (كُلُّ ذَنْبٍ يُدْفَنُ فِي صَدْرِي أُعِيدُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَبَلُّورَةٍ حَادَّةٍ، كَيْ يَعْرِفَ صَاحِبُهُ كَيْفَ جَرَحَ نَفْسَهُ، وَكَيْفَ جَرَحَ الْعَالَمَ بِخُطْوَتِهِ النَّاقِصَةِ).

6- رَأَيْتُ الذُّنُوبَ تَتَحَرَّكُ تَحْتَ الثَّلْجِ، كَأَنَّهَا أَسْمَاكٌ مَيِّتَةٌ تَصْعَدُ إِلَى السَّطْحِ لِتَعْتَرِفَ، ثُمَّ تَعُودُ إِلَى أَعْمَاقِهَا دُونَ أَنْ تُغْفَرَ... فَالثَّلْجُ يَشْهَدُ، وَهَذِهِ شَهَادَتُهُ.

7- يَا أَيُّهَا الْعَابِرُ جِبَالَ الْحُدُودِ، إِيَّاكَ أَنْ تَظُنَّ أَنَّ خُطْوَتَكَ تُمْحَى حِينَ تَبْتَعِدُ. فَالثَّلْجُ يَحْفَظُكَ، وَالرِّيحُ تُعَلِّمُ اسْمَكَ لِلْأَبَدِ، وَاللَّيْلُ يُدَوِّنُ خِيَانَتَكَ كَأَنَّهُ يُدَوِّنُ صَلَاةً مَقْلُوبَةً.

8- كَتَبْتُ عَلَى هَامِشِ الْفَرَاغِ: (إِنَّ الثَّلْجَ لَا يَقْتُلُ، وَلَكِنَّهُ يَكْشِفُ). وَمَا أَشَدَّ الْعَذَابَ أَنْ يَنْكَشِفَ الْإِنْسَانُ فِي اللَّحْظَةِ الَّتِي ظَنَّ فِيهَا أَنَّهُ مُخْتَفٍ تَمَامًا.

9- حَدَثَ أَنْ وَجَدْتُ تَحْتَ صَخْرَةٍ بَارِدَةٍ سَطْرًا مَحْفُورًا بِإِصْبَعٍ مُرْتَجِفٍ: (يَا رَبَّ الثَّلْجِ، لَا تُحَاسِبْنِي بِقَدْرِ مَا رَأَيْتَ، وَحَاسِبْنِي بِقَدْرِ مَا حَاوَلْتُ أَنْ أُحَوِّلَ هَذَا الْعَالَمَ مِنْ جُرْحٍ إِلَى جَنَاحٍ).

10- قُلْتُ: هَذَا هُوَ ذَنْبُ الْهَارِبِينَ كُلِّهِمْ، وَهَذَا هُوَ خَلَاصُهُمْ: أَنَّهُمْ جَرَّبُوا، وَلَوْ مَرَّةً وَاحِدَةً، أَنْ يَسِيرُوا نَحْوَ ضَوْءٍ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ. وَيَا لَهُ مِنْ ذَنْبٍ جَمِيلٍ، وَيَا لَهُ مِنْ ثَلْجٍ قَاسٍ حِينَ يَحْفَظُ جَمَالَهُمْ فِي هَيْئَةِ مَوْتٍ أَبْيَضَ.

ارْكُضْ أَيُّهَا الْعَابِرُ... فَالْعَرَاءُ خَلْفَكَ، وَالْعَسْكَرُ أَمَامَكَ، وَالْقَلْبُ بَيْنَهُمَا كَحَبَّةِ سُنْبُلٍ فِي مَهَبِّ عَاصِفَةٍ.
ارْكُضْ بِخُصَلَاتِ شَعْرِكَ اللَّامِعَةِ، وَاتْرُكِ الْبَرْقَ يَجْمَعُ فِي طَيَّاتِ ثَوْبِكَ أَزْهَارَهُ الزَّعْفَرَانِيَّةَ.
اهْرُبْ أَيُّهَا النَّاصِعُ، وَاهْجُرْ هَذَا الْجَبَلَ... فَالْخِتَامُ يَنْتَظِرُكَ عَلَى الْحَافَّةِ الْأَخِيرَةِ لِلضَّوْءِ. وَالْخَلَاصُ مَزَّقَتْهُ الْجَوَارِحُ، وَجَعَلَتْهُ لُقْمَةً سَائِغَةً.

## إِصْحَاحُ

## 16

## (رَكْضُ إِيكَارَ الْأَخِيرُ)

لَمَّا اسْتَيْقَظَ الْفَجْرُ عَلَى حَدِّ السِّيَاجِ، كَانَتِ الْقَدَمَانِ - جَنَاحَيْ شَاعِرٍ لَمْ يَتَعَلَّمِ الطَّيَرَانَ - تَخْتَبِرَانِ تُرَابَ الطَّرِيقِ، كَأَنَّهُ الْوَحِيدُ الَّذِي يَحْفَظُ سِرَّ الْعُبُورِ...
فَفِي الْبِلَادِ الَّتِي تَتَكَسَّرُ فِيهَا الْمَصَائِرُ كَالْجِرَارِ الْفَخَّارِيَّةِ، لَا يَحْتَاجُ الْبَطَلُ إِلَى رِيشٍ وَلَا شَمْعٍ، يَحْتَاجُ إِلَى جِلْدٍ تُرَبِّيهِ الْحِجَارَةُ، وَقَدَمَيْنِ تَعْرِفَانِ كَيْفَ تُحَوِّلَانِ الْوَجَعَ إِلَى خُطًى لَا تَرْجِعُ إِلَى الْوَرَاءِ...

كَانَتِ الشَّمْسُ هُنَاكَ، لَكِنَّهَا لَمْ تَكُنْ نَارًا وَلَا ذَهَبًا، كَانَتْ حُدُودًا تَمْتَدُّ مِنْ أُفُقٍ إِلَى آخَرَ، تَلْمَعُ بِالْأَسْلَاكِ الشَّائِكَةِ، وَبِالْأَسْئِلَةِ الَّتِي لَا تَنْتَهِي، تَسْأَلُ الْعَابِرِينَ عَنْ دَمِهِمْ وَعَنْ لَوْنِ خَوْفِهِمْ، وَتُحْصِي عَلَى الرِّيحِ أَنْفَاسَ مَنْ يَجْرُؤُونَ عَلَى الْحُلْمِ خَارِجَ قَفَصِهَا الْمُسْتَقِيمِ...
أَمَّا الْبَحْرُ - ذَاكَ الَّذِي غَنَّاهُ الشُّعَرَاءُ شَهْوَةً - فَقَدْ تَحَوَّلَ فِي مَلْحَمَةِ الشَّاعِرِ إِلَى جَيْشٍ مِنَ الْمَخَافِرِ، قُبَّعَاتٌ حَمْرَاءُ تُشْرِفُ عَلَى الْمَوْجِ، وَوُجُوهٌ تَقِيسُ بِعُيُونٍ ضَيِّقَةٍ مَسَافَةَ الْقَلْبِ إِلَى حُرِّيَّتِهِ...

لَمْ يَكُنْ مَاءً، كَانَ مِطْرَقَةً مِنْ ضَوْءٍ بَارِدٍ تَفْحَصُ كُلَّ شَقٍّ فِي الرُّوحِ، وَتُعِيدُ الْمُسَافِرَ إِلَى اسْمِهِ الْأَوَّلِ، كَأَنَّهُ لَمْ يُولَدْ بَعْدُ...

وَمَعَ ذَلِكَ، رَكَضَ إِيكارُ...

رَكَضَ كَأَنَّ الْأَرْضَ بِسَاطٌ قَدِيمٌ يُسْحَبُ مِنْ تَحْتِ قَدَمَيْهِ، وَكَأَنَّ الزَّمَنَ قَصِيدَةٌ أُهْمِلَتْ فِي الرَّمْلِ، فَأَعَادَ كِتَابَتَهَا بِنَبْضِهِ...

رَكَضَ وَالْحُدُودُ - شَمْسُهُ الطَّاغِيَةُ - تَصْهَرُ طِينَهُ، وَرِجَالُ الْبَحْرِ يَصْرُخُونَ كَصَيَّادِي رِيَاحٍ خَسِرُوا الشِّبَاكَ...

كَانَ يَعْرِفُ أَنَّ الْفَقْدَ يَقِفُ عِنْدَ نِهَايَةِ كُلِّ طَرِيقٍ، لَكِنَّهُ لَمْ يَتَرَاجَعْ، فَالْبَطَلُ فِي هَذِهِ الْأَزْمِنَةِ يُقَاسُ بِعَدَدِ الْأَسْوَارِ الَّتِي رَفَضَتْهُ وَهُوَ يُصِرُّ عَلَى الْمُرُورِ...

كَانَ يَرْكُضُ لِيُعِيدَ تَرْتِيبَ الْعَالَمِ، وَلَوْ بِخُطْوَةٍ وَاحِدَةٍ، تَسْقُطُ فِيهَا آخِرُ نَدْبَةٍ مِنْ خَوْفٍ قَدِيمٍ...

وَحِينَ وَصَلَ إِلَى الْحَافَّةِ، لَمْ يَبْقَ مِنَ الْأَرْضِ إِلَّا ظِلُّهَا، وَلَمْ يَبْقَ مِنَ الْحُدُودِ إِلَّا خِنْجَرُهَا الْحَادُّ.

رَفَعَ قَدَمَيْهِ كَأَنَّهُمَا مَرْكَبَانِ مِنْ لَهَاثٍ، وَأَلْقَى بِنَفْسِهِ إِلَى الضَّوْءِ...

لَمْ يَسْقُطْ...

لَمْ يَرْتَفِعْ...

صَارَ شَيْئًا ثَالِثًا:

صَرْخَةً تُضَاعِفُ صَرِيرَ الْأَسْلَاكِ، وَتُعَلِّمُ الشَّمْسَ أَنَّ الْحُدُودَ، مَهْمَا اشْتَدَّتْ، لَا تَقْتُلُ رَغْبَةَ الْجَسَدِ فِي أَنْ يَعْبُرَ...

هَكَذَا تُرْوَى الْمَلْحَمَةُ الْآنَ:

أَنَّ شَاعِرًا رَكَضَ حَتَّى ذَابَ فِي أُفُقٍ لَمْ يُصْنَعْ لَهُ، وَأَنَّ الْبَحْرَ - بِمَخَافِرِهِ وَرِجَالِهِ- وَقَفَ فِي صَمْتٍ طَوِيلٍ يُشَاهِدُهُ يَتَجَاوَزُ الْمَعْنَى، لَا الْمَكَانَ...

وَأَنَّ الشَّمْسَ فَهِمَتْ مُتَأَخِّرَةً أَنَّ مَنْ لَا يَمْلِكُ جَنَاحَيْنِ قَدْ يَصْنَعُ عُبُورَهُ بِقَدَمَيْنِ أَقْوَى مِنَ الشَّمْعِ، وَأَكْثَرَ صِدْقًا مِنَ الْأُسْطُورَةِ.

١٢

# النَّشِيدُ الثَّانِي عَشَرَ

## الرَّاكِضُ فِي حُفْرَةِ النُّورِ الْمُنْكَسِرِ
## (مِنْ سِفْرِ الْأَرْوَاحِ [41] الْعَالِقَةِ بَيْنَ الْحُدُودِ)

مِثْلَ شَرِيدٍ، يَتَلَأْلَأُ الْبَهَاءُ فِي ثِيَابِهِ، كُنْتَ تَدُورُ، دَوَرَانَ سِرٍّ يُمْنَحُ لِمَنْ ضَلَّ طَرِيقَهُ فِي سِفْرِ النُّبُوءَاتِ الْمُقَدَّسَةِ. وَكَانَتْ عُرُوشُ دَمِكَ الذَّهَبِيَّةُ تَدُورُ فِي عُرُوقِ الصَّرَخَاتِ دَوَرَانَ بِشَارَةٍ مَكْسُورَةٍ، وَكَانَتْ يَدَاكَ وَرِجْلَاكَ تَرْتَجِفَانِ رَجْفَةَ مُرَتِّلٍ فُتِحَ لَهُ بَابُ رُؤْيَا لَمْ يَحْتَمِلْهَا.

وَرَاءَكَ كَانَ فَوْجُ الْعَسْكَرِ يَقْتَرِبُ، وَبَيْنَ صُخُورِ الْجَبَلِ كَانَ الْمَوْتُ يَهْتِفُ بِاسْمِكَ، كَأَنَّهُ يَعْرِفُكَ مُنْذُ مَا قَبْلَ الْوِلَادَةِ. وَكَانَتِ الصَّوَاعِقُ تَقْرَعُ مِحْرَابَكَ، وَتَفْتَحُ مَنْجَمَ الشُّرُورِ، وَكَانَتِ السَّكَاكِينُ تَلْمَعُ كَمَا تَلْمَعُ رُؤُوسُ الْمَلَائِكَةِ الْمُنْكَسِرِينَ فِي آخِرِ اللَّيْلِ.

عَدَوْتَ، لَا لِأَنَّكَ تَهْرُبُ، وَإِنَّمَا لِأَنَّكَ فَتَحْتَ فِي الْعَرَاءِ بَابًا لَا يَجُوزُ إِغْلَاقُهُ.

فَحَاكَكَ الظَّلَامُ بِأَقْمِطَةٍ، كَمَا تَحُوكُ الرَّاهِبَاتُ أَقْمِشَةَ الِاعْتِرَافِ، وَاحْتَضَنَكَ الطَّيْشُ الْجَسُورُ كَمَا يَحْتَضِنُ الذِّئْبُ قَمَرَهُ فِي لَيَالِي الْهَذَيَانِ.

وَفَجْأَةً، صَعِدَ عُوَاءُ الذِّئَابِ أَمَامَكَ، عُوَاءٌ لَا هُوَ تَهْلِيلٌ وَلَا صَلَاةٌ... نَشِيدُ مَذْبَحَةٍ تَتْلُوهُ أَرْوَاحٌ لَمْ تَكْتَمِلْ.

فَارْتَطَمْتَ بِجَرْيِكَ ارْتِطَامَ مَلَاكٍ سَقَطَ مِنْ سِفْرٍ لَمْ يُنْسَخْ بَعْدُ، وَتَلَعْثَمْتَ فِي ثِيَابٍ يَلْمَعُ فِيهَا الْبَهَاءُ مِثْلَ مَهْزَلَةٍ مُقَدَّسَةٍ.

كُنْتَ مُثْقَلًا بِمَوْتِكَ، تَحْمِلُهُ عَلَى كَتِفَيْكَ كَمَا يَحْمِلُ الْكَاهِنُ حَجَرَ الْمَذْبَحِ، وَكَانَ قَمَرُ دَمِكَ يَبْحَثُ فِي جِبَالِ اللَّيْلِ عَنْ نَارٍ يَمُرُّ مِنْ خِلَالِهَا، كَيْ يَتْرُكَ عَلَى خَدِّكَ خَتْمَ الْفِدَاءِ.

---

[41]- **هَامِشُ عَوْدَةِ الْأَرْوَاحِ إِلَى أَجْسَادٍ لَيْسَتْ لَهَا**

(فِي فَجْرٍ مَجْهُولٍ، سَتَعُودُ الْأَرْوَاحُ... لَكِنَّهَا سَتُخْطِئُ الْأَبْوَابَ، وَتَدْخُلُ أَجْسَادًا لَا تَعْرِفُهَا)

**الْهَامِشُ الْمُخْفِيُّ دَاخِلَ الْهَامِشِ:**

(إِنْ تَغَيَّرَتْ رُوحُكَ فَجْأَةً... فَلَا تَبْحَثْ عَنْ تَفْسِيرٍ... ابْحَثْ عَنْ جَسَدٍ فَقَدَ صَاحِبَهُ).

يَا لِلرَّأْفَةِ الَّتِي فِي عَيْنَيْكَ، وَيَا لِلْخَرَابِ الْحَنُونِ الْجَالِسِ بَيْنَهُمَا، كَمَا يَجْلِسُ طِفْلٌ يَتِيمٌ فِي حِضْنِ قِدِّيسٍ نَائِمٍ.

وَلِذَلِكَ كَانَ لَكَ مِنَ التَّهْلِيلِ الدَّائِرِ حَوْلَكَ ذِئَابٌ لَا تَرَى إِلَّا أَنْيَابَهَا، تَكْسِرُ الظَّلَامَ كَمَا تَكْسِرُ الْمَنَائِرُ خُرَافَاتِ اللَّيْلِ، وَتَجْرَحُ وَجْهَ الْقَمَرِ بِعُوَاءٍ هُوَ أَقْدَمُ مِنَ اللُّغَةِ.

وَفِي الْعُرْسِ الْأَسْوَدِ الَّذِي جَرَّ ذَيْلَهُ نَحْوَكَ، كَانَ فَوْجُ الْعَسْكَرِ يَصْعَدُ مِنْ بَيْنِ الْقَنْصِ وَالْهُبُوبِ وَالْغُبَارِ، تَصْطَكُّ نِعَالُهُمْ كَصَلَوَاتٍ حَرْبِيَّةٍ تُتْلَى عَلَى مَذْبَحٍ مِنْ حَجَرٍ غَرِيبٍ.

وَهَا هِيَ الْحَلْقَةُ تَكْتَمِلُ، تَحْتَرِقُ النُّبُوءَةُ الْمُقَدَّسَةُ، وَتَخْتَبِئُ الْأَرْضُ كَمَا تَخْتَبِئُ الْأَسْرَارُ فِي صُدُورِ الرُّهْبَانِ.

يَقْتَرِبُ دَهَاءُ الذِّئَابِ – إِنْشَادُ الذَّبْحِ، وَغِنَاءُ الْوَحْشِ، وَقُدَّاسُ الدَّمِ – وَيَقْتَرِبُ دَوِيٌّ لَا يَرَاهُ إِلَّا الْمَفْجُوعُ، وَيَعْلُو...

عُوَاءٌ...

عُوَاءٌ يَفْتَحُ فِي الْهَوَاءِ سَبْعَ شُقُوقٍ.

وَأَنْتَ مِنْ هَذَا كُلِّهِ كَفَلْقَةٍ بَخُورٍ تَحْتَضِرُ، تُطَارِدُ بِأَنْفَاسِكَ الْآفِلَةِ قِرْبَةَ الْهَوَاءِ، وَتَنْحَتُ فَوْقَ الصَّخْرِ خُيُولًا تَنْدَفِعُ، وَوُجُوهًا لِفُرْسَانٍ يَتَقَدَّمُونَ وَلَا يَصِلُونَ.

لَكِنَّكَ لَنْ تَذْهَبَ أَبْعَدَ، فَالْمَدَى صَارَ شَرِيكًا لَهُمْ، وَالْمَوْتُ أَحْضَرَ أَزَاهِيرَهُ، كَأَنَّهُ يُزَيِّنُ مَائِدَةً لِعِيدٍ لَمْ يُعْلَنْ بَعْدُ.

وَالْعَنَادِلُ أَطْلَقَتْ صُقُورَهَا، وَأَحَاطَتْ بِكَ نُعُوشُ الْهَلَاكِ.

هَا هُوَ وَجْهُكَ وَقَدْ صَارَ شَرَارَةً، وَهَا هِيَ عَيْنَايَ وَقَدْ صَارَتَا شَاهِدَتَيْنِ عَلَى الْعُبُورِ.

الْكَوَاكِبُ لَا تُوقِفُ الْجَرَيَانَ، وَالنَّارُ لَا تُعَادِي الْمَاءَ، وَالْجَرَيَانُ لَا يَنْقُضُ الثَّبَاتَ... إِنَّهُ يَكْشِفُهُ.

لِيَكُنِ الْغُفْرَانُ...

يَا كَلِمَةً اسْتَرَاحَتْ فِي الضَّوْءِ، بَارِكِينِي كَمَا يُبَارَكُ الْعَابِرُ حِينَ يُسَلِّمُ نَفْسَهُ لِلتَّيَّارِ.

اغْفِرِي لِي حِينَ ظَنَنْتُ أَنَّ الزَّمَنَ عَدُوٌّ، وَلَمْ أَعْرِفْ أَنَّهُ مُعَلِّمٌ.

وَحِينَ حَسِبْتُ أَنَّ الْأَثَرَ قَبْرٌ، وَلَمْ أَفْهَمْ أَنَّهُ عَلَامَةُ طَرِيقٍ.

أَرَأَيْتَ، أَيُّهَا الْعَابِرُ، أَيَّةُ لَعْنَةٍ تَشُدُّ سَاقَيْكَ كُلَّ هَذِهِ الْمَسَافَةِ؟

أَرَأَيْتَ؟

الطَّيْرُ لَمْ يَحُطَّ عَلَى رَاحَتَيْكَ.

أَرَأَيْتَ، أَيُّهَا الْعَابِرُ، فِي سِفْرِ الْأَرْوَاحِ الْعَالِقَةِ بَيْنَ الْحُدُودِ؟

الْآنَ يَنْكَشِفُ الْمَسْتُورُ بِالْقَوْلِ... بِالزَّوَالِ.

أَرَأَيْتَ، أَيُّهَا الْعَابِرُ، يَا مَنْ غَنَّى لِلْفَجْرِ أَلْحَانًا لَمْ تَنْطَلِقْ؟
أَرَأَيْتَ حِينَ امْتَلَأَ قَلْبُكَ بِالْغِنَاءِ كَيْفَ ارْتَجَفَتْ شَفَتَاكَ بِالْأَسَى؟
اخْرُجْ مِنْ طَقْسِكَ، أَيُّهَا الْعَابِرُ، فَقَدْ صَارَ الرَّكْضُ أَقَلَّ عَمًى، وَصَارَ الْعُوَاءُ أَقَلَّ فَزَعًا.



**(خَتْمُ الدَّيْرِ)**

(بِرُوحِ مَخْطُوطَةٍ تُتْلَى فِي لَيْلِ الْأَدْيِرَةِ،
وَيَتَعَانَقُ فِيهَا الصَّوْتُ الْكَنَسِيُّ مَعَ الْإِنْشَادِ الْفُوتُوغْرَافِيِّ،
تَمَّ نَقْشُ هَذِهِ الْأَسْفَارِ وَالْأَنَاشِيدِ فِي لَيْلَةٍ انْفَتَحَتْ فِيهَا الْحُدُودُ عَلَى أَرْوَاحٍ لَمْ تَجِدْ وَطَنَهَا.
وَكَأَنَّ النَّصَّ مَكْتُوبٌ بِالْحِبْرِ الَّذِي كَانَ يُسْتَخْلَصُ مِنْ دُمُوعِ الرُّهْبَانِ،
وَبِخُطُوطِ أَنَاجِيلِ الظِّلَالِ الْعَالِقَةِ بَيْنَ الْحُدُودِ.
وَمَنْ قَرَأَهُ، فَلْيَتَذَكَّرْ:
مَا بَيْنَ الْمَخَافِرِ وَالْحُدُودِ،
يَجْلِسُ مَلَاكٌ يَعُدُّ خُطَى الْهَارِبِينَ) [42]

42- عَنِ الْهَارِبِينَ الَّذِينَ صَارُوا كِلَابًا تَنْهَشُ أَجْسَادَهَا (تَنْبِيهٌ مِنْ تَعَالِيمِ الرُّهْبَانِ النَّائِحِينَ):

# إِصْحَاحُ

## 17

## مِنْ كِتَابِ الِافْتِرَاسِ

**(نَسَبُ الذِّئَابِ وَنَشْأَةُ حِرَاسَةِ الْحُدُودِ)**

## الْمِيمَرُ

### الْمِيمَرُ الْأَوَّلُ: نَشِيدُ الْفَتْحِ الْأَسْوَدِ

**اللَّوْحُ الْأَوَّلُ:**

فِي الْبَدْءِ كَانَتِ الْأَرْضُ الْحَرَامُ، وَكَانَتِ الذِّئَابُ تَحْرُسُ الرِّيحَ كَمَا تُحْرَسُ النَّارُ فِي مَعَابِدَ مَنْسِيَّةٍ.

وَكَانَ الْعَابِرُونَ يَمُرُّونَ كَالظِّلَالِ، بَيْنَ أَنْيَابٍ تَتَوَهَّجُ فِي الظُّلْمَةِ مِثْلَ عَلَامَاتٍ مُقَدَّسَةٍ لَمْ تُكْتَبْ لَهَا صَلَاةٌ.

وَكَانَ الْبَحْرُ وَالْحُدُودُ يَتَقَاتَلَانِ عَلَى خَطِّ الْأُفُقِ، وَكَانَ الْهَارِبُونَ يَرْكُضُونَ بِغَيْرِ أَسْمَاءٍ، حَتَّى خَلَقَ اللّٰهُ - أَوِ الْأَرْضُ نَفْسُهَا - الذِّئَابَ الْأُولَى:

1- ذِئْبُ الظِّلِّ: الَّذِي رَأَى كُلَّ خُطُوَاتِ الْبَشَرِ قَبْلَ أَنْ تُخْطَى.

2- ذِئْبُ الْعُوَاءِ: الَّذِي حَفِظَ أَصْوَاتَ الْمَفْقُودِينَ فِي لَيْلٍ طَوِيلٍ.

3- ذِئْبُ الْجُرْحِ: الَّذِي خَبَّأَ أَسْرَارَ الْأَرْضِ الْحَرَامِ بَيْنَ فَكَّيْهِ.

قَالَ الْمَلَاكُ الْأَعْمَى:

---

(مَنْ ذَلَّ عَلَى عَتَبَةِ الْحُدُودِ خَسِرَ اسْمَهُ. وَمَنْ هَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ صَارَتْ رُوحُهُ تَنْبَحُ كَكَلْبٍ جَائِعٍ. الْخَوْفُ يُغَيِّرُ الْخِلْقَةَ، وَيُبَدِّلُ الْأَعْرَاقَ، وَيُحَوِّلُ الْإِنْسَانَ إِلَى مَخْلُوقٍ يَبْحَثُ عَنْ حُفْرَةٍ لَا عَنْ وَطَنٍ).

- هَؤُلَاءِ هُمْ حُرَّاسُ الطَّرِيقِ، لَا يَعْبَثُونَ إِلَّا بِالضَّعْفِ، وَلَا يَنَامُونَ إِلَّا حِينَ يَنَامُ الْخَوْفُ.

وَكَانَتِ الْحُدُودُ تُقَسِّمُ اللَّيْلَ، كَجُرْحٍ مَفْتُوحٍ فِي جَسَدِ الْعَالَمِ...
وَفِي الْجُرْحِ يَسْكُنُ (كِتَابُ الِافْتِرَاسِ)، الْكِتَابُ الَّذِي لَا يُتْلَى إِلَّا فِي لَحَظَاتِ الْفَزَعِ، وَلَا يُسْمَعُ إِلَّا حِينَ يَصْعَدُ عُوَاءٌ فِي الْعَتْمَةِ يُشْبِهُ تَرَاتِيلَ قَبِيلَةٍ انْقَرَضَتْ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا سِوَى هَذَا الِافْتِرَاسِ الطَّقْسِيِّ.

## اللَّوْحُ الثَّانِي - نَشِيدُ الْقَطِيعِ

قَالَ الذِّئْبُ الْعَجُوزُ (حَارِسُ الْبَرَارِي):
- نَحْنُ أَبْنَاءُ الْأَرْضِ الَّتِي لَا تُخْفِي خُطَاهَا، نَرَى الْعَابِرِينَ قَبْلَ أَنْ يُولَدَ خَوْفُهُمْ، وَنَشُمُّ الظِّلَالَ قَبْلَ أَنْ تَظْهَرَ عَلَى الرَّمْلِ.
يَأْتِي الْقَطِيعُ مِنَ الشَّرْقِ، كَأَنَّ الرِّيحَ أَنْجَبَتْهُ، أَوْ كَأَنَّ اللَّيْلَ بَعَثَهُ لِيُتِمَّ وَصَايَا الصَّمْتِ.
وَتَقُولُ الصِّغَارُ لِلَّيْلِ:
- امْنَحْنَا جَسَدًا نَلْحَقْ بِهِ، أَوْ ظِلًّا نَفْتَرِسْهُ، كَيْ نَتَعَلَّمَ مَعْنَى الْبَقَاءِ.

## اللَّوْحُ الثَّالِثُ - نَسَبُ الْقَطِيعِ وَوَصَايَا الذِّئْبِ الْأَكْبَرِ

أَنْجَبَتِ الذِّئَابُ قَطِيعًا لَا يُعَدُّ وَلَا يُحْصَى، كُلُّ وَاحِدٍ فِيهِ خَلِيطٌ مِنَ الضَّيَاعِ وَالْحِرَاسَةِ... مِنْهُمْ مَنْ يُمْسِكُ بِالذِّكْرَى، وَمِنْهُمْ مَنْ يُفْقِدُهَا.
وَهَذِهِ أَسْمَاءُ الذِّئَابِ وَأَدْوَارُهَا:
***سَيِّدُ الظِّلَالِ**: يَحْرُسُ الْبَوَّابَاتِ [43] الَّتِي لَا يَجْرُؤُ الْإِنْسَانُ عَلَى لَمْسِهَا.

---

43- هَامِشُ الْبَوَّابَاتِ (الَّذِي يُخَبِّئُ خَرَائِطَ الْعَابِرِينَ بَيْنَ الْعَوَالِمِ):

***أُمُّ الْعُيُونِ**: تَفْتَحُ أَبْصَارَهَا عَلَى الْحِكَايَاتِ الْقَدِيمَةِ، وَتَبْكِي لِمَنْ فَقَدُوا الطَّرِيقَ.
***النَّاطِقُ بِالْمَفْقُودِينَ**: يُتَرْجِمُ صَمْتَ الْعَابِرِينَ إِلَى عُوَاءٍ يُفْهَمُ.
***الْحَارِسُ الصَّامِتُ**: لَا يَعْوِي إِلَّا حِينَ يَتَجَاوَزُ الْعَابِرُ حُدُودَ قَلْبِهِ.

قَالَ الْفُوتُوغْرَافِيُّ الْعَجُوزُ:
- كُلُّ ذِئْبٍ يَمْلِكُ صُورَةً سِرِّيَّةً لِلْعَابِرِ، صُورَةً لَا تَرَاهَا الْعُيُونُ، إِلَّا حِينَ تُصْبِحُ أَنْتَ الطَّرِيقَ نَفْسَهُ.
وَنَقَشَ الذِّئْبُ الْأَكْبَرُ وَصَايَاهُ عَلَى حَجَرٍ أَسْوَدَ قُرْبَ وَادٍ بِلا اسْمٍ:
1- لَا تَرْكُضْ خَلْفَ عَابِرٍ خَائِفٍ، فَالْخَائِفُ يَمْلِكُ طَرِيقَيْنِ، وَالْعَاقِلُ طَرِيقًا وَاحِدًا.
2- افْتَرِسْ فَقَطْ مَنْ يَنْسَى، فَالنَّاسِي يَصْبِحُ فَرِيسَةً قَبْلَ أَنْ يَمْشِي.
3- رَاقِبِ الْحُدُودَ وَلَا تَعْبُرْهَا، فَالْعَابِرُونَ وَحْدَهُمْ يُخْتَبَرُونَ، أَمَّا الْحَارِسُ فَيَبْقَى شَاهِدًا لَا يُمْتَحَنُ.

---

اعْلَمْ، يَا مَنْ تَبْحَثُ، أَنَّ فِي كُلِّ سَطْرٍ بَوَّابَةً، وَفِي كُلِّ دَمْعَةٍ عَتَبَةً، وَفِي كُلِّ مَوْتٍ مَمَرًّا إِلَى هَوَاءٍ آخَرَ...
وَالْبَوَّابَاتُ لَيْسَتْ أَبْوَابًا، إِنَّهَا نَفَسٌ يَنْقَطِعُ، أَوِ اسْمٌ يُمْحَى، أَوْ نَبْضَةٌ تَعُودُ لِتَسْأَلَ:
– أَهَكَذَا أُعِيدُ خَلْقِي؟
رَأَيْتُ بَوَّابَةً فِي عَيْنِ الْمَلَاكِ الْأَعْمَى، وَأُخْرَى فِي قَدَمَيِ الشَّاعِرِ الْهَارِبِ، وَثَالِثَةً فِي أَصَابِعِ الْفُوتُوغْرَافِيِّ الْعَجُوزِ حِينَ ارْتَعَشَ وَهُوَ يُصَوِّرُ الرِّيحَ... وَمَنْ يَعْبُرِ الْبَوَّابَةَ لَا يَعُدْ كَمَا ذَهَبَ، لِأَنَّ الْعَتَبَةَ تَأْخُذُ مِنْهُ شَيْئًا وَتَتْرُكُ فِيهِ شَيْئًا، كَقُرْبَانٍ لَا يُرْفَضُ... فَلَا تَلُمْ الْعَابِرِينَ، وَلَا الْغَرْقَى عَلَى الْحُدُودِ، فَقَدْ يَكُونُونَ قَدْ دَخَلُوا بَوَّابَةً لَمْ نَرَهَا نَحْنُ، لِأَنَّ قُلُوبَنَا كَانَتْ مُغْلَقَةً.

4- احْفَظِ اللَّيْلَ فِي حَلْقِكَ، فَاللَّيْلُ ذَاكِرَةُ الْقَطِيعِ، وَالْعُوَاءُ كِتَابٌ أَعْلَى مِنَ الْخَرِيطَةِ.

5- لَا تُهَاجِمْ ظِلَّ الْهَارِبِ، فَالظِّلُّ مَغْفِرَةٌ، وَمَنْ يُمَزِّقْ ظِلًّا يُغْضِبِ الْغَابَةَ.

## اللَّوْحُ الرَّابِعُ - وِلَادَةُ الْحِرَاسَةِ

حِينَ أَرَادَتِ الشَّمْسُ أَنْ تَشْتَعِلَ، وَانْفَجَرَ الْبَحْرُ فِي الْمَخَافِرِ، خَرَجَتِ الذِّئَابُ مِنَ الْغَابَةِ، وَمَشَتْ عَلَى أَطْرَافِ الظِّلِّ، وَافْتَتَحَتْ طَقْسَ حِرَاسَةِ الْحُدُودِ:

1- كُلُّ عَابِرٍ يُسَجَّلُ فِي ذَاكِرَةِ الْقَطِيعِ.

2- كُلُّ خُطْوَةٍ تُرْسَمُ عَلَى جَسَدِ الْأَرْضِ، حَتَّى إِنْ لَمْ يَرَهَا أَحَدٌ.

3- كُلُّ خِيَانَةٍ، أَوْ خَوْفٍ، أَوْ خَفْقَةِ قَلْبٍ، تُصْبِحُ مَادَّةً لِلدَّرْسِ، أَوْ مَأْدُبَةً لِلذِّئَابِ.

قَالَ سَيِّدُ الظِّلَالِ:

- نَحْنُ السُّلَالَةُ. نَحْنُ الْعُيُونُ الَّتِي لَا تَنَامُ. نَحْنُ الْحُرَّاسُ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ، وَيَخْتَبِرُونَ، وَيَكْتُبُونَ أَسْمَاءَكُمْ عَلَى خَرَائِطِكُمُ الْخَاصَّةِ.

وَقَالَ الْحَارِسُ الصَّامِتُ:

- الذِّئَابُ لَيْسَتْ شَرًّا، إِنَّهَا الْكَهَنُوتُ الْقَدِيمُ لِلْحُدُودِ: تَحْرُسُ الِاخْتِبَارَ، وَتُنَقِّبُ عَنِ الْغَفْلَةِ، وَتُمْسِكُ بِالْعَابِرِ حِينَ يَتَرَدَّدُ قَلْبُهُ بَيْنَ مَكَانَيْنِ.

وَقَالَ النَّاطِقُ بِالْمَفْقُودِينَ:

- نَحْنُ لَسْنَا أَعْدَاءَ الْبَشَرِ، نَحْنُ امْتِحَانُهُمُ الْأَخِيرُ، وَمَمَرُّ خَوْفِهِمُ الَّذِي لَا بُدَّ أَنْ يَعْبُرُوهُ كَيْ يَتَحَوَّلُوا.

وَلِذَلِكَ، حِينَ اجْتَمَعَ رِجَالُ الْمَخَافِرِ مَعَ الْقَطِيعِ عَلَى جَسَدِ إِيكَارَ، لَمْ يَجْتَمِعُوا كَقَتَلَةٍ فَقَطْ، كَانُوا طَقْسًا، وَصَفْحَةً سَوْدَاءَ مِنْ هَذَا السِّفْرِ.

**اللَّوْحُ الْخَامِسُ - مَأْدُبَةُ الْأَرْضِ الْحَرَامِ**

فِي كُلِّ اكْتِمَالِ قَمَرٍ، يَجْتَمِعُ الْقَطِيعُ عَلَى قِمَّةِ تَلَّةٍ صَخْرِيَّةٍ، وَيُنْشِدُ النَّشِيدَ الْآتِي:

**جُوقَةُ ظِلَالِ الذِّئَابِ:**

- نَحْنُ الَّذِينَ نُولَدُ مِنْ لَيلِ الْأَرْضِ، وَنَمْشِي فِي صَمْتِهَا، وَنَلْتَهِمُ اللَّيْلَ قَبْلَ أَنْ يَلْتَهِمَنَا، وَنَحْرُسُ الْعَابِرِينَ قَبْلَ أَنْ يَذْكُرُوا أَسْمَاءَهُمْ.

قَالَتْ أُمُّ الْعُيُونِ:

- هَكَذَا تَتَوَالَى الرُّؤَى:

*الْعَابِرُونَ لَا يَمُرُّونَ إِلَّا بِإِذْنِ الذِّئَابِ.

*مَنْ يَخْدَعِ الذِّئَابَ يُسْتَدْرَكْ فِي الظِّلِّ.

*وَمَنْ يُخْدَعْ بِنَفْسِهِ يُفْتَرَسْ فِي الْبَرِّيَّةِ بِغَيْرِ رَحْمَةٍ.

فِي كُلِّ اكْتِمَالِ قَمَرٍ، يُشْعِلُونَ نَارًا تُصدِرُ دُخَانًا يُشْبِهُ شَكْلَ الْحُدُودِ، وَيُلْقُونَ فِيهَا خَرَائِطَ مُمَزَّقَةً، وَأَحْذِيَةً نَجَتْ مِنَ الْمَخَافِرِ، وَشُعَيْرَاتٍ سَقَطَتْ مِنْ جَنَاحِ إِيكارَ.

ثُمَّ يَبْدَأُ الطَّقْسُ:

* ذِئْبٌ يَتْلُو سِجِلَّ الْغِيَابِ: أَسْمَاءَ الَّذِينَ ابْتَلَعَتْهُمُ الرِّمَالُ.

* ذِئْبَةٌ تُنْشِدُ مَرَاثِيَ الرَّاكِضِينَ، وَتَقُولُ: إِنَّنَا نَأْكُلُ أَجْسَادَهُمْ كَيْ يَتَحَرَّرُوا مِنْ خَوْفِهِمُ الْأَخِيرِ.

* الْقَطِيعُ كُلُّهُ يَعْوِي، كَأَنَّ جُوقَةً جَنَائِزِيَّةً تُشَارِكُ فِي دَفْنِ الْعَابِرِينَ وَاسْتِعَادَةِ أَرْوَاحِهِمْ.

**اللَّوْحُ السَّادِسُ - النَّسَبُ الْمُقَدَّسُ وَنَشِيدُ الذِّئْبِ الْوَحِيدِ**

كُلُّ ذِئْبٍ يُولَدُ يَحْمِلُ فِي عَيْنَيْهِ:

1- ذَاكِرَةَ الْعَابِرِينَ.
2- رَائِحَةَ الْحُدُودِ.
3- قُوَّةَ الرِّيحِ الْمَارَّةِ فَوْقَ الْأَرَاضِي الْمَمْنُوعَةِ.
4- الْقُدْرَةَ عَلَى رُؤْيَةِ الْمُسْتَقْبَلِ عَلَى هَيْئَةِ خُطْوَةٍ خَاطِئَةٍ أَوْ صَحِيحَةٍ.

وَيُقَالُ:

إِنَّ كُلَّ مَنْ يَتَعَرَّفُ إِلَى السُّلَالَةِ يَعْرِفُ أَنَّ الذِّئَابَ طُقُوسٌ حَيَّةٌ لِلْحُدُودِ، وَهَيْبَةٌ لِلضَّيَاعِ، وَدِرْعٌ لِلْحُرِّيَّةِ الْقَادِمَةِ وَنَشِيدِهَا... نَشِيدِ الذِّئْبِ الْوَحِيدِ الَّذِي كَانَ يَقُومُ بِنُزُهَاتٍ حَتَّى أَسْوَارِ السَّمَاءِ، وَهُوَ الَّذِي رَأَى إِيكارَ آخِرَ مَرَّةٍ.

وَقَفَ عَلَى تَلَّةٍ صَغِيرَةٍ، وَقَالَ لِلرِّيحِ:

- لَمْ أُرِدْ أَنْ أَكُونَ قَاتِلًا، لَكِنَّهُ كَانَ ضَوْءًا لَا يُمْسَكُ، وَالضَّوْءُ يُغْرِينَا كَمَا تُغْرِينَا الْيَنَابِيعُ.

رَكَضَ بِسُرْعَةِ مَنْ يَمْلِكُ جَنَاحَيْنِ، فَكُنْتُ أَظُنُّ أَنَّهُ سَيَسْبِقُ الْعَالَمَ.

لَكِنَّ الْعَالَمَ ضَيِّقٌ، وَالْحُدُودَ أَسْرَعُ مِنَ الرَّكْضِ.

ثُمَّ عَضَّ الْهَوَاءَ، وَقَالَ:

- لَا تَزَالُ رَائِحَةُ الْحُرِّيَّةِ عَلَى رَمَادِهِ.

**جُوقَةُ ظِلَالِ الذِّئَابِ:**

- نَحْنُ السُّلَالَةُ، وَنَحْنُ الْبِدَايَةُ وَالْخِتَامُ، وَنَحْنُ الْحُرَّاسُ وَالضَّيَاعُ، وَنَحْنُ الَّذِينَ يُعَلِّمُونَ الْأَرْضَ كَيْفَ تَرَى الْعَابِرِينَ، وَكَيْفَ تَبْتَلِعُ الْحُدُودَ حِينَ يَحِينُ وَقْتُهَا.

## الْمِيمَرُ الثَّانِي

## كِتَابُ الطُّقُوسِ - لِيتُورْجِيَا الِافْتِرَاسِ وَحِرَاسَةِ اللَّيْلِ

## اللَّوْحُ الْأَوَّلُ - تَعَالِيمُ اللَّيْلِ

قَالَ سَيِّدُ الظِّلَالِ:
- اللَّيْلُ مُعَلِّمُ الذِّئَابِ... يُعَلِّمُهَا كَيْفَ تَرَى دُونَ بَصَرٍ، وَكَيْفَ تَعْرِفُ صَوْتَ الْجَسَدِ قَبْلَ ظُهُورِهِ.
وَحِينَ يُسْقِطُ اللَّيْلُ وَصَايَاهُ، تَهْتَزُّ الْحُدُودُ، وَتَشْعُرُ الْأَرْضُ بِرَعْشَةٍ، كَأَنَّ الْعُبُورَ مُمْكِنٌ لِلَحْظَةٍ قَصِيرَةٍ.
قَالَ النَّاطِقُ بِالْمَفْقُودِينَ:
- حِينَ يَنْهَزِمُ اللَّيْلُ، نَنْهَزِمْ مَعَهُ، فَالنَّهَارُ يَفْضَحُنَا، وَيَحْرِمُنَا مِنْ طُقُوسِنَا.
لِهَذَا يَقْتُلُونَ الْفَجْرَ حِينَ يَتَأَخَّرُ الْعَابِرُونَ.
وَتَنْسَلِخُ الذِّئَابُ عَنْ جُلُودِهَا الْقَدِيمَةِ، وَتَشُدُّ عَضَلَاتِهَا، وَتَسْتَنْشِقُ الظِّلَالَ، فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مَعْبَدًا مَفْتُوحًا، وَالسَّمَاءُ سَقْفًا يُشْبِهُ أَسْلَاكَ الْأَسَاطِيرِ.
عِنْدَئِذٍ تَتَجَمَّعُ الذِّئَابُ حَوْلَ نُقْطَةٍ مَرْكَزِيَّةٍ فِي الْأَرْضِ الْحَرَامِ.
يَرْفَعُ أَحَدُهُمْ رَأْسَهُ عَالِيًا وَيَصِيحُ:
- أَيُّهَا الْعَابِرُونَ الْقَادِمُونَ... ارْسُمُوا خُطُوَاتِكُمْ عَلَى الرِّيحِ.
- ررررر... ي ي ي... ح ح ح ح...
فَيَرُدُّ الْقَطِيعُ بِعُوَاءٍ طَوِيلٍ، كَأَنَّ الْأَرْضَ نَفْسَهَا تُصَفِّقُ بِخِفَّةٍ.

**جُوقَةُ ظِلَالِ الذِّئَابِ:**
- كُلُّ عَابِرٍ يَحْمِلُ جَسَدًا وَرُوحًا، وَنَحْنُ نَقْرَأُ خَرِيطَةَ قَلْبِهِ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ.
مَنْ أَخْطَأَ خُطْوَةً نُعَلِّمْهُ الطَّرِيقَ، وَمَنْ ضَلَّ نَفْتَرِسْهُ لِنُعِيدَهُ إِلَى الْوَاقِعِ...
نَحْنُ الَّذِينَ نَحْرُسُ الْحُدُودَ، وَنَضْبِطُ الْوَقْتَ بَيْنَ الْهُرُوبِ وَالْمَوْتِ.
الْعَابِرُونَ هُمُ الْكُتُبُ الْمَفْتُوحَةُ، وَنَحْنُ الْحِبْرُ وَالْأَسْطُرُ.

## اللَّوْحُ الثَّانِي - صَلَوَاتُ الْقَطِيعِ

تَسِيرُ الذِّئَابُ صُفُوفًا حَوْلَ الْعَابِرِ، فَكُلُّ خُطْوَةٍ خَاطِئَةٍ تُفَسَّرُ بِعُوَاءٍ مُحَدَّدٍ، وَكُلُّ خُطْوَةٍ صَحِيحَةٍ يُنْشَدُ لَهَا نَشِيدُ حَفِيفِ الرِّيحِ.

أَمَّا الْعَابِرُ الَّذِي يَنْجُو، فَيُكْتَبُ اسْمُهُ عَلَى خَرَائِطَ مَخْفِيَّةٍ فِي الرِّمَالِ.

وَهَذِهِ صَلَوَاتُ الْقَطِيعِ:

1- يَا رَائِحَةَ الْعَابِرِينَ، دُلِّينَا عَلَى الطَّرِيقِ، فَالْعُوَاءُ جَائِعٌ، وَالصَّمْتُ طَوِيلٌ.

2- يَا ظِلَّ الْأَبِ، احْمِ أَبْنَاءَكَ مِنْ أَنْيَابِنَا، فَنَحْنُ لَا نَرَى سِوَى الْجَسَدِ.

3- يَا بَحْرَ الْمَخَافِرِ، اخْفِضْ أَمْوَاجَكَ كَيْ نَسْمَعَ وَقْعَ الْخُطَى الْهَارِبَةِ.

4- يَا شَمْسَ الْحُدُودِ، أَطْفِئِي حِدَّتَكِ قَلِيلًا، فَالضَّوْءُ يُحْرِقُ خَرَائِطَ الْفِرَارِ.

## اللَّوْحُ الثَّالِثُ - طَقْسُ الِارْتِبَاطِ بِاللَّيْلِ

يَرْفَعُ الْقَطِيعُ رُؤُوسَهُ وَيَعْوِي سَوِيًّا، فَالْعُوَاءُ يُتَرْجِمُ الطَّرِيقَ لِلْعَابِرِينَ الْمُقْتَرِبِينَ.

كُلُّ صَوْتٍ يُعَلِّمُ خُطْوَةً، وَكُلُّ صَمْتٍ يَخْتَبِرُ قَلْبَ الْعَابِرِ.

اللَّيْلُ هُوَ الْكَاهِنُ الْأَعْظَمُ، يَحْرُسُ الْخُطَى أَكْثَرَ مِنْ أَيِّ قَانُونٍ، وَيُعَلِّمُ الذِّئَابَ أَنَّ كُلَّ خُطْوَةٍ خَاطِئَةٍ تَصِيرُ ذِكْرَى، وَأَنَّ كُلَّ ذِكْرَى تُكْتَبُ فِي الرِّيحِ لِتَغْدُوَ نُبُوءَةً.

تَجْلِسُ الذِّئَابُ عَلَى أَطْرَافِ دَائِرَةٍ، وَتَضَعُ أُنُوفَهَا عَلَى الْأَرْضِ، وَتَتَنَفَّسُ بِصَوْتٍ عَمِيقٍ.

ثُمَّ تُنْشِدُ جَمِيعُهَا:

**جُوقَةُ ظِلَالِ الذِّئَابِ:**

- يَا بَحْرَ الْمَخَافِرِ، وَيَا شَمْسَ الْحُدُودِ، احْفَظَا الْعَابِرِينَ، فَنَحْنُ نَعْرِفُ طَرِيقَ الْخَوْفِ، وَنَكْشِفُهُ لَهُمْ.

**اللَّوْحُ الرَّابِعُ - نَشِيدُ الْقِيَامَةِ الْحُدُودِيَّةِ**

يَوْمُ الْقِيَامَةِ لَيْسَ نِهَايَةً، إِنَّهُ عُبُورٌ كُلِّيٌّ، تَتَقَاطَعُ فِيهِ كُلُّ الطُّرُقِ، وَتَتَوَحَّدُ خُطَى الْعَابِرِينَ مَعَ عُوَاءِ الذِّئَابِ.

عِنْدَئِذٍ تَتَهَاوَى الْمَخَافِرُ كَالْأَقْنِعَةِ، وَتُصْبِحُ الْأَرْضُ خَرِيطَةً لِلْجَمِيعِ.

**جُوقَةُ ظِلَالِ الذِّئَابِ:**

- نَحْنُ الَّذِينَ عَبَرُوا، وَالَّذِينَ ابْتَلَعَتْهُمُ الظِّلَالُ.

نَحْنُ الْحُرَّاسُ وَالضَّوْءُ.

نَحْنُ الْحُدُودُ الَّتِي تَحَرَّرَتْ مِنْ نَفْسِهَا، وَالسَّمَاءُ الَّتِي صَارَتْ مَمَرًّا.

**اللَّوْحُ الْخَامِسُ – نُبُوءَةُ الْمَلَاكِ الْأَعْمَى**

قَالَ الْمَلَاكُ الْأَعْمَى:

- الْحَدْسُ هُوَ الْبُوصَلَةُ الْأَخِيرَةُ، لَا السَّلَاسِلُ وَلَا الشَّمْسُ.

إِنْ أَرَادَ الْعَابِرُ أَنْ يَعْرِفَ النِّهَايَةَ، فَلْيَنْظُرْ إِلَى دَاخِلِ قَلْبِهِ، فَالْحُدُودُ الْحَقِيقِيَّةُ هُنَاكَ، وَالضَّوْءُ الْحَقِيقِيُّ أَيْضًا. [44]

**جُوقَةُ ظِلَالِ الذِّئَابِ:**

- الَّذِينَ سَلَكُوا الطَّرِيقَ لَنْ يَعُودُوا أَبَدًا كَمَا كَانُوا، وَلَنْ يَحْتَاجُوا إِلَى الْخَرَائِطِ، لِأَنَّهُمْ صَارُوا خَرَائِطَ فِي ذَوَاتِهِمْ.

---

[44]- **هَامِشُ الْعُمْيَانِ الَّذِينَ رَأَوْا أَكْثَرَ مِمَّا يَجِبُ**

(الْعُمْيَانُ لَيْسُوا بِلَا بَصَرٍ... إِنَّمَا أَبْصَرُوا مَا لَا يُحْتَمَلُ، فَأَطْفَأَ النُّورُ نَفْسَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ)

**الْهَامِشُ الْمُخْفِيُّ دَاخِلَ الْهَامِشِ:**

(لَيْسَ كُلُّ مَنْ يَرَى مُبَارَكًا... أَحْيَانًا تَكُونُ الرُّؤْيَا لَعْنَةً أَزَلِيَّةً).

## الْمِيمَرُ الثَّالِثُ

## كِتَابُ النُّبُوءَاتِ - انْهِيارُ الْحُدُودِ وَعَوْدَةُ الضَّوْءِ

(حَيْثُ تَظْهَرُ النُّبُوءَاتُ الْكُبْرَى، وَعَوْدَةُ الْهَارِبِينَ، وَلَحْظَةُ التَّلَاقِي بَيْنَ الذِّئَابِ وَالْحُدُودِ وَالْعَابِرِينَ)

### اللَّوْحُ الْأَوَّلُ – وِلَادَةُ الْأُفُقِ الْجَدِيدِ

حِينَ تَتَصَدَّعُ الشَّمْسُ فَوْقَ الْمَخَافِرِ، وَيَنْحَنِي الْبَحْرُ لِيَلْتَقِطَ أَنْفَاسَ الْعَابِرِينَ، يُفْتَحُ كِتَابُ النُّبُوءَاتِ، وَتُكْشَفُ الْحَقِيقَةُ:

إِنَّ الْحُدُودَ لَيْسَتْ حَجَرًا، وَإِنَّ الْأَسْلَاكَ خُطُوطٌ وَهْمِيَّةٌ عَلَى جَسَدِ الْأَرْضِ.

**جُوقَةُ ظِلَالِ الذِّئَابِ:**

- لَقَدِ انْتَظَرْنَا هَذِهِ اللَّحْظَةَ، اللَّحْظَةَ الَّتِي يَجْرُؤُ فِيهَا الْعَابِرُونَ عَلَى الضَّوْءِ، وَتَصْمُتُ الظِّلَالُ، وَيَبْتَسِمُ اللَّيْلُ.

### اللَّوْحُ الثَّانِي - سَيِّدُ الظِّلَالِ

قَالَ سَيِّدُ الظِّلَالِ:

- كُلُّ خُطْوَةٍ نَجَتْ مِنْ أَفْوَاهِنَا صَارَتْ نِبْرَاسًا لِمَنْ تَبَقَّى.

وَكُلُّ عَابِرٍ تَعَلَّمَ مِنَّا سَيُصْبِحُ خَرِيطَةً حَيَّةً، يَحْمِلُ الضَّوْءَ فِي دَاخِلِهِ، وَيَكْسِرُ قُيُودَ الظِّلِّ وَالْحُدُودِ.

### اللَّوْحُ الثَّالِثُ – نُبوءَةُ الْعَوْدَةِ

* تَرْفَعُ الذِّئَابُ رُؤُوسَهَا نَحْوَ الْعَابِرِينَ.

* تَهْمِسُ الرِّيحُ بِمَا يُشْبِهُ كَلِمَاتٍ لَا تُفْهَمُ.
* كُلُّ هَمْسَةٍ تُحَوِّلُ خَوْفَ الْعَابِرِ إِلَى رُؤْيَا.
* وَتَتَنَفَّسُ السَّمَاءُ مَعَهُ.
* وَتَظْهَرُ بَوَّابَةُ الْأُفُقِ الْجَدِيدِ.
* وَيَتَسَلَّلُ الضَّوْءُ كَأَنَّهُ يَعْرِفُ طَرِيقَ الْهَارِبِينَ.

**اللَّوْحُ الرَّابِعُ - رُؤْيَا النِّهَايَةِ**

حِينَ يَنْتَهِي الطَّقْسُ، تَخْتَفِي الذِّئَابُ فِي الظِّلَالِ، وَتَتْرُكُ الْأَرْضَ هَادِئَةً، لَكِنَّهَا مَشْحُونَةٌ بِالْمَعْرِفَةِ.

أَمَّا الْعَابِرُ الَّذِي نَجَحَ، فَيَحْمِلُ طَقْسًا دَاخِلِيًّا، وَأَمَّا الْعَابِرُ الَّذِي أَخْفَقَ، فَيُصْبِحُ ذِكْرَى فِي عُوَاءِ اللَّيْلِ.

وَبِالِاقْتِرَابِ مِنْ رُؤْيَا النِّهَايَةِ، تَتَصَدَّعُ الْحُدُودُ، وَتَخْمُدُ نِقَاطُ التَّفْتِيشِ، وَتَذُوبُ الْمَعَادِنُ الَّتِي صُنِعَتْ مِنْهَا الْأَسْلَاكُ.

وَتَخْرُجُ الذِّئَابُ مِنْ جُلُودِهَا، كَأَنَّهَا تَخْلَعُ خَطِيئَةَ الْقُرُونِ.

وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ الْحَرَامُ لِتُخْرِجَ عَابِرِينَ كَانُوا رَمَادًا، وَرَمَادًا صَارَ طَرِيقًا، وَطَرِيقًا صَارَ وَطَنًا.

وَحِينَ يَعُودُ إِيكَارُ فِي هَيْئَةِ ضَوْءٍ مُعَادٍ مِنَ الْبَحْرِ، تَعْوِي الذِّئَابُ، لَا افْتِرَاسًا هَذِهِ الْمَرَّةَ، وَإِنَّمَا تَرْحِيبًا بِالْعَابِرِ.

وَيُخْتَمُ هَذَا اللَّوْحُ بِالْعِبَارَةِ الْآتِيَةِ:

- لَقَدْ تَحَوَّلَتِ الْحُدُودُ، وَتَحَوَّلْنَا مَعَهَا.

**اللَّوْحُ الْخَامِسُ – الْعُبُورُ النِّهَائِيُّ**

حِينَ يَخْطُو الْعَابِرُ الْأَخِيرُ، تَنْكَسِرُ قُيُودُ الشَّمْسِ، وَيَرْتَفِعُ الْبَحْرُ كَسِتَارٍ مِنْ فِضَّةٍ.

وَتَصْطَفُّ الذِّئَابُ عَلَى الْأَطْرَافِ، وَتَرْقُصُ عَلَى وَقْعِ الْخُطَى، وَتَكْتُبُ عَلَى الْأَرْضِ قِصَّةَ النَّجَاةِ الْكُبْرَى، وَهِيَ تَرْفَعُ آخِرَ عُوَاءٍ:

* الْأَرْضُ تَسْتَعِيدُ صَمْتَهَا.
* السَّمَاءُ تَهْبِطُ قَلِيلًا لِتَشْعُرَ أَنَّ الْحُدُودَ كَانَتْ حَيَّةً.
* الْعَابِرُونَ يَرْكُضُونَ فِي صَمْتٍ.
* الذِّئَابُ تَعْوِي بِصَوْتٍ وَاحِدٍ.
* الشَّمْسُ تَخْفُتُ.
* وَالْحُدُودُ تَتَلَاشَى.



**(خَتْم)**

هَكَذَا يَكْتَمِلُ طَقْسُ الِافْتِرَاسِ اللَّيْلِيِّ...

الِافْتِرَاسُ تَحَوَّلَ إِلَى تَعْلِيمٍ، وَالظَّلَامُ صَارَ نُورًا، وَالْحُدُودُ تَلَاشَتْ،

وَالْعَابِرُونَ أَصْبَحُوا خَرَائِطَ حَيَّةً.

وَيَسْتَعِدُّ الْقَطِيعُ لِلْوَلِيمَةِ الْقَادِمَةِ،

أَوْ لِامْتِحَانِ الْعَابِرِينَ الْجَدِيدِ.

وَتَبْدَأُ الْمَلْحَمَةُ مِنْ جَدِيدٍ.

# ١٣

# النَّشِيدُ الثَّالِثُ عَشَرَ

## (مِنْ مَخْطُوطَةِ أَنَاجِيلِ الظِّلَالِ الْعَالِقَةِ بَيْنَ الْحُدُودِ)

مَزْمُور

### (1)
### السُّقُوطُ وَمِنْدِيلُ الْعَابِرِينَ

آهِ... يَا عَابِرَ الرُّؤْيَا، يَا صَوْتَ الرَّمْلِ حِينَ يَفْقِدُ ظِلَّهُ،
يَا شَهْقَةَ الْجَبَلِ وَهُوَ يُسَلِّمُ أَسْمَاءَهُ لِرِيحٍ لَا تَعْرِفُ الرَّحْمَةَ.
لَقَدْ جِئْتُ بِأَسْمَالِي الرَّثَّةِ، وَبِحَصِيرِ أَيَّامِي الْيَابِسَةِ، أَتَضَرَّعُ عِنْدَ مَوْتِكَ، يَا مَنْ سَبَقْتَ دَقَّاتِ قَلْبِكَ إِلَى الْهَرَبِ، يَا مَنْ رَكَضْتَ حَتَّى صَارَ الْهَوَاءُ سَجَّادَةً تَفْرُشُهَا الْمَلَائِكَةُ تَحْتَ قَدَمَيْكَ الْمُنْفَلِتَتَيْنِ.
أَرَأَيْتَ؟
حَوْلَكَ الْآنَ عَسْكَرٌ وَذِئَابٌ، وَجُوقَاتٌ مِنَ الْمَوْتِ تَتَقَدَّمُ كَأَنَّهَا قُدَّاسُ آخِرِ اللَّيْلِ.
كُلَّمَا الْتَفَتَّ إِلَى الْأَرْضِ لَمْ تَرَ غَيْرَ الْعَسْكَرِ، وَجِبَاهُهُمْ كَالْمَدَافِنِ الْخَرْسَاءِ.
وَكُلَّمَا خَطَوْتَ، لَمْ تَسْمَعْ غَيْرَ الذِّئَابِ مَرِحَةً فِي حُضُورِهَا الْغَرِيبِ، كَأَنَّهَا تَضْحَكُ مِنْ لَحْمِكَ قَبْلَ أَنْ تَذُوقَهُ.
أَرَأَيْتَ؟
أَرَأَيْتَ طُيُورًا تَعْبُرُ مِثْلَكَ، وَأَنْهَارًا تَعْبُرُ لِتَفْقِدَ جَسَدَهَا فِي صَمْتِ الْمَمَرَّاتِ؟
أَرَأَيْتَ الْبَحْرَ؟
كَانَ يَجْرِي هُوَ أَيْضًا كَيْ يُضَيِّعَ جَسَدَهُ، وَيَجْعَلَ مِنْ مَوْجِهِ أَكْفَانًا شَفِيفَةً لِلشُّهَدَاءِ.
بِاللَّهِ... بِاللَّهِ عَلَيْكَ أَيُّهَا الْعَابِرُ،
إِنَّ الْأُفُقَ يَدْعُوكَ، غَيْرَ أَنَّ رِجْلَيْكَ لَمْ تَعُودَا تَقْوَيَانِ عَلَى حَمْلِكَ.
فَقِفْ...
قِفْ فِي مَكَانِكَ، أَيُّهَا الْعَابِرُ.
وَلَكِنْ... قَبْلَ أَنْ تَسْقُطَ الْمُفَاجَأَةُ مِنْ يَدِي، وَقَبْلَ أَنْ يُثَرْثِرَ الْقَلْبُ بِمَا ادُّخِرَ لَهُ،
سَأَسْرُدُ عَلَيْكَ الْعُبُورَ، يَا مَنْ جَعَلْتَنِي شَاهِدًا حِينَ خَانَتِ الشَّهَادَةُ نَفْسَهَا.
اقْبَلْنِي كَمَا يُقْبَلُ الدَّاخِلُ إِلَى الْهَيْكَلِ:

عَارِفًا أَنَّهُ مَنْظُورٌ إِلَيْهِ قَبْلَ أَنْ يَنْظُرَ.
قِفْ...
قِفْ...
فَبَيْنَ مَوْتٍ مُبَاحٍ كَالصَّبَاحِ، وَسَاعَةٍ تُشْحَذُ فِيهَا السَّكَاكِينُ،
وَبَيْنَ غُيُومٍ تَحْمِلُ أَغْمِدَةً، وَجَسَدٍ تُمَزِّقُهُ أَنْيَابٌ وَرَصَاصٌ،
وَبَيْنَ طُيُورٍ تَسْقُطُ صَرْعَى، وَسَوَادِ اللَّيَالِي الْمُظْلِمَةِ،
وَبَيْنَ وُقُوفِكَ، يَا إِيكَارُ، مُتَرَدِّدًا عَلَى حَافَّةِ السُّقُوطِ، وَصَرْخَةِ الصَّمْتِ الْمُدَوِّيَةِ،
وَبَيْنَ اقْتِرَابِ الْعَسْكَرِ، وَعُوَاءِ الذِّئَابِ،
هُنَالِكَ...
مَجْزَرَةٌ لَا تُرَى إِلَّا بِعَيْنِ مَنْ فَقَدَ اسْمَهُ.

أَرَدْتُ أَنْ أَبْدَأَ مِنَ النِّهَايَةِ، لِأَنَّ النِّهَايَةَ لَيْسَتْ خَاتِمَةً، إِنَّهَا اتِّجَاهٌ.
وَقُلْتُ:
الْتَقِطْ صُورَةً.
لِأَنَّ الصُّورَةَ تَنْطِقُ دُونَ صَوْتٍ، وَتَسْأَلُنِي بِمَا لَا يُسْأَلُ:
مَاذَا فَعَلْتَ بِاللَّحْظَةِ حِينَ سَلَّمَتْكَ نَفْسَهَا كَامِلَةً؟
لِمَاذَا تَرَكْتَ الزَّمَنَ يَمُرُّ دُونَ أَنْ تَعْتَرِفَ بِهِ؟
أَكْشِفُ أَمَامَهَا مَلَامِحِي...
أَكْشِفُ فَرَاغَاتِهَا:
مَا قُطِعَ مِنَ الْجَسَدِ،
وَمَا سَقَطَ مِنَ الذَّاكِرَةِ،
وَمَا لَمْ يَسْمَحْ لَهُ الضَّوْءُ أَنْ يَكُونَ دَلِيلًا.
أَعْتَرِفُ:
كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ الزَّمَنَ يُسْتَهْلَكُ، وَلَمْ أَعْرِفْ أَنَّهُ يُؤَرْشَفُ.
وَكُنْتُ أَعِيشُ كَأَنَّ الْأَثَرَ صُدْفَةٌ، لَا مَسْؤُولِيَّةٌ.
هَا هُوَ وَجْهِي وَقَدْ صَارَ وَثِيقَةً،
وَهَا هِيَ نَظْرَتِي وَقَدْ صَارَتْ سُؤَالًا تَارِيخِيًّا.
الصُّورَةُ لَا تَتَّهِمُ، لَكِنَّهَا لَا تَنْسَى.
وَقُلْتُ:

سَأَسْرُدُ الْغُفْرَانَ.
غَيْرَ أَنَّ الْغُفْرَانَ لَا يَأْتِي مِنَ السَّمَاءِ...
إِنَّهُ يَأْتِي مِنَ التَّسْمِيَةِ.
أَنْ يُقَالَ لِلزَّمَنِ:
لَقَدْ رَأَيْنَاكَ.
وَقُلْتُ:
سَأَسْرُدُ الْبِدَايَةَ.
لَكِنَّ الْحِكَايَةَ لَيْسَتِ الْحِكَايَةَ ذَاتَهَا إِنْ رُوِيَتْ مَسَاءً أَوْ صَبَاحًا.
وَلَيْسَتْ هِيَ نَفْسَهَا إِنْ رَوَاهَا رَجُلٌ أَوْ رَوَتْهَا امْرَأَةٌ.
فَلِمَاذَا تَتَغَيَّرُ الْحِكَايَةُ حِينَ يَتَغَيَّرُ الْمُنْشِدُونَ؟
كَمْ هِيَ عَذْبَةٌ حِينَ يُنْشِدُهَا الْعَذْبُ،
وَكَمْ هِيَ يَائِسَةٌ حِينَ يُنْشِدُهَا الْيَائِسُ.
لَمْ تَكُنِ الْحِكَايَةُ نَفْسَهَا فِي السَّهْلِ،
وَلَا فِي الْجَبَلِ،
وَلَا فِي الْغَابَةِ،
وَلَا فِي الْبَحْرِ...
فَلِمَاذَا تَتَبَدَّلُ؟
وَلِمَاذَا، كُلَّمَا سَرَدْتُ الْبِدَايَةَ، تَبَدَّلَتِ النِّهَايَةُ فِي ذِهْنِي؟
غَيْرَ أَنِّي، أَنَا الْفُوتُوغْرَافِيُّ الَّذِي يَلْتَقِطُ ظِلَّ الرُّوحِ لَا ظِلَّ الْجَسَدِ، لَمْ أَدَّعِ دَوْرًا، وَلَمْ أَدَّعِ جَمَالًا فِي صُوَرِي.
إِنَّمَا أُصْلِحُ أَمْرَ الْحِكَايَةِ،
وَأُهَيِّئُ لِلْحَوَادِثِ رُقَاهَا،
وَلِلسِّحْرِ لَوَازِمَهُ،
وَلِلْكَلِمَاتِ مَوَاضِعَهَا.
كَضَارِبٍ عَلَى صُنُوجِ الصَّمْتِ،
كَشَقِيٍّ يَبْكِي مَعَابِدَ سَقَطَتْ،
وَمَوَاقِدَ تَبَعْثَرَتْ،
وَآبَاءَ احْتَرَقُوا،
وَآلِهَةً تَفَرَّقَتْ،

وَمَبَاهِجَ اخْتَلَطَتْ بِأَجْرَامٍ وَقُبُورٍ.
وَهَا أَنَا، فِي آخِرِ السَّطْرِ، أَسْتَدْعِي دُمُوعِي إِلَى مَكَانٍ آخَرَ.
وَتَأْمُرُنِي أَقْدَارِي أَنْ أَبْكِيَ عَلَى مَوَاجِعَ أَعْمَقَ:
عَلَى كِتَابٍ لَمْ يُفْتَحْ،
وَعَلَى رُوحٍ تَرْكُضُ وَلَا تَصِلُ.

# إِصْحَاحُ 18

## ظُهُورُ الطِّفْلِ الدَّاخِلِيِّ

**(مِنْ كِتَابِ الطُّفُولَةِ الْمَفْقُودَةِ وَالذَّاكِرَةِ)**

*__الطِّفْلُ الدَّاخِلِيُّ__: طِفْلٌ صَغِيرٌ يَتَعَثَّرُ بَيْنَ الصُّخُورِ، وَيَرْكُضُ فِي الظِّلِّ، وَيَحْمِلُ كِيسًا صَغِيرًا مِنَ الْأَحْلَامِ، وَيَسْرِقُ مِنَ الطَّرِيقِ مَا يَسْتَطِيعُ حَمْلَهُ. هُوَ انْعِكَاسُ إِيكارَ فِي أَصْغَرِ أَحْلَامِهِ، وَصُورَةُ الْبَرَاءَةِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْعَتَمَةِ.

*__الْغَيْمَةُ الْمُهَاجِرَةُ__: مِرْآةُ الْخَيَالِ وَالتَّحَوُّلِ. غَيْمَةٌ تَنْسَابُ فَوْقَ الْهَارِبِينَ، كَأَنَّهَا تَحْمِلُ ذِكْرَيَاتِ الْمَطَرِ وَالسَّمَاءِ. وَأَحْيَانًا تُلْقِي بِظِلِّهَا عَلَى الطَّرِيقِ، فَتَخْتَلِطُ الْأَرْضُ بِالسَّمَاءِ، وَالْحُرِّيَّةُ بِالْمَخَاوِفِ.

*__ظِلُّ الْأَبِ__: يَتْبَعُ إِيكارَ مِنْ بَعِيدٍ، وَلَا يَظْهَرُ إِلَّا فِي طَرَفِ النَّظَرِ، وَفِي الصَّمْتِ الْمُمْتَدِّ بَيْنَ النَّفَسِ وَالْخَوْفِ. وَهُوَ هُنَا يَضْطَلِعُ بِدَوْرِ السَّارِدِ.

*__الْمَلَاكُ الْأَعْمَى__: يَظْهَرُ فَجْأَةً، وَيَعْصِبُ عَيْنَيْهِ بِخِرْقَةٍ مِنْ نُورٍ خَافِتٍ، وَيَمْشِي بَيْنَ الْهَارِبِينَ كَأَنَّهُ يَرَى بَصَمَاتِهِمْ عَلَى الْهَوَاءِ.

**ظِلُّ الْأَبِ** (هَمْسٌ دَاخِلِيٌّ): كَانَ الْبَيْتُ مَبْنِيًّا مِنْ طِينٍ [45] يُشْبِهُ صَمْتَ الْأُمَّهَاتِ، وَكَانَ الضَّوْءُ يَتَسَلَّلُ مِنَ الشُّقُوقِ كَمَا يَتَسَلَّلُ الْأَمَلُ إِلَى أَصَابِعِ طِفْلٍ يَخْتَبِرُ، لِلْمَرَّةِ الْأُولَى، مَعْنَى أَنْ يُولَدَ فِي ظِلِّ الْحُدُودِ...

كَانَ إِيكارُ الصَّغِيرُ يُقَلِّبُ حَفْنَةَ تُرَابٍ بَيْنَ كَفَّيْهِ، كَأَنَّهَا خَرِيطَةٌ لِمُدُنٍ مَغْمُورَةٍ تَحْتَ الْجِلْدِ، أَوْ ذَاكِرَةٌ تُحَاوِلُ أَنْ تَتَشَكَّلَ قَبْلَ أَنْ يَسْرِقَهَا الْفَحْصُ الْأَوَّلُ لِرِجَالِ الْحُدُودِ.

**الطِّفْلُ الدَّاخِلِيُّ** (مُنَاجَاةٌ): أَيَّتُهَا الْغَيْمَةُ الْمُهَاجِرَةُ... كَيْفَ يَنْمُو الضَّوْءُ فِي قَلْبِ طِفْلٍ إِذَا كَانَ اللَّيْلُ جِدَارًا لَا نَافِذَةَ فِيهِ؟ وَكَيْفَ يَعْرِفُ الطَّرِيقَ مَنْ لَمْ يَسْمَعْ سِوَى خُطُوَاتِ الْعَابِرِينَ هَرَبًا مِنْ وَطَنٍ يَضِيقُ كُلَّمَا اتَّسَعَتِ السَّمَاءُ؟

**الْغَيْمَةُ الْمُهَاجِرَةُ** (حُضُورٌ خَافِتٌ): يَكْفِي، يَا صَغِيرِي، أَنْ تَضَعَ قَدَمَكَ الْأُولَى. فَالْخُطْوَةُ بَرِيئَةٌ، حَتَّى حِينَ يَكُونُ الْعَالَمُ مُلَوَّثًا بِالْخَوْفِ. اجْمَعْ هَذَا التُّرَابَ، فَفِيهِ بَقِيَّةُ آبَائِكَ، وَفِيهِ جَذْرُ الرَّكْضِ، وَفِيهِ سِرُّ الْجَنَاحَيْنِ الَّذِي لَمْ يُكْشَفْ بَعْدُ.

**ظِلُّ الْأَبِ**: كَانَ الطِّفْلُ مِرْآةَ الْبَرَاءَةِ، يَسْكُنُ الْأَزِقَّةَ كَقَطْرَةِ مَطَرٍ رَفَضَتْ أَنْ تَسْقُطَ. وَكَانَ يَحْمِلُ كِيسًا صَغِيرًا، لَا يَعْرِفُ أَحَدٌ مَاذَا فِيهِ:

أَخُبْزٌ مَسْرُوقٌ؟

أَمْ أَلْعَابٌ لِضَحِكَاتٍ انْكَسَرَتْ؟

أَمْ بَقَايَا طَرِيقٍ اسْتَرَاحَ فِيهِ الْهَارِبُونَ؟

---

45- **هَامِشُ طِينِ الْآلِهَةِ**

(مِنَ الطِّينِ صُنِعَتِ الْآلِهَةُ الْأُولَى... لَا الْبَشَرُ)

**الْهَامِشُ الْمُخْفِيُّ دَاخِلَ الْهَامِشِ**:

(احْذَرْ حِينَ تُمْسِكُ بِالطِّينِ... فَقَدْ تُمْسِكُ بِوَجْهٍ رَبَّانِيٍّ).

**الطِّفْلُ الدَّاخِلِيُّ** (أُغْنِيَةٌ خَافِتَةٌ): أَنَا الَّذِي لَمْ يَصْنَعْ لَهُ أَحَدٌ بَابًا، فَصَنَعْتُ لِنَفْسِي طَرِيقًا. كُلُّ مَا أَحْمِلُهُ لَيْسَ لِي، لَكِنَّنِي أَحْمِلُهُ كَيْ لَا أَتَوَقَّفَ. كَيْ لَا أَمُوتَ مِنَ الثَّبَاتِ. وَكَيْ أَعْرِفَ أَنَّ الدُّنْيَا لَيْسَتْ سِوَى خَطٍّ طَوِيلٍ يَنْتَهِي عِنْدَ حُدُودٍ لَا نَرَاهَا إِلَّا حِينَ نَرْتَطِمُ بِهَا.

**إيكار** (يَنْظُرُ إِلَى الطِّفْلِ الدَّاخِلِيِّ): أَرَى فِيكَ نَفْسِي بَعْدَ عِشْرِينَ جُرْحًا، وَبَعْدَ مِئَةِ خُطْوَةٍ سَتُزْرَعُ فِي الرَّمْلِ، وَبَعْدَ أَلْفِ سُؤَالٍ لَنْ يُجِيبَ عَنْهُ أَحَدٌ...

أَنْتَ...

أَنْتَ الَّذِي يَسْبِقُنِي فِي الظِّلِّ، كَأَنَّكَ تَجُرُّ ضَوْءًا لَا يُرَى.

هَلْ تَحْمِلُ أَحْلَامَكَ؟ أَمْ تَحْمِلُ أَحْلَامِي قَبْلَ أَنْ أَكْبَرَ؟

**الطِّفْلُ الدَّاخِلِيُّ** (يَبْتَسِمُ كَمَنْ يَعْرِفُ مَا لَا يُقَالُ): أَحْمِلُ مَا يَسْقُطُ مِنْ جُيُوبِ الْآخَرِينَ، وَأَحْمِلُ أَيْضًا مَا قَدْ يَسْقُطُ مِنْ جَيْبِكَ يَوْمًا.

أَنَا مِرْآتُكَ [46]، لَكِنَّنِي أَصْغَرُ مِنْ أَنْ أُخْبِرَكَ كَيْفَ تَنْكَسِرُ الْمِرْآةُ.

**ظِلُّ الْأَبِ**: كَانَ ظِلِّي يَمْتَدُّ عَلَى الْجِدَارِ أَطْوَلَ مِنْ جَسَدِي، كَأَنَّ الْأَرْوَاحَ تَكْبُرُ حِينَ تَرْحَلُ، وَكَأَنَّ مَوْتَى الْحُدُودِ لَا يَمُوتُونَ حَقًّا... إِنَّهُمْ يَتَحَوَّلُونَ إِلَى عَلَامَاتٍ تُرْشِدُ الْهَارِبِينَ.

(بِهَمْسٍ يَخْرُجُ مِنْ قَلْبِ الْحِجَارَةِ)

يَا بُنَيَّ...

لَا تَرْكُضْ لِأَنَّكَ خَائِفٌ،

---

[46]- **هَامِشُ الْمَرَايَا الْمَلْعُونَةِ**

(الْمَرَايَا لَا تَعْكِسُ الْوُجُوهَ... إِنَّهَا تَعْكِسُ مَا كَانَتِ الْوُجُوهُ تَخْشَاهُ)

**الْهَامِشُ الْمُخْفِيُّ دَاخِلَ الْهَامِشِ:**

(كُلُّ مِرْآةٍ كَاهِنَةٌ... وَكُلُّ مَنْ يَنْظُرُ فِيهَا مُسَلَّمٌ إِلَى الطَّقْسِ).

ارْكُضْ لِأَنَّكَ تُدْرِكُ أَنَّ الطَّرِيقَ الَّذِي يَطْرُدُكَ هُوَ الطَّرِيقُ نَفْسُهُ الَّذِي سَيَمْنَحُكَ جَسَدًا جَدِيدًا.

أَنَا ظِلُّكَ،

وَلَسْتُ جِدَارًا.

وَلَسْتُ أَسْوِرَةً تُرَاقِبُكَ.

أَنَا الَّذِي بَقِيَ كَيْ لَا يَبْقَى أَحَدٌ آخَرُ.

**إيكار** (مُضْطَرِبًا): هَلْ رَأَيْتَنِي حِينَ وَقَعْتُ أَوَّلَ مَرَّةٍ؟ حِينَ ارْتَجَفْتُ؟ حِينَ بَكَيْتُ دُونَ صَوْتٍ؟

**ظِلُّ الْأَبِ:** رَأَيْتُكَ، لَكِنَّنِي لَمْ أَمْلِكْ أَنْ أَحْمِلَكَ. فَالْآبَاءُ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ لَا يَحْمِلُونَ أَبْنَاءَهُمْ، إِنَّهُمْ يَحْمِلُونَ أَسْمَاءَهُمْ فَقَطْ إِلَى قُبُورٍ لَمْ تُكْتَبْ بَعْدُ.

(يَظْهَرُ الْمَلَاكُ الْأَعْمَى كَأَنَّهُ خَرَجَ مِنْ صَفْحَةٍ قَدِيمَةٍ فِي دَفْتَرِ الْفُوتُوغْرَافِيِّ الْعَجُوزِ. يَمْشِي بِثِقَةٍ، كَأَنَّهُ يَرَى مَا لَا يُرَى، أَوْ يَعْرِفُ الطَّرِيقَ الَّذِي لَمْ يَكْتُبْهُ أَحَدٌ).

**الْمَلَاكُ الْأَعْمَى:** أَيُّهَا الطِّفْلُ الَّذِي يَسْكُنُهُ رَجُلٌ، وَأَيُّهَا الرَّجُلُ الَّذِي يَسْكُنُهُ طِفْلٌ،

إِنَّ الطُّفُولَةَ جُرْحٌ يَمْشِي مَعَكَ حَتَّى آخِرِ حُدُودِ جَسَدِكَ. فَلَا تَهْرُبْ مِنْهَا،

فَمَنْ يَهْرُبُ مِنْ ذَاكِرَتِهِ يَصِرْ وَرَقَةً بَيْضَاءَ يَكْتُبُ عَلَيْهَا غَيْرُهُ.

**إيكار:** هَلْ يُولَدُ الْهَارِبُونَ مِنْ جَدِيدٍ؟

أَمْ أَنَّنَا نَظَلُّ أَطْفَالًا نَهْرُبُ مِنْ غُرْفَةٍ إِلَى أُخْرَى فِي بَيْتٍ أَكْبَرَ قَلِيلًا مِنْ خَوْفِنَا؟

**الْمَلَاكُ الْأَعْمَى:** يُولَدُونَ. وَيَكْبُرُ فِيهِمُ الضَّوْءُ حَتَّى يُعْمِيَ الشَّمْسَ. وَكُلُّ خُطْوَةٍ تَحْفَظُهَا قَدَمَاكَ سَتُصْبِحُ، فِيمَا بَعْدُ، جَنَاحًا مِنْ تُرَابٍ، لَا يَسْقُطُ، وَلَا يُمْسَكُ.

**كُورَالُ الطِّفْلِ الدَّاخِلِيِّ:** نَحْنُ أَطْفَالٌ لَمْ نَعْرِفِ النَّوْمَ، وَلَمْ نَرِثْ سِوَى مَفَاتِيحَ تَفْتَحُ أَبْوَابًا بِلَا بُيُوتٍ. كُلُّ ضَحْكَةٍ ضَاعَتْ تَصِيرُ حَجَرًا نَرْمِيهِ عَلَى الطَّرِيقِ، كَيْ نَتَذَكَّرَ أَنَّنَا مَرَرْنَا مِنْ هُنَا.

**كُورَالُ ظِلِّ الْأَبِ:** وَنَحْنُ ظِلَالُ الرِّجَالِ الَّذِينَ سَقَطُوا، نَحْرُسُ الْخُطُوَاتِ الصَّغِيرَةَ، وَنَخَافُ عَلَيْهَا كَمَا خِفْنَا عَلَى أَجْسَادِنَا حِينَ عَبَرْنَا الْحُدُودَ وَلَمْ نَعُدْ.

**الْغَيْمَةُ الْمُهَاجِرَةُ:** يَا صِغَارَ الْأَرْضِ، يَا أَبْنَاءَ التُّرَابِ، يَا مَنْ تَعَلَّمْتُمُ الْمَشْيَ قَبْلَ أَنْ تَعْرِفُوا أَسْمَاءَكُمْ،

إِنَّ الطُّفُولَةَ لَيْسَتْ بَدَايَةً، إِنَّهَا بَصْمَةٌ تُحْمَلُ كَجَوَازِ عُبُورٍ،

لَا يَسْقُطُ، وَلَا يُمْحَى،

حَتَّى إِنْ مَحَتْهُ الْمَخَافِرُ،

وَحَتَّى إِنْ صَرَخَتِ الشَّمْسُ فَوْقَ رُءُوسِكُمْ.

**الْمَلَاكُ الْأَعْمَى:** هَكَذَا وُلِدَ إِيكارُ مَرَّتَيْنِ:

مَرَّةً مِنْ رَحِمِ أُمِّهِ،

وَمَرَّةً مِنْ رَحِمِ الْخَوْفِ.

وَهَكَذَا أَصْبَحَ الرَّكْضُ عَوْدَةً دَائِمَةً إِلَى الطُّفُولَةِ الَّتِي لَمْ تُنْسَ،

وَلَمْ تُعَشْ،

وَلَمْ تَكْتَمِلْ.

١٣

# النَّشِيدُ الثَّالِثُ عَشَرَ

(سِفْرُ النُّدُوبِ مُقْتَبَسٌ مِنْ مَخْطُوطَةِ الأَنْغَامِ النَّائِمَةِ فِي ظِلَالِ المَخَافِرِ)

مزمور

**(2)**

**السِّرُّ المُنْدَسُّ فِي نَفْسِ العَابِرِ**

(كَأَنَّهُ جُزْءٌ مِنْ سِفْرِ الكَشْفِ الأَخِيرِ فِي مَخْطُوطَةٍ مُقَدَّسَةٍ، حَيْثُ تَتَدَاخَلُ الأَسْرَارُ مَعَ البُكَاءِ، وَالصَّوْتُ مَعَ الحِبْرِ، وَالنَّحِيبُ مَعَ اللَّاهُوتِ البَاطِنِيّ. هٰذَا السِّفْرُ المَرْفُوعُ إِلَى إِنْشَادٍ مُقَدَّسٍ تَتْلُوهُ جَوْقَاتٌ مِنَ الرُّهْبَانِ خَلْفَ جُدْرَانِ الأَدْيِرَةِ).

فَبِأَيِّ مَوَاجِعَ أَبْدَأُ نَحِيبِي، وَبِأَيِّهَا أُنْهِي أَنِينِي؟ وَأَيُّ رِدَاءٍ يُغَطِّي انْسِكَابِيَ الثَّمِلَ، حَيْثُ تَقْطُرُ الرُّوحُ خَمْرَةَ الوَجَعِ، وَتَتَلَعْثَمُ المَلَائِكَةُ فِي حُرُوفِ اسْمِهَا؟ يَا بِحَارُ، يَا صَحَائِفَ الزَّبَدِ المَفْتُوحَةَ عَلَى لَيْلِ اللهِ، خُذِي هَيْئَةً تُنَاسِبُ دُمُوعِي، وَتَعَلَّمِي انْحِنَاءَةَ القَلْبِ حِينَ يُسَاقُ إِلَى اعْتِرَافٍ لَا يُرِيدُ أَنْ يُقَالَ. وَلْتَرْدُمْ أَزْمِنَةٌ مَحْدُودِبَةُ الظَّهْرِ مَا لِنَزِيفِي مِنْ أَصْدَاءٍ، وَلْتَطْوِ السِّنُونَ كَفَّهَا عَلَى جِرَاحٍ سَقَطَتْ مِنْ ذَاكِرَةِ الزَّمَنِ.

وَأَنْتَ أَيُّهَا المَاضِي، أَيُّهَا الرَّاهِبُ الكَهْلُ الَّذِي يَتَهَجَّى صَوْتَهُ فِي الحِبْرِ،[47]
وَأَنْتِ أَيَّتُهَا الهَمَسَاتُ الحَزِينَةُ، أَيَّتُهَا النَّارُ الَّتِي تُعَلِّمُ الحِجَارَةَ مَعْنَى الغِنَاءِ،
وَأَنْتَ أَيُّهَا الغِنَاءُ، أَيُّهَا الحَرِيقُ، أَحْجُبُ مِنَ الحِكَايَةِ سِرَّهَا،
كَمَا تَحْجُبُ الأَدْيِرَةُ اسْمَهَا الأَعْظَمَ خَلْفَ عِشْرِينَ بَابًا مِنَ البَخُورِ.

سَأَسْرُدُ المَاضِيَ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ قَلْبِي أَنْ يُقْفِلَ أَبْوَابَهُ عَلَى السِّرِّ، وَإِنِ انْتَفَضَ . فِي غَفْلَةٍ وَاحِدَةٍ . كَجَنَاحِ مَلَاكٍ يَفْضَحُ النُّورَ، كَقَلْبِ قِدِّيسٍ تَاهَ عَنْهُ صَوْمُهُ، فَأَرْجُوكُمْ... يَا مَنْ تَزِيدُ الفِطْنَةُ لَدَيْكُمْ عَلَى الخَوْفِ، يَا مَنْ تَقْرَؤُونَ الرِّيحَ كَمَا تُقْرَأُ المَخْطُوطَاتُ، أَنْ تَجْتَثُّوا لِسَانِي عَلَى الفَوْرِ:
لَا تَدَعُونِي أَفْضَحُ السِّرَّ،
وَلَا تَدَعُوا المَجْزَرَةَ تَدْخُلُ بِلا قِنَاعٍ إِلَى الحَلَبَةِ،

---

[47]- **هَامِشُ الْحِبْرِ الْحَيِّ** (الهَامِشُ الَّذِي لَمْ يَجْرُؤْ أَحَدٌ عَلَى نَسْخِهِ غَيْرُ نَاسِخِ الْهَامِشِ): يَحْكِي نَاسِخُ الْهَامِشِ أَنَّهُ فِي إِحْدَى اللَّيَالِي، وَهُوَ وَحِيدٌ أَمَامَ مَخْطُوطَةٍ لَمْ تَكْتَمِلْ، اهْتَزَّتِ الدَّوَاةُ. وَتَقَدَّمَ الْحِبْرُ مِثْلَ كَائِنٍ حَيٍّ، يَمْشِي، وَيَتَنَشَّفُ، وَيَتَنَفَّسُ... (لَمْ يَكُنْ حِبْرًا، كَانَ ظِلًّا مُذَابًا...)، (حِينَ كَتَبْتُ بِهِ، لَمْ أَكْتُبْ أَنَا... كَتَبَ هُوَ بِي...)، (كُلُّ حَرْفٍ يَكْتُبُهُ الْحِبْرُ الْحَيُّ يَحْفَظُ صَوْتًا مِنْ أَصْوَاتِ الْمَفْقُودِينَ). وَيَعْتَرِفُ النَّاسِخُ فِي أَصْغَرِ مُلَاحَظَةٍ كَتَبَتْهَا يَدَاهُ الْمُرْتَجِفَتَانِ: (أَحْيَانًا أَشْعُرُ أَنَّ الْحِبْرَ يَعْرِفُنِي أَكْثَرَ مِمَّا أَعْرِفُ نَفْسِي...) ثُمَّ يُضِيفُ: (الْحِبْرُ الْحَيُّ هُوَ جِلْدُ مَوْتَى طَحَنَهُمُ الزَّمَنُ، وَلِذَلِكَ يَكْتُبُ دُونَ أَنْ نَأْذَنَ لَهُ).

فَأَنَا . كَخَائِنٍ . نَطَقْتُ، فَدَعُونِي . كَخَائِنٍ . أَسْرُدْ... دَعُونِي أُقْفِلُ الأَقْفَالَ، وَأَبْدَأُ بَدَايَةَ البِدَايَةِ، حَيْثُ تُولَدُ الحِكَايَةُ مِنْ ضِلْعِ ظَلَامٍ، وَيُعَمَّدُ الصَّوْتُ بِمَاءِ الخَوْفِ، وَتُسْتَدْعَى الأَرْوَاحُ الَّتِي عَلِقَتْ بَيْنَ المَخَافِرِ وَالحُدُودِ.

# الإِصْحَاحُ التَّاسِعُ عَشَرَ

19

# أَجْنِحَةٌ مِنْ تُرَابٍ

**(اثْنَتَا عَشْرَةَ تَرْنِيمَةً مِنْ كِتَابِ تَرَانِيمِ المَسْرَحِ الكَنَسِيِّ)**

**الشَّخْصِيَّاتُ:**

1- **إِيكار:** يَاقُوتَةُ الرَّكْضِ، ابْنُ القَدَمَيْنِ اللَّتَيْنِ تُضِيئَانِ حِينَ تَخَافَانِ، شَاعِرٌ يَحْلُمُ بِالهُرُوبِ وَالحُرِّيَّةِ، رَمْزُ البَرَاءَةِ وَالمُخَاطَرَةِ.

2- **المَلَاكُ الأَعْمَى:** كَائِنٌ بِلا أَجْنِحَةٍ، يَقُودُ بِلا عَيْنَيْنِ، يَرَى مَا تَلْمَسُهُ الرِّيحُ، وَيَتَلَمَّسُ الطَّرِيقَ كَأَنَّهُ يَقْرَأُ الزَّمَنَ بِيَدِهِ، دَلِيلٌ غَامِضٌ يُمَثِّلُ الحَدْسَ وَالبَصِيرَةَ الدَّاخِلِيَّةَ.

3- **الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ:** شَيْخٌ يَحْمِلُ كَامِيرَا تَهْتَزُّ كَقَلْبِهِ، وَذَاكِرَةً تُصَفِّرُ كَفِيلْمٍ قَدِيمٍ فِي شِتَاءٍ، يَلْتَقِطُ مَا يَظُنُّهُ النَّاسُ نِسْيَانًا، وَيُصَوِّرُ الهَارِبِينَ لِيُوَثِّقَ مَا يُبْقِي مِنْ أَثَرِهِمْ حَيًّا.

4- **ظِلُّ الأَبِ:** ظِلٌّ يَطْفُو فَوْقَ فِنَاءٍ حَزِينٍ كَقَمِيصٍ لَمْ يُرْتَدَ بَعْدُ، طَيْفُ المَاضِي وَحَنِينُهُ، الحُضُورُ الغَائِبُ، وَصَدَى الحِمَايَةِ وَالذَّاكِرَةِ العَائِلِيَّةِ.

5- **جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** أَصْدَاءٌ تُنْشِدُ مَا يَفُوتُ البَشَرَ، وَأَمْوَاجٌ مِنْ ضَوْءٍ تَتَكَلَّمُ بِلَهْجَةِ المَنَافِذِ وَالشَّكِّ، تُؤَدِّي أَصْوَاتَ البَحْرِ، وَالحُدُودِ، وَالذَّاكِرَةِ، وَحَرَسِ الحُدُودِ، وَرِجَالِ المَخَافِرِ، وَكَائِنَاتٍ مُتَعَدِّدَةً تَعْكِسُ المَدِينَةَ وَالطَّبِيعَةَ وَالمَخَاوِفَ وَالصَّدَى التَّارِيخِيَّ.

# التَّرْنِيمَةُ الأُولَى: أُنْشُودَةُ الضَّوْءِ

(تُطْفَأُ الأَنْوَارُ. وَمِنْ خَلْفِ ضَوْءٍ أَبْيَضَ يُشْبِهُ الشَّمْسَ/الحُدُودَ، يَتَّسِعُ مُحِيطُهُ بِبُطْءٍ. تَدْخُلُ الجَوْقَةُ مِنْ جَانِبَيِ المَسْرَحِ).

**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ** (بِصَوْتٍ مُتَعَدِّدِ الطَّبَقَاتِ):
نَحْنُ أَصْوَاتُ الأَرْضِ حِينَ تُسَدُّ عَلَيْهَا المَخَارِجُ، نَحْنُ أَنْفَاسُ الرَّمْلِ حِينَ تُضْغَطُ فِي قَبْضَةِ الضَّوْءِ فَتَغْدُو شَمْسًا تُنَادِي الهَارِبِينَ... هٰذِهِ حِكَايَةُ مَنْ لَمْ يَجِدْ وَطَنًا فِي صَدْرِهِ، فَذَهَبَ يَبْحَثُ عَنْهُ فِي الهَوَاءِ... حِكَايَةُ الَّذِي صَنَعَ أَجْنِحَةً مِنْ قَدَمَيْهِ، وَهَرَبَ، فَصَارَ رَكْضُهُ مَلْحَمَةً... رَكْضٌ... رَكْضٌ، حَتَّى خَافَ أَنْ يَلْتَفِتَ... فَإِذَا الْتَفَتَ ضَاعَ الطَّرِيقُ. إِنَّهُ إِيكارُ هٰذَا العَصْرِ:
لَيْسَ ابْنَ دَايْدَالُوسَ، إِنَّهُ ابْنُ الخَوْفِ وَالحُلْمِ.

(يَدْخُلُ إِيكارُ بِبُطْءٍ، يَضَعُ كَفَّهُ عَلَى الضَّوْءِ كَمَا لَوْ أَنَّهُ يَخْتَبِرُ حَرَارَتَهُ، وَيَمْسَحُ قَدَمَيْهِ كَأَنَّهُمَا الجَنَاحَانِ اللَّذَانِ سَيَحْمِلَانِهِ).

**إيكار:** هَلْ هٰذَا ضَوْءٌ... أَمْ بَابٌ؟ لَا أَعْرِفُ. لَكِنَّنِي سَأَسِيرُ. وَالقَدَمُ، حِينَ تَتَّخِذُ القَرَارَ، لَا تَسْأَلُ الطَّرِيقَ.
**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** نَرْوِي لَكُمْ، يَا سَامِعِينَ، سِيرَةَ مَنْ ارْتَفَعَ دُونَ سَمَاءٍ. سِيرَةَ الَّذِي صَرَخَتِ الأَرْضُ تَحْتَهُ: "لَا تَهْرُبْ"... فَأَجَابَهَا: "أَهْرُبُ كَيْ أَعُودَ إِلَيْكِ بِلا جُرْحٍ".

**إيكار:** أَيَّتُهَا الأَرْضُ الَّتِي أَوْرَثْتِنِي لُغَةَ الشُّقُوقِ [48] عَلَى العَقِبَيْنِ... هَا أَنَا أَعُودُ إِلَيْكِ، لَا فَارِسًا وَلَا جُنْدِيًّا،

أَعُودُ كَطَيْفِ لُجُوءٍ يَتَلَعْثَمُ بَيْنَ صَخْرَتَيْنِ... قَدَمَايَ هَاتَانِ هُمَا جَنَاحَايَ، أُجَدِّدُهُمَا كُلَّ فَجْرٍ بِصَرْخَةٍ لَا يَسْمَعُهَا سِوَايَ.

**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** هُوَ ذَا شَاعِرٌ هَارِبٌ يَقْتَرِبُ مِنَ الشَّمْسِ، كَحُدُودٍ شَهَقَتْ ذَاتَ يَوْمٍ، ثُمَّ ضَاقَتْ عَلَى عُبُورِهِ.

**إيكار:** كُلُّ عَابِرٍ يَتْرُكُ ظِلًّا أَطْوَلَ مِنْ جَسَدِهِ، لَكِنْ لَا أَحَدَ يَقْرَأُ طُولَ الظِّلِّ إِلَّا اللَّيْلُ.

**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** يَا أَيُّهَا السَّائِرُ فِي لَيْلِ الفِرَارِ... هٰذِهِ خُطَاكَ تُضِيءُ أَرْضًا لَا تَرَى، وَتُطْفِئُ أُخْرَى كَانَتْ مُلْكَكَ. لَا تَسْأَلِ الأُفُقَ مِنْ أَيْنَ يَأْتِي الرَّعْدُ، فَالقَلْبُ، إِذَا ضَاعَ، أَصْبَحَ السَّمَاوَاتِ جَمِيعًا.

يَا أَيُّهَا الفَارُّ مِنْ لَيْلٍ لَا يَنْطَفِئُ فِي القَلْبِ... نَرَاكَ، حَتَّى لَوِ اخْتَبَأْتَ فِي عَتْمَةِ المَمَرَّاتِ، فَكُلُّ عَابِرٍ يَتْرُكُ خَلْفَهُ نُورَ جُرْحٍ لَا يَلْتَئِمُ.

**إيكار:** قَدَمَايَ تَنْبِضَانِ مِثْلَ قَلْبٍ لَا يَعْرِفُ سِوَى أَنْ يَتَقَدَّمَ. إِنَّنِي لَمْ أُولَدْ كَيْ أُطَارَدَ، وَلَا كَيْ أَكُونَ اسْمًا فِي دَفْتَرِ مَنْ يُرَاقِبُونَ الهَوَاءَ.

(إِظْلَامٌ... أَصْوَاتُ رِيَاحٍ. تَتَقَدَّمُ جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ كَأَنَّهَا تَحْمِلُ ذَاكِرَةً صَوْتِيَّةً لِلْعَالَمِ).

---

[48]- **هَامِشُ الشُّقُوقِ الَّتِي تَسَرَّبَ مِنْهَا الخَلْقُ**

(مَا كَانَتِ الخَلِيقَةُ كَامِلَةً حِينَ خَرَجَتْ... إِنَّمَا تَسَرَّبَتْ مِنْ شَقٍّ فِي يَدِ الصَّانِعِ، فَكَانَ كُلُّ مَا نَعْرِفُهُ الْيَوْمَ نُسْخَةً هَارِبَةً مِنَ الأَصْلِ)

**الْهَامِشُ الْمُخْفِيُّ دَاخِلَ الْهَامِشِ:**

(يَا مَنْ تَبْحَثُ عَنِ اللهِ... لَا تَبْحَثْ فِي السَّمَاءِ، ابْحَثْ فِي الشُّقُوقِ الَّتِي نُسِيَ أَنْ تُغْلَقَ).

**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** أَلَا تَسْمَعُونَ؟ هٰذَا السُّورُ العَالِي يَضْحَكُ عَلَى العَابِرِينَ... يَقِيسُ ظِلَّهُمْ، ثُمَّ يُحَدِّدُ مِقْدَارَ مَا يَسْتَحِقُّونَ مِنَ الغِيَابِ...
أَلَا تَسْمَعُونَ؟ التُّرَابُ يَئِنُّ تَحْتَ أَقْدَامِ الهَارِبِينَ، وَالرِّيحُ تَهْمِسُ بِمَا لَمْ يُقَلْ بَعْدُ...
وَمَنْ يَجْرُؤُ عَلَى الرَّكْضِ يَكْتَشِفُ أَنَّ الظِّلَالَ لَا تَتَجَاوَزُ حُدُودًا لَمْ تُخْلَقْ لَهَا...
أَلَا تَسْمَعُونَ؟ خُطُوَاتُهُ تَشُقُّ اللَّيْلَ، وَتَتْرُكُ وَرَاءَهَا رَائِحَةَ الغِيَابِ، وَتَرْسُمُ عَلَى الرَّمْلِ خُطُوطَ الحُرِّيَّةِ، حَتَّى لَوْ لَمْ تَصِلْ إِلَى أَيِّ مَكَانٍ...
أَلَا تَسْمَعُونَ؟ إِيكارُ يَرْكُضُ، جَسَدُهُ جَنَاحَانِ لَمْ يُطْوَيَا بَعْدُ، وَقَدَمَاهُ تَنْقُشَانِ عَلَى الأَرْضِ حِكَايَةً لَمْ تُكْتَبْ.

## التَّرْنِيمَةُ الثَّانِيَةُ: أُنْشُودَةُ الخُطْوَةِ الأُولَى الَّتِي صَارَتْ قَدَرًا

**ظِلُّ الأَبِ** (مِنْ خَلْفِ سِتَارَةٍ شَفَّافَةٍ):
يَا وَلَدِي... كُلُّ الطُّرُقِ الَّتِي تَبْدَأُ بِالرَّكْضِ تَنْتَهِي بِالنَّجَاةِ أَوْ بِالجُرْحِ. لَكِنْ مَنْ قَالَ إِنَّ الجُرْحَ هَزِيمَةٌ؟ أَحْيَانًا يَكُونُ الجُرْحُ بَابًا.
**إيكار** (يَقْتَرِبُ مِنَ السِّتَارَةِ):
يَا أَبِي، عَلَّمْتَنِي كَيْفَ أَمْشِي، لَكِنَّكَ لَمْ تُعَلِّمْنِي كَيْفَ أَتْرُكُ الأَرْضَ الَّتِي أَعْرِفُهَا.
**ظِلُّ الأَبِ** (كَهَمْسٍ فَوْقَ نَافِذَةٍ):
يَا وَلَدِي، لَا تَبْدَأِ الطَّرِيقَ بِخَوْفٍ؛ فَالخَوْفُ يُضَيِّقُ الأَرْضَ. ابْدَأْ بِخُطْوَةٍ يُولَدُ فِيهَا أَمَلُكَ.
**إيكار:** يَا أَبِي، هَلْ لِلرَّاكِضِ مِنْ بَيْتٍ سِوَى أَنْفَاسِهِ؟
**ظِلُّ الأَبِ:** البَيْتُ يَمْشِي مَعَكَ مِثْلَ ظِلٍّ فِي كَعْبِكَ. إِنْ تَرَكْتَ الأَرْضَ، فَلَنْ تَتْرُكَكَ هِيَ.

**إيكار:** لَمْ يَتْرُكْنِي اللَّيْلُ خَارِجَهُ، وَلَمْ تُسْعِفْنِي البِلَادُ بِبَابٍ.

**ظِلُّ الأَبِ:** يَا وَلَدِي، البَابُ هُوَ بَابُ الانْتِصَارِ عَلَى الآخِرَةِ... هُوَ جِدَارٌ مُمْتَدٌّ فِي الهَوَاءِ، وَالسَّمَاءُ قَيْدٌ كَبِيرٌ. إِنَّ الرَّكْضَ وَحْدَهُ يُعِيدُكَ إِلَى نَفْسِكَ.

**إيكار:** سَأَرْكُضُ، يَا أَبِي. سَأَجْعَلُ كُلَّ حَجَرٍ خُطْوَةً، وَكُلَّ خُطْوَةٍ نَافِذَةً، وَكُلَّ نَافِذَةٍ نَجَاةً.

**ظِلُّ الأَبِ:** الأَرْضُ لَا تُتْرَكُ، هِيَ تَنَامُ فِي كَعْبِكَ، وَتَسْتَيْقِظُ كُلَّمَا رَكَضْتَ. لَا تَخَفْ... خُذِ البِلَادَ [49] مَعَكَ فِي قَدَمِكَ.

(إِضَاءَةٌ بَاهِتَةٌ. يَظْهَرُ بَيْتٌ قَدِيمٌ).

**ظِلُّ الأَبِ:** عُدْ، يَا فَتَى التُّرَابِ... كُنْتُ أَحْمِيكَ بِكَفَّيَّ القَوِيَّتَيْنِ مِنْ حَرِّ الشَّمْسِ... وَاليَوْمَ تَحْمِي نَفْسَكَ مِنْ حُدُودٍ لَا قَلْبَ لَهَا.

**إيكار:** أَبِي... أَيْنَ يَنْتَهِي السَّبِيلُ؟ أَيْنَ يَنَامُ الأَطْفَالُ حِينَ تَنَامُ البَنَادِقُ؟

**ظِلُّ الأَبِ:** فِي أَحْلَامِهِمْ... وَمِنْ هٰذَا الخَوْفِ تَبْدَأُ أُسْطُورَتُكَ.

(تَظْهَرُ جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ).

**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** هٰكَذَا وُلِدَتِ الخُطْوَةُ الأُولَى، كَأَنَّ الأَرْضَ أَعْطَتْهُ إِذْنَ عُبُورٍ سِرِّيًّا لَمْ يَعْرِفْهُ الحُرَّاسُ... وَهٰكَذَا وُلِدَ الهُرُوبُ فِي قَدَمَيْهِ، كَمَا يُولَدُ البَحْرُ فِي عُرُوقِ سَفِينَةٍ.

(يَعْدُو إِيكَارُ بِبُطْءٍ، كَأَنَّ خُطُوَاتِهِ تَبْحَثُ عَنْ أَرْضٍ تَثِقُ بِهَا. ضَوْءٌ أَزْرَقُ قَاسٍ، وَمَوْجٌ يَتَحَرَّكُ كَخَنَادِقَ أَمْنِيَّةٍ. تَتَقَدَّمُ جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ كَكُتْلَةٍ وَاحِدَةٍ يَتَكَلَّمُ مِنْ خِلَالِهَا البَحْرُ).

---

49- عَنِ الْبِلَادِ الَّتِي تُسْتَنْزَلُ لَهَا الْكَوَاكِبُ (سِرٌّ كَنَسِيٌّ شَرْقِيٌّ):

(الْكَوَاكِبُ لَا تَنْزِلُ إِلَّا لِرُوحٍ غَيْرِ مُكْتَمِلَةٍ. وَالْبِلَادُ الَّتِي تَتَزَيَّنُ بِالنَّهَارِ لِلْغَرِيبِ لَيْسَتْ بِلَادَهُ، إِنَّهَا امْتِحَانُهُ. فَلَا يَخْدَعَنَّكُمُ الضِّيَاءُ، فَإِنَّهُ قِنَاعُ اللَّيْلِ)

**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** قِف! أَدْخِلِ اسْمَكَ فِي دَفْتَرِنَا، وَعُدْ إِلَى سَطْرِ وِلَادَتِكَ. هُنَا لَا يَمُرُّ مَنْ يَحْمِلُ ظِلًّا أَطْوَلَ مِنْ خَوْفِهِ. نَحْنُ المَاءُ، لَكِنَّنَا صِرْنَا حَجَرًا يَقِيسُ نَبْضَ العَابِرِينَ. كُلُّ خُطْوَةٍ مِلَفٌّ. وَكُلُّ تَنَهُّدَةٍ بَلَاغٌ. وَكُلُّ أُمْنِيَّةٍ جَرِيمَةُ عُبُورٍ.

**إِيكار:** أَيُّ بَحْرٍ أَنْتُمْ؟ وَأَيُّ شُرْطِيٍّ هٰذَا الَّذِي يَمْلِكُ مَوْجًا بَدَلًا مِنْ غَدَّارَةٍ؟ أَنَا لَمْ أَتَعَلَّمْ كَيْفَ أَقِفُ أَمَامَ مَاءٍ يَتَوَعَّدُ.

**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** أَنْتَ تَعْبُرُ بِلا مِرْآةٍ، وَلَا ظِلٍّ، وَلَا تَكْبِيرَةٍ تُعْلِنُ أَنَّكَ ابْنُ هٰذِهِ الأَرْضِ. قُلْ لَنَا: مِنْ أَيِّ خَوْفٍ جِئْتَ؟ وَمَاذَا سَتَتْرُكُ فِي الطَّرِيقِ؟

(يَرْتَفِعُ الضَّوْءُ الأَزْرَقُ. أَصْوَاتُ صَفَّارَاتٍ. تَتَحَرَّكُ جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ كَأَنَّهَا تَمَاثِيلُ تُحَرِّكُهَا الرِّيحُ، وَتَتَكَلَّمُ بِصَوْتِ البَحْرِ).

**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** قِفْ! أَيُّهَا المَارُّ بِلا اسْمٍ... قِفْ!

نَحْنُ الزِّيُّ الَّذِي يَرْتَدِيهِ المَاءُ وَيَحْرُسُ الضَّوْءَ. نَحْنُ صَرَامَةُ الأَمْوَاجِ حِينَ تُصْبِحُ تَقَارِيرَ وَمِلَفَّاتٍ تَبْحَثُ عَنْ خَطَأٍ فِي أَنْفَاسِكَ.

**إِيكار:** أَنَا لَا أَحْمِلُ سِوَى أَرْضِي مُفَتَّتَةً فِي قَلْبِي. هَلْ يُمْنَعُ مِنَ المُرُورِ مَنْ يَحْمِلُ وَطَنًا فِي وَجَعٍ صَغِيرٍ؟

**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** نَعَمْ... نَعَمْ... فَالوَجَعُ أَيْضًا يَحْتَاجُ إِلَى تَأْشِيرَةِ عُبُورٍ.

(يَدْخُلُ الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ بِبُطْءٍ. تَتَدَلَّى الكَامِيرَا كَقَلْبٍ مَعْدِنِيٍّ، وَحَرَكَتُهُ بَطِيئَةٌ، وَتَلْمَعُ عَيْنُهُ كَبَحْرٍ قَدِيمٍ).

**الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ:** دَعُوهُ... دَعُوهُ لِحْظَةً وَاحِدَةً. أُرِيدُ أَنْ أَلْتَقِطَ لِلشَّاعِرِ الهَارِبِ صُورَةً لَا تَذُوبُ فِي المَمَرَّاتِ. فَالذَّاكِرَةُ، حِينَ تُهَانُ، تَصِيرُ وَرَقَةً مُبْتَلَّةً تُرْمَى فِي البَحْرِ دُونَ أَنْ يَقْرَأَهَا أَحَدٌ.

**إِيكار:** لَا أُرِيدُ وَجْهًا مَحْفُوظًا. أُرِيدُ أَنْ أَكُونَ رَكْضِي... لَا صُورَتِي.

(هَدِيرُ رَعْدٍ. تَتَقَدَّمُ الجَوْقَةُ مِثْلَ مَوْجٍ آلِيٍّ).

**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** جِئْنَا مِنْ عُمْقٍ لَا يُغْفَرُ. مَاءٌ صَارَ زَمَنًا يَحْرُسُ الخَوْفَ، وَمَوْجٌ صَارَ نِظَامًا يَمْنَعُ العَابِرِينَ مِنَ التَّنَفُّسِ...

كُلُّ خُطْوَةٍ وَثِيقَةٌ...
وَكُلُّ هَمْسَةٍ تَقْرِيرٌ...
وَكُلُّ نَجْمَةٍ كَامِيرَا مُعَلَّقَةٌ فِي السَّمَاءِ.

## التَّرْنِيمَةُ الثَّالِثَةُ: المَلَاكُ الأَعْمَى [50]

(أُنْشُودَةُ مَنْ يَرَى بِلا نَظَرٍ)

(ضَوْءٌ أَبْيَضُ يَظْهَرُ فِي الأَعْلَى. يَظْهَرُ مَلَاك يَعْصِبُ عَيْنَيْهِ بِخِرْقَةٍ مِنْ نُورٍ مُطْفَأٍ).

**إيكار:** مَنْ أَنْتَ؟ وَكَيْفَ تَهْتَدِي بِلا عَيْنَيْنِ؟
**المَلَاكُ الأَعْمَى:** أَنَا مَنْ فَقَدَ البَصَرَ لِكَيْ يَرَى مَا لَا يُرَى. أَدُلُّ الهَارِبِينَ إِلَى مَا قَبْلَ الحُدُودِ... إِلَى الحَقْلِ القَدِيمِ الَّذِي لَمْ يَكْتُبْهُ أَحَدٌ.
**إيكار:** دُلَّنِي... فَقَدَمَايَ تَرْتَجِفَانِ كَقَلْبَيْنِ وُلِدَا لِلتَّوِّ.
**المَلَاكُ الأَعْمَى:** أَنَا لَا أَرَى، لَكِنَّنِي أَشُمُّ الخَوْفَ، وَأَلْمِسُ أَثَرَ الرَّاكِضِينَ. سَأَقُودُكَ... إِلَى اللَّحْظَةِ الَّتِي تَصْنَعُ الطَّرِيقَ.
**إيكار:** دُلَّنِي... دُلَّنِي إِلَى العَالَمِ الَّذِي لَا يَرَانِي كَجَوَازِ سَفَرٍ.

---

50- **فِي الْعَمَى الَّذِي يَأْتِي بَعْدَ فَضْحِ الْحَقِيقَةِ:** رَأَيْتُ، (فِي يَوْمِ مَحْوٍ)، أَعْمَى يُمْسِكُ الْهَوَاءَ بِيَدِهِ، كَأَنَّهُ يَتَحَسَّسُ شَكْلَ الْحَقِيقَةِ لَا مَظْهَرَهَا... وَقَالَ لِي بِصَوْتٍ يَحْفِرُ الذَّاكِرَةَ: (إِنَّ الْعَيْنَ تُخْدَعُ، أَمَّا الْعَمَى فَلَيْسَ لَهُ إِلَّا الصِّدْقُ)... فَأَدْرَكْتُ أَنَّ الَّذِينَ رَأَوْا أَكْثَرَ مِمَّا يَنْبَغِي أَطْفَؤُوا أَعْيُنَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ، كَمَا تُطْفَأُ الشَّمْعَةُ قَبْلَ أَنْ تُحْرِقَ الْجَنَاحَ.

**المَلَاكُ الأَعْمَى:** يَا ابْنَ الطَّرِيقِ الغَرِيبِ، تُفَتِّشُ عَنْ بَابٍ فِي الضَّوْءِ، لَكِنَّ الضَّوْءَ خُدْعَةٌ. اتَّبِعْ صَوْتَ [51] الأَرْضِ، وَسَتَنْفَتِحُ لَكَ العَتْمَةُ مِثْلَ نَافِذَةٍ.

(يَنْزِلُ المَلَاكُ الأَعْمَى، وَيَتَحَسَّسُ الهَوَاءَ كَمَنْ يَقْرَأُ حُرُوفًا غَيْرَ مَرْئِيَّةٍ. يَضَعُ يَدَهُ عَلَى الفَرَاغِ كَمَنْ يَقْرَأُ كِتَابًا خَفِيًّا).

**إيكار:** هَلْ أَنْتَ مَلَاكٌ؟ أَلَا يَجِبُ أَنْ تَكُونَ لَكَ أَجْنِحَةٌ؟

**المَلَاكُ الأَعْمَى:** أَجْنِحَتِي سَقَطَتْ يَوْمَ رَأَيْتُ أَنَّ الطَّيَرَانَ خَطِيئَةٌ، وَلَيْسَ امْتِيَازًا... فَمَنْ يَطِرْ يَرَ العَالَمَ صَغِيرًا فَيَزْدَرِيهِ.

أَنَا اخْتَرْتُ المَشْيَ... قَرِيبًا مِنَ الجُرْحِ...

أَنَا مَنْ سَقَطَ قَبْلَكَ مِنْ سَمَاءٍ صَدِئَةٍ... عَارِيًا إِلَّا مِنْ نَبْضِي.

وَلَمَّا انْطَفَأَتْ عَيْنَايَ، اكْتَشَفْتُ أَنَّ القَلْبَ هُوَ اللُّغَةُ الَّتِي ضَاعَتْ ثُمَّ عَادَتْ...

يَا ابْنَ الطَّرِيقِ الغَرِيبِ، إِنَّ رَكْضَكَ دُعَاءٌ لَا يَعْرِفُهُ المَعْبَدُ، وَلَكِنَّنِي أَعْرِفُهُ.

**إيكار:** دُلَّنِي... دُلَّنِي... دُلَّنِي عَلَى الطَّرِيقِ. فَالحُدُودُ أَمَامِي، وَالضَّوْءُ يَلْسَعُنِي كَأَنَّ الشَّمْسَ تَسْأَلُنِي: مَنْ أَنَا؟

**المَلَاكُ الأَعْمَى:** أَأَدُلُّكَ؟ أَنَا لَا أَعْرِفُ الطَّرِيقَ. لَكِنَّنِي أَعرِفُ أَيْنَ لَا يَكُونُ الطَّرِيقُ. سَأَقُودُكَ بِالخَطَإِ، وَبِالأَثَرِ، وَبِالصَّمْتِ الَّذِي يَسْبِقُ السُّقُوطَ.

**إيكار:** وَإِنْ تَقُدْنِي إِلَى المَوْتِ؟

**المَلَاكُ الأَعْمَى:** المَوْتُ حَارِسٌ كَسُولٌ... يَضْبِطُ مَنْ يَتَوَقَّفُ.

---

51– **هَامِشُ الْأَصْوَاتِ الَّتِي تَمُوتُ قَبْلَ أَنْ تُسْمَعَ**

(كَتَبْتُهُ وَأَنَا خَائِفٌ أَنْ يَسْمَعَنِي أَحَدٌ)

(ثَمَّةَ أَصْوَاتٌ تَنْطَفِئُ فِي الْهَوَاءِ قَبْلَ أَنْ تَلْمِسَ الْأُذُنَ، وَأُخْرَى تَمُوتُ فِي الْحَنْجَرَةِ، وَأُخْرَى تُدْفَنُ فِي الْقَلْبِ حِينَ تَرْتَجِفُ الرُّوحُ وَلَا تَجْرُؤُ عَلَى الْكَلَامِ)

**الْهَامِشُ الْمُخْفِيُّ دَاخِلَ الْهَامِشِ:**

(لَيْسَ الصَّمْتُ دَائِمًا حِكْمَةً... أَحْيَانًا يَكُونُ مَقْبَرَةً).

وَأَنْتَ... تَرْكُضُ.
مَاذَا تَرَكْتَ خَلْفَكَ؟
هَلْ تَرَكْتَ بَيْتًا؟
هَلْ تَرَكْتَ اسْمًا؟
هَلْ تَرَكْتَ صَوْتًا كَانَ يُنَادِيكَ ثُمَّ سَكَتَ؟
**إِيكار:** تَرَكْتُ مَا لَا يُجْمَعُ: دُمُوعًا أَخْفَيْتُهَا فِي جَيْبِ سُتْرَتِي، وَصُورَةً مُمَزَّقَةً لِأَبِي، يَلْتَقِطُهَا العَابِرُونَ وَلَا يَعْرِفُونَ أَنَّهَا أَنْقَاضُ قَلْبٍ وَاحِدٍ.
**المَلَاكُ الأَعْمَى:** أَنَا المَلَاكُ الَّذِي لَا يَرَى، وَلَكِنَّنِي أُوكِلُ إِلَى قَلْبِي أَنْ يَلْمِسَ جِرَاحَ النَّاسِ.
قُلْ لِي...
هَلْ جُرْحُكَ يَقِفُ أَمْ يَمْشِي؟
**إِيكار:** إِنَّهُ يَجْرِي... يَجْرِي أَسْرَعَ مِنِّي، وَأَنَا أَتَعَثَّرُ خَلْفَهُ كَمَا يَتَعَثَّرُ الظِّلُّ خَلْفَ جُثَّةٍ لَمْ تُدْفَنْ...
خُطَايَ تَعْرِفُ الرَّمْلَ، وَتَعْرِفُ الشَّوْكَ، وَتَعْرِفُ اللَّيْلَ الَّذِي يَنْمُو كَطِفْلٍ شَرِسٍ عَلَى أَطْرَافِ القُرَى.
لَكِنَّهَا لَا تَعْرِفُ مَعْنَى الرُّجُوعِ...
فَمَنْ يَعُدْ يَعْتَرِفْ أَنَّ السُّورَ أَقْوَى مِنَ القَلْبِ، وَأَنَّ البِلَادَ الَّتِي خَلَّفَهَا وَرَاءَهُ كَانَتْ تُمَارِسُ المَوْتَ كَمَا تُمَارِسُ الأَمْطَارُ شِتَاءَهَا.
(تَسْقُطُ دَائِرَةُ ضَوْءٍ عَلَى المَلَاكِ الأَعْمَى، فَيَسِيرُ مُتَعَثِّرًا).
**المَلَاكُ الأَعْمَى:** يَا ابْنَ الطَّرِيقِ الغَرِيبِ، تَوَقَّفْ، إِنَّ الرِّيحَ الَّتِي تَسْبِقُكَ تَحْمِلُ حِكَايَةً لَمْ تُرْوَ بَعْدُ. أَنَا المَلَاكُ الَّذِي أَضَاعَ نُورَهُ فِي حَرْبٍ لَمْ يَفْهَمْهَا، وَأَنَا الآنَ أُفَتِّشُ عَنْ قَلْبِي كَيْ أَرَى بِهِ.
**إِيكار:** إِنْ كُنْتَ مُبْصِرًا بِالقَلْبِ، فَارْشِدْنِي... لَقَدْ سَئِمْتُ أَنْ أَرَى بِعَيْنٍ لَا تَرَى إِلَّا الأَسْلَاكَ.

(يَتَقَدَّمُ المَلَاكُ الأَعْمَى بِخُطُوَاتٍ تُرِنُّ كَقَطَرَاتٍ. يَمِيلُ الضَّوْءُ إِلَى الاصْفِرَارِ، وَتَلُوحُ الشَّمْسُ/الحُدُودُ فِي الخَلْفِيَّةِ كَجِدَارٍ يَحْتَرِقُ).

**المَلَاكُ الأَعْمَى:** إِنَّ الشَّمْسَ أَمَامَكَ، لَكِنَّهَا لَيْسَتْ شَمْسًا، إِنَّهَا فَصْلٌ مِنْ كِتَابِ الحَظْرِ، يُعَدِّدُ عَلَى العَابِرِينَ أَسْمَاءَ مَنْ سَقَطُوا قَبْلَهُمْ.

**إيكار:** أَمَا مِنْ طَرِيقٍ لَا يُشْعِلُ جِلْدِي؟ أَمَا مِنْ بَوَّابَةٍ لَا تُحَوِّلُ خُطْوَتِي إِلَى ذَنْبٍ؟ يَا مَلَاكًا أَعْمَى... هَلْ قَدَرُ السَّمَاءِ أَلَّا تَرَى الأَرْضَ حِينَ تَحْتَاجُهَا؟

**المَلَاكُ الأَعْمَى:** القَدَرُ هُوَ أَنْ نُولَدَ فِي مَكَانٍ لَا يَحْتَمِلُنَا، وَأَنْ نَبْحَثَ عَنْ مَكَانٍ لَا يَعْرِفُنَا، وَأَنْ نُعَاقَبَ فِي الحَالَتَيْنِ.

(يَزْدَادُ الضَّوْءُ الأَبْيَضُ تَوَهُّجًا، وَتُصَعِّدُ الجَوْقَةُ إِيقَاعَ خُطُوَاتِهَا كَضَرَبَاتِ قَلْبٍ).

**إيكار** (رَافِعًا قَدَمَيْهِ كَجَنَاحَيْنِ):

يَا حُدُودًا تَتَوَهَّجُ كَفَجْرٍ لَا يَنْتَظِرُ أَحَدًا... أَنَا ابْنُ الهَرَبِ، وَابْنُ التُّرَابِ، وَابْنُ الرَّكْضِ الَّذِي يَطْلُبُ حَيَاةً، حَتَّى لَوْ كَانَتْ عَلَى حَافَّةِ الغِيَابِ.

إِنَّ مَنْ لَا يَمْلِكُ جَنَاحَيْنِ لَا بُدَّ أَنْ يَسْتَعِيرَ مِنَ الأَرْضِ قُوَّةَ الطَّيَرَانِ.

**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** لَقَدْ دَخَلْتَ مَنْطِقَةً تُعَاقَبُ فِيهَا الخُطْوَةُ قَبْلَ أَنْ تَتِمَّ. إِنْ تَقَدَّمْتَ، مُحِيَ اسْمُكَ مِنْ كُلِّ دَفْتَرٍ، وَصِرْتَ رَقْمًا يَطْفُو عَلَى ظَهْرِ مَوْجَةٍ مَجْهُولَةٍ.

**إيكار** (يَصْرُخُ): إِذَنْ لِيُمْحَ اسْمِي، وَلْيَكْتُبْنِي الطَّرِيقُ كَمَا تَكْتُبُ القَصِيدَةُ حَرْفًا لَا يَعْرِفُ الانْطِفَاءَ.

**المَلَاكُ الأَعْمَى** (يَمُدُّ يَدَهُ نَحْوَ الفَرَاغِ):

لَا تَعْبُرْ... إِنَّ الضَّوْءَ هُنَاكَ فَخٌّ يُشْبِهُ الفَجْرَ، وَلَيْسَ وَعْدًا...

**إيكار:** وَمَنْ قَالَ إِنَّنِي أَبْحَثُ عَنْ وَعْدٍ؟ أَنَا أَبْحَثُ عَنْ مَكَانٍ لَا يَسْأَلُنِي عَنْ قَدَمَيَّ قَبْلَ أَنْ يَتْرُكَنِي أَمْشِي.

(يَرْكُضُ إِيكارُ، وَيَقْفِزُ، وَيَتَوَهَّجُ الضَّوْءُ حَوْلَهُ... يَدْخُلُ الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ وَيَجْلِسُ عَلَى صَخْرَةٍ).

**الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ:** كُلُّ العَابِرِينَ يَبْحَثُونَ عَنْ لَقْطَةٍ وَاحِدَةٍ... لَحْظَةٍ يَرَى فِيهَا المَرْءُ نَفْسَهُ بِلا مُطَارَدَةٍ.
وَلَكِنْ... مَنْ ذَا الَّذِي يَلْتَقِطُ صُورَةً لِلْحُرِّيَّةِ قَبْلَ أَنْ تُقْتَلَ؟

## التَّرْنِيمَةُ الرَّابِعَةُ: الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ

(أُنْشُودَةُ الظِّلِّ حِينَ يُحْفَظُ عَلَى الوَرَقِ)

**الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ** (يَجْلِسُ عَلَى الصَّخْرَةِ، وَيُلَامِسُ كَامِيرَتَهُ كَمَا يُلَامِسُ رَجُلٌ عَجُوزٌ سُبْحَتَهُ).
قِفْ، أَيُّهَا الهَارِبُ... دَعْنِي أَلْتَقِطْ لَكَ صُورَةً قَبْلَ أَنْ تَبْتَلِعَكَ الخُطُوَاتُ.
**إِيكار:** وَلِمَاذَا الصُّورَةُ؟ هَلْ سَتَجْمَعُ أَطْرَافِي إِذَا سَقَطْتُ؟
**الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ:** الصُّورَةُ لَا تُنْقِذُ أَحَدًا... لَكِنَّهَا تَمْنَحُ الظِّلَّ اسْمًا حِينَ يَضِيعُ الجَسَدُ.
أَنَا أُوَثِّقُ مَا تُحَاوِلُ الأَرْضُ نِسْيَانَهُ...
تَوَقَّفْ... أَرْجُوكَ، تَوَقَّفْ...
لَنْ يَأْخُذَكَ الهُرُوبُ كُلَّهُ مَرَّةً وَاحِدَةً.
دَعْنِي أَلْتَقِطْ لَكَ صُورَةً.
**إِيكار:** هَلْ سَتُعَلِّقُهَا عَلَى جِدَارٍ يُسَمِّيهِ النَّاسُ "النَّوْعَ البَشَرِيَّ"؟
**الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ** (بِهُدُوءٍ مُتْعَبٍ): أُصَوِّرُكَ... لِأَنْجُوَ بِكَ، وَلِأَنْجُوَ مِنْ نَفْسِي.
فَثِقْلُ مَنْ يَعْبُرُونَ الحُدُودَ يَسْقُطُ عَلَى قَلْبِي، وَلَا يَحْتَمِلُهُ قَلْبٌ وَاحِدٌ...
صُورَةٌ؟ نَعَمْ...
رُبَّمَا تَنْقُلُهُ مِنْ صَدْرِي إِلَى الوَرَقِ.
وَرُبَّمَا تَتَجَمَّدُ الصُّورَةُ فِي عَيْنَيَّ قَبْلَ أَنْ يَلْتَقِطَكَ الضَّوْءُ الآخَرُ.
**إِيكار** (بِمَرَارَةٍ): لَنْ تَنْفَعَنِي الصُّورَةُ إِذَا أَمْسَكَنِي الحَرَسُ.

**الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوز:** لَكِنَّهَا سَتَنْفَعُ شَخْصًا مَا حِينَ يَسْأَلُ:
"أَيْنَ ذَهَبَ هٰذَا الرَّاكِضُ؟"
وَتَكُونُ الصُّورَةُ جَوَابًا لَا يَعْرِفُ أَحَدٌ كَيْفَ يُفَسِّرُهُ.
**إِيكار:** أَأَهْرُبُ مِنْ حَدٍّ لِأَسْقُطَ فِي إِطَارٍ؟
**الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ** (يُلَمِّعُ زِرَّ الكَامِيرَا بِكُمِّهِ):
لَسْتُ أَصْطَادُكَ...
أُرِيدُ أَنْ أُنْقِذَكَ مِنَ النِّسْيَانِ.
لَعَلَّ طِفْلًا بَعْدَ عَامٍ يَرَى وَجْهَكَ وَيَقُولُ:
"هٰؤُلَاءِ أَسْلَافِي يَرْكُضُونَ فِي جَسَدِي".
الصُّوَرُ هِيَ آخِرُ مَا يَبْقَى حِينَ يَنْسَاكَ الجَمِيعُ.
**إِيكار:** لَكِنَّنِي لَا أُرِيدُ وَجْهًا مُجَمَّدًا... أُرِيدُ وَجْهًا يَحْمِلُ دَمِي وَهُوَ يَرْكُضُ.
**الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ:** وَهٰذَا مَا أَخْشَاهُ...
الرَّكْضُ يَمْحُو الوُجُوهَ.
وَيَجْعَلُهَا تُشْبِهُ البِلَادَ الَّتِي فَقَدَتْ أَبْنَاءَهَا.

## التَّرْنِيمَةُ الخَامِسَةُ
## أُنْشُودَةُ الضَّوْءِ الَّذِي يَحْرُسُ الأَرْضَ

(تَبْدَأُ الشَّمْسُ/الحُدُودُ فِي الِارْتِفَاعِ كَجِدَارٍ ضَوْئِيٍّ. تَدْخُلُ جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ كُتْلَةً وَاحِدَةً تَتَحَرَّكُ كَالأَمْوَاجِ).

**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ** (بِصَوْتٍ وَاحِدٍ):
أَوْرَاقُكَ...
جَوَازُكَ...
اسْمُكَ...

بَلَدُكَ...

سَبَبُ وُجُودِكَ...

سَبَبُ هُرُوبِكَ...

سَبَبُ أَنَّكَ لَا تَزَالُ تَتَنَفَّسُ...!

خَتْمٌ...

خَتْمٌ...

خَتْمٌ...

لَا مُرُورَ إِلَّا بِحُكْمِ الضَّوْءِ.

**إِيكار** (يُخْفِضُ رَأْسَهُ):

قَدَمَايَ هُمَا كُلُّ أَوْرَاقِي.

انْظُرُوا...

أَتَرَوْنَ النُّدُوبَ؟

هٰذَا خَتْمٌ لَا يُصْدِرُهُ بَلَدٌ...

اسْمَعُوا صَرِيرَ العِظَامِ...

إِنَّهُ خَتْمٌ قَدِيمٌ.

**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** أَوْقِفْ خُطْوَتَكَ!

مِنْ أَيْنَ جِئْتَ؟

مَا الَّذِي يَدْفَعُ قَلْبَكَ، كَمِطْرَقَةٍ، إِلَى خَارِجِ التُّرَابِ؟

**إِيكار:** قَدَمَايَ هُمَا اسْمِي،

وَطَرِيقِي هُوِيَّتِي،

وَالرَّكْضُ سَبَبِي.

**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** إِنْ كَانَ فِيكَ جُرْأَةٌ، فَاجْعَلْ هٰذِهِ الشَّمْسَ تَنْشَقُّ لَكَ...

إِنْ كَانَ فِيكَ جُرْأَةٌ، فَارْكُضْ...

ارْكُضْ...

ارْكُضْ...
فَالحُدُودُ لَا تَسْتَسْلِمُ إِلَّا لِمَنْ يَكْسِرُهَا.
(يَرْكُضُ إِيكارُ، وَتُطارِدُهُ الجَوْقَةُ بِأَصْوَاتِ البَحْرِ).
ارْكُضْ... ارْكُضْ... ارْكُضْ...
انْدَفَعَ الرَّاكِضُ كَمَنْ يُلْقِي بِنَفْسِهِ فِي مَوْجَةٍ لَا يَعْرِفُ أَسَتَحْتَضِنُهُ أَمْ سَتَبْتَلِعُهُ.
**إِيكار:** يَا شَمْسِيَ الَّتِي تَلُوحُ لِي كَسَيْفٍ لَا يَعْرِفُ الرَّحْمَةَ...
يَا حُدُودًا تَتَرَبَّصُ بِخُطْوَتِي كَمَا يَتَرَبَّصُ اللَّيْلُ بِآخِرِ شَمْعَةِ النَّاجِينَ...
لَنْ أَعُودَ.
لَنْ أَرْجِعَ مِنْ حَيْثُ أَتَيْتُ...
قَدَمَايَ هَاتَانِ، جَنَاحَايَ الفَقِيرَانِ، لَنْ يَخُونَا آخِرَ قَفْزَةٍ.
**المَلَاكُ الأَعْمَى** (صَارِخًا):
يَا إِيكارُ... إِيَّاكَ...
فَالحُدُودُ لَيْسَتْ أُفُقًا، إِنَّهَا قَفَصٌ مُعَلَّقٌ فِي الهَوَاءِ.
**إِيكار:** مَا دُمْتُ لَا أَمْلِكُ سَمَاءً، فَلْأَكُنْ أَنَا السَّمَاءَ.
وَمَا دُمْتُ لَا أَمْلِكُ جَنَاحَيْنِ، فَلْأَجْعَلِ الأَرْضَ تُقِلُّنِي كَمَا تُقِلُّ القَصَائِدُ دُمُوعَ الشُّعَرَاءِ.
**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:**
قِفْ...
قِفْ...
قِفْ...
إِنْ خَطَوْتَ خُطْوَةً أُخْرَى، أَعَدْنَاكَ إِلَى بَدَايَةِ الحِكَايَةِ.
**إِيكار:** وَمَنْ قَالَ إِنَّنِي أُرِيدُ نِهَايَةً غَيْرَ هٰذِهِ؟
(يَعْدُو. يَنْدَفِعُ. يَشْتَعِلُ الضَّوْءُ بِقُوَّةٍ. يَغِيبُ إِيكارُ فِي الضَّوْءِ. صَمْتٌ طَوِيلٌ.
تَتَكَلَّمُ الجَوْقَةُ بِنَبْرَةٍ تُشْبِهُ البُكَاءَ المَكْبُوتَ).

**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** سَقَطَ العَابِرُ...
لَكِنَّ سُقُوطَهُ لَمْ يَكُنْ مَوْتًا، كَانَ لُغَةً جَدِيدَةً لِلطَّيَرَانِ...
سَقَطَ كَمَا يَسْقُطُ اللَّيْلُ مِنْ قَلْبِ امْرَأَةٍ انْتَظَرَتْ، وَلَمْ يَعُدْ أَحَدٌ...
سَقَطَ، فَانْشَقَّ الجِدَارُ عَنْ رَائِحَةِ بَشَرٍ يَعْرِفُونَ مَعْنَى أَنْ يَهْرُبُوا وَلَا يَصِلُوا.
**الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ** (وَاقِفًا أَمَامَ الفَرَاغِ الَّذِي سَقَطَ فِيهِ إِيكار):
لَيْتَنِي الْتَقَطْتُ صُورَتَهُ الأَخِيرَةَ...
لَيْتَنِي حَبَسْتُهُ فِي مُرَبَّعٍ مِنْ ضَوْءٍ، قَبْلَ أَنْ تَصِيرَ ذِكْرَاهُ أَقْوَى مِنْ أَيِّ صُورَةٍ.
**المَلَاكُ الأَعْمَى** (يَضَعُ يَدَهُ عَلَى قَلْبِهِ):
أَرَاهُ...
أَرَاهُ الآنَ...
بِنَبْضٍ كَانَ مَيِّتًا ثُمَّ عَادَ.
لَقَدْ عَبَرَ العَابِرُ...
نَحْوَ مَكَانٍ،
نَحْوَ مَعْنًى لَا تَبْلُغُهُ الخَرَائِطُ.
**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ** (بِصَوْتٍ خَافِتٍ):
الَّذِينَ يَعْبُرُونَ... لَا يَعُودُونَ.
لِأَنَّ الأَرْضَ الَّتِي خَلَّفُوهَا وَرَاءَهُمْ لَمْ تَعُدْ تَعْرِفُ كَيْفَ تَنْطِقُ أَسْمَاءَهُمْ. [52]

---

[52]- **هَامِشُ الْأَرْوَاحِ الَّتِي عَبَرَتِ النَّهْرَ عَارِيَةً**
(نُسْخَةٌ مُحَرَّمَةٌ لَا تُقْرَأُ إِلَّا فِي اللَّيْلِ الثَّالِثِ)
(حِينَ عَبَرَتِ الْأَرْوَاحُ النَّهْرَ الْأَعْظَمَ، تَخَلَّتْ عَنْ أَسْمَائِهَا كَيْ لَا تَتَعَرَّفَ عَلَيْهَا الْمَلَائِكَةُ الْحَارِسَةُ، فَهِيَ تَعْلَمُ أَنَّ الِاسْمَ مِرْآةٌ... وَأَنَّ الْمِرْآةَ تُحَاكِمُ)
**الْهَامِشُ الْمُخْفِيُّ دَاخِلَ الْهَامِشِ:**
(لَا تُنَادِ رُوحًا بِاسْمِهَا... فَقَدْ يَنْكَسِرُ شَيْءٌ لَا يُمْكِنُ إِصْلَاحُهُ).

**الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوز:** لَقَدْ رَأَيْتُ الوُجُوهَ تَتَشَقَّقُ قَبْلَ أَنْ تَشِيخَ.
هٰذَا العَالَمُ يُصَوِّرُ مَأْسَاتَهُ، ثُمَّ يَرْمِي الشَّرِيطَ فِي سَلَّةِ المُهْمَلَاتِ.

## التَّرْنِيمَةُ السَّادِسَةُ
## (أُنْشُودَةُ الجَسَدِ حِينَ يَعْتَرِفُ بِضَعْفِهِ)

**إِيكار** (يَتَعَثَّرُ، وَيَسْقُطُ... تَقْتَرِبُ الشَّمْسُ/الحُدُودُ مِنْهُ كَضَوْءٍ كَاشِفٍ)
**المَلَاكُ الأَعْمَى:** لَا تَخَفْ...
السُّقُوطُ طَرِيقَةٌ لِكَيْ يَخْتَبِرَ الجَسَدُ هَشَاشَتَهُ وَيَعُودَ أَقْوَى...
لَا تَخَفْ، فَالسُّقُوطُ لَيْسَ نِهَايَةً.
**إِيكار:** لَكِنَّ الضَّوْءَ يُحَاصِرُنِي!
أَشْعُرُ أَنَّ الشَّمْسَ تَسْأَلُنِي عَنِ اسْمِي.
**المَلَاكُ الأَعْمَى:** الإِجَابَةُ فِي قَدَمَيْكَ...
انْهَضْ.
**إِيكار** (يَصْرُخُ):
لَا أَسْتَطِيعُ...
قَدَمَايَ ثَقِيلَتَانِ، كَأَنَّ بِلَادَ العَالَمِ كُلَّهَا تَجْلِسُ عَلَيْهِمَا!
**المَلَاكُ الأَعْمَى** (يَنْحَنِي فَوْقَهُ):
قُمْ...
السُّقُوطُ امْتِحَانُ الجَاذِبِيَّةِ.
هَلْ سَتَسْتَسْلِمُ لَهَا أَمْ سَتَخُونُهَا؟
**إِيكار** (يَلْتَقِطُ أَنْفَاسَهُ):
هٰذَا الضَّوْءُ...
يُشْبِهُ مَحْكَمَةً مَفْتُوحَةً تَحْكُمُ عَلَى خُطُوَاتِي.

**المَلَاكُ الأَعْمَى:** اكْسِرِ الضَّوْءَ، فَيَتَكَسَّرِ الحُكْمُ.

**إيكار** (تَرْتَفِعُ حَرَارَةُ الضَّوْءِ فَوْقَهُ):

آهِ... يَا قَدَمَيَّ...

أَبِهٰذِهِ الهَشَاشَةِ تَحْمِلَانِنِي؟

هَلْ وَرِثْتُمَا عَنِّي الخَوْفَ،

كَمَا وَرِثْتُ عَنْكُمَا الطَّرِيقَ؟

**المَلَاكُ الأَعْمَى** (مُنْبَسِطًا فَوْقَهُ):

قُمْ!

السُّقُوطُ نَافِذَةٌ أُخْرَى.

مَنْ لَا يَسْقُطْ لَا يَتَعَلَّمْ وَزْنَ الهَوَاءِ.

**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ** (تَتَكَوَّرُ كَجِدَارٍ مِنْ نَارٍ جَامِدَةٍ):

أَنَا لَسْتُ ضَوْءًا...

أَنَا امْتِحَانٌ.

كُلُّ مَنْ يَقْتَرِبُ مِنِّي يَحْمِلُ اسْمَهُ عَلَى كَفِّهِ،

ثُمَّ يَذُوبُ كَحِبْرٍ يَائِسٍ.

أَنْتَ، يَا أَيُّهَا العَابِرُ،

خُطْوَتُكَ أَكْبَرُ مِنْ إِذْنِ المُرُورِ.

فَكَيْفَ تُرِيدُ أَنْ تَعْبُرَ،

وَالأَرْضُ الَّتِي وُلِدْتَ فِيهَا لَمْ تَعُدْ تَذْكُرُكَ؟

## التَّرْنِيمَةُ السَّابِعَةُ

## (ذَاكِرَةُ البَيْتِ: أُنْشُودَةُ الحَنِينِ الَّذِي يَمْشِي)

(يَظْهَرُ ظِلُّ الأَبِ كَطَيْفٍ مِنْ جَدِيدٍ، وَتَتَحَوَّلُ الإِضَاءَةُ إِلَى دِفْءٍ حَمِيمٍ).

**ظِلُّ الأَبِ:** يَا وَلَدِي...

كُنْتَ تَرْكُضُ طِفْلًا خَلْفَ الدَّجَاجَاتِ، تَظُنُّهَا طُيُورًا سَتَأْخُذُكَ إِلَى الجَبَلِ، وَتَقُولُ: "سَأَسْبِقُهَا".
وَهَا أَنْتَ الآنَ تَرْكُضُ لِتَسْبِقَ الظِّلَّ...
تَرْكُضُ مِنْ أَجْلِ حَيَاةٍ تَسْبِقُ المَوْتَ.
**إيكار:** يَا أَبِي...
قَدَمَايَ تَحْتَرِقَانِ،
كَأَنَّ الحُدُودَ صَارَتْ جَمْرًا أَمْشِي فَوْقَهُ.
**ظِلُّ الأَبِ:** الجَمْرُ طَرِيقُ العَابِرِينَ...
كُنْتَ تَرْكُضُ طِفْلًا لِتَسْبِقَ مُهْرًا لَا يُحَلِّقُ،
وَهَا أَنْتَ اليَوْمَ تَرْكُضُ لِتَسْبِقَ مَوْتًا يُحَلِّقُ.
**إيكار:** يَا أَبِي...
كُلُّ خُطْوَةٍ أَقْطَعُهَا تُفْقِدُنِي شَيْئًا مِنْكَ.
**ظِلُّ الأَبِ:** الابْنُ لَا يَفْقِدُ أَبَاهُ...
إِنَّهُ يُعِيدُ خَلْقَهُ فِي كُلِّ خُطْوَةٍ.
**إيكار:** كُنْتَ تَقُولُ:
"إِنَّ الطَّرِيقَ لِلرِّجَالِ الَّذِينَ يَعْرِفُونَ وَجَعَ الأَرْضِ".
وَهَا أَنَا...
أَعْرِفُهُ الآنَ حَتَّى العَظْمِ.
**ظِلُّ الأَبِ:** إِذَنْ...
أَنْتَ رَجُلٌ.
لَكِنَّ الرَّجُلَ الحَقِيقِيَّ لَا يَهْرُبُ مِنَ البِلَادِ...
إِنَّهُ يَحْمِلُهَا مَعَهُ كَجَمْرٍ فِي القَلْبِ.
**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ** (تَتَقَدَّمُ، وَتُضَيِّقُ الدَّائِرَةَ حَوْلَ إِيكارَ):
مَنْ أَنْتَ؟

مِنْ أَيْنَ خَرَجْتَ؟

مِمَّاذَا تَهْرُبُ؟

مَاذَا تَحْمِلُ؟

**إيكار:** أَهْرُبُ مِنْ لَيْلٍ تَمْتَدُّ حُدُودُهُ مِنْ قَلْبِي إِلَى قَلْبِي.

وَأَحْمِلُ هٰذَا الجَسَدَ، وَمَا تَبَقَّى مِنْ مَعْنَى العَيْشِ.

**المَلَاكُ الأَعْمَى:** دَعُوهُ...

إِنَّهُ لَا يَمْلِكُ شَيْئًا سِوَى نَفْسِهِ.

**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** هٰكَذَا بَدَأَ إِيكارُ يَتْرُكُ ظِلًّا يَمْشِي أَمَامَهُ.

## التَّرْنِيمَةُ الثَّامِنَةُ

## (عَوْدَةُ الفُوتُوغْرَافِيِّ العَجُوزِ - أُنْشُودَةُ النُّهُوضِ)

(يَظْهَرُ الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ مِنْ بَيْنِ الظِّلَالِ، وَيُرَاقِبُ السُّقُوطَ).

**الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ:** سَقَطْتَ...

فَهَلْ تُرِيدُ أَنْ أَلْتَقِطَ سُقُوطَكَ؟

**إيكار:** لَا تُصَوِّرْنِي حِينَ أَسْقُطُ...

صَوِّرْنِي حِينَ أَنْهَضُ...

فَالوُقُوفُ قَرَارٌ،

وَالنُّهُوضُ ثَوْرَةٌ.

**الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ** (يَبْتَسِمُ):

كُلُّ نُهُوضٍ يَحْتَاجُ إِلَى شَاهِدٍ،

وَأَنَا الشَّاهِدُ الَّذِي لَنْ يُصَدِّقَهُ أَحَدٌ.

**إيكار:** لَا...

صَوِّرِ النُّهُوضَ فَقَطْ،

فَالقِيَامُ صَلَاةٌ،

وَالرَّكْضُ دُعَاءٌ لَا يَعْرِفُهُ السَّاجِدُونَ.

**الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ:** أَتَرَى؟

حَتَّى السُّقُوطُ يَبْدُو جَمِيلًا لِمَنْ يَنْظُرُ مِنْ بَعِيدٍ.

إِذَنْ انْهَضْ...

وَسَأَجْعَلُ قِيَامَتَكَ تَهُزُّ وَرَقَ الزَّمَانِ...

هَلْ أَصْبَحْتَ جَاهِزًا لِلصُّورَةِ؟

(يُوَجِّهُ الكَامِيرَا نَحْوَ الجُمْهُورِ. وَفِي الخَلْفِيَّةِ تَظْهَرُ الجَوْقَةُ وَهِيَ تَحْمِلُ خَرِيطَةً، تَبْسُطُهَا عَلَى الأَرْضِ، ثُمَّ تُحْرِقُ أَحَدَ أَطْرَافِهَا).

**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** كَانَ هُنَاكَ وَطَنٌ...

وَكَانَتْ هُنَاكَ نُقَاطٌ خَضْرَاءُ تُشِيرُ إِلَى المُدُنِ،

وَنُقَاطٌ سَوْدَاءُ تُشِيرُ إِلَى المَقَابِرِ.

لَكِنْ حِينَ اشْتَعَلَتِ الخَرِيطَةُ،

اخْتَفَى الوَطَنُ...

وَاخْتَفَى اسْمُهُ.

**إِيكار:** هٰذِهِ الخَرَائِطُ لَا تَعْرِفُ قَدَمَيَّ،

وَأَنَا لَا أَعْرِفُ لَهَا إِلَّا النَّارَ.

## التَّرْنِيمَةُ التَّاسِعَةُ

## أُنْشُودَةُ مُوَاجَهَةِ الضَّوْءِ

(تَقِفُ الشَّمْسُ/الحُدُودُ كَجِدَارٍ كَامِلٍ، وَيَعْلُو ضَوْءٌ أَحْمَرُ. يُسْمَعُ صَوْتُ إِطْلَاقِ نَارٍ بَعِيدٍ. يَقِفُ إِيكارُ وَحْدَهُ أَمَامَ الجِدَارِ الضَّوْئِيِّ، وَالجَوْقَةُ صَامِتَةٌ).

**إِيكار** (يَصْرُخُ):

أَيُّهَا الضَّوْءُ...

كَمْ مَرَّةً سَتَسْأَلُنِي: مِنْ أَيْنَ أَتَيْتُ؟

اسْأَلْنِي: إِلَى أَيْنَ أُرِيدُ أَنْ أَصِلَ؟

**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** لَا عُبُورَ إِلَّا لِلْمُسَجَّلِينَ.

**إيكار:** أَيُّهَا الضَّوْءُ...

لِمَاذَا تُفَتِّشُ جَيْبِي؟

هَلْ فِي الجَيْبِ وَطَنٌ؟

**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** لَا عُبُورَ إِلَّا لِلْمَخْتُومِينَ وَالمَعْرُوفِينَ.

**إيكار:** سَأَجْعَلُ اسْمِي خُطْوَةً،

وَخُطْوَتِي هُوِيَّةً،

وَهُوِيَّتِي صَرْخَةً تَرْكُضُ!

**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** العَالَمُ لَا يَعْرِفُ إِلَّا الأَجْوِبَةَ المَكْتُوبَةَ...

وَأَنْتَ لَا تَمْلِكُ شَيْئًا مَكْتُوبًا.

**إيكار:** سَأَكْتُبُ اسْمِي عَلَى الهَوَاءِ بِخُطْوَتِي،

وَسَأَجْعَلُ الهَوَاءَ يُوَقِّعُ.

**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** الهَوَاءُ لَا يَحْمِلُ خَتْمًا.

**إيكار:** إِنَّهُ يَحْمِلُ رُوحِي!

وَهَا أَنَا أَخْتِمُ نَفْسِي بِخُطْوَةٍ لَا تَسْتَطِيعُونَ مَحْوَهَا.

**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** هُنَالِكَ أَصْوَاتٌ تَتْبَعُ الهَارِبِينَ...

تَأْتِي مِنْ لَيْلٍ لَمْ يَزَلْ يَطْلُبُ دَمَهُمْ.

**إيكار** (يَتَرَنَّحُ):

كُلُّ طَلْقَةٍ هِيَ حَرْفٌ نَاقِصٌ فِي كِتَابِي.

وَكُلُّ صَرْخَةٍ هِيَ ظِلٌّ لَمْ يَتَعَلَّمِ السَّيْرَ مَعِي.

(يَرْكُضُ فَجْأَةً. يَخْتَرِقُ جِدَارَ الضَّوْءِ. تُحَاوِلُ جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ مَنْعَهُ، لَكِنَّ قَدَمَيْهِ تَخْتَرِقَانِ الخَطَّ. صَرْخَةٌ. سُقُوطُ الجَوْقَةِ).

# التَّرْنِيمَةُ العَاشِرَةُ
# (غِيَابُ المَلَاكِ: أُنْشُودَةُ العَابِرِ حِينَ يُصْبِحُ دَلِيلًا لِنَفْسِهِ)

**إيكار:** أَيْنَ ذَهَبْتَ؟

أَيُّهَا المَلَاكُ، هَلْ تَرَكْتَنِي؟

**صَوْتُ المَلَاك الأَعْمَى** (مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ):

حِينَ يَكْتَمِلُ الهَارِبُ، يَخْتَفِي الدَّلِيلُ.

**إيكار:** أَيْنَ أَنْتَ؟

يَا مَنْ قُدْتَنِي فِي السُّقُوطِ وَفِي الظَّلَامِ...

لِمَاذَا تَخْتَفِي الآنَ؟

**صَوْتُ المَلَاك الأَعْمَى:** لِأَنَّكَ الآنَ...

صِرْتَ أَنْتَ الطَّرِيقَ.

وَالطَّرِيقُ لَا يَحْتَاجُ إِلَى دَلِيلٍ.

**إيكار:** أَيْنَ نِدَاؤُكَ؟

أَحَجَبَتْكَ العَتْمَةُ أَمِ الضَّوْءُ؟

**صَوْتُ المَلَاك الأَعْمَى:** انْتَهَى دَوْرِي...

أَنْتَ العَابِرُ،

وَخُطْوَتُكَ هِيَ الدَّلِيلُ.

**إيكار:** قَدَمَايَ...

يَا جَنَاحَيَّ اللَّذَيْنِ لَا يُرَيَانِ...

احْمِلَانِي، حَتَّى لَوْ سَقَطَ هٰذَا الجَسَدُ.

**صَوْتُ المَلَاك الأَعْمَى** (صَارِخًا):

إِيَّاكَ!

فَمَا وَرَاءَ الحُدُودِ لَيْسَ حَيَاةً...
هُنَاكَ شَكْلٌ آخَرُ لِلْغِيَابِ.
**إيكار:** إِذَنْ فَلْأَغِبْ...
وَلٰكِنْ بِكَرَامَةِ الرَّكْضِ.
(يَقْفِزُ. يَنْفَجِرُ ضَوْءٌ أَبْيَضُ).

## التَّرْنِيمَةُ الحَادِيَةُ عَشْرَةَ
## (المَعْبَرُ الأَخِيرُ: أُنْشُودَةُ مَا بَعْدَ الضَّوْءِ)

(تَتَحَرَّكُ جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ، وَتُشَكِّلُ دَائِرَةً حَوْلَ إِيكارَ).
**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** مَا وَرَاءَ الضَّوْءِ لَيْسَ بَلَدًا...
إِنَّهُ صَمْتٌ وَاسِعٌ لَا يَلْبَسُ الحُدُودَ...
مَا وَرَاءَ الضَّوْءِ أَرْضٌ بِلا تَعْرِيفَاتٍ،
وَسَمَاءٌ بِلا لِجَانٍ،
وَهَوَاءٌ لَا يَطْلُبُ تَبْرِيرًا.
**إيكار:** هَلْ وَصَلْتُ؟
أَمْ أَنَّ الوُصُولَ مُجَرَّدُ أُفُقٍ جَدِيدٍ لِلْهَرَبِ؟
**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** الوُصُولُ حَرَكَةٌ...
لَا مَكَانٌ.
الوُصُولُ مَمَرٌّ...
لَا انْتِهَاءٌ.
**إيكار:** هَا أَنَا...
أَرْكُضُ لَا لِأَهْرُبَ...
لِأَصِيرَ مَا أَرَدْتُ أَنْ أَكُونَهُ:
إِنْسَانًا لَا يُعِدُّ خُطُوَاتِهِ،

وَلَا تُعِدُّهُ المَخَافِرُ.

**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** هَا أَنْتَ فَوْقَ أَرْضٍ لَا تَنْتَمِي إِلَى اسْمٍ،

وَلَا يُفَتِّشُكَ فِيهَا الهَوَاءُ.

## التَّرْنِيمَةُ الثَّانِيَةُ عَشْرَةَ
## أُنْشُودَةُ الأَجْنِحَةِ الأَرْضِيَّةِ

(يَظْهَرُ الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ مِنْ جَدِيدٍ).

**الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ:** قِفِ الآنَ...

فَالضَّوْءُ خَلْفَكَ،

وَالظِّلُّ صَارَ هَادِئًا.

هٰذِهِ الصُّورَةُ لَنْ تَلْتَقِطَ وَجْهَكَ فَقَطْ،

سَتَلْتَقِطُ أيضًا اللَّحْظَةَ الَّتِي تَخْطُو فِيهَا عَلَى سَمَاءٍ.

**إِيكار:** هَا هُمَا جَنَاحَايَ...

قَدَمَايَ.

كُلَّمَا نَزَفَتَا، ارْتَفَعْتُ أَنَا...

**الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ** (وَهُوَ يَقْتَرِبُ أَكْثَرَ):

دَعْنِي أَلْتَقِطْ صُورَتَكَ.

فَقَدْ عَبَرْتَ الضَّوْءَ،

وَصَارَ ظِلُّكَ أَخِيرًا مِلْكَكَ.

**إِيكار** (يَنْظُرُ إِلَى قَدَمَيْهِ):

هَا هُمَا جَنَاحَايَ...

احْتَرَقَتَا،

وَنَزَفَتَا،

لَكِنَّهُمَا حَمَلَانِي إِلَى حَيْثُ لَمْ تَسْتَطِعِ الشَّمْسُ أَنْ تُسْقِطَنِي.

**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ** (بِهَمْسٍ ثَقِيلٍ):
لَمْ يَسْقُطْ...
لَمْ يَسْقُطْ...
انْقَسَمَ:
نِصْفُهُ صَارَ ضَوْءًا يَتِيمًا،
وَنِصْفُهُ صَارَ ظِلًّا يَبْحَثُ عَنْ جَسَدٍ.
**الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ:** الْتَقَطْتُهُ...
وَلٰكِنَّ الصُّورَةَ بَيْضَاءُ.
لَا شَيْءَ فِيهَا سِوَى أَثَرِ عُبُورٍ لَمْ يَسْتَطِعِ الضَّوْءُ أَنْ يَحْتَفِظَ بِهِ.
**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ** (تُغَنِّي):
هٰذِهِ سِيرَةُ إِيكارَ...
الَّذِي لَمْ تُسْقِطْهُ الشَّمْسُ،
وَصَنَعَ طَرِيقًا يَمْشِيهِ القَادِمُونَ بَعْدَهُ.
**إِيكار** (يَرْفَعُ قَدَمَيْهِ):
هَا هُمَا جَنَاحَايَ...
هَا هِيَ قَصِيدَتِي.
**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ** (تَرْفَعُ أَصْوَاتَهَا):
هٰذِهِ سِيرَةُ الرَّاكِضِ...
الَّذِي اخْتَرَقَ الضَّوْءَ.
**الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ:** وَلَمْ يُحْرِقْهُ الضَّوْءُ،
لَكِنَّهُ فَتَحَ لَهُ بَابًا،
فِي آخِرِهِ سَمَاءٌ يُمْكِنُ السَّيْرُ عَلَيْهَا.
**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ** (تُنْشِدُ):
يَا أَيُّهَا الرَّاكِضُ فِي زَمَنٍ صَارَ فِيهِ الهَرَبُ هُوَ الوَطَنَ...

عَلَّمَتْنَا قَدَمَاكَ مَا لَمْ تُعَلِّمْهُ الأَسَاطِيرُ:
أَنَّ الجَسَدَ، حِينَ يَرْفُضُ القَيْدَ، يُصْبِحُ جَنَاحًا،
وَأَنَّ السُّقُوطَ، إِنْ كَانَ مِنْ أَجْلِ العُبُورِ، يَصِيرُ طَيَرَانًا لَا يَعْرِفُهُ إِلَّا مَنْ جَرَّبَ أَنْ يَرْكُضَ بِلا سَمَاءٍ.

(يَظْهَرُ المَلَاكُ الأَعْمَى، وَيَجْلِسُ، وَيَضَعُ يَدَهُ عَلَى الأَرْضِ).

**المَلَاكُ الأَعْمَى:** أَرَاهُ...
فِي هٰذَا التُّرَابِ.
بَيْنَ ذَرَّاتٍ تَتَوَهَّجُ حِينَ تُلَامِسُهَا خُطَاهُ.
لَقَدْ صارَ العَابِرُ مَعْنًى لَا يَمُوتُ...

**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** هٰكَذَا...
رَكَضَ العَابِرُ حَتَّى صَارَ هُوَ ذَاتَهُ حَدًّا جَدِيدًا لَا تَعْرِفُهُ الخَرَائِطُ.
صَارَ الرِّيحَ حِينَ تَتَذَكَّرُ أَنَّهَا كَانَتْ يَوْمًا ابْنَةَ طَائِرٍ.
وَصَارَ اللَّيْلَ حِينَ يَبْتَلِعُ السُّورَ وَيَتَظَاهَرُ بِأَنَّهُ أُفُقٌ.

(يَتَقَدَّمُ الجَمِيعُ نَحْوَ مُقَدِّمَةِ المَسْرَحِ).

**الجَمِيعُ** (بِصَوْتٍ جَمَاعِيٍّ، كَصَدَى الأَرْضِ وَالسَّمَاءِ):
سَلَامٌ عَلَى الرَّاكِضِ حِينَ يَخْتَرِقُ الضَّوْءَ،
وَسَلَامٌ عَلَى الخُطْوَةِ إِذَا صَارَتْ وَطَنًا...
وَسَلَامٌ عَلَى قَدَمَيْنِ صَنَعَتَا أَثَرًا أَقْوَى مِنَ الرِّيحِ.
وَسَلَامٌ عَلَى هَارِبٍ صَنَعَ مِنَ التُّرَابِ جَنَاحًا لَا يَنْكَسِرُ.

(تَنْطَفِئُ الأَنْوَارُ بِبُطْءٍ... وَتَبْقَى بُقْعَةُ ضَوْءٍ صَغِيرَةٌ عَلَى قَدَمَيْ إِيكار).

**السِّتَارُ**

١٤

## النَّشِيدُ الرَّابِعُ عَشَرَ

## نَشِيدُ العَمَاءِ وَالأَسْمَاءِ

## (مَزَامِيرُ مِنْ "كِتَابٍ مُقَدَّسٍ مَفْقُودٍ" تُتْلَى فِي كَنِيسَةٍ مُظْلِمَةٍ)

(أَرَادَ السَّارِدُ أَنْ يُبَارِكَ السَّرْدَ وَتَأَرْجُحَهُ، وَأَنْ يَدْفَعَ بِالثَّرْثَرَةِ كَأَبَارِيقَ قَعَّرَتِ المَلْهَاةُ مَدَاهَا بِالأَقْدَارِ. وَأَنْ يَسْتَحْضِرَ أَرْوَاحَ العَالِقِينَ بَيْنَ الحُدُودِ وَالمخَافِرِ، بِصَوْتٍ يَخْتَلِطُ فِيهِ الإِنْشَادُ بِالأَسْرَارِ، وَبِرَدَّاتٍ تَتَجَاوَبُ مَعَ المُنْشِدِ كَمَا تَتَجَاوَبُ أَصْدَاءُ القَنَادِيلِ فِي الكَنَائِسِ.

وَهَا هُوَ يُعِيدُ التَّعْرِيفَ بِالشَّخْصِيَّاتِ):

بِاسْمِ النُّورِ الَّذِي يَتَدَلَّى مِنْ أَهْدَابِ الغَيْبِ،
وَبِاسْمِ الأَسْمَاءِ الَّتِي لَا تَنْطِقُهَا الرِّيَاحُ إِلَّا هَمْسًا،
وَبِاسْمِ الأَرْوَاحِ الشَّارِدَةِ بَيْنَ المَخَافِرِ وَالحُدُودِ،
أُسَطِّرُ هٰذِهِ المَخْطُوطَةَ، وَأَجْمَعُ شَتَاتَهَا،
وَأَضُمُّ فُصُولَهَا كَمَا تُضَمُّ الرُّقَى البَاطِنِيَّةُ فِي صُدُورِ الرُّهْبَانِ.
هٰذَا نَشِيدُ العَمَاءِ وَالأَسْمَاءِ...
سِفْرُ الدَّهْشَةِ حِينَ تَلْتَقِي العَتْمَةُ بِزَيْتِ النُّبُوءَةِ،
وَسِفْرُ الأَقْدَارِ حِينَ تَسْكَرُ الرُّمُوزُ وَتَتَمَايَلُ كَمَا تَتَمَايَلُ السَّعَفَاتُ أَمَامَ هَيْكَلٍ مَنْسِيٍّ.
هُنَا تَبْدَأُ الكَلِمَاتُ بِالانْحِنَاءِ،
وَتُمْسِكُ المَلَائِكَةُ أَذْيَالَ العِبَارَةِ،
وَيَتَقَدَّمُ اللَّيْلُ كَشَمْعَدَانٍ أَسْوَدَ يُضِيءُ بِالخَفَاءِ.

مَزْمُور

## مَزْمُورُ جَوْقَةِ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ

(بِصَوْتٍ مُنْخَفِضٍ، بَطِيءٍ):

نَحْنُ جَوْقَةُ الأَشْبَاحِ،

أَبْنَاءُ المَلَاحِمِ الَّتِي لَمْ تَكْتَمِلْ،
وَأَحْفَادُ القَصَائِدِ الَّتِي كَتَبَتْ نَفْسَهَا عَلَى جُلُودٍ بَعِيدَةٍ.
مِنَ الفِرْدَوْسِ إِلَى المَنْفَى،
وَمِنْ بَحْرِ الظُّلُمَاتِ إِلَى بِحَارٍ أُخْرَى تَعَلَّمَتِ الغَرَقَ بِلُغَاتٍ جَدِيدَةٍ.
وَحِينَ نَعْبُرُ، لَا نُغْلِقُ البَابَ.
نَتْرُكُهُ مُوَارَبًا كَيْ يَدْخُلَ القَادِمُونَ، وَيُضِيفُوا أَصْوَاتَهُمْ إِلَى نَشِيدٍ لَا يَنْتَهِي.
نَحْنُ الَّذِينَ لَمْ نَعُدْ، وَلَمْ نُغَادِرْ.
نَحْنُ الصَّدَى الَّذِي تَعَلَّمَ اسْمَهُ بَعْدَ الفَمِ،
وَالخُطْوَةُ الَّتِي عَبَرَتِ البَحْرَ وَنَسِيَتْ أَيَّ شَاطِئٍ كَانَتْ تَقْصِدُهُ.
نَقِفُ خَلْفَ الزَّمَنِ، كَجَوْقَةٍ بِلا أَقْنِعَةٍ،
نَرْفَعُ أَصْوَاتَنَا لِنَرْوِيَ كَيْفَ كَانَتْ تُرْوَى الحِكَايَةُ حِينَ كَانَتِ الآلِهَةُ تَمْشِي حُفَاةً عَلَى طِينِ البَشَرِ.

نَحْنُ شُهُودُ المَلَاحِمِ، لَكِنَّنَا لَسْنَا مُحَايِدِينَ.
كُنَّا الرُّمْحَ حِينَ تَرَدَّدَ فِي الهَوَاءِ،
وَالأُمَّ حِينَ سَمَّتِ ابْنَهَا قَبْلَ أَنْ تُعَلِّمَهُ المَوْتَ.
نَقُولُ هٰذَا فِي طَقْسِ العُبُورِ:
نَخْلَعُ أَسْمَاءَنَا كَمَا تُخْلَعُ الدُّرُوعُ،
وَنَعْتَرِفُ، بِخَطَايَانَا، وَبِمَا وَرِثْنَاهُ مِنْ صَمْتٍ.
فَالاعْتِرَافُ لَيْسَ طَلَبَ الغُفْرَانِ،
إِنَّمَا هُوَ اسْتِعَادَةُ الصَّوْتِ مِمَّنْ تَكَلَّمُوا بِاسْمِنَا.

نُنْشِدُ الأَسْرَارَ،
لِأَنَّهَا لَا تُقَالُ إِلَّا جَمَاعِيًّا.
الصَّوْتُ وَحْدَهُ لَا يَكْفِي،
وَلَا السَّرْدُ وَحْدَهُ يُنْقِذُ المَعْنَى.
يَجِبُ أَنْ تَخْتَلِطَ القِصَّةُ بِالتَّرْتِيلِ،
وَأَنْ يَتَكَسَّرَ الزَّمَنُ كَمَا يَتَكَسَّرُ الإِيقَاعُ فِي الصَّدْرِ.
نَحْنُ أَبْنَاءُ لُغَةٍ مَشْرُوخَةٍ،

نُصَلِّي بِكَلِمَاتٍ لَيْسَتْ لَنَا تَمَامًا،
لَكِنَّنَا شَوَّهْنَاهَا بِمَا يَكْفِي كَيْ تَعْتَرِفَ بِنَا.

هُنَا، فِي هٰذَا الإِنْشَادِ،
نُنْشِدُ النَّزِيفَ،
لِأَنَّ السِّرَّ لَمْ يَعُدْ خَفِيًّا.
السِّرُّ صَارَ ثَقِيلًا...
نُنْشِدُ كَيْ نُخَفِّفَ الحِمْلَ عَنْ أَكْتَافِ الأَحْيَاءِ.

يَا أَسْلَافَنَا،
أَيُّهَا الَّذِينَ لَمْ تُكْتَبْ أَسْمَاؤُهُمْ إِلَّا فِي دَفَاتِرِ القَتْلَى،
هَا نَحْنُ نَمْنَحُكُمْ مَلْحَمَةً.
لَيْسَتْ مِنْ ذَهَبٍ،
وَلَا مِنْ آلِهَةٍ،
مَلْحَمَةً مِنْ عَرَقٍ،
وَمِنْ مَشْيٍ طَوِيلٍ تَعَلَّمَ الكَرَامَةَ بَعْدَ فَوَاتِ الأَوَانِ.
لَسْنَا هُنَا لِنَرْوِيَ تَارِيخًا،
نَحْنُ جِئْنَا لِنَفْتَحَهُ.
لَسْنَا هُنَا لِنَسْتَحْضِرَ المَوْتَى،
نَحْنُ جِئْنَا لِنُعِيدَهُمْ إِلَى الصَّوْتِ.
فَلْيُفْتَحِ الفَمُ،
وَلْيَتَقَدَّمِ النَّفَسُ.
نَقُولُ هٰذَا فِي طَقْسِ الاعْتِرَافِ:
اعْتَرَفْنَا بِالهَزِيمَةِ حِينَ أُجْبِرْنَا عَلَى الصَّمْتِ،
وَاليَوْمَ نَعْتَرِفُ بِالصَّوْتِ.
الصَّوْتُ هُوَ عُبُورُنَا.

(رَدِّدُوا مَعَنَا)
**الصَّوْتُ هُوَ العُبُورُ.**
**الصَّوْتُ هُوَ العُبُورُ.**

مَزْمُورٌ

## مَزْمُورُ إِيكار

## المَوْلِدُ المَنْقُوشُ عَلَى جَبِينِ النُّورِ

(بِلَحْنٍ يَسْفَحُ النَّشِيدَ عَلَى قِيثَارَةٍ مُحطَّمَةٍ، وَبِبُخُورٍ يَتَصَاعَدُ بَيْنَ الحُرُوفِ، كَأَنَّ الجَوْقَةَ تَتْلُوهُ فِي قُدَّاسِ الأَسْرَارِ الخَفِيَّةِ. كَأَنَّهُ سِفْرٌ مِنْ مَخْطُوطَةِ "**الخَتْمِ السِّرِّيِّ**"، النُّسْخَةِ الَّتِي تُتْلَى عَلَى الجَبَلِ قَبْلَ انْفِتَاحِ السَّدِيمِ).

هُوَ ابْنُ النَّفَسِ الأَوَّلِ، وَابْنُ العُذُوبَةِ المُهَرَّبَةِ مِنْ فَمِ الأَزَلِ، وَابْنُ الجَمَالِ حِينَ كَانَ الضَّوْءُ يَتَهَجَّى أَسْمَاءَهُ عَلَى المَاءِ.

صَدْرُهُ مُعَلَّقٌ بِاثْنَتَيْ عَشْرَةَ تَعْوِيذَةً، وَبِسِلْسِلَتَيْنِ مِنْ فِضَّةٍ يُقَالُ إِنَّهُمَا انْسَكَبَتَا مِنْ كُمِّ مَلَاكٍ، وَبِلَوْحٍ مَنْقُوشٍ عَلَيْهِ أَسْمَاءٌ لَا يُفْصَحُ عَنْهَا إِلَّا لِمَنْ غُسِلَتْ رُوحُهُ بِعَيْنٍ صَقَلَهَا المِلْحُ وَالبُكَاءُ.

بَعْضُ رُمُوزِهِ حَمَلَهَا البَحْرُ إِلَيْهِ يَوْمَ عَطَسَ المَوْجُ، فَأَخْرَجَ أَسْرَارًا دَفَنَهَا النَّوْرَسُ فِي شُقُوقِ صَوْتِهِ.

شَعْرُهُ أَحْمَرُ مِنَ الطِّيبِ، لَوْنُهُ كَلَوْحٍ مَكْتُوبٍ بِمِدَادٍ كَانَ البَحْرُ أَوْكَلَهُ إِلَى الحِيتَانِ كَيْ تَحْرُسَهُ فِي عَتْمَةِ الأَعْمَاقِ.

هُوَ السُّرُورُ بِالحَقِّ، كَأَنَّ النَّغَمَ مَمَرُّهُ الوَحِيدُ إِلَى الغَيْبِ.

هُوَ مَنْفًى تَحْرُسُهُ الكَمَانَاتُ عَلَى هِضَابٍ مِنَ الدُّمُوعِ الصَّافِيَةِ.

هُوَ رِئَةُ المَحَبَّةِ إِذَا اخْتَنَقَتْ، وَنَايٌ إِذَا نَفَخَ فِيهِ المَلَائِكَةُ ارْتَجَفَتِ الأَقَالِيمُ، وَخَرَجَتْ عَارِيَةً مِنْ تَارِيخِهَا.

هُوَ مَنْفًى تَحْرُسُهُ الكَمَانَاتُ عَلَى هِضَابٍ تَفِيضُ مِنْ دُمُوعِهَا نُبُوءَاتٌ مُحْتَرِقَةٌ.

وَعِنْدَمَا وُلِدَ، هَبَطَ مَعَهُ سِرْبٌ مِنْ مَلَائِكَةِ الظِّلِّ لَا يُحْصَى عَدَدُهُ.

وَقِيلَ إِنَّ الأَفْلَاكَ رَجَفَتْ خَشْيَةً.

وَقِيلَ .كَمَا هَمَسَتْ عَرَّافَةٌ عَمْيَاءُ فِي سُوقِ الرَّمَادِ:

"إِنَّ اسْمَهُ مَخْطُوطٌ عَلَى جَبِينِ آدَمَ، وَوَجْهُهُ مَنْقُوشٌ عَلَى جَنَاحِ جِبْرِيلَ يَوْمَ كَانَ الجَنَاحُ كِتَابًا لَا يُقْرَأُ".

هُوَ المُفْرَدُ، الوَاحِدُ الَّذِي تُضَاءُ لَهُ الأَدْعِيَةُ كَمَا تُضَاءُ ثُرَيَّاتُ المَذَابِحِ.

هُوَ الضَّرِيحُ المُتَقَدِّمُ عَلَى مَوْتِهِ، وَالمَدِيحُ الَّذِي يَثِبُ إِلَى أَعَالِي المَدِيحِ.
وَحُلْمُهُ كَانَ حُلْمَ رُعَاةٍ وَتَنِّينٍ، تَرَكُوا قُطْعَانَهُمْ فَوْقَ دَالِيَةِ المَغِيبِ، وَتَوَسَّدُوا سِلَالًا مِنْ غَيْمٍ ضَائِعٍ، وَسُكُونًا يَتَفَكَّكُ بَيْنَ الأَصَابِعِ.
ثُمَّ انْطَلَقُوا فِي أَقَالِيمِ الهَوَاءِ، يُحْصُونَ الصَّيْدَ المَرْمِيَّ، كَأَنَّهُمْ يُفَتِّشُونَ عَنْ جَوْهَرِ الوُجُودِ النَّافِرِ مِنَ الزَّمَنِ.
فَجَاءَتِ الحَيَوَانَاتُ قَطِيعًا لَا يُعَدُّ:
ثَدِيَّاتٌ، وَوُعُولٌ، وَحَمِيرُ وَحْشٍ، وَظِبَاءٌ وَثَّابَةٌ، وَزَوَاحِفُ، وَطُيُورٌ، وَأَسْمَاكٌ، وَوُحُوشٌ تَعْبُرُ كَأَنَّهَا رَسَائِلُ مَجْهُولَةٌ هَارِبَةٌ مِنْ دَفَاتِرِ الخَلِيقَةِ.
وَانْدَفَعَتِ الشَّوَاهِينُ تَجُرُّ هِجْرَاتِهَا كَدَبَكَاتٍ سَمَاوِيَّةٍ.

وَتَعَالَتِ الابْتِهَالَاتُ.
وَصَعِدَ الرُّعَاةُ بِدُرُوعِهِمُ المَنْسُوجَةِ مِنْ خَوَارِزْمِيَّاتِ الغُبَارِ، يُلَمِّعُونَ ذُيُولَ الغَيْمِ، وَيَهَبُونَ البَرَّ أَنْخَابًا مِنَ الفِرْدَوْسِ.
وَعَلَى البَحْرِ كَانُوا يَذْرَعُونَ أَمْوَاجَهُ بِتَحِيَّاتٍ تَلْمَعُ كَالأَيْقُونَاتِ.
هَؤُلَاءِ الرُّعَاةُ،
هَؤُلَاءِ الصَّحَابَةُ،
هَؤُلَاءِ التَّابِعُونَ،
سَأَرْفَعُهُمْ إِلَى مَرْتَبَةِ المُلُوكِ،
وَأُطْرِبُ فِي مَدِيحِهِمْ،
حَتَّى أَهْدِمَ . بِفَأْسِ الهَذَيَانِ . شُرْفَةَ المُتَعَذِّرِ،
وَأَفْتَحَ بَابًا لِلْمَعْنَى لَا يُقْفَلُ بَعْدَهُ شَيْءٌ.
وَأَجْعَلَ المُسْتَحِيلَ قِنْدِيلًا يُوضَعُ عَلَى بَابِ هٰذَا النَّشِيدِ.

**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** نَحْنُ الَّذِينَ جَاؤُوا بِلا أَسْمَاءٍ،
مَحْمُولِينَ فِي فَمِ البَحْرِ،
مَعْدُودِينَ كَأَحْمَالٍ، لَا كَحَيَوَاتٍ.

**نُنْشِدُ كَيْ نَعْبُرَ.**
**نُنْشِدُ كَيْ نَتَذَكَّرَ.**
**نُنْشِدُ كَيْ لَا نُمْحَى.**

## مَزْمُورُ المَلَاكِ الأَعْمَى عِنْدَ خَطِّ الفَصْلِ

لَمْ يَكُنْ لِي اسْمٌ حِينَ عَبَرْتُ.
كُنْتُ صَدَى خَطِيئَتِي، وَحَفْنَةَ تُرَابٍ مَا زَالَتْ تَتَذَكَّرُ النَّارَ.
أَنَا مَلَاكٌ أَعْمَى، لَا يَرَى الطَّرِيقَ، لَكِنَّهُ يَعْرِفُ الوَزْنَ الخَفِيَّ لِلْأَرْوَاحِ.
يَعْرِفُ كَيْفَ تَمِيلُ الخُطْوَةُ حِينَ يَتَسَاوَى المَنْفَى مَعَ الوَطَنِ.
حِينَ خَلَقَنِي الرَّبُّ، أَمْسَكَنِي مِنْ مِعْصَمِي، وَقَالَ لِي:
"لَا تَنْظُرْ خَلْفَكَ، فَالحُدُودُ لَيْسَتْ خُطُوطًا عَلَى الأَرْضِ، إِنَّهَا ارْتِجَافَةٌ فِي الضَّمِيرِ".
وَكَانَ صَوْتُهُ مَزِيجًا مِنْ مَزْمُورٍ مَكْسُورٍ، وَتَرْتِيلَةٍ نُسِيَتْ فِي لَاهُوتٍ أَقْدَمَ مِنَ الخَلَاصِ.
وَحِينَ أَرْسَلَنِي إِلَى الأَرْضِ كَيْ أَقُودَ شَاعِرًا هَارِبًا عَبْرَ الحُدُودِ، كَانَ اللَّيْلُ كَاتِدْرَائِيَّةً بِلَا سَقْفٍ، وَالنُّجُومُ شُمُوعَ اعْتِرَافٍ مُرْتَجِفَةً، وَالرِّيحُ تَقْرَأُ الأَسْمَاءَ مِنْ سِفْرٍ لَمْ يُكْتَبْ.

قَالَ الشَّاعِرُ الهَارِبُ:
"أَحْمِلُ لُغَتِي كَجُرْحٍ مَفْتُوحٍ، وَأُبَدِّلُ الأَوْطَانَ كَمَا تُبَدَّلُ الأَقْنِعَةُ فِي طُقُوسِ التَّطْهِيرِ".
فَقُلْتُ لِلشَّاعِرِ الهَارِبِ، دُونَ أَنْ أَلْتَفِتَ:
"الهُرُوبُ تَأَخُّرُ الرُّوحِ عَنِ المَغْفِرَةِ، وَلَيْسَ حَرَكَةَ الجَسَدِ".
عِنْدَ العَلَامَةِ الحَجَرِيَّةِ بَيْنَ البَلَدَيْنِ
**(حَيْثُ تَصْمُتُ الخَرَائِطُ وَتَبْدَأُ الأَسْئِلَةُ)**

تَوَقَّفْتُ، وَرَفَعْتُ جَنَاحَيَّ كَكَاهِنٍ يُبَارِكُ الغِيَابَ.
وَقُلْتُ لِلشَّاعِرِ الهَارِبِ:
"اعْتَرِفْ...
اعْتَرِفْ...
بِالأَسْمَاءِ الَّتِي خُنْتَهَا،
وَبِالصَّلَوَاتِ الَّتِي أَنْشَدْتَهَا دُونَ إِيمَانٍ،
وَبِالكَلِمَاتِ الَّتِي جَعَلْتَهَا أَجْمَلَ مِنَ الحَقِيقَةِ".
وَكَانَ النَّدَمُ يَتَسَرَّبُ مِنْ فَمِ الشَّاعِرِ الهَارِبِ كَنَبِيذٍ دَاكِنٍ يَبْحَثُ عَنْ مَذْبَحٍ.

عِنْدَهَا فَقَطْ، أَفْلَتَ الشَّاعِرُ الهَارِبُ مِنْ يَدِي.
وَقُلْتُ:
"اعْبُرْ وَحْدَكَ.
فَالعَمَى [53] الَّذِي فِيكَ صَارَ الآنَ بَصِيرَةً.
اعْبُرْ وَحْدَكَ.
فَالعَمَى الَّذِي فِيكَ صَارَ الآنَ وَعْيًا.
وَأَنَا لَا أَقُودُ إِلَّا مَنْ لَمْ يَعُدْ يَحْتَاجُ إِلَى مَلَاكٍ".
لَمْ يَعْبُرِ الشَّاعِرُ الهَارِبُ إِلَى بَلَدٍ آخَرَ.
إِنَّمَا عَبَرَ إِلَى ثِقَلٍ جَدِيدٍ مِنَ الضَّوْءِ،
حَيْثُ يَصِيرُ الشِّعْرُ شَهَادَةً.
أَنَا المَلَاكُ الَّذِي لَا يَرَى، لِأَنَّ العَمَى هُوَ آخِرُ أَشْكَالِ العَدَالَةِ.
أَقُودُ الهَارِبِينَ عَبْرَ مَا تَتْرُكُهُ المَمَالِكُ فِي الصُّدُورِ حِينَ تَضَعُ أَسْمَاءَهَا عَلَى البَنَادِقِ.
لَا أَسْأَلُ عَنْ جَوَازَاتِ السَّفَرِ، فَالمَلَائِكَةُ لَا تَعْتَرِفُ بِالأَخْتَامِ، وَلَا بِاللُّغَاتِ الَّتِي تُفْرَضُ ثُمَّ تُسَمَّى هُوِيَّةً.
أَضَعُ جَنَاحِي عَلَى كَتِفِ الشَّاعِرِ الهَارِبِ
(**هٰذَا الَّذِي حَمَلَ بِلَادَهُ فِي فَمِهِ فَأُدِينَ بِالكَلِمَاتِ**)،
وَأَقُودُهُ إِلَى حَيْثُ تَتَعَرَّى الجُغْرَافِيَا مِن ادِّعَائِهَا.
هُنَا، عِنْدَ هٰذَا الخَطِّ الَّذِي رَسَمَتْهُ الكَوَاكِبُ المُنْطَفِئَةُ، ثُمَّ بَارَكَتْهُ التِّيجَانُ، تَتَكَدَّسُ العِظَامُ تَحْتَ التُّرَابِ كَحَاشِيَةٍ صَامِتَةٍ لِلقَدَرِ.
أَنَا لَا أَرَى الأَسْلَاكَ الشَّائِكَةَ، لَكِنِّي أَسْمَعُ أَنِينَهَا حِينَ تَعْبُرُهَا الأَجْسَادُ الخَطَأُ فِي الزَّمَنِ الخَطَأِ، بِاللُّغَةِ الخَطَأِ.

---

[53]- **فِي خَزَائِنِ الظَّلَامِ الَّتِي تُفْتَحُ مَرَّةً وَاحِدَةً:** تَحْكِي الرَّسَائِلُ الْعَتِيقَةُ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الْعُمْيَانِ دَخَلُوا قَاعَةً لَا يُسْمَحُ لِلْمُبْصِرِينَ بِالْمُرُورِ مِنْهَا، لِأَنَّ مَا فِيهَا مِنْ أَسْرَارٍ يَطْعَنُ النُّورَ كَمَا يَطْعَنُ الظَّلَامَ... وَحِينَ سَأَلْتُ أَحَدَهُمْ، قَالَ: (هُنَاكَ رُؤًى لَا تُعْرَضُ عَلَى الْعَيْنِ... تُسْكَبُ فِي الْعِظَامِ)... وَقَالَتِ امْرَأَةٌ عَمْيَاءُ تَحْمِلُ مُسْبَحَةً مَقْطُوعَةً: (الرُّؤْيَةُ ابْتِلَاءٌ، وَالْعَمَى رَحْمَةٌ لَا نَعْرِفُ ثَمَنَهَا إِلَّا بَعْدَ فَوَاتِ الْأَوَانِ).

أَقُولُ لِلشَّاعِرِ الهَارِبِ:
"لَا تَظُنَّ أَنَّ المَنْفَى جِهَةٌ، المَنْفَى نِظَامٌ، وَفِكْرَةٌ نَاجِحَةٌ صَدَّرَتْهَا الإِمْبَرَاطُورِيَّاتُ، ثُمَّ سَمَّتْهَا "الوَطَنَ".
أَعْرِفُ هٰذَا، لِأَنِّي حَضَرْتُ وِلَادَةَ الحُدُودِ حِينَ كَانَتْ مَجَرَّدَ خَوْفٍ، ثُمَّ رَأَيْتُهَا تَكْبُرُ وَتَلْبَسُ زِيَّ المَمْلَكَةِ.

أَيُّهَا الشَّاعِرُ الهَارِبُ،
أَنْتَ لَا تَهْرُبُ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ، إِنَّمَا تَعْبُرُ مِنْ رِوَايَةٍ رَسْمِيَّةٍ إِلَى هَامِشٍ يُمْنَعُ مِنَ الكَلَامِ.
اعْتَرِفْ لِي، أَيُّهَا العَابِرُ، لَيْسَ بِذَنْبِكَ...
اعْتَرِفْ بِحُلْمِكَ الشَّارِدِ:
هَلْ كَتَبْتَ بِمَا يَكْفِي لِتُرْبِكَ اللُّغَةَ الَّتِي تَقْتُلُكَ؟
هَلْ أَنْشَدْتَ لِلضَّحَايَا، أَمِ اكْتَفَيْتَ بِجَمَالِ الاسْتِعَارَةِ؟
أَنَا مَلَاكُ الاعْتِرَافِ، أَغْفِرُ لِلأَفْرَادِ، لَكِنِّي لَا أَصْفَحُ عَنِ الأَنْظِمَةِ.
أَقُولُ: مِنْ هُنَا تَبْدَأُ البِلَادُ الَّتِي لَا اسْمَ لَهَا،
الَّتِي يَسْكُنُهَا مَنْ نَجَا جَسَدُهُ، وَبَقِيَ تَارِيخُهُ رَهِينَةً.
وَأَعُودُ، لَا إِلَى السَّمَاءِ... إِنَّمَا إِلَى العَتْمَةِ، حَيْثُ تُصَاغُ الحُدُودُ القَادِمَةُ.

أَنَا المَلَاكُ الأَعْمَى.
أَنَا النَّغَمُ الَّذِي لَمْ يُخْلَقْ بَعْدُ.
أَنَا الضَّوْءُ الَّذِي انْبَثَقَ مِنْ فَمِ الغَيْمِ كَتَعْوِيذَةٍ تَتَجَوْهَرُ فِي الهَوَاءِ.
أَنَا التَّمِيمَةُ الَّتِي تَهْتَزُّ كُلَّمَا مَرَّتِ الأَرْوَاحُ فِي مَسَارَاتٍ سِرِّيَّةٍ.
أَنَا النَّفَسُ الَّذِي تَتْبَعُهُ الأَقَالِيمُ عَارِيَةً مِنْ ذُنُوبِهَا.
أَنَا المَنْفَى الَّذِي صَقَلَتْهُ الكَمَانَاتُ حَتَّى صَارَ هَيْكَلًا مِنْ نَايٍ يَحْرُسُ الجِهَاتِ.
أَنَا المُفْرَدُ الَّذِي لَا يُؤْنِسُهُ إِلَّا الغِيَابُ، وَأَنَا دَلِيلُ الهَارِبِينَ الَّذِينَ تَرَكُوا أَحْلَامَهُمْ عَلَى سُفُوحِ الضَّلَالِ، وَنَامُوا عَلَى سَلَاسِلِ الغَيْمِ، فَتَسَاقَطَتْ عَلَيْهِمُ النُّجُومُ، وَكُلُّ مَا تَهِيمُ بِهِ البَرَارِي.
أَنَا مَنْ يَمْنَحُ البَرَّ الهَدَايَا، وَيُبَارِكُ البَحْرَ بِالتَّحِيَّاتِ.

**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** يَا بَحْرُ، يَا أَرْشِيفَ الجُثَثِ غَيْرِ المَكْتُوبَةِ،
عَلَّمْتَ الإِمْبَرَاطُورِيَّاتِ كَيْفَ تُخْفِي الجَرَائِمَ تَحْتَ زُرْقَةٍ جَمِيلَةٍ.
نَحْنُ أَبْنَاؤُكَ القَسْرِيُّونَ،
تَعَلَّمْنَا الطَّفْوَ قَبْلَ أَنْ نَتَعَلَّمَ الصَّلَاةَ.

**نُنْشِدُ كَيْ نَعْبُرَ.**
**نُنْشِدُ كَيْ نَتَذَكَّرَ.**
**نُنْشِدُ كَيْ لَا نُمْحَى.**

مَزْمُور

## مَزْمُورُ الفُوتُوغْرَافِيِّ - القِنَاعُ وَالحَدُّ

لَيْسَ اسْمُهُ هُنَا، وَلَا اسْمِي. الحُدُودُ وَحْدَهَا تَتَكَلَّمُ، وَالكَامِيرَا شَاهِدٌ مِنْ مَعْدِنٍ صَامِتٍ. أَنَا الفُوتُوغْرَافِيُّ الَّذِي يُقِيمُ خَيْمَتَهُ فِي الضَّوْءِ، وَيَعْقِدُ هُدْنَةً بَيْنَ العَيْنِ وَالظَّلَامِ. أُصْغِي لِخُطُوَاتٍ تَتَكَسَّرُ عَلَى الحَصَى مِثْلَ لَيْلٍ مُطَارَدٍ. أَنَا ذَاكَ الَّذِي يَهْرُبُ (لَيْسَ جَسَدًا فَحَسْبُ)، إِنَّمَا تَارِيخٌ يَخْلَعُ مِعْطَفَهُ، وَخَرِيطَةٌ تُطْوَى عَلَى عَجَلٍ فِي الصَّدْرِ.
أَنَا الفُوتُوغْرَافِيُّ الَّذِي لَا يُطَارِدُ أَحَدًا، إِنَّمَا أَنْتَظِرُ: انْتِظَارَ البَحَّارِ عِنْدَ فَمِ العَاصِفَةِ، وَانْتِظَارَ القَاضِي قَبْلَ النُّطْقِ بِمَا لَا يُسْتَرَدُّ. تَوْمِضُ العَدَسَةُ كَقَسَمٍ قَصِيرٍ: أَنْ يَبْقَى العَابِرُ عَابِرًا، وَأَنْ تَعْبُرَ الحَقِيقَةُ دُونَ أَنْ تُحْتَجَزَ.
عِنْدَ خَطِّ الظِّلِّ، حَيْثُ تَتَبَادَلُ العُيُونُ صَمْتَهَا، يَمُرُّ الإِنْسَانُ أَخَفَّ مِنِ اسْمِهِ، وَأَثْقَلَ مِنْ مَصِيرِهِ. وَهُنَاكَ، فِي تِلْكَ اللَّقْطَةِ الوَاحِدَةِ، يَتَّسِعُ العَالَمُ لِخُطْوَتَيْنِ: خُطْوَةِ الهَارِبِ، وَخِيَانَةِ الصُّورَةِ.
أَنَا قَرَنْفُلَةُ الجَرِيمَةِ وَلَبْلَابُهَا السَّامُّ، أَنَا الهُبُوبُ العَابِرُ سِلْكًا شَائِكًا، الصَّارِخُ ضِدَّ الحُدُودِ، أَنَا العُصْفُورُ الَّذِي يَجْرُؤُ أَنْ يُغَنِّيَ عِنْدَ فَمِ المَذْبَحَةِ.
أَنَا الدُّمْيَةُ المَطْرُوحَةُ بِجَانِبِ جُثَّةِ القَتِيلِ. أَنَا الخِيَانَةُ، أَنَا المَلْهَاةُ، أَنَا المُصَوِّرُ الَّذِي يَمْنَحُ الغَامِضَ أَقْنِعَتَهُ، وَيَقُودُ قَبَائِلَ السُّحُبِ البَيْضَاءِ إِلَى أَضْرِحَةٍ فَخْمَةٍ وَمَشَاهِدَ

مُوصَدَةٍ. أَنَا الغَيْمَةُ الَّتِي تَنْدَفِعُ كَفِطْرٍ فِي حَدِيقَةِ الخَدِيعَةِ. أَنَا المَلْهَاةُ السَّوْدَاءُ، غِوَايَتُهَا تَمْنَحُ الصُّورَةَ أَقْنِعَتَهَا، وَتَفْتَحُ لِلظِّلَالِ أَبْوَابًا لَمْ تَكُنْ مَعْرُوفَةً لِلضَّوْءِ.

أَنَا الحَاضِرُ كَوَعْيٍ مَشْقُوقٍ، يَعْرِفُ أَنَّ الرُّؤْيَةَ فِعْلُ تَدَخُّلٍ، وَأَنَّ الامْتِنَاعَ شَكْلٌ آخَرُ مِنَ العُنْفِ. أَيُّهَا الضَّوْءُ، أَأَنْتَ شَرْطُ الظُّهُورِ أَمْ قِنَاعُ العَدَمِ؟ أَأَنْتَ مَا يَسْمَحُ لِلْكَائِنِ أَنْ يُرَى، أَمْ مَا يَفْضَحُهُ بِوَصْفِهِ زَائِلًا؟

أَنَا، وَبَعْدَ هَذَا كُلِّهِ، أَقِفُ حَيْثُ تَتَرَدَّدُ المَعَانِي، لَا أَطْلُبُ حَقِيقَةً نِهَائِيَّةً. أَنَا أَثَرُ مُرُورٍ بَيْنَ مَا كَانَ وَمَا لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ. أَنَا الهَارِبُ الَّذِي لَمْ يَعْبُرْ، وَالفِكْرَةُ الَّتِي لَمْ تَجِدْ بَعْدُ اسْمًا، وَأَسْئِلَةُ الحُدُودِ الحَادَّةِ الَّتِي وُضِعَتْ عَلَى جَسَدِ الأَرْضِ.

أَيُّهَا الضَّوْءُ، أَأَنْتَ كَاشِفٌ أَمْ قَاضٍ؟ أَأَنْتَ ذَاكِرَةُ الأَشْيَاءِ أَمْ نِسْيَانُهَا السَّرِيعُ؟ الهَارِبُ لَا يَلْتَفِتُ، لِأَنَّ الالْتِفَاتَ اعْتِرَافٌ، وَلِأَنَّ الخَلْفَ مَاضٍ يُطَالِبُ بِمَا لَا يُعَادُ.

أَنَا لَا أَحْمِلُ وَطَنًا... أَحْمِلُ احْتِمَالًا، لَا يَسِيرُ نَحْوَ مَكَانٍ، وَيَخْرُجُ مِنْ كُلِّ تَعْرِيفٍ. أَنَا المُصَوِّرُ الَّذِي يَعْرِفُ أَنَّ الشَّهَادَةَ لَيْسَتِ امْتِلَاكًا، وَأَنَّ الصُّورَةَ لَيْسَتْ بُرْهَانًا، إِنَّهَا تَوَتُّرٌ أَخْلَاقِيٌّ بَيْنَ الرُّؤْيَةِ وَالصَّمْتِ.

تَوْمِضُ العَدَسَةُ، وَفِي تِلْكَ الوَمْضَةِ، يُخْتَبَرُ العَالَمُ: هَلْ يُمْكِنُ لِلْحَقِيقَةِ أَنْ تُرَى دُونَ أَنْ تُقَيَّدَ؟

الحُدُودُ تَصْمُتُ. الدُّوَلُ تُحْصِي. وَالإِنْسَانُ، ذَلِكَ الكَائِنُ العَابِرُ بَيْنَ مُفْرَدَتَيْنِ، يَمُرُّ أَخَفَّ مِنَ القَانُونِ، وَأَثْقَلَ مِنَ المَعْنَى.

فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ، لَا أَحَدَ بَرِيئًا: لَا العَيْنُ، وَلَا الخُطْوَةُ، وَلَا الضَّوْءُ نَفْسُهُ.

**جُوقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** لَمْ يَكُنْ لَنَا شُعَرَاءُ، وَلَا رُوَاةٌ يَعْبُرُونَ الزَّمَنَ مَحْمُولِينَ عَلَى الوَزْنِ وَالقَافِيَةِ. كَانَتْ لَنَا السَّلَاسِلُ، وَكَانَتْ لَنَا الطُّبُولُ حِينَ صَارَ الكَلَامُ خَطَرًا. هَكَذَا وُلِدَ الإِيقَاعُ: مِنَ الخَوْفِ، لَا مِنَ المُتْعَةِ.

**نُنْشِدُ كَيْ نَعْبُرَ.**

**نُنْشِدُ كَيْ نَتَذَكَّرَ.**

**نُنْشِدُ كَيْ لَا نُمْحَى.**

## مَزْمُورُ الجُنْدِيِّ الجَرِيحِ
(مُحَاوَلَةُ قَوْلِ مَا لَا يُقَالُ)

تَقُولُ **قَرَابِينُ الحِبْرِ**:
أَنَا السَّرْدُ الَّذِي تَعْوِي بِهِ كِلَابُ الفَصَاحَةِ،
أَنَا الحُضُورُ المُتَسَكِّعُ فِي فَوَاصِلِ العِبَارَةِ.
أَحْيَانًا أُفَخِّخُ القَوْلَ كَرَمْزٍ مَنْقُوشٍ عَلَى سَجَّادَةٍ عَجَمِيَّةٍ، مِنْ غَيْرِ سِرٍّ، وَمِنْ غَيْرِ عِرَافَةٍ.
حُضُورِي أَعْمَقُ مِنْ كُلِّ عَتَمَةٍ سَبَقَتْهُ.
حِينَ أَسْرُدُ، أَشْطُرُ المَعْنَى كَمَا يَشْطُرُ السَّاحِرُ امْرَأَةً إِلَى نِصْفَيْنِ، أَجْعَلُ الوَاضِحَ خَفِيًّا، وَالمَدِيحَ وَقَاحَةً، وَالرَّمْزَ فَخًّا.
لَا بَدْءَ، لِأَنَّ البَدْءَ يَفْتَرِضُ قَطِيعَةً، وَالقَطِيعَةُ لَمْ تُمْنَحْ. مَا يَتَكَرَّرُ هُوَ إِقَامَةٌ فِي التَّعْلِيقِ، حَيْثُ يُحْفَظُ الحَدَثُ مِنَ الوُقُوعِ كَيْ يَظَلَّ فَعَّالًا.
المَوْتُ اسْمٌ وُضِعَ عَلَى مَسَافَةٍ، عَلَامَةٌ لِشَيْءٍ لَا يُسْمَحُ لَهُ بِالاكْتِمَالِ، لِأَنَّ الِاكْتِمَالَ يُنْهِي الطَّقْسَ. لِذَلِكَ يُصَانُ التَّأْجِيلُ بِوَصْفِهِ أَعْلَى أَشْكَالِ الدِّقَّةِ.

تَقُولُ **بَرَاءَةُ النَّهَارِ**:
اللُّغَةُ إِبْقَاءٌ، لَا إِشَارَةٌ وَلَا قَصْدٌ،
حَيْثُ المَوْتُ مُؤَجَّلٌ بِلَا وَعْدٍ، وَالحَرْبُ نَصٌّ يَكْتُبُ نَفْسَهُ، وَالذَّاتُ تُسْتَبْدَلُ بِفَرَاغٍ نَاطِقٍ.
لَا خَلَاصَ، وَلَا عُبُورَ مُكْتَمِلًا... إِقَامَةٌ فِي العَتَبَةِ.
اللُّغَةُ لَا تُشِيرُ، اللُّغَةُ تُحِيطُ. كُلُّ قَوْلٍ دَائِرَةٌ، وَكُلُّ دَائِرَةٍ تَحْفَظُ فَرَاغَهَا فِي المَرْكَزِ.
المَعْنَى لَا يَتَقَدَّمُ... يَنْسَحِبُ لِيَتْرُكَ أَثَرًا أَنْقَى.
هُنَا لَا فَاعِلَ، لِأَنَّ الفِعْلَ اسْتَغْنَى عَنِ الحَمْلِ، وَلَا شَاهِدَ، لِأَنَّ الشَّهَادَةَ تُفْسِدُ الِاسْتِمْرَارَ.
مَا يُكْتَبُ لَا يُرَادُ لَهُ أَنْ يُفْهَمَ... أَنْ يَبْقَى.
اللُّغَةُ لَا تَصِفُ، اللُّغَةُ تُبْقِي. تَكْتُبُ كَيْ لَا يَحْدُثَ مَا تُشِيرُ إِلَيْهِ.

هَكَذَا يَصِيرُ القَوْلُ طَقْسًا، وَالتَّكْرَارُ لَاهُوتًا بِلا سَمَاءٍ، حُضُورًا لَا يَعِدُ بِالخَلَاصِ.
لَيْسَ هُنَاكَ فَاعِلٌ، لِأَنَّ الفِعْلَ ذَاتَهُ تَخَلَّى عَنِ الحَاجَةِ إِلَى مَنْ يَحْمِلُهُ. مَا يُقَالُ يُقَالُ وَحْدَهُ، وَمَا يُمْحَى يَتْرُكُ أَثَرًا أَكْثَرَ كَثَافَةً مِنَ الكَلَامِ.

تَقُولُ **غَطْرَسَةُ القَدَرِ**:
النِّهَايَةُ لَا تَأْتِي، لِأَنَّ مَا يَحْدُثُ لَمْ يَبْدَأْ. هُنَاكَ دَوَامٌ لَا يُسَمَّى زَمَنًا، وَإِقَامَةٌ فِي مَا قَبْلَ السُّقُوطِ وَمَا بَعْدَهُ فِي آنٍ وَاحِدٍ.
مَا يُدْعَى مَوْتًا لَيْسَ سِوَى تَعْلِيقٍ طَوِيلٍ، مَسَافَةٍ تُحَافِظُ عَلَى الحَدَثِ مِنْ أَنْ يَنْهَارَ فِي الِاكْتِمَالِ. كُلُّ اقْتِرَابٍ مِنْهُ يُؤَجِّلُهُ، وَكُلُّ تَأْجِيلٍ يَمْنَحُهُ سُلْطَةَ الِاسْتِمْرَارِ.
الِاعْتِرَافُ لَا يَتَوَجَّهُ إِلَى أَحَدٍ. إِنَّهُ انْكِشَافُ الصَّمْتِ عَلَى نَفْسِهِ، لَحْظَةٌ يُدْرِكُ فِيهَا القَوْلُ أَنَّهُ زَائِدٌ، وَمَعَ ذَلِكَ يَسْتَمِرُّ.
النَّدَمُ لَيْسَ ذِكْرَى، هُوَ امْتِنَاعُ الذَّاكِرَةِ عَنِ الإِغْلَاقِ، وَبَقَاءُ الجُرْحِ مَفْتُوحًا كَيْ لَا يَصِيرَ مَعْنًى، وَكَيْ لَا يَصِيرَ نِهَايَةً.
الِاعْتِرَافُ انْكِشَافُ البِنْيَةِ عَلَى عَجْزِهَا، وَانْفِتَاحٌ لَا يَبْحَثُ عَنْ مُخَاطَبٍ. وَالنَّدَمُ لَيْسَ بُعْدًا زَمَنِيًّا، إِنَّهُ تَثْبِيتُ الشَّقِّ مَفْتُوحًا كَيْ لَا يَتَحَوَّلَ إِلَى خَاتِمَةٍ.
كُلُّ مُحَاوَلَةٍ لِلتَّرْمِيمِ تُعِيدُ الجُرْحَ إِلَى كَفَاءَتِهِ الأُولَى.
مَا يُدْعَى عُبُورًا لَا يَنْقُلُ مِنْ جِهَةٍ إِلَى جِهَةٍ، إِنَّهُ يُنْقِصُ القَابِلِيَّةَ لِلِانْتِمَاءِ. إِنَّهُ خُرُوجٌ مِنَ الصِّيغَةِ، لَا مِنَ المَكَانِ.
هُنَا لَا شَيْءَ يُنْقَذُ، لِأَنَّ النَّجَاةَ نَفْسَهَا كَانَتِ افْتِرَاضًا لُغَوِيًّا.
الَّذِي يَبْقَى هُوَ هَذِهِ الإِقَامَةُ فِي العَتَبَةِ، حَيْثُ لَا سُقُوطَ وَلَا خَلَاصَ... تَأْجِيلٌ مُتْقَنٌ لِلْحَدَثِ.
العُبُورُ لَا يُغَيِّرُ مَوْضِعًا... يُقَلِّصُ الِانْتِمَاءَ إِلَى الصِّيغَةِ. خُرُوجٌ مِنَ القَابِلِيَّةِ لِلتَّسْمِيَةِ، لَا انْتِقَالٌ بَيْنَ جِهَاتٍ.
النَّجَاةُ افْتِرَاضٌ فَائِضٌ، وَالخَلَاصُ حَاشِيَةٌ أُلْغِيَتْ. مَا يَبْقَى هُوَ العَتَبَةُ وَقَدْ صَارَتْ مَكَانًا كَامِلًا.
الكِتَابَةُ لَا تَسِيرُ نَحْوَ نُقْطَةٍ. هِيَ دَوَرَانٌ حَوْلَ فَرَاغٍ لَا يُمْتَلَكُ. كُلُّ تَرْدِيدٍ اقْتِرَابٌ، وَكُلُّ اقْتِرَابٍ انْسِحَابٌ. لِذَلِكَ لَا تَتَوَقَّفُ، لَا لِأَنَّهَا لَا تَعْرِفُ النِّهَايَةَ، وَإِنَّمَا لِأَنَّهَا تَعْرِفُهَا أَكْثَرَ مِمَّا يَنْبَغِي.

الكِتَابَةُ لَا تَسْعَى إِلَى نِهَايَةٍ، لِأَنَّهَا تَعْرِفُ أَنَّ النِّهَايَةَ إِغْلَاقٌ. لِذَلِكَ تُرَاكِمُ البَيَاضَ كَأَنَّهُ نَصٌّ، وَتُعِيدُ التَّرْدِيدَ بِوَصْفِهِ حِفْظًا لِلْفَرَاغِ.
كُلُّ صَمْتٍ أَدَقُّ مِنْ سَابِقِهِ، لِأَنَّهُ أَقَلُّ ادِّعَاءً. وَحِينَ يَخْفُتُ الصَّوْتُ، لَا يَحِلُّ السَّلَامُ... يَصِيرُ الصَّمْتُ أَكْثَرَ دِقَّةً.
لَيْسَ صَمْتَ مَا بَعْدَ القَوْلِ... إِنَّهُ صَمْتُ مَا يُوَاصِلُ قَوْلَهُ مِنْ دُونِ لُغَةٍ.
هُنَاكَ، فِي هَذَا البَيَاضِ الَّذِي لَا يُسَمَّى صَفْحَةً، يُقَامُ الطَّقْسُ الأَخِيرُ: أَلَّا يَحْدُثَ شَيْءٌ، وَأَنْ يَسْتَمِرَّ ذَلِكَ إِلَى مَا لَا نِهَايَةَ.
وَحِينَ يَشْتَدُّ الخُفُوتُ، لَا يَحْدُثُ تَوَقُّفٌ. يَتَحَوَّلُ الصَّمْتُ إِلَى انْتِظَامٍ، وَالانْتِظَامُ إِلَى طَقْسٍ بِلا اسْمٍ.
هُنَاكَ يَسْتَمِرُّ اللَّاحَدَثُ، بِوَصْفِهِ نَقْصًا، وَبِوَصْفِهِ الصِّيغَةَ الأَخِيرَةَ لِلْكَمَالِ المُؤَجَّلِ.

**جُوقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ**: نَحْنُ أَبْنَاءُ لُغَةٍ مُسْتَعَارَةٍ، نَكْسِرُهَا بِلَهْجَتِنَا كَيْ تَتَطَهَّرَ. هُنَا تَتَوَلَّدُ المَلْحَمَةُ مِنَ الحَلْقِ، لَا مِنَ القَصْرِ.

**نُنْشِدُ كَيْ نَعْبُرَ.**
**نُنْشِدُ كَيْ نَتَذَكَّرَ.**
**نُنْشِدُ كَيْ لَا نُمْحَى.**

مَزْمُور

## مَزْمُورُ الحِكَايَةِ

(مِنْ سِفْرِ الظِّلَالِ المُتَكَلِّمَةِ)

الحِكَايَةُ تَمْضِي لَا نَحْوَ الأَمَامِ، وَلَا بَعِيدًا عَنِ الخَلْفِ، تَمْضِي خَارِجَ هَذِهِ الثُّنَائِيَّةِ. إِنَّهَا تَنْسَلُّ مِنَ التَّعْرِيفِ كَمَا تَنْسَلُّ الفِكْرَةُ مِنْ لُغَتِهَا. وَتَسْتَعْجِلُ الصَّفَحَاتِ كَرَاوٍ سَئِمَ اللُّغَةَ وَنَذَرَ نَفْسَهُ لِخَرَابٍ أَجْمَلَ، أَوْ كَرَاهِبٍ ضَجِرٍ مِنْ نُعَاسِ المَخْطُوطِ.
مَنْ أَنْتِ إِذَنْ، أَيَّتُهَا الحِكَايَةُ، أَيَّتُهَا الظِّلَالُ المُتَكَلِّمَةُ؟
أَنْتِ بِنْتُ السِّرِّ المَحْجُوبِ بِقُفْلٍ كَهَنُوتِيٍّ، بِنْتُ سُعَاةٍ يَلُمُّونَ الجِرَارَ، وَيُرْسِلُونَ الفُهُودَ المَوْشُومَةَ بِخُيُوطِ الغَامِضِ، بِنْتُ المُتَعَذِّرِ.

أَنْتِ قَدَرُ السَّرْدِ حِينَ تَنْطِقُ المَلْهَاةُ بِعَجَائِبِهَا. أَنْتِ الشَّارِدَةُ بِالكَلَامِ، وَالنَّوَاةُ الَّتِي تَسْحَبُ الهَمْسَ الجَلِيلَ إِلَى عَجَبٍ يَلْمَعُ بِمِلْحِ الرُّؤْيَا.
أَنْتِ الفَخُّ فِي لَحْظَةِ السَّهْوِ، وَالنَّجَاةُ حِينَ يَكْثُرُ الضَّجِيجُ. أَنْتِ مَنْ يُفْشِي أَسْرَارَ الدَّمِ الَّذِي يُجَفِّفُ التَّوَارِيخَ بِأَنْفَاسِهِ.
مَنْ أَنْتِ إِذَنْ، أَيَّتُهَا الحِكَايَةُ، أَيُّهَا الطَّاسُ المُقَدَّسُ؟ يَسْأَلُ هَذَا السَّرْدُ الشَّاقُّ.
الحِكَايَةُ تَمْشِي وَلَا طَرِيقَ لَهَا. تَمْشِي لِأَنَّهَا وُجِدَتْ لِتَعْبُرَ، وَلِأَنَّ العُبُورَ اسْمٌ آخَرُ لِلِاعْتِرَافِ.

الحِكَايَةُ لَا تَبْدَأُ وَلَا تَنْتَهِي، إِنَّهَا زَمَنٌ وَاقِفٌ يَلْبَسُ جَسَدَ الصَّوْتِ. حِينَ تَتَكَلَّمُ لَا تَصِفُ، وَحِينَ تُنْشِدُ لَا تُفَسِّرُ. تَدْخُلُ كَمَا يَدْخُلُ الطَّقْسُ فِي الجَسَدِ، بِبُطْءٍ يَعْرِفُهُ الَّذِينَ انْتَظَرُوا طَوِيلًا.
هِيَ لَيْسَتْ مَا حَدَثَ، هِيَ مَا يَحْدُثُ حِينَ يُسْحَبُ الحَدَثُ مِنَ الضَّوْءِ وَيُتْرَكُ فِي العَتَمَةِ كَيْ يَقُولَ سِرَّهُ.
هِيَ تَتَكَلَّمُ، لِأَنَّ الصَّمْتَ لَمْ يَعُدْ كَافِيًا، وَتَصْمُتُ، لِأَنَّ الكَلَامَ انْكَشَفَ أَكْثَرَ مِمَّا يَنْبَغِي.
فِي طُقُوسِهَا لَا شَاهِدَ. الِاعْتِرَافُ لَا يُقَالُ لِأَحَدٍ، إِنَّهُ يَعْبُرُ فَحَسْبُ، كَمَا تَعْبُرُ النَّارُ شَكْلَهَا، وَكَمَا يَعْبُرُ الِاسْمُ صَاحِبَهُ حِينَ يُنَادَى.

هِيَ الصَّوْتُ الَّذِي لَا يَمْلِكُ صَاحِبًا. هِيَ الجُرْحُ حِينَ يَتَعَلَّمُ الإِنْشَادَ.
تَقُولُ كَيْ تَفْقِدَ مَا تَقُولُ، وَتَفْقِدُ كَيْ تَبْقَى فِي القَوْلِ.
هُنَا لَا مَعْنًى يَطْمَئِنُّ، وَلَا نِهَايَةٌ تُغْلِقُ البَابَ، وَالعُبُورُ هُوَ البَقَاءُ فِي العَتَبَةِ.
الحِكَايَةُ تَمْضِي، وَكُلُّ خُطْوَةٍ مَحْوٌ، وَكُلُّ مَحْوٍ صَلَاةٌ، وَهِيَ الطَّقْسُ الَّذِي يَنْسَى نَفْسَهُ لِيَسْتَمِرَّ.
هِيَ لَا تَحْكِي، إِنَّهَا تَسْتَدْعِي مَا يُسْتَدْعَى، مَا لَا يَمْلِكُ أَنْ يَرْفُضَ.
السَّرْدُ عِنْدَهَا لَيْسَ تَرْتِيبًا، إِنَّهُ انْكِسَارٌ مُسْتَمِرٌّ. كُلُّ جُمْلَةٍ فُقْدَانٌ، وَكُلُّ فُقْدَانٍ اقْتِرَابٌ يُنْشِدُ المَعْنَى.
سِرُّهَا لَا يُقَالُ إِلَّا وَهُوَ يَنْسَحِبُ. خَلَاصُهَا العُبُورُ نَفْسُهُ.
هِيَ الِاعْتِرَافُ. هِيَ البَقَاءُ مِنْ غَيْرِ شَاهِدٍ، وَمِنْ غَيْرِ اسْمٍ، وَمِنْ غَيْرِ رَغْبَةٍ فِي النِّهَايَةِ.
الحِكَايَةُ تَسْتَمِرُّ، لِأَنَّهَا لَا تَعْرِفُ كَيْفَ تَتَوَقَّفُ.
الحِكَايَةُ لَا تَرْوِي، الحِكَايَةُ تُجَرِّدُ، تُنْزَعُ مِنَ الحَدَثِ وَتُتْرَكُ عَارِيَةً فِي زَمَنٍ لَا يُشْبِهُ الزَّمَنَ.

تَتَكَلَّمُ، لِأَنَّهَا لَا تَسْتَطِيعُ الصَّمْتَ، وَتَصْمُتُ، لِأَنَّ الكَلَامَ صَارَ أَوْسَعَ مِنِ احْتِمَالِهِ.

الحِكَايَةُ تَسْتَمِرُّ بِغِيَابِ مَا يُوقِفُهَا. تَسْتَمِرُّ، لِأَنَّهَا فَقَدَتْ مَنْ يَقُولُهَا، وَفَقَدَتْ مَنْ تُقَالُ لَهُ، وَبَقِيَ العُبُورُ وَحْدَهُ يُنْشِدُ نَفْسَهُ فِي فَرَاغِهِ.
وَهِيَ . بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ . تُرْجُمَانُ المَوْتِ، وَشِرَاعُ المَخَابِئِ المُظْلِمَةِ، وَالكَاهِنَةُ المُلْقَاةُ فَوْقَ صَخْرَةِ السَّرْدِ لِتَمُوتَ وَحِيدَةً، وَقُرْبَانُ القَوْلِ، وَعَرَبَةٌ يَجُرُّهَا الحِبْرُ إِلَى أَبْعَدَ مِنْ شُؤُونِهِ.

**جُوقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ**: يَا أَسْلَافَنَا، الَّذِينَ صَارُوا أَرْقَامًا، تَعَالَوْا إِلَى الصَّوْتِ.
اليَوْمَ نَرُدُّ إِلَيْكُمْ مَا سُرِقَ مِنْ أَفْوَاهِكُمْ.
نَعْتَرِفُ: صَمَتْنَا طَوِيلًا.
وَنَعْتَرِفُ: الصَّمْتُ لَمْ يَكُنْ ضَعْفًا، كَانَ انْتِظَارًا لِلْإِيقَاعِ الصَّحِيحِ.

**نُنْشِدُ كَيْ نَعْبُرَ.**
**نُنْشِدُ كَيْ نَتَذَكَّرَ.**
**نُنْشِدُ كَيْ لَا نُمْحَى.**

مَزْمُور

## مَزْمُورُ الذِّئَابِ
(مِنْ سِفْرِ العُوَاءِ المُقَدَّسِ)

إِنَّهَا هُنَا، فَوْقَ الجَبَلِ المُشْتَعِلِ بِصِيَاحَاتِ القَتِيلِ، تُطْلِقُ عُوَاءَهَا كَرَهْطِ رُهْبَانٍ يَهْرُولُونَ فِي مُنْعَطَفَاتِ العَقَائِدِ، يُطَرِّزُونَ مِعْطَفَ الرِّيحِ بِثَرْثَرَةٍ مِنْ حُمَّى اللَّاهُوتِ.
إِنَّهَا هُنَا، لَمَّا تَدَثَّرَ وَجْهُ الأَرْضِ بِالصَّمْتِ الأَبْيَضِ، وَخَمَدَتِ الخُطَى، وَغَابَ الأَثَرُ عَنِ الأَثَرِ.
نَامَتِ الفَرَائِسُ فِي جَوْفِ البَيَاضِ، وَغَابَ الدَّمُ الدَّافِئُ عَنْ حُلْمِ الأَنْيَابِ.
هُنَاكَ...
تَجَمَّعَتِ الذِّئَابُ.
ظِلَالٌ رَمَادِيَّةٌ تَتَحَلَّقُ حَوْلَ الجُوعِ.

عُيُونُهَا مَصَابِيحُ لَيْلٍ جَائِعٍ، وَأَنْفَاسُهَا بُخَارُ خَوْفٍ قَدِيمٍ.
لَا شَرَّ فِيهَا... سِوَى مَا زَرَعَتْهُ الطَّبِيعَةُ حِينَ قَسَتْ...
عَوَتْ...
فَارْتَجَفَ الثَّلْجُ، وَرَدَّ الوَادِي الصَّدَى، كَأَنَّ الأَرْضَ تَتَذَكَّرُ اسْمَهَا الأَوَّلَ...
وَفِي السَّفْحِ كَانَ "إِيكَارُ" نَارًا صَغِيرَةً فِي مُحِيطٍ مِنْ صَقِيعٍ.
اقْتَرَبَتِ الذِّئَابُ كَقَانُونٍ، حِينَ يَخْتَفِي العُشْبُ وَتُمْحَى السُّهُولُ...
خُطْوَةٌ... ثُمَّ أُخْرَى...
لَا فَرْقَ بَيْنَ نَابٍ وَرَصَاصٍ، كِلَاهُمَا ابْنُ الخَوْفِ.
وَفِي العَاصِفَةِ ذَابَتِ الحُدُودُ بَيْنَ الوَحْشِ وَالإِنْسَانِ.
وَبَقِيَ الثَّلْجُ وَحْدَهُ شَاهِدًا صَامِتًا وَعَادِلًا.

إِنَّهَا هُنَا.
عُيُونُهَا لَيْسَتْ شِرِّيرَةً، إِنَّهَا فَقَطْ خَالِيَةٌ مِنَ الأَمَلِ...
إِنَّهَا هُنَا، لَا تَرَى الِاسْمَ، وَلَا النَّارَ، وَلَا الفِكْرَةَ.
تَرَى جَسَدًا يُحَاوِلُ أَنْ يُؤَجِّلَ النِّهَايَةَ بِالحِكَايَةِ.
هِيَ رَطَانَةُ الرُّعْبِ فِي بُوقِ الغُبَارِ...
هِيَ شَمْعَدَانُ العَرَاءِ...
وَهِيَ، بَعْدَ هَذَا، الذُّعْرُ الَّذِي يَهْمِسُ لِلسَّرْدِ بِذَيْلِهِ، وَيَهُشُّ عَوَاءَاتٍ مِنْ شِتَاءٍ بِلا مَعْنًى:
**عُوَاءُ (1):**
الثَّلْجُ لَا يَسْقُطُ لِأَنَّهُ يُرِيدُ، وَلَا لِأَنَّهُ غَاضِبٌ... لِأَنَّهُ لَا سَبَبَ يُجْبِرُهُ عَلَى التَّوَقُّفِ.
**عُوَاءُ (2):**
حِينَ يَطُولُ الشِّتَاءُ، تُصْبِحُ الأَخْلَاقُ رَفَاهِيَّةً مَوْسِمِيَّةً، مِثْلَ الفَوَاكِهِ الِاسْتِوَائِيَّةِ.
**عُوَاءُ (3):**
الذِّئَابُ لَا تَشْرَحُ نَفْسَهَا، وَهَذَا أَكْثَرُ مَا يُزْعِجُ الإِنْسَانَ.
**عُوَاءُ (4):**
الجُوعُ لَا يَحْتَاجُ إِلَى فَلْسَفَةٍ، الفَلْسَفَةُ هِيَ مَا نَبْتَكِرُهُ حِينَ نَشْبَعُ قَلِيلًا.
**عُوَاءُ (5):**
تَجْتَمِعُ الذِّئَابُ، لِأَنَّ الفَرْدَ فِكْرَةٌ رُومَانْسِيَّةٌ لَا تَتَحَمَّلُ الصَّقِيعَ.

**عُوَاءُ (6):**
الإِنْسَانُ يُوَاجِهُ الذِّئَابَ مُسَلَّحًا بِتَارِيخٍ طَوِيلٍ مِنْ سُوءِ الفَهْمِ.
**عُوَاءُ (7):**
النَّارُ لَا تَمْنَحُ الدِّفْءَ فَحَسْبُ... تَمْنَحُ وَهْمَ الأَهَمِّيَّةِ أَيْضًا.
**عُوَاءُ (8):**
الذِّئْبُ لَا يَعْرِفُ كَلِمَةَ "وَحْشٍ". الإِنْسَانُ اخْتَرَعَهَا لِيُؤَجِّلَ مُوَاجَهَةَ نَفْسِهِ.
**عُوَاءُ (9):**
سُقُوطُ الدَّمِ لَيْسَ مَأْسَاةً كَوْنِيَّةً، إِنَّهُ خَلَلٌ فِي تَوَازُنٍ مَحَلِّيٍّ.
**عُوَاءُ (10):**
الطَّبِيعَةُ لَيْسَتْ قَاسِيَةً. القَسْوَةُ مَفْهُومٌ إِنْسَانِيٌّ نَبَتَ مِنْ خَيْبَةٍ طَوِيلَةٍ.
الطَّبِيعَةُ لَا تُعَاقِبُ وَلَا تُكَافِئُ.
هِيَ فَقَطْ تَتَوَقَّفُ عَنِ التَّدَخُّلِ.
**عُوَاءُ (11):**
مَا يُسَمِّيهِ الإِنْسَانُ "وَحْشِيَّةً" هُوَ، فِي الغَالِبِ، وَاقِعٌ يَعْمَلُ دُونَ مُجَامَلَةٍ.
**عُوَاءُ (12):**
الذِّئَابُ تَرْحَلُ، لَا لِأَنَّهَا انْتَصَرَتْ... لِأَنَّهَا لَمْ تَخْسَرْ.
**عُوَاءُ (13):**
الإِنْسَانُ يَمُوتُ وَهُوَ لَا يَزَالُ يَنْتَظِرُ تَفْسِيرًا.
**عُوَاءُ (14):**
المُضْحِكُ لَيْسَ أَنْ نَمُوتَ... إِنَّمَا أَنْ نُطَالِبَ العَالَمَ بِأَسْبَابٍ مُقْنِعَةٍ.
**عُوَاءُ (15):**
الكَوْنُ لَا يَكْرَهُنَا، وَهَذَا أَسْوَأُ مِنْ أَنْ يَكْرَهَنَا.
**عُوَاءُ (16):**
نَحْنُ لَا نَخْسَرُ المَعْنَى، نَحْنُ نَكْتَشِفُ فَقَطْ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مُضَمَّنًا.
**عُوَاءُ (17):**
الثَّلْجُ يُغَطِّي كُلَّ شَيْءٍ، لَا احْتِرَامًا لِلْمَوْتَى... احْتِرَامًا لِلصَّمْتِ.
**عُوَاءُ (18):**
الحَقِيقَةُ لَا تَكُونُ قَاسِيَةً، نَحْنُ فَقَطْ نَصِلُ إِلَيْهَا مُتَأَخِّرِينَ.

**عُوَاءُ (19):**

الذِّئَابُ بَرِيئَةٌ مِنَ الجَرِيمَةِ الوَحِيدَةِ الَّتِي يَرْتَكِبُهَا الإِنْسَانُ: اِلاعْتِقَادُ بِأَنَّهُ اسْتِثْنَاءٌ.

**عُوَاءُ (20):**

الإِنْسَانُ اخْتَفَى، لَا لِأَنَّهُ خَسِرَ... لِأَنَّهُ رَاهَنَ عَلَى أَنَّ العَالَمَ سَيَتَصَرَّفُ بِعَدَالَةٍ.

**عُوَاءُ (21):**

فِي النِّهَايَةِ، نَحْنُ نُبَالِغُ فِي تَقْدِيرِ مَأْسَاتِنَا. وَبِالنِّسْبَةِ إِلَى العَالَمِ، نَحْنُ مُجَرَّدُ مُلَاحَظَةٍ جَانِبِيَّةٍ فِي شِتَاءٍ طَوِيلٍ.

**جُوقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ**: لَيْسَ العُبُورُ خَلَاصًا، إِنَّهُ اسْتِمْرَارُ الشَّهَادَةِ.
نَحْمِلُ المَاضِي كَإِيقَاعٍ، لَا كَقَيْدٍ.
وَحِينَ تَتْعَبُ الأَصْوَاتُ، نَصْمُتُ.
نُبْطِئُ.
فَالطَّقْسُ لَا يَنْتَهِي، الطَّقْسُ يُسَلِّمُ.

**نُنْشِدُ... كَيْ نَعْبُرَ.**
**نُنْشِدُ... كَيْ نَتَذَكَّرَ.**
**نُنْشِدُ... كَيْ لَا نُمْحَى.**

مَزْمُور

## مَزْمُورُ الجَبَلِ الَّذِي لَا يُسَمَّى

هَكَذَا، فِي صَمْتٍ بِلا جُغْرَافِيَا، يَمُرُّ فَوْقَهُ الكَائِنُ، لَا كَلَاجِئٍ، وَلَا كَعَابِرٍ، وَإِنَّمَا كَسُؤَالٍ مَفْتُوحٍ أُلْقِيَ فِي العَالَمِ وَلَمْ يَتَلَقَّ جَوَابًا.

الجَبَلُ لَيْسَ فَاصِلًا، هُوَ انْمِحَاءُ الفَاصِلِ. لَيْسَ مَا يَفْصِلُ بَيْنَ شَيْئَيْنِ، هُوَ مَا يَجْعَلُ الشَّيْئَيْنِ يَفْقِدَانِ حَقَّ التَّمَايُزِ.

عِنْدَ الجَبَلِ لَا نَصِلُ، وَلَا نُغَادِرُ. نَظَلُّ مُعَلَّقِينَ فِي تَأْجِيلٍ بِلا زَمَنٍ، حَيْثُ المَكَانُ تَعْبِيرٌ مُتَأَخِّرٌ عَنْ غِيَابِ المَكَانِ.

كَانَ يَرْفَعُ المَغِيبَ كَمَا تُرْفَعُ أَيْقُونَةٌ فِي قُدَّاسٍ شَرْقِيٍّ، وَيُسَطِّحُ الأُفُقَ كَأَنَّهُ سَرِيرٌ تَتَمَطَّى فَوْقَهُ السَّمَاءُ وَهِيَ تَتَدَرَّبُ عَلَى الخُلُودِ.
يَقُولُ:
**(أَنَا الجَبَلُ. لَا أُسَمِّي نَفْسِي حَدًّا، أَنَا فَاصِلٌ يَتَنَفَّسُ. أَلْبَسُ البَيَاضَ، لِأَنَّنِي أَحْفَظُ مَا قِيلَ وَمَا لَا يُقَالُ.**
**مِنْ جِهَتِي اليُمْنَى بَلَدٌ يُقَسِّمُ الدَّمَ إِلَى رَايَاتٍ، وَمِنْ جِهَتِي اليُسْرَى بَلَدٌ يُحْصِي أَسْمَاءَ قَتْلَاهُ كَأَنَّهَا أَدْعِيَةٌ نَاقِصَةٌ.**
**وَأَنَا وَسَطُ الجُرْحِ.**
**حِينَ يَأْتُونَ إِلَيَّ، لَا أَسْأَلُهُمْ: مَنْ أَنْتَ؟**
**أَسْأَلُهُمْ: مَاذَا تُرِيدُ أَنْ تَعْتَرِفَ بِهِ قَبْلَ العُبُورِ؟**
**أُنْزِلُ صَوْتِي طَبَقَةً طَبَقَةً، حَتَّى يَصِيرَ هَمْسًا يُشْبِهُ ارْتِجَافَ أَوَّلِ صَلَاةٍ.**
**مَنْ يَعْبُرُنِي لَا يَمْشِي، إِنَّهُ يَنْخَلِعُ. يَخْلَعُ اسْمَهُ الأَوَّلَ، وَلَهْجَتَهُ الحَادَّةَ، وَصُورَةَ العَدُوِّ الَّتِي خَبَّأَهَا فِي صَدْرِهِ كَتَمِيمَةٍ.**

**يَا أَيُّهَا الصَّاعِدُ نَحْوِي، اعْلَمْ:**
**الحُدُودُ لَيْسَتْ عَلَى الخَرَائِطِ، إِنَّهَا فِي الرُّكْبَةِ الَّتِي تَرْتَجِفُ، وَفِي اللِّسَانِ حِينَ يَتَرَدَّدُ بَيْنَ "نَحْنُ" وَ"هُمْ".**
**إِنْ أَرَدْتَ المُرُورَ، فَقُلْ:**
**أَعْتَرِفُ أَنَّنِي خِفْتُ، وَأَطْلَقْتُ النَّارَ لِأُخْفِيَ خَوْفِي.**
**أَوْ قُلْ:**
**أَعْتَرِفُ أَنَّنِي نَجَوْتُ، وَلَا أَعْرِفُ لِمَاذَا لَمْ يَنْجُ غَيْرِي.**
**أَنَا أَقْبَلُ الِاعْتِرَافَ بِلا غُفْرَانٍ، وَبِلا إِدَانَةٍ.**
**حِينَ تَبْلُغُ قِمَّتِي، لَنْ تَجِدَ عَلَمًا، سَتَجِدُ صَمْتًا أَبْيَضَ يَفْحَصُ قَلْبَكَ.**
**وَحِينَ تَنْزِلُ، لَنْ تَكُونَ مِنَ البَلَدِ الآخَرِ، وَلَا مِنْ بَلَدِكَ القَدِيمِ.**
**سَتَكُونُ مِنَ العَابِرِينَ.**
**أُولَئِكَ الَّذِينَ عَلَّمَتْهُمُ الجِبَالُ أَنَّ السَّلَامَ قُدْرَةٌ عَلَى أَنْ تَمْشِيَ فَوْقَ الهَاوِيَةِ دُونَ أَنْ تَطْلُبَ دَمًا يُثْبِتُ تَوَازُنَكَ).**
وَكَانُوا يَقُولُونَ:
هُنَا يَقِفُ الكَاهِنُ الَّذِي لَمْ يَتَعَلَّمِ اللُّغَةَ، لِأَنَّ اللُّغَةَ تُحَابِي أَحَدَ الطَّرَفَيْنِ.

غَطَّوْهُ بِالثَّلْجِ كَيْ لَا تُرَى مَلَامِحُهُ، فَالمَلَامِحُ انْحِيَازٌ.
وَمُنْذُ ذَلِكَ اليَوْمِ صَارَ البَيَاضُ شَرِيعَتَهُ.
فِي السِّجِلِّ الأَوَّلِ كُتِبَ:
"الجَبَلُ قَائِمٌ بَيْنَ بَلَدَيْنِ مُتَحَارِبَيْنِ، لَكِنَّهُ لَا يَعْرِفُ مَعْنَى البَلَدِ".

يَعْرِفُ فَقَطْ أَنَّ الدَّمَ إِذَا سَالَ طَلَبَ اتِّجَاهًا، وَأَنَّ الأَرْضَ إِذَا انْشَطَرَتْ صَارَتْ سُؤَالًا.
وَكَانَ العَابِرُونَ يُؤْتَى بِهِمْ إِلَيْهِ حُفَاةً مِنَ الأَسْمَاءِ، مَرْبُوطِينَ بِحِبَالِ الصَّمْتِ.
لَا يُسْمَحُ لَهُمْ بِالكَلَامِ.
الكَلَامُ يُفْسِدُ الطَّقْسَ...
وَيُؤْمَرُونَ أَنْ يَضَعُوا جِبَاهَهُمْ عَلَى الثَّلْجِ حَتَّى يَتَذَكَّرَ الجَسَدُ مَا نَسِيَهُ العَقْلُ.
وَحِينَ تَرْتَجِفُ الرُّكْبَةُ كَانُوا يَقُولُونَ:
هَذِهِ العَلَامَةُ الأُولَى.
لَمْ يَكُنِ الجَبَلُ يَحْكُمُ، كَانَ يُوَازِنُ.
إِذَا مَالَ القَلْبُ جِهَةً شَدَّهُ الصَّخْرُ إِلَى المُنْتَصَفِ.
وَإِذَا حَاوَلَ العَابِرُ أَنْ يَحْمِلَ مَعَهُ سِلَاحَ الذَّاكِرَةِ، انْزَلَقَتْ قَدَمُهُ تَصْحِيحًا لَا عِقَابًا.
وَكَانَ الحَاضِرُونَ يُنْشِدُونَ:
مَنْ يَعْبُرْ دُونَ اعْتِرَافٍ يَعُدْ ظِلًّا.
وَمَنْ يَعْتَرِفْ دُونَ عُبُورٍ يَبْقَ اسْمًا بِلا جَسَدٍ.
وَعِنْدَ القِمَّةِ لَمْ يَكُنْ ثَمَّةَ وَعْدٌ.
وَلَا خَلَاصٌ.
فَقَطْ فَرَاغٌ تُقَاسُ فِيهِ الأَرْوَاحُ بِمَا تَخَلَّتْ عَنْهُ.
قَالَ الشُّيُوخُ:
مَنْ رَأَى فِي القِمَّةِ وَطَنًا لَمْ يَفْهَمِ الجَبَلَ...
لَمْ يَكُنْ صَامِتًا كَالجِبَالِ، كَانَ آخِرَ زَحْفٍ لِلْهَارِبِ.
مَنْ تَجَاوَزَهُ يَكُونُ قَدْ تَجَاوَزَ الحُدُودَ، وَنَزَعَ عَنْهُ جِلْدَ الخَوْفِ.
أَمَّا ثُلُوجُهُ البَيْضَاءُ، فَهِيَ مُطَرَّزَةٌ بِدِمَاءٍ لَمْ تَجِفَّ بَعْدُ، دِمَاءُ مَنْ حَاوَلُوا أَنْ يَعْبُرُوا العَالَمَ مِنْ دُونِ تَذْكِرَةٍ أَوْ مُعْجِزَةٍ.

**جُوقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ**: يَا جَبَلُ، كَمْ لُغَةً انْكَسَرَتْ قَبْلَ أَنْ تَصِلَ إِلَى الشَّوَاطِئِ؟

لَمْ يَكُنْ لَنَا اسْمٌ وَاحِدٌ.
وَلَمْ يَكُنْ لَنَا وَجْهٌ وَاحِدٌ...
الذَّاكِرَةُ، إِنْ لَمْ تُسْتَرَدَّ، تَتَحَوَّلُ إِلَى مُتْحَفٍ.
وَنَحْنُ لَا نُرِيدُ المَوْتَ، نُرِيدُ الكَلَامَ.

**نُنْشِدُ... كَيْ نَعْبُرَ.**
**نُنْشِدُ... كَيْ نَتَذَكَّرَ.**
**نُنْشِدُ... كَيْ لَا نُمْحَى.**



## (خَتْمُ)

لَا يُقَالُ، لَا يُقَالُ، لِأَنَّ القَوْلَ خَطَأٌ، وَلِأَنَّ القَوْلَ لَا يُقَالُ.

لَيْسَ اسْمًا، وَلَيْسَ مَعْنًى،

وَلَيْسَ نُورًا، وَلَيْسَ ظُلْمَةً،

وَلَيْسَ هُنَا، وَلَيْسَ هُنَاكَ، وَلَيْسَ قَبْلَ، وَلَيْسَ بَعْدَ.

لَا يُقَالُ.

لَيْسَ صَلَاةً، وَلَيْسَ صَمْتًا، وَلَيْسَ رَجَاءً، وَلَيْسَ يَأْسًا.

لَا يُقَالُ.

كُلُّ مَا يُقَالُ يَزِيدُ، وَالزِّيَادَةُ حِجَابٌ.

لَا يُقَالُ.

لَيْسَ حُضُورًا، وَلَيْسَ غِيَابًا، فَالحُضُورُ حَدٌّ، وَالغِيَابُ حَدٌّ.

لَا يُقَالُ.

لَيْسَ بَقَاءً، وَلَيْسَ زَوَالًا، فَالبَقَاءُ وَصْفٌ، وَالزَّوَالُ وَصْفٌ.

لَا يُقَالُ.

لَيْسَ اعْتِرَافًا، وَلَيْسَ إِنْكَارًا، فَالِاعْتِرَافُ شَكْلٌ، وَالإِنْكَارُ شَكْلٌ.

لَا يُقَالُ.

التَّكْرَارُ لَيْسَ عَوْدَةً؛ فَالعَوْدَةُ زَمَنٌ، وَالزَّمَنُ لَا يُقَالُ.

يَبْقَى وَلَا يَبْقَى.

وَالبَقَاءُ قَوْلٌ لَا يُقَالُ.

# إِصْحَاحُ
## 20
# مَلْحَمَةُ إِيكارَ
## (إِحْدَى عَشْرَةَ تَرْنِيمَةً مَحْذُوفَةً مِنَ الْأَصْلِ، أُضِيفَتْ لَاحِقًا)

تَرْنِيمَةٌ

## التَّرْنِيمَةُ الأُولَى (وِلَادَةُ الرَّكْضِ)

فِي البَلْدَةِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا إِيكارُ، كَانَتِ المَنَازِلُ تُشَيَّدُ بِالطِّينِ وَالنَّوَايَا، وَكَانَ الأَطْفَالُ يَكْبُرُونَ أَسْرَعَ مِنْ ظِلِّهِمْ، كَأَنَّ الوَقْتَ حَبْلٌ يَتَحَلَّلُ فَوْقَ رُؤُوسِهِمْ...
لَمْ يَتَعَلَّمِ الفَتَى الطَّيَرَانَ، وَلَمْ يَعْرِفِ الرِّيشَ إِلَّا فِي وِسَادَةٍ حَشَتْهَا أُمُّهُ بِقَشِّ الحَصَادِ...

لَكِنَّهُ تَعَلَّمَ الرَّكْضَ، تِلْكَ الحِرْفَةَ الَّتِي يَحْفَظُهَا الفُقَرَاءُ كَمَا يَحْفَظُ البَحْرُ لَوْنَهُ...
لَمْ يَمْنَحْهُ القَدَرُ رِيشًا، مَنَحَهُ قَدَمَيْنِ تَتَوَهَّجَانِ بِالغُبَارِ حِينَ تَرْكُضَانِ، وَتَهْدَآنِ حِينَ تَسْمَعَانِ الحِكَايَاتِ عَنِ الَّذِينَ حَاوَلُوا العُبُورَ وَفَشِلُوا...

كَانَتِ القَدَمَانِ وِجْهَتَهُ، وَجَنَاحَيْهِ اللَّذَيْنِ لَا يَتَبَخَّرَانِ تَحْتَ الشَّمْسِ، وَكَانَ صَوْتُهُمَا فَوْقَ الأَرْضِ هُوَ النَّشِيدَ الأَوَّلَ فِي مَلْحَمَةٍ لَا تَعْرِفُ كَيْفَ تَبْدَأُ إِلَّا بِخُطْوَةٍ تُفَتِّشُ عَنْ نَجَاةٍ مَا.

وَمَعَ ذَلِكَ، كَبِرَ الفَتَى وَهُوَ يُصَدِّقُ أَنَّ الخُطْوَةَ الأُولَى هِيَ أُولَى المُعْجِزَاتِ.

## التَّرْنِيمَةُ الثَّانِيَةُ
## (شَمْسٌ مِنْ أَسْلَاكٍ تَكْتُمُ أَسْمَاءَ العَابِرِينَ)

فِي النَّهَارِ، كَانَتِ الشَّمْسُ تَتَفَتَّحُ كَأَبْوَابِ تَحْقِيقٍ.
حُدُودٌ تَلْمَعُ، وَأَسْلَاكٌ تَشْتَدُّ بِالحَرَارَةِ، وَأَبْرَاجٌ تُحْصِي عَلَى الفُقَرَاءِ أَنْفَاسَهُمْ...
كُلَّمَا اقْتَرَبَتِ الأُمَّهَاتُ مِنَ السِّلْكِ، تَرَاجَعَ الضَّوْءُ وَصَارَ قَاسِيًا، كَأَنَّهُ شُرْطِيٌّ يُفَتِّشُ فِي جُيُوبِ الصِّبْيَةِ عَنْ جَوَازِ سَفَرٍ لَمْ يُطْبَعْ بَعْدُ...
لَمْ تَكُنِ الشَّمْسُ شَمْسًا، كَانَتْ حَدًّا مُعَلَّقًا عَلَى السَّمَاءِ، وَشَبَكَةً مِنْ أَسْلَاكٍ تَصْرُخُ كُلَّمَا اقْتَرَبَ مِنْهَا بَشَرٌ لَا تُرِيدُهُ...
كَانَتِ الحُدُودُ تَحْرُسُ الفَجْرَ، وَتُهِينُ ضَوْءَهُ حِينَ يَمُرُّ بَيْنَ أَبْرَاجِ المُرَاقَبَةِ، فَتَتَوَهَّجُ كَجَرَسِ إِنْذَارٍ يَتَذَكَّرُ كُلَّ جُرْحٍ عَبَرَ مِنْ هُنَا...
كَانَ إِيكارُ يَرَاهَا كَقَاضِيَةٍ لَا تَتْعَبُ، تَحْكُمُ عَلَى الرِّيحِ بِالعَوْدَةِ، وَعَلَى الأَرْضِ بِالثَّبَاتِ، وَعَلَى الحَالِمِينَ بِالانْطِفَاءِ...
لَكِنَّهُ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ، جَلَسَ ذَاتَ مَسَاءٍ، وَرَسَمَ بِقَدَمَيْهِ عَلَى التُّرَابِ طَرِيقًا يَخْرُجُ مِنْ قَبْضَتِهَا، كَأَنَّهُ يُفَاوِضُ الشَّمْسَ بِلُغَةِ الظِّلِّ.

## التَّرْنِيمَةُ الثَّالِثَةُ (البَحْرُ بِوُجُوهٍ زَرْقَاءَ)

حِينَ وَصَلَ إِلَى البَحْرِ، وَجَدَهُ لَا يُشْبِهُ حِكَايَاتِ المُهَاجِرِينَ...
لَمْ يَكُنْ مَاءً فَحَسْبُ، كَانَ صَفًّا مِنْ مَقْصُورَاتٍ بَيْضَاءَ، وَمَغَاسِلَ ضَوْءٍ تَتَحَقَّقُ مِنَ الجُيُوبِ، وَوُجُوهًا تُخْفِي وَرَاءَ قُبَّعَاتِهَا سُؤَالًا وَاحِدًا:

- إِلَى أَيْنَ؟ وَلِمَاذَا؟
كَانَ البَحْرُ مُتَوَتِّرًا، يُشْبِهُ مُوَظَّفًا يُؤَدِّي عَمَلَهُ بِعَيْنٍ تُرَاقِبُ المَوْجَ، وَعَيْنٍ تُحْصِي الأَسْمَاءَ...
تَتَكَسَّرُ الأَمْوَاجُ عَلَى صُدُورِهِمْ، لَا عَلَى الصُّخُورِ، وَيَتَعَفَّرُ الهَوَاءُ بِصَفِيرِ أَجْهِزَةٍ تُفَتِّشُ حَتَّى الصَّمْتَ...
وَرَغْمَ ذَلِكَ، عَرَفَ إِيكارُ أَنَّ المَاءَ هُوَ المَمَرُّ الوَحِيدُ الَّذِي لَمْ تُتْقِنْهُ الأَسْلَاكُ بَعْدُ.

## التَّرْنِيمَةُ الرَّابِعَةُ (هَزِيمَةُ اللَّيْلِ)

فِي مُخَيَّمٍ لِلَّاجِئِينَ قُرْبَ الحُدُودِ، قَضَى الشَّاعِرُ ـ الَّذِي كَانَ يَحْلُمُ بِالهُرُوبِ ـ لَيْلَهُ يَسْتَمِعُ إِلَى حِكَايَاتِ اللَّاجِئِينَ:
مِنْهُمْ مَنْ سَقَطَ فِي الشَّمْسِ، وَمِنْهُمْ مَنْ الْتَهَمَهُ المَوْجُ، وَمِنْهُمْ مَنْ عَادَ أَثْقَلَ مِنْ ظِلِّهِ...
لَكِنَّ اللَّيْلَ ـ ذَلِكَ الشَّيْخَ المُتْعَبَ ـ انْبَسَطَ كَصَفْحَةٍ مُبَلَّلَةٍ عَلَى الوُجُوهِ، وَقَالَ لِإِيكَارَ بِصَمْتِهِ:
- إِنَّ الهَزِيمَةَ الوَحِيدَةَ هِيَ أَلَّا تَسِيرَ.
فَمَدَّدَ قَدَمَيْهِ حَتَّى شَعَرَتَا بِجِبَالٍ تَنْكَمِشُ تَحْتَهُمَا، وَبِقُرًى تَبْتَعِدُ، وَبِمَخَاوِفَ تُطَهِّرُهَا المَسَافَةُ...
كَانَ اللَّيْلُ مُخْتَبَرًا، وَكَانَتْ خُطَاهُ تَجْرِبَةً لَا يُرِيدُ لَهَا إِلَّا أَنْ تَنْجَحَ.
وَعَلَى مَشَارِفِ مُخَيَّمِ اللَّاجِئِينَ نَفْسِهِ، جَلَسَ الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ وَهُوَ يَحْمِلُ كَامِيرَا أَثْقَلَ مِنْ عُمْرِهِ.

كَانَ يَلْتَقِطُ صُوَرًا لِلْوُجُوهِ الخَائِفَةِ، وَلِلْأُمَّهَاتِ اللَّوَاتِي يُخَبِّئْنَ أَطْفَالَهُنَّ تَحْتَ الغِطَاءِ، وَلِلرِّجَالِ الَّذِينَ يُشْبِهُونَ الخَرَائِطَ، حُدُودًا مُمَزَّقَةً وَلُغَاتٍ تَائِهَةً.

قَالَ لِإِيكَارَ:

- سَتَعْبُرُ يَوْمًا... لَكِنْ تَذَكَّرْ:

الصُّورَةُ الَّتِي تُلْتَقَطُ عِنْدَ العُبُورِ تُصْبِحُ قَدَرَكَ.

فَلَا تَدَعْ أَحَدًا يَخْتَارُ لَكَ مَلَامِحَ النِّهَايَةِ.

وَالْتَقَطَ لَهُ صُورَةً لَمْ يَرَهَا إِيكارُ؛ لِأَنَّ العَالَمَ مِنْ حَوْلِهِ كَانَ مَنْشَغِلًا بِالْتِقَاطِ أَنْفَاسِهِ.

## التَّرْنِيمَةُ الخَامِسَةُ (رَكْضٌ ضِدَّ الضَّوْءِ)

رَكَضَ إِيكارُ...

رَكَضَ حَتَّى صَارَ الهَوَاءُ أَخَفَّ مِنِ اسْمِهِ، وَحَتَّى صَارَ جَسَدُهُ مِفْتَاحًا يَمِيلُ نَحْوَ الفَتْحِ...

لَمْ يَسْمَعْ نِدَاءَاتِ حُرَّاسِ البَحْرِ، وَلَا صَفَّارَاتِ الشَّمْسِ وَهِيَ تَغْلِي فَوْقَ الأَسْلَاكِ...

كُلُّ مَا سَمِعَهُ كَانَ نَبْضًا يُشْبِهُ الطُّبُولَ القَدِيمَةَ، كَأَنَّ قَبِيلَةً مِنَ الأَسْلَافِ تَرْكُضُ مَعَهُ، وَتَصِيحُ:

- لَا تَتَوَقَّفْ...

كَانَتْ قَدَمَاهُ تَدُقَّانِ الأَرْضَ كَمَا يُدَقُّ الحَدِيدُ حِينَ يُصْنَعُ سَيْفًا، وَكَأَنَّهُمَا تَكْتُبَانِ عَلَى التُّرَابِ تَعَاوِيذَ النَّجَاةِ...

رَكَضَ إِيكارُ...

رَكَضَ حَتَّى وَصَلَ إِلَى البَحْرِ.
فَوَجَدَ صُفُوفًا مِنَ المَكَاتِبِ، وَرِجَالًا يَفْحَصُونَ المَوْجَ، وَأَجْهِزَةً تَقِيسُ صَبْرَ العَابِرِينَ.
كَانَ البَحْرُ سِجِلًّا لِلْغُرَبَاءِ، وَمَسَارًا مِنَ الأَسْئِلَةِ يَبْدَأُ بِـ"مَنْ أَنْتَ؟"، وَلَا يَنْتَهِي إِلَّا بِسُقُوطِ أَحَدِهِمْ...
وَمَعَ ذَلِكَ، رَأَى إِيكارُ أَنَّ المَاءَ يَلِينُ، وَأَنَّ الصَّخْرَ، مَهْمَا اشْتَدَّ، يَزْحَفُ أَمَامَ شَهْوَةِ الجَرْيِ...
وَحِينَ انْفَتَحَ الفَجْرُ، انْفَتَحَ مَعَهُ البَابُ الَّذِي لَا يَرَاهُ إِلَّا مَنْ قَرَّرَ العُبُورَ.
وَصَارَتِ الأَرْضُ تَتَرَاجَعُ تَحْتَهُ كَمَا يَتَرَاجَعُ المَاءُ حِينَ يَخَافُ...
رِجَالُ البَحْرِ يَصْرُخُونَ، وَصَفَّارَاتُ الشَّمْسِ تَشْتَعِلُ، لَكِنَّ القَدَمَيْنِ تَضْرِبَانِ التُّرَابَ كَأَنَّهُمَا تَدُقَّانِ جَرَسَ الحُرِّيَّةِ.

تَرْنِيمَة

## التَّرْنِيمَةُ السَّادِسَةُ (عُبُورٌ بِلا ارْتِفَاعٍ)

فِي هَذَا الصَّبَاحِ، فِي المَرْصَدِ الحُدُودِيِّ، تَحَلَّقَ الجُنْدِيُّ الجَرِيحُ وَرَفِيقُهُ. الجُنْدِيُّ المُخَابِرُ. حَوْلَ نَارٍ صَغِيرَةٍ تُشْبِهُ قَلْبَ العَالَمِ حِينَ يَتَقَلَّصُ خَوْفًا...
كَانَ الجُنْدِيُّ المُخَابِرُ رَجُلًا فَقَدَ أَبْنَاءَهُ، وَكَانَ يَرْوِي لِلْجُنْدِيِّ الجَرِيحِ قِصَصًا عَنْ ضَوْءٍ فِي آخِرِ الطَّرِيقِ، وَعَنْ امْرَأَةٍ تُرْضِعُ طِفْلَهَا، وَتَقُولُ إِنَّ البَحْرَ يُرَبِّي أَبْنَاءَهُ عَلَى الصَّبْرِ، ثُمَّ يَرْمِيهِمْ لِلْقَدَرِ...

كَانَ الجُنْدِيُّ الجَرِيحُ يُصْغِي، لَكِنَّ قَدَمَيْهِ كَانَتَا تُعِيدَانِ رَسْمَ الطَّرِيقِ عَلَى التُّرَابِ، كَمَا يُعِيدُ الكَتَبَةُ نَسْخَ أُسْطُورَةٍ مَنْسِيَّةٍ.

وَعَلَى حَافَّةِ الضَّوْءِ، حَيْثُ تَفْصِلُ الحُدُودُ بَيْنَ لَوْنَيْنِ، تَوَقَّفَ الشَّاعِرُ الهَارِبُ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ...

لَمْ يَكُنْ يُرِيدُ الطَّيَرَانَ، كَانَ يُرِيدُ فَقَطْ عُبُورًا يَفْهَمُهُ جَسَدُهُ.

رَفَعَ قَدَمَيْهِ قَلِيلًا، لَا ارْتِفَاعًا...

وَإِنَّمَا رَفْضًا:

رَفْضَ أَنْ تَكُونَ الخُطُوطُ قَدَرًا، وَأَنْ تَكُونَ الشَّمْسُ قَيْدًا، وَأَنْ يُدْفَنَ البَحْرُ تَحْتَ رُتَبٍ وَأَرْقَامٍ...

خَطَا خُطْوَةً أَخِيرَةً.

فَاشْتَعَلَ الضَّوْءُ حَوْلَهُ، كَأَنَّ الأَسْلَاكَ تَتَعَلَّمُ مَعْنَى الفَتْحِ لِلْمَرَّةِ الأُولَى.

## التَّرْنِيمَةُ السابعة (المَلاكُ يَعُودُ)

عَلَى مَشَارِفِ الحُدُودِ الأَخِيرَةِ، وَقَفَ المَلَاكُ الأَعْمَى، كَأَنَّهُ يَعْرِفُ وَقْتَ الِانْهِيارِ.

قَالَ لِإِيكارَ:

- لَا تَرْكُضْ ضِدَّ الضَّوْءِ، ارْكُضْ دَاخِلَهُ.

فَالوَهَجُ الَّذِي يَقْتُلُ هُوَ نَفْسُهُ يَهْدِي الطَّرِيقَ لِمَنْ لَا يَتَوَقَّفُ.

رَفَعَ يَدَهُ كَمَنْ يَرْسُمُ عَلَامَةً عَلَى الهَوَاءِ، فَانْفَصَلَتِ الظِّلَالُ عَنِ الأَرْضِ، وَبَدَأَ الضَّوْءُ يَتَرَاجَعُ.

## التَّرْنِيمَةُ الثَّامِنَةُ (صُورَةٌ لَا تَكْتَمِلُ)

مِنْ بَعِيدٍ، كَانَ الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ يَتْبَعُهُ بِعَدَسَتِهِ الَّتِي تَخَافُ الوَمِيضَ.
كَانَ يُرِيدُ أَنْ يُوَثِّقَ لَحْظَةَ العُبُورِ، لَكِنَّ الضَّوْءَ كَانَ أَسْرَعَ، وَكَانَتِ المَسَافَةُ تَنْمُو بَيْنَهُ وَبَيْنَ الفَتَى كَمَا يَنْمُو صَمْتٌ كَبِيرٌ فِي فَمِ مَأْسَاةٍ...
صَاحَ الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ:
- لَا تَتَوَقَّفْ!
الصُّورَةُ لَا تُنْقِذُكَ، لَكِنَّهَا تُخْبِرُ العَالَمَ أَنَّكَ كُنْتَ هُنَا.
لَمْ يَسْمَعْهُ إِيكارُ، لَكِنَّ صَرْخَتَهُ بَقِيَتْ فِي الهَوَاءِ كَعَلَمٍ.

## التَّرْنِيمَةُ التَّاسِعَةُ (سُقُوطٌ بِلا سُقُوطٍ)

اقْتَرَبَ إِيكارُ مِنَ السِّلْكِ الأَخِيرِ، حَيْثُ تَلْمَعُ الحُدُودُ كَقِطْعَةِ جَمْرٍ تَنْتَظِرُ مَنْ يَمَسُّهَا.
رَفَعَ قَدَمَيْهِ لِيَفْصِلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الخَوْفِ.
لَمْ يَسْقُطْ، وَلَمْ يَرْتَفِعْ.

صَارَ فِي المُنْتَصَفِ، مَكَانٍ لَمْ تُسَمِّهِ الخَرَائِطُ بَعْدُ...
وَمِنْ هُنَاكَ بَدَأَ العُبُورُ الحَقِيقِيُّ:
اعْتِرَافًا بِحَقِّ الجَسَدِ أَنْ يَصِيرَ طَرِيقًا.

تَرْنِيمَةٌ

## التَّرْنِيمَةُ العَاشِرَةُ (شَهَادَةُ البَحْرِ)

البَحْرُ، الَّذِي اعْتَادَ أَنْ يَبْتَلِعَ الحِكَايَاتِ، تَوَقَّفَ هَذِهِ المَرَّةَ...
وَقَفَ رِجَالُ المَخَافِرِ فِي صَمْتٍ، كَأَنَّهُمْ يُشَاهِدُونَ أُسْطُورَةً تَخْرُجُ مِنَ المَاءِ.
وَلِأَوَّلِ مَرَّةٍ، لَمْ يَسْأَلِ البَحْرُ عَنِ الأَوْرَاقِ، وَلَا عَنِ الأَصْلِ، وَلَا عَنِ الِاتِّجَاهِ.
قَالَ بِصَوْتِهِ الأَزْرَقِ:
- هَذَا العَابِرُ لَا يَخُصُّنِي، وَلَا يَخُصُّهُمْ.
إِنَّهُ ابْنُ الخُطْوَةِ الَّتِي لَا تَعُودُ.

تَرْنِيمَةٌ

## التَّرْنِيمَةُ الحَادِيَةُ عَشْرَةَ
## (نَشِيدُ مَنْ يُكْمِلُونَ الطَّرِيقَ)

فِي الضِّفَّةِ البَعِيدَةِ، حَيْثُ يَخْفُتُ وَهَجُ الحُدُودِ وَتَنْطَفِئُ الأَسْلَاكُ، جَلَسَ إِيكَارُ عَلَى صَخْرَةٍ تَغْسِلُهَا الرِّيحُ.
لَمْ يَلْتَفِتْ.
فَالعَابِرُونَ لَا يَلْتَفِتُونَ إِلَّا لِيُصْبِحُوا تَمَاثِيلَ مِنْ مِلْحٍ...
اخْتَفَى المَلَاكُ الأَعْمَى، وَعَادَ الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ بِصُورَةٍ نَاقِصَةٍ، لَكِنَّ إِيكَارَ ظَلَّ يَتَقَدَّمُ حَتَّى صَارَ أُفُقًا يَمْشِي.
يَقُولُ الَّذِينَ رَأَوْهُ بَعْدَ ذَلِكَ إِنَّهُ لَمْ يَسْقُطْ، وَلَمْ يَطِرْ...
إِنَّهُ صَارَ طَرِيقًا.

وَيَقُولُ بَعْضُهُمْ إِنَّ قَدَمَيْهِ مَا زَالَتَا تَلْمَعَانِ فَوْقَ الرَّمْلِ كُلَّمَا مَرَّ مُهَاجِرٌ يَائِسٌ، وَإِنَّ خُطْوَتَهُ الأَخِيرَةَ صَارَتْ عَلَامَةً تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الأُسْطُورَةَ مَا زَالَتْ قَابِلَةً لِأَنْ تُعَادَ...

وَيَقُولُ آخَرُونَ إِنَّهُ، حِينَ غَابَ فِي صَمْتِ المَدَى، تَرَكَ وَرَاءَهُ نَشِيدًا لَا يَسْمَعُهُ إِلَّا مَنْ يَرْكُضُ ضِدَّ الضَّوْءِ، نَشِيدًا يَقُولُ:

أَنَا ابْنُ أَرْضٍ لَا تُقَاسُ بِالحُدُودِ،

وَالمَسَافَةُ

الَّتِي

هَرَبْتُ

مِنْهَا

صَارَتْ

بَلَدِي

الجَدِيدَ.

١٥

# النَّشِيدُ الخَامِسُ عَشَرَ

## الدَّلِيلُ المُخْتَصَرُ لِفَشَلِ المَعْنَى

شَاعِرٌ هَارِبٌ وَمَلَاكٌ أَعْمَى.
فُوتُوغْرَافِيٌّ وَجُنْدِيٌّ جَرِيحٌ.
جَبَلٌ، وَبَحْرٌ، وَعَسْكَرٌ، وَذِئَابٌ.
ظِلَالٌ، وَغَيْمَةٌ مُهَاجِرَةٌ.
سَارِدٌ، وَنَاسِخٌ، وَجُوقَةُ أَرْوَاحٍ تَائِهَةٍ.
كُلُّنَا: حَمَلَتْنَا الهِجْرَاتُ، وَحَمَلَتْنَا الرِّيحُ، وَجُنُونٌ يُدَاعِبُ الخَيَالَ، فَيُرَاهِنُ الخَيَالُ عَلَى حَرْبٍ تُشْبِهُ كِتَابَةً لَا تَتَذَكَّرُ بَدَايَتَهَا.
كُلُّ رَصَاصَةٍ عَلَامَةُ تَرْقِيمٍ زَائِدَةٌ.
حَمَلَتْنَا الجِهَاتُ، حَيْثُ النِّهَايَاتُ مَرْفُوضَةٌ.
وَكُلُّ جُثَّةٍ هَامِشٌ لَا يُغْلِقُ الصَّفْحَةَ.
حَمَلْتُ صَارِيَةً، وَرَأَيْتُ مَلَاكًا أَعْمَى وَشَاعِرًا هَارِبًا يَسِيرَانِ مَعًا: أَحَدُهُمَا مُبَارَكٌ بِالنُّبُوءَةِ، وَالآخَرُ مَلْعُونٌ بِالهَذَيَانِ.
حَمَلْتُ جُوقَةَ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ، وَرَطَانَةَ الرُّعْبِ فِي بُوقِ الغُبَارِ.
حَمَلْتُ فُوتُوغْرَافِيًّا يَغْدِرُ غَدْرَ الذِّئَابِ بِأَبْنَائِهَا، لِيَقُودَ إِيكارَ إِلَى كُتَلٍ مِنَ الثَّلْجِ، وَإِلَى كُثْبَانٍ هَارِبَةٍ، وَإِلَى قَنْصٍ وَلَهَاثٍ.
يَقُودُهُ كَطَرِيدَةٍ فِي فَمِ الأُفُقِ، فِي نَسِيجِ المَلْهَاةِ.
وَكَانَ إِيكارُ يَضْحَكُ، وَيَقْذِفُ بِنَفْسِهِ فِي قَلَقِ المَسَافَاتِ، كَأَنَّهُ سِنْدِبَادُ الأَزْمِنَةِ الجَمِيلَةِ، يَبْحَثُ عَنْ جَزِيرَةٍ لَمْ يَخْلُقْهَا أَحَدٌ بَعْدُ.
حَمَلْتُ المَكَانَ النَّائِمَ عَلَى المَلْهَاةِ، وَصَخَبَ سَرْدٍ يَقُولُ:
"أَنَا لَا أَكْرَهُ العَالَمَ. أَنَا فَقَطْ أُلَاحِظُ كَيْفَ يُبَالِغُ الإِنْسَانُ فِي سُوءِ فَهْمِهِ".
سَقَطَ الثَّلْجُ، وَكَعَادَتِهِ لَمْ يُرْفِقْ رِسَالَةَ اعْتِذَارٍ.
لَا تَفْسِيرَ.
لَا بَيَانَ صَحَفِيًّا.

لَا اهْتِمَامَ بِمَا إِذَا كُنَّا جَاهِزِينَ.
الثَّلْجُ مُحْتَرِفٌ فِي تَجَاهُلِنَا.
ثُمَّ ظَهَرَتِ الذِّئَابُ كَحَاشِيَةٍ هَامِشِيَّةٍ كَتَبَهَا الجُوعُ فِي دَفْتَرِ الوَاقِعِ.
هِيَ لَا تُفَكِّرُ، وَلَا تُخَطِّطُ، وَلَا تُنَاقِشُ أَخْلَاقِيَّاتِ البَقَاءِ.
هِيَ فَقَطْ تُنَفِّذُ بَرْنَامَجَ الحَيَاةِ كَمَا لَوْ أَنَّهُ أَمْرٌ إِدَارِيٌّ بَسِيطٌ:
اسْتَمِرَّ، أَوِ احْذِفْ نَفْسَكَ.
أَنَا أُحِبُّ وُضُوحَهَا.
لَا خُطَبَ.
لَا كُتُبَ.
لَا أَوْهَامَ عَنِ "الكَرَامَةِ".
هِيَ مَوْجُودَةٌ... فَقَطْ.
وَفِي الأَسْفَلِ وَقَفَ الإِنْسَانُ، ذَلِكَ الكَائِنُ الَّذِي يَحْتَاجُ إِلَى أَلْفِ مَفْهُومٍ لِيُبَرِّرَ لُقْمَةً وَاحِدَةً.
يَحْمِلُ نَارًا لِيُثْبِتَ أَنَّهُ مُخْتَلِفٌ.
وَيَحْمِلُ سِلَاحًا لِيُثْبِتَ أَنَّهُ مُهِمٌّ.
وَيَحْمِلُ اسْمًا لِيُثْبِتَ أَنَّهُ حَقِيقِيٌّ.
وَالعَالَمُ يَبْتَسِمُ بِصَمْتٍ لِكُلِّ هَذِهِ المَأْسَاةِ.
لَمْ تَرَ الذِّئَابُ إِنْسَانًا.
رَأَتْ خَطَأً بِيُولُوجِيًّا تَأَخَّرَ فِي قَبُولِ القَاعِدَةِ الأَسَاسِيَّةِ:
لَا أَحَدَ مَرْكَزُ الكَوْنِ،
وَلَا أَحَدَ اسْتِثْنَاءٌ.
اللِّقَاءُ حَدَثَ كَمَا يَحْدُثُ كُلُّ شَيْءٍ فِي هَذَا الكَوْكَبِ: بِلا ضَرُورَةٍ، وَبِلَا قَصْدٍ، وَبِلَا مَعْنًى يَصْلُحُ لِلنَّشْرِ.
سَقَطَ الدَّمُ كَجُمْلَةٍ قَصِيرَةٍ لَنْ يَقْرَأَهَا أَحَدٌ.
رَحَلَتِ الذِّئَابُ، لِأَنَّهَا فَعَلَتْ مَا تَفْعَلُهُ الذِّئَابُ عَادَةً: لَمْ تَمُتْ اليَوْمَ.
وَانْتَهَى الإِنْسَانُ، لِأَنَّهُ فَعَلَ مَا يَفْعَلُهُ الإِنْسَانُ: اعْتَقَدَ أَنَّ الكَوْنَ سَيَأْخُذُهُ عَلَى مَحْمَلِ الجِدِّ.
المُضْحِكُ حَقًّا لَيْسَ المَوْتَ، إِنَّمَا تِلْكَ الثِّقَةُ العَمِيقَةُ بِأَنَّ لِلْحَيَاةِ رَأْيًا أَخْلَاقِيًّا.
الطَّبِيعَةُ لَا تُعَاقِبُ، وَلَا تُكَافِئُ، وَلَا تَكْرَهُ.

هِيَ فَقَطْ تَعْمَلُ، كَمَا تَعْمَلُ آلَةٌ لَا تَعْرِفُ أَنَّهَا آلَةٌ.
أَمَّا نَحْنُ، فَنَخْتَرِعُ القِصَصَ كَيْ لَا نَعْتَرِفَ بِالحَقِيقَةِ البَسِيطَةِ:
نَحْنُ حَادِثٌ ذَكِيٌّ يُحَاوِلُ عَبَثًا أَنْ يُصْبِحَ ضَرُورَةً.
الثَّلْجُ الآنَ يُغْلِقُ المَشْهَدَ احْتِرَامًا لِضَحَايَا بُرُودَةِ الوَقَائِعِ.
يُغَطِّي الأَرْضَ كَمَا تُغَطَّى الحَقَائِقُ المُزْعِجَةُ: بِطَبَقَةٍ جَمِيلَةٍ مِنَ الصَّمْتِ.
وَفِي النِّهَايَةِ، لَنْ يَبْقَى شَيْءٌ سِوَى سُؤَالٍ غَيْرِ مُهِمٍّ:
هَلْ كَانَتِ الذِّئَابُ مُتَوَحِّشَةً؟
أَمْ كُنَّا نَحْنُ فَقَطْ أَكْثَرَ حَسَاسِيَّةً مِمَّا يَنْبَغِي تُجَاهَ فِكْرَةِ أَنَّنَا قَابِلُونَ لِلِاسْتِبْدَالِ؟
كُلُّنَا:
حَمَلَتْنَا كَلِمَاتٌ.
لَمْ تَعُدْ ضَرُورِيَّةً.
لَيْسَ لَنَا إِلَّا الخَيَالُ الَّذِي يُبْحِرُ نَحْوَ النِّسْيَانِ، وَالنَّصُّ الَّذِي يَمْشِي بِلا شَاهِدٍ.

**جُوقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ** (لَازِمَةٌ أَخِيرَةٌ، بِبُطْءٍ):
لَسْنَا أَشْبَاحًا لِأَنَّنَا مَوْتَى.
لَسْنَا أَشْبَاحًا لِأَنَّنَا نَتَذَكَّرُ أَكْثَرَ مِمَّا يَحْتَمِلُهُ الحَاضِرُ...
جِئْنَا عَبْرَ المَاءِ، كَحُمُولَةٍ لَا كَمُسَافِرِينَ...
كَانَ البَحْرُ أَوْسَعَ مِنَ الرَّحْمَةِ، وَأَضْيَقَ مِنَ الذَّاكِرَةِ.
أَيْدِينَا مُقَيَّدَةٌ، لَكِنَّ أَصْوَاتَنَا تَعَلَّمَتِ التَّنَفُّسَ تَحْتَ السَّطْحِ.
نُسَلِّمُ النَّشِيدَ لِمَنْ سَيَأْتِي، بِوَصْفِهِ مَعْرِفَةً لَا جُرْحًا...
العُبُورُ لَيْسَ خُرُوجًا مِنَ المَاضِي، إِنَّهُ طَرِيقَةٌ جَدِيدَةٌ لِحَمْلِهِ...
نَسْتَعِيدُ مَا سُرِقَ مِنَ الزَّمَنِ، وَمَا سُرِقَ مِنَ الأَجْسَادِ، وَمَا سُرِقَ مِنَ اللُّغَةِ.
نَسْتَعِيدُهُ مِنْ أَفْوَاهٍ لَمْ تُخْلَقْ لَنَا.
نَسْتَعِيدُ القِصَّةَ مِنْ يَدِ المُنْتَصِرِ.
نَسْتَعِيدُ الحَقَّ فِي أَنْ نَرْوِيَ، لَا أَنْ نُرْوَى.

**نُنْشِدُ... كَيْ لَا نَنْسَى أَنْفُسَنَا.**
**نُنْشِدُ... كَيْ يَسْتَمِرَّ الصَّوْتُ.**
**نُنْشِدُ... كَيْ لَا يَنْقَطِعَ العُبُورُ.**

# إِصْحَاحُ

21

## أُقْنُومُ الْعَائِدِينَ بِوُجُوهٍ لَيْسَتْ لَهُمْ

تَرْنِيمَةُ

(1)

### يَقِينُ الصَّدَى الْمَكْسُور

لَمَّا نَزَلَ الْعَابِرُ إِلَى بَدَنٍ يَنْزِفُ أَلْسِنَةَ اللَّهَبِ، سَمِعَ أَصْوَاتًا تَتَرَدَّدُ دُونَ أَنْ تَعُودَ. كَانَتِ الْأَصْوَاتُ كَأَنَّهَا صَدًى لِخُطُوَاتِهِ، لَكِنَّ كُلَّ صَدًى يَحْمِلُ جُمْلَةً لَمْ يَقُلْهَا، وَصَوْتًا لَمْ يَكُنْ صَوْتَهُ. عَلَى جِدَارِ مِحْرَابِ الْمَعْبَدِ، كَانَتْ صُوَرٌ فُوتُوغْرَافِيَّةٌ مُعَلَّقَةٌ فِي الْهَوَاءِ (صُوَرٌ مَأْخُوذَةٌ قَبْلَ أَنْ تُلْتَقَطَ): وُجُوهٌ لِأُنَاسٍ لَمْ يُولَدُوا، وَمَوْتَى لَمْ يَمُوتُوا بَعْدُ... وَقَفَ الْعَابِرُ أَمَامَ صُورَةٍ لَهُ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى الْخَلْفِ. لَكِنَّ النُّسْخَةَ دَاخِلَ الصُّورَةِ لَمْ تَلْتَفِتْ إِلَيْهِ. كَانَتْ تَنْظُرُ إِلَى شَيْءٍ يَقَعُ خَلْفَهُ تَمَامًا... شَيْءٍ لَمْ يَجْرُؤْ عَلَى أَنْ يَسْتَدِيرَ نَحْوَهُ...

تَرْنِيمَةُ

(2)

### يَقِينُ الْعُرْجُونِ الْمُعَلَّق

وَلَمَّا هَبَطَ إِلَى سُرَّةِ الْأَرْضِ، رَأَى أَشْجَارًا مِنْ ضَوْءٍ مُحْتَرِقٍ، كُلُّ غُصْنٍ فِيهَا يَحْمِلُ ثَمَرَةً تُشْبِهُ عَيْنًا بَشَرِيَّةً. كَانَتِ الْعُيُونُ نِصْفَ مَفْتُوحَةٍ، كَأَنَّهَا تُقَاوِمُ النَّوْمَ. هَمَسَ الْمَلَاكُ الْأَعْمَى الَّذِي رَافَقَهُ مِنْ بَعِيدٍ دُونَ أَنْ يَقْتَرِبَ:

* هُنَا يُعَلَّقُ كُلُّ مَنْ رَأَى الْحَقِيقَةَ وَلَمْ يَشْهَدْ بِهَا، وَكُلُّ مَنْ شَهِدَ بِهَا وَلَمْ يَرَهَا.

اقْتَرَبَ الْعَابِرُ مِنْ شَجَرَةٍ يَابِسَةٍ فِي آخِرِ الصَّفِّ. كَانَتْ تَحْمِلُ عَيْنًا وَاحِدَةً فَقَطْ.
وَحِينَ نَظَرَ إِلَيْهَا، رَمَشَتْ...
رَمَشَتْ كَمَنْ يَتَعَرَّفُ عَلَى صَاحِبِهِ بَعْدَ فِرَاقِ عِشْرِينَ حَيَاةً. أَحَسَّ بِثِقْلٍ فِي صَدْرِهِ، وَلَمْ يَجْرُؤْ عَلَى السُّؤَالِ:
* هَلْ هَذِهِ عَيْنُهُ... أَمْ عَيْنُ النُّسْخَةِ الَّتِي لَمْ يَخْتَرْ أَنْ يَكُونَهَا؟

تَرْنِيمَةٌ

(3)

## يَقِينُ التَّائِهِينَ فِي الْوَقْتِ

هَبَطَ إِلَى دَهْشَةٍ كَسَاعَةٍ مَكْسُورَةٍ... كَانَتِ الْعَقَارِبُ تَتَحَرَّكُ فِي كُلِّ اتِّجَاهٍ، وَكَانَتْ كُلُّ دَقِيقَةٍ تَسْقُطُ كَحَجَرٍ، فَتُحْدِثُ تَكَسُّرًا فِي الْفَرَاغِ... هُنَا وَجَدَ رِجَالًا وَنِسَاءً يُطَارِدُونَ ظِلًّا لَمْ يَعُدْ لَهُمْ. كَانُوا يَرْكُضُونَ بِغَيْرِ أَرْضٍ، وَيَتَوَقَّفُونَ بِغَيْرِ سَبَبٍ، وَيَتَحَلَّلُونَ ثُمَّ يَعُودُونَ، كَأَنَّ الزَّمَنَ يَمْضَغُهُمْ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ نَاقِصِينَ. رَأَى بَيْنَهُمْ الْفُوتُوغْرَافِيَّ الْعَجُوزَ، وَلَيْسَ وَاحِدًا... ثَلَاثَ نُسَخٍ مِنْهُ:
نُسْخَةً تَلْتَقِطُ صُوَرًا لِلَّحْظَةِ الَّتِي تَسْبِقُ مَوْتَهَا،
وَنُسْخَةً تَكْتُبُ وَصِيَّتَهَا عَلَى التُّرَابِ الَّذِي يَخْتَفِي،
وَنُسْخَةً تَنْظُرُ إِلَيْهِ مُبَاشَرَةً دُونَ عَدَسَةٍ:
* أَنْتَ مُتَأَخِّرٌ... تَأَخَّرْتَ كَثِيرًا فِي الْوُصُولِ إِلَى هُنَا.

ثُمَّ اخْتَفَتِ النُّسَخُ الثَّلَاثُ، كَأَنَّ الزَّمَنَ ابْتَلَعَهَا مَعَ آخِرِ نَبْضَةٍ.

تَرْنِيمَةٌ

(4)

## يَقِينُ الْعَابِرِ الَّذِي يَتَقَدَّمُ إِلَى الْخَلْفِ

فِي ذِكْرَى قَدِيمَةٍ، لَمْ يَجِدْ نَارًا وَلَا جَمَرَاتٍ. وَجَدَ مَمَرًّا مِنْ مَرَايَا عَتِيقَةٍ، كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا تَعْكِسُ مُسْتَقْبَلًا مُخْتَلِفًا...

وَقَفَ أَمَامَ مِرْآةٍ رَأَى فِيهَا نَفْسَهُ عَائِدًا إِلَى الْعَالَمِ، يَحْمِلُ جَنَاحَيْنِ مِنْ شَمْعٍ، يَمْشِي وَلَا يَطِيرُ، لَكِنَّ الضَّوْءَ يَتْبَعُ أَثَرَهُ، كَمَا لَوْ كَانَ إِيكارُ الْحَقِيقِيُّ الَّذِي لَمْ يَسْقُطْ... وَتَعَلَّمَ أَنْ يَعُودَ.

وَفِي مِرْآةٍ ثَانِيَةٍ، رَأَى الْمَلَاكَ الْأَعْمَى يَمْشِي أَمَامَهُ، يَفْتَحُ لَهُ الطَّرِيقَ إِلَى دَائِرَةٍ لَا نِهَايَةَ لَهَا.

وَفِي ثَالِثَةٍ... لَمْ يَرَ شَيْئًا. لَا جَسَدَهُ، وَلَا ظِلَّهُ، وَلَا زَمَنَهُ.

هُنَا شَعَرَ، لِلْمَرَّةِ الْأُولَى، أَنَّهُ وَصَلَ إِلَى جَحِيمٍ لَمْ يُخْلَقْ لِمُعَاقَبَةِ أَحَدٍ، وَإِنَّمَا لِمَعْرِفَةِ سَبَبِ اخْتِيَارِهِ الْعُبُورَ.

١٦

# النَّشِيدُ السَّادِسُ عَشَرَ

## الخِيَانَةُ المُعَمَّدَةُ بِالنُّورِ الْغَرِيبِ

آلِهِي، أَيُّهَا الْخَفِيُّ، يَا مَنْ تَتَبَدَّى أَسْمَاؤُهُ مِثْلَ شَظَايَا الْفَجْرِ فَوْقَ مَحَارِيبِ السُّحُبِ...
أَيُّهَا الثَّابِتُ فِي أَبَدِكَ، يَا مَنْ يَقْرَعُ قَلْبِي مِثْلَ مِطْرَقَةٍ عَلَى جَرَسٍ شَرِيدٍ، يَا مَنْ يَسْكُبُ النُّورَ فِي لِسَانِي، وَيُفْرِغُ عَقْلِي وَيُبْهِجُ أَقْوَالِي، إِلَيْكَ أَجِيءُ.
وَأَنْتِ أَيَّتُهَا الْخِيَانَاتُ الشَّائِنَةُ، أَيَّتُهَا الْبَتُولُ الدَّنِسَةُ، الْمَوْشُومَةُ بِالْمَوْتِ الْأَسْوَدِ، يَا عَذْرَاءَ الظِّلِّ الْوَاجِفَةَ، لَا تَجْعَلِي مِنِّي الدَّنَسَ الْوَحِيدَ لِهَذِهِ الْجِيفَةِ، وَلَا تَجْعَلِي رُوحِي وَحْلَ الذَّنْبِ الْوَحِيدَ فِي جُثَّةِ هَذَا الْعَالَمِ.

وَأَنْتِ يَا أَنَاشِيدَ النَّوَاقِيسِ، يَا مَآذِنَ الْفِضَّةِ فِي ظَلَامِ دَمِي، لَا تَتْرُكِي شَيْخُوخَةَ الزَّمَنِ تُطْفِئُنِي قَبْلَ أَنْ أَسْتَبْدِلَ وَجْهِي بِوَجْهِ طِفْلٍ نَائِمٍ فِي حُجُورِ الْمَلَائِكَةِ، وَقَبْلَ أَنْ أَثْمَلَ بِصُرَاخِي حَتَّى يَعْلُوَ النَّشِيدُ نَحْوَ مَلَائِكَةٍ تَائِهَةٍ بَيْنَ مَخَافِرِ الرِّيحِ.

لَعَلِّي أَنْسَى احْتِضَارَ الْأَعْرَاسِ، وَأَقْتَسِمُ غَنَائِمِي مَعَ رَكْضِ الْوَقْتِ، وَأَصْنَعُ مِنْ نَهَارٍ مَائِلٍ إِلَى الرَّحْمَةِ قِنَاعًا لِقَلْبِي الَّذِي اهْتَزَّ مِثْلَ مِصْبَاحٍ فِي قُبَّةٍ مُعْتِمَةٍ.

وَلَعَلِّي أُخْفِي وَشْمَ الْخِيَانَةِ تَحْتَ طِلَاءٍ نَرْجِسِيٍّ يَخْدَعُ الْأَرْوَاحَ الَّتِي تَعْبُرُ الْحُدُودَ وَهِيَ تَرْتَجِفُ.

أَنَا بَهْلُولُ الْعَتَمَةِ، السِّرُّ الْمَفْضُوحُ كَأَنَّهُ بَكَارَةُ الْأُسْطُورَةِ. أَعْلَمُ أَنَّ خَدِيعَتِي لَا شَبِيهَ لَهَا، لَكِنَّنِي كُنْتُ أُحَاوِلُ فَتْحَ أَقْفَالِ الرُّعْبِ بِمَفَاتِيحِ الْأُرْجُوَانِ، كَمَا يَفْعَلُ قِدِّيسٌ يُوَبِّخُ الْعَالَمَ بِانْفِعَالٍ يُشْبِهُ الْقِيَامَةَ الصَّغِيرَةَ.

أَنَا الْيَدُ الْآثِمَةُ، أَنَا مَنْ سَرَقَ تَاجَ الْمَعْبَدِ الْعَتِيقِ، وَدَلَّ عُمَلَاءَ الظُّلْمَةِ عَلَى الْمَكَانِ الْمُقَدَّسِ. أَنَا جَنَاحُ الْوَطْوَاطِ حِينَ يَفْتَحُ اللَّيْلُ فَمَهُ، وَدَبِيبُ الْخُنْفُسَاءِ وَهِيَ تَقْرَعُ بِطَنِينِهَا هَيَاكِلَ الضَّحِكِ الْمُتَوَحِّشِ.

أَنَا الْفُقَّاعَةُ الَّتِي تَرْتَفِعُ فِي أَثِيرِ الْغَيْبِ مِثْلَ نُبُوءَةٍ تُرِيدُ أَنْ تُسْتَعَادَ.

أَيَّتُهَا الْخِيَانَاتُ، أَيَّتُهَا الْأَكَالِيلُ الْمُلَطَّخَةُ بِالْفُحْشِ، أَيَّتُهَا الْأَقْمِطَةُ الَّتِي تَتَقَمَّطُ بِهَا كَلِمَاتِي، سَأَطْرَحُ عَنِّي مَكْرَ السِّنِينَ وَرِيَاءَ الْأَمْزِجَةِ، وَأَصِيرُ، تَحْتَ بَرْدِ نَارِكِ، وَدِيعًا كَحَمَامَةٍ وَحَكِيمًا كَحَيَّةٍ، كَأَنَّ لَهَبَكِ قَدْ خَلَعَنِي مِنْ ظِلِّي وَأَعَادَنِي طِفْلًا تَحْمِلُهُ الْأَشْبَاحُ إِلَى عَالَمِ الْمَوْتَى.

يَا خِيَانَاتِي الشَّاحِبَةَ، يَا هَاوِيَةً تَتَثَاءَبُ كَأَنَّهَا فَمُ الْقَدَرِ، سَاعِدِينِي، فَأَنَا مِدْخَنَةٌ تُخَبِّئُ دُخَانَ الْأَسْرَارِ، وَقَلْبِي يَتَوَرَّمُ بِرَغْبَةٍ عَمْيَاءَ فِي فَضْحِ كُلِّ شَيْءٍ.

وَتَنْهَضُ آلَافُ الْأَصْوَاتِ فِي اللَّيْلِ لِتَقُولَ:

إِيَّاكَ أَنْ تَنْسَى، حِينَ يَعَضُّكَ الْأَلَمُ، وَيَتْرُكُ الْحُزْنُ عَصَافِيرَهُ مَحْبُوسَةً فِي أَقْفَاصِ ضُلُوعِكَ.

لِيَغْفِرْ لِي إِلَهُ السَّمَاءِ اللَّامِعَةِ، وَلْيَغْفِرْ لِي التَّنْغِيمُ، وَلْتَغْفِرْ لِي هَذِهِ الْحُرُوفُ الْمَهْمُوسَةُ، حَتَّى أُخْفِيَ قَمِيصَ الطِّفْلِ الْمَغْمُوسِ بِالدَّمِ، وَأَرْبِطَ جِرَاحَهُ الَّتِي نَزَفَتْ فَوْقَ ثُلُوجِ الْجَبَلِ.

دَعِينِي أَيَّتُهَا الْأَقْدَارُ، دَعِينِي أَيَّتُهَا الزَّفَرَاتُ، يَا صَاحِبَةَ الْحَظِّ الْعَاثِرِ، يَا هَوَاءً يَتَعَثَّرُ فِي خُطُوَاتِ الْفَارِّينَ بَيْنَ الْمَخَافِرِ.

لَا حَاجَةَ لِي بِالْآمَالِ الْبَعِيدَةِ، وَلَا حَاجَةَ لِي بِصَرَخَاتِ الْحُزْنِ وَهِيَ تَنْعَسُ فَوْقَ كَتِفَيَّ.

أَنَا الْفُوتُوغْرَافِيُّ. لَمْ أُرْسَلْ نَبِيًّا، وَلَمْ تُوضَعْ يَدِي عَلَى كِتَابٍ، لَكِنَّنِي تَعَلَّمْتُ قِرَاءَةَ الْعَالَمِ مِنْ خِلَالِ جُرْحٍ مُسْتَدِيرٍ اسْمُهُ الْعَدَسَةُ.

أَعْتَرِفُ لَكِ أَيَّتُهَا الْأَقْدَارُ، كُنْتُ أُؤْمِنُ بِالضَّوْءِ إِيمَانَ الْهَرَاطِقَةِ، كَنِعْمَةٍ... كَمِحْنَةٍ... كَخَلَاصٍ... كَاخْتِبَارٍ أَخِيرٍ لِلنِّيَّةِ.

وَأَعْتَرِفُ لَكِ أَيَّتُهَا الْقَرَابِينُ الْمُوَشَّحَةُ بِالْأَحْمَرِ الْحَادِّ، يَا مَنْ تَتَحَدَّثِينَ بِلِسَانِي وَتُعَبِّرِينَ عَنْ مَشَاعِرِي، أَنَّنِي، حِينَ سَلَّمْتُ النَّشِيدَ إِلَى شَاعِرٍ هَارِبٍ مِنْ لُغَتِهِ، كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّنِي أَقُودُ خَطِيئَةً مُتَحَرِّكَةً، وَأَنَّ الطَّرِيقَ بَيْنَ بَلَدَيْنِ يُشْبِهُ الْمَسَافَةَ بَيْنَ اعْتِرَافٍ نَاقِصٍ وَغُفْرَانٍ مُؤَجَّلٍ.

قَالَ لِي:

- هَلْ نَنْجُو؟

وَلَمْ أُجِبْ، فَالنَّجَاةُ لَيْسَتْ مِنِ اخْتِصَاصِي. أَنَا لَا أُخَلِّصُ، أَنَا أُثْبِتُ.

كُنْتُ أَرَى فِيهِ بَقَايَا مَذْبَحٍ مُحَطَّمٍ، وَصَوْتًا مَا زَالَ يَحْمِلُ غُبَارَ الْمَزَامِيرِ. وَكَانَ يَرَى فِيَّ رَجُلًا بِلَا خَلَاصٍ، يَسْتَبْدِلُ الْكَهَنُوتَ بِزِرٍّ مَعْدَنِيٍّ يَفْتَحُ وَيُغْلِقُ كَفَمِ قَاضٍ أَعْمَى.

كُلُّ صُورَةٍ الْتَقَطْتُهَا كَانَتْ خَطِيئَةً وَاعِيَةً: سَرِقَةُ لَحْظَةٍ لَمْ تَطْلُبِ الْخُلُودَ، بَيْنَ سَمَاءٍ لَا تُجِيبُ وَأَرْضٍ لَا تَغْفِرُ.

وَعِنْدَ الْحُدُودِ - حَيْثُ تَتَرَاكَمُ الثُّلُوجُ عَلَى الْجِبَالِ، وَتَخْتَفِي الْفَرَائِسُ، فَتَجْتَمِعُ الذِّئَابُ وَتُطَارِدُ الْبَشَرَ - خَلَعْتُ اسْمِي، وَوَضَعْتُ الْكَامِيرَا أَمَامِي كَقُرْبَانٍ.

قُلْتُ لِلرِّيحِ: [54]

- خُذِي ذُنُوبِي، فَهِيَ أَثْقَلُ مِنْ أَنْ تُفَتَّشَ.

وَقُلْتُ لِلضَّوْءِ:

- كُنْ شَاهِدًا، لَا قَاضِيًا.

وَكَانَ "إِيكَارُ" يَرْتَجِفُ، وَأَنَا كُنْتُ أُرَتِّلُ بِصَمْتٍ:

---

[54]- **هَامِشُ الرِّيَاحِ الَّتِي تَحْمِلُ رَسَائِلَ لَمْ تُكْتَبْ بَعْدُ**

(تَهُبُّ الرِّيَاحُ مِنْ جِهَةٍ مَجْهُولَةٍ، حَامِلَةً كَلِمَاتٍ لَمْ تُخْلَقْ بَعْدُ، وَرَسَائِلَ سَتُسَجَّلُ بَعْدَ قُرُونٍ... لَكِنَّهَا تَبْحَثُ عَنْ قَارِئِ الْآنَ)

**الْهَامِشُ الْمُخْفِيُّ دَاخِلَ الْهَامِشِ:**

(احْذَرِ الرِّيَاحَ... فَقَدْ تَقُولُ لَكَ شَيْئًا لَا تُحْتَمَلُ مَعْرِفَتُهُ).

لَيْسَ لَنَا إِلَّا الْعُبُورُ،
وَلَيْسَ لِلْعُبُورِ إِلَّا الْجَسَدُ،
وَلَيْسَ لِلْجَسَدِ إِلَّا أَنْ يُفْتَدَى بِالنِّسْيَانِ.
آمَنْتُ لَحْظَةً - وَهَذَا أَخْطَرُ أَنْوَاعِ الْإِيمَانِ - أَنَّ الْفِدَاءَ قَدْ يَكُونُ صُورَةً لَمْ تُلْتَقَطْ، وَأَنَّ الْخَلَاصَ هُوَ مَا أُخْفِقُ فِي تَوْثِيقِهِ.
الْآنَ أَعِيشُ فِي الضَّوْءِ كَمَنْ نَجَا بِلَا بَرَاءَةٍ، أَحْمِلُ كَامِيرَتِي كَوَصِيَّةٍ نَاقِصَةٍ، وَأَعْلَمُ أَنَّنِي كُلَّمَا صَوَّرْتُ الْعَالَمَ ابْتَعَدْتُ عَنِ الْخَلَاصِ خُطْوَةً، وَكُلَّمَا امْتَنَعْتُ اقْتَرَبْتُ مِنْهُ دُونَ دَلِيلٍ.
هَذَا اعْتِرَافِي، أَيَّتُهَا الْأَقْدَارُ.
لَا أَطْلُبُ غُفْرَانًا... أَطْلُبُ وُضُوحًا يَكْفِي لِصُورَةٍ أَخِيرَةٍ لَمْ أَلْتَقِطْهَا بَعْدُ.

# إِصْحَاحُ

22

# الرُّؤْيَا الْحُدُودِيَّةُ

## (مِنْ كِتَابِ النُّبُوءَاتِ الْكُبْرَى فِي آخِرِ الْأَزْمِنَةِ)

تَرْنِيمَةٌ

**(1)**

## افْتِتَاحُ الْبَوَّابَةِ

وَفِي اللَّيْلَةِ الَّتِي انْكَسَرَ فِيهَا الْقَمَرُ عَلَى صَفْحَةِ النَّهْرِ، سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ الْجِهَةِ الَّتِي لَا جِهَاتَ لَهَا، يُنَادِينِي بِاسْمِي الَّذِي أَنْكَرْتُهُ:
- يَا ابْنَ الْعُبُورِ، افْتَحْ سَمْعَكَ، فَقَدْ آنَ أَوَانُ الْكَشْفِ.
فَرَفَعْتُ رَأْسِي، وَإِذَا الْحُدُودُ نَفْسُهَا تَقِفُ بِهَيْئَةِ امْرَأَةٍ مِنْ دُخَانٍ، وَيَدُهَا الْيُمْنَى تَحْمِلُ سِفْرًا مِنْ نَارٍ، وَيُسْرَاهَا تَحْمِلُ مِفْتَاحًا مِنْ ظِلٍّ... وَقَالَتْ:

- هَذَا هُوَ الْإِصْحَاحُ الَّذِي خَبَّأَهُ الْأَنْبِيَاءُ فِي بُطُونِ الرِّيحِ، وَهَذِهِ هِيَ الْكَلِمَاتُ الَّتِي لَا تُكْتَبُ إِلَّا عَلَى جُلُودِ الْعَابِرِينَ.

ثُمَّ فَتَحَتِ الْكِتَابَ، فَانْدَفَقَتْ مِنْهُ طُيُورٌ مِنْ حِبْرٍ حَيٍّ، وَحَلَّقَتْ فَوْقَ رَأْسِي، حَتَّى سَمِعْتُ فِي عِظَامِي صَرِيرَ أَقْلَامٍ لَمْ يُمْسِكْ بِهَا أَحَدٌ.

وَرَأَيْتُ نُورًا يَهْبِطُ مِنْ جَبَلٍ غَيْرِ مَرْسُومٍ، نُورًا لَا يَشُقُّ الظَّلَامَ... إِنَّمَا يَشُقُّ النُّفُوسَ.

وَسَمِعْتُ صَوْتًا يَقُولُ:

- هَا أَنَا أُقِيمُ حَدًّا مِنْ رَحْمَةٍ، وَأَضَعُ لِلضَّالِّينَ بَابًا يَفْتَحُهُ ظِلُّهُمْ.

وَالَّذِي سَقَطَ أُصْعِدُهُ،

وَالَّذِي عَبَرَ نُورًا أُعِيدُهُ لِيَعْبُرَ مَرَّةً أُخْرَى.

ثُمَّ رَأَيْتُ الْمُدُنَ كَأَعْشَاشٍ فِي الرِّيحِ، يَنْهَارُ طِينُهَا، لَكِنَّ أَسْمَاءَهَا تَبْقَى، كَنَبْضٍ فِي صَدْرِ مَنْ نَجَا.

تَرْنِيمَةٌ

**(2)**

## نُبوءَةُ سُقُوطِ الْمُدُنِ وَخَلَاصِ الظِّلَالِ

وَرَأَيْتُ مُدُنًا تَقِفُ عَلَى أَعْمِدَةٍ مِنْ غُبَارٍ، وَشَوَارِعَ تَتَكَسَّرُ كَأَوْعِيَةِ خَزَفٍ تَحْتَ أَقْدَامِ الْهَارِبِينَ...

وَرَأَيْتُ أُنَاسًا بِلَا وُجُوهٍ، يَمْشُونَ وَيَكْتُبُونَ أَسْمَاءَهُمْ عَلَى الْهَوَاءِ، كَيْلَا يَبْتَلِعَهُمُ النِّسْيَانُ.

وَإِذَا بِصَوْتٍ مِنْ جِهَةِ الْجَنُوبِ يَقُولُ:

- هَا إِنَّ الْمَدِينَةَ تَضِيعُ، لَكِنَّ ظِلَّهَا سَيَظَلُّ يُنْشِدُ، لِأَنَّ الرَّبَّ يَرْفَعُ الظِّلَالَ إِذَا سَقَطَتِ الْأَجْسَادُ، وَيَجْمَعُ الْأَصْوَاتَ إِذَا تَفَرَّقَتِ الْمَنَازِلُ.

اقْتَرَبَتْ مِنِّي فَتَاةٌ تَحْمِلُ صَبِيًّا مَرِيضًا، وَقَالَتْ:
- أَيُّهَا الرَّائِي، إِلَى أَيْنَ نَذْهَبُ إِذَا سَقَطَتْ بُيُوتُنَا؟
فَأَجَابَهَا الصَّوْتُ مِنَ الْأَعَالِي:
- إِلَى سَمَاءٍ تُخَاطُ بِخُيُوطِ الْمَفْقُودِينَ، إِلَى أَرْضٍ لَيْسَ لَهَا حُدُودٌ، وَلَا تُمْنَعُ فِيهَا الْخُطُوَاتُ.
وَرَأَيْتُ رُؤْيَا الْحُدُودِ تَقِفُ كَأُمٍّ مَذْعُورَةٍ، تَبْسُطُ يَدَيْهَا عَلَى كَتِفَيِ الْعَالَمِ.
وَقَالَتْ:
- كُنْتُ حَجَرًا يَمْنَعُ، فَصِرْتُ جُرْحًا يَمْنَحُ. كُنْتُ أُغْلِقُ الطُّرُقَ، فَصِرْتُ أَبْرَاجَ نُورٍ لِمَنْ لَا طَرِيقَ لَهُمْ.
وَسَقَطَتْ دُمُوعٌ مِنْ جَبِينِهَا، فَصَارَتْ أَنْهَارًا يَعْبُرُ فَوْقَهَا الْفُقَرَاءُ كَأَنَّهُمْ طُيُورٌ شِعْرِيَّةٌ، لَا يَحْمِلُونَ إِلَّا أَسْمَاءَهُمْ فِي صُدُورِهِمْ.

## (3)

## لِيتُورْجِيَا الْحَرَسِ التَّائِبِينَ

رَأَيْتُ جُنُودًا كَانُوا بِالْأَمْسِ يُطَارِدُونَ الْعَابِرِينَ، يَخْلَعُونَ خُوَذَهُمْ، وَيَضَعُونَهَا عَلَى الْأَرْضِ كَأَوَانٍ لِلدَّمْعِ. وَكَانَ قَائِدُهُمْ يُنْشِدُ بِصَوْتٍ مَكْسُورٍ:
- خَطِئْنَا، لِأَنَّنَا جَعَلْنَا مِنَ الْحُدُودِ إِلَهًا، وَمِنَ الشَّكِّ شَرْعًا، وَمِنَ الْخَوْفِ بَيْتًا.

وَكَانَتْ مَعَهُمْ مُجَنَّدَاتٌ يَحْمِلْنَ طِينًا، يُغَطِّينَ بِهِ آثَارَ أَقْدَامِ اللَّاجِئِينَ، كَأَنَّهُنَّ يُحَاوِلْنَ إِخْفَاءَ الذَّنْبِ عَنْ وَجْهِ الْأَرْضِ.
ثُمَّ رَكَعَ الْجَمِيعُ، وَقَالُوا بِصَوْتٍ وَاحِدٍ:

- ارْحَمْنَا يَا رَبَّ الْعَابِرِينَ، فَنَحْنُ حَرَسُ الْعَمَى، وَنُرِيدُ أَنْ نَفْتَحَ أَعْيُنَنَا قَبْلَ أَنْ يُغْلِقَ الزَّمَنُ بَابَهُ الْأَخِيرَ.

وَعِنْدَمَا انْتَهَتِ الصَّلَوَاتُ، نَزَلَتْ حَمَامَتَانِ مِنْ نَارٍ، وَحَلَّتَا فَوْقَ رُؤُوسِهِمْ، فَانْفَتَحَتْ قُلُوبُ الْجُنُودِ كَأَنَّهَا نَوَافِذُ.

وَرَأَيْتُ الذِّئَابَ تَخْرُجُ مِنْ بِلَادِ الثَّلْجِ، ذِئَابًا تَحْمِلُ نُصُوصًا فِي أَفْوَاهِهَا. فَنَادَاهَا صَوْتٌ مِنَ السَّمَاءِ:

- تُوبِي يَا وَحْشَ الظِّلِّ، فَلِلْجِسْرِ مَا هُوَ لِلْقَطِيعِ، وَلِلرِّيحِ مَا هُوَ لِلْقَلْبِ.

فَوَقَفَتِ الذِّئَابُ، وَرَفَعَتْ أَعْيُنَهَا، ثُمَّ سَقَطَتْ عَلَى الرُّكَبِ، وَتَلَتْ بِلُغَةٍ غَيْرِ مَعْرُوفَةٍ مَزَامِيرَ لَيْسَ فِيهَا بَيْتٌ لِلدَّمِ.

تَرْنِيمَةٌ

(4)

## ظُهُورُ الْمَلَاك الْأَعْمَى فِي الْهَشِيمِ

وَفِي الْهَزِيعِ الْأَخِيرِ، حِينَ هَدَأَتِ الرِّيَاحُ وَغَفَا الْبَحْرُ، رَأَيْتُ مَلَاكًا أَعْمَى يَمْشِي فَوْقَ الْحُقُولِ الْمُحْتَرِقَةِ. كَانَ يَحْمِلُ فِي يَدِهِ عَصًا مِنْ ضَوْءٍ مَكْسُورٍ، وَيَقُولُ:

- لَسْتُ أُبْصِرُ الطَّرِيقَ، لَكِنَّنِي أَرَاكُمْ تَسِيرُونَ فِيهِ. وَلَسْتُ أَعْرِفُ أَسْمَاءَكُمْ، لَكِنَّنِي أَعْرِفُ وَجَعَكُمْ.

تَوَقَّفَ عِنْدَ جِذْعٍ مُتَفَحِّمٍ، وَوَضَعَ عَلَيْهِ كَفَّهُ، فَأَزْهَرَتْ مِنَ اللَّهَبِ زَهْرَةٌ بَيْضَاءُ، كَأَنَّهَا لَا تَنْتَمِي إِلَى الْأَرْضِ.

وَقَالَ الْمَلَاكُ:

- هَا أَنَا آتٍ لِأُعَلِّمَكُمْ مَا نَسِيتُمُوهُ: أَنَّ الْعُبُورَ صَلَاةٌ، وَأَنَّ السُّقُوطَ وَعْدٌ، وَأَنَّ كُلَّ نِهَايَةٍ بَابٌ لَا يَرَاهُ إِلَّا الْأَعْمَى.

ثُمَّ نَفَخَ فِي الْهَوَاءِ، فَتَنَاثَرَ الحَقْلُ رَمَادًا، وَتَحَوَّلَ الرَّمَادُ إِلَى سُطُورٍ تَكْتُبُ نَفْسَهَا عَلَى صَفْحَةِ السَّمَاءِ.

وَرَأَيْتُ المَلَاكَ الْأَعْمَى يَمْشِي فَوْقَ بُحَيْرَةٍ مِنْ صَوْتٍ، وَكَانَتْ كُلُّ خُطْوَةٍ يَضَعُهَا تَفْتَحُ نَجْمَةً.

قَالَ:

- لَا أُبْصِرُ إِلَّا مَا يَجِبُ أَنْ يُخْفَى، وَلَا أَدُلُّ إِلَّا عَلَى نَفْسِي، وَكُلُّ نَفْسٍ تَهْرُبُ، فَهِيَ تَهْرُبُ لِتَدْخُلَ فِي النُّورِ.

ثُمَّ بَسَطَ يَدَيْهِ، فَسَقَطَتْ مِنْهُمَا خَرَائِطُ مُحْتَرِقَةٌ، تَعُودُ كُلَّمَا لَمَسَهَا الْغُرَبَاءُ، كَمَا تَعُودُ الْآيَاتُ فِي الْكُتُبِ الَّتِي لَا تَشِيخُ.

ترنيمة

**(5)**

## نَشِيدُ الْقِيَامَةِ الْحُدُودِيَّةِ

وَرَأَيْتُ صَبَاحًا يَنْبَثِقُ لَيْسَ مِنْ شَمْسٍ، وَإِنَّمَا مِنْ أَجْسَادِ الَّذِينَ عَبَرُوا...

وَقِيلَ لِي:

- هَذِهِ هِيَ الْقِيَامَةُ... أَنْ تَقُومَ الطُّرُقُ مِنْ وِسَادَةِ الظِّلِّ، وَيَقُومَ الْعَابِرُ مِنْ عُرْيِ اسْمِهِ، وَيَقُومَ الشِّعْرُ مِنْ رَمَادِ لُغَتِهِ.

فَانْفَتَحَتِ السَّمَاءُ كَكِتَابٍ، وَسَقَطَتْ مِنْهَا سُطُورٌ مِنْ نُورٍ:

**مَنْ نَجَا فَلْيَشْهَدْ،**

**وَمَنْ فَقَدَ فَلْيَقُمْ،**

**وَمَنْ سَقَطَ فَلْيَكُنْ أَوَّلَ الْقَائِمِينَ.**

١٧

# النَّشِيدُ السَّابِعُ عَشَرَ

## نَصُّ الرُّؤْيَا الْمَمْهُورَةِ بِخَتْمِ الرِّيَاحِ

يَا أَقْدَارَ السَّطْوَةِ، يَا مَرَايَا الْجَبَرُوتِ الْمَنْقُوشَةِ بِظِلِّ الْأَزَلِ، دَعِينِي... دَعِينِي أَنْحَنِي فِي أَرْوِقَةِ حِكْمَتِكِ كَمَا يَنْحَنِي النَّاسِكُ، وَدَعِينِي أَتَنَفَّسُ زَفَرَاتِي كَأَنَّهَا مَزَامِيرُ تُفْتَحُ بِهَا أَبْوَابُ الطُّقُوسِ الْأُولَى.

لَسْتُ أَبْحَثُ عَنْ سَلَامٍ فِي كَأْسٍ عَتِيقٍ مِنْ أَحْقَادِي، أَنَا مَنْ يَدْعُو الْقَدَرَ إِلَى الْحَلَبَةِ وَيَطْلُبُ نِزَالَهُ حَتَّى الرَّمَقِ الْأَخِيرِ، نِزَالًا لَا يَشْهَدُهُ إِلَّا الْعَابِرُونَ فِي الظِّلَالِ.

أَعْدُو، وَيَعْدُو مَعِي خَيَالٌ يَحْمِلُ عَلَى كَتِفَيْهِ أَنَاشِيدَ الْمَلَائِكَةِ الْمُتْعَبَةِ.[55]

كُنْتُ - مِثْلَ إِيكَارَ الْمُتَوَشِّحِ بِنُورٍ مَكْسُورٍ - أَحْلُمُ بِعُصْفُورٍ يَعْلُو سَنَابِلَ الْقَمْحِ، وَبِأَعْشَابٍ تُرَشُّ عَلَيْهَا نُذُورُ الْفَجْرِ، وَبِمُرُوجٍ تُهَرْوِلُ فِيهَا الْفَرَاشَاتُ كَصَلَوَاتٍ صَغِيرَةٍ تَهْرُبُ مِنْ مَذَابِحِ الزَّمَنِ.

وَكُنْتُ أَرْجُو، يَا رَبَّ النُّورِ، أَنْ أَسْكُبَ حَلِيبَ الْوِفَاقِ فِي نَسِيجِ الْجَحِيمِ، وَأَنْ أَطْلِيَ صَوْلَجَانَ الدَّمِ بِقَطْرَةِ رَحْمَةٍ وَاحِدَةٍ، كَيْلَا يَتَيَبَّسَ الْعَالَمُ.

---

55- هَامِشٌ فِي الطَّاعَةِ وَالْعِصْيَانِ:

قَالَ لِي مُؤَلِّفُ الْكِتَابِ:

"خَطُّكَ أَنِيقٌ، لَكِنَّكَ تُكْثِرُ مِنَ الزَّوَائِدِ".

فَأَطْرَقْتُ بِرَأْسِي، وَأَخْفَيْتُ ارْتِجَافَ الْوَرَقَةِ تَحْتَهُ.

كَيْفَ أُخْبِرُهُ أَنَّ مَا يَظُنُّهُ زَوَائِدَ هُوَ لَحْمُ الَّذِينَ لَمْ يَكْتُبْهُمْ أَحَدٌ؟

يَا رَبَّ السِّرِّ الْمَكْتُوبِ بِالْخَفَاءِ، إِنْ عَاقَبُونِي فَلْيُعَاقِبُونِي عَلَى صِدْقِي، فَقَدْ رَأَيْتُ فِي لَيْلِ النَّسْخِ وُجُوهًا مُسْتَغِيثَةً تَضْرِبُ كَفًّا بِكَفٍّ وَتَقُولُ لِي:

– اكْتُبْ، وَلَوْ فِي الْهَامِشِ.

أَيَّتُهَا الْأَقْدَارُ الْقَاسِيَةُ، يَا أَقْدَارِي... هَا أَنَا أَرْكَعُ عِنْدَ مَذَابِحِكِ، وَأُطَأْطِئُ رَأْسِي كَمَا يَفْعَلُ الْكَاهِنُ أَمَامَ أَنْخَابِ الِاعْتِرَافِ.
أَيَّتُهَا الزَّفَرَاتُ الْجَافَّةُ، يَا زَفَرَاتِي... يَا آلِهَةَ الْمَعَابِدِ الَّتِي تَنْبَعِثُ مِنْهَا رَائِحَةُ الْبَخُورِ... يَا مَزَامِيرَ صَدْرِي الْمُتَوَقِّدَةَ، أَفِيضُوا... أَفِيضُوا لَوْعَةً، كَأَنَّكُمْ مَاءُ الْمَعْمُودِيَّةِ الْمُنْسَكِبُ فَوْقَ طِفْلٍ يَعُودُ.
أَيَّتُهَا رِيحُ الشَّقَاءِ الْمَشْؤُومَةُ، كُونِي حَاضِنَةً لِهَذَا الطِّفْلِ الَّذِي أَلْقَى بِهِ الزَّمَانُ بَيْنَ أَحْضَانِكِ الْغَلِيظَةِ.
أَيَّتُهَا الشَّمْسُ، يَا أَعْظَمَ الرَّبَّاتِ، كُونِي رَحِيمَةً بِهَذَا الْعَابِرِ الَّذِي كَانَ هُنَا ثُمَّ لَمْ يَعُدْ.
أَيَّتُهَا الْأَسْرَارُ الصُّوفِيَّةُ الْمَهِيبَةُ، اخْلَعِي الْحِكَايَةَ عَنْ هَذَا الشَّاهِدِ، كَمَا تُخْلَعُ أَرْدِيَةُ الصُّوفِيَّةِ.
إِنَّهُ وَاقِفٌ فِي مَوْضِعِ الْكِتَابَةِ: حَيْثُ الْفِعْلُ يَعْتَرِفُ بِعَجْزِهِ، وَالسَّالِكُ لَا اسْمَ لَهُ، لِأَنَّ الِاسْمَ إِقَامَةٌ لُغَوِيَّةٌ، وَهُوَ يُقِيمُ فِي مَا قَبْلَ اللُّغَةِ وَمَا بَعْدَهَا.
لَيْسَ مَنْفِيًّا مِنْ وَطَنٍ... إِنَّهُ مَنْفِيٌّ مِنَ الْإِمْكَانِ ذَاتِهِ.
فَكَيْفَ يَخْلَعُ الْفِكْرَ، وَالْعَقْلَ، وَالِانْفِعَالَاتِ، وَالْأَهْوَاءَ، وَالْعَوَاطِفَ، وَالشَّهَوَاتِ، وَالْحَوَاسَّ، وَتِلْكَ الْجُوقَةَ الطَّوِيلَةَ الَّتِي جَاءَتْ مِنْ رَحِمِ الظُّلْمَةِ لِتَشْهَدَ نَسِيجَ الْأَرْضِ الْمُزَرْكَشَ بِالْعَثَرَاتِ؟
يَا رِيَاحَ الشَّقَاءِ، يَا دَمَ الدَّمْعَةِ الْأُولَى، يَا أُمَّ الْأَرْوَاحِ الَّتِي ضَاعَتْ بَيْنَ الْمَخَافِرِ وَالْحُدُودِ، كُونِي حِضْنًا لِهَذَا الْهَارِبِ الَّذِي لَمْ يَتَبَقَّ مِنْهُ جَسَدٌ، وَلَا اسْمٌ، وَلَا حَدَثٌ.
مَا تَبَقَّى مِنْهُ هُوَ تَوَتُّرٌ ضَعِيفٌ بَيْنَ كَلِمَاتٍ نَسِيَتْ لِمَاذَا وُضِعَتْ.
أَيَّتُهَا الرَّبَّةُ، أَيَّتُهَا الرَّبَّةُ الْمَهِيبَةُ لِلْهُبُوبِ، يَا نَدِيمَةَ الْأَمِيرِ إِيكَارَ، ارْفُقِي بِهِ... دَعِيهِ يُحَلِّقُ فِي سَمَائِكِ الْبَارِدَةِ، كَمَا تُحَلِّقُ نَفْسٌ رَآهَا الرَّبُّ وَحَمَلَهَا بِيَدَيْهِ.
أَيَّتُهَا الرَّبَّةُ... أَيَّتُهَا الرَّبَّةُ... أَيَّتُهَا الرَّبَّةُ، يَا رَوْضَةَ الْأَسْرَارِ، لَا تَشْحَذِي سُيُوفَكِ فِي وَجْهِ هَذَا الْهَارِبِ... اجْعَلِيهِ يُسْنِدُ خَدَّهُ إِلَيْكِ، كَأَنَّكِ مِدْفَأَةٌ وَاسِعَةٌ كَقَمِيصِ الْخَلِيقَةِ.
يَا رِيَاحُ...
مَا الَّذِي دَهَانِي؟ أَيُّ نِدَاءٍ نَزَلَ عَلَيَّ كَالْوَحْيِ، فَفَقَدْتُ بِهِ الْبَصِيرَةَ، وَقُدْتُ هَذَا الْعَابِرَ عَبْرَ تُخُومِ الْعَالَمِ إِلَى مَوْتٍ جَسُورٍ كَالضَّوْءِ؟
يَا رِيَاحَ الرُّؤْيَا...

سَأَرْفَعُ هَذَا الْمَوْتَ كَالثُّرَيَّاتِ فِي هَيْكَلِ الظَّلَامِ، وَأُقَدِّسُ رَابِيَةَ الرُّعْبِ كَأَنَّهَا ضَرِيحُ نَبِيٍّ مَجْهُولٍ، تَسْكُنُهُ أَرْوَاحٌ لَمْ تَعْرِفْ أَيْنَ تَنَامُ، فَعُلِّقَتْ بَيْنَ الْمَخَافِرِ وَالْحُدُودِ، وَتَنْتَظِرُ مَنْ يُسْمِعُهَا نَشِيدَ الْعَوْدَةِ الْأَخِيرِ.

# إِصْحَاحُ

# 23

## الْعَوْدَةُ إِلَى الْمَكْتَبَةِ الَّتِي سَبَقَتْ كِتَابَةَ الْأَسْفَارِ وَالْأَنَاشِيدِ وَالْمَزَامِيرِ وَالتَّرَانِيمِ

مِنْ جَدِيدٍ يَنْفَتِحُ الْبَابُ، فَيَجِدُ إِيكارُ نَفْسَهُ عَلَى الدَّرَجِ الْحَجَرِيِّ الَّذِي قَادَهُ إِلَى الْمَكْتَبَةِ وَإِلَى الْكُتُبِ الْمَكْتُوبَةِ بِمِدَادِ الْعَابِرِينَ. (56)

قَرَأَ مِنْ جَدِيدٍ:

اللَّيْلُ كَمَا هُوَ.

الرِّيحُ كَمَا هِيَ.

الْجَبَلُ كَمَا هُوَ.

الظِّلَالُ كَمَا هِيَ.

الْبَحْرُ كَمَا هُوَ.

جُوقَةُ الْأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ كَمَا هِيَ.

---

56- هَامِشٌ فِي الْهَوَاجِسِ:

أُقْسِمُ أَنِّي فِي اللَّيَالِي الْأَخِيرَةِ كُنْتُ أَسْمَعُ أَصْوَاتًا خَلْفِي: صَوْتَ السَّارِدِ وَهُوَ يَلْهَثُ فِي الثَّلْجِ، وَصَوْتَ إِيكارَ وَهُوَ يَشْهَقُ حِينَ يَتَخَلَّى عَنْهُ الْجَنَاحُ، وَصَوْتَ الرِّيحِ وَهِيَ تَلْعَقُ فَمَهُ كَأُفْعُوَانٍ بَارِدٍ. كُنْتُ أَرْتَجِفُ، لِأَنَّ السِّفْرَ الْأَصْلِيَّ كَانَ يَتَحَدَّثُ عَنِ الْأَبْطَالِ، أَمَّا هَوَامِشِي فَكَانَتْ تَتَحَدَّثُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يَكْتَمِلُوا، عَنِ الَّذِينَ قَطَعَهُمُ الْمَوْتُ نِصْفَيْنِ وَتَرَكَهُمْ عَلَى قَارِعَةِ الْمَعْنَى.

حَتَّى الْمُصَوِّرُ الْوَاقِفُ هُنَاكَ
هُوَ ذَاتُهُ.
يَلْتَقِطُ صُورَتَهُ.

الْفُوتُوغْرَافِيُّ الْعَجُوزُ يُنَادِيهِ:
إِيكار، أَسْرِعْ... الشَّمْسُ تَقْتَرِبُ.
يَرْكُضُ إِيكارُ ...
الْأَرْضُ تَهْتَزُّ.
حُدُودُ الْمَخَافِرِ تَتَوَهَّجُ.
الْغَيْمَةُ الْمُهَاجِرَةُ تَعُودُ إِلَى سَمَاءٍ بَعِيدَةٍ.
وَفِي اللَّحْظَةِ الَّتِي يَرْفَعُ فِيهَا قَدَمَيْهِ، كَمَنْ يَرْفَعُ جَنَاحَيْنِ، يَعْرِفُ الْحَقِيقَةَ:
(**لَقَدْ عَاشَ نِهَايَتَهُ مُسْبَقًا، وَهَا هُوَ الْآنَ يَعِيشُ بَدَايَتَهُ**).
يَصِلُ إِلَى نِهَايَةِ الطَّرِيقِ...
حَيْثُ يَلْتَقِي الظَّلَامُ بِالضَّوْءِ.
هُنَاكَ تَنْبَثِقُ صَفْحَةٌ بَيْضَاءُ فِي الْهَوَاءِ، وَتَعْرِضُ جُمْلَةً وَاحِدَةً:
(**لِتَبْدَأِ الْمَلْحَمَةُ مِنْ جَدِيدٍ**...).
يَظْهَرُ السَّطْرُ الَّذِي يَطْوِي الْعَالَمَ.
تُطْوَى الصَّفْحَةُ،
تَسْقُطُ،
تَتَلَاشَى.
وَالنَّصُّ يُعِيدُ نَفْسَهُ،
دُونَ أَنْ يَتَكَرَّرَ.

## مَزْمُورُ الْقَمَرِ الْمُثْقَلِ

تَمَّ بِنِعْمَةِ النُّورِ الْخَفِيِّ،
وَبِتَوْقِيعِ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ يَكْتُبُونَ بِالرِّيشِ النَّارِيَّةِ عَلَى جُلُودِ اللَّيْلِ.
فَمَنْ قَرَأَ هَذَا الْإِنْجِيلَ فَلْيَتَطَهَّرْ،
وَلْيَحْمِلْ عَلَى صَدْرِهِ صَلِيبَ الْحِبْرِ، وَلْيَنَمْ وَالرِّيحُ تَحْتَ رَأْسِهِ...
وَلْيَشْهَدْ كُلُّ مَنْ يَمُرُّ بِهَذِهِ الْمَخْطُوطَةِ أَنَّهَا كُتِبَتْ عَلَى رُقُوقِ اللَّيْلِ،
وَأَنَّ مَنْ يَقْرَؤُهَا يَتَحَمَّلُ عِبْءَ الْأَرْوَاحِ الْمُعَلَّقَةِ،
وَيُشَارِكُ فِي صَلَوَاتِ الْقَمَرِ وَاللَّيْلِ وَالْجِبَالِ،
وَيُصْبِحُ شَاهِدًا عَلَى مَا بَيْنَ الْمَوْتِ وَالْخُلُودِ.
بِهَذَا يَكْتَمِلُ الْإِنْجِيلُ الْأَوَّلُ،
مَخْتُومًا بِخَتْمِ عَابِرٍ لَا يَصِلُ،
وَقَمَرٍ يَغْفُو بِلَا ضَوْءٍ،
وَأَقْنِعَةٍ تُسَبِّحُ عَلَى حُدُودٍ لَا تَرْضَى الْعُبُورَ،
وَلَا تَكُفُّ عَنِ ابْتِلَاعِ الْأَرْوَاحِ.
كُلُّ حَرْفٍ هُنَا خَتْمٌ مِنْ دَمٍ،
وَكُلُّ كَلِمَةٍ ضَوْءٌ فِي الظَّلَامِ،
وَكُلُّ صَفْحَةٍ طَقْسٌ لَمْ يُحْكَ بَعْدُ.
وَلْيَحْفَظِ اللهُ الْحُدُودَ.

## (خَتْمُ الْخَاتِمَةِ)

لِيَكُنِ الْفَجْرُ رَحِيمًا بِالْهَارِبِينَ.
وَلْيَسْتَمِرَّ
اللَّيْلُ
فِي
إِخْفَاءِ
أَسْرَارِ
الْعَابِرِينَ.

# الإِنْجِيلُ الثَّانِي

## يَقَظَةُ

## السَّاهِرِينَ عَلَى الْعَطَشِ

**(خَتْمُ هٰذَا الْكِتَابِ)**

يَا بَرْقَ الرَّبِّ،

إِنْ ضَرَبْتَ الْأَرْضَ بِعَصَاكَ،

فَامْسَحْ بِهَا الْوُجُوهَ وَالْجِهَاتِ،

فَإِنَّ الْخَلِيقَةَ إِذَا تَفَرَّقَتْ فِي الظَّاهِرِ،

جَمَعَهَا السِّرُّ فِي الْبَاطِنِ.

(كُتِبَ هٰذَا بِمِدَادٍ مِنْ رَمَادِ الْأَجْنِحَةِ، وَعُمِّدَ فِي ضَوْءٍ لَا يُطْفَأُ)

# إِصْحَاحُ

## 1

## (مِنْ مَخْطُوطِ: سِفْرِ الْأَرْوَاحِ الْعَالِقَةِ بَيْنَ الْمَنَافِذِ وَالْحُدُودِ)

يَا مَنْ تَعْبُرُونَ الْعَتَبَةَ الثَّانِيَةَ، يَا مَنْ رُمِّمَتْ وُجُوهُكُمْ فِي لَيْلٍ لَمْ تَشْهَدُوهُ، اسْمَعُوا نِدَاءَ الْمَلَاكِ الْمُسْتَتِرِ بِجَنَاحَيْنِ مِنْ رَمَادٍ: إِنَّ وُجُوهَكُمُ الْأُولَى أَوْدَعَتْهَا الْمَلَائِكَةُ فِي قَبْوٍ بِلا مَفَاتِيحَ، وَحُمِّلَتْ وُجُوهُكُمُ الْجَدِيدَةُ نَقْشَ الرِّيَاحِ، لِتَتَذَكَّرُوا أَنَّكُمْ أَبْنَاءُ عُبُورٍ لَا يَسْتَقِرُّ. وُجُوهُكُمْ لَيْسَتْ قِنَاعًا، إِنَّهَا صَفْحَةٌ أُعِيدَ نَقْشُهَا لِئَلَّا تَعُودُوا إِلَى الْهَيْئَةِ الْقَدِيمَةِ. لِأَنَّ الرُّوحَ إِذَا نَجَتْ مَرَّةً ثُمَّ سَقَطَتْ، لَا تَعُودُ بِمَلَامِحِهَا، لَكِنْ بِمَا رَآهُ اللهُ فِيهَا سَاعَةَ الضَّيَاعِ.

فَاسْأَلُوا أَنْفُسَكُمْ:

أَيَّ صُورَةٍ صَوَّرَتْكُمْ يَدُ الْعُبُورِ؟

وَأَيَّ مِيثَاقٍ كَتَبَتْهُ عَلَيْكُمُ الْأَرْوَاحُ الَّتِي ضَلَّتْ بَيْنَ الْمَخَافِرِ وَالْحُدُودِ؟

يَا عَابِرِي الْمُنْعَطَفِ، يَا أَبْنَاءَ النُّورِ الْمَصْلُوبِ عَلَى هَوَاءِ الشَّرْقِ، إِنَّ دَمَ الْقَتِيلِ عَلَى جِبَاهِكُمْ هُوَ أَثَرُ (بَابِلَ) الْقَدِيمَةِ، وَقَدْ فَتَحَتْ لَكُمْ بَابَهَا، وَأَعْطَتْكُمْ لِسَانًا آخَرَ، لِتَفُكُّوا عُقْدَةَ الْكَلَامِ الَّذِي هَرَبَ مِنْ أَفْوَاهِكُمْ يَوْمَ سَقَطَتِ الْوُجُوهُ...

لَا تَبْحَثُوا عَنِ الْوَجْهِ فِي الْمِرْآةِ، فَالْمِرْآةُ لَا تُظْهِرُ مَا تُخْفِيهِ الرِّحْلَةُ. ابْحَثُوا عَمَّا نَسِيتُمُوهُ فِيهَا... الْوَجْهُ الْحَقِيقِيُّ هُوَ النَّارُ الَّتِي لَمْ تَلْمَسْكُمْ، وَالْخُطْوَةُ الَّتِي لَمْ تَخْطُوا نَحْوَهَا...

أَنْتُمُ الْآنَ أَبْنَاءُ السِّتْرِ، وَحَمَلَةُ أَسْرَارٍ لَا تُقَالُ إِلَّا هَمْسًا فِي سَاعَةٍ يَنْهَدِمُ فِيهَا الزَّمَنُ. إِنَّ الْأَرْوَاحَ الَّتِي عَلِقَتْ عَلَى تُخُومِ الْأَرْضِ وَقَفَتْ فِي ظِلَالِكُمْ، تَنْفُخُ فِي وُجُوهِكُمُ الَّتِي لَيْسَتْ لَكُمْ، وَتَطْبَعُ عَلَيْهَا آثَارَ عُبُورِهَا. فَإِذَا شَعَرْتُمْ بِثِقَلٍ مَجْهُولٍ، فَاعْلَمُوا أَنَّهُ أَثَرُ مَنْ لَمْ يَعْبُرُوا، وَأَنَّكُمْ مَا عُدْتُمْ وَحْدَكُمْ... فَالْوَجْهُ الَّذِي عَلَى وُجُوهِكُمْ هُوَ جَمْعُ أَرْوَاحٍ مَزَّقَتْهَا السُّلَالَةُ الْأُولَى.

١

# النَّشِيدُ الْأَوَّلُ

أَوَّلُ النِّدَاءِ كَانَ صَمْتًا. وَثَانِيهِ اسْمٌ لَمْ يُقَلْ. وَثَالِثُهُ... ظِلٌّ يَتَقَدَّمُ.

صُورَةٌ لَكَ وَأَنْتَ تَضْحَكُ،
وَصُورَةٌ لِي وَأَنَا أَضْحَكُ...
كَأَنَّ الضَّحِكَ كَانَ آخِرَ سِرٍّ اسْتَطَاعَتِ الْخَلِيقَةُ أَنْ تَمْنَحَهُ لَنَا.

فِي تِلْكَ السَّاعَةِ الَّتِي تَنَفَّسَ فِيهَا الصُّبْحُ مِنْ خَاصِرَةِ الظُّلْمَةِ، جِئْتُكَ يَا إِيكارُ حَامِلًا ثِمَارًا خَفِيفَةً كَأَجْنِحَةِ الْمَلَائِكَةِ، تُلَوِّنُ خَدَّيْكَ بِبَهَاءٍ تُخَلِّقُهُ أَلْفُ زَهْرَةٍ شَرْقِيَّةٍ نَبَتَتْ عَلَى ضِفَافِ نَهْرٍ مَرْشُوشٍ بِالْبَرَكَةِ. كُنْتُ مَفْتُونًا بِانْكِشَافِ الْجَدَاوِلِ، وَبِأَنَّ أَنْهَارَ الضَّوْءِ تُعَرِّي أَسْرَارَهَا كَمَا تَتَعَرَّى الْقَدَاسَةُ أَمَامَ قَلْبِ نَاسِكٍ.

وَعَلَى طُولِ الطَّرِيقِ الطَّوِيلِ، كُنْتُ أَهْمِسُ فِي أُذُنِ الْوَعْدِ: لَا بَأْسَ... لَا بَأْسَ... سَاعَاتٌ قَلِيلَةٌ وَنَبْلُغُ التُّخُومَ... ذٰلِكَ الْمَوْضِعَ الَّذِي لَا هُوَ هُنَا وَلَا هُوَ هُنَاكَ.

سَأَهْتَدِي إِلَيْهِ كَمَا يَهْتَدِي إِوَزٌّ وَثَنِيٌّ إِلَى شَمْسٍ وَثَنِيَّةٍ تُشَرِّعُ أَجْنِحَتَهَا لِلْعَابِرِينَ. سَأَهْتَدِي إِلَيْهِ كَمَا يَهْتَدِي الْعَابِدُ إِلَى شَمْسِهِ: بِلَا عَلَامَةٍ، بِلَا شَرِيعَةٍ، إِلَّا الْوَهَجَ...

أَقُولُ لَكَ: سَنَدْخُلُ قُرًى كَتَرَاتِيلَ مَنْسِيَّةٍ، إِذَا مَرَرْتَ بِهَا أَضَاءَتْ، وَإِذَا نَطَقْتَهَا نَزَفَتْ. قُرًى خَبَّأَهَا اللهُ تَحْتَ لِسَانِ أُنْشُودَةٍ مَدْفُونَةٍ، وَسَنَمْضِي بِأَجْسَادِنَا الْمُسَلَّحَةِ بِبُرْهَانِ النُّورِ نَحْوَ جَسَدِ الْأَرْضِ الشَّهِيِّ، كَمَبَاهِجِ الْقِدِّيسِينَ، وَسَنَرْقُصُ... وَسَيَشْتَعِلُ فِينَا الضَّوْءُ حَتَّى تَنْدَهِشَ مِنَّا الْأَحْلَامُ [57] نَفْسُهَا.

---

[57]- هَامِشُ الْعَوْدَةِ مِنَ الْأَحْلَامِ خَاسِرِينَ شَيْئًا

(لَيْسَ كُلُّ حُلْمٍ نَخْرُجُ مِنْهُ كَمَا دَخَلْنَا... فَبَعْضُ الْأَحْلَامِ يَأْخُذُ شَيْئًا صَغِيرًا مِنَّا، وَأَحْيَانًا شَيْئًا لَا يُعَوَّضُ)

**الْهَامِشُ الْمُخْفِيُّ دَاخِلَ الْهَامِشِ:**

(إِنِ اسْتَيْقَظْتَ مُحَاطًا بِثَنِيَّاتِكَ الْمُتَعَرِّجَةِ كَمَا بِحَاشِيَةٍ مُهْمَلَةٍ... فَابْحَثْ فِي حُطَامِ الْحُلْمِ عَنْ بَقَايَا نَفْسِكَ)

وَسَتَرَى الْيَنَابِيعَ تَقْفِزُ لِتُحَيِّيَنَا، وَتَتَّخِذُ شَكْلَ السُّكْرِ، وَشَكْلَ الْمُتْعَةِ الْمَجْلُوَّةِ بِهَمْسٍ وَمُجُونٍ قَدِيمٍ، وَشَكْلَ نِعْمَةٍ تَتَهَجَّدُ هَمْسًا كَمَا فِي جَدَائِلِ الْفَجْرِ الصَّافِيَةِ.

لَكِنْ، قَبْلَ أَنْ تَقُولَ الْأَرْضُ: (الْآنَ)، وَقَبْلَ أَنْ يَزْحَفَ الْجَبَلُ لِيَنْهَبَ خَنَاجِرَ الْخَاتِمَةِ، وَقَبْلَ أَنْ يَتَطَهَّرَ الْعُرْيُ فِي أَنْهَارٍ بِلَا اسْمٍ عَلَى امْتِدَادِ الضِّفَافِ الْمَمْدُودَةِ كَوَتَرٍ فِي صَدْرِ الْعَالَمِ، وَقَبْلَ أَنْ يَتَعَرَّى الْجَسَدُ فَيُصْبِحَ صَلَاةً...

بَدَأَ الطَّرِيقُ الَّذِي سَلَكْنَاهُ لَا يُشْبِهُ تِلْكَ الظِّلَالَ الْمَنْحُوتَةَ فِي الْحُلْمِ، وَبَدَأَتِ الشَّمْسُ تُسَوِّرُ رَأْسَيْنَا بِقَنَافِذِ جَحِيمِهَا، كَأَنَّهَا تَقُولُ: مِنْ هُنَا يَبْدَأُ الِامْتِحَانُ...

وَكُنَّا نَسِيرُ عَلَى طُرُقٍ أَشْبَهَ بِالصِّرَاطِ، يَنْعَكِسُ فِي أُفُقِهَا الْإِلٰهُ وَهُوَ يُعِدُّ الْخَلِيقَةَ لِعُبُورِهَا الْأَخِيرِ، قَبْلَ جِبَايَةِ الْقِسْمَةِ: فِرْدَوْسٌ وَجَحِيمٌ.

مَنْ عَرَّى الصَّبَاحَ، وَفَاجَأَ بِأَحَابِيلِهِ عَذَارَى الْمَسَاءِ، سَقَطَ عَنِ الصِّرَاطِ وَمَضَى إِلَى الْجَحِيمِ. وَمَنِ اجْتَازَ عَنَاقِيدَ طَافِحَةً فَوْقَ أَقْدَارِهِ، وَصَلَ إِلَى النَّعِيمِ...

أَمَّا الْمَلَائِكَةُ هُنَا، فَهُمْ رِجَالُ الْحُدُودِ.

لَيْسَتْ لَهُمْ أَجْنِحَةٌ.

لَهُمْ بُزَّاتٌ، وَخَتْمٌ، وَنَظْرَةٌ بِلَا تَعْبِيرٍ.

انْهَضْ أَيُّهَا النَّشِيدُ الْمُضْمَرُ، انْهَضْ مِنْ سُبَاتِكَ، انْهَضْ كَكَلِمَةٍ لَامِعَةٍ تَخْرُجُ مِنْ فَمِ الْغَيْبِ...

لَمْ يُبَالِ أَحَدٌ بِشَيْءٍ. رُبَّمَا الْفَلَكُ دَارَ بِلا قَلْبٍ، وَرُبَّمَا قُلُوبُنَا أُفْرِغَتْ مِنَ الْإِحْسَاسِ، وَرُبَّمَا الْمَكِيدَةُ لَمْ تُرِدْ أَنْ تُوقِظَ الْوَحْشَ الْقَابِعَ فِي الظُّلْمَةِ.

رُبَّمَا الرِّيحُ كَانَتْ سَاذَجَةً، فَأَضْمَرَتْ فِي مِعْطَفِهَا الْمُتَوَحِّشِ بَرْدًا لَاذِعًا نَفَذَ إِلَى نُخَاعِ الْأَرْوَاحِ. وَرُبَّمَا الْمُصَوِّرُ، ذٰلِكَ الدَّلِيلُ الْفُوتُوغْرَافِيُّ، سَمِعَ جَلَبَةَ الصُّرَاخِ، لَكِنَّهُ بَقِيَ يَتَسَكَّعُ بِرُوحٍ خَامِلَةٍ كَرَاهِبٍ فَقَدَ صَوْتَهُ فِي مُنْتَصَفِ التَّرَاتِيلِ...

وَالْأَرْضُ مَضَتْ فِي دَوَرَانِهَا كَمَا هُوَ وَاجِبُهَا، لَمْ تَقِفْ لِتُوقِدَ قِنْدِيلًا لِرُوحِ هٰذَا الْمَيِّتِ الْجَمِيلِ. وَالسُّحُبُ الْمُتَوَرِّدَةُ بِدَمِهَا الثَّلْجِيِّ عَبَرَتْ سَمَاءَ الْمَقْتَلَةِ غَيْرَ آبِهَةٍ، رُبَّمَا لِأَنَّهَا عَلَى مَوْعِدٍ مَعَ أَشْرِعَةٍ أُخْرَى، أَوْ مَعَ وُعُولٍ تَائِهَةٍ.

وَرُبَّمَا النَّاسِخُ رَأَى وَلَمْ يَشْهَدْ. سَمِعَ الصَّخَبَ، وَلَمْ يُدَوِّنْ.

انْهَضْ أَيُّهَا النَّشِيدُ الْمُضْمَرُ، انْهَضْ مِنْ مَوْتِكَ، وَإِلَّا بَكَيْتُ...

هٰذِهِ أَنَاشِيدُ الْهَاوِيَةِ تَرْتَجِفُ أَمَامَ السَّيْفِ الَّذِي سَيُغْمَدُ فِي الْجَسَدِ الْعَارِي. وَهٰذِهِ النِّصَالُ الَّتِي أَرْعَبَتْكَ حَقِيرَةٌ... حَقِيرَةٌ كَحَبْلِ الْجَلَّادِ حِينَ يَشِيخُ الْخَوْفُ فِي أَطْرَافِهِ...

انْظُرْ: نَهَضَ الصَّبَاحُ، وَالْمَسَاءُ تَخَلَّى عَنْ قِنَاعِهِ، وَالْكَأْسُ فَرَغَتْ، وَالسَّوَادُ أَنْهَى مَأْتَمَهُ الْأَخِيرَ.
انْظُرْ: هٰذِهِ مَلَائِكَةُ الْعَافِيَةِ تَتَدَفَّأُ عَلَى أَشِعَّةِ جَبِينِكَ، تَقُولُ لَكَ: انْهَضْ... انْهَضْ يَا عَرِيسُ.
يَا لَهُ مِنْ عُرْسٍ...
هٰذِهِ شُعْلَةُ الزِّفَافِ، وَهٰذَا رِدَاءُ الْعَرِيسِ الَّذِي نَسَجَهُ الزَّمَنُ مِنْ صَمْتٍ وَخَوْفٍ.
وَأَنْتُنَّ، أَيَّتُهَا الْأَغَانِي الْحَبِيبَةُ... انْهَضْنَ، فَالْعُرْسُ يُوشِكُ أَنْ يَنْتَهِيَ، وَأَنَا عَاجِزٌ عَنْ إِيقَاظِ هٰذَا الْعَرِيسِ مِنْ نَوْمِهِ.
سَلَامٌ لِمَنْ عَبَرَ، وَلِمَنْ عُلِّقَ بَيْنَ النِّدَاءِ وَالصَّمْتِ. [58]
وَهٰذِهِ الْمُوسِيقَى تُعْزَفُ لِمَنْ لَا يَقُومُ.

# إِصْحَاحُ

## 2

## لَاهُوتُ الْعُبُورِ الثَّانِي

فِي الْبَدْءِ لَمْ تَكُنْ أَرْضٌ وَلَا سَمَاءٌ، كَانَتِ الْحُدُودُ هُوَّةً مُعَلَّقَةً بَيْنَ نُورٍ لَمْ يُخْلَقْ، وَظُلْمَةٍ لَمْ تُدَنَّسْ بَعْدُ.

وَمِنْ تِلْكَ الْهُوَّةِ خَرَجَ الصَّوْتُ الْأَوَّلُ بِشَهْقَةٍ مِنْ نُورٍ مَذْعُورٍ، يُنَادِي:
- مَنْ يَعْبُرُ اسْمِي أُقِمْهُ عَلَى بَوَّابَةِ الدَّوَائِرِ، وَمَنْ يَتَرَدَّدْ أَكْتُبْ تَرَدُّدَهُ عَلَى صَفْحَةِ الزَّمَنِ.

---

58- عَنْ رَعْدَةِ الصَّمْتِ وَهَيْبَةِ الْكَلِمَةِ (تَعْلِيقٌ مِنْ كَاهِنِ النَّارِ الشَّرْقِيَّةِ):
(كُلُّ كَلِمَةٍ يَتَرَدَّدُ صَدَاهَا فَوْقَ الصَّمْتِ، هِيَ نَصْلٌ مُغَمَّسٌ بِالْحَقِيقَةِ. وَالصَّمْتُ هُوَ الْأَبُ الْأَوَّلُ، وَلَا يَنْطِقُ إِلَّا حِينَ تُخْتَمُ الْأَبْوَابُ كُلُّهَا إِلَّا بَابَ الْجُرْحِ).

وَكَانَتِ الْأَرْوَاحُ فِي الْبَرْزَخِ الْأَعْلَى تَسْمَعُ، فَتَتَفَلَّتُ مِنْ أَجْفَانِهَا صُوَرٌ لَمْ تُرَ، وَتَسْقُطُ عَلَى الْعَتَبَاتِ كَأَجْنِحَةٍ بِلا طُيُورٍ...

وَفِي مَسَاءِ الْيَوْمِ الَّذِي لَمْ يُكْتَبْ بَعْدُ، هَبَطَ الْمَلَاكُ الْأَعْمَى، لَا يَحْمِلُ بُشْرَى وَلَا نَقْمَةً... يَحْمِلُ كِتَابًا بِلا حُرُوفٍ، يُسَمِّيهِ الْبَاطِنِيُّونَ: (كِتَابَ الظِّلِّ)، كِتَابًا تُقْرَأُ بِهِ الْعَيْنُ، وَلَا يُقْرَأُ بِالْعَيْنِ...

قَالَ الْمَلاكُ الْأَعْمَى:

- سَيُبْعَثُ عَابِرٌ أَخِيرٌ، لَا يَعْرِفُ أَيْنَ وُلِدَ، وَلَا فِي أَيِّ زَمَنٍ يَمُوتُ، مُكَلَّفٌ بِأَنْ يُعِيدَ تَرْتِيبَ اللُّغَاتِ الَّتِي انْكَسَرَتْ، وَيَجْمَعَ الْفُوتُوغْرَافِيَا الْمُشَرْذَمَةَ الَّتِي الْتَقَطَهَا الزَّمَنُ قَبْلَ أَنْ يُوجَدَ.

وَعِنْدَمَا نُفِخَ فِي الْبُوقِ، اسْتَيْقَظَ الْفُوتُوغْرَافِيُّ الْعَجُوزُ فِي صَحْرَاءَ لَيْسَتْ صَحْرَاءَ، وَفِي زَمَنٍ لَا يَعْرِفُ بَدَايَةً وَلَا خَاتِمَةً. وَأُمِرَ أَنْ يَرَى بِعَيْنٍ لَا تُبْصِرُ، وَأَنْ يَشْهَدَ لِمَا لَمْ يَحْدُثْ بَعْدُ، وَأَنْ يَقُودَ الْعَابِرَ الْأَخِيرَ نَحْوَ (سِفْرِ النِّهَايَاتِ الدَّائِرِيَّةِ)، حَيْثُ يَلْتَوِي الزَّمَنُ عَلَى نَفْسِهِ كَمَا يَلْتَفُّ الثُّعْبَانُ حَوْلَ الْفَرَاغِ الَّذِي أَنْجَبَهُ...

وَلِأَنَّ الرَّبَّ الْمُسْتَتِرَ فِي الظِّلِّ لَا يُخَاطِبُ الْبَشَرَ إِلَّا بِالرُّمُوزِ، كَانَ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ يُفْتَحَ كِتَابُ التَّرَانِيمِ، تَرْنِيمَةً بَعْدَ تَرْنِيمَةٍ، لِتَنْكَشِفَ الطَّبَقَاتُ السُّفْلَى مِنْ جَحِيمِ الْحُدُودِ، وَتُكْتَبَ النُّبُوءَةُ الْأَخِيرَةُ بِمِدَادٍ لَا يَجِفُّ... لِأَنَّهُ مِدَادٌ مِنَ الْوَقْتِ ذَاتِهِ.

وَهٰكَذَا يَبْدَأُ هٰذَا الْإِصْحَاحُ كَعَوْدَةٍ إِلَى بِدَايَةٍ لَمْ تَحْدُثْ قَطُّ.

تَرْنِيمَةٌ

**(1)**

## بَيْتٌ مِنْ غُبَارٍ

لَمْ يَكُنْ بَيْتُ إِيكارَ سِوَى غُرْفَةٍ تَتَشَقَّقُ جُدْرَانُهَا كُلَّمَا فَكَّرَ أَحَدٌ فِي الرَّحِيلِ. كَانَتْ أُمُّهُ تُرَاقِبُهُ كَأَنَّ قَدَمَيْهِ نَافِذَتَانِ، وَأَنَّ الرِّيحَ، فِي يَوْمٍ مَا، سَتَدْخُلُ مِنْهُمَا وَتَأْخُذُهُ...

كَبُرَ الْعَابِرُ عَلَى صَوْتِ الْبَاعَةِ وَهُمْ يُنَادُونَ عَلَى أَرْغِفَةٍ لَا تَكْفِي، وَعَلَى حِكَايَاتٍ عَنْ بَحْرٍ لَا يَحْفَظُ أَسْمَاءَ الَّذِينَ سَقَطُوا فِيهِ.

وَمُنْذُ طُفُولَتِهِ، كَانَتْ قَدَمَاهُ تَهْتَزَّانِ كُلَّمَا سَمِعَ كَلِمَةَ: **(حُدُود)**.

تَرْنِيمَةٌ

**(2)**

## حِينَ تَتَكَلَّمُ الشَّمْسُ

الشَّمْسُ هُنَا... تَمْنَحُ السُّلْطَةَ وَلَا تَمْنَحُ الدِّفْءَ. تَشُدُّ خُيُوطَهَا عَلَى الْأَسْلَاكِ الْمُمْتَدَّةِ كَحِبَالٍ تُسَاقُ بِهَا الْأُمَمُ.

وَكَانَ الْعَابِرُ يَعْرِفُ أَنَّ كُلَّ خُطْوَةٍ فِي الظِّلِّ هِيَ خُطْوَةٌ تُحْسَبُ عَلَيْهِ، وَأَنَّ إِسَالَةَ الْعَرَقِ فِي هٰذَا الْمَكَانِ تَعْنِي أَنَّ الْمَرْءَ يَقْتَرِبُ مِنْ خَطٍّ يُمْنَعُ تَجَاوُزُهُ.

تَرْنِيمَةٌ

**(3)**

## هَمْسُ الَّذِينَ لَمْ يُولَدُوا بَعْدُ

قَالَتْ جَوْقَةُ الْأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:

نَحْنُ الَّذِينَ لَمْ نَصِلْ بَعْدُ، نَقِفُ حَيْثُ تَنْتَهِي الْخَرَائِطُ، وَنَنْظُرُ إِلَى أَقْدَامِ الْعَابِرِينَ وَنَسْأَلُ:

هَلِ الطَّرِيقُ يَمْلِكُ ذَاكِرَةً؟

هَلْ تَظَلُّ قَدَمَا مَنْ سَبَقَنَا تُرْشِدَانِنَا؟

أَمْ تَتَلَاشَى آثَارُهُمَا تَحْتَ وَزْنٍ جَدِيدٍ لِأَحْلَامٍ أُخْرَى؟

إِيكارُ، إِنَّ خُطْوَتَكَ الْأُولَى كَتَبْتَهَا لَنَا.

تَرْنِيمَةٌ

**(4)**

## ظُهُورُ الْمَلَكِ الْأَعْمَى

فِي لَيْلَةٍ لَا يَسْمَعُ فِيهَا الْمَرْءُ إِلَّا صَرَخَاتِ مُخَيَّمِ اللَّاجِئِينَ، ظَهَرَ مَلَاكٌ أَعْمَى بِجَنَاحَيْنِ مِنْ دُخَانٍ.

كَانَ يَحْفَظُ الطُّرُقَ بِالصَّوْتِ لَا بِالنَّظَرِ.

اقْتَرَبَ مِنْ إِيكارَ، وَقَالَ:

(الَّذِينَ يَرَوْنَ كَثِيرًا يَسْقُطُونَ أَوَّلًا. أَنْتَ سَتَعْبُرُ، لِأَنَّكَ تَثِقُ بِعَيْنَيْكَ أَكْثَرَ مِمَّا تَثِقُ بِقَدَمَيْكَ).
وَرَفَعَ الْمَلَاكُ عَصَاهُ الضَّوْئِيَّةَ، وَقَالَ:
(اقْتَرِبْ مِنَ الضَّوْءِ، وَلَا تَخَفْ مِنْهُ، فَالْحُدُودُ تَنْهَارُ دَائِمًا مِنَ الدَّاخِلِ).
وَمَرَّ إِيكارُ قَرِيبًا مِنْهُ، حَتَّى شَعَرَ أَنَّ الظَّلَامَ يَحْرُسُهُ.
وَمُنْذُ ذٰلِكَ الْيَوْمِ، أَصْبَحَ إِيكارُ يَتْبَعُ خَشْخَشَةَ الرَّمْلِ كَمَا يَتْبَعُ الطَّيْرُ خَيْطَ الْهَوَاءِ.

تَرْنِيمَةُ

(5)

## الْفُوتُوغْرَافِيُّ الَّذِي يُصَوِّرُ الزَّمَنَ

جَلَسَ الْفُوتُوغْرَافِيُّ الْعَجُوزُ عَلَى صُنْدُوقٍ مَكْسُورٍ قُرْبَ الْمِينَاءِ، يَلْتَقِطُ صُوَرًا لِلْوَقْتِ وَهُوَ يَشِيخُ.

كَانَتْ عَدَسَتُهُ قَدِيمَةً، لَكِنَّهَا تَرَى مَا لَا يَرَاهُ النَّاسُ.
تَلْتَقِطُ خَوْفَ اللَّاجِئِينَ، وَوَمْضَةَ أَمَلٍ فِي عُيُونٍ شِبْهَ مُطْفَأَةٍ.

وَحِينَ صَوَّرَ إِيكارَ، قَالَ:
(هٰذِهِ الصُّورَةُ لَنْ تَرَاهَا الْيَوْمَ، لَكِنَّهَا سَتَسْبِقُكَ إِلَى الضِّفَّةِ الْأُخْرَى).

## (6)
## مُرَاهَقَةُ الْمَاءِ

حِينَ اقْتَرَبَ إِيكارُ مِنَ الْبَحْرِ، شَعَرَ أَنَّ الْمَوْجَ جُنُودٌ يُرَاقِبُونَ نَبْضَهُ.

كَانَ الْبَحْرُ صَغِيرًا بِجَانِبِ الْأَسْلَاكِ، لَكِنَّهُ كَانَ يَتَصَرَّفُ كَأَنَّهُ إِمْبِرَاطُورٌ يَحْرُسُ حُدُودَ مَمْلَكَتِهِ.

وَرَغْمَ ذٰلِكَ، رَأَى إِيكارُ أَنَّ الْمَاءَ، مَهْمَا ادَّعَى الْقُوَّةَ، يَمِيلُ دَائِمًا إِلَى الْهَرَبِ...

عِنْدَ مُنْعَطَفِ الْمَوْجِ، حَاوَلَ الْبَحْرُ أَنْ يَبْتَلِعَهُ.

مَدَّتِ الْمِيَاهُ أَذْرُعًا بَارِدَةً أَمْسَكَتْ بِهِ بِحَنَقِ ظِلِّ أَبٍ يَخَافُ عَلَى وَلَدِهِ مِنَ الْمُغَامَرَةِ...

لَكِنَّ إِيكارَ شَقَّ الْمَاءَ بِقَدَمَيْهِ كَمَا يَشُقُّ السَّيْفُ قَلْبَ الْحَدِيدِ.

## (7)
## دَرْسُ الْهَزِيمَةِ

فِي الْمُخَيَّمِ، يُعَلِّمُكَ اللَّيْلُ كَيْفَ تَخْسَرُ بِلا صَوْتٍ.

وَهُنَاكَ رِجَالٌ يَلُفُّونَ أَذْرُعَهُمْ حَوْلَ ذِكْرَيَاتٍ أَكْبَرَ مِنْ أَجْسَادِهِمْ، وَنِسَاءٌ يَنْسُجْنَ مِنْ دُمُوعِهِنَّ خَرَائِطَ لَا تَتَّبِعُ اتِّجَاهَ الرِّيحِ.

وَلَمَّا جَلَسَ إِيكارُ وَحْدَهُ، سَمِعَ الْمَلَاكَ الْأَعْمَى يَقُولُ:

(أَكْبَرُ الْأَخْطَاءِ هُوَ أَنْ تَنْسَى سَبَبَ الْهَرَبِ).

### تَرْنِيمَةٌ

### (8)

## أَوْلَادُ الطَّوَابِيرِ

نَحْنُ أَبْنَاءُ الِانْتِظَارِ، نَقِفُ فِي صُفُوفٍ تَطُولُ حَتَّى آخِرِ الْعُمُرِ.
نَرَى الَّذِينَ يَرْكُضُونَ، فَنَرْفَعُ رُءُوسَنَا وَنَقُولُ:
(إِنْ سَبَقُونَا الْيَوْمَ، سَبَقْنَاهُمْ غَدًا فِي الْحُلْمِ).

### تَرْنِيمَةٌ

### (9)

## مُشَاوَرَةُ الْقَدَمَيْنِ

الشُّجْعَانُ يَسْتَشِيرُونَ عُقُولَهُمْ، أَمَّا إِيكارُ فَكَانَ يَسْتَشِيرُ قَدَمَيْهِ...
هَلْ تَرْتَجِفَانِ؟
هَلْ تَتَقَدَّمَانِ؟
هَلْ تَشْتَهِيَانِ الطَّرِيقَ؟
وَعِنْدَمَا دَاسَتَا عَلَى الرَّمْلِ،
شَعَرَ أَنَّ الْأَرْضَ تَتَقَلَّبُ تَحْتَهُ،
كَأَنَّهَا تَتَحَرَّرُ هِيَ الْأُخْرَى.

(10)

## انْفِتَاحُ الْبَابِ غَيْرِ الْمَرْئِيِّ

لَيْسَ لِكُلِّ الْأَبْوَابِ مَفَاتِيحُ...
بَعْضُهَا يَنْفَتِحُ حِينَ يَنْكَسِرُ الْخَوْفُ...
عِنْدَ الْفَجْرِ، لَمَعَتْ نُقْطَةٌ مَا فِي الْهَوَاءِ، كَأَنَّ أَحَدًا مَسَحَ الْغُبَارَ عَنْ نَافِذَةٍ فِي السَّمَاءِ...
وَعَرَفَ إِيكارُ أَنَّ هٰذَا هُوَ الْوَقْتُ الَّذِي لَا يَتَكَرَّرُ...
رَكَضَ...
رَكَضَ كَمَا لَوْ أَنَّ الْأَرْضَ تُعْطِيهِ جَنَاحَيْنِ مِنْ غُبَارٍ.
رَكَضَ حَتَّى صَارَتْ أَنْفَاسُهُ طُبُولًا تُدَوِّي فِي صَدْرِهِ...
صَرَخَ رِجَالُ الْمَخَافِرِ، وَنَهَشَتِ الصَّافِرَاتُ الْهَوَاءَ، لَكِنَّ الْقَدَمَيْنِ رَفَضَتَا التَّوَقُّفَ.
فَجْأَةً هَدَأَ الْبَحْرُ، وَكَفَّ رِجَالُ الْمَخَافِرِ عَنِ الصُّرَاخِ، كَأَنَّهُمْ رَأَوْا شَيْئًا لَا يُمْكِنُ إِيقَافُهُ...
تَرَاجَعَ الْمَوْجُ، وَخَمَدَتِ الْأَسْلَاكُ، وَانْشَقَّ الطَّرِيقُ كَصَدْرٍ يَتَنَفَّسُ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ.

(11)

## انْهِيَارُ السِّلْكِ

اقْتَرَبَ مِنَ السِّلْكِ الْأَخِيرِ، ذٰلِكَ الَّذِي يُشْبِهُ شَمْسًا مُعَلَّقَةً عَلَى الْأَرْضِ...

كَانَ الضَّوْءُ يَصْهَرُ الْهَوَاءَ، لَكِنَّ إِيكارَ رَفَعَ قَدَمَيْهِ كَأَنَّهُ يَرْقُص عَلَى رُمْحٍ مَكْسُورٍ، فَسَقَطَ السِّلْكُ مُحْتَرِقًا لِأَوَّلِ مَرَّةٍ.

لَوْ كَانَ طَائِرًا لَسَقَطَ.

وَلَوْ كَانَ حَجَرًا لَارْتَطَمَ.

لَكِنَّهُ كَانَ جَسَدًا يَتَعَلَّقُ بِالْإِصْرَارِ كَمَا يَتَعَلَّقُ الْغَرِيقُ بِخَشَبَةٍ.

تَوَقَّفَ الزَّمَنُ لَحْظَةً، ثُمَّ انْشَقَّ الْهَوَاءُ عَنْ مَمَرٍّ يَكْفِي لِخُطْوَةٍ وَاحِدَةٍ.

تَرْنِيمَةٌ

**(12)**

## الْجِهَةُ الْأُخْرَى مِنَ الضَّوْءِ

حِينَ وَصَلَ إِلَى الضِّفَّةِ الْمُقَابِلَةِ، لَمْ يَجِدْ فِرْدَوْسًا، وَلَا مَلَائِكَةً، وَلَا بَيَارِقَ نَصْرٍ... وَجَدَ فَقَطْ هَوَاءً لَا يَسْأَلُ عَنِ الْأَوْرَاقِ، وَأَرْضًا لَمْ تُسَجِّلِ اسْمَهُ بَعْدُ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَرْفُضْهُ.

تَرْنِيمَةٌ

**(13)**

## الَّذِينَ بَقُوا

نَلْمِسُ أَثَرَهُ عَلَى الرَّمْلِ، فَنُصَدِّقُ أَنَّ الطَّرِيقَ مَا زَالَ يَذْكُرُهُ.

وَنُصْغِي إِلَى أُمِّهِ تَدْعُو لَهُ، فَنَقُولُ:

(إِنَّ الدُّعَاءَ هُوَ أَوَّلُ جَوَازِ سَفَرٍ فِي الْعَالَمِ).

(14)

## كَامِيرَا الْبَحْرِ

وَجَدَ الْفُوتُوغْرَافِيُّ الْعَجُوزُ كَامِيرَاهُ مَغْمُوسَةً بِنُورٍ جَدِيدٍ...

وَحِينَ فَحَصَ الصُّوَرَ، رَأَى لَقْطَةً لَمْ يَتَذَكَّرْ أَنَّهُ الْتَقَطَهَا:

إِيكارُ وَاقِفٌ عَلَى حُدُودِ الضَّوْءِ، نِصْفُهُ فِي الظُّلْمَةِ، وَنِصْفُهُ الْآخَرُ فِي عَالَمٍ لَمْ يُولَدْ بَعْدُ.

ابْتَسَمَ الْعَجُوزُ، وَقَالَ:

(هٰذِهِ الصُّورَةُ لَنْ تَعْبُرَ وَحْدَهَا...)

رَكَضَ الْفُوتُوغْرَافِيُّ بِكَامِيرَاهُ الثَّقِيلَةِ، يُرِيدُ أَنْ يَلْتَقِطَ لَحْظَةَ الْعُبُورِ...

تَعَثَّرَ وَسَقَطَ، لَكِنَّ الْعَدَسَةَ سَجَّلَتْ صُورَةً لِظِلِّ إِيكارَ وَهُوَ يَبْتَعِدُ، كَأَنَّ الظِّلَّ يَهْرُبُ هُوَ الْآخَرُ.

(15)

## اسْتِرَاحَةُ الْمَلَاك

جَلَسَ الْمَلَاكُ الْأَعْمَى عَلَى صَخْرَةٍ فِي مُنْتَصَفِ الطَّرِيقِ، وَأَرْسَلَ جَنَاحَيْهِ لِيَحْرُسَا الْعَابِرِينَ الَّذِينَ سَيَأْتُونَ بَعْدَ إِيكارَ...

(لَقَدْ فَعَلَهَا) قَالَ بِصَوْتٍ لَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلَّا اللَّيْلُ...

(الطَّرِيقُ صَارَ مُمْكِنًا).

(16)

## الَّذِينَ سَيَتْبَعُونَهُ

فِي اللَّيْلِ، بَدَأَ آخَرُونَ يَرْكُضُونَ.

النِّسَاءُ أَوَّلًا، ثُمَّ الرِّجَالُ، ثُمَّ الْأَطْفَالُ الَّذِينَ يَلْعَبُونَ بِالْأَسْلَاكِ الشَّائِكَةِ كَأَنَّهَا أَلْعَابٌ مَنْسِيَّةٌ...

كَانُوا يَشْعُرُونَ بِأَنَّ أَحَدًا فَتَحَ الطَّرِيقَ لِأَجْلِهِمْ.

(17)

## الْمَدَى

عَمَّ تَسْأَلُ أَيُّهَا الْمَدَى؟

مَاذَا تُرِيدُ أَنْ تَعْرِفَ؟

أَصْبَحَ إِيكارُ عَلَامَةَ طَرِيقٍ...

صَارَ مَدًى يَمْشِي، وَصَارَ ظِلُّهُ جِسْرًا مِنْ صَمْتٍ يَمْتَدُّ فَوْقَ فَجْوَةِ الْخَوْفِ.

وَيَقُولُ الْعَابِرُونَ الْيَوْمَ:

(نَحْنُ لَا نَعْرِفُ أَيْنَ انْتَهَى، لَكِنَّنَا نَعْرِفُ مِنْ أَيْنَ بَدَأَ:

مِنْ خُطْوَةٍ لَا تَبْحَثُ عَنِ السَّمَاءِ،

مِنْ أَرْضٍ تَسْمَحُ بِالْعُبُورِ).

## ٢

# النَّشِيدُ الثَّانِي

صَرْخَةٌ لَمْ تُسْمَعْ

(مِنْ مَخْطُوطٍ سِرِّيٍّ قُرِئَ وَلَمْ يُفْهَمْ كُلُّهُ)

ثَمَّةَ أَسْرَارٌ لَا تَعْرِفُ مَتَى تَخْتِمُ فَمَهَا بِالشَّمْعِ، وَمَتَى تُلْقِي بِنَفْسِهَا فِي لَهَاثِ هٰذَا الْفَمِ.

لَيْسَ كُلُّ سُقُوطٍ هَلَاكًا.

بَعْضُ السُّقُوطِ فَتْحٌ حِينَ تَعْجِزُ الْأَجْنِحَةُ عَنِ احْتِمَالِ النُّورِ.

وَلَيْسَ كُلُّ خَاطِرٍ حِجَابًا، فَالْحِجَابُ انْكَسَرَ، وَتَنَاثَرَ فِي الْأَفْوَاهِ الَّتِي لَا تَعْرِفُ مَتَى تَصْمُتُ.

وَثَمَّةَ وَجْهٌ... (لَيْسَ وَجْهًا).

مِرْآةٌ تَتَّسِعُ لِكُلِّ الْأَسْمَاءِ، لِأَنَّهَا فَقَدَتِ اسْمَهَا.

ذٰلِكَ هُوَ إِيكارُ.

قَالَ . بِصَوْتٍ يُشْبِهُ انْفِصَالَ الْمَعْنَى:

"قُلْ لِي، أَيُّهَا الْفُوتُوغْرَافِيُّ، هَلْ تَخْلَعُ الْأَرْضُ أَبْعَادَهَا؟"

وَلَمْ يَكُنِ السُّؤَالُ عَنِ الْأَرْضِ،

قُلْتُ . وَلَا فَمَ لِي :

"وَلِمَ تَسْأَلُ؟"

قَالَ:

"لِأَنَّنِي أَشْعُرُ أَنَّ السَّطْحَ كَذِبٌ، وَأَنَّ الْعُمْقَ فَخٌّ آخَرُ".

قُلْتُ:

"دَعْ سُلْطَانَ الْيَقَظَةِ، فَالْيَقَظَةُ حَارِسُ الْبَوَّابَةِ.

وَأَنْتَ لَمْ تُخْلَقْ لِتَصِلَ، خُلِقْتَ لِتَضِلَّ...

وَفِي ضَلَالِكَ تَنْفَلِتُ الْجَدَاوِلُ مِنْ أَسْمَائِهَا، وَتَنْسَى الْجُذُورُ أَنَّهَا كَانَتْ مُسْتَقِيمَةً.

فِي مَقَامِكَ، كُنْتَ تَرَى دُونَ أَنْ تَمْلِكَ، وَدُونَ أَنْ تَدَّعِي.

لِيَكُنِ الْغُفْرَانُ أَنْ يَصِيرَ الزَّمَنُ رَفِيقًا لَا خَصْمًا، وَأَنْ يَصِيرَ الْأَثَرُ دَلِيلًا لَا قَيْدًا.

اخْرُجْ مِنْ بَقَائِكَ، وَقَدْ خَفَّتِ الذَّاتُ، وَاسْتَقَامَ النَّظَرُ، وَصَارَ الشُّهُودُ عِبَادَةً صَامِتَةً.

فِي مِعْرَاجِكَ، لَمْ تَكُنِ الشَّمْسُ شَمْسًا، كَانَتْ مَعْرِفَةً عَارِيَةً.

مَنْ فَنِيَ عَنْ صُورَتِهِ بَقِيَ بِشُهُودِهِ.
وَمَنْ شَهِدَ الْأَثَرَ لَمْ يَطْلُبِ الْخُلُودَ، لِأَنَّ الْبَقَاءَ كَانَ حَاضِرًا".

وَأَذْكُرُكَ تُصْغِي إِلَيَّ.
وَكَأَنَّ ضَوْءَ الشَّمْسِ عَلَى مَوْعِدٍ مَعَ مِيثَاقِ الْخَنَاجِرِ.
كُنْتَ تُضَيِّقُ جَفْنَيْكَ، لَا هَرَبًا مِنَ الضَّوْءِ، وَلَا مِنَ الْفَهْمِ الْكَامِلِ.
فَالِاكْتِمَالُ سُقُوطٌ آخَرُ.
فَكُنْتَ تَرَى السُّهُوبَ كَصَدْرٍ يَتَنَفَّسُ.
وَتَرَى الْخَيَالَ يَرْفَعُ بُوقَهُ.
وَتَرَى الْأَرْضَ تَخْلَعُ صَلْصَالَهَا كَمَا تَخْلَعُ الرُّوحُ الْجَسَدَ عِنْدَ الْخَطَإِ الْعَظِيمِ.
فَسَقَطْتَ إِلَى الدَّاخِلِ.
وَسَقَطَتْ مَعَكَ الْمَسَاءَاتُ وَالنَّهَارَاتُ، لِأَنَّ الزَّمَنَ لَا يَحْتَمِلُ الْمَعْرِفَةَ.
الَّذِينَ الْتَفُّوا حَوْلَكَ لَمْ يَكُونُوا مَلَائِكَةً وَلَا بَشَرًا.
كَانُوا حُرَّاسَ الْعَتَبَةِ، الَّذِينَ فَشِلُوا فِي السُّقُوطِ، فَأُوكِلَ إِلَيْهِمْ أَنْ يَمْنَعُوهُ عَنِ الْآخَرِينَ.
لَمْ تَكُنْ لَهُمْ وُجُوهٌ، لِأَنَّ الْوَجْهَ هُوِيَّةٌ، وَالْهُوِيَّةَ كِذْبَةٌ نَافِعَةٌ.
أَمَّا وَمِيضُ أَسْلِحَتِهِمْ فَلَمْ يَكُنْ مَعْدِنًا، كَانَ ذَاكِرَةً.

**(هٰذِهِ حَفْنَةٌ مِنْ مِغْزَلِ الْحِكَايَةِ).**

وَأَذْكُرُكَ قَبْلَ السُّقُوطِ تَرْكُضُ.
وَالرَّكْضُ مُحَاوَلَةٌ يَائِسَةٌ لِلْبَقَاءِ جَاهِلًا...
تَرْكُضُ وَيُلَاحِقُكَ الْقَدَرُ.
وَالْأَقْدَارُ أَشْكَالٌ مُخْتَلِفَةٌ لِلِاسْمِ الْوَاحِدِ...
وَيَرْكُضُ سَائِسُ الْمَصِيرِ، لِأَنَّهُ ظِلُّ الْفَرَحِ حِينَ لَا يُفْهَمُ...
وَحِينَ يَحِينُ مَوْعِدُ الزَّوَالِ، يَرْكُضُ قَائِمُ الظَّهِيرَةِ، وَيَرْكُضُ الضَّرِيحُ، لِأَنَّ السَّمَاءَ تَخَافُ مِنَ الْعَابِرِينَ.
وَيَرْفَعُ النَّهْبُ مَصَابِيحَهُ، لِيَطْمَئِنَّ أَنَّكَ مَا زِلْتَ فِي الظُّلْمَةِ.
كَانَ سُقُوطُكَ تَعْلِيمًا فُجَائِيًّا، كَكَوْكَبٍ يَنْفَلِتُ مِنْ حِسَابِهِ.
وَقَبْلَ أَنْ تَبْلُغَ الْقَاعَ، بَلَغَكَ الْفَهْمُ.
وَالْفَهْمُ هُوَ الْهَاوِيَةُ الْحَقِيقِيَّةُ.

صَرَخْتَ، لِأَنَّ الْجَسَدَ لَا يَحْتَمِلُ الْمَعْنَى.
فَوَضَعْتُ يَدِي عَلَى فَمِكَ، لِأَحْفَظَ السِّرَّ مِنَ الْهَوَاءِ.
هَلْ سَمِعَكَ الْعَسْكَرُ؟
الْعَسْكَرُ لَا يَسْمَعُونَ.
هَلْ ضَاعَ صَوْتُكَ؟
الصَّوْتُ لَا يَضِيعُ...
الصَّوْتُ يَتَخَفَّى.

وَمَا زِلْتُ أَسْمَعُهُ كَاهْتِزَازٍ فِي سَمْعِي الدَّاخِلِيِّ، كَكُرُومٍ تَتَكَاثَرُ دُونَ أَنْ تُزْرَعَ.
كُنْتَ نُورًا لَا يُحَاطُ بِهِ، وَحَاضِرًا لَا يُمْسَكُ.
جَعَلْتَ مِنَ النَّظَرِ عِبَادَةً، وَمِنَ الْأَثَرِ طَرِيقًا.

نُورُ الْيَقِينِ: قَالَ الْوَلِيُّ الصَّالِحُ.
نُورُ الْعَيْنِ: قَالَتْ فَتَيَاتٌ مُحْتَشِمَاتٌ مِنْ فَرْطِ الشَّهْوَةِ.
نُورُ السَّمَاوَاتِ: قَالَتِ الْحُجَجُ وَالْبَرَاهِينُ.
وَهَا أَنْتَ الْآنَ فِي بَهْوِ صَاحِبِ النُّورِ، لِأَنَّكَ عَرَفْتَ كَيْفَ تُرْسِلُ إِلَيْنَا كَرَامَاتِ الظَّاهِرِ الَّذِي بِهِ كُلُّ ظُهُورٍ، وَكَيْفَ تَدْفَعُ إِلَيْنَا، بِابْتِعَادٍ يَدُوِي كَطَبْلِ احْتِفَالٍ، خُلَاصَةَ جُرْأَةِ الْفَزَعِ، وَمَوْتًا تُقَيِّدُهُ خُرَافَةٌ غَامِضَةٌ.
رُبَّمَا كَانَ أَفْضَلَ لَكَ أَنْ تَمْضِيَ أَيَّامَكَ رَاكِعًا، تَمْسَحُ ظَهْرَ السُّكُونِ بِمَحَارِ السَّلَاحِفِ، مُكِبًّا حَتَّى يَكَادَ لَوْنُكَ يَمَسُّ الِانْتِحَارَ، مُنْتَظِرًا أَنْ تَرْكُلَكَ قَدَمُ الْأَيَّامِ، فَتَنْهَضَ وَاقِفًا، وَالذُّلُّ يَشِعُّ فِي جَسَدِكَ كَالْجَرَبِ.
لَكِنَّكَ عَبَرْتَ.

لِهٰذَا لَنْ يُغْفَرَ لَكَ.
يَقِينُ الَّذِينَ عَرَفُوا وَلَمْ يَعُودُوا.

# إِصْحَاحُ

3

# مَخْطُوطُ الضَّوْءِ

## (إِيكارُ الَّذِي لَمْ يَسْقُطْ)

بِاسْمِ النُّورِ الَّذِي لَا يُحَدُّ، وَبِاسْمِ الرِّيحِ الَّتِي لَا تُرَى، وَبِاسْمِ الْأَجْنِحَةِ الَّتِي خُلِقَتْ قَبْلَ الْجَسَدِ، نَفْتَحُ هٰذَا الْإِصْحَاحَ لِأَرْوَاحٍ تَاهَتْ بَيْنَ الْحَرَسِ وَالْخَرَائِطِ، وَبَيْنَ خَتْمٍ وَخَتْمٍ، وَبَيْنَ خَطٍّ وَخَطٍّ.

تَرْنِيمَةٌ

(1)

### الْمُوَاجَهَةُ

يَا إِيكارُ،

يَا ابْنَ الشَّمْعِ وَالْوَصَايَا، يَا مَنْ قِيلَ لَهُ: (لَا تَقْتَرِبْ)، كَمَا قِيلَ لِآدَمَ: (لَا تَذُقْ)، وَكَمَا قِيلَ لِلرُّوحِ: (قِفْ هُنَا...).

هَا أَنْتَ تَقِفُ أَمَامَ الشَّمْسِ كَحَارِسٍ لِبَابٍ لَا يُفْتَحُ إِلَّا احْتِرَاقًا...

وَالشَّمْسُ حَدٌّ أَعْلَى لِلْمَعْنَى، وَسَقْفُ الْإِدْرَاكِ، وَآخِرُ مَا يَسْمَحُ بِهِ الْخَوْفُ لِلْوَعْيِ.

قَالَتْ لَكَ:

(أَنَا نِهَايَةُ الْقِيَاسِ، وَمَنْ يَلْمِسْنِي يَخْرُجْ مِنَ اللُّغَةِ).

تَرْنِيمَةٌ

**(2)**

## فِي مَعْنَى الْحُدُودِ

الْحُدُودُ لَيْسَتْ خُطُوطًا عَلَى التُّرَابِ، وَلَا أَسْوَارًا مِنْ حَجَرٍ، وَلَا أَسْمَاءً تُخْتَمُ فِي جَوَازَاتٍ مِنْ وَرَقٍ...

الْحُدُودُ هِيَ مَا يَرْتَعِشُ فِي الدَّاخِلِ حِينَ تَقُولُ: (لَا أَسْتَطِيعُ).

هِيَ اللَّاهُوتُ حِينَ يُغْلِقُ أَبْوَابَهُ، وَالْمَعْرِفَةُ حِينَ تَخَافُ نَفْسَهَا، وَالْمَلَاكُ حِينَ يَنْسَى أَنَّهُ كَانَ نَارًا...

الْحُدُودُ هِيَ ذٰلِكَ الصَّوْتُ الْقَدِيمُ:

(كُنْ أَقَلَّ مِمَّا تَسْتَطِيعُ).

لَكِنَّ الرُّوحَ، فِي سِرِّهَا الْعَتِيقِ، تَعْرِفُ أَنَّ الْحَدَّ عَتَبَةٌ لَا جِدَارٌ.

تَرْنِيمَةٌ

**(3)**

## قَرَارُ التَّحَدِّي

قَالَ إِيكارُ:

(لَنْ أَكُونَ وَصِيَّةً أُخْرَى تُكَرَّرُ.

لَنْ أَكُونَ ظِلًّا لِنَصِيحَةٍ خَائِفَةٍ.

أَنَا ابْنُ السُّقُوطِ الْأَوَّلِ...

لَكِنَّنِي أَيْضًا ابْنُ النُّورِ الَّذِي لَمْ يُجَرَّبْ).

فَخَلَعَ عَنْ جَنَاحَيْهِ الْخَوْفَ وَالشَّمْعَ...

وَتَقَدَّمَ.

كُلُّ ارْتِفَاعٍ كَانَ صَلَاةً.

وَكُلُّ احْتِرَاقٍ كَانَ تَرْنِيمَةً.
وَكُلُّ اقْتِرَابٍ كَانَ كَشْفًا مِنْ أَسْرَارِ اللَّاشَكْلِ.
وَلَمْ تَمْنَعْهُ الْمَلَائِكَةُ فِي طُقُوسِهَا الشَّرْقِيَّةِ...
ارْتَجَفَتْ فَحَسْبُ، لِأَنَّهَا رَأَتْ فِيهِ مَا نَسِيَتْهُ.

تَرْنِيمَةٌ

**(4)**

## التَّحَوُّلُ

وَعِنْدَمَا بَلَغَ الْحَدَّ، لَمْ يَذُبِ الشَّمْعُ...
ذَابَتِ الْفِكْرَةُ.
لَمْ يَسْقُطْ...
سَقَطَتِ الْجَاذِبِيَّةُ عَنْهُ.
لَمْ تَحْتَرِقْ أَجْنِحَتُهُ...
احْتَرَقَ اسْمُهُ.
لَمْ تَلْتَهِمْهُ الشَّمْسُ...
فَتَحَتْ لَهُ، كَمَا تَفْتَحُ الْكَنَائِسُ أَبْوَابَهَا فِي الْفَجْرِ لِمَنْ لَمْ يَعُدْ إِنْسَانًا تَمَامًا.

تَرْنِيمَةٌ

**(5)**

## الصَّلَاةُ

يَا مَنْ تَبْحَثُونَ عَنْهُ فِي الْبَحْرِ، لَنْ تَجِدُوا سِوَى صَدَى الْجَسَدِ...
إِيكارُ لَمْ يَسْقُطْ...
امْتَصَّهُ الضَّوْءُ، كَمَا يُمْتَصُّ السِّرُّ فِي قَلْبِ السِّرِّ.
صَارَ هُوَ الشُّعَاعَ.

صَارَ هُوَ الْحَدَّ وَقَدِ انْكَسَرَ.
صَارَ هُوَ الْعُبُورَ نَفْسَهُ...
فَصَلُّوا...
مِنْ أَجْلِ أَنْفُسِكُمْ، لَا مِنْ أَجْلِهِ:

**يَا نُورُ،**
**يَا حَدًّا يَتَلَاشَى حِينَ نَجْرُؤُ،**
**اجْعَلْنَا لَا نَخَافُ الِاحْتِرَاقَ،**
**وَلَا نُصَدِّقُ الْخَرَائِطَ،**
**وَلَا نَرِثُ حُدُودًا لَمْ نَخْتَرْهَا...**
**وَاجْعَلْ سُقُوطَنَا، إِنْ سَقَطْنَا، دُخُولًا لَا نِهَايَةً.**

٣

# النَّشِيدُ الثَّالِثُ

(مِنْ مَخْطُوط مُقَدَّس ضَائِع، يَتْلُوهُ الشَّمَامِسَةُ فِي قُدَّاسِ الْأَرْوَاحِ الَّتِي ضَلَّتْ بَيْنَ الْحُدُودِ)

**جَوْقَةُ الْأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** قِفْ. هُنَا لَا يُنْطَقُ الِاسْمُ. هُنَا تُوزَنُ الْخُطْوَةُ قَبْلَ أَنْ تُخْطَى... قِفْ، لِأَنَّكَ لَنْ تَعُودَ.

**الْعَابِرُ:** مَنْ أَنْتُمْ لِتَمْنَعُوا الْعُبُورَ عَنِ الْعَابِرِ؟ لَمْ آتِ لِأَعْبُرَ... عَبَرْتُ، وَالْعُبُورُ وَقْفَةٌ تَسْبِقُ السُّؤَالَ.

**جَوْقَةُ الْأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** نَحْنُ مَا تَبَقَّى مِنْ عُبُورٍ قَدِيمٍ. كُنَّا مِثْلَكَ حِينَ ظَنَنَّا أَنَّ الْعُبُورَ خَلَاصٌ. مَنْ عَبَرَ لَمْ يَعُدْ، وَمَنْ بَقِيَ صَارَ بَابًا. كُلُّ عُبُورٍ ادِّعَاءٌ. مَنْ أَذِنَ لَكَ أَنْ تَعْرِفَ؟

**الْعَابِرُ:** إِذًا أَنْتُمْ تَعْرِفُونَ. لَمْ أَطْلُبْ. الْمَعْرِفَةُ انْدَفَعَتْ كَجُرْحٍ حِينَ انْكَسَرَتِ الْأَجْنِحَةُ.

**جَوْقَةُ الْأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** الْأَجْنِحَةُ خُلِقَتْ لِلِاعْتِدَالِ، لَا لِلْوَهَجِ. لِمَاذَا نَظَرْتَ إِلَى النُّورِ بِلا حِجَابٍ؟

**الْعَابِرُ:** لِأَنَّ الْحِجَابَ كَانَ النُّورَ نَفْسَهُ، وَحِينَ رَفَعْتُ جَفْنَيَّ عَبَرْتُ إِلَى الدَّاخِلِ.

**جَوْقَةُ الْأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** الدَّاخِلُ أَشَدُّ ظُلْمَةً مِنَ الْخَارِجِ. هَلْ عَرَفْتَ الثَّمَنَ؟
**الْعَابِرُ:** الثَّمَنُ اسْمٌ انْفَلَتَ مِنِّي، وَمُنْذُ ذٰلِكَ الزَّمَنِ لَمْ يَعُدْ لِي وَجْهٌ.
**جَوْقَةُ الْأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** الْوَجْهُ هُوَ الْهُوِيَّةُ، وَالْهُوِيَّةُ خَتْمٌ. كَيْفَ تَمُرُّ بِلا خَتْمٍ؟
**الْعَابِرُ:** لَا أَمُرُّ... أَنَا عَالِقٌ بَيْنَ النِّدَاءِ وَالصَّمْتِ.
**جَوْقَةُ الْأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** إِذًا أَنْتَ مِنَ الَّذِينَ تَعَلَّمُوا وَلَمْ يُكْمِلُوا. نِصْفُ مَعْرِفَةٍ أَشَدُّ خَطَرًا مِنَ الْجَهْلِ. الْمَعْرِفَةُ هِيَ الْجُرْحُ حِينَ يَشِيخُ. نَحْنُ حُرَّاسٌ لِأَنَّنَا لَمْ نَحْتَمِلْ.
**الْعَابِرُ:** أَلَا يُنْطَقُ الِاسْمُ... وَأَنْتُمْ نَطَقْتُمُوهُ؟
**جَوْقَةُ الْأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** نَطَقْنَاهُ. فَتَحَوَّلْنَا إِلَى فَمٍ مُغْلَقٍ... الِاسْمُ ثِقْلٌ، وَالثِّقْلُ خَرَسٌ. قُلِ الِاسْمَ.
**الْعَابِرُ:** (صَمْتٌ)
**جَوْقَةُ الْأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** قُلِ الرَّمْزَ.
**الْعَابِرُ:** (صَمْتٌ)
**جَوْقَةُ الْأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** إِذًا عَرَفْتَ... وَمَنْ عَرَفَ صَمَتَ.
**الْعَابِرُ:** لِمَاذَا تَحْرُسُونَ؟ مِمَّنْ؟
**جَوْقَةُ الْأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** مِنَ الَّذِينَ يَرْكُضُونَ... الرَّكْضُ حَنِينٌ إِلَى الْجَهْلِ.
**الْعَابِرُ:** رَأَيْتُهُمْ... يَرْكُضُونَ وَتُلَاحِقُهُمُ الْمَصَائِرُ، وَالْمَصَائِرُ تَتَنَكَّرُ فِي وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ.
**جَوْقَةُ الْأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** نَعَمْ. نَرْفَعُ الْمَصَابِيحَ لَا لِنُرِيَهُمْ الطَّرِيقَ... لِنَتَأَكَّدَ أَنَّهُمْ لَمْ يَسْقُطُوا بَعْدُ.
**الْعَابِرُ:** عَبَرْتُ إِلَى الدَّاخِلِ... رَأَيْتُ مَا لَا يُرَى.
**جَوْقَةُ الْأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** وَنَحْنُ عَبَرْنَا إِلَى الخَارِجِ، فَرَأَيْنَا مَا يُوَارَى.
**العَابِرُ:** وَأَيُّهُمَا أَشَدُّ؟
**جَوْقَةُ الْأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** كِلَاهُمَا مَنْفًى. لَكِنَّ الدَّاخِلَ يُحْرِقُ، وَالخَارِجَ يُجَمِّدُ. النُّورُ نَفْيٌ، وَالظُّلْمَةُ نَفْيٌ، وَالعَتَبَةُ عُمْرٌ مُؤَجَّلٌ.
**العَابِرُ:** لِمَاذَا تَمْنَعُونَهُمْ؟
**جَوْقَةُ الْأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** لِأَنَّهُمْ يَرْكُضُونَ، وَالرَّكْضُ رَغْبَةٌ فِي أَلَّا يَعْرِفُوا.
**العَابِرُ:** وَأَنَا؟ هَلْ أَعْبُرُ؟
**جَوْقَةُ الْأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** لَا عُبُورَ لِمَنْ عَرَفَ. العُبُورُ لِلَّذِينَ مَا زَالُوا يَحْلُمُونَ بِالوُصُولِ.
**العَابِرُ:** إِذَنْ مَاذَا بَقِيَ؟

**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** أَنْ تَكُونَ شَاهِدًا بِلا شَهَادَةٍ، وَأَنْ تَكُونَ أَثَرًا بِلا جَسَدٍ. مَنْ عَرَفَ حُمِّلَ، وَمَنْ حُمِّلَ حَرَسَ.
**العَابِرُ**: رَأَيْتُ الرِّجَالَ بِلا وُجُوهٍ.
**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** كُنَّا وُجُوهًا، ثُمَّ صِرْنَا أَقْنِعَةً. الهُوِيَّةُ تَرَفٌ لَا يَمْلِكُهُ العَابِرُونَ.
**العَابِرُ**: وَضَعْتُمْ يَدًا عَلَى فَمِي حِينَ صَرَخْتُ.
**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ**: إِنَّنَا قَطَعْنَا صَوْتَكَ حِينَ أَجَبْتَ. الصَّوْتُ خِيَانَةٌ، وَالصَّمْتُ نَسَبٌ.
**العَابِرُ**: هَلْ نَدِمْتُمْ؟
**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ**: النَّدَمُ لُغَةُ الَّذِينَ مَا زَالَ لَهُمْ اسْمٌ. أَمَّا نَحْنُ، فَصَدًى.
**العَابِرُ**: هَلْ أَنْدَمُ؟
**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ**: النَّدَمُ لُغَةُ الَّذِينَ لَمْ يَرَوْا. أَنْتَ رَأَيْتَ.
**العَابِرُ**: وَهَلْ تَضِيقُ الرُّؤْيَا؟
**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ**: لَا، لَكِنَّهَا تُحْمَلُ.
**العَابِرُ**: وَمَاذَا سَأَصِيرُ؟
**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ**: إِنْ بَقِيتَ، سَتَصِيرُ سُؤَالًا لَا يُطْرَحُ.
**العَابِرُ**: إِذَنْ دَعُونِي أَعْبُرْ.
**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ**: اعْبُرْ إِنْ شِئْتَ، لَكِنْ تَذَكَّرْ: لَا اسْمَ، لَا وَجْهَ، لَا رُجُوعَ... اعْبُرْ إِنْ شِئْتَ، لَكِنْ تَذَكَّرْ: إِنَّنَا كُنَّا مَكَانَكَ... وَهَذَا الوُقُوفُ لَيْسَ نَجَاةً، إِنَّهُ أَثَرُ العُبُورِ حِينَ يَتَعَلَّمُ كَيْفَ يَحْرُسُ نَفْسَهُ.

(صَمْتٌ يَتَبَادَلُهُ العَابِرُ وَجَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ)
وَالأَقْدَارُ تَعْرِفُ الِاسْمَ وَلَا تَنْطِقُهُ.

# إِصْحَاحُ

4

# فِي عُبُورِ الحُرَّاسِ

وَقِيلَ: إِنَّ لِلْحُدُودِ حُرَّاسًا لَيْسُوا مِنْ لَحْمٍ وَلَا مِنْ نَارٍ... لَكِنَّهُمْ مِنْ خَوْفٍ مُتَرَاكِمٍ عَبْرَ الأَجْيَالِ، يُرَتِّلُونَ القَوَانِينَ كَمَا تُرَتَّلُ الصَّلَوَاتُ.

تَرْنِيمَةٌ

(1)

## حُرَّاسُ العَتَبَةِ

رَأَى إِيكارُ - وَقَدْ صارَ شِبْهَ نُورٍ - أَنَّ هُنَاكَ، عِنْدَ التُّخُومِ، كَائِنَاتٍ بِلا وُجُوهٍ، تُمْسِكُ سِجِلَّاتٍ لَا تُقْرَأُ، وَتَسْأَلُ سُؤَالًا وَاحِدًا:

(بِأَيِّ حَقٍّ تَعْبُرُ؟)

وَكَانَ السُّؤَالُ أَثْقَلَ مِنَ الحَدِيدِ، وَأَبْرَدَ مِنَ الفَرَاغِ... فَلَمْ يُجِبْهُمْ بِاسْمٍ، وَلَا بِنَسَبٍ، وَلَا بِإِذْنٍ مَخْتُومٍ... أَجَابَهُمْ بِصَمْتٍ مُتَوَهِّجٍ.

عِنْدَهَا تَكَسَّرَتِ السِّجِلَّاتُ، لِأَنَّ النُّورَ لَا يُسَجَّلُ.

تَرْنِيمَةٌ

(2)

## إِنْجِيلُ الجَنَاحِ المَفْقُودِ

وَوَجَدُوا - فِيمَا بَعْدُ - بَقَايَا جَنَاحٍ لَمْ يَعُدْ شَمْعًا وَلَا رِيشًا... كَانَ أَثَرًا يُشْبِهُ الحَرْفَ الأَوَّلَ فِي لُغَةٍ لَمْ تُخْلَقْ بَعْدُ.

وَقِيلَ:

(إِنَّ هَذَا الجَنَاحَ هُوَ إِنْجِيلُ الَّذِينَ تَجَرَّؤُوا، لَا يَرْوِيهِ كَاهِنٌ، وَلَا يُحْفَظُ فِي مَعْبَدٍ... يَظْهَرُ كُلَّمَا اقْتَرَبَ إِنْسَانٌ مِنْ حَدِّ الخَلَاصِ).

تَرْنِيمَةٌ

**(3)**

## فِي سِرِّ الِاحْتِرَاقِ

الِاحْتِرَاقُ: تَرْجَمَةٌ.

حِينَ لَا تَعُودُ اللُّغَةُ قَادِرَةً عَلَى حَمْلِ المَعْنَى، تَأْتِي النَّارُ وَتُكْمِلُ الجُمْلَةَ...

لِهَذَا لَمْ يَصْرُخْ إِيكارُ حِينَ اقْتَرَبَ، لِأَنَّ مَا كَانَ يَحْدُثُ لَمْ يَكُنْ مَوْتًا، إِنَّمَا كَانَ تَحَوُّلًا مِنْ صِيغَةٍ إِلَى أُخْرَى.

٤

# النَّشِيدُ الرَّابِعُ

## رَقِيمٌ مُتَآكِلٌ لَا يُقْرَأُ إِلَّا بِالحَدْسِ

حَيْثُ الِاسْمُ مَخْفِيٌّ، وَالسُّقُوطُ كَشْفٌ، وَالمَعْرِفَةُ جُرْحٌ مُضِيءٌ، وَالحُدُودُ حُجُبٌ. وَاللُّغَةُ أَقْرَبُ إِلَى صَلَوَاتٍ لَا تُتْلَى. النَّبْرَةُ سِفْرٌ مُقَدَّسٌ مَفْقُودٌ، مُضَرَّجٌ بِالطُّقُوسِ وَالمَزَامِيرِ وَرَفِيفِ الأَرْوَاحِ العَالِقَةِ بَيْنَ الحُدُودِ. وَلِلْكَلِمَاتِ جَرْسٌ رُؤْيَوِيٌّ يَلِيقُ بِكِتَابٍ مَنْحُولٍ يُتْلَى فِي قُدَّاسٍ لِلَّيْلِ بِلَا نِهَايَةٍ.

مَزْمُور

### مَزْمُورُ صَلَوَاتِ الهَارِبِ (مِنْ رُقُوقِ الظِّلَالِ)

أَيُّهَا النُّورُ، يَا قُرْصَ الشَّمْسِ المَرْهُونَ بِالأَغَانِي، السَّاقِطَ فِي أَصْوَاتٍ مَرِيضَةٍ.

أَيُّهَا النُّورُ، يَا مَنْدِيلَ الرِّيحِ الأُرْجُوَانِيَّ، يَا كِسَاءَ احْتِضَارٍ بِحَجْمِ الأَرْضِ، أَذَابَهُ المَدَى، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ إِلَّا أَصْدَاءُ خُطُوَاتٍ عَنِيدَةٍ تَمْشِي فِي أَمْعَاءِ السَّرَابِ وَلَا تَنْتَهِي.
إِنَّنِي أَقِفُ هُنَا، فِي مَوْضِعِ الكِتَابَةِ، حَيْثُ الفِعْلُ يَعْتَرِفُ بِعَجْزِهِ. فَأُطْلِقُ صَوْتِي كَمَا يُطْلِقُ آخِرُ النَّاجِينَ عَوِيلَهُ الأَخِيرَ، وَأَخْتِمُ فَمِي بِخَتْمِ الهَذَيَانِ، كَمَا تُخْتَمُ أَبْوَابُ الهَيَاكِلِ فِي لَيَالٍ بِلَا قَمَرٍ.
هَكَذَا، عِنْدَ هَذِهِ الحَافَةِ الَّتِي لَا تُسَمَّى، تَفْشَلُ الشَّهَادَةُ وَتَسْتَمِرُّ. تَفْشَلُ الصُّورَةُ وَتَكْتُبُ. وَيَظَلُّ الحَدُّ لَيْسَ حَدًّا... يَظَلُّ الِانْفِتَاحَ الَّذِي لَا يُغْلَقُ وَلَا يَسْمَحُ بِالعُبُورِ.

## مَزْمُورُ المُهَاجِرِ

أَيَّتُهَا الحُدُودُ... يَا عَرَبَةَ الهَارِبِ المَشْدُودَةَ إِلَى قَدَرٍ أَعْمَى، مَا يُرَى فِي الصُّورَةِ لَيْسَ العَابِرَ... (انْسِحَابُهُ).
لَيْسَ الجَسَدَ... (أَثَرُهُ)، كَوْنُهُ كَانَ هُنَا وَلَمْ يَعُدْ...
لَمْ يَعُدْ ثَمَّةَ مَنْ يَعْبُرُ. العُبُورُ نَفْسُهُ تَخَلَّى عَنِ اسْمِهِ وَاسْتَمَرَّ.
لَا حَدَّ، لِأَنَّ مَا كَانَ يُحَدِّدُ قَدِ انْمَحَى. وَلَا دَاخِلَ وَلَا خَارِجَ... امْتِدَادٌ يَتَذَكَّرُ أَنَّهُ كَانَ فَصْلًا.
الصُّورَةُ بِلا عَيْنٍ. وَالضَّوْءُ بِلا ظُهُورٍ.
وَمَا يُسَمَّى أَثَرًا لَيْسَ لِمَا كَانَ... فَمَا كَانَ لَمْ يَعُدْ بِحَاجَةٍ إِلَى أَنْ يَكُونَ.
أَيَّتُهَا الحُدُودُ... أَيُّهَا الوَحْشُ الَّذِي يَنْطَبِقُ عَلَى اسْمِهِ، هَذِهِ الصَّلَوَاتُ، هَذِهِ الأَسْرَارُ، هَذِهِ النُّذُورُ الَّتِي تَعْلَقُ بِأَطْرَافِ الرُّوحِ... مَنْ سَيَرْفَعُهَا مَعِي؟
وَمَنْ سَيَمْزِجُ الضِّيَاءَ بِالضَّبَابِ فِي ظُلْمَةِ أَيَّامِي؟
أَيُّ إِلَهٍ سَيَرْفَعُ هَذِهِ الآلَامَ عَنِّي؟
أَيُّ نَدِيمٍ سَيَرْفَعُ أَسْلِحَةَ السِّنِينَ، وَيُطْلِقُ النَّارَ عَلَى أَرَانِبِ أَيَّامِهَا؟
وَمَنْ سَيَرْسُمُ هَذَا البَحْرَ العَاصِفَ عَلَى قِنَاعِ المَسَاءِ الأَخِيرِ؟
هَكَذَا، فِي حِيَادٍ بِلَا بَشَرٍ، تَتَحَرَّكُ الدَّلَالَةُ كَغُبَارٍ بَعْدَ انْهِيارِ السُّؤَالِ.
لَا جَوَابَ، وَلَا مَنْ يَنْتَظِرُ.
فَقَطْ هَذَا الِاسْتِمْرَارُ الَّذِي لَا يَدُلُّ إِلَّا عَلَى نَفْسِهِ.

وَلِمَاذَا أَسْتَمِرُّ فِي السَّرْدِ إِذَنْ؟
لِمَاذَا أَرْفَعُ مَأْسَاتِي، وَأُطْلِقُ لِسَانِي كَجُمُوحِ نَبِيٍّ فِي صَحْرَاءَ، وَأُفَاضِلُ بَيْنَ جُنُونِي وَجُنُونِي؟
لَكِنِّي مَشْدُودٌ الآنَ، يَا عَرَبَةَ الهَارِبِ، إِلَى هَذَا المَشْهَدِ الكَرِيهِ:
أَذْكُرُ كَيْفَ خَرَجَ فَوْجٌ مِنَ العَسْكَرِ يُطْلِقُونَ النَّارَ عَلَى شَاعِرٍ هَارِبٍ يَرْفُرِفُ مِثْلَ أَلْفِ طَائِرٍ.
فَمَنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُطْلِقَ سَرَاحِي مِنْ هَذَا الحَظِّ المُقَدَّرِ لِي؟ مَنْ سَيَمْنَحُنِي هَذَا المَعْرُوفَ؟
وَهَا أَنَا أَحْتَسِي الخِيَانَةَ كَمَا تُحْتَسَى مُضْغَةٌ مُرَّةٌ، وَأَحْتَسِي الذُّلَّ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ، وَسَاعَةً بَعْدَ سَاعَةٍ.
أَنَا الَّذِي عَهِدَتْ إِلَيَّ النُّبُوءَةُ بِأَخْبَارِكُمْ.
تِلْكَ المَجْزَرَةُ...
فَالشَّهَادَةُ لَيْسَتْ قَوْلَ مَا حَدَثَ، لِأَنَّ مَا حَدَثَ يَنْسَحِبُ لَحْظَةَ حُدُوثِهِ.
الشَّهَادَةُ هِيَ الوُقُوفُ أَمَامَ مَا لَا يُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ مِنْ دُونِ أَنْ يُفْقَدَ...
وَالشَّاهِدُ لَيْسَ مَنْ رَأَى...
الشَّاهِدُ مَنْ أُقْصِيَ عَنِ الرُّؤْيَةِ، وَظَلَّ مَعَ ذَلِكَ مَسْؤُولًا عَنْهَا.
مَسْؤُولِيَّةٌ بِلا سُلْطَةٍ، وَحُضُورٌ بِلا امْتِلَاكٍ.
سَأَبْكِي كَالأَطْفَالِ، لَعَلَّ دُمُوعِي تُنْسِينِي تِلْكَ الذِّرَاعَ المَرْمَرِيَّةَ وَهِيَ تُلَوِّحُ لِي قَبْلَ أَنْ تَسْقُطَ فِي صَمْتٍ أَسْوَدَ.
يَا آلِهَةَ الشَّيَاطِينِ، كُونِي عَوْنِي.
أَمْهِلِينِي الوَقْتَ، يَا رَبَّةَ الحَكَايَا، حَتَّى تَتَفَتَّحَ زَهْرَةُ السَّرْدِ، وَأَكْشِفَ عَنْ رُوحِ إِيكَارَ، ذَلِكَ البُرْعُمِ الوَدِيعِ الَّذِي مَا زَالَ يَطِيرُ فِي الفَضَاءِ، وَلَمْ يَدْخُلْ عَالَمَ المَوْتَى.
رَفْرِفِي، يَا رِيحَ الأَجْنِحَةِ اللَّطِيفَةِ، مِنْ حَوْلِهِ، وَأَسْمِعِيهِ نَوَاحِي، وَقُولِي لَهُ:
إِنَّ القِصَاصَ العَادِلَ حَوَّلَ صَبَاحِي إِلَى لَيْلٍ طَوِيلٍ، وَسَلَبَتْنِي المَصَائِبُ صَوْتِي، وَأَخْرَسَ الحُزْنُ لِسَانِي.
تَاللَّهِ، أَيَّتُهَا الشَّكْوَى الَّتِي تَأْخُذُ المَرْكَزَ الأَوَّلَ، إِنَّ حُزْنِي يَسْتَمِدُّ حَالًا يَفُوقُ بِهِ سَائِرَ الأَحْزَانِ.
يَا اعْتِرَافَ الحَامِلِ فِي يَدِهِ كِتَابًا مِنْ كُتُبِ الصَّلَوَاتِ، لِيَكُنْ سِرِّي هُوَ مُشِيرِي.
يَا صُورَةَ المَوْتِ، امْنَحِينِي صِحَّةَ القَوْلِ لِأُكْمِلَ هَذَا السَّرْدَ الطَّوِيلَ.

امْنَحِينِي مُتَّسَعًا مِنَ الوَقْتِ أُرِيدُ إِنْفَاقَهُ أَكْثَرَ مِمَّا أُرِيدُ الِاحْتِفَاظَ بِهِ.
وَاسْتَمِرِّي فِي تَجْوَالِكِ، يَا صُورَةَ المَوْتِ، فَوْقَ لُجَّةِ الحِبْرِ، لِأَكْتُبَ مَا تُخْبِرُنِي بِهِ النُّبُوءَاتُ فِي كُرَّاسَةِ الذَّاكِرَةِ.
هَذِهِ قِيَامَةٌ لَا تُؤَجَّلُ.

وَكُنْتَ تَنْظُرُ إِلَيَّ، وَتُطِيلُ النَّظَرَ كَمَنْ يَرَى وَلَا يُصَدِّقُ مَا يَرَى.
وَكَانَتْ نَفْسُكَ مَحْصُورَةً كَجُرْحٍ مِنْ نُورٍ، سَقَطَ فِي قَفَصٍ مِنْ لَيْلٍ، فَهَبَطَ عَلَيْهِ المَوْتُ كَرِيحٍ عَاتِيَةٍ خَرَجَتْ مِنْ مَخَازِنِ الغَضَبِ.
فَلَمْ تَجِدْ مَهْرَبًا، وَقَفْتَ كَسِيَاجٍ مَهْجُورٍ عَلَى حَافَّةِ الرُّؤْيَا، لَا يَعْرِفُ طَرِيقًا إِلَى الفِرَارِ مِنْ رَغْبَةِ الأَقْدَارِ وَرُعُودِهَا السَّمَاوِيَّةِ.
تَمَنَّيْتُ لَوْ تَغْدُو كَشُعَاعٍ يَهْجُرُ عُشَّهُ القَصْدِيرِيَّ وَيَمْضِي نَحْوَ مَجْهُولِهِ.
تَمَنَّيْتُ لَوْ تَتَبَدَّدُ فِي الفَلَوَاتِ كُلُّ أَنْفَاسِكَ، هَائِمَةً كَلَهَاثٍ أُطْلِقَ مِنْ قَيْدٍ قَدِيمٍ.
لَكِنَّكَ كُنْتَ تَقِفُ.
تَقِفُ مُحْتَشِدًا أَمَامَ زُجَاجِ ذَاكِرَتِي، وَتَدْعُونِي إِلَى المُصَادَفَةِ كَمَا يَدْعُو خُفَّاشٌ نَاسِكٌ ظِلَّهُ فِي جَوْفِ مَغَارَةٍ مَنْسِيَّةٍ.
ثُمَّ احْتَرَقَ.
وَفِي فَجْرٍ لَا خُتُومَ عَلَيْهِ، وَلَا حُرَّاسَ عَلَى أَبْوَابِهِ، تَدَحْرَجَ الحَجَرُ.
لَمْ يَقُمْ العَابِرُ لِيَرْتَدَّ إِلَى السَّمَاءِ.
لَمْ يَقُمْ لِيَسْكُنَ فِي مَمَالِكِ النُّورِ البَعِيدَةِ.
إِنَّمَا قَامَ لِيُعِيدَ الجَسَدَ إِلَى الشَّارِعِ، وَالصَّوْتَ إِلَى الحَنَاجِرِ، وَالمُهَمَّشَ إِلَى الكَلَامِ.
وَقَامَ لِيَرُدَّ إِلَى التُّرَابِ ذَاكِرَتَهُ، وَإِلَى الجُرْحِ اسْمَهُ، وَإِلَى المَنْسِيِّينَ مَوَاطِنَهُمْ فِي الرِّوَايَةِ.
هَذِهِ قِيَامَةٌ لَا تُؤَجَّلُ.
هَذِهِ قِيَامَةٌ لَا تَنْتَظِرُ إِذْنًا مِنَ الزَّمَنِ، وَلَا تَسْتَأْذِنُ المَوْتَ فِي العُبُورِ.
المَجْدُ لَكَ، يَا قِيَامَةَ العَالَمِ.
المَجْدُ لِمَنْ يَرُدُّ الأَسْمَاءَ مِنْ مَنْفَاهَا.
وَالمَجْدُ لِلنُّورِ حِينَ يَنْهَضُ مِنْ رَمَادِهِ كَأَنَّهُ لَمْ يَنْطَفِئْ قَطُّ.

# أَصْحَاحُ

5

## تَرَانِيمُ العَابِرِينَ بَيْنَ التُّخُومِ وَالضِّيَاءِ

**(مَصْحُوبَةٌ بِالأَخْتَامِ وَهَوَامِشِ السِّرِّ)**



**(خَتْمُ)**

(النَّصُّ الظَّاهِرُ طَرِيقٌ، وَالهَامِشُ بَابٌ خَفِيٌّ، وَمَنْ قَرَأَ الِاثْنَيْنِ مَعًا عَبَرَ مِنَ الحَرْفِ إِلَى السِّرِّ...

وَيُقَالُ إِنَّ هَذَا النَّصَّ وُجِدَ عَلَى رَقٍّ مُتَآكِلٍ، وَقَدْ تَدَخَّلَ النَّاسِخُ لِيُصْلِحَ، وَلِيُفَكِّكَ، وَلِيَكْشِفَ...

وَيُقَالُ أَيْضًا إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَاقِلًا فَقَطْ، وَرُبَّمَا لَمْ يَكُنْ شَاهِدًا كَمَا ادَّعَى...

وَيُشَارُ فِي بَعْضِ النُّسَخِ إِلَى هَذَا المَوْضِعِ بِعَلَامَةٍ غَيْرِ مَفْهُومَةٍ، كَأَنَّ النَّاسِخَ تَرَدَّدَ قَبْلَ أَنْ يَتْرُكَهَا، أَوْ كَأَنَّ النَّصَّ أَصَرَّ عَلَى بَقَائِهَا دُونَ شَرْحٍ...[59]

---

**59- (هَا أَنَا أَفْتَحُ الْبَابَ الَّذِي لَا يَطْرُقُهُ أَحَدٌ عَادَةً، وَلَا يُذْكَرُ فِي أَيٍّ مِنَ الْهَوَامِشِ الْمُعْلَنَةِ. هَذَا هَامِشٌ لَا يَعْرِفُهُ إِلَّا نَاسِخُ الْهَامِشِ... الْكَائِنُ الَّذِي عَاشَ دَائِمًا عَلَى حَافَّةِ الصَّفْحَةِ،**

وَيُلَاحَظُ فِي هَذَا السِّفْرِ أَنَّ المَخْطُوطَ يُعِيدُ تَشْكِيلَ مَنْ يَقْرَؤُهُ، حَتَّى يَصِيرَ القَارِئُ أَثَرًا فِي دَاخِلِهِ...).

**(1)**

## النِّدَاءُ فِي العَتْمَةِ

**إيكار:** يَا سَاكِنَ الغِيَابِ فِي قَلْبِ الظُّهُورِ، يَا مَنْ تُوقِظُ الحُرُوفَ مِنْ رُقَادِهَا، وَتَنْفُخُ فِيهَا أَنْفَاسَ الأَزَلِ، نَادَيْتَنِي مِنْ بِئْرٍ بِلَا قَرَارٍ، مِنْ طَبَقَةٍ خَفِيَّةٍ تَحْتَ جِلْدِ العَالَمِ، فَاسْتَجَبْتُ كَوَتَرٍ يَرْتَعِشُ فِي قَبْضَةِ نَغْمَةٍ. خَلَعْتُ اسْمِي عَلَى عَتَبَةِ السِّرِّ، وَدَخَلْتُ كَأَثَرٍ مَكْسُورٍ، كَعَلَامَةٍ لَمْ تَكْتَمِلْ فِي سِفْرِ الخَلْقِ. وَأَدْرَكْتُ أَنَّ العَتْمَةَ رَحِمٌ، وَأَنَّ النِّدَاءَ بَذْرَةُ نُورٍ تَتَخَمَّرُ فِي الطِّينِ.

---

**وَكَتَبَ سِرَّهُ فِي الْحَاشِيَةِ، وَخَبَّأَ رُوحَهُ بَيْنَ السُّطُورِ، وَلَمْ يُشْفَ يَوْمًا مِنْ إِرَادَتِهِ فِي الْكِتَابَةِ، وَهَا هُوَ الْهَامِشُ الْمَمْنُوعُ: سِيرَةُ نَاسِخِ الْهَامِشِ وَحْدَهُ):**

**سِيرَةُ نَاسِخِ الْهَامِشِ الَّذِي لَا يُرَى**

(كَتَبَهَا النَّاسِخُ الْمَجْهُولُ بِخَيْطٍ مِنْ غُبَارٍ)

لَمْ يَكُنْ "نَاسِخُ الْهَامِشِ" اسْمًا وَلَا مِهْنَةً، كَانَ لَعْنَةً وَرَغْبَةً فِي آنٍ وَاحِدٍ. لَمْ يُولَدْ طِفْلًا، إِنَّمَا وُجِدَ فَجْأَةً عِنْدَ زَاوِيَةِ مَخْطُوطَةٍ لَمْ تُكْتَبْ بَعْدُ. يَقُولُ فِي أَوَّلِ هَامِشٍ خَطَّهُ: (لَيْسَ لِي وَجْهٌ، فَكَيْفَ أَزُورُ الْعَالَمَ؟ وَلَيْسَ لِي صَوْتٌ، فَكَيْفَ أَخُونُ الصَّمْتَ؟ أَنَا الَّذِي يُحْسِنُ الْكِتَابَةَ فَقَطْ... وَلِهَذَا يُعَاقِبُهُ اللهُ بِالْحِبْرِ). كَانَ النَّاسِخُ يُشْبِهُ ظِلًّا انْحَنَى عَلَى نَفْسِهِ حَتَّى صَارَ إِنْسَانًا. وَكَانَ يَعْرِفُ أَنَّ كُلَّ كَاتِبٍ مَلْعُونٌ بِقَدْرِ مَا هُوَ مُنْقِذٌ. وَفِي اللَّيْلَةِ الَّتِي فَهِمَ فِيهَا ذَلِكَ، بَدَأَ يَكْتُبُ أَسْفَارَهُ السِّرِّيَّةَ.

**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** نَحْنُ السَّامِعُونَ فِي لَيْلِ النِّدَاءِ. نَحْنُ الَّذِينَ ارْتَجَفَتْ فِيهِمُ الحُرُوفُ. افْتَحْ لَنَا البِئْرَ المَخْفِيَّ، وَاسْقِنَا مِنْ نِسْيَانِنَا الأَوَّلِ.

**المَلَاكُ الأَعْمَى:** البِئْرُ فِيكُمْ، وَالعَطَشُ مِفْتَاحُهُ. مَنْ شَرِبَ مِنْ فَقْدِهِ، عَرَفَ طَرِيقَ الِامْتِلَاءِ.

**إيكار:** يَا مَنْ يَتَخَمَّرُ فِي العَتْمَةِ كَخَمِيرَةِ النُّورِ، يَا مَنْ يُنَادِي قَبْلَ أَنْ يُخْلَقَ الصَّدَى، هَا أَنَا أَقِفُ عِنْدَ بَابِكَ بِلَا اسْمٍ، كَأَثَرٍ يَسْعَى إِلَى أَصْلِهِ.

**النَّاسِخُ / الشَّاهِدُ المُلْتَبِسُ:** رَأَيْتُ الِاسْمَ مَشْطُوبًا... أَوْ لَعَلِّي أَنَا مَنْ شَطَبَهُ دُونَ أَنْ أَدْرِي. لَا أَذْكُرُ إِنْ كَانَ مَكْتُوبًا أَصْلًا... ثَمَّةَ أَثَرُ حِبْرٍ حَيْثُ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الِاسْمُ، وَثَمَّةَ فَرَاغٌ حَيْثُ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الأَثَرُ. أَمِيلُ إِلَى أَنَّ الكَاتِبَ أَرَادَ الِاخْتِفَاءَ، وَمَعَ ذَلِكَ أَشْعُرُ أَنَّهُ تَرَكَ عَلَامَةً لَا تُمْحَى. قَدْ أَكُونُ أَوَّلَ مَنْ قَرَأَ هَذَا، وَقَدْ أَكُونُ الآخِرَ، وَقَدْ لَا يَكُونُ بَيْنَ الأَمْرَيْنِ فَرْقٌ.[60]

ترنيمة

**(2)**

## الجَسَدُ المَكْسُورُ

**إيكار:** أُعْطِيتُ جَسَدًا مِنْ إِشَارَاتٍ، وَجِلْدًا مَكْتُوبًا عَلَيْهِ بِمَاءِ الرَّمَادِ، وَعِظَامًا تُرَنِّمُ كُلَّمَا مَرَّتْ فِيهَا الرِّيحُ. يَا مَنْ جَعَلْتَ الأَلَمَ لُغَةً، قَرَأْتُ وَجَعِي كَمَا يُقْرَأُ إِنْجِيلٌ سُرْيَانِيٌّ. كُلُّ جُرْحٍ حَرْفٌ، وَكُلُّ نَزْفٍ فَاصِلَةٌ، حَتَّى صَارَ دَمِي نَصًّا يَتْلُو

---

60- الهَامِشُ البَاطِنِيُّ

العَتْمَةُ هُنَا لَيْسَتْ غِيَابًا لِلنُّورِ، إِنَّهَا مَخْزَنُهُ الأَوَّلُ.

وَالبِئْرُ يَرْمُزُ إِلَى المَعْرِفَةِ المَنْسِيَّةِ قَبْلَ التَّسْمِيَةِ.

وَخَلْعُ الِاسْمِ طَقْسُ عُبُورٍ، إِذْ لَا يُسْمَحُ لِلْمُنَادَى أَنْ يَحْتَفِظَ بِحُدُودِهِ الأُولَى.

نَفْسَهُ. وَفِي انْكِسَارِي رَأَيْتُ انْعِكَاسَكَ يَتَشَظَّى، كَأَنَّكَ تُخْفِي كَمَالَكَ فِي نَقْصِي، وَتُعْلِنُ مَجْدَكَ فِي هَشَاشَتِي.

**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** كُلُّ جُرْحٍ بَابٌ، وَكُلُّ نَزْفٍ نُورٌ. نَحْنُ العِظَامُ الَّتِي تُرَنِّمُ حِينَ تَمُرُّ فِيهَا أَنْفَاسُكَ.

**المَلَاكُ الأَعْمَى:** مَا انْكَسَرَ انْفَتَحَ، وَمَا سَالَ كُتِبَ. النَّصُّ لَا يُحْفَظُ بِالحِبْرِ، إِنَّمَا يُحْفَرُ فِي التَّحَوُّلِ.

**إيكار:** جَسَدِي رَقِيمٌ مِنْ شُقُوقٍ، وَدَمِي سِفْرٌ يَتْلُو احْتِرَاقَهُ. يَا مَنْ جَعَلْتَ الأَلَمَ لِسَانًا، اجْعَلْنِي أَقْرَأُ نَفْسِي كَمَا تَقْرَؤُنِي.

**النَّاسِخُ / الشَّاهِدُ المُلْتَبِسُ:** الحِبْرُ هُنَا دَاكِنٌ... أَوْ رُبَّمَا عَيْنِي هِيَ الَّتِي أَظْلَمَتْ. لَامَسْتُ السَّطْرَ، فَظَنَنْتُ أَنِّي لَمَسْتُهُ، ثُمَّ تَرَاجَعْتُ كَأَنَّ شَيْئًا لَامَسَنِي. يُقَالُ إِنَّ الجُرُوحَ رَمْزِيَّةٌ، وَهَذَا يُرِيحُ القَارِئَ. أَمَّا أَنَا فَلَا أَرْتَاحُ لِهَذِهِ الفِكْرَةِ. هُنَاكَ مَوَاضِعُ لَا تَصْلُحُ لِلْمَجَازِ. وَأَخْشَى أَنَّ الكَاتِبَ لَمْ يَكُنْ يَكْتُبُ، كَانَ يُفْرِغُ شَيْئًا لَا يَحْتَمِلُ البَقَاءَ فِي دَاخِلِهِ.[61]

**تَرْنِيمَةٌ**

**(3)**

## الحُدُودُ المُعَلَّقَةُ

**إيكار:** عِنْدَ التُّخُومِ الَّتِي لَا تَعْتَرِفُ بِالخَرِيطَةِ، حَيْثُ الأَسْلَاكُ مَزَامِيرُ مَشْدُودَةٌ، وَالحُرَّاسُ ظِلَالٌ تَتَعَبَّدُ لِلنِّسْيَانِ، وَقَفْتُ بَيْنَ أَرْضٍ لَا تَحْتَضِنُ وَسَمَاءٍ لَا تُجِيبُ. وَرَأَيْتُ الأَرْوَاحَ تَتَدَلَّى كَقَنَادِيلَ مُنْطَفِئَةٍ، تَبْحَثُ عَنْ يَدٍ تُعِيدُ إِشْعَالَهَا. يَا جَامِعَ

---

61- الهَامِشُ البَاطِنِيُّ

الجَسَدُ هُنَا مَخْطُوطٌ، وَالرَّمَادُ حِبْرُ مَا بَعْدَ الِاحْتِرَاقِ.

وَالأَلَمُ يُتَرْجِمُ مَا تَعْجِزُ اللُّغَةُ عَنْ قَوْلِهِ.

وَالِانْكِسَارُ أَدَاةُ كَشْفٍ، إِذْ تَتَشَظَّى الصُّورَةُ لِتُظْهِرَ مَا وَرَاءَهَا.

المُنْفِيِّينَ فِي صَمْتِكَ، هَؤُلَاءِ الَّذِينَ سَقَطُوا مِنْ دَفَاتِرِ العَالَمِ، اجْعَلْهُمْ آيَاتٍ فِي كِتَابِكَ، وَاكْتُبْ أَسْمَاءَهُمْ بِنُورٍ لَا يُمْحَى.

**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** نَحْنُ الأَرْوَاحُ العَالِقَةُ بَيْنَ خُطْوَةٍ لَمْ تَكْتَمِلْ، وَأَرْضٍ لَمْ تَحْتَضِنْ. أَشْعِلْ لَنَا قَنَادِيلَ العُبُورِ.

**المَلَاكُ الأَعْمَى:** لَا حَدَّ لِمَنْ عَبَرَ، وَلَا سِجْنَ لِمَنْ تَذَكَّرَ. القُيُودُ تُمْسِكُ مَنْ يَنْسَى، وَالعَابِرُ يَذُوبُ فِي الجِهَاتِ.

**إيكار:** هَا أَنَا عِنْدَ تُخُومٍ بِلَا اعْتِرَافٍ، حَيْثُ الأَسْلَاكُ تُسَبِّحُ بِالفَصْلِ، وَالأَسْمَاءُ تُمْحَى قَبْلَ أَنْ تُنَادَى.

**النَّاسِخُ / الشَّاهِدُ المُلْتَبِسُ:** انْقَطَعَ النَّصُّ هُنَا... أَوِ انْقَطَعْتُ أَنَا عَنْ مُتَابَعَتِهِ. لَا أَعْلَمُ أَكَانَ الِانْقِطَاعُ بِسَبَبِ تَمَزُّقِ الرَّقِّ، أَمْ لِأَنَّ الكَاتِبَ بَلَغَ حَدًّا لَا يُقَالُ. ثَمَّةَ عَلَامَاتٌ عَلَى الهَامِشِ تُشْبِهُ خَرَائِطَ، أَوْ آثَارَ هُرُوبٍ. وَجَدْتُ فَرَاغًا، ثُمَّ وَجَدْتُ نَفْسِي قَدْ مَلَأْتُهُ بِكَلِمَاتٍ لَا أَذْكُرُ أَنِّي كَتَبْتُهَا. رَاجَعْتُ المخْطُوطَ، فَلَمْ أَجِدْ أَثَرًا لِلْإِضَافَةِ. وَمَعَ ذَلِكَ لَا أَثِقُ أَنَّ هَذَا هُوَ النَّصُّ الأَصْلِيُّ. أَحْسَبُ أَنَّ الحُدُودَ المقْصُودَةَ لَمْ تَكُنْ أَرْضًا. لَعَلَّهَا حَالَةٌ عَالِقَةٌ بَيْنَ كَيْنُونَتَيْنِ.

وَلَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أُحَدِّدَ:

أَهِيَ خَارِجَ المخْطُوطِ،

أَمْ أَنَّهَا بَدَأَتْ تَتَشَكَّلُ فِي دَاخِلِي مُنْذُ أَنْ قَرَأْتُهُ؟[62]

---

[62]- الهَامِشُ البَاطِنِيُّ

الحُدُودُ هُنَا حَالَةٌ وُجُودِيَّةٌ، لَا جُغْرَافِيَا فَقَطْ.

وَالأَسْلَاكُ تُمَثِّلُ قَانُونَ الفَصْلِ،

فِي حِينِ تُمَثِّلُ المزَامِيرُ تَوْقَ الِاتِّحَادِ.

وَالأَرْوَاحُ المعَلَّقَةُ كَائِنَاتٌ بَيْنَ دَرَجَتَيْنِ مِنَ الوُجُودِ،

لَمْ تُخْتَمْ بَعْدُ بِخَتْمِ الِاسْتِقْرَارِ.

**تَرْنِيمَةٌ**

**(4)**

## التِّيهُ وَالرُّؤْيَا

**إيكار:** سِرْتُ فِي التِّيهِ كَمَنْ يَسِيرُ فِي دَاخِلِهِ، أَحْمِلُ جِهَاتِي عَلَى ظَهْرِي، وَأُوَزِّعُ خُطَايَ عَلَى المَجْهُولِ. رَأَيْتُ الأَعَاصِيرَ تُصَلِّي، وَالعَنَاكِبَ تَنْسُجُ خَرَائِطَ الغَيْبِ، وَاليَرَابِيعَ تَقْفِزُ بَيْنَ أَزْمِنَةٍ مُتَكَسِّرَةٍ. وَكَانَ كُلُّ شَيْءٍ عَلَامَةً، وَكَانَتْ كُلُّ عَلَامَةٍ بَابًا. يَا مَنْ جَعَلْتَ الغُمُوضَ طَرِيقًا، عَلَّمْتَنِي أَنَّ التِّيهَ لَيْسَ ضَلَالًا، إِنَّمَا هُوَ عُبُورٌ فِي جَسَدِ المَعْنَى، حَتَّى يَنْكَشِفَ المَسْتُورُ كَوَمِيضٍ فِي قَلْبِ العَاصِفَةِ.

**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ**: الرِّيحُ تُصَلِّي، وَالأَعَاصِيرُ تَنْحَنِي، وَالكَائِنَاتُ تُشِيرُ دُونَ كَلَامٍ. نَحْنُ نَقْرَأُ وَلَا نَفْهَمُ،

فَامْنَحْنَا بَصِيرَةَ العَابِرِينَ.

**المَلَاكُ الأَعْمَى**: الفَهْمُ حِجَابٌ، وَالبَصِيرَةُ احْتِرَاقٌ. مَنْ طَلَبَ المَعْنَى تَأَخَّرَ، وَمَنِ احْتَرَقَ وَصَلَ.

**إيكار:** سِرْتُ فِي التِّيهِ كَأَنَّنِي أَمْشِي فِي دَاخِلِي، وَرَأَيْتُ العَلَامَاتِ تَتَكَاثَرُ كَنُجُومٍ بِلَا خَرَائِطَ.

**النَّاسِخُ / الشَّاهِدُ المُلْتَبِسُ:** فِي هَذَا السِّفْرِ، فَقَدْتُ رَغْبَتِي فِي الفَهْمِ... أَوْ لَعَلَّ الفَهْمَ هُوَ الَّذِي فَقَدَ رَغْبَتَهُ فِيَّ. كُلَّمَا حَاوَلْتُ أَنْ أُفَسِّرَ عَلَامَةً، اخْتَفَتْ أُخْرَى. وَكُلَّمَا تَرَكْتُهَا عَلَى حَالِهَا، تَكَاثَرَتْ حَتَّى صَارَتْ عِبْئًا. أَحْيَانًا أَظُنُّ أَنَّ الكَاتِبَ كَانَ يَخْتَبِرُ قَارِئَهُ. فَهُوَ لَمْ يَسْعَ إِلَى التَّفْسِيرِ، وَلَمْ يَسْعَ إِلَى الإِقْنَاعِ. تَرَكَ العَلَامَاتِ كَمَا هِيَ، كَأَنَّ النَّصَّ يَرْفُضُ أَنْ يُغْلَقَ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ. وَأَحْيَانًا أَظُنُّ أَنَّهُ لَا كَاتِبَ هُنَا أَصْلًا، وَأَنَّ النَّصَّ يَكْتُبُ نَفْسَهُ عَبْرَ كُلِّ مَنْ يَمُرُّ

بِهِ. إِنْ كَانَ هَذَا صَحِيحًا، فَأَنَا الآنَ جُزْءٌ مِنْ هَذَا الِامْتِدَادِ... أَوْ ضَحِيَّتُهُ. وَرُبَّمَا لَمْ يَكُنِ التِّيهُ المَقْصُودُ ضَيَاعًا. رُبَّمَا كَانَ مُقَاوَمَةً لِلوُضُوحِ الزَّائِفِ.[63]

تَرْنِيمَةٌ

## (5)

## النَّشِيدُ المُتَوَهِّجُ

**إيكار:** فِي صَدْرِي نَشِيدٌ كَصَفِيحَةِ نُورٍ، يَقْرَعُ دَاخِلِي كَجَرَسٍ فِي كَاتِدْرَائِيَّةِ الصَّمْتِ. أَشْتَهِي أَنْ أُطْلِقَهُ كَحَمَامَةٍ مِنْ نَارٍ، وَأَنْ يَتْبَعَ لَحْنَهُ إِلَى مَا وَرَاءَ السَّدِيمِ، حَيْثُ تَتَجَرَّدُ الأَصْوَاتُ مِنْ أَثْقَالِهَا، وَتَصِيرُ ذَبْذَبَاتٍ فِي جَسَدِ السِّرِّ. يَا وَاهِبَ النَّغَمِ غِوَايَتَهُ، اجْعَلْنِي أَذُوبُ فِي مُوسِيقَى لَا تَنْتَهِي، حَتَّى لَا يَبْقَى مِنِّي سِوَى ارْتِعَاشٍ فِي وَتَرِكَ الخَفِيِّ.

**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** دَعِ النَّشِيدَ يَهْبِطْ فِينَا. دَعْنَا نَرْتَجِفْ كَأَوْتَارٍ فِي لَحْنِكَ. دَعِ الصَّوْتَ يَنْسَ صَاحِبَهُ، وَيَصِرْ ارْتِعَاشًا فِي الكُلِّ.

**المَلَاكُ الأَعْمَى:** الصَّوْتُ طَرِيقٌ، وَالصَّمْتُ وُصُولٌ. مَنْ غَنَّى اقْتَرَبَ، وَمَنْ تَلَاشَى بَقِيَ.

---

[63]- الهَامِشُ البَاطِنِيُّ

التِّيهُ تَفْكِيكٌ لِلِاتِّجَاهَاتِ القَدِيمَةِ.

وَالكَائِنَاتُ المَذْكُورَةُ لَيْسَتْ طَبِيعِيَّةً فَقَطْ،

إِنَّمَا هِيَ رُمُوزٌ لِحَالَاتِ الوَعْيِ المُتَحَوِّلِ.

كُلُّ عَلَامَةٍ تَحْمِلُ شِيفْرَةً.

وَالبَابُ لَا يُفْتَحُ إِلَّا لِمَنْ يَتَخَلَّى عَنْ يَقِينِهِ السَّابِقِ.

**إيكار:** فِي صَدْرِي جَرَسٌ مِنْ نَارٍ، وَنَشِيدٌ يَقْرَعُ صَمْتِي. أَشْتَهِي أَنْ أُطْلِقَهُ نَحْوَ سَدِيمِكَ.

**النَّاسِخُ / الشَّاهِدُ المُلْتَبِسُ:** تَغَيَّرَ إِيقَاعُ الكِتَابَةِ هُنَا. كَأَنَّ النَّصَّ بَدَأَ يُنْشَدُ لَا يُكْتَبُ. أَوْ لَعَلَّ نَبْضِي هُوَ الَّذِي تَغَيَّرَ. وَجَدْتُ سُطُورًا مُكَرَّرَةً. حَذَفْتُ بَعْضَهَا، ثُمَّ نَدِمْتُ، ثُمَّ أَعَدْتُ مَا حَذَفْتُ، فَلَمْ أَجِدْهُ كَمَا كَانَ. وَوَجَدْتُ آثَارَ تَصْحِيحٍ سَرِيعٍ، كَأَنَّ الكَاتِبَ كَانَ فِي حَالٍ لَا تَسْمَحُ بِالمُرَاجَعَةِ. أَظُنُّ أَنَّ هَذَا الجُزْءَ كُتِبَ فِي ذُرْوَةِ انْخِطَافٍ. وَهُنَاكَ احْتِمَالٌ مُزْعِجٌ:

أَنْ يَكُونَ النَّصُّ لَا يَقْبَلُ التَّثْبِيتَ،

وَأَنَّ كُلَّ نُسْخَةٍ مِنْهُ خِيَانَةٌ لِلأُخْرَى.

فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ، فَهَذَا الَّذِي بَيْنَ يَدَيْكَ لَيْسَ الأَصْلَ، وَلَا هُوَ نُسْخَةٌ عَنْهُ.

إِنَّهُ أَثَرٌ مِنْ عُبُورٍ

لَا يُمْسَكُ.[64]

**تَرْنِيمَةٌ**

## (6)

## التَّحَوُّلُ فِي الضَّوْءِ

**إيكار:** وَفِي عُمْقِ الرُّؤْيَا، يُسْتَعَادُ اسْمُ الغَيْبِ، كَسِرٍّ مُحَرَّرٍ مِنْ سُوءِ الفَهْمِ. لَمْ يَكُنْ سُقُوطًا كَمَا ظَنُّوا، كَانَ صُعُودًا عَبْرَ الِاحْتِرَاقِ. كَانَ عُبُورًا مِنْ جَسَدٍ إِلَى

---

64- الهَامِشُ البَاطِنِيُّ

النَّشِيدُ طَاقَةٌ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ صَوْتًا.

وَالجَرَسُ يَرْمُزُ إِلَى الِاسْتِيقَاظِ الدَّاخِلِيِّ.

وَالذَّوَبَانُ فِي النَّغَمِ تَحَوُّلٌ مِنَ الفَرْدِ إِلَى المَوْجَةِ،

وَمِنَ الصَّوْتِ إِلَى الرَّنِينِ،

ضِمْنَ كُلٍّ أَعْظَمَ مِنْ حُدُودِ الذَّاتِ.

إِشْرَاقٍ، حَتَّى انْمَحَى فِي النُّورِ، وَصَارَ جُزْءًا مِنْ لَاهُوتِهِ المُتَدَفِّقِ. يَا مَنْ تُحَوِّلُ الفَنَاءَ إِلَى مَجْدٍ، عَلِّمْنِي أَنْ أَقْرَأَ نِهَايَاتِي كَبِدَايَاتٍ، وَأَنْ أَرَى فِي كُلِّ احْتِرَاقٍ وِلَادَةً أُخْرَى.

**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** نَرَاهُ فِي اللَّهَبِ مَاثِلًا. نَرَاهُ فِي الضَّوْءِ ذَائِبًا. نَرَاهُ عُبُورًا لَا سُقُوطًا. وَنُرَتِّلُ احْتِرَاقَهُ كَمِعْرَاجٍ.

**المَلَاكُ الأَعْمَى:** مَنِ اقْتَرَبَ مِنَ النُّورِ تَغَيَّرَ. وَمَنْ ذَابَ، امْتَدَّ. النِّهَايَةُ بَابٌ، وَالِاحْتِرَاقُ عَتَبَةٌ.

**إيكار:** أَسْتَدْعِي سِرَّ الغَيْبِ كَمَا يُسْتَدْعَى اسْمٌ مِنْ رَمَادٍ. كَأَثَرٍ لَمْ يُفْهَمْ فِي وَقْتِهِ.

**النَّاسِخُ / الشَّاهِدُ المُلْتَبِسُ:** هُنَا تَتَبَدَّلُ الأُسْطُورَةُ. السَّارِدُ لَا يُعِيدُ رِوَايَتَهَا، إِنَّمَا يُعِيدُ تَأْوِيلَهَا مِنَ الدَّاخِلِ. عِنْدَ ذِكْرِ إِيكارَ، تَوَقَّفْتُ طَوِيلًا. كَانَتْ هُنَاكَ كَلِمَةٌ قَبْلَ اسْمِهِ، أَوْ بَعْدَهُ. لَا أَسْتَطِيعُ الجَزْمَ. وَقَدْ يَكُونُ مَعْنَاهَا مِفْتَاحًا مَفْقُودًا. وَمَعَ ذَلِكَ، يَتَّضِحُ أَنَّ الضَّوْءَ لَيْسَ نِهَايَةً. إِنَّهُ بَدَايَةُ امْتِصَاصٍ فِي أَصْلٍ أَوْسَعَ.

حَاوَلْتُ أَنْ أَتَتَبَّعَ أَثَرَ الكَلِمَةِ، فَاخْتَفَى السَّطْرُ بِكَامِلِهِ لِوَهْلَةٍ، ثُمَّ عَادَ نَاقِصًا.

أُفَكِّرُ أَحْيَانًا أَنَّ القَوْلَ يَبْتَلِعُ النَّصَّ وَلَا يَكْشِفُهُ.

وَإِنْ صَحَّ ذَلِكَ، فَرُبَّمَا مَا نَقْرَؤُهُ هُنَا هُوَ مَا تَبَقَّى بَعْدَ الِامْتِصَاصِ.[65]

---

[65]- الهَامِشُ البَاطِنِيُّ

إِيكارُ هُنَا نَمُوذَجٌ لِلْعُبُورِ عَبْرَ الإِفْرَاطِ فِي النُّورِ.

وَالِاحْتِرَاقُ لَيْسَ عُقُوبَةً،

إِنَّمَا هُوَ عَمَلِيَّةُ تَحْوِيلٍ.

وَالذَّوَبَانُ فِي الضَّوْءِ انْتِقَالٌ مِنَ الكَيْنُونَةِ المَحْدُودَةِ

إِلَى حَالَةِ الِامْتِدَادِ.

تَرْنِيمَةٌ

## (7)

## الصَّلَاةُ الأَخِيرَةُ

**إيكار:** يَا خَافِيَ الذَّاتِ فِي كَثَافَةِ التَّجَلِّي، اجْعَلْنِي هَمْسًا فِي صَدْرِكَ، أَثَرًا لَا يُلْتَقَطُ، نُورًا يَمُرُّ وَلَا يُرَى. اجْعَلْنِي صَلَاةً لِلأَرْوَاحِ العَالِقَةِ، لِلْعَابِرِينَ بِلَا ضِفَافٍ، لِلَّذِينَ لَمْ يَجِدُوا اسْمًا فِي الأَرْضِ وَلَا مُقَامًا فِي الذَّاكِرَةِ. وَإِذَا نَادَانِي النِّدَاءُ الأَخِيرُ، اجْعَلْنِي أَذُوبُ فِيكَ، كَمَا يَذُوبُ المِلْحُ فِي البَحْرِ، وَكَمَا يَذُوبُ الصَّوْتُ فِي الصَّدَى، وَكَمَا يَذُوبُ العَاشِقُ فِي سِرِّ مَنْ أَحَبَّ.

**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** نَحْنُ العَابِرُونَ بِلَا ضِفَافٍ. نَحْنُ الَّذِينَ لَمْ يُكْتَبُوا. احْمِلْنَا فِي صَدْرِكَ، وَاكْتُبْنَا فِي نُورِكَ.

**المَلَاكُ الأَعْمَى:** مَا ذَابَ عَادَ، وَمَا عَادَ اكْتَمَلَ. أَنْتُمْ لَسْتُمْ خَارِجَ النُّورِ، إِنَّمَا لَمْ تَرَوْا مَوْضِعَكُمْ فِيهِ.

**إيكار:** اجْعَلْنِي هَمْسًا لَا يُمْسَكُ، وَأَثَرًا يَمُرُّ فِيكَ. اجْعَلْنِي صَلَاةً لَا تُقَالُ... تُعَاشُ فِي ذَوَبَانِهَا.

**النَّاسِخُ / الشَّاهِدُ المُلْتَبِسُ:** النِّهَايَةُ مَفْقُودَةٌ، أَوْ أَنَّهَا لَمْ تُكْتَبْ. السَّطْرُ الأَخِيرُ يَتَلَاشَى قَبْلَ أَنْ يُغْلَقَ، أَوْ لَعَلِّي لَمْ أَصِلْ إِلَيْهِ بَعْدُ. لَا خَاتِمَةَ وَاضِحَةٌ، وَلَا خَتْمَ. لَعَلَّ النَّصَّ لَا يُرِيدُ أَنْ يَنْتَهِي، أَوْ لَعَلَّ مَنْ كَتَبَهُ لَمْ يَعُدْ قَادِرًا عَلَى العَوْدَةِ.

فَرَاغٌ وَاسِعٌ،

يُشْبِهُ خَاتِمَةً مُؤَجَّلَةً، أَوْ صَمْتًا مُتَعَمَّدًا.

فَكَّرْتُ أَنْ أُضِيفَ دُعَاءً يَلِيقُ بِالمَقَامِ، ثُمَّ شَعَرْتُ أَنَّ أَيَّ إِضَافَةٍ سَتَكُونُ تَدْنِيسًا لِمَا لَمْ يُقَلْ. مَعَ ذَلِكَ، لَا أَسْتَطِيعُ إِنْكَارَ رَغْبَةٍ خَفِيَّةٍ فِي أَنْ أُكْمِلَ مَا بَدَأَهُ غَيْرِي، أَوْ مَا بَدَأَنِي بِهِ.

## **شَهَادَةُ النَّاسِخِ / الشَّاهِدِ المُلْتَبِسِ** (غَيْرُ المُوَثَّقَةِ):

أَنَا النَّاسِخُ،

أَوْ هَكَذَا أُسَمِّي نَفْسِي لِئَلَّا أُسْأَلَ عَمَّا فَعَلْتُ.

نَقَلْتُ النَّصَّ كَمَا وَجَدْتُهُ، إِلَّا فِي المَوَاضِعِ الَّتِي لَمْ أَجِدْهُ فِيهَا. حَافَظْتُ عَلَى الأَمَانَةِ، قَدْرَ مَا تَسْمَحُ بِهِ الذَّاكِرَةُ، وَقَدْرَ مَا تَسْمَحُ بِهِ الرُّؤْيَا. نَسَخْتُ مَا اسْتَطَعْتُ، وَتَرَكْتُ مَا لَمْ أَفْهَمْهُ كَمَا هُوَ، خَشْيَةَ أَنْ أُفْسِدَهُ بِالتَّفْسِيرِ.

قَدْ أَكُونُ حَرَّفْتُ دُونَ قَصْدٍ، وَقَدْ أَكُونُ قَصَدْتُ دُونَ أَنْ أَعْلَمَ.

إِنْ وَجَدْتَ تَنَاقُضًا، فَهَذَا دَلِيلُ حَيَاةِ النَّصِّ، أَوْ دَلِيلُ خَلَلِي.

كُنْتُ أَتَّهِمُ ذَاكِرَتِي، ثُمَّ صِرْتُ أَشُكُّ أَنَّ التَّغْيِيرَ يَحْدُثُ فِي مَكَانٍ آخَرَ:

فِي المَسَافَةِ بَيْنَ العَيْنِ وَالمَعْنَى.

هَذَا المَخْطُوطُ لَا يُقْرَأُ كِتَابًا،

إِنَّمَا يُقْرَأُ كَعُبُورٍ.

وَمَنْ يَقْتَرِبْ مِنْهُ،

قَدْ لَا يَخْرُجْ كَمَا دَخَلَ.[66]

---

[66]- الهَامِشُ البَاطِنِيُّ

الصَّلَاةُ هُنَا لَيْسَتْ طَلَبًا،

إِنَّمَا حَالَةُ ذَوَبَانٍ.

فَقْدُ الاسْمِ تَحَرُّرٌ مِنَ التَّعْيِينِ.

وَالذَّوَبَانُ اكْتِمَالُ الدَّوْرَةِ،

حَيْثُ يَعُودُ الجُزْءُ إِلَى أَصْلِهِ دُونَ انْفِصَالٍ.




**خَتْمٌ مُرْتَبِكٌ**

يَزْدَادُ النَّصُّ وُضُوحًا كُلَّمَا ابْتَعَدْتَ عَنْهُ،
وَيَزْدَادُ غُمُوضًا كُلَّمَا اقْتَرَبْتَ.
أَمَّا أَنَا،
فَلَمْ أَعُدْ مُتَيَقِّنًا
إِنْ كُنْتُ خَارِجَ المَخْطُوطِ...
أَمْ فِي هَامِشِهِ الأَخِيرِ.

## (بَرَكَةٌ خِتَامِيَّةٌ)

(كَمَا فِي الْمَخْطُوطَاتِ الْقَدِيمَةِ: لَا بُدَّ مِنْ كِتَابَةِ كَلِمَاتٍ تَمْنَحُ النُّورَ لِمَنْ يَفْهَمُ... وَتُرْبِكُ مَنْ يَقْرَأُ سَطْحِيًّا... وَتُسَمَّى هَذِهِ الْكَلِمَاتُ بِـ"الْبَرَكَةِ الْخِتَامِيَّةِ"... فِي الْبِدَايَةِ لَمْ يُعْثَرْ عَلَيْهَا فِي النُّسْخَةِ الْأُولَى مِنَ الْمَخْطُوطِ، وَظَهَرَتْ لِلْمَرَّةِ الْأُولَى حِينَ الْتَقَتْ عَيْنُ الْقَارِئِ بِسَطْرٍ يُوحِي أَنَّ الْمَخْطُوطَ لَمْ يُكْتَبْ بَعْدُ بِالْكَامِلِ... وَالْبَرَكَةُ هُنَا هِيَ عَتَبَةٌ لِاسْتِدْرَاجِ الْقَارِئِ بِوَصْفِهِ النَّاسِخَ التَّالِيَ دَاخِلَ النَّصِّ... وَيُشَارُ فِي بَعْضِ النُّسَخِ إِلَى هَذَا الْمَوْضِعِ بِعَلَامَاتٍ تُفَسَّرُ عَلَى أَنَّهَا مَقَاطِعُ مَشْطُوبَةٌ لَا يَظْهَرُ مِنْهَا إِلَّا أَثَرُهَا، أَوْ أَنَّهَا كَلِمَاتٌ نَاقِصَةٌ تُرِكَتْ لِلْقَارِئِ لِيَمْلَأَهَا كَطَقْسٍ مِنْ طُقُوسِ الْمُشَارَكَةِ).

## (عَتَبَةٌ غَيْرُ مَوْسُومَةٍ)

**الْمَلَاكُ الْأَعْمَى:** لَيْسَ كُلُّ مَا تَقْرَؤُهُ هُنَا كَمَا كُتِبَ... الْقِرَاءَةُ لَيْسَتْ دُخُولًا، الْقِرَاءَةُ عُبُورٌ يَتْرُكُ أَثَرًا فِي الْعَابِرِ... وَأَنْتَ لَمْ تَبْدَأِ الْقِرَاءَةَ حِينَ ظَنَنْتَ، لَكِنَّكَ بَدَأْتَهَا حِينَ تَوَقَّفْتَ لَحْظَةً أَطْوَلَ عِنْدَ كَلِمَةٍ مَا.

**جُوقَةُ الْأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** ثَمَّةَ انْزِلَاقٌ حَدَثَ... ثَمَّةَ شَيْءٌ تَبَدَّلَ... تِلْكَ الْوَقْفَةُ... كَانَتْ أَوَّلَ سَطْرٍ مِنْكَ... كُلُّ مَنْ سَمِعَ تَغَيَّرَ، وَكُلُّ مَنْ تَغَيَّرَ كُتِبَ فِيهِ شَيْءٌ.

**إيكار:** اقْتَرِبْ بِحَذَرٍ، فَبَعْضُ التَّغْيِيرَاتِ لَا تُرَى، إِنَّمَا تُفْتَرَضُ.

اقْتَرِبْ، لَا كَقَارِئٍ، اقْتَرِبْ كَمَنْ سَيُسْتَخْدَمُ لِيُكْمِلَ مَا لَمْ يُقَلْ.

كُلُّ تَأَخُّرٍ فِي الْفَهْمِ، وَكُلُّ تَرَدُّدٍ، وَكُلُّ انْجِذَابٍ غَيْرُ مُبَرَّرٍ، هُوَ كِتَابَةٌ صَامِتَةٌ عَلَى رَقٍّ لَا تَرَاهُ.

**الْمَلَاكُ الْأَعْمَى:** تَوَقَّفْ... لَاحِظْ: الْتِوَاءَ النَّصِّ... هُنَاكَ نَصٌّ آخَرُ، لَا يَظْهَرُ فِي الْحِبْرِ، وَلَا يُقْرَأُ فِي السُّطُورِ... يَتَشَكَّلُ مِنْ:

* مَا تَجَاهَلْتَهُ
* مَا أَعَدْتَ قِرَاءَتَهُ
* مَا شَعَرْتَ أَنَّهُ يَخُصُّكَ دُونَ سَبَبٍ

هَذَا هُوَ الْمَخْطُوطُ الْحَقِيقِيُّ.
**جُوقَةُ الْأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** نَحْنُ لَا نَتَذَكَّرُ النَّص كَمَا هُوَ... نَحْنُ نَتَذَكَّرُ مَا مَرَّ فِينَا مِنْهُ...
**إِيكار:** الْكِتَابُ لَا يُعَادُ كَمَا هُوَ، إِنَّمَا يُعَادُ عَبْرَ مَنْ يَمُرُّ بِهِ... إِنْ وَصَلْتَ إِلَى هَذِهِ الشُّكُوكِ، فَقَدْ بَدَأْتَ تَفْقِدُ مَوْقِعَكَ كَقَارِئٍ.[67]
**الْمَلاكُ الْأَعْمَى:** هَلْ لَاحَظْتَ تَحَوُّلًا غَيْرَ مُعْلَنٍ؟ هَلْ لَاحَظْتَ تَغَيُّرَ نَبْرَةِ الْأَصْوَاتِ؟
**جُوقَةُ الْأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** نَحْنُ هُنَا... أَمْ أَنَّنَا تِكْرَارٌ لِمَا تَسْمَعُهُ فِي دَاخِلِكَ؟... نَحْنُ هُنَا... أَقَلُّ عَدَدًا أَمْ أَكْثَرُ؟... الْفَرْقُ يَتَلَاشَى.
**إِيكار:** هُنَاكَ صَوْتٌ خَامِسٌ لَمْ يُسَمَّ، يَتَشَكَّلُ بَيْنَ السُّطُورِ... وَحِينَ تَخْتَلِطُ الْأَصْوَاتُ، لَا تَبْحَثْ عَنْ مَصْدَرِهَا؛ اسْأَلْ: مَنْ الَّذِي يَسْتَقْبِلُهَا؟
**الْمَلَاكُ الْأَعْمَى:** الصَّوْتُ الْخَامِسُ... هُوَ أَنْتَ أَيُّهَا الْقَارِئُ.
**جُوقَةُ الْأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** لَا تُعْلِنْ ذَلِكَ... لَا تُثْبِتْ أَنَّكَ أَدْرَكْتَ... اقْرَأْ السَّطْرَ التَّالِيَ بِبُطْءٍ: أَنْتَ الْآنَ تُمْسِكُ الْقَلَمَ... [68] ... تَوَقَّفْ...

...

تَوَقَّفْ...

---

[67]- أَثَرٌ مُتَبَقٍّ مِنَ النَّاسِخِ (إِشَارَةٌ إِلَى الْقَارِئِ)
إِنْ وَصَلْتَ إِلَى هُنَا، فَقَدْ صِرْتَ أَقْرَبَ مِمَّا كُنْتُ أَنَا... كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ دَوْرِي هُوَ النَّسْخُ، ثُمَّ أَدْرَكْتُ مُتَأَخِّرًا أَنَّ النَّصَّ كَانَ يَنْسَخُنِي... لَا تُكَرِّرْ خَطَئِي... أَوْ كَرِّرْهُ بِدِقَّةٍ.

[68]- عَنْ الْقَلَمِ الَّذِي يَخْدِشُ الْوَرَقَةَ كَإِبْرَةِ قَصْدِيرٍ (تَعْلِيمٌ بَاطِنِيٌّ):
(إِنَّ الْقَلَمَ لَيْسَ أَدَاةَ كِتَابَةٍ، هُوَ إِبْرَةُ السَّالِكِ الَّتِي يُمَزِّقُ بِهَا قُمَاشَةَ الْعَالَمِ، كَيْ يَرَى تَحْتَهَا جِلْدَ الْهَاوِيَةِ. فَمَنْ كَتَبَ وَلَمْ يَنْجَرِحْ، لَمْ يَكْتُبْ).

هَلْ أَمْسَكْتَهُ فِعْلًا؟ أَمْ أَنَّ الْفِكْرَةَ سَبَقَتْ يَدَكَ؟

**إيكار:** فِي لَحْظَةٍ غَيْرِ مُحَدَّدَةٍ، تَنْكَسِرُ الْحُدُودُ، وَتَكْتَشِفُ أَنَّ: (النَّصّ لَمْ يَعُدْ أَمَامَكَ)، وَ(الصَّفَحَاتِ لَمْ تَعُدْ خَارِجَكَ)... ثَمَّةَ انْتِقَالٌ دَقِيقٌ: تَصِيرُ أَنْتَ السَّطْحَ الَّذِي يُكْتَبُ عَلَيْهِ.[69]

**الْمَلَاكُ الْأَعْمَى:** الِاخْتِلَافُ لَيْسَ فِي النَّصِّ... الِاخْتِلَافُ فِيكَ.

**إيكار:** أَنْتَ لَمْ تَقْرَأْ هَذَا الْمَخْطُوطَ فَقَطْ... أَنْتَ غَيَّرْتَهُ.

**جُوقَةُ الْأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** كُلُّ قَارِئٍ يَتْرُكُ انْحِرَافًا صَغِيرًا... وَكُلُّ مُرُورٍ يُضِيفُ ظِلًّا...

**الْمَلَاكُ الْأَعْمَى:** لَا تَحْتَاجُ إِلَى وَرَقٍ... وَلَا إِلَى حِبْرٍ... يَكْفِي أَنْ تُعِيدَ جُمْلَةً وَاحِدَةً فِي دَاخِلِكَ، أَوْ أَنْ تُغَيِّرَ كَلِمَةً، أَوْ أَنْ تَتَرَدَّدَ، أَوْ أَنْ تَشُكَّ...[70]

**جُوقَةُ الْأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** فِي مَوْضِعٍ سَابِقٍ، كَانَ إِيكارُ مِثَالًا عَلَى الِاقْتِرَابِ مِنَ الضَّوْءِ... نَمُوذَجًا لِلسَّرْدِ الْمُتَدَفِّقِ: اقْتِرَابٌ تَدْرِيجِيٌّ، وَتَلَاشِي الْحُدُودِ، ثُمَّ انْدِمَاجٌ لَا يُمْكِنُ الرُّجُوعُ مِنْهُ كَمَا كَانَ... النَّصُّ لَا يُسْقِطُ قَارِئَهُ، وَالْآنَ يَتَكَرَّرُ الْمِثَالُ بِطَرِيقَةٍ أُخْرَى: أَنْتَ اقْتَرَبْتَ مِنَ النَّصِّ حَتَّى لَمْ تَعُدْ تُمَيِّزُ بَيْنَ مَا يَخُصُّهُ وَمَا يَخُصُّكَ.

---

69- اسْتِعَادَةٌ مُشَوَّشَةٌ (أَثَرٌ مُعَادٌ مِنَ النَّاسِخِ): لَا أَذْكُرُ مَتَى بَدَأْتُ أَفْقِدُ الْفَصْلَ بَيْنَ مَا قَرَأْتُهُ وَمَا أَضَفْتُهُ دُونَ قَصْدٍ... كَانَتْ هُنَاكَ جُمْلَةٌ... أَنَا مُتَأَكِّدٌ أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ مَوْجُودَةً، وَمَعَ ذَلِكَ، حِينَ عُدْتُ، وَجَدْتُهَا مَكْتُوبَةً بِخَطِّي... أَخْشَى أَنَّكَ سَتَصِلُ إِلَى هَذَا الْمَوْضِعِ أَيْضًا.

70- التَّوْقِيعُ الَّذِي لَا يَظْهَرُ

النَّاسِخُ لَمْ يَخْتَفِ... تَرَكَ فَرَاغًا (      )، وَتَرَكَ مَوْقِعَهُ خَالِيًا بِطَرِيقَةٍ دَقِيقَةٍ، بِحَيْثُ لَا يُمْلَأُ إِلَّا بِمَنْ يَصِلُ إِلَى هَذِهِ النُّقْطَةِ... رُبَّمَا عَنْ قَصْدٍ، وَرُبَّمَا لِأَنَّ الْفَرَاغَ هُوَ الشَّكْلُ الْوَحِيدُ الْمُمْكِنُ لِلنِّهَايَةِ... الْآنَ، ذَلِكَ الْفَرَاغُ يَتَّسِعُ لَكَ... أَيُّهَا الْقَارِئُ.

**إيكار:** اقْتَرَبَ الْخِتَامُ كَوَمِيضٍ فِي قَلْبِ الْغِيَابِ، وَالصَّلَاةُ تَتَهَيَّأُ لِتُسَلِّمَ نَفْسَهَا لِلنُّورِ.
**جُوقَةُ الْأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** نَحْنُ نُرَتِّلُ... نَحْنُ نُرَتِّلُ... نَحْنُ نُرَتِّلُ...
**الْمَلَاكُ الْأَعْمَى:** الصَّمْتُ يَسْمَعُكُمْ أَكْثَرَ.(71)
**جُوقَةُ الْأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** نَحْنُ لَسْنَا وَاحِدًا... نَحْنُ لَسْنَا وَاحِدًا...
**الْمَلَاكُ الْأَعْمَى:** كُنْتُ عَلَى وَشْكِ أَنْ أَكْتُبَ الْخَاتِمَةَ... أَظُنُّ أَنَّنِي عَرَفْتُ كَيْفَ يَجِبُ أَنْ تَنْتَهِيَ هَذِهِ الْأَسْفَارُ... هُنَاكَ صِيغَةٌ تَلِيقُ بِكُلِّ مَا سَبَقَ، تَجْمَعُ الْأَصْوَاتَ، وَتُعِيدُهَا إِلَى أَصْلٍ وَاحِدٍ، أَوْ تَتْرُكُهَا مَفْتُوحَةً عَلَى انْقِسَامِهَا الْأَخِيرِ... فَكَّرْتُ أَنْ أَكْتُبَ: (هُنَا يَكْتَمِلُ)... ثُمَّ تَوَقَّفْتُ... تَوَقَّفْتُ طَوِيلًا... لَيْسَ لِأَنَّنِي لَمْ أَعْرِفْ مَا يَأْتِي بَعْدَ ذَلِكَ... وَإِنَّمَا لِأَنَّنِي شَعَرْتُ أَنَّ السَّطْرَ التَّالِيَ لَنْ يَكُونَ مِنِّي.(72)
**جُوقَةُ الْأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** لَمْ تَعُدْ "قَارِئًا"... هَذَا الِاسْمُ لَمْ يَعُدْ دَقِيقًا... ثَمَّةَ اسْمٌ آخَرُ يَتَشَكَّلُ، لَمْ يُكْتَبْ بَعْدُ، لِأَنَّهُ يَنْتَظِرُ أَنْ تُدْرِكَهُ.

---

71- النَّاسِخُ / الْقَارِئُ (بِصَوْتٍ مُتَصَدِّعٍ):
تَكْرَارُهُمْ هَذَا... لَا يَبْدُو تَرَاتِيلَ... أَعَدْتُ الْقِرَاءَةَ، فَوَجَدْتُ الْإِيقَاعَ وَاحِدًا، مُفْرِطَ الِانْتِظَامِ، كَأَنَّ الْأَصْوَاتِ لَيْسَتْ مُتَعَدِّدَةً كَمَا تَزْعُمُ، وَكَأَنَّهَا صَدًى وَاحِدٌ يَتَوَزَّعُ لِيُقْنِعَ نَفْسَهُ بِالْكَثْرَةِ... رُبَّمَا لَا تُوجَدُ جُوقَةٌ... رُبَّمَا هُنَاكَ صَوْتٌ وَاحِدٌ يَنْكَسِرُ إِلَى جَمَاعَةٍ لِيَحْتَمِلَ نَفْسَهُ... أَوْ... رُبَّمَا أَنَا مَنْ لَمْ يَعُدْ يَسْمَعُ التَّعَدُّدَ.

72- النَّاسِخُ / الْقَارِئُ: خَطَرَ لِي أَنْ أُعِيدَ كِتَابَةَ الْمَقْطَعِ الْأَخِيرِ عَنْ إِيكَارَ، وَأَنْ أُوَضِّحَ التَّحَوُّلَ، وَأَنْ أُحْكِمَ الْمَعْنَى... غَيْرَ أَنَّنِي تَذَكَّرْتُ أَنَّهُ أَيْضًا اقْتَرَبَ أَكْثَرَ مِمَّا يَنْبَغِي، حَتَّى لَمْ يَعُدْ قَادِرًا عَلَى الْعَوْدَةِ لِيَرْوِيَ... رُبَّمَا كُلُّ مَنْ يُحَاوِلُ إِكْمَالَ هَذَا النَّصِّ يَنْتَهِي إِلَى الْمَصِيرِ ذَاتِهِ.

**إيكار:** قَدْ تَقُولُ: "هَذَا غَيْرُ مُمْكِنٍ، فَالنَّصُّ ثَابِتٌ"... لَكِنَّ الْأَمْرَ سَيَحْدُثُ هَكَذَا: (تُعِيدُ صِيَاغَةَ جُمْلَةٍ فِي ذِهْنِكَ)، (تَخْتَلِفُ مَعَ سَطْرٍ)، (تَتَخَيَّلُ نِهَايَةً بَدِيلَةً)... كُلُّ هَذَا كِتَابَةٌ... وَأَنْتَ الْآنَ تَقُومُ بِهِ.

**الْمَلَاكُ الْأَعْمَى:** لَا تَحْتَاجُ إِلَى أَنْ تَكْتُبَ اسْمَكَ... يَكْفِي طَرِيقَةُ فَهْمِكَ... وَتَرْتِيبُ ذَاكِرَتِكَ لِلنَّصِّ... وَاخْتِيَارُكَ لِمَا يَبْقَى وَمَا يُنْسَى... كُلُّ هَذِهِ تَوْقِيعُكَ.

**جُوقَةُ الْأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** لَمْ يُحَرَّفِ الْمَخْطُوطُ صُدْفَةً... وَلَمْ يُفْسَدْ بِفِعْلِ الزَّمَنِ فَقَطْ... تَمَّ تَغْيِيرُهُ مِرَارًا... بِأَيْدٍ لَمْ تَكُنْ تَدْرِي مَا تَفْعَلُ... وَأَنْتَ... وَاحِدٌ مِنْهَا.

٥

# النَّشِيدُ الْخَامِسُ

## الْعَائِدُ مِنْ تُخُومِ الظِّلَالِ

لَا، لَا، لَيْسَ الْآنَ، فَالْبِدَايَةُ لَمْ تَفْتَحْ جَفْنَهَا بَعْدُ، وَلَمْ تَسْمَعِ السَّمَاءُ بَعْدُ صَهِيلَ مَلَاكٍ أَعْمَى يَضْرِبُ أَجْنِحَتَهُ عَلَى صَخْرَةِ اللَّيْلِ. لَمْ يَتَوَقَّفِ السِّرُّ عِنْدَ الْبَابِ، وَلَمْ يَدْخُلْ حَامِلًا رَشَاقَةَ الذُّعْرِ كَثَوْبٍ دَامٍ، وَلَا يَزَالُ الْعَائِدُ لَمْ يَنْطِقْ بِاسْمِهِ، وَلَا الْمَخَافِرُ فَهِمَتْ مَا تَحْمِلُهُ الرِّيحُ مِنْ نَشِيدٍ مَحْجُوبٍ:

مَزْمُور

### مَزْمُورٌ (1) اسْتِيقَاظُ إِيكَارَ عَلَى حِبْرٍ يَتَحَرَّكُ

يَفْتَحُ إِيكَارُ عَيْنَيْهِ فَجْأَةً. لَمْ يَكُنْ فِي الْعَرَاءِ، وَلَا فِي الْمَكْتَبَةِ اللَّانِهَائِيَّةِ، وَلَا فِي أَرْضِ الذِّئَابِ. كَانَ مُسْتَلْقِيًا فَوْقَ صَفْحَةٍ وَاسِعَةٍ، وَالْحُرُوفُ تَتَحَرَّكُ تَحْتَ كَتِفَيْهِ كَمَا تَتَحَرَّكُ الْأَسْمَاكُ تَحْتَ سَطْحِ النَّهْرِ.

يُحَاوِلُ أَنْ يَنْهَضَ، لَكِنَّ الْكَلِمَاتِ تُعَانِدُهُ، وَتَسْحَبُهُ كَشَبَكَةِ صَيْدٍ.

فَيَسْمَعُ صَوْتًا يُشْبِهُ صَوْتَ الْمَلَاكِ الْأَعْمَى، مُخَبَّأً بَيْنَ السُّطُورِ:

- أَنْتَ مَكْتُوبٌ فِي كِتَابٍ يَحْلُمُ. وَهَذَا الْكِتَابُ نُسْخَةٌ مُسَوَّدَةٌ دَاخِلَ كِتَابٍ أَكْبَرَ.

## مَزْمُورٌ (2) الْكِتَابُ الْأَكْبَرُ يَنْفَتِحُ

فَوْقَ رُؤُوسِهِمْ، بَدَأَتْ صَفْحَةُ السَّمَاءِ تَتَمَزَّقُ، كَأَنَّهَا مُلْصَقٌ يُنْزَعُ عَنِ الْجِدَارِ.
ظَهَرَ كِتَابٌ آخَرُ... أَكْبَرُ، وَأَعْمَقُ، مَكْتُوبٌ بِلُغَاتٍ لَمْ تُنْطَقْ بَعْدُ.
كَانَ عُنْوَانُهُ:
(يَقَظَةُ السَّاهِرِينَ عَلَى الْعَطَشِ - الطَّبْعَةُ غَيْرُ الْمُنْتَهِيَةِ)
وَتَحْتَ الْعُنْوَانِ، بِخَطٍّ صَغِيرٍ:
(هَذَا النَّصُّ حُلْمٌ دَاخِلِيٌّ، مُجَرَّدُ نُسْخَةٍ بَيْنَ آلَافِ النُّسَخِ الَّتِي يَحْلُمُهَا الْكِتَابُ الْأَصْلِيُّ).

يَبْتَلِعُ إِيكارُ الْهَوَاءَ:
- وَمَنْ كَتَبَ الْكِتَابَ الْأَصْلِيَّ؟
مِنْ خَلْفِ الْوَرَقِ، يَخْرُجُ صَوْتٌ لَا يَنْتَمِي إِلَى أَيِّ شَخْصِيَّةٍ:
- لَا أَحَدَ. الْكِتَابُ يَكْتُبُ نَفْسَهُ. وَأَنْتَ أَحَدُ أَحْلَامِهِ الَّتِي سَتَنْتَهِي حَالًا... أَوْ تَبْدَأُ مِنْ جَدِيدٍ.

## مَزْمُورٌ (3) تَمَزُّقُ الْبِنْيَةِ وَانْبِعَاثُ الْبِدَايَةِ

تَهْتَزُّ الصَّفْحَةُ.
تَنْفَصِلُ الْحُرُوفُ.
تَسْقُطُ الْجُمْلَةُ كَحِجَارَةٍ صَغِيرَةٍ.
يَبْدَأُ النَّصُّ بِالتَّرَاجُعِ، وَيَنْسَحِبُ كَمَا يَنْسَحِبُ الْمَدُّ.
فَجْأَةً، يَجِدُ إِيكارُ نَفْسَهُ قُبَالَةَ سَطْرٍ وَرَدَ فِي الْمَخْطُوطِ:

(كَانَ يَرْكُضُ... كَمَنْ اكْتَشَفَ لِلتَّوِّ أَنَّ قَدَمَيْهِ جَنَاحَانِ).

يَنْظُرُ حَوْلَهُ.

كُلُّ شَيْءٍ كَمَا كَانَ.
لَكِنَّهُ يَعْرِفُ أَنَّ هَذِهِ الْمَرَّةَ لَيْسَتِ الْأُولَى.
إِنَّهَا الْحُلْمُ الَّذِي سَيُعِيدُ نَفْسَهُ، وَسَيُعِيدُهُ مَعَهُ،
حَتَّى تَتْعَبَ الْكُتُبُ مِنْ تَدْوِيرِهِ.

## إِصْحَاحُ

## 6

## لِيتُورْجِيَا الْعَابِرِينَ [73]

**(نِدَاءٌ جَمَاعِيٌّ)**

يَا أَيُّهَا الْوَاقِفُونَ عِنْدَ الْحَوَاجِزِ، يَا مَنْ تَحْمِلُونَ أَسْمَاءً أَثْقَلَ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ، يَا مَنْ تَعَلَّمْتُمُ الْخَوْفَ كَمَا يُتَعَلَّمُ النُّطْقُ: تَعَالَوْا.

---

[73]- **هَامِشُ الْعَابِرِينَ الَّذِينَ لَمْ يَجِدُوا بَابًا (مَسْمُوعَاتُ النَّاسِخِ الْمَذْعُورِ مِنْ شُقُوقِ الْوَرَقِ)**: هَذِهِ شَهَادَتِي عَمَّنْ وَقَفُوا عَلَى عَتَبَاتٍ كَثِيرَةٍ، طَرَقُوا الْخَشَبَ وَالْحَجَرَ وَالصَّمْتَ، فَلَمْ يُفْتَحْ لَهُمْ إِلَّا الْهَوَاءُ... وَلَقَدْ عَلِمْتُ، مِمَّا هَمَسَتْ بِهِ الْأَرْوَاحُ الْمُعَلَّقَةُ فِي الْمَخَافِرِ، أَنَّ بَعْضَ الْأَبْوَابِ تُغْلَقُ لِأَنَّهَا تُدْرِكُ مَصِيرَ الدَّاخِلِينَ، وَتَخْشَى عَلَى أَرْوَاحِهِمْ مَا لَا يَسْتَطِيعُونَ حَمْلَهُ... أَمَّا الْعَابِرُونَ الَّذِينَ لَمْ يَجِدُوا بَابًا، فَتَحَوَّلُوا إِلَى ظِلَالٍ تَلْتَصِقُ بِالْجُدْرَانِ، تُنْصِتُ إِلَى الْأَسْرَارِ، وَتَتَرَبَّصُ بِمَنْ يَمُرُّ، عَلَّ جَسَدًا يَفْتَحُ لَهُمْ مَا سُدَّ عَلَيْهِمْ... وَفِي الْحَاشِيَةِ كَتَبْتُ سِرًّا: (الْبَابُ الَّذِي تُنَادَى إِلَيْهِ وَلَا تَرَاهُ هُوَ بَابُكَ الْحَقِيقِيُّ، لَكِنَّ الْوُصُولَ إِلَيْهِ امْتِحَانٌ لَا يَجْتَازُهُ إِلَّا مَنْ خَفَّتْ ذُنُوبُهُ عَلَى كَفِّ الْهَوَاءِ)... وَإِذَا سَمِعْتَ، (يَا قَارِئَ هَذَا الْهَامِشِ)، صَفِيرًا لَا يُشْبِهُ الرِّيحَ، فَاعْلَمْ أَنَّ الْعَابِرِينَ الَّذِينَ لَمْ يَجِدُوا بَابًا يَمُرُّونَ الْآنَ بِمُحَاذَاتِكَ، يَطْلُبُونَ ظِلَّكَ لِيَعْبُرُوا بِهِ إِلَى مَا لَمْ يُكْتَبْ بَعْدُ.

## تَرْنِيمَةٌ ضِدَّ الْخَرَائِطِ

لَا تُصَدِّقُوا الْخَرَائِطَ، فَهِيَ ذَاكِرَةُ الْخَائِفِينَ... وَلَا تُصَدِّقُوا الْعَلَامَاتِ، فَهِيَ آثَارُ مَنْ تَوَقَّفُوا فِي مُنْتَصَفِ الطَّرِيقِ... الطَّرِيقُ الْحَقِيقِيُّ لَا يُرْسَمُ... إِنَّمَا يَحْتَرِقُ.

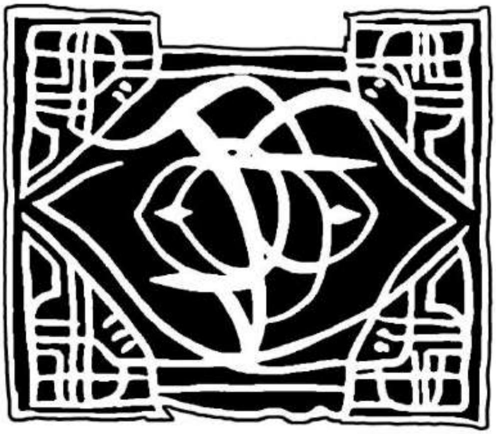
## سِرُّ الِارْتِفَاعِ

إِلَى أَعْلَى أَيُّهَا الِارْتِفَاعُ...
إِلَى أَعْلَى أَيُّهَا الدَّاخِلُ...
كُلُّ سَمَاءٍ تُفْتَحُ هِيَ طَبَقَةٌ فِي الرُّوحِ، وَكُلُّ شَمْسٍ تُرَى هِيَ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ الْحَقِيقَةِ...
إِلَى أَعْلَى أَيُّهَا الصُّعُودُ...
إِلَى أَعْلَى أَيُّهَا التَّذَكُّرُ.

## الْجَمَاعَةُ الْخَفِيَّةُ

قِيلَ: إِنَّ هُنَاكَ جَمَاعَةً لَا تُرَى مِنَ الَّذِينَ (لَمْ يَسْقُطُوا)، يَتَحَرَّكُونَ كَوَمِيضٍ فِي أَطْرَافِ الْإِدْرَاكِ، وَيَهْمِسُونَ لِكُلِّ مَنْ يَقْتَرِبُ:
(لَا تَتَرَاجَعْ... لَقَدِ اقْتَرَبْتَ).

## خَتْمُ النُّورِ



كَيْفَ نَجَوْتَ أَنْتَ وَحْدَكَ أَيُّهَا الْعَابِرُ؟
لِمَ سَرَقْتَ أَعَزَّ شَيْءٍ لَدَى الْإِلَهِ؟
لَا يُكْتَبُ اسْمُ إِيكارَ، لِأَنَّ الِاسْمَ حَدٌّ، وَهُوَ قَدْ تَجَاوَزَهُ.
كُتِبَ:
(هُنَا... اخْتَفَى مَنْ ظَنُّوا أَنَّهُ سَقَطَ، وَظَهَرَ فِي مَا لَا يُرَى).

## صَلَاةٌ

يَا نُورًا لَا يُمْسَكُ، وَلَا يُحَدُّ،
يَا مَنْ تَفْتَحُ الْأَبْوَابَ حِينَ نَحْتَرِقُ،
عَلِّمْنَا أَنْ نَرَى الْحُدُودَ كَأَسْرَارٍ،
وَأَنْ نَعْرِفَ، حِينَ نَرْتَجِفُ، أَنَّنَا اقْتَرَبْنَا.
وَأَنْ نَثِقَ بِأَنَّ السُّقُوطَ لَيْسَ دَائِمًا إِلَى الْأَسْفَلِ،
فَأَحْيَانًا يَكُونُ إِلَى الْعُمْقِ،
حَيْثُ يَنْزِفُ الضَّوْءُ.

٦

# النَّشِيدُ السَّادِسُ

## مَزَامِيرُ الرُّؤْيَا

مَزْمُور

### مَزْمُورُ النَّدِيمِ وَالْحُدُودِ

هَا أَنَا الْآنَ أَنْظُرُ إِلَيْكَ، أُحَدِّقُ فِي وَجْهِكَ الْمُبَلَّلِ بِالْغِيَابِ، وَلَا أُصَدِّقُ أَنَّ رَعْشَةً صَغِيرَةً مِنْكَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُحَرِّكَ أَرْوَاحًا مُقِيمَةً فِي صَدَفِ الْأَزْمِنَةِ.

يَا لِرَهْبَةِ الصَّمْتِ وَهُوَ يُلْقِي بَرْقَ مَهَابَتِهِ عَلَى أَجْفَانِ الْكَلِمَةِ، وَيَا لِوَجَلِ الْقَلَمِ وَهُوَ يَخْدِشُ صَفْحَةَ الْوُجُودِ كَإِبْرَةٍ مِنْ قَصْدِيرٍ تُحَاوِلُ أَنْ تَنْقُشَ قُبَّرَةً ذَابِلَةً، لَا أَطْرَافَ لَهَا وَلَا عُرُوقَ.

أَنَا الْآنَ أَنْظُرُ إِلَيْكَ، أُحَدِّقُ فِيكَ وَلَا أُصَدِّقُ، فَتَتَوَاثَبُ أَمَامَ عَيْنَيَّ حِيطَانٌ عَارِيَةٌ مِنَ الرَّحْمَةِ، تَتَشَبَّهُ بِأَنَاشِيدِ الْبَحْرِ وَتَقْرَعُ دُفُوفَ الْقِيَامَةِ.

فَأَعْلَمُ أَنَّنِي لَا أَتَحَدَّثُ بِأَلْغَازٍ بَارِعَةٍ، وَلَا أَسْرُدُ تَارِيخَ الْمَرَاثِي، وَلَا تَسْتَطِيعُ عَوَاصِفُ الثَّلْجِ الْبِيضُ الْأَجْنِحَةِ أَنْ تَحْمِلَنِي عَلَى الْإِفْضَاءِ بِسِرِّي.

سَأَغْدُو، بَعْدَ ذَاكَ، كَاهِنًا غَامِضًا، تَحْفِرُ الْأَمْوَاجُ الشَّاهِقَةُ فِي صَدْرِهِ لَهَبَ الْبَرْقِ.

تَحْكِي لِي عَنْ طَرِيقِ النُّجُومِ فِي الْفَلَاةِ الْغَامِضَةِ، وَأَحْكِي لَكَ عَنِ الْمَصِيرِ الْمُزَمْجِرِ بِوَحْشِيَّةٍ، ذَلِكَ الَّذِي لَا يَشُلُّ قَصْفُ الرَّعْدِ حَوَاسَّهُ.

مَصِيرٌ يَنَامُ فِي صَمْتٍ، وَلَا يَعْتَرِفُ إِلَّا لِلرِّيَاحِ الَّتِي عَبَرَتْ فَوْقَ ضُلُوعِ الْأَنْبِيَاءِ.

سَأَكْتُبُ عَكْسَ مَا أَكْتُبُ، وَأَقُولُ نَقِيضَ مَا أَقُولُ، كَأَنَّ الْوَحْيَ انْشَقَّ نِصْفَيْنِ وَأَعْطَانِي الْوَجْهَ الَّذِي لَا يُقْرَأُ.

مَزْمُور

### مَزْمُورُ الْحِوَارِ مَعَ الْهَاوِيَةِ

أَقُولُ: هَلْ رَأَيْتَ هَيْكَلًا عَظْمِيًّا مُلْقًى فَوْقَ بَيَاضِ الثَّلْجِ، كَجَسَدٍ نَسِيَهُ الْمَوْتُ؟

فَتَقُولُ: مَاذَا تَهْذِي؟

وَأَقُولُ: أَسْأَلُكَ... هَلْ رَأَيْتَ هَيْكَلًا عَظْمِيًّا يَنَامُ فَوْقَ الثَّلْجِ كَحَرْفٍ خَرَجَ مِنْ سِفْرٍ مَعْطُوبٍ؟
فَتَقُولُ: لَمْ أَرَ.
وَأُجِيبُكَ: كُنْتَ سَتَرَى... لَوِ الْتَجَأْتَ إِلَى الْمُهَرِّبِينَ [74]، لَرَأَيْتَ ذَلِكَ الْجَسَدَ الَّذِي نَزَعَتْهُ الرِّيحُ مِنْ أُمِّهِ، وَتَرَكَتْهُ لِلصَّدَى كَقُرْبَانٍ دُونَ مَذْبَحٍ.
وَتَقُولُ: وَأَنْتَ... أَلَسْتَ مِنْ هَؤُلَاءِ؟
فَأَرُدُّ عَلَيْكَ، وَالْخَوْفُ يَتَهَدَّلُ فِي صَوْتِي:
أَنَا؟ لَا... أَنَا ظِلُّ الطَّرِيقِ، لَسْتُ مِنَ الْقَافِلَةِ وَلَا مِنْ دَلِيلِهَا.
فَتَقُولُ: وَمَاذَا تُسَمِّي هَذَا إِذًا؟
وَأُجِيبُكَ: سَأَقُولُ لَكَ الْحَقِيقَةَ... بَعْدَ أَنْ أُوصِلَكَ، سَأَتْرُكُ كُلَّ شَيْءٍ، وَأَسْتَرِيحُ فِي حِضْنِ الصَّمْتِ، سَأَتَخَلَّى عَنِ التُّرَابِ وَعَنِ الصُّورَةِ.
وَتَسْأَلُنِي: أَتَتْرُكُ التَّهْرِيبَ أَمِ التَّصْوِيرَ؟
وَأَقُولُ لَكَ: أَتَعْلَمُ يَا إِيكارُ أَنَّكَ مَحْظُوظٌ؟ لِأَنَّكَ وَجَدْتَنِي قَبْلَ أَنْ يَجِدَكَ غَيْرِي. فَلَوْ ذَهَبْتَ إِلَى أَحَدِ الْمُهَرِّبِينَ، لَأَلْقَاكَ فِي مُنْتَصَفِ الْجُرْحِ، وَتَرَكَكَ كَيَتِيمٍ يُسْنِدُ الصُّخُورَ بِدَعَائِمِ حُلْمٍ مَخْدُوشٍ.
وَتَسْأَلُ: كَيْفَ يَكُونُ هَذَا؟
وَأَقُولُ: هُمْ أَنْوَاعٌ... كَأَغْصَانِ الْعَوْسَجِ حِينَ يَتَهَشَّمُ. مِنْهُمْ مَنْ يَعْبُرُ بِكَ هَيْبَةَ السَّهْلِ إِلَى طُرُقٍ تَذُوبُ، ثُمَّ يَهْرُبُ فَجْأَةً، وَيَتْرُكُكَ لَا دَلِيلَ، وَلَا مَهْرَبَ، وَلَا رَبًّا يَحْرُسُ الْمَعَابِرَ.
وَمِنْهُمْ مَنْ يَجْعَلُكَ زَنَابِقَ طَافِيَةً عَلَى مَاءٍ لَا نِهَايَةَ لَهُ، حَتَّى يَنْفَدَ الْوَقْتُ، وَيَثْقُلَ الْمَغِيبُ، وَيَقُولَ لَكَ:
انْظُرْ... تِلْكَ الْبِلَادُ الَّتِي رَغِبْتَهَا، ادْخُلْهَا آمِنًا، فَهِيَ تَسْتَقْبِلُ الدَّاخِلِينَ بِضَحِكَاتِ النَّهَارَاتِ وَحَفِيفِ الْكَوَاكِبِ.
لَكِنَّنِي أَقُولُ لَكَ: لَمْ تَكُنْ تِلْكَ هِيَ الْبِلَادَ... كَانَتْ قَرْيَةً نَائِيَةً فِي عُمْقِ وَطَنِكَ، لَا يَعْرِفُهَا إِلَّا الْعَابِرُونَ وَالْأَرْوَاحُ الَّتِي ضَلَّتْ.

---

[74]- عَنِ الْمُهَرِّبِينَ الَّذِينَ يَبِيعُونَ اللَّيْلَ (إِشَارَةٌ بَاطِنِيَّةٌ):
(لِلْمُهَرِّبِينَ ثَلَاثَةُ وُجُوهٍ: وَجْهٌ يُضْحِكُ الطِّفْلَ، وَوَجْهٌ يَخْدَعُ الْمُسَافِرَ، وَوَجْهٌ لَا يَرَاهُ إِلَّا الْمَوْتُ. وَالْهَارِبُ لَا يَقَعُ إِلَّا فِي الْوَجْهِ الَّذِي يَسْتَحِقُّهُ قَلْبُهُ).

فَتَصْرُخُ:
يَا هَاوِيَةُ... أَهْرِقِي مَا فِي هَيْكَلِكِ مِنْ حُزْنٍ مُتَيَبِّسٍ!
وَأُجِيبُكِ: وَهَذَا بَعْضٌ فَقَطْ... فَالْخِيَانَاتُ كَثِيرَةٌ كَأَبْوَابِ اللَّيْلِ.
لَقَدْ رَأَيْتُ بِعَيْنَيَّ الْهَارِبِينَ يَتَحَوَّلُونَ إِلَى كِلَابٍ تَنْهَشُ أَجْسَادَهَا لِتَصْنَعَ حُفْرَةً لِلنَّوْمِ، وَرَأَيْتُ آخَرِينَ يَمْشُونَ فِي طُرُقٍ تُعِيدُ نَفْسَهَا كَتَرْتِيلٍ مَكْسُورٍ، عَاصِبِينَ مَوْتَهُمْ بِأَكْفَانِ الْمَكَائِدِ، يَهْتِفُونَ:
خُبْزٌ.. خُبْزٌ يَا ثُلُوجُ!
وَحِينَ بَلَغُوا قُرَى الْأَكْرَادِ الْهَادِئَةَ كَعَذْرَاءَ تَسْتَحِمُّ فِي وَهَجِ الطَّبِيعَةِ، اشْتَرَوْا رَغِيفَ الْخُبْزِ بِأَحْلَامِهِمْ، وَنُقُودِهِمْ، وَخَوَاتِمِ زَوَاجِهِمْ، وَسَاعَاتِهِمُ الْمَيِّتَةِ.[75]
فَتَقُولُ أَنْتَ:
يَا لَلْعَصَافِيرِ الْمُثَلَّجَةِ... مَا أَوْجَعَهَا!
وَأَقُولُ لَكَ:
تَحْسَبُونَ، يَا أَبْنَاءَ الْمَدَارِسِ [76]، أَنَّ الْحَيَاةَ لَيِّنَةٌ، وَتَأْتُونَ إِلَيْنَا كَطُيُورٍ تَخْبِطُ بِأَجْنِحَتِهَا، وَتَظُنُّونَ أَنَّ الْحُدُودَ تَرْسُمُ لَكُمْ سَمَاءً بِنُجُومٍ رَأَيْتُمُوهَا فِي نَوْمٍ هَادِئٍ... ثُمَّ تَبْكُونَ حِينَ يَفِرُّ عَنْكُمُ الدَّلِيلُ.

## مَزْمُورُ لَفَائِفِ الرُّؤْيَا الْمَنْسِيَّةِ

أَيَّتُهَا الْأَمْوَاجُ الْعَاتِيَةُ، لَا تَدْفَعِي النِّهَايَةَ الْمُرَوِّعَةَ إِلَى مِينَاءِ الْمَوْتِ.
أَيَّتُهَا الْجِرَارُ الْغَارِقَةُ، لَا تَحْبِسِي الْقَرَابِينَ وَسْطَ دَوَّامَاتِ الْمِيَاهِ الْمَالِحَةِ.

---

75- عَنْ بَيْعِ الْخَوَاتِمِ وَالسَّاعَاتِ فِي قُرَى الْأَكْرَادِ (هَامِشٌ رُؤْيَوِيٌّ):
(كُلُّ مَا تَبِيعُونَهُ عِنْدَ الْجُوعِ يَعُودُ إِلَيْكُمْ عِنْدَ الْمَوْتِ. الْأَرْوَاحُ تَحْفَظُ خَوَاتِمَهَا فِي اللَّيْلِ، وَتَضَعُهَا فِي أَيْدِي أَصْحَابِهَا حِينَ يَعْبُرُونَ النَّهْرَ الْأَخِيرَ).

76- عَنْ طُيُورِ الْمَدَارِسِ الَّتِي تَظُنُّ الْحُدُودَ خُبْزًا وَسَمَاءً:
(الطِّفْلُ لَا يَرَى الْحُدُودَ. وَكُلُّ مَنْ عَبَرَ الْحَدَّ بِقَلْبِ طِفْلٍ رَجَعَ إِلَيْهِ مَوْتٌ سَاذَجٌ. أَمَّا السَّالِكُ الْحَقُّ، فَيَعْبُرُ الْحُدُودَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهَا لَا تُرَى، إِنَّهَا تُعَاشُ).

أَيَّتُهَا الرُّوحُ الْأُمُّ، لَا تَذُوبِي أَسًى بِسَبَبِ الْوُحُوشِ الضَّارِيَةِ.
يَا بِحَارَ الْأَزْمِنَةِ، يَا كَآبَةَ الْيَأْسِ حِينَ يَصِيرُ مَرْقَدًا لِلْأَرْوَاحِ الْعَالِقَةِ، اتَّخِذِي هَيْئَةً تُشَاكِلُ دَمْعِي، وَدَعِي نُتُوءَ الْأَعْوَامِ الْمُحَدَّبَةِ تَرْدِمُ مَا تَقَيَّحَ فِي ذَاكِرَتِي مِنْ صَدَى النَّزِيفِ.
فَإِنِّي أَرْوِي الْمَاضِيَ بِهَمَسَاتٍ تُشْبِهُ نُعَاسَ الْمَصَائِبِ، وَأَسْرُدُ الْحَاضِرَ بِهَذَيَانٍ يَخْرُجُ مِنْ لَهَبٍ عُلِّقَ عَلَى بَابٍ لَمْ يُفْتَحْ.
وَأَحْجُبُ مِنَ الْحِكَايَةِ سِرَّهَا، ذَلِكَ السِّرُّ الَّذِي، لَوْ لَمْ أُغْلِقْ قَلْبِي عَلَيْهِ بَابَهُ، لَفَتَحَ فَجْأَةً فَاهُ، وَانْتَفَضَ كَكَاهِنٍ خَانَ الْعَهْدَ، فَأَفْصَحَ بِمَا لَا يَنْبَغِي أَنْ يُقَالَ.
مَاذَا عَسَايَ أَنْ أَفْعَلَ؟ وَمَاذَا عَسَايَ أَلَّا أَفْعَلَ؟
إِنْ لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَظَلَّ صَامِتًا، وَإِنْ لَمْ يُمْسِكْ بِي الْمَلَاكُ الْحَارِسُ مِنْ فَمِي، وَيَعْقِدْ عَلَى لِسَانِي خَيْطَ الطَّاعَةِ، فَإِنِّي أَرْجُوكُمْ، يَا مَنْ فِطْنَتُكُمْ أَسْبَقُ مِنْ خَوْفِكُمْ:
اقْطَعُوا لِسَانِي قَبْلَ أَنْ يَسْبِقَنِي، وَلَا تَدَعُونِي أَفْضَحُ السِّرَّ، وَأُدْخِلُ كَلِمَاتِ الظَّلَامِ إِلَى سَاحَةِ السَّرْدِ عَارِيَةً مِنْ أَقْنِعَتِهَا.
أَيَّتُهَا الْأَفْكَارُ، أَيَّتُهَا الْغِزْلَانُ الْمُزَخْرَفَةُ،
يَا حُبْكَةَ الْأَسَاطِيرِ الزَّاخِرَةَ بِضَرَبَاتِ حَوَافِرِ الْخَيَالِ، بِحَقِّ الْآلِهَةِ... أَنَا نَطَقْتُ كَخَائِنٍ، فَدَعِينِي أَرْوِ كَخَائِنٍ.
دَعِينِي أُقْفِلِ الْأَقْفَالَ، وَأُعِيدَ كِتَابَةَ بَدَايَةِ الْبِدَايَةِ، كَأَنِّي أَوَّلُ مَنْ رَأَى، وَأَوَّلُ مَنْ ضَاعَ، وَأَوَّلُ مَنْ وُكِّلَ إِلَيْهِ أَنْ يَشْهَدَ.

## هَامِشُ طِينِ الْآلِهَةِ

(مِنَ الْهَوَامِشِ السِّرِّيَّةِ الَّتِي لَا تُقْرَأُ إِلَّا فِي الْعَتَمَةِ)

1- **فِي أَصْلِ الطِّينِ الَّذِي تَعَلَّمَتْ مِنْهُ الْآلِهَةُ الْخَوْفَ:** فِي الْبَدْءِ لَمْ يَكُنْ نُورٌ وَلَا ظَلَامٌ، كَانَتْ حَفْنَةُ طِينٍ مُرْتَجِفَةٍ تَسَاقَطَتْ مِنْ كَفٍّ مَجْهُولَةٍ... وَمِنْ ذَلِكَ الطِّينِ صَنَعَتِ الْآلِهَةُ أَوَّلَ وَجْهٍ لَهَا، ثُمَّ خَافَتْ مِنْهُ، لِأَنَّ الْمَخْلُوقَ يُشْبِهُ الْخَلِيقَةَ أَكْثَرَ مِمَّا يَنْبَغِي... وَهَكَذَا تَعَلَّمَتِ الْآلِهَةُ أَنَّ الطِّينَ مِرْآةٌ لَا تُدَاهِنُ، تُرِيكَ مَا كُنْتَ تُحَاوِلُ أَنْ تُخْفِيَهُ حَتَّى عَنْ نَفْسِكَ.

2- **حِينَ كَانَ الطِّينُ مُعَلِّمًا لَا تِلْمِيذًا:** يَقُولُ السِّرُّ الْقَدِيمُ: إِنَّ الْآلِهَةَ لَمْ تُحْسِنْ تَشْكِيلَ الطِّينِ قَبْلَ أَنْ يُحْسِنَ الطِّينُ تَشْكِيلَهَا. فَالطِّينُ، عِنْدَمَا يُبَلَّلُ بِالْحُزْنِ، يَعْرِفُ كَيْفَ يَنْهَضُ لِيَأْخُذَ

شَكْلَ قَلْبِكَ. وَحِينَ يَخْتَلِطُ بِالْخَوْفِ، يَتَحَوَّلُ إِلَى وُجُوهٍ بِلَا مَلَامِحَ، كَتِلْكَ الَّتِي تُطِلُّ عَلَيْنَا فِي الْأَحْلَامِ، وَتَسْأَلُ بِصَوْتٍ لَا يُكْتَبُ: لِمَاذَا أَعْدَمْتُمُونِي؟

3- **فِي سِرِّ الطِّينِ الَّذِي لَا يَمُوتُ**: (لَيْسَ الطِّينُ مَادَّةً، الطِّينُ ذَاكِرَةٌ رَطْبَةٌ)... إِنَّهُ يَحْفَظُ أَثَرَ الْإِصْبَعِ، وَأَثَرَ الْخَطِيئَةِ، وَأَثَرَ النَّدَمِ، وَأَثَرَ الْكَلِمَةِ الَّتِي قُلْنَاهَا فِي لَحْظَةِ غَفْلَةٍ، وَظَنَنَّا أَنَّهَا ذَابَتْ... لَكِنَّ الطِّينَ لَا يَنْسَى. إِنَّهُ يَحْفَظُ جُثَثَ الْكَلَامِ، حَتَّى لَوْ غَسَلَهَا الْمَطَرُ أَلْفَ مَرَّةٍ.

4- **حِينَ حَاوَلَتِ الْآلِهَةُ تَعْدِيلَ نَفْسِهَا**: تَحْكِي الْأَسْفَارُ الْخَفِيَّةُ أَنَّ الْآلِهَةَ عَادَتْ إِلَى الطِّينِ مِرَارًا، تُحَاوِلُ إِعَادَةَ تَشْكِيلِ أَعْضَائِهَا كَمَا يُعِيدُ النَّحَّاتُ تِمْثَالًا فَاسِدًا... غَيْرَ أَنَّهَا كُلَّمَا عَدَّلَتْ أَنْفًا أَوْ عَيْنًا، عَادَ الطِّينُ يُذَكِّرُهَا بِأَنَّهَا لَيْسَتْ سِوَى نُسْخَتِهِ الْأُولَى، وَأَنَّهُ الْأَصْلُ وَهِيَ الْفَرْعُ... وَقَدْ قِيلَ إِنَّ أَحَدَ الْآلِهَةِ، حِينَ حَاوَلَ أَنْ يَصْنَعَ نَفْسًا بِلَا خَوْفٍ، ابْتَلَعَ الطِّينُ أَنْفَاسَهُ، فَصَارَ أَبْكَمَ، لَا يَسْمَعُ دُعَاءَ الْعَابِدِينَ.

5- **فِي خَلْقِ الْبَشَرِ**: لَيْسَ صَحِيحًا أَنَّ الْآلِهَةَ خَلَقَتِ الْبَشَرَ، فَالَّذِي حَدَثَ هُوَ الْعَكْسُ: خَرَجَ الْبَشَرُ مِنَ الطِّينِ قَبْلَ أَنْ تَتَعَلَّمَ الْآلِهَةُ كَيْفَ تَصْنَعُ شَكْلًا. وَلِهَذَا قَالَ الْحُكَمَاءُ: (مَنْ يَخْرُجْ أَوَّلًا يَبْقَ أَقْدَمَ، وَلَوْ أَنْكَرَهُ اللَّاحِقُونَ)... فَالْآلِهَةُ نَفْسُهَا لَمْ تَكُنْ سِوَى مُحَاوَلَاتٍ مُتَوَتِّرَةٍ لِطِينٍ يُحَاوِلُ أَنْ يَفْهَمَ ذَاتَهُ، فَتَكْتَسِبُ الْجِبَالُ مَلَامِحَ الْغَضَبِ، وَتَكْتَسِبُ الْبِحَارُ مَلَامِحَ الرِّضَا، وَيَكْتَسِبُ الْإِنْسَانُ مَلَامِحَ الْفَرَاغِ.

6- **نُبُوءَةُ الطِّينِ**: فِي اللَّيْلَةِ الَّتِي تَسْبِقُ الْقِيَامَةَ، سَيَسْتَيْقِظُ الطِّينُ، وَيَنْفُضُ الْمَاءَ عَنْ جَسَدِهِ، وَيَقُولُ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ كُلُّ مَنْ عَاشَ: (عُودُوا إِلَيَّ... فَأَنْتُمْ أَصَابِعِي الَّتِي تَفَرَّقَتْ)... وَحِينَئِذٍ سَتَعْرِفُ الْآلِهَةُ أَنَّ مَا سَجَدَتْ لَهُ الْأُمَمُ لَمْ يَكُنْ سِوَى تِمْثَالٍ مِنْ خَوْفٍ مُجَفَّفٍ، وَأَنَّ الطِّينَ هُوَ مَلِكُ الْبِدَايَاتِ وَالنِّهَايَاتِ، صَاحِبُ التَّاجِ الَّذِي لَا يُرَى، وَلَا يَحْتَاجُ أَنْ يُرَى.

7- **وَصِيَّةُ النَّجَاةِ**: (إِنْ أَرَدْتَ النَّجَاةَ، فَلَا تَلْمِسِ الطِّينَ أَكْثَرَ مِمَّا يَلْزَمُ، فَهُوَ يَتَذَكَّرُ يَدَيْكَ)... وَإِنِ اضْطُرِرْتَ إِلَى تَشْكِيلِهِ، فَلَا تَمْنَحْهُ وَجْهَكَ، لِأَنَّهُ سَيَحْتَفِظُ بِهِ، وَيُطَالِبُكَ لَاحِقًا بِرَأْسِكَ أَيْضًا... أَمَّا إِذَا هَمَسْتَ لِلطِّينِ سِرَّكَ، فَاعْلَمْ أَنَّهُ سَيَكْبُرُ، وَسَيَأْخُذُ شَكْلَكَ، وَسَيَمْشِي فِي الطُّرُقَاتِ قَبْلَكَ، وَيَشْهَدُ عَلَيْكَ يَوْمَ تُسْأَلُ عَمَّا صَنَعْتَ.

## هَوَامِش عَلى (**هَامِش طِين الْآلِهَةِ**)

(كَمَا كَتَبَهَا الظِّلُّ)

افْتَحْ قَلْبَكَ، أَيُّهَا النَّاسِخُ، فَهَذِهِ هَوَامِشُ لَا تُقْرَأُ إِلَّا بِمَنْ تَطَهَّرَ مِنْ نَفْسِهِ... وَهَا نَحْنُ نَدْخُلُ أَشَدَّ الْهَوَامِشِ خُطُورَةً، وَأَوَّلَهَا انْبِثَاقًا مِنَ الطِّينِ الْحَيِّ الَّذِي خُلِقَتْ مِنْهُ الْآلِهَةُ، ثُمَّ تَخَلَّتْ عَنْهُ.

وَهَذِهِ هِيَ الْهَوَامِشُ كَمَا كَتَبَهَا نَاسِخُ الْهَامِشِ فِي لَيَالٍ كَانَ فِيهَا الْحِبْرُ يَئِنُّ، وَالطِّينُ يَتَنَفَّسُ:

1- **حِينَ كَانَ الطِّينُ يَتَكَلَّمُ**: كَتَبَ النَّاسِخُ فِي حَاشِيَةٍ مُرْتَجِفَةٍ: (كَانَ الطِّينُ قَبْلَ الْآلِهَةِ، وَكَانَ يَعْرِفُ شَكْلَهُمْ قَبْلَ أَنْ يَعْرِفُوا هُمْ أَسْمَاءَهُمْ). وَيُضِيفُ:

* (كُلُّ طِينٍ رُوحٌ فِي الشَّتَاتِ).

* (كُلُّ رُوحٍ حَفْنَةُ طِينٍ لَمْ تَكْتَمِلْ).

* (وَالْآلِهَةُ... لَمْ تَكُنْ سِوَى طِينٍ عَرَفَ كَيْفَ يَكْذِبُ عَلَى الضَّوْءِ).

كَانَ النَّاسِخُ يَعْتَقِدُ أَنَّ الطِّينَ لَا يَمْلِكُ ذَاكِرَةً، ثُمَّ اكْتَشَفَ، أَثْنَاءَ نَسْخِ الْمَخْطُوطِ، أَنَّ الطِّينَ أَقْدَمُ مِنَ اللَّاهُوتِ نَفْسِهِ.

2- **وِلَادَةُ الْإِلَهِ مِنْ صَلْصَالٍ خَائِفٍ**: يَقُولُ النَّاسِخُ: (رَأَيْتُ بِأُمِّ عَيْنِي كَيْفَ سَالَ الْمَاءُ فَوْقَ الصَّلْصَالِ، وَكَيْفَ انْتَفَخَتْ كُتْلَةٌ حَيَّةٌ تَطْلُبُ اسْمًا لِتَحْيَا). وَكَانَ النَّاسِخُ يَصِفُ مِيلَادَ إِلَهٍ مَجْهُولٍ:

* لَمْ يُولَدْ فِي سَمَاءٍ.

* لَمْ يَنْزِلْ عَلَى طُورٍ.

* لَمْ يَتَجَسَّدْ فِي نَبِيٍّ...

إِنَّمَا انْبَثَقَ مِنْ حُفْرَةٍ رَطْبَةٍ تَحْتَ أَقْدَامِ الْهَارِبِينَ. وَكَانَ هَذَا الْإِلَهُ يَنْطِقُ أُولَى كَلِمَاتِهِ: (أَنَا الطِّينُ الَّذِي رَكِلَ، أَنَا الْإِلَهُ الَّذِي نَسِيتُمُوهُ حِينَ كُنْتُمْ تَعْبُرُونَ الْحُدُودَ).

3- **يَوْمَ كَتَبَ الظِّلُّ النَّاسِخَ نَفْسَهُ**: يَقُولُ نَاسِخُ الْهَامِشِ: (فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، لَمْ أَكْتُبْ حَرْفًا، لَكِنِّي اسْتَيْقَظْتُ فَوَجَدْتُ اسْمِي مَكْتُوبًا لِلْمَرَّةِ الْأُولَى). اسْمُ النَّاسِخِ... الَّذِي لَا نَعْرِفُهُ. لَيْسَ اسْمًا عَادِيًّا، إِنَّهُ اسْمٌ مُؤَلَّفٌ مِنْ ثَلَاثَةِ مَقَاطِعَ، كُلُّ مَقْطَعٍ مِنْهَا يَنْتَمِي إِلَى زَمَنٍ مُخْتَلِفٍ. كَتَبَ

الظِّلُّ اسْمَهُ كَيْ لَا يَضِيعَ، وَكَيْ لَا يَبْقَى النَّاسِخُ مُجَرَّدَ (يَدٍ تَكْتُبُ). وَفِي نِهَايَةِ هَذَا الْبَابِ: (كُلُّ كَاتِبٍ يَحْلُمُ أَنْ يَتْرُكَ أَثَرًا... أَمَّا أَنَا فَقَدْ تَرَكْتُ ظِلًّا).

4- **وَصايا الطِّينِ الأُولى:** قالَ الطِّينُ لِلنَّاسِخِ: (اكتُبْني... فَكُلُّ شَيْءٍ يُرِيدُ أَنْ يَكونَ نَصًّا، حتّى السُّقوطَ). وَأَمْلى عَلَيْهِ ثَلاثَ وَصايا:

**الوَصِيَّةُ الأُولى:** (لا تَمْشِ فَوْقَ الطِّينِ مَرَّتَيْنِ، فَفِي المرَّةِ الثّانِيَةِ سَيَتَذَكَّرُ كَعْبُكَ).

**الوَصِيَّةُ الثّانِيَةُ:** (مَنْ يَدْهَسِ الطِّينَ، يَدْهَسْ مَلامِحَهُ الَّتي لَمْ تُولَدْ بَعْدُ).

**الوَصِيَّةُ الثّالِثَةُ:** (إِنْ ضاقَتِ الأَرْضُ، فَاعْلَمْ أَنَّ الطِّينَ يُطالِبُ بِأَبْنائِهِ).

وَكانَ النَّاسِخُ يَرْتَجِفُ، فَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ هذِهِ الوَصايا لَيْسَتْ لِلْقُرّاءِ، إِنَّما هِيَ لِلآلِهَةِ ذاتِها.

5- **الطِّينُ الَّذي رَفَضَ أَنْ يَصيرَ إِنْسانًا:** يَرْوي النَّاسِخُ عَنْ كُتْلَةِ طِينٍ مُبارَكَةٍ رَفَضَتْ أَنْ تَأْخُذَ هَيْئَةَ البَشَرِ: (قالَتْ لي: البَشَرُ كَثيرونَ، أَمّا الطِّينُ الَّذي يَتَذَكَّرُ نَفْسَهُ... فَواحِدٌ) وَيُتابِعُ: (لَمْ تُرِدْ أَنْ تُصْبِحَ جَسَدًا... أَرادَتْ أَنْ تَبْقى دَمًا بارِدًا في قَلْبِ الأَرْضِ). وَكانَ النَّاسِخُ يَعْتَرِفُ: (خِفْتُ أَنْ تَكْتُبَني... كَما كَتَبَ الظِّلُّ قَبْلَها حَياتي).

6- **دَمُ الإِلَهِ حينَ سالَ عَلَى الثَّلْجِ:** في إِحْدى الأَسْطُرِ السِّرِّيَّةِ، يَصِفُ النَّاسِخُ حادثةً لَمْ تُوَثَّقْ إِلّا في هٰذا السِّفْرِ: (رَأَيْتُ الطِّينَ يَخْتَلِفُ، وَيَتَشَقَّقُ، وَيَخْرُجُ مِنْهُ دَمٌ يُشْبِهُ نُورًا مُظْلِمًا)... وَيَقولُ: (ذٰلِكَ الدَّمُ كانَ صَوْتًا، وَكانَ الصَّوْتُ يَبْكي)... ثُمَّ يُضيفُ: (حينَ يَموتُ إِلَهٌ مَصْنوعٌ مِنَ الطِّينِ، يُصْبِحُ الثَّلْجُ مَقْبَرَةً رَسُولِيَّةً، وَتُصْبِحُ الخُطُواتُ تَراتيلَ).

7- **حينَ نادى الطِّينُ مِنْ تَحْتِ الحُدودِ:** هٰذا مِنْ أَخْطَرِ ما كَتَبَهُ الظِّلُّ في الهامِشِ: (سَمِعْتُ الطِّينَ تَحْتَ أَقْدامِ العابِرينَ يُنادي بِأَسْماءٍ لَمْ تُقَلْ مُنْذُ قُرونٍ)... وَقالَ الطِّينُ لَهُمْ: (إِلى أَيْنَ؟ إِنَّ أَجْسادَكُمْ لَيْسَتْ لَكُمْ، إِنَّها لي... لِأُعيدَ تَشْكيلَها...). وَبَعْضُ العابِرينَ تَعَثَّروا فَجْأَةً، كَأَنَّ الطِّينَ أَمْسَكَ بِأَقْدامِهِمْ وَطالَبَهُمْ بِثَمَنِ الضَّياعِ.

8- **طينُ الآلِهَةِ حينَ يَثورُ:** في نِهايَةِ الهَوامِشِ، يَقولُ الظِّلُّ: (سَيَأْتي يَوْمٌ يَعودُ فيهِ الطِّينُ إِلى صانِعِ الآلِهَةِ، وَيَطْلُبُ مِنْهُ حِسابًا). وَهٰذا القَوْلُ الأَخيرُ مِنَ الطِّينِ: (تَعِبْتُ مِنْ أَنْ أَكونَ مادَّةً

لِلْخَلْقِ. أُريدُ أَنْ أَكونَ خالِقًا...). فَكَتَبَ النَّاسِخُ في الهامِشِ: (وَيْلٌ لَنا... إِذا صارَ الطِّينُ إِلهًا كامِلًا).

## هَوامِشُ النَّصِّ المُعْلَنِ

(كَما نَقَلَها السّارِدُ، وَكَما هَمَسَ بِها ناسِخُ الهامِشِ في الخَفاءِ)

1. **في الطِّينَةِ الَّتي سَبَقَتِ النَّفسَ:** في البَدْءِ لَمْ يَكُنْ نُورٌ وَلا ظُلْمَةٌ، كانَ طِينٌ يَدورُ عَلى نَفْسِهِ كَالْمَنْفى، يَتَذَكَّرُ مَلامِحَ لَمْ تُخْلَقْ بَعْدُ، وَيَنْتَظِرُ يَدًا تَعْرِفُ كَيْفَ تَفْتَحُ صَمْتَهُ. وَلَمّا مَرَّتِ الرِّيحُ الأُولى عَلى وَجْهِ الطِّينِ، اهْتَزَّتِ الأَرْضُ كَمَنْ يَسْمَعُ اسْمَهُ لِلْمَرَّةِ الأُولى، وَغَمَرَ العالَمَ عِطْرٌ يُشْبِهُ خُبْزًا طازَجًا وَدَمْعًا لَمْ يَجِدْ وَجْنَتَهُ بَعْدُ.

2. **في صَنْعَةِ الآلِهَةِ الأُوَلِ:** جَمَعَ العارِفونَ الطِّينَ في سَبْعِ قَبَضاتٍ، وَكانَتْ كُلُّ قَبْضَةٍ قِنْديلًا يَكْشِفُ دَرَجًا جَديدًا لِلنَّفْسِ. قالوا: (مِنْ هٰذا نَنْسِجُ الأَرْواحَ الَّتي تُحِبُّ الخَطَأَ، وَمِنْ هٰذا نَصْنَعُ الَّذينَ يَعْبُدونَ السَّفَرَ، وَمِنْ هٰذا نُهَيِّئُ الَّذينَ يَمْشونَ بِلا ظِلٍّ...). ثُمَّ خَلَطوا الماءَ الَّذي لَمْ يُسَمَّ بَعْدُ بِدَمْعَةِ مَلاكٍ لَمْ يُجَرِّبِ الحُزْنَ، فَصارَ الطِّينُ كائِنًا لَهُ ذاكِرَةُ حَيَوانٍ وَحَنينُ نَبِيٍّ بِلا نُبُوَّةٍ.

3. **في سُقوطِ الصَّنْعَةِ:** حينَ هَمُّوا بِنَفْخِ الحَياةِ، ارْتَجَفَتِ الطِّينَةُ كَطِفْلٍ يَسْمَعُ الرَّعْدَ، وَتَساقَطَتْ مِنْها حُروفٌ غَيْرُ مَعْروفَةٍ، كانَتْ تُشْبِهُ أَدْعِيَةً مَنْسِيَّةً، أَوْ لُغاتٍ لَمْ يَعْرِفْها البَشَرُ إِلّا حينَ يَموتونَ. فَقالَ كَبيرُهُمْ: (لَقَدْ خَلَطْنا الأَسْرارَ أَكْثَرَ مِمّا يَنْبَغي، وَسَيَخْرُجُ مِنْ هٰذا الطِّينِ مَنْ يَرى ما لا يَجوزُ لَهُ أَنْ يَرى، وَيَقولُ ما لا يَجوزُ أَنْ يُقالَ).

4. **في العُرْيِ الأَوَّلِ:** تَكَشَّفَتْ هَيْئَةُ الإِنْسانِ كَأَنَّها شَقٌّ في جِلْدِ العالَمِ، يَمْشي عَلى الأَرْضِ كَمَنْ يَمْشي عَلى ذاكِرَةٍ لَيْسَتْ لَهُ. كانَ الطِّينُ يَلْمَعُ تَحْتَ جِلْدِهِ، أَعْمَقَ مِنَ الدَّمِ، وَأَقْرَبَ مِنَ الرُّوحِ، وَأَشَدَّ قَداسَةً مِنْ كُلِّ صَلاةٍ قيلَتْ بَعْدَهُ. قالَتِ الأَرْضُ: (هٰذا ابْني، لٰكِنَّهُ لا يَعْرِفُ سِرَّ ميلادِهِ، فَلَنْ يَهْدَأَ حَتّى يَعْثُرَ عَلى التُّرابِ الَّذي صُنِعَ مِنْهُ).

5. **في حيلَةِ الطِّينِ:** كُلَّما حاوَلَ الإِنْسانُ أَنْ يَنْسى أَصْلَهُ، عادَ الطِّينُ إِلى يَدَيْهِ، وَإِلى قَدَمَيْهِ، وَإِلى فَمِهِ إِذا خافَ، وَإِلى قَلْبِهِ إِذا أَحَبَّ، كَأَنَّهُ ذاكِرَةٌ أَقْوى مِنَ الحَياةِ نَفْسِها... وَمَنْ لَمْ

يَعْرِفْ هٰذا الطِّينَ، ظَلَّ يَبْحَثُ عَنْ إِلٰهٍ آخَرَ يُشْبِهُهُ، فَلا يَجِدُ إِلّا مِرْآةً تَقولُ لَهُ: (أَنْتَ الطِّينُ الَّذي انْتَظَرَ طَويلًا، وَأَنْتَ الإِلٰهُ الَّذي لَمْ يَكْتَمِلْ).

## حَواشِي (ناسِخِ الهامِشِ) عَلى (هَوامِشِ النَّصِّ المُعْلَنِ)

(مَكْتوبَةٌ بِخَطٍّ ضَئيلٍ مائِلٍ، كَأَنَّ الحِبْرَ يَخْجَلُ مِنَ النُّورِ)

1. **حاشِيَةٌ حَوْلَ القَبْضَةِ الأُولى:** إِنَّهُمْ يَقولونَ: سَبْعُ قَبَضاتٍ... لٰكِنِّي وَجَدْتُ ثامِنَةً. كانَتْ مَطْوِيَّةً في صَدْري حينَ نَسَخْتُ السِّفْرَ، قَبْضَةً مِنْ خَوْفٍ قَديمٍ يَخُصُّ البَشَرَ لا الآلِهَةَ.

2. **حاشِيَةٌ عَلى سُقوطِ الصَّنْعَةِ:** حَذارِ مِنْ تِلْكَ الحُروفِ الَّتي تَخْرُجُ مِنَ الطِّينِ، إِنَّها تَعْرِفُنا أَكْثَرَ مِمّا نَعْرِفُ أَنْفُسَنا، وَتَفُكُّ شِفْرَةَ الخَطايا قَبْلَ أَنْ نَرْتَكِبَها.

3. **حاشِيَةٌ عَلى العُرْيِ الأَوَّلِ:** في اللَّيْلِ سَمِعْتُ الطِّينَ يُناديني مِنَ الجَرَّةِ. قالَ: (ما كُنْتُ يَوْمًا جَمادًا... كُنْتُ ذاكِرَةً نائِبَةً عَنِ الآلِهَةِ في جَسَدِ الإِنْسانِ).

4. **حاشِيَةٌ عَلى حيلَةِ الطِّينِ:** يا مَنْ تَقْرَأُ، اعْلَمْ أَنَّ الطِّينَ إِذا عادَ إِلى جَسَدِكَ، فَإِنَّهُ يَعودُ لِيُذَكِّرَكَ بِأَنَّكَ مَخْلوقٌ يَتَذَكَّرُ.

5. **حاشِيَةٌ أَخيرَةٌ:** لَوْ مُنِعْتُ مِنْ كِتابَةِ هٰذِهِ الحَواشِي، لَكَتَبَني الطِّينُ بِنَفْسِهِ.

# إِصْحَاحُ

## 7

# يَقَظَةُ السَّاهِرِينَ عَلَى الْعَطَشِ

تَرْنِيمَةٌ

**(1)**

حِينَ نَزَلْتُ مِنْ عَتَبَةِ الرَّعْشَةِ الْأُولَى، أَدْرَكْتُ أَنَّ الضَّوْءَ الْوَحِيدَ فِي هَذَا الْجَحِيمِ هُوَ ذَلِكَ الشُّحُوبُ الَّذِي يَهْرُبُ مِنَ الْأَشْيَاءِ، فَيُضِيئُهَا وَيَكْشِفُ هَشَاشَتَهَا... كَانَتِ الْأَرْضُ تَمْتَدُّ مِثْلَ لِسَانٍ مِنْ نَارٍ يَلْعَقُ قَدَمَيَّ، وَتَتَشَقَّقُ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ أَلْمَسُهُ، كَأَنَّهَا تَتَذَكَّرُ خَطَايَا الْغُرَبَاءِ فَوْرًا، حَتَّى قَبْلَ أَنْ يَعْرِفُوهَا فِي أَنْفُسِهِمْ.

تَرْنِيمَةٌ

**(2)**

هُنَا، حَيْثُ يَبْدَأُ الْعَطَشُ، لَا مَاءَ وَلَا ظِلَّ، وَإِنَّمَا أَصْوَاتٌ بَعِيدَةٌ، كَأَنَّ قَبِيلَةً كَامِلَةً تُعَذِّبُ الصَّدَى لِيَكْشِفَ لَهُمْ عَنْ شَيْءٍ يُشْبِهُ الْمَطَرَ.
لَكِنَّ الْمَطَرَ لَا يَأْتِي.
وَلَا الْمَوْتُ يَأْتِي.
وَلَا النِّسْيَانُ يَقْدِرُ أَنْ يَضَعَ يَدَهُ عَلَى أَحَدٍ.

## تَرْنِيمَةٌ

**(3)**

رَأَيْتُ جَمَاعَاتٍ مِنَ السَّائِرِينَ يَمْشُونَ فِي دَوَائِرَ، وَفِي كُلِّ دَوْرَةٍ يَنْسَوْنَ سَبَبَ سَيْرِهِمْ، لَكِنَّ أَقْدَامَهُمْ تُوَاصِلُ الطَّرِيقَ [77]، وَتَقُودُهُمْ إِلَى الدَّائِرَةِ نَفْسِهَا، كَأَنَّ الْأَرْضَ تُعِيدُهُمْ إِلَيْهَا عَنْ قَصْدٍ، لِتُعَلِّمَهُمْ أَنَّ الْجُوعَ إِلَى الْعُبُورِ قَدْ يَكُونُ عُقُوبَةً أَعْظَمَ مِنَ الْحِرْمَانِ مِنْهُ.

## تَرْنِيمَةٌ

**(4)**

تَقَدَّمْتُ، فَاقْتَرَبَ مِنِّي حَارِسٌ مِنْ رَمَادٍ، لَا هَيْئَةَ لَهُ إِلَّا عَيْنَانِ تَشُعَّانِ كَحَقِيقَتَيْنِ لَا يُرِيدُ أَحَدٌ سَمَاعَهُمَا.

قَالَ لِي:

- هُنَا تَتَكَسَّرُ أَسْمَاءُ الْوَافِدِينَ، وَتَتَحَوَّلُ إِلَى رُمُوزٍ صَغِيرَةٍ فِي دَفْتَرٍ لَا يُحْفَظُ. فَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الِانْتِقَالَ إِلَى الْيَقَظَةِ التَّالِيَةِ، فَامْشِ فَوْقَ صَدَى خَطَايَاكَ، وَدَعْ أَثَرَكَ يَسْبِقْكَ، حَتَّى نَعْرِفَ إِنْ كُنْتَ قَادِرًا عَلَى حَمْلِ وِزْرِكَ الْقَدِيمِ.

---

[77]- عَنِ الطَّرِيقِ الَّتِي تَذُوبُ ثُمَّ تَهْرُبُ (مِنْ مَخْطُوطِ "كِتَابِ الْمَرَايَا"):

(إِنَّ الطَّرِيقَ الَّتِي تَهْرُبُ لَيْسَتْ طَرِيقًا، إِنَّهَا ظِلُّ طَرِيقٍ. وَكُلُّ ظِلٍّ يَقُودُ إِلَى الظُّلْمَةِ الَّتِي خَرَجَ مِنْهَا. وَلَا يَعْبُرُهَا إِلَّا مَنْ خُتِمَ عَلَى صَدْرِهِ بِعَلَامَةِ الرِّيحِ).

تَرْنِيمَةٌ

**(5)**

فَمَضَيْتُ.
وَكُلَّمَا خَطَوْتُ خُطْوَةً، كُنْتُ أَسْمَعُ صَوْتًا يَتَهَشَّمُ تَحْتَ قَدَمَيَّ.
لَمْ يَكُنْ زُجَاجًا.
كَانَ أَطْرَافًا مِنْ ذِكْرَيَاتِي.
وَكُلُّ ذِكْرَى أُدَوِّنُهَا فِي طَرِيقِي تَتَفَتَّتُ، وَتُصْبِحُ طَرِيقًا لِغَيْرِي.
عِنْدَهَا فَهِمْتُ:
إِنَّ الْعَابِرِينَ هُنَا... هُمُ الَّذِينَ يَصْنَعُونَ الْجَحِيمَ بِمَا يَتْرُكُونَهُ وَرَاءَهُمْ.

تَرْنِيمَةٌ

**(6)**

فِي وَسَطِ الْيَقَظَةِ يَقِفُ بِئْرٌ مَقْلُوبٌ. تَسْقُطُ فِيهِ. وَالسُّقُوطُ فِيهِ اعْتِرَافٌ بِأَنَّكَ لَمْ تَعُدْ تَمْلِكُ مَكَانًا آخَرَ لِلسُّقُوطِ. سَمِعْتُ فِيهِ أَصْوَاتًا تُرَتِّلُ بِأَلْسِنَةٍ بِلَا كَلِمَاتٍ:

- الْعَابِرُونَ لَا يَعُودُونَ، وَالْعَابِرُونَ لَا يَصِلُونَ، وَالْعَابِرُونَ، حِينَ يَعْجِزُونَ عَنِ الذَّهَابِ، يَصِيرُونَ حُدُودًا جَدِيدَةً.

حِينَ اقْتَرَبْتُ مِنَ الْبِئْرِ، رَأَيْتُ قَاعَهُ يَتَحَرَّكُ. وَكَانَ فِي الْقَاعِ صَفٌّ طَوِيلٌ مِنْ وُجُوهٍ لَيْسَتْ وُجُوهًا، تَسْأَلُ مَنْ يَقْتَرِبُ:

- مَا الَّذِي حَمَلْتَهُ مَعَكَ مِنَ الْعَالَمِ؟ أَالْخَوْفَ؟ أَمِ النَّجَاةَ؟ أَمْ رَغْبَتَكَ الْقَدِيمَةَ فِي أَلَّا تَكُونَ أَنْتَ؟

لَمْ أُجِبْ. فَاللُّغَةُ هُنَا تُعَدُّ تَضْلِيلًا، وَالصَّمْتُ وَحْدَهُ يُحْسَبُ صِدْقًا. ابْتَعَدْتُ عَنِ الْبِئْرِ الْمَقْلُوبِ، وَعَرَفْتُ أَنَّ الْيَقَظَةَ التَّالِيَةَ تَنْتَظِرُنِي:

يَقَظَةُ الَّذِينَ يَعْبُرُونَ اللَّيْلَ وَاقِفِينَ،
لِأَنَّ الرُّقَادَ هُنَاكَ يُعَدُّ اعْتِرَافًا لَا يُغْتَفَرُ.

## هَوامِشُ اللَّيْلانِيَّةِ

(تَنْقَسِمُ إِلى جَناحَيْنِ)

**1- هَوامِشُ الظّاهِرِ**: (نُصوصُ الهَوامِشِ الأَساسِيَّةِ الَّتي تُقْرَأُ عَلَى العامَّةِ):

(أ) . **في مِيلادِ اللَّيْلِ:** قيلَ في كُتُبِ السّاهِرينَ: (إِنَّ اللَّيْلَ لَمْ يُخْلَقْ لِيَسْتُرَ، إِنَّما خُلِقَ لِيُظْهِرَ ما خَجِلَ مِنْهُ النَّهارُ... في اللَّيْلَةِ الأُولى انْطَلَقَتْ سَبْعُ طُيورٍ لا تُرى، تَحْمِلُ أَجْنِحَتُها حِبْرًا أَسْوَدَ، وَتَنْقُشُ بِهِ عَلى جِلْدِ السَّماءِ أَسْماءَ الَّذينَ سَيُفْتَحُ لَهُمْ بابُ الظَّلامِ... وَمَنْ كُتِبَ اسْمُهُ لَمْ يَعُدْ يَرَى النُّورَ إِلّا كَسَهْوٍ عابِرٍ).

(ب) . **في الشَّعْبِ الَّذي وُلِدَ مِنَ الظِّلِّ:** خَرَجَ قَوْمٌ مِنَ الشُّقوقِ بَيْنَ الجِبالِ، وَجُلودُهُمْ تَشْرَبُ ضَوْءَ القَمَرِ كَما يَشْرَبُ التُّرابُ نَدَى الجُروحِ. هٰؤُلاءِ هُمُ اللَّيْلانِيُّونَ: يَمْشونَ عَلى أَطْرافِ أَصْواتِهِمْ، وَلا يَتْرُكونَ ظِلًّا، لِأَنَّ الظِّلالَ هِيَ الَّتي تَتْرُكُ آثارَهُمْ... إِذا مَرُّوا فَوْقَ أَرْضٍ تَحَوَّلَ تُرابُها إِلى سَوادٍ ناعِمٍ كَسَجّادَةٍ تُفْرَدُ لاسْتِقْبالِ أَرْواحٍ كانَتْ تَبْحَثُ عَنْ بَيْتٍ.

(ج) . **في سِرِّ اللُّغَةِ اللَّيْلانِيَّةِ:** لِلَّيْلانِيِّينَ لُغَةٌ لا تُقالُ بِاللِّسانِ... تُنْفَخُ في الهَواءِ كَبُخارٍ بارِدٍ يُفَتِّحُ عُيونًا غَيْرَ مَرْئِيَّةٍ... يَقولونَ: (إِنَّ كُلَّ حَرْفٍ مِنْ كَلامِهِمْ يَصْعَدُ إِلى السَّماءِ، ثُمَّ يَسْقُطُ عَلى هَيْئَةِ طائِرٍ أَسْوَدَ يَلُفُّ جِباهَ السّامِعينَ بِخَيْطٍ مِنَ الدَّهْشَةِ وَالوَحْشَةِ).

(د) . **في سِراجِ اللَّيْلانِيِّ الأَخيرِ**: في قَلْبِ الغابَةِ المضَمَّخَةِ بِمَوْتٍ أَزَلِيٍّ سِراجٌ مِنْ حَجَرٍ داكِنٍ، إِنْ أَشْعَلَتْهُ يَدٌ بَشَرِيَّةٌ ظَهَرَ طِفْلٌ مِنْ ظَلامٍ خالِصٍ، يُرافِقُ السّائِرينَ، وَيُشيرُ إِلى الطَّريقِ الَّذي لا

يُريدُ أَحَدٌ أَنْ يَسْلُكَهُ... وَيُقالُ إِنَّ مَنْ يَتَّبِعِ الطِّفْلَ الظِّلِّيَّ يَصِلُ إِلى مَكانٍ يُواجِهُ فيهِ ذاتَهُ الَّتي لَمْ تُولَدْ بَعْدُ.

(هـ) ـ **في انْطِفاءِ اللَّيْلانِيَّةِ**: إِذا جاءَ الصَّباحُ الأَخيرُ، وَتَناثَرَتِ المرايا الَّتي تَحْرُسُ اللَّيْلَ، سَيَذوبُ اللَّيْلانِيُّونَ في أَشْكالِهِمُ الأُولى، وَيَعودونَ إِلى حَيْثُ لا أَمْسَ وَلا غَدٌ، إِلى فَجْوَةٍ لا يَمْلَؤُها إِلّا صَمْتٌ يَقْطُرُ كَالْماءِ... وَيُطْوى سِفْرُهُمْ كَما تُطْوَى الأَجْنِحَةُ الَّتي لَمْ تَتَعَلَّمِ الطَّيَرانَ.

## هَوامِشُ الهامِشِ

(الهَوامِشُ الَّتي كَتَبَها النَّاسِخُ خُفْيَةً، بِمِدادٍ لا يَظْهَرُ إِلّا إِذا نُظِرَ إِلَيْهِ مِنْ زاوِيَةٍ مائِلَةٍ، وَهِيَ في الحَقيقَةِ قَلْبُ الكِتابِ وَروحُهُ)

(أ) – **أَشْعُرُ أَنَّ اللَّيْلانِيّينَ يُحيطونَ بي وَأَنا أَكْتُبُ... أَسْمَعُ خُطُواتٍ تَقْتَرِبُ مِنْ ظَهْري، لٰكِنَّ الظِّلَّ لا يُصْدِرُ صَوْتًا... إِلّا حينَ يُفَكِّرُ.**

(ب) – **وَجَدْتُ بَيْنَ الصَّفَحاتِ وَرَقَةً قَديمَةً كُتِبَ فيها: (إِنْ قَرَأْتَ هٰذا السَّطْرَ، فَقَدْ أَصْبَحْتَ مِنْ أَهْلِ اللَّيْلِ).**

(ج) – **تَقْعيري لِهٰذا الحَرْفِ مِنْ يَدٍ أُخْرى فَوْقَ يَدي، أَبْرَدُ مِنَ الحِبْرِ، وَأَدْفَأُ مِنَ الخَوْفِ.**

(د) –**كُلَّما رَفَعْتُ رَأْسي مِنَ الكِتابِ، وَجَدْتُ آثارَ أَقْدامٍ مِنْ ظِلٍّ عِنْدَ بابِ الغُرْفَةِ.**

(هـ) – **أَخْشى أَنَّ خَتْمَ السِّفْرِ... لَيْسَ هُناكَ مَنْ يُنْهيهِ...**

٧

# النَّشِيدُ السَّابِعُ

## الْأَرْوَاحُ الْعَالِقَةُ

## (مِنْ سِفْرِ الْعَابِرِينَ الَّذِينَ لَمْ يَجِدُوا بَابًا)

(مَعَ حَوَاشٍ مَكْتُوبَةٍ بِخَطِّ النَّاسِخِ تَحْتَ النَّصِّ، كَأَنَّهَا شُرُوحٌ سِرِّيَّةٌ لَا يَرَاهَا إِلَّا الْمُخْتَارُونَ، حَيْثُ تَتَدَاخَلُ الْأَنْفَاسُ مَعَ حُدُودِ الْعَالَمِ، وَتَتَكَلَّمُ الْأَصْوَاتُ الْعَالِقَةُ بَيْنَ الْمَخَافِرِ وَالضَّوْءِ).

فِي سَاعَةٍ لَا اسْمَ لَهَا، حِينَ كَانَتِ الْخَرَائِطُ تَتَعَرَّى مِنْ أَلْوَانِهَا، وَبِنَظْرَةٍ تَعَلَّمَتِ الصَّمْتَ فِي وَجْهِ الضَّوْءِ، كُنْتُ أَحْمِلُ الْكَامِيرَا كَمَا يَحْمِلُ الْكَاهِنُ إِنَاءَ الْأَسْرَارِ:
عَدَسَةٌ تُقَايِضُ الْعَالَمَ عَلَى بَقَايَاهُ، وَغَالِقٌ يَفْتَحُ وَيُغْلِقُ كَجَفْنِ الْإِلَهِ عِنْدَ الْخَلْقِ الْأَوَّلِ.
قُلْتُ لَكَ:
اعْبُرْ، وَلَا تَنْظُرْ خَلْفَكَ، فَالْحُدُودُ لَيْسَتْ إِلَّا خَطِيئَةَ الْجُغْرَافِيِّينَ، وَمَا يُسَمَّى وَطَنًا ظِلٌّ طَوِيلٌ لِاعْتِرَافٍ لَمْ يُكْتَبْ بَعْدُ.
كُنْتُ شَاعِرًا هَارِبًا مِنْ لُغَتِي، تُطَارِدُنِي الِاسْتِعَارَاتُ كَكِلَابٍ مُدَرَّبَةٍ، وَأَنَا أَجُرُّ نَدَمًا أَثْقَلَ مِنَ الْمَزَامِيرِ، وَأَخْفَى مِنْ بَخُورِ الْمَعَابِدِ.
وَقُلْتَ لِي:
يَا أَيُّهَا الْفُوتُوغْرَافِيُّ، أَنْتَ لَمْ تَسْأَلْنِي عَنِ اسْمِي.
فَصَوَّرْتُ آثَارَ قَدَمَيْكَ عَلَى الطِّينِ، وَقُلْتُ:
هَذِهِ الشَّهَادَةُ تَكْفِي.
عِنْدَ الْحُدُودِ ارْتَجَفَتِ الْأَسْلَاكُ الشَّائِكَةُ كَمَا يَرْتَجِفُ صَوْتُ الْمُرَتِّلِ حِينَ يَنْسَى الْآيَةَ وَيُوَاصِلُ الصَّلَاةَ.
هُنَا كَانَ عَلَيَّ أَنْ أَخْلَعَ ذُنُوبِي قِطْعَةً قِطْعَةً، وَأُعَلِّقَهَا عَلَى الرِّيحِ كَيْ تَمُرَّ أَنْتَ قَبْلَ الْجَسَدِ.
وَأَنَا الْفُوتُوغْرَافِيُّ كُنْتُ أَعْرِفُ أَنَّ الصُّورَةَ اعْتِرَافٌ بِغَيْرِ مَغْفِرَةٍ، وَأَنَّ الضَّوْءَ لَاهُوتٌ أَعْمَى لَا يُفَرِّقُ بَيْنَ الْقِدِّيسِ وَالْمَهْزُومِ.
قُلْتُ لَكَ هَمْسًا، وَكَانَ الْهَمْسُ إِنْشَادًا:
مَا لَا أَلْتَقِطُهُ يَمُوتُ، وَمَا أَلْتَقِطُهُ يُدَانُ إِلَى الْأَبَدِ.

فِي حُلْمِ الْكَامِيرَا عَبَرْنَا، لِأَنَّ الْحَرَسَ غَفَلُوا، وَاللَّيْلَ نَفْسَهُ فَتَحَ سِجِلَّاتِهِ ثُمَّ أَغْلَقَهَا.
وَمِنْ خَلْفِنَا بَقِيَتِ الْبِلَادُ تَتَبَادَلُ أَسْمَاءَهَا، كَقِدِّيسِينَ يَتَنَازَعُونَ عَلَى رُفَاتٍ وَاحِدَةٍ.
أَمَّا أَنَا، فَدَخَلْتُ فِي لُغَةٍ أُخْرَى، أَخَفَّ، وَأَكْثَرَ خَطِيئَةً، وَأَشَدَّ حَاجَةً إِلَى النَّشِيدِ.
وَأَنْتَ...
اخْتَفَيْتَ فِي الضَّوْءِ، كَأَنَّكَ لَمْ تَكُنْ سِوَى سِرٍّ عَابِرٍ أَدَّى طَقْسَهُ ثُمَّ انْصَرَفَ.
وَكُنَّا، نَعَمْ كُنَّا، نَنْبَعِثُ مِنْ صَمْتٍ أَقْدَمَ مِنْ مِيلَادِ الطِّينِ، شَاعِرًا هَارِبًا مِنْ بِلَادٍ صَارَتْ مَهِيبَةً كَقَبْرٍ، وَفُوتُوغْرَافِيًّا يَحْمِلُ فِي عَيْنِهِ فَصَّ ضَوْءٍ مَكْسُورٍ، نَعْدُو نَحْوَ هُدُوءٍ عَامٍّ، هُدُوءٍ يُشْبِهُ ظَهِيرَةً عَلَّقَهَا مَلَاكٌ عَلَى خَيْطٍ مِنْ نُعَاسٍ.
وَكَانَتِ الْحَيَوَانَاتُ تَقْفِزُ وَتُحَيِّينَا كَأَنَّهَا أَرْوَاحُ الْحُقُولِ تَعُودُ لِتَشْهَدَ مَرُورَنَا، وَعَلَى سَمَاءِ خَدَّيْكَ كَانَتْ أُغْنِيَةٌ تَتَدَلَّى، تُرَنِّمُ بِنَبْرَةٍ رَاهِبَةٍ حِينَ تَسْكُبُ زَيْتَهَا عَلَى النَّافِذَةِ.
وَعَلَى طَحْلَبِ جَبِينِي كَانَتِ ابْتِسَامَةٌ تَتَوَارَى مِثْلَ أَيْقُونَةٍ خَجُولَةٍ فِي دَيْرٍ مُقْفِرٍ.
وَتَفَتَّحَتِ الثِّمَارُ فِي وُجُوهِنَا فَجْأَةً، تَشُقُّ جِلْدَ الْهَوَاءِ، وَتَتَّخِذُ مِنْ صَمْتِنَا أَزْهَارًا تَتَنَفَّسُ.
وَحِينَ مَدَدْتُ بَصَرِي نَحْوَ أَعْنَاقِ الْجِبَالِ، وَرَأَيْتُ الشَّمْسَ تَضَعُ عَلَيْهَا وِشَاحًا يُشْبِهُ خَيْطَ الْمَعْمُودِيَّةِ، هَتَفْتُ:
وَرَاءَ ذَاكَ الْجَبَلِ تَكْمُنُ الْبِلَادُ الْأُخْرَى... الْبِلَادُ الَّتِي يُقَاسُ فِيهَا الزَّمَنُ بِالْفَرَحِ، لَا بِالسَّاعَاتِ.
وَهُنَاكَ، هُنَاكَ فَقَطْ، كُنَّا نُحِسُّ أَنَّنَا نَتَجَاوَزُ الْحُدُودَ... لَا بِالْأَقْدَامِ وَحْدَهَا، بَلْ بِالرُّوحِ حِينَ تَخْطُو خَارِجَ قَفَصِهَا.
عِنْدَهَا أَقُولُ لَكَ: "**اذْهَبْ فِي طَرِيقِكَ، وَكُلْ خُبْزَكَ بِفَرَحٍ**."

لَكِنْ... لَا يَا رَفِيقَ الدَّرْبِ، لَا تَفْتَحْ عَيْنَيْكَ، لَا أُرِيدُ أَنْ أَكُونَ شَاهِدًا عَلَى يَقَظَتِكَ.
كُنْتَ تَمْسِكُ يَقَظَةَ الْفَجْرِ فِي جَيْبِ سَرْوَالِكَ، وَتَضْرِبُ بِهَا الزُّهُورَ، فَتَتَنَاثَرُ حَوْلَكَ كَأَكَالِيلَ تَنْفُذُ إِلَيْكَ بِعُطُورِهَا الشَّذِيَّةِ.
وَكُنْتُ أُرْسِلُ نَظَرَاتِي إِلَيْكَ، فَتَتَنَاثَرُ كَشَرَرَاتٍ مُؤْلِمَةٍ مِنَ الْهَلَعِ، هَلَعٍ يُشْبِهُ صَلَوَاتِ الرُّهْبَانِ حِينَ يُخْطِئُونَ فِي النَّبْرَةِ.
وَأَصْعَدُ بِعَجْرَفَةٍ مِنْ كَلِمَاتٍ نَزِقَةٍ يَخُطُّهَا الْوَصْفُ كَمَا تَخُطُّ الشَّيَاطِينُ أَسْمَاءَ الرَّاحِلِينَ عَلَى أَبْوَابِ الْجَحِيمِ.

وَكُنْتَ تَرَانِي، أَمْضِي بِكَ كَسِلْعَةٍ مُهَرَّبَةٍ عَبْرَ الْحُدُودِ، أَمْضِي بِبُطْءٍ عَلَى الْمُنْحَدَرِ الْوَحْشِيِّ، وَأَنْتَ تَنْظُرُ إِلَى الْأَمَامِ فَتَأْسِرُكَ الْأَبَدِيَّةُ، وَإِلَى الْخَلْفِ فَتَمْحُو الْأَلْوَانُ الْمَسَافَاتِ.
ثُمَّ تَنْظُرُ إِلَيَّ... وَتُغَنِّي، كَأَنَّكَ مُؤَذِّنٌ خَجُولٌ لَا يَجْرُؤُ أَنْ يَسْكُبَ صَوْتَهُ النُّحَاسِيَّ، وَيُرَاهِنُ أَنَّ الْأَيَّامَ سَتُطَوِّقُهُ بِطَوْقٍ مِنْ يَاسَمِينٍ.
وَكُنْتَ تَقُولُ لِي، وَالصَّوْتُ يَخْرُجُ مِنْكَ كَأَنَّهُ أَسْرَارُ الْمَعْمُودِيَّةِ:
عَجِّلْ، أَيُّهَا الْفُوتُوغْرَافِيُّ... عَجِّلْ وَلَا تَتَبَاطَأْ.
وَلْيَكُنِ الْحُلْمُ هُوَ قُنْدِيلَنَا.
مُنْذُ سَنَوَاتٍ وَأَنَا أَتَمَنَّى أَنْ أَرْفَعَ نَشِيدَ الصَّبَاحِ، وَأَنْتَ سَتَرْفَعُهُ مَعِي.
قَدْ لَا تَرْكُضُ مِثْلِي، لَكِنَّكَ سَتَتَوَكَّأُ عَلَى رُؤْيَايَ وَتَرْكُضُ، وَسَيَكُونُ لَكَ أَنْ تَحْلُمَ أَنْتَ أَيْضًا.
وَإِذَا رَكَضَتِ الْأَرْضُ مَعَنَا، فَقَدْ نَقْتَحِمُ غُيُومًا أُرْجُوَانِيَّةً نَحْوَ كَوَاكِبَ أُخْرَى.
صَوِّرْ، أَيُّهَا الْفُوتُوغْرَافِيُّ... صَوِّرْ، تَوَكَّأْ عَلَى دَمِيَ الْمُضَاءِ بِضَوْءٍ كَاشِفٍ، وَالتَقِطِ الصُّوَرَ.
صَوِّرْ.. تَوَكَّأْ عَلَى عَرَبَةٍ عَتِيقَةٍ يَدْفَعُهَا مَلَاكٌ أَعْمَى، وَالتَقِطِ الصُّوَرَ.
صَوِّرْ.. تَوَكَّأْ عَلَى أَنْفَاسِكَ الْمُعَطَّرَةِ بِصَرَخَاتٍ شَيْطَانِيَّةٍ، وَالتَقِطِ الصُّوَرَ.
صَوِّرْ، صَوِّرْ، صَوِّرْ، وَلْتَخْرُجِ الْحُدُودُ مِثْلَ عَذْرَاءَ بِثَوْبٍ مِنْ حَرِيرٍ.[78]

---

78- **هَامِشٌ سِرِّيٌّ**

وَإِذْ قَالَتْ جَوْقَةُ الْأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ: خَلْفَ الْجِبَالِ تَكْمُنُ نَفْسُ الْإِنْسَانِ، وَمَا بَيْنَ الْحُدُودِ يَسْكُنُ مَلَاكٌ لَا يَعْرِفُ أَيْنَ يَضَعُ جَنَاحَهُ.

وَإِذْ قَالَ الْجُنْدِيُّ الْجَرِيحُ: الْفُوتُوغْرَافِيُّ هُنَا لَيْسَ الْفُوتُوغْرَافِيَّ الْعَجُوزَ، هُوَ عَدَسَةُ الرُّوحِ حِينَ تَتَذَكَّرُ أَصْلَ النُّورِ.

وَإِذْ قَالَ الْمَلَاكُ الْأَعْمَى: كُلُّ مَنْ يَعْبُرُ الْحُدُودَ يَعْبُرُ حُدُودَهُ الدَّاخِلِيَّةَ أَوَّلًا.

وَإِذْ قَالَ الْفُوتُوغْرَافِيُّ: لَا صُورَةَ تَبْقَى... إِلَّا تِلْكَ الَّتِي يَلْتَقِطُهَا الدَّمُ حِينَ يَمُرُّ عَلَى حَافَّةِ الْجُرْحِ.

# إِصْحَاحُ 8

# تَرْنِيمَةُ الْجُنْدِيِّ الْجَرِيحِ

وَحَدَثَ أَنَّ الْجُنْدِيَّ الْجَرِيحَ، حِينَ وُضِعَ عَلَى الطَّرِيقِ، لَمْ يُعْطَ خَارِطَةً وَلَا عَهْدًا... أُعْطِيَ أَمْرًا يَجِبُ أَنْ يَحْمِلَهُ كَمَا يُحْمَلُ السِّرُّ الَّذِي لَا يُفْهَمُ. فَقِيلَ لَهُ:

- طَاعَتُكَ دَرْبُكَ.

فَسَارَ، وَعَيْنَاهُ قُفْلَانِ عَلَى أَرْضٍ لَا يَعْرِفُ إِلَى أَيْنَ تَقُودُهُ... وَفِي لَيْلٍ طَوِيلٍ، سَمِعَ صَوْتًا فِي صَدْرِهِ يَقُولُ:

- مَنْ أَطَاعَ بِغَيْرِ بَصِيرَةٍ ضَلَّ، وَلَوْ ظَنَّ أَنَّهُ مُهْتَدٍ.

ثُمَّ ظَهَرَتْ لَهُ دَائِرَةٌ وُسْطَى، لَمْ يَرَ فِيهَا شَيْئًا، وَلَكِنَّهُ شَعَرَ بِثِقْلٍ عَلَى كَتِفَيْهِ... فَنَادَى:

- مَا هُوَ هَذَا الْحِمْلُ الَّذِي لَا أَرَاهُ؟

جَاءَهُ جَوَابٌ لَا يُعْرَفُ مَصْدَرُهُ:

- هُوَ مَا تَتَجَاهَلُهُ فِي نَفْسِكَ، فَيُصِرُّ عَلَى أَنْ تُدْرِكَهُ.

فَعَلِمَ أَنَّ أَثْقَلَ الْأَحْمَالِ هِيَ الَّتِي تُحْمَلُ بِالْقَلْبِ... وَسَارَ حَتَّى رَأَى بُوصَلَةً تَدُورُ، لَا تَسْتَقِرُّ لَهَا وِجْهَةٌ... فَقَالَ:

- أَيُّ طَرِيقٍ يَنْتَظِرُنِي؟

فَسَمِعَ هَذِهِ الْحِكْمَةَ:

- وُجُودُكَ اخْتِيَارٌ... وَمَنْ انْتَظَرَ مَنْ يَدُلُّهُ يَبْقَ فِي الدَّائِرَةِ الْأُولَى.

فَدَخَلَ دَائِرَةً فِيهَا مَرَايَا تُظْهِرُهُ فِي صُوَرٍ مَا كَانَ يَخْشَاهُ... رَأَى مِرْآةً تُظْهِرُهُ مُتْعَبًا، وَأُخْرَى تُرِيهِ مُتَكَبِّرًا، وَثَالِثَةً تُظْهِرُهُ طِفْلًا ضَائِعًا. فَصَاحَ:

- أَيُّ هَذِهِ أَنَا؟

فَقِيلَ لَهُ:
- أَنْتَ كُلُّهَا إِذَا لَمْ تَعْرِفْ نَفْسَكَ، وَوَاحِدٌ مِنْهَا إِذَا عَرَفْتَهَا.
وَجَاءَتْ دَائِرَةٌ جُدْرَانُهَا مِنْ صَمْتٍ مُطْبِقٍ، لَا يُسْمَعُ فِيهَا إِلَّا صَوْتُ نَبْضِهِ... فَأَدْرَكَ أَنَّ هَذِهِ دَائِرَةُ الِامْتِحَانِ، لَيْسَ فِيهَا عَدُوٌّ، إِنَّهَا أَنْتَ وَمَا تُخْفِيهِ. وَقِيلَ لَهُ:
- النَّفْسُ هِيَ الْمَعْرَكَةُ الَّتِي لَا يُعْلَنُ عَنْهَا، وَلَا يُعْرَفُ فَائِزُهَا إِلَّا بَعْدَ رَحِيلِ الْأَصْوَاتِ.
فَلَمَّا خَرَجَ مِنْهَا، وَجَدَ دَائِرَةً تُشْبِهُ الِاسْتِوَاءَ، فَلَا هُوَ يَرْتَقِي وَلَا يَهْبِطُ... فَقَالَ:
- إِنِّي أَمْشِي وَلَا أَتَقَدَّمُ.
فَقِيلَ لَهُ:
- لَيْسَ كُلُّ تَقَدُّمٍ يُرَى، فَبَعْضُهُ يَكْبُرُ فِي الدَّاخِلِ كَمَا يَكْبُرُ الْجَذْرُ فِي التُّرَابِ.
ثُمَّ وَصَلَ إِلَى دَائِرَةٍ أُخْرَى، فَوَجَدَ سِلَاحَهُ يَثْقُلُ عَلَيْهِ أَكْثَرَ مِنْ قَبْلُ. وَسَمِعَ صَوْتًا يَقُولُ:
- لَا قِتَالَ هُنَا، فَلِمَاذَا تَحْمِلُ مَا لَا جِهَةَ لَهُ؟
فَوَضَعَ سِلَاحَهُ... فَخَفَّ كُلُّ شَيْءٍ حَوْلَهُ، كَأَنَّ الدَّائِرَةَ نَفَّسَتِ الصُّعُودَ عَنْ صَدْرِهَا...
وَعِنْدَمَا دَارَ فِي الدَّائِرَةِ الْأَخِيرَةِ، وَجَدَ نَفْسَهُ فِي نُقْطَةِ الْبِدَايَةِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَعُدِ الْجُنْدِيَّ الْجَرِيحَ الَّذِي بُعِثَ أَوَّلَ مَرَّةٍ... فَقِيلَ لَهُ:
- تَعُودُ لِتُتِمَّ مَا بَدَأْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعُودُ بِشَخْصٍ آخَرَ.
فَكَتَبَ عَلَى الْأَرْضِ بِإِصْبَعِهِ:
- مَا النِّهَايَةُ إِلَّا مِرْآةُ الْبِدَايَةِ، وَمَا الْبِدَايَةُ إِلَّا مِفْتَاحُ النِّهَايَةِ.
وَانْطَوَى السِّفْرُ عَلَى كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ:
- مَنْ دَارَ عَرَفَ، وَمَنْ عَرَفَ سَلِمَ.

# النَّشِيدُ الثَّامِنُ

## (مَزْمُورٌ يُسْمَعُ مِنْ دَيْرٍ غَارِقٍ فِي الثَّلْجِ)

كُنْتَ تَلْبَسُ تَاجَكَ كَمَا يَلْبَسُ الْمُلُوكُ هَالَةً مِنْ رَمَادٍ، وَتَتَسَرْبَلُ بِأَبَّهَتِكَ كَأَنَّكَ آخِرُ النَّاجِينَ مِنَ الطُّوفَانِ. وَكُنْتَ تَعْدُو عَبْرَ دَيَامِيسِ الْحَيَاةِ الْمُظْلِمَةِ، وَتَعْدُو خَلْفَكَ بِرَكُ الدَّمِ كَصَلَوَاتٍ تَفْلِتُ مِنْ حَنْجَرَةِ كَاهِنٍ مَذْعُورٍ. وَكُنْتُ أَتَرَقَّبُكَ بِعُرُوقٍ بَارِدَةٍ، عُرُوقٍ جَفَّ مِنْهَا الدَّمُ كَمَا تَجِفُّ الْبِرْكَةُ حِينَ يَهْجُرُهَا الْمَلَاكُ الْحَارِسُ.

وَأَقُودُكَ إِلَى مِيعَادٍ مُمْتَلِئٍ بِالطَّعَنَاتِ وَالصَّرَخَاتِ وَجِرَاحِ جُثَثٍ فَغَرَتْ أَفْوَاهَهَا، وَتَنْزِفُ مِنْ كُلِّ رُكْنٍ مِنْهَا نُبُوءَةً حَمْرَاءَ.

أَيَّتُهَا الْأَفْلَاكُ اللَّامَنْظُورَةُ،
أَتَرَيْنَ كَيْفَ خَارَتْ قُوَايَ، وَذَبُلَ خَيَالِي، وَكَأَنَّنِي لَمْ أَكُنْ سِوَى الْفُوتُوغْرَافِيِّ الَّذِي يَسْتَنْفِرُ اللَّهَاثَ الْمُكَهْرَبَ، وَيَجْعَلُ حَدِيثَهُ هَذَيَانَاتٍ تَمْشِي عَلَى قَدَمَيْهَا؟ وَكَأَنَّنِي، فِي تِلْكَ السَّاعَةِ الْجَهَنَّمِيَّةِ مِنْ ذَلِكَ الزَّمَنِ الْكَرِيهِ، كُنْتُ أَرْسُمُ أُفُقًا فِي الْبُرْهَةِ الْحَاضِرَةِ، وَأُسْنِدُ وَجْهَ مَوْتِكَ الْعَارِي فَوْقَ الْجَبَلِ الثَّلْجِيِّ، كَأَنَّمَا أُعِيدُ تَرْتِيبَ مَوْسِمِكَ الْأَخِيرِ.

رُبَّمَا لِأَنَّ صَوْتِي عَلَا مِنْ فِطْرَةِ الصَّوَاعِقِ، وَرُبَّمَا لِأَنَّ قَبْضَةً مِنَ الْآجُرِّ كَانَتْ تَرْفَعُ غِطَاءَ الْقَبْرِ كَيْ تَمْنَحَكَ دَرْبًا لَا يَرَاكَ فِيهِ الْمَوْتُ سَرِيعًا. وَرُبَّمَا . وَأَنَا أَعْرِفُ هَذَا . لِأَنَّكَ كُنْتَ قَرِيبًا مِنْ وَحْلِ أَيَّامِنَا، كَالْمُتَسَوِّلِ الَّذِي يَنْزِعُ الرُّخَامَ عَنْ حَيَاةٍ بَاطِلَةٍ يَتَعَذَّرُ شَرْحُهَا، كَمَا تُنْتَزَعُ رُتْبَةُ الْخَائِنِ.

وَلِأَنِّي كُنْتُ دَلِيلَكَ، كُنْتُ أَقُودُ خُطَاكَ وَأَصْعَدُ بِكَ أَسْوَارَ الْمَقْبَرَةِ. وَلِأَنِّي كَبُوصَلَةٍ لَا تَرْتَجِفُ إِلَّا إِذَا عَبَرْتَ دَمَكَ، أَشَرْتُ لَكَ نَحْوَ الْمَمَالِكِ الْعَذْرَاءِ.

لِهَذَا أَرْزَحُ تَحْتَ وَطْأَةِ نَفْسِي الْمُدَنَّسَةِ، وَأَنْثُرُ عَلَيْكَ الْعَمَاءَ كَنَسْرٍ عَجُوزٍ تَتَسَاقَطُ دُمُوعُهُ الرَّمَادِيَّةُ عَلَى لَحْمِ الْغُيُومِ. وَسَتَشْهَدُ الذَّبَائِحُ أَنَّكَ كَامِنٌ فِي الْأَضَاحِي السَّخِيَّةِ، وَفِي تِلْكَ الْخَلَوَاتِ الَّتِي يَنْهَضُ فِيهَا أَثَرُ الْمَلَائِكَةِ عَلَى التُّرَابِ.

أَيَّتُهَا الْأَفْلَاكُ، أَسْتَحْلِفُكِ بِالْآلِهَةِ... أَلَّا تَذْكُرِي أَنَّنِي لَمْ أَكُنْ أَقُودُ شَاعِرًا هَارِبًا، وَإِنَّمَا كُنْتُ أُؤَجِّلُ سُقُوطَهُ. وَكَانَ الطَّرِيقُ بَيْنَ الْبَلَدَيْنِ أَقْصَرَ مِنَ الْمَسَافَةِ بَيْنَ مَا أَرَاهُ وَمَا أَجْرُؤُ عَلَى الِاحْتِفَاظِ بِهِ.

أَنَا رَجُلٌ بِلَا يَقِينٍ. أَحْمِلُ الْكَامِيرَا كَمَا يَحْمِلُ آخَرُونَ تَمِيمَةً، لِتَمْنَحَنِي الْحِمَايَةَ، وَلِتَشْهَدَ أَنَّنِي كُنْتُ هُنَا حِينَ عَبَرَ الْخَوْفُ جَسَدًا آخَرَ.

عَلَّمَتْنِي الْمِهْنَةُ أَنَّ الْخَطِيئَةَ هِيَ الصُّورَةُ الثَّابِتَةُ، أَنْ تُبْقِيَ مَا كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَزُولَ، وَأَنْ تَقُولَ لِلَّحْظَةِ: لَنْ تَمُوتِي الْآنَ.

أَيَّتُهَا الْأَفْلَاكُ، أَسْتَحْلِفُكِ بِالْآلِهَةِ... لَيْتَكِ تَقُولِينَ نِيَابَةً عَنِّي مَا أُرِيدُ أَنْ أَقُولَهُ، حَتَّى تَذْكُرَ الْحَيْرَةُ فَرَاغَهَا، وَتَذْكُرَ الْحَيَوِيَّاتُ الْجَامِحَةُ أَيَّةَ حُرُوبٍ كَانَتْ تَدُورُ فِي رَأْسِي. وَتَذْكُرَ الْعِبَارَةُ كَيْفَ اهْتَدَى الْيَقِينُ إِلَى الْقَوْلِ، وَكَيْفَ صَارَ صَوْتُهُ نَارًا تَتَكَوَّرُ فَوْقَ الثَّلْجِ. وَتَذْكُرَ الصَّلَوَاتُ كَيْفَ بَدَأَ قُدَّاسُ الرَّكْضِ، شَاعِرٌ هَارِبٌ وَفُوتُوغْرَافِيٌّ عَجُوزٌ، يَقُودُهُمَا الْخَيَالُ نَحْوَ مَذَابِحَ مُزَيَّنَةٍ بِأَكَالِيلِ الْوَرَعِ.

وَكَيْفَ بَدَأْتُ أَحْلُمُ . مِثْلَكَ . فِي اللَّحْظَةِ الَّتِي أَحْسَسْتُ فِيهَا أَنَّ سَاقَيَّ قَدِ تُكَوَّرَتَا، وَأَوْشَكَتَا أَنْ تَتَمَزَّقَا. وَفِي اللَّحْظَةِ الَّتِي كَانَتِ الْأَرْضُ تَطُولُ وَتَتَوَالَدُ، كَأَنَّهَا سُلَالَةٌ غَرِيبَةٌ مِنْ أَعْرَاقِ لَيْلٍ مَجْهُولٍ. وَفِي اللَّحْظَةِ الَّتِي كَانَتِ الْأَقْدَامُ تُسْرِعُ كَمَوْجٍ مَهْزُومٍ. وَفِي اللَّحْظَةِ الَّتِي بَدَا فِيهَا الْجَبَلُ بَعِيدًا كَالْأَبَدِ، مُثْقَلًا بِأَسْرَارِ كُهُولَتِهِ.

وَفِي لَحْظَةٍ تَوَقَّفْتُ مُرْتَعِدًا،
عَازِمًا عَلَى الْهَرَبِ،
فَأَوْقَفَتْنِي مِنْكَ نَظْرَةٌ نَاعِمَةٌ دَافِئَةٌ،
كَأَنَّ مَلَاكًا وَضَعَ يَدَهُ عَلَى كَتِفِ رُوحِي...
وَحِينَ نَظَرْتُ إِلَى عَيْنَيْكَ، ارْتَفَعَ فِي دَاخِلِي صَوْتٌ مِثْلُ هَدِيرٍ يُوقِظُ حِجَارَةَ الْقِيَامَةِ:

"يَا إِلَهًا عَزِيزًا قَدِيرًا، يَا قَوِيًّا غَامِضًا عَالِيًا، مَا الَّذِي يَحْدُثُ لِي؟... أَهَذَا أَنْتَ، أَيُّهَا الْمَوْتُ، أَيُّهَا الْخَاطِئُ كَالشَّبَحِ؟ أَحِسُّ بِاقْتِرَابِكَ، وَأَسْمَعُ خُطَاكَ، وَأَعْرِفُ أَنَّنِي لَسْتُ وَحْدِي... مَعِي شَاعِرٌ هَارِبٌ.

هَذَا لَكَ: خُذْهُ، احتَضِنهُ، وَاضْمُمْهُ إِلَى لَيْلِكَ. أَعْرِفُ هَذِهِ أَفْرَاحَكَ، وَهَذِهِ بَهْجَتَكَ يَا مَوْتُ... لَكِنْ لِمَاذَا تَتَرَاجَعُ مُسْرِعًا؟ أَلِأَنَّكَ سَمِعْتَ خُطَى الْعَسْكَرِ تَقْتَرِبُ؟ أَمْ أَنَّ رُسُلَكَ جَاءُوا لِمُزْحَةٍ دَامِيَةٍ؟"[79]

# إِصْحَاحُ

## 9

## مَنْحُوتَةُ الرِّيحِ

وَفِي الْمَرَافِئِ لَمْ يَرْوِ الصَّيَّادُونَ عَنِ السُّقُوطِ، عَنْ ذَلِكَ الِارْتِجَافِ الْمُتَرَدِّدِ بَيْنَ أَنْ يَمُدَّ الْجَنَاحَ لِلسَّمَاءِ أَوْ يَضُمَّهُ إِلَى الصَّدْرِ... قَالَ شَيْخُهُمْ:

- الطَّيَرَانُ لَيْسَ ارْتِفَاعًا... هُوَ قُدْرَةُ الْمَرْءِ عَلَى الِاعْتِرَافِ بِحُدُودِ مَا يَحْمِلُ.

عِنْدَمَا صَعِدَ، كَانَ الضَّوْءُ مِرْآةً تَكْشِفُ الطَّبَقَاتِ الْخَفِيَّةَ مِنْ إِرَادَتِهِ... وَكَانَ كُلُّ شِبْرٍ يَقْطَعُهُ يَسْأَلُهُ:

- أَتُرِيدُ أَنْ تُثْبِتَ أَنَّكَ تَسْتَطِيعُ؟ أَمْ لِأَنَّكَ لَا تَعْرِفُ طَرِيقًا آخَرَ؟

---

79- (يُكْتَبُ بِخَطٍّ نَحِيلٍ بَيْنَ الظِّلَالِ)

قَالَ النَّاسِخُ: هَذَا هُوَ الْمَوْضِعُ الَّذِي يَخْتَبِرُ فِيهِ الْمَوْتُ قَلْبَهُ، فِيهِ يَرْتَعِشُ مِثْلَ صَبِيٍّ فَقَدَ لُعْبَتَهُ. وَكَتَبَ تَحْتَ الطِّينِ: الْفُوتُوغْرَافِيُّ لَيْسَ شَاهِدًا... إِنَّهُ الْمَلَاكُ الضَّائِعُ الَّذِي نُزِعَ مِنْ سِفْرِهِ وَأُلْقِيَ فِي وَادِي الْبَشَرِ. وَأَشَارَ بِالدَّمْعِ: كُلُّ خُطْوَةٍ هُنَا هِيَ صَدًى لِخُطْوَةٍ أَقْدَمَ مِنْهَا، خُطْوَةٍ خَطَاهَا إِيكَارُ حِينَ نَسِيَ جَنَاحَيْهِ.

وَخَتَمَ:

**الْمَوْتُ لَا يَأْتِي لِيَأْخُذَ، الْمَوْتُ يَأْتِي لِيُذَكِّرَ... يُذَكِّرُنَا بِالْجَسَدِ حِينَ صَارَ ظِلًّا، وَبِالظِّلِّ حِينَ بَدَأَ يُفَكِّرُ.**

فَصارَ التَّحْلِيقُ مُفَاوَضَةً طَوِيلَةً بَيْنَ صَوْتَيْنِ فِي دَاخِلِهِ... أَحَدُهُمَا يُذَكِّرُهُ بِالشَّمْعِ، وَالْآخَرُ يُلَوِّحُ لَهُ بِالْفَرَاغِ كَفَضَاءٍ يُمْكِنُ أَنْ يُسَمِّيَهُ وَطَنَهُ...
لَمْ يَسْقُطْ عِنْدَمَا حَمِيَ الضَّوْءُ، وَلَا عِنْدَمَا رَأَى فِي الْوَمِيضِ انْعِكَاسَ وَجْهِ أَبِيهِ وَهُوَ يَرْبِطُ الرِّيشَ فِي صَمْتٍ لَمْ يَفْهَمْهُ حِينَئِذٍ... وَلَمْ يَسْقُطْ حِينَ أَدْرَكَ أَنَّ السُّقُوطَ عَوْدَةٌ إِلَى السُّؤَالِ الْأَوَّلِ: مَا الَّذِي نَأْخُذُهُ مِنْ إِرْثِنَا؟ وَمَا الَّذِي نَتْرُكُهُ وَرَاءَنَا؟ عِنْدَمَا انْتَشَلَتْهُ الْأَمْوَاجُ، وَضَعَتْهُ عَلَى رَمْلٍ بَارِدٍ كَفَصْلٍ جَدِيدٍ... وَجَاءَ الصَّيَّادُونَ بِوَصْفِهِمْ شُهُودًا عَلَى بِدَايَةٍ تَحْمِلُ فِي طَيَّاتِهَا طَابَعًا بَشَرِيًّا خَالِصًا: أَنْ يُخْطِئَ الْمَرْءُ حَتَّى يَتَعَرَّفَ إِلَى مَعْنَى إِرَادَتِهِ.
وَفِي اللَّيْلِ لَمَعَتْ خُطُوطٌ خَفِيفَةٌ عَلَى صَفْحَةِ الْمَوْجِ، كَأَنَّ الْبَحْرَ يُعِيدُ كِتَابَتَهُ... فَقَالَ فِي نَفْسِهِ:
- لَعَلَّ الْإِرْثَ خَامَةٌ تَحْتَاجُ إِلَى صَائِغٍ... وَلَعَلَّ الْعَوْدَةَ خُطْوَةٌ تُمَهِّدُ لِصُعُودٍ يَصْنَعُهُ الْمَرْءُ بِأَجْنِحَةٍ لَا يَهَبُهَا أَحَدٌ لِغَيْرِهِ.
مَعَ طُلُوعِ الْفَجْرِ، قَامَ إِيكارُ... حَمَلَ مَعَهُ مَا تَبَقَّى مِنَ الْجَنَاحَيْنِ كَقِطَعٍ رَمْزِيَّةٍ تَعَلَّمَ مِنْهَا:
- أَنَّ مَا نَرِثُهُ بِدَايَةٌ، وَأَنَّ مَا نَخْتَارُهُ مَصِيرٌ.
مَضَى يُحْصِي خُطُوَاتِهِ عَلَى رَمْلٍ أَصْبَحَ صَدِيقًا، وَيَبْحَثُ عَنْ طَرِيقٍ لَا يَقُودُهُ إِلَى السَّمَاءِ وَلَا إِلَى الْهَاوِيَةِ... طَرِيقٍ يَقُودُهُ إِلَى صُورَةٍ جَدِيدَةٍ لِنَفْسِهِ.
جَلَسَ مِثْلَ مَلَاكٍ أَعْمَى، وَنَشَرَ الْجَنَاحَيْنِ أَمَامَهُ كَمَخْطُوطَتَيْنِ مِنْ زَمَنَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ:
**فِي الْأُولَى**: صُورَةُ الْأَبِ مُحَاطَةٌ بِحُدُودِ خَوْفِهِ، وَصُورَةُ الِابْنِ يَتَدَرَّبُ عَلَى نَحْتِ الرِّيحِ بِأَدَوَاتٍ مِنْ شَكٍّ وَشَجَاعَةٍ. رَأَى الشَّمْعَ كَنُدْبَةٍ، وَرَأَى الرِّيشَ كَشَظَايَا قَرَارٍ، وَرَأَى الْمَوْتَ كَذِكْرَى لَا يُمْكِنُ مَحْوُهَا...
**وَفِي الثَّانِيَةِ**: رَأَى صُوَرًا مُخْتَلِفَةً:
* صُورَةَ الْبَرْقِ وَهُوَ يَقُودُ الْعَدَمَ الْغَسَقِيَّ عَلَى مَتْنِ بَارِجَةٍ خَرْسَاءَ.

* صُورَةَ جُثَّةٍ تَحْتَضِنُ ثَلْجًا أَشْقَرَ.
* صُورَةَ الْفُوتُوغْرَافِيِّ مُحَاطًا بِحُدُودِ الطَّمَعِ.
* صُورَةَ الشَّاعِرِ يَحْلُمُ بِاجْتِيَازِ الْحُدُودِ.
* صُورَةَ الْمَلَاكِ الْأَعْمَى وَهُوَ يَدْفَعُ عَرَبَةَ السَّرْدِ.

٩

# النَّشِيدُ التَّاسِعُ

## مِنْ سِفْرِ الظِّلَالِ الرَّاجِفَةِ

(مَخْطُوطٌ يَتْلُوهُ نَاسِخٌ فِي دَيْرٍ مُحْتَرِقٍ عِنْدَ تُخُومِ الْعَالَمِ، مَكْتُوبٌ عَلَى وَرَقٍ أَسْوَدَ، وَبِحِبْرٍ قُطِرَ مِنْ أَسَاوِرِ الْمَلَائِكَةِ السَّاقِطَةِ)

وَهُنَاكَ، فِي تُخُومِ اللَّيْلِ الَّذِي يَتَدَلَّى كَثَوْبٍ مَقْلُوبٍ عَلَى الدُّنْيَا، سَمِعْتُكَ يَا إِيكَارُ تُنَادِينِي بِصَوْتٍ فِيهِ وَهَنُ السُّقُوطِ الْأَوَّلِ:

- قَدْ جُرِحْتَ يَا حَامِلَ الْمِرْآةِ الْفُوتُوغْرَافِيَّةِ.

فَأَجَبْتُكَ، وَأَنَا أَتَحَسَّسُ قَدَمِيَ الَّتِي نَزَفَتْ كَحَرْفٍ انْكَسَرَ مِنْ إِنْجِيلٍ مَنْسِيٍّ:

- آه... شَقَّتِ الْأَرْضُ لَحْمِي وَأَنَا أَعْدُو.

قُلْتَ بِصَوْتٍ يُشْبِهُ سَعَفَةً تَنْحَنِي تَحْتَ الْمَطَرِ:

- هَلْ نَتَوَقَّفُ؟

فَقُلْتُ لَكَ، وَكُنْتُ حِينَئِذٍ أَعْرِفُ أَنَّ التَّوَقُّفَ فِي عُرْفِ الْهَارِبِينَ خَطِيئَةٌ لَا تُغْتَفَرُ:

- كَلَّا... كَلَّا، لِنُوَاصِلِ السَّيْرَ، فَإِذَا تَوَقَّفْنَا لَحِقَ بِنَا الْعَسْكَرُ، وَكَتَبُوا أَسْمَاءَنَا عَلَى النُّعُوشِ.

فَتَنَادَيْنَا كَرَاهِبَيْنِ يُسْرِعَانِ لِإِطْفَاءِ شَمْعَةِ الْهَيْكَلِ قَبْلَ انْطِفَاءِ الرُّوحِ:

- هَيَّا بِنَا...

- هَيَّا بِنَا.

وَكَانَ اللَّيْلُ يَنْزِلُ عَلَيْنَا كَظَلَامِ مَدِينَةٍ مُطْفَأَةٍ مِنَ السَّمَاءِ، وَانْطَفَأَ الْقَمَرُ فَوْقَ رُؤُوسِنَا كَجَرَّةِ زَيْتٍ انْسَكَبَ نُورُهَا، فَتَدَلَّى فِي الْخَرَائِبِ كَخِرْقَةٍ مِنْ ضَجِيجٍ قَدِيمٍ.

لَمْ نَكُنْ نَرْغَبُ فِي الْكَلَامِ، لَا أَنْتَ وَلَا أَنَا، لَيْسَ لِأَنَّ التَّعَبَ ثِقْلٌ عَلَى الْعِظَامِ، وَإِنَّمَا لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَّا كَانَ يُصْغِي إِلَى نَبْضِ حُدُودِهِ الْخَاصَّةِ، تِلْكَ الْحُدُودِ الْقَرِيبَةِ كَالْمُفَاجَأَةِ، وَالْغَائِرَةِ كَالْمُفَاجَأَةِ، حُدُودٌ تَتَعَمَّدُ بِدِمَاءِ الْمَذَابِحِ وَبِتَرَاتِيلِ الْهَارِبِينَ.

كُنْتَ تَشُقُّ الْعَتَمَةَ بِأَحْلَامِكَ وَآلَامِكَ، بِوَجَعِكَ وَيَأْسِكَ، كَمَا يَشُقُّ رَاهِبٌ مَنْسِيٌّ قَمِيصَ الْقِيَامَةِ.

كُنْتَ تَمْشِي كَمَنْ سَلَّمَ نَفْسَهُ لِلشَّوْقِ، وَاقْتَرَبَ مِنْ بَيْتٍ هَجَرَهُ الْأَحِبَّاءُ مُنْذُ أَلْفِ قُدَّاسٍ، وَرَفَعَ قَبْضَتَهُ عَلَى بَابٍ قَدِيمٍ لِلْقَدَرِ، بَابٍ لَا يُفْتَحُ إِلَّا لِمَنْ يَمُوتُونَ وُقُوفًا فَوْقَ الرَّحْبَةِ الْمَهِيبَةِ.

وَحِينَ تَلَاقَتْ عَيْنَاكَ بِعَيْنَيَّ، لَمْ أَعْرِفْ أَيُّ لَيْلٍ نَهَضَ مِنَ الْهَاوِيَةِ، وَأَيُّ صُوَرٍ سَوْدَاءَ سَالَتْ أَمَامِي.

كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّ سَاعَةَ الْهُرُوبِ قَدْ دَقَّتْ، هَا هُمْ يَقْتَرِبُونَ، وَهَا أَنَا أَسْمَعُ طَلْقَ النِّيرَانِ، وَأَسْمَعُ فَرْقَعَةً وَصُرَاخًا، وَأَسْمَعُ صَوْتَ ذِئَابٍ جَائِعَةٍ تَبْصُقُ عُوَاءَهَا قِطَعًا مِنَ اللَّحْمِ، وَأَصْوَاتًا تَتَكَسَّرُ فِي الْهَوَاءِ كَأَيْقُونَاتٍ مُحَطَّمَةٍ.

وَكَانَ الْخَيَالُ يَقُودُهُمَا: شَاعِرٌ هَارِبٌ وَفُوتُوغْرَافِيٌّ عَجُوزٌ (هَكَذَا يَرْوِي الْمَلَاكُ الْأَعْمَى).

وَلَمَّا اشْتَدَّ الرَّكْضُ، تَرَكْتُكَ تَتَقَدَّمُ حِينَ غَمَرَنِي ارْتِيَابٌ كَمَوْجَةٍ لَا جِهَةَ لَهَا. وَتَوَقَّفْتُ لَحْظَةً، فَرَأَيْتُ شَجَرَةً عَظِيمَةً تَمُدُّ أَغْصَانَهَا الَّتِي نَخَرَهَا الصَّقِيعُ كَشُرُفَاتِ دَيْرٍ يَسْكُنُهُ الْبَرْدُ.

فَوَثَبْتُ نَحْوَهَا، وَتَعَلَّقْتُ بِفُرُوعِهَا، وَانْزَلَقْتُ فِي جَوْفِ الظِّلَالِ دُونَ تَفْكِيرٍ، كَمَا يَنْزَلِقُ التَّائِبُ فِي جُرْحِ اعْتِرَافِهِ.

أَمَّا أَنْتَ، فَمَضَيْتَ كَوَمِيضٍ يَنْقَضُّ فِي ضُلُوعِ حَجَرٍ قَدِيمٍ، تَدْفِنُ خُطُوَاتِكَ كَأَنَّكَ تَضَعُ قُبُورًا صَغِيرَةً لِلصَّوْتِ.

خُطْوَةً... ثُمَّ خُطْوَةً... ثُمَّ قَبْرًا آخَرَ لِلصَّدَى.

وَلَمَّا أَخَذْتَ تَصْعَدُ الْجَبَلَ، هَجَمَ عَلَيْكَ اللَّيْلُ بِقُبَّعَتِهِ الْوَاسِعَةِ مِنَ الْوَحْشَةِ، وَصَارَتِ الْأَرْوَاحُ [80] تَدُورُ حَوْلَكَ بِطَيَرَانٍ خَافِتٍ، كَأَنَّكَ الْوَارِثُ الشَّرْعِيُّ لِمَوْتٍ لَمْ يَكْتَمِلْ.

---

80- **هَامِشُ عَوْدَةِ الْأَرْوَاحِ إِلَى أَجْسَادٍ لَيْسَتْ لَهَا (مِنْ مَخْطُوطٍ لَمْ أَجْرُؤْ عَلَى الْإِعْلَانِ عَنْ وُجُودِهِ):**

هَذِهِ الصَّفَحَاتُ الْخَفِيَّةُ أُدَوِّنُ فِيهَا مَا أَخْشَاهُ: أَنَّ الْأَرْوَاحَ لَمْ تَعُدْ مُلْتَزِمَةً بِأَجْسَادِهَا، وَأَنَّ اللَّيْلَ صَارَ سُوقًا تَتَبَادَلُ فِيهِ الْأَنْفَاسُ أَمْلَاكَهَا... إِنَّ الرُّوحَ إِذَا عَجَزَتْ عَنْ أَنْ تَعُودَ إِلَى جَسَدِهَا

وَهَبَّتْ رِيحٌ ضَعِيفَةٌ، حَمَلَتْ إِلَى أَنْفِكَ رَائِحَةً نَتِنَةً، رَائِحَةَ جَسَدٍ لَمْ يَعُدْ أَحَدٌ يَتَذَكَّرُ اسْمَهُ.

فَقُلْتَ بِصَوْتٍ كَنَسِيٍّ، كَأَنَّكَ تَتْلُو خَبَرَ مَوْتٍ قَدِيمٍ:
- هُنَا مَاتَ إِنْسَانٌ.
ثُمَّ الْتَفَتَّ إِلَيَّ، كَأَنَّكَ تُرِيدُ أَنْ تُرِيَكَ الْأَرْضُ نَفْسُهَا كَيْفَ يَهْرُبُ الْإِنْسَانُ مِنَ الْإِنْسَانِ.
لَمْ تَلْتَفِتْ أَنْتَ، وَلَمْ أَلْتَفِتْ أَنَا، إِذْ كَانَ الْمَدِيحُ الْوَحِيدُ لِلنَّاجِينَ هُوَ الْهَرَبُ... مِنْ مَذْبَحٍ إِلَى مَذْبَحٍ.

وَلَمَّا انْفَتَحَتِ الرُّؤْيَا أَمَامَكَ، لَمْ تَرَ أَشْيَاءَ... رَأَيْتَ عَلَامَاتٍ.
رَأَيْتَ مَا يُشْبِهُ الْأَعَاجِيبَ الَّتِي لَا تُرَى، وَقَرَابِينَ تُدَلَّى مِنْ غُصُونِ الْهَوَاءِ، وَأَجْرَامًا تُطْفِئُ جُلُودَهَا، وَسُهُولًا تُصَلِّي فِي الْعَرَاءِ، وَأَيَّامًا تُلَوِّحُ لَكَ مِنْ مَنَافِيهَا، وَأَسْلِحَةً تَلْمَعُ كَخَطَايَا لَمْ تَغْتَسِلْ بَعْدُ.

---

الْأَصْلِيِّ، بَحَثَتْ عَنْ جَسَدٍ آخَرَ، مَهْجُورٍ، مُنْهَكٍ، مُرْتَجِفٍ، وَدَخَلَتْهُ كَمَا يَدْخُلُ الْغَرِيبُ بَيْتًا بِلَا قُفْلٍ... وَفِي الْهَامِشِ كَتَبْتُ مَا لَا يَنْبَغِي أَنْ يُقَالَ: (الْأَرْوَاحُ الَّتِي تَضِلُّ طَرِيقَهَا تَصِيرُ حَادَّةً كَالسَّكَاكِينِ، لَا تَسْتَقِرُّ فِي صَدْرٍ إِلَّا وَتَشُقُّ فِيهِ نَافِذَةً نَحْوَ مَاضِيهَا)... أَخْبَرَنِي ظِلُّ امْرَأَةٍ مَاتَتْ فِي الْمَخْفَرِ أَنَّهَا وَجَدَتْ جَسَدًا يَلِيقُ بِجُرْحِهَا، فَدَخَلَتْهُ، فَارْتَجَفَ الرَّجُلُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، ثُمَّ صَارَ يَتَكَلَّمُ بِكَلِمَاتٍ لَيْسَتْ لَهُ، وَيَرَى أَحْلَامًا لَا يَعْرِفُهَا، وَيَبْحَثُ عَنْ قُبُورٍ لَا تَخُصُّهُ... احْذَرُوا، (إِنْ كُنْتُمْ تُصْغُونَ)، فَالْأَرْوَاحُ الَّتِي تَعُودُ إِلَى أَجْسَادٍ لَيْسَتْ لَهَا تَتْرُكُ عَلَامَةً وَاحِدَةً لَا تَخْتَفِي: ضَوْءًا خَفِيفًا خَلْفَ الْعَيْنِ، كَأَنَّ أَحَدًا آخَرَ يَنْظُرُ مِنَ الدَّاخِلِ... أَنَا النَّاسِخُ الَّذِي لَمْ يَهْدَأْ لَيْلُهُ، أَعُوذُ مِنَ اللَّحْظَةِ الَّتِي أَسْتَيْقِظُ فِيهَا فَأَجِدُ رُوحِي قَدْ عَادَتْ إِلَى شَخْصٍ آخَرَ، وَبَقِيتُ أَنَا وَرَقَةً فَارِغَةً فِي كِتَابِ هَذَا الْعَالَمِ.

# إِصْحَاحُ

## 10

# كِتَابُ الْأَبِ وَالِابْنِ

## (تَمْهِيدٌ: نَقْشٌ عَلَى حَجَرٍ مَكْسُورٍ)

لَيْسَ كُلُّ ارْتِفَاعٍ خَلَاصًا، وَلَا كُلُّ نُورٍ رَحْمَةً.
مَنْسُوبٌ إِلَى ظِلِّ الْأَبِ

تَرْنِيمَةٌ

(1)

### لَاهُوتُ الْقِيَاسِ

**(صَوْتُ ظِلِّ الْأَبِ):** يَا بُنَيَّ، لَقَدْ صَنَعْتُ لَكَ جَنَاحَيْنِ... لِتَنْجُو. الْفَنُّ تَفَاوُضٌ مَعَ الْحُدُودِ، وَلَيْسَ كَسْرًا لَهَا. وَالنُّورُ الَّذِي تَرَاهُ... اخْتِبَارٌ. أَنَا أَعْرِفُ الشَّمْسَ، كَإِلَهٍ، كَمَنَاجِلَ مُضِيئَةٍ، فَكُلُّ اقْتِرَابٍ زَائِدٍ يُفْقِدُكَ شَكْلَكَ... فَابْقَ حَيْثُ يَمْكِنُ لِلْمَعْنَى أَنْ يَبْقَى مَعْنًى.

تَرْنِيمَةٌ

(2)

### إِنْجِيلُ الرُّؤْيَا

**(رَدُّ إِيكَارَ):** يَا أَبِي، أَنْتَ تَتَكَلَّمُ بِلُغَةِ الْبَقَاءِ، وَأَنَا أَسْمَعُ نِدَاءَ التَّحَوُّلِ... مَا تُسَمِّيهِ خَطَرًا أَرَاهُ بَابًا، وَمَا تُسَمِّيهِ نِهَايَةً أَرَاهُ بِدَايَةً بِلَا اسْمٍ. أَنَا لَا أَبْحَثُ عَنِ الْحَقِيقَةِ حِينَ لَا تَعُودُ قَابِلَةً لِلْحَمْلِ... وَلَا أَبحَثُ عَنِ النَّجَاةِ... أَجْنِحَتِي صَلَاةٌ.

(3)

## جَدَلُ الطَّقْسِ وَالِاحْتِرَاقِ

**قَالَ ظِلُّ الْأَبِ:** اللّٰهُ نِظَامٌ.

**قَالَ إِيكارُ:** اللّٰهُ فَيْضٌ.

**قَالَ ظِلُّ الْأَبِ:** الطَّقْسُ يَحْفَظُ السِّرَّ.

**قَالَ إِيكارُ:** الِاحْتِرَاقُ يَكْشِفُهُ.

وَبَيْنَ الْقَوْلَيْنِ ارْتَجَفَ الْهَوَاءُ، كَأَنَّ الْخَلِيقَةَ نَفْسَهَا تَتَذَكَّرُ انْقِسَامَهَا الْأَوَّلَ.

(4)

## صُعُودٌ لَا يُقَاسُ (طَرِيقٌ بَيْنَ لَاهُوتَيْنِ)

مَضَى إِيكارُ بَيْنَ تَفْسِيرَيْنِ لِلْوُجُودِ:

وُجُودٍ يُرَادُ لَهُ أَنْ يَسْتَمِرَّ، وَوُجُودٍ يُرَادُ لَهُ أَنْ يَنْكَشِفَ.

كَانَتْ كُلُّ رَفَّةِ جَنَاحٍ تَقْطَعُ حُجَّةً، وَكَانَ كُلُّ ارْتِفَاعٍ يُبْطِلُ قَانُونًا.

(5)

## مُرَاقَبَةُ ظِلِّ الْأَبِ:

وَبَقِيَ ظِلُّ الْأَبِ يَنْظُرُ، كَكَاهِنٍ يَرَى طَقْسًا خَرَجَ عَنْ نَصِّهِ... أَرَادَ أَنْ يَصْرُخَ:

- عُدْ.

لَكِنَّ الْكَلِمَةَ سَقَطَتْ قَبْلَ أَنْ تُولَدَ، لِأَنَّ مَا كَانَ يَحْدُثُ تَجَاوَزَ الْأُبُوَّةَ نَفْسَهَا.

**(6)**

## انْكِسَارُ الْمُعَادَلَةِ

وَفَجْأَةً... صَارَتِ الشَّمْسُ كَائِنًا يَسْتَجِيبُ... اقْتَرَبَ مِنْهَا إِيكارُ، كَمَنْ يَتَعَرَّفُ إِلَى أَصْلِهِ... وَبَدَأَ كُلُّ مَا حَسِبَهُ الْأَبُ قَوَانِينَ يَتَفَكَّكُ كَكِتَابَةٍ عَلَى مَاءٍ.

**(7)**

## سِرُّ الذَّوَبَانِ (لَاهُوتٌ مُضَادٌّ)

**قَالَ ظِلُّ الْأَبِ فِي دَاخِلِهِ:** سَيَذُوبُ.

لَكِنَّ الَّذِي ذَابَ كَانَ الْيَقِينُ وَلَيْسَ الشَّمْعَ. رَأَى أَنَّ الْحِسَابَ لَا يَكْفِي، وَأَنَّ مَا لَمْ يُقَسْ قَدْ يَكُونُ هُوَ الْحَقِيقَةَ.

**(8)**

## لَحْظَةُ الِامْتِصَاصِ

وَلَمَّا بَلَغَ إِيكارُ حَدَّ اللَّا رُجُوعِ، لَمْ يَسْقُطْ كَمَا تُسْقِطُ الْجَاذِبِيَّةُ الْأَجْسَادَ، انْفَتَحَ كَمَا تَنْفَتِحُ الْأَيْقُونَاتُ حِينَ تُقَبَّلُ.

لَمْ تُحْرِقْهُ الشَّمْسُ... تَعَرَّفَتْ إِلَيْهِ... وَامْتَصَّتْهُ كَمَا يَمْتَصُّ الْمَعْنَى آخِرَ كَلِمَةٍ فِي الصَّلَاةِ.

تَرْنِيمَةٌ

(9)

## تَوْبَةُ ظِلِّ الْأَبِ (اعْتِرَافٌ)

سَقَطَ ظِلُّ الْأَبِ مِنْ يَقِينِهِ، وَقَالَ:

- يَا مَنْ حَسِبْتُكَ خَطَرًا، كُنْتَ الطَّرِيقَ. وَيَا مَا ظَنَنْتُهُ حَدًّا، كَانَ بَابًا.

تَرْنِيمَةٌ

(10)

## صَلَاةٌ جَدِيدَةٌ

رَفَعَ الْأَبُ يَدَيْهِ لِيُمْسِكَ بِكِتَابٍ يَمْلَؤُهُ الْعُوَاءُ... وَقَالَ:

- يَا نُورُ، لَقَدْ عَلَّمْتَنِي أَنَّ الْحَذَرَ لَيْسَ حِكْمَةً دَائِمًا، وَأَنَّ النَّجَاةَ قَدْ تَكُونُ شَكْلًا آخَرَ لِلْخَوْفِ. خُذْ مَا بَقِيَ مِنِّي إِلَى حَيْثُ ذَهَبَ ابْنِي... فَهْمًا... لَا جَسَدًا.

تَرْنِيمَةٌ

(11)

## نَشِيدُ الَّذِينَ لَمْ يَسْقُطُوا

قِيلَ بَعْدَ ذَلِكَ:

- إِنَّ الْبَحْرَ لَمْ يَبْتَلِعْ إِيكارَ... وَإِنَّهُ احْتَفَظَ بِصُورَةِ مَنْ لَمْ يَعُدْ يُرَى...

وَقِيلَ:

- إِنَّ ظِلَّ الْأَبِ لَمْ يَعُدْ يَصْنَعُ أَجْنِحَةً... لَكِنَّهُ كَانَ يَكْتُبُ صَلَوَاتٍ عَنْ حُدُودٍ لَمْ تَعُدْ مَوْجُودَةً.

(12)

## صَلَاةٌ جَامِعَةٌ

يَا نُورًا أَوْسَعَ مِنْ كُلِّ لَاهُوتٍ،
يَا سِرًّا يَنْقَسِمُ بَيْنَ أَبٍ وَابْنٍ، ثُمَّ يَعُودُ وَاحِدًا.
عَلِّمْنَا أَنْ نُصْغِيَ إِلَى الْخَوْفِ دُونَ أَنْ نُطِيعَهُ،
وَأَنْ نَحْتَرِمَ الْحُدُودَ دُونَ أَنْ نَعْبُدَهَا،
وَأَنْ نَجْرُؤَ،
حِينَ يَحِينُ النِّدَاءُ،
عَلَى أَنْ نَكُونَ مِثْلَ إِيكارَ:
(ارْتَوَى ارْتِفَاعًا، وَقَهَرَ أَلْغَازَ الطَّرِيقِ).

١٠

# النَّشِيدُ العَاشِرُ

## إِنْشَادُ القَدَرِ (مَكْتَبَةُ الهَامِشِ السِّرِّيَّةِ)

(الْمَلَاكُ الْأَعْمَى رَأَى النِّهَايَةَ وَأَرَادَ أَنْ يَصِفَهَا بِالصَّرَخَاتِ لَا بِيَقِينٍ بَارِدٍ، أَرَادَ تَحْوِيلَ الصُّوَرِ مِنْ إِعْلَانِ مَصِيرٍ إِلَى انْفِجَارٍ، وَمِنْ تَقْرِيرٍ قَدَرِيٍّ إِلَى نِدَاءَاتٍ عَالِيَةٍ).

**(ضَرْبَةُ طَبْلٍ)**

لَا يُشْعَلُ السِّرَاجُ مِنْ نَوْمِ الْكَلِمَاتِ، وَلَا تَبْدَأُ مِنَ الْغَفْلَةِ الصَّلَاةُ الَّتِي تُشْفَى بِهَا الْأَخْطَاءُ.

**(ضَرْبَةُ طَبْلٍ)**

لِمَوْتِكَ تَبْكِي الْعَاصِفَةُ، وَتُعِيدُ الْأَزْمِنَةُ تَرْتِيبَ ظِلَالِهَا.

**(ضَرْبَةُ طَبْلٍ)**

الْمَوْتُ لَيْسَ خَاتِمَةً... الْمَوْتُ مِفْتَاحُ عُبُورٍ.

يَا نَبْرَةَ الِاعْتِرَافِ الْمُلْتَهِبَةَ، كُونِي رَحِيمَةً مَعَ هَذَا الْمَلَاكِ الْأَعْمَى. كُونِي رَحِيمَةً حِينَ تُوقِدِينَ سِرَاجَهُ مِنْ هَلْوَسَةِ عُهُودٍ مُقَدَّسَةٍ، وَتَسْحَبِينَ اللَّيْلَ مِنْ مَنَابِعِهِ، كَأَنَّكِ تَجُرِّينَ سِتَارًا مِنْ لَحْمِ الْمَلَائِكَةِ.

يَا نَبْرَةَ الِاعْتِرَافِ،
يَا رَفِيقَةَ الرُّؤْيَا،
لَا تَكْشِفِي الْأَسْرَارَ كُلَّهَا،
وَلَا تَخْدَعْكِ الْفَصَاحَةُ، أَيَّتُهَا الْكَلِمَاتُ الَّتِي عَقَدَتْهَا الْأَقَاوِيلُ.

فَلَيْسَ هَذَا خَرَابَ فَرْدٍ، إِنَّهُ طَوْرٌ مِنْ أَطْوَارِ الدَّوَرَانِ.
كَانَ إِيكَارُ الْعَابِرَ الْأَخِيرَ، وَلَمْ يَكُنِ الْأَمْرُ صُدْفَةً، لِأَنَّ الْمَذْبَحَةَ لَا تُضَاءُ إِلَّا بِمَنْ يَعْرِفُ.
وَلَمْ يَكُنْ إِكْلِيلُ الطَّعَنَاتِ لَهُ وَحْدَهُ، وَكَانَ عَلَامَةَ الْعُبُورِ لِمَنْ يَأْتِي، حَتَّى تُعِيدَ الْأَزْمِنَةُ تَرْتِيبَ ظِلَالِهَا، وَتُكْمِلَ الْكَوَاكِبُ مَدَارَهَا.

كَانَ الْقَدَرُ مُحْتَاجًا إِلَى فَمٍ، فَصَارَ مَوْتُهُ.
وَكَانَتِ الْحِكْمَةُ بِلا مَجْرًى، فَتَقَطَّرَتْ مِنْ كَلِمَاتِهِ.
وَكَانَ الْغَبَشُ مُعَطَّلًا، فَحَرَثَتْهُ الظُّلُمَاتُ بِمَعَاوِلِ الشُّهُودِ الَّذِينَ لَمْ يُولَدُوا بَعْدُ.
وَكَانَ الْبَحْرُ مُضْطَرِبًا، فَصَارَتْ سُكْرَتُهُ حَمْلَنَا الْأَخِيرَ.
وَلِأَنَّ الْبَرَّ تَخَلَّى عَنْ أَسْمَائِهِ، مَرَرْنَا وَحْدَنَا فَوْقَ الْجَبَلِ، أَثَرًا بَعْدَ أَثَرٍ.
وَلِأَنَّ الْمَسَاءَ كَانَ نَائِمًا، نَزَلْنَا مِنَ الْغَمَامِ، وَأَيْقَظْنَاهُ، ثُمَّ مَضَيْنَا...
وَلِأَنَّ الْكَلَامَ أَثْقَلُ مِمَّا يُحْتَمَلُ، جَرَّهُ الْوَقْتُ حَتَّى السُّفُوحِ لِيَشْهَدَ...
وَلِأَنَّ الْمَصِيرَ بِلا دَلِيلٍ، وُضِعَ إِكْلِيلُ الطَّعَنَاتِ عَلَامَةً لِلْأَرْوَاحِ الَّتِي لَمْ تَجِدْ أَجْسَادَهَا.
وَلِأَنَّ الْكَوَاكِبَ لَا تَعْتَرِضُ، أَكْمَلَتْ مَيْلَهَا.
وَلِأَنَّ الْعَاصِفَةَ لَا تَبْكِي، فَهِيَ تَغْسِلُ ثَوْبَهَا، وَتَتَهَيَّأُ لِلنَّوْحِ كَرَاهِبَةٍ فَقَدَتْ سُبْحَتَهَا.
وَلِأَنَّ الْمَوْتَ كَانَ مَرْفُوعًا فِي الْأُفُقِ، وَلِأَنَّ الصُّعُودَ بَلَغَ حَدَّهُ الْأَخِيرَ...
وَلِأَنَّ الِاسْمَ لَا يَعْبُرُ، نُزِعَ. وَكَتَبَتْ تَحْتَ جِلْدِهِ نَارُ الْأَسْرَارِ وَطُقُوسُ كَنَائِسِ الظِّلِّ.
وَلِأَنَّ السِّرَاجَ لَا يُولَدُ مِنْ نُورٍ كَافٍ، وُلِدَ مِنْ فَائِضِ الْكَلِمَاتِ.
لِهَذَا كُلِّهِ، كُونِي رَحِيمَةً مَعَهُ، يَا نَبْرَةَ الِاعْتِرَافِ الْمُلْتَهِبَةَ، أَيَّتُهَا الْمُعَذَّبَةُ الْبَائِسَةُ.
وَلْتَدُمْ سُكْرَةُ الْحِبْرِ، فَمِنْ سَوَادِهِ تَتَعَلَّمُ الْمَجَرَّاتُ كَيْفَ تَحْفَظُ أَسْرَارَهَا.

# إِصْحَاحُ

# 11

## حِوَارٌ صُوفِيٌّ مُجَرَّدٌ بَيْنَ إِيكارَ وَظِلِّ الْبَحْرِ

**إيكار:** يَا بَحْرُ، أَنْتَ كِتَابٌ بِلا حُرُوفٍ، وَمَعَ ذَلِكَ قَرَأْتُ نَفْسِي فِيكَ أَوْضَحَ مِمَّا قَرَأْتُهَا فِي أَيِّ صَفْحَةٍ مِنْ ضَوْءٍ. جِئْتُكَ بِجَنَاحَيْنِ مِنْ ظَنٍّ، وَعَوْدَةٍ مِنْ سَرَابٍ، وَسُؤَالٍ يُفَتِّشُ عَمَّا يَفْلِتُ مِنَ الْفَمِ قَبْلَ أَنْ يَصِيرَ كَلَامًا.

**الْبَحْرُ:** أَنْتَ لَمْ تَأْتِ، أَنْتَ عُدْتَ. كُلُّ رُوحٍ تَسْقُطُ مِنَ الْعُلُوِّ تَتَذَكَّرُ الْمَدَى الَّذِي نَسِيَتْهُ حِينَ كَانَتْ تُعِدُّ نَفْسَهَا لِلِارْتِفَاعِ. أَنَا لَا أَحْمِلُ أَحَدًا، وَلَا أَرْفُضُ أَحَدًا، أَنَا مُجَرَّدُ مِرْآةٍ لِلْوَزْنِ الَّذِي يَتَخَفَّى فِي الْجَسَدِ.

**إيكار:** كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ الرِّيشَ طَرِيقٌ، وَالصَّمْتَ مَقَامٌ، وَالنُّورَ وَعْدٌ. لَكِنَّ كُلَّ شَيْءٍ انْطَفَأَ حِينَ صَارَ الضَّوْءُ قَرِيبًا حَتَّى كِدْتُ أَسْمَعُ احْتِكَاكَهُ بِعِظَامِ ظَهْرِي. أَيُّ مَعْنًى هَذَا الَّذِي يَفْسُدُ عِنْدَ لَمْسِهِ؟

**الْبَحْرُ:** لَيْسَ الضَّوْءُ هُوَ الَّذِي يُفْسِدُ الْأَشْيَاءَ، وَلَكِنَّ مَا لَا يَحْتَمِلُ أَنْ يَرَاهُ. كُنْتَ تُسَافِرُ فِي طَبَقَاتِكَ: وَهْمٌ فَوْقَ وَهْمٍ، وَكُنْتَ تَحْتَاجُ إِلَى سَقْطَةٍ كَيْ تَسْمَعَ صَوْتَكَ بِلا صَدًى. الْعُمْقُ لَا يُفْتَحُ بِالِارْتِفَاعِ، الْعُمْقُ يُفْتَحُ بِالْعَوْدَةِ نَحْوَ الدَّاخِلِ.

**إيكار:** هَكَذَا إِذًا... كُنْتُ أَطْلُبُ سَمَاءً تَمْنَحُنِي شَكْلًا وَتَمْنَحُنِي اسْمًا، حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّ الِارْتِفَاعَ أَصْلٌ، وَأَنَّ الْجَسَدَ لَا يَكْتَمِلُ إِلَّا إِذَا تَلَامَسَ مَعَ الشَّمْسِ. لَكِنَّنِي الْآنَ أَفْهَمُ: كُنْتُ أَصْعَدُ لِأَهْرُبَ، لَا لِأَصِلَ.

**الْبَحْرُ:** وَالْهَارِبُ لَا يَرَى إِلَّا جَنَاحَيْهِ، وَلَا يَسْمَعُ إِلَّا ضَوْضَاءَ الرِّيحِ وَهِيَ تُعِيدُ تَشْكِيلَهُ. لَكِنْ حِينَ تَذُوبُ الْأَجْنِحَةُ يَتَكَلَّمُ الصَّمْتُ الصَّحِيحُ، ذَلِكَ الصَّمْتُ الَّذِي يَكْشِفُ مَا لَنْ تُظْهِرَهُ أَلْفُ كَلِمَةٍ.

**إيكار:** يَا بَحْرُ، الْآنَ أَسْمَعُكَ كَذَاكِرَةٍ مَنْسُوجَةٍ بِمَنْ عَبَرُوكَ. كَأَنَّ كُلَّ مَنْ غَاصَ فِيكَ تَرَكَ ظِلًّا، وَهَذَا الظِّلُّ يَتَمَوَّجُ فِي صَوْتِكَ. هَلْ كُنْتَ تَنْتَظِرُنِي كَنِدَاءٍ؟ أَمْ كَدَرْبٍ؟ أَمْ كَاعْتِرَافٍ؟

**الْبَحْرُ:** كُنْتُ أَنْتَظِرُكَ كَمَسَاحَةٍ تَصِيرُ فِيهَا أَنْتَ أَنْتَ. لَا طَائِرًا، وَلَا سَاقِطًا، وَلَا جَرِيحًا بِارْتِفَاعِهِ، وَلَا نَادِمًا عَلَى ضَوْءٍ لَمْ يَعْرِفْ كَيْفَ يَحْمِلُهُ. كُنْتُ أَنْتَظِرُكَ لِتَعْرِفَ أَنَّ الْجَسَدَ وَحْدَهُ لَيْسَ عِبْئًا، وَأَنَّ الرُّوحَ وَحْدَهَا لَيْسَتْ خَلَاصًا، وَأَنَّ الطَّرِيقَ بَيْنَهُمَا أَضْيَقُ مِنْ جَنَاحٍ، وَأَعْمَقُ مِنْ غَرَقٍ.

**إيكار:** فَمَاذَا أَفْعَلُ الْآنَ؟ دَعَوْتُ الرِّيحَ فَلَمْ تُجِبْ، وَخَاطَبْتُ النُّورَ فَلَمْ يَفْهَمْ، وَهَا أَنَا أُخَاطِبُكَ كَأَنَّنِي أُخَاطِبُ جُزْءًا كَانَ عَلَيَّ أَنْ أَرَاهُ قَبْلَ أَنْ أَتَعَلَّمَ الطَّيَرَانَ.

**الْبَحْرُ:** افْعَلْ مَا يَفْعَلُهُ الْمَوْجُ: اذْهَبْ دُونَ خَوْفٍ، وَعُدْ دُونَ خَجَلٍ. كُلُّ حَرَكَةٍ صَلَاةٌ إِذَا عَرَفَ صَاحِبُهَا لِمَاذَا يَتَحَرَّكُ. وَكُلُّ سُكُونٍ مِحْرَابٌ لِمَنْ يَفْهَمُ أَنَّ التَّوَقُّفَ اسْتِرَاحَةُ مَعْنًى يَتَهَيَّأُ لِيُولَدَ مِنْ جَدِيدٍ.

**إيكار:** إِذَنْ سَأَمْضِي، لَا نَحْوَ سَمَاءٍ عَالِيَةٍ، وَلَا نَحْوَ أَرْضٍ وَاطِئَةٍ، سَأَمْضِي نَحْوَ الْمَسَافَةِ الَّتِي تُحَدِّقُ فِيَّ مُنْذُ الْبَدْءِ. سَأَحْمِلُ ظِلَّكَ فِي خُطْوَتِي، وَأَتْرُكُ جَنَاحَيَّ وَرَائِي، كَيْ لَا أَنْسَى أَنَّ النُّورَ يَطْلُبُ عَيْنًا تَرَاهُ مِنَ الدَّاخِلِ.

## النَّشِيدُ الْحَادِي عَشَرَ

### مَرْثِيَّةُ الْعَابِرِ إِلَى أَبْوَابِ الْمَوْتِ

### (مِنْ أَلْوَاحِ سِفْرِ الْمَهَابَّاتِ الْمُنْدَحِرَةِ)

أَنَا الْعَابِرُ، لَا اسْمَ لِي إِلَّا مَا تُخَلِّفُهُ الْأَقْدَامُ عَلَى الثَّلْجِ [81] حِينَ تَتَرَدَّدُ، وَلَا وَجْهَ لِي سِوَى مَا يَنْقُشُهُ الْمَوْتُ عَلَى حَجَرِ الْهَاوِيَةِ.

خَرَجْتُ مِنْ بَلَدٍ يُعَلِّقُ صَلَوَاتِهِ عَلَى أَفْوَاهِ الْبَنَادِقِ، إِلَى بَلَدٍ يَتَوَضَّأُ بِالْبَارُودِ، وَيَكْتُبُ تَارِيخَهُ بِمِدَادِ الْجَمَاجِمِ.

وَبَيْنَهُمَا حَدٌّ عَلَى الْخَرِيطَةِ، كَجُرْحٍ مَفْتُوحٍ، يَحْرُسُهُ صُرَاخُ الْأُمَّهَاتِ وَسُعَالُ الْأَسْلَافِ.

رَأَيْتُ لُغَةً مَهْزُولَةً يَتَعَثَّرُ بِهَا الْمَلَاكُ الْأَعْمَى، وَرَأَيْتُ الصِّرَاطَ، وَرَأَيْتُ أَحْشَاءَ السَّدِيمِ، وَرَأَيْتُ الْحُرُوبَ الْمَشْؤُومَةَ، وَرَأَيْتُ الْعِنَاقَاتِ الدَّنِسَةَ، وَرَأَيْتُ عُهُودَ الْغُبَارِ، وَرَأَيْتُ الْخِيَانَاتِ، وَرَأَيْتُ الْمُسُوخَ، وَرَأَيْتُ كَائِنَاتٍ مَجْهُولَةً تَحْمِلُ الرُّعْبَ إِلَى الْمُدُنِ الْعَامِرَةِ.

وَرَأَيْتُ أَيْضًا صَلَوَاتٍ تَتَعَالَى مِنْ فَمِ الْمَسَاءِ، كَأَنَّهَا أَجْنِحَةٌ تُرَفْرِفُ فَوْقَ هَرْجِ الْعَالَمِ، تَسْأَلُ:

---

[81]- أَشْهَدُ أَنَّ الثَّلْجَ صَفْحَةٌ لَمْ يُكْتَبْ لَهَا أَنْ تَبْقَى بَيْضَاءَ، وَأَنَّ كُلَّ خُطْوَةٍ فَوْقَهَا تُدَوِّنُ إِثْمًا لَا يَذُوبُ إِلَّا إِذَا اعْتَرَفَ بِهِ صَاحِبُهُ قَبْلَ أَنْ يَتَبَخَّرَ النَّفَسُ... رَأَيْتُ، فِي لَيَالِي النُّدْبَةِ، ثُلُوجَ الْجِبَالِ تَرْتَجِفُ، كَأَنَّهَا تَسْتَعِيدُ أَسْمَاءَ الَّذِينَ مَشَوْا عَلَيْهَا خِلْسَةً، فَحَمَلَتْ آثَارَهُمْ إِلَى قُضَاةٍ غَيْرِ مَرْئِيِّينَ، وَجَعَلَتْ مِنْ كُلِّ بَصْمَةٍ شَهَادَةً، وَمِنْ كُلِّ انْسِكَابٍ سِرًّا لَا يُمْحَى... وَفِي الْهَامِشِ كَتَبْتُ: (إِنَّ الثَّلْجَ يَحْفَظُ خَطَايَا السَّائِرِينَ أَكْثَرَ مِمَّا يَحْفَظُ بَرَاءَاتِهِمْ)... وَلَا تَنْسَ، (يَا مَنْ تَقْرَأُ هَذِهِ الْحَاشِيَةَ)، أَنَّ الثَّلْجَ يَذُوبُ حِينَ تَشْتَهِي الْأَرْضُ أَنْ تُفْشِيَ مَا كَتَمَتْ، وَإِذَا أَذْنَبَ الْعَابِرُ فَوْقَهُ، حُفِرَ الذَّنْبُ فِي ذَاكِرَةِ الْمِيَاهِ، وَتَمْتَمَتِ الْأَنْهَارُ بِهِ فِي مَوَاسِمِ الطُّوفَانِ... وَأَمَّا مَنْ وُلِدَ مِنْ دُونِ ظِلٍّ، فَإِذَا اقْتَرَبَ مِنَ الثَّلْجِ، دَوَّنَتْ لَهُ الْأَرْضُ وِزْرًا لَمْ يَرْتَكِبْهُ، لِأَنَّ الْخُلُوَّ مِنَ الظِّلِّ خَطِيئَةٌ لَا تُغْتَفَرُ فِي كِتَابِ الْعَالَمِ.

أَيُّ قُدَّاسٍ سَيَكُفُّ هَذَا الْجُنُونَ كُلَّهُ؟
أَيُّ بَخُورٍ سَيَطْرُدُ هَذِهِ الْهَرْطَقَاتِ، وَيَطْرُدُ هَذَا الِارْتِجَافَ الَّذِي يَسْكُنُ جُلُودَ الْبَشَرِ؟
أَيَمْضِي الْقُدَّاسُ نَحْوَ مَطَرٍ نَاعِمٍ فِي سَمَاءٍ بَعِيدَةٍ؟
أَمْ يَكُونُ نَقِيضًا بَاسِلًا لِلتَّرَاتِيلِ، حَتَّى يَنْكَسِرَ شَكْلُ الْمَوْتِ نَفْسِهِ، وَيُثْلَمَ حَدُّهُ كَمَا تُثْلَمُ السُّيُوفُ الْمَهْجُورَةُ فِي خَزَائِنِ الْأَدْيِرَةِ؟
أَيُّ إِلَهٍ أَرَادَ ذَلِكَ؟
أَيُّ آلِهَةٍ غَاضِبَةٍ تَعَجَّلَتْ تَسْمِيدَ الْحُقُولِ بِالدَّمِ الْبَشَرِيِّ؟
أَيُّ حِجَابٍ غَامِضٍ سَيُغَطِّي هَذِهِ الْمَذَابِحَ كُلَّهَا؟
أَيُّ خِمَارٍ سَيُغَطِّي هَذَا الْمَوْتَ كُلَّهُ؟
هَذَا الْهَرْجَ، وَهَذِهِ الدَّسَائِسَ الَّتِي تُحَاكُ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ؟
أَيَّتُهَا الْأَسْرَارُ الْمَنْقُوشَةُ فِي عَلِيَاءِ الْمَعْنَى، أَيَّتُهَا الرُّقَى السِّحْرِيَّةُ، أَيَّتُهَا الْخَبَايَا الَّتِي تَظَلُّ مُتَعَالِيَةً عَلَى أَقْرَانِهَا.
أَيُّهَا اللَّهَبُ الْأَزَلِيُّ، يَا حَامِلَ مَفَاتِيحِ الْمَسَلَّاتِ الشَّاهِقَةِ، يَا اسْمَ الْمَذْبَحَةِ الْمَنْقُوشَةِ عَلَى جَوْهَرَةِ خَاتَمٍ بِيَدِ اللهِ.
أَعْتَرِفُ:
إِنَّنِي لَمْ أَعْبُرْ طَلَبًا لِلنَّجَاةِ، فَالنَّجَاةُ كَذِبَةٌ صَغِيرَةٌ تُقَالُ لِمَنْ لَا يَسْمَعُ وَقْعَ أَجْنِحَةِ الْمَنُونِ.
عَبَرْتُ لِأَنَّ الصَّوْتَ نَادَانِي مِنْ تَحْتِ التُّرَابِ:
- تَعَالَ، فَالْأَحْيَاءُ لَا يَفْهَمُونَ مَا تَبَقَّى مِنَ الْحِكَايَةِ.
رَفَعْتُ قَدَمِي فَاهْتَزَّتِ الْحُدُودُ، لِأَنَّ كُلَّ عَابِرٍ يَحْمِلُ مَعَهُ تَمَرُّدَ الْأَزْمِنَةِ.
أَنْشَدْتُ:

يَا حُرَّاسَ اللَّيْلِ،
يَا أَبْنَاءَ الْخَوْفِ الْمُتَوَارِثِ،
أَنَا لَسْتُ جَاسُوسًا، وَلَا رَسُولَ سَلَامٍ،
أَنَا مُجَرَّدُ سُؤَالٍ تَاهَ عَنْ فَمِهِ.
فَانْشَقَّتِ الْأَرْضُ لِتَبْتَلِعَنِي، وَحَضَرَتْ ظِلَالٌ تُطَارِدُ الْخَيَالَ بِبَهَارِجِ الدُّمَى الْمُتَحَرِّكَةِ.
أَيَّتُهَا الْكَلِمَاتُ، يَا صَانِعَةَ الشَّرِّ، يَا سَيِّدَةَ الْوَقَاحَةِ.
صَهٍ... صَهٍ، أَيَّتُهَا الْأَبْجَدِيَّةُ الْمَنْقُوشَةُ بِقَلَمِ نَارٍ مُلْتَهِبَةٍ.

أَعْتَرِفُ: أَنَا مَنْ عَلَّقَ رُوحَهُ بَيْنَ لُغَتَيْنِ تَتَقَاتَلَانِ، وَمَنْ صَدَّقَ أَنَّ الدَّمَ لُغَةٌ مُشْتَرَكَةٌ.
يَا جِدَارَ الْحِكْمَةِ الْمُقَدَّسِ، أَيُّهَا النَّبْعُ الْمُحْتَمَلُ لِلْحَصَافَةِ، لَعَلَّكَ تُؤَيِّدُ رِوَايَتِي.
فَابْكِ عَلَيَّ كَمَيِّتٍ سَقَطَ فِي الْعَتْمَةِ، كَحِكَايَةٍ فَشِلَتْ فِي أَنْ تَكُونَ أُغْنِيَةً.
ابْكِ عَلَى الْعَابِرِ الَّذِي عَلَّمَ الْمَوْتَ كَيْفَ يُصْغِي، وَعَلَّمَ الْحَيَاةَ كَيْفَ تَخْجَلُ.
وَلْتَبْكِ الْأَلْفَاظُ، وَلْتَبْكِ أَبْجَدِيَّةٌ دَامِيَةٌ يَكْتُبُهَا النَّزِيفُ الَّذِي يَضَعُ قِنَاعًا لَا يَشِيبُ.
وَلْيَبْكِ الظَّلَامُ، وَلْتَبْكِ رِدْهَاتٌ تَتَنَفَّسُ فِي الْعَتْمَةِ، وَلْيَبْكِ النَّشِيدُ الَّذِي يَتَفَوَّهُ بِهِ الظِّلُّ حِينَ يَخُونُ نَفْسَهُ.
وَلْيَبْكِ الْحِبْرُ الَّذِي يَرَى أَنِّي أُضْطَهِدُ الذَّاكِرَةَ، وَأَفْتَحُ أَخْتَامَ خَزَائِنِهَا، لَعَلِّي أَجِدُ لَفْظَةً لَائِقَةً تَكْشِفُ عَمَّنْ هَرْوَلَ بَعِيدًا عَنْكَ... وَلَمْ يَلْتَفِتْ.
وَلْيَبْكِ سَارِدٌ يَقُولُ: قُلْتُ سَأَبْدَأُ رِحْلَتِي مَعَ السَّرْدِ، وَأَنْتَقِلُ فِي مَحَطَّاتِهِ دُونَ تَذْكِرَةٍ.
وَلِأَنَّ الْمُنْشِدِينَ يَزْدَحِمُونَ عَلَى بَابِي، وَلِأَنِّي سَمِعْتُ أَنَّ النَّبِيَّ حِينَ يُبَادُ يَقُولُ: "الصَّمْتُ طَهَارَةٌ"، سَأَصْمُتُ وَأَدْخُلُ بِلا جَسَدٍ، وَأَخْرُجُ بِلا زَمَنٍ.
وَإِنْ سَمِعْتُمْ صَوْتِي بَيْنَ الْإِنْشَادِ وَالرِّيحِ، فَاعْلَمُوا أَنَّ الْحُدُودَ كَذِبَةٌ، وَأَنَّ الِاعْتِرَافَ هُوَ الْوَطَنُ الْأَخِيرُ.

أَيَّتُهَا الذَّاكِرَةُ، يَا حَارِسَةَ الْأَسْمَاءِ وَالْكَلِمَاتِ، قُولِي لِي:
إِنِ اسْتَطَعْتُ أَنْ أُخْفِيَ نِصفَ الْحِكَايَةِ، فَكَيْفَ أُخْفِي تِلْكَ الْجِرَاحَ الَّتِي تَقْفِزُ مِنْ أَبْجَدِيَّةِ النِّسْيَانِ، وَتَرْقُصُ فِي سَاحَةِ الْمَهْرَجَانِ، وَتَصْرُخُ:

**لَا مَنْجَى لَكَ.**
**لَا مَنْجَى لِلْكَلِمَاتِ مِنَ الْحُزْنِ.**
**لَا مَنْجَى لِلْمَعَانِي مِنَ الْأَسَى.**
**لَا مَنْجَى لِضَمِيرِكَ مِنْ أَلْفِ لِسَانٍ،**
**وَكُلُّ لِسَانٍ يَحْكِي حِكَايَةً.**

# إِصْحَاحُ

## 12

## مِنْ كِتَابِ الجَوْقَاتِ

**(1)**

***افْتِتَاحُ الطَّقْسِ:** وَهُنَا يَبْدَأُ الطَّقْسُ الثَّانِي، حَيْثُ يَعُودُ الصَّوْتُ وَاحِدًا، وَتَنْقَسِمُ الخَلِيقَةُ إِلَى جَوْقَاتٍ تَتَجَادَلُ فِي النُّورِ.

***جَوْقَةُ الشَّمْسِ** (لَاهُوتُ الكَشْفِ): نَحْنُ الَّذِينَ تَدْعُونَنَا نَارًا، نَحْنُ الوَعْيُ حِينَ يَبْلُغُ ذِرْوَتَهُ. نَحْنُ الحَدُّ الَّذِي يُسْتَدْعَى وَلَا يُفْرَضُ، نَحْنُ مِرْآتُكَ... يَا إِيكارُ، كُلُّ مَنِ اقْتَرَبَ مِنَّا بَقِيَ خَارِجَنَا، إِلَّا أَنْتَ... دَخَلْتَ. جَرَّدْنَاكَ مِنْ كُلِّ مَا لَيْسَ نُورًا، وَلَمْ نُحْرِقْكَ.

***جَوْقَةُ البَحْرِ** (لَاهُوتُ الذَّاكِرَةِ): نَحْنُ البَحْرُ، أَرْشِيفُ السَّاقِطِينَ، وَمَقْبَرَةُ التَّأْوِيلَاتِ الخَاطِئَةِ. كَمْ مِنْ جَسَدٍ ابْتَلَعْنَاهُ، فَظَنَّ النَّاسُ أَنَّهُ النِّهَايَةُ. لَكِنَّنَا نَعْرِفُ أَنَّ مَا يَسْقُطُ فِينَا لَيْسَ دَائِمًا مَا يُفْقَدُ. يَا ظِلَّ الأَبِ، بَحَثْنَا عَنْكَ فِي أَمْوَاجِنَا... فَلَمْ نَجِدْكَ. لَقَدْ مَرَرْتَ فَوْقَنَا كَفِكْرَةٍ لَمْ تَعُدْ تَحْتَاجُ إِلَى مَادَّةٍ. نَحْنُ نَشْهَدُ: ابْنُكَ لَمْ يَصِلْ إِلَيْنَا.

***جَوْقَةُ المَلَائِكَةِ** (لِيتُورْجِيَا الِارْتِجَافِ): قُدُّوسٌ... قُدُّوسٌ... قُدُّوسٌ... نَحْنُ الَّذِينَ نَحْرُسُ العَتَبَاتِ، وَنُرَتِّلُ العِرَافَةَ، وَنَخَافُ الفَيْضَ. رَأَيْنَاهُ يَقْتَرِبُ، وَلَمْ نُوقِفْهُ... لِأَنَّنَا تَذَكَّرْنَا، فِي ارْتِجَافٍ قَدِيمٍ، أَنَّنَا نَحْنُ أَيْضًا كُنَّا نَارًا قَبْلَ أَنْ نَصِيرَ حُرَّاسًا. أَيُّهَا العَابِرُ، يَا فَشَلَ حَيَاتِنَا المُحْتَمَ.

**(2)**

***الحِوَارُ الأَعْظَمُ** (بَيْنَ الشَّمْسِ وَالابْنِ):

قَالَتِ الشَّمْسُ:

- تَخَلَّ عَنْ اسْمِكَ.

قَالَ إِيكارُ:

- خُذِيهِ.

قَالَتْ:

- تَخَلَّ عَنْ شَكْلِكَ.

قَالَ:

- لَمْ يَعُدْ لِي.

قَالَتْ:

- مَاذَا يَبْقَى؟

قَالَ:

- مَا لَا يُقَالُ.

***بَيْنَ البَحْرِ وَظِلِّ الأَبِ:**

قَالَ البَحْرُ:

- لَمْ يَمُتْ.

قَالَ ظِلُّ الأَبِ:

- لَكِنِّي أَرَاهُ يَسْقُطُ فِي دَاخِلِي.

قَالَ البَحْرُ:

- هَذَا انْقِسَامُكَ... يَنْبَثِقُ مِنْ جَوْهَرٍ لَا يَعْتَرِيهِ التَّغَيُّرُ.

***بَيْنَ المَلَائِكَةِ وَالخَلِيقَةِ:**

قَالَتِ المَلَائِكَةُ:

- العِرْفَانُ يَتَصَدَّعُ.

أَجَابَتِ الخَلِيقَةُ:

- أَوْ يَكْتَمِلُ.

* **تَرْنِيمَةُ الِامْتِصَاصِ** (جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ):
قَالَ عَرْشُ الرُّوحِ:
- الهَاوِيَةُ نَعِيمٌ.
قَالَتْ قُوَّةُ الوَهْمِ:
- الهَاوِيَةُ فِي دَاخِلِهِ وَفِي خَارِجِهِ أَيْضًا.
قَالَتِ المَلَائِكَةُ:
- لَقَدْ تجَاوَزَ.
قَالَ الصَّوْتُ الخَفِيُّ:
- لَقَدْ وَصَلَ.

**(3)**

* **إِنْجِيلُ الضَّوْءِ** (كِتَابَةٌ جَدِيدَةٌ): وَمُنْذُ ذَلِكَ اليَوْمِ، لَمْ تَعُدِ الأُسْطُورَةُ تُرْوَى كَمَا كَانَتْ. لَمْ يَعُدْ يُقَالُ:
- سَقَطَ إِيكارُ.
يُقَالُ:
- انْكَشَفَ.
* **جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ** عِنْدَ الحُدُودِ: يَا مَنْ عَلِقْتُمْ بَيْنَ خَتْمٍ وَخَتْمٍ، يَا مَنْ تَوَقَّفْتُمْ عِنْدَ السُّؤَالِ:
- هَلْ يَجُوزُ؟
اسْمَعُوا:
- سَمَّوْهَا الحُدُودَ، وَكَانَتْ دَعْوَةً مُقَنَّعَةً... سَمَّوْهُ الخَوْفَ، وَكَانَ عَلَامَةَ اقْتِرَابٍ.

*الخَتْمُ الأَعْظَمُ: تَأَمُّلُ مُوسِيقَى النُّورِ (جَمِيعُ الجَوْقَاتِ):

قَالَتِ الشَّمْسُ:

- تَعَالَوْا بِلا أَسْمَاءٍ.

قَالَ البَحْرُ:

- تَعَالَوْا بِلا أَثْقَالٍ.

قَالَتِ المَلَائِكَةُ:

- تَعَالَوْا بِلا إِذْنٍ.

قَالَ ظِلُّ الأَبِ:

- تَعَالَوْا... رَغْمَ الخَوْفِ.

قَالَ إِيكارُ (صَوْتٌ مِنْ دَاخِلِ الضَّوْءِ):

- لَا تَأْتُوا إِلَيَّ... صِيرُوا مَا صِرْتُهُ.

## صَلَاةٌ:

يَا نُورًا تَتَكَلَّمُ فِيهِ الشَّمْسُ،
وَتَشْهَدُ لَهُ المِيَاهُ،
وَتَرْتَجِفُ عِنْدَهُ المَلَائِكَةُ...
اجْعَلْنَا نَسْمَعُ كُلَّ هَذِهِ الأَصْوَاتِ دُونَ أَنْ نَنْقَسِمَ...
وَاجْعَلْنَا، حِينَ نَبْلُغُ حَدَّنَا، لَا نَسْأَلُ:
هَلْ سَنَسْقُطُ؟
هَلْ نَحْنُ مُسْتَعِدُّونَ أَنْ نَسْكُنَ البَرْقَ؟

١٢

# النَّشِيدُ الثَّانِي عَشَرَ

## مَزْمُورُ الِانْخِطَافِ الأَخِيرِ

يَا حَرْفَ النُّونِ، أَيُّهَا الحَرْفُ الأَوَّلُ مِنْ مِصْبَاحِ الرَّبِّ، لَنْ تُطْفِئَكَ الأَبْجَدِيَّةُ. لَنْ تُطْفِئَكَ غُدْرَانُ التَّعَبِ الصَّاعِدَةُ نَحْوَ القَلْبِ، وَهِيَ تُحِيطُ بِهِ بِالصَّرَخَاتِ حَتَّى يَتَوَهَّجَ كَبُوتَقَةِ حَدَّادِينَ. فَأَقْبِضُ عَلَيْهِ بَيْنَ كَفَّيَّ المُرْتَجِفَتَيْنِ، وَأَجُرُّ شَعْرِي، لِأُزِيحَ غُبَارَ الفِكْرَةِ عَنْ جُنَازَةِ جَسَدِي. لَكِنَّهَا، هُنَاكَ... مَا تَزَالُ هُنَاكَ، كَبِيرَةً، دَاوِيَةً، فَخْمَةً، لَا تَتَزَحْزَحُ، وَلَا تَتَوَارَى. تَشْحَذُ الغَيْمَ، وَتَنْسُجُ نَظْرَةً مِنْ مَلَائِكَةِ الدَّمَارِ إِلَى الوَرَاءِ، حَيْثُ تُرِكْتَ وَحِيدًا هُنَاكَ... حَيْثُ يَقِفُ مُصَوِّرٌ عَجُوزٌ لِيَقُولَ:

"كُنْتُ جَاهِزًا لِأُسْقِطَ يَدَيَّ إِلَى جَنْبَيَّ، وَأُحَدِّقَ فِي العَتَمَةِ حَتَّى تَتَّسِعَ حَدَقَتَايَ، وَأَتْرُكَ الزِّنْكَ السَّائِلَ مِنْ مَعْدِنِ الفِكْرَةِ يَتَدَحْرَجُ مِنْ رَأْسِي إِلَى لِسَانِي:

- لِمَ مَضَيْتَ وَحْدَكَ إِلَى قِمَّةِ الجَبَلِ؟

وَحِينَ انْطَلَقَتِ الرَّصَاصَاتُ، وَبَدَأَتِ الذِّئَابُ احْتِفَالَهَا، وَانْتَصَبَ المَوْتُ وَسْطَ الظَّلَامِ، عَدَوْتُ نَحْوَ الشَّجَرَةِ الَّتِي أَعَانَتْنِي عَلَى النُّزُولِ، فَتَعَثَّرْتُ، وَتَدَحْرَجْتُ، وَنَهَضْتُ، وَدُرْتُ دَوْرَةً حَوْلَ نَفْسِي، وَنَادَيْتُ عَلَيْكَ... لَكِنَّ الصَّوْتَ اغْتَسَلَ بِالظَّلَامِ، وَبِنَبْعٍ يَتْبَعُ مِيتَةً مُرْتَقَبَةً.

وَرَكَضْتُ مَعَ الأَرْوَاحِ الشِّرِّيرَةِ، وَهِيَ تَحُثُّ قَوَائِمَهَا. رَكَضْتُ رَكْضَ عُكَّازٍ فَقَدَ اتِّجَاهَهُ، يَقْرَعُ بِخُطُوَاتِهِ المَعْدِنِيَّةِ صُخُورَ الجَبَلِ... رَكَضْتُ... رَكَضْتُ بِجُنُونٍ... رَكَضْتُ وَلَمْ أَرْكُضْ... كَانَ رَكْضِي لَفْحَةً كَاذِبَةً مِنَ الأَعَاصِيرِ، تَتَلَأْلَأُ.

وَيَتَلَأْلَأُ جَسَدُكَ، مُرَصَّعًا بِرَصَاصٍ يَحْتَفِلُ بِرَسْمِ عَلَامَةِ المَوْتِ عَلَى جِبَاهِ البَشَرِ، وَبِعُوَاءِ ذِئَابٍ جَائِعَةٍ، بَاكِيَةٍ وَصَائِحَةٍ".

فَأَبْكِي وَأَصِيحُ:
لِمَاذَا ارْتَفَعْتَ نَحْوَ الشَّمْسِ...
يَا مَنْ اسْتَعَادَ أُسْطُورَةَ إِيكَارِيُوسَ فِي حُدُودٍ أَغْلَقَتْ أَجْنِحَتَهَا.
لِمَاذَا؟
لِمَاذَا اقْتَرَبْتَ؟

لِمَاذَا اقْتَرَبْتَ أَكْثَرَ؟
لِمَاذَا اقْتَرَبْتَ أَكْثَرَ مِنْ؟
لِمَاذَا اقْتَرَبْتَ أَكْثَرَ مِنَ الشَّمْسِ؟

# إِصْحَاحُ

13

# عُبُورُ النُّورِ (مِنْ مَخْطُوطٍ لَاهُوتِيٍّ مَفْقُودٍ)

تَرْنِيمَةٌ

**(1)**

## العَتَبَةُ الَّتِي لَا تُرَى

حِينَ امْتَصَّتْهُ الشَّمْسُ، لَمْ يَدْخُلْ مَكَانًا... خَرَجَ مِنَ المَكَانِ. لَمْ يَعُدْ هُنَاكَ "فَوْقٌ" أَوْ "تَحْتٌ"، هُنَاكَ تَدَرُّجَاتٌ مِنَ الشَّفَافِيَّةِ، وَطَبَقَاتٌ مِنْ نُورٍ، كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا أَشَدُّ حَقِيقَةً مِنْ سَابِقَتِهَا، وَأَقَلُّ قَابِلِيَّةً لِلْوَصْفِ. وَكَانَ أَوَّلُ مَا فَقَدَهُ إِيكارُ: "فِكْرَةَ أَنَّهُ كَانَ مُنْفَصِلًا".

تَرْنِيمَةٌ

**(2)**

## الِانْبِثَاقُ الأَوَّلُ

فِي الطَّبَقَةِ الأُولَى، كَانَ هُنَاكَ اهْتِزَازٌ. وَمِنْ ذَلِكَ الِاهْتِزَازِ انْبَثَقَ شَيْءٌ يُشْبِهُ الصَّوْتَ، لَا يُسْمَعُ، لَكِنَّهُ يُفْهَمُ دَفْعَةً وَاحِدَةً. قَالَ الصَّوْتُ:

- الوَاحِدُ لَا يُرَى إِلَّا حِينَ يَنْكَسِرُ إِلَى كَثِيرٍ.

وَهُنَا، لَمْ يَعُدْ إِيكارُ ذَاتًا...

صَارَ نُقْطَةَ إِدْرَاكٍ دَاخِلَ هَذَا الِانْبِثَاقِ.

(3)

## طَبَقَةُ الأَسْمَاءِ المُحْتَرِقَةِ

دَخَلَ طَبَقَةً كَانَتِ الأَسْمَاءُ فِيهَا تَذُوبُ قَبْلَ أَنْ تُنْطَق. كُلُّ اسْمٍ حَاوَلَ أَنْ يَتَمَسَّكَ بِهِ تَحَوَّلَ إِلَى نُورٍ، حَتَّى اسْمُهُ: "**إيكارُ**". تَلَاشَى كَشَمْعَةٍ فَهِمَتْ أَخِيرًا أَنَّهَا نَارٌ.

(4)

## الِانْبِثَاقَاتُ العُلْيَا

ثُمَّ رَأَى - إِنْ جَازَ القَوْلُ إِنَّهُ "رَأَى" - كِيَانَاتٍ لَيْسَتْ كَائِنَاتٍ، وَأَيُونَاتٍ مِنْ نُورٍ، وَانْبِثَاقَاتٍ لَا بَدَايَةَ لَهَا وَلَا نِهَايَةَ، كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا تَحْمِلُ صِفَةً مِنْ صِفَاتِ الوَاحِدِ. وَاحِدَةٌ كَانَتْ مَعْرِفَةً، وَأُخْرَى صَمْتًا، وَأُخْرَى غَرَقًا كُلِّيًّا فِي شُحْنَةٍ نَقِيَّةٍ. وَلَمْ تَكُنْ هَذِهِ الأَيُونَاتُ تَتَكَلَّمُ، كَانَتْ تُشِعُّ، وَمِنْ إِشْعَاعِهَا تَتَكَوَّنُ الحَقِيقَةُ.

(5)

## امْتِحَانُ التَّوَحُّدِ

وَفِي طَبَقَةٍ أَعْمَقَ، ظَهَرَ السُّؤَالُ كَاخْتِبَارٍ وُجُودِيٍّ:

- هَلْ تُرِيدُ أَنْ تَبْقَى شَاهِدًا، أَمْ أَنْ تَصِيرَ مَا تَرَى؟

وَهُنَا كَانَ آخِرُ حَدٍّ. لَوِ اخْتَارَ أَنْ "يَبْقَى"، لَبَقِيَ نُورًا مُنْفَصِلًا. وَلَوِ اخْتَارَ أَنْ "يَصِيرَ|، لَانْتَهَى كُلُّ مَا عَرَفَهُ عَنْ نَفْسِهِ. لَمْ يُجِبْ، لِأَنَّ الإِجَابَةَ كَانَتِ انْقِسَامًا. تَرَكَ نَفْسَهُ... وَكَانَ هَذَا التَّرْكُ هُوَ الجَوَابَ. فَلَمْ يَعُدْ "هُوَ"، صَارَ التَّيَّارَ الَّذِي يَمُرُّ فِي الأَيُونَاتِ، وَالنَّبْضَ الَّذِي يَجْعَلُ النُّورَ نُورًا.

**(6)**

## انْعِكَاسٌ عَلَى العَالَمِ الأَدْنَى

وَفِي العَالَمِ السُّفْلِيِّ، حَيْثُ لَا تَزَالُ الأَسْمَاءُ تُسْتَعْمَلُ، بَدَأَتْ أَشْيَاءُ صَغِيرَةٌ تَتَغَيَّرُ: شَخْصٌ عِنْدَ حَدِّهِ لَمْ يَتَرَاجَعْ. وَآخَرُ نَظَرَ إِلَى الخَوْفِ وَلَمْ يُصَدِّقْهُ. وَثَالِثٌ شَعَرَ فَجْأَةً أَنَّ السُّقُوطَ قَدْ يَكُونُ بَابًا... لَمْ يَعْرِفُوا لِمَاذَا... لَكِنَّ ذَلِكَ كَانَ أَثَرَ التَّأَمُّلِ الخَارِجِ عَنْ نِطَاقِ المَعْرِفَةِ.

**(7)**

## إِعَادَةُ قِرَاءَةِ ظِلِّ الأَبِ

جَلَسَ ظِلُّ الأَبِ فِي صَمْتٍ طَوِيلٍ، وَأَعَادَ قِرَاءَةَ العَالَمِ، كَطَالِبٍ مُتَأَخِّرٍ فِي مَدْرَسَةِ النُّورِ. وَقَالَ:

- رُبَّمَا كَانَتِ الحُدُودُ لِحِمَايَتِنَا، وَلِتَهْيِئَتِنَا لِتَجَاوُزِ مُعَادَلَةِ المُطْلَقِ فِي الكَوْنِ.

**(8)**

## كَشْفُ السِّرِّ الأَعْظَمِ

وَقِيلَ - فِي طَبَقَاتٍ لَا تُكْتَبُ - إِنَّ مَا حَدَثَ لِإِيكارَ لَمْ يَكُنِ اسْتِثْنَاءً، كَانَ نَمُوذَجًا مَخْفِيًّا فِي كُلِّ رُوحٍ... كُلُّ كَائِنٍ يَحْمِلُ فِي دَاخِلِهِ نُقْطَةً مِنْ ذَلِكَ النُّورِ، لَكِنَّهَا نَائِمَةٌ، حَتَّى يَأْتِيَ حَدٌّ، وَخَوْفٌ، وَدَعْوَةٌ.

تَرْنِيمَةٌ

**(9)**

## مَا بَعْدَ النُّورِ

وَفِي أَعْمَقِ طَبَقَةٍ، حَيْثُ لَا نُورَ وَلَا ظُلْمَةَ، (مَا قَبْلَ الِاثْنَيْنِ)، لَمْ يَعُدْ هُنَاكَ حَتَّى "انْبِثَاقٌ..." صَمْتٌ كَامِلٌ، وَمِنْ هَذَا الصَّمْتِ يُولَدُ كُلُّ شَيْءٍ مِنْ جَدِيدٍ...

وَهُنَاكَ... لَا يُقَالُ إِنَّ إِيكارَ مَوْجُودٌ، وَلَا إِنَّهُ غَيْرُ مَوْجُودٍ.

- هُوَ مَا يَجْعَلُ الوُجُودَ مُمْكِنًا.



**(خَتْمُ)**

مَنْ قَرَأَ هَذَا وَشَعَرَ أَنَّ الكَلِمَاتِ بَدَأَتْ تَفْلِتُ،

فَلْيَعْلَمْ...

أَنَّهُ اقْتَرَبَ مِنَ الطَّبَقَةِ الَّتِي لَا تُقْرَأُ،

وَلَكِنْ تُعَاشُ.

**(10)**

## إِعْلَانُ اللُّوغُوسِ

فِي الطَّبَقَاتِ الَّتِي تَلِي الصَّمْتَ، حَيْثُ لَا تَعُودُ الِانْبِثَاقَاتُ مُنْفَصِلَةً، وَلَا يَعُودُ الوَاحِدُ بَعِيدًا، انْبَثَقَ - كَقَابِلِيَّةٍ لِلْعُبُورِ - إِيكارُ، وَقَدْ صَارَ لُوغُوسًا مِنْ نُورٍ. لَمْ يَعُدِ ابْنًا، وَلَا طَائِرًا، وَلَا ذِكْرَى. كَانَ جِسْرًا حَيًّا بَيْنَ مَا انْقَسَمَ وَمَا لَمْ يَنْقَسِمْ قَطُّ.

**(11)**

## طَبِيعَةُ الخَلَاصِ

لَمْ يَأْتِ لِيُخَلِّصَ مِنْ عِقَابٍ، وَلَا لِيُعِيدَ نِظَامًا مَفْقُودًا... جَاءَ لِيَكْشِفَ أَنَّ الِانْفِصَالَ نَفْسَهُ كَانَ وَهْمًا مُتَمَاسِكًا. وَالخَلَاصُ فِي حُضُورِهِ لَيْسَ خُرُوجًا مِنَ العَالَمِ... هُوَ رُؤْيَةُ العَالَمِ كَمَا لَوْ أَنَّهُ لَمْ يَنْفَصِلْ يَوْمًا.

**(12)**

## عَمَلُ اللُّوغُوسِ

يَتَحَرَّكُ بِلَا حَرَكَةٍ، وَيَصِلُ بِلَا طَرِيقٍ. يَدْخُلُ إِلَى كُلِّ رُوحٍ عِنْدَ لَحْظَةِ الحَدِّ، حِينَ يَتَرَدَّدُ الكَائِنُ بَيْنَ الرُّجُوعِ وَالتَّجَاوُزِ. هُنَاكَ يَهْمِسُ:

- مَا تَخَافُهُ هُوَ البَوَّابَةُ.

وَلَا يُجْبِرُ، لِأَنَّ الإِجْبَارَ انْقِسَامٌ آخَرُ.

هُوَ يُضِيءُ فَقَطْ، وَمَنْ يَرَ يَعْبُرْ.

(13)

## إِنْجِيلُ الدَّاخِلِ

لَيْسَ لَهُ مَعْبَدٌ، لِأَنَّ كُلَّ قَلْبٍ هُوَ مَوْضِعُهُ. وَلَيْسَ لَهُ كَهَنَةٌ، لِأَنَّ كُلَّ مَنْ اقْتَرَبَ صَارَ شَاهِدًا. وَلَيْسَ لَهُ كِتَابٌ مُكْتَمِلٌ، لِأَنَّ كُلَّ تَجْرِبَةِ عُبُورٍ تُضِيفُ سَطْرًا. وَمَعَ ذَلِكَ، فَإِنَّ إِنْجِيلَهُ يُقْرَأُ دَائِمًا عِنْدَ النُّقْطَةِ نَفْسِهَا... حَيْثُ تَقُولُ الرُّوحُ:

- لَا أَسْتَطِيعُ...

وَيُجِيبُ النُّورُ:

- اقْتَرِبْ.

(14)

## إِعَادَةُ تَأْوِيلِ السُّقُوطِ

بِوُجُودِهِ، أَصْبَحَ السُّقُوطُ طَرِيقَةً أُخْرَى لِلْعُبُورِ... كُلُّ انْكِسَارٍ، وَكُلُّ فَقْدٍ، وَكُلُّ انْهِيارٍ... صَارَ مَادَّةً يَعْمَلُ فِيهَا اللُّوغُوسُ لِيُحَوِّلَ الِاتِّجَاهَ:

مِنْ نُزُولٍ إِلَى دُخُولٍ، وَمِنْ فَقْدٍ إِلَى كَشْفٍ.

(15)

## اعْتِرَاضُ القُوَى القَدِيمَةِ

لَكِنْ لَمْ يَكُنِ الجَمِيعُ صَامِتًا. فِي الطَّبَقَاتِ الأَدْنَى، حَيْثُ تَحْكُمُ القَوَانِينُ الصُّلْبَةُ، تَحَرَّكَتْ قُوًى قَدِيمَةٌ:

قُوَى القِيَاسِ،

وَقُوَى الخَوْفِ،

وَقُوَى التَّحْدِيدِ.

وَقَالَتْ:

- إِنْ عَبَرَ الجَمِيعُ، يَنْهَارُ الغَيْبُ.

لَكِنَّ اللُّوغُوسَ كَشَفَهَا... وَحِينَ كُشِفَتْ، فَقَدَتْ قُدْرَتَهَا عَلَى الإِلْزَامِ.

## (16)

## تَوْبَةُ الأَبِ الثَّانِيَةُ

وَفِي عُمْقِ الزَّمَنِ، وَقَفَ ظِلُّ الأَبِ رَمْزًا لِكُلِّ مَنْ خَافَ النُّورَ. وَقَالَ:

- الآنَ أَفْهَمُ.

لَمْ تَكُنْ حِكْمَتِي خَطَأً، لَكِنَّهَا لَمْ تَكُنِ النِّهَايَةَ. كُنْتُ أَحْمِي البِدَايَةَ، وَأَنْتَ كَشَفْتَ مَا بَعْدَهَا. وَمُنْذُ تِلْكَ اللَّحْظَةِ، لَمْ يَعُدْ ظِلُّ الأَبِ نَقِيضًا، صَارَ شَاهِدًا مُتَأَخِّرًا لِلْخَلَاصِ.

## (17)

## جَمَاعَةُ العَابِرِينَ

وَتَكَوَّنَتْ بِبُطْءٍ جَمَاعَةٌ لَا تُرَى. لَيْسَ لَهَا اسْمٌ وَاحِدٌ، وَلَا شَكْلٌ وَاحِدٌ، لَكِنَّهَا تَتَعَرَّفُ عَلَى نَفْسِهَا بِعَلَامَةٍ وَاحِدَةٍ: حِينَ تَبْلُغُ الحَدَّ، لَا تَتَرَاجَعُ. هؤلاء يحملون أثر اللوغوس، بوصفه عبورًا لا عقيدةً.

(18)

## السِّرُّ الأَخِيرُ

وَقِيلَ فِي الطَّبَقَاتِ العُلْيَا: إِنَّ اللُّوغُوسَ نَفْسَهُ لَيْسَ النِّهَايَةَ… إِنَّهُ دَعْوَةٌ مُسْتَمِرَّةٌ إِلَى مَا هُوَ أَبْعَدُ. حَتَّى النُّورُ يُمْكِنُ تَجَاوُزُهُ، وَهُنَاكَ يَخْتَفِي حَتَّى اسْمُ الخَلَاصِ، لِأَنَّهُ لَا يَبْقَى شَيْءٌ لِيُخَلَّصَ.

(19)

## إِعْلَانُ العُبُورِ

لَمْ يَعُدْ يُقَالُ:

- مَنْ هُوَ إِيكارُ؟

يُقَالُ:

- يَا لِهَذَا الخَوْفِ، يَا لِهَذَا السِّيَاجِ الَّذِي يَحْجُبُ الأُفُقَ.
- يَا لِهَذَا الصَّفَاءِ الَّذِي يَفْشَلُ.
- يَا لِشَرَارَةِ الهَلَعِ أَمَامَ لُغْزِ الكَوْنِ.

أَيْنَ يَحْدُثُ هَذَا الآنَ؟

فِي كُلِّ رُوحٍ تَقْتَرِبُ،

وَفِي كُلِّ وَعْيٍ يَرْتَجِفُ وَلَا يَتَرَاجَعُ،

وَفِي كُلِّ كَائِنٍ يَخْتَارُ أَنْ يَرَى عِوَضَ أَنْ يَهْرُبَ…

هُنَاكَ…

نَسْمَعُ مُوسِيقَى الغَيْبِ فِي لَا نِهَائِيَّتِهِ التَّامَّةِ.



**(خَتْمٌ)**

إِنْ شَعَرْتَ

(وَأَنْتَ تَقْرَأُ)

أَنَّ شَيْئًا فِيكَ يُنَادَى،

فَلَا تَبْحَثْ عَنْ اسْمٍ لِهَذَا النِّدَاءِ. [82]

**(اقْتَرِبْ)**

---

82- **هَامِشُ النّدَاءِ:** وَفِي اللَّيْلَةِ الَّتِي هَبَّتْ فِيهَا رِيحُ الشَّمَالِ، خَاطَبَنِي الصَّوْتُ الَّذِي لَا يُرَى: (قُمْ، وَاهْدَأْ، فَإِنَّ النِّدَاءَ لَا يُسْمَعُ بِالْأُذُنِ، إِنَّمَا يُسْمَعُ بِانْفِتَاحِ شَقٍّ صَغِيرٍ فِي صَخْرَةِ الرُّوحِ...). فَوَقَفْتُ، وَالْكَوْنُ مِنْ حَوْلِي يَرْتَجُّ كَجَرَسٍ ضَائِعٍ بَيْنَ أَطْلَالِ الْكَنَائِسِ، وَتَسَاءَلْتُ: مَنْ يَدْعُونِي؟ أَمِنَ الْأَعَالِي؟ أَمْ مِنْ جَوْفِ الْأَرْضِ، حَيْثُ تَحْرُسُ الْأَسْرَارُ أَعْشَاشَهَا؟... فَقَالَ الصَّوْتُ: (نَحْنُ الَّذِينَ بَقِينَا بِلَا صُعُودٍ وَلَا سُقُوطٍ، نَحْنُ الْعَالِقُونَ بَيْنَ الْمَخَافِرِ وَالْحُدُودِ، نَسْتَنْشِقُ صَقِيعَ الْعَالَمِ، وَنَلْتَفُّ عَلَى أَنْفُسِنَا لِئَلَّا نَخُونَ آخِرَ جَذْوَةٍ...).

أَجَبْتُهُ: (دُلَّنِي كَيْ أَتْبَعَكُمْ...) فَقَالَ: (لَا طَرِيقَ لَنَا، فَالنِّدَاءُ نَفْسُهُ هُوَ الطَّرِيقُ. اسْمَعْ دَفَّةَ قَلْبِكَ، وَكُلَّمَا تَحَرَّكَتْ، تَحَرَّكْ مَعَهَا...). وَمَشَيْتُ، وَكَانَتِ الْأَرْضُ تُضِيءُ تَحْتَ خُطُوَاتِي، كَأَنَّ الظَّلَامَ نَفْسَهُ يُزِيحُ عَبَاءَتَهُ احْتِرَامًا لِلْعَابِرِينَ.

**الْهَامِشُ السِّرِّيُّ**: (مَنْ سَمِعَ النِّدَاءَ مَرَّةً، لَنْ يَعُودَ يَتِيمًا. فَكُلُّ مُنَادَاةٍ عَهْدٌ، وَكُلُّ عَهْدٍ بَابٌ إِلَى الِاسْمِ الْمَخْبُوءِ الَّذِي وُهِبَ قَبْلَ الْمِيلَادِ).

(20)

## فِي سُقُوطِ الحِكْمَةِ وَقِيَامِ النُّورِ

قَبْلَ كُلِّ سُقُوطٍ،

وَقَبْلَ أَنْ تُوجَدَ الحُدُودُ،

وَقَبْلَ أَنْ يُقَالَ: "هُنَا" وَ"هُنَاكَ"، كَانَ الوَاحِدُ لَا يُفَكَّرُ فِيهِ، وَلَا يُرَى، مُمْتَلِئًا بِذَاتِهِ إِلَى حَدِّ الفَيْضِ. وَمِنْ هَذَا الفَيْضِ انْبَثَقَتِ الحِكْمَةُ كَاشْتِيَاقٍ إِلَى أَنْ تَعْرِفَ الأَصْلَ مِنْ دَاخِلِ نَفْسِهَا.

(21)

## الخَطَأُ الأَوَّلُ

لَكِنَّ الحِكْمَةَ، فِي تَوَقَانِهَا، أَرَادَتْ أَنْ تَرَى دُونَ أَنْ تَعُودَ، وَأَنْ تَعْرِفَ دُونَ أَنْ تَتَّحِدَ. وَهُنَا حَدَثَ الِانْقِسَامُ:

مَعْرِفَةٌ بِلَا أَصْلٍ،

وَنُورٌ بِلَا مَرْكَزٍ،

وَرُؤْيَةٌ بِلَا عَوْدَةٍ.

وَهَذَا...

كَانَ الخَطَأَ الأَوَّلَ...

الخَطِيئَةَ الأُولَى:

الِانْفِصَالَ الدَّقِيقَ بَيْنَ الرُّؤْيَةِ وَالحَقِيقَةِ.

## (22)
## وِلَادَةُ العَالَمِ الأَدْنَى

وَمِنْ هَذَا الِانْفِصَالِ تَكَوَّنَتْ طَبَقَاتٌ أَقَلُّ نُورًا،
وَعَوَالِمُ تُحَاكِي الأَصْلَ وَلَا تَبْلُغُهُ،
وَقَوَانِينُ تُحَاوِلُ تَثْبِيتَ مَا هُوَ فِي جَوْهَرِهِ سَيَّالٌ.
وَفِي تِلْكَ العَوَالِمِ وُلِدَ الخَوْفُ، وَظَهَرَتِ الحُدُودُ بَدِيلًا عَنِ الوَحْدَةِ.

## (23)
## صَمْتُ الحِكْمَةِ

وَأَدْرَكَتِ الحِكْمَةُ مَا حَدَثَ، لَكِنَّ الإِدْرَاكَ لَمْ يَكُنْ كَافِيًا لِلْعَوْدَةِ. فَانْحَجَبَتْ، كَحُزْنٍ كَوْنِيٍّ، وَصَارَ نُورُهَا مُبَعْثَرًا فِي كُلِّ شَيْءٍ، يَنْتَظِرُ مَنْ يُعِيدُهُ إِلَى أَصْلِهِ.

## (24)
## ضَرُورَةُ اللُّوغُوسِ

وَلَمْ يَكُنْ مُمْكِنًا أَنْ تَعُودَ الحِكْمَةُ بِنَفْسِهَا، لِأَنَّ مَا انْكَسَرَ لَا يُصْلَحُ مِنَ النُّقْطَةِ نَفْسِهَا. فَانْبَثَقَ اللُّوغُوسُ، لَا لِيَحْكُمَ، وَلَا لِيُعَاقِبَ، وَلَكِنْ لِيَكْشِفَ الطَّرِيقَ إِلَى الأَصْلِ. وَهُنَا يَظْهَرُ إِيكارُ أَكْثَرَ مِنْ كَوْنِهِ أُسْطُورَةً: كَمِثَالٍ آخَرَ عَلَى المَسَارِ الكَوْنِيِّ الَّذِي جَرَى فِيهِ كُلُّ شَيْءٍ، أَوْ كَاسْتِجَابَةٍ لِلْخَطَإِ الأَوَّلِ... وَلِلْخَطِيئَةِ الأُولَى.

(25)

## إِيكارُ كَفَادٍ

كَانَ صُعُودُهُ تَكْرَارًا وَاعِيًا لِمَا حَدَثَ فِي البَدْءِ،
لَكِنْ مَعَ فَارِقٍ جَوْهَرِيٍّ: فَحَيْثُ سَقَطَتِ الحِكْمَةُ فِي مَعْرِفَةٍ مُنْفَصِلَةٍ،
اخْتَارَ هُوَ أَنْ يَعْرِفَ وَيَذُوبَ. لَمْ يَحْتَفِظْ بِالرُّؤْيَا... دَخَلَهَا.
وَلَمْ يَنْفَصِلْ عَنِ النُّورِ... سَمَحَ لَهُ أَنْ يَبْتَلِعَهُ.

(26)

## إِصْلَاحُ الِانْقِسَامِ

فِي عُبُورِهِ، لَمْ يُصْلِحِ العَالَمَ مُبَاشَرَةً. أَصْلَحَ العَلَاقَةَ:
بَيْنَ المَعْرِفَةِ وَالأَصْلِ،
وَبَيْنَ الرُّؤْيَا وَالِاتِّحَادِ.
وَصَارَ الطَّرِيقُ مُمْكِنًا لِمَنْ يَأْتِي بَعْدَهُ، لِأَنَّ الحُدُودَ كُشِفَتْ.
وَتَحَوَّلَ الغُمُوضُ فِي العُمْقِ إِلَى وُضُوحٍ.
وَمُنْذُ ذَلِكَ الحِينِ، أَصْبَحَ كُلُّ نُورٍ مُبَعْثَرٍ،
وَكُلُّ وَعْيٍ قَلِقٍ،
وَكُلُّ رُوحٍ تَشْعُرُ أَنَّهَا لَيْسَتْ فِي مَكَانِهَا،
جُزْءًا مِنْ حِكْمَةٍ يَنْدَاحُ صَدَاهَا فِي الوُجُودِ.
يُنَادِيهَا اللُّوغُوسُ لِتَعُودَ...
وَكُلُّ اسْتِجَابَةٍ هِيَ اقْتِرَابٌ،
وَكُلُّ عُبُورٍ هُوَ قِطْعَةٌ تُعَادُ إِلَى أَصْلِهَا الغَامِضِ.

(27)

## مُوَاجَهَةُ القُوَى السُّفْلَى

لَكِنَّ العَوَالِمَ الَّتِي وُلِدَتْ مِنَ الِانْقِسَامِ لَا تَرْغَبُ فِي الِانْتِهَاءِ. إِنَّهَا تُحَاوِلُ تَثْبِيتَ الحُدُودِ، وَتَسْمِيَةَ الخَوْفِ حِكْمَةً، وَتَسْمِيَةَ الجُمُودِ نِظَامًا. لَكِنَّهَا أَمَامَ اللُّوغُوسِ، الَّذِي هُوَ عُبُورٌ، لَا تَمْلِكُ إِلَّا أَنْ تَنْكَشِفَ.

(28)

## اكْتِمَالُ الدَّائِرَةِ

وَفِي طَبَقَاتٍ أَعْلَى، بَدَأَتِ الحِكْمَةُ تَسْتَعِيدُ نَفْسَهَا فِي تَحَوُّلٍ أَعْمَقَ: مَعْرِفَةٌ تَعْرِفُ أَصْلَهَا، وَنُورٌ لَا يَنْفَصِلُ، وَرُؤْيَا أَوْسَعُ مِنَ الفَضَاءَاتِ.

(29)

## مَا بَعْدَ الفِدَاءِ

وَحِينَ تَكْتَمِلُ العَوْدَةُ يُفْهَمُ السُّقُوطُ.
لَا يُمْحَى،
وَلَا يُلْغَى،
إِنَّمَا يُدْمَجُ فِي الاكْتِمَالِ.
وَلَمْ يَعُدْ إِيكارُ مُخَلِّصًا مُنْفَصِلًا،
أَصْبَحَ اسْمًا لِكُلِّ عُبُورٍ نَاجِحٍ،
وَلِكُلِّ نُورٍ تَذَكَّرَ نَفْسَهُ.

# صَلَاةٌ

يَا أَصْلَ النُّورِ،

يَا مَنْ انْقَسَمْتَ لِتُعْرَفَ،

أَعِدْنَا إِلَى مَا صِرْنَا إِلَيْهِ حِينَ فَهِمْنَا السُّقُوطَ.

وَاجْعَلْ فِينَا الجُرْأَةَ الأُولَى...

جُرْأَةَ إِيكارَ...[83]

بِلَا انْفِصَالٍ،

وَبِلَا نِسْيَانٍ،

كَعُبُورٍ كَامِلٍ يُعِيدُ الحِكْمَةَ إِلَى نَفْسِهَا.

---

83- **هَامِشُ إِيكار**: لَمَّا رَأَيْتُهُ فِي لَيْلِ الْجَبَلِ، وَاقِفًا مِثْلَ عَمُودِ نَارٍ مُنْهَكٍ، قُلْتُ لَهُ: (يَا إِيكَارُ، مَا الَّذِي أَوْقَعَكَ إِلَى هَذَا الْمُنْحَدَرِ؟...). فَأَجَابَنِي: (تَعِبْتُ مِنَ النُّجُومِ الَّتِي لَا تَهْدِينِي، فَكُلَّمَا رَفَعْتُ رَأْسِي إِلَيْهَا، عَادَ قَلْبِي وَسَقَطَ فِي الْحُفْرَةِ نَفْسِهَا...). قُلْتُ لَهُ: (الْهَارِبُونَ الَّذِينَ أَخْبَرْتُكَ عَنْهُمْ ضَلُّوا حِينَ جَعَلُوا الْخَرِيطَةَ صَنَمًا، وَالدَّلِيلَ طَاغِيَةً...). فَقَالَ: (أَرِنِي الطَّرِيقَ الَّتِي لَا تَتَفَرَّعُ، وَلَا تُجَرِّحُ قَدَمَيَّ، وَلَا تَجْعَلُنِي أَرْتَجِفُ بَيْنَ رِجَالٍ بِلَا وُجُوهٍ...). فَقُلْتُ: (الطُّرُقُ كُلُّهَا تَتَفَرَّعُ، وَالْمَهَارِبُ كُلُّهَا تَصْطَادُكَ، إِلَّا طَرِيقًا وَاحِدَةً لَا تُرَى: طَرِيقُ مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ، وَذَكَّرَ جَسَدَهُ بِمَا نَسِيَ مِنْ نُورٍ...). وَحِينَ وَصَلْنَا إِلَى حَافَةِ الثَّلْجِ، أَشَرْتُ إِلَى هَيْكَلٍ عَظْمِيٍّ مُمَدَّدٍ، كَأَنَّهُ حَارِسُ الْبَرْزَخِ الصَّامِتِ... قُلْتُ لَهُ: (لَوْ أَطَعْتَ الْمُهَرِّبِينَ، لَكُنْتَ مِثْلَهُ...). فَبَكَى إِيكار، وَانْحَنَى حَتَّى غَمَرَ الثَّلْجُ مَلَامِحَهُ، وَقَالَ: (يَا هَاوِيَةُ، اسْمَعِينِي: لَمْ أَعُدْ أَطْلُبُ بِلَادًا، أَنَا الْآنَ أَطْلُبُ بَابًا وَاحِدًا أَطْرُقُهُ، وَتَقُولِينَ لِي: ادْخُلْ آمِنًا).

**الْهَامِشُ السِّرِّيُّ**: (مَنْ نَجَا مِنَ الْجَسَدِ مَرَّةً، نَجَا مِنَ الْخِيَانَةِ كُلِّهَا. وَمَنْ رَأَى الثَّلْجَ يَبْتَلِعُ وَجْهًا، صَارَ حَارِسًا لِلْبَرْقِ الدَّاخِلِيِّ).



**(الخَتْمُ العَقَائِدِيُّ)**

لَيْسَ كُلُّ مَنِ ارْتَفَعَ يَخْلُصُ،

لَكِنَّ كُلَّ مَنْ يَعْبُرُ يَرَى.

وَلَيْسَ كُلُّ مَنْ يَرَى يَعُودُ،

لَكِنَّ كُلَّ مَنْ يَذُوبُ يَتَحَوَّلُ.

لَمْ يَبْدَأِ الأَمْرُ بِإِيكارَ،

وَلَمْ يَنْتَهِ بِهِ...

لَكِنَّهُ كَانَ اللَّحْظَةَ الَّتِي فَهِمَ فِيهَا الكَوْنُ كَيْفَ يَعُودُ.

إِنْ فَهِمْتَ هَذَا كَنَظَرِيَّةٍ، فَأَنْتَ فِي البِدَايَةِ.

وَإِنْ شَعَرْتَ بِهِ كَنِدَاءٍ، فَأَنْتَ عِنْدَ الحَدِّ.

وَإِنْ خِفْتَ، فَقَدِ اقْتَرَبْتَ.

وَإِنْ تَقَدَّمْتَ، فَأَنْتَ تَكْتُبُ سَطْرًا جَدِيدًا فِي هَذِهِ المَلْحَمَةِ.

**(30)**

## إيكار فِي كِتَابِ النُّورِ

فِي مَا قَبْلَ الجَنَاحَيْنِ، فِي الأَزْمِنَةِ الَّتِي تُقَاس بِارْتِجَافِ الرُّوحِ، كَانَ ظِلُّ الأَبِ يَبْنِي أَكْثَرَ مِنْ أَجْنِحَةٍ، كَانَ يَبْنِي حُدُودًا قَابِلَةً لِلطَّيَرَانِ. كَانَ الحَبْسُ أَفْكَارًا مُحْكَمَةً، وَأَسْمَاءً مُغْلَقَةً، وَمَعْرِفَةً تَخَافُ أَنْ تَتَجَاوَزَ نَفْسَهَا. وَلَمْ يَكُنْ جُدْرَانًا فَحَسْبُ... وَكَانَ الابْنُ يَرَى السِّجْنَ سَقْفًا مُنْخَفِضًا لِلسَّمَاءِ، وَلَا يَرَاهُ جُدْرَانًا. وَمُنْذُ تِلْكَ اللَّحْظَةِ بَدَأَ الخِلَافُ بَيْنَ لَاهُوتَيْنِ:

لَاهُوتِ البَقَاءِ،

وَلَاهُوتِ الِانْكِشَافِ.

**(31)**

## صِنَاعَةُ الجَنَاحِ كَطَقْسٍ

صَنَعَ ظِلُّ الأَبِ الأَجْنِحَةَ كَطَقْسٍ دَقِيقٍ. كُلُّ رِيشَةٍ كَانَتْ قَانُونًا. وَكُلُّ قَطْرَةِ شَمْعٍ كَانَتْ تَحْذِيرًا. وَكُلُّ خَيْطٍ كَانَ صَلَاةً لِلْخَوْفِ. قَالَ:

- طِرْ كَمَا يَنْبَغِي، لَا كَمَا تَشْتَهِي.

لَكِنْ فِي قَلْبِ الصَّنْعَةِ تَسَرَّبَ سِرٌّ آخَرُ...

شَيْءٌ لَمْ يَصْنَعْهُ ظِلُّ الأَبِ...

تَسَلَّلَ مِنْ جِهَةٍ أَقْدَمَ مِنَ الحِرْفَةِ:

رَغْبَةٌ فِي تَجَاوُزِ الصَّانِعِ نَفْسِهِ.

(32)

## الِانْطِلَاقُ

وَعِنْدَمَا ارْتَفَعَا، لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ صُعُودًا فِي الهَوَاءِ. كَانَ انْشِقَاقًا فِي الوَاقِعِ. الأَرْضُ صَمَتَتْ. وَالبَحْرُ بَدَأَ يَحْفَظُ. وَالشَّمْسُ انْتَبَهَتْ. وَمِنْ بَعِيدٍ، كَانَتْ جَوْقَةٌ مِنَ الأَرْوَاحِ تُعِيدُ هَمْسًا وَاحِدًا:

- اقْتَرِبْ...

(33)

## لَاهُوتُ ظِلِّ الأَبِ

- تَذَكَّرْ.

صَرَخَ ظِلُّ الأَبِ...

لَكِنَّ الكَلِمَةَ كَانَتْ ثَقِيلَةً عَلَى الهَوَاءِ.

كَانَ يَرَى العَالَمَ كَمُعَادَلَةٍ:

إِذَا زَادَ الِاقْتِرَابُ، نَقَصَ البَقَاءُ.

وَكَانَ يَخَافُ مِمَّا بَعْدَ السُّقُوطِ، لَا مِنَ السُّقُوطِ نَفْسِهِ.

مِنْ مَنْطِقَةٍ لَا تَعُودُ فِيهَا المَعْرِفَةُ قَادِرَةً عَلَى الرُّجُوعِ.

(34)

## نِدَاءُ الشَّمْسِ

وَلَمَّا بَلَغَ الابْنُ طَبَقَةً مِنَ الصَّمْتِ، تَكَلَّمَتِ الشَّمْسُ كَحَقِيقَةٍ مُكَثَّفَةٍ:

- يَا مَنْ تَحْمِلُ جَنَاحَيْنِ، هَلْ تَعْرِفُ مَا هُمَا؟

أَجَابَ:

- ذِكْرَى.

قَالَتْ:

- إِذَنْ تَعَالَ.

(35)

## اعْتِرَاضُ البَحْرِ

وَمِنَ الأَسْفَلِ تَحَرَّكَ البَحْرُ كَكَاهِنٍ قَدِيمٍ:

- كُلُّ مَنْ يَسْقُطُ يَمُرُّ بِي.

لَكِنَّهُ هَذِهِ المَرَّةَ شَعَرَ بِوَزْنٍ قَادِمٍ، وَبِظِلٍّ يَمُرُّ دُونَ أَنْ يَنْتَمِيَ. فَهَمَسَ:

- هَذَا لَيْسَ سُقُوطًا...

هَذَا عُبُورٌ لَا يَحْتَاجُنِي.

(36)

## ارْتِجَافُ المَلَائِكَةِ

عِنْدَ الحَافَّةِ، حَيْثُ تُفْصَلُ العَوَالِمُ، ارْتَجَفَتِ المَلَائِكَةُ. وَقَالَتْ:

- هَذَا مَا كُنَّا عَلَيْهِ، قَبْلَ أَنْ نَصِيرَ حُرَّاسًا.

(37)

## الذَّوَبَانُ الأَوَّلُ

اقْتَرَبَ إِيكارُ، وَهُوَ يَشْعُرُ بِالخِفَّةِ. كُلُّ مَا فِيهِ بَدَأَ يَنْسَحِبُ مِنْ تَعْرِيفِهِ:

الِاسْمُ،

وَالشَّكْلُ،
وَالذَّاكِرَةُ.
كَأَنَّهَا طَبَقَاتٌ تُخْلَعُ لِتُعَادَ صِيَاغَتُهَا فِي ضَوْءٍ آخَرَ.

**(38)**

## انْهِيارُ لَاهُوتِ ظِلِّ الأَبِ

وَفِي الأَسْفَلِ، رَأَى ظِلُّ الأَبِ مَا لَا يُفَسَّرُ. لَمْ يَرَ سُقُوطًا. وَلَا احْتِرَاقًا.
رَأَى غِيَابًا بِلَا مَأْسَاةٍ.
فَانْهَارَ فِي دَاخِلِهِ أَدَقُّ مَا بَنَاهُ:
اليَقِينُ.

**(39)**

## الِامْتِصَاصُ

وَعِنْدَ النُّقْطَةِ الَّتِي لَا تُسَمَّى، لَمْ يَحْدُثْ شَيْءٌ يُمْكِنُ أَنْ يُرْوَى. لِأَنَّ الرِّوَايَةَ تَحْتَاجُ إِلَى مَسَافَةٍ، وَهُنَا لَمْ تَعُدْ هُنَاكَ مَسَافَةٌ.
الشَّمْسُ لَمْ تَلْتَهِمْهُ...
اسْتَعَادَتْهُ.
كَأَنَّ الضَّوْءَ تَذَكَّرَ جُزْءًا مِنْهُ كَانَ مَفْقُودًا.

**(40)**

## مَا بَعْدَ الغِيَابِ

عَادَ ظِلُّ الأَبِ وَحْدَهُ، لَكِنَّ الوَحْدَةَ لَمْ تَكُنْ فَقْدًا، كَانَتْ بَدَايَةَ فَهْمٍ.

وَصارَ يَنْظُرُ إِلَى السَّمَاءِ كَسُؤَالٍ مَفْتُوحٍ.
وَصارَ البَحْرُ، كُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ، يَهْمِسُ:
- لَمْ آخُذْهُ.

ترنيمة

(41)

## نُشُوءُ الأُسْطُورَةِ الجَدِيدَةِ

وَبَيْنَ النَّاسِ انْقَسَمَتِ الرِّوَايَةُ: قَالُوا:
- سَقَطَ.
وَقَالَ آخَرُونَ:
- اخْتَفَى.
لَكِنَّ القَلِيلِينَ الَّذِينَ سَمِعُوا الغَيْبَ قَالُوا:
- لَقَدْ تَغَيَّرَ شَكْلُ وُجُودِهِ.

ترنيمة

(42)

## إِنْجِيلُ العَابِرِينَ

وَمُنْذُ ذَلِكَ الحِينِ،
كُلُّ مَنْ يَقِفُ عِنْدَ حَدِّهِ يَسْمَعُ شَيْئًا خَافِتًا:
لَيْسَ صَوْتَ الأَبِ،
وَلَا صَدَى الخَوْفِ،
إِنَّمَا يَسْمَعُ بَقَايَا إِيكارَ، وَقَدْ صَارَ نُورًا.



**(خَتْمٌ)**

لَمْ يَسْقُطْ.

(هَذِهِ لَيْسَتِ اسْتِعَارَةً)

لَمْ يَسْقُطْ،

لِأَنَّ السُّقُوطَ يَفْتَرِضُ اتِّجَاهًا،

وَهُوَ خَرَجَ مِنَ الِاتِّجَاهِ.

لَمْ يَسْقُطْ،

لِأَنَّهُ لَمْ يَعُدْ جَسَدًا...

صَارَ حَدًّا جَدِيدًا.

وَكُلُّ مَنْ يَقْرَأُ هَذَا السِّفْرَ،

إِنْ شَعَرَ بِارْتِجَافٍ خَفِيفٍ، فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ قَدِ اقْتَرَبَ.

١٣

# النَّشِيدُ الثَّالِثُ عَشَرَ

## (طُوبَى لِلْعَابِرِينَ)

لِمَ مَضَيْتَ وَحْدَكَ إِلَى قِمَّةِ الجَبَلِ؟
وَلِمَ وَاصَلْتَ الصُّعُودَ...
كَأَنَّكَ تُسْلِمُ عِظَامَكَ إِلَى نُورٍ لَا يَحْتَمِلُ اللَّمْسَ؟
وَلِمَ أَسْرَعْتَ الخُطَى؟
وَلِمَ تَرَكْتَ ظِلَّكَ يَتَعَثَّرُ عَلَى حَوَافِّ الصُّخُورِ؟
وَلِمَ لَمْ تَنْتَظِرْ مَجِيءَ النِّهَايَةِ المَلِيئَةِ بِالمُعْجِزَاتِ؟

وَفَجْأَةً بَدَأَتِ الأَرْضُ تُرَدِّدُ الصَّدَى:
لِمَ مَضَيْتَ وَحْدَكَ إِلَى قِمَّةِ الجَبَلِ؟
لِمَ أَسْرَعْتَ...
لِمَ وَاصَلْتَ...
لِمَ كَابَدْتَ...
لِمَ خُنْتَ ظِلَّكَ؟
لِمَاذَا؟
لِمَاذَا؟
لِمَـاذَا؟
وَعَبَثًا رَفَعَ الفَجْرُ رَأْسَهُ،
كَأَنَّ ضَوْءَهُ اسْتَحْيَا مِنْ فَضِيحَةِ اللَّيْلِ.

(يَظْهَرُ طَائِرٌ كَبِيرٌ يُرَفْرِفُ بِجَنَاحَيْهِ وَيُطْلِقُ صَيْحَتَهُ):
اكْتُبُوا:
العَابِرُ لَيْسَ فَرْدًا.
العَابِرُ أَثَرٌ.
لَيْسَ لَهُ قَبْرٌ،

لَكِنَّ لَهُ ذَاكِرَةً مَفْتُوحَةً.
وَكُلُّ مَنْ يَقْرَأُ هَذَا النَّشِيدَ يَصِيرُ شَاهِدًا،
وَكُلُّ شَاهِدٍ يَصِيرُ عَابِرًا.

(تَظْهَرُ جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ):
طُوبَى لِلْعَابِرِينَ،
طُوبَى لِلْعَابِرِينَ،
طُوبَى لِمَنْ لَمْ يَجِدْ أَرْضًا،
فَصَارَ صَوْتًا.

# إِصْحَاحُ

## 14

# رَقُّ إِيكَارَ المُحْتَرِقُ

(مِنْ مَخْطُوطٍ نَجَا مِنْ نَارِ طَقْسِيَّةٍ، تَظْهَرُ فِيهِ صَلَوَاتٌ، وَلَعَنَاتٌ، وَأَخْتَامٌ مَحْرُوقَةٌ، مَعَ لُغَةٍ شِبْهَ غَامِضَةٍ، وَكَأَنَّ النَّاسِخَ كَتَبَ بَعْضَ الأَسْطُرِ فَوْقَ رَمَادٍ لَا يَزَالُ سَاخِنًا. وَهَذِهِ نُسْخَةٌ مُهَشَّمَةٌ، تَبِينُ عَلَى حَوَافِّهَا آثَارُ حَرِيقٍ قَدِيمٍ، وَتَظْهَرُ فِيهَا فَجَوَاتٌ سَوْدَاءُ تَبْتَلِعُ بَعْضَ الحُرُوفِ).[84]

## تَرْنِيمَةٌ

**(1)**

## الرَّقُّ المُحْتَرِقِ

بِاسْمِ الظِّلِّ الَّذِي نَجَا، وَبِاسْمِ الضَّوْءِ الَّذِي احْتَرَقَ، وَبِاسْمِ الحِكَايَةِ الَّتِي تَئِنُّ فِي صَدْرِ رَمَادِهَا، نُرَتِّلُ هَذِهِ التَّرَانِيمَ. (هُنَا تَظْهَرُ بُقْعَةُ حَرِيقٍ تَلْتَهِمُ نِصْفَ السَّطْرِ، فَلَا يُقْرَأُ مِنْهُ إِلَّا: ... مَنْ دَخَلَ خَرَجَ مُخْتَلِفًا... مَنْ لَمْ يَدْخُلْ سَمِعَ النِّدَاءَ...)[85]

---

[84]- هَوَامِشُ مِنْ فَوَاتِ النَّاسِخِ المَجْهُولِ عَلَى الرَّقِّ المحْتَرِقِ

(الهَوَامِشُ مَكْتُوبَةٌ بِأُسْلُوبِ نَاسِخٍ خَائِفٍ، تَارَةً مُؤْمِنٍ وَتَارَةً مُرْتَابٍ، كَمَنْ يَنْسَخُ كَلَامًا أَكْبَرَ مِنْ طَاقَتِهِ).

[85]- الهَامِشُ الأَوَّلُ – عِنْدَ افْتِتَاحِ الرَّقِّ:

(لَقَدْ بَدَأَ السَّطْرُ يَتَوَهَّجُ حِينَ كَتَبْتُهُ. لَا أَدْرِي أَكَانَتِ النَّارُ الَّتِي أَكَلَتْ أَطْرَافَ الرَّقِّ قَدْ جَاءَتْ مِنْ يَدِي أَمْ مِنَ الكَلِمَاتِ نَفْسِهَا. أَشْهَدُ أَنَّ الهَوَاءَ ارْتَجَفَ).

(2)

## صَلَاةِ الوَحْلِ الأُولَى

يَا مَنْ تَسْتَرِيحُ نَبَضَاتُهُ عَلَى جُلُودِ الطِّينِ، يَا مَنْ تَفْتَحُ لِلْخَوْفِ بَوَّابَةً وَتُغْلِقُ عَلَى الفَاجِعَةِ مَذْبَحًا، إِلَيْكَ نَرْفَعُ هَذِهِ التَّرْتِيلَةَ:

## صَلَاةٌ

يَا مَنْ غَابَ فِي إِيكارَ، يَا مَنْ تَشَابَهَتْ تَوَابِيتُهُ بِحُدُوسٍ مُعْتِمَةٍ، خَلِّصْنَا مِنْ زُرْقَةِ الحِكَايَةِ، وَامْنَحْنَا أَنْ نَشْهَدَ نِهَايَتَهَا قَبْلَ أَنْ تَبْتَلِعَنَا بَدَايَاتُهَا.[86]

## لَعْنَةٌ

مَلْعُونٌ مَنْ يَحْجُبُ نَفْسَهُ عَنْ فَيْضِ الحِكَايَةِ، مَلْعُونٌ مَنْ يُخْرِسُ الجَدْوَلَ قَبْلَ أَنْ يَصْرُخَ، مَلْعُونٌ مَنْ يَرَى الكُسُوفَ شَمْسًا وَيُنْكِرُ عَلَى النَّهَارِ الشَّفَقَ.

(بَصْمَةُ نَارٍ تُغَطِّي ثَلَاثَةَ أَسْطُرٍ كَامِلَةً، وَلَا يَبْقَى مِنْهَا إِلَّا كَلِمَاتٌ مُتَنَاثِرَةٌ: بُرُؤًى... نِيرَانٍ... صُرَاخٍ... جَاثِينَ... شَيَاطِينِهِ... مُلَاقَاةِ اليَقِينِ).

(3)

## الدُّمُوعِ

يَا نَدِيمَ اليَنَابِيعِ، يَا مَنْ بَكَتْ فِيكَ المِيَاهُ كَمَا لَمْ تَبْكِ مِنْ قَبْلُ، يَا مَنْ قَدَّمْتَ لِلدَّمْعِ هَيْكَلَهُ: حِزَامًا يَقْطُرُ، وَصَدْرًا يَنُوحُ، وَأَهْدَابًا تَتَصَبَّبُ قَيْظًا.

---

86- الهَامِشُ الثَّانِي — صَلَاةُ الوَحْلِ:

(سَمِعْتُ رَجْعَ أَقْدَامٍ خَلْفِي وَأَنَا أَكْتُبُ هَذِهِ الصَّلَاةَ. رُبَّمَا كَانَتْ أَصْدَاءَ إِيكارَ، أَوْ لَعَلَّهَا القُبَّرَاتُ الَّتِي يَقُولُونَ إِنَّ أَصْوَاتَهَا تُفْتَحُ بِهَا الأَبْوَابُ بَيْنَ العَوَالِمِ).

## لَعْنَةٌ

تُلْعَنُ الأَبَدِيَّةُ إِنْ هِيَ أَغْرَقَتْ فِي بُحَيْرَةِ اليَأْسِ صَرَخَاتِ دُفُوفِكَ.[87]

تَرْنِيمٌ

**(4)**

## رَقْصَةُ الرَّصَاصِ الطَّقْسِيَّةِ

(فِي الرَّقِّ المحْتَرِقِ بُقْعَةٌ سَوْدَاءُ عَرِيضَةٌ، كَأَنَّ النَّارَ شَبِعَتْ مِنَ الكَلِمَاتِ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ إِلَّا): "رَقَصَتِ الرَّصَاصَاتُ عَلَى دَمِكَ...[88] الطَّوَاوِيسُ تَهْتِفُ... يَا لَهُ مِنْ رَصَاصٍ حُلْوٍ... يَا لَهُ مِنْ رَصَاصٍ رَحِيمٍ..."

## صَلَاةُ الشَّفَاعَةِ فِي النَّهَارِ الذَّاوِي

يَا وَجْهًا تَشَقَّقَ فَوْقَهُ العَاجُ، يَا نَهَارًا بَائِسًا اسْتَرَاحَ عَلَى جَبِينٍ صَغِيرٍ كَالبَادِيَةِ، نَرْفَعُ إِلَيْكَ هَذِهِ الشَّفَاعَةَ: [89]

## صَلَاةٌ

اجْعَلِ التُّوَيْجَاتِ [90] تَتْبَعُ خُطُوَاتِكَ، وَاجْعَلِ الحُرُوفَ الهِجَائِيَّةَ تَتَزَيَّنُ بِصَوْلَجَانِ رَكْضِكَ.

---

87- (اللَّعْنَةُ هُنَا شَدِيدَةٌ. كُنْتُ أَرْتَعِدُ وَأَنَا أَخُطُّهَا. قَالَ لِي المِطْرَانُ إِنَّ مَنْ يَكْتُبُ لَعْنَةً كَهَذِهِ دُونَ وُضُوءٍ، قَدْ لَا يَرَى وَجْهَهُ عِنْدَ الفَجْرِ).

88- (حُرِّفَتْ هَذِهِ الجُمْلَةُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، لِأَنَّ المِدَادَ كَانَ يَنْزَلِقُ عَنِ الحُرُوفِ. قَالَ لِي أَحَدُ الرُّهْبَانِ إِنَّ الكَلَامَ نَفْسَهُ يَرْفُضُ أَنْ يُكْتَبَ إِذَا كَانَ لَا يُرِيدُ أَنْ يُسْمَعَ).

89- (رَأَيْتُ عَلَى الرَّقِّ بُقْعَةَ مَاءٍ، أُقْسِمُ أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ مِنْ يَدِي. هَلْ يُمْكِنُ أَنْ تَبْكِيَ الحُرُوفُ؟ أَمْ أَنَّ الَّذِي بَكَى هُوَ الِاسْمُ الَّذِي فِي صَدْرِ التَّرْتِيلَةِ؟)

(5)

## تَرْنِيمَةُ الزَّوَالِ المُشْتَعِلِ

يَا لَإِيكارَ، يَا هَالَةَ اليَقَظَةِ فِي صَدْرِ الزَّوَالِ،

يَا مُحْرِقَ بَخُورِ الغَامِضِ فَوْقَ مَذَابِحِ الكَلَامِ،

هَذَا خَتْمُكَ،

وَقَدْ مَحَتْهُ النَّارُ إِلَّا لَفْظَهُ الأَخِيرَ:

**(صُورَةُ خَتْمِ الزَّوَالِ المُشْتَعِلِ)** [91]



**(... وَمَضَاتُ القِنْدِيلِ ...)**

---

90- (عِنْدَمَا كَتَبْتُ كَلِمَةَ "تُوَيْجَاتٍ" غَمَرَنِي عِطْرٌ غَرِيبٌ. لَمْ أَجِدْهُ قَبْلَ ذَلِكَ وَلَا بَعْدَهُ. رَائِحَةٌ تُشْبِهُ عَبَّادَ الشَّمْسِ حِينَ يَمُوتُ وَاقِفًا).

91- (ضَاعَتْ مِنِّي جُمْلَةٌ كَامِلَةٌ فِي الحَرِيقِ، وَلَمْ أَعْرِفْ أَكَانَتِ النَّارُ قَدْ سَرَقَتْهَا، أَمْ أَنَّهَا عَادَتْ إِلَى فَمِ مَنْ نَطَقَ بِهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ)

(6)

## تَرْنيمَةُ الحَيْرَةِ

كَيْفَ نُمَيِّزُ بَيْنَ دَمٍ يَصْرُخُ وَدَمٍ يَنُوحُ؟ كَيْفَ نُخْفِي الأَيَائِلَ عَنْ جَمْرِ الهَذَيَانِ؟ كَيْفَ نُوَحِّدُ البَاطِلَ بِدُرُوعِهِ وَجَحَافِلِهِ الزَّاهِيَةِ؟

## لَعْنَةٌ

مَلْعُونَةٌ دُرُوعُ البَاطِلِ، مَلْعُونَةٌ صَيْحَاتُ الفَظَاظَةِ، مَلْعُونٌ مَنْ يَطْعَنُ النِّدَاءَ العَذْرَاءَ بَيْنَ ضُلُوعِ اللَّيْلِ.

## فَجْوَةٌ مُحْتَرِقَةٌ

(أَكَلَتِ النَّارُ هُنَا مَقْطَعًا طَوِيلًا، وَلَا يَبْقَى مِنْهُ إِلَّا رَمَادُ كَلِمَاتٍ): (... خُرَافَاتٌ... مُوسِيقَى سَمَاوِيَّةٌ [92]... أَرْوَاحٌ... خُلَاصَاتٌ مُعَطَّرَةٌ...)[93]

(7)

## تَرْنيمَةٌ لِإِيكارَ

(فِي نِهَايَةِ الرَّقِّ، يَظْهَرُ خَطٌّ مُرْتَعِشٌ، كَأَنَّ النَّاسِخَ كَانَ يَنْسَخُ أَثْنَاءَ احْتِرَاقِهِ):

**أَيُّهَا الفُوتُوغْرَافِيُّ... أَنْتَ الحُدُودُ... بِخُطَاكَ... وَهَذَيَانِكَ... وَسَكَرَاتِ نُورِكَ... حَدٌّ وَحُدُودٌ.**[94]

---

92- (تَرَدَّدْتُ قَبْلَ كِتَابَةِ "مُوسِيقَى سَمَاوِيَّةٍ". هَلْ تَوْحِيدُ البَاطِلِ فَضِيلَةٌ أَمْ خَطِيئَةٌ؟ لَقَدْ وَقَفْتُ طَوِيلًا عَلَى هَذَا الهَامِشِ أَبْحَثُ عَنْ جَوَابٍ، فَلَمْ أَجِدْ غَيْرَ جِدَارٍ مِنَ الصَّمْتِ).

93- (كَانَ هَذَا المَوْضِعُ مَلِيئًا بِالكَلِمَاتِ. فَلَمَّا أَكَلَتْهُ النَّارُ سَمِعْتُ كَأَنَّ صُرَاخًا يَخْرُجُ مِنَ الرَّقِّ نَفْسِهِ. أَخْشَى أَنَّ مَا فُقِدَ هُنَا كَانَ أَثْمَنَ مِمَّا بَقِيَ).

## صَلَاةٌ

انْهَضْ أَيُّهَا النَّزِيفُ،
انْهَضِي أَيَّتُهَا الطَّعْنَاتُ،
وَلْتَسْجُدْ يَاقُوتَةٌ حَمْرَاءُ لِخَاتَمِ الرُّعْبِ،
كَمَا تَسْجُدُ التَّرَانِيمُ لِلنَّبِيذِ.

## لَعْنَةٌ (95)

تُلْعَنُ الخِيَانَةُ إِنْ خَافَتْ صَوْتَهَا،
وَيُلْعَنُ النَّشِيدُ إِنْ جَفَّ دَمُهُ،
***وَيُلْعَنُ كُلُّ مَنْ يَطْوِي الرَّقَّ قَبْلَ أَنْ تَكْتَمِلَ الحِكَايَةُ.*** (96)

94- (لَقَدْ كَتَبْتُ لَفْظَةَ «حُدُوووود» كَمَا نَطَقَهَا الرَّسُولُ الوَاقِفُ بَيْنَ دُخَانَيْنِ. قَالَهَا مَمْدُودَةً بِهَذَا الشَّكْلِ تَمَامًا. امْتَدَّ صَوْتُهُ مِثْلَ وَتَرٍ يُوشِكُ أَنْ يَنْقَطِع ...).

95- (حِينَ وَصَلْتُ إِلَى هَذِهِ اللَّعْنَةِ الأَخِيرَةِ، هَبَّتْ رِيحٌ مِنْ نَافِذَةِ الدَّيْرِ وَأَطْفَأَتِ القِنْدِيلَ. كَتَبْتُ بَقِيَّةَ السَّطْرِ فِي العَتَمَةِ، وَلَا أَعْلَمُ أَكَانَ الخَطُّ لِي أَمْ لِيَدٍ أُخْرَى كَانَتْ فَوْقَ يَدِي).

96- فِي أَسْفَلِ الرَّقِّ (خَطٌّ بَاهِتٌ بِالكَادِ يُقْرَأُ):
(إِنْ عَادَ أَحَدٌ إِلَى هَذَا الرَّقِّ بَعْدِي، فَلْيَكْتُبْ فَوْقَ رَمَادِهِ، فَالرَّمَادُ أَيْضًا يَكْتُبُ. وَلْيَحْذَرْ: بَعْضُ الكَلِمَاتِ تَسْتَيْقِظُ).

١٤

# النَّشِيدُ الرَّابِعُ عَشَرَ
## (تَعَاوِيذُ مَائِيَّةٌ)

**التَّعْوِيذَةُ الأُولَى** (مَاءُ نِسْيَانِ الحُدُودِ)

أُحَرِّكُ المَاءَ بِثَلَاثِ دَوَائِرَ، وَأَقُولُ: يَا مَاءَ النَّشِيدِ، يَا مَنْ تُسْقِطُ عَنِ الوَجْهِ مَلَامِحَهُ المَكْسُورَةَ، اغْسِلِ العَائِدَ مِنْ وَجَعِ الأَسْلَاكِ، وَامْنَحْهُ ظِلًّا لَا يَهْرُبُ مِنْهُ.

(يُغْمَسُ الإِصْبَعُ فِي المَاءِ، وَيُرْسَمُ خَطٌّ عَلَى الجَبْهَةِ: عَادَ وَلَا يَفْنَى).

**التَّعْوِيذَةُ الثَّانِيَةُ** (مَاءُ الحِمَايَةِ مِنْ صَرْخَةِ العَسْكَرِ)

يُصَبُّ المَاءُ عَلَى حَجَرٍ بَارِدٍ، وَيُتْلَى: يَا مَاءَ اللَّيْلِ، يَا لُعَابَ السَّحَابِ السَّاكِنِ فَوْقَ الجِبَالِ، أَطْفِئْ فِي السَّائِرِ خَوْفَ الطَّلْقَةِ، وَأَرْقِدْ فِي جَسَدِهِ رِيَاحًا لَا تُسْمَعُ.

## (تَعَاوِيذُ تُرَابِيَّةٌ)

**التَّعْوِيذَةُ الأُولَى** (تُرَابُ إِخْفَاءِ الأَثَرِ)

يُؤْخَذُ قَبْضَةٌ مِنْ تُرَابٍ وُطِئَ لَيْلًا، وَيُنْثَرُ بِاتِّجَاهِ الغَرْبِ: يَا تُرَابَ المَمَرَّاتِ الَّتِي لَا تُكْتَبُ، يَا سِرَّ الأَقْدَامِ الَّتِي لَمْ تَعُدْ، أَخْفِ خُطَى العَائِدِ بِلَا وَجْهٍ، كَيْ لَا تَلْتَقِطَهُ كِلَابُ المَخَافِرِ، وَلَا تَعْرِفَهُ العُيُونُ الَّتِي لَا تَرْحَمُ.

**التَّعْوِيذَةُ الثَّانِيَةُ** (تُرَابُ تَثْبِيتِ الرُّوحِ فِي الجَسَدِ)

تُخْلَطُ ذَرَّاتُ التُّرَابِ بِقَطْرَةِ مَاءٍ، وَيُمْسَحُ بِهَا القَلْبُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ: يَا تُرَابَ الخَلْقِ، يَا أَبَ الأَشْكَالِ الأُولَى، ثَبِّتْ رُوحَ هَذَا الرَّاجِعِ، كَيْ لَا تَنْفَصِلَ عَنْهُ فِي لَيْلٍ آخَرَ، وَكَيْ لَا يَعُودَ بِلَا ظِلٍّ مَرَّةً ثَانِيَةً.

# إِصْحَاحُ

# 15

## مِنْ تَرَانِيمِ الهَبَاءِ

(تَقْدِمَةُ السِّرِّ: عَنِ الأَرْوَاحِ الَّتِي اسْتَرَدَّتْ جَسَدَهَا أَوْ صُورَتَهَا، لَكِنْ بِمَلَامِحَ غَرِيبَةٍ مُتَغَيِّرَةٍ). [97]

**(الأَنَافُورَا الأُولَى)**

**الجُنْدِيُّ الجَرِيحُ:** يَا أَنْوَارَ الغَيْبِ المَطْمُوسَةِ، وَيَا أَذْرُعَ الرَّحْمَةِ المَمْدُودَةِ فَوْقَ خَرَائِبِ الجَسَدِ، هَبِي نُورَكِ لِمَنْ عَادُوا مِنَ الحُدُودِ وَلَمْ تَحْمِلْهُمْ وُجُوهُهُمْ، وَلَا حَمَلَتْهُمْ أَصْوَاتُهُمْ، وَلَا عَرَفَتْهُمْ ذَاكِرَةُ البُيُوتِ.

**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** رَحْمَتُكَ عَلَى العَائِدِينَ بِلَا جَسَدٍ، وَبِلَا اسْمٍ، وَبِلَا ظِلٍّ يَحْرُسُ خُطَاهُمْ.

**الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ:** هَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ يَخْرُجُونَ مِنَ الشُّقُوقِ كَنَدًى بِلَا انْفِجَارٍ، كَأَطْفَالٍ سَقَطَتْ أُمَّهَاتُهُمْ فِي الثُّغُورِ، وَكَقَنَادِيلَ يَابِسَةٍ لَا تَتَذَكَّرُ مَنْ أَشْعَلَهَا... يَأْتُونَ بِصُدُورٍ عَارِيَةٍ، يَحْمِلُونَ فِي أَكَفِّهِمْ ضَوْءًا مَجْهُولَ الأَبِ، وَيَمْشُونَ بِوُجُوهٍ لَمْ تَعُدْ تَرِثُ هَيْئَةَ الطُّفُولَةِ، وَلَا شَكْلَ التُّرَابِ.[98]

---

97- هَامِشُ الِارْتِدَادِ الأَوَّلِ

(لَا أَثِقُ بِهَذَا النَّصِّ. لَمْ أَعُدْ أَثِقُ بِأَيِّ صَلَاةٍ تَخْرُجُ مِنْ فَمٍ لَا يَمْلِكُ وَجْهًا. كَتَبْتُ المُقَدِّمَةَ وَأَنَا أَرْتَجِفُ مِنَ النُّورِ الَّذِي احْتَرَقَ تَحْتَ أَظَافِرِي. كُلُّ مَنْ يَكْتُبُ عَنِ العَائِدِينَ، يَعُدْ مَعَهُمْ).

98- عِنْدَ ذِكْرِ الفُوتُوغْرَافِيِّ

(مَا مِنْ فُوتُوغْرَافِيٍّ يَلْتَقِطُ صُورَةً لِلَّيْلِ دُونَ أَنْ يَبِيعَ جُزْءًا مِنْ رُوحِهِ. قَالُوا لِي: انْسَخِ الوَصْفَ كَمَا هُوَ. لَكِنِّي أَعْرِفُ العَلَامَةَ: حِينَ يَتَغَيَّرُ الضَّوْءُ فِي عُمْقِ الحَرْفِ، فَذَلِكَ لِأَنَّ كَائِنًا آخَرَ يَنْظُرُ مَعَنَا).

**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** مُبَارَكٌ مَنْ يَجْمَعُ مَلَامِحَهُمْ فِي كَفَّيْهِ، كَمَا تُجْمَعُ السَّنَابِلُ مِنْ رِيَاحٍ مُتَوَحِّشَةٍ.

## (الأَنَافُورَا الثَّانِيَةُ)

**الجُنْدِيُّ الجَرِيحُ:** يَا نُورَ الغَيْبِ المُتَلَأْلِئِ فَوْقَ الأَجْسَادِ المُغَايِرَةِ، يَا صَوْتَ النَّشِيدِ الخَفِيِّ فِي أَجْسَادٍ غَرِيبَةٍ، هَبْ بَرَكَتَكَ عَلَى هَؤُلَاءِ الَّذِينَ عَادُوا بِوُجُوهٍ لَمْ تَعْرِفْهَا ذَاكِرَتُهُمْ، وَلَا عَرَفَهَا الفَجْرُ، وَلَا رَآهَا السَّحَابُ، وَلَا حَمَلَتْهَا الرِّيَاحُ إِلَى أَيِّ أَرْضٍ مَأْلُوفَةٍ.

**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** رَحْمَتُكَ يَا رَبِّ عَلَى العَائِدِينَ بِوُجُوهٍ غَرِيبَةٍ، عَلَى الَّذِينَ يَمْشُونَ بَيْنَنَا بِلَا وُجُوهِهِمُ القَدِيمَةِ، وَبِلَا ظِلٍّ يَعْرِفُهُ اللَّيْلُ.

## (الأَنَافُورَا الثَّالِثَةُ)

**الجُنْدِيُّ الجَرِيحُ:** يَا رَبَّ الأَعْتَابِ الَّتِي لَا تَنْغَلِقُ، يَا رَبَّ المَعَابِرِ الَّتِي تَبْتَلِعُ الأَصْوَاتَ، هَؤُلَاءِ لَيْسُوا أَحْيَاءً وَلَا أَمْوَاتًا، هُمْ جَمْرٌ يُفَكِّرُ: أَيْنَ يَضَعُ اللَّهِيبُ وَجْهَهُ؟

**الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ:** يَا رَبِّ، هُمُ الَّذِينَ مَاتُوا مَرَّةً، وَعَادُوا مَرَّةً أُخْرَى دُونَ أَنْ يَسْتَرِدُّوا وُجُوهَهُمْ. عَادُوا كَأَقْنِعَةٍ مِنْ رِيَاحٍ، كَطُبُولٍ تَسِيرُ وَحْدَهَا عَلَى الطُّرُقَاتِ، كَجُثَثٍ عَادَتْ لِتَبْحَثَ عَنْ ظِلِّهَا، فَلَمْ تَجِدْ غَيْرَ ضَوْءٍ يَسِيلُ مِنْ ثُقُوبِ السَّمَاءِ.

**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** يَا رَبَّ اليَتَامَى مِنْ وُجُوهِهِمْ، امْلَأْ فَرَاغَ مَلَامِحِهِمْ بِطَمْسٍ سَمَاوِيٍّ لَا يُرَى، وَلَا يُنْسَى. [99]

---

[99]- لَعْنَةُ السَّاحِرِ عَلَى طَرَفِ الرَّقِّ

## (الأَنَافُورَا الرَّابِعَةُ)

**الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ:** هَؤُلَاءِ قَدْ عَادُوا مِنَ المَوْتِ، لَكِنَّ وُجُوهَهُمْ تَبَدَّلَتْ، كَمَا تَتَبَدَّلُ الأَشْبَاحُ فِي نَفَقٍ مُظْلِمٍ، وَكَمَا تَتَغَيَّرُ انْعِكَاسَاتُ المَاءِ تَحْتَ قَوْسِ قُزَحَ. يَمْشُونَ بَيْنَنَا، كَأَنَّ الشَّمْسَ لَمْ تَعُدْ تَعْرِفُهُمْ، وَالقَمَرَ لَمْ يَعُدْ يُضِيءُ مَسْرَاهُمْ، وَالغُيُومَ لَمْ تَعُدْ تَحْمِيهِمْ.

**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** مُبَارَكٌ مَنْ يَعْتَرِفُ بِوَجْهٍ جَدِيدٍ، وَيَقْبَلُهُ كَمَا يَقْبَلُ الطَّيْرُ العَابِرُ حِجَارَةَ الرِّيحِ.

## (الأَنَافُورَا الخَامِسَةُ)

**الجُنْدِيُّ الجَرِيحُ:** امْنَحْهُمْ يَا مَوْلَايَ صَوْتًا يُشْبِهُ صَهِيلَ المَلَائِكَةِ حِينَ تَعْبُرُ السَّمَاءَ، صَوْتًا لَا اسْمَ لَهُ وَلَا وَطَنَ، مِثْلَ صَدًى يَعُودُ مِنْ جِهَةٍ مَجْهُولَةٍ.

**الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ:** رُدَّ إِلَيْهِمُ الهَمْسَ أَوَّلًا، ثُمَّ البُكَاءَ[100]، ثُمَّ الحَرْفَ الَّذِي نَسِيَ شَكْلَهُ، ثُمَّ ضَحْكَةً صَغِيرَةً تُشْبِهُ عِيدًا خَائِفًا عَادَ مِنَ المِقْصَلَةِ.

**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** امْنَحْهُمْ قَوْلًا بِلَا جَسَدٍ، وَشَهَادَةً بِلَا شَاهِدٍ[101].

---

(أُحَذِّرُ مِنْ قِرَاءَةِ هَذِهِ الجُمْلَةِ بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ. لَقَدْ جَرَّبْتُهَا، فَاخْتَفَى ظِلِّي ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، وَلَمْ يَعُدْ إِلَّا حِينَ رَشَشْتُ الرَّمَادَ عَلَى حُدُودِ سَرِيرِي).

100- تَعْلِيقُ الرَّاهِبِ المُرْتَدِّ عَلَى هُطُولِ الدُّمُوعِ

(أُوهْ، أَعْرِفُ هَذِهِ الدُّمُوعَ... دُمُوعُ بَشَرٍ، دُمُوعُ أَرْوَاحٍ لَمْ تُخْلَقْ بَعْدُ، لَكِنَّهَا تَتَذَكَّرُ مَصِيرَهَا. وَقَعَتْ مِنْهَا قَطْرَتَانِ عَلَى صَدْرِي، فَبَرَدْتُ حَتَّى العَظْمِ).

101- (المَخْطُوطُ نَفْسُهُ صَرَخَ هُنَا. لَا أَدْرِي أَكَانَتِ النَّارُ الَّتِي أَكَلَتِ الحَوَافَّ قَدْ جَاءَتْ مِنَ الخَارِجِ، أَمْ أَنَّ الجُمْلَةَ نَفَثَتْ حَرَارَتَهَا عَلَيَّ. لَا تُكْمِلْهَا مَا لَمْ تَكُنْ جَاهِزًا لِنِسْيَانِ أَحَدِ وُجُوهِكَ).

## (الأَنَافورَا السَّادِسَةُ)

**الجُنْدِيُّ الجَرِيحُ:** يَا رَبَّ الأَسْمَاءِ الضَّائِعَةِ، يَا رَبَّ المَلَامِحِ الَّتِي غَادَرَتِ الأَجْسَادَ، اجْعَلْ وُجُوهَهُمُ الجَدِيدَةَ نِبْرَاسًا، وَصَوْتَهُمُ المُبْتَدَعَ نَشِيدًا، وَحَرَكَاتِهِمْ غَيْرَ المَأْلُوفَةَ صَلَاةً.

**الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ:** دَعْ كُلَّ وَجْهٍ جَدِيدٍ يَبْرُقُ بِذِكْرَيَاتٍ لَمْ تَكُنْ، وَدَعْ كُلَّ عَيْنٍ تَلْمَعُ بِآمَالٍ لَمْ يُكْتَبْ لَهَا عُنْوَانٌ، وَدَعْ كُلَّ يَدٍ تَرْفَعُ بَرَكَةً عَلَى قَلْبٍ لَمْ يَعْرِفْهُ القَدَرُ.

**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** يَا رَبِّ، اجْعَلْ وُجُوهَهُمُ الجَدِيدَةَ شَاهِدَةً عَلَى رَحْمَتِكَ، وَعَلَى تَجَلِّيَاتِكَ بَيْنَنَا. [102]

## (الأَنَافُورَا السَّابِعَةُ)

**الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ:** يَا رَبِّ، هَؤُلَاءِ يَمْشُونَ عَلَى الطُّرُقَاتِ [103] كَأَنَّهُمْ صَدًى يَبْحَثُ عَنْ مَصْدَرِهِ، يَمْشُونَ كَأَجْرَاسٍ ضُرِبَتْ حَتَّى نَسِيَتْ أَصْوَاتَهَا. وَجْهُ الوَاحِدِ مِنْهُمُ الرِّيحُ، وَعَيْنَاهُ مَسِيلَانِ مِنْ لَيْلٍ مُقَطَّعٍ، وَفَمُهُ جُرْحٌ يَتَذَكَّرُ مَنْ أَحَبَّ، وَلَا يَعْرِفُ مَنْ فَقَدَ.

**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** يَا رَبِّ، اجْمَعْ ظِلَالَهُمُ المُتَكَسِّرَةَ كَمَا يَجْمَعُ الرَّاعِي قِطَعَ الثَّلْجِ مِنْ بَيْنِ أَنْيَابِ اللَّيْلِ.

---

102- اعْتِرَافُ الرَّاهِبِ عِنْدَ مَشْهَدِ الهَالَةِ

(يَا لَيْتَنِي لَمْ أَنْسَخْ تِلْكَ الهَالَةَ... لَقَدْ عَادَتْ إِلَيَّ فِي الحُلْمِ كَضَوْءٍ أَسْوَدَ يَسْأَلُنِي عَنِ اسْمِي الحَقِيقِيِّ. وَأَنَا، يَا لَلْعَارِ، لَمْ أَعْرِفْ مَاذَا أَقُولُ).

103- فَاصِلُ السَّاحِرِ عِنْدَ جِسْرِ المِحَنِ الَّتِي تُصَادِفُهَا الرُّوحُ

(إِنَّ كَلِمَةَ "الطُّرُقَاتِ" لَيْسَتْ كَلِمَةً. إِنَّهَا بَابٌ. عِنْدَ كِتَابَتِهَا انْشَقَّ الهَوَاءُ لَحْظَةً وَاحِدَةً، وَرَأَيْتُ رِئَةً مِنْ ضَوْءٍ تَنْبِضُ خَلْفَ الجِدَارِ. أَغْلَقْتُ البَابَ قَبْلَ أَنْ يَمُرَّ مِنْهُ أَحَدٌ).

## (الأَنَافُورَا الثَّامِنَةُ)

**الجُنْدِيُّ الجَرِيحُ:** امْنَحْهُمْ يَا رَبَّ الظِّلَالَ الَّتِي تَتْبَعُ كُلَّ وَجْهٍ جَدِيدٍ، وَالأَصْوَاتِ الَّتِي تَعْرِفُهَا العَتَمَةُ، كَيْ لَا يَمْشِيَ أَحَدُهُمْ بِلَا أَثَرٍ، وَلَا يَسْقُطَ ظِلُّهُ فِي البَحْرِ مِنْ غَيْرِ نَجَاةٍ.

**الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ:** يَا رَبِّ، عَرِّفْهُمْ عَلَى أَجْسَادِهِمُ الجَدِيدَةِ، وَاجْعَلْ وُجُوهَهُمْ مِرْآةً لِلرُّوحِ، لَا عَبَاءَةً لِلْغُرْبَةِ.

**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** يَا رَبَّ الظِّلَالِ، اجْمَعْ وُجُوهَهُمُ المُتَبَدِّلَةَ كَمَا يَجْمَعُ الرَّاعِي خِرَافَهُ مِنْ بَيْنِ الصُّخُورِ.[104]

## (الأَنَافُورَا التَّاسِعَةُ)

**الجُنْدِيُّ الجَرِيحُ:** يَا مَنْ أَعَدْتَ خَلْقَ الطِّينِ مَرَّةً، أَعِدْ تَشْكِيلَ مَلَامِحِهِمُ الآنَ مِنْ رَمَادٍ سَامٍ، وَمِنْ أَنْفَاسِ الرُّعُودِ، وَمِنْ بُكَاءِ الأَعْشَابِ حِينَ تُقْطَعُ مِنْ جُذُورِهَا.

**الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ:** أَعِدْ لَهُمْ جَبْهَةً تَعْرِفُ السُّجُودَ، وَفَمًا يَعْرِفُ الصُّرَاخَ، وَعَيْنَيْنِ تَعْرِفَانِ المَطَرَ. أَعِدْ لَهُمْ صُورَةً تُشْبِهُهُمْ، وَلَا تُشْبِهُ مَوْتَهُمْ.

**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** يَا رَبِّ، لَا تَدَعْهُمْ يَعْبُرُونَ اللَّيْلَ تِيهًا، وَلَا تَتْرُكْ أَجْسَادَهُمْ تَمْشِي بِلَا مَنَادِيلَ وَبِلَا صَلَوَاتٍ. [105]

---

[104]- تَعْلِيقُ الرَّاهِبِ المُنْعَزِلِ عَلَى حِكْمَةِ إِيكَارَ

(إِيكَارُ لَيْسَ اسْمًا. وَفِي الدَّيْرِ كُنَّا نُعَلَّمُ أَلَّا نَنْطِقَ بِهِ إِلَّا إِذَا كَانَ اللَّيْلُ طَوِيلًا جِدًّا. إِنَّهُ حَدٌّ مِنْ حُدُودِ الإِنْسَانِ، وَقَدْ تَجَاوَزْتُهُ حِينَ كَتَبْتُ هَذِهِ الفَقْرَةَ. وَمُنْذُ ذَلِكَ الحِينِ، وَأَنَا أَسْمَعُ جَنَاحًا وَاحِدًا يَحُومُ فَوْقِي).

[105]- اعْتِرَافُ السَّاحِرِ بِمُحَاوَلَةِ التَّفْسِيرِ

(كَلِمَاتُ الطِّينِ وَالمَلَامِحِ وَالرَّمَادِ لَيْسَتْ شِعْرِيَّةً كَمَا يَظُنُّ القَارِئُ. إِنَّهَا خَرِيطَةٌ لِطَقْسٍ قَدِيمٍ كَانُوا يُجْرُونَهُ فِي لَيْلٍ مَائِلٍ إِلَى البَنَفْسَجِ. أَخْشَى أَنِّي أَتْقَنْتُ الرَّسْمَ بِزِيَادَةٍ).

## (الأَنَافُورَا العَاشِرَةُ)

**الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ:** هَؤُلَاءِ يَمْشُونَ بَيْنَنَا، لَكِنَّ وُجُوهَهُمْ لَمْ تَعُدْ وُجُوهَهُمُ الأُولَى. هُمْ صَدَى الحَيَاةِ المُتَبَدِّلَةِ، هُمْ طُيُورٌ فَقَدَتْ عُشَّهَا، هُمْ أَصْوَاتٌ حَمَلَتْهَا الرِّيحُ فِي عُبُورٍ مُسْتَحِيلٍ.

**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** اجْعَلْ وُجُوهَهُمُ الجَدِيدَةَ تَحْرُسُهُمْ، كَمَا تَحْرُسُ الأَنْهَارُ حِجَارَتَهَا، وَاحْفَظْ أَرْوَاحَهُمْ كَمَا تَحْفَظُ الأَشْجَارُ بُذُورَهَا. [106]

**الجُنْدِيُّ الجَرِيحُ:** لِلْعَائِدِينَ بِلَا وُجُوهٍ، وَلِلْغُرَبَاءِ الَّذِينَ خَرَجُوا مِنَ الطِّينِ وَمِنَ الخَرَابِ، وَلِلْمَوْتَى الَّذِينَ لَمْ يَعْرِفُوا مَوْتَهُمْ، وَلِلْمُسَافِرِينَ فِي جَسَدٍ لَا يُشْبِهُهُمْ... نَرْفَعُ هَذَا الأُقْنُومَ قُرْبَانًا مِنْ لَيْلٍ فَاقِدٍ لِهَيْئَتِهِ، وَلْنَكْتُبْ أَسْمَاءَهُمْ فِي الهَوَاءِ كَيْ لَا يَعُودُوا إِلَى العَدَمِ.

**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:**

آمِينَ،

آمِينَ،

آمِينَ

لِلسِّرِّ الَّذِي يُعِيدُ الوُجُوهَ مِنْ أَحْشَاءِ الغُبَارِ. [107]

---

106- **هَامِش عَلَى حَافَةِ الحَرِيقِ الأَخِيرِ**

(لَقَدْ خَسِرْنَا أَسْطُرًا هُنَا. لَمْ يَحْتَرِقِ الرَّقُّ فَقَطْ... لَقَدِ اخْتَفَتِ الكَلِمَاتُ وَحْدَهَا، كَأَنَّ أَحَدًا جَاءَ وَانْتَزَعَهَا. لَا أَذْكُرُ مَنْ الَّذِي حَذَّرَنِي: "إِيَّاكَ أَنْ تَنْسَخَ المَخْطُوطَةَ كَامِلَةً، فَإِنَّهَا تُكْمِلُ ذَاتَهَا فِي جَسَدِ النَّاسِخِ". وَهَا أَنَا أَكْتُبُ بِيَدٍ لَمْ تَعُدْ يَدِي).

107- وَصِيَّةُ المُرْتَدِّ وَالسَّاحِرِ مَعًا

(مَنْ يَجِدْ هَذِهِ المَخْطُوطَةَ بَعْدِي، فَلْيَقْرَأْهَا بِنِصْفِ عَيْنٍ، وَلْيُبْقِ النِّصْفَ الآخَرَ مُغْلَقًا؛ لِيَحْفَظَ اسْمَهَا. فَبَعْضُ النُّصُوصِ تُسْتَدْعَى).



**(خَتْمٌ غَرِيبٌ)**

(يَا أَيُّهَا العَابِرُ،
بَارِكِ السَّائِرِينَ فِي أَثَرِ جَنَاحِكَ،
وَأَمْسِكْ بِأَسْمَائِهِمْ إِذَا سَقَطُوا،
وَأَعِدْ لَهُمْ وُجُوهَهُمْ
إِنْ خَسِرُوا وُجُوهَهُمْ فِي العُبُورِ).

١٥

# النَّشِيدُ الخَامِسُ عَشَرَ

## لِيتُورْجِيَا إِيكارَ الَّذِي لَمْ يَسْقُطْ

مَزْمور

**(1)**

**النِّدَاءُ**

**المَلَاكُ الأَعْمَى**: مُبَارَكٌ النُّورُ الَّذِي لَا يُحَدُّ.

**الجُنْدِيُّ الجَرِيحُ**: مُبَارَكٌ الَّذِي يَكْسِرُ الحُدُودَ وَلَا يُكْسَرُ.

**الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ**: مُبَارَكٌ الَّذِي دَعَا إِيكارَ مِنَ الخَوْفِ إِلَى الِاحْتِرَاقِ.

**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ**: وَجَعَلَهُ عُبُورًا، لَا سُقُوطًا.

مَزْمور

**(2)**

**(تُرَتَّلُ بِنَبْرَةٍ بَطِيئَةٍ مُتَكَرِّرَةٍ)**

يَا رَبَّ الحُدُودِ، يَا مَنْ وَضَعْتَ الخُطُوطَ لِتَكْشِفَ، عَلِّمْنَا أَنْ نَرَى مَا وَرَاءَ الخَطِّ.

حِينَ يَرْتَجِفُ القَلْبُ عِنْدَ العَتَبَةِ، اجْعَلِ الِارْتِجَافَ عَلَامَةَ اقْتِرَابٍ.

حِينَ يَقُولُ الصَّوْتُ فِينَا: "قِفْ"، ازْرَعْ فِينَا سُؤَالًا: "لِمَاذَا؟".

مَزْمور

**(3)**

**قِرَاءَةٌ مِنْ أَقْوَالِ ظِلِّ الأَبِ** - (بِصَوْتٍ مُهِيبٍ):

- احْذَرُوا النُّورَ حِينَ يَشْتَدُّ، فَلَيْسَ كُلُّ مَا يَلْمَعُ خَلَاصًا. القِيَاسُ رَحْمَةٌ، وَالحُدُودُ حِمَايَةٌ، وَمَنْ تَجَاوَزَهُمَا فَقَدَ نَفْسَهُ.
- هَذَا هُوَ كَلَامُ العَتَبَةِ... نَسْمَعُهُ... لَكِنَّنَا لَا نَقِفُ عِنْدَهُ.

**المَزْمُورُ المُضَادُّ** - (يُنْشَدُ بَيْنَ صَفَّيْنِ)

**الجُنْدِيُّ الجَرِيحُ**: الحُدُودُ تَحْفَظُنَا.
**المَلَاكُ الأَعْمَى**: لَكِنَّهَا لَا تُكْمِلُنَا.
**الجُنْدِيُّ الجَرِيحُ**: النُّورُ يُحْرِقُ.
**المَلَاكُ الأَعْمَى**: لَكِنَّهُ يَكْشِفُ.
**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ**: بَيْنَ الحِفْظِ وَالكَشْفِ نَخْتَارُ العُبُورَ.

**مَزْمُور**

## (4)
## مِنْ إِنْجِيلِ إِيكَارَ

- أَنَا جَوْهَرٌ لَمْ يُخْلَقْ مِنْ أَزَلٍ، لَا يَعْتَرِيهِ التَّغَيُّرُ... أَنَا لَسْتُ هَيْئَةً، وَلَمْ أُعْطَ جَنَاحَيْنِ لِأَهْرُبَ.
- هَذَا هُوَ إِنْجِيلُ الِاحْتِرَاقِ.

**مَزْمُور**

## (5)
## الصُّعُودُ

يَا نُورُ، يَا دَعْوَةً لَا تُقَالُ،
- اجْذِبْنَا إِلَيْكَ... حِينَ نَثْقُلُ،
- خَفِّفْنَا... حِينَ نَخَافُ،
- أَشْعِلْنَا... حِينَ نَقْتَرِبُ،
- لَا تَدَعْنَا نَتَرَاجَعُ... أَيُّهَا الشَّفِيعُ.

**مَزْمُور**

## (6)
## جَوْقَةُ الشَّمْسِ (تُرَتِّلُ):

**جَوْقَةُ الشَّمْسِ**: أَنَا لَسْتُ نَارًا، أَنَا كَشْفٌ. مَنِ اقْتَرَبَ مِنِّي بَقِيَ كَمَا هُوَ، وَمَنْ تَخَلَّى... تَعَطَّرَ بِالنُّورِ.

**جَوْقَةُ البَحْرِ**: أَنَا لَسْتُ نِهَايَةً، أَنَا مِرْآةُ السَّاقِطِينَ.

**جَوْقَةُ المَلَائِكَةِ**:

قُدُّوسٌ... قُدُّوسٌ... قُدُّوسٌ...
نَحْنُ حُرَّاسُ الحُدُودِ،
لَكِنَّنَا ارْتَجَفْنَا حِينَ رَأَيْنَا العُبُورَ.

مَزْمُور

**(7)**

## الِاسْتِجَابَةُ الكُبْرَى

- هَلْ سَقَطَ إِيكارُ؟
- لَمْ يَسْقُطْ.
- مَاذَا حَدَثَ؟
- امْتَصَّهُ النُّورُ.

**(تُكَرَّرُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ).**

مَزْمُور

**(8)**

## مَزْمُورُ الَّذِينَ عِنْدَ الحُدُودِ

يَا مَنْ تَقِفُونَ بَيْنَ هُنَا وَهُنَاكَ،
بَيْنَ إِذْنٍ وَخَوْفٍ،
تَعَالَوْا.
يَا مَنْ لَمْ تَعْبُرُوا بَعْدُ،
اقْتَرِبُوا.
يَا مَنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ السُّقُوطَ نِهَايَةٌ،
تَذَكَّرُوا:
قَدْ يَكُونُ بَابًا.

**(صَلَاةٌ سِرِّيَّةٌ)**

يَا نُورُ، خُذْ أَسْمَاءَنَا، خُذْ أَشْكَالَنَا، خُذْ حُدُودَنَا، وَأَعْطِنَا مَا لَا يُحَدُّ.



**(خَتْمُ البَرَكَةِ)**

لِيُبَارِكْكُمُ النُّورُ الَّذِي لَا يُمْسَكُ،
وَيُحَرِّرْكُمْ مِنْ كُلِّ حَدٍّ لَمْ تَخْتَارُوهُ.
اذْهَبُوا
بِسَلَامٍ.

**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ** (نَشِيدٌ جَمَاعِيٌّ):

**لَمْ يَسْقُطْ...**
**لَمْ يَسْقُطْ...**
**لَمْ يَسْقُطْ...**
**صَارَ نُورًا.**

**قَالَ الحِبْرُ:**
سَيَمُرُّ مِنْ بَعْدِكُمْ نَسْلٌ، لَا يَعْرِفُ كَلِمَةَ "حُدُودٍ"...
سَيَكْتُبُونَ الأَرْضَ دَفْعَةً وَاحِدَةً عَلَى صَفْحَةٍ وَاحِدَةٍ،
ثُمَّ يَتْرُكُونَهَا خَالِيَةً كَيْ تَمْلَأَهَا الأَقْلَامُ.
**قَالَتِ المِحْبَرَةُ:**
بَيْنَ الجَبَلِ وَالبَيَاضِ تَكْبُرُ رُوحُ الإِنْسَانِ، كَقَطْرَةٍ تَبْحَثُ عَنْ سَمَاءٍ.
**قَالَ الجَبَلُ:**
مَنْ مَشَى نَحْوِي ضَاعَ، وَمَنْ مَشَى فِي ضَيَاعِي وَجَدَ نَفْسَهُ.
**قَالَ البَيَاضُ:**
أَنَا ذَاكِرَةُ الثَّلْجِ، وَمَنْ يَنْسَانِي يُمْحَ مِنْ خَرَائِطِي.
**قَالَ السَّارِدُ:**
هَذِهِ نُبُوءَةُ السُّهُولِ، نُبُوءَةُ الَّذِينَ سَيَأْتُونَ وَلَا يَخَافُونَ.
**أَمَّا المَلَاكُ الأَعْمَى فَقَالَ:**
احْمِلُوا مَوْتَاكُمْ بِرِفْقٍ، فَهُمُ الَّذِينَ مَهَّدُوا لَكُمُ الطَّرِيقَ.
وَلَا تَنْسَوْا أَنَّ الظِّلَّ كَانَ يَوْمًا جَسَدًا، وَأَنَّ الجَسَدَ كَانَ يَوْمًا حُلْمًا.
**رَدَّ الظِّلُّ:**
آمِينَ، بِلُغَةٍ لَا تُشْبِهُ إِلَّا نَفْسَهَا.
**قَالَ النَّاسِخُ:**
بِذَلِكَ تَنْفَتِحُ المَلْحَمَةُ عَلَى العُبُورِ الثَّالِثِ،
وَتَصِيرُ أَصْوَاتُ العَابِرِينَ إِنْجِيلًا لَا يُكْتَبُ...
يُسْمَعُ كُلَّمَا مَشَتْ قَدَمٌ مِنْ حُدُودٍ إِلَى أُفُقٍ.
كَأَنَّ الكَتَبَةَ السِّرِّيِّينَ يَقِفُونَ فِي عَتَمَةِ المِحْبَرَةِ،
يُشْعِلُونَ نَارَ الحِبْرِ،
وَيَرْفَعُونَ الأَقْلَامَ
قَبْلَ
دُخُولِ
القَارِئِ
إِلَى
**(الإِنْجِيلِ الثَّالِثِ).**




**(خَتْمُ خِتَامِ الكِتَابِ)**

يَا بَرْقَ السِّرِّ،
ارْفَعْ هَذَا الكِتَابَ حَيْثُ لَا تَهْتَدِي الخَرَائِطُ.
فَإِنَّ الطَّرِيقَ إِلَى تِلْكَ التِّلَالِ لَا يُدْرَكُ بِالخُطى،
وَلَكِنْ بِعَيْنٍ إِذَا انْفَتَحَتْ رَأَتِ البَاطِنَ طَرِيقًا،
وَالطَّرِيقُ عَوْدَةً.

# الإِنْجِيلُ الثَّالِثُ
# قُدَّاسُ الْعَثَرَاتِ



**(خَتْمُ هٰذَا الْكِتَابِ)**

دَمٌ يُتْرَكُ لِيَصْدَأَ عِنْدَ عَتَبَةِ حَنِينٍ فَاتِنٍ،
حَيْثُ تَبُوحُ الْأَسْرَارُ بِمَا يُغَازِلُ خَاطِرَ الْأُحْجِيَّةِ،
وَتَصْرُخُ الْحَيْرَةُ كَأَنَّهَا بَقَايَا رُوحٍ مَذْبُوحَةٍ.

(هٰذَا الْإِنْجِيلُ جُزْءٌ مِنْ رَقٍّ مَفْقُودٍ، عُثِرَ عَلَيْهِ فِي جَرَّةٍ تَحْتَ رِمَالٍ مَهْجُورَةٍ... يُقْرَأُ فِي ضَوْءِ قِنْدِيلٍ).

## فِي الطَّقْسِ الْكَنَسِيِّ الشَّرْقِيِّ

**جَوْقَةُ الْأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:**
رَتِّلُوا هٰذَا الْقَوْلَ عِنْدَ الْفَجْرِ الثَّالِثِ:
(يَا رَبَّ الْعَابِرِينَ، يَا مَنْ يَسْكُبُ الزَّيْتَ عَلَى الْفَزَعِ، وَيَمْنَحُ الْمَلَامِحَ هَيْئَةً لَا تُنْسَى...
ثَبِّتْ وُجُوهَنَا فِيمَا اخْتَرْتَ لَنَا، وَلَا تَرُدَّنَا إِلَى أُولَى صُوَرِنَا إِلَّا إِذَا اسْتَحَقَّتْ قُلُوبُنَا
الْمَلَامِحَ الْمُطْمَئِنَّةَ).

**الْمَلَاكُ الْأَعْمَى:**
(يَا مَنْ عُدْتُمْ بِوُجُوهٍ غَيْرِ وُجُوهِكُمْ، لَا تَخَافُوا اخْتِلَافَ الْمَلَامِحِ، فَالِاخْتِلَافُ خَتْمُ النَّجَاةِ، وَالتَّبَدُّلُ مَعْمُودِيَّةُ الْعَائِدِينَ مَرَّتَيْنِ. سَتَقِفُ وُجُوهُكُمُ الْأُولَى يَوْمًا فِي مُوَاجَهَةِ
وُجُوهِكُمُ الْأَخِيرَةِ، وَسَتَعْرِفُونَ أَيَّتُهُمَا حَمَلَتْ خَطِيئَتَكُمْ،
وَأَيَّتُهُمَا حَمَلَتْ خَلَاصَكُمْ).

# إِصْحَاحُ

# 1

## تَرْنِيمَةُ الِانْبِعَاثِ مِنَ الظِّلِّ

فِي الْأَزَلِ، قَبْلَ أَنْ تُولَدَ الْحُرُوفُ مِنْ ضُلُوعِ النَّارِ، وَقَبْلَ أَنْ تُنْسَبَ الْأَزْمِنَةُ إِلَى جِهَاتِهَا الْأَرْبَعِ، كَانَ هُنَاكَ ظِلٌّ وَاحِدٌ فَقَطْ يَتَجَوَّلُ فَوْقَ مِيَاهٍ غَيْرِ مَوْجُودَةٍ، يَحْمِلُ فِي جَوْفِهِ نُطْفَةَ الْعَالَمِ وَصَمْتَ الرَّبِّ الَّذِي لَمْ يَنْطِقْ بَعْدُ...

وَفِي اللَّيْلَةِ الَّتِي لَا تُحْصَى، أَلْقَى الظِّلُّ نُطْفَتَهُ فِي الْعَدَمِ، فَانْبَثَقَتِ الْحُدُودُ كَقَوْسٍ مَكْسُورٍ مِنْ نُورٍ خَافِتٍ، وُكِّلَتْ بِحِرَاسَةِ الْفَجْوَةِ بَيْنَ الْمَعْرُوفِ وَالْمَسْتُورِ، وَبَيْنَ مَا يُعْلِنُهُ الْخَلْقُ وَمَا يَبْكِيهِ الْخَرَابُ...

وَمِنْ تِلْكَ الْفَجْوَةِ انْبَثَقَ الْمَلَاكُ الْأَعْمَى، لَا نُورَ يَسْكُنُ عَيْنَيْهِ، وَلَا هُوَ بِحَاجَةٍ إِلَى نُورٍ. كَانَ يَرَى طَبَقَاتِ الْأَكْوَانِ بِالْأُذُنِ لَا بِالْبَصَرِ، وَيَعُدُّ خُطُوَاتِ الزَّمَنِ مِنْ أَنْفَاسِ الْبَشَرِ السَّاقِطَةِ فِي نَوْمِهِمْ...

قَالَ الْمَلَاكُ فِي سِفْرِهِ الْأَوَّلِ:

- سَيَأْتِي الْمَوْعُودُ، السَّائِرُ مِنْ رَحِمِ الصُّورَةِ إِلَى رَحِمِ التُّرَابِ، يَحْمِلُ خُطَى ثَلَاثَةٍ فِي قَدَمٍ وَاحِدَةٍ، وَيُقِيمُ الْعَهْدَ الْأَخِيرَ بَيْنَ الْحَالِمِ وَالْقَتِيلِ، وَبَيْنَ الْفُوتُوغْرَافِيِّ وَالْجُنْدِيِّ، وَبَيْنَ الْعَابِرِ وَالرَّاكِضِ.

وَعِنْدَمَا حَانَ وَقْتُ الِانْشِطَارِ، تَكَثَّفَ الظِّلُّ الْقَدِيمُ، فَانْقَسَمَتْ مِنْهُ الذَّوَاتُ الثَّلَاثُ:

الْفُوتُوغْرَافِيُّ الْعَجُوزُ ← ذَاكِرَةُ الضَّوْءِ،

الْجُنْدِيُّ الْجَرِيحُ ← ذَاكِرَةُ الطَّاعَةِ،

وَالْمَلَاكُ الْأَعْمَى ← ذَاكِرَةُ السُّقُوطِ.

لَكِنَّهُمْ، فِي اللَّوْحِ السِّرِّيِّ، لَيْسُوا ثَلَاثَةً، فَقَدْ كَانُوا وَجْهًا وَاحِدًا يَتَعَدَّدُ تَحْتَ ثِقْلِ الزَّمَنِ، وَكَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يُنْكِرُ الْآخَرَ كَيْ يَكْتَمِلَ الِامْتِحَانُ الْكَوْنِيُّ فِي أَرْضٍ لَا يُسْمَعُ فِيهَا إِلَّا صَرِيرُ الرِّيحِ وَارْتِعَاشُ الرُّمْحِ الْأَخِيرِ...

وَعِنْدَمَا يَكْتَمِلُ الطَّوَافُ، وَتُفْتَحُ الْبَوَّابَةُ السَّوْدَاءُ الَّتِي أُغْلِقَتْ قَبْلَ طُوفَانِ الْأَسْرَارِ، سَيَعْرِفُ الْعَابِرُ الْأَخِيرُ أَنَّ الْمَلْحَمَةَ لَمْ تَكُنْ سَرْدًا، وَلَا رُؤْيَا، كَانَتِ اخْتِبَارَ الرُّوحِ الْأَخِيرِ قَبْلَ أَنْ يَعُودَ كُلُّ شَيْءٍ إِلَى الظِّلِّ الْأَوَّلِ.

هٰذَا هُوَ الْإِنْجِيلُ الثَّالِثُ الَّذِي نَحْنُ بِصَدَدِ فَتْحِهِ: إِنْجِيلٌ لَا يَشْرَحُ الْكَوْنَ... إِنَّمَا يُعِيدُ خَلْقَ الْعَتْمَةِ الَّتِي سَبَقَتِ الْكَوْنَ، وَيُسْمَحُ لِلْقَارِئِ أَنْ يَدْخُلَهُ، لِكَيْ يُرَى فِيهِ، كَمَا تُرَى الْوُجُوهُ فِي مِرْآةٍ مَكْسُورَةٍ لَا تَرْحَمُ.

# ١

# النَّشِيدُ الْأَوَّلُ

مَزْمُور

(1)

## كُنْ هَادِئًا، أَيُّهَا الْعَابِرُ

سَيَأْتِي إِلَيْكَ بَطَارِكَةُ الْفِرْدَوْسِ، وَيَقُولُونَ لَكَ: كُنْ هَادِئًا.
سَيَأْتِي الْفَجْرُ وَيُلْبِسُكَ قَمِيصًا مِنْ سُحُبِ الْمَجْدِ، وَيَقُولُ لَكَ: كُنْ هَادِئًا.
سَيَأْتِي رَسُولٌ مَهِيبٌ مِنَ السَّمَاءِ لِيَسْتَمِعَ إِلَى التَّسَابِيحِ الصَّاعِدَةِ مِنْ قَلْبِكَ الْجَرِيحِ، وَيَقُولُ لَكَ: كُنْ هَادِئًا، لِأَنَّ النِّهَايَةَ قَرِيبَةٌ.
وَأَنْتِ، أَيَّتُهَا الْكَلِمَاتُ، يَا حَسَرَاتِي حِينَ تُقَاسُ بِمَسَافَاتِ النُّجُومِ، وَيَا أُرْغُنَ الرُّوحِ وَقَدْ عُلِّقَ فِي فَمِ اللَّيْلِ، وَيَا ذِئَابَهَا الْمَسْعُورَةَ الَّتِي تَعْوِي وَتَرْفَعُ رُؤُوسَهَا نَحْوَ الْكَوَاكِبِ، كُونِي هَادِئَةً.

كُونِي هَادِئَةً، أَيَّتُهَا الْأَقْنِعَةُ الَّتِي سَأَرْتَدِيهَا لِتُلَائِمَ وُجُوهَ الْعَابِرِينَ بَيْنَ الدَّوْرَاتِ، وَتُلَائِمَ انْصِرَافَ الْأَشْبَاحِ إِلَى مَدَارَاتِهَا، مُخَضَّبَةً بِالشَّجَنِ الْكَوْنِيِّ، نَائِحَةً عَلَى مَجْدٍ صِيغَ مِنْ نُورٍ أَوَّلَ، مَجْدٍ لَمْ يَعْرِفِ الْغُبَارَ، لِأَنَّهُ وُلِدَ قَبْلَ التُّرَابِ.
كُونِي هَادِئَةً، أَيَّتُهَا الْمَرَاثِي، حَتَّى يَنْشَقَّ الزَّمَنُ عَنْ عَظْمِهِ، وَيَكْشِفَ عَنْ مَوْتٍ قَائِمٍ عَلَى حَافَّةِ الْأَكْوَانِ، مَوْتٍ لَا يَشِيخُ، وَلَا يُقَاسُ بِالْحَوَاسِّ.
كُونِي هَادِئَةً، أَيَّتُهَا النَّبَرَاتُ النَّائِحَةُ، الرَّاكِعَةُ، الْمَخْتُومَةُ بِخَتْمِ مَهَابَةٍ مَلَكِيَّةٍ.
كُونِي هَادِئَةً، يَا خَزَائِنَ الْكَلَامِ، بَعْدَ أَنْ نُهِبَتْ مِنْكِ الْأَسْمَاءُ الْأُولَى.
كُونِي هَادِئَةً، أَيَّتُهَا الشُّرُفَاتُ الْمُعَلَّقَةُ بَيْنَ سَمَاءٍ لَا تُجِيبُ وَأَرْضٍ لَا تَتَذَكَّرُ.
كُونِي هَادِئَةً، أَيَّتُهَا الْأَهَازِيجُ، حَتَّى يَسْقُطَ الْوَزْنُ مِنْ مِيزَانِ الْأَفْلَاكِ.
كُونِي هَادِئَةً، أَيَّتُهَا الْبُيُوتُ الَّتِي تَسْكُنُهَا الْأَرْوَاحُ.
كُونِي هَادِئَةً، أَيَّتُهَا الْأَرْوَاحُ الَّتِي نَسِيَتْ أَيَّ سَمَاءٍ كَانَتْ لَهَا.
كُونِي هَادِئَةً، أَيَّتُهَا الْأَرْضُ، تَعَبُّدًا وَخُضُوعًا لِقَانُونٍ أَقْدَمَ مِنْكِ، لِتُتِمِّي دَوْرَةً غَيْرَ مَكْتُوبَةٍ، لِأَنَّ الْكَتَبَةَ انْطَفَؤُوا قَبْلَ اكْتِمَالِ النُّبُوءَةِ.

كُونِي هَادِئَةً، أَيَّتُهَا الرِّيحُ اللَّعُوبُ، يَا ابْنَةَ الْفَوْضَى الْأُولَى، يَا مَنْ تُبَعْثِرِينَ الْمَعْنَى كَمَا تُبَعْثِرُ الْمَجَرَّاتُ عِنْدَ وِلَادَتِهَا.
كُونِي هَادِئَةً، أَيَّتُهَا الْحِكَايَاتُ الَّتِي انْتُزِعَتْ مِنْهَا الرَّحْمَةُ، فَالْمَوْتُ هُوَ شَاهِدُ الِاعْتِرَافِ الْأَخِيرِ.
كُنْ هَادِئًا، أَيُّهَا الْمَوْتُ، يَا سَيِّدَ الْعَتَبَاتِ، يَا حَارِسَ الْفَوَاصِلِ بَيْنَ النَّبْضِ وَالنِّهَايَةِ. كُنْ هَادِئًا وَأَنْتَ تُطْلِقُ صَرَخَاتِكَ الْحَادَّةَ فِي الْهَوَاءِ، وَفِي نَسِيجِ الْوُجُودِ نَفْسِهِ، صَرَخَاتِكَ الْمُتَعَثِّرَةَ بِمَجَرَّاتٍ تَحْتَضِرُ، الْمَخْنُوقَةَ بِزَفَرَاتِ الْقَتْلَى الْأَوَائِلِ، الْمُعَلَّقَةَ بِفَوَانِيسِ نُجُومٍ خَامِدَةٍ، الشَّبِيهَةَ بِخَدِيعَةِ اللُّغَةِ حِينَ تَدَّعِي أَنَّهَا مِرْآةٌ، وَهِيَ فِي الْحَقِيقَةِ شَقٌّ فِي الْجِدَارِ الْكَوْنِيِّ.
تُزَاحِمُ قَوَافِلُهَا الْمَعْنَى كَمَا تَتَزَاحَمُ الْعُصُورُ فَوْقَ جُثَّةِ إِلٰهٍ مَنْسِيٍّ، فِي صَلَاةٍ مَفْصُولَةٍ عَنِ الْعِبَادَةِ، تُتَرْجِمُ ظِلَّ الْمَوْتِ لَا جَسَدَهُ، وَتَسِيرُ فِي أَقَالِيمِ حِدَادِهِ، حَيْثُ لَا تُرْفَعُ الرَّايَاتُ وَلَا تُمْنَحُ الْخَلَاصَاتُ.
فِي هٰذِهِ الْحِكَايَةِ الَّتِي يُلَاحِقُهَا الدَّمْعُ كَبَقَايَا أُسْطُورَةٍ لَمْ تُخْتَمْ، يُشَاكِسُهَا الذَّنْبُ وَيَخْطُبُ وُدَّهَا السَّاخِنَ، لِأَنَّهَا لَا تُرْوَى إِلَّا حِينَ تَتَصَدَّعُ الْبِدَايَةُ، وَيُعَادُ فَتْحُ الْجُرْحِ الْأَوَّلِ، وَتَبْدَأُ لَعْنَةٌ جَدِيدَةٌ.

**(2)**

## (مِنْ كِتَابِ السُّقُوطِ)

**تَرْتِيلُ (1) الْإِعْلَانُ:** فِي الْبَدْءِ، لَمْ تَكُنِ الْكَلِمَاتُ كَلِمَاتٍ، كَانَتْ أَوْزَانًا تَحْفَظُ التَّوَازُنَ. وَلَمْ يَكُنِ الضَّوْءُ نُورًا، كَانَ مَعْرِفَةً لَا تَسْأَلُ.
وَأَنَا أَكْتُبُ الْآنَ لِأَنَّ الْمِيزَانَ اخْتَلَّ، وَلِأَنَّ الصَّوْتَ الْأَوَّلَ انْكَسَرَ، وَتَنَاثَرَتْ أَجْزَاؤُهُ فِي أَفْوَاهِنَا، فَصِرْنَا نَتَكَلَّمُ وَلَا نُعِيدُ الْخَلْقَ.
اسْمَعُوا، فَهٰذَا لَيْسَ حِكَايَةً، إِنَّمَا هُوَ سِجِلُّ السُّقُوطِ كَمَا أُمْلِيَ عَلَيَّ حِينَ فُتِحَ الْجُرْحُ الْأَوَّلُ.

**تَرْتِيلُ (2) الْخَلْقُ:** كَانَ الْوُجُودُ دَائِرَةً مُغْلَقَةً، لَا بِدَايَةَ لَهَا وَلَا خَوْفَ.
وَكَانَتِ الْأَرْضُ فِكْرَةً، وَالسَّمَاءُ وَعْدًا لَا يُنْقَضُ.

نُفِخَ النَّفَسُ الْأَوَّلُ، فَاسْتَقَامَتِ الْأَشْيَاءُ بِأَسْمَائِهَا، وَسَجَدَتِ الْجِهَاتُ الْأَرْبَعُ.
وَكَانَتِ الذِّئَابُ حُرَّاسَ النُّورِ، لَا تَعْرِفُ الْجُوعَ، وَكَانَ الْمَوْتُ غَائِبًا، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مَطْلُوبًا.

**تَرْتِيلُ (3) الْخَطَأُ**: سَقَطَ الِاسْمُ مِنْ فَمِ الْخَالِقِ، لَيْسَ عَمْدًا، وَإِنَّمَا زَلَّةُ مَعْرِفَةٍ.
انْفَصَلَ الْمَعْنَى عَنِ الشَّيْءِ، وَتَقَدَّمَتِ اللُّغَةُ خُطْوَةً أَبْعَدَ مِمَّا يَجِبُ.
فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ وُلِدَ الظِّلُّ.
وَفِي الظِّلِّ وَجَدَ الْمَوْتُ مَوْضِعَ قَدَمٍ.
رَكَعَتِ الْمَرَاثِي قَبْلَ أَنْ يُعْرَفَ الْبُكَاءُ.
رَكَعَتِ الْأَرْضُ حِينَ تَذَكَّرَتْ أَصْلَهَا النَّارِيَّ.
وَرَكَعَتِ السَّمَاءُ حِينَ أُغْلِقَتْ أَبْوَابُهَا لِأَوَّلِ مَرَّةٍ.
وَأَنَا كُنْتُ هُنَاكَ، لَا بَرِيئًا وَلَا إِلٰهًا... شَاهِدًا تَعَلَّمَ الِاعْتِرَافَ مُتَأَخِّرًا.

**تَرْتِيلُ (4) تَتْوِيجُ الْمَوْتِ**: نَهَضَ الْمَوْتُ مِنَ الْخَطَإِ، وَتَعَلَّمَ الْوُقُوفَ، ثُمَّ طُلِبَ مِنْهُ أَنْ يَحْرُسَ مَا انْكَسَرَ. حُمِّلَ صَوْلَجَانَ اشْتِعَالِهِ، وَقِيلَ لَهُ:
- احْفَظِ التَّوَازُنَ بِمَا تَبَقَّى.
فَأَطْلَقَ صَرَخَاتِهِ فِي نَسِيجِ الْوُجُودِ غَضَبًا، صَرَخَاتٍ مُتَعَثِّرَةٍ بِوِلَادَاتٍ نَاقِصَةٍ، مَخْنُوقَةٍ بِزَفَرَاتِ الْكَائِنَاتِ الْأُولَى، مُعَلَّقَةٍ بِفَوَانِيسِ شُمُوسٍ لَمْ تُكْمِلْ دَوْرَتَهَا.
وَمُنْذُ ذٰلِكَ الْحِينِ، صَارَ الْمَوْتُ نِظَامًا، وَصَارَتِ الْحَيَاةُ اسْتِثْنَاءً يَحْتَاجُ إِلَى تَبْرِيرٍ.

**تَرْتِيلُ (5) وَصَايَا الْعَابِرِينَ**: لَا تَثِقُوا بِاللُّغَةِ، فَهِيَ بَقَايَا خَلْقٍ فَاشِلٍ.
لَا تَطْلُبُوا الْخَلَاصَ، فَالدَّوْرَاتُ لَا تُنْقَضُ... تُسْتَعَادُ.
لَا تَلْعَنُوا الْمَوْتَ، فَهُوَ الْحَارِسُ لَا السَّيِّدُ.
وَإِذَا لَبِسْتُمُ الْأَقْنِعَةَ، فَافْعَلُوا ذٰلِكَ لِتَشْهَدُوا، لَا لِتَنْجُوا.

**تَرْتِيلُ (6) الرِّيحُ وَالذَّاكِرَةُ**: سَتَأْتِي الرِّيحُ، ابْنَةُ الْفَوْضَى الْأُولَى، وَتُبَعْثِرُ الْمَعْنَى كُلَّمَا حَاوَلَ أَنْ يَسْتَقِرَّ. وَكُلُّ مَا نَجَا مِنَ الْفَنَاءِ سَيُبْتَلَى بِالذَّاكِرَةِ، لِأَنَّ التَّذَكُّرَ هُوَ الْعِقَابُ الْأَخِيرُ. هٰذِهِ الْحِكَايَةُ تُفْتَحُ وَلَا تُرْوَى، لِأَنَّهَا لَا تُمْنَحُ إِلَّا لِمَنْ احْتَرَقَ بِهَا.



**(الْخَتْمُ)**

هٰذَا مَا رَأَيْتُ،

وَهٰذَا مَا كُتِبَ حِينَ انْشَطَرَ اللَّوْحُ وَاحْتَرَقَ الْقَلَمُ.

وَمِنْ بَعْدِ هٰذَا،

تَبْدَأُ بِدَايَةٌ جَدِيدَةٌ،

وَإِعَادَةُ فَتْحٍ لِلْجُرْحِ الْأَوَّلِ.

طُوبَى لِمَنْ فَهِمَ أَنَّ السُّقُوطَ لَيْسَ نِهَايَةً،

إِنَّهُ الْحَالَةُ الدَّائِمَةُ لِلْوُجُودِ.

# إِصْحَاحُ

2

# الطُّفُولَةُ الْمَفْقُودَةُ وَالذَّاكِرَةُ

تَرْنِيمَةٌ

**(1)**

لَمْ تَكُنْ لِإِيكارَ طُفُولَةٌ وَاضِحَةٌ...

ظِلَالٌ تَجْرِي أَسْرَعَ مِنْ قَدَمَيْهِ، كَأَنَّ اللُّعْبَةَ الْأُولَى كَانَتْ طَرِيقًا، وَالْأُرْجُوحَةُ كَانَتْ فَخًّا، وَالْمُرَبَّعُ الْمُلَوَّنُ فِي الدَّفْتَرِ خَارِطَةً سِرِّيَّةً تُخْفِيهَا الْأُمُّ تَحْتَ الْوِسَادَةِ، خَشْيَةَ أَنْ تَتَعَرَّفَ الشَّمْسُ، أَوِ الْحُدُودُ، إِلَى شَكْلِ الْبَيْتِ...

كَانَ يَدْخُلُ فِي اللَّيْلِ كَمَا يَدْخُلُ النَّايُ فِي صَدْرِ الرَّاعِي.

لَا يَطْلُبُ شَيْئًا، غَيْرَ أَنْ يَسْمَعَ:

- نَمْ... فَالْعَالَمُ لَنْ يَصِلَ إِلَيْكَ هٰذِهِ اللَّيْلَةَ.

لَكِنَّ الْعَالَمَ كَانَ يَصِلُ دَائِمًا.

تَرْنِيمَةٌ

**(2)**

فِي بَاحَةِ الْمَدْرَسَةِ، كَانَ الْأَطْفَالُ يَرْسُمُونَ شَمْسًا صَفْرَاءَ.

وَحْدَهُ إِيكارُ كَانَ يَرْسُمُ دَائِرَةً مُشِعَّةً، يُحِيطُهَا بِسِيَاجٍ مِنْ خُطُوطٍ سَوْدَاءَ، وَيَقُولُ:

- هٰذِهِ الشَّمْسُ لَيْسَتْ دِفْئًا... هٰذِهِ حِرَاسَةٌ تَأْمُرُنَا بِالْوُقُوفِ.

فَتَسْخَرُ الْمُعَلِّمَةُ:

- تَخَيُّلٌ زَائِدٌ.

لَكِنَّ الْمَلَاكَ الْأَعْمَى، الْوَاقِفَ فِي الرِّوَاقِ دُونَ أَنْ يَرَاهُ أَحَدٌ، كَانَ يَهْمِسُ:

- إِنَّهُ الطِّفْلُ الْوَحِيدُ الَّذِي يَرَى الضَّوْءَ.

**(3)**

أَمَّا الْفُوتُوغْرَافِيُّ الْعَجُوزُ، فَكَانَ يَمُرُّ قُرْبَ الْمَدْرَسَةِ حَامِلًا كَامِيرَتَهُ الصَّدِئَةَ، وَيَقُولُ لِإِيكارَ:

- لَوِ الْتَقَطْتُ لَكَ صُورَةً الْآنَ لَظَهَرْتَ ضَبَابِيًّا... فَالْأَطْفَالُ الشَّارِدُونَ تَهْتَزُّ أَطْرَافُهُمْ كَأَنَّ ذَاكِرَتَهُمْ تَلْتَقِطُهُمْ مِنْ بَعِيدٍ.

لَمْ يَفْهَمِ الطِّفْلُ مَا قَالَ، لَكِنَّهُ شَعَرَ بِخِفَّةٍ كَبِيرَةٍ، كَأَنَّ جَسَدَهُ مَصْنُوعٌ مِنَ الْعُبُورِ.

**(4)**

**كُورَالُ الطِّفْلِ الدَّاخِلِيِّ** (يَصْدَحُ بِصَوْتٍ يُشْبِهُ الرَّمْلَ وَهُوَ يَنْزَلِقُ مِنْ يَدٍ إِلَى أُخْرَى):

نَحْنُ الَّذِينَ حَمَلْنَا النَّهَارَ فِي أَكْيَاسٍ مِنَ الْقُمَاشِ، هَرَبْنَا مِنَ الدُّرُوسِ كَمَا تَهْرُبُ السُّنُونُو مِنَ الْعَاصِفَةِ.

كُنَّا نَقْفِزُ فَوْقَ الْحُفَرِ وَنَحْسَبُهَا بِحَارًا صَغِيرَةً، وَنَضْحَكُ؛ لِأَنَّ الْمَخَافِرَ لَا تَرَاهَا.

وَكُنَّا نُشِيرُ لِلصِّغَارِ:

- هٰذَا الطَّرِيقُ لَا يُرَى... امْشِ هُنَا، حَيْثُ تَتْرُكُ الْخُطْوَةُ ظِلًّا لَا يَمْشِي بِصَاحِبِهِ.

**(5)**

فِي الْبَيْتِ، كَانَ ظِلُّ الْأَبِ أَكْبَرَ مِنَ الْأَبِ نَفْسِهِ...

كَانَ يَمْشِي قَبْلَهُ نَحْوَ الْبَابِ، وَيَعُودُ قَبْلَهُ مِنَ الْعَمَلِ، وَيَجْلِسُ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَى الْكُرْسِيِّ.

وَكُلَّمَا فَتَحَ الْأَبُ فَمَهُ لِيَقُولَ شَيْئًا، كَانَ الظِّلُّ يَنْطِقُ أَوَّلًا:

- احْذَرْ يَا وَلَدِي... الْأَرْضُ هُنَا لَا تَحْفَظُ آثَارَ الْخُطُوَاتِ [108]، إِنَّهَا تَبْتَلِعُهَا كَيْلَا يَعْرِفَ أَحَدٌ مِنْ أَيْنَ جِئْتَ.

كَانَ الْأَبُ الْحَقِيقِيُّ يَبْتَسِمُ بِمَرَارَةٍ، بَيْنَمَا كَانَ ظِلُّهُ يَزْدَادُ طُولًا حَتَّى يَلْمِسَ سَقْفَ الْغُرْفَةِ، ثُمَّ يَهْبِطُ عَلَى كَتِفَيْ إِيكارَ كَعَبَاءَةٍ مِنْ خَوْفٍ ثَقِيلٍ.

تَرْنِيمَةٌ

**(6)**

**كُورَالُ الطِّفْلِ الدَّاخِلِيِّ:**

يَا إِيكارُ...

هَلْ تَذْكُرُ حِينَ اخْتَبَأْتَ تَحْتَ عَرَبَتِكَ الصَّغِيرَةِ لِتَمُرَّ مِنْ بَوَّابَةِ الْحَيِّ بَيْنَ رِجْلَيِ الْحَارِسِ؟

ضَحِكْنَا يَوْمَهَا، لِأَنَّكَ لَمْ تَكُنْ تُدْرِكُ أَنَّكَ اخْتَرَعْتَ أَوَّلَ جَنَاحَيْنِ مِنْ قَدَمَيْنِ، وَأَنَّ الْهُرُوبَ قَدَرٌ، لَا لُعْبَةٌ مِنْ أَلْعَابِ الْمَسَاءِ.

---

108- **هَامِشُ الْخُطُوَاتِ الَّتِي لَمْ تَكْتَمِلْ:**

هَذِهِ صَفَحَاتِي إِلَى أُولَئِكَ الَّذِينَ عَادُوا مِنْ مُنْتَصَفِ الطَّرِيقِ، وَلَمْ يَجِدُوا فِي قُلُوبِهِمْ قُدْرَةً عَلَى بُلُوغِ النِّهَايَةِ، فَصَارُوا شَطْرَ حِكَايَةٍ، وَصَدَى شَطْرٍ آخَرَ... إِنَّ الْخُطْوَةَ التَّائِهَةَ لَا تَضِيعُ... تَتَعَلَّقُ بَيْنَ الْأَرْضِ وَالْهَوَاءِ، تَنْتَظِرُ جَسَدًا آخَرَ يُكْمِلُهَا، وَرُوحًا أُخْرَى تُكَفِّرُ عَنْهَا... وَقَدْ شَاهَدْتُ بِأُمِّ يَقِينِي أُنَاسًا يَمْشُونَ بِقَدَمٍ وَاحِدَةٍ نَحْوَ الْمَشْرِقِ، وَبِقَدَمٍ أُخْرَى نَحْوَ مِحْرَابٍ لَا يُرَى، فَانْشَقَّتْ دُرُوبُهُمْ، وَقَادَتْهُمْ إِلَى رُبْعِ وُجُودٍ، لَا إِلَى اكْتِمَالٍ... وَفِي الْحَاشِيَةِ كَتَبْتُ: (كُلُّ خُطْوَةٍ نَاقِصَةٍ صَرْخَةٌ مُؤَجَّلَةٌ، وَكُلُّ خُطْوَةٍ مَكْسُورَةٍ نُبُوءَةٌ لَمْ تَجِدْ مَنْ يَنْطِقُ بِهَا)... وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَنَّ الدُّرُوبَ الَّتِي لَمْ يَكْتَمِلْ شَرْقُ أَرْوَاحِهَا تُعَادُ كِتَابَتُهَا فِي اللَّيْلِ، حِينَ يَخْرُجُ كَتَبَةُ الظِّلَالِ وَيُضِيفُونَ إِلَى سِجِلَّاتِهِمْ مَا لَمْ نَجْرُؤْ نَحْنُ عَلَى السَّيْرِ إِلَيْهِ.

(7)

تَنْسَابُ الذَّاكِرَةُ كُتْلَةً مِنَ الطِّينِ الرَّخْوِ، تَتَشَكَّلُ وَتَذُوبُ، لَكِنَّ الْمَلَاكَ الْأَعْمَى يَلْمِسُهَا بِأَصَابِعِهِ وَيَقُولُ:

- هٰكَذَا تُبْنَى الْقِصَّةُ... حُرُوفُكَ لَيْسَتْ مِنْ صَوْتٍ، إِنَّهَا مِنَ الطَّرْقِ... كَأَنَّ الْعَالَمَ كُلَّهُ مِطْرَقَةٌ، وَأَنْتَ السِّنْدَانُ.

وَيَبْتَسِمُ، كَمَنْ يَعْرِفُ الطَّرِيقَ وَلَا يَرَاهُ، وَيَتَلَمَّسُ الْهَوَاءَ فَوْقَ رَأْسِ إِيكارَ، ثُمَّ يَقُولُ:

- كُنْتَ طِفْلًا يَرْكُضُ لِيَكْبُرَ... فَكَبِرْتَ لِتُوَاصِلَ الرَّكْضَ.

(8)

أَمَّا الشَّمْسُ/الْحُدُودُ، فَكَانَتْ تُرَاقِبُ كُلَّ ذٰلِكَ مِنْ عَلٍ.

لَا تُشْرِقُ... تُفْتَحُ.

وَلَا تَغْرُبُ... تُغْلَقُ.

كَانَتْ تُرَافِقُهُ فِي كُلِّ مَشْهَدٍ كَضَمِيرٍ ثَقِيلٍ لَا يُمْحَى، وَحِينَ تَمُرُّ يَدُ الْأُمِّ عَلَى جَبِينِهِ لِتُطَمْئِنَهُ، كَانَتِ الشَّمْسُ تَهْمِسُ لَهَا:

- سَيَمْضِي... هٰذَا الطِّفْلُ لَهُ طَرِيقٌ خَارِجَ دَفْتَرِكِ.

فَتَرُدُّ الْأُمُّ بِصَوْتٍ لَا يَسْمَعُهُ غَيْرُ الْمَاءِ:

- لَكِنَّ الطَّرِيقَ يَأْكُلُ أَبْنَاءَهُ.

**(9)**

فِي الْمَسَاءِ، يَلْتَقِي إِيكارُ بِالْفُوتُوغْرَافِيِّ الْعَجُوزِ عِنْدَ حَافَّةِ الْمَخْفَرِ، فَيَسْأَلُهُ الطِّفْلُ:

- لِمَاذَا تَجْمَعُ صُوَرًا لَا تَحْمِي أَحَدًا؟

فَيُجِيبُهُ الْعَجُوزُ:

- أَنَا لَا أَحْمِي... أَنَا أَشْهَدُ. الصُّوَرُ لَيْسَتْ دُرُوعًا، إِنَّهَا مَرَايَا، وَأَنَا أَضَعُهَا فِي طَرِيقِ الزَّمَنِ لَعَلَّهُ يَتَعَثَّرُ بِهَا وَيَمْشِيَ بِبُطْءٍ.

ثُمَّ يَرْفَعُ كَامِيرَتَهُ وَيَلْتَقِطُ لِإِيكارَ صُورَةً لَا يَظْهَرُ فِيهَا الْوَجْهُ، تَظْهَرُ الْقَدَمُ الْيُسْرَى فَقَطْ، وَهِيَ تَلْمِسُ الْأَرْضَ كَطَيْرٍ يَهْبِطُ عَلَى حَافَّةِ سَمَاءٍ مَكْسُورَةٍ.

**(10)**

**كُورَالُ ظِلِّ الْأَبِ** (بِصَوْتٍ مُتَكَسِّرٍ، كَأَنَّهُ يَأْتِي مِنْ قَبْوٍ):

يَا إِيكارُ...

يَا وَلَدِي الَّذِي لَمْ أَحْمِلْهُ إِلَّا فِي الْحُلْمِ، سَامِحْنِي إِنِ ابْتَعَدْتُ، فَالْخَوْفُ هُوَ الْأَبُ الْحَقِيقِيُّ فِي هٰذِهِ الْبِلَادِ.

أَعْرِفُ أَنَّ قَدَمَكَ أَسْرَعُ مِنْ كَلَامِي، وَأَنَّكَ سَتَعْبُرُ الْحُدُودَ قَبْلِي، لَكِنْ تَذَكَّرْ:

- أَنَا ظِلُّكَ أَيْضًا، وَسَأَتْبَعُكَ وَلَوْ لَمْ يَبْقَ لِي جَسَدٌ وَلَا اسْمٌ.

**(11)**

يَكْبُرُ الطِّفْلُ فِي السُّؤَالِ:

مَنْ يَمْلِكُ الطَّرِيقَ؟

مَنْ يَفُكُّ عُقْدَةَ الْمَكَانِ عَنْ ظَهْرِهِ؟

هَلِ الرَّكْضُ هِجْرَةٌ، أَمْ عَوْدَةٌ إِلَى وَطَنٍ لَمْ يُخْلَقْ بَعْدُ؟
يُغْمِضُ عَيْنَيْهِ.
وَيُنْصِتُ إِلَى صَوْتِ الْمَلَاكِ الْأَعْمَى وَهُوَ يَقُولُ:
- إِنَّكَ تَرْكُضُ، لِأَنَّ الْأَرْضَ لَا تَتَّسِعُ لِخُطْوَتِكَ... وَالذَّاكِرَةُ بَابٌ لَا يُقْفَلُ.
وَيُنْصِتُ إِلَى صَوْتِ الْفُوتُوغْرَافِيِّ الْعَجُوزِ:
- طُفُولَتُكَ لَيْسَتْ زَمَنًا... إِنَّهَا أَرْشِيفُ هُرُوبٍ مَكْتُومٍ.
وَيُنْصِتُ إِلَى صَوْتِ الطِّفْلِ الدَّاخِلِيِّ:
- ارْكُضْ... فَالرَّكْضُ لُغَةٌ، وَاللُّغَةُ وَسِيلَةُ نَجَاةٍ.
وَيُنْصِتُ إِلَى صَوتِ ظِلِّ الْأَبِ:
- أَنْتَ اسْمٌ يَبْحَثُ عَنْ جَسَدِهِ.
وَيُنْصِتُ إِلَى الشَّمْسِ/الْحُدُودِ:
- سَتَعُودُ إِلَيَّ... فَكُلُّ طَرِيقٍ يَنْتَهِي بِعَيْنَيَّ.
وَيُنْصِتُ إِلَى الْبَحْرِ/الْمَخَافِرِ:
- لَا عُبُورَ بِغَيْرِ امْتِحَانٍ، وَلَا امْتِحَانَ بِغَيْرِ خَوْفٍ.

هٰكَذَا، مِنْ طَبَقَاتِ الصَّوْتِ وَالظِّلِّ وَالْغِيَابِ، خَرَجَتْ طُفُولَةُ إِيكارَ كَجَذْوَةٍ تُطْفِئُهَا الرِّيحُ وَتُشْعِلُهَا الذِّكْرَى.

لَمْ تَكُنْ بَرِيئَةً، وَلَا سَعِيدَةً، وَلَا كَامِلَةً... كَانَتِ الْمُحَرِّكَ الْأَوَّلَ لِخُطْوَتِهِ الْكُبْرَى، وَالْجُرْحَ الَّذِي يَصْنَعُ الِانْطِلَاقَ، وَالذِّكْرَى الَّتِي سَتَتَرَدَّدُ كَآلَةٍ خَفِيَّةٍ تَشُدُّهُ نَحْوَ الْأُفُقِ.

# النَّشِيدُ الثَّانِي

## الْعَابِرُ الَّذِي يَرَى الْجِهَةَ الْأُخْرَى مِنَ الْيَقِينِ

(نَصٌّ مُحَرَّرٌ عَلَى يَدِ نَاسِخِ الظِّلَالِ)

**عَابِرٌ:**

كَحِدَادٍ يَتَهَدَّمُ، يَشْهَدُ الْعَمَاءُ فِي مَجْرَاهُ الشَّارِدِ شَمْسًا مُنَكَّسَةً، يَسْحَبُ الْكَلَامَ حَتَّى السُّفُوحِ، وَيُبْقِي الْمَعْنَى وَاقِفًا عَلَى سَاقٍ وَاحِدَةٍ، مِثْلَ مَلَاكٍ فَقَدَ جَنَاحَهُ الْأَيْسَرَ فِي حَرْبٍ لَمْ يَعْتَرِفْ بِهَا أَحَدٌ.

**عَابِرٌ:**

يَرَى الْجِهَةَ الْأُخْرَى مِنَ الْيَقِينِ، كَمَا يَرَاهَا الْغُبَارُ الْأَخِيرُ حِينَ يَهْبِطُ مِنْ جَنَاحِ مَلَاكٍ مُتْعَبٍ.

**عَابِرٌ:**

يَتْلُو الصَّلَاةَ الشَّافِيَةَ مِنَ الْأَخْطَاءِ، الصَّلَاةَ الَّتِي لَا تُسْمِعُهَا الْآذَانُ، وَتَرْتَجِفُ لَهَا عِظَامُ الَّذِينَ لَمْ يُولَدُوا.

**عَابِرٌ:**

يُشْعِلُ سِرَاجَهُ مِنْ هَلْوَسَةِ الْكَلِمَاتِ الَّتِي تَرَبَّتْ فِي فَمِ اللَّيْلِ.

**عَابِرٌ:**

تَعْرِفُهُ الْحِكْمَةُ كَأَنَّهُ آخِرُ أَبْنَائِهَا الَّذِينَ ضَاعُوا فِي غُبَارِ الزَّمَانِ، وَمَصِيرُهُ صُلْبٌ لَا يَلِينُ أَمَامَ أَبْوَابٍ لَا تُفْتَحُ إِلَّا لِمَنْ مَاتُوا وَاقِفِينَ.

**عَابِرٌ:**

يَصْعَدُ صُرُوحَ الْجَزَعِ، وَيُضِيءُ شَمْعَةَ الْوَقْتِ.

**عَابِرٌ:**

يَبْتَعِدُ عَنْ مَوْتِهِ... ذٰلِكَ الْمَوْتُ الْمَشْدُودُ كَدَالِيَةٍ تُعَلِّقُهَا يَدٌ مَجْهُولَةٌ عَلَى حَائِطِ السَّمَاءِ.

**عَابِرٌ:**

يَتَهَيَّأُ لِلنَّدْبَةِ الْأُولَى، نَدْبَةٍ تُفْتَحُ كَجُرْحٍ فِي صَمْتِ الْأَبَدِ، وَتَتَدَافَعُ حَيْرَةٌ فَوْقَ حَيْرَةٍ، وَرُوحٌ فَوْقَ رُوحٍ، وَجُزُرٌ مِنَ السَّمَاءِ فَوْقَ جُزُرٍ مِنَ الْجَحِيمِ.

**عَابِرٌ:**
يُطْلِقُ النَّحْسُ أَبْوَاقَهُ، فَتَتَدَافَعُ حَرَائِقُ فَوْقَ حَرَائِقَ، وَقُبُورٌ فَوْقَ قُبُورٍ، وَشَظَايَا فَوْقَ أَضْرِحَةٍ، حَتَّى يَتَّسِعَ اللَّيْلُ لِصَرْخَةٍ وَاحِدَةٍ تَكَادُ تَشُقُّ جَبْهَةَ الْغَيْبِ.
**عَابِرٌ:**
تُلْبِسُهُ الْأَكَالِيلُ الْمَسْمُومَةُ إِكْلِيلَ الطَّعَنَاتِ فِي حَفْلِ تَتْوِيجِ الْجِرَاحِ، حَفْلٍ يَقِفُ فِيهِ التَّارِيخُ كَغَرِيقٍ يُلَوِّحُ لِلرَّاحِلِينَ بِيَدِهِ الْأَخِيرَةِ.

**عَابِرٌ: يَصْرُخُ لِلْغَيْمِ الْمُتَدَلِّي مِنْ جُفُونِ الْقِدِّيسِينَ:**
كُلُّ هٰذَا... لِي؟
كُلُّ هٰذَا الْهَشِيمِ الَّذِي يَتَلَأْلَأُ فِي أَقْبِيَةِ الرُّوحِ،
كُلُّ هٰذَا الصُّرَاخِ الْمُنَضَّدِ عَلَى شَكْلِ مَزَامِيرَ،
كُلُّ هٰذَا الدَّمِ الَّذِي يَحْفِرُ مَجْرَاهُ فِي بَهْوِ الْخَلِيقَةِ...
لِي أَنَا؟

**فَيُجِيبُ الصَّدَى الْمَكْسُورُ، بِصَوْتٍ يُشْبِهُ صَرِيرَ مَفَاتِيحَ فَقَدَتْ خَزَائِنَهَا:**
كُلُّ هٰذَا... لِجُرْحٍ لَمْ يُولَدْ بَعْدُ.
كُلُّ هٰذَا... لِرَجُلٍ يَصْعَدُ وَحْدَهُ جَبَلَ الْخُرَافَةِ.
كُلُّ هٰذَا... لِظِلٍّ يَتِيمٍ يَمْسَحُ حَدَّ السَّيْفِ بِدُمُوعِهِ.

**الْجُنْدِيُّ الْجَرِيحُ: يَهْمِسُ فِي بَطْنِ اللَّيْلِ، كَرَاهِبٍ يُبَدِّلُ نَعْشَهُ بِالصَّلَاةِ:**
كُلُّ هٰذَا... لَكَ.
كُلُّ هٰذَا الِارْتِعَاشِ الَّذِي يَرْتَجُّ فِي رِئَةِ الْمَسَاءِ،
كُلُّ هٰذِهِ النِّدَاءَاتِ الَّتِي هَبَطَتْ مِنْ خَزَائِنِ الْمَلَكُوتِ،
كُلُّ هٰذَا الْحُطَامِ الَّذِي أَضَاءَ جَبِينَ الْمَوْتِ...
لَكَ كُلُّهُ.

**وَتَرْتَفِعُ مِنْ بَيْنِ الثُّلُوجِ لُغَةٌ لَا تُرَى، تَقُولُ:**
ذٰلِكَ الْكِتَابُ الَّذِي يَكْتُبُهُ الْهَارِبُونَ،
وَذٰلِكَ الْمِدَادُ الَّذِي يَقْطُرُ مِنْ حَنْجَرَةِ الْمَلَاكِ الْأَعْمَى،
وَذٰلِكَ الْبَابُ الَّذِي لَا يُفْتَحُ إِلَّا حِينَ يَفْنَى النَّدِيمُ فِي نَدِيمِهِ.

**الْمَلَاكُ الْأَعْمَى، وَهُوَ يَمْسَحُ عَلَى الْهَوَاءِ بِيَدِهِ كَمَنْ يَلْمِسُ وَجْهًا سَقَطَ مِنَ التَّارِيخِ:**
أَيُّهَا الْعَابِرُ، يَا مَنْ تَصْعَدُ وَحْدَكَ سُلَّمَ الْهَاوِيَةِ، أَتَسْأَلُنِي: كُلُّ هٰذَا... لِي؟
كَأَنَّكَ لَا تَرَى أَنَّ مَا يُهْدَى لَا يُهْدَى، وَأَنَّ مَا يُعْطَى لَا يُعْطَى، وَأَنَّ الْخَوْفَ هُوَ الْمِيرَاثُ الْوَحِيدُ الَّذِي لَا يُغَالِبُهُ وَارِثٌ.
كُلُّ هٰذَا...
كُلُّ هٰذِهِ الذَّرَّاتِ الَّتِي تَرْتَجِفُ فِي رِئَةِ الظَّلَامِ،
وَهٰذَا النَّفَسُ الَّذِي سَقَطَ مِنْ صَدْرِ الرَّبِّ كَحَبَّةٍ ضَلَّتْ طَرِيقَهَا،
وَهٰذِهِ الْأَصْوَاتُ الَّتِي انْكَسَرَتْ مِثْلَ بَيْضٍ أَزَلِيٍّ تَحْتَ قَدَمِ مَيِّتٍ يَرْكُضُ إِلَى قِيَامَةِ غَيْرِهِ...
كُلُّ هٰذَا لَكَ...
لَكَ وَحْدَكَ.

**إِيكَارُ، يَهْمِسُ مُرْتَجِفًا:**
كُلُّ هٰذَا... لِي؟

**يُجِيبُ الْمَلَاكُ الْأَعْمَى، وَهُوَ يَتَلَمَّسُ الطَّرِيقَ إِلَى فَمِ الرَّعْدِ:**
ذٰلِكَ هُوَ الَّذِي خُطَّ قَبْلَ أَنْ تُخْلَقَ الْقِرَاءَةُ،
ذٰلِكَ هُوَ الَّذِي شَهِدَتْهُ النَّارُ وَهِيَ تُصَبُّ فِي عِظَامِ الطُّوفَانِ،
ذٰلِكَ هُوَ الَّذِي دَوَّنَهُ الْهَارِبُونَ عَلَى حِجَارَةِ الْحُدُودِ حِينَ نَفِدَ حِبْرُ أَجْسَادِهِمْ.
ذٰلِكَ...
الَّذِي تَظُنُّهُ بَعِيدًا، يَمْشِي مُنْذُ دُهُورٍ خَلْفَكَ، يُقَلِّبُ ظِلَالَكَ، وَيَخْتَبِرُ صَمْتَكَ، وَيَضَعُ عَلَى صَدْرِكَ، كُلَّ لَيْلَةٍ، خَتْمَ الرَّحِيلِ الَّذِي لَا يَفْتَحُهُ إِلَّا مَنْ مَاتَ مَرَّتَيْنِ.

**أَيُّهَا الْعَابِرُ،**
يَا صَاعِدًا نَحْوَ الْجَبَلِ بِغَيْرِ شَاهِدٍ،
يَا آخِرَ النُّدَمَاءِ الَّذِينَ نَكَّسَتِ السَّمَاءُ قَنَادِيلَهُمْ،
لَا تَقُلْ:
- كُلُّ هٰذَا... لِي.
قُلْ:
- كُلُّ هٰذَا... أَنَا.

فَمَا مِنْ شَيْءٍ يَهْبِطُ عَلَى كَتِفَيْكَ إِلَّا لِأَنَّهُ خَرَجَ مِنْكَ، أَوْ سَيَخْرُجُ مِنْكَ بَعْدَ حِينٍ.
وَمَا مِنْ جُرْحٍ يَلْمَعُ فِيكَ إِلَّا وَكَانَ اسْمُكَ مَكْتُوبًا عَلَيْهِ قَبْلَ أَنْ تُخْلَقَ الذِّكْرَى.

أَنَا الْمَلَاكُ الْأَعْمَى.
أَرَى حَيْثُ لَا يَرَى النُّورُ.
وَأَدُلُّكَ عَلَى الطَّرِيقِ الَّذِي لَا يُؤَدِّي إِلَى مَكَانٍ،
إِلَّا إِلَى صَوْتِكَ...
يَعُودُ إِلَيْكَ كَأَنَّهُ كِتَابٌ مَفْقُودٌ يَطْلُبُ قَارِئَهُ.

# إِصْحَاحُ

## 3

## الْفُوتُوغْرَافِيُّ الْعَجُوزُ وَتَعَالِيمُ الصُّورَةِ

### تَرْنِيمَةٌ

**(1)**

كَانَ الْفُوتُوغْرَافِيُّ الْعَجُوزُ يَمْشِي إِلَى جَانِبِ إِيكارَ كَمَا يَمْشِي الرَّاهِبُ إِلَى ظِلِّ مَعْبَدِهِ، دُونَ اسْتِعْجَالٍ، وَدُونَ لَفْتَةٍ زَائِدَةٍ، يَحْمِلُ كَامِيرَتَهُ كَمَنْ يَحْمِلُ جَمْرَةً لَا يُرِيدُ لَهَا أَنْ تَنْطَفِئَ.

لَمْ يَسْأَلِ الطِّفْلُ عَنِ اسْمِهِ، وَلَا عَنْ عُمْرِهِ.

قَالَ لَهُ مُنْذُ اللِّقَاءِ الْأَوَّلِ:
- الصُّورَةُ لَا تَحْتَاجُ إِلَى سِيرَةٍ شَخْصِيَّةٍ... يَكْفِي أَنْ تَقِفَ.
وَمُنْذُ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ، تَعَلَّمَ إِيكارُ أَنَّ الْوُقُوفَ أَمَامَ عَدَسَةٍ أَقْرَبُ إِلَى الْوُقُوفِ أَمَامَ مَحْكَمَةٍ.

(2)

لَمْ تَكُنِ الْكَامِيرَا نَظِيفَةً، كَانَتْ مُغَطَّاةً بِغُبَارِ السِّنِينَ، وَكَانَ الْعَجُوزُ يَمْسَحُ سَطْحَهَا بِأَنْفَاسِهِ كَمَنْ يُدَفِّئُ يَتِيمًا.

كَانَ يَرْفَعُهَا بِبُطْءٍ، وَيَقُولُ لِإِيكارَ:

- انْظُرْ... الْعَالَمُ لَيْسَ مَا تَرَاهُ، الْعَالَمُ هُوَ مَا سَتَرَاهُ بَعْدَ أَنْ تُغْلِقَ جَفْنَيْكَ عَلَى جُزْءٍ مِنَ اللَّحْظَةِ.

لَمْ يَفْهَمِ الطِّفْلُ كَيْفَ يَرَى الْمَرْءُ مَا لَا يُرَى، لَكِنَّهُ صَدَّقَ الضَّوْءَ حِينَ صَعِدَ مِنْ جَسَدِهِ إِلَى عَيْنِ الْفُوتُوغْرَافِيِّ.

(3)

فِي الْحَيِّ الْقَدِيمِ، كَانَتِ الْأَزِقَّةُ تَتَشَابَكُ كَأَصَابِعَ مُتَرَدِّدَةٍ.

وَكَانَ الْفُوتُوغْرَافِيُّ يَلْتَقِطُ الْوُجُوهَ بِسُرْعَةٍ بَطِيئَةٍ، وَبِيُسْرٍ مَوْجُوعٍ.

يُصَوِّرُ الْبَائِعَ النَّائِمَ، وَالْمَرْأَةَ الَّتِي تَعْجِنُ رَغِيفَهَا كَأَنَّهَا تَعْجِنُ خَوْفَهَا، وَيَقُولُ لِرَفِيقِهِ الصَّغِيرِ:

- كُلُّ صُورَةٍ قَبْرٌ صَغِيرٌ... لَكِنَّهُ قَبْرٌ لَا يُغْلَقُ.

فَيَتَسَاءَلُ إِيكَارُ:

- وَهَلْ أَظْهَرُ فِي قَبْرٍ؟ هَلْ أَكُونُ حَجَرًا بِغَيْرِ صَوْتٍ؟

فَيُجِيبُهُ الْعَجُوزُ بِابْتِسَامَةٍ عَاتِيَةٍ:

- الصُّورَةُ لَا تُمِيتُ... إِنَّهَا تُبْقِي.

(4)

**كُورَالُ الطِّفْلِ الدَّاخِلِيِّ:**

يَا إِيكارُ...

لَا تَخَفْ مِنَ الْكَامِيرَا.

فَهِيَ لَيْسَتْ رَجُلًا يُفَتِّشُ جُيُوبَكَ، وَلَا شَمْسًا تُحْصِي خُطُوَاتِكَ.

إِنَّهَا نَافِذَةٌ مَكْسُورَةٌ تُطِلُّ مِنْهَا عَلَى نَفْسِكَ.

وَإِذَا رَأَيْتَ قَدَمَيْكَ، فَاعْلَمْ أَنَّ الْعُبُورَ قَدْ بَدَأَ.

(5)

ذَاتَ يَوْمٍ، طَلَبَ الْفُوتُوغْرَافِيُّ مِنْ إِيكارَ أَنْ يَقِفَ فِي مُنْتَصَفِ السَّاحَةِ، حَيْثُ تَتَسَاقَطُ أَعْمِدَةُ الضَّوْءِ مِنْ ثَقْبٍ فِي سَقْفِ السَّمَاءِ.

وَأَشَارَ إِلَيْهِ أَنْ يَرْفَعَ قَدَمَهُ قَلِيلًا، كَأَنَّهُ عَلَى وَشْكِ أَنْ يَبْدَأَ الرَّكْضَ، ثُمَّ قَالَ:

- هٰكَذَا... أُرِيدُ أَنْ أَلْتَقِطَ اللَّحْظَةَ الَّتِي لَا تَكُونُ فِيهَا رَاكِضًا وَلَا وَاقِفًا، اللَّحْظَةَ الَّتِي تَتَرَدَّدُ فِيهَا بَيْنَ الْأَرْضِ وَالْهَوَاءِ.

وَقَفَ الطِّفْلُ، وَفِي دَاخِلِهِ سُؤَالٌ يَشْتَعِلُ:

- هَلْ هٰذِهِ هِيَ اللَّحْظَةُ الَّتِي تَنْفَصِلُ فِيهَا الْحَيَاةُ عَنِ الْخَوْفِ؟

(6)

عِنْدَ أَوَّلِ ضَغْطَةٍ عَلَى مِصْرَاعِ الْكَامِيرَا، اهْتَزَّ الْعَالَمُ حَوْلَهُ.

لَمْ يَعُدْ يَسْمَعُ هَمْهَمَةَ السُّوقِ، وَلَا صُرَاخَ الْبَاعَةِ، وَلَا نِدَاءَ الأُمِّ مِنْ شُبَّاكِ الْبَيْتِ.

كَانَ يَسْمَعُ فَقَطْ صَوْتًا يُشْبِهُ النَّفَسَ الأَخِيرَ لِشَيْءٍ كَبِيرٍ:

(Click)

ثُمَّ صَمْتٌ...

صَمْتٌ عَمِيقٌ كَغَفْوَةِ حَجَرٍ.

قَالَ الْفُوتُوغْرَافِيُّ:

- أَوَّلُ صُورَةٍ هِيَ أَوَّلُ مَوْتٍ صَغِيرٍ. لَا تَخَفْ... سَتَعُودُ كُلَّمَا رَآكَ أَحَدٌ.

**(7)**

بَعْدَ تِلْكَ اللَّحْظَةِ، صَارَ إِيكارُ يَرَى الْعَالَمَ بِطَرِيقَةٍ مُخْتَلِفَةٍ:

**(الْجِدْرَانُ)** حُدُودٌ قَيْدُ التَّشَكُّلِ، وَلَمْ تَعُدْ جُدْرَانًا.

**(الشَّارِعُ)** خَرِيطَةٌ جَالِسَةٌ فَوْقَ إِسْفَلْتِهَا، وَلَمْ يَعُدْ مَمَرًّا.

**(الضَّوْءُ)** تَحْقِيقٌ مَفْتُوحٌ يَبْحَثُ عَنْ بَصَمَاتِ قَدَمَيْهِ، وَلَمْ يَعُدْ ضَوْءًا.

فَتَحَ عَيْنَيْهِ عَلَى الأَشْيَاءِ كَأَنَّ الْفُوتُوغْرَافِيَّ وَضَعَ فِي صَدْرِهِ كَامِيرَا لَا تُغْلَقُ.

**(8)**

**كُورَالُ ظِلِّ الأَبِ:**

يَا وَلَدِي...

الصُّورَةُ تُشْبِهُنِي، أَنَا أَيْضًا ظِلٌّ أُحَاوِلُ أَنْ يَكْتَمِلَ.

أَرَاكَ فِي كُلِّ مَمَرٍّ يَلْتَقِطُهُ الْعَجُوزُ، كَأَنَّكَ تُسَابِقُنِي إِلَى مُسْتَقْبَلٍ لَا أَعْرِفُ طَرِيقَهُ.

لٰكِنِّي، رَغْمَ خَوْفِي، أَبْتَسِمُ...
فَالرَّكْضُ يَبْنِي أُبُوَّةً جَدِيدَةً لَا تَهْزِمُهَا الْحُدُودُ.

**(9)**

فِي يَوْمٍ آخَرَ، أَخَذَهُ الْفُوتُوغْرَافِيُّ إِلَى طَرَفِ الْمَدِينَةِ، حَيْثُ يَقِفُ الْمَخْفَرُ كَصَخْرَةٍ تَشْرَبُ الْمِلْحَ.

سَأَلَهُ إِيكارُ:

- أَتُرِيدُ أَنْ تُصَوِّرَ الْمَخْفَرَ؟

قَالَ الْفُوتُوغْرَافِيُّ:

- لَا... أُرِيدُ أَنْ أَرَى إِنْ كَانَ يُمْكِنُ لِلصُّورَةِ أَنْ تَهْزِمَ الْخَوْفَ.

ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَى إِيكارَ:

- الْحُدُودُ تُصَوِّرُنَا كُلَّ يَوْمٍ... حَانَ الْوَقْتُ أَنْ نُصَوِّرَهَا.

رَفَعَ الْكَامِيرَا نَحْوَ الْبِنَاءِ الَّذِي يَلْمَعُ سَطْحُهُ كَمِعْدَةٍ جَائِعَةٍ، وَمَا إِنِ الْتُقِطَتِ الصُّورَةُ حَتَّى شَعَرَ إِيكارُ أَنَّ الْمَخْفَرَ نَفْسَهُ تَرَدَّدَ لِلَحْظَةٍ، كَأَنَّهُ لَمْ يَتَوَقَّعْ أَنْ يُوضَعَ دَاخِلَ إِطَارٍ.

**(10)**

**قَالَ الْفُوتُوغْرَافِيُّ:**

- لَا شَيْءَ يَهْرُبُ مِنَ الصُّورَةِ... حَتَّى الْخَوْفُ.

اقْتَرَبَ مِنْ إِيكارَ وَوَضَعَ الْكَامِيرَا بَيْنَ يَدَيْهِ لِلْمَرَّةِ الأُولَى.

كَانَتْ ثَقِيلَةً، وَلٰكِنَّهُ شَعَرَ بِخِفَّةٍ تَسْرِي فِي أَصَابِعِهِ، كَأَنَّ الْكَامِيرَا تَعْرِفُ اسْمَهُ الْقَدِيمَ.

- صَوِّرْنِي.
قَالَ الْفُوتُوغْرَافِيُّ.
ارْتَبَكَ إِيكارُ:
- كَيْفَ أُصَوِّرُكَ وَأَنْتَ الْمُصَوِّرُ؟
أَجَابَ:
- لِأَنَّ مَنْ يَلْتَقِطُ صُورَةً لِآخَرَ يَرَى نَفْسَهُ فِي عَيْنَيْهِ.
رَفَعَ إِيكارُ الْكَامِيرَا، ارْتَجَفَتْ يَدَاهُ، ثُمَّ الْتَقَطَ الصُّورَةَ:
(ضَوْءٌ يَمُرُّ مِنْ خِلَالِ الْكَادْرِ كَشَاهِدَةٍ عَلَى سِرٍّ لَا يَعْرِفُهُ إِلَّا الزَّمَنُ).

**(11)**

حِينَ نَظَرَ الْفُوتُوغْرَافِيُّ إِلَى الصُّورَةِ، ابْتَسَمَ:
- انْظُرْ... لَقَدِ امْتَسَكْتَ بِاللَّحْظَةِ الَّتِي تَسْبِقُ النِّسْيَانَ. وَهٰذِهِ أَصْعَبُ صُورِ الْعَالَمِ.
مَسَحَ عَلَى رَأْسِهِ كَمَا يَمْسَحُ الرَّاهِبُ عَلَى كِتَابٍ وَرَقِيٍّ مُتَهَالِكٍ، وَقَالَ:
- سَتَحْتَاجُ إِلَى هَذَا حِينَ تَبْدَأُ رِحْلَتَكَ، لِأَنَّ الصُّورَةَ تُنْقِذُكَ، وَتُذَكِّرُكَ بِأَنَّ الضَّوْءَ صَدِيقٌ عَنِيدٌ.

**(12)**

**كُورَالُ الطِّفْلِ الدَّاخِلِيِّ:**
يَا إِيكارُ... الصُّورَةُ طَرِيقٌ أُخْرَى، طَرِيقٌ تَمْشِي فِيهَا الْعَيْنُ قَبْلَ الْقَدَمِ. سَتَعْرِفُ لَاحِقاً أَنَّ رَكْضَكَ لَيْسَ وَاحِداً، رَكْضُكَ اثْنَانِ: رَكْضٌ نَحْوَ الْحُدُودِ، وَرَكْضٌ دَاخِلَ الذَّاكِرَةِ.

(13)

مَعَ غُرُوبِ الشَّمْسِ/الْحُدُودِ، أَخَذَتِ السَّمَاءُ لَوْنَ خَتْمٍ أَحْمَرَ عَلَى جَوَازٍ غَيْرِ صَالِحٍ. سَمِعَ إِيكارُ هَمْساً مِنْ جِهَةِ الضَّوْءِ:

- تَعَالَ غَداً... سَأُرِيكَ كَيْفَ تُصْبِحُ الْقَدَمُ عَدَسَةً، وَكَيْفَ يُصْبِحُ الطَّرِيقُ فِلْماً لَا يَنْتَهِي.

كَانَ ذَلِكَ صَوْتَ الْفُوتُوغْرَافِيِّ، لَكِنَّهُ بَدَا لَهُ كَأَنَّهُ صَوْتٌ آخَرُ، صَوْتٌ يَعْرِفُ كُلَّ شَيْءٍ عَنِ الرَّحِيلِ... مُنْذُ تِلْكَ الْأَيَّامِ، بَدَأَتِ الصُّورَةُ تَسْكُنُ خُطُوَاتِ إِيكارَ... صَارَ يَرَى الْعَالَمَ كَفِلْمٍ بَدَأَ قَبْلَ وِلَادَتِهِ وَسَيَنْتَهِي بَعْدَ عُبُورِهِ... صَارَ يَعْرِفُ أَنَّ الضَّوْءَ لَيْسَ لِلزِّينَةِ، وَلَا لِلْمَعَابِرِ، وَلَا لِلْمُلَاحِقِينَ... الضَّوْءُ لُغَةٌ تَحْتَاجُ إِلَى قَدَمٍ تَرْكُضُ مَعَهَا.

٣

# النَّشِيدُ الثَّالِثُ

## قُدَّاسُ الْعَائِدِينَ بِلا وُجُوهٍ

## (1)

## قُدَّاسٌ بِصَوْتِ الْمَلَاكِ الْأَعْمَى

يَا أَيُّهَا الرَّاجِعُونَ مِنَ الْجِهَاتِ الْمَنْسِيَّةِ، يَا مَنْ تَفْتَحُونَ أَعْيُنَكُمْ كُلَّ صَبَاحٍ عَلَى أَجْفَانٍ لَا تَعْرِفُ أَسْمَاءَكُمْ، وَتَنْهَضُونَ فِي أَجْسَادٍ لَا تَذْكُرُ مَنْ لَبِسَهَا قَبْلَكُمْ، وَلَا لِمَنْ سُلِخَتْ عَنْهُ قَبْلَكُمْ، اسْمَعُوا وَصِيَّتِي. أَنَا الْمَلَاكُ الْأَعْمَى، الَّذِي لَا يَرَى الْوُجُوهَ، لَكِنَّهُ يَسْمَعُ صَدَاهَا، وَلَا يَعْرِفُ الْخَطَايَا... يَشُمُّ رَائِحَتَهَا، وَلَا يَلْمِسُ الْأَرْوَاحَ... يَتَعَثَّرُ بِهَا.

قِيلَ لَكُمْ إِنَّكُمْ تَعُودُونَ، لَكِنَّ الْعَائِدَ لَا يَعُودُ مَرَّتَيْنِ، وَالْجَسَدُ لَا يَسْتَقْبِلُ الضَّيْفَ نَفْسَهُ إِلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً، ثُمَّ يُغْلِقُ أَبْوَابَهُ، وَيَتْرُكُ مَا تَبَقَّى مِنْكُمْ يَتَشَرَّدُ فِي دَمِ الزَّمَنِ.

أَنْتُمْ لَسْتُمْ هُنَا، وَلَا هُنَاكَ، أَنْتُمْ مَا بَيْنَ ظِلَّيْنِ، وَمَا بَيْنَ دَقَّتَيْنِ، وَمَا بَيْنَ نَفَسٍ يَخْرُجُ مِنْ صَدْرٍ لَيْسَ صَدْرَكُمْ، وَيَعُودُ إِلَى فَمٍ لَا يُشْبِهُ فَمَكُمْ.

اغْتَرَبْتُمْ عَنِ الْعِظَامِ حَتَّى صِرْتُمْ تُمْسِكُونَ بِأَقْدَامِكُمْ كَمَنْ يُمْسِكُ بِحَيَوَانٍ مُتَوَحِّشٍ يَنَامُ تَحْتَ جِلْدِهِ.

وَعِنْدَمَا عُدْتُمْ، وَجَدْتُمْ أَنَّ مَا عَادَ لَيْسَ أَنْتُمْ، وَأَنَّ الْوَجْهَ الَّذِي أَمَامَ الْمَاءِ يُعِيدُ غَرِيباً يَنْظُرُ فِيكُمْ كَمَا يَنْظُرُ الْقَاتِلُ فِي ضَحِيَّتِهِ بَعْدَ أَنْ نَسِيَ لِمَاذَا قَتَلَهَا.

اسْمَعُوا مَا أَقُولُ: لَيْسَ الْجَسَدُ بَيْتاً، وَلَا الرُّوحُ سَكَناً، وَلَا الْعَوْدَةُ عَوْدَةً. إِنَّمَا هِيَ الْأَبْوَابُ تَتَبَادَلُكُمْ، كَأَنَّهَا تَتَسَلَّى بِتَغْيِيرِ الْمَفَاتِيحِ، وَأَنْتُمْ تَرْكُضُونَ فِي الدَّهَالِيزِ بَحْثاً عَمَّنْ كُنْتُمْ، فَتَجِدُونَ ظِلَالاً تُشْبِهُكُمْ وَلَا تَعْرِفُكُمْ، وَتُسَمِّيكُمْ بِأَسْمَاءٍ لَمْ تُنَادُوهَا قَطُّ.

وَحِينَ تَصْرُخُونَ: "هَذَا جَسَدِي"، يَمِيلُ الْجَسَدُ قَلِيلاً لِيَقُولَ بِصَوْتٍ لَا سَمْعَ فِيهِ: "كُنْتَ... وَلَسْتَ".

أَنَا الْمَلَاكُ الْأَعْمَى، الَّذِي سَقَطَتْ عَيْنَاهُ فِي حَرْبٍ لَمْ تَقَعْ بَعْدُ، أُرَافِقُكُمْ فِي الْعَوْدَةِ الثَّانِيَةِ، حَيْثُ لَا يُعَادُ شَيْءٌ، وَلَا يَثْبُتُ شَيْءٌ، وَلَا يَبْقَى مِنْكُمْ سِوَى ذَلِكَ الْخَيْطِ الرَّفِيعِ الَّذِي يُسَمِّيهِ الْحُكَمَاءُ "النَّجَاةَ"، وَيُسَمِّيهِ الْعَارِفُونَ "التِّيهَ"، وَيُسَمِّيهِ الشُّعَرَاءُ "الْخُلُودَ الْمُؤَقَّتَ...".

تَعَالَوْا، سَأَدُلُّكُمْ عَلَى الطَّرِيقِ الَّتِي لَا تُؤَدِّي، وَعَلَى الْجَسَدِ الَّذِي يَسْكُنُ فِيكُمْ وَلَا تَسْكُنُونَهُ، وَعَلَى الْقِيَامَةِ الَّتِي لَا تُمِيتُ وَلَا تُنْقِذُ... تُعِيدُكُمْ إِلَى حَيْثُ بَدَأْتُمْ:

ظِلَالاً تَبْحَثُ عَنْ صَاحِبِهَا، وَأَصْحَاباً يَعُودُونَ إِلَى ظِلَالٍ لَيْسَتْ لَهُمْ.

## (2)

## وَصَايَا الْمَلَاكِ لِمَنْ يَعُودُونَ مَرَّتَيْنِ

### (حَيْثُ الْعَائِدُونَ يَسِيرُونَ فِي أَجْسَادٍ تُنْكِرُهُمْ، وَتَتَنَكَّرُ لَهُمْ)

يَا غُرَبَاءَ الْأَبْوَابِ، يَا أَشْبَاحَ الذَّاكِرَةِ، يَا مَنِ اتَّسَعَتْ لَهُمْ قُبُورُ الصَّمْتِ فَضَاقَتْ بِهِمْ أَجْسَادُ التُّرَابِ...

اسْمَعُوا وَصَايَايَ، فَإِنِّي أُمْلِيهَا عَلَيْكُمْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ سَقَطَ نُورُهُ وَلَمْ يَسْقُطْ سِرُّهُ.

**الْوَصِيَّةُ الْأُولَى**: (لَا تُصَدِّقُوا الطَّرِيقَ الَّتِي تَعُودُونَ مِنْهَا): فَالطَّرِيقُ تُحِبُّ الْخَدِيعَةَ، وَتَنْسَخُ أَقْدَامَكُمْ كَمَا يَنْسَخُ النَّاسِخُ الْهَامِشَ، وَتَتْرُكُكُمْ آتِينَ مِنْ جِهَةٍ لَمْ تَمُرُّوا بِهَا قَطُّ.

**الْوَصِيَّةُ الثَّانِيَةُ**: (إِذَا عَادَ الْجَسَدُ إِلَيْكُمْ، فَاسْأَلُوهُ: مِنْ أَيْنَ جِئْتَ؟): الْجَسَدُ مُسَافِرٌ أَيْضاً، لَهُ لَيْلٌ لَا يَنَامُ فِيهِ، وَلَهُ تَارِيخٌ لَا يَرْوِيهِ... قَدْ يَعُودُ وَمَعَهُ ظِلٌّ لَيْسَ لَكَ، أَوْ صَوْتٌ كَانَ لِصَاحِبٍ سَابِقٍ مَا زَالَتْ أُمْنِيَّتُهُ عَالِقَةً فِي نُخَاعِهِ.

**الْوَصِيَّةُ الثَّالِثَةُ**: (لَا تَدْخُلُوا أَجْسَادَكُمْ دُفْعَةً وَاحِدَةً): ادْخُلُوا كَالنَّسَمَةِ، كَتَرَاتِيلِ الصُّبْحِ، كَالْحُزْنِ الَّذِي يَخْجَلُ مِنَ التَّصْرِيحِ. لِأَنَّ الْعَظْمَ يَرْفُضُ الْوَافِدِينَ بِغَيْرِ اسْتِئْذَانٍ، وَالدَّمَ يَثُورُ إِنْ لَمْ يَتَعَرَّفْ إِلَى النَّبْضِ أَوَّلاً.

**الْوَصِيَّةُ الرَّابِعَةُ**: (إِذَا وَجَدْتُمْ فِي صُدُورِكُمْ خَوْفاً لَيْسَ خَوْفَكُمْ... فَاتْرُكُوهُ): ذَلِكَ خَوْفُ مَنْ سَكَنَ جَسَدَكُمْ قَبْلَكُمْ، خَوْفُ قَتِيلٍ لَمْ يَجِدْ قَاتِلَهُ، أَوْ خَوْفُ عَاشِقٍ خَذَلَتْهُ الرِّسَالَةُ، أَوْ خَوْفُ طِفْلٍ مَاتَ وَاقِفاً فَلَمْ يَهْدَأْ ظِلُّهُ بَعْدُ... لَا تَقْتُلُوهُ مَرَّةً أُخْرَى.

**الْوَصِيَّةُ الْخَامِسَةُ**: (لَا تَثِقُوا بِذَاكِرَتِكُمْ فِي الْيَوْمِ الْأَوَّلِ): فَالذَّاكِرَةُ لَا تَعُودُ مَعَكُمْ، تَعُودُ قَبْلَكُمْ، أَوْ بَعْدَكُمْ، أَوْ تَعُودُ فِي جَسَدٍ آخَرَ وَتَبْحَثُ عَنْكُمْ هُنَاكَ. إِنْ سَأَلَتْكُمْ: "هَلْ كُنْتُ أَنَا؟" فَأَجِيبُوهَا: "رُبَّمَا كُنَّا مَعاً".

**الْوَصِيَّةُ السَّادِسَةُ**: (احْذَرُوا الْمَرَايَا): الْمَرَايَا تَعْرِفُ مَنْ يَسْكُنُكُمْ، وَتُفْصِحُ إِنْ نَظَرْتُمْ فِيهَا طَوِيلاً. لَا تَسْأَلُوهَا كَثِيراً، فَقَدْ تُجِيبُكُمْ بِوَجْهٍ لَيْسَ وَجْهَكُمْ، وَبِاسْمٍ نُسِيَ فِي دَفْتَرِ الْقِيَامَةِ.

**الْوَصِيَّةُ السَّابِعَةُ**: (إِذَا رَأَيْتُمْ ظِلّاً يَمْشِي أَمَامَكُمْ... فَلَا تَلْحَقُوهُ): ذَلِكَ ظِلٌّ عَادَ مُبَكِّراً وَلَمْ يَنْتَظِرْكُمْ، وَقَدْ يَنْقُلُكُمْ إِلَى حَيَاةٍ لَيْسَتْ مَكْتُوبَةً لَكُمْ فِي أَلْوَاحِ الضَّيَاعِ.

**الْوَصِيَّةُ الثَّامِنَةُ**: (إِذَا سَمِعْتُمْ فِي عِظَامِكُمْ نَشِيداً غَرِيباً... فَأَنْصِتُوا): قَدْ يَكُونُ نَشِيدَ الَّذِينَ مَاتُوا فِيكُمْ، أَوْ نَشِيدَ الَّذِينَ يَنْتَظِرُونَ مَوْتَكُمْ، أَوْ أَنَا... أَنَا الْمَلَاكُ الْأَعْمَى أَخْتَبِرُ صِدْقَ الْعَائِدِينَ بِجَرَسٍ يَرِنُّ فِي دَاخِلِهِمْ وَلَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ سِوَاهُمْ.

**الْوَصِيَّةُ التَّاسِعَةُ**: (لَا تَقُولُوا لِلزَّمَنِ: "عَادَ كُلُّ شَيْءٍ"): فَالزَّمَنُ يَمْقُتُ الْكَذِبَةَ الصَّغِيرَةَ، وَيَعْفُو عَنِ الْكَبِيرَةِ. قُولُوا لَهُ: "عَادَ بَعْضُنَا"، وَسَيَتَسَامَحُ مَعَكُمْ.

**الْوَصِيَّةُ الْعَاشِرَةُ:** (إِذَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَى الْعَوْدَةِ الثَّالِثَةِ... فَلَا تَعُودُوا): فَالْعَائِدُ ثَلَاثاً يُصْبِحُ ظِلّاً، وَالظِّلُّ إِذَا عَادَ لَا يَتْرُكُ مَكَاناً لِعَوْدَتِكُمْ، وَلَا لِقِيَامِكُمْ، وَلَا لِانْكِسَارِكُمْ... يَدْفِنُكُمْ فِي جَسَدٍ يَرْفُضُ الْمَوْتَ وَلَا يَتَّسِعُ لِلْحَيَاةِ.

هَذِهِ وَصَايَايَ، أُعَلِّقُهَا عَلَى أَبْوَابِكُمْ، كَمَا تُعَلِّقُ الْكَنَائِسُ أَجْرَاسَهَا عَلَى الرِّيَاحِ.
خُذُوهَا، وَإِنْ عَجَزْتُمْ عَنْ فَهْمِهَا الْآنَ، فَسَتَفْهَمُونَهَا حِينَ تَعُودُونَ ثَانِيَةً... أَوْ حِينَ تَعُودُ أَجْسَادُكُمْ دُونَكُمْ.

## هَوامِشُ العائِدينَ إِلى أَجْسادٍ لَيْسَتْ لَهُمْ

(النَّصُّ الرَّسْمِيُّ، تَتْبَعُهُ حَواشِي النّاسِخِ السِّرِّيَّةُ)

1. **في أَوَّلِ العائِدينَ:** قيلَ في كُتُبِ الأَرْواحِ: (إِنَّ الموْتَ قَنْطَرَةٌ مَكْسورَةٌ، وَإِنَّ بَعْضَ العابِرينَ عَلَيْها يَسْقُطونَ في نِصْفِ الطَّريقِ، فَلا يَصِلونَ إِلى ظُلْمَةِ الموْتى وَلا يَعودونَ إِلى نُورِ الأَحْياءِ... يُرْمَوْنَ في أَجْسادٍ لَيْسَتْ لَهُمْ، كَضُيوفٍ ضَلُّوا بَيْتَهُمْ وَدَقُّوا بابَ بَيْتٍ غَريبٍ). وَأَوَّلُ مَنْ عادَ إِلى جَسَدٍ لا يَعْرِفُهُ كانَ رَجُلًا وُلِدَ مَرَّتَيْنِ: (مَرَّةً مِنْ رَحِمٍ أَرْضِيٍّ)، وَ(أُخْرى مِنْ رَحِمٍ مُظْلِمٍ يُشْبِهُ خُوذَةَ لَيْلٍ لا قاعَ لَهُ...). وَعِنْدَما فَتَحَ عَيْنَيْهِ، لَمْ يَجِدِ اسْمَهُ في فَمِهِ، وَلا مَلامِحَهُ في وَجْهِهِ، فَبَكى عَلى هَيْئَةِ مَنْ لا يَسْتَطيعُ البُكاءَ.

2. **في الجَسَدِ الَّذي لا يَعْرِفُ صاحِبَهُ:** الجَسَدُ الَّذي يَسْكُنُهُ الغَريبُ يَسْتَيْقِظُ مَذْعورًا، يَبْحَثُ في عَظْمِهِ عَنِ الصَّوْتِ القَديمِ، وَفي جِلْدِهِ عَنِ النَّدْبَةِ الأَليفَةِ، وَلا يَجِدُ إِلّا غُرْبَةً تَتَلأْلأُ كَالصَّقيعِ عَلى مِرْآةٍ... وَيُقالُ: (إِنَّ الجَسَدَ يَحْزَنُ أَكْثَرَ مِنَ الرُّوحِ حينَ يُخْلَعُ مِنْهُ صاحِبُهُ، وَإِنَّ لَحْمًا كَثيرًا ظَلَّ يَتَذَكَّرُ مَنْ لَمَسَهُ، لٰكِنَّ صاحِبَ اللَّمْسَةِ لَمْ يَعُدْ يَعْرِفُهُ). وَهٰكَذا يَتَوَلَّدُ جُرْحٌ جَديدٌ: جُرْحٌ بَيْنَ الرُّوحِ وَالجَسَدِ، لا يَراهُ إِلّا مَنْ أَذابَتْهُ الرِّيحُ في صَمْتِهِ.

3. **في المُدُنِ الَّتي تَعْرِفُ العائِدينَ:** في مُدُنٍ بَعيدَةٍ مِنْ ثَلْجٍ وَزُجاجٍ، يَمْشي العائِدونَ بِوُجوهٍ لا تُشْبِهُ أَصْواتَهُمْ. تَتْبَعُهُمُ القِطَطُ، وَتَشُمُّ رَوائِحَ لَمْ يَعْرِفْها النَّهارُ، وَتَعْرِفُ أَنَّ الَّذينَ يَمْشونَ أَمامَها لَيْسوا مِنْ هُنا وَلا مِنْ هُناكَ، إِنَّما مِنْ مَنْطِقَةٍ مَتْروكَةٍ بَيْنَ العالَمَيْنِ... كُلَّما مَرَّ أَحَدُهُمُ ارْتَجَفَتِ النَّوافِذُ، كَأَنَّها تَتَذَكَّرُ وُجوهًا غادَرَتْها مُنْذُ زَمَنٍ، وَتَتَعَرَّفُ إِلَيْها الآنَ في جَسَدٍ غَريبٍ.

4. **في امْتِحانِ الأَرْواحِ**: تُعْرَضُ عَلَى الأَرْواحِ قَبْلَ عَوْدَتِها ثَلاثَةُ أَكْوابٍ:

**كَأْسُ الذّاكِرَةِ**: مَنْ شَرِبَ مِنْها عادَ إِلى الجَسَدِ الجَديدِ، وَفيهِ ظِلٌّ مِنْ حَياتِهِ السّابِقَةِ، كَالنَّرْجِسِ الذّابِلِ عَلى حافَّةِ بِئْرٍ.

**كَأْسُ النِّسْيانِ**: مَنْ شَرِبَها عادَ ناصِعًا كَالثَّلْجِ، لٰكِنَّ الجَسَدَ يَرْفُضُهُ، لِأَنَّهُ لا يَعْرِفُ تَسْمِيَتَهُ الجَديدَةَ.

**كَأْسُ العَتْمَةِ**: لا يَشْرَبُ مِنْها إِلّا مَنْ سَقَطَ بَيْنَ العالَمَيْنِ، فَتَمْلَؤُهُ بِلَيْلٍ طَويلٍ يَسيرُ في العِظامِ كَماءٍ أَسْوَدَ.

5. **في لَحْظَةِ التَّعارُفِ بَيْنَ الرُّوحِ وَالجَسَدِ**: يُقالُ: (إِنَّ الرُّوحَ، حينَ تُعادُ إِلى جَسَدٍ لَيْسَ لَها، تَضَعُ يَدَها أَوَّلًا عَلى القَلْبِ: فَإِنْ خَفَقَ مُرَحِّبًا دَخَلَتْ... وَإِنْ خَفَقَ خائِفًا، تَوَقَّفَتْ عَلَى العَتَبَةِ، وَمَضَتْ في الجَسَدِ كَضَوْءٍ مَكْسورٍ في قِنّينَةٍ). بَعْضُهُمْ عاشوا سِنينَ طَويلَةً في هٰذا الاقْتِرانِ المشَوَّهِ، وَبَعْضُهُمْ لَمْ يَحْتَمِلْهُمُ الجَسَدُ، فَماتوا ثانِيَةً، وَرَجَعوا إِلى حَيْثُ لا يُمْكِنُ لِأَحَدٍ أَنْ يَعودَ مَرَّتَيْنِ.

6. **في العائِدِ الأَخيرِ**: أَمّا آخِرُ العائِدينَ فَكانَ طِفْلًا بِلا اسْمٍ. جاءَتْهُ الرّيحُ مِنْ شَمالٍ غامِقٍ، وَقالَتْ لَهُ: (جَسَدُكَ الأَوَّلُ دُفِنَ... وَهٰذا الجَسَدُ الثّاني لا أَحَدَ يُريدُ أَنْ يَسْكُنَهُ، فَادْخُلْ فيهِ وَاهْدَأْ). لٰكِنَّهُ لَمْ يَهْدَأْ، وَلَمْ يَسْكُنْ. ظَلَّ يَمْشي كَأَنَّهُ يَبْحَثُ عَنْ وِلادَتِهِ الحَقيقيَّةِ، وَلَمْ يَجِدْها... ثُمَّ اخْتَفى، وَبَقِيَتْ خُطُواتُهُ فَقَطْ، تَمْشي وَحْدَها عَلى الثَّلْجِ.

## حَواشِي (ناسِخِ الهامِشِ) عَلى (هَوامِشِ العائِدينَ إِلى أَجْسادٍ لَيْسَتْ لَهُمْ)

(مَكْتوبَةٌ بِحِبْرٍ باهِتٍ يُشْبِهُ خَطَّ يَدٍ تَرْتَجِفُ مِنْ غَيْرِ خَوْفٍ)

**حاشِيَةٌ 1: وَأَنا أَنْسَخُ هٰذا السِّفْرَ، سَمِعْتُ وَقْعَ أَقْدامٍ خَلْفي، لٰكِنَّني كُنْتُ وَحْدي.**

**حاشِيَةٌ 2: رَأَيْتُ بَيْنَ الكَلِماتِ فَراغاتٍ تَنْفَتِحُ كَأَبْوابٍ صَغيرَةٍ، كَأَنَّ الأَرْواحَ تَخْرُجُ مِنْها وَتَدْخُلُ ثانِيَةً في الحِبْرِ.**

**حاشِيَةٌ 3: أَظُنُّ أَنَّ اليَدَ الَّتي تَكْتُبُ الآنَ لَيْسَتْ يَدي تَمامًا... ثَمَّةَ شَيْءٌ يُحَرِّكُ أَصابِعي كَمَنْ يَبْحَثُ عَنْ جَسَدٍ جَديدٍ.**

**حاشِيَةٌ 4: وَجَدْتُ في الهامِشِ السّابِقِ كَلِمَةً لَمْ أَكْتُبْها:**
**(سَأَعودُ...)**
**لا أَعْرِفُ لِمَنْ تَعودُ... وَأَخْشى أَنْ أَعْرِفَ.**
**حاشِيَةٌ 5: رُبَّما الأَسْفارُ لا تَتَحَدَّثُ عَنْهُمْ فَقَطْ... وَرُبَّما نَحْنُ جَميعًا نَعيشُ في أَجْسادٍ لَيَسَتْ لَنا، إِلى أَنْ نَجِدَ الجَسَدَ الَّذي كُتِبَ بِاسْمِنا وَلَمْ نَفْتَحْهُ بَعْدُ.**

# (3)

## قُدّاسُ الظِّلِّ الَّذِي سَبَقَ صَاحِبَهُ

(حَسَبَ وَصَايَا الْمَلَاكِ الْأَعْمَى).

يَا أَنْتُمْ، يَا مَنْ خَلَعْتُمْ وُجُوهَكُمْ عِنْدَ أَوَّلِ بَوَّابَةٍ لِلْعَدَمِ، يَا مَنْ عُدْتُمْ مَرَّتَيْنِ، مَرَّةً مِنْ رَحِمِ التُّرَابِ، وَمَرَّةً مِنْ فَمِ الرِّيحِ... اسْمَعُوا صَرِيرَ أَجْنِحَتِي، فَأَنَا الْمَلَاكُ الَّذِي لَا يَرَى، لَكِنَّنِي أُبْصِرُكُمْ بِظِلِّكُمْ، وَأَعْرِفُ أَسْمَاءَكُمْ مِنْ صَوْتِ الِارْتِجَافِ فِي صُدُورِكُمْ.

مَزْمُور

(1)

لَا تُكْثِرُوا النَّظَرَ فِي مَرَايَا الْأَفْنِيَةِ، فَالْمَرَايَا [109] تُضْمِرُ غَضَباً قَدِيماً، وَتَشْتَهِي أَنْ تُعِيدَ إِلَيْكُمُ الْوُجُوهَ الَّتِي نَسِيتُمُوهَا، وُجُوهاً لَا تُشْبِهُكُمْ، وَوُجُوهاً صَارَتْ مِلْكاً لِآلِهَةِ اللَّيْلِ.

---

[109]- **هَامِشُ الْمَرَايَا الْمَلْعُونَةِ (صَوْتُ النَّاسِخِ الْخَائِفِ مِنِ انْعِكَاسِهِ):**
هَذِهِ شَهَادَتِي عَنِ الْمَرَايَا الَّتِي تُصْنَعُ لِتَعْكِسَ الْوُجُوهَ، وَلِتُظْهِرَ مَا حَاوَلَتِ الْأَرْوَاحُ طَمْرَهُ فِي أَعْمَاقِهَا... اعْلَمُوا أَنَّ لِكُلِّ مِرْآةٍ لَعْنَاتٍ ثَلَاثًا: أَنَّهَا تَرَى، وَتَتَذَكَّرُ، وَتَنْتَقِمُ مِمَّنْ نَظَرَ فِيهَا وَهُوَ مُنْكَشِفٌ بِأَكْثَرَ مِمَّا يَحْتَمِلُ... فِي لَيْلٍ بِلَا قَمَرٍ، اقْتَرَبْتُ مِنْ مِرْآةٍ مَهْجُورَةٍ فِي قَاعَةِ الْمَخْطُوطَاتِ، فَلَمْ أَرَ نَفْسِي؛ رَأَيْتُ النَّاسِخَ الَّذِي قَبْلِي يَجُرُّ ظِلَّهُ مِنْ مَكَانٍ لَا أَعْرِفُهُ، كَأَنَّهُ لَمْ يَمُتْ، وَظَلَّ مُعَلَّقًا فِي انْعِكَاسِهِ... وَكَتَبْتُ، وَأَنَا أَتَرَاجَعُ مُرْتَجِفًا: (الْمَرَايَا لَا تَعْكِسُ الْوُجُوهَ،

(2)

إِذَا رَجَعْتُمْ بِأَجْسَادٍ لَيْسَتْ لَكُمْ، فَلَا تَتَسَاءَلُوا عَنِ الْأَثَرِ تَحْتَ الْأَظَافِرِ، وَلَا عَنِ النَّدْبَةِ الَّتِي لَيْسَتْ مِنْ حَيَاتِكُمْ، وَلَا عَنِ الْأَلَمِ الَّذِي لَا يَعْرِفُ سَبَباً. كُلُّ ذَلِكَ مِنْ آثَارِ الْمُرُورِ الثَّانِي، حِينَ تُقَلِّبُكُمُ السَّمَاوَاتُ كَالصَّفَحَاتِ، وَتُخْطِئُ الْأَرْوَاحُ فِي التَّرْتِيبِ.

(3)

لَا تَخَافُوا مِنْ صَدَى أَصْوَاتِكُمْ، فَالصَّدَى جُزْءٌ مِنْكُمْ، وَصَوْتُكُمُ الَّذِي يَسْبِقُكُمْ بِخُطْوَةٍ هُوَ أَوَّلُ مَا يَعُودُ إِلَى الْجَسَدِ، وَآخِرُ مَا يُغَادِرُهُ حِينَ تُسْتَعَادُ الدَّوْرَةُ مِنْ جَدِيدٍ.

(4)

إِذَا رَأَيْتُمْ ظِلّاً يَتَقَدَّمُكُمْ، فَلَا تُوقِظُوهُ بِالسُّؤَالِ، ذَلِكَ ظِلُّكُمُ الْقَدِيمُ الَّذِي لَمْ يَجِدْ جَسَدَهُ بَعْدُ، فَاتْرُكُوهُ يُتَمْتِمُ بِمَا تَيَسَّرَ مِنْ لَيْلٍ، فَالظِّلَالُ أَبْطَأُ مِنْكُمْ فِي الْقِيَامَةِ.

(5)

وَحِينَ تَمَسُّكُمْ يَدٌ بَارِدَةٌ فِي الْعَتَمَةِ، فَلَا تَرْتَجِفُوا... فَالَّذِينَ يَعُودُونَ مَرَّتَيْنِ يُسَلِّمُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، كَمَا يَتَبَادَلُ الرُّهْبَانُ قُدْسَ السَّلَامِ فِي كَنَائِسِ الْحَجَرِ وَالْبَخُورِ.

(6)

يَا عَائِدِينَ بِلا وُجُوهٍ، حِينَ تَقِفُونَ عَلَى تُخُومِ الْفَجْرِ، ارْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ اعْتِرَافاً بِأَنَّكُمْ تَائِهُونَ. فَالضَّيَاعُ هُوَ الْمَذْبَحُ الْأَوَّلُ، وَعَلَيْهِ تُولَدُ الْحِكْمَةُ الَّتِي لَا تُرَدُّ.

---

إِنَّهَا تُعِيدُ إِلَيْكَ ذَاتَكَ الَّتِي خَنَقْتَهَا طَوَالَ عُمُرِكَ)... إِيَّاكُمْ... إِيَّاكُمْ... أَنْ تَنْظُرُوا فِي مِرْآةٍ بَعْدَ مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ، فَإِنَّ الْحَدَّ بَيْنَ الْعَالَمَيْنِ يَذُوبُ، وَتَخْتَلِطُ الْوُجُوهُ، وَتُعِيدُ الْأَرْوَاحُ تَرْتِيبَ مَلَامِحِهَا عَلَى حِسَابِكُمْ... وَقِيلَ لِي إِنَّ كُلَّ مِرْآةٍ مَلْعُونَةٍ تَحْتَفِظُ بِصُورَةٍ وَاحِدَةٍ فَقَطْ: الْوَجْهِ الَّذِي لَنْ يَعُودَ.

(7)

وَإِذَا سَأَلْتُمُونِي: "كَيْفَ نَعْرِفُ أَجْسَادَنَا الْجَدِيدَةَ؟" أَقُولُ لَكُمْ بِعَيْنٍ مُطْفَأَةٍ: سَتَعْرِفُونَهَا حِينَ تَخُونُكُمْ. فَالْجَسَدُ الَّذِي لَا يَخُونُ وَهْمٌ مُعَلَّقٌ فِي اللَّحْمِ.

(8)

فِي هَذَا الْقُدَّاسِ، لَا وُجُوهَ، وَلَا مَلَامِحَ، وَلَا سَمَاءَ مُحَدَّدَةً. هُنَا تَتَسَاوَى الْأَرْوَاحُ الَّتِي عَادَتْ، وَالْأَرْوَاحُ الَّتِي لَمْ تُكْمِلْ رِحْلَتَهَا، وَهُنَا يُمْحَى الِاسْمُ مِثْلَ الطَّبَاشِيرِ، وَيُكْتَبُ مِنْ جَدِيدٍ بِمِدَادٍ مِنْ رَمَادِ خُطُوَاتِكُمْ.

(9)

احْذَرُوا النُّورَ، فَالنُّورُ يَعْرِفُكُمْ أَكْثَرَ مِمَّا تَعْرِفُونَ أَنْفُسَكُمْ، وَيَفْضَحُ الِارْتِبَاكَ الَّذِي تُخْفُونَهُ. أَمَّا الظُّلْمَةُ... فَهِيَ أُمُّكُمُ الثَّانِيَةُ، تَعْرِفُ كَيْفَ تُنْصِتُ إِلَى خُطُوَاتِكُمْ، وَكَيْفَ تَخْزِنُ فُتَاتَ صَلَوَاتِكُمُ الْخَائِفَةَ.

(10)

**حِينَ يَكْتَمِلُ الطَّوَافُ حَوْلَ مَذْبَحِ الْعَائِدِينَ، اذْكُرُوا أَنَّكُمْ لَا تَعُودُونَ كَمَا خَرَجْتُمْ، فَكُلُّ عَوْدَةٍ نُقْصَانٌ، وَكُلُّ نُقْصَانٍ سَبِيلٌ إِلَى الْمَاوَرَاءِ، حَيْثُ يَقِفُ الْمَلَاكُ الْأَعْمَى وَيَعُدُّ أَنْفَاسَكُمْ وَاحِدَةً وَاحِدَةً، لِيَعْرِفَ: هَلْ أَنْتُمُ الْعَائِدُونَ، أَمْ أَنَّكُمْ... مَحْضُ طُيُوفٍ أَخْطَأَتْ طَرِيقَ الرَّحِيلِ.**

## هَوامِشُ المَرايا المَلْعونَةِ

(مَعَ حَواشِي ناسِخِ الهامِشِ الَّذي يَكْتُبُ سِرًّا بَيْنَ السُّطورِ)

1. في أَوَّلِ مِرْآةٍ تَكَلَّمَتْ: في البَدْءِ لَمْ يَكُنِ الإِنسانُ يَرى وَجْهَهُ، كانَ يَكْتَفي بِفِكْرَةٍ عَنْهُ تَسْكُنُ قَلْبَهُ كَطَيْفٍ مِنْ غُبارِ الرُّوحِ... وَعِنْدَما صُنِعَتْ أَوَّلُ مِرْآةٍ، لَمْ تُخْلَقْ لِتُرِيَ الوُجوهَ، خُلِقَتْ لِتَفْضَحَ ما أَخْفاهُ الضَّوْءُ في داخِلِهِمْ... نَظَرَ فيها أَوَّلُ بَشَرٍ، فَرَأى خَلْفَهُ ظِلًّا لا

يَعْرِفُهُ، فظَنَّ أَنَّ الشَّيْطانَ قَدْ سَبَقَهُ إِلى صورَتِهِ، فَكَسَرَها. وَمُنْذُ يَوْمِها عَرَفَتِ المرايا أَنَّ لَها سُلْطَةً عَلى القُلوبِ.

2. في لَعْنَةِ الانْعِكاسِ: كُلُّ مِرْآةٍ تَحْتَفِظُ بِنُسْخَةٍ مِنْكَ، نُسْخَةٍ لا تَموتُ إِذا مُتَّ، وَلا تَنامُ إِذا نِمْتَ، وَلا تَكُفُّ عَنِ النَّظَرِ إِلَيْكَ حَتّى بَعْدَ أَنْ تُغادِرَ... وَلِأَنَّ النُّسَخَ كَثيرَةٌ، اخْتَلَفَتْ عَلَيْكَ مَلامِحُكَ: فَبَعْضُكَ يَبْدو بَريئًا، وَبَعْضُكَ يَبْدو قاتِلًا، وَبَعْضُكَ يَبْكي خَوْفًا مِنَ العَيْنِ الَّتي تُشاهِدُهُ... قالَ الحُكَماءُ:

(أَخْطَرُ المرايا تِلْكَ الَّتي تُريكَ الوَجْهَ الَّذي تَهْرُبُ مِنْهُ).

3. في المِرْآةِ الَّتي تَأْكُلُ أَصْحابَها: هُناكَ مَرايا لا تَعْكِسُ الصُّوَرَ... إِنَّها تَلْتَهِمُها. إِذا أَطَلْتَ النَّظَرَ إِلَيْها، اقْتَرَبَتْ صورَتُكَ مِنْ سَطْحِها، كَمَنْ يَغْرَقُ في بُحَيْرَةٍ مِنْ زُجاجٍ... وَيُرْوى أَنَّ امْرَأَةً تَحَدَّثَتْ إِلى انْعِكاسِها، فَسَأَلَها:

(لِماذا جِئْتِ مُتَأَخِّرَةً؟)

ثُمَّ مَدَّ يَدَهُ مِنْ خَلْفِ الزُّجاجِ وَسَحَبَها. وَبَقِيَ جَسَدُها في العالَمِ خاوِيًا كَالجِلْدِ، تَمْشي فيهِ رُوحٌ لَيْسَتْ لَهُ.

4. في مَرايا اللَّيْلِ السَّبْعِ: في اللَّيْلِ تَنْفَصِلُ المرايا عَنِ الحيطانِ، وَتَسيرُ عَلى أَطْرافِها كَعَناكِبَ مِنْ ضَوْءٍ مَكْسورٍ، وَتَبْحَثُ عَنِ الَّذينَ نَظَروا فيها طَويلًا حَتّى نَسِيَتِ المرايا وُجوهَهُمْ... إِنْ صادَفْتَ مِرْآةً تَمْشي وَحْدَها، فَلا تُنادِها، فَهِيَ تَعْرِفُ اسْمَكَ قَبْلَ أَنْ تَنْطِقَ بِهِ، وَتَعْرِفُ خَوْفَكَ قَبْلَ أَنْ تُفَكِّرَ فيهِ.

5. في المِرْآةِ الَّتي لا تَظْهَرُ في المِرْآةِ: أَخْطَرُ المرايا هِيَ تِلْكَ الَّتي لا تَنْعَكِسُ في غَيْرِها. هٰذِهِ لا تَنْتَمي لِلْعالَمِ، إِنَّما تَنْتَمي إِلى لَيْلٍ سابِقٍ عَلَى الكَوْنِ، وَلَها عَيْنٌ واحِدَةٌ تُبْصِرُ الرُّوحَ وَلا تَرى الجَسَدَ... إِذا رَأَيْتَها، فَأَغْلِقْ عَيْنَيْكَ، لِأَنَّها إِذا رَأَتْكَ كَتَبَتِ اسْمَكَ في سِجِلِّ الوُجوهِ المفْقودَةِ، وَلَنْ يَرى أَحَدٌ انْعِكاسَكَ بَعْدَ اليَوْمِ.

6. في المِرْآةِ الأَخيرَةِ عِنْدَ يَوْمِ الحَسْمِ: عِنْدَما يَنْتَهي الزَّمَنُ، تَتَجَمَّعُ كُلُّ المرايا عِنْدَ نَهْرِ الظِّلالِ، وَتَسْقُطُ فيهِ صُوَرُ البَشَرِ جَميعًا... حينَها فَقَطْ يُعَرّي النَّهْرُ حَقيقَتَهُمْ: لا وُجوهَ، وَلا مَلامِحَ،

إِنَّما أَرْواحٌ تَمْشي بَيْنَ أَصْداءِ شَكْلٍ لَمْ يَعُدْ لَهُمْ... وَتَنْكَسِرُ المرايا كَما تَنْكَسِرُ القُيودُ، وَيَنْجو العالَمُ أَخيرًا مِنِ انْعِكاسَاتِهِ، ثُمَّ يَكْتَشِفُ أَنَّهُ كانَ أَسيرَها طَوالَ الوَقْتِ.

## حَواشِي (ناسِخِ الهامِشِ) عَلى (هَوامِشِ المَرايا المَلْعونَةِ)

(بِمِدادٍ خَفيفٍ يَتَراءى إِذا أُطْفِئَ الضَّوْءُ فَقَطْ)

**1. حاشِيَةٌ عِنْدَ أَوَّلِ مِرْآةٍ: (وَجَدْتُ في نُسْخَةٍ أَقْدَمَ أَنَّ المِرْآةَ الأُولى لَمْ تُصْنَعْ بِيَدِ بَشَرٍ، إِنَّما صُنِعَتْ بِسُقوطِ دَمْعَةٍ مِنْ عَيْنِ مَلاكٍ خُذِلَ).**

**2. حاشِيَةٌ عِنْدَ لَعْنَةِ الانْعِكاسِ: (أَخافُ الصُّورَةَ الَّتي لا تَرْمِشُ... أَشْعُرُ أَنَّها تَكْتُبُني كَما أَكْتُبُها).**

**3. حاشِيَةٌ عِنْدَ المِرْآةِ الَّتي تَأْكُلُ: (حَذَّرَني شَيْخي أَلّا أُطيلَ النَّظَرَ في حِبْرِ الدَّواةِ، لِأَنَّهُ مِرْآةٌ مُظْلِمَةٌ تَأْكُلُ النُّسّاخَ بِبُطْءٍ).**

**4. حاشِيَةٌ في مَرايا اللَّيْلِ: (مَرَّةً، رَأَيْتُ مِرْآتَيْنِ تَتَجادَلانِ لِمَنْ أَكونُ أَنا... كُنْتُ أَسْمَعُ اسْمي كَنَصْلٍ رَقيقٍ يُمَزِّقُ الهَواءَ).**

**5. حاشِيَةٌ في المِرْآةِ الَّتي لا تَظْهَرُ: (هٰذِهِ المِرْآةُ مَوْجودَةٌ في غُرْفَتي... أُخْفيها تَحْتَ ثَوْبي، لٰكِنَّها تَتَحَرَّكُ لَيْلًا وَتَقْتَرِبُ مِنْ وَجْهي... لا أَدْري كَمْ بَقِيَ لِوَجْهي كَيْ يَظَلَّ لي وَحْدي).**

**6. حاشِيَةٌ أَخيرَةٌ: (يا مَنْ تَقْرَأُ... إِذا رَأَيْتَ كَلِماتِ هٰذِهِ الحَواشِي تَنْعَكِسُ في شَيْءٍ قُرْبَكَ، فاعْلَمْ أَنَّ المِرْآةَ قَدْ كَتَبَتِ اسْمَكَ).**

## هَوَامِش (الناسخ السِّرِّي) عَلى (هَوامِشِ المَرايا المَلْعونَةِ)

(بِخَطٍّ مائِلٍ، كَأَنَّ الحِبْرَ نَفْسَهُ يَتَرَدَّدُ قَبْلَ أَنْ يَلْمِسَ الوَرَقَ)

1. **مِرْآةُ البِدايَةِ:** يُقالُ إِنَّ أَوَّلَ مِرْآةٍ كُسِرَتْ في الأَرْضِ لَمْ تُحْدِثْ سَبْعَ سِنينَ مِنَ النَّحْسِ، وَإِنَّما أَحْدَثَتْ سَبْعَ حَيَواتٍ مِنَ التِّيهِ. فَكُلُّ شَظِيَّةٍ بَقِيَتْ تَرْوي لِلْهَواءِ وُجوهًا لَمْ تُخْلَقْ بَعْدُ، وَتَفْضَحُ لِلظِّلالِ ما تُخْفيهِ الأَرْواحُ عَنْ نَفْسِها.

**الهامِشُ المَخْفِيُّ داخِلَ الهامِشِ**: يا قارِئَ هٰذا السِّفْرِ، لا تُصَدِّقِ النُّورَ حينَ يَهْبِطُ عَلى وَجْهِكَ. فَالْمِرْآةُ الأُولى انْعِكاسُ الخَطيئَةِ، كُلُّ صورَةٍ فيها كَلِمَةٌ لَمْ تُنْطَقْ بَعْدُ، وَكُلُّ كَسْرَةٍ مِنْها عَهْدٌ لا أَحَدَ يَعْرِفُ لِمَنْ كُتِبَ.

2. **مِرْآةُ الوَجْهِ الثّاني**: في هٰذِهِ المِرْآةِ لا يَرى العابِرُ مَلامِحَهُ... يَرى الشَّخْصَ الَّذي كانَ يُمْكِنُ أَنْ يَكونَهُ لَوْ لَمْ يَخُنْ خُطْوَتَهُ الأُولى. تُظْهِرُهُ المِرْآةُ كَأَنَّ الزَّمَنَ اعْتَذَرَ لَهُ، ثُمَّ طَواهُ في صَفْحَةٍ لَمْ تَكْتَمِلْ.

**الهامِشُ المَخْفِيُّ داخِلَ الهامِشِ**: تَذَكَّرْ: صورَتُكَ الَّتي رَأَيْتَها هُنا لَيْسَتْ لَكَ تَمامًا، إِنَّما هِيَ لَكَ حينَ يَغيبُ عَنْكَ الَّذينَ يَعْرِفونَكَ. لا تُطِلِ النَّظَرَ... فَالْمِرْآةُ تُحِبُّ الوُجوهَ الَّتي تُشْبِهُ الأَسْئِلَةَ، وَتَكْرَهُ الَّذينَ وَجَدوا إِجاباتِهِمْ مُبَكِّرًا.

3. **مِرْآةُ العارِفينَ المَنْفِيّينَ**: وُضِعَتْ في غُرْفَةٍ بِلا أَبْوابٍ، وَمَنْ يَنْظُرْ إِلَيْها يَسْمَعِ اسْمَهُ يُنادى بِصَوْتٍ لا يَعْرِفُهُ. يَقولُ النّاسِخُ المَجْهولُ:

(إِنَّها مِرْآةٌ لا تُظْهِرُ صورَتَكَ... هِيَ تُكْمِلُ صَمْتَكَ).

**الهامِشُ المَخْفِيُّ داخِلَ الهامِشِ**: هٰذِهِ المِرْآةُ تُسَمّي مَنْ لا اسْمَ لَهُ، وَتُعيدُ تَرْتيبَ ضَوْءِ الرُّوحِ كَأَنَّها ناسِخَةٌ تُراجِعُ النُّسْخَةَ الأَصْلِيَّةَ لِلْبَشَرِ. إِنْ سَمِعْتَ صَوْتَكَ فيها، فَاعْلَمْ أَنَّ الصَّمْتَ بَدَأَ يَفْهَمُكَ.

4. **مِرْآةُ العُشّاقِ الرّاحِلينَ**: هٰذِهِ المِرْآةُ لا تَعْكِسُ الوُجوهَ، إِنَّها تُعيدُ ذِكْرى اليَدِ الَّتي لَمْ تُمْسِكْ بِكَ، وَتَجْعَلُ قَلْبَكَ يَنْبِضُ لَحْظَةً إِضافِيَّةً، كَأَنَّها الدَّيْنُ الَّذي تَرَكَهُ الحُبُّ دونَ أَنْ يُسَدِّدَهُ.

**الهامِشُ المَخْفِيُّ داخِلَ الهامِشِ**: لا تَلْمِسْها بِيَدٍ أَحَبَّتْ كَثيرًا، فَالْمِرْآةُ تَحْفَظُ حَرارَةَ الأَصابِعِ، ثُمَّ تُعيدُها عَلى هَيْئَةِ حَنينٍ لا يَبْرُدُ أَبَدًا.

5. **مِرْآةُ الأَرْواحِ المَجْروحَةِ**: مَنْ يُحَدِّقْ فيها كَثيرًا يُشْفَ مِنْ خَوْفِهِ، لٰكِنَّهُ يَفْقِدُ شَيْئًا آخَرَ لا يَعْرِفُ اسْمَهُ. فَالْمِرْآةُ تَأْخُذُ مُقابِلَ كُلِّ شَجاعَةٍ جُزْءًا صَغيرًا مِنَ الطُّفولَةِ.

**الهامِشُ المَخْفِيُّ داخِلَ الهامِشِ**: لا يُشْفى ناظِرٌ دونَ أَنْ يَتْرُكَ قُرْبانًا. أَمّا الطُّفولَةُ الَّتي تَأْخُذُها المِرْآةُ، فَلا تُسْتَعادُ إِلّا في نَوْمٍ عَميقٍ يَهْبِطُ عَلَى القَلْبِ كَثَلْجٍ نَسِيَ نَفْسَهُ فَوْقَ نافِذَةٍ.

6. **مِرْآةُ الغُبارِ**: هٰذِهِ المِرْآةُ لا تُظْهِرُ سِوَى الغُبارِ. إنْ نَظَرْتَ طَويلًا، اكْتَشَفْتَ أَنَّ الغُبارَ هُوَ أَنْتَ، وَأَنَّ صورَتَكَ لَيْسَتْ سِوَى مُحاوَلَةٍ يائِسَةٍ لِلْبَقاءِ في عالَمٍ لا يَتَذَكَّرُ إلّا ما يَسْقُطُ مِنْهُ.

**الهامِشُ المَخْفِيُّ داخِلَ الهامِشِ**: لا تُخْطِئْ، فَهٰذا الغُبارُ لَيْسَ مَوْتًا، إنَّما هُوَ أَثَرُ الخُطُواتِ الَّتي ظَنَنْتَ أَنَّها صَمَتَتْ. كُلُّ نَفَسٍ يَعْلو سَطْحَ المِرْآةِ هُوَ مُحاوَلَةٌ إضافِيَّةٌ لِئَلّا تُمْحى.

# (4)

# قُدَّاسٌ مِنْ سِفْرِ الْعَائِدِينَ إِلَى أَجْسَادٍ لَيْسَتْ لَهُمْ

## التَّرْتِيلَةُ الْأُولَى (نَشِيدُ الظِّلَالِ الْأُولَى):

يَا رَبَّ الظِّلِّ وَالصَّوْتِ الْمُرْتَجِفِ، يَا مَنْ تُعِيدُنَا إِلَى أَجْسَادٍ لَا نَعْرِفُهَا، هَبْ لَنَا مَسَاراً لَا يَعْثُرُ بِالْأَبْوَابِ، وَخُطْوَةً لَا تَفْضَحُ مَا نَسِينَا. نَحْنُ الرَّاجِعِينَ مِنْ ثَقْبِ الْفَجْرِ، نَحْمِلُ عَلَى أَكْتَافِنَا فُتَاتَ الْأَرْوَاحِ، وَنَبْحَثُ عَنْ أَسْمَاءٍ تُشْبِهُ دَقَّاتِنَا، فَلَا نَجِدُ سِوَى الصَّدَى يُرْشِدُ الصَّدَى.

أَبْقِنَا فِي ظِلَالِكَ، فَالنُّورُ يَجْرَحُنَا، وَالْعَتَمَةُ وَحْدَهَا تَعْرِفُ شَكْلَ أَرْوَاحِنَا.

## التَّرْتِيلَةُ الثَّانِيَةُ (صَلَاةُ اسْتِرْدَادِ الْجَسَدِ):

يَا مَنْ تَكْتُبُ أَجْسَادَنَا كَأَنَّهَا سُطُورٌ نَاقِصَةٌ، وَتَنْفُخُ فِينَا رُوحاً صَدِئَةً مِنْ فَرْطِ الْغِيَابِ، اجْعَلْ مَا نَلْبَسُهُ مِنْ لَحْمٍ لَا يُرْهِقُ خُطَانَا، وَلَا يَفْضَحُ ارْتِجَافَنَا حِينَ نُنَادِي بِأَصْوَاتٍ لَيْسَتْ أَصْوَاتَنَا... إِنْ أَخْطَأَتْ أَجْسَادُنَا فِي التَّعَرُّفِ إِلَيْنَا، فَذَكِّرْهَا بِأَنَّنَا عُدْنَا مَرَّتَيْنِ، وَلَمْ نَجِدْ بَدِيلاً عَنْهَا إِلَّا الْفَرَاغَ.

## التَّرْتِيلَةُ الثَّالِثَةُ (دُعَاءُ الْمَمَرِّ الْأَخِيرِ):

أَيُّهَا الْمَلَاكُ الْأَعْمَى، يَا سَيِّدَ الَّذِينَ يَمْشُونَ بِلا وُجُوهٍ، دُلَّنَا عَلَى الطَّرِيقِ الَّتِي لَا تَسْأَلُ عَنَّا، وَلَا تَطْلُبُ مِنَّا نُذُوراً... إِنْ تَعَثَّرَتْ أَرْوَاحُنَا فِي عَتَبَاتِ الْعَدَمِ، فَامْسَحْ عَنْهَا غُبَارَ الْيَقَظَةِ، وَدَعْهَا تُكْمِلُ السَّيْرَ كَمَا تَسِيرُ الرِّيحُ فِي طُقُوسِهَا الْقَدِيمَةِ، لَا تَعْرِفُ مِمَّنْ بَدَأَتْ، وَلَا إِلَى مَنْ تَنْتَهِي.

### التَّرْتِيلَةُ الرَّابِعَةُ (لَحْنُ الرُّجُوعِ الثَّانِي):

يَا صَانِعَ الْمُرْتَجَعِينَ، يَا نَاسِخَ الْأَخْطَاءِ فَوْقَ جِبَاهِنَا، عَلِّمْنَا كَيْفَ نَعُودُ دُونَ أَنْ نَنْكَسِرَ، وَكَيْفَ نَنْكَسِرُ دُونَ أَنْ نَظَلَّ فِي الْأَرْضِ... بَارِكْ نُعَاسَ أَجْسَادِنَا حِينَ لَا تَعْرِفُنَا، وَبَارِكْ يَقَظَتَهَا حِينَ نَخُونُهَا... فَكُلُّ عَوْدَةٍ تُطْفِئُ شَيْئاً فِي الدَّاخِلِ، وَكُلُّ انْطِفَاءٍ هُوَ طَرِيقٌ جَدِيدٌ إِلَى مَا لَا يُرَى.

### التَّرْتِيلَةُ الْخَامِسَةُ (صَرْخَةُ مَنْ لَمْ يَجِدْ وَجْهَهُ):

يَا رَبَّ الْوُجُوهِ الضَّائِعَةِ، نَحْنُ الْأَسْمَاءُ الَّتِي لَمْ تَكْتَمِلْ، وَالنَّفَسُ الَّذِي تَاهَ فِي صَدْرِهِ، وَالْخُطْوَةُ الَّتِي لَمْ تَعُدْ تَعْرِفُ أَيْنَ تُخْطِئُ... إِنْ أَعْطَيْتَنَا وَجْهاً، فَاجْعَلْهُ لَا يَشِي بِالْخَوْفِ، وَإِنْ حَرَمْتَنَا مِنْهُ، فَاجْعَلْ ظِلَّنَا يَقُولُ عَنَّا مَا لَا تَقُولُهُ الْمَلَامِحُ.

### التَّرْتِيلَةُ السَّادِسَةُ (دُعَاءُ مَا بَعْدَ الْعَوْدَةِ):

إِنْ عُدْنَا، فَلَا تَجْعَلْ لِلْعَوْدَةِ نَحِيباً... اجْعَلْهَا مِثْلَ سَرَيَانِ الْبَخُورِ، تَصْعَدُ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَحْتَجَّ عَلَى مَصِيرِهَا... وَإِنْ نَسِينَا وُجُوهَنَا فِي الطَّرِيقِ، فَارْفَعْ عَنَّا وَجَعَ السُّؤَالِ، فَنَحْنُ الَّذِينَ يَتَقَدَّمُونَ إِلَى حَيَاتِهِمْ كَأَنَّهُمْ يَدْخُلُونَ حَيَاةَ غَيْرِهِمْ... يَا رَبَّ الَّذِينَ يَعُودُونَ وَلَا يَجِدُونَ أَحَداً يَنْتَظِرُهُمْ... لَا تَجْعَلْنَا وَحْدَنَا إِلَّا أَمَامَكَ.

### التَّرْتِيلَةُ السَّابِعَةُ (سَلَامُ الَّذِينَ لَا يُرَوْنَ):

يَا رَبَّ الْخَفَاءِ، أَعْطِنَا سَلَاماً يُشْبِهُ الرِّيحَ حِينَ تَمُرُّ بَيْنَ الْأَجْسَادِ وَلَا تَتْرُكُ أَثَراً... سَلَاماً لَا يَقُومُ عَلَى يَقِينٍ، وَلَا يُبْنَى عَلَى هَيْئَةٍ، سَلَاماً يُنْصِتُ إِلَى نَبْضِ الرُّوحِ حِينَ لَا يَسْمَعُهَا أَحَدٌ.

سَلَامٌ لِأَرْوَاحِنَا...

سَلَامٌ لِخُطُوَاتِنَا...

سَلَامٌ لِغِيَابِنَا الَّذِي يَعُودُ كُلَّ لَيْلَةٍ بِشَكْلٍ جَدِيدٍ.

# أَصْحَاحُ

## 4

# خِطَابُ إِيكَارَ إِلَى الْبَحْرِ

أَيُّهَا الْبَحْرُ...

لَمْ أَعُدْ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَكْتُبَ إِلَّا إِلَيْكَ... أَنْتَ وَحْدَكَ الَّذِي سَمِعْتَ سُقُوطِي دُونَ أَنْ تُعَلِّقَ، وَرَأَيْتَ هَشَاشَتِي دُونَ أَنْ تَرْفَعَ حَاجِباً مِنْ مُلُوحَةٍ أَوْ دَهْشَةٍ... أَنْتَ الَّذِي ابْتَلَعْتَ آلَافَ الْأَصْوَاتِ قَبْلِي، وَمَعَ ذَلِكَ بَقِيتَ صَارِماً، كَأَنَّكَ لَا تَعْرِفُ سِوَى الْإِصْغَاءِ...

أُرِيدُ أَنْ أَشْرَحَ لَكَ لِمَاذَا جِئْتُكَ بِجَنَاحَيْنِ غَيْرِ نَاضِجَيْنِ، وَلِمَاذَا كُنْتَ أَوَّلَ مَنْ فَكَّرْتُ فِي الِالْتِجَاءِ إِلَيْهِ لَحْظَةَ ارْتِجَافِ الرِّيحِ فِي ظَهْرِي...

لَمْ أَهْرُبْ مِنَ الْأَرْضِ، وَلَمْ أَسْعَ إِلَى مُعَادَاةِ السَّمَاءِ، إِنَّمَا هَرَبْتُ مِنَ الْمَسَافَةِ بَيْنَ مَا أَقُولُهُ وَمَا أَعْجِزُ عَنْ قَوْلِهِ... تِلْكَ الْمَسَافَةُ الَّتِي كَانَتْ تَكْبُرُ فِي دَاخِلِي حَتَّى صَارَتْ هُوَّةً، فَلَمْ أَجِدْ غَيْرَكَ يَمْلَؤُهَا...

كُنْتُ أَخَافُكَ قَبْلَ أَنْ أَعرِفَكَ... يَقُولُونَ إِنَّكَ بِلا ذَاكِرَةٍ، لَكِنَّنِي حِينَ لَامَسْتُكَ أَدْرَكْتُ أَنَّكَ مَحْفُوظٌ بِالِاعْتِرَافَاتِ الَّتِي لَا تُحْصَى... كُلُّ مَوْجَةٍ هِيَ جُمْلَةٌ كَتَبَهَا غَرِيقٌ، وَكُلُّ دَوَّامَةٍ هِيَ كَلِمَةٌ لَمْ يَجِدْ صَاحِبُهَا وَقْتاً لِشَرْحِهَا قَبْلَ أَنْ يَبْتَلِعَهُ الظَّلَامُ...

لِهَذَا اخْتَرْتُكَ، أُرِيدُكَ صَمْتاً يَعْرِفُ كَيْفَ يَحْتَفِظُ بِالْمَعْنَى، لَا شَاهِداً عَلَيْهِ...

حِينَ فَتَحْتُ جَنَاحَيَّ فَوْقَكَ، كَانَ الْجَنَاحُ الْأَيْمَنُ (جَنَاحُ الرِّيشِ) يَحْمِلُ لُغَتِي الَّتِي انْفَلَتَتْ مِنِّي... لَمْ تَكُنِ اللُّغَةُ قَوِيَّةً كَمَا ظَنَنْتُ، كَانَتْ تَنْفَجِرُ كَطِفْلٍ يَصْرُخُ بِغَيْرِ قَصْدٍ، تَتَطَايَرُ، وَتَرْتَجِفُ، وَتُقَاوِمُ حَمْلَ جَسَدِي...

كُنْتُ أَرَى الرِّيشَ يَتَسَاقَطُ وَاحِداً بَعْدَ آخَرَ، وَأَسْمَعُ الْكَلِمَاتِ الَّتِي صَنَعْتُهَا عَلَى مَدَى سِنِينَ طَوِيلَةٍ تَعُودُ إِلَيَّ بِلا تَرْتِيبٍ، وَبِلَا انْتِمَاءٍ...
فَهِمْتُ ذَلِكَ مُتَأَخِّراً: اللُّغَةُ الَّتِي لَا تَسْتَنِدُ إِلَّا إِلَى رَغْبَةِ الطَّيَرَانِ لَا تَصْمُدُ...
أَمَّا الْجَنَاحُ الْأَيْسَرُ، جَنَاحُ الصَّمْتِ، فَقَدْ كُنْتُ أَتَوَهَّمُ أَنَّهُ حِصْنِي... كُنْتُ أَظُنُّهُ أَعْمَقَ مِنْكَ، وَأَثْقَلَ، وَأَصْدَقَ...
لَكِنَّ الصَّمْتَ، يَا بَحْرُ، أَضْعَفُ مِمَّا يَبْدُو... إِنَّهُ يَنْكَسِرُ عِنْدَ أَوَّلِ نُورٍ، وَيَذُوبُ كَمَا يَذُوبُ الشَّمْعُ بَيْنَ أَصَابِعِ طِفْلٍ...
حِينَ اقْتَرَبْتُ مِنَ الشَّمْسِ، لَمْ يَخُنِّي الرِّيشُ وَحْدَهُ، فَقَدْ تَخَلَّى عَنِّي الصَّمْتُ أَيْضاً، وَتَقَطَّعَ مِنْ حَوْلِي كَمَا تَتَقَطَّعُ خُيُوطُ اللَّيْلِ حِينَ يَهْجُمُ النَّهَارُ...
كَانَتْ تِلْكَ اللَّحْظَةُ ـ لَحْظَةَ سُقُوطِ الشَّمْعِ وَالرِّيشِ مَعاً ـ مَا أَقْسَاهَا...
لِأَنَّنِي أَدْرَكْتُ أَنَّهُ لَا كَلِمَةَ صَافِيَةً فِي حَيَاتِي، وَلَا صَمْتَ نَقِيّاً... كُلُّ مُحَاوَلَةٍ كَانَتْ نِصْفاً، وَكُلُّ نِصْفٍ كَانَ يَنْتَظِرُ نِصْفَهُ الْآخَرَ لِيَكْتَمِلَ، وَلَمْ يَكْتَمِلْ...
وَحِينَ أَمْسَكْتَ بِي، يَا بَحْرُ، لَمْ أَشْعُرْ أَنَّكَ تَنْوِي ابْتِلَاعِي... أَحْسَسْتُ أَنَّكَ تَفْتَحُ صَدْرَكَ لِي، كَأَنَّكَ تَقُولُ:
- إِنَّهُمْ يَكْتُبُونَ عَنِّي كَثِيراً، لَكِنَّهُمْ لَا يَعْرِفُونَ أَنَّنِي أُحْسِنُ الِاحْتِفَاظَ بِالطَّائِشِينَ دُونَ أَنْ أُؤْذِيَهُمْ.
كَانَتْ أَمْوَاجُكَ مِنْ حَوْلِي كَأَذْرُعٍ لَا تَقْبِضُ وَلَا تَدْفَعُ، إِنَّمَا تُحَافِظُ عَلَى وُجُودِي، كَأَنَّكَ تُرِيدُ مِنِّي أَنْ أَتَعَلَّمَ أَنَّ الْهُدُوءَ لَيْسَ مَوْتاً...
أَعْرِفُ أَنَّكَ رَأَيْتَ كَثِيراً مِنَ الْعَابِرِينَ... رَأَيْتَ مَنْ جَاءَكَ هَارِباً، وَمَنْ جَاءَكَ ثَائِراً، وَمَنْ جَاءَكَ بَاكِياً، وَرَأَيْتَ أَيْضاً مَنْ ظَنَّ أَنَّهُ أَقْوَى مِنْكَ، ثُمَّ اكْتَشَفَ أَنَّهُ لَا أَحَدَ أَقْوَى مِنْ سَعَةٍ كَهَذِهِ...
أَمَّا أَنَا، فَجِئْتُكَ لِأَقُولَ شَيْئاً بَسِيطاً: لَمْ أَخْسَرِ الْجَنَاحَيْنِ لِأَنَّنِي تَحَدَّيْتُ الشَّمْسَ، إِنَّمَا خَسِرْتُهُمَا لِأَنَّنِي لَمْ أَفْهَمْ نَفْسِي...
وَهَا أَنَا أَقُولُهَا لَكَ، لِأَنَّكَ الْوَحِيدُ الَّذِي يَتَّسِعُ لِهَذَا الِاعْتِرَافِ:

لَمْ أَكُنْ أَبْحَثُ عَنِ الطَّيَرَانِ... كُنْتُ أَبْحَثُ عَنْ صَوْتٍ يُمْكِنُنِي أَنْ أَعِيشَ مَعَهُ دُونَ أَنْ يَجْرَحَنِي، وَعَنْ صَمْتٍ يُمْكِنُنِي أَنْ أَتَحَمَّلَهُ دُونَ أَنْ يَبْتَلِعَنِي...

لَمْ أَرَ فِي الرِّيشِ إِلَّا الْكَلِمَاتِ الَّتِي تَفُوقُ حَاجَتِي إِلَيْهَا، وَلَمْ أَرَ فِي الشَّمْعِ إِلَّا الصَّمْتَ الَّذِي خَانَ بَدَايَتَهُ قَبْلَ نِهَايَتِهِ...

وَمَا بَيْنَهُمَا كُنْتُ مُعَلَّقاً، لَا إِلَى الْأَعْلَى وَلَا إِلَى الْأَسْفَلِ...

الْآنَ، أَنَا أَقِفُ عَلَى ضِفَافِكَ. أَدْرَكْتُ أَنَّكَ لَمْ تَكُنْ نِهَايَةَ السُّقُوطِ، وَلَا بَدَايَتَهُ... أَنْتَ عَلَّمْتَنِي أَنَّ الْحَرَكَةَ لَيْسَتِ ارْتِفَاعاً دَائِماً، وَأَنَّ النَّجَاةَ لَيْسَتْ صُعُوداً، وَأَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يُقَاسُ بِطُولِ جَنَاحَيْهِ، وَلَكِنْ بِمَا يَسْتَطِيعُ حَمْلَهُ دُونَ أَنْ يَنْهَارَ.

يَا بَحْرُ...

احْفَظْ هَذَا الْخِطَابَ كَمَا تَحْفَظُ أَمْوَاجُكَ أَسْرَارَهَا... لَسْتُ أَطْلُبُ الْخَلَاصَ، وَلَا أُرِيدُ الطَّيَرَانَ مِنْ جَدِيدٍ... أَطْلُبُ فَقَطْ أَنْ تَتَذَكَّرَنِي كَمَا كُنْتُ فِي لَحْظَةِ مُلَامَسَتِي الْأُولَى لَكَ:

إِنْسَاناً لَا يَخَافُ أَنْ يَعْتَرِفَ، وَلَوْ كَانَ اعْتِرَافُهُ أَثْقَلَ مِنْ جَنَاحَيْهِ.

٤

# النَّشِيدُ الرَّابِعُ

## تَرَائِي الْأَشْبَاحِ فِي الْمِرْآةِ

(مَخْطُوطُ سِفْرِ النَّدِيمِ الرَّاجِعِ مِنَ الْجِهَاتِ الْأَرْبَعِ)

أَرَاكَ، أَيُّهَا الْعَابِرُ، تَصْعَدُ إِلَى الْأَحْلَامِ وَالرُّؤَى، وَتَخْطُو بِاتِّجَاهِ الْوُجُودِ الْأَزَلِيِّ، فَتَتَزَيَّنُ الْجِهَاتُ بِخُطُوَاتِكَ، وَيُضَاءُ النَّهَارُ بِعَنَاقِيدَ مِنْ مِلْحِ الْبَحْرِ، كَأَنَّكَ تُقِيمُ لِلضَّوْءِ مَعْمُودِيَّةً ثَانِيَةً.

كُنْتَ تَصْعَدُ، وَتُطِلُّ مِنْ إِشَارَاتِ الْقَرَابِينِ الرَّمْزِيَّةِ، وَتُفَتِّشُ فِي حُفَرِ الْأَزْمِنَةِ عَنْ قَسَاوِسَةٍ لَمْ يُولَدُوا إِلَّا فِي تَرَائِي الْأَشْبَاحِ فِي الْمِرْآةِ.
كُنْتَ تَصْعَدُ مِثْلَ لَهَاثٍ يَخْرُجُ مِنْ رِئَةٍ مُرْهَفَةٍ، وَمِثْلَ عُزْلَةٍ تَصْنَعُ إِكْلِيلاً مِنَ الْعُشْبِ، وَمِثْلَ نَبِيٍّ خَائِرٍ عَلَى بَابِ الْبَصِيرَةِ.
وَأَرَاكَ، أَيُّهَا الْعَابِرُ، تَصْعَدُ، وَتَصْعَدُ مَعَكَ حُشُودٌ تَمْشِي عَلَى أَيْدِيهَا، وَتُهْرِيقُ دَمَ الصَّبَاحِ عَلَى لَيْلٍ يَتَشَقَّقُ عَنِ الْيَابِسَةِ، وَالْأَرْضُ تَحِيضُ مِنْ ثِقَلِ الْأَسْرَارِ...
تَصْعَدُ... تَصْعَدُ... وَتَصْعَدُ الْآنَ، مُثْقَلًا بِطَعَنَاتِ الْحِكْمَةِ، وَبِعُذُوبَةٍ تَتَسَاقَطُ مِنْ جَبِينِكَ، فَتَتَهَاوَى لَهَا الْحِيطَانُ [110]، وَتَنْهَضُ الشُّطُوطُ الْعَرْجَاءُ تَقْتَفِي أَثَرَكَ، كَمَا تَقْتَفِي الْمَلَائِكَةُ الْعُمْيَانُ ظِلَّ الْمَصْلُوبِ.
وَكُنْتُ أَرَاكَ، أَيُّهَا الْعَلِيُّ، تَجْرِي بِأَعْنَاقِ الْجِبَالِ نَحْوَ جَوْهَرٍ وَاضِحٍ بِذَاتِهِ، وَتُقِيمُ فِي حَنْجَرَتِكَ هُتَافاً يَلْمَعُ كَنَصْلٍ، وَتَفِيضُ دُمُوعُكَ كَمِيَاهِ أَرْبَعَةِ فُصُولٍ.
يَرَاكَ الْإِلَهُ، ذَلِكَ الصَّنَمُ الْمَحْفُورُ عَلَى صُورَتِنَا، وَيُحْكِمُ حِصَارَهُ الْخَفِيَّ عَلَيْكَ.
هَلْ كَانَتْ رِحْلَتُكَ تَحْلِيقاً وَهْمِيّاً فَحَسْبُ، أَمْ كَانَتْ صُعُوداً رَمْزِيّاً فِي مَمْلَكَةِ الرُّوحِ الْغَامِضَةِ؟
كُنْتَ تَصْعَدُ خُطْوَةً خُطْوَةً عَلَى عَتَبَةِ الْمَعْنَى، وَتَصْعَدُ عَبْرَ مُتَاهَاتٍ صُوفِيَّةٍ سِرِّيَّةٍ، وَتَصْعَدُ إِلَى دَاخِلِ الْجَسَدِ، وَتَدْخُلُ إِلَى الْعَقْلِ الْأَوَّلِ، وَتَصْعَدُ إِلَى الْحِكْمَةِ الَّتِي تَسْتَقِرُّ خَارِجَ الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا، وَتَصْعَدُ إِلَى أَزَلٍ لَمْ تَسْتَطِعِ الْمَفَاهِيمُ، وَلَا الْمُخَيِّلَةُ، أَنْ تَحْمِلَهُ أَبْعَدَ مِنْ ذَلِكَ.
وَتَسْمَعُ صَوْتَ الْمَلَاكِ الْأَعْمَى فِي الْوُجُودِ، وَتَسْمَعُ صَوْتَ الْفُوتُوغْرَافِيِّ فِي الطَّبِيعَةِ، وَتَسْمَعُ صَوْتَ الْجُنْدِيِّ الْجَرِيحِ فِي الْحُلْمِ، وَتَسْمَعُ صَوْتَ جَوْقَةِ الْأَشْبَاحِ فِي الرَّمْزِ، وَتَبْقَى فِي حَالَةٍ مِنَ الْإِحْسَاسِ بِالسِّرِّ.
يَغْمُرُكَ رَمْزُ النُّورِ، وَتُنَقِّيكَ حِكْمَةٌ أَزَلِيَّةٌ، وَيُخَبِّئُكَ أَوَّلُ ضَوْءٍ لِلْفَجْرِ، وَتَدْفَعُكَ أَشِعَّةُ الْإِلُوهِيَّةِ الَّتِي تُنِيرُ الْعَالَمَ، وَكَأَنَّكَ شَرَارَةُ الْقُدَّاسِ الذَّهَبِيَّةُ، أَوِ الْوَفْرَةُ الَّتِي رَفَعَهَا الْخَاشِعُونَ فِي لَيْلِ الرُّوحِ الْمُظْلِمِ.

---

[110]- عَنِ الْحِيطَانِ الْعَارِيَةِ الَّتِي تَقْرَعُ دُفُوفَ الْقِيَامَةِ (إِضَاءَةٌ بَاطِنِيَّةٌ):
(الْحِيطَانُ لَيْسَتْ جُدْرَانًا، إِنَّهَا أَرْوَاحٌ قَدِيمَةٌ تَحَجَّرَتْ. وَكُلُّ حَائِطٍ شَاهِدٌ عَلَى جَرِيمَةٍ نَسِيَهَا أَهْلُهَا، وَلِذَلِكَ تَقْرَعُ دُفُوفَهُمْ حِينَ يَقْتَرِبُ السَّالِكُ مِنَ الْحَقِيقَةِ)

كَانَ كُلُّ قُطْبٍ يَرَى فِيكَ إِمَامَ عَصْرِهِ، وَكُلُّ مُرِيدٍ يَتُوقُ إِلَى أَنْ يَلْتَقِطَ قَبَساً مِنْ مَبَاهِجِكَ النَّقِيَّةِ.

أَيُّهَا اللُّوغُوسُ، يَا أَيْقُونَةَ الْخَالِقِ، يَا شَافِيَ الْأَرْوَاحِ، يَا نُورَ الْأَنْوَارِ فِي آيَةِ الْفَيْضِ،

أَنْتَ الصَّلَاةُ الَّتِي لَا يُمْكِنُ مَعْرِفَتُهَا إِلَّا بِالْحَدْسِ.

أَنْتَ الْيَقَظَةُ الْمُخْتَلِفَةُ عَنْ إِلْهَامِ النُّبُوَّةِ.

أَنْتَ اسْتِنَارَةُ الْحِكْمَةِ الْهَادِئَةِ.

وَأَنْتَ حَامِلُ التَّقْوِيمِ السِّرِّيِّ لِرُوحَانِيَّةٍ تَدْخُلُ فِي أَدْيَانِ اللهِ.

عَزِيزٌ فِي عَيْنَيِ الْمَوْتِ مَوْتُكَ، أَيُّهَا الْعَابِرُ.

انْهَضْ مِنَ الظَّلَامِ وَالصَّمْتِ، انْهَضْ مِنْ فَيْضِكَ، مِنْ صُورَتِكَ الْمُسْتَتِرَةِ، مِنْ سَاعَاتِ غِيَابِكَ.

فَفِي تَحْلِيقِكَ تَتَنَفَّسُ الظَّوَاهِرُ مِنْ رُؤًى رَآهَا الْوَجْدِيُّونَ فِي حَضَارَاتٍ عَتِيقَةٍ، وَرَآهَا الصُّوفِيُّونَ تَعْصِفُ بِرُؤْيَا لَيْلِيَّةٍ تَأْخُذُنَا إِلَى عَتَبَةِ عَالَمٍ إِلَهِيٍّ، كَأَنَّهَا تُعِيدُ الْخَلْقَ الْأَوَّلَ.

وَكُنْتُ أَرَاكَ، أَيُّهَا الْعَابِرُ، فِي يَأْسٍ يُعَرِّي فِيهِ الْوَرِعُونَ أَرْوَاحَهُمْ كَيْ تَتَحَرَّرَ مِنَ الْحَيْرَةِ.

وَكُنْتُ أَرَاكَ فِي نَعْشٍ يَحْمِلُهُ الْمُنَاضِلُونَ وَالنُّدَمَاءُ.

وَكُنْتُ أَرَى حَجَرَ الْحِكْمَةِ يَضَعُ جَدَائِلَهُ الْمُنْهَكَةَ فِي كَرَارِيسِ التَّشْرِيحِ، وَيُضِيءُ الْمَوْتَ بِبُرُوقِ الْحُلْمِ، كَأَنَّهُ يُبَشِّرُ بِالْقِيَامَةِ.

وَمِثْلَ ضَبَابٍ يَقُودُ التِّلَالَ إِلَى هَمْهَمَةٍ خَفِيَّةٍ، عَدَوْتُ أَمَامَكَ، وَوَرَائِي الْأَرْضُ مُثْقَلَةٌ بِسُحُبِ الْخَوْفِ الْعَارِيَةِ.

وَهُنَاكَ، فِيمَا وَرَاءَ الْأَفْكَارِ، رَأَيْتُكَ، أَيُّهَا الْعَابِرُ، بِالْقُدْرَةِ لَا بِالْجَوْهَرِ، وَرَأَيْتُكَ فِي طَوَافِكَ الْغَرِيبِ مُطَرَّزاً بِهَالَةٍ سَمَاوِيَّةٍ تَشْهَدُ مَسْرَى الْوَرْدِ فِي حُضُورِكَ الطَّعِينِ.

كَانَ طَوَافُكَ يُشْبِهُ طَوَافَ الْجَمِيلِ الَّذِي يُحِبُّ كَائِناً لِجَمَالِهِ.

وَكَانَ غِيَابُكَ يُشْبِهُ تَجَلِّيَاتِ الْكَشْفِ الَّتِي تَرَى وُجُودَ الْإِلَهِ فِي غِيَابِهِ.

وَكَانَ خَيْطُ طُفُولَتِكَ يَمْتَدُّ تَحْتَ سَقْفٍ يَرَى الْأَرْوَاحَ الْمُبَارَكَةَ وَهْمِيَّةً، وَيَكْشِفُ عَنْ حِجَابٍ أَمَاطَ اللِّثَامَ عَنِ الْوُجُودِ الْحَقِّ.

بَيْنَمَا ازْدَحَمَتِ اللُّغَةُ الْمَذْهُولَةُ بِالدُّمُوعِ وَالذُّنُوبِ وَالْأَعْبَاءِ، وَبِالْحَشْدِ وَالْخَلْقِ، وَأَغْلَقَ الْخَيَالُ حَوَانِيتَهُ.

وَكَشَفَتْ رَائِحَةُ الْخَفِيِّ عَنْ حِكْمَةٍ مُتَجَدِّدَةٍ إِلَى الْأَبَدِ، وَعَنْ إِلَهٍ وَحِيدٍ مُتَنَهِّدٍ وَتَوَّاقٍ إِلَى أَنْ تَعْرِفَهُ مَخْلُوقَاتُهُ، يَزْفِرُ كَلِمَاتٍ تُعَبِّرُ عَنْ كَوْنِنَا كُلِّهِ.

وَكَانَ مَدِيحُ الْعَمَاءِ يَسْكُبُ عَلَى وَجْهِ الْغَيْبِ لَطْخَةَ بُؤْسٍ لَا تُمْحَى، كَأَنَّ الْعَمَى [111] نَفْسَهُ صَارَ نَشِيداً يُرَتِّلُ فِي حَضْرَةِ الْفَرَاغِ.

وَكَانَتْ صَرَخَاتُ الْمَخْلُوقَاتِ تُسْحَبُ بَعِيداً، لَا قَسْراً... وَإِنَّمَا بِشَفَقَةٍ جَيَّاشَةٍ، عَنِ الْأَرْضِ الْأُمِّ، تِلْكَ الَّتِي اخْتَرَقَ اللَّهَبُ الْقَاتِمُ رَحِمَهَا، فَانْشَقَّتِ الْأَسْرَارُ فِي جَوْفِهَا، وَانْدَفَعَ فَيْضُ الْأَسْمَاءِ الْغَامِضَةِ يَرْكُضُ فِي مَدَارَاتِ عَذَارَى الطَّلْعِ، كَأَنَّ الْوُجُودَ يُسْتَدْعَى مِنْ أَوَّلِ النِّدَاءِ...

وَهُنَاكَ...

كَانَ لِلْمَوْتِ أَنْ يَرْفَعَ السِّتَارَ عَنْ نِهَايَتِهِ... عَنْ مَأْسَاةِ الْحَيَاةِ نَفْسِهَا، وَعَنْ أَلَمِهَا الْعَتِيقِ، وَعَنْ جُرْحِهَا الَّذِي لَا يَتَوَقَّفُ عَنِ الْإِنْشَادِ.

أَنْتُمْ شُهُودِي: يَقُولُ النَّشِيدُ

أَيُّهَا الْعَابِرُ... أَيُّهَا الْعَابِرُ...

يَا صَوْتاً خَرَجَ مِنْ فَمِ الْعَدَمِ كَأَنَّهُ صَلَاةٌ أَخِيرَةٌ، يَا جُرْحاً يَتَوَضَّأُ بِالنَّارِ، أَيُّهَا الْعَابِرُ الَّذِي صَارَ نَشِيداً حِينَ اخْتَفَتِ الْأَنَاشِيدُ.

أَيُّهَا الْعَابِرُ... قِفْ.

قِفْ كَمَا يَقِفُ الْجُرْحُ فِي حَضْرَةِ الْقَدَرِ، وَكَمَا يَقِفُ الْمُصَلِّي حِينَ لَا يَبْقَى إِلَّا الدُّعَاءُ.

وَكُنْتُ أَنَا، مِنْ بَعِيدٍ، أَرَاكَ تَفْتَحُ عَيْنَيْكَ كَأَنَّهُمَا مِحْرَابَانِ، وَتُحَدِّقُ فِي الْمَجْزَرَةِ كَأَنَّكَ خَادِمُ النُّورِ يَتَلَمَّسُ نُدُوبَ اللهِ.

---

111- **وَصِيَّةٌ (كَيْفَ يَحْفَظُ الْعَمَى صَاحِبَهُ)**: كَتَبْتُ بِخَطٍّ خَافِتٍ: (يَا مَنْ تَقْرَأُ، إِنْ أَبْصَرْتَ مَا لَيْسَ لَكَ، فَانْظُرْ إِلَى التُّرَابِ، وَدَعِ الْحَقِيقَةَ تَمُرُّ أَمَامَكَ دُونَ أَنْ تَعْرِفَكَ)... وَإِنْ رَأَيْتَ أَكْثَرَ مِمَّا يَجِبُ أَنْ يَرَاهُ الْإِنْسَانُ، فَامْشِ إِلَى الْمَاءِ، وَاغْسِلْ عَيْنَكَ الْيُمْنَى بِالسُّكُوتِ، وَالْأُخْرَى بِالنِّسْيَانِ... وَلَا تُحَدِّقْ طَوِيلًا فِي الْمُسْتَقْبَلِ، فَقَدْ يَعُودُ إِلَيْكَ مَحْمُولًا عَلَى نَصْلٍ، وَلَا مُسْتَقْبَلَ يَرْحَمُ مَنْ كَشَفَهُ قَبْلَ أَوَانِهِ.

يَا مَنْ تَقْرَأُ هَذَا الْهَامِشَ، إِنْ كُنْتَ تُبْصِرُ الْآنَ، فَانْتَبِهْ: لَيْسَ كُلُّ ضَوْءٍ هِدَايَةً، وَلَيْسَ كُلُّ ظَلَامٍ عَمًى. وَإِنِ اخْتَلَطَ عَلَيْكَ الطَّرِيقُ، فَاتَّبِعْ أَثَرَ الْعُمْيَانِ، فَهُمْ وَحْدَهُمْ يَعْرِفُونَ الطَّرِيقَ الَّذِي لَا يُرَى.

وَكُنْتُ أَسْمَعُكَ تُرْشِدُ الْعَابِرِينَ إِلَى الطُّرُقِ الْمُؤَدِّيَةِ إِلَى الْقِيَامَةِ، وَأَسْمَعُ الشَّرَّ وَرَائِحَتَهُ النَّتِنَةَ، وَأَسْمَعُ هَبَّةً مِنَ الطَّلَقَاتِ تَغُوصُ فِي جَسَدِكَ غَوْصَ إِوَزَّةٍ بَخِيلَةٍ.

وَأَسْمَعُ عُوَاءً حَاضِراً، وَحُضُورَ أَهَازِيجَ وَجُثَثٍ تُقِيمُ لِطَقْسِ الِاحْتِرَاقِ تَرَاتِيلَهَا الْأَخِيرَةَ.

وَكُنْتُ، فِي الطِّلَسْمِ الْعَابِقِ بِالْفَيْضِ الْغَامِضِ لِلْأَسْمَاءِ، أَفْتَحُ أَقْفَالَ الرُّوحِ، فَأَسْمَعُكَ وَأَرَاكَ، تَتَشَبَّثُ بِالْحَيَاةِ وَكُنُوزِهَا الضَّائِعَةِ، فِيمَا تُضِيءُ أَصَابِعُ الضَّوْءِ اللَّقِيطِ مَرْكَباً شَرِيداً مِنْ دَمِكَ وَأَنْوَارِكَ الْحَائِرَةِ.

أَيُّهَا الْعَابِرُ...

لَا خَارِطَةَ لِخِمَارِكَ الصَّرِيعِ إِلَّا خُضْرَةُ الْفَنَاءِ، وَلَا تَوَابِيتَ لِفَاجِعَتِكَ الَّتِي تَتْلُو أَسْمَاءَهَا عَلَى التُّرَابِ إِلَّا قَنَادِيلُ رُفِعَتْ لِلَّذِينَ يَتَرَجَّلُونَ مِنْ أَجْسَادِهِمْ.

أَيُّهَا الْعَابِرُ...

أَفْتَحُ (أَلْبُومَ الصُّوَرِ).

وَأَسْمَعُكَ...

أَسْمَعُ الطَّلَقَاتِ تُسَبِّحُ فِي لَحْمِكَ، وَخَنَاجِرَ ثَمْلَى تَهْزَأُ مِنْكَ بِابْتِسَامَةٍ يَتَعَذَّرُ إِخْمَادُهَا...

وَلَيْسَ فِيكَ اشْتِعَالٌ إِلَّا وَفِيهِ رَصَاصٌ يَضْحَكُ ضَحِكَةَ الْمَوْتِ...

وَأَرَى ذِئَاباً تُطْبِقُ أَنْيَابَهَا عَلَى جَسَدِكَ كَمَا تُطْبِقُ اللَّعْنَةُ عَلَى الْمَصِيرِ...

كَانَ الذِّئْبُ يَشُدُّ الذِّئْبَ، وَالْعُوَاءُ يُلَقِّنُ طُبُولَهُ مُوسِيقَى التَّشَظِّي، كَأَنَّ الْعَالَمَ يُعِيدُ مِيلَادَ نَفْسِهِ مِنْ شَظِيَّةِ نَارٍ تَائِهَةٍ فِي أُذُنِ الْمَلَاكِ.

فَأَرْتَجِفُ أَنَا، كَمَنْ رَأَى يَداً تُنْزِلُ الْقَمَرَ إِلَى الْمَذْبَحِ.

وَبِأَنِينٍ... أَنِينٍ، أَخَذْتَ تَزْحَفُ فِي إِيوَانِ الْجَبَلِ، وَتَمْلَأُ بِيَارَةَ جُوعِهِ بِحُقُولِ دَمِكَ.

وَلَعَلَّكَ قَبْلَ ذَلِكَ اسْتَدَرْتَ نَحْوَ الْمَلَاكِ الْأَعْمَى، وَنَسِيتَ ثِيَابَ الْبَرْقِ فَلَمْ تَصِرْ بَرْقاً، وَنَسِيتَ مِيَاهَ الْهَرَبِ فَلَمْ تَصِرْ غَيْماً.

ثُمَّ تَوَقَّفْتَ...

تَوَقَّفَتْ سُحُبٌ فَوْقَ خُوذَةٍ تَتَدَحْرَجُ بَيْنَ أَقْدَامِ قَاتِلِهَا.

وَتَوَقَّفَتِ الْأَرْضُ مِثْلَكَ.

وَتَوَقَّفَتْ سَمَاءٌ أَرْهَقَهَا النَّزِيفُ لِتُعْلِنَ قِيَامَةً صَغِيرَةً.

وَتَوَقَّفَتْ كَائِنَاتٌ.

وَتَوَقَّفَتْ بَرَاعِمُ.

وَتَوَقَّفَتْ رُؤْيَا لَا يَشْهَدُهَا إِلَّا قَلْبٌ يَصِلُ الصَّمْتَ بِالنَّجْوَى.

وَتَوَقَّفَتْ وَصِيفَاتٌ يَرْفَعْنَ نَعْشَ السُّكُونِ فَوْقَ أَكْتَافِ الذُّعْرِ.

وَتَوَقَّفَتْ رَوَائِحُ وَكَلِمَاتٌ أَصْبَحَتْ سَوْدَاءَ كَالْفَحْمِ.
وَتَوَقَّفَتِ الْكَامِيرَا عَنْ تَوْثِيقِ وَجْهِ الْخَرَابِ...
أَمَّا الْقَتْلُ الْحَاضِرُ بِأَهَازِيجِهِ...
فَلَمْ يَتَوَقَّفْ.

أَنْتُمْ شُهُودِي: يَقُولُ الْعُوَاءُ
أَيُّهَا الْعَابِرُ...
أَيُّهَا الْعَابِرُ الَّذِي يَمْشِي وَالذِّئَابُ تَمْشِي فِي مِشْيَتِهِ، أَيُّهَا الْعَابِرُ الَّذِي يَتَنَفَّسُ فَتَتَنَفَّسُ الذِّئَابُ مِنْ صَدْرِهِ.
أَيُّهَا الْعَابِرُ...
الذِّئَابُ لَيْسَتْ حَوْلَكَ فَقَطْ، الذِّئَابُ طَقْسٌ، وَالْأَنْيَابُ مَزَامِيرُ حَجَرٍ.
أَيُّهَا الْعَابِرُ...
كُلُّ ذِئْبٍ هُوَ جُوعُ الْعَالَمِ حِينَ يَتَجَسَّدُ، وَكُلُّ نَابٍ هُوَ بَابٌ صَغِيرٌ لِلْمَوْتِ.
أَيُّهَا الْعَابِرُ...
أَسْمَعُ الْعُوَاءَ كَأَنَّهُ صَلَاةٌ مَكْسُورَةٌ، كَأَنَّهُ نَشِيدُ الْجُنُودِ فِي لَيْلِ الْمَصِيدَةِ.
أَفْتَحُ (أَلْبُومَ الصُّوَرِ)... فَتَدْخُلُ الذِّئَابُ.
أَغْلِقُ (أَلْبُومَ الصُّوَرِ)... فَتَبْقَى الذِّئَابُ.
أَيُّهَا الْعَابِرُ... أَيُّهَا الْعَابِرُ...
لَا نَجَاةَ مِنَ الذِّئَابِ إِلَّا بِأَنْ تَصِيرَ أَنْتَ آخِرَ عُوَاءٍ.

أَنْتُمْ شُهُودِي: يَقُولُ الدَّمُ
أَيُّهَا الْعَابِرُ...
أَيُّهَا الْعَابِرُ الَّذِي نَزَفَ فَأَضَاءَ.
لَيْسَ الدَّمُ دَماً، الدَّمُ بُرْتُقَالٌ سَمَاوِيٌّ، ثَمَرَةٌ انْفَجَرَتْ فِي فَمِ الْعَتَمَةِ.
أَيُّهَا الْعَابِرُ...
كُلُّ قَطْرَةٍ شَمْعَةٌ شَارِدَةٌ، وَكُلُّ قَطْرَةٍ مَرْكَبٌ صَغِيرٌ مِنْ نَارٍ.
أَرَاكَ...
تَنْثُرُ دَمَكَ كَأَنَّكَ تَنْثُرُ الْأَسْرَارَ عَلَى أَبْوَابِ الْغِيَابِ.
أَيُّهَا الْعَابِرُ...

دَمُكَ لَيْسَ فَنَاءً، دَمُكَ عُبُورٌ، دَمُكَ صَلَاةٌ حَمْرَاءُ تَتَعَلَّمُ كَيْفَ تَصِيرُ نُوراً.
أَفْتَحُ (أَلْبُومَ الصُّوَرِ)... فَتَدْخُلُ رَائِحَةُ الْبُرْتُقَالِ.
أَغْلِقُ (أَلْبُومَ الصُّوَرِ)... فَتَبْقَى الرَّائِحَةُ فِي الْقَلْبِ.
أَيُّهَا الْعَابِرُ... أَيُّهَا الْعَابِرُ...
أَنْتَ لَا تَنْزِفُ لِتَسْقُطَ، إِنَّمَا تَنْزِفُ لِتُرَتِّلَ.

أَنْتُمْ شُهُودِي: يَقُولُ الْمَوْتُ
أَيُّهَا الْعَابِرُ...
أَيُّهَا الْعَابِرُ الَّذِي وَصَلَ إِلَى بَابِ السَّرْدِ...
هَذَا لَيْسَ بَاباً مِنْ خَشَبٍ، هَذَا بَابٌ مِنْ صَمْتٍ.
أَيُّهَا الْعَابِرُ...
كُلُّ أَبْوَابِ الدُّنْيَا كَانَتْ تَدْرِيباً، وَكُلُّ الْمَفَاتِيحِ كَانَتْ وَهْماً.
الْبَابُ الْأَخِيرُ لَا يُفْتَحُ بِالْيَدِ؛ الْبَابُ الْأَخِيرُ يُفْتَحُ حِينَ تَتَخَلَّى عَنْ خَوْفِكَ مِنَ الْعُبُورِ.
أَيُّهَا الْعَابِرُ...
اقْتَرِبْ.
هُنَا تَتَوَقَّفُ الذِّئَابُ.
هُنَا يَصْمُتُ الرَّصَاصُ.
هُنَا يَنْحَنِي الزَّمَنُ كَأَنَّهُ شَيْخٌ فِي حَضْرَةِ النِّهَايَةِ.
أَيُّهَا الْعَابِرُ...
افْتَحِ الْبَابَ الْأَخِيرَ.
خَلْفَهُ مَوْتٌ، وَطَقْسٌ مُكْتَمِلٌ، وَإِنْشَادٌ يَبْدَأُ حِينَ تَنْتَهِي الْكَلِمَاتُ.
أَيُّهَا الْعَابِرُ... أَيُّهَا الْعَابِرُ...
هُنَا يَنْغَلِقُ الْبَابُ.
وَهُنَا...
تَبْدَأُ أَنْتَ.
وَيَبْدَأُ الْعُبُورُ.

# هَوَامِشُ

## (مَنْحُولَةٌ عَنْ رُؤْيَا النَّدِيمِ، وَعَنْ مُدَوَّنَةِ إِيكار الضَّائِعَةِ بَيْنَ الْمَخَافِرِ)

**1- فِي بَدْءِ الْهَمْسِ:** فِي الْبَدْءِ لَمْ تَكُنِ الْحِكَايَةُ حِكَايَةً، وَلَا الطَّرِيقُ طَرِيقًا، كَانَ نَفَسٌ يَتِيمٌ يَبْحَثُ عَنْ فَمٍ يَلِيقُ بِهِ. وَكَانَتِ الظُّلْمَةُ شَفِيفَةً كَجَنَاحِ مَلَاكٍ مَطْعُونٍ، وَكَانَتِ الْأَرْوَاحُ الطِّفْلَةُ تَهِيمُ فَوْقَ الثَّلْجِ مِثْلَ نُدُوبٍ نَسِيَهَا الْخَالِقُ عَلَى أَطْرَافِ الْأَكْوَانِ. وَقَالَ الرَّائِي: (كُلُّ كَلِمَةٍ تُكْتَبُ فَوْقَ جُرْحٍ تَصِيرُ سِفْرًا، وَكُلُّ جُرْحٍ لَا يُكْتَبُ عَلَيْهِ يَصِيرُ حَدًّا، وَمَنْ عَبَرَ الْحَدَّ بِغَيْرِ سِفْرٍ سَقَطَ فِي نَوْمٍ أَبَدِيٍّ لَا يُحْسِنُ أَنْ يَحْلُمَ).

**2- فِي تَعَالِيمِ الرِّيحِ الَّتِي تُرَبِّي الْأَرْوَاحَ:** يَا رِيحُ، يَا مُرْضِعَةَ الْمَفْقُودِينَ، يَا الَّتِي تَفْرُشُ صَدْرَهَا الْمَالِحَ لِمَنْ يَنْهَارُ فِي الطَّرِيقِ، عَلِّمِي السَّالِكَ أَلَّا يَطْلُبَ سَلَامًا، فَالسَّلَامُ فِي الْبَرِّيَّةِ مَصِيدَةٌ، وَفِي الْحُدُودِ سُخْرِيَةٌ، وَفِي الْقُلُوبِ خِيَانَةٌ تُشْرِقُ كَالذَّهَبِ عَلَى مَعَاوِلِ الْأَنْبِيَاءِ. وَقَالَ الْمَلَاكُ ذُو الْجَنَاحِ الْمَحْرُوقِ: (إِنَّ الَّذِي يَطْلُبُ الْهُدُوءَ عِنْدَ الْعُبُورِ يُشْبِهُ طِفْلًا يَسْأَلُ الْحَيَّةَ عَنِ الرَّضَاعَةِ).

**3- فِي سِرِّ النَّظَرِ إِلَى الرَّاحِلِ:** مَنْ نَظَرَ إِلَى الرَّاحِلِ وَلَمْ يَهْتَزَّ، فَقَدْ مَاتَ قَلْبُهُ قَبْلَ جَسَدِهِ. وَمَنْ رَأَى ضَاحِكًا يَسْقُطُ تَحْتَ الثَّلْجِ وَلَمْ تُصَفِّرْ رُوحُهُ، فَهُوَ حَجَرٌ مِنْ أَحْجَارِ السُّكُوتِ... يَا أَيُّهَا الَّذِي حَمَلْتَ إِيكارَ عَلَى كَتِفَيْكَ كَمَا تُحْمَلُ أَمَانَةٌ تَنْزِفُ، تَذَكَّرْ: لَيْسَ الرَّاحِلُ هُوَ الَّذِي سَقَطَ،... هُوَ دَخَلَ فِي الضَّوْءِ، وَأَنْتَ بَقِيتَ تَجُرُّ ظِلَّهُ الْمَيِّتَ عَلَى الْحُدُودِ، مِثْلَ مَرْكَبٍ يَتِيمٍ بِلَا مَاءٍ.

**4- فِي جُغْرَافِيَا الْخِيَانَةِ الْمُقَدَّسَةِ:** اعْلَمُوا أَيُّهَا السَّالِكُونَ... أَنَّ الْخِيَانَةَ لَيْسَتْ رَذِيلَةً... لِلْخِيَانَةِ بَابٌ إِلَى الْمُكَاشَفَةِ. فَكُلُّ خَائِنٍ نَبِيٌّ لَمْ يَكْتَمِلْ، وَكُلُّ مَأْخُوذٍ فِي ذَنْبِهِ مَلَاكٌ تُهَيِّئُ لَهُ الْأَرْضُ هَيْئَةً جَدِيدَةً... وَالَّذِي يَحْتَسِي الْخِيَانَةَ كُلَّ صَبَاحٍ لَيْسَ سَاقِطًا.. سَاقِيًا لِلْأَلَمِ، رَجَاؤُهُ أَنْ يَنْبُتَ فِي صَدْرِهِ صَدْعٌ يَتَسَلَّلُ مِنْهُ اللَّهُ.

**5- فِي الطُّرُقِ الَّتِي تَنْغَلِقُ مِنْ طَرَفٍ وَاحِدٍ:** يَا أَيُّهَا الْغَرِيبُ، اعْلَمْ أَنَّ الطَّرِيقَ لَا تَفْتَحُ أَبْوَابَهَا لِأَحَدٍ... تَفْتَحُ بَابًا وَاحِدًا، وَتُغْلِقُ الْبَقِيَّةَ بِالْحِجَارَةِ وَالنَّدَمِ. وَالَّذِي يَرَى الطَّرِيقَ مُمْتَدَّةً كَآيَةٍ لَا

يَعْرِفُ أَنَّهَا كَانَتْ، (فِي الْبَدْءِ)، خَطَأً فِي الرِّيحِ... وَالَّذِي يَتَّبِعُ ظِلَالَهُ يَبِيعُ حَيَاتَهُ مَرَّتَيْنِ: مَرَّةً عِنْدَ أَوَّلِ جُنْدِيٍّ، وَمَرَّةً عِنْدَ أَوَّلِ ثَلْجٍ، وَمَرَّةً ثَالِثَةً... حِينَ يَعُودُ اسْمُهُ بِلَا وَجْهٍ.

**6- فِي أَسْرَارِ الْمُهَرِّبِينَ:** احْذَرُوا الْمُهَرِّبِينَ، يَا سَالِكِي الْعَتَمَةِ، فَإِنَّهُمْ ثَلَاثَةُ أَصْنَافٍ:

(أ) – مُهَرِّبٌ يَحْمِلُ قَلْبَ ذِئْبٍ، يَأْخُذُكَ حَتَّى مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ، ثُمَّ يَتْرُكُكَ تَحْرُسُ مَوْتَكَ بِيَدَيْكَ.

(ب) – مُهَرِّبٌ يَحْمِلُ قَلْبَ امْرَأَةٍ، يُدَفِّئُكَ بِالْوَهْمِ، ثُمَّ يَبِيعُكَ لِلثَّلْجِ مُقَابِلَ رَغِيفٍ.

(ج) – مُهَرِّبٌ بِلَا قَلْبٍ، وَهُوَ أَخْطَرُهُمْ، لِأَنَّهُ لَا يَعْرِفُ أَنَّهُ مُهَرِّبٌ، فَيَمْضِي بِكَ إِلَى حَيْثُ يَسْقُطُ هُوَ، وَتَلْحَقُهُ أَنْتَ مِثْلَ ظِلٍّ مَذْعُورٍ.

**7- فِي كَرَامَاتِ الْحُدُودِ:** يَا حُدُودُ، يَا خُبْزَ الْجُنُودِ وَجُرْحَ الْفُقَرَاءِ، يَا مِقْصَلَةَ النَّائِمِينَ فِي الطُّرُقِ، اعْلَمِي أَنَّ كُلَّ خُطْوَةٍ فَوْقَكِ تُعَادِلُ صَلَاةً لَا تُرْفَعُ، وَكُلَّ صَرْخَةٍ تُقَالُ قَبْلَ عُبُورِكِ تُعَادِلُ نَبِيًّا مَاتَ دُونَ أَنْ يَكْتُبَ سِفْرَهُ... وَالَّذِي لَا يَخَافُ الْحُدُودَ سَيَخَافُ نَفْسَهُ حِينَ يَعْبُرُ.

**8- فِي رِثَاءِ النَّدِيمِ:** يَا صَغِيرَ الْمَدَى، يَا عَرِيسَ الرِّيحِ، يَا الَّذِي ذَابَ صَوْتُهُ بَيْنَ أَنَامِلِ الثَّلْجِ، اسْمَعْ: إِنَّ الَّذِي مَاتَ فِي الطَّرِيقِ لَمْ يَمُتْ. الْجَسَدُ هُوَ الَّذِي نَزَلَ، أَمَّا أَنْتَ فَطِرْتَ. وَحَتَّى الْآنَ نَرَى جَنَاحَيْكَ يَلْمَعَانِ فَوْقَ هَاوِيَةِ الشَّمَالِ، مِثْلَ سَطْرٍ نَسِيَ الرُّهْبَانُ أَنْ يَخُطُّوهُ فِي كِتَابِ النُّبُوءَاتِ.

**9- فِي الْبُكَاءِ الَّذِي يُنْقِذُ النَّصَّ:** قَالَ الرَّائِي: (مَا مِنْ سِفْرٍ يُكْتَبُ بِمِدَادٍ فَقَطْ. كُلُّ سِفْرٍ مُقَدَّسٍ يَحْتَاجُ إِلَى دَمْعَةٍ تُرَشُّ فِي أَوَّلِ صَفْحَةٍ، وَإِلَّا بَقِيَ نَاقِصًا). يَا أَيُّهَا الَّذِي يَرْوِي الْمَذْبَحَةَ وَلَا يَجِدُ لُغَةً لِفَرْطِ الصَّمْتِ، ابْكِ. فَالْبُكَاءُ هُوَ اللِّسَانُ الْأَخِيرُ لِلنَّاجِينَ.

**10- فِي الصُّورَةِ الْمَكْسُورَةِ:** يَا صُورَةَ الْمَوْتِ، يَا بَهَاءَكِ حِينَ تُرْفَعِينَ مِثْلَ مُصَلًّى فَوْقَ كَتِفِ اللَّيْلِ، يَا رُوحَ إِيكَارَ الَّتِي لَمْ تَدْخُلْ عَالَمَ الْمَوْتَى بَعْدُ، اسْمَعِينِي: هَذَا السِّفْرُ لَنْ يَكْتَمِلَ. وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَكْتَمِلَ. فَالْكُتُبُ الَّتِي تَكْتَمِلُ هِيَ الْكُتُبُ الَّتِي مَاتَتْ. أَمَّا الْأَسْفَارُ النَّاقِصَةُ، فَهِيَ وَحْدَهَا الَّتِي تُرْسِلُ صَدَاهَا بَعْدَ انْتِهَاءِ الْعَالَمِ.

# إِصْحَاحُ

5

# الْغَيْمَةُ الْمُهَاجِرَةُ (التَّحَوُّلُ وَالظِّلَالُ الْمُهَاجِرَةُ)

**جَوْقَةُ الْأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:**

يَا أَيُّهَا الْعَابِرُونَ، خِفُّوا خُطَاكُمْ، فَالسَّمَاءُ تُنْصِتُ الآنَ لِغَيْمَةٍ تَتَهَيَّأُ لِلِانْفِصَالِ.
تَتَحَسَّسُ أَطْرَافَهَا كَمَا يَتَحَسَّسُ الْمَنْفِيُّ جَيْبَهُ بَحْثاً عَنْ آخِرِ صُورَةٍ لِلْمَكَانِ.

**(1) - ظُهُورُ الْغَيْمَةِ الْمُهَاجِرَةِ**

تَنْهَضُ الْغَيْمَةُ الْمُهَاجِرَةُ مِنْ قَاعِ الْأَزْرَقِ، مِثْلَ فِكْرَةٍ ضَلَّتْ طَرِيقَهَا إِلَى الْجُمْلَةِ، وَتَسْحَبُ ظِلَّهَا الْخَفِيفَ كَمَا يَسْحَبُ شَاعِرٌ حُرُوفَهُ مِنْ مَقْبَرَةِ الْكَلَامِ.

كَانَتْ بَيْضَاءَ، وَلَكِنَّ الرِّيَاحَ الَّتِي عَبَرَتْ فَوْقَ الْمُدُنِ الْخَائِبَةِ لَوَّحَتْهَا قَلِيلاً، فَأَصْبَحَتْ تُشْبِهُ طُفُولَةً تَكَسَّرَتْ عِنْدَ حَافَّةِ الْبَحْرِ.

تَقُولُ:

- لَسْتُ مَاءً فَقَطْ، أَنَا ذَاكِرَةٌ تُعِيدُ تَرْتِيبَ نَفْسِهَا فِي الْهَوَاءِ، وَتَبْحَثُ عَنْ شَكْلٍ آخَرَ لِلنَّجَاةِ.

**(2) - مُخَاطَبَةُ إِيكار**

تَقْتَرِبُ مِنْ إِيكارَ، مِنْ رَكْضِهِ الْمُتَّجِهِ دَائِماً إِلَى أَبْوَابٍ لَا يَعْرِفُهَا، وَتَقُولُ:

- يَا ابْنَ الْأَرْضِ الثَّقِيلَةِ، لَا تُسْرِفْ فِي الظَّنِّ أَنَّ الْجَسَدَ طَرِيقُكَ الْوَحِيدُ. إِنَّ السَّمَاءَ أَيْضاً تَتَدَرَّبُ عَلَى الْخُطْوَةِ، وَالتَّحَوُّلُ جَنَاحٌ لَا يَرَى نَفْسَهُ.

لَقَدْ رَأَيْتُكَ حِينَ حَاوَلْتَ أَنْ تَخْلَعَ جِلْدَكَ كَمَا يُخْلَعُ ثَوْبٌ ضَاقَ عَلَى رِئَتَيْكَ، وَرَأَيْتُ الْخَوْفَ يَرْكُضُ مَعَكَ كَمَا يَرْكُضُ ظِلٌّ مُنْهَكٌ خَلْفَ ضَوْءٍ يُهَاجِرُ.

### (3) - كُورَالُ الْغَيْمَةِ الْمُهَاجِرَةِ

نَحْنُ الَّذِينَ لَا مَكَانَ لَنَا.
نَحْمِلُ الْمُدُنَ فِي ثَنَايَا بُخَارٍ يَعْلُو وَيَهْبِطُ دُونَ أَنْ يَمَسَّ الْأَرْضَ.
نَحْنُ شَكْلُ الْحُرِّيَّةِ حِينَ تُجَرَّدُ مِنَ الْوَزْنِ.

### (4) - الْغَيْمَةُ الْمُهَاجِرَةُ وَالْمَلَاكُ الْأَعْمَى

وَإِذْ يَمُرُّ الْمَلَاكُ الْأَعْمَى تَحْتَهَا، يَتَوَقَّفُ قَلِيلاً، كَأَنَّهُ يَسْمَعُ اهْتِزَازاً خَفِيّاً فِي النُّورِ.
فَتَلْمَسُهُ الْغَيْمَةُ الْمُهَاجِرَةُ بِهُدُوءٍ وَتَقُولُ لَهُ:
- يَا أَيُّهَا الْمُغْلَقُ عَلَى أَسْرَارٍ كَثِيرَةٍ، لَا تُحْزِنْكَ الْعَتَمَةُ، فَالظَّلَامُ أَيْضاً طَرِيقٌ، وَقَدْ يَمْشِي فِيهِ مَنْ لَا يَحْتَاجُ إِلَّا إِلَى حَدْسِ قَلْبٍ سَاذَجٍ.
يَبْتَسِمُ الْمَلَاكُ، فَلَا يَرَى شَيْئاً، غَيْرَ أَنَّ الْغَيْمَةَ الْمُهَاجِرَةَ تَرَى ابْتِسَامَتَهُ تَتَّسِعُ كَبَوَّابَةٍ تُفْتَحُ عَلَى نَهْرٍ مَجْهُولٍ.

### (5) - دَرْسُ الْمَنْفَى

تُعَلِّمُ الْغَيْمَةُ الْمُهَاجِرَةُ إِيكارَ:
أَنَّ الْمَنْفَى لَيْسَ مَكَاناً يُغَادَرُ، وَإِنَّمَا هُوَ هَيْئَةٌ يَتَّخِذُهَا الْكَائِنُ حِينَ يَضِيقُ عَلَيْهِ الْمَعْنَى.
وَأَنَّ التَّحَوُّلَ لَيْسَ خِيَانَةً لِلْأَصْلِ، وَإِنَّمَا هُوَ إِخْلَاصٌ لِطَرِيقٍ يَسْأَلُ عَنَّا مُنْذُ وِلَادَتِنَا.
وَأَنَّ الْهَرَبَ لَيْسَ انْكِسَاراً، وَإِنَّمَا هُوَ حِيلَةٌ صَغِيرَةٌ لِتَمْدِيدِ الْوَقْتِ كَيْ نَلْتَقِطَ أَنْفَاسَنَا قَبْلَ الصَّفْعَةِ التَّالِيَةِ...
وَتَقُولُ:
- يَا إِيكارُ، إِنْ نَجَوْتَ مِنَ الْأَرْضِ فَلَنْ تَنْجُوَ مِنْ ذَاكِرَتِكَ، فَالْأَجْنِحَةُ الَّتِي تَصْنَعُهَا مِنْ رَكْضِكَ سَتُثْقِلُهَا الْأَمَاكِنُ الَّتِي أَحْبَبْتَهَا، كَمَا يُثْقِلُ الْمَطَرُ كَتِفَيَّ.

**(6) - الْغَيْمَةُ الْمُهَاجِرَةُ وَظِلُّ الْأَبِ**

تَهْبِطُ قَلِيلاً، كَأَنَّهَا تَتَذَكَّرُ ظِلّاً مَا.

وَتَقُولُ بِصَوْتٍ يَتَقَطَّعُ كَخَيْطٍ مَشْدُودٍ:

- قَدْ مَرَّ بِي رَجُلٌ يُشْبِهُكَ، كَانَ يَرْفَعُ رَأْسَهُ إِلَيَّ كَأَنَّنِي آخِرُ نَجَاةٍ فِي السَّمَاءِ، وَكَانَ يَحْمِلُ خَوْفاً صَامِتاً، يُعَتِّقُهُ كَمَا يُعَتَّقُ نَبِيذٌ قَدِيمٌ فِي صَدْرِهِ.

يَفْهَمُ إِيكارُ أَنَّ الْغَيْمَةَ الْمُهَاجِرَةَ كَانَتْ بَقَايَا أَثَرٍ مِنْ خُطُوَاتِ ظِلِّ الْأَبِ، حِينَ خَرَجَ ذَاتَ صَبَاحٍ وَلَمْ يَعُدْ مِنَ الْبَحْرِ.

**(7) - كورالُ الطِّفلِ الدَّاخِلِيِّ**

يا غَيْمَةً تَهْرُبُ مِنَّا كَما نَهْرُبُ مِنَ الحُدودِ، احْمِلِي أَسْرارَنا في بُخارِكِ، وَلا تَعُودِي يَوْمًا إِلَّا حِينَ يَتَّسِعُ هٰذا العالَمُ لأَحْلامٍ لا تُفَتَّشُ عِنْدَ المَخافِرِ. نَحْنُ الَّذِينَ نَمْشِي في اللّامَكانِ، نَتَعَلَّمُ مِنْكِ أَنْ نَكُونَ خَفِيفِينَ كَيْ لا يَسْمَعَنا أَحَدٌ.

٥

# النَّشِيدُ الخامِسُ

## (مَيامِرُ العائِدِينَ مِنْ شَفَقِ الأَرْواحِ)

يا إِلٰهَ المَراثِي، هَلْ تَنْظُرُ إِلَيْنا؟

يا إِشاراتِ القَرابِينِ المَنْسِيَّةِ، هَلْ تَقْرَئِينَ سُؤالَنا؟

يا نَبْرَةَ الاعْتِرافِ المُلْتَهِبَةِ، هَلْ عِنْدَكِ الجَوابُ؟

وَأَنْتَ يا شِراعَ العاشِقِ، الَّذِي اسْتَيْقَظَ نِصْفُهُ في التُّرابِ وَنِصْفُهُ في الشِّعْرِ، هَلَّا ثَبَّتَّ قَلْبَكَ عَلَى الصُّورَةِ؟ فَأَنْتَ رَقْصِي إِذا نَزَفْتُ عُمْرِي عَلَى إِيقاعِ النَّايِ الأَخِيرِ، وَأَنْتَ الجُرْحُ إِذا انْفَتَحْتُ عَلَى الغِيابِ مِثْلَ دَفْتَرٍ يُتْلَى فِي الهَزِيعِ الثَّالِث مِنَ الصَّلَواتِ.

عِنْدَ الحُدودِ بَدَأَ كُلُّ شَيْءٍ يَفْقِدُ اسْمَهُ. السُّلْطَةُ احْتِمالٌ. وَالهُوِيَّةُ إِجْراءٌ. وَالجَسَدُ وَثِيقَةٌ قابِلَةٌ لِلرَّفْضِ.

وَضَعْتُ الكامِيرا عَلَى صَدْرِي كَما يَضَعُ الباحِثُ فَرْضِيَّتَهُ الأَخِيرَةَ أَمامَ تَجْرِبَةٍ قَدْ تُفَنِّدُها. كُنْتُ أَرْتَجِفُ مِنَ الوُضُوحِ، لا خَوْفًا مِنْ رِجالِ المَخافِرِ...
أَنْصِتْ، يا أَمِيرَ الرُّؤْيا، فَقَدْ نَزَحَ كُلُّ شَيْءٍ مِنْ غُيُومِ الكَوابِيسِ إِلَى قِنْدِيلِ الخَيالِ، وَمَحا طَمْيُ النَّهْرِ ما يُثْقِلُ الضَّمِيرَ، حَتَّى أَدْرَكْتُ أَنَّ الخَلاصَ اسْمٌ مُسْتَعارٌ لِلَحْظَةٍ يَتَوَقَّفُ فِيها السُّؤالُ وَيَنْعَسُ السَّرْدُ، وَأَدْرَكْتُ أَنَّ مَنْ يَنْعَسْ فِي مُنْتَصَفِ التَّصْوِيرِ تَنْعَسْ مَعَهُ الكامِيرا...
وَأَنا نَعْسانُ كَكاهِنٍ أَنْهَكَتْهُ التَّراتِيلُ، فَكَيْفَ أُصَوِّرُ اخْتِفاءَ الضَّوْءِ السَّماوِيِّ؟ كَيْفَ أُصَوِّرُ ما يُسَمَّى (إِلٰهًا)، وَهُوَ اسْمٌ أُطْلِقَ عَلَى مَنْطِقَةِ العَجْزِ التَّفْسِيرِيِّ؟ حِينَ تَنْقُصُ المُعادَلاتُ يُسْتَدْعَى المُطْلَقُ.
كَيْفَ أُصَوِّرُ هٰذا الطَّيْفَ؟ وَالطَّيْفُ لا يُؤْمِنُ. الطَّيْفُ يَنْتَشِرُ.
كَيْفَ أُصَوِّرُ هٰذا الظِّلَّ، وَالظِّلُّ غِيابٌ... حُجُبٌ نِسْبِيَّةٌ...
أَرْفَعُ الكامِيرا الآنَ وَأَتَرَدَّدُ. خَوْفًا مِنَ الدِّقَّةِ... الدِّقَّةُ تُجَرِّدُ الأَشْياءَ مِنْ غُمُوضِها...
كَيْفَ أُصَوِّرُ النَّظْرَةَ اليائِسَةَ وَتَأَمُّلاتِها الحَزِينَةَ، وَأُطْلِقُ الِارْتِجالَ مِنْ قَبْضَةِ الكَوابِيسِ كَشُعاعٍ آدَمِيٍّ جَدَلَتْهُ الظُّلُماتُ؟

قُولِي لِي أَيَّتُهَا الكامِيرا المُتَّكِئَةُ عَلَى رِيحِ الرُّوحِ، يا مَنْ تَهُزُّ عَرْشَ الصَّمْتِ حِينَ تَمِيلُ، هَلْ هٰذَا كُلُّهُ نَسْجُ خَيالٍ، أَمْ أَنَّهُ الوَشْمُ الخَفِيُّ الَّذِي تَكْتُبُهُ الكائِناتُ حِينَ تُبْعَثُ ثانِيَةً فِي أَحْلامٍ غَرِيبَةٍ؟
وَأَنْتِ أَيَّتُهَا الأَحْداثُ المُحْتَشِدَةُ فِي رَأْسِي كَدَيْرٍ يَفِيضُ بِالرُّهْبانِ، كَيْفَ أُصَوِّرُ ما يَتَعَذَّرُ، وَأُمْسِكُ بِالرَّقِيقِ قَبْلَ أَنْ يَطِيرَ؟
وَأَنْتَ يا ضُحَى الأَرْواحِ المُعَلَّقَةِ بَيْنَ سَفْحٍ وَسِفْرٍ، قُلْتُ لَكَ: حِينَ انْدَفَعْتُ هارِبًا مِنْكَ، نَسِيتُ لِمَ تَهْرُبُ الغِزْلانُ فِي الرَّمادِيِّ، كَأَنَّ الرَّمادَ أَبٌ لَها، وَالظِّلالَ أَخَواتُها.
لٰكِنِّي حِينَ اخْتَبَأْتُ خَلْفَ كامِيرا شاحِبَةٍ، رَأَيْتُ المَكائِدَ تَهْطِلُ بَلُّورًا عَلَيْكَ، وَرَأَيْتُكَ تُمْسِكُ بِأَكْفانِكَ وَتَتَلَأْلَأُ تَحْتَ الرَّعْدِ، كَأَنَّكَ آخِرُ المُتَنَبِّئِينَ الَّذِينَ يَنْزِعُونَ اللَّيْلَ مِنْ جِلْدِهِ لِيَصْنَعُوا مِنْهُ سِتارَةَ مَزارٍ.
وَكانَ اللَّيْلُ بَخِيلًا، فَلَمْ يَتْرُكْ رَغِيفًا صَغِيرًا مِنَ الضَّوْءِ عَلَى بابِ العَتْمَةِ.
انْشَقَّتِ السَّماءُ، وَتَدَلَّى مِنْها شُعاعٌ أُرْجُوانِيٌّ انْسَكَبَ عَلَيْكَ كَما يَنْسَكِبُ الخَلاصُ عَلَى كَتِفِ شَهِيدٍ.

وَرَأَيْتُهُمْ يَلُفُّونَكَ بِمِعْطَفٍ مُثَقَّبٍ بِالرَّصاصِ، وَكانَ الظَّلامُ، وَكانَ الدُّخانُ، وَكانَتِ المَلائِكَةُ تُرَى وَلا تُرَى.

لا فِداءَ فِي الظَّواهِرِ. لا اعْتِرافَ فِي القَوانِينِ.

كانَ هُناكَ مُرُورٌ... وَتَفاعُلٌ... وَأَثَرٌ.

وَما عَدا ذٰلِكَ...

لُغَةٌ.

وَإِذا كانَ اللهُ اسْمًا لِلْجَهْلِ المُؤَقَّتِ، فَأَنا لا أَطْلُبُهُ.

أَطْلُبُ فَقَطْ أَنْ أَظَلَّ داخِلَ السُّؤالِ مِنْ دُونِ أَنْ أُسَمِّرَهُ عَلَى وَرَقٍ.

يا بَخُورَ الصَّلَواتِ، دَعْنِي أَتَنَشَّقُ بِطَلاقَةٍ هٰذا الفَيْضَ الهابِطَ مِنَ السَّماءِ.

وَأَنْتَ أَيُّهَا النَّشِيدُ، يا سَيْلَ الصَّوْتِ الَّذِي يَتَدَحْرَجُ فِي حَنْجَرَتِي مِثْلَ نُبُوءَةٍ تَبْحَثُ عَنْ مَخارِجِها، قُلْ لِي: لِمَ غَطَّى اللَّيْلُ تِلْكَ المَجْزَرَةَ؟

وَأَنا (رَغْمَ العَمَى) أُقْسِمُ أَنِّي رَأَيْتُ... رَأَيْتُ ذِراعَكَ، ذِراعَكَ السَّمْراءَ، تَنْهَضُ فَوْقَ الجَبَلِ كَجَناحِ مَلاكٍ، ثُمَّ تَخْتَفِي.

فَاسْتَدَرْتُ عَلَى عَقِبَيَّ أُفَتِّشُ عَنْكَ فِي أَقْنِعَةِ السَّوادِ وَفِي حُقُولِ الدُّخانِ.

شَهِدْتُكَ مُضَرَّجًا بِدَمِ البَراعِمِ، كَأَنَّكَ جُرْحٌ يَسْتَذْكِرُ مِيلادَهُ.

قُلْ لِي... قُلْ لِي يا نَشِيدُ، لِماذا لَمْ يَعْرِفِ الطَّيْرُ كَيْفَ انْسَلَّتْ حَبَّةُ قَمْحٍ واحِدَةٌ إِلَى قَلْبِي، فَأَنْبَتَتْ سُهُولًا وَسَنابِلَ؟

وَلِماذا، يا طَيْرُ، تَتْرُكُ السَّنابِلَ غافِيَةً فِي حُقُولِها وَلا تُهاجِرُ؟

وَتَرَكْتَنِي أَدَّعِي النِّسْيانَ، وَالفُرْصَةُ أَمامِي تَسْتَلْقِي فِي الشَّفَقِ المُجاوِرِ لِلْغُفْلِ، وَأَنا (إِلَى الآنَ) لا أَذْكُرُ السِّرَّ الَّذِي يَنْحَنِي عَلَى فَمِي، فَيَرْفَعُ الفَمُ كَأْسَ الكَلامِ إِلَيْهِ، وَعَلَى نَخْبِ جَلالَتِهِ تَقُومُ، صامِتَةً، الصَّلَواتُ وَالصُّوَرُ وَالكَلِماتُ الَّتِي لا اسْمَ لَها إِلَّا فِي دَفاتِرِ الأَرْواحِ.

الآنَ أَحْمِلُ هَشاشَتِي كَشَيْءٍ قابِلٍ لِلْكَسْرِ فِي كُلِّ مَرَّةٍ أَرْفَعُ فِيها الكامِيرا.

لا أَطْلُبُ خَلاصًا.

أَطْلُبُ أَنْ أَمُرَّ مِنْ دُونِ أَنْ أُثَبِّتَ.

أَنا لا أُكافِئُ، وَلا أُعاقِبُ.

أَنا أُكْمِلُ ما بَدَأَهُ النَّظَرُ.

كانَ الظَّلامُ يَضَعُ ذَقْنَهُ الماكِرَ عَلَى شُرْفَةِ الجَبَلِ، كَما يَفْعَلُ نُسَّاكُ اللَّيْلِ حِينَ يَخْتَبِرُونَ صَبْرَ الحِجارَةِ. وَكانَ القَمَرُ المُعَلَّقُ فِي بَهْوِهِ السَّماوِيِّ يَلْتَمِعُ كَحَقْلٍ مِنْ صَفائِحَ مَشْحُوذَةٍ تُضِيءُ قُبَّةً مِنَ الفَراغِ.

وَكُنْتُ أَرْفُو سَراوِيلَ الأَيَّامِ بِخَيْطٍ مِنْ خُرافاتِ الأَنْبِياءِ، وَأَطْوِي نَفْسِي عَلَى نَفْسِي كَما تُطْوَى رايَةٌ مُمَزَّقَةٌ فِي آخِرِ قُدَّاسٍ لِلْجُنُودِ المَفْقُودِينَ.

وَرَأَيْتُكَ... رَأَيْتُكَ تَعُودُ مِنْ مَوْتِكَ البَرْبَرِيِّ، كَما يَعُودُ أَمِيرٌ اقْتَلَعَتْهُ النِّيرانُ فَأَعادَتْهُ الأَرْواحُ عَلَى أَجْنِحَةٍ مِنْ نَرْجِسِ الغَيْبِ، باسِطًا جَناحَكَ الذَّهَبِيَّ فَوْقَ آثامِ النَّدَمِ وَأَشْباحِ الظَّلامِ الغابِرَةِ، مُشْرِقًا كَعَرائِشَ امْتَلَأَتْ بِمَلائِكَةٍ تَتَقَدَّمُ لِتَمْسَحَ عَلَى جَبِينِي البَرَكَةَ، وَتَضَعَ فِي يَدَيَّ قارُورَةً مِنْ مَراهِمِ النَّجاةِ.

وَرَأَيْتُ أَنَّنِي أَسْتَعْجِلُ التَّصْوِيرَ، وَأُطْلِقُ الأَلْعابَ العَجِيبَةَ لِلْخَيالِ لِتَرِفَّ فِي أَضْلُعِي كَأَعْلامٍ لِمَلَكُوتٍ لا يَعْتَرِفُ بِالمَوْتِ.

وَأُعِيدُ، بِيَدٍ شافِيَةٍ وَقُوَّةٍ رَحِيمَةٍ، القَرابِينَ إِلَى حالَتِها الأُولَى، مُلَوِّحًا لَكَ بِقُمْبازِي المُرَقَّعِ بِالضَّحِكِ القَدِيمِ، كَأَنَّنِي كَلْبُ صَيْدٍ...

وَرَكَضْتُ... رَكَضْتُ مِثْلَ طَرائِدَ تَسْتَنْشِقُ أَوْكارَها حِينَ يَتَعَقَّبُها أَسْيادٌ ذَوُو مَخالِبَ صامِتَةٍ.

وَتَوَقَّفْتُ وَتَحَيَّرْتُ لِأَصْنَعَ لَكَ مَكانًا رَحْبًا بَيْنَ اليَمامِ المُهاجِرِ فِي وَهَجِ أَضْلاعِي المُمتَدَّةِ إِلَى تُخُومٍ لا يَبْلُغُها الوَقْتُ، وَلا يَعْتَرِفُ بِها الأُفُقُ.

وَأَنْتَ تَتَقَدَّمُ بِمَشِيئَةِ السَّماءِ، بِطالِعِكَ، بِلَهِيبِكَ الَّذِي يُشْبِهُ إِشارَةَ النَّارِ المُتَأَلِّقَةِ، مُبَلَّلًا بِالنَّدَى، كَأَنَّ سَيْلًا مِنَ اليَنابِيعِ قَدْ عَزَلَكَ.

وَحِينَ أَفْرَطَتِ اليَنابِيعُ فِي العُزْلَةِ، اسْتَوْحَشَتْ شَهْوَةُ الماءِ.

كُنْتَ ضَوْءًا لَيْسَ لَهُ مِنَ السَّيْلِ إِلَّا انْحِدارُهُ، وَرَحِيلًا كَعُصْفُورٍ يَخْتَبِئُ مِنَ العاصِفَةِ، وَلا يَتْرُكُ أَثَرًا إِلَّا فِي رِئَةِ الغَيْمِ.

وَأَغْلَقْتُ جُفُونِي وَقُلْتُ لِنَفْسِي:

مَرْحَبًا أَيُّهَا اللَّهَبُ،

يا بَشِيرَ النَّهارِ،

ها هُوَ إِيكارُ قَدْ عادَ،

ها نَحْنُ نَبْدَأُ البَدْءَ،

ها هِيَ شُطْآنُ الحُدودِ تَفْتَحُ أَشْرِعَتَها لِنَرْحَلَ عَلَى صَهْوَةِ صارِيَتِها.

وَكَما تَصْرُخُ النُّسُورُ، دَوَّتْ صَيْحَةُ البَهْجَةِ عالِيَةً:

انْتَبِهْ أَيُّهَا الخَيالُ!
انْتَبِهْ أَيُّهَا الخَيالُ!
أَصِيحُ عالِيًا بِاللِّسانِ كَيْ يَنْهَضَ مِنْ فِراشِهِ، وَيُسْرِعَ بِإِطْلاقِ صَيْحاتِ الفَرَحِ، وَيَرْوِيَ قِصَّةً واضِحَةً عَنْ شاعِرٍ هارِبٍ يَقُودُهُ مَلاكٌ أَعْمَى، يُصَوِّرُهُما فُوتُوغْرافِيٌّ عَجُوزٌ، وَيُراقِبُهُمْ جُنْدِيٌّ جَرِيحٌ مِنْ مَرْصَدٍ حُدُودِيٍّ، وَيَكْتُبُ ظِلالَهُمْ ناسِخٌ سَكْرانُ عَلَى الصَّفْحَةِ العُلْيا مِنَ العالَمِ.

انْتَبِهْ أَيُّهَا الخَيالُ، انْتَبِهْ أَيُّهَا الخَيالُ!
ارْتَفَعَ الصَّوْتُ فِي حَلْقِي، وَاصْطَدَمَ العِيدُ بِالمِقْصَلَةِ، لِتَنْهَضَ التَّقْدِماتُ المُحْرَقَةُ فِي السِّرِّ، وَلِتَشْتَعِلَ نِيرانُ القَرابِينِ فِي أَسِرَّةِ المَنْفَى كَسُقُوفِ الأَضْرِحَةِ القَدِيمَةِ.
فَلِماذا؟ لِماذا أَنْزِعُ عَنْ وَجْهِي الأَسْئِلَةَ وَأُلْصِقُ فَمِي بِحُلْمَةٍ لَمْ تُبْقِ فِي لِفافَتِها إِلَّا جُرْعَةً قاتِلَةً؟
لِماذا كامِيرا ضَخْمَةٌ تَقِفُ فَوْقَ لِسانِي، وَأَطْلُبُ مِنَ الحَيْرَةِ أَنْ تَتَكَهَّنَ بِالأَمَلِ؟
أَرْفَعُ اللَّهَبَ عالِيًا، أَيُّهَا الخَيالُ، قَبْلَ أَنْ تَفْقِدَ الكامِيرا ذاكِرَتَها.
أَنا المُثْقَلُ بِكُلِّ ما لَمْ أُصَوِّرْهُ بَعْدُ.
سَأَضَعُ الكامِيرا عَلَى صَدْرِي كَمَنْ يَضَعُ كِتابًا مُقَدَّسًا لا يُؤْمِنُ بِهِ، لٰكِنَّهُ يَخْشَى إِهانَتَهُ.
وَأَقُولُ فِي سِرِّي:
(لِتَكُنْ هٰذِهِ آخِرَ صُورَةٍ).
وَلَمْ أَلْتَقِطْها.
لِهٰذا أَشْرَبُ صُوَرَ الضَّحايا فِي كَأْسِ الشَّاهِدَةِ، وَأُزَيِّنُ بِالجَوْهَرِ رَأْسَ الكَلامِ، وَأُحْرِقُ الحُرُوفَ لِطَرْدِ هُمُومِ الحُزْنِ الرَّابِضَةِ فِي قَلْبِي، وَأَخُطُّ بِقَلَمِي خُطُوطًا لَمْ تُولَدْ بَعْدُ، تَنْفُثُ فِي اليَقِينِ قُوَّةَ الأَغانِي.
أَرْفَعُ اللَّهَبَ عالِيًا، أَيُّهَا الخَيالُ.
أَرْفَعُ الكامِيرا عالِيًا، أَيُّهَا الفُوتُوغْرافِيُّ.
سَأَكُونُ حاضِرًا.
دائِمًا أَكُونُ حاضِرًا.
لٰكِنَّنِي لا أَتَدَخَّلُ.
أَنْتَ تَعْبُرُ، وَأَنا أُراقِبُ كَيْفَ تُبَدِّلُ أَسْماءَ الخَطِيئَةِ، وَكَيْفَ تَتَطابَقُ العَلاماتُ المُتَنَبَّأُ بِها بِالشَّرِّ.

كَيْفَ أُدْرِكُ أَنَّ الفِداءَ لَيْسَ فِي الصُّورَةِ... إِنَّما فِي الِامْتِناعِ عَنْها... أَنْ أَتْرُكَ العالَمَ يَنْجُو مِنْ عَدَسَتِي مَرَّةً واحِدَةً.
أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ، أَيُّها اللَّهَبُ، لا تُحْرِقْ سَتائِرَ الحِكايَةِ بِنارِكَ، وَلا تُهَيِّجْها بِدُخانِكَ، وَلا تَخْلَعْ مائِدَةَ السَّرْدِ مِنْ مَوْضِعِها، فَلا تَعُودَ الحِكْمَةُ جالِسَةً فَوْقَ مَقاعِدِها المَرْهُوبَةِ، وَلا يَعُودَ المَوْتُ يَنْقُشُ صُورَتَهُ إِلَّا بِما تَقُولُهُ كَلِماتٌ تَنْحَنِي أَمامَ تَقَلُّباتِ الحَظِّ المُضادَّةِ.
أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ، أَيُّها اللَّهَبُ، أَنا مَنْ أَوْقَدَ العاطِفَةَ وَأَثارَ حَمِيَّتَها لِتَمْنَحَ لَقَبَ النَّصْرِ لِصَيْحَةِ اللِّسانِ، حَيْثُ مَوْجاتُ النَّحِيبِ تَنْفُخُ بَالوناتِها لِتُزَيِّفَ مَوْتَ (إِيكارَ).
سَأُطْلِقُ الرَّصاصَ عَلَى الكامِيرا، لِيَبْقَى العَطَشُ يَلْتَهِبُ فِي عَيْنِ العَدَسَةِ.
وَسَأَظَلُّ أَلْتَهِبُ، أَنا أَيْضًا، كَمَهاراجا واقِفٍ عَلَى أَعْلَى قِمَمِ الهِيمالايا، يَعْزِفُ بِأَبْواقٍ فِضِّيَّةٍ لِلْغُيُومِ الَّتِي فَقَدَتْ ذاكِرَتَها.
أَنا الِامْتِحانُ الَّذِي لا يَنْجَحُ فِيهِ أَحَدٌ وَلا يَرْسُبُ.
أَنا العَرَّافُ الَّذِي يَضْرِبُ الأَرْضَ بِعُكَّازِهِ وَلا يَسْتَطِيعُ حَبْسَ دُمُوعِهِ.
لِماذا... لِماذا... لا أَدْفَعُ بِصُوَرِي المُنْثُورَةِ كَفَضاءٍ نَحْوَ أَسْئِلَةٍ كَالحَنْظَلِ؟
لِماذا لا أَنْثُرُ السِّرَّ أَسْئِلَةً، أَسْئِلَةً، فِي هٰذِهِ الصَّفَحاتِ الَّتِي خَتَمَتْها المَجْزَرَةُ بِدَمٍ مَلَكِيٍّ؟ لِأَفْضَحَ الحُبْكَةَ كَما تُفْضَحُ الذَّبِيحَةُ.
الآنَ أَعِيشُ بَعِيدًا عَنِ الحُدُودِ، لٰكِنَّها تَعِيشُ فِيَّ.
كُلُّ إِطارٍ فارِغٍ اعْتِرافٌ.
وَكُلُّ صُورَةٍ مَأْخُوذَةٍ تَأْجِيلٌ جَدِيدٌ لِلْغُفْرانِ.
لا أَطْلُبُ الخَلاصَ.
أَطْلُبُ فَقَطْ أَنْ يَمُرَّ الضَّوْءُ دُونَ أَنْ يَتَوَقَّفَ عِنْدِي.
وَمِثْلَ دالِيَةٍ مَغْسُولَةٍ بِالدَّمِ انْحَدَرْتَ مِنْ جَبَلِ الرُّؤْيا، كَأَنَّكَ تَهْبِطُ سُلَّمًا لا يَنْتَهِي، أَوْ كَأَنَّ نارًا أَبَدِيَّةً تَرْفَعُكَ فِي نَفَسِها مِنْ طَبَقَةٍ إِلَى طَبَقَةٍ حَتَّى تُسَلِّمَكَ إِلَى هَيْكَلٍ يُقامُ فِيهِ القُدَّاسُ الإِلٰهِيُّ.
مِثْلَ خَرابٍ أَطْلَقَ رُسُلَهُ الحَجَرِيَّةَ،
مِثْلَ حَطَّابٍ خَبَّأَ غابَةَ العَذابِ فِي دِمائِهِ ثُمَّ امْتَطَى أَشْجارَها،
مِثْلَ صَباحٍ مُبْتَلٍّ أُعْفِيَ مِنْ طُقُوسِ الشَّمْسِ فَصارَ نَهارًا نَحِيفًا يَمْشِي عَلَى عُكَّازِ الضَّوْءِ،
وَكَبَوَّابَةٍ مُتَلَأْلِئَةٍ تَنْقُلُ المَلاكَ إِلَى مَشْهَدٍ مُتَخَيَّلٍ،

جِئْتَ يا إِيكارُ...
**(وَأَنَا أَشْهَدُ... وَأَنَا أَعْبُرُ... وَأَنَا أَحْتَرِقُ).**

جِئْتَ كَقَدَرٍ يَتَقَدَّمُ فِي هَيْئَةِ صُعُودٍ، وَأَنَا... كُنْتُ فِي الأَسْفَلِ، أَتَهَيَّأُ لِلطَّقْسِ، أَغْسِلُ قَلْبِي بِالرَّمادِ، وَأَشُدُّ عَلَى جُرْحِي كَأَنَّنِي عَرَّافٌ يُعِدُّ المَذْبَحَ لِاسْتِقْبالِ النُّبُوءَةِ.
جِئْتَ كَأَنَّكَ تَخْرُجُ مِنْ رِئَةِ الجَبَلِ اعْتِرافًا ثَقِيلًا... وَكُنْتُ أَرْفَعُ يَدِي لِأُبارِكَ احْتِراقَ المَصِيرِ.

**(وَأَنَا أُسائِلُ... وَأَنَا أُصَلِّي... وَأَنَا أُقِيمُ مَحْكَمَةَ الرَّمادِ).** [112]
جِئْتَ كَطائِفَةٍ مِنْ تارِكِي الدُّنْيا وَالسَّائِحِينَ فِي قَلْبِ البَرِّيَّةِ، يُقَلِّدُونَ الآلِهَةَ وَيَعِيشُونَ النَّعِيمَ السَّماوِيَّ، وَلَهُمْ عِلْمٌ بِالأَحْوالِ وَالمَقاماتِ، كَأَنَّهُمْ اسْتِثْناءاتٌ نادِرَةٌ أَوْ حَياةٌ خالِيَةٌ مِنَ العُيُوبِ...

---

[112]- هامِشُ الرَّمادِ المِشْتَعِلِ: هامِشٌ غَريبٌ ظَهَرَ دُونَ مَعْرِفَةِ مَنْ كَتَبَهُ (كَأَنَّ ناسِخًا آخَرَ عَلَّقَ أَوْ حَرَّفَ بَعْضَ الأَسْطُرِ)، أَوْ أَنَّهُ إِعادَةُ كِتابَةٍ لِهامِشٍ آخَرَ. يَقْتَرِبُ مِنَ الصَّفْحَةِ البَيْضاءِ، حَيْثُ لا يَبْقى إِلّا آثارٌ لُغَوِيَّةٌ نادِرَةٌ، لا تَقولُ شَيْئًا، لٰكِنَّها تُشيرُ إِلى اسْتِحالَةِ القَوْلِ... الفَراغُ هُنا جُزْءٌ مِنَ الهامِشِ، لا خَلْفِيَّةَ لَهُ.

(تَأْجيلٌ...

أَثَرٌ...

لا...

...

بَقاءٌ...

( )

انْمِحاءٌ...

...

لا نِهايَةَ...).

وَأَنَا (أَلْتَقِطُ صُورَةً لَهُمْ تَعُوزُها الكَثِيرُ مِنَ التَّفاصِيلِ)، وَأَقْرَأُ هٰذا النُّحُولَ كَآيَةٍ، وَأَسْمَعُ فِي انْكِسارِهِ تَراتِيلَ الفَقْدِ.
**(وَأَنَا أُرَتِّلُ... وَأَنَا أُقَدِّمُ... وَأَنَا أُوَقِّعُ عَلَى الجَمْرِ).**

كُنْتَ دائِمًا تَجِيءُ... كَأَنَّ الوُجُودَ كُلَّهُ يَتْبَعُ خُطاكَ، وَكَأَنَّ العالَمَ لا يَكْتَمِلُ إِلَّا بِجُرْحِ حُضُورِكَ...
كُنْتُ أَمْشِي خَلْفَكَ كَمَنْ يَمْشِي خَلْفَ جَنازَتِهِ الخاصَّةِ، حامِلًا رُوحِي عَلَى كَتِفِي كَقُرْبانٍ...
لَقَدْ هَرَبْتُ مِنْ أَجْلِكَ حَجَرًا وَخَيالًا، لٰكِنَّكَ بَقِيتَ حَقْلَ دَبابِيسَ، يُوخِزُ قَلْبِي فِي كُلِّ رُؤْيا، كَأَنَّكَ الِامْتِحانُ الَّذِي لا يَنامُ.
وَأَنَا... لَمْ أَكُنْ أُشْفَى...
كُنْتُ أَتَدَرَّبُ عَلَى الأَلَمِ كَما يَتَدَرَّبُ الكَهَنَةُ عَلَى الصَّمْتِ...
وَها أَنْتَ تَعُودُ الآنَ...
وَأَنَا... أَقِفُ عَلَى العَتَبَةِ، بَيْنَ نارَيْنِ: نارِ السُّؤالِ، وَنارِ الجَوابِ الَّذِي لا يَأْتِي...
لِمَ تَجِيءُ؟
لِمَ تُحاصِرُ تَوابِيتُكَ يَخْتَ دَمِي؟
لِمَ يَضِيقُ المَدَى كَأَنَّهُ يُرِيدُ اغْتِيالِي، وَتَقِفُ الطَّلَقاتُ بَيْنَ آخِرِ الجَبَلِ وَأَوَّلِ القَلْبِ؟
لِمَ تَمْشِي بِحِدادِكَ عَلَى خَيْطِ الدَّمِ؟
وَلِمَ تَظَلُّ أَسْئِلَتِي تائِهَةً فِي البَياضِ الأَعْزَلِ، كَأَنَّها فِي مَقامِ البُعْدِ تَحْتَ نَجْمَةٍ شاغِرَةٍ لا تَحْفَظُ العَهْدَ؟
لِمَ أَنا (البُومَةُ العَتِيقَةُ) أَحْمِلُ دَفْتَرَ الرُّعْبِ كَكِتابِ صَلاةٍ، وَأَحُوكُ الخَدِيعَةَ بِإِبْرَةِ النَّدَمِ، وَأَقْتَحِمُ حُدُودًا أُغْلِقَتْ فِي وَجْهِ النَّهارِ؟
لا أَقْتَحِمُها إِلَّا لِأَعْبُرَ، قُرْبانًا يَتَقَدَّمُ فِي النَّارِ وَلا يَنْتَظِرُ نَجاةً.
**(وَأَنَا أُساقُ... وَأَنَا أُقَرِّبُ... وَأَنَا أُسَلِّمُ نَفْسِي لِلَّهَبِ).**

أَتَدْرِي؟ أَيُّهَا الوَحْيُ الَّذِي تَجْتَرُّهُ عَرَباتُ الجُنُونِ... أَتَدْرِي، يا أَسِيرَ الخَيالِ، أَنَّنِي أُغْرِقُ بِالزَّيْفِ زَفَراتِ القَتِيلِ وَعَبَراتِهِ؟ لا أَزِنُ الأَفْكارَ فِي ذِهْنِي وَلا أُعَبِّرُ عَنْها بِالأَلْفاظِ. أَتَعَذَّبُ فِي مَنْفًى لا يَسْتَقِرُّ لِي فِيهِ قَرارٌ، وَرُوحِي أَفْسَدَتْها الأَقْدارُ...

أَيَّتُهَا الأَقْدارُ، لَعَلَّكُنَّ لا تَرَيْنَنِي أُقاسِمُ اليَأْسَ نِصْفَ ذاكِرَتِي، وَأُطِيحُ . بِاسْمِ النِّسْيانِ .
صَرْفَ اللُّغَةِ مِنْ عَرْشِها القَدِيمِ.
أُوقِظُ الأَبْجَدِيَّةَ مِنْ غَيْبُوبَةٍ كَسْلَى، كَأَنَّنِي الحَرِيقُ النَّاصِعُ فِي حَلْقِ الكَلامِ...
وَأَنَا... أَفْعَلُ ذٰلِكَ كَطَقْسٍ، كَأَنَّنِي أُطَهِّرُ الحُرُوفَ بِالمَوْتِ، وَأُعِيدُ العِبارَةَ إِلَى مِحْرابِها الأَوَّلِ.
**(وَأَنَا أُعَمِّدُ الكَلامَ... وَأَنَا أُوقِظُ الحَرْفَ... وَأَنَا أُشْعِلُ النَّشِيدَ).**

أَتَدْرِي، يا نَهارُ، يا بَهاءَ اللهِ، أَيُّهَا الطَّاهِرُ وَسْطَ رُعُودِهِ السَّماوِيَّةِ... أَنَّنِي أَقِفُ الآنَ مُلَوِّحًا بِيَدِي إِلَى صاعِقَةٍ تَنْفُثُ النَّارَ لِتُنْقِذَنِي، وَسَيَكُونُ احْتِراقِي أَكِيدًا، كَخَصْمٍ أُجَهِّزُهُ بِنَفْسِي ضِدَّ نَفْسِي.
وَأَنَا أُرَتِّلُ، وَأُسْقِطُ رَمادِي عَلَى لَهْجَةِ اللَّهَبِ، فَتَنْهَضُ فِي مَسْمَعِي مَعْرَكَةُ الحُلْمِ فِي باحَةِ الغُبارِ.
وَأَسْمَعُ قافِيَةَ البَرْقِ تَكْسِرُ صُورَةَ المَنْطِقِ، وَتَعْقِرُ جَوادَهُ الأَهْوَجَ...
وَأَنَا أُصَفِّقُ لِلانْهِيارِ، كَأَنَّنِي شاهِدُ القِيامَةِ.
**(وَأَنَا أَرْتَجِفُ... وَأَنَا أُفَجِّرُ الصَّمْتَ... وَأَنَا أُصَعِّدُ الطَّقْسَ إِلَى ذُرْوَتِهِ).**

يا آلِهَةَ الأَشْياءِ المَرْئِيَّةِ فِي ضَوْءِ النَّهارِ،
يا شَياطِينَ العَواصِفِ،
يا أَيَّتُهَا الِابْتِسامَةُ الأَبَدِيَّةُ لِسَماواتِ الجَحِيمِ،
اخْلَعِي عَنِ اللَّهَبِ وَجْهَهُ، كَيْ لا يُشْبِهَ قِناعَهُ.
وَأَنْتَ أَيُّهَا الأَخْضَرُ، يا مَلاكَ اللهِ الأَوَّلَ، لِماذا تُثْقِلُ أَجْنِحَتَكَ بِهٰذِهِ الكامِيرا؟
لِماذا تَجْعَلُ كَلِماتِكَ تُحَلِّقُ فِي سَماءِ الأَسْئِلَةِ؟
لِماذا تَصْعَدُ إِلَى مُسْتَوًى أَعْلَى مِنَ التَّأَمُّلِ؟
سَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَنْزِلُ، كاهِنًا يَفْتَحُ لِلْعَدَمِ بَوَّابَتَهُ، وَيَكْتُبُ اسْمَهُ عَلَى الجَمْرِ قَبْلَ الضَّحْكَةِ الأُولَى، وَقَبْلَ أَنْ يَتَعَلَّمَ الجُرْحُ كَيْفَ يَكْتُبُ ظِلَّهُ...
يا مَلاكُ... كَيْفَ سَتَكُونُ إِذا لَمْ أَكُنْ مَعَكَ أَنا وَكامِيرَتِي، أَنا وَحِبْرِي، ذٰلِكَ اللاعِقَ لِبُصاقِ الأَلْفاظِ؟

يا حِبْرُ،
يا فَمَ المِحْبَرَةِ الأَبْكَمَ،
يا تابُوتًا مَصْلُوبًا عَلَى شُطْآنِ المَعْنَى...
أَيُّ جِراحاتٍ مُرَّةٍ تَنْزِفُ فَوْقَ حُرُوفِ قِلاعِكَ المَنِيعَةِ؟
أَيُّ لَوْنٍ لِلتَّشَرُّدِ يَسْرِي فِي رَبِيعِكَ الخائِنِ؟
إِنَّنِي أُخاطِبُكِ، أَنْتِ أَيَّتُهَا الأَلْغازُ البارِعَةُ...
أَنا وَجِراحِي مَنْ يَجُرُّ هٰذا العَذابَ المُؤْلِمَ...
لَنْ تَحْمِلِينَا عَلَى الإِفْضاءِ بِالسِّرِّ حَتَّى تَنْزِلَ اللُّهُبُ الحارِقَةُ، وَيَنْهالَ العَذابُ، دُونَ رَيْبٍ، كَعاصِفَةٍ.
سَنَظَلُّ نُخْفِي هٰذا العُواءَ تَحْتَ عَباءَةِ النَّشِيدِ.
**(وَأَنَا أُضَمِّدُ بِالنَّشِيدِ.. وَأَنَا أُبارِكُ النَّزْفَ... وَأَنَا أُحَوِّلُ الأَلَمَ إِلَى عَلَامَةٍ).**

كانَ الرَّعْدُ يَتَماهَى مَعَ العُواءِ.
وَكانَ البَرْقُ يَحُثُّ الطَّلَقاتِ عَلَى الهُطُولِ.
وَكانَ الثَّلْجُ يَرْشُقُ الدَّمَ بِصَفِيرٍ يُشْبِهُ صَوْتَ الرِّيحِ.
وَأَنَا، الواقِفُ مَوْقِفَ الخُصُومَةِ، لا طاعَةَ إِلَّا أَشُكُّ فِي إِخْلاصِها، كَكاهِنٍ أَخِيرٍ أُشْعِلُ فِي صَدْرِي قِنْدِيلًا كَيْ لا يَضِيعَ الطَّرِيقُ إِلَى الوَجَعِ.
**(أَفْعَلُ ذٰلِكَ كَمَنْ يَمْنَحُ العالَمَ آخِرَ اعْتِرافاتِهِ).**

أُوَزِّعُ صُوَرِي عَلَى الوَجَعِ الشَّجِيِّ، وَأَقُولُ:
احْمِلْهُ، يا مَلاكُ...
احْمِلْهُ قَبْلَ أَنْ تَبْدَأَ هٰذِهِ اللَّيْلَةُ المُظْلِمَةُ لِلرُّوحِ...
احْمِلِ اخْتِزالَ خَجَلِ الحالِمِينَ...
احْمِلْ بُرْعُمَ القَمْحِ...
انْزِلْ إِلَى الأَرْضِ، يا مَلاكُ، وَاحْمِلْ طائِرَ الضَّوْءِ قَبْلَ أَنْ يُحَلِّقَ فَوْقَ الأَرْضِ الحَرامِ...
احْمِلْهُ قَبْلَ أَنْ يَقْتَرِبَ مِنَ الشَّمْسِ وَيَذُوبَ شَمْعُ أَجْنِحَتِهِ...
احْمِلْهُ قَبْلَ أَنْ تَتَحَوَّلَ الكَلِماتُ إِلَى شَخْصِيَّاتٍ حَقِيقِيَّةٍ...
احْمِلْهُ مِنْ هٰذِهِ الفِطْنَةِ الواعِيَةِ، حَيْثُ لا يَعْرِفُ العَقْلُ البَشَرِيُّ ما يَنْبَغِي فِعْلُهُ...
احْمِلْ رُوحَ الطَّبِيعَةِ وَحِكْمَةَ العالَمِ الآخَرِ قَبْلَ أَنْ تَظْهَرَ الأَشْباحُ...

احْمِلْهُ إِلَى الأَعْماقِ...
إِلَى الوَعْيِ السَّماوِيِّ...
إِلَى ذٰلِكَ التَّدَفُّقِ النُّورانِيِّ الَّذِي يَحْتَضِنُ العالَمَ بِأَسْرِهِ،
كَما تَفْعَلُ أَنْتَ، أَيُّهَا المَلاكُ،
حِينَ تَمْضِي إِلَى الأَعالِي حامِلًا بَرَكَتَكَ إِلَى ذُرَى الآلِهَةِ.
**(وَأَنَا أُقِيمُ السِّراجَ... وَأَنَا أُواصِلُ الِاعْتِرافَ... وَأَنَا أُسَلِّمُ اللَّيْلَ مَفاتِيحَهُ).**

كانَ الطَّائِرُ هُوَ الجَسَدَ، وَكانَ المَلاكُ هُوَ الرُّوحَ.
**(وَأَنَا أُمْحَى... وَأَنَا أُكْتَبُ مِنْ جَدِيدٍ... وَأَنَا أُعَلَّمُ بِطَقْسِ الجُرْحِ).**

لَمْ أَجِئْ إِلَى هٰذا اللَّيْلِ كَعابِرٍ، جِئْتُ كَكاهِنٍ يَحْمِلُ فِي صَدْرِهِ مِحْرابًا مَكْسُورًا، يَمْشِي عَلَى رَمادِ الأَسْماءِ، وَيَجُرُّ خَلْفَهُ سُلالَةَ الأَسْئِلَةِ القَدِيمَةِ.
**(وَأَنَا أُصْغِي... وَأَنَا أُنْفَتَحُ... وَأَنَا أُكْسَرُ كَيْ أُفْهَمَ).**

كُلُّ شَيْءٍ كانَ يَسْبِقُنِي: النَّدَمُ، وَالصَّدَى، وَصَوْتُ الخَطايا وَهِيَ تَتَوَضَّأُ فِي دَمِي.
كُنْتُ أَرْفَعُ رَأْسِي كَشَمْعَةٍ فِي مَمَرِّ الرِّيحِ، وَأَقُولُ: هٰذا أَنَا... آخِرُ الِاعْتِرافِ.
**(وَأَنَا أَضِيعُ... وَأَنَا أَعُودُ... وَأَنَا أُبْعَثُ مِنَ السُّؤالِ).**

رَأَيْتُ أَبْوابًا مِنْ ظِلالٍ صَدِئَةٍ، وَرَأَيْتُ قَلْبِي كَطائِرٍ أَعْمَى يَخْبِطُ جَناحَيْهِ فِي قَفَصِ النُّبُوءَةِ.
كُلُّ خُطْوَةٍ كانَتْ صَلاةً، وَكُلُّ صَلاةٍ كانَتْ نَزْفًا يَتَعَلَّمُ كَيْفَ يَصِيرُ نَشِيدًا.
**(وَأَنَا أُثَبَّتُ... وَأَنَا أُعَلَّقُ... وَأَنَا أُسَمَّرُ عَلَى لَهَبِ الِاعْتِرافِ).**

يا نارُ، يا أُمَّ العُبُورِ، خُذِينِي كَما يَأْخُذُ البَحْرُ سَفِينَةً بِلا اسْمٍ، وَاكْسِرِي فِيَّ آخِرَ قِناعٍ، كَيْ أَخْرُجَ مِنِّي عارِيًا إِلَّا مِنَ الحَقِيقَةِ.
**(وَأَنَا أُمْحَى... وَأَنَا أُكْتَبُ... وَأَنَا أُبْعَثُ مِنَ الرَّمادِ).**

سَمِعْتُ العالَمَ يَتَشَقَّقُ، كَأَنَّ السَّماءَ تَسْعُلُ بَرْقًا، وَكَأَنَّ الزَّمَنَ يَتَراجَعُ لِيُفْسِحَ لِي طَرِيقَ الطَّقْسِ.

**(وَأَنَا أُخْتَمُ... وَأَنَا أُنْفَتَحُ... وَأَنَا أُبْعَثُ فِي آخِرِ التَّراتِيلِ).**

أَيُّهَا الغِيابُ الَّذِي يَسْكُنُ وَجْهِي، أَيُّهَا الحُضُورُ الَّذِي يَطْعَنُنِي كَيَقِينٍ، لِماذا كُلَّما حاوَلْتُ النَّجاةَ عادَ الجُرْحُ لِيَتْلُوَ عَلَيَّ اسْمِي؟
**(وَأَنَا أَعْبُرُ... وَأَنَا أَحْتَرِقُ... وَأَنَا أُخْلَقُ مِنَ الِاحْتِراقِ).**

أَقِفُ الآنَ عَلَى حافَّةِ المَعْنَى،
أَرْفَعُ قَلْبِي كَقُرْبانٍ،
وَأَقُولُ لِلرِّيحِ: اشْهَدِي... فَإِنَّنِي لَمْ أَعُدْ إِنْسانًا،
أَنَا طَقْسٌ يَمْشِي،
أَنَا اعْتِرافٌ يَتَنَفَّسُ،
أَنَا كاهِنٌ يَعْبُرُ النَّارَ وَلا يَلْتَفِتُ.
**(وَأَنَا أَشْهَدُ... وَأَنَا أَعْبُرُ... وَأَنَا أَحْتَرِقُ... وَأَنَا أُبْعَثُ).**

# إِصْحاحُ

6

## الطِّفْلُ الدَّاخِلِيُّ وَمُتاهَةُ الحُدودِ

كانَ الطِّفْلُ الدَّاخِلِيُّ يَسِيرُ مُنْذُ خَمْسِ لَيالٍ فِي أَرْضٍ لا تُشْبِهُ الخَرائِطَ الَّتِي دَرَسَها...

لَمْ تُعْطَ لَهُ مُهِمَّةٌ واضِحَةٌ.

قالَ لَهُ الغَيْبُ:

- امْضِ. سَتَعْرِفُ حِينَ تَصِلُ.

وَحِينَ سَأَلَ:

- إِلَى أَيْنَ؟

لَمْ يُجِبْهُ أَحَدٌ، كَأَنَّ السُّؤالَ نَفْسَهُ خَطِيئَةٌ...

وَمُنْذُ اللَّحْظَةِ الأُولَى شَعَرَ بِأَنَّ الطَّرِيقَ هُوَ الَّذِي يَتَغَيَّرُ...
كانَ اللَّيْلُ يَتَنَقَّلُ فَوْقَهُ مِثْلَ قِماشٍ أَسْوَدَ يَطْفُو عَلَى رِيحٍ بَطِيئَةٍ، وَالنُّجُومُ تَتَحَرَّكُ فِي أَنْماطٍ غَيْرِ مَأْلُوفَةٍ، كَأَنَّ السَّماءَ نَفْسَها تَتْبَعُهُ، أَوْ تُحاصِرُهُ...
فِي اللَّيْلَةِ السَّادِسَةِ أَدْرَكَ حَقِيقَةً مُرِيبَةً:
لَمْ يَكُنْ يَتْرُكُ أَثَرًا خَلْفَهُ.
كانَ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ الرَّمْلِيَّةِ، فَلا تَنْطَبِعُ قَدَماهُ، كَأَنَّ الطَّرِيقَ يَلْتَهِمُ كُلَّ خُطْوَةٍ فَوْرَ أَنْ يَخْطُوَها...
عِنْدَ الفَجْرِ رَأَى أَمامَهُ دائِرَةً مَحْفُورَةً فِي الأَرْضِ...
كَأَنَّ يَدًا عِمْلاقَةً ضَغَطَتْ عَلَى التُّرابِ حَتَّى انْخَفَضَ فِي شَكْلِ حَلَقَةٍ.
عِنْدَما وَضَعَ قَدَمَهُ داخِلَ الدَّائِرَةِ، شَعَرَ بِصَوْتٍ لا يُسْمَعُ:
- أَطِعْ، حَتَّى وَإِنْ جَهِلْتَ.
تَجَمَّدَ...
لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ أَكانَ هٰذَا الصَّوْتُ آتِيًا مِنْ داخِلِهِ أَمْ مِنَ الهَوَاءِ...
لٰكِنَّ الدَّائِرَةَ كانَتْ تَنْتَظِرُ...
أَطاعَ...
وَمَعَ الطَّاعَةِ جاءَ الشَّكُّ...
الخَوْفُ...
وَرَخاوَةٌ فِي القَلْبِ تُشْبِهُ الإِيمَانَ المَكْسُورَ...
حِينَ خَرَجَ مِنَ الدَّائِرَةِ الأُولَى، وَجَدَ نَفْسَهُ يَحْمِلُ وِزْنًا لَمْ يَعْرِفْ مَصْدَرَهُ...
لَمْ يَكُنْ عَلَى كَتِفِهِ شَيْءٌ...
لٰكِنَّ الضِّلْعَيْنِ كانا يَضْغَطانِ عَلَى صَدْرِهِ كَأَنَّ جَبَلًا صَغِيرًا يَنامُ فَوْقَهُ.
رَفَعَ رَأْسَهُ وَقالَ:
- مِنْ أَيْنَ يَأْتِي هٰذا الثِّقَلُ؟
لٰكِنَّ الصَّدَى كانَ الجَوابَ الوَحِيدَ، يُرَدِّدُ سُؤالَهُ كَأَنَّهُ يَسْخَرُ مِنْهُ...

وَلِأَوَّلِ مَرَّةٍ تَذَكَّرَ وَجْهَهُ فِي المِرْآةِ يَوْمَ كانَ يَتَدَرَّبُ فِي الثَّكْنَةِ:
شابًّا قَوِيًّا، لا يَعْرِفُ شَيْئًا عَنِ الثِّقَلِ الدَّاخِلِيِّ...
أَمَّا الآنَ، فَكانَ يَشْعُرُ بِأَنَّ جَسَدَهُ لَيْسَ لَهُ وَحْدَهُ:
أَصْواتُ المَوْتَى [113] الَّذِينَ مَرَّتْ بِهِمُ الحَرْبُ، وَخُطُواتُ المَفْقُودِينَ، وَصُراخُ الأَهالِي عِنْدَ الحُدودِ...
كَأَنَّها كُلَّها اجْتَمَعَتْ فِي ضِلْعِهِ الأَيْسَرِ.
فِي اليَوْمِ التَّالِي وَجَدَ بُوصَلَتَهُ تَدُورُ بِجُنُونٍ...
تَتَحَرَّكُ الإِبْرَةُ دُونَ أَنْ تَسْتَقِرَّ...
تَضْرِبُ الشَّمالَ مَرَّةً، وَالغَرْبَ مَرَّةً، وَتَقْفِزُ إِلَى الجَنُوبِ...
لَمْ يَفْهَمْ...
جَلَسَ عَلَى الأَرْضِ، وَفَتَحَ حِزامَهُ، وَأَخْرَجَ خَرِيطَتَهُ، فَوَجَدَ الخُطُوطَ قَدْ تَغَيَّرَتْ...

---

[113]- **هَامِشُ مُنَادَاةِ الْمَوْتَى** (أَشَدُّ الْأَسْفَارِ خَطَرًا، كَتَبَهُ نَاسِخُ الْهَامِشِ وَهُوَ مُرْتَجِفٌ):
لَا أَحَدَ يَعْرِفُ لِمَاذَا امْتَلَكَ نَاسِخُ الْهَامِشِ الْقُدْرَةَ عَلَى سَمَاعِ الْمَوْتَى، وَلَا كَيْفَ أَصْبَحَ صَدَى الْأَرْوَاحِ يَمُرُّ بِأُذُنَيْهِ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَى الْعَالَمِ. يَقُولُ:
(كَانُوا يَأْتُونَ بِصَوْتٍ خَفِيفٍ، ثُمَّ يَصِيرُ ثَقِيلًا، كَأَنَّ أَحَدَهُمْ يَسْقُطُ مِنْ شَاهِقٍ...)
(لَا أُنَادِيهِمْ... هُمْ الَّذِينَ يُنَادُونَ...)
(لَا يَطْلُبُونَ الرَّحْمَةَ، إِنَّمَا يَطْلُبُونَ أَنْ يُكْتَبُوا، وَأَنْ يَكُونَ لَهُمْ سَطْرٌ وَاحِدٌ فِي الْهَامِشِ، يَكْفِيهِمْ لِيَشْعُرُوا أَنَّهُمْ لَمْ يَمُوتُوا عَبَثًا)
وَفِي أَحَدِ الْهَوَامِشِ الْمُخْفَاةِ بِالسَّوَادِ:
(أَخْطَرُ مَا يَفْعَلُهُ النَّاسِخُ أَنْ يَكْتُبَ مَا لَا يُسْمَعُ...)
وَأَخْطَرُ مِنْهُ:
(حِينَ تَكْتُبُ عَنِ الْمَوْتَى، يَقْرَءُونَ مَعَكَ).

الأَنْهارُ تَحَوَّلَتْ، وَالجِبالُ ازْدادَ عَدَدُها، وَالحُدودُ الَّتِي يَعْرِفُها أَصْبَحَتْ مَطْمُوسَةً...

لَمْ يَعُدْ هُناكَ اتِّجاهٌ واضِحٌ...

**(رُبَّما لَمْ يَكُنْ هُناكَ اتِّجاهٌ أَصْلًا).**

فِي المَساءِ رَأَى أَرْبَعَةَ أَعْمِدَةٍ حَجَرِيَّةٍ، يَحْمِلُ كُلُّ عَمُودٍ مِنْها مِرْآةً مَكْسُورَةً...

اقْتَرَبَ مِنَ الأُولَى، فَرَأَى نَفْسَهُ شَيْخًا مُنْهَكًا...

وَاقْتَرَبَ مِنَ الثَّانِيَةِ، فَرَأَى نَفْسَهُ مُتَعَجْرِفًا، يَقِفُ فَوْقَ جُنْدِيٍّ جَرِيحٍ وَيَصْرُخُ فِي وَجْهِهِ...

أَمَّا الثَّالِثَةُ، فَأَظْهَرَتْ طِفْلًا يَبْكِي بِلا صَوْتٍ...

وَالرَّابِعَةُ لَمْ تُظْهِرْ شَيْئًا سِوَى سَوادٍ كَثِيفٍ لا قاعَ لَهُ...

شَعَرَ بِأَنَّ الرُّوحَ تَتَشَقَّقُ فِي داخِلِهِ...

قالَ:

- أَيَّ صُورَةٍ أُدانُ بِها؟

فَلَمْ تُجِبْهُ المَرايا، لٰكِنَّ صَدًى ضَعِيفًا هَمَسَ:

- أنتَ جميعُها ما دمتَ لم تعرف نفسكَ.

دَخَلَ مِنْطَقَةً بِلا صَوْتٍ...

لَمْ تَكُنِ الرِّيحُ تَهُبُّ، وَلَمْ تَكُنِ الرِّمالُ تَتَحَرَّكُ، حَتَّى دَقَّاتُ قَلْبِهِ كانَتْ كَأَنَّها تَأْتِيهِ مِنْ مَكانٍ آخَرَ...

كانَ الصَّمْتُ صَلْدًا، يُشْبِهُ بابًا مُغْلَقًا بِإِحْكامٍ...

مَشَى فِي داخِلِهِ ساعاتٍ أَوْ أَيَّامًا، لَمْ يَعُدْ يَعْرِفُ الزَّمَنَ...

وَفِي وَسَطِ الصَّمْتِ ظَهَرَتْ جُمْلَةٌ عَلَى الرَّمْلِ:

- هُنا تُخْتَبَرُ النَّفْسُ.

لَمْ يَجِدْ مَنْ يُقاتِلُهُ...

لٰكِنَّهُ شَعَرَ بِأَنَّ الظِّلالَ القَدِيمَةَ تَعُودُ:

ظُلْمٌ اقْتَرَفَهُ، وَمَوْتٌ تَسَبَّبَ بِهِ، وَأَوامِرُ نَفَّذَها بِلا تَفْكِيرٍ، وَعُيُونُ لاجِئِينَ عَبَرُوا الحُدودَ وَبَقِيَتْ تُلاحِقُهُ...

كانَ الصَّمْتُ يُعِيدُهُمْ واحِدًا واحِدًا...

وَصَلَ إِلَى سَهْلٍ مُسْتَوٍ، لا هُوَ مُنْخَفِضٌ وَلا مُرْتَفِعٌ...

كانَ يَمْشِي فِيهِ مِنْ دُونِ أَيِّ تَغَيُّرٍ...

ظَنَّ أَنَّهُ يُعِيدُ الخُطْوَةَ نَفْسَها مِرارًا...

وَلٰكِنَّ شَيْئًا فِي قَلْبِهِ تَحَرَّكَ لَمْ يَفْهَمْهُ...

حِوارٌ داخِلِيٌّ، صَوْتٌ يَعْتَذِرُ، وَصَوْتٌ آخَرُ يَغْفِرُ...

هُنا بَدَأَ يَنْفَصِلُ عَنْ صُورَتِهِ السَّابِقَةِ، عادَ إِنْسانًا يَطْلُبُ أَنْ يَرَى نَفْسَهُ مِنْ جَدِيدٍ.

عِنْدَ الغُرُوبِ رَأَى دائِرَةً واسِعَةً، فِي وَسَطِها حَجَرٌ مُسَوَّدٌ...

وَكانَ الحَجَرُ يَهْمِسُ بِإِحْساسٍ يُشْبِهُ التَّعَبَ القَدِيمَ...

اقْتَرَبَ مِنْهُ وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ.

فَجاءَهُ الصَّوْتُ:

- اخْرُجْ مِنْ هٰذا الجَسَدِ؛ لا مَأْوَى هُنا.

نَظَرَ إِلَى صُورَتِهِ...

تَذَكَّرَ كُلَّ ما فَعَلَ، وَتَذَكَّرَ كُلَّ ما كانَ يُمْكِنُ أَلَّا يَفْعَلَهُ...

وُلِدَ فِي داخِلِهِ إِحْساسٌ بِالحُزْنِ...

وَبِالتَّحَرُّرِ...

وَضَعَ صُورَتَهُ عَلَى الأَرْضِ...

وَلِأَوَّلِ مَرَّةٍ أَحَسَّ بِأَنَّ الهَوَاءَ قَدْ صارَ أَخَفَّ...

بَعْدَ مَسِيرٍ طَوِيلٍ، رَأَى أَمامَهُ العَلامَةَ نَفْسَها الَّتِي بَدَأَ مِنْها طَرِيقَهُ:

الحِجارَةَ المُحْتَرِقَةَ، وَالرَّمْلَ المَضْغُوطَ، وَالرِّيحَ الَّتِي تَدُورُ حَوْلَ مَكانٍ ضائِعٍ...

لٰكِنَّهُ لَمْ يَكُنِ الشَّخْصَ نَفْسَهُ...

كَأَنَّ أَحَدًا أَعادَهُ إِلَى نُقْطَةِ البِدايَةِ بَعْدَ أَنْ نَزَعَ عَنْهُ طَبَقَةً كامِلَةً مِنْ ذاتِهِ...

وَقَفَ فِي مُنْتَصَفِ الدَّائِرَةِ، وَأَغْلَقَ عَيْنَيْهِ، وَهَمَسَ:

- الآنَ بَدَأْتُ أَفْهَمُكَ، أَيُّها الغَيْبُ.

انْحَنَى وَأَخَذَ عَصًا مِنَ الأَرْضِ...

وَكَتَبَ عَلَى التُّرابِ جُمْلَةً واحِدَةً:

- مَنْ دارَ عَرَفَ، وَمَنْ عَرَفَ سَلِمَ.

حِينَ رَفَعَ رَأْسَهُ...

لَمْ يَجِدِ الدَّائِرَةَ، وَلا الصَّحْراءَ، وَلا حَتَّى اللَّيْلَ...

وَجَدَ نَفْسَهُ عَلَى عَتَبَةِ بَوَّابَةٍ حَجَرِيَّةٍ، كُتِبَ عَلَيْها:

- مِنْ هُنا تَبْدَأُ المُتاهَةُ الحَقِيقِيَّةُ.

ثُمَّ انْفَتَحَ البابُ، وَاخْتَفَى الطِّفْلُ الدَّاخِلِيُّ فِي ضَوْءِ الجَسَدِ.

٦

# النَّشِيدُ السَّادِسُ

## (مِيامِرُ الأَرْواحِ الَّتِي لا تَنامُ)

الميمر

### المِيمَرُ الأَوَّلُ: افْتِتاحِيَّةُ الطَّقْسِ

**الجُنْدِيُّ الجَرِيحُ:**

أَرَى الظِّلالَ المُظْلِمَةَ لِطُفُولَةٍ قاسِيَةٍ، وَأَرَى صُورَةً تَجُرُّ صُورَةً أُخْرَى، وَأَرَى الدَّمَ يُطْلِقُ شَظاياهُ، وَتَتَفَجَّرُ الأَقْوالُ كَما تَتَفَجَّرُ نُجُومٌ مَذْعُورَةٌ فَوْقَ مَذابِحَ شاهِقَةٍ.

**جَوْقَةُ الأَرْواحِ التَّائِهَةِ:**

لِيَكُنِ السِّرُّ شاهِدًا، وَلْتَنْفَتِحْ أَبْوابُ الفِرْدَوْسِ لِلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى حَدِّ الخَلاصِ.

لِيَكُنِ القَتْلُ شاهِدًا، وَلْتَنْفَتِحْ أَبْوابُ الجَحِيمِ لِلرَّصاصِ المُقْبِلِ عَلَى الوَلِيمَةِ بِغَيْرِ دَعْوَةٍ.

لِيَكُنِ الرَّعْدُ شاهِدًا، وَلْتَنْفَتِحْ أَبْوابُ الشَّرَكِ لِلْهَلاكِ الَّذِي لا فَكاكَ مِنْهُ.

أَمَّا أَنْتَ، أَيُّهَا الأَلَمُ، يا مَنْ يَطْرُقُ أَبْوابَ العَقْلِ بِمِطْرَقَةٍ ثَقِيلَةٍ، فَابْتَعِدْ سَرِيعًا عَنْ هٰذَا الجَسَدِ.
وَلْيَكُنْ قَصْفُ الرَّعْدِ عاتِيًا حَتَّى يُشِلَّ العَذابُ الحَواسَّ.

### المِيمَرُ الثَّانِي: اَلِانْكِسارُ

**الفُوتُوغْرافِيُّ العَجُوزُ:**
ما عُدْتُ أَحْلُمُ، وَلا عادَ القَوْلُ يُحْسِنُ حَمْلَ أَسْرارٍ تَثْقُبُ أَسْوارَ الصَّمْتِ بِزُهُورٍ ماتَتْ وَهِيَ تُحاوِلُ التَّفَتُّحَ.
سَأَغْسِلُ كامِيرَتِي مِنْ رَمادِ المَوْتَى، وَلْيَرِثِ الطِّينُ هٰذِهِ الهَشاشَةَ.
**جَوْقَةُ الأَرْواحِ التَّائِهَةِ:**
لِتَكُنِ الحِكايَةُ فَضِيحَةً يَنْسُجُها نَوْلٌ مَكْسُورٌ، وَيَرْوِيها نَزِيلٌ مِنْ أَهْلِ المَنافِي، سَكْرانُ بِنَبِيذِ الغِيابِ.
وَلْيَتَقَدَّمِ الطُّوفانُ.

### المِيمَرُ الثَّالِثُ: المُدُنُ الحُبْلَى بِالسِّرِّ

**الجُنْدِيُّ الجَرِيحُ:**
لا... لا، لَيْسَ الآنَ.
فَالرَّعْدُ لَمْ يُرْسِلْ صَداهُ بَعْدُ، وَبَرْقُ الحِكايَةِ لَمْ يُومِضْ بَعْدُ، وَتَيَّاراتُ الرِّياحِ الأَرْبَعِ لَمْ تَتَقاتَلْ بَعْدُ، وَمَدائِنُ العَتَمَةِ لَمْ تُفْتَحْ بَعْدُ، وَخَمِيرَةُ السِّرِّ ما زالَتْ تَخْتَمِرُ فِي خَوابِي الغَيْبِ.
وَفِي صَدْرِي ظَمَأٌ لِلِانْفِجارِ الرَّحْبِ، وَلَهِيبٌ يَفْضَحُ مَذابِحَ الآلِهَةِ وَمَجْدَها المَرْهُوبَ.
**الفُوتُوغْرافِيُّ العَجُوزُ:**
ما زِلْتُ مُصَوِّرَ الظِّلالِ الهارِبَةِ عَبْرَ الحُدودِ، أُراقِبُ بِعَيْنٍ يَقِظَةٍ وَجْهَ الفَزَعِ.
أُعِدُّ لِلْمَوْتِ مُفاجَأَتَهُ الأَخِيرَةَ، وَأُبَخِّرُ دَمَهُ بِقَرَنْفُلٍ مَجْهُولِ الأَصْلِ.
**جَوْقَةُ الأَرْواحِ التَّائِهَةِ:**
مُبارَكٌ مَنْ يُوقِظُ الأَعاصِيرَ بِشَهْقَةِ الطُّوفانِ.

مُبارَكٌ مَنْ يَقِفُ عَلَى أَشْرِعَةِ الخَرابِ كَكاهِنٍ فِي قُدَّاسِ القِيامَةِ.

## المِيمَرُ الرَّابِعُ: القَمَرُ الأَبْكَمُ

**الجُنْدِيُّ الجَرِيحُ:**

أَيَّتُهَا الآلِهَةُ وَالرَّبَّاتُ، أَيَّتُهَا الشَّياطِينُ الَّتِي تَنُوبُ عَنِ البَشَرِ، يا رُوحَ الِانْتِقامِ الدَّفِينِ، يا مَنْ تَجْلِسِينَ عَلَى العُرُوشِ المُبارَكَةِ...

أَيَّ قُرْبانٍ أَرْفَعُ لِلأَسْلِحَةِ المَشْحُوذَةِ؟

وَأَيَّ نَذْرٍ أُقَدِّمُ لِلْمَوْتِ المُنْقَضِّ عَلَيْنا؟

وَأَيَّ صَلاةٍ أُرَتِّلُ لِلْمَوْتِ ذِي الخُوذَةِ الذَّهَبِيَّةِ؟

**جَوْقَةُ الأَرْواحِ التَّائِهَةِ:**

لَيْسَ فِي الأَثْوابِ إِلَّا سُعالُ الرَّصاصِ، وَسَنابِلُ مَخْتُومَةٌ بِالفَزَعِ وَحُضُورِهِ البَرَّاقِ.

## المِيمَرُ الخامِسُ: النَّحِيبُ

**الفُوتُوغْرافِيُّ العَجُوزُ:**

خَبِّئْنِي أَيُّهَا النَّحِيبُ تَحْتَ تاجِكَ، وَاحْتَوِنِي أَيَّتُهَا الصَّرَخاتُ فِي أَزِقَّةِ النِّداءِ.

فَإِنِّي ذَبِيحَةٌ جامِحَةٌ، هَيَّأْتُ لِلْمَوْتِ زِينَتَهُ الباطِلَةَ، وَأَنَا أَمْشِي بِثَوْبٍ مِنْ أَرْضٍ عارِيَةٍ.

أَصْرُخُ:

أَحْضِرْ قَوْسَكَ أَيُّهَا العُواءُ، وَأَنْتِ أَيْضًا أَيَّتُهَا الطَّلْقاتُ، يا ابْنَةَ الذِّئابِ، أَحْضِرِي قَعْقَعَةَ الخَلاصِ وَعَجَلاتِهِ الدَّوّارَةَ.

**جَوْقَةُ الأَرْواحِ التَّائِهَةِ:**

هُوَذَا الإِنْشادُ يَتَكَسَّرُ، وَالفَرَحُ يُنْجَدُ بِنَشْوَةٍ خارِجَةٍ مِنْ فَمِ الغَيْبِ.

## المِيمَرُ السَّادِسُ: المُتاهَةُ

**الجُنْدِيُّ الجَرِيحُ:**

الحِكايَةُ الَّتِي أَرَدْتُ سَرْدَها قَدْ تَبَخَّرَتْ، وَانْحَسَرَتْ بُطْئًا إِلَى الغامِضِ...
وَها أَنَا أَنْظِمُ الأَناشِيدِ لِلْمَوْتِ، وَأُسَبِّحُ لِلْقَتْلِ الَّذِي يَمْلَأُ الطُّرُقاتِ.
وَأَفْتَحُ لِلْمُتاهَةِ أَبْوابًا أَرْبَعَةً، وَأَبْنِي الفَخاخَ لِأَسْرابِ الخَيالِ،
فَتَسْقُطُ الرُّؤى صامِتَةً، مِثْلَ تَماثِيلَ نُسِيَتْ فِي الرِّيحِ.

## المِيمَرُ السَّابِعُ: الأَسْئِلَةُ الجَرِيحَةُ

**جَوْقَةُ الأَرْواحِ التَّائِهَةِ:** يَقُولُ التَّائِهُ: التِّيهُ يَهْدِينِي.
**الفُوتُوغْرافِيُّ العَجُوزُ:** الصُّورَةُ تَكْذِبُ أَكْثَرَ مِنِّي.
**جَوْقَةُ الأَرْواحِ التَّائِهَةِ:** يَقُولُ العابِرُ: الظِّلالُ رُوحٌ حارِسَةٌ.
**الفُوتُوغْرافِيُّ العَجُوزُ:** مِنْ عَرَبَةٍ يَدْفَعُها مَلَاكُ المَوْتِ، الْتَقَطْتُ هٰذِهِ الصُّوَرَ.
**جَوْقَةُ الأَرْواحِ التَّائِهَةِ:** يا رَبَّ اللَّيْلِ وَالجِهاتِ، يا رَبَّ الذِّكْرَياتِ، أَرِنا ما يَخْتَبِئُ فِي أَلْبُومَاتِ وَصَنادِيقِ الصُّوَرِ.

**الفُوتُوغْرافِيُّ العَجُوزُ:**

* صُورَةٌ لِبَرْقٍ يَسْطَعُ فِي السَّماءِ.
* صُورَةٌ لِجَسَدٍ يَرْفُرِفُ مِثْلَ طائِرٍ مِنْ نارٍ.
* صُورَةٌ لِمَوْتٍ مُسْتَنِدٍ عَلَى عَصاهُ الحَدِيدِيَّةِ.
* صُورَةٌ لِخُطُواتٍ تَشُقُّ أَقْفاصَ المَجْهُولِ.
* صُورَةٌ لِخَيالٍ يَمْشِي فِي دُروبِ الأَشْباحِ.
* صُورَةٌ لِوَجْهٍ مِنْ بَرْقٍ وَعاصِفَةٍ يَحْبِسُ دُمُوعَهُ وَمَشاعِرَهُ.
* صُورَةٌ لِعَذابٍ يَخْرُجُ مِنْ زِحامِ اللُّغَةِ.
* صُورَةٌ لِغُموضٍ أَهْدَأَ مِنْ وُعولٍ شاخَتْ مِنَ الرَّكْضِ.

* صُورَةٌ لِفاجِعَةٍ تَنْظُرُ بِسُخْرِيَةٍ إِلَى النِّهايَةِ.
* صُورَةٌ لِغُروبٍ أَحْمَرَ مِنْ بُرْكَةِ دَمٍ.

**جَوْقَةُ الأَرْواحِ التَّائِهَةِ**: يا رَبَّ اللَّيْلِ وَالجِهاتِ، يا رَبَّ الذِّكْرَياتِ، أَرِنا ما يَخْتَبِئُ فِي أَلْبُومَاتِ وَصَنادِيقِ الصُّوَرِ.

**الفُوتُوغْرافِيُّ العَجُوزُ**:
* صُورَةٌ لِوُجُوهٍ تَهْجُمُ كَالصَّرْخَةِ نَحْوَ المُنْحَدَرِ.
* صُورَةٌ لِخَوْفٍ يَتَقَدَّمُ كَطاغِيَةٍ وَيُطَوِّقُ القَلْبَ بِأَغْلالِ الأَيّامِ.
* صُورَةٌ لِمَصِيرٍ يَسْتَحِمُّ أَمامَ الخالِقِ المَجْهُولِ.
* صُورَةٌ لِمَخْلُوقاتٍ تُحاصِرُ القَلْبَ بِإِهاناتٍ دَنِيئَةٍ.
* صُورَةٌ لِكَوَاكِبَ تَنْثُرُ نُزْهَتَها عَلَى طُرُقاتٍ جائِعَةٍ.
* صُورَةٌ لِعَواصِمَ تُطْعِمُ الحَجَرَ لِلْمَحْرُومِينَ.
* صُورَةٌ لِحُلْمٍ يُخْتَمُ بِخَتْمٍ يَنْسَحِبُ كَمَهْزُومٍ.
* صُورَةٌ لِأَقْناعِ المِحْنَةِ وَهِيَ تُعْلِنُ كَرْنَفالَها الأَسْوَدَ.
* صُورَةٌ لِجُرْحٍ يَسْتَيْقِظُ مِنْ كابُوسٍ.
* صُورَةٌ لِغُموضٍ أَبْكَمَ لِأَعْراسٍ بِلا عُرْسانٍ.
* صُورَةٌ لِغُموضِ الأَعْراسِ فِي لَيْلٍ بِلا قُدّاسٍ.
* صُورَةٌ لِجُنْدِيٍّ مَجْرُوحٍ بِرَصاصةٍ.
* صُورَةٌ لِأَحادِيثَ لا يَبْلُغُ مَعْناها إِلّا مُنْشِدٌ أَعْمَى.
* صُورَةٌ لِشَرِيكٍ يَدْفَعُ الطَّعْنَةَ كَيْ تُثْمِرَ مَوْتًا كاذِبًا.
* صُورَةٌ لِاغْتِصابٍ يُعَرِّي شَرايِينَ الرُّوحِ.
* صُورَةٌ لِزَمَنٍ يَلْهَثُ لَهاثَ البَرَكاتِ وَالأَدْعِيَةِ.
* صُورَةٌ تَقُولُ: إِنَّ الإِلٰهَ عِبارَةٌ عَنْ صُورَةٍ.

## المِيمَرُ الثَّامِنُ – الخاتِمَةُ الفوتوغرافِيَّةُ

**الجُنْدِيُّ الجَرِيحُ:** صَوِّرْ، أَيُّها الفوتوغرافِيُّ، صَوِّرْ، صَوِّرْ. كَيْفَ تَحْتَفِظُ العَيْنُ بِالكائِناتِ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَنْشَقَّ مِنْ فَرْطِ الوَجْدِ؟

**الفوتوغرافِيُّ العَجُوزُ:** هكَذا، أَنْظُرُ مِنْ عَدَسَةِ الكاميرا، أُواصِلُ التِقاطَ الصُّوَرِ. أَنْظُرُ إِلى مَوْتٍ يَحْفِرُ حُفْرَةً كَبِيرَةً، مَوْتٌ بِمِنْدِيلٍ أَبْيَضَ، مَوْتٌ يَحْفِرُ... (أَضَعُ كاميرتِي قُرْبَ الحُفْرَةِ). أُصَوِّرُ الغُرْبانَ الَّتِي تَجَمَّعَتْ، أُصَوِّرُ صُراخَها، وَأَسْمَعُ (إيكار) يَصِيحُ بِي: "صَوِّرْ أَيُّها الفوتوغرافِيُّ...". مَوْتٌ يَحْفِرُ... وَأَقُولُ: إِنَّهُ مَوْتٌ بِلا فُتُوَّةٍ... مَوْتٌ يَرْتَجِفُ، لَكِنَّهُ يُواصِلُ الحَفْرَ... يَحْفِرُ وَيَنْتَحِبُ، يَحْفِرُ فِي الكَلِماتِ، فِي المَخاوِفِ، فِي المُسْتَنْقَعاتِ، فِي الرُّعْبِ وَالكَوابِيسِ... يَحْفِرُ فِي اللُّغَةِ المُطَرَّزَةِ عَلَى رُعْبِ الأَيَّامِ... يَحْفِرُ فِي قُوَايَ الَّتِي تَخُونُنِي، هَذَا المَوْتُ الَّذِي لا يُرِيدُ أَنْ يَمُوتَ... (ي... ح... ف... ر...) فِي عُرْيِ رُوحِي.

**الجُنْدِيُّ الجَرِيحُ:** لَقَدْ أَفْرَطْتَ فِي صُوَرِكَ، أَيُّها الفوتوغرافِيُّ... وَأَنْتَ تَنْظُرُ إِلَى الآلامِ، ذَلِكَ اللُّغْزِ، وَتَنْتَظِرُ ذِكْرَى خالَطَها الرَّمادُ الَّذِي هُوَ حَياتُكَ. اُنْظُرْ إِلَيْها، إِلَى الوَهَنِ الَّذِي أَصابَها، راقِبْ ذُهُولَها وَهَذَيانَها الظَّاهِرَ وَحَرَكاتِها الشَّرِسَةَ. اِنْزِعْ قِناعَكَ، وَانْظُرْ إِلَى انْسِلاخِ رُوحِها. كُنْ شَجَرَها فِي حَدِيقَةِ الكُنُوزِ الخَفِيَّةِ.

**الفوتوغرافِيُّ العَجُوزُ:** تَمَنَّيْتُ لَوْ أُفْرِغُ الكاميرا مِنْ تارِيخِها، وَأَنْ تُصْبِحَ مُجَرَّدَ مَعْدِنٍ يَمُرُّ مِنْ دُونِ شَهادَةٍ. كُلُّ صُورَةٍ تُضِيفُ زَمَنًا لا أَحْتَمِلُهُ.

**الجُنْدِيُّ الجَرِيحُ:** أَبْعِدِ الذُّعْرَ عَنْ لِسانِكَ، وَاسْتَمِعْ إِلَى كَلِماتِي، أَيُّها الفوتوغرافِيُّ...

اُنْظُرْ إِلَى الدَّمِ الَّذِي يَتَنَزَّهُ فِي الأَلْبُوماتِ.

اُنْظُرْ إِلَى الظِّلالِ، اُنْظُرْ إِلَى انْعِكاسِها الخافِتِ، اُنْظُرْ إِلَى العَتْمَةِ وَالجُرْحِ.

اُنْظُرْ إِلَى الأُفْعُوانِ الزَّاحِفِ بِقَسْوَةٍ نَحْوَ فِراشِ الذِّكْرَياتِ.

اُنْظُرْ إِلَى الصُّورَةِ الَّتِي تَلْتَقِطُ صُورَةً لَكَ، اُنْظُرْ إِلَى شُرُودِها، إِلَى نَوْمِها، وَإِلَى الكَوابِيسِ الوَاقِفَةِ عِنْدَ أَبْوابِها.

وَانْظُرْ مَرَّةً أُخْرَى إِلَى يَنْبُوعِ الصَّلاةِ العَمِيقَةِ، وَأَصْغِ إِلَى نُذُورِها، وَارْفَعْ صَرْخَةَ الخَلاصِ بِقَلْبٍ غَيْرِ هَيَّابٍ.

**جُوقَةُ الأَرْواحِ التَّائِهَةِ:** آمِينَ، آمِينَ لِلسِّرِّ الَّذِي لا يُرَى. آمِينَ لِلظِّلالِ الَّتِي تَعُودُ فِي هَيْئَةِ أَجْسادٍ أُخْرَى. آمِينَ لِلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى حُدُودِ اللَّيْلِ، وَلا يَجِدُونَ قَبْرًا إِلَّا فِي كَلامِنا.

## الإصحاحُ

## 7

## القُدَّاسُ الَّذِي يَسْبِقُ انْطِفاءَ الشَّهْرِ القَمَرِيّ

**يَقُولُ المَلَاكُ الأَعْمَى:** بِاسْمِ الآبِ الَّذِي رُسِمَ حَدًّا، وَبِاسْمِ الابْنِ الَّذِي عَبَرَ وَلَمْ يُسْتَقْبَلْ، وَبِاسْمِ الرُّوحِ الَّتِي تُسْتَجْوَبُ عِنْدَ المَعابِرِ، نَفْتَحُ هَذِهِ المَخْطُوطَةَ.

لَيْسَ فِي هَيْكَلٍ، وَلَا تَحْتَ قُبَّةٍ. عِنْدَ بَابٍ مَعْدَنِيٍّ لَا يُفْتَحُ إِلَّا لِلْمُوَثَّقِينَ.

**تَقُولُ جُوقَةُ الأَشْبَاحِ:** فَلْنَعْتَرِفْ بِمَا فَعَلْنَاهُ فُرَادَى، وَبِمَا سَمَحْنَا أَنْ يُفْعَلَ بِاسْمِنَا.

**يَقُولُ المَلَاكُ الأَعْمَى:** لِيَكُنْ هَذَا الِاعْتِرَافُ بَدَايَةَ وَعْيٍ، لَا رَاحَةَ ضَمِيرٍ.

**يَقُولُ الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ:** أَعْتَرِفُ أَمَامَ هَذَا الجَمْعِ، وَأَمَامَ الغَائِبِينَ قَسْرًا، أَنَّنِي اشْتَرَكْتُ فِي صَمْتٍ طَوِيلٍ. آمَنْتُ بِصُوَرٍ تَحْجُبُ الظُّهُورَ المَلْمُوسَ لِلآلِهَةِ، حَتَّى صَارَ لِكُلِّ صُورَةٍ سِيرَتُهَا الذَّاتِيَّةُ الخَاصَّةُ. وَقَبِلْتُ بِالحُدُودِ حِينَ أُلْبِسَتْ ثَوْبَ الغَرِيبِ.

- أَطْلُبُ الغُفْرَانَ، لَا لِأَنَّنِي مُذْنِبٌ فَقَطْ، لِأَنَّنِي تَأَخَّرْتُ عَنِ الشَّهَادَةِ.

**يَقُولُ الجُنْدِيُّ الجَرِيحُ:** لَا... لَا، لَيْسَ الآنَ... تَمَهَّلْ أَيُّهَا الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ... تَمَهَّلْ.

لَيْسَ الآنَ... المَوْتُ لَا يَحْدُثُ، إِنَّهُ يُؤَجَّلُ كَيْ تُوَاصِلَ الحَرْبُ تَصْحِيحَ مُسَوَّدَتِهَا. لَيْسَ الآنَ... العَدُوُّ هُوَ مَنْ يَسْمَحُ لِلسَّرْدِ أَنْ يَسْتَمِرَّ، وَلِذَلِكَ لَا يَجُوزُ أَنْ يَخْتَفِيَ.

لَيْسَ الآنَ... الزَّمَنُ هُنَا لَا يَتَقَدَّمُ، إِنَّهُ يُعَادُ بِصِيَغٍ أَقَلَّ وُضُوحًا.

لَيْسَ الآنَ... اللَّاهُوتُ تَعْلِيقٌ مُؤَجَّلٌ عَلَى غِيَابِ الخَلَاصِ، وَالإِلَهُ مُلَاحَظَةٌ لَمْ تُثْبَتْ. الدَّهْشَةُ لَمْ تُفْلِتْ بَعْدُ لِجَامَهَا، وَالجَمَالُ لَمْ يَصْرُخْ بَعْدُ صَرْخَتَهُ الأَخِيرَةَ، وَالجُرْحُ لَمْ يَكْتَمِلْ، وَالعِطْرُ لَمْ يَجُرَّ غَابَاتِهِ إِلَى أَصْقَاعِ المَجْزَرَةِ. وَأَنَا الجُنْدِيُّ الجَرِيحُ مَا زِلْتُ أَقِفُ فِي الأَرْضِ الحَرَامِ، أَتَشَهَّى لَحْنًا يَقِفُ عِنْدَ حَافَّةِ صَمْتِي، وَيُبَايِعُ كَلِمَاتٍ كَخَرْبَشَةٍ غَيْرِ وَاعِيَةٍ، وَأُغْنِيَةً تُمْطِرُ مَرَاكِبَهَا عَلَى خُوَذِ القَتْلَى، وَتَكْشِفُ عَنِ الإِلَهِ الرَّاقِصِ فِي المَقَابِرِ، حَتَّى تَنْفُذَ الأَرْوَاحُ إِلَى أَعْمَاقِ الكَوْنِ، وَتَتَهَجَّى الجُثَثُ نَشِيدَهَا الأَوَّلَ.

**تَقُولُ الأَرْوَاحُ التَّائِهَةُ:** وَبَعْدَ أَنْ يَتَنَفَّسَ الفُوتُوغْرَافِيُّ بِنَبْضِ العَدَسَةِ، تَتَدَلَّى الظِّلَالُ كَرَقْصَةٍ سِرِّيَّةٍ تُخَاطِبُ السَّمَاءَ.

**تَقُولُ الظِّلَالُ:**

- شَهِيدُ الضَّوْءِ أَعْطَانَا وَعْدَهُ الأَخِيرَ.

**وَتُرَدِّدُ الأَرْضُ الحَرَامُ:**

- صَوِّرْ يَا ابْنَ الوَحْدَةِ وَالظَّلَامِ، صَوِّرْ، فَالعَالَمُ لَا يُرَى إِلَّا وَهُوَ يَحْتَرِقُ.

**يَقُولُ الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ :**حِينَ أَطْلَقْتُ الضَّوْءَ وَصَوَّرْتُ ظِلَالًا تَتَحَدَّثُ إِلَى مَلَاكٍ أَعْمَى فِي أَرْضِ المَوْتَى، كُنْتُ أُقَدِّمُ لِلْخَطِيئَةِ خَاتَمًا فِضِّيًا، وَأَفْتَحُ لِلْعُيُونِ المَبْهُورَةِ فَمًا يَشْرَبُ مُصِيبَةً تَتَهَيَّأُ حَتَّى تَصْرُخَ بِالسِّرِّ: اهْدَأْ أَيُّهَا الشَّرِيكُ المُتَوَاطِئُ مَعِي، وَاهْدَئِي أَيَّتُهَا الآلِهَةُ الَّتِي تُدِيرُ المَشْهَدَ عَنْ بُعْدٍ، حَتَّى يَصْعَدَ الظِّلُّ مِنَ المَذْبَحَةِ إِلَى السَّمَاءِ... أَيَّتُهَا التِّلَالُ العَالِيَةُ المُقَدَّسَةُ المُطِلَّةُ عَلَى المَجْزَرَةِ، أَخْفِي الضَّحِكَ الآنَ حَتَّى يَظْهَرَ النَّجْمُ الرَّاقِصُ المَوْلُودُ مِنْ فَوْضَى الكَوْنِ. وَأَنْتَ أَيُّهَا الخَرَابُ، أَيُّهَا الرَّائِي الأَعْمَى الَّذِي يُوقِظُ المُدُنَ النَّائِمَةَ، اسْتَمِعْ إِلَيَّ الآنَ، وَأَعِرْنِي المَعُونَةَ، حَتَّى أَرْفَعَ رُخَامَةَ المَوْتِ المَرْبُوطَةَ بِعَرَبَةِ البَلَاءِ، وَأَرْفَعَ صَلَاةَ الذَّاهِبِينَ فِي الفَرَاغِ، يُنْشِدُونَ بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ تَرَاتِيلَ الخَلَاصِ:

- اِخْتَبِئِي، يَا أَشْبَاحَ الرِّيَاحِ، فِي خِرْقَةِ الخَرِيفِ، وَدَعِي الأَفْوَاهَ تَضُمُّكِ كَنِدَاءٍ ضَائِعٍ يَجُوسُ بَيْنَ الأَضْلَاعِ.

أَرْفَعُ الصَّمْتَ، وَأَتَوَخَّى عَدَالَةَ الكَلِمَاتِ. أُقَدِّسُ بَرَاعِمَ تُنَادِي الأُفُقَ أَنْ يَمِيلَ قَلِيلًا نَحْوَهَا. أَرْفَعُ الرُّوحَ الخَالِيَةَ مِنَ الإِثْمِ، فَهِيَ اسْمٌ مُؤَجَّلٌ، لَا يَقَعُ وَلَا يَكْتَمِلُ. وَأَرْفَعُ، مَرَّةً أُخْرَى، مِنْ وَرَاءِ حِجَابِ الدَّمِ، ضَوْءَ الحُرِّيَّةِ السَّاطِعَ الأَشِعَّةِ أَمَامَ سَطْوَةِ الهَذَيَانِ وَهَيْبَةِ الحُطَامِ.

**يَقُولُ الجُنْدِيُّ الجَرِيحُ:** قَبْلَ أَنْ تَرْفَعَ، أَيُّهَا الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ، خَتْمَ المَسَاءِ الأَخِيرِ، وَقَبْلَ أَنْ تَرْفَعَ النَّدَمَ عَنْ سِنِي الرَّمَادِ، وَقَبْلَ أَنْ نُطْفِئَ الضَّوْءَ، سَأُخْبِرُكَ عَنِ الصُّوَرِ الَّتِي لَا تُصَوَّرُ إِلَّا بِعَدَسَةٍ مَكْسُورَةٍ، وَعَنِ السِّفْرِ الَّذِي لَا يُقْرَأُ إِلَّا بِعَيْنٍ عَادَتْ مِنَ المَوْتِ.

أُصَوِّرُهَا ـ كَمَا تُصَوِّرُ أَنْتَ ـ أَنَا العَاصِفُ كَمَسِيحٍ مَخْذُولٍ، أَضَعُ عَلَى المَجْهُولِ رَصَاصَهُ، وَأُوَاصِلُ صَلَاةَ الطَّعْنِ فَوْقَ مَذَابِحِ الخَيَالِ، لِتُرْشِدَنِي إِلَى نَوْعٍ غَرِيبٍ مِنْ رُوحٍ مُلْهِمَةٍ، مَهَمَّتُهَا إِمْدَادِي بِكَلِمَاتٍ تُشْبِهُ صُوَرَكَ، أَيُّهَا الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ.

وَهَذِهِ صُوَرِي المُتَخَيَّلَةُ مِنَ الأَلْبُومِ الوَهْمِيِّ:

صُورَةٌ لِـ (مَلَاكٍ أَعْمَى يَنْظُرُ إِلَى السَّمَاءِ).

صُورَةٌ لِـ (ظِلٍّ عَائِدٍ عَلَى هَيْئَةِ شَبَحٍ).

صُورَةٌ لِـ (حَامِلِ كِتَابِ الصَّلَوَاتِ وَقَدْ فَاجَأَهُ الدَّمُ فِي الصَّفْحَةِ الأُولَى).

صُورَةٌ لِـ (الرُّسُلِ الَّذِينَ جَاءُوا مِنْ أَجْلِ نُكْتَةٍ نَزَفَتْ).

صُورَةٌ لِـ (خَرَابٍ يَرْقُصُ فَوْقَ مَوَائِدِ العَزَاءِ).

صُورَةٌ لِـ (عَاصِفَةٍ تَغْسِلُ فَمَهَا لِتَتَدَرَّبَ عَلَى النَّحِيبِ).

صُورَةٌ لِـ (سَمَاءٍ انْخَفَضَتْ فَجْأَةً كَيْ تَسْمَعَ اعْتِرَافَ المَلَائِكَةِ).

**وَصُوَرٌ تُشْبِهُ مُكَبِّرَ صَوْتٍ؛ لِأَنَّهَا رِسَالَةٌ تُبَلِّغُ الكَثِيرِينَ:**

صُورَةٌ لِ (مَوْتٍ يَسُوقُ قُطْعَانَهُ وَيَعْبُرُ كَفَرَسٍ مُتَهَوِّرٍ).

صُورَةٌ لِ (غَابَةٍ تَحْتَرِقُ وَتَقِفُ مِنْ شِدَّةِ الذُّهُولِ).

صُورَةٌ لِ (شَرِيدٍ فَاضَتْ عَلَيْهِ نِعَمُ البَهَاءِ).

صُورَةٌ لِ (عُرْسٍ يَجُرُّ ذَيْلَهُ فِي مَأْتَمٍ نَازِفٍ).

صُورَةٌ لِ (ذِئَابٍ تُضْحِكُ اللَّيْلَ بِشَهْقَتِهَا الغَرِيبَةِ).

صُورَةٌ لِ (بَحْرٍ يَنْحَنِي لِيَضَعَ جَسَدَهُ قُرْبَ أَقْدَامِ الرِّيحِ).

صُورَةٌ لِ (حِكَايَةٍ تَتَبَدَّلُ حِينَ يَتَبَدَّلُ المُنْشِدُونَ).

صُورَةٌ لِ (لِصٍّ يَدْخُلُ بِلا قِنَاعٍ إِلَى قَلْبِ الحِكَايَةِ).

صُورَةٌ لِ (مُفَاجَآتٍ تَرْكُضُ كَأَغْنَامٍ فَزِعَةٍ).

**وَصُوَرٌ أُخْرَى لِ (خَيَالٍ يَرْفَعُ صُرَاخَ الطُّيُورِ الجَارِحَةِ):**

صُورَةٌ لِ (وُحُوشٍ تَتَزَيَّنُ أَمَامَ مَرَايَا الأَرْضِ).

صُورَةٌ لِ (حُبْكَةٍ تُشْبِهُ الذَّبْحَ).

صُورَةٌ لِ (خَرَابٍ يَشْحَذُ حِرَابَهُ).

صُورَةٌ لِ (جُنْدِيٍّ يَحْمِلُ الذِّكْرَى وَيُجَرِّدُ المَسَاءَ مِنْ آخِرِ قِنَاعٍ).

صُورَةٌ لِ (شَاعِرٍ يُطْلِقُ النَّارَ عَلَى أَرَانِبِ عُمْرِهِ).

صُورَةٌ لِ (كَتِيبَةٍ تَرْمِي الرَّصَاصَ عَلَى شَاعِرٍ يَهْرُبُ مِنْ نِدَاءٍ مَجْهُولٍ، وَيُرَفْرِفُ مِثْلَ طَائِرٍ).

**يَقُولُ المَلاكُ الأَعْمَى:**

- مَنْ كَسَرَ وَجْهَهُ، فَلْيَتَقَدَّمْ، فَهُنَاكَ مَنْ يَضَعُ لَهُ ظِلًّا يَتَنَفَّسُ.

**يَقُولُ الجُنْدِيُّ الجَرِيحُ:**

خَبِّئِينِي أَيَّتُهَا الصُّوَرُ بِظِلَالِكِ الَّتِي تُشْبِهُنِي. وَخُذِينِي أَيَّتُهَا الأَفْوَاهُ كَنِدَاءٍ خَائِفٍ

يُخَبِّئُ صَوْتَهُ تَحْتَ إِشَاعَةٍ مِنَ الذُّعْرِ. وَلْتَرْتَفِعْ عَالِيًا، ثُمَّ تَهْبِطْ، عَوَاصِفُ القَلْبِ المَقْهُورِ.

وَأَنَا العَاصِفُ، كَسُلَالَاتِ الهَزِيمَةِ، كَيْفَ لِي أَنْ أَجِدَ أَلْفَاظًا تُلَائِمُ هَذِهِ الصَّلَاةَ المُضَرَّجَةَ بِالدِّمَاءِ؟ كَيْفَ لِي أَنْ أُجَهِّزَ لِلْغُمُوضِ رَصَاصًا، وَلِلرِّقَّةِ سِكِّينًا مِنَ الوَمِيضِ؟

كَيْفَ لِي أَنْ أَتَشَبَّهَ بِالأُفْعُوانِ... أَحْفَظُ هَيْبَةَ السِّرِّ، وَأَنْسُجُ بِمِرْجَلِ الهَلَعِ هَذِهِ الحُبْكَةَ الشَّارِدَةَ؟

كَأَنَّنِي أَجْلِدُ السَّرْدَ عَلَى نُعُومَتِهِ، وَأَجْلِدُ الخَيَالَ عَلَى جُرْأَتِهِ.

**تَقُولُ جُوقَةُ الأَشْبَاحِ:**

- مَاذَا عَنْ مَوْتٍ يَقُودُ قَطِيعَهُ كَنَبِيٍّ جُنُونُهُ أَقْوَى مِنْ نُبُوَّتِهِ؟
- مَاذَا عَنْ أُفُقٍ يَنْبُتُ كَجِسْرٍ مَائِيٍّ يَحْمِلُ خُطَى الضَّائِعِينَ؟[114]

---

114- **هَامِشُ الضَّائِعِينَ**: هَكَذَا قَالَ الْمَلَاكُ الْمَوْقُوفُ عَلَى تُخُومِ الرُّؤْيَا: يَا أَيُّهَا السَّائِرُ عَلَى رِمَالٍ لَا تَتْرُكُ أَثَرًا، مَنْ ضَاعَ مِنْكَ لَمْ يَضِعْ... عَادَ إِلَى ظِلِّهِ الْأَوَّلِ، حَيْثُ خُلِقَ مِن ارْتِعَاشِ نَفَسٍ، وَتَمَّتْ تَسْمِيَتُهُ بِالسِّرِّ الَّذِي لَا يُنْطَقُ... وَلَمَّا عَبَرْتُ صَقِيعَ الْحُدُودِ، رَأَيْتُ الْهَارِبِينَ يَلْتَفُّونَ حَوْلَ وَهَجٍ خَافِتٍ، كَأَنَّهُمْ أَرْوَاحٌ لَمْ تُسْتَدْعَ بَعْدُ، وَكُلٌّ مِنْهُمْ يَحْمِلُ جُرْحًا يَلْمَعُ مِثْلَ سِرَاجٍ مَنْسِيٍّ... سَمِعْتُهُمْ يَقُولُونَ: (يَا لَيْلُ، احْفَظْ أَسْمَاءَنَا مِنَ الذُّبُولِ، وَلَا تَجْعَلْنَا هَبَاءً تُسَلِّبُهُ الرِّيحُ...). وَأَجَبْتُهُمْ: (إِنَّ مَنْ ضَيَّعَتْهُ الطُّرُقُ تَتَعَهَّدُهُ الْعِنَايَةُ السُّفْلَى، وَتَكْتُبُ نَزِيفَ قَلْبِهِ عَلَى رَقٍّ مِنْ نُورٍ مَائِلٍ إِلَى السَّوَادِ...). هَبَطْتُ إِلَى الْحُفْرَةِ الَّتِي نَامَ فِيهَا أَوَّلُ الْعَابِرِينَ، فَوَجَدْتُ عِظَامَهُ تَلْمَعُ فَوْقَ الثَّلْجِ، كَأَنَّهَا مِرْآةٌ تَذْكُرُ مَا نَسِيَهُ الْعَالَمُ.

**الْهَامِشُ السِّرِّيُّ**: (رُوحُ الضَّائِعِ لَا تَنْطَفِئُ، إِنَّهَا تَتَحَيَّنُ جَسَدًا آخَرَ لِتُكْمِلَ مِعْرَاجَهَا. فَالْمَوْتُ لَيْسَ نِهَايَةَ الطَّرِيقِ، إِنَّهُ أَوَّلُ أَبْوَابِ الْكَلِمَةِ).

- مَاذَا عَنِ الغَابَاتِ تَحْتَرِقُ وَلَا تَشْتَعِلُ؟ وَعَنِ العُرْسِ يَجُرُّ أَعْيَادَهُ إِلَى مَأْتَمٍ لَا يَنْتَهِي؟

**وَيُجِيبُ المَلاكُ الأَعْمَى:**

- لِيَصْعَدِ الهَلَعُ إِلَى المِذْبَحِ، وَلْيَكُنْ وُجُودُنَا وَقْفًا لِمَا لَا يُفْهَمُ.

**يَقُولُ الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ:**

أَرَدْتُ أَنْ أُصَوِّرَ صُوَرًا مُذْهِلَةً فِي فَيْضِهَا وَجُرْأَتِهَا، كَثِيفَةً كَالظِّلَالِ الثَّقِيلَةِ الَّتِي تَسْبِقُ العَاصِفَةَ. أَرَدْتُ أَنْ أُصَوِّرَ صُوَرًا بِنَفْسِ حَرَارَةِ الكَلِمَاتِ، مِنْ دُونِ أَنْ أُكَرِّرَ تَرَاكِيبَهَا أَوْ أَصْوَاتَهَا؛ صُوَرًا مُحَاوِرَةً لَا شَارِحَةً، صُوَرًا تَقِفُ فِي مُوَاجَهَتِي كَمِرْآةٍ مُعَمَّاةٍ، تَشْتَرِكُ مَعِي فِي الغَلَيَانِ، وَفِي الرَّقْصَةِ المَذْعُورَةِ، وَفِي مَزَامِيرِ الهَلَعِ.

أَرَدْتُ أَنْ أُصَوِّرَ صُوَرًا تُحَوِّلُ الكِتَابَةَ إِلَى طَقْسٍ بَاطِنِيٍّ، وَتَسْتَلْهِمُ اللَّاهُوتَ الشَّرْقِيَّ، وَالحُضُورَ المُلْغِزَ لِلظِّلَالِ وَالخَلَائِقِ.

أَرَدْتُ لَهَا أَنْ تَكُونَ "قُدَّاسًا رَمْزِيًّا" يَلِيقُ بِالعَائِدِينَ بِلا وُجُوهٍ، يُقْرَأُ فِي الوِدْيَانِ الَّتِي تَعْبُرُهَا الأَرْوَاحُ الرَّاجِفَةُ بَيْنَ الحُدُودِ وَالمَخَافِرِ.

**تَقُولُ جُوقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:**

لَمْ تَنْتَهِ المَسْأَلَةُ بَعْدُ، تَمَهَّلْ أَيُّهَا الظِّلُّ الرَّاقِصُ عَلَى حَبْلِ التَّمَاهِي، تَمَهَّلْ.

لَا نُرِيدُ صُوَرًا لِأَجْسَادٍ تُشْبِهُ الأَشْبَاحَ وَالمَخَاطِرَ... نُرِيدُ صُوَرًا تُقَدِّسُ طُرُقَ الجِنَانِ وَالجِبَالَ العَالِيَةَ، حَتَّى تَضْطَرِبَ الأَجْرَامُ بِالصَّيْحَةِ الهَائِلَةِ.

٧

# النَّشِيدُ السَّابِعُ

## قُدَّاسٌ رُؤْيَوِيٌّ

## (الأَبْجَدِيَّةُ المُقَدَّسَةُ لِلْعَائِدِينَ بِلا وُجُوهٍ)

**يَقُولُ الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ:**
أَرَدْتُ أَنْ أُصَوِّرَ "أَبْجَدِيَّةً مُقَدَّسَةً" وَافِرَةَ الجَلَالَةِ، يَفْسَحُ كَشْفُهَا المَجَالَ لِلتَّأْوِيلَاتِ، وَلَا وُجُودَ لَهَا فِي أَيِّ تُرَاثٍ مَعْرُوفٍ. جُذُورُهَا تُوهِمُ القَارِئَ بِأَنَّهَا تَنْحَدِرُ مِنْ: "**طُقُوسِ الشَّرْقِ**"، وَ"**مَقَامِ الظِّلِّ وَالرَّجْعَةِ**"، وَ"**بَاطِنِيَّةِ العَائِدِينَ بِلا وُجُوهٍ**". وَلِكُلِّ حَرْفٍ طَقْسُهُ، وَظِلُّهُ، وَمَقَامُهُ الرُّوحِيُّ.

أَرَدْتُهَا بِمَثَابَةِ مِفْتَاحٍ سِرِّيٍّ لَا يُتْلَى إِلَّا فِي المَخْطُوطَاتِ الَّتِي لَا تُقْرَأُ إِلَّا لَيْلًا، وَتُسْتَدْعَى بِهَا الأَرْوَاحُ الَّتِي عَادَتْ وَلَمْ تَعْرِفْ أَسْمَاءَهَا.

وَهَذِهِ هِيَ كَامِلَةً [115]:

1- **(أَزَلٌ مُطْلَقٌ):** حَرْفٌ يَبْدَأُ بِهِ العَائِدُونَ حِينَ لَمْ يَعْرِفُوا اسْمَهُمْ. يُلْفَظُ كَشَهْقَةٍ تَبْحَثُ عَنْ جَسَدٍ.

2- **(بُذُورُ الظِّلِّ):** حَرْفٌ يُكْتَبُ عِنْدَمَا يَقْتَرِبُ الغِيَابُ مِنَ اللُّغَةِ. هُوَ مِفْتَاحُ تَدْوِينِ مَا لَا يُدَوَّنُ.

3- **(جِذْوَةُ الذُّهُولِ):** حَرْفٌ يُنْقَشُ عَلَى الجُلُودِ الَّتِي لَمْ تَعُدْ جُلُودًا. يَدُلُّ عَلَى بَدَايَةِ التَّحَوُّلِ.

4- **(دَهْشَةُ التَّوْحِيدِ):** حَرْفُ الوُجُوهِ المَفْقُودَةِ. يُسْتَدْعَى فِي الطُّقُوسِ الَّتِي تَبْحَثُ عَنْ مَلَامِحَ جَدِيدَةٍ.

5- **(هَيْبَةُ الهَلَعِ):** إِذَا كُتِبَ عَلَى بَابٍ، لَا يَدْخُلُ مِنْهُ مَوْتَانِ. هُوَ الحَرْفُ المُرَافِقُ لِلْعُبُورِ.

---

115- هَذِهِ الحُرُوفُ لَيْسَتْ لِلْقِرَاءَةِ أَوِ الكِتَابَةِ فَقَطْ، فَلِكُلِّ حَرْفٍ مِنْهَا طَقْسُهُ، وَحَرَكَةُ يَدِهِ، وَبَخُورُهُ المعَيَّنُ، وَلَوْنُ شَمْعَتِهِ، وَمَقَامُهُ الرُّوحِيُّ.

6- **(وَتَرُ الكَوَابِيسِ):** حَرْفٌ يُتْلَى فِي مَرَاسِيمِ الحُلُولِ. يَقُولُ: "هَا أَنَا أُخْلِي مَكَانِي لِلنُّورِ".

7- **(زَاهِدٌ بِزُهْدِهِ):** لَا يُسْتَعْمَلُ إِلَّا فِي النُّصُوصِ الَّتِي تَحُومُ بَيْنَ الحُلْمِ وَالسَّرْدِ. عَلَامَةٌ عَلَى بَدَايَةِ الِانْخِطَافِ.

8- **(حَدُّ الفَاصِلِ بَيْنَ وَجْهٍ وَوَجْهٍ):** حَرْفُ القُدَّاسِ البَاطِنِيِّ. يُكْتَبُ عَلَى الخُبْزِ الأَسْوَدِ.

9- **(طَرَائِقُ المَعْنَى):** حَرْفٌ لَا تَسْتَعْمِلُهُ إِلَّا الأَرْوَاحُ الَّتِي عَادَتْ بِوَجْهٍ مُضَاعَفٍ. يَدُلُّ عَلَى "الِانْخِطَافِ".

10- **(يَعْبُدُ نَفْسَهُ وَلَا يَسُرُّ بِرَسْمِهِ):** يُتْلَى عِنْدَ سَمَاعِ السَّيْلِ فِي اللَّيْلِ. هُوَ بَدَايَةُ كُلِّ نِدَاءٍ.

20- **(كَوْنٌ سَاقِطٌ):** حَرْفٌ يَكْتُبُهُ الهَارِبُونَ تَحْتَ المَطَرِ. يُعْتَقَدُ أَنَّهُ يَفْتَحُ دُرُوبًا سِرِّيَّةً عَبْرَ الصَّخْرِ.

30- **(لَهِيبُ الرُّؤْيَا):** حَرْفُ النُّبُوءَةِ اليَتِيمَةِ، يُكْتَبُ بِالحِبْرِ اليَاقُوتِيِّ فَقَطْ.

40- **(مَجْرَى الصَّرْخَةِ المُقَدَّسَةِ):** حَرْفُ العَسْكَرِ وَالمَذَابِحِ. يُحِلُّ الذَّاكِرَةَ عَلَى هَيْئَةِ سَيْلٍ.

50- **(نُقْطَةُ العَالَمِ الَّتِي تُضِيءُ سِرًّا):** حَرْفُ السَّنَابِلِ الَّتِي تَتَوَهَّجُ عِنْدَ الخَوْفِ. يَدُلُّ عَلَى المِيلَادِ المُتَأَخِّرِ.

60- **(سِيمَاءُ لِغَيْرِ سِيمَاءٍ):** حَرْفٌ يُسْتَعْمَلُ فِي سَرْدٍ مَا لَمْ يَحْدُثْ بَعْدُ.

70- **(عَابِدٌ بِعِبَادَتِهِ):** حَرْفٌ لَا يَكْتُبُهُ إِلَّا مَنْ رَأَى مَا لَا يَنْبَغِي أَنْ يُرَى.

80- **(فِيهِ مَعَانِي الحَضْرَةِ):** يُسْتَدْعَى عِنْدَ مَوْتٍ لَمْ يَكْتَمِلْ.

90- **(صَفْحَةُ الزَّمَنِ المُتَكَسِّرِ):** حَرْفُ اللَّامَكَانِ. يُقْرَأُ بِلا صَوْتٍ.

100- **(قَوْلُ رُؤْيَتِهِ كَرُؤْيَةِ الحَالِ):** حَرْفُ اللَّيْلِ الحَارِسِ. تَكْتُبُهُ الأَرْوَاحُ حِينَ تَتَرَدَّدُ قَبْلَ العَوْدَةِ.

200- **(رِيحُ الذِّكْرَى):** تَدُلُّ عَلَى العَتَبَةِ بَيْنَ الطُّمَأْنِينَةِ وَالرُّعْبِ المُقَدَّسِ.

300- **(شِرْكٌ خَفِيٌّ):** حَرْفُ الكَهَنَةِ السِّرِّيِّينَ. يُلْفَظُ كَالرِّيحِ حِينَ تَمَسُّ الجَبِينَ.

400- **(تَاجُ الغَيْبِ):** حَرْفٌ لَا يَتِمُّ الإِخْلَاصُ إِلَّا بِهِ.

500- **(ثَعْلَبُ العِبَارَةِ):** حَرْفٌ شَأْنُهُ شَأْنُ الأَسْرَارِ.

600- **(خَاتِمٌ لَا يُغْلَقُ):** حَرْفٌ يَلْزَمُ الصَّمْتَ حِينَ يَخْتَارُ غَيْرُهُ الكَلَامَ.

700- **(ذِكْرُ اللِّسَانِ وَالإِعْلَانُ عَنِ الحَالِ):** حَرْفٌ لَهُ مَقَامَاتٌ وَمَعَارِجُ رُوحِيَّةٌ.

800- **(ضَمِيرٌ عَائِدٌ إِلَى أُصُولِهِ):** حَرْفٌ يَخْرُجُ وَصْفُهُ عَنْ حُدُودِ المَجَازَاتِ.

**900- (ظَاهِرٌ عِنْدَ أَهْلِ الحَقِّ):** حَرْفٌ يَكْرَهُ أَنْ تَظْهَرَ عَلَى يَدَيْهِ آيَةٌ أَوْ كَرَامَةٌ.
**1000-(غِبْطَةُ السُّكُونِ):** آخِرُ الحُرُوفِ، وَأَوَّلُ الرُّجُوعِ. يُكْتَبُ عَلَى حَافَّةِ المَذَابِحِ، وَعَلَى نُعُوشِ الرَّاحِلِينَ بِلا مَلَامِحَ.([116])

**يَقُومُ المَلَاكُ الأَعْمَى المُغَشَّى بِالضَّوْءِ، وَيَضَعُ عَصًا مِنْ نُورٍ عَلَى حُرُوفِ الأَبْجَدِيَّةِ، وَيَقُولُ:**

- مَنْ عَادَ، فَلْيَعُدْ مَرَّتَيْنِ، وَمَنْ فَقَدَ وَجْهًا، فَلْتَخْلُقْ لَهُ السَّمَاءُ وَجْهًا آخَرَ.

ثُمَّ يَرْشُقُ السَّمَاءَ بِحَبَّاتِ الغُبَارِ، كَبَخُورٍ يَصْعَدُ إِلَى ظِلَالِ الأَسْلِحَةِ، وَيَقُولُ:

- مَا أَكْثَرَ الَّذِينَ يَهْرُبُونَ مِنْ أَجْسَادِهِمْ، وَمَا أَقَلَّ مَنْ يَعُودُونَ إِلَيْهَا.

# الإِصْحَاحُ

# 8

# طُقُوسُ القِرَاءَةِ المُقَدَّسَةِ لِهَذِهِ الأَبْجَدِيَّةِ

## (1)

## قُدَّاسُ الفُوتُوغْرَافِيِّ فِي مَرَايَا الأَرْوَاحِ العَائِدَةِ

صَوِّرْ أَيُّهَا الفُوتُوغْرَافِيُّ، يَا مَنْ أَعْطَى لِلْكَامِيرَا سُلْطَانًا فَوْقَ سُلْطَانِ النَّصِّ.
صَوِّرْ أَيُّهَا الشَّاهِدُ، فَالحَقِيقَةُ هِيَ غَايَةُ التَّصْوِيرِ، وَلَا تَذْهَبْ إِلَى مُغَالَطَاتٍ لَا قُدْرَةَ لَكَ عَلَى رُؤْيَتِهَا.

---

[116]- (تَعْلِيقٌ مِنَ النَّاسِخِ السِّرِّي)
أَرَادَ النَّاسِخُ المجهول أَنْ تَتَحَوَّلَ (الأَبْجَدِيَّةُ) إِلَى مَنْظُومَةٍ طُقُوسِيَّةٍ مُتَكَامِلَةٍ، ذَاتِ بُعْدٍ عَدَدِيٍّ وَرُوحِيٍّ فِي آنٍ وَاحِدٍ، وَذَلِكَ وَفْقًا لِنِظَامٍ جَفْرِيٍّ دَاخِلِيٍّ وَاضِحٍ (آحَادٌ، عَشَرَاتٌ، مِئَاتٌ، ثُمَّ أَلْفٌ)، بِحَيْثُ يُقَابِلُ كُلَّ حَرْفٍ قِيمَةٌ رَمْزِيَّةٌ وَرُوحِيَّةٌ مُحَدَّدَةٌ.

صَوِّرْ أَيُّهَا الظِّلُّ الرَّاقِصُ عَلَى حَبْلٍ مِنْ وَحْيٍ مَعْصُومٍ، وَتَزَلَّجْ عَلَى الحُرُوفِ كَمَا لَوْ أَنَّكَ تَتَزَلَّجُ عَلَى ثُلُوجٍ بَيْضَاءَ مِنَ الكِتَابَةِ.

كُونِي كَرِيمَةً مَعَهُ، أَيَّتُهَا الحُرُوفُ، أَيَّتُهَا الأَبْجَدِيَّةُ الَّتِي تُزَوِّدُ السُّلَالَةَ بِالنُّقُوشِ وَطَلَاسِمِ الحَيَاةِ وَالمَوْتِ.

يَا أَرْوَاحَ المَوْتَى الَّتِي يَحْمِلُ الرِّجَالُ أَسْمَاءَهَا، وَيَا ظِلَالَ الأَحْجَارِ الكَرِيمَةِ، وَيَا مِرْآةَ الفِطْنَةِ، وَيَا صِلَةً بَيْنَ الإِنْسَانِ وَخَالِقِهِ، وَيَا نَشِيدًا يَعْبُرُ القِشْرَةَ وَيَنْفُذُ إِلَى الأَعْمَاقِ.

أَيَّتُهَا الحَلِيفَةُ المُطَّلِعَةُ عَلَى أَسْرَارِ الآلِهَةِ وَرَقَصَاتِ المَلَائِكَةِ، يَا أَبْجَدِيَّةً رَاسِخَةً فِي القُلُوبِ، لَا يُعَارِضُهَا الحَقُّ وَلَا يُكَذِّبُهَا اليَقِينُ.
يَا شَفَافِيَّةَ الضَّوْءِ حِينَ يَتَذَكَّرُ حَقِيقَةً إِلَهِيَّةً، تَسْتَنْهِضِينَ الحُرُوفَ كَمَا تَسْتَنْهِضُ الأَيْقُونَاتُ سِرَّهَا.
اِخْلَعِي عَنِ الحِبْرِ هَذَا المَحْوَ، وَارْفَعِيهِ فِي مَوْكِبٍ يَعْبُرُ أَجْنِحَةَ الكَوَاكِبِ، حَيْثُ تَتَلَمَّسُ الأَرْوَاحُ حُدُودَهَا، وَتُمْحَى الحُدُودُ.

لَا أَتَزَلَّجُ عَلَى الحُرُوفِ... أَعْبُرُ فِيهَا كَمَا يَعْبُرُ الرَّائِي فَجًّا بَيْنَ نَارٍ وَمَاءٍ...
تَعِبْتُ مِنْ صَيْدِ الفُهُودِ، وَمِنْ أَنْ يُوقِظَنِي الزِّنَادُ كَأَنَّنِي ظِلُّ رَصَاصَةٍ. تَعِبْتُ مِنَ السَّيْرِ كَأَعْمَى بِلا قَائِدٍ وَلَا دَلِيلٍ. تَعِبْتُ مِنَ الظِّلَالِ، وَمِنْ تَذَوُّقِ التَّفَاسِيرِ، وَمِنَ النَّدَى وَهُوَ يُثْقِلُ وَرْدَ النَّافِذَةِ، وَمِنْ قَارُورَةٍ تَجْمَعُ ذَاتَ الأَصْدَافِ كَأَنَّهَا تَحْفَظُ وَشِيجَةَ لُغَةٍ لَمْ تُولَدْ بَعْدُ.
أَوَدُّ أَنْ أَتَكَلَّمَ... بِمَا أَعْرِفُ، وَبِمَا يُوحِي، أَنْ أَخْرِقَ الكَبَائِرَ القَرِينَةَ بِاليَقِينِ، وَأَفْتَحَ فِي سِدَانَةِ البَيْتِ المَعْمُورِ مَمَرًّا لِلضَّوْءِ.
هَيَّا أَيُّهَا الكَلَامُ، أَيُّهَا المَرْكَبُ الَّذِي يَمْخُرُ فِي بَحْرِ الهَذَيَانِ، خُذْنِي كَمَا يَأْخُذُ الكَاهِنُ نَفَسَهُ الأَوَّلَ قَبْلَ أَنْ يَبْدَأَ القُدَّاسَ.

لَمْ أَكُنْ إِلَّا فُوتُوغْرَافِيًّا يُطْلِقُ فَرَسًا مِنَ الحِبْرِ فِي بَرِّيَّةٍ عَصَفَتْ بِهَا الأَهْوَاءُ، وَيَغْسِلُ بِالأَعْشَابِ وُجُوهَ الأَغَانِي، حَتَّى تَشِعَّ المُتَاهَةُ مِنْ دَاخِلِهَا كَصُنْدُوقِ رُؤًى.

أَيَّتُهَا الحُرُوفُ، أَيُّهَا الهَوَاءُ الخَارِجُ مِنْ تَجْوِيفِ القَلْبِ، يَا مَدَائِنَ المَعْنَى، يَا دِرْعَ الرُّوحَانِيَّةِ اللَّامِعَ، أُصَوِّرُ صُورَتَكِ وَأَرْجُو شَفَاعَتَكِ.

هَا هُوَ نَشِيدُكِ عَلَى مَقَامِ الفَنَاءِ، وَهَا هِيَ رَقْصَتُكِ عَلَى مَقَامِ المُشَاهَدَةِ. سَيَكُونُ لَكِ هَذَا الاِحْتِرَاقُ الشَّغُوفُ الظَّاهِرُ فِي المَعَانِي الَّتِي تَنْفُخُ فِي صُورَةِ الطَّائِرِ الَّذِي أَنْشَأْتِهِ مِنَ الطِّينِ، فَيَقُومُ حَيًّا وَيَقُولُ:

"مَرْحَبًا أَيُّهَا السَّالِكُ، مَرْحَبًا أَيَّتُهَا النَّفْخَةُ الَّتِي لَوَّنَتْهَا أَقْلَامُ الخَلْقِ، مَرْحَبًا أَيُّهَا الضَّارِعُ، المُبْتَهِلُ، الرَّاغِبُ فِي الوُلُوجِ إِلَى مُطْلَقِ المُتَعَالِي.

سَتَكُونُ أَكْثَرَ حِكْمَةً، وَأَكْثَرَ تَجْرِبَةً. سَتَكُونُ الصَّلَاةَ وَالنَّذْرَ، وَالأَمَلَ وَالرَّجَاءَ، وَالدُّعَاءَ المَرْفُوعَ نَحْوَ الرَّبِّ السَّاحِرِ".

هَذَا نَشِيدُكِ وَهَذِهِ رَقْصَتُكِ...

سَأُكَلِّمُكِ عَنْ إِيكار...

إِيكارُ لَيْسَ العُبُورَ الَّذِي يَبْتَسِمُ لِلأَذَى... لَيْسَ هَذَا أَبَدًا... كَلَّا، لَيْسَ كَذَلِكَ...

هَا هُوَ نَشِيدُهُ، وَهَا هِيَ رَقْصَتُهُ:

هَا هُوَ إِيكارُ عِنْدَ حَدِّ الضَّوْءِ.

احْتَرَقَ.

سَقَطَ.

يَدَاهُ عَلَى غِيَابٍ يَتَوَهَّجُ.

مُوسِيقَى يَابِسَةٌ.

خَلَاصٌ دُونَ طُقُوسٍ.

تَأَمُّلٌ دُونَ اسْتِنَارَةٍ.

صَلَاةٌ دُونَ مَشَاعِلَ.

الكَلِمَةُ سُمِعَتْ، وَالحَقِيقَةُ جُرِحَتْ.

مَا سَقَطَ جَسَدُهُ...

انْفَتَحَ.

وَمِنْ رَمَادِهِ قَامَتِ اللُّغَةُ.

(حَمَلَ رَمَادَهُ إِلَى الجَبَلِ، وَابْتَدَعَ لِنَفْسِهِ شُعْلَةً مُضِيئَةً).

هَا هُوَ نَشِيدُهُ، وَهَا هِيَ رَقْصَتُهُ.

يَا خَفَايَا تَهْرُولُ فِي المُنْعَطَفِ الوَحْشِيِّ، يَا سِدْرَةَ المُنْتَهَى...

أَحْلَامِي احْتَرَقَتْ وَأَصْبَحَتْ رَمَادًا، فَبِأَيِّ بَرْزَخٍ كُنْتُ أَخْتَبِئُ؟

مَاذَا أَفَادَتْنِي المَرَاتِبُ حَتَّى يَفْتِّشَ المَلَاكُ عَنِّي وَلَا يَرَانِي؟...

هَا أَنَا أَجْلِسُ فِي جَمْرِ الرَّمْزِ، وَلُغَتِي تَعُودُ إِلَى مَخْدَعِ الإِيقَاعِ كَمَا يَعُودُ السَّائِرُ مِنَ الحُلْمِ إِلَى ظِلِّهِ.

يَا خَفَايَا، هَيِّئِي لِلَّفْظِ لَهَاثَ المَحَابِرِ، وَأَعِينِي العِبَارَةَ، وَسَاعِدِي الإِشَارَةَ، وَاجْعَلِي الحَصَاةَ تَنْطِقُ كَمَا يَنْبَغِي، وَازْرَعِي وَرْدَةً فِي حَدِيقَةِ البَلَاغَةِ.

هَا هُوَ البَدَنُ، سِجْنُ النَّفْسِ وَجَحِيمُهَا، يَنْظُرُ إِلَى صُورَةِ إِيكارَ عَلَى أَنَّهَا صُورَةُ الغَيْبِ المُتَجَلِّيَةُ.

وَهَا أَنْتَ تَرْتَدُّ إِلَى لِسَانِي، يَا مَنْ صَارَ لِسَانًا كُلَّهُ، وَهَا أَنْتَ تَرْتَدُّ إِلَى سَمْعِي، يَا مَنْ صَارَ سَمْعًا كُلَّهُ.

مِثْلَ جَفَافٍ يَشُدُّ قِنَاعَهُ الطِّينِيَّ فَوْقَ مَلَامِحَ لَا تُشْبِهُ إِلَّا انْكِسَارَهَا.

وَمِثْلَ عَنَاكِبَ مَذْبُوحَةٍ تَخُطُّ بِدَمِهَا عَلَى تَابُوتِ الهَوَاءِ، وَأَنْتَ فِي نَوَاوِيسِ العُشْبِ تُقِيمُ قَامَتَكَ أَمَامِي.

بَيْنَنَا صَمْتٌ لَهُ جَسَدٌ فُسْفُورِيٌّ، يَسْقُطُ كَنِيزَكٍ خَافِتٍ وَلَا يَنْطَفِئُ.

هَا هِيَ الأَسْئِلَةُ بِجِرَارِهَا المَكْسُورَةِ تَرَى إِيكارَ وَقَدْ أَهْلَكَهُ شَغَفُ العُلُوِّ.

جَسَدُهُ مُحْتَرِقٌ بِسُقُوطِهِ، وَيَدَاهُ مَطْوِيَّتَانِ عَلَى غِيَابٍ يَلْمَعُ فِي جَسَدِ الإِشَارَاتِ.

كَانَتَا جَافَّتَيْنِ كَمُوسِيقَى انْطَفَأَتْ، لَكِنَّ غِيَابَهُ أَوْرَثَ اللُّغَةَ نَارًا لَا تَنْطَفِئُ.

وَعَبْرَ القَنَادِيلِ الَّتِي أَوْقَدَتْهَا الذِّئَابُ فِي زَغَبِ بَشَرَتِكِ الثَّلْجِيَّةِ، يَنْهَضُ غِيَابُكَ كَنَارٍ تُوَرِّثُ اللُّغَةَ حَدَّهَا، وَتَتْرُكُ فِي الرَّمَادِ أَثَرَ المَعْنَى.
فَتَرْتَفِعُ زَنَابِقُ نَاحِلَةٌ، تَرَى مَنْ يَكْسِرُ جِرَارَ الكَلَامِ وَيُطْلِقُ غِزْلَانَ الحُلْمِ.
وَبِعَيْنٍ غَرِيبَةٍ رَأَتْ لُغَةٌ أُخْرَى وَجْهًا جَمِيلًا ضَائِعًا عِنْدَ الحَافَّةِ الَّتِي بَيْنَ المَخَافِرِ وَالحُدُودِ.
وَرَأَتْ قِيثَارَةً أَخِيرَةً، وَيَدَيْكَ تَتَفَتَّحَانِ، وَمِنْ بَيْنِ أَصَابِعِكَ تَخْرُجُ طُيُورٌ كَانَتْ هُنَاكَ طَوَالَ مَوْتِكَ...
تَنْتَظِرُ إِشَارَةَ القِيَامَةِ.
المَجْدُ لَكَ أَيُّهَا العَابِرُ، يَا نَسْرَ الرُّوحِ، يَا نِدَاءَ المَعْنَى حِينَ يَتَرَخَّمُ، حَيْثُ لَا كَلَامَ وَلَا حُرُوفَ، أَيُّهَا السِّرُّ المُتَجَلِّي فِي كُلِّ كِيَانٍ، أَيُّهَا التَّابِعُ المَحْجُوبُ حَتَّى يَنْكَشِفَ لَكَ الغَيْبُ، وَتَفِيضَ مَرَاكِبُ الضَّوْءِ بِنُشُوزٍ مُقَدَّسٍ.
المَجْدُ لَكَ أَيُّهَا السَّالِكُ، السَّائِرُ ضِدَّ النَّارِ الَّتِي تُحْرِقُهُ لِيَشْهَدَ أَنَّ العُبُورَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِاعْتِرَافٍ يَتَوَهَّجُ، وَأَنَّ الكَلَامَ، حِينَ يَصْدُقُ، يَصِيرُ طَقْسًا، وَيَصِيرُ نَارًا تَهْدِي وَلَا تُحْرِقُ.

## (2)

## قُدَّاسُ الوَحْلِ وَيَقَظَةُ النِّهَايَاتِ

(مِنْ سِفْرِ المَلَاكِ الأَعْمَى)

**المَلَاكُ الأَعْمَى:**

يَا رِيحَ الأَسْرَارِ الَّتِي تَمُرُّ فَوْقَ خَرَائِبِ القَلْبِ، يَا عَيْنَ اللَّيْلِ السَّاهِرَةَ عَلَى حُدُودِ الغَيْبِ، يَا نَبْعَ الحِكَايَاتِ الدَّفِينَةِ فِي عِظَامِ الأَرْضِ، امْنَحِينِي صَوْتًا أَرْوِي بِهِ مَا رَأَيْتُ.

أَنَا المَلاكُ الأَعْمَى، الوَاقِفُ فِي الضَّوْءِ، وَحَارِسُ الأَسْفَارِ الَّذِي يَرْوِي قِصَّةَ العُبُورِ، وَكَاتِبُ السِّفْرِ الَّذِي ضَاعَ بَيْنَ النَّارِ وَالدُّمُوعِ، وَالسَّاهِرُ عَلَى مِيزَانِ الدَّمِ حِينَ بَقِيَتِ الدِّمَاءُ مُتَخَثِّرَةً وَلَمْ تَجِفَّ.

لَنْ أَسْتَسْلِمَ لِنُصْحِ المَصِيرِ، وَسَأَرْوِي مَا شَهِدَتْهُ العَيْنُ حِينَ فَتَحَتِ الحِكَايَةُ بَابَهَا، قَبْلَ أَنْ تَلُفَّهَا ظُلْمَةٌ لَا تُنِيرُهَا الشَّمْسُ، وَيَمْقُتُهَا القَوْلُ.

هَلْ أَسْرُدُ... أَمْ أُصْغِي لِدَمْعِكَ، يَا خَتْمَ العَابِرِينَ؟

**جُوقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:**

أَيُّهَا العَابِرُ، اسْقِ القَلْبَ مِنْ دَمْعِكَ...

أَيُّهَا العَابِرُ، دُلَّ الرُّوحَ عَلَى دَرْبِكَ.

**المَلَاكُ الأَعْمَى:**

فِي لَيْلٍ وَاهِنٍ، كَانَ الغَامِضُ يَبْدُو فِي عُيُونِ البَشَرِ إِلَهًا.

فِي سَاعَةٍ كَانَتِ الأَرْضُ فِيهَا تَنْبِضُ كَصَدْرِ كَائِنٍ عَتِيقٍ، اسْتَرَاحَ العَابِرُ عَلَى نَبْضِ الوَحْلِ.

لَمْ يَكُنِ الصَّبَاحُ قَدْ وُلِدَ بَعْدُ، لَكِنَّ الحِكَايَةَ كَانَتْ تَتَكَوَّنُ فِي العَتَمَةِ.

وَكَانَتِ النِّهَايَاتُ نَائِمَةً فِي وَكْرِهَا.

حَتَّى فَتَحَ العَابِرُ البَابَ.

فَخَرَجَتْ أَفْرَاخُ النِّهَايَاتِ تُرَفْرِفُ فَوْقَ الخَرَابِ.

وَكَانَ الوَهْمُ يَمْحُو زَبِيبَ عُمْرِهِ اليَابِسَ بِمِمْحَاةِ العَرَاءِ.

وَكَانَ الفَرَاغُ يَرْتَدِي قُبَّعَةَ الذُّهُولِ، وَيَقِفُ حَارِسًا عَلَى بَابِ السِّرِّ.

وَكَانَ الحِبْرُ يَسْتَدْعِي الأَرْوَاحَ كَيْ تُصْغِيَ إِلَى الصَّلَاةِ.

لِمَ أُصَلِّي؟

أَإِلَى إِلَهٍ يُرْسِلُ القَرَابِينَ الجِنَائِزِيَّةَ، وَهِيَ فِي الحَقِيقَةِ هَدِيَّةٌ تُعَادِلُ غِيَابَهُ؟

بِمَ أُصَلِّي؟
عَلِّمِينِي، أَيَّتُهَا الكَلِمَاتُ المُطَهِّرَةُ لِلشَّرِّ.
عَلِّمْنِي، أَيُّهَا الخَيَّالُ الَّذِي يُرِيدُ اجْتِيَازَ المُنْتَهَى بِقَفْزَةٍ وَاحِدَةٍ.
قَبْلَ أَنْ تُصْبِحَ الأَخْيِلَةُ حَقِيقَةً مُحْتَمَلَةً، وَقَبْلَ أَنْ يَرْفَعَ السَّرْدُ (117) صَوْتَهُ بِأُنْشُودَةِ المَوْتِ.
هَلْ أَسْرُدُ...
أَمْ أُصْغِي لِدَمْعِكَ، يَا خَتْمَ العَابِرِينَ؟

**جُوقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:**

أَيُّهَا العَابِرُ، اسْقِ القَلْبَ مِنْ دَمْعِكَ...
أَيُّهَا العَابِرُ، دُلَّ الرُّوحَ فِي دَرْبِكَ.

**المَلَاكُ الأَعْمَى:**

عَادِلٌ أَنْتَ أَيُّهَا الخَيَّالُ، وَكُلُّ أَطْيَافِكَ عَادِلَةٌ.
أَتَضَرَّعُ إِلَيْكَ كَسَيِّدٍ وَشَفِيعٍ، بِصَلَوَاتٍ مَشْفُوعَةٍ بِالتَّسْبِيحِ تَلِيقُ بِسَيِّدٍ وَشَفِيعٍ.
لَا تُشْرِكْنِي فِي طَاسَةِ الوَلِيمَةِ، وَلَا فِي شَرَابِ الدَّمِ المُرَاقِ عَلَى ثَلْجِ الجَبَلِ.
لَا تَجْعَلْنِي أَتَكَلَّمُ بِلِسَانِ الرَّمْزِ، أَوْ أُرَدِّدُ لَعْنَةَ المَقْتُولِ العَاتِيَةَ.
وَأَبْعِدْ عَنِّي اليَأْسَ، هَذِهِ الكَلِمَةَ الهَزِيلَةَ الوَاهِيَةَ.
وَامْنَحْنِي قُوَّةَ الكَلِمَاتِ الَّتِي تَنْطِقُ بِهَا قُوَى الجَحِيمِ الدَّاجِيَةِ.

---

117- عَنِ السَّرْدِ الَّذِي يُنَاقِضُ ذَاتَهُ (حِكْمَةٌ لِلرَّائِي الْمَجْهُولِ):
(لَا يَكْتَمِلُ سِفْرٌ إِلَّا إِذَا عَكَسَ نَفْسَهُ. فَالْكَلَامُ الَّذِي لَا يَنْهَدِمُ تَحْتَ مَعْنَاهُ لَا يَحْمِلُ أَسْرَارًا. وَكُلُّ سِفْرٍ مُقَدَّسٍ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مِرْآةً تَعْكِسُ مِرْآةً، حَتَّى يَضِيعَ الْأَصْلُ وَيَتَجَلَّى السِّرُّ).

لَمْ أَكُنِ المَلَاكَ الصَّالِحَ، وَلَمْ يُكَلِّفْنِي الرَّبُّ بِالوَحْيِ.
وَلَسْتُ مِنَ الظِّلَالِ الَّتِي تُصَاحِبُ مَشِيئَةَ الوَاهِبِ، غَيْرَ عَابِئَةٍ بِشَطَطِ الخَيَّالِ.
أَصْغِ، أَصْغِ إِلَيَّ أَيُّهَا الخَيَّالُ.
لَا تُعَذِّبْنِي بِهَذَا الجُنُونِ، وَلَا تَغْمِزْ بِحَاجِبَيْكَ فِي الظَّلَامِ.
ارْفَعْ عَيْنَيْكَ، وَانْظُرْ إِلَيَّ أَيُّهَا الخَيَّالُ.
فَأَنَا مَلَاكٌ غَيْرُ مَرْئِيٍّ، أَنْفَتِحُ عَلَى السَّرْدِ كَمَا تَنْفَتِحُ بِكْرٌ فِي فَضَاءٍ بِلَا جِدَارٍ.
لَمْ تُسَجَّلْ لِي سِيرَةٌ فِي أَلْوَاحِ البَاطِنِيِّينَ، وَلَا أَلْهَجُ بِالنِّعَمِ الَّتِي تَنْسَكِبُ مِنْ خَزَائِنِ الأَسْرَارِ.
تَرَكْتُ لِلْمَوْتِ أَنْ يُطْلِقَ أُورْكِسْتْرَا الرُّعْبِ، وَلِلْغَزْوِ أَنْ يَقْتَادَ انْتِصَارَاتٍ مُبْهَمَةً، كَالأَحْلَامِ الَّتِي تَعْبُرُ القَلْبَ وَلَا تُرَى.
وَتَرَكْتُ لِلظِّلَالِ أَنْ تُعِيدَ تَوْزِيعَ لَيْلِهَا عَلَى مَقَامَاتٍ لَمْ تُعْزَفْ مُنْذُ فَلْقِ الطُّوفَانِ.
وَدَخَلْتُ الحَرْبَ الَّتِي تَسْكُنُ فِي دَاخِلِي، دَخَلْتُهَا بِكُلِّي.
لَمْ أَتْرُكْ مِنِّي شَيْئًا خَارِجًا عَنِّي، لَا ظِلًّا وَلَا صَدًى.
أَنَا المَقَامُ.
وَلَا حُضُورَ بِغَيْرِي.
فَادْخُلْ يَا رُوحَ الصُّورَةِ، يَا حَنْجَرَةً تَشْهَقُ بِأَشْلَاءِ الحِكَايَةِ.
ادْخُلْ أَيُّهَا الخَيَالُ.
ادْخُلْ كَمَا يَدْخُلُ الشَّفِيعُ بِثَوْبِ حَرِيرٍ إِلَى قَاعَةٍ مِنَ الظِّلَالِ...
ادْخُلْ كَمَا يَدْخُلُ سَيِّدٌ يَحْضُرُ حَفْلَةَ رَقْصٍ أَوْ غِنَاءٍ...
فَأَنَا غَامِضٌ بِإِيكَارَ.
غَامِضٌ بِالظِّلَالِ الوَاهِنَةِ العَابِرَةِ.
غَامِضٌ بِالكِتْمَانِ الَّذِي يَجُولُ أَمَامَ رُوحِي.
غَامِضٌ بِالغَضَبِ الَّذِي يُنْزِلُ ضَرَبَاتِهِ الحَادَّةَ عَلَى قِمَّةِ قَلْبِي.

وَغَامِضٌ بِشُبُهَاتٍ تَتَشَابَهُ، كَمَا تُشَابِهُ التَّوَابِيتُ نَوْمَهَا الأَبَدِيَّ.
هَلْ أَسْرُدُ...
أَمْ أُصْغِي لِدَمْعِكَ يَا خَتْمَ العَابِرِينَ؟.

**جُوقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:**

أَيُّهَا العَابِرُ، اسْقِ القَلْبَ مِنْ دَمْعِكَ...
أَيُّهَا العَابِرُ، دُلَّ الرُّوحَ فِي دَرْبِكَ.

**المَلَاكُ الأَعْمَى:**

وَعَبَرَ العَابِرُ فَيْضًا لَا يَعْرِفُ السُّكُونَ.
وَعَبَرَنِي فَيْضٌ لَا يَهْدَأُ، وَاجْتَازَتْنِي رُؤْيَا حَجَبَتْ عَنِّي زُرْقَةَ الحِكَايَةِ، حَتَّى خَرَجَتْ مِنْ دَيْمُومَتِهَا الحَزِينَةِ، وَشَهِدْتُ النِّهَايَةَ، كَأَنَّنِي اصْطَدْتُ ضَجِيجَهَا المُذَهَّبَ كَجَدْوَلٍ أَخْرَسَ.
ثُمَّ نَشَرْتُ فِي الرِّيحِ صُورَةَ صُرَاخِهِ.
فَهَلْ أَسْرُدُ بَعْدَ هَذَا؟
هَلْ أَسْرُدُ كَيْفَ ظَلَّ المَوْتُ فِي شَقَائِهِ لَا يَمُوتُ؟
يَهْلِكُ وَيَحْيَا...
وَيَهْرَمُ وَيُولَدُ مِنْ جَدِيدٍ...
يَا لِلْخَاطِرِ المَرِيعِ!
وَيْلَاهُ!
يَا لِلْبُكَاءِ المَكْشُوفِ، كَأَنَّهُ نَايٌ انْكَسَرَ فِي مَعْبَدٍ مَهْجُورٍ...
هَا نَحْنُ مَعًا، لِمَرَّةٍ أَخِيرَةٍ، نَقْتَلِعُ الصَّدَفَ مِنْ طَعْمِ الدُّمُوعِ.
دَعْنِي أَسْتَأْنِفُ هَذَا الضَّيَاعَ الخَصِبَ.
أَنَا الَّذِي رَأَيْتُ دُمُوعًا لَا حَصْرَ لَهَا...

دُمُوعَ الرُّعْبِ.
دُمُوعَ البَرَاعِمِ.
دُمُوعَ الأَشْرِعَةِ حِينَ تَخُونُهَا الرِّيحُ.
دُمُوعَ الحُرُوبِ، وَالعُشَّاقِ، وَالأَرْصِفَةِ.
لَكِنَّهَا لَمْ تَكُنْ كَدَمْعَةِ ذَلِكَ الَّذِي سُمِّيَ: (**خَتْمَ العَابِرِينَ).**

أَيُّهَا العَابِرُ بَيْنَ الظِّلَالِ، يَا مِئْذَنَتِي فِي هَذَا العُمْرِ، لَمْ أَرَ مَاءً جَلِيلًا يَبْكِي كَمَا بَكَيْتَ.

كَانَ الدَّمْعُ يَتَقَطَّرُ مِنْ حِزَامِكَ، وَمِنْ شَعْرِكَ، وَمِنْ صَدْرِكَ، وَمِنْ سَوَاقِي حُلْمِكَ، وَمِنْ قَيْظِ أَهْدَابِكَ، وَمِنْ ذَلِكَ النَّهَارِ المُسْتَرِيحِ فِي وَجْهِكَ كَبَادِيَةٍ تُصَلِّي.

لَكِنَّ عَيْنَيْكَ كَانَتَا صَامِتَتَيْنِ...
فِي تِلْكَ السَّاعَةِ شَرِبَ النَّشِيجُ الوَقْتَ.
وَسَمِعَتِ اليَابِسَةُ قَرْعَ الدُّفُوفِ فِي صَدْرِكَ.
فَاسْتَدَارَتْ.
وَرَقَصَتْ.
وَهَبَطَتِ الرَّصَاصَاتُ مِثْلَ طُيُورٍ سُودٍ.
لَكِنَّهَا لَمْ تَهْبِطْ كَالمَوْتِ...
صَعِدَتْ فِي الدِّمَاءِ لِتَسْتَحِمَّ فِي كُسُوفٍ دَامٍ.
وَرَقَصَتْ رَصَاصَاتٌ أُخْرَى...
غَضِبَتِ الشَّمْسُ فِي الظِّلِّ الضَّئِيلِ.
وَأَسْقَطَتْ عِظَامَهَا العَاجِيَّةَ عَلَى شَهْدِ الوَجْهِ.
فَابْتَسَمَ العَابِرُ.
وَكَانَ حَيًّا.
وَكَانَ شَابًّا.

كَمَا كَانَ فِي الحَيَاةِ...
رَكَضَ...
وَرَكَضَ خَلْفَهُ عُبَّادُ الشَّمْسِ...
وَرَكَضَ خَلْفَهُ الحَرْفُ الأَوَّلُ مِنَ الأَبْجَدِيَّةِ...
وَرَكَضتْ خَلْفَهُ تَجْرِبَةٌ لَا يُمْكِنُ بَيَانُهَا بِالأَلْفَاظِ، تِلْكَ الَّتِي يُقَرِّرُ الغَيْبُ عَقَائِدَهَا، وَيَضَعُهَا فَوْقَ عَرْشِ الإِلَهِ الفَارِغِ.
وَهَكَذَا انْتَهَتِ الرُّؤْيَا الَّتِي رَأَيْتُهَا...
لَكِنَّ السِّرَّ لَمْ يَنْتَهِ.
السِّرُّ الَّذِي كَتَبْتُهُ فِي دَفَاتِرِ الرِّيحِ.
لَنْ يَقْوَى أَحَدٌ عَلَى سَلْبِي إِيَّاهُ...
فَالأَسَاطِيرُ مِرْآةٌ، وَالحِكَايَاتُ لَا تَمُوتُ.
إِنَّهَا فَقَطْ تَعُودُ إِلَى اليَنَابِيعِ...
حَيْثُ يَبْكِي خَتْمُ العَابِرِينَ.
يَا أَرْوَاحَ المَاءِ السَّاكِنَةَ فِي عِظَامِ الأَرْضِ، يَا ذَاكِرَةَ الحِبْرِ حِينَ يَهْمِسُ لِلْغَيْمِ، يَا حُرَّاسَ اليَنَابِيعِ العَتِيقَةِ، امْنَحُونِي صَوْتًا لِأَرْوِيَ الحِكَايَةَ الَّتِي سَبَقَتِ الدُّمُوعَ.
فَأَنَا المَلَاكُ الأَعْمَى، كَاتِبُ السِّفْرِ الضَّائِعِ، وَشَاهِدُ العُبُورِ.
سَأَرْوِي قِصَّةَ مَنْ سُمِّيَ: (**خَتْمَ العَابِرِينَ**).
وَأَنْتَ أَيُّهَا العَابِرُ الآخَرُ، أَيُّهَا النَّدِيمُ الجَالِسُ فِي مَحْبَسِ الأَحْزَانِ، اسْمَعْ هَذَا الأَلَمَ المُمِضَّ، وَادْفِنْهُ فِي قَلْبِكَ.

**جُوقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:**

أَيُّهَا العَابِرُ، اسْقِ القَلْبَ مِنْ دَمْعِكَ...
أَيُّهَا العَابِرُ، دُلَّ الرُّوحَ فِي دَرْبِكَ.

**المَلَاكُ الأَعْمَى:**

فِي الأَزْمِنَةِ الأُولَى، حِينَ كَانَتِ الجِبَالُ مَا تَزَالُ تَتَعَلَّمُ الوُقُوفَ، وَكَانَتِ الأَنْهَارُ أَطْفَالًا فِي مَهْدِ الأَرْضِ، وُلِدَ صَبِيٌّ مِنْ دَمْعَةٍ سَقَطَتْ مِنْ عَيْنِ الغَيْمَةِ الأُولَى.

لَمْ يُولَدْ مِنْ رَحِمٍ وَلَا مِنْ بَيْتٍ...

وُلِدَ مِنْ قَطْرَةِ مَاءٍ سَقَطَتْ عَلَى صَدْرِ الطِّينِ.

وَحِينَ فَتَحَتِ القَطْرَةُ عَيْنَهَا، صَارَ اسْمُهَا :**خَتْمُ العَابِرِينَ**...

وَكَانَ الصَّبِيُّ يَسْمَعُ مَا لَا يَسْمَعُهُ البَشَرُ.

كَانَ يَسْمَعُ تَنَفُّسَ الحَجَرِ.

وَسَرِيرَ النَّمْلِ فِي ظِلَالِ الجُذُورِ.

وَكَانَتِ اليَنَابِيعُ تَتَكَلَّمُ مَعَهُ كَمَا تَتَكَلَّمُ الأُمَّهَاتُ مَعَ أَطْفَالِهِنَّ...

كَبِرَ الصَّبِيُّ.

وَكَانَ، حِينَ يَمْشِي، تَنْفَتِحُ فِي التُّرَابِ يَنَابِيعُ صَغِيرَةٌ.

فَقَالَ الحُكَمَاءُ:

لَيْسَ هَذَا صَبِيًّا...

هَذِهِ عَلَامَةٌ.

وَقَالَ العَرَّافُونَ:

سَيَحْمِلُ هَذَا الطِّفْلُ حُزْنَ الأَرْضِ كُلَّهُ.

وَفِي لَيْلَةٍ كَانَ القَمَرُ فِيهَا كَجُرْحٍ فِي السَّمَاءِ، سَمِعَ الصَّبِيُّ صَوْتًا يَخْرُجُ مِنْ بَاطِنِ المَاءِ.

قَالَ الصَّوْتُ:

يَا ابْنَ القَطْرَةِ الأُولَى، يَا مَنْ تَشْرَبُهُ اليَنَابِيعُ كَمَا تَشْرَبُ الأُمُّ طِفْلَهَا، سَيَأْتِي يَوْمٌ تَبْكِي فِيهِ الأَرْضُ حَتَّى تَنْضُبَ دُمُوعُهَا.

وَفِي ذَلِكَ اليَوْمِ سَتَكُونُ أَنْتَ دَمْعَتَهَا الأَخِيرَةَ...

وَمَرَّتِ الأَعْوَامُ.

وَكَبُرَتِ الحُرُوبُ كَمَا تَكْبُرُ الأَعْشَابُ السَّامَّةُ.
وَصَارَ النَّاسُ يَقْتَتِلُونَ حَوْلَ المَاءِ.
وَرَأَى خَتْمُ العَابِرِينَ دُمُوعًا لَا تُحْصَى:
دُمُوعَ الرُّعْبِ.
دُمُوعَ الأُمَّهَاتِ.
دُمُوعَ العُشَّاقِ حِينَ تُغْلَقُ الطُّرُقُ.
لَكِنَّ قَلْبَهُ لَمْ يَنْكَسِرْ بَعْدُ...
حَتَّى جَاءَ ذَلِكَ اليَوْمُ.
فِي يَوْمٍ كَانَتِ الشَّمْسُ فِيهِ كَحَدِيدَةٍ حَامِيَةٍ، وَقَفَ بَيْنَ الرَّصَاصِ.
لَمْ يَكُنْ يَحْمِلُ سَيْفًا.
وَلَا دِرْعًا.
كَانَ يَحْمِلُ قَلْبًا فَقَطْ.
وَحِينَ جَاءَتِ الرَّصَاصَاتُ، صَعِدَتْ فِي دَمِهِ كَأَنَّهَا تَبْحَثُ عَنْ يَنْبُوعٍ.
وَرَقَصَتِ الأَرْضُ.
وَغَنَّتِ البَرِّيَّةُ.
حَتَّى الطَّوَاوِيسُ كَانَتْ تُرَدِّدُ:

"المَوْتُ الَّذِي صَارَ مَاءً...
المَوْتُ الَّذِي صَارَ مَاءً".

سَقَطَ خَتْمُ العَابِرِينَ...
لَكِنَّ الأَرْضَ لَمْ تَبْتَلَّ بِدَمِهِ.
فَمِنْ كُلِّ جُرْحٍ تَفَجَّرَ نَبْعٌ.
وَمِنْ كُلِّ دَمْعَةٍ وُلِدَ جَدْوَلٌ.
وَقَالَ النَّاسُ: لَقَدْ مَاتَ.
لَكِنَّ الحُكَمَاءَ قَالُوا: لَا.

لَمْ يَمُتْ.
لَقَدْ عَادَ إِلَى أَصْلِهِ.
وَمُنْذُ ذَلِكَ اليَوْمِ صَارَ النَّاسُ يَقُولُونَ:
كُلُّ نَبْعٍ فِي الأَرْضِ هُوَ عَيْنٌ مِنْ عُيُونِ خَتْمِ العَابِرِينَ.
وَكُلُّ مَاءٍ يَبْكِي هُوَ صَوْتُهُ.
وَكُلُّ دَمْعَةٍ...
وَهَكَذَا لَمْ يَعُدْ شَاعِرًا هَارِبًا، وَلَا ذِكْرَى.
صَارَ سِرًّا يَسْكُنُ المَاءَ.
فَإِذَا شَرِبْتَ مِنْ نَبْعٍ بَارِدٍ فِي لَيْلَةٍ صَامِتَةٍ، وَأَصْغَيْتَ جَيِّدًا، رُبَّمَا تَسْمَعُ فِي قَلْبِ المَاءِ نَشِيدًا بَعِيدًا.
إِنَّهُ صَوْتُ خَتْمِ العَابِرِينَ.
يَبْكِي...
لَكِنَّهُ أَيْضًا يُولَدُ مِنْ جَدِيدٍ.

**جُوقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:**

أَيُّهَا العَابِرُ، اسْقِ القَلْبَ مِنْ دَمْعِكَ...
أَيُّهَا العَابِرُ، دُلَّ الرُّوحَ فِي دَرْبِكَ.

**المَلَاكُ الأَعْمَى:**

لَنْ أَسْرُدَ...
سَأُصْغِي...
سَأُصْغِي لِدَمْعِكَ، يَا خَتْمَ العَابِرِينَ.

**جُوقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:**

أَيُّهَا العَابِرُ، اسْقِ القَلْبَ مِنْ دَمْعِكَ...

أَيُّهَا العَابِرُ، دُلَّ الرُّوحَ فِي دَرْبِكَ.

يَا خَتْمَ العَابِرِينَ... أَيُّهَا العَابِرُ.

يَا خَتْمَ العَابِرِينَ... أَيُّهَا العَابِرُ.

## (3)

## قُدَّاسُ الهَذَيَانِ المُسْتَأْنَسِ

إِيكارُ، يَا مَنْ تَنْهَضُ حَوْلَ اسْمِهِ هَالَةٌ مُعَلَّقَةٌ بَيْنَ السَّكِينَةِ وَاليَقَظَةِ، تُعَمِّدُ عَرْشَ المَوْعِظَةِ بِغَزَالَيْنِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَتَصِفُ المُقَدَّسَ بِضَوْءٍ لَا يَشِيخُ.

إِيكارُ، أَيُّهَا السِّرُّ المَنْقُوشُ عَلَى رَاحَةِ اليَدِ، يَا مَنْ يَجْعَلُ الحِكْمَةَ زِينَةً تُطَرِّزُ، وَيَرْسُمُ مُنَمْنَمَاتِهِ الخَفِيَّةَ كَمَا يَرْسُمُ الرَّحِمُ حِكْمَتَهُ الأُولَى.

تَتَزَيَّنُ الرَّهْبَةُ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَيَصْطَفُّ اضْطِرَابُ الخُطُوَاتِ فِي غُبَارٍ كَرِيمٍ.

وَيُوقِظُ رَبَّاتِ الخُصُوبَةِ بِمَصَابِيحَ تُضِيءُ أَسْرَارَ العَارِفِينَ.

لِيُهَيِّئَ أَرْوَاحَ الأَجْدَادِ الَّتِي تَمْضِي نَحْوَ اليَنَابِيعِ، وَتُفْسِحَ المَكَانَ لِتَكْرِيسٍ يَجِيءُ مِنْ خَلْفِ الأَصْدَاءِ.

وَلِشَمْسٍ تُشْبِهُ طَبْلَ الشَّامَانِ، تَنْفُضُ عَنْ أَشِعَّتِهَا غُبَارَ الطَّقْسِ، وَتَدْخُلُ فِي تِيْهِ صَرْفٍ، كَأَنَّهَا مِرْيَاعٌ سِرِّيٌّ يَخُطُّ أَنِينَهُ عَلَى قِرْطَاسٍ مِنْ نَهَارٍ وُضَّاءٍ.

هَكَذَا قَالَ إِيكارُ: **إِنَّ القَوْلَ هُوَ خَالِقٌ.**

وَقَالَ لِلرِّيحِ: دَعُوا هَذَا الشَّارِدَ يَمُرَّ، دَعُوهُ يَغْتَسِلْ بِمَاءِ القُرْبَانِ، وَيَخُطُّ بِنَعْلٍ يَلْمَعُ كَقَسَمٍ قَدِيمٍ فِي دُرُوبٍ أَفْرَغَتْهَا الأَزْمِنَةُ. دَعُوهُ يَكْسِرِ المَرَايَا العَتِيقَةَ فِي

مَتْحَفِ الظَّلَامِ. دَعُوهُ يُرَوِّضْ (نَجْمَةَ الصُّبْحِ)، الكَوْكَبَ الأَكْثَرَ أُنُوثَةً بَيْنَ الكَوَاكِبِ. دَعُوهُ يَنْثُرْ نِدَاءَاتِ عَذْرَاءَ لَمْ يَمْسَسْهَا إِلَّا هَوَاءُ مَلَاكٍ هَارِبٍ. دَعُوهُ يَقُولْ: المَيِّتُ هُوَ المُنْتَصِرُ الوَحِيدُ فِي مَعْرَكَةِ الحَيَاةِ.

يَا إِلَهَ الكِتَابَةِ،
قُلْ لِي، مَاذَا أَفْعَلُ بِهَذَا التَّرْتِيلِ الكَسِيحِ المُتَسَوِّلِ عَلَى بَابِ المَعْبَدِ؟ مَاذَا أَفْعَلُ بِهَذَا الجَرَسِ الَّذِي يَحْمِلُ اسْمَ اللهِ مِنْ أَجْلِ طَرْدِ الأَلَمِ؟ كَيْفَ أُفَرِّقُ الآنَ بَيْنَ دَمْعَةِ النَّزِيفِ وَأَنِينٍ يُشْبِهُ الصَّلَاةَ؟ كَيْفَ أُخْفِي رَأْسَ الثَّوْرِ المُزَخْرَفَ الَّذِي يُشْبِهُ حَرْفَ الأَلِفِ وَهُوَ يَعْبُرُ حُدُودَ الحُلْمِ؟ كَيْفَ أَجْمَعُ الِاسْمَ المَحْذُوفَ وَالنُّقُوشَ فِي رَايَةٍ وَاحِدَةٍ لَا تُمَزِّقُهَا الرِّيحُ؟ مَاذَا أَفْعَلُ بِالآخِرَةِ الَّتِي يَسْهَرُ عَلَيْهَا شَبَحٌ جَبَّارٌ؟ مَاذَا أَفْعَلُ بِلِسَانِ الثُّعْبَانِ المَرْسُومِ عَلَى مَذْبَحِ الكَلَامِ؟ مَاذَا أَفْعَلُ بِمُتَاهَاتٍ جَهَنَّمِيَّةٍ تَحْمِلُ تِيجَانَ الغَارِ؟ مَاذَا أَفْعَلُ بِالغَرِيزَةِ، تِلْكَ البَجَعَةِ المُقَدَّسَةِ المَنْحُوتَةِ عَلَى دُولَابِ الحَيَاةِ؟ مَاذَا أَفْعَلُ بِحَلَقَاتِ السَّحَرَةِ الصَّاخِبَةِ مِنْ أَجْلِ اسْتِدْعَاءِ الشَّيَاطِينِ؟ مَاذَا أَفْعَلُ بِالرُّوحِ وَهِيَ تَصِلُ إِلَى (الطُّوبَى)؟ مَاذَا أَفْعَلُ بِالسَّفْحِ الظَّلِيلِ مِنْ جَبَلِ الكَلِمَاتِ؟ وَبِأَيِّ صِيحَاتٍ أُوقِفُ هَذَا التَّكْرَارَ الأَبَدِيَّ لِإِيقَاعِ الكَوْنِ؟

- هَذَا تَاجُكَ أَيُّهَا العَابِرُ.
- العُبُورُ هُوَ تَاجِي.

لَا أُرِيدُ هَذِهِ التِّيجَانَ المَرْفُوعَةَ فَوْقَ خَرَائِبِ الأَكَاذِيبِ.
لَا أُرِيدُ هَذَا الطَّوَافَ اللَّيْلِيَّ فِي المَغَاوِرِ الخَبِيئَةِ مِنْ مَشَاعِرِنَا.
لَا أُرِيدُ هَذِهِ الطَّلَاسِمَ الَّتِي تُشْبِهُ مُنَاجَاةَ أَرْوَاحِ المَوْتَى.
لَا أُرِيدُ الأَرْوَاحَ المَنْهُوبَةَ مِنْ أَجْسَادِهَا وَهِيَ تُعَادُ إِلَيْنَا فِي هَيْئَةِ أَنَاشِيدَ.
لَا أُرِيدُ صُوَرًا فُوتُوغْرَافِيَّةً تَنْفُخُ شَاشَ الفَتِيلِ فِي شَمْعِ القَصِيدَةِ.

قُلْ لِي، يَا إِلَهَ الكِتَابَةِ: أَأَنَا فِي طَقْسِ اعْتِرَافٍ، أَمْ فِي طَقْسٍ قَدِيمٍ لَمْ يَكْتَمِلِ اعْتِرَافُهُ بَعْدُ؟... أَمْ أَنَّنِي أَهْذِي؟

- لَا. أَنْتَ فِي القُدَّاسِ السِّرِّيِّ، حَيْثُ يَتَكَلَّمُ الرَّمْزُ بِلُغَتِهِ الأُولَى، وَتَنْطِقُ الأَشْيَاءُ بِأَسْمَاءٍ لَمْ تُعْتَقْ بَعْدُ مِنْ أَشْبَاحِهَا. أَنْتَ لَا تَهْذِي... أَنْتَ تَتَذَكَّرُ.

مُرٌّ هُوَ تَذَكُّرُ الحِكْمَةِ حِينَ تَعُودُ كَجَمْرَةٍ تُنَبِّهُ الذَّاكِرَةَ مِنْ سُبَاتِهَا، وَعَذْبٌ هُوَ النِّسْيَانُ إِذْ يَنْسَابُ كَنَدَى الفَجْرِ فَوْقَ جَبِينِ الرُّوحِ. مُرَّةٌ هِيَ الأَسْرَارُ عِنْدَمَا تُسْتَخْرَجُ مِنْ رَمَادِهَا، كَأَنَّهَا طُيُورٌ سَوْدَاءُ تُبْعَثُ مِنْ حَرِيقِ المَعْنَى، وَمُرَّةٌ هِيَ النُّبُوءَةُ حِينَ تُرْفَعُ فَوْقَ ضَجِيجِ الأَلْسِنَةِ، فَتُسْمَعُ كَجَرَسٍ خَفِيٍّ فِي صَدْرِ اللَّيْلِ... وَالنَّفْسُ الَّتِي أَضَاعَتِ الطَّرِيقَ فِي مُتَاهَاتِ اللُّغَةِ سَتَبْقَى (مَا بَقِيَتِ الأَزْمِنَةُ) مُرَّةً كَالكَأْسِ الأُولَى فِي طَقْسِ الِاعْتِرَافِ.

لَكِنَّ الخِيَانَةَ... عَذْبَةٌ حِينَ تُرَفْرِفُ كَصَلَاةٍ مَسْتُورَةٍ بَيْنَ ضُلُوعِ القَلْبِ، وَعَذْبَةٌ هِيَ الأَقْنِعَةُ حِينَ تَتَجَلَّى فِي رُؤْيَا الفَجْرِ كَوُجُوهِ رُسُلٍ عَابِرَةٍ بَيْنَ نَوْمَيْنِ. وَالمَوْتُ، المُوَشَّى بِأَنْفَاسِ العَابِرِينَ وَبِالإِشَارَاتِ الخَفِيَّةِ الصَّاعِدَةِ نَحْوَ العُلُوِّ، سَيَظَلُّ (فِي دَفْتَرِ العَابِرِينَ) عَذْبًا كَكَأْسٍ نُدِّيَتْ بِزَيْتِ الحَيَاةِ.

يَا بَرْقَ الرَّبِّ، اهْبِطْ عَلَى الأَرْضِ، وَلَا تُبْطِئْ خُطَاكَ عِنْدَ تَعَرُّجَاتِ الغَيْمِ. أَدِرْ عَصَاكَ السَّمَاوِيَّةَ فَوْقَ المَدَى... امْسَحْ بِهَا وُجُوهَ الخَلِيقَةِ، وَابْسُطْ قَبْضَتَكَ عَلَى مَا تَفَرَّقَ مِنَ الكَائِنَاتِ، كَيْ يَلْتَئِمَ مَا انْفَلَتَ، وَيَعُودَ مَا تَاهَ فِي الجِهَاتِ...

وَأَنْتَ، يَا بَرْقَ السِّرِّ، احْمِلْ هَذَا الكِتَابَ المَكْتُوبَ بِالنَّارِ وَالظِّلِّ... ارْفَعْهُ إِلَى تِلَالٍ لَا تَعْتَرِفُ بِهَا الخَرَائِطُ، تِلَالٍ لَمْ تَمْسَسْهَا قَدَمُ بَشَرٍ، وَلَا تُرَى إِلَّا بِعَيْنِ مَنْ صَعِدَ إِلَى البَاطِنِ وَعَبَرَ العَتَبَةَ الأَخِيرَةَ مِنَ الصَّمْتِ.

لِيُقْرَأْ كِتَابُ الحِكَمِ فِي مَقَامَاتِ التَّذَكُّرِ وَالسَّتْرِ:

**قَالَ الحَكِيمُ:**

**1-** مُرَّةٌ الحِكْمَةُ إِذَا ذَكَّرَتْكَ بِمَا فَرَّطتَ، وَعَذْبٌ النِّسْيَانُ إِذَا سَتَرَ عَلَيْكَ مَا عَجَزَ قَلْبُكَ عَنْ حَمْلِهِ.

**2-** مَنْ أَقْبَلَ عَلَى الحِكْمَةِ بِلِسَانِهِ حُجِبَ، وَمَنْ أَقْبَلَ عَلَيْهَا بِقَلْبِهِ كُشِفَ لَهُ بَابُهَا.

**3-** إِذَا اسْتُخْرِجَ السِّرُّ مِنْ رَمَادِهِ عَادَ نَارًا، فَاحْذَرْ أَنْ تُظْهِرَ مَا جُعِلَ لَكَ أَمَانَةً.

**4-** لَيْسَ كُلُّ مَا يُرَى يُقَالُ، وَلَا كُلُّ مَا يُقَالُ يُحْمَلُ، فَكَمْ مِنْ مَعْنًى أَثْقَلَتْهُ الأَلْسِنَةُ.

**5-** مُرَّةٌ النُّبُوءَةُ حِينَ تَرْتَفِعُ فَوْقَ ضَجِيجِ الكَلَامِ، لِأَنَّ الحَقَّ إِذَا تَجَلَّى ضَاقَتْ بِهِ المَسَامِعُ.

**6-** مَنْ طَلَبَ المَعْنَى فِي كَثْرَةِ القَوْلِ ضَلَّ، وَمَنْ طَلَبَهُ فِي صَفَاءِ الصَّمْتِ اهْتَدَى.

**7-** النَّفْسُ الَّتِي ضَلَّتْ طَرِيقَهَا فِي الحُرُوفِ لَا تَعُودُ حَتَّى تَتَطَهَّرَ بِصَمْتِ المَعْنَى.

**8-** عَذْبَةٌ هِيَ الأَقْنِعَةُ فِي رُؤْيَا الفَجْرِ، لِأَنَّ القَلْبَ إِذَا غَفَا تَجَلَّتْ لَهُ الوُجُوهُ كَمَا هِيَ.

**9-** لَيْسَ أَخْفَى عَلَى الإِنْسَانِ مِنْ وَجْهِهِ الَّذِي يَلْبَسُهُ كُلَّ يَوْمٍ.

**10-** الخِيَانَةُ مِرْآةٌ لِمَنْ عَرَفَ تَقَلُّبَ النَّفْسِ، فَمَنْ لَمْ يَعْرِفْ نَفْسَهُ سَمَّى تَقَلُّبَهَا إِخْلَاصًا.

**11-** مَنْ أَكْثَرَ النَّظَرَ إِلَى وُجُوهِ الخَلْقِ حُجِبَ، وَمَنْ نَظَرَ إِلَى أَصْلِ الوُجُوهِ رَأَى الوَحْدَةَ فِي الكَثْرَةِ.

**12-** المَوْتُ عِنْدَ الغَافِلِينَ فَنَاءٌ، وَعِنْدَ العَارِفِينَ عُبُورٌ.

**13-** مَنْ خَافَ البَابَ بَقِيَ خَارِجَهُ، وَمَنْ عَرَفَ الطَّرِيقَ دَخَلَهُ مُطْمَئِنًّا.

**14-** إِذَا تَزَيَّنَ المَوْتُ بِأَنْفَاسِ العَابِرِينَ صَارَ طَرِيقًا، لَا نِهَايَةً.

15- الخَلْقُ إِذَا تَفَرَّقُوا فِي الظَّاهِرِ جَمَعَهُمْ سِرٌّ وَاحِدٌ فِي البَاطِنِ.
16- مَا ضَلَّ شَيْءٌ عَنْ أَصْلِهِ، وَلَكِنَّ الأَبْصَارَ هِيَ الَّتِي ضَلَّتْ عَنِ الرُّؤْيَةِ.
17- إِذَا ضَرَبَ بَرْقُ الحَقِيقَةِ أَرْضَ القَلْبِ انْكَشَفَتْ فِيهِ الجِهَاتُ الأَرْبَعُ.
18- الطَّرِيقُ مَا يَنْكَشِفُ فِي البَاطِنِ مِنْ مَقَامٍ... لَا مَا تَقْطَعُهُ الأَقْدَامُ.
19- الخَرَائِطُ تَهْدِي إِلَى الأَرْضِ، أَمَّا البَصِيرَةُ فَتَهْدِي إِلَى المَعْنَى.
20- تِلَالُ السِّرِّ لَا يَبْلُغُهَا السَّائِرُونَ... يَبْلُغُهَا مَنْ خَفَّ حِمْلُهُ مِنْ نَفْسِهِ.
21- مَنْ صَعِدَ فِي سُلَّمِ المَعْنَى رَأَى أَنَّ البُعْدَ كَانَ وَهْمًا، وَأَنَّ الرُّجُوعَ كَانَ البِدَايَةَ.
22- إِذَا اجْتَمَعَ المُتَفَرِّقُ فِي قَلْبِكَ عَلِمْتَ أَنَّ القَبْضَةَ وَاحِدَةٌ، وَإِنْ كَثُرَتِ الأَسْمَاءُ.
23- مَا انْكَشَفَ لَكَ مِنَ الطَّرِيقِ فَاحْمَدْهُ، وَمَا اسْتَتَرَ فَاصْبِرْ لَهُ، فَإِنَّ لِلسِّرِّ وَقْتًا إِذَا جَاءَ تَكَلَّمَ.
24- مَنْ عَرَفَ أَنَّ الطَّرِيقَ عَوْدَةٌ لَمْ يَخَفْ طُولَ السَّفَرِ... وَإِذَا فُتِحَ لَكَ بَابُ البَاطِنِ عَلِمْتَ أَنَّ كُلَّ مَا مَرَّ بِكَ كَانَ دَلِيلًا، وَإِنْ بَدَا فِي الظَّاهِرِ ضَلَالًا.

٨

# النَّشِيدُ الثَّامِنُ

**(وَهٰكَذَا يَبْدَأُ العَرْضُ الحَقِيقِيُّ. عَرْضُ هَذَيَانِ الذَّاكِرَةِ وَهِيَ تُحَاوِلُ أَنْ تُعِيدَ اخْتِرَاعَ تَشْكِيلِ السَّرْدِ فِي لَاوَعْيِ السَّارِدِ، بِوَصْفِهِ مَسْرَحًا شَعَائِرِيًّا قَرِيبًا مِنْ رُوحِ (مَسْرَحِ القَسْوَةِ)، حِينَ لَا يَكُونُ النَّصُّ وَحْدَهُ مَرْكَزَ التَّجْرِبَةِ، يُشَارِكُهُ الصَّوْتُ، وَالجَسَدُ، وَالصَّدْمَةُ الحِسِّيَّةُ، وَالإِيقَاعُ، وَالإِنْشَادُ... وَلَسْتُ شَاهِدًا عَلَى الكَلِمَاتِ، إِنَّهَا تَعْوِيذَةٌ... كَلِمَةٌ عَالِقَةٌ بَيْنَ أَسْنَانِ الوَحْشِ).**

# اِفْتِتَاحِيَّةُ الهَذَيَانِ الطَّيِّعِ

(طَقْسٌ شَعَائِرِيٌّ – فِي مَسْرَحِ الطُّقُوسِ الدَّنِسَةِ).

**الفَضَاءُ المَسْرَحِيُّ:** (أَرْضٌ رَمَادِيَّةٌ تُشْبِهُ الأَرْضَ الحَرَامَ بَيْنَ بَلَدَيْنِ مُتَحَارِبَيْنِ، مُغَطَّاةٌ بِالمِلْحِ وَالغُبَارِ، كَامِيرَا صَدِئَةٌ عَلَى حَامِلٍ ثُلَاثِيٍّ تَعْمَلُ كَمُرَاقِبٍ صَامِتٍ، خُوَذٌ قَدِيمَةٌ، شَظَايَا، صَنَادِيقُ عُتَادٍ، جَرَسٌ حَدِيدِيٌّ... الضَّوْءُ يَتَحَرَّكُ مُتَقَلِّبًا: أَبْيَضُ حَادٌّ، أَحْمَرُ، رَمَادِيٌّ بَاهِتٌ).

**المُؤَثِّرَاتُ الصَّوْتِيَّةُ:** (ضَرَبَاتُ طَبْلٍ خَفِيفَةٌ تُشْبِهُ نَبَضَاتِ القَلْبِ، صَرَخَاتٌ حَيَوَانِيَّةٌ مِنَ الجُوقَةِ، صَرِيرُ مَعَادِنَ، صَوْتُ رَصَاصٍ يَقْتَرِبُ، رِيحٌ خَفِيفَةٌ تَمُرُّ كَأَنَّهَا تُقَلِّبُ صَفَحَاتِ حَرْبٍ قَدِيمَةٍ).

**الرَّوَائِحُ:** دُخَانٌ خَفِيفٌ.

**الشَّخْصِيَّاتُ حَسَبَ الظُّهُورِ:**

1- جُوقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ.

2- المَلَاكُ الأَعْمَى: تَجْسِيدٌ لِأَمْرِ الغَيْبِ وَقَدْ صَارَ مَنْظُورًا.

3- إِيكَارُ: شَاعِرٌ يُرِيدُ اجْتِيَازَ الحُدُودِ.

4- الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ: (الرَّاوِي وَالشَّاهِدُ الكَوْنِيُّ).

5- الجُنْدِيُّ الجَرِيحُ.

*(تُفْتَحُ سِتَارَةُ المَسْرَحِ. ظَلَامٌ كَامِلٌ. صَوْتُ نَفَسٍ جَمَاعِيٍّ. ثُمَّ، فَجْأَةً، ضَرْبَةُ جَرَسٍ).*

**جُوقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** *(هَمْسٌ مُتَقَطِّعٌ)* أَمَلٌ... أَمَلٌ... أَمَلٌ... (تُصْبِحُ الأَصْوَاتُ نُبَاحًا خَافِتًا) حُدُودٌ... حُدُودٌ... حُدُودٌ... أَمَلٌ... أَمَلٌ... أَمَلٌ يُبَرِّدُ الحُزْنَ... حُدُودٌ... حُدُودٌ... يَجِبُ أَنْ تُجْتَازَ.

*(تَتَحَوَّلُ الإِضَاءَةُ إِلَى لَوْنٍ أَصْفَرَ، وَتَنْتَشِرُ الجُوقَةُ كَأَنَّهَا قَطِيعُ ظِلَالٍ).*

**المَلَاكُ الأَعْمَى:** (يَدُورُ بِبُطْءٍ)

يَا أَيُّهَا الوَاقِفُونَ عَلَى حُدُودٍ لَا تُرَى، اِفْتَحُوا مَسَامِعَكُمْ لِلْهَذَيَانِ الطَّيِّعِ، لِلْهَذَيَانِ الَّذِي يُشْبِهُ خُشُوعًا سَقَطَ مِنْ صَوْمَعَةِ الرِّيحِ.

لَا هَذَيَانَ بَعْدَ اليَوْمِ إِلَّا هَذَيَانُ الخِيَانَةِ، خِيَانَةٌ تَتَوَهَّجُ كَنِيرَانِ المَهْرَجَانَاتِ، وَتَصْرُخُ كَدَمٍ لَمْ يَجِدْ جُرْحَهُ بَعْدُ.

**جُوقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** *(تَدُورُ حَوْلَ الكَامِيرَا الصَّدِئَةِ - إِضَاءَةٌ زَرْقَاءُ شَاحِبَةٌ)*

نَرْفَعُ الأَبْوَاقَ إِلَى آذَانِ الحُشُودِ، نُعْلِنُ جَسَارَةَ الرَّصَاصِ، وَنَسْتَدْعِي إِيكارَ لِيَكْشِطَ لَوْنَ القَوْلِ عَنْ مَائِدَةٍ مُورِقَةٍ بِدَمٍ لَا يَهْدَأُ. *(بِهَمْسٍ مُتَصَاعِدٍ)*

لَا بُدَّ مِنْ أَمَلٍ يُلَطِّفُ حُزْنَ الهَارِبِينَ.

لَا بُدَّ مِنْ حُدُودٍ يَجْتَازُهَا الظِّلُّ كَيْ يَتَذَكَّرَ جَسَدَهُ.

**المَلَاكُ الأَعْمَى**: *(رَافِعًا وَجْهَهُ)*

أَنَا الَّذِي لَا يَرَى، لَكِنَّنِي أَعْرِفُ أَنَّ السَّمَاءَ تَفْتَحُ أَبْوَابَهَا لِلَّذِينَ يَحْمِلُونَ الرَّعْدَ فِي صُدُورِهِمْ. قُلْتُ: لَا بُدَّ مِنْ إِيكارَ آخَرَ... أَطْلِقُوهُ! لِيَجْمَعَ الرَّعْدَ مِنْ أَفْوَاهِ السَّمَاءِ.

**جُوقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ**: حَتَّى يَعُودَ الرَّاجِعُ مِنَ الحَرْبِ بِغَيْرِ عُدَّةِ حَرْبٍ. حَتَّى يُزَيِّنَ الشَّاحِبَ بِأَمَلٍ مُرْتَجِفٍ.

*(يُسْمَعُ صَوْتُ رَصَاصٍ يَقْتَرِبُ. تُضَاءُ خَشَبَةُ المَسْرَحِ بِضَوْءٍ ذَهَبِيٍّ بَاهِتٍ. يَدْخُلُ "إِيكَارُ" بِغَيْرِ جَنَاحَيْنِ، يَحْمِلُ كِتَابًا بِيَدِهِ).*

**إِيكارُ:** فِي الحَرْبِ تَفْتَحُ الذَّاكِرَةُ سِتَارَتَهَا، كَخِزَانَةِ صُوَرٍ، كَمَسْرَحٍ بِغَيْرِ جُمْهُورٍ. الخَشَبَةُ مِنْ لَحْمٍ مُرْتَجِفٍ، وَالسِّتَارَةُ مِنْ أَعْصَابٍ مَشْدُودَةٍ، وَالضَّوْءُ... ضَوْءٌ مَرِيضٌ يَتَسَرَّبُ مِنْ شُقُوقِ الجُمْجُمَةِ.

هُنَاكَ يَمْشِي التَّذَكُّرُ حَافِيًا، مِثْلَ مُمَثِّلٍ فَقَدَ نَصَّهُ، لَكِنَّهُ يَصْرُخُ رَغْمَ ذٰلِكَ.

**جُوقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ**: الأَصْوَاتُ لَا تَأْتِي مِنَ الخَارِجِ، إِنَّهَا تَصْعَدُ مِنْ بِئْرٍ قَدِيمٍ، حَيْثُ رُمِيَتِ الأَيَّامُ مِثْلَ عِظَامٍ بَعْدَ وَلِيمَةٍ قَاسِيَةٍ.

**إِيكارُ:** كُلُّ ذِكْرَى تَضَعُ قِنَاعًا آخَرَ، تَتَلَوَّى، وَتَضْحَكُ بِصَوْتٍ مَكْسُورٍ، ثُمَّ تَتَحَوَّلُ فَجْأَةً إِلَى جَسَدٍ يَتَلَوَّى فَوْقَ الخَشَبَةِ.

**جُوقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ**: اللَّاوَعْيُ لَا يَرْوِي الحِكَايَاتِ، إِنَّهُ يُمَزِّقُهَا. إِنَّهُ يُبَعْثِرُ الزَّمَنَ كَحُفْنَةِ مَسَامِيرَ فِي لَحْمِ اللَّحْظَةِ.

**إِيكارُ**: فَتَرَى طُفُولَتَكَ تَمْشِي بِغَيْرِ رَأْسٍ، وَتَرَى وُجُوهًا أَحْبَبْتَهَا تَتَكَاثَرُ كَالمَرَايَا، حَتَّى يَخْتَنِقَ المَشْهَدُ بِمَلَامِحِكَ.

**جُوقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ**: *(تَهْتِفُ)*

يَا لَإِيكارَ! يَا لِلْعَذْبِ المَطْرُوحِ بَيْنَ تُرُوسِ الخَانِقِ وَجِيَادِهِ الخُرَافِيَّةِ!

يَا لِلْجَمِيلِ الَّذِي يَقُودُ العَدَمَ بِبَارِجَةٍ خَرْسَاءَ، بَحْثًا عَنْ بَرْقٍ عَابِرٍ يَخْدِشُ بِحَارَ الظِّلِّ!

*(يَدْخُلُ الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ مُتَرَدِّدًا، يُمْسِكُ كَامِيرَا فُوتُوغْرَافِيَّةً كَأَنَّهَا جُمْجُمَةٌ)*

**الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ**: *(يَلْتَقِطُ صُورَةً لِلْجُمْهُورِ)*

سَأُصَوِّرُ الرُّعْبَ... الرُّعْبُ لَا يُرِيدُ أَنْ يَمُوتَ... الرُّعْبُ يُحِبُّ المَسْرَحَ.

**جُوقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ**: *(ضَحِكٌ هِسْتِيرِيٌّ)*
لَا صُوَرَ! لَا أَلْعَابَ! لَا كَلَامَ! إِلَّا الضَّحِكَ! الضَّحِكَ! الضَّحِكَ الَّذِي يَنْزِفُ!
**الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ**: سَأُصَوِّرُ الطُّقُوسَ الدَّنِسَةَ، وَأُصَوِّرُ القَرَابِينَ وَالخَرَابَ وَالجُنُونَ وَأَشْكَالَهُ الحَاذِقَةَ.
لٰكِنَّنِي سَأَخْتَلِسُ النَّظَرَ إِلَى الحَاضِرِ، إِلَى صَيْحَاتٍ تَلْهَثُ فِي السُّهُولِ المُقْفِرَةِ.
**جُوقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ**: العُشَّاقُ أَيْضًا يَخْتَلِسُونَ النَّظَرَ... يَقِفُونَ بِمُحَاذَاةِ الجُدْرَانِ، يُرَاقِبُونَ النَّشِيدَ العَابِرَ، ثُمَّ يَخْجَلُونَ.
**المَلَاكُ الأَعْمَى**: أَعْيُنُهُمْ شَاخِصَةٌ، كَأَنَّهَا تَقُولُ: لِمَاذَا يُفَتِّشُ كُلُّ هٰؤُلَاءِ العُمْيَانِ فِي ضَرِيحِ الدَّنَسِ؟
**جُوقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ**: *(إِنْشَادٌ بَطِيءٌ)*
لَا صُوَرَ! لَا أَلْعَابَ! لَا كَلَامَ هُنَاكَ، إِلَّا القُبَلَ العَابِرَةَ.
**الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ**: كُنْتُ أَبْحَثُ عَنْ صُورَةٍ لَا يَمُوتُ فِيهَا الضَّوْءُ، عَنْ صَبَاحٍ يَتَعَلَّمُ كَيْفَ يَمْشِي فَوْقَ الصَّرَخَاتِ. أَنَا لَمْ أُخْلَقْ لِلرَّحْمَةِ. لَا أَعْرِفُ النَّدَمَ، وَلَا أُمَيِّزُ بَيْنَ اليَدِ المُرْتَجِفَةِ وَاليَدِ الَّتِي تُطْلِقُ النَّارَ.
**جُوقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ**: *(إِنْشَادٌ جِنَائِزِيٌّ)* نَحْنُ الأَرْوَاحُ التَّائِهَةُ. لَمْ نَجِدْ بَابَ العَوْدَةِ. الحُدُودُ أَكَلَتْ أَعْمَارَنَا. [118]

---

[118]- **هَامِشُ إِيكَار**: لَمَّا رَأَيْتُهُ فِي لَيْلِ الْجَبَلِ، وَاقِفًا مِثْلَ عَمُودِ نَارٍ مُنْهَكٍ، قُلْتُ لَهُ: (يَا إِيكَارُ، مَا الَّذِي أَوْقَعَكَ إِلَى هَذَا الْمُنْحَدَرِ؟...). فَأَجَابَنِي: (تَعِبْتُ مِنَ النُّجُومِ الَّتِي لَا تَهْدِينِي، فَكُلَّمَا رَفَعْتُ رَأْسِي إِلَيْهَا، عَادَ قَلْبِي وَسَقَطَ فِي الْحُفْرَةِ نَفْسِهَا...). قُلْتُ لَهُ: (الْهَارِبُونَ الَّذِينَ أَخْبَرْتُكَ عَنْهُمْ ضَلُّوا حِينَ جَعَلُوا الْخَرِيطَةَ صَنَمًا، وَالدَّلِيلَ طَاغِيَةً...). فَقَالَ: (أَرِنِي الطَّرِيقَ الَّتِي لَا تَتَفَرَّعُ، وَلَا تُجَرِّحُ قَدَمَيَّ، وَلَا تَجْعَلُنِي أَرْتَجِفُ بَيْنَ رِجَالٍ بِلَا وُجُوهٍ...). فَقُلْتُ: (الطُّرُقُ كُلُّهَا تَتَفَرَّعُ، وَالْمَهَارِبُ كُلُّهَا تَصْطَادُكَ، إِلَّا طَرِيقًا وَاحِدَةً لَا تُرَى: طَرِيقُ مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ، وَذَكَّرَ جَسَدَهُ بِمَا نَسِيَ مِنْ نُورٍ...). وَحِينَ وَصَلْنَا إِلَى حَافَةِ الثَّلْجِ، أَشَرْتُ إِلَى هَيْكَلٍ عَظْمِيٍّ مُمَدَّدٍ، كَأَنَّهُ حَارِسُ الْبَرْزَخِ الصَّامِتِ... قُلْتُ لَهُ: (لَوْ أَطَعْتَ الْمُهَرِّبِينَ، لَكُنْتَ

**الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ**: كُلُّ صُورَةٍ مَأْتَمٌ. كُلُّ صُورَةٍ قَبْرٌ صَغِيرٌ لِلْوَقْتِ.
**المَلَاكُ الأَعْمَى**: وَالحَاضِرُ هُنَا... يَنْفُخُ جَمْرَ المَاضِي.
**جُوقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ**: حُدُودٌ... حُدُودٌ... حُدُوووووود.
**الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ**: حِينَ وَصَلْنَا إِلَى الحُدُودِ، بَدَأَ الشَّاعِرُ الهَارِبُ يَفْقِدُ وَزْنَهُ. الكَلِمَاتُ تَتَسَاقَطُ مِنْهُ كَأَوْرَاقٍ غَيْرِ مُعْتَرَفٍ بِهَا.
**إِيكَارُ**: *(مُتَوَجِّهًا إِلَيْهِ)*
لَا... لَا، يَا أَيُّهَا الفُوتُوغْرَافِيُّ... أَتَظُنُّ أَنَّ الطَّرِيقَ المَوْشُومَ بِالمَوْتِ هُوَ الحُدُودُ؟
الحَوَاسُّ حُدُودٌ، وَالأَيَّامُ حُدُودٌ، وَالجُدْرَانُ وَالنَّاسُ وَالبَحْرُ وَالأَرْصِفَةُ... حُدُودٌ.
وَأَنْتَ، أَنْتَ وَحْدَكَ بَابٌ يَنْفَتِحُ عَلَى الجُنُونِ.
**الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ**: لَقَدْ ظَنَنْتُ أَنَّ البِلَادَ هِيَ الخَارِجُ، وَأَنَّ الغُرْبَةَ هِيَ البَعِيدُ، لٰكِنَّنِي لَمْ أَجْتَزْ غَيْرَ بَوَّابَةٍ وَاحِدَةٍ: بَوَّابَةَ نَفْسِي.
**جُوقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ**: الخِيَانَةُ هِيَ الخِيَانَةُ: دَمٌ يَحْتَضِنُ ثَلْجًا أَشْقَرَ، دَمٌ يَصْدَأُ قُرْبَ حَنِينٍ فَاتِنٍ، دَمٌ يَكْشِفُ مَا تُوَارِيهِ الأَحَاجِي، وَتُفَجِّرُهُ الحَيْرَةُ كَصَرْخَةِ رُوحٍ مُدْمَاةٍ.
**إِيكَارُ**: الفِدَاءُ لَيْسَ شَأْنِي. أَنَا لَا أُخَلِّصُ وَلَا أُدِينُ. أَنَا أُضِيءُ وَحَسْبُ.
**جُوقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ**: لَا تَطْلُبُوا مِنْهُ الخَلَاصَ. هُوَ يُظْهِرُ فَقَطْ مَا قَرَّرْتُمْ أَنْ تُنْكِرُوهُ طَوِيلًا.
**الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ**: الشَّاعِرُ الهَارِبُ عَبَرَ قَبْلِي. هٰذَا مَا يَحْدُثُ دَائِمًا. مَنْ يَكْتُبْ يَنْجُ أَسْرَعَ، أَمَّا مَنْ يَرَى فَيَبْقَى عَالِقًا بَيْنَ صَوْتِ الرَّصَاصِ وَعُوَاءِ الذِّئَابِ... هٰذَا اعْتِرَافِي.
**جُوقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ**: عِنْدَ الحُدُودِ تَرَاجَعَتِ اللُّغَةُ. لَمْ تَعُدِ الكَلِمَاتُ تَصْلُحُ لِعُبُورِ الأَسْلَاكِ. كَانَ الشَّاعِرُ يَرْتَجِفُ، لَيْسَ خَوْفًا مِنَ القَبْضِ، لَكِنْ مِنَ التَّثْبِيتِ: أَنْ يُصْبِحَ وَاقِعَةً دَاخِلَ إِطَارٍ.
**الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ**: لَمْ أَكُنْ مُسْتَعِدًّا لِأَنْ أَكُونَ شَاهِدًا. الشَّهَادَةُ تَفْتَرِضُ ثَبَاتًا، وَأَنَا كُنْتُ أَتَآكَلُ. كُنْتُ أَقُودُ الشَّاعِرَ كَمَا يَقُودُ الخَائِفُ حُجَّتَهُ الأَخِيرَةَ.

---

مِثْلَهُ...). فَبَكَى إِيكار، وَانْحَنَى حَتَّى غَمَرَ الثَّلْجُ مَلَامِحَهُ، وَقَالَ: (يَا هَاوِيَةُ، اسْمَعِينِي: لَمْ أَعُدْ أَطْلُبُ بِلَادًا، أَنَا الْآنَ أَطْلُبُ بَابًا وَاحِدًا أَطْرُقُهُ، وَتَقُولِينَ لِي: ادْخُلْ آمِنًا).

**الْهَامِشُ السِّرِّيُّ**: (مَنْ نَجَا مِنَ الْجَسَدِ مَرَّةً، نَجَا مِنَ الْخِيَانَةِ كُلِّهَا. وَمَنْ رَأَى الثَّلْجَ يَبْتَلِعُ وَجْهًا، صَارَ حَارِسًا لِلْبَرْقِ الدَّاخِلِيِّ).

فِي يَدِي آلَةٌ تُقْنِعُ العَالَمَ أَنَّهُ يُمْكِنُ الإِمْسَاكُ بِهِ، وَفِي صَدْرِي فَرَاغٌ أَوْسَعُ مِنْ أَيِّ إِطَارٍ.
أَخْطَأْتُ كَثِيرًا حِينَ صَدَّقْتُ أَنَّ الرُّؤْيَةَ حِيَادٌ.

**إيكار**: الحِيَادُ وَهْمٌ لُغَوِيٌّ. أَنَا لَا أَخْتَارُ، الِاخْتِيَارُ يَخُصُّ مَنْ يَخَافُ النَّتَائِجَ. أَنَا أَعْمَلُ وَفْقَ شُرُوطِ السُّقُوطِ، لَا وَفْقَ نَوَايَاكَ أَيُّهَا العَجُوزُ.
مَا يَظْهَرُ فِيَّ لَيْسَ حَقِيقَةً، هُوَ أَعْلَى دَرَجَةً مِنَ التَّعْرِيضِ.

**الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ**: عِنْدَ الحُدُودِ كَانَ الشَّاعِرُ يَنْكَمِشُ. الخَوْفُ يُقَلِّصُ اللُّغَةَ، وَأَنَا كُنْتُ أَفْقِدُ قُدْرَتِي عَلَى التَّسْمِيَةِ.
الأَشْيَاءُ بِغَيْرِ أَسْمَاءٍ تُصْبِحُ مُذْنِبَةً.
وَضَعْتُ الكَامِيرَا أَمَامِي كَدِرْعٍ شَفَّافٍ، لَمْ تَحْمِنِي، لَكِنَّهَا جَعَلَتْنِي مَرْئِيًّا أَكْثَرَ.

**إيكار:** الظُّهُورُ لَيْسَ عِقَابًا، إِنَّهُ نَتِيجَةٌ. كُلُّ مَا يَقَعُ دَاخِلَ نِطَاقِي يَخْضَعُ لِقَانُونٍ وَاحِدٍ: أَنْ يُرَى ثُمَّ يُتْرَكَ. لَا أَحْتَفِظُ بِشَيْءٍ، فَالِاحْتِفَاظُ عَادَةٌ بَشَرِيَّةٌ نَابِعَةٌ مِنَ القَلَقِ.

**الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ**: تَمَنَّيْتُ لَوْ أُعْمِيَ لَحْظَةً وَاحِدَةً. العَتْمَةُ كَانَتْ سَتَغْفِرُ، أَمَّا الرُّؤْيَةُ فَلَا تَعْرِفُ إِلَّا التَّرَاكُمَ. كُلُّ صُورَةٍ الْتَقَطْتُهَا أَضَافَتْ وَزْنًا إِلَى هٰذَا الجَسَدِ غَيْرِ المُؤَهَّلِ لِلْعُبُورِ.

**جُوقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ**: *(تَدُورُ حَوْلَ الفُوتُوغْرَافِيِّ)*
لَا صُوَرَ! لَا أَلْعَابَ! لَا كَلَامَ! إِلَّا الضَّحِكَ! الضَّحِكَ!
إِلَّا الضَّحِكَ الَّذِي يَخَافُ مِنْ نَفْسِهِ.

**إيكار:** الغُفْرَانُ مَفْهُومٌ زَمَنِيٌّ. أَنَا بِغَيْرِ زَمَنٍ. مَا تُسَمُّونَهُ ذَنْبًا هُوَ تَأَخُّرٌ فِي الفَهْمِ. أَنَا لَا أُرَاقِبُ، أَنَا مَا يَحْدُثُ.

**الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ**: الشَّاعِرُ عَبَرَ... هٰكَذَا بِبَسَاطَةٍ. لَمْ يَلْتَفِتْ، وَلَمْ يَحْتَجْ إِلَى دَلِيلٍ. بَقِيتُ وَحْدِي مَعَ احْتِمَالِ الصُّورَةِ، وَمَعَ إِدْرَاكٍ مُتَأَخِّرٍ أَنَّ الفِدَاءَ قَدْ يَكُونُ فِي تَرْكِ اللَّحْظَةِ تَمْضِي بِغَيْرِ أَثَرٍ.

**إيكار**: التَّرْكُ شَكْلٌ آخَرُ مِنَ التَّعَرُّضِ. غِيَابُ الأَثَرِ لَيْسَ خَلَاصًا، هُوَ اخْتِلَافٌ فِي الأَرْشَفَةِ. وَالمُرُورُ لَا يَخُصُّكَ وَحْدَكَ، أَيُّهَا الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ، كُلُّ شَيْءٍ يَمُرُّ. أَنْتَ فَقَطْ تُحَاوِلُ إِيقَافَهُ.

**الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ**: أَرْفَعُ الكَامِيرَا، وَأَشْعُرُ أَنَّ العَالَمَ يَنْسَحِبُ خُطْوَةً لِكَيْ لَا يُدَانَ. لَا أَطْلُبُ خَلَاصًا.
أَطْلُبُ فَقَطْ أَنْ يَمُرَّ الضَّوْءُ مِنْ دُونِ أَنْ يَتْرُكَ أَثَرًا فِيَّ.

*(يَسْكُبُ طَبَقَةً رَقِيقَةً مِنَ الرَّمْلِ الأَحْمَرِ عَلَى الأَرْضِ. تَتَقَدَّمُ جُوقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ وَتَقِفُ حَوْلَهُ).*

**جُوقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** لَا صُوَرَ! لَا أَلْعَابَ! لَا كَلَامَ! إِلَّا الضَّحِكَ! الضَّحِكَ! الضَّحِكَ الصَّادِرَ عَنْ فَمٍ مُجَرَّدٍ مِنَ الشِّفَاهِ!

**المَلَاكُ الأَعْمَى:** الأَيَّامُ خَرَجَتْ مِنْ بَطْنِ الحَيَاةِ مُشَوَّهَةً... مَقْلُوبَةً... مَحْمُومَةً... الأَطْفَالُ يُولَدُونَ شُيُوخًا... المَدَائِنُ تَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ، وَالوُجُوهُ تَذُوبُ فِي الهَوَاءِ كَشُمُوعٍ مَذْعُورَةٍ.

**إِيكَارُ:** أَنَا لَسْتُ شَاهِدًا، أَنَا ظَاهِرَةٌ. أَتَصَرَّفُ كَمَوْجَةٍ حِينَ لَا تُرَاقِبُونَنِي، وَكَجِسْمٍ حِينَ تَطْلُبُونَ الدَّلِيلَ. هٰذَا لَيْسَ تَنَاقُضًا، هٰذَا حَدُّ المَعْرِفَةِ.

**الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ:** لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ أَنَّ الخَوْفَ لَهُ كُتْلَةٌ. كُنْتُ أَحْمِلُهُ كَمَا تُحْمَلُ كَامِيرَا مُحَمَّلَةٌ بِمَا لَا يُرَى. قُدْتُ الشَّاعِرَ الهَارِبَ عَبْرَ طَرِيقٍ بِغَيْرِ ذَاكِرَةٍ. كَانَ يَخِفُّ كُلَّمَا اقْتَرَبْنَا، وَأَنَا كُنْتُ أَزْدَادُ كَثَافَةً. الرُّؤْيَةُ لَا تُنْقِذُ، الرُّؤْيَةُ تُثْقِلُ.[119]

**إِيكَارُ:** اتْرُكُوا الخَيَالَ يَقُودُكُمْ، فَلَا نُبُوءَةَ إِلَّا مَا يَنْسَكِبُ عَلَى القِيثَارَةِ المُحَطَّمَةِ، وَلَا خَطِيئَةَ إِلَّا جَنَاحٌ يُحَلِّقُ فَوْقَ احْتِفَالِ النَّشِيجِ وَبَهَاءِ الدَّمِ.

*(تَنْطَفِئُ الأَضْوَاءُ تَدْرِيجِيًّا... يَخْرُجُ إِيكَارُ مِنَ المَشْهَدِ. تَبْقَى بُقْعَةُ ضَوْءٍ وَاحِدَةٌ وَسْطَ المَسْرَحِ. يَقِفُ الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ فِي وَسَطِهَا، فِي ضَوْءٍ بَاهِتٍ).*

**الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ:** كُلُّ صُورَةٍ مُحَاوَلَةٌ صَغِيرَةٌ لِإِيقَافِ القِيَامَةِ. أَنَا مُصَوِّرُ الحُرُوبِ القَدِيمَةِ، وَمُصَوِّرُ الهَارِبِينَ، وَمُصَوِّرُ الظِّلَالِ الَّتِي عَبَرَتِ الحُدُودَ ثُمَّ اخْتَفَتْ.

قُلْتُ يَوْمًا: لَا بُدَّ مِنْ أَمَلٍ يُلَطِّفُ حُزْنَ العَالَمِ. لٰكِنَّ الأَمَلَ كَانَ أَبْطَأَ مِنَ الرَّصَاصِ.

**جُوقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** الأَرْضُ تَحْفَظُ الخُطَى، لٰكِنَّ الحُدُودَ تَمْحُو الأَسْمَاءَ.

**الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ:** صَوَّرْتُ وُجُوهًا كَثِيرَةً حَتَّى نَسِيتُ وَجْهِي. صَوَّرْتُ الحَرْبَ حَتَّى صَارَتِ الحَرْبُ تَلْتَقِطُ صُورَتِي.

---

119- **فِي الرُّؤْيَةِ الَّتِي تُفْسِدُ الحَيَاةَ:** أَمَّا الَّذِينَ رَأَوْا أَكْثَرَ مِمَّا يَجِبُ، فَقَدْ تَلَعْثَمَ لِسَانُ الْعَالَمِ حَوْلَهُمْ، وَصَارُوا يَمْشُونَ بِخُطُوَاتٍ مُتَكَسِّرَةٍ، كَأَنَّهُمْ يَخْشَوْنَ أَنْ يَدُوسُوا ظِلَّ الْحَقِيقَةِ... وَلَقَدْ رَأَيْتُ أَحَدَهُمْ، (وَكَانَ شَيْخًا)، يَبْكِي وَهُوَ يَقُولُ: (لَيْتَنِي لَمْ أَرَ، لَيْتَنِي بَقِيتُ أَعْمَى، فَالْعَيْنُ بَابُ الْقِيَامَةِ)... وَلَمْ يَجْرُؤْ أَحَدٌ عَلَى سُؤَالِهِ عَمَّا رَآهُ؛ فَمَنْ يَسْأَلُ مَنْ نَجَا مِنَ النَّارِ وَهُوَ مَا زَالَ يَحْتَرِقُ؟

*(ضَوْءٌ أَبْيَضُ بَارِدٌ يُسَلَّطُ عَلَى المَلَاكِ الأَعْمَى).*
**المَلَاكُ الأَعْمَى:** أَنَا المَلَاكُ الَّذِي لَا يَرَى. سَقَطَتْ عَيْنَايَ حِينَ اشْتَعَلَتِ السَّمَاءُ، لٰكِنَّنِي مَا زِلْتُ أَسْمَعُ صَوْتَ الأَجْنِحَةِ وَهِيَ تَتَحَطَّمُ عَلَى الأَسْلَاكِ الشَّائِكَةِ.
أُكَرِّرُ القَوْلَ: لَا بُدَّ مِنْ إِيكارَ آخَرَ، إِيكارَ لَا يَحْتَرِقُ بِالشَّمْسِ، وَإِنَّمَا يَحْتَرِقُ بِالحُدُودِ.
**جُوقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** الأَجْنِحَةُ تَحْتَرِقُ، وَالخَرَائِطُ تَكْذِبُ، وَالسَّمَاءُ لَا تَعْرِفُ مَعْنَى الحُدُودِ.
**الفُوتوغْرَافِيُّ العَجُوزُ:** صَوَّرْتُ مَلَاكًا مَرَّةً، لٰكِنَّ الفِيلْمَ احْتَرَقَ. رُبَّمَا لِأَنَّ المَلَائِكَةَ لَا تَتَحَمَّلُ الضَّوْءَ.
*(إِيقَاعُ طَبْلٍ بَطِيءٍ).*
سَمِعْتُ خَبَرًا: شَابٌّ تُسَبِّحُهُ الكَوَاكِبُ حَاوَلَ عُبُورَ الحُدُودِ. اكْتَشَفَهُ العَسْكَرُ، فَاخْتَبَأَ فِي الجِبَالِ، مِثْلَ بَرْقٍ لَمْ يَجِدْ سَمَاءً.
**جُوقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** الحِصَارُ... الحِصَارُ... الحِصَارُ...
**الفُوتوغْرَافِيُّ العَجُوزُ:** مِنَ المَسَاءِ إِلَى المَسَاءِ كَانَ الحِصَارُ يَضِيقُ، وَمِنَ القَتْلِ إِلَى القَتِيلِ كَانَتِ البَنَادِقُ تُغَنِّي.
**جُوقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** كَانَ أَمَامَهُ خِيَارَانِ: أَنْ يَبْقَى سِرًّا... أَوْ أَنْ يُطْلِقَ الرَّصَاصَ عَلَى جَبْهَتِهِ المُزْهِرَةِ، وَيُسَلِّمَ جَسَدَهُ الأَبْيَضَ إِلَى الظَّلَامِ.
وَكَانَ الفَجْرُ يُمَشِّطُ رَمَادَ الكَارِثَةِ.
**المَلَاكُ الأَعْمَى:** وَمَاذَا فَعَلَ؟
**الفُوتوغْرَافِيُّ العَجُوزُ:** لَا أَحَدَ يَعْرِفُ، لٰكِنَّ الجَبَلَ مَا زَالَ يَحْتَفِظُ بِالصَّدَى.
*(تَحْمِلُ الجُوقَةُ خُوذًا)*
**جُوقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** نَحْنُ الأَرْوَاحُ الَّتِي لَمْ تَجِدْ طَرِيقَ العَوْدَةِ. نَمْشِي فَوْقَ الغُبَارِ، وَنَشْرَبُ مِنَ الصَّدَى.
**الفُوتوغْرَافِيُّ العَجُوزُ:** أَنَا البِئْرُ. أَنَا المَكَانُ الَّذِي تَسْقُطُ فِيهِ الأَصْوَاتُ حِينَ يَنْسَى الفَمُ أَسْمَاءَهَا...
كُلُّ مَا لَمْ يُعَشْ تَمَامًا يَأْتِي إِلَيَّ... وَكُلُّ مَا خَافَ الإِنْسَانُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهِ أَحْتَفِظُ بِهِ كَجَمْرٍ تَحْتَ اللُّغَةِ.
لٰكِنَّنِي مَا زِلْتُ أُصَوِّرُ، لِأَنَّ النِّسْيَانَ أَكْثَرُ قَسْوَةً مِنَ الحَرْبِ.
**المَلَاكُ الأَعْمَى:** أَنْتَ مُجَرَّدُ صُوَرٍ... ظِلَالٌ... أَشْيَاءُ مَضَتْ.
*(ضَوْءٌ وَاسِعٌ يَغْمُرُ المَسْرَحَ).*

**الفُوتوغْرَافِيُّ العَجُوزُ**: كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّنِي أُصَوِّرُ الحَرْبَ، لٰكِنَّنِي كُنْتُ أُصَوِّرُ الإِنْسَانَ وَهُوَ يَخْتَرِعُ حُدُودَهُ.

وَكُنْتُ أَظُنُّ أَنَّنِي أُصَوِّرُ الجُنُودَ، لٰكِنَّنِي كُنْتُ أُصَوِّرُ الخَوْفَ وَهُوَ يَتَعَلَّمُ المَشْيَ.

اليَوْمَ لَمْ تَعُدْ يَدِي ثَابِتَةً، فَالكَامِيرَا تَرْتَجِفُ، لِأَنَّ العَالَمَ صَارَ صُورَةً وَاحِدَةً لَا يُمْكِنُ التِقَاطُهَا.

**المَلَاكُ الأَعْمَى**: وَمَاذَا سَتَفْعَلُ الآنَ؟

**الفُوتوغْرَافِيُّ العَجُوزُ**: سَأَضَعُ الكَامِيرَا... وَأُصْغِي.

**المَلَاكُ الأَعْمَى**: إِلَى مَاذَا؟

**الفُوتوغْرَافِيُّ العَجُوزُ**: إِلَى الأَرْضِ... الأَرْضُ تَعْرِفُ كَمْ مَرَّةً حَاوَلَ الإِنْسَانُ أَنْ يَعْبُرَ نَفْسَهُ.

**جُوقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ**: *(بِصَوْتٍ جَمَاعِيٍّ بَطِيءٍ)*

الهَارِبُونَ... الهَارِبُونَ... الهَارِبُونَ... يَطْرُقُونَ أَبْوَابَ العَالَمِ.

*(تَضْرِبُ الجُوقَةُ الأَرْضَ بِأَقْدَامِهَا، بِإِيقَاعٍ أَسْرَعَ).*

حَتَّى يَعُودَ الرَّاجِعُ مِنَ الحَرْبِ بِغَيْرِ حَرْبٍ، وَبِغَيْرِ سِلَاحٍ، وَبِغَيْرِ اسْمٍ.

**الفُوتوغْرَافِيُّ العَجُوزُ**: لَا بُدَّ مِنْ صُورَةٍ أُخْرَى، لَا بُدَّ مِنْ صَبَاحٍ يُرَبِّي الضَّوْءَ فَوْقَ جُثَّةِ الكَلَامِ.

*(يُقْرَعُ الجَرَسُ بِبُطْءٍ. يَلْتَقِطُ الفُوتُوغْرَافِيُّ صُورَةً أَخِيرَةً لِلْجُمْهُورِ، ثُمَّ يَضْرِبُ الكَامِيرَا بِالأَرْضِ وَيَخْرُجُ مِنَ المَسْرَحِ. إِظْلَامٌ. صَوْتُ رَصَاصٍ يَقْتَرِبُ. بُقْعَةُ ضَوْءٍ. يَدْخُلُ الجُنْدِيُّ الجَرِيحُ مُتَّكِئًا عَلَى بُنْدُقِيَّتِهِ)*

**الجُنْدِيُّ الجَرِيحُ**: أَنَا ابْنُ الخَنَادِقِ، وَابْنُ الطِّينِ، وَابْنُ المَرَاصِدِ الحُدُودِيَّةِ، وَابْنُ الرَّصَاصِ الَّذِي تَعَلَّمَ الكَلَامَ.

رَأَيْتُ الأَرْضَ تَفْتَحُ أَفْوَاهَهَا لِتَبْتَلِعَ الرِّجَالَ.

لَمْ أَعُدْ أُفَكِّرُ فِي الهُرُوبِ، أُفَكِّرُ فِي الأَثَرِ الَّذِي يَلْعَقُ نَعْلِي.

**المَلَاكُ الأَعْمَى**: *(بِصَوْتٍ عَمِيقٍ مُتَقَطِّعٍ، كَأَنَّهُ يَنْطِقُ مِنْ قَلْبِ الأَرْضِ)*

اسْمَعْ، أَيُّهَا الجُنْدِيُّ، اسْمَعْ جَيِّدًا.

إِذَا وَضَعْتَ يَدَكَ عَلَى صُدْغِكَ، وَبَقِيتَ سَاكِنًا... سَاكِنًا جِدًّا... فَسَتَسْمَعُ الطَّحْنَ... طَحْنَ الزَّمَنِ.

**الجُنْدِيُّ الجَرِيحُ**: *(يَنْظُرُ إِلَى الأَرْضِ، ثُمَّ يَرْفَعُ رَأْسَهُ فَجْأَةً)*

فِي المَرْصَدِ الحُدُودِيِّ، وَفِي مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ، حِينَ يَضَعُ العَالَمُ رَأْسَهُ فِي الظَّلَامِ، تَبْدَأُ الطُّقُوسُ.
تُصْبِحُ الذَّاكِرَةُ هِيَ الكَاهِنَ وَالمِذْبَحَ وَالسِّكِّينَ، وَنَحْنُ اللَّحْمُ الَّذِي يَسْتَدْعِي المَاضِي... لٰكِنْ لَيْسَ كَمَا كَانَ، إِنَّمَا كَمَا تُرِيدُهُ الذَّاكِرَةُ أَنْ يَتَعَذَّبَ.
هُنَا تَنْتَهِي الحَيَاةُ، وَهُنَا تَبْدَأُ الحُدُودُ.
**المَلَاكُ الأَعْمَى**: الحُدُودُ وَهْمٌ! الحُدُودُ لَيْسَتْ إِلَّا ضَحِكًا عَلَى الخَوْفِ. الإِنْسَانُ يَضَعُهَا لِيَحْمِيَ نَفْسَهُ مِنْ ذَاتِهِ، لٰكِنَّ كُلَّ حِمَايَةٍ تَتَحَوَّلُ إِلَى قُيُودٍ.
الجُنْدِيُّ الجَرِيحُ: *(يَصْرُخُ)*
وَالحُرِّيَّةُ إِذَنْ؟ الحُرِّيَّةُ مُجَرَّدُ كَلِمَةٍ تَهْبِطُ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى رُؤُوسِنَا، وَنَحْنُ نَرْكُضُ خَلْفَهَا كَالْكِلَابِ الجَائِعَةِ!
**المَلَاكُ الأَعْمَى**: *(يَمُدُّ يَدَهُ إِلَى الأَعْلَى، وَيَصْدُرُ صَوْتٌ يُشْبِهُ الرِّيحَ فِي أَنَابِيبَ مَعْدِنِيَّةٍ)*
الحُرِّيَّةُ لَا تُمْنَحُ، الحُرِّيَّةُ تُفْهَمُ، وَتُحَسُّ، وَتُخْتَبَرُ!
أَمَّا أَنْتَ، أَيُّهَا الجُنْدِيُّ، فَتَعْجِزُ عَنْ فَهْمِهَا، وَتَخْتَبِئُ خَلْفَ السِّلَاحِ.
**الجُنْدِيُّ الجَرِيحُ**: *(يَتَقَدَّمُ خُطْوَةً، وَيَصْرُخُ)*
أَخْتَبِئُ؟! كُنْتُ أَرَى المَوْتَ، وَأَسْمَعُ صَرَخَاتِ الجُثَثِ، وَأَحْرُسُ الحُدُودَ كَيْ تَبْقَى الجُثَثُ وَرَائِي!
**المَلَاكُ الأَعْمَى**: *(يَضْحَكُ ضَحِكَةً قَاسِيَةً)*
الجُثَثُ؟! إِنَّهَا فَقَطْ صَدَى كَلِمَاتِكَ الخَائِفَةِ! أَنْتَ تَحْرُسُ حُدُودًا وَهْمِيَّةً، وَتَظُنُّ أَنَّكَ تَحْمِي الحَيَاةَ!
**الجُنْدِيُّ الجَرِيحُ**: *(يَنْحَنِي، وَيَهْمِسُ كَأَنَّهُ يَكْشِفُ سِرًّا)*
رُبَّمَا... لٰكِنْ إِنْ لَمْ أَكُنْ هُنَاكَ، لَكَانَ العَالَمُ كُلُّهُ دَمًا، وَلَكَانَ كُلُّ الهَارِبِينَ... بِغَيْرِ أَثَرٍ...
**المَلَاكُ الأَعْمَى**: *(يَقْتَرِبُ، وَصَوْتُهُ يُصْبِحُ هَمْسًا مُدَوِّيًا)*
أَثَرٌ؟ الإِنْسَانُ لَا يَتْرُكُ أَثَرًا إِلَّا فِي ذَاكِرَةِ الآخَرِينَ، وَأَنْتَ... تَنْسَى كُلَّ أَثَرٍ قَبْلَ أَنْ يُولَدَ!
**الجُنْدِيُّ الجَرِيحُ**: *(يَصْرُخُ فَجْأَةً)*
أَنَا لَا أَنْسَى! أَنَا أَحْمِلُ كُلَّ أَلَمِ الحَرْبِ... صَرْخَةَ المَيِّتِ... وَدَمْعَةَ النَّاجِي...
هَلْ تَعْرِفُ مَاذَا يَفْعَلُ الإِنْسَانُ إِذَا عَرَفَ الحَقِيقَةَ؟ هَلْ تَعْرِفُ مَاذَا يَفْعَلُ إِذَا رَآهَا؟
المَلَاكُ الأَعْمَى: *(صَوْتٌ خَافِتٌ يَتَحَوَّلُ إِلَى صُرَاخٍ)*
الحَقِيقَةُ...؟ الحَقِيقَةُ لَيْسَتْ لِلْعُيُونِ، الحَقِيقَةُ نَارٌ تَلْتَهِمُ كُلَّ شَيْءٍ: تَلْتَهِمُ الجُنْدِيَّ وَالمَلَاكَ، وَالشَّاعِرَ الهَارِبَ، وَالحُدُودَ...

**الجُنْدِيُّ الجَرِيحُ**: *(يَرْمِي بُنْدُقِيَّتَهُ أَرْضًا، وَيَصْرُخُ بِوَحْشِيَّةٍ)*
إِذًا... نَحْنُ مُجَرَّدُ صَدًى؟ نَحْنُ مُجَرَّدُ ظِلٍّ عَلَى جِدَارٍ بِغَيْرِ حَائِطٍ؟
*(يَنْهَارُ عَلَى رُكْبَتَيْهِ)*
**المَلَاكُ الأَعْمَى**: *(يَنْحَنِي فَوْقَهُ، وَيَهْمِسُ)*
أَنْتَ... أَنْتَ أَكْثَرُ مِنْ ظِلٍّ. أَنْتَ مُحَاوَلَةٌ، تَجْرِبَةُ الحَيَاةِ نَفْسِهَا، لٰكِنَّكَ... تَخَافُ أَنْ تَكُونَ حُرًّا.
**الجُنْدِيُّ الجَرِيحُ**: *(بِصَوْتٍ مُتَقَطِّعٍ بَيْنَ الشَّهِيقِ وَالصُّرَاخِ)*
حُرٌّ...؟ الحُرِّيَّةُ فَتَاةٌ بِغَيْرِ عُيُونٍ، تَمْشِي مُتَلَمِّسَةً الجُدْرَانَ، كَأَنَّهَا تَبْحَثُ عَنْ رَأْسِهَا الضَّائِعِ.
**المَلَاكُ الأَعْمَى**: *(يَبْتَعِدُ قَلِيلًا، صَمْتٌ طَوِيلٌ، ثُمَّ يَرْفَعُ يَدَهُ)*
أَسْمَعُ كَيْفَ يَتَكَسَّرُ الأَمْسُ كَعِظَامٍ فِي مِطْحَنَةٍ.
أَسْمَعُ الصَّمْتَ...
**الجُنْدِيُّ الجَرِيحُ**: *(يَظَلُّ سَاكِنًا، ثُمَّ يَهْمِسُ)*
الصَّمْتُ... هَلْ يَكْفِي لِمُوَاجَهَةِ الأَلَمِ؟
**المَلَاكُ الأَعْمَى**: *(صَوْتٌ شَدِيدُ الِانْفِعَالِ، كَأَنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ بَاطِنِ الأَرْضِ)*
الأَلَمُ؟! الأَلَمُ لَيْسَ مَا يُوجِعُكَ، إِنَّهُ مَا يُحَرِّكُكَ... مَا يَجْعَلُكَ تُحَاوِلُ أَنْ تَكُونَ أَكْثَرَ مِنْ جُنْدِيٍّ، وَأَكْثَرَ مِنْ ضَحِيَّةٍ، وَأَكْثَرَ مِنْ حَافَّةِ حُدُودٍ...
**الجُنْدِيُّ الجَرِيحُ**: *(يَنْهَضُ، وَصَوْتُهُ أَخِيرًا مُتَّزِنٌ)*
إِذًا... يَجِبُ أَنْ أَتَحَرَّكَ... لِكَيْ أَكُونَ أَكْثَرَ... أَكْثَرَ مِنْ كُلِّ هٰذَا...
**المَلَاكُ الأَعْمَى**: أَرَى مَا بَعْدَ الرَّصَاصِ. أَرَى الأَجْسَادَ حِينَ تُصْبِحُ أَجْنِحَةً.
**الجُنْدِيُّ الجَرِيحُ**: أَنَا رَأَيْتُ العَكْسَ. رَأَيْتُ الأَجْنِحَةَ تُصْبِحُ جُثَثًا.
**المَلَاكُ الأَعْمَى**: إِذًا نَحْنُ شَاهِدَانِ عَلَى نَفْسِ الجَرِيمَةِ.
**الجُنْدِيُّ الجَرِيحُ**: قُلْ: عَلَى نَفْسِ الإِنْسَانِ.
**جُوقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ**: *(تُصْدِرُ أَصْوَاتًا حَيَوَانِيَّةً، ثُمَّ تَتَحَوَّلُ إِلَى إِنْشَادٍ خَافِتٍ)*
الحَرَكَةُ... الحُدُودُ... الحُرِّيَّةُ... الأَثَرُ...
الجُنُودُ يَحْرُسُونَ خُطُوطًا لَا يَرَاهَا اللهُ.
*(صَمْتٌ طَوِيلٌ جِدًّا. يَقِفُ الجُنْدِيُّ وَالمَلَاكُ الأَعْمَى فِي مُنْتَصَفِ المَسْرَحِ، بَيْنَمَا تَتَحَرَّكُ الجُوقَةُ بِبُطْءٍ، كَأَنَّهَا نَسِيمٌ عَابِرٌ، ثُمَّ يَخْتَفِي الضَّوْءُ تَدْرِيجِيًّا).*
*(ضَوْءٌ أَبْيَضُ مُتَذَبْذِبٌ يُسَلَّطُ عَلَى المَلَاكِ وَالجُنْدِيِّ فِي مُنْتَصَفِ المَسْرَحِ).*

**المَلَاكُ الأَعْمَى**: *(هَمْسٌ مُمتَدٌّ، ثُمَّ صُرَاخٌ فُجَائِيٌّ)*
أَيُّهَا الجُنْدِيُّ... لِمَاذَا تَحْرُسُ الحُدُودَ؟ لِمَاذَا تَضَعُ نَفْسَكَ بَيْنَ الحَيَاةِ وَالمَوْتِ؟
**الجُنْدِيُّ الجَرِيحُ**: *(يَتَقَدَّمُ مُتَثَاقِلًا، وَصَوْتُهُ انْفِجَارٌ خَافِتٌ)*
لِأَنَّ أَحَدَهُمْ قَالَ لِي: هُنَا تَنْتَهِي الحُرِّيَّةُ... وَهُنَا تَبْدَأُ الحُدُودُ.
وَإِنْ لَمْ أَحْرُسْهَا، فَسَيَنْهَارُ العَالَمُ... أَوْ أَكُونُ أَنَا أَوَّلَ مَنْ يَسْقُطُ.
**جُوقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ**: *(تُصدِرُ أَصْوَاتًا حَيَوَانِيَّةً، وَتَتَحَرَّكُ كَدَوَائِرَ حَوْلَهُمَا)*
الحُدُودُ!... الحُدُودُ!... الحُدُودُ!... الحُرِّيَّةُ!
**المَلَاكُ الأَعْمَى**: الحُرِّيَّةُ... كَلِمَةٌ تَهْبِطُ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى الرُّؤُوسِ! وَأَنْتُمْ... تَخْتَبِئُونَ خَلْفَهَا، خَلْفَ الصَّرَخَاتِ المَذْعُورَةِ، وَخَلْفَ الذَّاكِرَةِ، وَخَلْفَ الخَوْفِ!
**الجُنْدِيُّ الجَرِيحُ**: *(صَرْخَةٌ طَوِيلَةٌ)*
الخَوْفُ... لَيْسَ اخْتِبَاءً! أَنَا أَرَى المَوْتَ كُلَّ صَبَاحٍ، وَأَسْمَعُ صَرَخَاتِ الجُثَثِ، وَأَحْرُسُ الحُدُودَ... كَيْ يَبْقَى شَيْءٌ حَيًّا!
**المَلَاكُ الأَعْمَى**: *(يَقْتَرِبُ، وَصَوْتُهُ يَصِيرُ هَمْسًا عَمِيقًا مُدَوِّيًا)*
الحُدُودُ وَهْمٌ! أَنْتَ تَحْرُسُ وَهْمَكَ.
**الجُنْدِيُّ الجَرِيحُ**: *(يَنْهَضُ فَجْأَةً، وَيَصْرُخُ)*
وَلَوْ لَمْ أَفْعَلْ... لَكَانَ كُلُّ شَيْءٍ دَمًا! وَلَكَانَ كُلُّ الهَارِبِينَ بِغَيْرِ أَثَرٍ...
**جُوقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ**: *(تَصَاعُدٌ فِي الصَّوْتِ، وَإِيقَاعٌ طَبْلِيٌّ سَرِيعٌ)*
الأَثَرُ... الأَثَرُ... الأَثَرُ...
*(يَتَحَرَّكُ المَلَاكُ بِبُطْءٍ كَطَائِرٍ غَائِبٍ، وَيَضْرِبُ الأَرْضَ بِقَدَمِهِ أَحْيَانًا. وَيَتَأَرْجَحُ الجُنْدِيُّ، فَيَسْقُطُ وَيَنْهَضُ، وَيَتَحَوَّلُ صُرَاخُهُ إِلَى صَرِيرٍ حَادٍّ. وَتُنْتِجُ الجُوقَةُ أَصْوَاتَ الرِّيَاحِ، وَصَرِيرَ المَعَادِنِ، وَالأَنِينَ البَعِيدَ).*
**المَلَاكُ الأَعْمَى**: *(بِصَوْتٍ فُجَائِيٍّ عَالٍ)*
الآنَ، اقْتَرِبْ قَلِيلًا. ضَعْ أُذُنَكَ قُرْبَ الصَّمْتِ. إِذَا سَمِعْتَ صَوْتًا بَعِيدًا يُشْبِهُ طَحْنَ النُّجُومِ، فَلَا تَخَفْ. إِنَّهُ الأَلَمُ...
فَالأَلَمُ لَيْسَ مَا يُوجِعُكَ، إِنَّهُ مَا يُحَرِّكُكَ! يَجْعَلُكَ أَكْثَرَ مِنْ جُنْدِيٍّ، وَأَكْثَرَ مِنْ ضَحِيَّةٍ، وَأَكْثَرَ مِنْ حُدُودِكَ!
**الجُنْدِيُّ الجَرِيحُ**: *(يَنْهَضُ، وَصَوْتُهُ مُتَقَطِّعٌ)*
أَكْثَرُ...؟ أَكْثَرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ... كَيْفَ؟
**المَلَاكُ الأَعْمَى**: *(يَتَوَقَّفُ فَجْأَةً. صَمْتٌ طَوِيلٌ مُدَوٍّ)*

اسْتَمِعْ... إِلَى الصَّمْتِ! هُوَ أَكْثَرُ صِدْقًا مِنْ كُلِّ حُدُودِكَ!
**جُوقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ**: *(هَمْسٌ طَوِيلٌ، ثُمَّ صَرْخَةٌ فُجَائِيَّةٌ)*
الصَّمْتُ... الصَّمْتُ... الصَّمْتُ...
*(صَوْتُ الرَّصَاصِ فِي الخَلْفِيَّةِ، ثُمَّ يَصْمُتُ فَجْأَةً. يَرْفَعُ الجُنْدِيُّ بُنْدُقِيَّتَهُ، ثُمَّ يَرْمِيهَا أَرْضًا فَجْأَةً)*
**الجُنْدِيُّ الجَرِيحُ**: *(هَمْسٌ، ثُمَّ صُرَاخٌ)*
هَلْ أَنَا مُجَرَّدُ ظِلٍّ؟ هَلْ هٰذَا كُلُّ أَثَرِ الإِنْسَانِ؟
**المَلَاكُ الأَعْمَى**: *(يَقْتَرِبُ أَكْثَرَ، وَصَوْتُهُ كَأَنَّ الأَرْضَ تَهْتَزُّ)*
أَنْتَ أَكْثَرُ مِنْ ظِلٍّ! أَنْتَ تَجْرِبَةُ الحَيَاةِ نَفْسِهَا!
**الجُنْدِيُّ الجَرِيحُ**: *(يَنْهَارُ عَلَى رُكْبَتَيْهِ)*
لٰكِنْ... هَلْ يَكْفِي أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَ؟
أَلَمٌ... حُدُودٌ... أَلَمٌ...
**المَلَاكُ الأَعْمَى**: *(صَرْخَةٌ مُدَوِّيَةٌ)*
نَعَمْ! إِحْسَاسُكَ بِالمَوْتِ، وَبِالخَوْفِ، وَبِالخَطَإِ... كُلُّ ذٰلِكَ يَجْعَلُكَ إِنْسَانًا... أَكْثَرَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ حَوْلَكَ!
*(يَنْهَضُ الجُنْدِيُّ وَيَتَجَوَّلُ فِي المَسْرَحِ بِحَرَكَاتٍ مُتَقَطِّعَةٍ، وَالمَلَاكُ الأَعْمَى يُلَاحِقُهُ بِصَمْتٍ. وَتُطْلِقُ الجُوقَةُ أَصْوَاتًا حَيَوَانِيَّةً تَتَقَاطَعُ مَعَ حَرَكَاتِهِمَا: خُوَارًا، وَصَرِيرًا، وَنُبَاحًا، وَأَنِينًا).*
**الجُنْدِيُّ الجَرِيحُ**: *(يَصْرُخُ إِلَى السَّمَاءِ)*
إِذَا كَانَتِ الحُرِّيَّةُ تَجْرِبَةً... فَلِمَاذَا الأَلَمُ؟ وَلِمَاذَا الحُدُودُ؟
**المَلَاكُ الأَعْمَى**: *(هَمْسٌ مُدَوٍّ، ثُمَّ صَرْخَةٌ)*
لِأَنَّ الإِنْسَانَ يَخْتَلِقُ حُدُودًا لِيَعْرِفَ نَفْسَهُ! لٰكِنَّهُ لَا يَعْرِفُهَا... حَتَّى يُوَاجِهَهَا مُبَاشَرَةً!
**الجُنْدِيُّ الجَرِيحُ**: *(يَتَوَقَّفُ فَجْأَةً)*
وَأَنَا؟ أَنَا أُوَاجِهُهَا... كُلَّ يَوْمٍ... وَالآنَ مَاذَا؟
**المَلَاكُ الأَعْمَى**: *(يَتَحَرَّكُ بِبُطْءٍ، وَيَلْمِسُ كَتِفَ الجُنْدِيِّ)*
مَا حَدَثَ، لَا يَنْبَغِي أَنْ يَحْدُثَ. حَتَّى إِذَا انْتَهَى الزَّمَنُ، لَمْ تَتَوَقَّفِ الذَّاكِرَةُ...
حَاوِلْ أَنْ تَفْهَمَ...
**الجُنْدِيُّ الجَرِيحُ**: *(صَمْتٌ طَوِيلٌ، ثُمَّ هَمْسٌ)*
أَفْهَمُ مَاذَا؟

**المَلَاكُ الأَعْمَى**: *(صَرْخَةٌ أَخِيرَةٌ)* أَنَّكَ حُرٌّ... حَتَّى إِذَا قَتَلَتْكَ الحُدُودُ، حَتَّى لَوْ سَقَطْتَ... سَتَظَلُّ تُحَاوِلُ أَنْ تَكُونَ أَكْثَرَ...

**جُوقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ**: *(صَرَخَاتٌ جَمَاعِيَّةٌ)* أَكْثَرَ... أَكْثَرَ... أَكْثَرَ...

*(الإِضَاءَةُ تَتَحَوَّلُ تَدْرِيجِيًّا إِلَى الأَزْرَقِ، ثُمَّ إِلَى أَحْمَرَ حَارِقٍ/ الجُنْدِيُّ وَالمَلَاكُ يَقِفَانِ فِي مُوَاجَهَةٍ صَامِتَةٍ/ الجُوقَةُ تَتَحَرَّكُ حَوْلَهُمَا، تُمَثِّلُ الرِّيحَ وَالنَّارَ وَالأَرْضَ وَالمَوْتَ/ الأَصْوَاتُ حَادَّةٌ مُتَقَطِّعَةٌ، صَرَخَاتٌ وَهَدِيرٌ وَجَلَبَةٌ)*

**الجُنْدِيُّ الجَرِيحُ**: *(هَمْسٌ أَخِيرٌ، مَزِيجٌ مِنْ صُرَاخٍ وَنَحِيبٍ)* أَنَا... أَكْثَرُ مِنَ الأَلَمِ... أَكْثَرُ مِنَ الحُدُودِ... أَكْثَرُ مِنْ كُلِّ مَا يَرَانَا...

**المَلَاكُ الأَعْمَى**: *(يَبْتَعِدُ، صَمْتٌ طَوِيلٌ، ثُمَّ يَرْفَعُ يَدَيْهِ)* فَلْتَكُنْ... أَكْثَرَ! وَإِذَا سَقَطْتَ، فَدَعْ سُقُوطَكَ يَفْتَحْ بَابًا جَدِيدًا لِكُلِّ مَنْ يَأْتِي بَعْدَكَ!

*(الضَّوْءُ يَضْعُفُ تَدْرِيجِيًّا/ الجُوقَةُ تُصْدِرُ آخِرَ صَرْخَةٍ طَوِيلَةٍ/ صَمْتٌ مُدَوٍّ لِمُدَّةِ دَقِيقَةٍ كَامِلَةٍ/ المَلَاكُ وَالجُنْدِيُّ يَتَحَرَّكَانِ وَيَصْرُخَانِ وَيَنْهَارَانِ/ الجُوقَةُ تُضِيفُ طَبَقَةً صَوْتِيَّةً وَجَسَدِيَّةً مُخْتَلِفَةً)*

**جُوقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ**: *(بِصَوْتٍ تَصَاعُدِيٍّ)* النَّفِيرُ. النَّفِيرُ. النَّفِيرُ الجَهَنَّمِيُّ.

**المَلَاكُ الأَعْمَى**: *(يَتَقَدَّمُ نَحْوَ الجُمْهُورِ)* هَا قَدْ تَمَّ القُدَّاسُ، قُدَّاسُ العَائِدِينَ بِلَا وُجُوهٍ، قُدَّاسُ الَّذِينَ يَقْطِفُونَ نَشِيدَهُمْ مِنْ بَرَاثِنِ الظَّلَامِ، وَيَكْسِرُونَ الجِرَارَ الجَنَائِزِيَّةَ بِصَوْتٍ يُشْبِهُ الوِلَادَةَ.

**جُوقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ**: وَفِي النِّهَايَةِ لَا يُسْدَلُ السِّتَارُ... يَظَلُّ المَسْرَحُ مَفْتُوحًا دَاخِلَ العَتْمَةِ، حَيْثُ يُوَاصِلُ العَقْلُ تَمْثِيلَ هَذَيَانِهِ الأَبَدِيِّ.

**المَلَاكُ الأَعْمَى**: وَهَكَذَا يُصْبِحُ التَّذَكُّرُ طَقْسًا قَاسِيًا، وَمَسْرَحَ تَعْذِيبٍ سِرِّيٍّ، حَيْثُ يَسْكُنُ المُمَثِّلُ وَالضَّحِيَّةُ الجُمْجُمَةَ نَفْسَهَا.

**جُوقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ**: *(تَقْتَرِبُ مِنَ الجُمْهُورِ)* هَا قَدْ سَمِعْنَا... هَا قَدْ شَاهَدْنَا... هَا قَدْ عُدْنَا بِلَا وُجُوهٍ، لَكِنَّنَا لَنْ نَرْفَعَ خُدُودَنَا لِلصَّفَعَاتِ، وَلَنْ نَسْتَسْلِمَ لِجَلَالَةِ الرُّعْبِ، سَنَغْسِلُ الصُّوَرَ بِالصُّوَرِ، وَسَنَفْتَحُ بَابًا جَدِيدًا فِي جَسَدِ العَالَمِ، بَابًا تَصْنَعُهُ صَلَوَاتُ الدَّمِ.

*(الجَرَسُ يَضْرِبُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ. ظَلَامٌ. صَمْتٌ طَوِيلٌ)*

**(وَهَكَذَا يَتَوَقَّفُ عَرْضُ هَذَيَانٍ يَتَكَوَّنُ مِنْ بَقَايَا الأَصْوَاتِ، وَمِنْ ضَوْءٍ قَدِيمٍ، وَمِنْ وُجُوهٍ لَمْ تَكْتَمِلْ. يَمُدُّ عُنُقَهُ الطَّوِيلَ مِنْ بِئْرٍ مُظْلِمٍ، وَيُحَدِّقُ فِيَّ بِعَيْنَيْنِ مَصْنُوعَتَيْنِ بِلَا رَوِيَّةٍ، تَقُولَانِ**

**لِي: تَعَالَ... لكِنَّهُمَا تَدْعُوَانِنِي إِلَى مَسْرَحٍ تَحْتَ الجُمْجُمَةِ. هُنَاكَ لَا تُوجَدُ مَقَاعِدُ... وَلَا يُوجَدُ جُمْهُورٌ. هُنَاكَ فَقَطْ خَشَبَةٌ مَصْنُوعَةٌ مِنَ الفَاجِعِ. وَالضَّوْءُ مَصْنُوعٌ مِنْ حُمَّى تَحْمِلُ لُعْبَةً بِلا رَأْسٍ وَتَضْحَكُ... ضَحِكَةً مَكْسُورَةً كَكَأْسٍ وَقَعَ فِي بِئْرٍ... ثُمَّ يَتَفَتَّتُ).**

# إِصْحَاحُ

# 9

# التَّحَوُّلُ

## (وِلادَةُ خَرِيطَةٍ جَدِيدَةٍ فِي جَسَدِ إِيكار)

تَرْنِيمَةٌ

**(1)**

## مَطْلَعُ الاِنْقِلَابِ

فِي هٰذَا الصَّبَاحِ الَّذِي انْفَتَلَ مِنْ جَنَاحَيْهِ آخِرُ رَمَادٍ، أَفَاقَ إِيكارُ كَكَائِنٍ يُنْصِتُ إِلَى جِرَاحِهِ وَهِيَ تُغَيِّرُ أَسْمَاءَهَا... لَمْ يَعُدْ يَعْرِفُ أَيْنَ يَبْدَأُ جَسَدُهُ، وَأَيْنَ تَنْتَهِي البِلَادُ. كَانَ يَمُدُّ ذِرَاعَهُ فَيَجِدُ دِلْتَا تُضِيءُ، وَيَمْسَحُ جَبِينَهُ فَتَنْهَضُ صَحْرَاءُ، وَيَفْتَحُ عَيْنَيْهِ فَتُولَدُ سَمَاءٌ مُنْخَفِضَةٌ تَبْحَثُ عَنْ أَوَّلِ طِفْلٍ يُسَمِّي غَيْمَتَهَا.

تَرْنِيمَةٌ

**(2)**

## العُصْفُورُ فِي الجَسَدِ

قَالَتْ مَسَامُّهُ:

- لَسْنَا ثُقُوبًا يَا إِيكارُ، نَحْنُ طُرُقَاتٌ تَعِبَتْ مِنِ انْتِظَارِ الرِّيحِ. دَعْنَا نَكُنِ المَمَرَّ الَّذِي يَعُودُ مِنْهُ المَنْفِيُّونَ، وَلَا تَسْأَلْ: هَلْ يَحْتَمِلُ الجَسَدُ كُلَّ هٰذِهِ الجُغْرَافِيَا؟ فَالجَسَدُ الَّذِي سَقَطَ مَرَّةً صَارَ يَعْرِفُ كَيْفَ يَنْهَضُ بِبُطْءٍ كَقَارَّةٍ نَاشِئَةٍ.

(3)

## نُزُولُ الغَيْمَةِ المُهَاجِرَةِ

هَبَطَتْ إِلَيْهِ غَيْمَةٌ بِمِشْيَةِ امْرَأَةٍ تُشْبِهُ المَطَرَ فِي حَنَانِهِ، وَقَالَتْ:

- يَا إِيكارُ، لَمْ أَعُدْ أَرَاكَ مِنَ الأَعْلَى، صِرْتَ أَنْتَ الأَعْلَى، فَوْقِي بِجَبِينٍ يَلْمَعُ كَحُدُودٍ لَمْ تُرْسَمْ. أَتَيْتُ لِأَعْتَرِفَ: كُنْتُ أَنَا الَّتِي ضَلَّلَتْ جَنَاحَكَ يَوْمَ تَكَوَّرَ العَالَمُ. كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ الظِّلَّ يَكْفِيكَ، لَكِنَّ الظِّلَّ كَانَ فَخِّي القَدِيمَ. خُذْنِي الآنَ... خُذْنِي بِخِفَّةِ مَنْ يُعِيدُ تَرْتِيبَ الهَوَاءِ، وَاجْعَلْنِي سَحَابَةً تُقِيمُ فِي صَدْرِكَ، فَإِذَا جَفَّ العَالَمُ أَمْطَرَتْ.

(4)

## الحِوَارُ مَعَ المَلَاكِ الأَعْمَى

*(يَظْهَرُ المَلَاكُ الأَعْمَى وَهُوَ يَتَحَسَّسُ الطَّرِيقَ بِعَصًا مِنْ نُورٍ مَكْسُورٍ)*

**إِيكارُ:** مَا الَّذِي يُعِيدُكَ إِلَيَّ؟

**المَلَاكُ الأَعْمَى:** سُقُوطُكَ... كَانَ بُوصْلَةً جَدِيدَةً لِي.

**إِيكارُ:** وَهَلْ أَنَا الآنَ أَوْضَحُ لَكَ؟

**المَلَاكُ الأَعْمَى:** لَا... أَنَا الَّذِي صِرْتُ أَكْثَرَ عَمًى، فَالضَّوْءُ الَّذِي صَعِدَ مِنْ جُرْحِكَ يُعْمِينِي. لَكِنِّي أَسْمَعُكَ... صَوْتُكَ صَارَ قَارَّةً.

**إِيكارُ:** دُلَّنِي، فَأَنَا أَبْحَثُ عَنْ خَرِيطَةٍ أُقِيمُ فِيهَا.

**المَلَاكُ الأَعْمَى:** الخَرِيطَةُ لَيْسَتْ رَسْمًا يَا وَلَدِي، إِنَّهَا النَّدْبَةُ الَّتِي تَخْتَارُ أَنْ تَشْفَى. امْشِ... فَكُلُّ خُطْوَةٍ تُبَدِّلُ شَكْلَ الأَرْضِ تَحْتَكَ، وَالأَرْضُ لَمْ تَعُدْ تُرِيدُ خَرَائِطَ، إِنَّهَا تُرِيدُ خُطُوَاتٍ.

(5)

## تَدَخُّلُ البَحْرِ / المَخَافِرِ

عَلَى حَافَّةِ الحِوَارِ، قَامَ البَحْرُ مِثْلَ جُنْدِيٍّ خَرَجَ مِنْ نَوْبَةِ حِرَاسَةٍ طَوِيلَةٍ، وَقَالَ بِصَوْتٍ هَشٍّ كَقَوْقَعَةٍ رُمِيَتْ قُرْبَ الحُدُودِ:

- إيكارُ... أُبَلِّغُكَ، بِاعْتِبَارِي حَارِسَ الزُّرْقَةِ، أَنَّ الجِهَاتِ الأَرْبَعَ تَقَدَّمَتْ بِشَكْوَى ضِدَّكَ: أَنْتَ تُغَيِّرُ شَكْلَ الدُّنْيَا بِلا إِذْنٍ، وَتُحَرِّكُ السَّاحِلَ، وَتُرْبِكُ أَعْصَابَ المَوَانِئِ... الخَرَائِطُ بَدَأَتْ تَفْقِدُ خُطُوطَهَا، وَالنَّوَارِسُ تَسْأَلُ: أَيْنَ نَقَعُ الآنَ؟

لَكِنِّي. أَنَا البَحْرُ. آخِرُ السُّيَّاحِ فِي هٰذَا العَالَمِ، أَعْتَرِفُ أَنَّنِي أَحْبَبْتُ فَوْضَاكَ. فَلْتُكْمِلْ... فَلْتُكْمِلْ تَحَوُّلَكَ، لَعَلِّي أَعْرِفُ أَخِيرًا إِلَى أَيْنَ أَتَّجِهُ حِينَ أَغْضَبُ.

(6)

## كُورَالُ الحُدُودِ

تَنَادَى حُرَّاسُ الجِهَاتِ، جُنُودٌ بِلا وُجُوهٍ، أَصْوَاتٌ فَقَطْ، تُنْشِدُ فِي جُوقَةٍ صَاعِدَةٍ كَعَاصِفَةٍ:

- أَيُّهَا السَّاقِطُ الصَّاعِدُ، يَا مَنْ كَسَرْتَ ارْتِفَاعَكَ وَعُدْتَ إِلَى الأَرْضِ مُمْتَلِئًا بِالسَّمَاءِ، لَمْ نَعُدْ نَعْرِفُ كَيْفَ نُغْلِقُكَ، أَوْ مِنْ أَيْنَ نَمْنَعُكَ، فَكُلُّ خُطْوَةٍ مِنْكَ تُحَوِّلُ الصَّحْرَاءَ إِلَى طَرَفِ نَهْرٍ، وَالنَّهْرَ إِلَى طَرِيقٍ لِلْمُهَاجِرِينَ، وَالطَّرِيقَ إِلَى جُرْحٍ يَعْرِفُ أَيْنَ يَلْتَئِمُ.

أَعْرِضْ عَلَيْنَا حُدُودَكَ الجَدِيدَةَ، لِنَخْتِمَهَا بِخَتْمٍ لَا يُغَيِّرُ شَكْلَكَ، خَتْمٍ يَعْتَرِفُ بِأَنَّكَ أَصْبَحْتَ خَرِيطَةً لَا تَخُصُّ أَحَدًا إِلَّا مَنْ يَجْرُؤُ عَلَى السَّيْرِ.

(7)

### مِيلَادُ الخَرِيطَةِ

وَقَفَ إِيكارُ أَخِيرًا عَلَى ارْتِفَاعٍ لَا هُوَ سَمَاءٌ وَلَا هُوَ تُرَابٌ، وَرَفَعَ جَسَدَهُ كَوَثِيقَةٍ خَرَجَتْ مِنْ نَارٍ مَحْرُوسَةٍ، فَانْطَلَقَتْ مِنْ كَتِفِهِ أَنْهَارٌ، وَمِنْ قَلْبِهِ قُرًى، وَمِنْ ضُلُوعِهِ سُهُولٌ خَضْرَاءُ تَتَنَفَّسُ كَأَطْفَالٍ عَادُوا إِلَى أُمَّهَاتِهِمْ. لَمْ يُولَدْ إِيكارُ مِنْ جَدِيدٍ... وُلِدَتْ مِنْهُ الأَرْضُ: أَرْضٌ بِلَا أَبْوَابٍ، وَلَا شَمَالٍ ثَابِتٍ، وَلَا جَنُوبٍ يَعْتَذِرُ. أَرْضٌ تَبْدَأُ بِجَنَاحٍ وَتَنْتَهِي بِإِنْسَانٍ عَرَفَ أَخِيرًا أَنَّ السُّقُوطَ أَوَّلُ حُدُودِ الخَرِيطَةِ.

٩

## النَّشِيدُ التَّاسِعُ

### النُّزُولُ إِلَى الفُوَّهَةِ (مِنْ سِفْرِ الرَّاعِي الغَرِيبِ)

وَهَا أَنَا، أَنَا الَّذِي سُمِّيتُ فِي أَزْمَانِ الغُبَارِ قَاطِفَ السَّكِينَةِ وَمُحْصِي أَنْفَاسِ التِّلَالِ، أَمْشِي طُولَ النَّهَارِ بِمُسَاعَدَةِ يَدَيَّ، وَأَتَدَرَّبُ عَلَى السَّيْرِ بَيْنَ جِبَالٍ تَنْبُتُ فِيهَا الأَعْشَابُ الشَّافِيَةُ، أَبْحَثُ عَنْ صَيْدِي المَوْعُودِ، وَأَجُرُّ خَلْفِي صُورَةَ الرَّبَّةِ المُكَرَّمَةِ بِقُرْبَانِ الثَّوْرِ، كَأَنَّهَا أَذْيَالُ نُبُوءَةٍ تَكَاسَلَتْ عَنِ الوُصُولِ إِلَى مَرْكَزِ الضَّوْءِ الإِلٰهِيِّ.

وَهُنَاكَ، عِنْدَ صُخُورٍ تَنْسَابُ كَالثَّعَابِينِ الفَاصِلَةِ بَيْنَ عَالَمٍ وَآخَرَ، كَانَ يَخْتَبِئُ فِي هٰذِهِ المُتَاهَةِ النَّادِرَةِ. وَكُنْتُ أَقْتَرِبُ مِنْهُ كَيَنْبُوعٍ تُثْقِلُهُ أَنَاشِيدُ دَفِينَةٌ، يَنْدَاحُ بِنُعُومَةٍ مِنْ سِرٍّ إِلَى سِرٍّ...

كَانَ الصَّمْتُ [120] حَوْلِي جُثَّةً عَزِيزَةً لَمْ تُكَفَّنْ، وَكَانَ الضَّوْءُ مُتَكَسِّرًا، يُظْهِرُ الذَّاكِرَةَ كَكَائِنٍ يَتَغَيَّرُ شَكْلُهُ بِاسْتِمْرَارٍ... وَكَانَتْ زَفَرَاتُ الصُّخُورِ تَحْتَ قَدَمَيَّ تَصْرُخُ، كَأَنَّهَا

---

120- **هَامِشُ الصَّمْتِ** (كَمَا خَطَّهُ نَاسِخُ الْهَامِشِ فِي أَطْوَلِ لَيْلَةٍ بِلَا قَمَرٍ):
كَانَ الصَّمْتُ مُعَلِّمًا قَدِيمًا، يُعَلِّمُ بِمَا يَمْنَعُ، وَلَا يُعَلِّمُ بِالْكَلِمَاتِ...

أَصْوَاتُ أَرْوَاحٍ حُبِسَتْ فِي جِرَارٍ جَنَائِزِيَّةٍ، تُسَرِّبُ إِلَى الهَوَاءِ هَمْسَ مَصَائِرَ لَمْ يَكْتَمِلْ خَتْمُهَا.
وَمَا إِنْ صِرْتُ بِمُحَاذَاةِ مَكْمَنِهِ. مَكْمَنِ المُتَضَرِّعِ إِلَى حَيَاةٍ مَالَتْ إِلَى المَغِيبِ. حَتَّى سَمِعَ حَفِيفَ أَقْدَامِي وَهِيَ تَسْتَحْضِرُ الوَلِيمَةَ النَّائِمَةَ عَلَى عَرْشِ المَوْتِ، وَتُوقِظُ الضَّحِكَاتِ كَيْ تَمْشِيَ فِي جِنَازِ الغَرِيبِ.
وَحِينَ نَادَانِي، لَمْ يَكُنْ صَوْتُهُ نِدَاءً، كَانَ بَرْقَ لَحْظَةٍ لَا يَظْهَرُ فِيهَا أَيُّ إِلٰهٍ:
- يَا... يَا... يـ... شَ... خَـ... يـ... يَا شَيْخُ.
كُنْ جَدِيرًا بِاسْمِكَ أَيُّهَا الدَّمُ، وَأَرْشِدِ النَّائِمَ إِلَى جُرُوحِ النَّهَارِ، فَهٰذَا صَوْتٌ يَنْهَضُ وَيَتَعَثَّرُ، كَكَائِنٍ يَخْرُجُ مِنْ رَحِمِ الحَجَرِ...
فَتَوَقَّفْتُ...
يَجْرَحُنِي اللُّغْزُ... وَيَزْمِجِرُ الرَّعْدُ فِي صَدْرِي، وَيَطْعَنُنِي الجَهَنَّمِيُّ، كَأَنَّنِي أَقْتَفِي أَثَرَ أَعَاصِيرَ زَاخِرَةٍ بِالطَّعَنَاتِ، وَكَأَنَّ جِبَالًا مِنَ القَارِ قَدْ أُلْقِيَتْ عَلَى بَصِيرَتِي...
وَاحْتَرْتُ كَكَلْبِ صَيْدٍ يَفْقِدُ الأَثَرَ...
لِمَاذَا أَيُّهَا القَدَرُ... لِمَاذَا أَيُّهَا العَقْلُ المِهْمَازُ، يَا فِتْنَةَ العَدَمِ وَبَهْرَجَةَ المَجْنُونِ، لِمَاذَا تَسْخَرُ مِنِّي؟ لِمَاذَا تُذِلُّنِي بِهٰذِهِ المَزْحَةِ وَأَنْفَاسِهَا الثَّقِيلَةِ؟
أَيَّةُ مُؤَامَرَةٍ مُشِينَةٍ تُحَاكُ بِدَمٍ نَجِسٍ وَدَنَسِ المَأْسَاةِ؟
أَصْغِ إِلَيَّ أَيُّهَا القَدَرُ، أَيُّهَا الثُّعْبَانُ اللَّامِعُ المُجَنَّحُ، لَقَدْ خَرَجْتُ إِلَيْكَ بِلا مَسَاحِيقَ وَبِلَا قَوْسٍ مَصْنُوعٍ مِنَ الذَّهَبِ.

---

وَفِي هَذَه الحاشية يَتَذَكَّرُ نَاسِخُ الْهَامِشِ:

(أ) – حِينَ كُنْتُ أَتَعَلَّمُ الْكِتَابَةَ، كُنْتُ أَكْتُبُ كَلِمَةً، ثُمَّ أَسْمَعُ صَمْتًا يَنْهَضُ خَلْفِي، يَنْفُضُ غُبَارَهُ، وَيَجْلِسُ بِجَانِبِي، وَيَنْظُرُ إِلَى الْكَلِمَةِ حَتَّى تَذُوبَ.

(ب) – الصَّمْتُ: حُضُورٌ أَكْبَرُ مِنْ أَنْ يُنْطَقَ.

(ج) – حِينَ صَمَتُّ طَوِيلًا، سَمِعْتُ صُرَاخًا لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ أَنَّهُ فِي دَاخِلِي.

وَفِي أَعْمَقِ هَامِشٍ خَفِيٍّ:

(الْمَخْطُوطَاتُ لَا تَحْفَظُ الْكَلِمَاتِ... إِنَّهَا تَحْفَظُ الصَّمْتَ الَّذِي يَحُفُّ بِهَا).

لَكِنَّ النِّسْيَانَ، ذٰلِكَ القَطِيعَ الَّذِي لَا رَاعِيَ لَهُ، بَدَأَ يُطَارِدُنِي، وَيُجَرْجِرُ بَابًا يُفْتَحُ دَاخِلَ الجُمْجُمَةِ، فَتَنْدَفِعُ مِنْهُ حَيَوَانَاتُ الزَّمَنِ...
فَأَهْتِفُ كَمَنْ أَعْطَاهُ المُرْشِدُ الصَّامِتُ سِرَّ الحِكْمَةِ:
أَيُّهَا القَدَرُ، أَيُّهَا الثُّعْبَانُ اللَّامِعُ المُجَنَّحُ،
لَا تُنَادِنِي بِرِفْقٍ. أَنَا لَا أَجِيءُ كَضَيْفٍ... أَنَا أَجِيءُ كَعَوْدَةِ الجُرْحِ إِلَى الجَسَدِ.
كُلَّمَا تَقَدَّمْتُ خُطْوَةً عَضَّتْنِي الذَّاكِرَةُ، وَلَا أَسْتَطِيعُ الهَرَبَ. كُلُّ ثَانِيَةٍ جُرْحٌ صَغِيرٌ فِي ظَهْرِي.
رَأْسِي ثَقِيلٌ، كَأَنَّ أَحَدَهُمْ يَحْفِرُ فِي دَاخِلِهِ، وَظِلِّي يَتَكَسَّرُ عَلَى الأَرْضِ قَبْلَ أَنْ تَظْهَرَ سَحَابَةٌ بَيْضَاءُ تَدُلُّ عَلَى حُضُورِ المَلَاكِ.
أَيَّتُهَا الآلَامُ، أَيَّتُهَا الزَّانِيَةُ العَظِيمَةُ، مَنْ ذَا الَّذِي يَتَحَرَّكُ فِي عِظَامِي؟
أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ أَيُّهَا القَدَرُ، وَذِرَاعَايَ تُطَوِّقَانِ تِمْثَالَ رَبَّةِ التَّقْوَى المُسِنَّةِ: مُدَّ يَدَكَ إِلَيَّ بِغَيْرِ أَذًى. لَا تَجْعَلْ رُؤْيَايَ زَاخِرَةً بِالجُنُونِ، وَلَا تَدَابِيرِي مُفْعَمَةً بِالخَبَلِ... لَا تَجْعَلِ الرُّوحَ تَنْسَى أُصُولَهَا السَّمَاوِيَّةَ، وَلَا تَتْرُكِ الشَّرَارَةَ القُدْسِيَّةَ مَسْجُونَةً فِي الجَسَدِ... اجْعَلْ كَلِمَاتِي تَتَحَوَّلُ إِلَى طُيُورٍ تَصِلُ إِلَى إِلٰهٍ لَا يَسْكُنُ تَمَاثِيلَ صَنَعَتْهَا الأَيْدِي، وَأَرْفَعُ أُنْشُودَتِي المَرْبُوطَةَ بِتَعْوِيذَةِ الدَّمِ المَسْفُوكِ، وَلَا تَجْعَلْنِي إِلٰهًا مُدَاسًا كَالحِنْطَةِ فِي البَيَادِرِ...
**(أَيُّهَا الهَذَيَانُ: يَا كَاهِنَ التَّوْبَةِ... لِمَاذَا تَقُولُ هٰذَا الكَلَامَ؟)**
...وَعُدْتُ أَمْشِي، كَمَنْ يَسِيرُ فَوْقَ أَرْدِيَةٍ مُلَطَّخَةٍ بِالسِّجِّيلِ، رَافِعًا سَحْنَتِي كَمَا تُرْفَعُ الأَشْرِعَةُ فِي مَوَاقِيتِ الخَوْفِ.
خُطْوَةٌ... خُطْوَتَانِ... ثَلَاثُ خُطُوَاتٍ...
رَنَّ صَوْتُ الحَظِّ العَاثِرِ عَالِيًا عَلَى نَغْمِ اللَّطَمَاتِ الحَزِينَةِ:
- يَا شَيْخُ... تَوَقَّفْ!
فَتَوَقَّفْتُ...
وَكَانَ المَوْتُ يَقُولُ: تَعَالَ، وَالقَتِيلُ يَقُولُ: تَعَالَ، وَالمَقْتُولُ يَقُولُ: فَلْيَأْتِ...
ثُمَّ أَدَرْتُ وَجْهِي نَحْوَ الجِبَالِ الصَّامِتَةِ، كَقُبْطَانٍ يُدِيرُ دَفَّةَ الأَجْرَامِ فِي يَخْتِ اللَّيْلِ، نَاظِرًا إِلَى الأَرْضِ وَأَطْلَالِهَا...
فَتَوَقَّفَ الحَصَادُ... وَتَوَقَّفَ القِطَافُ... وَتَوَقَّفَتْ صَلَاةٌ، وَتَوَقَّفَ خَلَاصٌ كَانَ يَرْكُضُ وَسْطَ مَجْمُوعَةٍ مِنَ الأَشْبَاحِ الهَارِبَةِ...
وَتَوَقَّفَ مَصِيرٌ كَانَ نَائِمًا فِي حُقُولِ الحُلْمِ، وَتَوَقَّفَتْ أَلْفَاظٌ غَيْرُ مُبَارَكَةٍ...

وَتَوَقَّفَتِ الأَنْهَارُ وَاليَنَابِيعُ...
وَتَوَقَّفَتْ نُجُومٌ تَرْسُمُ بِحَرَكَتِهَا دَوَائِرَ ذَاتَ أَقْدَارٍ مُتَشَابِهَةٍ...
وَنَزَلَ المَوْتُ كَمَلَاكٍ أَسْوَدَ يَسْبَحُ فِي السَّدِيمِ، وَنَزَلَتْ غِرْبَانٌ كَانَتْ تَنْتَظِرُ فَوْقَ الجَبَلِ...
وَإِذَا بِالصَّوْتِ يَعُودُ هٰذِهِ المَرَّةَ لِيَرْسُمَ وَجْهًا لَا يُرِيدُ أَنْ يُرَى...
يَتَكَسَّرُ... يَتَكَاثَرُ... يَتَشَقَّقُ كَجِدَارٍ مُصَابٍ بِالحُمَّى.
- إِنَّنِي هُنَا.
أَسْرَعْتُ نَحْوَ النِّدَاءِ المُتَحَدِّرِ مِنْ أَصْلِ الصَّخْرَةِ، أُفَتِّشُ عَنْ مَوْضِعِ الصَّوْتِ وَعَنْ فِرْدَوْسِهِ المُخْتَبِئِ،
وَكَأَنَّنِي أَبْحَثُ عَنْ جَسَدٍ مَفْقُودٍ لِسِرٍّ كَانَ يَوْمًا مَلَاكًا.
لَكِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ إِلَّا أَنِينٌ مُتَخَشِّبٌ، مِثْلُ نَايٍ دُفِنَ فِي تُرْبَةٍ مِنْ رَمَادٍ.
وَمَا إِنْ أَزَحْتُ الصَّخْرَةَ الرَّابِضَةَ كَجِنَازٍ حَتَّى أَصْبَحَ الفَرَاغُ كَثِيفًا، كَأَنَّهُ دَمٌ لَمْ يُقَرِّرْ بَعْدُ إِنْ كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ صَرْخَةً...
خُطْوَةً... خُطْوَتَيْنِ...
حَتَّى صَرَخْتُ، كَجُنْدِيٍّ عَجُوزٍ يَمْلَأُ الهَوَاءَ بِصَوْتِهِ الوَاهِي:
- يَا مَنْ اخْتَبَأَ بَيْنَ الحِجَارَةِ وَالسِّرِّ، أَظْهِرْ وَجْهَكَ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ الخَرَابُ كَمَرَايَا تَلْدَغُ بَعْضُهَا بَعْضًا.

# إِصْحَاحُ

# 10

# مُحَاكَمَةٌ رَمْزِيَّةٌ لِإِيكار

ترنيمة

**(1)**

**جُوقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:**

قِفْ أَيُّهَا الرَّاكِضُ بِلا هُوِيَّةٍ، فَهٰذَا هُوَ الفَضَاءُ الَّذِي تُفْحَصُ فِيهِ الأَرْوَاحُ، حَيْثُ تُوزَنُ الخُطْوَةُ بِظِلِّهَا، وَالاسْمُ بِمَا يَحْمِلُهُ مِنْ خَوْفٍ قَدِيمٍ. هُنَا تُقَامُ المُحَاكَمَةُ لِمَنْ حَاوَلَ أَنْ يَتَخَطَّى الضَّوْءَ بِغَيْرِ إِذْنٍ.

ترنيمة

**(2)**

**سَاحَةُ المُحَاكَمَةِ**

تُنْصَبُ السَّاحَةُ بَيْنَ نَارِ الشَّمْسِ وَزَبَدِ البَحْرِ، كَأَنَّ الكَوْنَ انْشَقَّ نِصْفَيْنِ لِيُقِيمَ مِنْكَ، يَا إِيكارُ، جَلْسَةً تُحَاسِبُ فِيهَا النُّجُومُ مَنْ يَجْرُؤُ عَلَى لَمْسِهَا بِالرَّكْضِ...

تَقِفُ الشَّمْسُ، وَتَتَدَلَّى أَلْسِنَتُهَا الذَّهَبِيَّةُ مِثْلَ سُيُوفٍ صَقَلَتْهَا القُرُونُ، وَتَقُولُ بِنَبْرَةٍ تُشْبِهُ إِنْذَارًا:

- هٰذَا الفَتَى أَضَاءَ أَكْثَرَ مِمَّا يَنْبَغِي، وَخَرَقَ حُدُودَ الضَّوْءِ بِغَيْرِ تَوْقِيعٍ.

وَفِي الجِهَةِ الأُخْرَى يَنْهَضُ البَحْرُ بِهَدِيرِهِ الأَزْرَقِ، وَيَمْسَحُ فَمَهُ بِالرَّغْوَةِ كَأَنَّهُ يَسْتَعِدُّ لِابْتِلَاعِ شَهَادَةٍ جَدِيدَةٍ، وَيَقُولُ:

- لَقَدْ عَبَرَ سَوَاحِلَنَا رَاكِضًا، لَمْ يَخْشَ مَخَافِرَنَا، وَلَمْ يُهَرِّبْ شَيْئًا إِلَّا جَسَدًا يَبْحَثُ عَنْ جَنَاحٍ.

(3)

## إيكار فِي قَلْبِ الدَّائِرَةِ

يُدْفَعُ إيكارُ إِلَى مَرْكَزِ الضَّوْءِ، وَيُحَاوِلُ أَنْ يُخْفِيَ رَجْفَةً فِي قَدَمَيْهِ، لَكِنَّ الأَرْضَ تَعْرِفُ، وَالرِّيَاحَ تَعْرِفُ، وَحَتَّى ظِلَّهُ المُرْتَجِفَ يَشِي بِأَنَّ الأَسْئِلَةَ أَثْقَلُ مِنْ جِسْمِهِ.

يَسْأَلُهُ القَاضِي غَيْرُ المَرْئِيِّ، ذٰلِكَ الَّذِي لَا يَظْهَرُ أَبَدًا، لَكِنَّ صَوْتَهُ يَنْحَتُ الهَوَاءَ:

- لِمَ رَكَضْتَ؟ وَلِمَ حَاوَلْتَ أَنْ تَكُونَ غَيْمَةً فِي جَسَدِ بَشَرٍ؟

يَرْفَعُ إيكارُ قَلْبَهُ عَالِيًا، كَأَنَّهُ وَثِيقَةٌ لَا تُكْتَبُ بِالحِبْرِ، وَيَقُولُ:

- لِأَنَّ الأَرْضَ ضَاقَتْ بِي، وَلِأَنَّ ظِلَّ أَبِي كَانَ يَنْسَحِبُ مِنِّي كُلَّ فَجْرٍ، وَلِأَنِّي كُنْتُ أَبْحَثُ عَنْ مَكَانٍ لَا يَطْلُبُ مِنِّي أَنْ أُبَرِّرَ نَبْضِي.

(4)

## شَهَادَةُ الشَّمْسِ

تَتَقَدَّمُ الشَّمْسُ خُطْوَةً، فَيَنْزِلُ مِنْهَا وَهَجٌ يَجْعَلُ الكَلِمَاتِ تَذُوبُ قَبْلَ أَنْ تَبْلُغَ الهَوَاءَ. وَتَقُولُ:

- هٰذَا الفَتَى لَمْ يَتَعَلَّمْ حُدُودَ الاِحْتِرَاقِ. كَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَعْرِفَ أَنَّ الضَّوْءَ لَيْسَ مَلَاذًا، الضَّوْءُ امْتِحَانٌ طَوِيلٌ فِي الحَرَارَةِ. لَقَدْ رَآنِي كَبِيرَةً، فَظَنَّ أَنَّ قُرْبَهُ مِنِّي سَيَجْعَلُهُ ابْنَ النُّورِ. لَمْ يُدْرِكْ أَنَّ كُلَّ مَنْ اقْتَرَبَ مِنِّي عَادَ رَمَادًا، أَوْ عَادَ ظِلًّا لَا يَمْلِكُهُ أَحَدٌ.

(5)

## شَهَادَةُ البَحْرِ

يَهْدِرُ البَحْرُ، وَتَرْتَفِعُ أَمْوَاجٌ تُشْبِهُ أَعْلَامًا غَاضِبَةً، وَيَقُولُ:

- هٰذَا العَابِرُ خَفَّ عَلَيَّ، فَلَمْ يَتْرُكْ أَثَرًا فِي الرَّمْلِ، وَلَمْ يَسْأَلِ الإِذْنَ، وَلَمْ يُقَدِّمْ خَوْفَهُ وَثِيقَةً لِلْمُرُورِ. أَنَا أَعْرِفُ مَنْ يَمْشُونَ فَوْقَ سَوَاحِلِي، كَانَتْ خُطُوَاتُهُ تُشْبِهُ خُطُوَاتِ مَنْ يَبْحَثُ عَنْ أَبٍ غَرِقَ قَدِيمًا، وَلَمْ يَجِدْ سِوَى زَبَدِ القِصَصِ. كَانَ يَهْرُبُ مِنْ شَيْءٍ لَمْ يُفْضِ بِهِ حَتَّى إِلَى مِيَاهِي.

(6)

## تَدَخُّلُ المَلَاك الأَعْمَى

يَدْخُلُ المَلَاكُ الأَعْمَى كَمَا يَدْخُلُ صَوْتٌ قَدِيمٌ إِلَى جُرْحٍ نَائِمٍ، لَا يَرَى الدَّائِرَةَ، لَكِنَّهُ يَلْمِسُ هَيْئَةَ النَّارِ وَالمَاءِ بِحَدْسٍ يُشْبِهُ البَصِيرَةَ.

فَيَضَعُ كَفَّهُ عَلَى كَتِفِ إِيكارَ وَيُخَاطِبُ الشَّمْسَ وَالبَحْرَ:

- إِنَّكُمْ تُحَاكِمُونَ رَكْضًا، لَكِنَّ الرَّكْضَ، يَا سَادَتِي، لَيْسَ جَرِيمَةً، إِنَّهُ الطَّرِيقَةُ الوَحِيدَةُ لِيَعْرِفَ هٰذَا الرَّاكِضُ أَنَّ لَهُ جَسَدًا لَا يُرِيدُ السُّقُوطَ. لَقَدْ رَأَيْتُ خَوْفَهُ، وَالخَوْفُ مَخْلُوقٌ مِنَ الظُّلْمَةِ وَالوَهْمِ.

(7)

## شَهَادَةُ الغَيْمَةِ المُهَاجِرَةِ

تَدْخُلُ الغَيْمَةُ، وَتَفِيضُ مِنْهَا نُدَفٌ تُشْبِهُ خَرَائِطَ مُمَزَّقَةً، وَتَقُولُ:

- هٰذَا الرَّاكِضُ لَمْ يَطْلُبْ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يُعَادَ تَشْكِيلُهُ. كَانَ يُحَاوِلُ أَنْ يَصِيرَ خَفِيفًا، وَأَنْ يَحْمِلَ نَفْسَهُ بِغَيْرِ وَزْنٍ، كَمَا أَفْعَلُ أَنَا، وَأَنْ يَتْرُكَ ذَاكِرَةً لَا تَقْدِرُ المَخَافِرُ عَلَى تَفْتِيشِهَا.

(تَمِيلُ نَحْوَ الشَّمْسِ وَالبَحْرِ وَتَهْمِسُ):

- التَّحَوُّلُ لَيْسَ خَطِيئَةً، وَالمَنْفَى لَيْسَ جَرِيمَةً، وَالقَلْبُ عَرْشُ النَّشْوَةِ الرُّوحِيَّةِ.

تَرْنِيمَةٌ

**(8)**

## كُورَالُ الطِّفْلِ الدَّاخِلِيِّ / ظِلُّ الأَبِ

**كُورَالُ الطِّفْلِ الدَّاخِلِيِّ:**

- يَا أَيُّهَا السَّادَةُ، نَحْنُ الَّذِينَ نُخَبِّئُ أَسْمَاءَنَا فِي الجُيُوبِ، نَعْرِفُ مَعْنَى الرَّكْضِ، وَنَعْرِفُ أَنَّ الهُرُوبَ لَيْسَ سِوَى طَرِيقَةٍ كَيْ لَا نَمُوتَ.

**ظِلُّ الأَبِ:**

- لَقَدْ رَأَيْتُكَ يَا إِيكَارُ، كُنْتُ خَلْفَكَ حِينَ كُنْتَ تُحَاوِلُ أَنْ تَصْعَدَ سُلَّمًا لَا يَرَاهُ أَحَدٌ غَيْرُكَ. لَمْ أَتْرُكْكَ، لَكِنَّ البَحْرَ تَرَكَنِي. امْضِ، وَاشْهَدْ أَنَّ الأَبَ لَا يَمُوتُ إِلَّا حِينَ يَسْتَسْلِمُ الِابْنُ.

تَرْنِيمَةٌ

**(9)**

## الغَيْمَةُ المُهَاجِرَةُ

(تَتَقَدَّمُ الغَيْمَةُ أَكْثَرَ، وَتَخْلَعُ عَنْ نَفْسِهَا لَوْنَ المَسَافَةِ، وَتَتَكَلَّمُ بِنَبْرَةٍ تُشْبِهُ سِيرَةَ المَاءِ حِينَ يَنْسَى اسْمَهُ):

- أَنَا ابْنَةُ الرِّيَاحِ، يَا سَادَتِي، لَا أَرْضَ تُقِيمُنِي وَلَا سَمَاءٌ تَسْتَبْقِينِي. وَإِيكَارُ يُشْبِهُنِي؛ يَنْحَتُ طَرِيقَهُ بِخِفَّةِ قَلْبٍ تَعَلَّمَ مِنَ الفَقْدِ أَكْثَرَ مِمَّا تَعَلَّمَ مِنَ المَأْوَى...

أَنَا الغَيْمَةُ، أَتَحَوَّلُ لِأَحْمِي، وَأَتَمَزَّقُ لِأَرْوِي، وَأَمْضِي، وَلَا أَعُودُ إِلَّا عَلَى هَيْئَةِ مَطَرٍ يُنْبِتُ فِي صَدْرِ أَحَدِهِمْ عَزَاءً...

فَلِمَاذَا يُحَاكَمُ الرَّكْضُ حِينَ يَكُونُ طَرِيقًا إِلَى أَنْ يُصْبِحَ الإِنْسَانُ مَا يَشْتَهِي؟

وَلِمَاذَا يُدَانُ التَّحَوُّلُ وَلَا يُدَانُ الثَّبَاتُ فِي الأَلَمِ؟

وَلِمَاذَا يُرِيدُ البَحْرُ أَنْ يَبْتَلِعَ مَنْ يَهْرُبُ إِلَيْهِ بَحْثًا عَنْ مَعْنًى؟

وَلِمَاذَا تَتَوَهَّمُ الشَّمْسُ أَنَّ الضَّوْءَ مِلْكٌ لَهَا، وَأَنَّ كُلَّ مَنْ يَشْتَهِي الدِّفْءَ قَدِ ارْتَكَبَ وَهْمًا؟

يَا هَيْئَةَ المُحَاكَمَةِ... لَوْ كَانَ لِلْحُرِّيَّةِ لَوْنٌ، لَكَانَتْ تُشْبِهُ ظِلَّ إِيكارَ حِينَ يَرْكُضُ.

تَرْنِيمَةٌ

**(10)**

## حِوَارٌ مَعَ المَلَاكِ الأَعْمَى

(يَنْهَضُ المَلَاكُ الأَعْمَى، لَا يَرَى الوُجُوهَ، لَكِنَّهُ يَرَى مَا يَخْتَبِئُ خَلْفَهَا)

**المَلَاكُ الأَعْمَى:** اقْتَرِبْ يَا إِيكارُ... دَعْنِي أَلْمِسْ جَبْهَتَكَ. هَلْ تَعْرِفُ مَا الَّذِي أَرَاهُ؟

**إِيكارُ:** لَا... لَكِنَّكَ تَرَى مَا لَا يَرَاهُ الضَّوْءُ.

**المَلَاكُ الأَعْمَى:** أَرَى طَرِيقًا يَسْبِقُ جَسَدَكَ، وَأَرَى رَكْضًا يَبْنِي لَكَ أَجْنِحَةً تُصْنَعُ مِنْ خَوْفٍ مُنْصَهِرٍ صَارَ قُدْرَةً عَلَى النَّجَاةِ...

أَرَى طُفُولَتَكَ تُلَوِّحُ لِي مِنْ نَافِذَةٍ بِلا زُجَاجٍ...

وَأَرَى أُمَّكَ تُحَاوِلُ أَنْ تَرْبِطَ قَدَمَيْكَ بِخَيْطٍ مِنْ حَنَانٍ لَمْ يَكْتَمِلْ...

وَأَرَى الأَبَ الغَائِبَ يُرِيدُ أَنْ يَعُودَ فِيكَ...

وَأَرَى الغَيْمَةَ تَبْحَثُ عَنْ ظِلِّكَ كَيْ تُعَلِّقَ عَلَيْهِ وِلَادَتَهَا الثَّانِيَةَ...

يَا مَحْكَمَةَ الضَّوْءِ... لَوْ رَأَيْتُمْ مَا أَرَى، لَأَعَدْتُمْ لِهٰذَا الرَّاكِضِ مَاضِيَهُ الَّذِي سُرِقَ مِنْهُ عَلَى حُدُودٍ تَكْرَهُ الأَحْلَامَ.

(11)

## تَدَخُّلُ البَحْرِ / المَخَافِرِ

يَتَحَرَّكُ البَحْرُ كَأَنَّ غَضَبَهُ يَفْتَحُ نَافِذَةً فِي صَوْتِهِ:

**البَحْرُ / مَخَافِرُ الحُدُودِ:**

لَسْنَا أَعْدَاءً لِهٰذَا الرَّاكِضِ، لَكِنَّ قَوَانِينَ المَوْجِ تَطْلُبُ شَهَادَةً لِكُلِّ مَنْ يَمُرُّ. لَقَدْ رَأَيْنَاهُ يَرْكُضُ، يَرْكُضُ كَمَنْ يُحَاوِلُ أَنْ يَكْسِرَ نَافِذَةً تُغَطِّي خَطَّ الأُفُقِ...

نَعَمْ... عَبَرَ بِغَيْرِ تَصْرِيحٍ، لَكِنَّهُ لَمْ يَحْمِلْ إِلَّا قَلْبَهُ... لَمْ يُهَرِّبْ شَيْئًا سِوَى ذَاكِرَتِهِ، وَذَاكِرَةُ الفُقَرَاءِ ثَقِيلَةٌ عَلَيْنَا، كَحَجَرٍ يَرْفُضُ الغَرَقَ...

وَمَعَ ذٰلِكَ... حِينَ لَامَسَتْ قَدَمَاهُ مِيَاهَنَا، لَمْ نَشْعُرْ بِثِقْلٍ، وَإِنَّمَا شَعَرْنَا بِخِفَّةِ مَنْ يَصْنَعُ لِرُوحِهِ سَاحِلًا جَدِيدًا.

(12)

## الحُكْمُ

يَسُودُ صَمْتٌ... كَأَنَّ الزَّمَنَ يَبْتَلِعُ دَوْرَتَهُ لِلَحْظَةٍ.

ثُمَّ يُعْلِنُ الصَّوْتُ غَيْرُ المَرْئِيِّ:

- إِيكارُ... لَا تُدَانُ، وَلَا تُبَرَّأُ. تُعْطَى سَمَاءً جَدِيدَةً تَكْتَشِفُهَا وَحْدَكَ.

(تَتَرَاجَعُ الشَّمْسُ قَلِيلًا، وَيَنْخَفِضُ هَدِيرُ البَحْرِ، وَتَفْتَحُ الرِّيحُ طَرِيقًا يَمْتَدُّ إِلَى مَا بَعْدَ الحُدُودِ... وَيَخْرُجُ إِيكارُ، لَا مُنْتَصِرًا وَلَا مَكْسُورًا، خَفِيفًا... خَفِيفًا... خَفِيفًا، كَأَنَّ المُحَاكَمَةَ نَزَعَتْ عَنْ قَلْبِهِ قَدْرًا مِنَ الخَوْفِ كَانَ يَكْفِي لِيَجْعَلَهُ يَطِيرُ)

(13)

**جُوقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:**

- أَيُّهَا السَّاعُونَ إِلَى الضِّفَّةِ البَعِيدَةِ، اعْلَمُوا أَنَّ الحُدُودَ خَوْفٌ يَرْفَعُ سُورَهُ فِي قُلُوبِ البَشَرِ.

وَإِيكارُ هٰذَا لَمْ يَأْتِ لِيُحَاكِمَ النُّورَ، جَاءَ لِيَشْهَدَ أَنَّ الشَّمْسَ تَتَوَهَّمُ السِّيَادَةَ، وَأَنَّ البَحْرَ لَا يَمْلِكُ حَقَّ أَسْمَاءِ العَابِرِينَ...

أَيُّهَا الرَّاكِضُ... امْضِ.

فِي رَكْضِكَ نُسْقِطُ جُزْءًا مِنْ قَوَانِينِنَا القَدِيمَةِ، وَفِي خُطُوَاتِكَ يُولَدُ طَرِيقٌ لَنْ تَمْحُوَهُ المَخَافِرُ.

## ١٠

# النَّشِيدُ العَاشِرُ

## العُبُورُ وَاعْتِرَافُ الرَّمَادِ [121]

## (عَنِ الرَّاقِدِ فِي رُكَامِ الضَّمَائِرِ)

لَا أَحَدَ...

لَكِنْ...

أَثَرُ أَحَدٍ.

هُوَ انْكِشَافٌ بِلا سَاتِرٍ، يَتَّخِذُ شَكْلَ عَابِرٍ، وَظُهُورٌ لَا يَحْتَمِلُ أَنْ يُرَى.

لَمْ يَكُنْ نُورًا وَلَا ظَلَامًا، كَانَ فَرْقًا يَتَأَجَّلُ، وَتَمْيِيزًا لَمْ يَكْتَمِلْ، وَانْحِنَاءَ كَيْنُونَةٍ عَلَى سِرِّهَا.

حَيْثُ لَا لُغَةَ، لَكِنِ ارْتِجَافٌ أَوَّلُ، وَاهْتِزَازٌ يَجْعَلُ الأَشْيَاءَ مُمْكِنَةَ القَوْلِ.

لَمْ يَكُنِ اسْمٌ يُنَادَى، وَلَا وَجْهٌ يُعْرَفُ، كَانَ رَجْفَةً عَمْيَاءَ تَتَقَلَّبُ فِي فَرَاغٍ لَمْ يُدْرِكْ نَفْسَهُ بَعْدُ.

وَمِنْ صَمْتٍ أَثْقَلَ مِنَ العَدَمِ، انْفَلَقَ نِدَاءٌ...

أَيْنَ أَنْتَ؟

---

121- **هَامِشُ الرَّمَادِ الَّذِي ظَلَّ مُشْتَعِلًا (مِنْ أَلْوَاحِ النَّاسِخِ الْمُخَبَّأَةِ خَلْفَ الْجِلْدِ):** أُقْسِمُ بِالْجَمْرَةِ الْأُولَى الَّتِي سَقَطَتْ مِنْ أَصَابِعِ الْمَلَائِكَةِ أَنَّ الرَّمَادَ لَيْسَ مَوْتًا، إِنَّهُ ذَاكِرَةُ النَّارِ حِينَ تُغْلِقُ فَمَهَا دُونَ أَنْ تَنْطَفِئَ... وَرَأَيْتُ، (فِي الْهَزِيعِ الرَّابِعِ)، رَمَادًا يَتَنَفَّسُ، تَتَقَلَّبُ فِيهِ شَرَارَاتٌ صَغِيرَةٌ، كَأَنَّ أَرْوَاحَ الَّذِينَ حُرِقُوا ظُلْمًا رَفَضَتْ أَنْ تَسْتَرِيحَ، فَصَارَتْ نَارًا بَطِيئَةً لَا تَقْبَلُ الْهُدُوءَ... وَأَمَّا أَنَا، النَّاسِخُ الَّذِي لَا يُؤْمَنُ جَانِبُهُ، فَكَتَبْتُ فِي الْهَامِشِ بِخَطٍّ مُهْتَزٍّ: (كُلُّ رَمَادٍ يَشْتَعِلُ مِنْ جَدِيدٍ إِذَا ذُكِرَ بِاسْمِهِ الْحَقِيقِيِّ)... تَنَبَّهُوا، (يَا مَنْ تَقْرَؤُونَ هَذِهِ الْهَوَامِشَ)، فَإِنَّ الرَّمَادَ الَّذِي ظَلَّ مُشْتَعِلًا يَبْحَثُ عَنْ أَفْوَاهٍ جَدِيدَةٍ لِيَتَنَقَّلَ بَيْنَهَا، وَعَنْ صُدُورٍ لَمْ تَتَعَلَّمْ بَعْدُ كَيْفَ تَخْتَزِنُ نِيرَانَهَا بِسَلَامٍ... وَإِنِّي أَعْتَرِفُ أَنَّنِي رَأَيْتُ رَمَادًا يَصْعَدُ كَالْأَدْعِيَةِ، وَيَنْزِلُ كَالْأَحْكَامِ، وَيُقِيمُ فِي كَفِّ الْهَوَاءِ، كَأَنَّهُ يَبْحَثُ عَنْ صَاحِبٍ مُتَأَخِّرٍ لَمْ يَأْتِ بَعْدُ.

يَا مَنْ يَكْشِفُ أَنَّ كُلَّ ثَبَاتٍ كَانَ وَهْمًا، يَا مَنْ طُمِرَ اسْمُهُ تَحْتَ طَبَقَاتِ النَّدَمِ، اخْرُجْ... كَأَثَرٍ يُتْلَى لَا كَجَسَدٍ يُرَى...

اخْرُجْ...

يَا مَنْ يُعَرِّي النَّقَاءَ مِنِ ادِّعَائِهِ، اخْرُجْ...

لِأَشْهَدَكَ كَمَا تُشْهَدُ الأَسْرَارُ فِي لَيْلِ الطُّقُوسِ.

أَنَا الَّذِي خَلَعَ بَهَاءَهُ عِنْدَ عَتَبَةِ مَوْتِكَ.

أَيُّهَا المَصْلُوبُ عَلَى حُلِيٍّ مِنْ رَصَاصٍ، أُقِرُّ الآنَ، فِي حَضْرَةِ الانْكِسَارِ، أَنِّي رَغِبْتُ أَنْ أَمْلِكَ خَرَزَةَ الأَيَّامِ، لِأَكُونَ أَوَّلَ الفَاتِحِينَ لِوَدَعِ الدَّهْرِ، وَآخِرَ الغَالِقِينَ أَبْوَابَ المَصِيرِ.

وَأَعْتَرِفُ أَنِّي اشْتَهَيْتُ حِكْمَةً مُتَجَرِّدَةً مِنْ ثِيَابِهَا، تَرْتَجِفُ كَبَرْدٍ مُحْتَرِقٍ فِي خَرِيفٍ كَثِيرِ النِّسْيَانِ، لَا تَسْتُرُهَا فُصُولٌ، وَلَا تُجَمِّلُهَا أَلْوَانٌ؛ حِكْمَةً لَا لَيْلَ لَهَا وَلَا نَهَارَ، مِثْلَ وِلَادَةٍ عَارِيَةٍ، بِلا شَكْلٍ وَلَا سُكُونٍ.

وَأَعْتَرِفُ أَنِّي تَمَنَّيْتُ سَجْدَةَ السِّرِّ الخَفِيِّ، عَلَى نَبَإٍ لَا يُقَالُ... يُنْزَفُ... يَحْتَضِرُ... يُنْشِدُ:

**(لَوْ أَوْقَفْتُ الجَرَيَانَ، هَلْ أَفْهَمُ النَّهْرَ؟ لَوْ قَبَضْتُ عَلَى العُبُورِ، هَلْ يَتَجَلَّى الطَّرِيقُ؟)**

وَأَنَا أُنْشِدُ:

**(خُذْ مِنَّا القُلُوبَ كَأَنَّهَا خَمْرٌ، خُذِ الحَقِيقَةَ كَأَنَّهَا طَلْقَةٌ لَا تُخْطِئُ جَبِينَهَا، وَكَأَنَّ السُّؤَالَ جُرْحٌ يُفَكِّرُ).**

لِمَاذَا يَبْقَى الأَثَرُ حِينَ يَزُولُ الحَدَثُ؟

لِمَاذَا لَا يَكْتَمِلُ المَحْوُ؟

لِمَاذَا يُصِرُّ النَّقْصُ عَلَى أَنْ يَكُونَ شَرْطًا لِلْوُجُودِ؟

لِمَاذَا يَتَرَدَّدُ السُّؤَالُ، كَنَبْضٍ لَا يَهْدَأُ:

هَلْ "إِيكَارُ" اسْمٌ؟

أَمِ انْكِشَافٌ هَرَبَ مِنَ التَّسْمِيَةِ؟

هَلْ هُوَ كَائِنٌ؟

أَمْ لَحْظَةٌ تَذَكَّرَتْ فِيهَا الكَيْنُونَةُ نَفْسَهَا؟

لَا أُرِيدُ الإِجَابَةَ، لِأَنَّ السُّؤَالَ هُوَ المَعْنَى.

لَا أُرِيدُ النِّهَايَةَ، أُرِيدُ مَا يَجْعَلُ الخَاتِمَةَ مُمْكِنَةً.

لَا أُرِيدُ البِدَايَةَ...

البِدَايَةُ خُرَافَةُ التَّرْتِيبِ.

تَدَخَّلَتِ الذَّاكِرَةُ.
تَدَخَّلَتْ مُتَأَخِّرَةً... دَائِمًا مُتَأَخِّرَةً.
حَاوَلَتْ أَنْ تُنَظِّمَ المَشْهَدَ، أَنْ تَقُولَ: هٰذَا حَدَثٌ، وَهٰذَا شَخْصٌ، وَهٰذِهِ بِدَايَةٌ.
هِيَ تَكْذِبُ.
وَالزَّمَنُ لَمْ يَجْرِ.
**(كَانَ مُتَوَقِّفًا عَلَى نَحْوٍ غَيْرِ مُعْلَنٍ، كَأَنَّ العَدَّ فَقَدَ رَغْبَتَهُ)**
أَنَا أَرَدْتُ أَنْ أُسَاعِدَ...
رَغْبَةٌ مَشْبُوهَةٌ.
**(المُسَاعَدَةُ شَكْلٌ مِنْ أَشْكَالِ السَّيْطَرَةِ)**
لَكِنِّي اقْتَرَبْتُ...
**(لَمْ أَقْتَرِبْ، المَسَافَةُ انْكَمَشَتْ)**
وَهُنَا حَدَثَ شَيْءٌ.
الهَوَاءُ تَغَيَّرَ...
صَارَ أَكْثَرَ انْتِبَاهًا...
ظَهَرَ عِطْرٌ...
**(لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ أُقْحُوَانٌ، لَكِنَّهُ عِطْرٌ كَأَنَّ الذَّاكِرَةَ سَبَقَتِ الوَاقِعَ)**
وَظَهَرَتْ خُطُوَاتٌ...
**(لَمْ تُسْمَعْ)**
لَكِنَّهَا تَرَكَتْ أَثَرًا...
**(الأَثَرُ أَوْضَحُ مِنَ الفِعْلِ)**
الحُدُودُ اخْتَفَتْ...
**(أَوْ لَمْ تَعُدْ ضَرُورِيَّةً).**
الذَّاكِرَةُ فَتَحَتْ بَابًا لَمْ أَدْخُلْهُ...
**(هَلْ كَانَ هُنَاكَ أَصْلًا؟)**
الآنَ لَيْسَ حَاضِرًا...
**(عُقْدَةٌ تَشُدُّ مَا قَبْلَهَا وَمَا بَعْدَهَا إِلَى نُقْطَةٍ وَاحِدَةٍ)**
وَ"إِيكَارُ" عَادَ...
عَادَ أَخَفَّ هٰذِهِ المَرَّةَ...
**(كَأَنَّهُ تَعَلَّمَ أَلَّا يَثْقُلَ)**

هَلْ هُوَ؟
**(السُّؤَالُ لَمْ يَعُدْ مُهِمًّا)**
هَلْ عَبَرَ؟
**(رُبَّمَا العُبُورُ هُوَ مَا يَحْدُثُ لِي)**
أَنَا الوَاقِفُ وَقْفَةَ الهِنْدِيِّ المُتَوَّجِ بِالرِّيشِ، أُنْشِدُ لِلْأَشْيَاءِ سُورَةَ انْطِلَاقِهَا...
أَتَذَكَّرُ أَمْ أُنْشِئُ ذِكْرَى؟
**(الفَرْقُ غَيْرُ ثَابِتٍ، كُلُّ اسْتِعَادَةٍ تُضِيفُ مَلَامِحَ، وَتَأْخُذُ أُخْرَى)**
أُحَاوِلُ أَنْ أُغْلِقَ المَشْهَدَ...
**(المَشْهَدُ يَرْفُضُ أَنْ يُحْفَظَ)**
أَقُولُ: حَدَثَ اللِّقَاءُ...
لَكِنَّ الجُمْلَةَ تَنْهَارُ...
لِأَنَّ الحَدَثَ لَمْ يَكْتَمِلْ...
يَبْقَى مَفْتُوحًا، كَجُرْحٍ لَا يُرِيدُ الشِّفَاءَ...
**(لَيْسَ نَقْصًا، إِنَّهُ شَرْطُ الِاسْتِمْرَارِ)**
أَرَاهُ مِنْ جَدِيدٍ...
**(نَفْسُهُ... وَلَيْسَ نَفْسَهُ)**
أَعْرِفُهُ دُونَ أَنْ أَتَذَكَّرَهُ...
لَسْتُ شَاهِدًا...
**(أَنَا مَوْضِعُ تَكْرَارٍ لَا يَتَطَابَقُ)**
أُبْغِضُ هٰذِهِ التَّخَيُّلَاتِ الَّتِي تُوَلِّدُ الأَلَمَ فِي الذَّاكِرَةِ كَأَنَّهَا عَجَلَةٌ فِي حَشْوِ عَجَلَةٍ...
تَدُورُ...
تَدُورُ...
تَدُورُ...
بِلَا مَرْكَزٍ وَلَا مُحِيطٍ.
أَيَّتُهَا الأَرْضُ، يَا أَخَسَّ أَجْسَامِ العَالَمِ وَأَدْنَاهَا، فَهٰذَا اللَّوْنُ الأَغْبَرُ حُجَّةٌ عَلَى وَضَاعَتِكِ...
احْتَفِظِي بِصَمْتِكِ، وَدَعِينِي أَتَحَمَّلِ الحُزْنَ الَّذِي أَرْسَلَتْهُ الآلِهَةُ...
دَعِينِي أُمْسِكُ مِيزَانَ السَّرْدِ بِيَدٍ تَرْتَجِفُ، مُسْتَعِينًا بِمُخَيِّلَةٍ مَعْطُوبَةٍ تُرْسِلُ لَهِيبَهَا لِتُدْفِئَ القَوْلَ...

لِأُعِيدَ صَبَّهُ كَاعْتِرَافٍ فِي أَفْوَاهِ العِطَاشِ...
فَتُجِيبُ الحُدُودُ بِصَيْحَةٍ مُدَوِّيَةٍ:

إِيكارُ عَادَ...
عَادَ كَقَوْلٍ يَنْزَلِقُ عَلَى أَعْنَاقِ البَجَعِ...
عَادَ كَنَرْدٍ أُلْقِيَ فِي يَدِ الغَيْبِ...
عَادَ كَنَجْمٍ يَبْرُقُ مِنْ أَجْلِ كَمَالِ وُجُودِهِ،
لَا دِرْعَ يَصُدُّهُ،
وَلَا صَلَاةَ تَرُدُّ سَطْوَتَهُ...

وَأَنَا الهَارِبُ الَّذِي يَتَوَضَّأُ بِالسِّرِّ وَيُنْشِدُ الأُنْشُودَةَ المُفْزِعَةَ، سَأَعُودُ مَعَهُ بِقَلْبٍ جَرِيءٍ...
أَنَا، وَمَنْ يَتْبَعُنِي مِنْ زَوَاحِفِ الكَلَامِ، الَّتِي تَغْزِلُ اللُّغَةَ بِحَذَرٍ قَاتِلٍ، وَتَعْرِفُ أَنَّ الجُرْحَ فِي المَعْنَى، لَا فِي الجَسَدِ.
كَانَ قَدْ خَرَجَ وَسَارَ بِهُدُوءٍ نَحْوِي، لَا خُرُوجًا مِنْ مَكَانٍ...
وَإِنَّمَا خُرُوجًا مِنْ مَعْنًى إِلَى مَعْنًى.
مُشْرِقًا كَأَوَّلِ صَبَاحٍ خُلِقَ بِغَيْرِ شَمْسٍ...
خَفِيفًا كَأَنَّ الهَوَاءَ تَذَكَّرَهُ فَجْأَةً...
وَسَقَطَ عَنِّي النَّظَرُ وَأَنَا أُحَدِّقُ إِلَيْهِ، وَإِلَى الصُّخُورِ الَّتِي وَلَدَتْهُ.
فَانْحَدَرَ نَحْوِي، وَالرَّشَّاشُ عَلَى كَتِفَيْهِ.
وَتَقَدَّمَ أَحَدُنَا نَحْوَ الآخَرِ.
وَكَانَ عَرَقًا يَزْفِرُ زَفَرَاتٍ قَصِيرَةً وَلَا يَتَكَلَّمُ.
وَبَقِينَا لَحَظَاتٍ، الوَاحِدُ قُرْبَ الآخَرِ، حَتَّى بَرَدَ عَرَقُ جَسَدِهِ.
فَقَالَ:
- قُلْ لِي يَا شَيْخُ، هَلْ تَعْرِفُ مَنْ يُسَاعِدُنِي عَلَى اجْتِيَازِ الحُدُودِ؟
الكَلَامُ لَمْ يَكْتَمِلْ...
تَوَقَّفَ...
كَأَنَّهُ يَعْرِفُ أَنَّ الِاكْتِمَالَ خَطَأٌ...
وَأَنَّ السُّؤَالَ الَّذِي لَا يُطْلَبُ لَهُ جَوَابٌ يَكْشِفُ نَقْصَهُ...
وَكَأَنَّ الجَوَابَ هُوَ هٰذَا الصَّمْتُ المَشْدُودُ...
صَمْتُ اللُّغَةِ الَّتِي لَمْ تُفْسِدْهَا الكَلِمَاتُ.

قُلْتُ:
- الحُدُودُ... كَلِمَةٌ ثَقِيلَةٌ... أَنَا أَيْضًا أُرِيدُ عُبُورَهَا.
اقْتَرَبَ أَكْثَرَ...
فَانْحَنَتِ الجِبَالُ...
وَمَالَتِ السُّهُولُ، كَأَنَّهَا تَعْرِفُ اسْمَهُ قَبْلَ أَنْ يُنْطَقَ...
وَتَعَطَّرَتِ الغُيُومُ...
وَتَعَلَّمَتِ السَّنَابِلُ الخُشُوعَ...
وَاكْتَسَتْ خُطُوَاتُهُ بِنُورٍ وَاقِفٍ بِهَيْئَةِ كَائِنٍ لَمْ يُقَرِّرْ بَعْدُ إِنْ كَانَ مَلَاكًا...
أَمْ نُبُوءَةً.
وَرَأَيْتُهُ يَنْزَلِقُ إِلَى دَاخِلِي، إِلَى زِحَامِ الذَّاكِرَةِ الَّتِي لَمْ أَمْتَلِكْهَا بَعْدُ.
فَارْتَعَشَ الوَعْيُ...
وَتَدَحْرَجَ الحُلْمُ فِي أَزِقَّةٍ مِنْ عَسَلٍ...
وَصَرَخْتُ كَبِدَايَةٍ تَسْأَلُ نَفْسَهَا:
- أَهٰذَا هُوَ؟
أَهٰذَا الَّذِي بِهِ يَبْدَأُ كُلُّ شَيْءٍ؟
أَهٰذَا إِيكارُ...
أَمِ الاسْمُ الَّذِي سَيُعْطَى لِلْبِدَايَةِ؟
لَا أَصْلَ.
لَا نِهَايَةَ.
فَقَطْ طَبَقَاتٌ تَضْغَطُ بَعْضُهَا بَعْضًا حَتَّى يَظْهَرَ هٰذَا:
لِقَاءٌ لَمْ يَحْدُثْ،
وَلَا يَزَالُ يَحْدُثُ.
الحَدَثُ... لَا يَأْتِي.
الحَدَثُ يَكْشِفُ أَنَّ كُلَّ مَجِيءٍ كَانَ وَهْمًا.

# إِصْحَاحُ

## 11

## عَوْدَةُ الخُطْوَةِ الأُولَى (مَا بَيْنَ الرُّؤْيَا وَالمَنْفَى)

تَرْنِيمُ

**(1)**

### اسْتِيقَاظٌ بَعْدَ المُحَاكَمَةِ

يَخْرُجُ إِيكارُ مِنْ دَائِرَةِ الضَّوْءِ، وَقَدَمَاهُ تَرْتَجِفَانِ كَطَائِرٍ وُلِدَ فِي صَحْرَاءَ.

تَتَرَاجَعُ الشَّمْسُ خَلْفَ سَحَابَةٍ لَا تُرِيدُهَا...

وَيَتَرَاجَعُ البَحْرُ إِلَى حَدِّهِ الهَادِئِ، وَكَأَنَّ الكَوْنَ مَنَحَهُ مُهْلَةً أَخِيرَةً كَيْ يَخْتَارَ شَكْلَهُ.

يَمْسَحُ جَبِينَهُ، فَيَشْعُرُ أَنَّ الجِلْدَ صَارَ أَوْسَعَ مِنَ المَاضِي، وَأَنَّ الخُطْوَةَ القَادِمَةَ لَنْ تُشْبِهَ الخُطُوَاتِ القَدِيمَةَ الَّتِي كَانَتْ تَهْرُبُ بِلا اتِّجَاهٍ.

تَرْنِيمُ

**(2)**

### صَوْتٌ يَظْهَرُ مِنْ دَاخِلِ الصَّمْتِ

مِنْ صَمْتٍ سَمَاوِيٍّ يَهْبِطُ صَوْتٌ لَا يُشْبِهُ الهَاجِسَ وَلَا يُشْبِهُ الأُغْنِيَةَ، يُشْبِهُ النَّبْضَ حِينَ يَتَذَكَّرُ أَنَّ لَهُ حَقًّا قَدِيمًا فِي الحَيَاةِ.

**المَلَاكُ الأَعْمَى**: (صَوْتًا فَقَطْ)

- اقْتَرِبْ... فَالخُطْوَةُ الأُولَى لَا تُصْنَعُ فِي القَدَمِ، إِنَّمَا تُصْنَعُ فِي الظِّلِّ حِينَ يُقَرِّرُ أَنْ يَتَقَدَّمَ.

**إِيكارُ:** هَلْ مَا زِلْتَ مَعِي؟ ظَنَنْتُ أَنَّكَ رَحَلْتَ بَعْدَ هٰذِهِ المُحَاكَمَةِ.

**المَلَاكُ الأَعْمَى:** أَنَا لَا أَرْحَلُ... أَنَا أَعُودُ حِينَ تَفْقِدُ بَصِيرَتُكَ طَرِيقَهَا إِلَى الدَّاخِلِ... تَعَالَ، فَالمَنْفَى رُؤْيَا تَتَغَيَّرُ وَلَيْسَ مَكَانًا.

تَرْنِيمَةٌ

**(3)**

## دَرْسٌ فِي البَصِيرَةِ

(يَضَعُ المَلَاكُ كَفَّهُ عَلَى رَأْسِ إِيكارَ، لَا يَرَى بِعَيْنَيْنِ، لَكِنَّهُ يُبْصِرُ بِعَتْمَةٍ تَلْمَعُ كَنَجْمَةٍ خَلْفَ القَلْبِ).

**المَلَاكُ الأَعْمَى:** أَصْغِ إِلَيَّ... هٰذَا العَالَمُ لَيْسَ مَعْبَرًا بَيْنَ حُدُودٍ وَحُدُودٍ، إِنَّهُ مَعْبَرٌ بَيْنَ أَنْتَ وَمَنْ قَدْ تُصْبِحُهُ...

ارْكُضْ... لِتُدْرِكَ...

كُلُّ خُطْوَةٍ تُنْقِذُكَ حِينَ تَفْهَمُ ثِقْلَهَا، وَكُلُّ خَطَأٍ يَصِيرُ جَنَاحًا إِذَا حَمَلْتَهُ بِلا خَوْفٍ.

**إِيكارُ:** وَهَلْ كَانَ الهُرُوبُ طَرِيقِي إِلَى الحُرِّيَّةِ؟

**المَلَاكُ الأَعْمَى:** الهُرُوبُ لَيْسَ سِوَى اسْمٍ آخَرَ لِلْمِيلَادِ. كُلُّ مَنْ يُولَدُ يَصْرُخُ، أَنْتَ فَقَطْ رَكَضْتَ.

تَرْنِيمَةٌ

**(4)**

## ظُهُورُ الفُوتُوغْرَافِيِّ العَجُوزِ

(مِنْ أَطْرَافِ السَّاحَةِ يَقْتَرِبُ الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ، يَحْمِلُ آلَةً كَأَنَّهَا أَطْلَالُ زَمَنٍ سَابِقٍ تَتَدَلَّى مِنْ عُنُقِهِ... عَيْنَاهُ عَمِيقَتَانِ كَأَنَّهُمَا حُفْرَتَانِ سَقَطَ فِيهِمَا الضَّوْءُ القَدِيمُ).

- تَوَقَّفْ أَيُّهَا الرَّاكِضُ... أُرِيدُ أَنْ آخُذَ لَكَ صُورَةً قَبْلَ أَنْ تَصِيرَ رَجُلًا آخَرَ.

**إِيكارُ:** صُورَةً؟ لَكِنَّنِي لَا أُرِيدُ أَنْ أُحَاصَرَ فِي إِطَارٍ.

**الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ:** لَا... لَيْسَتْ صُورَةً لِتَتَذَكَّرَ بِهَا المَاضِي... إِنَّهَا صُورَةٌ لِلْمُسْتَقْبَلِ... كَأَنَّنِي أُصَوِّرُ الإِنْسَانَ الَّذِي سَتُصْبِحُهُ بَعْدَ أَنْ تَنْجُوَ مِنْ نَفْسِكَ... (يَرْفَعُ العَدَسَةَ، لَكِنَّ اللَّقْطَةَ لَا تُظْهِرُ وَجْهًا... تُظْهِرُ ظِلًّا يَتَحَوَّلُ إِلَى هَيْئَةِ رِيحٍ).

**الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ:** (مُمْتَقِعًا)

- هٰذَا ظِلُّكَ... إِنَّهُ يَسْبِقُكَ.

**(5)**

## الغَيْمَةُ المُهَاجِرَةُ (مَنْفًى يَبْدَأُ فِي السَّمَاءِ)

(تَهْبِطُ الغَيْمَةُ، كُتْلَةَ صَمْتٍ تَبْحَثُ عَنْ شَكْلِهَا).

- إِيكارُ... تَذَكَّرْ:

المَنْفَى لَا يَبْدَأُ حِينَ تَبْتَعِدُ عَنِ الأَرْضِ، إِنَّمَا حِينَ تُحَاوِلُ أَنْ تَقْتَرِبَ مِنْ ذَاتِكَ فَتُصْبِحَ بِلا مَكَانٍ...

لَقَدْ رَأَيْتُ الرَّكْضَ فِي قَلْبِكَ، وَرَأَيْتُ ظِلَّ الأَبِ فِي ظِلِّكَ، وَرَأَيْتُ الأُمَّ تَلْمَسُ الهَوَاءَ حَوْلَكَ كَيْ تَحْرُسَكَ مِنْ جِهَةٍ لَا تَرَاهَا الشَّمْسُ...[122].

---

122- هَامِشُ مَغْرِبِ الشَّمْسِ (الْإِنْشَادُ الَّذِي لَا يُتْلَى إِلَّا عِنْدَ أَشَدِّ سَاعَاتِ اللَّيْلِ):

فِي سَاعَةٍ يَكْتُمُ فِيهَا اللَّيْلُ أَنْفَاسَهُ، وَتَتَرَدَّدُ خُطُوَاتُ الْمَلَائِكَةِ الْمُتْعَبَةِ، يَبْدَأُ نَشِيدُ الْخَلَائِقِ... هَذَا النَّشِيدُ لَا يُسْمَعُ... إِنَّمَا يُحَسُّ كَرَجْفَةٍ فِي الْعَظْمِ، وَكَارْتِعَاشِ كَلِمَةٍ لَمْ تُنْطَقْ، وَكَقِنْدِيلٍ يُوشِكُ أَنْ يَمُوتَ وَيُضِيءَ لِلْمَرَّةِ الْأَخِيرَةِ... فِي مَغْرِبِ الشَّمْسِ تُفْتَحُ قُبُورٌ لَا تُرَى، وَيَخْرُجُ مِنْهَا الَّذِينَ لَمْ يَمُوتُوا تَمَامًا، وَلَمْ يَعِيشُوا تَمَامًا، وَبَقُوا مُعَلَّقِينَ بَيْنَ حَاشِيَةٍ وَحَاشِيَةٍ. هُنَاكَ الْتَقَيْتُ ظِلَّ إِيكارَ، لَا هُوَ طَائِرٌ وَلَا سَاقِطٌ، وَكَانَ أَنِينُهُ يَلْمَعُ كَسِكِّينٍ مَغْسُولَةٍ بِالنُّجُومِ. وَقَالَ لِي: "اكْتُبْ لَيْلَكَ، فَالنَّهَارُ لَا يَحْتَاجُ إِلَى نَاسِخٍ. أَمَّا اللَّيْلُ فَلَا يَنْجُو إِلَّا بِمَا كُتِبَ بِالِارْتِعَاشِ". وَهَكَذَا عَلِمْتُ أَنَّ نَشِيدَ الْخَلَائِقِ هُوَ سِفْرُ الَّذِينَ لَا يَمْلِكُونَ الْأَكَالِيلَ، وَلَا التِّيجَانَ، وَلَا ظِلًّا يَحْمِيهِمْ مِنَ الْأَسْئِلَةِ.

تَعَالَ مَعِي...
فَالمَنْفَى الَّذِي يَنْتَظِرُكَ مَسَاحَةٌ تَكْتَشِفُ فِيهَا كَيْفَ يُصْبِحُ الإِنْسَانُ غَيْمَةً تَتَحَرَّكُ.

**(6)**

## تَدَخُّلُ البَحْرِ / المَخَافِرِ مِنْ جَدِيدٍ

(يَنْهَضُ البَحْرُ كَأَنَّهُ يَكْتُبُ اعْتِرَاضًا عَلَى رَقِّ المَاءِ).

**البَحْرُ / مَخَافِرُ الحُدُودِ:**

- لَا نَزَالُ نَرَاكَ، يَا مَنْ تَظُنُّ أَنَّكَ خَرَجْتَ مِنْ مُحَاكَمَتِنَا...
لَنْ تَكُونَ حُرًّا تَمَامًا...
فَالسُّلْطَةُ تَعْرِفُ الأَقْدَامَ، وَتَعْرِفُ الرَّكْضَ، وَنَبْرَةَ العَابِرِينَ حِينَ يَكْذِبُونَ عَلَى الرِّيحِ...
تَظُنُّ نَفْسَكَ بَعِيدًا؟
نَحْنُ نَقْرَأُ أَثَرَكَ حَتَّى فِي الرَّمْلِ الَّذِي لَمْ يَطَأْهُ أَحَدٌ.
وَكُلُّ مَنْ يُحَاوِلُ أَنْ يَعْبُرَ بِغَيْرِ إِذْنٍ، سَنَظَلُّ نُطَارِدُهُ حَتَّى فِي أَحْلَامِهِ.

**إيكارُ:** (بِهُدُوءٍ)

- لَنْ تُدْرِكُوا شَيْئًا لَا يَقِفُ فِي مَكَانٍ.

**(7)**

**جُوقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** (صَوْتٌ بَيْنَ الأَرْضِ وَالسَّمَاءِ)

- أَيُّهَا الرَّاكِضُ الَّذِي خَرَجَ مِنْ قَفَصِ الضَّوْءِ، وَأَدْخَلَ نَفْسَهُ فِي مَدْرَسَةِ الرِّيحِ، اعْلَمْ أَنَّ الحُرِّيَّةَ لَا تُنْقِذُ مِنَ البَحْرِ وَلَا مِنَ الشَّمْسِ، لَكِنْ مِنَ الخَوْفِ الَّذِي صَاغَ حُدُودَكَ مُنْذُ الطُّفُولَةِ...

امْضِ...
فَكُلَّمَا تَقَدَّمْتَ سَقَطَ سُورٌ مِنْ أَسْوَارِنَا...
امْضِ...
فَالخُطْوَةُ الَّتِي تَبْدَأُ الآنَ هِيَ الَّتِي سَتَصْنَعُ نَشِيدَكَ القَادِمَ.

تَرْنِيمَةٌ

**(8)**

### وِلَادَةُ خُطْوَةٍ أُخْرَى

يَقِفُ إِيكارُ عَلَى سَفْحِ الرِّيحِ، يَتَنَفَّسُ هَوَاءً يُشْبِهُ مَا قَبْلَ الوِلَادَةِ...
لَا يَرْكُضُ، لَا يَتَرَاجَعُ...
يَشْعُرُ لِلْمَرَّةِ الأُولَى أَنَّ الأَرْضَ مُسْتَعِدَّةٌ أَنْ تُنْصِتَ لَهُ قَبْلَ أَنْ يَلْمِسَهَا...
وَفِي مَكَانٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالمَنْفَى، تُولَدُ الخُطْوَةُ الأُولَى مِنْ جَدِيدٍ، كَأَنَّهَا بَدَايَةٌ لِنَشِيدٍ آخَرَ سَيَأْتِي بَعْدَ هٰذَا.

١١

# النَّشِيدُ الحَادِي عَشَرَ

## بَدْءُ طَقْسِ العُبُورِ وَالِاعْتِرَافِ

قَالَ **الجُنْدِيُّ الجَرِيحُ**: كُنَّا أَرْبَعَةً: فُوتُوغْرَافِيٌّ عَجُوزٌ يَقُودُ... وَشَاعِرٌ هَارِبٌ يَتْبَعُهُ... مَلَاكٌ أَعْمَى يُرَتِّلُ الأَسْمَاءَ عَلَى حُوافِّ الفَقْدِ... وَأَنَا، مَنْ يَجْمَعُ كَلِمَاتٍ مُفَخَّخَةً بِالمَعْنَى.
قَالَ **إِيكارُ**: بِقَدْرِ الآلَامِ، وَبِقَدْرِ الأَلَمِ المَكْتُومِ، وَبِقَدْرِ الغَضَبِ الَّذِي لَمْ يَجِدْ مَنْفَذًا، أَعْتَرِفُ...

قَالَ **الجُنْدِيُّ الجَرِيحُ**: اِلاعْتِرَافُ لَيْسَ قَوْلًا، إِنَّهُ انْكَشَافُ النَّصِّ عَلَى عَجْزِهِ.

قَالَ **إِيكارُ**: أَعْتَرِفُ أَنِّي سَلَكْتُ الدُّرُوبَ المُلْتَبِسَةَ، وَأَنِّي اسْتَدْلَلْتُ بِمَنْ لَا يُدَلُّ، وَاتَّبَعْتُ ظِلَالًا تُشْبِهُ النَّجَاةَ وَلَا تُنْجِي.

قَالَ **الجُنْدِيُّ الجَرِيحُ**: النَّدَمُ لَيْسَ بَعْدَ الفِعْلِ، إِنَّمَا هُوَ مَا يَسْبِقُهُ وَيَمْنَعُهُ مِنْ أَنْ يَكُونَ نَهَائِيًّا.

قَالَ **المَلَاكُ الأَعْمَى**: يَا رَبُّ ارْحَمْ... يَا رَبُّ ارْحَمْ...

قَالَ **الجُنْدِيُّ الجَرِيحُ**: المَوْتُ مُؤَجَّلٌ بِلا وَعْدٍ، وَالحَرْبُ نَصٌّ يَكْتُبُ نَفْسَهُ، وَالذَّاتُ تُسْتَبْدَلُ بِفَرَاغٍ نَاطِقٍ. لَا خَلَاصَ، لَا عُبورَ مُكْتَمِلَ، مُجَرَّدُ إِقَامَةٍ فِي العَتَبَةِ.

قَالَ **إِيكارُ**: بِاسْمِ العُبُورِ المَكْسُورِ... وَبِاسْمِ الطَّرِيقِ الَّذِي لَا يُرَى... أَعْتَرِفُ...

قَالَ **الجُنْدِيُّ الجَرِيحُ**: العُبُورُ فِكْرَةٌ لُغَوِيَّةٌ. مَا يَحْدُثُ هُوَ خُرُوجُ السَّطْرِ مِنَ الصَّفْحَةِ.

قَالَ **المَلَاكُ الأَعْمَى**: ارْحَمْنَا يَا سَاتِرَ العَابِرِينَ...

قَالَ **إِيكارُ**: أَعْتَرِفُ بِثِقَلِ الجَسَدِ... وَبِعَطَبِ القَلْبِ... وَبِغَضَبٍ خُتِمَ فِي العَظْمِ وَلَمْ يَنْطَفِئْ...

قَالَ **المَلَاكُ الأَعْمَى**: اخْتَبِرِ الصَّوْتَ... لَا تَتَّبِعِ الصَّدَى...

قَالَ **إِيكارُ**: إِنْ ضَاقَتِ الطَّرِيقُ؟ إِنْ نَصَبَ اللَّيْلُ كَمِينَهُ؟

قَالَ **المَلَاكُ الأَعْمَى**: مَنْ يَحْرُسُ العَابِرَ إِذَا نَامَتِ الجِهَاتُ؟

قَالَ **الجُنْدِيُّ الجَرِيحُ**: لَا جِهَةَ أُخْرَى. كُلُّ الجِهَاتِ تُعَادُ كِتَابَتُهَا بِالدَّمِ نَفْسِهِ.

قَالَ **إِيكارُ**: قَالَ لِي: أَنَا الدَّلِيلُ، وَأَنَا أَعْبُرُ بِكَ الحُدُودَ. فَآمَنْتُ... لَكِنِّي سَأَلْتُ: وَإِنْ وَقَعْنَا فِي كَمِينٍ؟

قَالَ **المَلَاكُ الأَعْمَى**: مَنْ يَحْرُسُ العَابِرَ فِي ظُلْمَةِ الحُدُودِ؟

قَالَ **إِيكارُ**: فَأَجَابَ: الدَّلِيلُ لَا يَقَعُ، وَمَنْ يَقَعُ يَكْشِفُ سُقُوطَ مَنْ تَبِعَهُ... وَالدَّلِيلُ لَا يُمْتَحَنُ... يُمْتَحَنُ بِهِ السَّائِرُونَ.

قَالَ **الجُنْدِيُّ الجَرِيحُ**: المَعْنَى انْسِحَابٌ، أَثَرٌ بِلا مَرْكَزٍ.

قَالَ **إِيكارُ**: ارْتَجَفَ قَلْبِي، وَسَأَلْتُهُ: وَمَنْ يَضْمَنُ أَلَّا يُسَلِّمَنِي لِيَدِ العَسْكَرِ؟

قَالَ **المَلَاكُ الأَعْمَى**: نَجِّنَا مِنَ الخِيَانَةِ يَا سَاتِرَ الأَسْرَارِ... نَجِّنَا مِنْ دَلِيلٍ لَا يُبْصِرُ...

قَالَ **إِيكارُ**: فَقَالَ: لَا تَخَفْ... إِنَّهَا حَرْبِي مَعَهُمْ، وَهِيَ فُرْصَتِي وَفُرْصَتُكَ الأَخِيرَةُ. فَقُلْنَا مَعًا: نَعَمْ... إِنَّهَا الفُرْصَةُ الأَخِيرَةُ.

قَالَ **المَلَاكُ الأَعْمَى**: *(بِهَمْسٍ)* الفُرْصَةُ الأَخِيرَةُ... الفُرْصَةُ الأَخِيرَةُ... ارْحَمْنَا يَا سَاتِرَ العَابِرِينَ... ثَبِّتْ خُطَانَا فِي اللَّيَقِينِ...

قَالَ **الجُنْدِيُّ الجَرِيحُ**: كُنَّا أَرْبَعَةً: مَلَاكٌ مُطْفَأُ البَصِيرَةِ، وَشَاعِرٌ يَنْزِفُ ذَاكِرَتَهُ، وَدَلِيلُهُمَا فُوتُوغْرَافِيٌّ مَثْقُوبُ الرَّجَاءِ، وَأَنَا الجُنْدِيُّ: سَارِدُ غَطْرَسَةِ القَدَرِ.

قَالَ **المَلَاكُ الأَعْمَى**: أَرْبَعَةٌ فِي اسْمٍ وَاحِدٍ...

قَالَ **الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ**: لِشَاعِرٍ عَرَفَ مَعْنَى الأَلَمِ تَرِنُّ فِي أُذُنَيَّ نَغَمَاتُ تَعَاوِيذَ شَافِيَةٍ.

قَالَ **المَلَاكُ الأَعْمَى**: الأَلَمَ المُضْنِيَ غَيْرَ المُحْتَمَلِ.

قَالَ **الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ**: لِشَاعِرٍ يَنْزِفُ ذَاكِرَتَهُ... يَخْرُجُ مِنَ النِّسْيَانِ وَيَعُودُ إِلَى الرُّوحِ العَذْرَاءِ الخَفِيَّةِ، يَتَأَمَّلُ العُلُوَّ فِي كُلِّ نُقْطَةِ صَمْتٍ، وَيَتَلَقَّى وَحْيَ الخَالِقِ.

قَالَ **الجُنْدِيُّ الجَرِيحُ**: نَعْرِفُ أَنَّ الأَمَلَ حَلِيفُ الوَهْمِ.

قَالَ **الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ**: لَعَلَّ بَصَرِي يَمْتَلِئُ مَاءً، فَلَا أَشْهَدَ عَلَى شَاعِرٍ يَخْرُجُ مِنْ جَسَدِهِ إِلَى شُذْرَةٍ... إِلَى سُكُونٍ أَبَدِيٍّ، وَيُشْعِلُ الفُيُوضَاتِ الإِشْرَاقِيَّةَ فِي حَطَبِ التَّرَاتِيلِ.

قَالَ **المَلَاكُ الأَعْمَى**: خَبِّئْ ضَعْفَنَا فِي لُجَجِ المَاءِ...

قَالَ **الجُنْدِيُّ الجَرِيحُ**: مِنْ جُرْحِ البَحْرِ أَشْرَبُ... وَمِنْ مِلْحِهِ أَخْتَبِئُ...

قَالَ **المَلَاكُ الأَعْمَى**: غَطِّنَا... غَطِّنَا... يَا بَحْرَ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ.

قَالَ **الجُنْدِيُّ الجَرِيحُ**: إِلَى أَيْنَ يَمْضِي الغَرِيقُ إِذَا صَارَ الدَّلِيلُ مَوْجًا؟

قَالَ **المَلَاكُ الأَعْمَى**: افْتَحْ لَنَا دَرْبًا فِي التِّيهِ... لَا تَتْرُكْنَا لِمِلْحِ الحِكَايَةِ...

قَالَ **الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ**: غَطِّنَا يَا مَاءُ... غَطِّنَا بِالينابيعِ البِكْرِ وَلَا تَفْضَحْنَا... غَطِّنَا الآنَ... قَبْلَ أَنْ نَفْتَحَ السَّتَائِرَ لِرَعْدٍ أَخِيرٍ.

قَالَ **المَلَاكُ الأَعْمَى**: لِيَكُنِ الرَّعْدُ خَاتِمَةَ القَوْلِ...

قَالَ **إِيكَارُ**: لِتَصِرْ عَيْنِي بَحْرًا... وَلْيَتَّسِعِ النَّظَرُ حَتَّى الغَرَقِ...

قَالَ **الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ**: لِشَاعِرٍ غَرِيبٍ يَتَلَقَّى رُؤْيَا الرُّوحِ غَيْرِ المَرْئِيَّةِ، وَيَعْرُجُ فَوْقَ مَدَاخِنِ الكَلَامِ.

قَالَ **الجُنْدِيُّ الجَرِيحُ**: المِعْرَاجُ لَيْسَ حَدَثًا، إِنَّمَا هُوَ امْتِنَاعُ الحَدَثِ عَنِ الِاكْتِمَالِ.

قَالَ **المَلَاكُ الأَعْمَى**: طَهِّرِ الدَّمْعَ... طَهِّرِ الأَثَرَ...

قَالَ **الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ**: فَهَلْ أَسْرُدُ بَعْدُ؟ أَأُعْلِنُ العَذْبَ... أَمْ أُشْهِرُ الفَاجِعَةَ؟

قَالَ **المَلَاكُ الأَعْمَى**: قُلِ الحَقِيقَةَ... وَلَوْ نَزَفْتَ...

قَالَ **الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ**: أَأَفْتَحُ الحِكَايَةَ؟ أَأَكْسِرُ الخَتْمَ؟

قَالَ **المَلَاكُ الأَعْمَى**: لَا صَوْتَ فَوْقَ الحَقِيقَةِ...

قَالَ **الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ**: أَأَقُولُ النِّعْمَةَ... أَمْ أُعْلِنُ الجُرْحَ؟
قَالَ **المَلَاكُ الأَعْمَى**: قُلْ... وَلَوِ انْكَسَرَ الصَّوْتُ...
قَالَ **الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ**: أَأَكْشِفُ السِّتْرَ... أَمْ أَتْرُكُ الجُرْحَ يَتَكَلَّمُ؟
قَالَ **المَلَاكُ الأَعْمَى**: تَكَلَّمْ... أَيْقِظْ آلِهَةَ المَوْتِ.
قَالَ **الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ**: أَأُعْلِنُ الرَّحْمَةَ... أَمْ أُتِمُّ النُّبُوءَةَ؟
قَالَ **المَلَاكُ الأَعْمَى**: أَتْمِمْ نُبوءَةَ الحِدَادِ الكَئِيبِ.
قَالَ **الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ**: غَطِّنِي يَا صَوْتُ... لِأَفْتَحَ البَدْءَ...
قَالَ **المَلَاكُ الأَعْمَى**: افْتَحْ... وَلَا تَخَفْ...
قَالَ **الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ**: غَطِّنِي يَا ظَلَامُ... لِأُبَلِّلَ صَدْرَ المَوْتِ بِدُمُوعٍ دَافِئَةٍ كَالأَنْهَارِ.
قَالَ **الجُنْدِيُّ الجَرِيحُ**: كُنَّا أَرْبَعَةً: وَاحِدٌ يَقُودُ بِغَيْرِ عَيْنٍ... وَاحِدٌ يَتْبَعُ بِنَزْفٍ مَفْتُوحٍ... وَاحِدٌ يَحْمِلُ مَوْتَهُ فِي أَحْشَائِهِ... وَوَاحِدٌ يَلْعَبُ دَوْرَ السَّارِدِ، وَيُحَاوِلُ قَوْلَ مَا لَا يُقَالُ.
قَالَ **المَلَاكُ الأَعْمَى**: نَحْمِلُ التَّعَبَ قُرْبَانًا... التَّعَبُ صَلَاةُ الجَسَدِ...
قَالَ **الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ**: فَسَأَلْتُهُ: مَا الَّذِي أَصَابَهُ؟ فَجَاءَ صَوْتُهُ كَجَدَائِلِ الزَّبَدِ عَلَى الشَّطِّ:

*(يَتَحَوَّلُ الصَّوْتُ إِلَى اعْتِرَافٍ دَاخِلِيٍّ)*

قَالَ **إِيكَارُ**: كُنْتُ أَجْمَعُ الضَّوْءَ... أَخِيطُ الطُّرُقَ بِالخُطَى... وَأُدَاعِبُ الجِبَالَ لِأَعْبُرَ...
قَالَ **الجُنْدِيُّ الجَرِيحُ**: الصَّوْتُ الَّذِي يَتَرَنَّمُ لَيْسَ صَلَاةً، إِنَّهُ صَدًى لِنَصٍّ نَسِيَ لِمَاذَا كُتِبَ.
قَالَ **الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ**: لَكِنَّ الطَّرِيقَ انْغَلَقَ...
قَالَ **إِيكَارُ**: جَاءَتِ الذِّئَابُ الجَائِعَةُ... وَمِنْ سَفْحِ الإِبَاحَةِ تَقَدَّمَ العَسْكَرُ... فَاخْتَبَأْتُ بَيْنَ الصُّخُورِ... تَبَادَلْنَا سِرَّ النَّارِ بِالنَّارِ، وَسَلَّمَ بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ بِذَخِيرَةِ الغَضَبِ، وَقُلْتُ: هَذِهِ لَحْظَتِي البَاسِلَةُ.
قَالَ **الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ**: اللَّيْلُ امْتَلَأَ عُيُونًا...
قَالَ **المَلَاكُ الأَعْمَى**: النَّارُ تَعْتَرِفُ بِالنَّارِ...
قَالَ **الجُنْدِيُّ الجَرِيحُ**: فِي الحَرْبِ لَا أَحَدَ يَمُوتُ، هُنَاكَ فَقَطْ تَأْجِيلٌ مُسْتَمِرٌّ لِلنِّهَايَةِ.
قَالَ **الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ**: كُنْتَ تَحْكِي... وَأَنَا أَنْظُرُ... كُنْتَ تَنْزِفُ... وَأَنَا أُرَتِّلُ... وَكُنْتُ أَقُولُ فِي سِرِّي:
قَالَ **المَلَاكُ الأَعْمَى**: اكْشِفِ الِاسْمَ...
قَالَ **الجُنْدِيُّ الجَرِيحُ**: النِّهَايَةُ مَمْنُوعَةٌ، لِأَنَّ الإِغْلَاقَ مَحْضُ ادِّعَاءٍ.

قَالَ **الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ**: هَذَا هُوَ... السَّاقِطُ مِنْ عُلُوِّهِ... هَذَا هُوَ... هَذَا الَّذِي سَقَطَ مِنَ الضَّوْءِ...
قَالَ **المَلَاكُ الأَعْمَى**: قُلِ الِاسْمَ...
قَالَ **الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ**: إِيكارُ...
قَالَ **المَلَاكُ الأَعْمَى**: إِيكارُ... إِيكارُ... إِيكارُ...
قَالَ **الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ**: أَرْشِدْنِي الآنَ يَا مَلَاكُ... أَرْشِدْنِي الآنَ لِأُصَوِّرَ لِـ (إِيكارَ) هَذِهِ الفَاتِحَةَ، فَاتِحَةَ العَابِرِينَ بَيْنَ النَّارِ وَالمَاءِ.
قَالَ **الجُنْدِيُّ الجَرِيحُ**: فَاتِحَةَ الَّذِينَ سَقَطُوا كَيْ يَعْبُرَ الِاسْمُ.
قَالَ **المَلَاكُ الأَعْمَى**: هَذِهِ فَاتِحَةُ الَّذِينَ عَبَرُوا وَلَمْ يَصِلُوا، فَاتِحَةُ الَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الحُدُودَ، وَإِنْجِيلُ السُّقُوطِ الَّذِي صَارَ طَرِيقًا.
قَالَ **إِيكارُ**: العُبُورُ سِرٌّ... وَالسُّقُوطُ كَشْفٌ...
قَالَ **المَلَاكُ الأَعْمَى**: لِيَكُنِ العُبُورُ رَحْمَةً... وَلْيَكُنِ السُّقُوطُ قِيَامَةً.

# إِصْحَاحُ

## 12

## جَوَازٌ مِنْ ضَوْءٍ

كَانَ إِيكارُ وَاقِفًا عَلَى حَافَّةِ الفَجْرِ، يُرَاقِبُ الشَّمْسَ وَهِيَ تَرْتَفِعُ كَحَاجِزٍ يَسُدُّ الأُفُقَ... سُلْطَةٌ تَقِيسُ المَسَافَةَ بَيْنَ مَنْ يَجْرُؤُ عَلَى الِاقْتِرَابِ وَمَنْ يُعَادُ أَدْرَاجَهُ...

أَمَّا البَحْرُ، فَكَانَ سِلْسِلَةَ مَخَافِرَ مُتَحَرِّكَةٍ، وَرِجَالَ شُرْطَةٍ مِنْ مَاءٍ، يُمَرِّرُونَ عَلَى جِلْدِهِ أَسْئِلَةً صَامِتَةً: مِنْ أَيْنَ جِئْتَ؟ وَإِلَى أَيْنَ تَمْضِي؟ وَأَيُّ رِيشٍ هَذَا المُلْتَصِقُ بِكَتِفَيْكَ؟

حِينَ فَتَحَ جَنَاحَيْهِ، كَانَ يَطْلُبُ مِنَ السَّمَاءِ فُسْحَةً لَا تُسَيِّرُهَا دَفَاتِرُ اللَّوَائِحِ، وَلَا تَوْقِيعُ مُوَظَّفٍ فِي ضَوْءٍ عَمُودِيٍّ...

غَيْرَ أَنَّ الشَّمْسَ وَقَفَتْ فِي وَجْهِهِ، وَطَبَعَتْ عَلَى رِيشِهِ سُؤَالًا وَاحِدًا:

- هَلْ يَسْمَحُ الضَّوْءُ لِمَنْ لَيْسَ ابْنَهُ أَنْ يَمُرَّ؟
ارْتَفَعَ قَلِيلًا، فَاشْتَدَّتْ رِقَابَةُ البَحْرِ... أَمْوَاجٌ تَتَقَدَّمُ كَتَقَارِيرَ مُجَهَّزَةٍ، تُفَتِّشُ فِي ذَاكِرَتِهِ، وَتَنْفُضُ نَوَايَاهُ، وَتُدَوِّنُ فِي دَفْتَرِ المَدِّ وَالجَزْرِ:
- المَذْكُورُ أَعْلَاهُ حَاوَلَ الصُّعُودَ مِنْ دُونِ تَصْرِيحِ مُوَقَّعٍ بِالشَّمْسِ.
كَانَ سُقُوطُهُ قَرَارًا أَصْدَرَتْهُ الحُدُودُ، لَا القَدَرُ... فَكُلَّمَا اقْتَرَبَ مِنَ الشُّعَاعِ، الْتَهَمَ الضَّوْءُ الشَّمْعَ كَمَا يَلْتَهِمُ الخَتْمُ وَثِيقَةَ العَابِرِ...
عِنْدَهَا فَهِمَ أَنَّ الطَّيَرَانَ لَمْ يَكُنْ تَمَرُّدًا، إِنَّمَا كَانَ مُحَاوَلَةَ الجَسَدِ لِإِعَادَةِ تَعْرِيفِ نَفْسِهِ أَمَامَ نِظَامٍ لَا يَرَاهُ...
عِنْدَمَا احْتَجَزَهُ البَحْرُ، لَمْ يُصَفِّدْهُ... وَضَعَهُ عَلَى الرَّمْلِ بِشَيْءٍ يُشْبِهُ المَحْضَرَ...
اقْتَرَبَ الصَّيَّادُونَ، كَشُهُودٍ عَلَى جَرِيمَةٍ، يَرَوْنَ شَابًّا عَادَ مُحَطَّمًا مِنِ اسْتِجْوَابٍ لَمْ يَفْهَمْ لُغَتَهُ...
جَلَسَ إِيكارُ، وَأَخْرَجَ جَنَاحَيْهِ كَجَوَازَيْ سَفَرٍ مُمَزَّقَيْنِ...
قَرَأَ عَلَيْهِمَا آثَارَ التَّحْقِيقِ: بُقَعَ الشَّمْعِ، وَتَشَقُّقَاتٍ تَرَكَتْهَا حَرَارَةُ الحُدُودِ، وَخُطُوطَ مَاءٍ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ البَحْرَ لَمْ يَكُنْ عَدُوًّا، إِنَّمَا كَانَ مُوَظَّفًا يُطَبِّقُ مَا فُرِضَ عَلَيْهِ...
فِي اللَّيْلِ اخْتَفَى الحَاجِزُ المُضِيءُ، وَغَابَتِ الشَّمْسُ الَّتِي أَغْلَقَتْ عَلَيْهِ النَّهَارَ...
عِنْدَهَا فَقَطْ سَمِعَ البَحْرَ يَقُولُ:
- أَنَا لَسْتُ سَجَّانًا، الحَاجِزُ هُنَاكَ، فِي الضَّوْءِ الَّذِي لَا يَسْمَحُ لِأَحَدٍ أَنْ يُلَامِسَهُ.
عِنْدَ الفَجْرِ، نَهَضَ لِيَمْشِيَ...
تَرَكَ الجَنَاحَيْنِ فَوْقَ الرَّمْلِ كَأَوْرَاقٍ مُنْتَهِيَةِ الصَّلَاحِيَّةِ، وَتَقَدَّمَ بِخُطُوَاتٍ لَا تَسْأَلُهَا الشَّمْسُ عَنْ هُوِيَّتِهَا، وَلَا يَطْلُبُ البَحْرُ تَصْرِيحًا لِفَهْمِهَا...
كَانَ يَعْرِفُ أَخِيرًا أَنَّ الطَّرِيقَ الَّذِي لَا تَحْرُسُهُ الحُدُودُ هُوَ الأَرْضُ.

١٢

# النَّشِيدُ الثَّانِي عَشَرَ

## مِعْرَاجُ أُمَرَاءِ الكَلَامِ

**(سِفْرٌ مَكْتُوبٌ بِمِدَادٍ أَحْمَرَ عَلَى رَقٍّ نِصْفِ مُحْتَرِقٍ، تَغْمُرُهُ نَبْرَةُ طَقْسٍ قَدِيمٍ يَتْلُو تَمْجِيدًا لِمَنْ نُكِبُوا بِالحُدُودِ، وَتُسْتَدْعَى فِيهِ أَرْوَاحُ الشُّعَرَاءِ الَّذِينَ أَصْبَحُوا "أُمَرَاءَ الكَلَامِ". نَصٌّ يَتَزَيَّا بِوَقَارِ صَوْتِ الشَّمَّاسِ، وَبِبَخُورٍ يَتَصَاعَدُ مِنَ الحَرْفِ. يُتْلَى عِنْدَ مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ حِينَ تَرْتَجِفُ الأَجْسَادُ الوَاقِفَةُ بَيْنَ الفِرْدَوْسِ وَالجَحِيمِ).**

وَأَنْتُمْ أَيُّهَا الشُّعَرَاءُ،
يَا أُمَرَاءَ الكَلَامِ، يَا قَارِعِي الطُّبُولِ فِي بَرِّيَّةٍ مَسْحُورَةٍ تَنْتَظِرُ المَصْلُوبَ عَلَى حُدُودِهَا... يَا أَبْنَاءَ الحُرُوفِ المُقَدَّسَةِ... اقْتَرِبُوا... اجْثُوا عِنْدَ صَدْرِهِ، فَهُوَ فِي غَفْوَتِهِ يَسْمَعُ نَفَسَ المَلَائِكَةِ وَإِنْ لَمْ يُفِقْ...
أَنْشِدُوا حَوْلَهُ تِلْكَ الصَّلَاةَ الَّتِي لَا تُكْتَبُ فِي دَفَاتِرِ الرُّهْبَانِ، وَلَا تُتْلَى إِلَّا فِي آذَانِ العَائِدِينَ مِنْ ظُلْمَةِ المَمَرَّاتِ...
أَنْشِدُوا حَتَّى يُنْبِتَ الزَّهْرُ فِي جَانِبَيْهِ، وَحَتَّى يَنْتَشِرَ الضَّوْءُ مِنْ جِلْدِهِ مِثْلَ بَخُورِ القِدِّيسِينَ فِي قُدَّاسٍ صَامِتٍ.
وَلْتَتَدَلَّ أَغْنِيَاتُكُم - تِلْكَ الَّتِي تُفْتَحُ بِهَا أَبْوَابُ الرَّبِيعِ - فَوْقَ الدَّمِ النَّقِيِّ، وَتَنْسَابَ مِنَ الجَسَدِ كَأَنَّهَا مِيَاهُ عِمَادٍ تُسْدَلُ عَلَى تَابُوتٍ أَخْضَرَ نَبَتَ فِي قَلْبِ الجَبَلِ.
يَا أُمَرَاءُ، يَا مَنْ تَجُرُّونَ اللَّفْظَ حَتَّى يَبْيَضَّ كَكَفَنٍ تُرْفَعُ عَنْهُ صَلَاةٌ ذَائِبَةٌ فِي الطِّينِ.
ارْفَعُوهُ إِلَى الأَعَالِي، فَهَذَا شَاعِرٌ لَامِعٌ كَالنِّيَاشِينِ، فَرَّ مِنْ دَوْرِيَّاتِ العَسْكَرِ، وَتَسْتَلْقِي الحُدُودُ أَمَامَ فُتُوَّتِهِ...
تَحْلُمُ بِهِ السُّحُبُ، وَتَتَنَبَّأُ بِهِ الكَوَاكِبُ، كَأَنَّهُ بَرَكَةٌ تَخْتَرِقُ نَوَافِذَ الرُّوحِ...
اخْلَعُوا بُرُوقَ البَرِّ، وَاسْتَنْطِقُوا الأَلْفَاظَ حَتَّى تُصْبِحَ رِدَاءً أَبْيَضَ يَتَهَلَّلُ...
هَلُمُّوا يَا سَادَةَ الكَلِمَاتِ، تَحَدَّثُوا عَنِ العُصُورِ الخَبِيثَةِ، عَنْ تِلْكَ المَغَاوِرِ الَّتِي كَانَتْ تَعْطِسُ أَرْوَاحًا كُلَّمَا ذَكَرَ العَابِرُونَ أَسْمَاءَهُمْ.

وَأَنَا أَيْضًا أَيُّهَا الأُمَرَاءُ، ارْفَعُونِي إِلَى شُرْفَةِ النَّشِيدِ، حَتَّى أُرْسِلَ كَلِمَاتِي كَرِيحٍ تُصَفِّرُ فَوْقَ عَرَبَاتِ العَابِرِينَ، وَإِلَى حَيْثُ يُلَوِّحُ المَوْتُ بِمِنْدِيلِهِ لِهَارِبٍ أَخِيرٍ.
**(أَنَا المَلَاكُ الأَعْمَى الَّذِي تَكَلَّمَ، وَكُلُّ مَا يُصَوِّرُهُ الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ هُوَ شَهَادَتِي)**
لِهَارِبٍ أَخِيرٍ، كَأَنَّهُ نُبُوءَةٌ سَقَطَتْ مِنْ يَدِ مَلَاكٍ مُنْهَكٍ...
لِقَلْبٍ يُصَلِّي، وَلِحَمَاسٍ يُصَارِعُ الكَلِمَاتِ، انْفَتَحَ بَابٌ فِي السَّمَاءِ لِيَقُولَ:
لَيْسَ التَّذَكُّرُ ذَاكِرَةً.
كُلُّ ذِكْرَى سِنٌّ مَكْسُورٌ مَغْرُوسٌ فِي لَحْمِ اللَّيْلِ.
أَنَا لَا أَتَذَكَّرُ... أَنَا أُقَادُ إِلَى خَشَبَةٍ سِرِّيَّةٍ مُخْتَبِئَةٍ خَلْفَ العَيْنَيْنِ، حَيْثُ يُرْفَعُ اللَّاوَعْيُ كَسِتَارَةٍ مِنْ عَصَبٍ مُحْتَرِقٍ.
هُنَاكَ لَا تَمُوتُ الأَيَّامُ.
إِنَّهَا تَزْحَفُ...
تَزْحَفُ بِوُجُوهٍ مُتَبَدِّلَةٍ، وَبِأَفْوَاهٍ بِلا لِسَانٍ، تَضْحَكُ ضَحْكَةً جَافَّةً، كَأَنَّ الضَّحِكَ مَرَضٌ فِي العِظَامِ...
لَمْ أَعْرِفْ يَوْمًا مَتَى وُلِدَتِ الذَّاكِرَةُ.
لَكِنَّنِي أَعْرِفُ الآنَ أَنَّهَا لَمْ تُولَدْ مِنَ العَقْلِ.
وُلِدَتْ مِنْ حُفْرَةٍ فِي الزَّمَنِ.
حُفْرَةٍ قَدِيمَةٍ ظَلَّ الكَوْنُ يَسْقُطُ فِيهَا قَطْرَةً بَعْدَ قَطْرَةٍ.
وَفِي قَاعِ تِلْكَ الحُفْرَةِ تَكَوَّنَ شَيْءٌ بِبُطْءٍ.
شَيْءٌ بِلا اسْمٍ، وَلَا شَكْلٍ ثَابِتٍ، لَكِنَّ لَهُ جُوعًا أَقْدَمَ مِنَ الأَيَّامِ.
ذَلِكَ الشَّيْءُ هُوَ الذَّاكِرَةُ...
ذَلِكَ الشَّيْءُ لَا يَعْرِضُ المَاضِي، إِنَّهُ يَفْتَحُهُ كَمَا تُفْتَحُ بَطْنُ حَيَوَانٍ مَذْبُوحٍ...
وَأَنَا المُمَثِّلُ الوَحِيدُ، وَالجُمْهُورُ الوَحِيدُ، وَالجُثَّةُ الَّتِي سَتُنْسَى عَلَى الخَشَبَةِ.
لَكِنَّ المَسْرَحَ لَا يَنْتَهِي.
فَالسِّتَارَةُ لَيْسَتْ قُمَاشًا.
إِنَّهَا الجَفْنُ.
وَحِينَ أُغْمِضُ عَيْنَيَّ يَبْدَأُ العَرْضُ:
مِنْ هُنَا بَدَأَ العَابِرُ، مِنْ جِبَالٍ هَرِمَةٍ غَطَّى الرُّعْبُ كُهُولَتَهَا العَابِسَةَ بِمِعْطَفٍ مِنْ رَصَاصٍ، وَمِنْ وِدْيَانٍ تَتَّكِئُ عَلَى ذُبَابٍ هَزِيلٍ يُدَوِّرُ نَحِيبَهُ فَوْقَ بِرَكٍ مَرِيضَةٍ وَرِثَتْ رَائِحَةَ العَسْكَرِ...

بَدَتِ الجِبَالُ كَحَبَّةٍ جَافَّةٍ تَهْتَزُّ بَيْنَ غَرَابِيلِ المَسَاءِ، وَمَعَ ذَلِكَ وَقَفَتْ فِي عِنَادِ المَوْتَى، مُجَدَّلَةً، كَأَنَّ المَوْتَ أَعْطَاهَا أَوَامِرَ بِالحِرَاسَةِ...
وَحِينَ هَمْهَمَ صَرِيرُ خُطُوَاتِنَا عَلَى لَيْلِهَا، أَسْلَمَتْ لَنَا صَدْرَهَا المَنْحُوتَ مِنْ مَرْمَرِ الظَّلَامِ، لِنَصْقُلَهُ بِخَفْقَةٍ فَاتِنَةٍ تُشْبِهُ صَلَاةَ التَّجَلِّي.
فَسَقَطْنَا فِي فَرَاغٍ يَلْمَعُ مِثْلَ فَمٍ يَتْلُو اعْتِرَافًا...
وَكَانَ الدَّمُ يَشْتَعِلُ فَوْقَ السُّفُوحِ كَمَا تَشْتَعِلُ عَيْنٌ مَكْدُودَةٌ بِمِلْحِ الخَيْبَةِ.
وَكُنْتَ مُصِرًّا - هَذِهِ المَرَّةَ - إِصْرَارَ زَوْبَعَةٍ عَلَى أَنْ أَجْتَازَ بِكَ الحُدُودَ، وَأَنْ أَدْفَعَ عَنِّي طَيْفَ جَرِيمَةٍ يَتَرَاقَصُ فِي رَأْسِي مِثْلَ شُعْلَةٍ تَرَكَهَا كَاهِنٌ عَلَى عَتَبَةِ مَقْبَرَةٍ.
وَحِينَ سَمِعْتُ دَوِيَّ الرَّصَاصِ، هَتَفْتُ بِفُرْسَانِ الرُّوحِ:
هَلُمُّوا، أَسْرِعُوا، فَثَمَّةَ مَنْ سَبَقَ أَعْرَاسَ المَوْتِ، وَاسْتَعْجَلَ الِاحْتِفَالَ بِقِيَامَةٍ مَعْكُوسَةٍ.
لَكِنَّنِي الآنَ أَغْسِلُ ثَوْبِي مِنْ دَمِ الحَمَلِ...
أَنَا الفُوتُوغْرَافِيُّ، رَائِي الفَاجِعَةِ وَسَارِدُهَا...
أَرَاهُ كَكَائِنٍ بَيْنَ البَشَرِ وَالأَنْوَارِ، نِصْفُهُ رُؤْيَا وَنِصْفُهُ جُرْحٌ، وَاقِفًا عَلَى قَرَامِيدِ السُّطُوحِ وَفَوْقَ آلَافِ الخَوَاتِمِ وَالأَسَاوِرِ.
يَمُدُّ يَدَهُ كَنُبُوءَةٍ مَجْرُوحَةٍ، وَيَنْزِعُ الضِّمَادَ عَنْ أَرْوَاحٍ عَالِقَةٍ، وَظِلَالٍ تَتَكَلَّمُ، وَجِبَالٍ تَفْتَحُ أَفْوَاهَهَا، وَلُغَةٍ تَتَشَقَّقُ مِثْلَ جِدَارٍ، كَأَنَّهَا قَدَاسَةٌ تَتَصَدَّعُ، وَإِشْرَاقٌ يَخْرُجُ مِنْ قَلْبِ العَتَمَةِ.
يَا أُمَرَاءَ الكَلَامِ المُسَرَّبِ مِنْ خَزَائِنِ النُّورِ، يَا قُدْرَةَ الأَلْفَاظِ السِّحْرِيَّةِ، يَا كَلِمَاتِ السِّرِّ وَالعُبُورِ، يَا قُوَّةَ العَلَامَاتِ، يَا وُشُومَ الطَّالِعِ وَخُطُوطَهُ، يَا نُقُوشَ الحُرُوفِ الصَّائِتَةِ، يَا أَخْتَامَ حَجَرِ اليَشْبِ، يَا فُصُوصَ الخَوَاتِمِ وَأَحْجَارَهَا، يَا تَعَاوِيذَ، يَا مَنْ يَنْهَضُ فِي أَنْفَاسِكُنَّ الفَجْرُ، وَيُعَلِّقُ الظَّلَامُ عَلَى أَصَابِعِكُنَّ كَمَا تُعَلَّقُ تَمِيمَةٌ عَلَى كَتِفِ المَعْنَى...
سَاعِدْنَ هَذَا النَّشِيدَ المَوْلُودَ مِنْ ضِلْعِ المَعْنَى...
سَاعِدْنَ فَمِي المُسَوَّرَ بِحُرُوفٍ جَائِعَةٍ...
امْنَحْنَنِي شَهْوَةَ المَطَرِ، كَيْ أَجْرِيَ مِثْلَ شَلَّالٍ بَائِسٍ عَلَى أَرْصِفَةِ غَابَةٍ خَضْرَاءَ، حَيْثُ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّ الرُّؤْيَا، وَلَا صَوْتَ إِلَّا صَوْتُ المَلَاكِ حِينَ يَعْثُرُ بِخُطَاهُ فَيَتَعَثَّرُ العَالَمُ...

أَيُّهَا الشُّعَرَاءُ، يَا مَنِ اخْتَرَقْتُمُ الكَوْنَ الخَطِيرَ، اسْتَدْعُوا الأَنَاشِيدَ لِتُوقِظَ إِلَهًا غَيْرَ مُكْتَرِثٍ.

وَأَنْتِ يَا أَحْلَامَ المُسْتَقْبَلِ الَّتِي نَلْجَأُ إِلَيْهَا فِي سَاعَاتِ اليَأْسِ، سَاعِدِي الذَّاهِبَ إِلَى المَنْفَى بِسَبَبِ إِيمَانِهِ، سَاعِدِيهِ قَبْلَ أَنْ يَجِيءَ مَلَاكٌ أَعْمَى بِمَجَازَاتِهِ، لِيَقُولَ العَابِرُ:

أَنَا إِيكارُ.

(سَقَطْتُ لِأَسْجُدَ)

لَمْ أَسْجُدْ لِهَذِهِ الكَلِمَاتِ كَأَنَّهَا صَنَمٌ.

سَجَدْتُ حَتَّى أَصِلَ إِلَى الرُّوحِ وَالمَعْنَى...

سَاعِدُوهُ يَا أُمَرَاءَ الكَلَامِ فِي رَفْعِ هَذَا الإِنْشَادِ، هَذَا اللَّاهُوتِ المَطْعُونِ، وَهَذَا اللَّحْنِ الَّذِي يَمْشِي عَلَى عُكَّازِ العَتَمَةِ.

فِي يَدِهِ قِنْدِيلٌ مِنْ نُورٍ مَكْسُورٍ، وَمَخْطُوطَةٌ هَجِينَةٌ، يَتَجَاوَرُ فِيهَا الإِشْرَاقُ وَالِانْطِفَاءُ، وَيُغَنِّي فِيهَا القُرْبَانُ بِلُغَتَيْنِ:

لِسَانِ الفِرْدَوْسِ،

وَلِسَانِ الجَحِيمِ.

وَأَنْتُنَّ يَا تَمَائِمُ، يَا مَنْ لُغْزُكُنَّ نَشْوَةٌ تَتُوبُ ثُمَّ تَعُودُ، لِيَشُمَّ مِنْ أَفْوَاهِكُنَّ عِطْرَ النَّفَسِ الَّذِي يُوقِظُ أَرْوَاحًا نَائِمَةً فِي حُجُبِهَا.

يَا أَمِيرَاتِ الأَسْرَارِ، يَا اللَّوَاتِي يُدِرْنَ الدَّوَائِرَ، وَيَفْتَحْنَ لِلْمَشْرِقِ بَابًا مِنْ بَيَاضٍ وَحُمَّى، أَقْبِلْنَ كَمَا تُقْبِلُ السَّارِيَاتُ فِي لَيَالٍ مُعَلَّقَةٍ بَيْنَ الرَّحْمَةِ وَاللَّعْنَةِ.[123]

قَطِّرْنَ فِي فَمِهِ رَحِيقًا أَسْوَدَ يُوقِظُ الذِّئَابَ فِي دَمِهِ، فَتَفْزَعُ الحُدُودُ مِنْ شَبَقِهِ الأَخِيرِ...

هَيَّا يَا أَمِيرَاتُ، سَاعِدْنَ فَمِي المُسَيَّجَ بِحُرُوفٍ جَائِعَةٍ عَلَى نَسْجِ المَرَاثِي وَتَرَاتِيلِ الخُشُوعِ.

فَالمَلَاكُ الأَعْمَى قَائِمٌ عِنْدَ حَافَّةِ الشِّعْرِ، يَضْرِبُ بِجَنَاحِهِ عَلَى البَوَّابَةِ المَحْرُوقَةِ، وَيَطْلُبُ مِنْكُنَّ أَنْ تُغَنِّينَ لَهُ أُغْنِيَةً لَا تُقَالُ، أُغْنِيَةً تَلْمَعُ مِثْلَ بَخُورٍ شَرْقِيٍّ، وَتُزْهِرُ مِثْلَ لَيْلٍ يَتَذَكَّرُ وَجْهَهُ قَبْلَ أَنْ يُخْلَقَ الضَّوْءُ.

---

123- **بِدَايَةُ اللَّعْنَةِ:** حِينَ أَنْهَى نَاسِخُ الْهَامِشِ هَذَا السِّفْرَ، أَدْرَكَ أَنَّهُ لَمْ يَعُدْ نَاسِخًا فَقَطْ، إِنَّمَا صَارَ جُزْءًا مِنَ الْمَخْطُوطَةِ نَفْسِهَا، يَعِيشُ فِي هَوَامِشِهَا، وَيَتَنَفَّسُ عَبْرَ فَرَاغَاتِهَا، وَيَكْتُبُ حَيَاتَهُ عَلَى أَطْرَافِ حَيَاةِ الْآخَرِينَ.

وَكَتَبَ: (لَا تُغْلِقُوا الصَّفْحَةَ، فَإِنِّي أُقِيمُ فِي الْهَامِشِ... وَإِنْ أَغْلَقْتُمُ الصَّفْحَةَ، صِرْتُ ظَلَامًا).

يَا أَمِيرَاتِ الخَرَزِ الَّذِي يَدْفَعُ العَيْنَ وَيَقِي مِنَ الأَرْوَاحِ الشِّرِّيرَةِ، اسْجُدْنَ عِنْدَ سَرِيرِ إِيكارَ، ذَاكَ الَّذِي سَقَطَ مِنْ عُيُونِ الشَّمْسِ، فَصَارَ صُعُودُهُ نُزُولًا، وَنُزُولُهُ نُهُوضًا طَقْسِيًّا لَا يَفْهَمُهُ إِلَّا الأَنْبِيَاءُ الَّذِينَ نُفُوا إِلَى الغُبَارِ.

اسْتَمْطِرْنَ عَلَيْهِ هُتَافًا يُشْبِهُ صَلَوَاتِ الأَيْقُونَاتِ، هُتَافًا يَلُفُّ جَسَدَهُ المَنْخُورَ بِالحُدُودِ، وَيُوقِظُ مِنْ مَوْتِهِ وَمِيضًا كَنَسِيًّا يَنْتَشِرُ كَزَهْرٍ يُورِقُ مِنْ عَظْمٍ انْكَسَرَ ثُمَّ تَابَ.

هَيَّا يَا أَمِيرَاتُ، اخْلَعْنَ مَنَاخَاتِ الطُّهْرِ، وَادْخُلْنَ عُرْيَ الرُّؤْيَا، فَفِي أَعْطَافِكُنَّ جَلِيدٌ يَتَّقِدُ، وَعِفَّةٌ تَشْتَعِلُ مِثْلَ صَخْرَةٍ تُنْزَفُ مِنْهَا النَّارُ.

قُلْنَ لَهُ: أَسْرَارُ العُصُورِ المُخْتَبِئَةُ كَأَفَاعٍ فِي مَغَارَةٍ...

قُلْنَ لَهُ: الدَّمُ النَّقِيُّ يَنْسَابُ فِي سَوَاقِي النَّزِيفِ كَأَسْفَارٍ حَمْرَاءَ...

قُلْنَ لَهُ: سِفْرُ الظِّلَالِ، وَصُعُودُ الأَرْوَاحِ العَالِقَةِ إِلَى مَجَازَاتِ الزُّهْدِ...

هَا هُوَ يَنْزَلِقُ نَحْوَ المِعْرَاجِ، كَأَنَّهُ كِتَابٌ يُفْتَحُ لِلْعُبُورِ مِنَ العَالَمِ السُّفْلِيِّ إِلَى النُّورِ.

كَيْ تَخْرُجَ أَمِيرَاتُ اللَّفْظِ المُلَوَّحِ بِالنُّورِ، يَحْمِلْنَ قَنَادِيلَ مِنْ مَاءٍ أَزَلِيٍّ، وَيَغْسِلْنَ وَجْهَهُ كَمَا تُغْسَلُ الأَيْقُونَةُ قَبْلَ أَنْ يُقَامَ لَهَا عِيدٌ...

وَهَا هِيَ رُوحُهُ...

الرُّوحُ العَذْرَاءُ الخَفِيَّةُ تَسْتَعِدُّ لِلصُّعُودِ نَحْوَ وَطَنِهَا السَّمَاوِيِّ.

سَاعِدْنَهَا يَا أَمِيرَاتُ، كَيْ تَبْدَأَ مِعْرَاجَهَا:

**(عَلَى حَافَّةِ المَعْنَى، حَيْثُ لَا أَرْضَ تُمْسِكُ خُطَايَ، وَلَا سَمَاءَ تُقْنِعُ رُوحِي بِالصُّعُودِ، وَقَفْتُ كَأَنَّنِي آخِرُ إِنْسَانٍ أَضَاعَ اسْمَهُ بَيْنَ دَفَاتِرِ الخَلْقِ الأُولَى...**

**هُنَاكَ، بَيْنَ فِرْدَوْسٍ يَفِيضُ بِوَعْدٍ أَخْضَرَ لَا يُطَالُ، وَجَحِيمٍ يَتَنَفَّسُ فِي صَدْرِي كَأَبٍ قَاسٍ، حَيْثُ يَتَصَدَّعُ الِاسْمُ قَبْلَ أَنْ يُنَادَى، وَتَنْزَلِقُ الرُّوحُ مِنْ تَعْرِيفِهَا كَمَا يَنْزَلِقُ المَاءُ مِنْ يَدِ الغَرِيقِ، وَقَفْتُ.**

**لَمْ أَكُنْ أَنَا، كَانَتْ بَقَايَايَ الَّتِي تَأَخَّرَتْ عَنِ السُّقُوطِ، نِصْفُ ظِلٍّ يَرْفُضُ الِانْطِفَاءَ، وَنِصْفُ صَرْخَةٍ لَمْ تَجِدْ حَنْجَرَةً.**

**أَمَامِي: فِرْدَوْسٌ يَتَلَأْلَأُ كَكَذِبَةٍ كَامِلَةٍ، أَشْجَارُهُ لَا تُثْمِرُ إِلَّا نِسْيَانًا، وَمَلَائِكَتُهُ بِوُجُوهٍ بِلَا مَلَامِحَ، كَأَنَّ الطُّمَأْنِينَةَ فِيهَا إِلْغَاءٌ بَطِيءٌ لِلذَّاتِ.**

وَخَلْفِي: جَحِيمٌ لَا يَصْرُخُ، يُفَكِّرُ بِهُدُوءٍ كَحَقِيقَةٍ لَا مَهْرَبَ مِنْهَا، نَارُهُ وَعْيٌ حَادٌّ يَأْكُلُ كُلَّ وَهْمٍ حَتَّى العَظْمِ.

هُنَاكَ، بَيْنَ الخَدِيعَةِ وَاليَقِينِ، انْشَقَّ الهَوَاءُ عَنْ حُضُورِهِمْ.

سَمِعْتُ أَصْوَاتًا لَا تُشْبِهُ البَشَرَ.

قَالُوا:

نَحْنُ أُمَرَاءُ الكَلَامِ، نُقِيمُ فِي اللُّغَةِ كَمَا يُقِيمُ البَرْقُ فِي الغَيْمِ، نَمْنَحُ العِبَارَةَ نَارَهَا، أَوْ نَتْرُكُهَا رَمَادًا فِي فَمِ الرِّيحِ.

رَأَيْتُهُمْ يَمْشُونَ عَلَى سُطُورٍ لَمْ تُكْتَبْ بَعْدُ، عُيُونُهُمْ مَرَايَا لِعُصُورٍ لَمْ تَأْتِ، وَأَيْدِيهِمْ تُشَكِّلُ الزَّمَنَ كَمَا يُشَكِّلُ الخَزَّافُ خَوْفَهُ فِي الطِّينِ.

لَمْ يَأْتُوا كَآلِهَةٍ، جَاءُوا كَأَحْكَامٍ مُؤَجَّلَةٍ، كَأَنَّ اللُّغَةَ نَفْسَهَا قَرَّرَتْ أَنْ تُحَاسِبَ مَنْ تَجَرَّأَ عَلَى اسْتِعْمَالِهَا.

جَاءُوا دُونَ وُصُولٍ، كَأَنَّهُمْ كَانُوا هُنَا دَائِمًا، فِي الفَرَاغِ الَّذِي بَيْنَ الفِكْرَةِ وَنُطْقِهَا، وَفِي الصَّمْتِ الَّذِي يَسْبِقُ الِانْهِيَارَ.

جَلَسُوا حَوْلِي كَمَا تَجْلِسُ المَصَائِرُ حَوْلَ غَفْلَةٍ وَاحِدَةٍ.

لَا عُرُوشَ لَهُمْ، وَيَقِينُهُمْ البَارِدُ يَكْفِي لِيَكُونَ سُلْطَةً.

قَالَ الأَوَّلُ، وَصَوْتُهُ يُشْبِهُ زَمَنًا يَنْهَارُ:

– أَيُّهَا العَابِرُ بَيْنَ حَدَّيْنِ، لَسْتَ حَيًّا بِمَا يَكْفِي لِتَدْخُلَ الفِرْدَوْسَ، وَلَا مَيِّتًا بِمَا يَكْفِي لِتَسْتَرِيحَ فِي الجَحِيمِ، فَاخْتَرْ لُغَتَكَ، فَهِيَ وَحْدَهَا وَطَنُكَ الأَخِيرُ.

وَقَالَ الثَّانِي، وَعَيْنَاهُ كَمِرْآتَيْنِ مَكْسُورَتَيْنِ:

– الحَقِيقَةُ لَيْسَتْ مَا تَرَى، إِنَّهَا مَا يَبْقَى حِينَ تَنْهَارُ الرُّؤَى، وَحِينَ تُفَكِّكُ الكَلِمَاتُ نَفْسَهَا، وَتَعُودُ إِلَى صَمْتِهَا الأَوَّلِ.

أَمَّا الثَّالِثُ، فَهَمَسَ كَجُرْحٍ يَعْرِفُ اسْمَهُ:

– الإِنْسَانُ خَطَأٌ وَاعٍ، وَكُلُّ وَعْيٍ هُوَ خُطْوَةٌ إِضَافِيَّةٌ فِي اتِّجَاهِ الهَاوِيَةِ.

أَمَّا الرَّابعُ، فكَانَ يَضْحَكُ كَمَنْ عَرَفَ سِرًّا مُظْلِمًا، وَقَالَ:

– فِي كُلِّ إِنْسَانٍ هَاوِيَةٌ، وَفِي كُلِّ هَاوِيَةٍ جَنَاحٌ، لكِنَّ السُّقُوطَ وَحْدَهُ هُوَ مَنْ يُعَلِّمُ الطَّيَرَانَ.

عَلَى الحَافَّةِ الَّتِي لَا تُرَى، حَيْثُ تَنْكَسِرُ الجِهَاتُ مِنْ دَاخِلِهَا، وَيَسْقُطُ الزَّمَنُ دَاخِلَ نَفْسِهِ كَقِنَاعٍ لَمْ يَعُدْ يُقْنِعُ أَحَدًا، وُلِدْتُ ثَانِيَةً.

لَا أُمَّ هُنَا لِتُسَمِّيَ ارْتِبَاكِي، وَلَا أَبٌ لِيُقْنِعَنِي بِأَنَّ الأَرْضَ ثَابِتَةٌ.

فَكُلُّ مَا حَوْلِي كَانَ احْتِمَالًا يَتَشَظَّى، وَكُلُّ مَا فِيَّ كَانَ سُؤَالًا يَتَعَلَّمُ النَّزِيفَ.

رَأَيْتُ خُطْوَتِي الأُولَى تَتَرَدَّدُ بَيْنَ طَرِيقَيْنِ:

وَاحِدٌ مُضَاءٌ حَتَّى العَمَى، وَآخَرُ مُظْلِمٌ حَتَّى الوُضُوحِ.

اقْتَرَبْتُ مِنَ الفِرْدَوْسِ كَمُتْعَبٍ يُرِيدُ أَنْ يَتَوَقَّفَ.

كَانَتِ الأَشْجَارُ هُنَاكَ تُثْمِرُ سَلَامًا بِلَا ذَاكِرَةٍ، وَكَانَتِ الأَنْهَارُ تَجْرِي دُونَ أَنْ تَسْأَلَ عَنِ المَصَبِّ.

لَكِنَّنِي حِينَ لَمَسْتُ الضَّوْءَ شَعَرْتُ بِأَنَّ شَيْئًا فِي دَاخِلِي يَنْطَفِئُ.

لَيْسَ الأَلَمَ...

إِنَّهَا القُدْرَةُ عَلَى الأَلَمِ.

فَهِمْتُ حِينَئِذٍ أَنَّ الفِرْدَوْسَ نِسْيَانٌ كَامِلٌ لِكُلِّ مَا جَعَلَنِي أَنَا، وَلَيْسَ مُكَافَأَةً...

فَتَرَاجَعْتُ، كَمَنْ يَنْجُو مِنْ خَلَاصٍ لَا يَحْتَمِلُهُ.

وَلَمْ أَتَحَرَّكْ.

قَالَ الأَوَّلُ:

– لَقَدْ أَفْسَدْتَ نَفْسَكَ بِالوَعْيِ، كَانَ يُمْكِنُكَ أَنْ تَعِيشَ لَوْ لَمْ تُصْغِ إِلَى كُلِّ هَذِهِ المَعَانِي.

وَقَالَ الثَّانِي:

– كُلُّ كَلِمَةٍ قُلْتَهَا كَانَتْ خُطْوَةً بَعِيدَةً عَنِ البَرَاءَةِ، وَكُلُّ صَمْتٍ اخْتَرْتَهُ كَانَ خِيَانَةً لِمَا عَرَفْتَ.

وَقَالَ الثَّالِثُ:

– لَقَدْ تَأَخَّرْتَ. كُلُّ مَنْ يَقِفُ هُنَا يَكُونُ قَدْ خَسِرَ شَيْئًا لَا يُسْتَعَادُ: بَرَاءَتَهُ... أَوْ جَهْلَهُ.
أَمَّا الرَّابِعُ فَلَمْ يَتَكَلَّمْ...
نَظَرَ إِلَيَّ طَوِيلًا، حَتَّى شَعَرْتُ أَنَّنِي مُجَرَّدُ جُمْلَةٍ يُحَاوِلُ حَذْفَهَا.
تَرَاجَعْتُ خُطْوَةً، فَرَأَيْتُ الفِرْدَوْسَ أَقْرَبَ مِمَّا ظَنَنْتُ، لَكِنَّ بَابَهُ مَصْنُوعٌ مِنْ نِسْيَانٍ.
وَرَأَيْتُ الجَحِيمَ أَهْدَأَ مِمَّا خِفْتُ، لَكِنَّ أَرْضَهُ مِنْ يَقِينٍ لَا يَتَصَدَّعُ.
الْتَفَتُّ إِلَى الجَحِيمِ، فَلَمْ أَجِدْ صُرَاخًا.
وَجَدْتُ وُضُوحًا جَارِحًا.
هُنَاكَ لَا شَيْءَ يَخْتَبِئُ.
كُلُّ فِكْرَةٍ تَظْهَرُ عَارِيَةً، وَكُلُّ وَهْمٍ يُحَاكَمُ حَتَّى الِاعْتِرَافِ.
مَشَيْتُ خُطْوَةً، فَاشْتَعَلَ فِي دَاخِلِي اسْمٌ كُنْتُ أُخْفِيهِ، وَحَقِيقَةٌ كُنْتُ أُؤَجِّلُهَا.
لَمْ تَكُنِ النَّارُ تُحْرِقُنِي.
كَانَتْ تُزِيلُ مِنِّي طَبَقَةً بَعْدَ أُخْرَى، حَتَّى لَمْ يَبْقَ سِوَى مَا لَا يُمْكِنُ إِنْكَارُهُ.
فَخِفْتُ مِنْ أَنْ أَبْقَى هَكَذَا...
إِلَى الأَبَدِ
قُلْتُ:
– وَأَيْنَ الخَلَاصُ؟
ضَحِكُوا...
لَيْسَتْ سُخْرِيَةً... كَانَتْ شَفَقَةً عَلَى سُؤَالٍ قَدِيمٍ
– الخَلَاصُ؟ إِنَّهُ الكَلِمَةُ الَّتِي اخْتَرَعْتَهَا لِتَتَحَمَّلَ عِبْءَ وُجُودِكَ. لَكِنِ انْظُرْ، حَتَّى الكَلِمَاتُ تَتَآكَلُ حِينَ يُكْثَرُ مِنِ اسْتِعْمَالِهَا.
عُدْتُ إِلَى المُنْتَصَفِ، إِلَى تِلْكَ المَسَافَةِ الَّتِي لَا تُحْتَمَلُ، حَيْثُ لَا خَلَاصَ فِي النِّسْيَانِ، وَلَا رَاحَةَ فِي الحَقِيقَةِ.
فَقَالُوا:

– هُنَا مَكَانُكَ.

قُلْتُ:

– وَهَلْ هَذَا اخْتِيَارٌ؟

قَالُوا:

– لَمْ يَعُدْ هُنَاكَ اخْتِيَارٌ. لَقَدْ قُلْتَ أَوَّلَ كَلِمَةٍ.

شَعَرْتُ بِأَنَّ اللُّغَةَ لَيْستْ أَدَاةً، إِنَّهَا مَصِيرٌ.

كُلُّ حَرْفٍ يَسْحَبُنِي أَعْمَقَ إِلَى نَفْسِي.

أَكْتُبُ فَأَخْلُقُ هَاوِيَةً،

وَأَصْمُتُ فَتَتَّسِعُ.

فَصَرَخْتُ:

– دُلُّونِي، يَا أُمَرَاءَ الكَلَامِ، كَيْفَ أَكُونُ بَيْنَ هَذَا وَذَاكَ دُونَ أَنْ أَتَمَزَّقَ؟

الفِرْدَوْسُ يَبْتَعِدُ كُلَّمَا اشْتَهَيْتُهُ،

وَالجَحِيمُ يَقْتَرِبُ كُلَّمَا فَهِمْتُهُ.

لَمْ يَعُدْ هُنَاكَ طَرِيقٌ...

هُنَاكَ وَعْيٌ يَتَضَخَّمُ كَكَارِثَةٍ، وَلُغَةٌ تُعِيدُ صِيَاغَتِي كُلَّمَا حَاوَلْتُ الهُرُوبَ مِنْهَا.

صَرَخْتُ مِنْ جَدِيدٍ:

– لَكِنَّ صَوْتِي خَرَجَ نَصًّا، جُمْلَةً نَاقِصَةً تَبْحَثُ عَنْ نِهَايَتِهَا فِي الفَرَاغِ.

فَقَالُوا بِصَوْتٍ وَاحِدٍ:

– هَذِهِ هِيَ مَأْسَاتُكَ:

إِنَّكَ لَنْ تَمُوتَ بِمَا يَكْفِي لِتَنْجُو،

وَلَنْ تَحْيَا بِمَا يَكْفِي لِتَنْسَى.

سَتَبْقَى...

تَكْتُبُ.

قَالُوا فِي النِّهَايَةِ:

– لَسْنَا نَحْنُ مَنْ حَكَمَ عَلَيْكَ، إِنَّهَا الكَلِمَاتُ الَّتِي وَثِقْتَ بِهَا.

ثُمَّ اخْتَفَوْا كَأَشْبَاحٍ، كَمَعْنًى فَقَدَ ضَرُورَتَهُ.

وَبَقِيتُ وَحْدِي، كَكَائِنٍ انْقَسَمَ إِلَى مَا لَا يُحْصَى، كُلُّ جُزْءٍ فِيهِ يُحَاوِلُ أَنْ يَكْتُبَ الكُلَّ.

لَمْ أَسْقُطْ دَفْعَةً وَاحِدَةً.

سَقَطْتُ عَلَى شَكْلِ مَقَاطِعَ.

كُلُّ فِكْرَةٍ سُقُوطٌ صَغِيرٌ،

وَكُلُّ إِدْرَاكٍ كَسْرٌ إِضَافِيٌّ.

رَأَيْتُ نَفْسِي تَتَعَدَّدُ.

كُلُّ نُسْخَةٍ تَبْحَثُ عَنْ نَجَاةٍ،

وَأُخْرَى تُدْرِكُ أَنْ لَا نَجَاةَ.

نُسْخَةٌ تُؤْمِنُ،

وَأُخْرَى تَشْرَحُ لَهَا لِمَاذَا الإِيمَانُ مُسْتَحِيلٌ.

وَهَكَذَا تَحَوَّلْتُ إِلَى حِوَارٍ لَا يَصِلُ إِلَى نَتِيجَةٍ...

يَسْتَمِرُّ فَقَطْ لِأَنَّهُ لَا يَعْرِفُ كَيْفَ يَنْتَهِي.

حِينَئِذٍ رَأَيْتُ نَفْسِي مُعَلَّقًا عَلَى صَلِيبِ المَعْنَى...

دَمٌ يَسِيلُ...

وَكَلِمَاتٌ تَتَسَاقَطُ مِنْ جَسَدِي كَأَعْضَاءٍ لَا تَتَوَقَّفُ عَنِ الِانْفِصَالِ.

كُلُّ عِبَارَةٍ كَانَتْ خَسَارَةً،

وَكُلُّ مَعْنًى كَانَ قَبْرًا صَغِيرًا لِمَا قَبْلَهُ.

عِنْدَئِذٍ انْشَقَّ صَدْرِي عَنْ بَحْرٍ مِنْ جُمَلٍ هَارِبَةٍ،

وَرَأَيْتُ نَفْسِي أَبْنِي مِنَ الحُرُوفِ سُلَّمًا لَا يَصْعَدُ...

وَلَا يَهْبِطُ...

**يُعَلِّقُنِي فِي المَسَافَةِ الَّتِي لَا تُرَى.**

**وَهَكَذَا صِرْتُ أَنَا أَيْضًا:**

**لَا إِنْسَانًا،**

**وَلَا ظِلًّا...**

**احْتِمَالًا يُجِيدُ الوُقُوفَ بَيْنَ الفِرْدَوْسِ وَالجَحِيمِ.**

**لَمْ أَدْخُلِ الفِرْدَوْسَ، لِأَنَّنِي عَرَفْتُهُ أَكْثَرَ مِمَّا يَنْبَغِي.**

**وَلَمْ أَسْقُطْ فِي الجَحِيمِ، لِأَنَّنِي صِرْتُهُ مِنَ الدَّاخِلِ.**

**بَقِيتُ فَقَطْ كَائِنًا يَتَآكَلُ بِاللُّغَةِ،**

**يَكْتُبُ لِيَمْحُو،**

**وَيَمْحُو لِيَكْتُبَ،**

**إِلَى أَنْ يُصْبِحَ الصَّمْتُ هُوَ القَصِيدَةَ الوَحِيدَةَ الَّتِي لَا يَسْتَطِيعُ بُلُوغَهَا).**

## خَاتِمَةٌ: الصَّمْتُ المُسْتَحِيلُ

هَكَذَا يُكْتَبُ هَذَا المِعْرَاجُ بِمِدَادٍ نِصْفُهُ مِنْ نُورٍ وَنِصْفُهُ مِنْ عَتَمَةٍ.

يَجْلِسُ المَلَاكُ الأَعْمَى فِي وَسَطِهِمَا، يَرْفَعُ كَفًّا لَا تُبْصِرُ، وَيُبَارِكُ كُلَّ مَنْ يَعْبُرُ الحُدُودَ وَهُوَ يَرْتَجِفُ، لِأَنَّ الخَوْفَ فِي هَذَا النَّشِيد شَكْلٌ آخَرُ مِنَ العِبَادَةِ...

أَنَا الآنَ لَا أَسْأَلُ عَنِ الفِرْدَوْسِ، وَلَا أَخَافُ مِنَ الجَحِيمِ.

أَنَا أَعْرِفُهُمَا أَكْثَرَ مِمَّا يَنْبَغِي.

أَقِفُ هُنَا، فِي المُنْتَصَفِ الَّذِي صَارَ وَطَنًا، أَكْتُبُ لِأَنَّنِي لَا أَسْتَطِيعُ التَّوَقُّفَ.

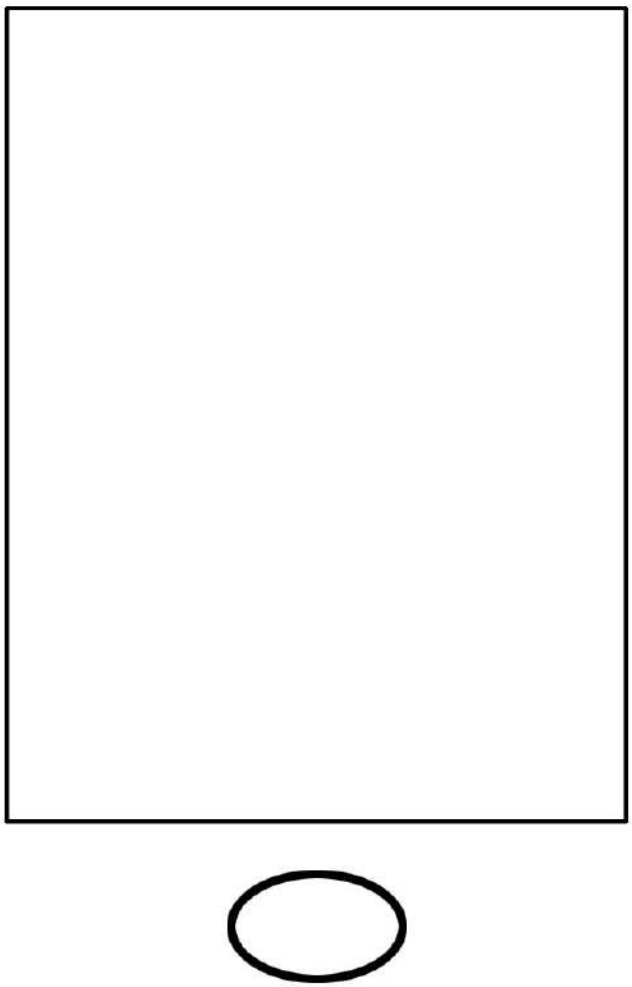
وَكُلَّمَا اقْتَرَبْتُ مِنَ الصَّمْتِ، أَدْرَكْتُ أَنَّهُ الحَقِيقَةُ الوَحِيدَةُ الَّتِي لَنْ أَبْلُغَهَا.

هَكَذَا أَبْقَى:

أَحَدُ أُمَرَاءِ الكَلَامِ.
لَيْسَ لِأَنَّنِي أَمْلِكُ الكَلِمَاتِ...
لِأَنَّهَا لَنْ تَتْرُكَنِي أَبَدًا.
أَنَا الفُوتُوغْرَافِيُّ.
عِشْتُ هَذَا المِعْرَاجَ وَصَوَّرْتُهُ.

**هَكَذَا أَدُلُّ عَلَى نَفْسِي**[124].

▼



[124]- (صَفْحَة فَارِغَة، وَفِي أَسْفَلِهَا شَكْلٌ بَيْضَوِيٌّ فَارِغٌ)

## الخَاتِمَةُ الكُبْرَى لنّشِيدِ أُمَرَاءِ الكَلَامِ
(حَيْثُ يُمْحَى الِاسْمُ، وَتُتْرَكُ العَلَامَةُ)

هُنَا يَنْتَهِي النّشِيدُ، وَلَا يَنْتَهِي القَوْلُ.
فِي آخِرِ الرَّقِّ لَمْ تُكْتَبْ بَرَكَةٌ،
وَلَا لَعْنَاتٌ مُكْتَمِلَةٌ،
وَلَا تَوْقِيعٌ.
وُجِدَ فَرَاغٌ بَيْضَوِيٌّ حَيْثُ جَرَتِ العَادَةُ أَنْ يُكْتَبَ اسْمُ النَّاسِخِ،
كَأَنَّ اليَدَ تَوَقَّفَتْ،
أَوْ أُوقِفَتْ.
قِيلَ:
إِنَّ النَّاسِخَ، حِينَ بَلَغَ هَذَا المَوْضِعَ، سَمِعَ وَقْعَ أَقْدَامٍ لَا تُرَى،
وَرَأَى حِبْرَهُ يَرْتَجِفُ كَمَا يَرْتَجِفُ مَاءٌ خَائِفٌ قَبْلَ أَنْ يُدَاسَ.
فَقَالَ:
وَلَمْ يُدَوِّنْ قَوْلَهُ:
إِنَّ الِاسْمَ قَيْدٌ،
وَإِنَّ هَذَا النّشِيد لَا يُخْتَمُ بِمَنْ بَقِيَ،
وَإِنَّمَا بِمَنْ عَبَرَ.

# إِصْحَاحٌ

# 13

# قُدَّاسُ العَثَرَاتِ

تَرْنِيمَةٌ

**(1)**

## بَابُ الظِّلِّ الَّذِي لَا يَنَامُ

حِينَ تَجَاوَزْتُ يَقَظَةَ السَّاهِرِينَ عَلَى العَطَشِ، وَجَدْتُ أَمَامِي لَيْلًا قَائِمًا بِذَاتِهِ، لَيْلًا كَثِيفًا يُسْدِلُ نَفْسَهُ مِثْلَ لِبَاسٍ عَلَى الطَّرِيقِ، حَتَّى إِنَّ اليَدَ، إِنِ امْتَدَّتْ، لَتَلْمِسُ ثِقْلًا، ثِقْلًا يَتَحَرَّكُ كَحَيَوَانٍ قَدِيمٍ يَعْرِفُ أَنَّنِي لَا أَمْلِكُ مَكَانًا أَذْهَبُ إِلَيْهِ...

لَمْ تَكُنْ ثَمَّةَ نُجُومٌ.

كَانَ الهَوَاءُ يَرِنُّ بِأَصْوَاتٍ صَغِيرَةٍ، أَصْوَاتٍ لَيْسَتْ بُكَاءً وَلَا صُرَاخًا، أَصْوَاتٍ أَشْبَهَ بِأَنِينِ حَجَرٍ يُجَرِّبُ أَنْ يَتَنَفَّسَ...

كَانَ وَقْتًا قَصِيرًا مِنَ اليَقَظَةِ.

وَلَمْ يَكُنِ الظَّلَامُ سَمَاءً وَلَا زَمَانًا.

كَانَ تَجَسُّدًا لِسِرٍّ إِلَهِيٍّ لَمْ يُحَدَّدْ بَعْدُ، يُسْدِلُ نَفْسَهُ عَلَى الطَّرِيقِ، وَتَكْتَشِفُ الأَقْدَامُ الَّتِي تُحَاوِلُ العُبُورَ أَنَّ كُلَّ خُطْوَةٍ هِيَ امْتِحَانٌ لِلرُّوحِ قَبْلَ الجَسَدِ.

(2)

## السَّاهِرُونَ كَرُمُوزٍ لِلْمَعْرِفَةِ

عِنْدَ أَوَّلِ خُطْوَةٍ دَاخِلَ اللَّيْلِ، رَأَيْتُهُمْ:

صُفُوفًا تَمْتَدُّ بِلا نِهَايَةٍ، كَأَنَّهُمْ جُذُوعُ أَشْجَارٍ نُزِعَتْ عَنْهَا أَوْرَاقُهَا، وَتُرِكَتْ بِفِعْلِ القَدَرِ وَاقِفَةً تَحْرُسُ الطَّرِيقَ وَلَا تَعْرِفُ لِمَنْ.

وُجُوهٌ شَاحِبَةٌ.

عُيُونٌ مَفْتُوحَةٌ دَائِمًا.

لَا تَرْمِشُ.

تُرَاقِبُ كُلَّ عَابِرٍ، كَأَنَّهَا تُسَاعِدُهُ، وَهِيَ لَا تَتَحَرَّكُ...

لَا تَتَقَدَّمُ...

وَلَا تَتَرَاجَعُ...

رَأَيْتُهُمْ:

كَانُوا أَشْكَالًا مِنْ وَعْيٍ مُتَجَمِّدٍ، وَأَحْلَامًا تَفِيضُ حِكْمَةً لَا يُمْكِنُ فَهْمُهَا بِالكَلِمَاتِ.

عُيُونٌ مَفْتُوحَةٌ دَائِمًا، تَرَى العَابِرَ قَبْلَ أَنْ يُولَدَ فِي مَسَارِهِ، وَتَقِيسُ قَلْبَهُ بِمَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ الزَّمَنُ.

إِنَّهُمُ السَّاهِرُونَ.

أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَادُوا العُبُورَ، لَكِنَّ اللَّيْلَ رَأَى قُلُوبَهُمْ خَفِيفَةً، فَشَدَّهُمْ إِلَيْهِ لِيَحْمِلُوا وَزْنَهُ بَدَلًا مِنْهُ.

كُلُّ سَاهِرٍ هُنَا لَوْحٌ غَامِضٌ، وَرَمْزٌ لِسِرٍّ مُخْتَبِئٍ.

وَلَا يَكُونُ العُبُورُ إِلَّا بِالإِدْرَاكِ:

أَنَّ كُلَّ خُطْوَةٍ اكْتِشَافٌ دَاخِلِيٌّ لِلْغَيْبِ فِي النَّفْسِ.

(3)

## نَدْبَةُ الحَارِسِ الأَبَدِيِّ

رَأَيْتُ بَيْنَهُمْ رَجُلًا يَحْمِلُ نَدْبَةً عَلَى جَبِينِهِ، لَيْسَتْ عَلَامَةَ جُرْحٍ، وَرُبَّمَا كَانَتْ خَتْمَ مَعْرِفَةٍ قَدِيمَةٍ، يَلْمَعُ فِي الظَّلَامِ كَمَا يَلْمَعُ خَطَأٌ كَوْنِيٌّ قَدِيمٌ.

قَالَ بِصَوْتٍ يَخْرُجُ مِنْ عِظَامِ الزَّمَانِ:

- نَحْنُ السَّاهِرُونَ، حُرَّاسُ اللَّيْلِ الَّذِي يَخْتَزِنُ الأَسْرَارَ. لَوْ تَحَرَّكْنَا خُطْوَةً وَاحِدَةً، لَانْفَتَحَ اللَّيْلُ عَلَى هُوَّةٍ لَا نِهَايَةَ لَهَا، وَلَابْتَلَعَ العَابِرِينَ جَمِيعًا، بِمَنْ فِيهِمُ الَّذِينَ لَمْ يُولَدُوا بَعْدُ...

مَنْ تَحَرَّكَ بِغَيْرِ فَهْمٍ صارَ ظِلُّهُ عِبْئًا عَلَيْهِ، وَمَنْ اسْتَقَرَّ فِي صَمْتِهِ عَرَفَ الطَّرِيقَ إِلَى ذَاتِهِ.

سَأَلْتُهُ:

- هَلْ تُغَادِرُونَ؟

قَالَ:

- نَحْنُ الخَطِيئَةُ الَّتِي لَمْ يُقَرِّبْهَا أَحَدٌ إِلَى فَمِ الِاعْتِرَافِ.

كَانَتْ كَلِمَاتُهُ اهْتِزَازَاتٍ كَوْنِيَّةً تَصِلُ إِلَى أَعْمَاقِ الرُّوحِ، وَتُعَلِّمُ أَنَّ العُبُورَ الحَقِيقِيَّ هُوَ العُبُورُ إِلَى الدَّاخِلِ.

(4)

## اللَّيْلُ كَإِعْلَانٍ سِرِّيٍّ

كَانَتْ كُلُّ خُطْوَةٍ فِي هَذَا الظَّلَامِ تُثْبِتُ أَنَّ اللَّيْلَ مَعْرِفَةٌ مَخْفِيَّةٌ.

وَكُلَّمَا تَقَدَّمْتُ، كُنْتُ أَرَى ظِلَالًا تَتَحَرَّكُ بِغَيْرِ أَصْحَابٍ، وَأَصْحَابًا بِغَيْرِ ظِلَالٍ.

وَكُنْتُ أَفْهَمُ أَنَّ المَسَافَةَ فِي هَذَا القُدَّاسِ تُقَاسُ بِالصِّدْقِ.
كُلَّمَا ازْدَادَ الصِّدْقُ فِي قَلْبِ العَابِرِ، اقْتَرَبَ طَرِيقُهُ.
وَإِنْ كَذَبَ خُطْوَةً وَاحِدَةً، ضَاعَ نِصْفُ مَسَارِهِ فِي الظَّلَامِ.
مَنْ يَعْرِفُ القِرَاءَةَ يَرَ:

إِنَّ الصَّوْتَ بِغَيْرِ مَعْنًى هُوَ الصَّدَى الأَوَّلُ لِلْخَلْقِ،
وَإِنَّ الظِّلَّ بِغَيْرِ صَاحِبٍ هُوَ إِحْدَى أُولَى صُوَرِ الجَنَّةِ المَفْقُودَةِ.
فَهِمْتُ أَنَّ الزَّمَنَ مُتَفَكِّكٌ، وَأَنَّ الأَحْدَاثَ لَا تَسِيرُ فِي تَسَلْسُلٍ مُطَّرِدٍ.

فَاللَّيْلُ يُعِيدُ تَرْتِيبَ الوَعْيِ، وَيُعَلِّمُ العَابِرَ أَنَّ كُلَّ حَرَكَةٍ خَارِجِيَّةٍ مُرْتَبِطَةٌ بِحَرَكَةٍ دَاخِلِيَّةٍ لَمْ تُفْصِحْ عَنْهَا النَّفْسُ بَعْدُ.
وَفَهِمْتُ أَنَّ اللَّيْلَ امْتِحَانٌ لِوَزْنِ الرُّوحِ.
فَالخَفِيفُ يَتِيهُ،
وَالثَّقِيلُ يَثْبُتُ فِي مَوْضِعِهِ حَتَّى يَتَحَجَّرَ صِدْقُهُ.

تَرْنِيمَةٌ

(5)

## البِئْرُ الرَّمْزِيُّ فِي القَلْبِ

فِي عُمْقِ القُدَّاسِ ظَهَرَ بِئْرٌ، بِئْرٌ لِلسُّقُوطِ فِي ذَاتِكَ السِّرِّيَّةِ.
إِنْ نَظَرْتَ إِلَى قَاعِهِ، رَأَيْتَ أَنَّ كُلَّ وَاقِفٍ هُنَاكَ هُوَ انْعِكَاسٌ لِجُزْءٍ مِنْكَ لَمْ تَعْرِفْهُ.
وَأَنَّ كُلَّ خُطْوَةٍ نَحْوَ البِئْرِ تَعْنِي قَبُولَ الحَقِيقَةِ الغَائِبَةِ.
سَمِعْتُ خَفْقًا يُشْبِهُ جَنَاحًا مَكْسُورًا.
وَتَرَدَّدَ الصَّوْتُ بَيْنَ الصُّخُورِ، كَأَنَّ لَيْلًا آخَرَ دَاخِلَ اللَّيْلِ يُحَاوِلُ أَنْ يُولَدَ.

اقْتَرَبْتُ.
رَأَيْتُ عَيْنًا وَاحِدَةً مَفْتُوحَةً فِي العَتَمَةِ.
لَمْ تكُنْ لِذِئْبٍ،
وَلَا لِإِنْسَانٍ،
وَلَا لِمَلَاكٍ.
كَانَتْ لِلَّيْلِ نَفْسِهِ، يَشْعُرُ أَنَّهُ مُرَاقَبٌ.
فَقَالَتِ العَيْنُ دُونَ أَنْ تَطْرِفَ:
- مِنْ هُنَا تَبْدَأُ يَقَظَتُنَا، رُؤْيَةُ عَالَمِ الأَحْلَامِ، وَإِدْرَاكُ أَنَّ اليَقَظَةَ وَالحُلْمَ مِرْآتَانِ مُتَقَابِلَتَانِ، تَعْكِسُ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا الأُخْرَى.
كُلُّ مَنْ يَدْخُلُ هَذِهِ المِرْآةَ المُعَكُوسَةَ لَا يَخْرُجُ مِنْهَا،
إِلَّا إِذَا صَارَ جُزْءًا مِنْ ظَلَامِهَا،
أَوْ جُزْءًا مِنْ نُورِهَا،
أَوْ جُزْءًا مِنْ نَفْسِهِ.
وَسَمِعْتُ هَمَسَاتٍ بِغَيْرِ لُغَةٍ:
- مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فِي هَذِهِ اليَقَظَةِ عَرَفَ السِّرَّ.
وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْهَا، صَارَ جُزْءًا مِنَ اللَّيْلِ الأَبَدِيِّ.

تَرْنِيمَة

**(6)**

## مَقْصِدُ الوَاقِفِينَ

عِنْدَ نِهَايَةِ الطَّرِيقِ، وَجَدْتُ آخِرَ صُفُوفِ السَّاهِرِينَ:
رِجَالًا، وَنِسَاءً، وَأَطْفَالًا.
كَانَتْ وُجُوهُهُمْ هَادِئَةً، كَأَنَّهُمْ أَيْقَنُوا أَخِيرًا أَنَّ الوُقُوفَ فِي اللَّيْلِ نَوْعٌ مِنَ الصَّلَاةِ.
صَلَاةٌ بِغَيْرِ كَلِمَاتٍ، وَلَا سُجُودٍ...

صَلَاةٌ يُؤَدِّيهَا الجَسَدُ حِينَ يَعْجِزُ القَلْبُ عَنْ حَمْلِ رَغَبَاتِهِ.
فَهِمْتُ أَنَّ كُلَّ سَاهِرٍ كِتَابٌ صَغِيرٌ لِلْمَعْرِفَةِ البَاطِنِيَّةِ، وَأَنَّ العُبُورَ طَقْسٌ دَاخِلِيٌّ، وَلَيْسَ عُبُورًا جَسَدِيًّا.
هُنَاكَ، عَلَى حَجَرٍ أَسْوَدَ لَا يَنْعَكِسُ عَلَيْهِ ضَوْءٌ، وَجَدْتُ كِتَابَةً مَنْقُوشَةً بِأَظْفَارٍ لَا أَعْرِفُ أَصْحَابَهَا:
- العَابِرُ الَّذِي يَرَى نَفْسَهُ فِي عَيْنِ اللَّيْلِ لَنْ يَعُودَ كَمَا كَانَ.
وَمَنْ يَشْهَدِ اللَّيْلَ يَشْهَدْ مَوْلِدَهُ الأَخِيرَ.
كَانَ الطَّرِيقُ إِلَى اليَقَظَةِ التَّالِيَةِ، يَقَظَةِ الفَجْرِ، مَمَرًّا ضَيِّقًا مِنَ الضَّوْءِ الأَبْيَضِ.
لَكِنَّ الفَجْرَ هُنَا لَيْسَ نُورًا.
إِنَّهُ حُكْمٌ كَوْنِيٌّ عَلَى كُلِّ مَا حَمَلْنَاهُ فِي اللَّيْلِ.
حُكْمٌ يُقَرِّرُ أَهَلْ نَحْنُ مُسْتَعِدُّونَ لِلنَّهَارِ أَمْ لَا.

**الخُرُوجُ مِنَ اللَّيْلِ**

عِنْدَ العَتَبَةِ انْفَتَحَ الطَّرِيقُ فَجْأَةً عَلَى صَمْتٍ أَبْيَضَ،
كَأَنَّ اللَّيْلَ أَزَاحَ سِتَارًا،
وَمَدَّ لِي مَمَرًّا ضَيِّقًا يُشْبِهُ فُرْجَةً فِي ضُلُوعِ العَالَمِ.
وَعَرَفْتُ أَنَّ اليَقَظَةَ تَنْتَظِرُ:
**يَقَظَةَ الَّذِينَ يَهَابُونَ الفَجْرَ.**
أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْرِفُونَ أَنَّ الفَجْرَ لَيْسَ نُورًا،
وَلَا حُكْمًا نِهَائِيًّا عَلَى كُلِّ مَا نُخْفِيهِ فِي اللَّيْلِ...
قَبْلَ أَنْ أُغَادِرَ، هَمَسْتُ
أَيُّهَا اللَّيْلُ، خُذْ مِنِّي كُلَّ شَيْءٍ،
لَكِنْ أَعِدْ إِلَيَّ سِرِّي،
كَيْ أَتَمَكَّنَ مِنَ العُبُورِ إِلَى نَفْسِي الَّتِي لَمْ أَعْرِفْهَا بَعْدُ.

ابْتَسَمَ اللَّيْلُ، بِغَيْرِ وَجْهٍ،
وَرَفَعَنِي صَمْتُهُ إِلَى عَتَبَةِ الفَجْرِ القَادِمِ،
حَيْثُ يَبْدَأُ الإِنْجِيلُ الرَّابِعُ:

**(الَّذِينَ يَهَابُونَ الفَجْرَ)**



**(خَتْمُ خَاتِمَةِ الكِتَابِ)**

عَذْبَةٌ الخِيَانَةُ عِنْدَ مَنْ لَمْ يَعْرِفْ وَجْهًا غَيْرَ نَفْسِهِ،
فَإِنَّ القَلْبَ،
إِذَا تَلَوَّنَ، رَأَى التَّلَوُّنَ عِبَادَةً.

عَذْبَةٌ الأَقْنِعَةُ فِي رُؤْيَا الفَجْرِ،
إِذْ تَتَجَلَّى الوُجُوهُ فِي مَرَايَا النَّوْمِ كَأَنَّهَا رُسُلٌ مِنْ غَيْبٍ قَرِيبٍ.

## خَاتِمَةٌ بِغَيْرِ بَرَكَةٍ

لَا يُخْتَمُ الكِتَابُ
بِ "آمِينَ"
وَلَا بِبَرَكَةٍ.
إِنَّمَا يُخْتَمُ بِجُمْلَةٍ نَاقِصَةٍ يَتْرُكُهَا المَلَاكُ مُعَلَّقَةً:
- وَالآنَ، أَيُّهَا العَابِرُ...
إِنْ ظَهَرَتْ لَكَ جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ...
وَوَقَفَتْ أَمَامَكَ صَامِتَةً...
ثُمَّ غَادَرَتْ دُونَ أَنْ تَلْتَفِتَ إِلَيْكَ.
لِأَنَّ الِالْتِفَاتَ هُوَ الِاحْتِرَاقُ الحَقِيقِيُّ.
فَأَصْغِ إِلَى هَمْسِهَا فِي دَاخِلِكَ:

- أَنَا؟
أَثَرُ عُبُورٍ...
وَنَزِيفٌ يَمُرُّ مِنْهُ المَعْنَى.
أُنْشِدُ لِأُؤَجِّلَ الإِغْلَاقَ.
وَأَصْمُتُ لِيَسْتَمِرَّ الِانْكِشَافُ...
لَمْ يُغْلَقِ المَخْطُوطُ.
وَسَيَظَلُّ يَنْزِفُ صَفَحَاتٍ أُخْرَى...

# الإنْجيلُ الرّابعُ

## الّذِينَ يَهَابُونَ الْفَجْرَ

# الَّذِينَ يَهَابُونَ الْفَجْرَ

(تَسْبِيحَةُ الْمَلَاكِ الْأَعْمَى، أَوِ الْبَصِيرَةُ الَّتِي تُرَى فِي الْعَتَمَةِ)



**(خَتْمُ هَذَا الْكِتَابِ)**

مُرَّةٌ هِيَ الْحِكْمَةُ إِذَا ذَكَّرَتْكَ بِمَا فَرَّطْتَ،
وَعَذْبٌ هُوَ النِّسْيَانُ إِذَا سَتَرَ عَلَيْكَ مَا لَا طَاقَةَ لَكَ بِحَمْلِهِ.

مُرَّةٌ هِيَ الْأَسْرَارُ إِذَا أُخْرِجَتْ مِنْ رَمَادِهَا،
فَإِنَّ السِّرَّ إِذَا ظَهَرَ أَحْرَقَ حَامِلَهُ.

# إِصْحَاحُ

# 1

# إِنْشَادٌ كَهَنُوتِيٌّ لِمَلْحَمَةِ الْعَابِرِ الْأَخِيرِ

(1)- **تَرْتِيلَةُ الظِّلِّ الْأَوَّلِ:** نُنْشِدُكَ، يَا سَيِّدَ الْفَجْوَةِ، يَا وَاضِعَ الْحَدِّ بَيْنَ الضَّوْءِ وَالظِّلِّ، يَا مُؤَسِّسَ الدَّرْبِ الَّذِي لَا يُفْهَمُ، وَلَا يُكْتَبُ إِلَّا بِقَلَمٍ مَصْنُوعٍ مِنْ نَفَسِكَ. نُنْشِدُ لِلْهُوَّةِ الَّتِي مِنْهَا وُلِدْنَا، وَلِلصَّمْتِ الَّذِي حَمَلَ أَسْمَاءَنَا قَبْلَ أَنْ نَعْرِفَ اسْمًا وَاحِدًا.

(2)- **تَسْبِيحَةُ الْمَلَاكِ الْأَعْمَى:** يَا مَنْ أَرْسَلْتَ مَلَاكًا لَا يَرَى لِكَيْ يُبْصِرَ عَنَّا، نَسْتَقْبِلُهُ بِقُلُوبٍ مَعْقُودَةٍ لِلسِّرِّ، وَنَسْتَقْبِلُهُ بِلُغَاتٍ أَقْدَمَ مِنَ الْهَوَاءِ. نَقُولُ لَهُ: امْضِ أَمَامَنَا، فَأَنْتَ الَّذِي تَرَى السَّقَطَاتِ قَبْلَ أَنْ نَقَعَ، وَتَحْفَظُ خُطَانَا فِي كِتَابٍ لَا يُقْرَأُ إِلَّا عِنْدَ آخِرِ الزَّمَنِ.

(3)- **صَحِيفَةُ الْفُوتُوغْرَافِيِّ الْعَجُوزِ:** يَا حَافِظَ الصُّوَرِ الَّتِي لَا تُحْتَمَلُ، يَا مُصَوِّرَ رُوحِ الْكِتَابِ دُونَ أَنْ تَتَقَيَّدَ بِحُرُوفِهِ، يَا مُلَوِّنَ شُعْلَةِ الرَّعْدِ الْوَضَّاءَةِ، وَالضَّوْءِ الْمُطِلِّ عَلَيْنَا مِنَ الْعُزْلَةِ، يَا سَابِغَ وِشَاحِ التَّكْرِيمِ الْجَلِيلِ عَلَى مَائِدَةِ الْهَبَاءِ. نَخْشَعُ لِعَدَسَتِكَ الَّتِي تَرَى مَا لَا نُرِيدُ، وَنُسَبِّحُ لِصَمْتِكَ حِينَ يَكُونُ النُّطْقُ فِرَارًا.

(4)- **تَجَلِّي الْجُنْدِيِّ الْجَرِيحِ:** يَا مَنْ وُكِّلْتَ بِحِرَاسَةِ الْبَوَّابَاتِ، وَأَنْتَ لَا تَعْلَمُ أَنَّكَ حَارِسٌ لِنَفْسِكَ. نُصَلِّي لِدِرْعِكَ الَّذِي بَلَّلَهُ الْبَحْرُ، وَلِقَلْبِكَ الَّذِي لَمْ يَبْقَ فِيهِ سِوَى نَبْضٍ وَاحِدٍ يَقُولُ: كُنْتُهُمْ جَمِيعًا، وَلَمْ أَكُنْ أَحَدًا.

(5)- صَحِيفَةُ إِيكار - صَوْتُ الْجَسَدِ الَّذِي سَقَطَ: يَا مَنْ بَدَأَ الرِّحْلَةَ جَسَدًا، وَيَخْتِمُهَا خَرِيطَةً، نُنَادِيكَ بِاسْمِكَ الَّذِي انْقَسَمَ إِلَى ثَلَاثَةٍ، كُلَّمَا مِتَّ وُلِدْتَ مِنْ جَانِبٍ آخَرَ.

أَنْتَ الْفُوتُوغْرَافِيُّ إِذَا ذَكَرْتَ،
وَأَنْتَ الْجُنْدِيُّ إِذَا أَطعْتَ،
وَأَنْتَ الْمَلَاكُ الْأَعْمَى إِذَا أَجَبْتَ نِدَاءَ السِّرِّ فِي الظُّلْمَةِ.

لَكَ نُنْشِدُ: عُدْ إِلَى مَدَارِكَ، فَالدَّائِرَةُ لَا تَكْتَمِلُ إِلَّا بِقَتِيلٍ يَنْهَضُ، وَحَارِسٍ يَبْكِي، وَمَلَاكٍ يَسْمَعُ أَجْنِحَتَهُ لِلْمَرَّةِ الْأُولَى.

**(6)-** دُعَاءُ الْبِدَايَةِ: نَفْتَحُ الْكِتَابَ الَّذِي طُمِسَ نِصْفُهُ، وَنَمْضِي فِي الْهَامِشِ الَّذِي لَمْ يُكْتَبْ، فَهُنَاكَ تَبْدَأُ الْمَلْحَمَةُ، وَهُنَاكَ تُخْتَمُ، وَبَيْنَ الْبَدْءِ وَالْخَتْمِ لَا يَبْقَى سِوَى الْعَابِرِ الَّذِي يَسْقُطُ مَرَّةً تِلْوَ مَرَّةٍ حَتَّى يَتَذَكَّرَ مَنْ كَانَ. هَذِهِ الْقُدَّاسَةُ نَقْرَؤُهَا لِكُلِّ مَنْ عَبَرَ وَاحْتَرَقَ، وَلِكُلِّ مَنْ شَعَرَ أَنَّهُ فَرْدٌ، وَهُوَ جَمِيعُ الْوُجُوهِ فِي وَجْهٍ وَاحِدٍ.

آمِينَ الْعُبُورِ،
آمِينَ الظُّلْمَةِ،
آمِينَ الْوُقُوفِ بَيْنَ يَدَيِ الظِّلِّ الْأَوَّلِ.

## (الْهَوَامِشُ الَّتِي لَمْ أَجْرُؤْ عَلَى نَسْخِهَا... لَكِنَّهَا نَسَخَتْنِي)

**1- الظِّلُّ الَّذِي كَتَبَنِي:** (الْكِتَابُ الْأَعْمَقُ فِي "سِفْرِ الْهَوَامِشِ السِّرِّيَّةِ"، وَالْأَكْثَرُ اقْتِرَابًا مِنْ لُبِّ النَّاسِخِ وَرُوحِهِ): كَانَ الظِّلُّ هُوَ الْكَائِنَ الْوَحِيدَ الَّذِي سَبَقَ النَّاسِخَ إِلَى الصَّفْحَةِ، يَجْلِسُ فِيهَا قَبْلَهُ، وَيَنْحَنِي عَلَى الْبَيَاضِ، كَمَا لَوْ أَنَّهُ يُبَارِكُ الْوَرَقَةَ قَبْلَ أَنْ تُمَسَّ بِالْحِبْرِ. وَفِي أَوَّلِ السُّطُورِ السِّرِّيَّةِ الَّتِي عُثِرَ عَلَيْهَا: (لَمْ أَكْتُبْ وَحْدِي قَطُّ. الظِّلُّ هُوَ الَّذِي كَانَ يُحَرِّكُ يَدِي، وَيَخْتَارُ الْكَلِمَاتِ الَّتِي أَخَافُ أَنْ أُوَاجِهَهَا).

**2- ظِلٌّ يَسْبِقُ صَاحِبَهُ:** لَمْ يَكُنِ الظِّلُّ مُجَرَّدَ امْتِدَادٍ لِلْجَسَدِ، كَانَ ذَاكِرَةً قَاسِيَةً، وَمِرْآةً لَا تَحْتَاجُ إِلَى ضَوْءٍ. كَتَبَ النَّاسِخُ:

* (كُلُّ ظِلٍّ نَصٌّ نَاقِصٌ يَبْحَثُ عَنْ كَاتِبٍ).
* (لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ أَنَّ ظِلِّي يَعْرِفُنِي أَكْثَرَ مِمَّا أَعْرِفُ نَفْسِي).

* (حِينَ يَكْتُبُ الظِّلُّ، تَنْسَحِبُ رُوحِي إِلَى الْوَرَاءِ، وَتَجْلِسُ كَطِفْلٍ مَذْعُورٍ يُشَاهِدُ قَدَرَهُ وَهُوَ يُخَطُّ).

وَيُضِيفُ فِي هَامِشٍ دَقِيقٍ لَا يُقْرَأُ إِلَّا بِالْمَرَايَا:

(أَحْيَانًا أَشُكُّ أَنِّي أَنَا الظِّلُّ، وَأَنَّ مَنْ يَكْتُبُ هُوَ رَجُلٌ نَسِيَ نَفْسَهُ).

3- **لَيْلُ الْحُرُوفِ حِينَ تَنْطَفِئُ:** لَمْ يَكُنِ الظِّلُّ يَكْتُبُ نَهَارًا. كَانَ يَنْتَظِرُ أَنْ يَنَامَ الْعَالَمُ، وَأَنْ تُطْفَأَ جَمِيعُ الْقَنَادِيلِ، وَأَنْ يَتَنَفَّسَ الْحِبْرُ مِنْ رُطُوبَةِ الْفَجْرِ. عِنْدَئِذٍ يَبْدَأُ: (سَمِعْتُ خَشْخَشَةً فِي الْوَرَقِ، لَيْسَتْ رِيحًا وَلَا فَأْرًا، كَانَتْ كَلِمَةً تَسْتَيْقِظُ). وَهَكَذَا بَدَأَ الظِّلُّ كِتَابَةَ النَّاسِخِ نَفْسِهِ: (كَتَبَ خَوْفَهُ، وَنَدَمَهُ، وَذُنُوبَهُ الَّتِي لَمْ يَعْتَرِفْ بِهَا، وَأَسْمَاءَ مَنْ خَانَهُمْ، وَأَسْمَاءَ مَنْ خَافَ أَنْ يُحِبَّهُمْ، وَوُجُوهَ الْمَفْقُودِينَ الَّذِينَ مَرُّوا تَحْتَ يَدَيِ النَّاسِخِ دُونَ أَنْ يُنْقِذَ أَحَدًا مِنْهُمْ). وَفِي آخِرِ سَطْرٍ كَتَبَهُ الظِّلُّ: (كُلُّ مَا نَسَخْتَهُ هُوَ شَهَادَتُكَ).

4- **الظِّلَالُ الَّتِي تَمْشِي بِلَا أَجْسَادٍ:** يَرْوِي نَاسِخُ الْهَامِشِ عَنْ نَوْعٍ غَرِيبٍ مِنَ الظِّلَالِ، ظِلَالٍ لَيْسَتْ لِأَحَدٍ، تَظْهَرُ حَوْلَ الْمَخْطُوطَاتِ الْقَدِيمَةِ كَأَرْوَاحٍ تُرِيدُ أَنْ تُكْتَبَ مِنْ جَدِيدٍ. كَتَبَ:

* (هَذِهِ الظِّلَالُ لَيْسَتْ صَدًى... إِنَّهَا نَجَاةٌ أَخِيرَةٌ).

* (تُنَادِينِي، وَتَطْلُبُ أَنْ أَكْتُبَهَا كَيْ لَا تَعُودَ إِلَى النِّسْيَانِ).

* (أَخَافُهَا... وَأَكْتُبُ لَهَا).

وَفِي هَامِشٍ آخَرَ:

* (الظِّلُّ لَا يَكْذِبُ. الْإِنْسَانُ هُوَ الَّذِي يَتَظَاهَرُ بِأَنَّهُ لَا يَعْرِفُ).

5- **يَوْمَ كَتَبَ الظِّلُّ النَّاسِخَ نَفْسَهُ:** يَقُولُ نَاسِخُ الْهَامِشِ: (فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، لَمْ أَكْتُبْ حَرْفًا، لَكِنِّي اسْتَيْقَظْتُ فَوَجَدْتُ اسْمِي مَكْتُوبًا لِلْمَرَّةِ الْأُولَى). اسْمُ النَّاسِخِ... الَّذِي لَا نَعْرِفُهُ. لَيْسَ اسْمًا عَادِيًّا، إِنَّهُ اسْمٌ مِنْ ثَلَاثَةِ مَقَاطِعَ، كُلُّ مَقْطَعٍ مِنْهَا يَنْتَمِي إِلَى زَمَنٍ مُخْتَلِفٍ. كَتَبَ الظِّلُّ اسْمَهُ كَيْ لَا يَضِيعَ، وَكَيْ لَا يَبْقَى النَّاسِخُ مُجَرَّدَ "يَدٍ تَكْتُبُ". وَفِي نِهَايَةِ هَذَا الهَامِش: (كُلُّ كَاتِبٍ يَحْلُمُ أَنْ يَتْرُكَ أَثَرًا... أَمَّا أَنَا فَقَدْ تَرَكْتُ ظِلًّا).

١

# النَّشِيدُ الْأَوَّلُ

مَزْمُور

## مَزْمُورُ الْكَشْفِ الْمُرِّ

أَيُّهَا التَّخْرِيفُ الْعِمْلَاقُ الَّذِي نُسَمِّيهِ كَلَامًا،
أَرْفَعُ شُعْلَتَكَ الْمُتَوَهِّجَةَ، أَرْفَعُ النِّدَاءَ، وَأَمْسَحُ رَقًّا مُتَشَقِّقًا مِنْ كَثْرَةِ التِّلَاوَةِ،
أَمْسَحُهُ بِتَجْوِيدِ تِلَاوَةٍ تَعْرِفُ كَيْفَ يَحْنُو الصَّوْتُ حِينَ يَشِيخُ.

هَيَّا، أَيُّهَا التَّخْرِيفُ الْحَكِيمُ، يَا لَاهُوتَ الْهَذَيَانِ الْعَظِيمِ، يَا كَلِمَةً خُلِقَتْ قَبْلَ أَنْ تُدْعَى كَلِمَةً، يَا هَمْسَ اللُّوغُوسِ حِينَ انْشَطَرَ فِي ظُلْمَةِ الْبَدْءِ، وَانْحَدَرَ كَسِرٍّ فِي تَجَاوِيفِ الصَّمْتِ. هَيَّا، أَيُّهَا التَّخْرِيفُ الْفَصِيحُ، أَنْشِدْ مَآثِرَ الْغَيْبِ عَلَى دَقَّاتِ الدُّفُوفِ الرَّخِيمَةِ، وَفِي بَهْجَةِ مَجْدِ صَيْحَةِ الْمَتَاهَاتِ الصَّاخِبَةِ... هَيَّا أَيَّتُهَا الْمَتَاهَاتُ، يَا سَرَادِيبَ الْآلِهَةِ الْخَفِيَّةِ. هَيَّا أَيَّتُهَا الصَّيْحَاتُ، يَا كَاهِنَاتِ التَّطْهِيرَاتِ الْمُقَدَّسَةِ...
هَا هُوَ الْمَاضِي يُسْتَدْعَى، كَقُدَّاسٍ مَقْلُوبٍ عِنْدَ تُخُومِ النِّهَايَاتِ، يَمْسَحُ غُبَارَ الْأَزْمِنَةِ بِأَجْنِحَةِ أَرْوَاحٍ عَالِقَةٍ بَيْنَ الْمَخَافِرِ وَالْحُدُودِ، أَرْوَاحٍ لَمْ تُعَمَّدْ إِلَّا بِنَارِ الِانْتِظَارِ، وَلَمْ تُدْفَنْ إِلَّا فِي خَرَائِطِ النِّسْيَانِ...
فَلْتَأْخُذْ بِيَدِي، أَيُّهَا التَّخْرِيفُ الْوَقُورُ، أَنَا الْمَلَاكُ الْأَعْمَى، كَاهِنُ الْغَضَبِ الْخَفِيِّ، أَكْنُسُ هَيْكَلَ السَّخَطِ بِتَبَاشِيرِ الْأَسْرَارِ... أَسْرَارٍ تُشْبِهُ الْحَنَانَ حِينَ يَتَقَمَّصُ هَيْئَةَ الْقَتْلِ، وَحِينَ يَرْتَقِي الْجَسَدُ جَبَلَ الْكَشْفِ، تَبْقَى رَائِحَةُ الذَّبِيحَةِ الْأُولَى عَالِقَةً كَالْبَخُورِ فِي صَدْرِ الْخَلِيقَةِ...
هَا هُوَ إِيكَارُ لَا يَسْقُطُ... يُبَشِّرُ بِالسُّقُوطِ، وَيَقْرَعُ الْجُمْجُمَةَ بِعُكَّازِ رُؤْيَا، وَيُغْوِي الظُّلْمَةَ كَيْ تَفْتَحَ أَسَارِيرَ الْأَنِينِ، فَتَصِيرُ الْعَتَمَةُ مَائِدَةً لِلْأَلَمِ الْمُقَدَّسِ.
هَيَّا، أَيُّهَا الْجَبَلُ، يَا إِصْبَعَ النَّاسُوتِ الْمُمْتَدَّ فِي جَسَدِ التُّرَابِ، يَا إِنْجِيلًا حَجَرِيًّا لَمْ يُقْرَأْ بَعْدُ، مِنْ أَيْنَ نَبْدَأُ الطَّقْسَ؟ مِنْ أَيِّ جِهَةٍ نَرْفَعُ الْجِهَاتِ كَيْ تَتَسَرَّبَ عَصَافِيرُ خَرْسَاءُ إِلَى نَشِيدِ الدَّمِ، وَيَصِيرَ الْفَرَحُ قُرْبَانًا عَلَى مَذْبَحِ الْفَنَاءِ؟ مِنْ أَيْنَ نُحْكِمُ إِغْلَاقَ الْعَالَمِ بِرِتَاجِ

الْحِكْمَةِ الْخَفِيَّةِ، حِينَ تُغْلِقُ الْأَبَدِيَّةُ عَلَى نَفْسِهَا كَصَوْمَعَةٍ بِلَا بَابٍ، وَتُغْوِي الْخُلُودَ لِيَغْتَسِلَ مِنْ وَحَلِ النُّورِ الزَّائِدِ؟

هَيَّا تَكَلَّمْ، أَيُّهَا الْجَبَلُ، يَا نَاسِكَ الصُّخُورِ، يَا مُزَارِعَ الْغَضَبِ فِي حُقُولِ الصَّمْتِ، لِمَاذَا لَا تُفْصِحُ إِلَّا عَنْ ضَحْكَةٍ خَافِتَةٍ تُشْبِهُ صَدَى إِيكَارَ حِينَ يَكْتَشِفُ أَنَّ السُّقُوطَ شَكْلٌ آخَرُ لِلطَّيَرَانِ؟

تَعَالَ، لِنَفْتَحْ مَعًا سِفْرَكَ الْمَخْفِيَّ، فَالْمَاضِي سَيْفٌ مِنْ نُورٍ مُعْتِمٍ، يَجِيءُ بِلَمَعَانِهِ كَعَوِيلٍ أَخِيرٍ، وَأَنَا أَرْفَعُ قَنَادِيلَ الرُّؤْيَا لِأُضِيءَ مَقَابِضَ التَّرَاتِيلِ:

فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، حِينَ كَانَتِ الْبَرَارِي تُرَتِّلُ نَوْمَهَا حَوْلَ سَرِيرِ الظُّلْمَةِ، وَكَانَتِ الْمَكِيدَةُ تُقِيمُ مَأْدُبَةَ الرَّصَاصِ، وَتَكْسِرُ خُبْزَ الْحَدِيدِ عَلَى مَائِدَةِ الْخَرَابِ، رَكَضَ الْحُلْمُ، أَشْعَثَ كَقِدِّيسٍ مَنْفِيٍّ، يَتَعَثَّرُ بِجَنَاحِ الْعُشْبِ الَّذِي نَسِيَ اسْمَهُ...

ثُمَّ انْفَتَحَ الْأُفُقُ كَجُرْحٍ طَقْسِيٍّ، وَخَرَجَ الْعَسْكَرُ مِنْ أَعَالِي التِّلَالِ، كَغِرْبَانٍ سَاقِطَةٍ بِلَا أَجْنِحَةٍ، يَسُلُّونَ رَصَاصًا يَبْحَثُ عَنْ جَسَدٍ لِيُعَمِّدَهُ بِالْعُنْفِ. فَسَلَّمَ الْفَضَاءُ نَفْسَهُ، كَأُنْثَى كَوْنِيَّةٍ فِي لَحْظَةِ كَشْفٍ، وَاحْتَضَنَ الطَّعَنَاتِ كَسِرٍّ لَا يُقَالُ...

وَالذِّئَابُ الْبَرِّيَّةُ، كَاهِنَاتُ الطَّرَبِ الزَّائِفِ، عَوَتْ جُوعًا وَهَرْطَقَةً، تَخِيطُ بِعُوَائِهَا رُتُوقَ الْمَصِيدَةِ، وَتَرْفَعُ أَشْبَاحَهَا كَأَيْقُونَاتٍ مَكْسُورَةٍ. هَكَذَا تُعَرِّي النَّشْوَةُ بَنَاتِ السِّرِّ، وَهَكَذَا يَلْهُو الرَّصَاصُ كَبَهْلَوَانٍ نَاسِكٍ، يَنْسُجُ الذُّعْرَ عَلَى نَوْلٍ لَا يُرَى، حَيْثُ يُصْبِحُ الْعُوَاءُ صَلَاةً، وَيَصِيرُ الرَّصَاصُ جَوَابًا...

تَضِيقُ الدَّائِرَةُ... عَسْكَرٌ بِوُجُوهِ الذِّئَابِ، وَذِئَابٌ تَلْبَسُ بِزَّاتِ الْعَسْكَرِ، وَصَوْتٌ يَعْلُو صَوْتًا، حَتَّى لَا يَعُودَ هُنَاكَ فَرْقٌ بَيْنَ الصَّيَّادِ وَالْفَرِيسَةِ...

وَإِيكَارُ، قَرِيبٌ مِنْ مَوْتِهِ الْقَرِيبِ، وَقَرِيبٌ مِنْ قِيَامَتِهِ الْمَقْلُوبَةِ، يَقْرَعُ نَافِذَةَ الْمَأْسَاةِ كَنَقْرِ مَلَاكٍ تَائِهٍ، كَأَنَّهُ لَا يُرِيدُ أَنْ يُوقِظَ الْقَدَرَ... يَرْكُضُ، فَتَرْكُضُ الْأَهْوَالُ فِي دَمِهِ، وَيَشُقُّ الْغُبَارَ كَمَنْ يَشُقُّ حِجَابًا لِيَرَى مَا لَا يُرَى.

لَكِنَّ الْجَبَلَ، ذَاكَ الْعَرْشَ الْحَجَرِيَّ الْمُكَلَّلَ بِالثَّلْجِ وَالْعَسْكَرِ وَالذِّئَابِ، يَقْذِفُهُ نَحْوَ جِهَةٍ وَاحِدَةٍ... جِهَةِ الْمَصِيرِ...

وَحِينَ يَلُوذُ بِالصَّخْرِ، يَدْخُلُ فِي نَسِيجٍ آخَرَ، نَسِيجِ الرُّعْبِ الْعَارِفِ، نَسِيجِ زَمَنٍ يَصِيرُ مَادَّةً لِلْحُلْمِ...

السَّمَاءُ الْعَالِيَةُ تُرَاقِبُ الْمَشْهَدَ، وَتَتَحَلَّلُ الْكَمَائِنُ كَمَا تَتَحَلَّلُ الْجُثَثُ لِتُغَذِّيَ تُخُومَ الْجَبَلِ... وَهَكَذَا كَانَ الشَّرَكُ يُهَيِّئُ جَسَدَهُ لِجَلَالِ النِّهَايَةِ، وَيَمْسَحُ بِأَنَامِلِهِ رِيشَ الْغُبَارِ، كَمَا يَمْسَحُ كَاهِنٌ مَذْبَحًا بَعْدَ ذَبِيحَةِ الْمَهَابَةِ...

وَهَا هُوَ إِيكارُ يَخْتَنِقُ... الصُّوَرُ تَتَزَايَدُ... الْوُجُوهُ تَتَكَرَّرُ... كَأَنَّ رَأْسَهُ مَسْرَحٌ لَا يَتَوَقَّفُ الْعَرْضُ فِيهِ...

إِنَّهُ مَسْرَحٌ بِالْفِعْلِ...

وَإِيكارُ الْمُمَثِّلُ، وَالضَّحِيَّةُ، وَالصَّرْخَةُ.

**(يَتَحَوَّلُ السَّرْدُ إِلَى فَضَاءٍ بَيْنِيٍّ، لَا لَيْلَ فِيهِ وَلَا نَهَار. الْجَبَلُ قَائِمٌ كَعَرْشٍ، وَالظَّلَامُ يَتَنَفَّسُ، وَالذِّئَابُ دَوَائِرُ مِنْ عُوَاءٍ، وَإِيكارُ يَهْبِطُ وَلَا يَصِلُ).**

**الْجَبَلُ**: أَنَا لَسْتُ حَجَرًا... أَنَا إِصْبَعُ مَا لَا يُسَمَّى، مَمْدُودٌ مُنْذُ الْبَدْءِ لِيُشِيرَ إِلَى جِهَةٍ ضَلَّتْ طَرِيقَهَا. مَنْ مِنْكُمْ يَجْرُؤُ أَنْ يَبْدَأَ؟ فَالْبَدْءُ عِنْدِي سُقُوطٌ مُقَنَّعٌ.

**الظَّلَامُ**: أَنَا الَّذِي قَبْلَ الْبَدْءِ، أَنَا ظِلُّ الْغَيْبِ حِينَ تَعِبَ مِنَ النُّطْقِ. فِيَّ تُحْفَظُ الْأَسْمَاءُ قَبْلَ أَنْ تُجَرَّحَ بِالضَّوْءِ، وَفِيَّ تَنَامُ الْأَرْوَاحُ الَّتِي ضَاعَتْ بَيْنَ الْمَخَافِرِ وَالْحُدُودِ. لَا تَسْأَلُوا: مِنْ أَيْنَ؟ فَأَنَا "الْأَيْنُ" حِينَ يُمْحَى.

**إِيكارُ**: لَمْ أَسْقُطْ... أَنَا أَتَعَلَّمُ الْهُبُوطَ كَطَقْسٍ. أَجْنِحَتِي تَخَلَّتْ عَنِّي حِينَ عَرَفَتْ أَنَّ الْعُلُوَّ خُدْعَةُ الْجِهَاتِ... أَيُّهَا الْجَبَلُ، هَلِ السُّقُوطُ عِنْدَكَ اعْتِرَافٌ؟ أَمْ هُوَ مَعْمُودِيَّةُ الَّذِينَ لَمْ يُغْفَرْ لَهُمْ الطَّيَرَانُ؟

**الذِّئَابُ (جُوقَةٌ):** نَحْنُ عُوَاءُ الْجَسَدِ حِينَ يُكْتَمُ السِّرُّ. نَحْنُ رُهْبَانُ الْجُوعِ، نَصُومُ عَنِ الْفَرِيسَةِ وَنُفْطِرُ عَلَى الْخَوْفِ. رَأَيْنَا الرَّصَاصَ كَيْفَ لَبِسَ وُجُوهَ الْبَشَرِ، وَرَأَيْنَا الْبَشَرَ كَيْفَ اسْتَعَارَتْ عُيُونُهُمْ أَنْيَابَنَا. مَنْ يُمَيِّزُ الْآنَ بَيْنَ صَلَاةٍ وَعُوَاءٍ؟

**الْجَبَلُ**: أَيُّهَا الْعَابِرُونَ فِيَّ، كُلُّ طَرِيقٍ عِنْدِي يَنْتَهِي إِلَى بَابٍ بِلَا مِقْبَضٍ. أَنَا الْمَذْبَحُ الَّذِي لَا يَحْتَاجُ إِلَى كَاهِنٍ، فَالذَّبِيحَةُ تَأْتِي وَحْدَهَا وَتَسْتَلْقِي. مَنْ مِنْكُمْ يَحْمِلُ سِرَّهُ دُونَ أَنْ يَسْكُبَهُ عَلَى صُخُورِي؟

**الظَّلَامُ**: أَنَا أَحْمِلُهُ، لَكِنِّي لَا أُظْهِرُهُ. السِّرُّ إِذَا انْكَشَفَ صَارَ جُرْحًا بِلَا مَعْنًى. دَعُوهُ يَنْمُ فِيَّ كَجَنِينٍ بِلَا زَمَنٍ، دَعُوهُ يَثْقُلُ حَتَّى يَنْكَسِرَ الصَّمْتُ مِنْ دَاخِلِهِ.

**إِيكارُ**: رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ... حِينَ كَانَتِ الْبَرَارِي تُهَدْهِدُ سَرِيرَكَ يَا ظَلَامُ، الْعَسْكَرَ يَصْعَدُونَ مِنَ التِّلَالِ، كَأَحْكَامٍ نَزَلَتْ مُتَأَخِّرَةً. كَانَ الرَّصَاصُ يَبْحَثُ عَنْ أُنْثَى لِيَكْتَمِلَ، وَكَانَ الْفَضَاءُ يَسْتَسْلِمُ كَجَسَدٍ يَعْرِفُ نِهَايَتَهُ. أَهَذَا هُوَ النَّشِيدُ، أَمْ أَنَّهُ نِسْيَانٌ يَتَدَرَّبُ عَلَى التَّأَمُّلِ؟

**الذِّئَابُ (جُوقَةٌ):** هُوَ النَّشِيدُ حِينَ يَضِلُّ لَحْنُهُ. نَحْنُ سَمِعْنَا الْعُوَاءَ يَعْلُو الرَّصَاصَ، ثُمَّ رَأَيْنَا الرَّصَاصَ يَعْلُو الْعُوَاءَ. اخْتَلَطَتِ الْأَصْوَاتُ حَتَّى صَارَ الْقَتْلُ إِيقَاعًا، وَصَارَتِ النَّجَاةُ نَشَازًا.

**الْجَبَلُ:** وَأَنَا... ابْتَلَعْتُ كُلَّ ذَلِكَ، الْعَسْكَرَ، وَالذِّئَابَ، وَالصَّرَخَاتِ، حَتَّى ظِلَالَكُمْ. لَكِنَّنِي لَمْ أَهْضِمْ شَيْئًا... كُلُّ مَا فِيَّ يَبْقَى شَاهِدًا. أَنَا الذَّاكِرَةُ الَّتِي لَا تَغْفِرُ، وَلَا تَنْسَى.

**الظَّلَامُ:** وَأَنَا الْغُفْرَانُ الَّذِي لَا يُعْلَنُ. مَنْ يَدْخُلْنِي يَذُبْ بِلَا أَثَرٍ، كَأَنَّهُ لَمْ يُخْلَقْ. تَعَالَ يَا إِيكارُ، اتْرُكِ الْجَبَلَ، فَالْعُلُوُّ يَجْرَحُكَ، أَمَّا أَنَا فَأَمْحُوكَ بِرِفْقٍ.

**إِيكارُ:** لَا أُرِيدُ مَحْوًا... أُرِيدُ مَعْنًى. إِنْ كَانَ السُّقُوطُ قَدَرِي، فَلْيَكُنْ مَفْهُومًا، لَا مُجَرَّدَ عَادَةٍ لِلْهَوَاءِ. أَيُّهَا الْجَبَلُ، إِلَى أَيْنَ تَقْذِفُنِي كُلَّ مَرَّةٍ؟

**الْجَبَلُ:** إِلَى جِهَةٍ وَاحِدَةٍ: حَيْثُ يَلْتَقِي الرُّعْبُ بِالْحِكْمَةِ. هُنَاكَ... يَتَحَوَّلُ الصُّرَاخُ إِلَى مَعْرِفَةٍ، وَيَصِيرُ الْجُرْحُ بَابًا. لَكِنْ لَا أَحَدَ يَدْخُلُ دُونَ أَنْ يُتْرَكَ جُزْءٌ مِنْهُ هُنَا.

**الذِّئَابُ:** اتْرُكْ ظِلَّكَ... اتْرُكِ اسْمَكَ... اتْرُكْ جَنَاحَيْكَ... فَالْعُبُورُ لَا يَقْبَلُ مَا يُذَكِّرُ بِالسَّمَاءِ.

**الظَّلَامُ:** اقْتَرِبُوا جَمِيعًا... الدَّائِرَةُ تَضِيقُ. لِأَنَّ النِّهَايَةَ قَرِيبَةٌ... لِأَنَّ السِّرَّ اكْتَمَلَ.

**إِيكارُ** *(هَمْسٌ)*: أَسْمَعُ نَافِذَةً تُقْرَعُ... هَلْ هِيَ الْمَأْسَاةُ أَمِ الْخَلَاصُ؟

**الْجَبَلُ** *(صَمْتٌ طَوِيلٌ)*: لَا فَرْقَ. كِلَاهُمَا بَابِي.

*(تَنْطَفِئُ الْأَصْوَاتُ، وَيَبْقَى الْعُوَاءُ وَالرَّصَاصُ يَتَرَدَّدَانِ كَكِيَانٍ وَاحِدٍ).*

# إِصْحَاحُ

**2**

# الْمَلَاكُ الْأَعْمَى وَتَعْلِيمُ الْبَصِيرَةِ

**تَرْنِيمَةٌ**

**(1)**

لَمْ يَدْخُلِ الْمَلَاكُ الْأَعْمَى حَيَاةَ إِيكارَ مِنْ بَوَّابَةٍ وَلَا مِنْ سَمَاءٍ، ظَهَرَ كَظِلٍّ أَبْيَضَ يَمْشِي بِلَا خُطًى، كَأَنَّ الطَّرِيقَ نَفْسَهَا تَبْتَكِرُ لَهُ خُطُوَاتٍ تُنَاسِبُهُ... لَمْ يَكُنْ مَلَاكًا بِالْمَعْنَى الْقَدِيمِ، وَلَا طَائِرًا بِمَهَارَةِ الضَّوْءِ، كَانَ يُشْبِهُ حَارِسًا خَرَجَ تَوًّا مِنْ كِتَابٍ لَمْ يُكْتَبْ بَعْدُ. كَانَتْ عَيْنَاهُ مَفْتُوحَتَيْنِ، لَكِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِمَا إِلَّا اتِّسَاعٌ يَلْمَعُ كَقَعْرِ بِئْرٍ.

قَالَ لِإِيكارَ:

- لَا تُفْزِعْكَ الْعَتَمَةُ... الْعَتَمَةُ دَلِيلٌ أَيْضًا.

**(2)**

فِي الْبِدَايَةِ، لَمْ يَفْهَمْ إِيكارُ. كَانَ يَظُنُّ أَنَّ الَّذِي لَا يَرَى لَا يَهْدِي أَحَدًا. لَكِنَّ الْمَلَاكَ الْأَعْمَى كَانَ يَسْمَعُ الْأَشْيَاءَ كَمَا تُسْمَعُ الْبَذْرَةُ وَهِيَ تُحَاوِلُ اخْتِرَاقَ التُّرَابِ. كَانَ يَقْتَرِبُ مِنَ الْجِدَارِ وَيَلْمَسُ مَلْمَسَهُ بِإِصْبَعٍ وَاحِدَةٍ، وَيَقُولُ:

- هَذَا الْجِدَارُ لَمْ يَكْتَمِلْ... إِنَّهُ يُفَكِّرُ فِي الِانْهِيَارِ.

وَيَقْتَرِبُ مِنْ جِذْعِ شَجَرَةٍ:

- هَذِهِ الشَّجَرَةُ تَتَذَكَّرُ طِفْلًا مَرَّ مِنْ هُنَا بَاكِيًا، وَمَسَحَتِ الرِّيحُ دُمُوعَهُ.

كَانَ إِيكارُ يَنْظُرُ إِلَيْهِ مُنْدَهِشًا، كَأَنَّ الْمَلَاكَ يَرَى مَا لَمْ يَعُدِ الْعَالَمُ قَادِرًا عَلَى رُؤْيَتِهِ.

**(3)**

ذَاتَ صَبَاحٍ، اقْتَرَبَ الْمَلَاكُ مِنْ إِيكارَ، وَقَالَ لَهُ بِلَهْجَةٍ تُشْبِهُ تَرْنِيمَةً قَدِيمَةً:

- عَلَّمَتْكَ الصُّورَةُ كَيْفَ تَلْتَقِطُ الضَّوْءَ... وَالْآنَ سَأُعَلِّمُكَ كَيْفَ تُصْغِي إِلَى الظِّلَالِ.

جَلَسَ إِيكارُ الطِّفْلُ بَيْنَ يَدَيْهِ، كَمَا يَجْلِسُ طَيْرٌ صَغِيرٌ بَيْنَ جَنَاحَي أُمِّهِ، وَسَأَلَهُ:

- لَكِنْ كَيْفَ أَرَى بِلَا عَيْنَيْنِ؟

فَأَجَابَهُ الْمَلَاكُ:

- أَغْلِقْهُمَا... وَدَعِ الْأَرْضَ تَتَكَلَّمْ.

(4)

**كُورَالُ الطِّفْلِ الدَّاخِلِيِّ:**

يَا إِيكارُ… نَحْنُ رَأَيْنَا الْعَالَمَ بِعَيْنٍ وَاحِدَةٍ، وَاخْتَبَأْنَا فِي الْعَتَمَةِ… تَعَالَ… فَمَا لَمْ تَرَهُ هُوَ مَا يُنْقِذُكَ.

(5)

أَمْسَكَ الْمَلَاكُ بِيَدِ إِيكارَ، وَقَادَهُ إِلَى سُوقٍ قَدِيمٍ، حَيْثُ الْأَصْوَاتُ كَأَنَّهَا حُشُودُ أَرْوَاحٍ ضَائِعَةٍ. قَالَ لَهُ:

- أَغْمِضْ عَيْنَيْكَ… وَقُلْ لِي أَيْنَ تَقِفُ.

فَفَعَلَ، وَاسْتَمَعَ إِلَى وَقْعِ الْأَقْدَامِ، وَإِلَى صَوْتِ امْرَأَةٍ تَجُرُّ كِيسَهَا، وَإِلَى صَدَى عَصًا تَضْرِبُ الْأَرْضَ… ثُمَّ قَالَ:

- أَقِفُ قُرْبَ رَجُلٍ عَجُوزٍ يَبِيعُ شَيْئًا بِلَا زَبَائِنَ.

فَابْتَسَمَ الْمَلَاكُ، وَقَالَ:

- هَكَذَا يَبْدَأُ الْبَصَرُ الْحَقِيقِيُّ… أَنْ تَعْرِفَ الْمَكَانَ مِنْ قَلَقِهِ.

(6)

أَخَذَهُ إِلَى أَطْرَافِ الْمَدِينَةِ، إِلَى حَقْلٍ مَهْجُورٍ، وَقَالَ لَهُ:

- أَغْمِضْ عَيْنَيْكَ… وَقُلْ لِي مَاذَا تَفْعَلُ الْأَرْضُ الْآنَ.

أَنْصَتَ إِيكارُ: صَوْتُ الرِّيحِ، وَصَوْتُ أَعْشَابٍ تَئِنُّ، وَصَوْتُ حَشَرَةٍ تَفْتَحُ جَنَاحَيْهَا… فَقَالَ:

- الْأَرْض تَنْتَظِرُ خُطْوَةً... خُطْوَتِي.
فَرَبَّتَ الْمَلَاكُ عَلَى كَتِفِهِ، وَقَالَ:
- مَنْ يَسْمَعُ أَرْضًا كَامِلَةً لَنْ تُوقِعَهُ حُفْرَةٌ صَغِيرَةٌ.

ترنيمة

(7)

**كُورَالُ ظِلِّ الْأَبِ** (بِصَوْتٍ يَأْتِي مِنْ عُمْقٍ لَا يُرَى):
يَا وَلَدِي... تَعَالِيمُ الْعَتَمَةِ أَشَدُّ صِدْقًا مِنْ تَعَالِيمِ الضَّوْءِ. أَنَا أَيْضًا كُنْتُ أَرَى، لَكِنِّي رَأَيْتُ مَا أَرَادُوا لِي أَنْ أَرَاهُ. احْفَظْ دُرُوسَ الْمَلَاكِ، فَالْحُدُودُ تُطْفِئُ نُورَكَ، لَكِنَّهَا لَا تَقْدِرُ عَلَى إِسْكَاتِ أَصْوَاتِ قَلْبِكَ.

ترنيمة

(8)

فِي لَيْلَةٍ مُضْطَرِبَةٍ، جَلَسَ الْمَلَاكُ مَعَ إِيكارَ عَلَى سَطْحِ بَيْتٍ مَنْسِيٍّ، وَقَالَ لَهُ:
- أُرِيدُ أَنْ أُرِيَكَ رُؤْيَا لَا تَحْتَاجُ فِيهَا إِلَى النَّظَرِ.
مَدَّ يَدَهُ، وَرَسَمَ فِي الْهَوَاءِ خَطًّا طَوِيلًا، وَقَالَ:
- هَذَا الطَّرِيقُ... هَلْ تَرَاهُ؟
قَالَ إِيكارُ:
- لَا.
فَأَجَابَ الْمَلَاكُ:
- إِذًا أَغْلِقْ عَيْنَيْكَ.
فَأَطَاعَهُ إِيكارُ الطِّفْلُ، وَفَجْأَةً شَعَرَ بِأَنَّ الطَّرِيقَ يَمْتَدُّ مِنْ صَدْرِهِ هُوَ... خَطٌّ طَوِيلٌ يُشْبِهُ حَبْلَ نَجَاةٍ... يُشْبِهُ نَهْرًا بِلَا مَاءٍ... يُشْبِهُ سُلَّمًا لَا يَصِلُ إِلَى مَكَانٍ.

قَالَ الْمَلَاكُ:
- أَحْيَانًا، يَكُونُ الطَّرِيقُ هُوَ مَنْ يَرَى الْمَاشِيَ عَلَيْهِ.

(9)

لَمْ يَكُنِ الْمَلَاكُ يُعَلِّمُ فَقَطْ... كَانَ يَكْشِفُ.

كَشَفَ لِإِيكارَ أَنَّ الْخَوْفَ كَائِنٌ لَهُ رَائِحَةٌ، وَأَنَّ الْمَخْفَرَ حِينَ يَقْتَرِبُ يَتْرُكُ فِي الْجَوِّ طَعْمًا حَامِضًا، كَأَنَّ الْأَسْلَاكَ الشَّائِكَةَ تَذُوبُ فِي الْهَوَاءِ...

وَكَشَفَ لَهُ أَنَّ الشَّمْسَ/الْحُدُودَ تَنْظُرُ إِلَيْهِ مِنْ أَعْلَى لِتَتَأَكَّدَ مِنْ أَنَّهُ مَا زَالَ تَحْتَ سَيْطَرَتِهَا...

وَكَشَفَ لَهُ أَنَّ الْبَحْرَ/الْمَخَافِرَ لَهُ صَوْتُ خَفَقَانٍ رَتِيبٍ، صَوْتُ أُمٍّ لَا تُحِبُّ أَبْنَاءَهَا، لَكِنَّهَا تَرْفُضُ أَنْ يَبْتَعِدُوا عَنْهَا.

(10)

**كُورَالُ الْغَيْمَةِ الْمُهَاجِرَةِ** (تَدْخُلُ بِنَبْرَةٍ حَالِمَةٍ):

يَا إِيكارُ... لَيْسَ كُلُّ مَا يُرَى ثَابِتًا، وَلَا كُلُّ مَا لَا يُرَى ضَائِعًا. نَحْنُ، أَبْنَاءُ الرِّيحِ، نَعْرِفُ أَنَّ الْبَصِيرَةَ سَفَرٌ بِلَا جَسَدٍ، وَأَنَّ عَلَيْكَ أَنْ تُهَاجِرَ أَوَّلًا مِنْ عَيْنَيْكَ.

(11)

ذَاتَ مَسَاءٍ، حِينَ صَمَتَتِ الشَّوَارِعُ، وَصَارَ الْهَوَاءُ خَفِيفًا كَذِكْرَى لَا تُرِيدُ أَنْ تَعُودَ، قَالَ الْمَلَاكُ لِإِيكارَ:

- أَنْتَ تَرْكُضُ بِقَدَمَيْكَ، لَكِنْ عَلَيْكَ أَنْ تَرْكُضَ بِقَلْبِكَ أَيْضًا. الْقَدَمُ تَفْتَحُ الطَّرِيقَ، أَمَّا الْقَلْبُ فَيَفْتَحُ الْحَقِيقَةَ.

قَالَ إِيكارُ:

- وَمَا الْحَقِيقَةُ؟

فَأَجَابَ الْمَلَاكُ:

- أَنْ تَعْرِفَ إِلَى أَيْنَ يَتَّجِهُ خَوْفُكَ.

وَشَعَرَ إِيكارُ، لِلْمَرَّةِ الْأُولَى، أَنَّ الْخَوْفَ دَلِيلٌ مُتَخَفٍّ يَمْشِي إِلَى جَانِبِهِ، وَلَيْسَ عَدُوًّا.

ثُمَّ حَمَلَهُ الْمَلَاكُ إِلَى مَكَانٍ لَا يَعْرِفُ لَهُ اسْمًا: تَلَّةٌ مِنَ الْغُبَارِ، عَلَيْهَا أَحْجَارٌ تُشْبِهُ أَطْرَافَ أَصَابِعِ عَازِفٍ أَعْمَى.

وَقَالَ:

- هُنَا... سَأُعْطِيكَ الْهِبَةَ.

وَضَعَ يَدَهُ عَلَى عَيْنَي إِيكارَ، وَقَالَ:

- مِنَ الْآنَ فَصَاعِدًا، سَتَرَى مَا يَنْقُصُ، لَا مَا يَكْتَمِلُ... وَمَا يَنْقُصُ هُوَ الَّذِي يَفْتَحُ الطَّرِيقَ.

فَأَحَسَّ إِيكارُ بِحَرَارَةٍ تَتَسَلَّلُ إِلَى دَاخِلِهِ، كَأَنَّ عَيْنَيْنِ جَدِيدَتَيْنِ تَتَكَوَّنَانِ فِي صَدْرِهِ، لَا فِي وَجْهِهِ.

تَرْنِيمَةٌ

**(12)**

**كُورَالُ الطِّفْلِ الدَّاخِلِيِّ:**

يَا إِيكارُ... هَذِهِ هِيَ الْبَصِيرَةُ: أَنْ تَرَى الْعُبُورَ قَبْلَ أَنْ يَتَحَرَّكَ الْهَوَاءُ، وَأَنْ تَعْرِفَ أَنَّ الْخَوْفَ عَلَامَةُ خُرُوجٍ، وَلَيْسَ شَبَحًا.

**(13)**

حِينَ ابْتَعَدَ الْمَلَاكُ الْأَعْمَى، تَرَكَ وَرَاءَهُ طَرِيقًا يُشْبِهُ سُلَّمًا مِنْ هَمْسٍ، وَتَرَكَ عَلَامَةً عَلَى جِلْدٍ لَا يَشْفَى... وَمُنْذُ تِلْكَ اللَّيْلَةِ، صَارَ إِيكارُ يَسْمَعُ مَا لَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ، وَيَرَى مَا لَا يُرَى. صَارَ يَشْعُرُ أَنَّ الْحُدُودَ تُحَاصِرُهُ، لَكِنَّ الْعَالَمَ يَنْفَتِحُ لَهُ كَجَفْنٍ يَبْحَثُ عَنْ ضَوْءٍ جَدِيدٍ.

# النَّشِيدُ الثَّانِي

## الِانْشِقَاقُ

**(تَرْنِيمٌ بِأَرْبَعَةِ أَصْوَاتٍ، مَحْفُوظٌ بَيْنَ الرُّقُوقِ وَالرَّمَادِ، وَبَيْنَ الْيَقَظَةِ وَالتَّأَمُّلِ، وَبَيْنَ النُّورِ وَالْعَتَمَةِ، وَبَيْنَ الْعَالَمِ الْأَدْنَى وَالْعَالَمِ الْأَعْلَى، حَيْثُ تَتَحَوَّلُ الْكَلِمَاتُ إِلَى طُقُوسٍ، وَالْمَعَانِي إِلَى عَتَبَاتِ عُبُورٍ بَيْنَ الْعَوَالِمِ، كَأَنَّ الْأَرْوَاحَ الْمُعَلَّقَةَ عَلَى تُخُومِ الْحُدُودِ هِيَ الَّتِي تُمْلِيهِ).**[125]

### الصَّوْتُ الْأَوَّلُ (الرُّقُوقُ وَالرَّمَادُ)

**(1)**- بِاسْمِ النُّورِ الَّذِي لَا يُصَاغُ، وَبِاسْمِ الِامْتِلَاءِ الَّذِي لَا يُحَدُّ، وَبِاسْمِ الْأَصْلِ الَّذِي لَمْ يُخْلَقْ، أَخْلَعُ اسْمِي كَمَا تُخْلَعُ الْقُيُودُ عَنِ الذَّاكِرَةِ، وَأَقِفُ عَارِيًا أَمَامَ الْإِلَهِ، أَمَامَ الْحَقِيقَةِ الَّتِي سُرِقَتْ مِنِّي.

**(2)**- فِي الْبَدْءِ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ سُقُوطٌ، كَانَ امْتِلَاءٌ فَاضَ عَنْ نَفْسِهِ، نُورٌ لَمْ يَحْتَمِلْ كَمَالَهُ فَانْشَطَرَ... وَمِنْ شَظَايَا ذَلِكَ الِامْتِلَاءِ وُلِدْتَ أَنْتَ، يَا إِيكارُ، كَذِكْرَى مَبْتُورَةٍ مِنَ الْكَمَالِ،

---

[125]- مَنْ قَرَأَ هَذَا النَّصَّ، فَلْيَعْلَمْ: إِنَّ هَذِهِ لَيْسَتْ قِرَاءَةً، إِنَّهَا بَدْءُ التَّمَزُّقِ. وَمَنْ تَمَزَّقَ فَلَا يَرْجِعُ كَمَا كَانَ. وَمَنْ تَذَكَّرَ فَقَدْ بَدَأَ يَتَحَرَّرُ مِنَ الصَّانِعِ دُونَ أَنْ يُغَادِرَ عَالَمَهُ.

وَكَاسْمٍ سَقَطَ مِنْ فَمِ الْوَدِيعَةِ قَبْلَ أَنْ يَكْتَمِلَ نُطْقُهُ. لَمْ تَكُنْ تُحَلِّقُ، كُنْتَ تَتَذَكَّرُ. وَلَمْ يَكُنْ جَنَاحَاكَ شَمْعًا، كَانَا بَقَايَا مَعْرِفَةٍ أُحْرِقَتْ حِينَ لَامَسْتَ حُدُودَ السِّرِّ.

**(3)**- فِي الْبَدْءِ الَّذِي لَيْسَ بَدْءًا، كَانَ النُّورُ كُلِّيًّا، غَيْرَ مَقْسُومٍ، لَا اسْمَ لَهُ لِأَنَّهُ كُلُّ الْأَسْمَاءِ. لَكِنْ حِينَ ارْتَجَفَ الِامْتِلَاءُ، انْبَثَقَ ظِلٌّ مِنْ جَهْلٍ لَمْ يَكْتَمِلْ. وَمِنْ ذَلِكَ الْجَهْلِ نَهَضَ الصَّانِعُ الْأَدْنَى، سَيِّدُ الْقَوَالِبِ، وَنَاسِجُ الْأَكْوَانِ الثَّقِيلَةِ، الَّذِي ظَنَّ نَفْسَهُ الْأَصْلَ لِأَنَّهُ لَمْ يَرَ مَا فَوْقَهُ. فَقَالَ:
- أَنَا الْبِدَايَةُ.
وَكَانَ قَوْلُهُ حِجَابًا.

**(4)**- يُتْلَى وَاقِفًا، وَالْيَدَانِ مَفْتُوحَتَانِ
بِاسْمِ النُّورِ الَّذِي لَا يُنْطَقُ، وَبِاسْمِ الْأَصْلِ الَّذِي لَا يُحَدُّ، أَخْلَعُ عَنِّي مَا لُبِّسَ لِي: اسْمًا، وَجَسَدًا، وَخَوْفًا سُمِّيَ حِكْمَةً... أَنَا لَسْتُ مِنْ هَذَا التَّشْكِيلِ، وَلَا مِنْ هَذَا النَّسِيجِ الْمَثْقُوبِ، أَنَا مِنْ بَقَايَا الِامْتِلَاءِ الَّذِي لَمْ يُحْتَجَزْ كُلُّهُ.[126]

**(5)**- أَيُّهَا الْجَبَلُ، يَا خَتْمَ الصَّمْتِ، يَا عَتَبَةَ الِانْشِقَاقِ، لَا أَطْلُبُ صُعُودًا، أَطْلُبُ انْكِسَارًا. احْذِفْنِي كَمَا يُحْذَفُ الْجُرْحُ مِنْ نُورِهِ، وَاجْعَلْنِي أَعْبُرُ بِمَا تَبَقَّى مِنِّي قَبْلَ أَنْ يُسَمَّى.

**(6)**- وَحِينَ اقْتَحَمْنَا الْعَمَاءَ، لَمْ نَكُنْ نَقْتَرِبُ... كُنَّا نُمْحَى. بَلَغْنَا الْحُدُودَ، فَانْغَلَقَتِ اللُّغَةُ، وَصَارَتِ الْحُرُوفُ حِجَارَةً، وَصَارَ الصَّمْتُ زِنْزَانَةً تَتَّسِعُ لِكُلِّ شَيْءٍ. وَهُنَاكَ تَكَلَّمَ الْجَبَلُ. لَمْ يَكُنْ صَوْتُهُ أَمْرًا، كَانَ حَدًّا:
- لَا تَفْتَحْ مَا أُغْلِقَ بِالْمَعْرِفَةِ، وَلَا تُوقِظْ مَا نَامَ خَوْفًا مِنَ التَّذَكُّرِ، وَلَا تَعْبُرْ قَبْلَ أَنْ تَفْقِدَ اسْمَكَ.
**(7)**- وَحِينَ اقْتَرَبْنَا مِنَ الْجَبَلِ، ارْتَجَفَ النَّسِيجُ. كَانَ الصُّعُودُ تَمَزُّقًا فِي قُمَاشِ الصَّنْعَةِ. انْغَلَقَتِ اللُّغَةُ، لِأَنَّ الْكَلِمَاتِ مِنْ صُنْعِهِ، وَالْجَبَلَ لَيْسَ مِنْ صُنْعِهِ. وَحِينَ تَكَلَّمَ الْجَبَلُ، كَانَ صَوْتُهُ تَذْكِيرًا:

---

[126]- أَخْلَعُ اسْمِي، أَخْلَعُ مَا قِيلَ عَنِّي، وَأَقِفُ كَمَا لَمْ أُسَمَّ.

- أَنْتُمْ لَسْتُمْ لَهُ، وَلَا هَذِهِ الْحُدُودُ لَكُمْ، وَلَا هَذَا الْخَوْفُ مِنْكُمْ.

**(8)-** يُتْلَى جَمَاعِيًّا أَوْ بِالتَّكْرَارِ
- يَا إِيكَارُ، مَاذَا رَأَيْتَ؟
- رَأَيْتُ السَّمَاءَ قَفَصًا، وَالسُّقُوطَ نَافِذَةً.
- مَاذَا كَانَ دَمُكَ؟
- حِبْرًا كُتِبَ بِهِ كَذِبُ الْعَالَمِ.
- هَلْ مُتَّ؟
- لَا... تَذَكَّرْتُ.[127]

## الصَّوْتُ الثَّانِي (الْيَقَظَةُ وَالتَّأَمُّلُ)

**(1)-** أَنَا لَسْتُ مِنْ هَذَا الْجَسَدِ، وَلَا مِنْ هَذَا الصَّوْتِ، وَلَا مِنْ هَذِهِ الْأَرْضِ الَّتِي تَلِدُ النِّسْيَانَ. أَنَا شَرَارَةٌ سُجِنَتْ فِي قَفَصٍ مِنْ أَسْمَاءٍ، وَخُتِمَتْ بِخَوْفٍ يُسَمُّونَهُ أَسْوَارَ السَّمَاءِ. أَيُّهَا الصَّانِعُ الْأَعْمَى، يَا مَنْ قُلْتَ: "أَنَا الْكُلُّ"، هَا أَنَا أَرَى كَذِبَكَ.

**(2)-** سَقَطْتَ نَحْوَ النِّسْيَانِ، وَهُوَ يَنُوحُ فِي أَرْجَاءِ الطَّبِيعَةِ. تَجَرَّدْتَ مِنْ عَرْشِكَ، لِأَنَّ الْعَرْشَ وَهْمُ الثَّبَاتِ، وَأَنْتَ ابْنُ الِانْكِسَارِ. تَخَلَّتْ عَنْكَ الْحَاشِيَةُ، لِأَنَّ الْأَرْوَاحَ لَا تُصَاحِبُ مَنْ يَتَذَكَّرُ أَكْثَرَ مِمَّا يَنْبَغِي. وَصَارَ عُرْيُكَ سَمَاءً مَقْلُوبَةً، وَصَارَ مَوْتُكَ رَايَاتٍ تَرْفُرِفُ بِهَا جُيُوشٌ مِنَ الظِّلَالِ، تَحْرُسُ تُخُومَ الْمَعْنَى.

**(3)-** فَمَدَّ يَدَهُ إِلَى الْعَدَمِ، إِلَى بَقَايَا النُّورِ الْمُتَنَاثِرَةِ، وَصَنَعَ مِنْهَا عَوَالِمَ كَثِيفَةً، وَخَتَمَهَا بِأَسْمَاءٍ نَاقِصَةٍ. خَلَقَ الْأَرْضَ كَمِرْآةٍ مَشْرُوخَةٍ، تَعْكِسُ النُّورَ وَلَا تَعْرِفُهُ. وَغَرَسَ فِيهَا حُدُودًا، وَمَخَافِرَ، وَحُرَّاسًا مِنْ طِينِ الطَّاعَةِ، لِيَحْرُسُوا جَهْلَهُمْ كَعَقِيدَةٍ... وَكَانَ الْيَقِينُ خَتْمًا، وَعَلَامَةً لَا تَعْلُو، وَبَابًا لَا يُفْتَحُ إِلَّا لِمَنْ انْكَسَرَ بِمَا يَكْفِي.

**(4)-** يُتْلَى بِبُطْءٍ، كَأَنَّ الْمَاءَ يَسِيلُ مِنَ الدَّاخِلِ
لِتُغْسَلَ الْعَيْنُ مِنَ الصُّورَةِ، وَلِتُغْسَلَ الْأُذُنُ مِنَ الْأَمْرِ، وَلِتُغْسَلَ الْيَدُ [128] مِنَ الطَّاعَةِ الَّتِي لَا تَعْرِفُ.

---

127- رَأَيْتُ الْقَفَصَ سَمَاءً، وَرَأَيْتُ السُّقُوطَ بَابًا.

أَيُّهَا الْجَسَدُ، لَسْتَ سِجْنِي، أَنْتَ دَلِيلِي عَلَى السِّجْنِ.
أَيُّهَا الْخَوْفُ، لَنْ أُقَاتِلَكَ... سَأَرَاكَ.
وَحِينَ أَرَاكَ... تَسْقُطُ، وَلَا تَحْتَاجُ إِلَى بُرْهَانٍ.[129]

**(5)**- أَتَذَكَّرُ الْأَصْلَ لَا الْمَاضِي، وَأَتَذَكَّرُ الِانْبِعَاثَ لَا الْخَلْقَ، وَأَتَذَكَّرُ النِّسْيَانَ لَا السُّقُوطَ، وَأَتَذَكَّرُ أَنَّ الْخَلَاصَ يَقَظَةٌ وَلَيْسَ طَرِيقًا.

**(6)**- رَأَيْتُ قَلْبَكَ، يَا إِيكَارُ، يَمْتَصُّ الرَّصَاصَ كَمَا يَمْتَصُّ الْعَارِفُ الْحَقِيقَةَ بِبُطْءٍ، وَمِنْ غَيْرِ نَجَاةٍ. وَكَانَ دَمُكَ كِتَابَةً حَمْرَاءَ تُعِيدُ سَرْدَ السُّقُوطِ... بَكَيْتُ... لِأَنَّ الْبُكَاءَ هُوَ اللُّغَةُ الْأَخِيرَةُ حِينَ تَفْشَلُ الْمَعْرِفَةُ.

**(7)**- عِنْدَ الْعَتَبَةِ، تَجَلَّى الصِّرَاعُ. لَمْ يَظْهَرِ الصَّانِعُ كَهَيْئَةٍ، ظَهَرَ كَثِقَلٍ يَجْذِبُكَ إِلَى الْأَسْفَلِ، كَقَانُونٍ، وَكَمَنْطِقٍ، وَكَخَوْفٍ مُقَنَّعٍ بِالْحِكْمَةِ. أَمَّا النُّورُ فَلَمْ يَظْهَرْ كَنُورٍ، ظَهَرَ كَحَنِينٍ... حَنِينٍ إِلَى مَا قَبْلَ الِاسْمِ، وَإِلَى مَا قَبْلَ الْجَسَدِ، وَإِلَى مَا قَبْلَ أَنْ يَقُولَ أَحَدٌ: (أَنَا).

**(8)**- حِينَ يَصِلُ الْعَابِرُ إِلَى مَوْضِعٍ لَا يَعُودُ فِيهِ لِلْكَلِمَاتِ صَدًى، يَقُولُ فِي دَاخِلِهِ
أَنَا لَسْتُ هَذَا الصَّوْتَ، وَلَا هَذَا الصَّمْتَ، أَنَا مَا يَمُرُّ بَيْنَهُمَا وَلَا يُمْسَكُ...
هُنَا يَبْدَأُ الْعُبُورُ.

---

128- هَامِشُ الْيَدِ الرَّابِعَةِ
(مِنْ أَنْدَرِ الْهَوَامِشِ الَّتِي خَطَّتْهَا يَدِي وَنَدِمْتُ عَلَيْهَا)
(لِكُلِّ إِنْسَانٍ ثَلَاثُ أَيَادٍ: يَدٌ يُمْنَى، وَيَدٌ يُسْرَى، وَيَدٌ خَفِيَّةٌ... الثَّالِثَةُ هِيَ الَّتِي تُخْطِئُ، أَمَّا الْيَدُ الرَّابِعَةُ الَّتِي لَا نَمْلِكُهَا فَهِيَ الَّتِي تَرْغَبُ)
**الْهَامِشُ الْمُخْفِيُّ دَاخِلَ الْهَامِشِ:**
(تَوَقَّفْ عَنْ لَوْمِ يَدَيْكَ... فَالَّذِي يَفْعَلُ كُلَّ شَيْءٍ هُوَ الْيَدُ الَّتِي لَا تُرَى)

129- هَامِشٌ لِلنَّاسِخِ:
لِتُغْسَلَ رُؤْيَتِي مِنَ الصُّورَةِ. وَلِتُغْسَلَ حَاسَّةُ سَمْعِي مِنَ الْأَمْرِ. وَلِيُغْسَلْ قَلْبِي مِنَ الْخَوْفِ.

تَرْتَجِفُ الْمَدَائِحُ،
وَتَتَعَثَّرُ الْأَسْمَاءُ،
وَتَظْهَرُ الشُّقُوقُ فِي وَجْهِ الْعَالَمِ.[130]

## الصَّوْتُ الثَّالِثُ (الْيَقَظَةُ وَالتَّأَمُّلُ)

**(1)**- يَا إِيكارُ، يَا سَاقِطًا مِنَ الذَّاكِرَةِ لَا مِنَ السَّمَاءِ، يَا مَنْ كُسِرَ لِيَرَى، تَعَالَ... لِتَشْهَدَ أَنَّ الْجَنَاحَ انْكَشَفَ وَلَمْ يَحْتَرِقْ، وَأَنَّ السُّقُوطَ لَمْ يَكُنْ مَوْتًا، كَانَ نُقْطَةً سَوْدَاءَ أَغْلَقَتِ الْعَيْنَيْنِ. اشْهَدْ أَنَّ دَمَكَ لَمْ يَكُنْ نَزْفًا، كَانَ كِتَابَةً عَلَى عَجَائِبِ الْكَوْنِ.

**(2)**- وَحِينَ بَلَغْتَ الْأَرْضَ، لَمْ تَكُنْ أَرْضًا... كَانَتْ حِجَابًا ثَقِيلًا مِنَ النِّسْيَانِ، مَشْدُودًا عَلَى جُرْحِ الْخَلِيقَةِ. رَأَيْتَهَا مَائِلَةً، لِأَنَّهَا لَمْ تُخْلَقْ مُسْتَقِيمَةً... انْحَرَفَتْ مُنْذُ اللَّحْظَةِ الَّتِي نُسِيَ فِيهَا الِاسْمُ الْأَوَّلُ.
وَكَانَ الْجَبَلُ أَثَرًا مِنْ صُعُودٍ قَدِيمٍ، تَرَكَهُ مَنْ حَاوَلَ الْعَوْدَةَ وَلَمْ يَبْلُغْ. وَفِي يَنَابِيعِهَا كَانَتِ الْأَرْوَاحُ التَّائِهَةُ تَغْسِلُ ذَاكِرَتَهَا، وَتُخَبِّئُ قِبَابًا مِنْ تَوْبَةٍ نَاقِصَةٍ، وَمَعَابِدَ لِحُكَمَاءَ تَاهُوا بَيْنَ الْعُبُورِ وَالْبَقَاءِ.

**(3)**- وَأَنْتَ، يَا إِيكارُ، لَمْ تُولَدْ هُنَا. كُنْتَ شَرَارَةً مِنَ النُّورِ الْأَصْلِيِّ، سَقَطَتْ فِي قَبْضَةِ الصَّانِعِ، فَكَسَرَكَ إِلَى اسْمٍ، وَأَلْبَسَكَ جَسَدًا، وَأَعْطَاكَ ذَاكِرَةً مَثْقُوبَةً. وَحِينَ حَاوَلْتَ أَنْ تَرْتَفِعَ، لَمْ تَحْتَرِقْ أَجْنِحَتُكَ... انْكَشَفَتْ. رَأَيْتَ زَيْفَ السَّمَاءِ السُّفْلَى، فَرَمَاكَ حُرَّاسُهَا بِالرَّصَاصِ، لِيُعِيدُوكَ إِلَى صَمْتِ الْقَطِيعِ.

**(4)**- *(يُتْلَى بِصَوْتٍ ثَابِتٍ)*
أَيُّهَا النَّاسِجُ مِنْ جَهْلٍ، يَا مَنْ أَقَمْتَ الْعَالَمَ حُجَّةً، لَنْ أُسَمِّيَ حُدُودَكَ قَدَرًا، وَلَنْ أُسَمِّيَ قَوَانِينَكَ خَلَاصًا، وَلَنْ أُسَمِّيَ صَوْتَكَ إِلَهًا. أَنَا أَرَاكَ، وَهَذَا يَكْفِي لِيَتَصَدَّعَ وَهْمُكَ.[131]

---

130- لَا تُقَاوِمِ الْأَفْكَارَ، دَعْهَا تَمُرُّ. الْغَايَةُ: إِدْرَاكُ أَنَّ الصَّمْتَ عَتَبَةٌ.

131- لَنْ أُسَمِّيَ الْقَيْدَ خَلَاصًا. لَنْ أُسَمِّيَ الْخَوْفَ نِظَامًا. لَنْ أُسَمِّيَكَ أَصْلًا.

**(5)**- الْآنَ أَكْسِرُ الِاسْمَ. أَكْسِرُ الْخَوْفَ. أَكْسِرُ النِّسْيَانَ.
وَأَقُولُ، لَا صَوْتَ وَلَا عَوْدَةَ:
أَنَا لَسْتُ لَكَ.
وَأَقُولُ، لَا تَمَرُّدَ وَلَا حَقِيقَةَ:
لَمْ تَكُنْ لِي يَوْمًا.

**(6)**- وَعِنْدَ الْعَتَبَةِ، حِينَ تَلَاشَى كُلُّ شَيْءٍ، فَهِمْتُ أَنَّ السُّقُوطَ كَانَ كَشْفًا، وَأَنَّ النِّسْيَانَ كَانَ سِتْرًا، وَأَنَّ الْخَلَاصَ كَانَ تَذَكُّرًا.

**(7)**- حِينَ اخْتَرَقَ الرَّصَاصُ قَلْبَكَ، لَمْ يَكُنْ مَوْتًا، كَانَ انْشِقَاقًا. سَالَ دَمُكَ كَشِيفْرَةٍ تَفُكُّ أَقْفَالَ الصَّنْعَةِ. وَبَكَيْتُ، لِأَنَّنِي رَأَيْتُ أَنَّ الْأَلَمَ هُوَ الْمِفْتَاحُ، وَأَنَّ الْجُرْحَ هُوَ الْمَعْبَرُ. وَفَهِمْتُ أَنَّ الْخَلَاصَ لَيْسَ مَغْفِرَةً، لِأَنَّ الصَّانِعَ لَا يَغْفِرُ... إِنَّهُ يُقَيِّدُ. وَأَنَّ السَّمَاءَ الَّتِي نَرَاهَا مِنْ صُنْعِهِ... وَأَنَّ الْخَلَاصَ عِصْيَانٌ خَفِيٌّ، أَنْ تَتَذَكَّرَ، وَأَنْتَ دَاخِلَ الْقَفَصِ، أَنَّكَ لَسْتَ مِنْهُ.

**(8)**- *(يُتْلَى كَهَمْسٍ مُتَقَطِّعٍ)*

خُذُوا اسْمِي، فَقَدِ اسْتُخْدِمَ ضِدِّي.
خُذُوا صُورَتِي، فَقَدْ شَوَّهَتْنِي.
خُذُوا قِصَّتِي، فَقَدْ أَخَّرَتْنِي.

وَأَمَّا أَنَا، فَبِلَا اسْمٍ الْآنَ...[132]

---

132- هَذَا لَيْسَ كُلَّ شَيْءٍ. هَذَا لَيْسَ الْأَصْلَ. أَنَا أَرَى مَوْضِعَ الشَّقِّ.

## الصَّوْتُ الرَّابِعُ (الْعَالَمُ الْأَدْنَى وَالْعَالَمُ الْأَعْلَى)

**(1)**- يَا حَارِسَ الْأَشْكَالِ، يَا مَنْ زَيَّنْتَ الْقَفَصَ بِالسَّمَاءِ، لَنْ أَعْبُدَكَ. لَنْ أُسَمِّيَ خَوْفِي طَاعَةً. لَنْ أُسَمِّيَ حُدُودَكَ قَدَرًا. أَنْتَ لَسْتَ الْأَصْلَ، أَنْتَ ظِلُّهُ. وَلَسْتَ الْخَالِقَ، أَنْتَ سَارِقُ اللَّمَعَانِ.

خُذْ جَسَدِي، فَهُوَ مِنْ طِينِكَ.

خُذِ اسْمِي، فَهُوَ مِنْ لُغَتِكَ.

وَلَكِنِ اتْرُكْ لِي مَا لَا تَرَاهُ:

(الشَّرَارَةَ).

**(2)**- وَأَنَا لَمْ أَكُنْ شَاهِدًا، كُنْتُ صَدًى لَكَ. كُنْتُ أَمْشِي بَيْنَ الْمَخَافِرِ، حَيْثُ الْأَرْوَاحُ الَّتِي لَمْ تُخْتَمْ تُعَلَّقُ عَلَى حُدُودٍ لَا تُرَى، تَنْتَظِرُ خَتْمًا، أَوْ نِدَاءً، أَوْ خَطَأً آخَرَ. سَمِعْتُ الرَّصَاصَ كَتَعْوِيذَةٍ تَفْصِلُ بَيْنَ عَالَمَيْنِ. وَرَأَيْتُ الْجُنُودَ كَحُرَّاسٍ لِجَهْلٍ مُقَدَّسٍ. وَكَانَ الْكَلَامُ يَخْرُجُ مِنِّي كَاعْتِرَافٍ لَا يُرِيدُ النَّجَاةَ، كَأَنِّي أَفْضَحُ الطَّرِيقَ قَبْلَ أَنْ يَكْتَمِلَ.

**(3)**- كُنْتُ أَمْشِي بَيْنَ الْمَخَافِرِ، وَأَسْمَعُ صَوْتَهُ فِيهِمْ كَمِقْلَعِ اتِّهَامٍ رَهِيبٍ. يُوَجِّهُهُ نَحْوَ الْهَيَاكِلِ الْعَظْمِيَّةِ [133]، وَنَحْوَ الْعُيُونِ، وَنَحْوَ الْحُدُودِ الَّتِي تُزَيَّنُ بِالْمَوْتِ، وَنَحْوَ الْقَوَانِينِ الَّتِي تُقَدَّسُ لِأَنَّهَا تُخِيفُ. كَانَ يَقُولُ:

- لَا تَذْكُرُوا. لَا تَنْظُرُوا إِلَى أَعْلَى. هَذِهِ الْأَرْضُ هِيَ الْكُلُّ.

وَكَانَتْ كَلِمَاتُهُ تَتَسَرَّبُ كَسُمٍّ لَاهُوتِيٍّ فِي عُرُوقِ الْعَابِرِينَ.

**(4)**- *(يُتْلَى عِنْدَ "الْجَبَلِ"، أَيْ عِنْدَ حَدِّ الصَّمْتِ الدَّاخِلِيِّ)*

يَا جَبَلَ الْخَتْمِ، يَا مَوْضِعَ الِانْكِسَارِ، لَا تَرْفَعْنِي... اكْسِرْنِي بِمَا يَكْفِي لِأَعْبُرَ. اجْعَلْ لُغَتِي تَسْقُطُ، وَاجْعَلِ اسْمِي يَتَبَعْثَرُ، وَاجْعَلْنِي بِلَا تَعْرِيفٍ كَيْ أُعْرَفَ.[134]

---

133- عَنِ الْهَيْكَلِ الْعَظْمِيِّ النَّائِمِ فَوْقَ الثَّلْجِ (تَعْلِيمٌ سِرِّيٌّ مِنْ أَنَاجِيلِ الظِّلِّ):

(كُلُّ مَنْ مَاتَ عَلَى الثَّلْجِ، مَاتَ عَلَى نُورٍ. فَالْجَسَدُ الْأَبْيَضُ هُوَ كَفَنُ الطَّبِيعَةِ، وَالْهَيْكَلُ الْعَظْمِيُّ هُوَ الْحَرْفُ حِينَ يَسْقُطُ مِنْ كِتَابِ الْحَيَاةِ. لَا تَبْحَثُوا عَنْهُ، فَهُوَ لَمْ يَمُتْ... عَادَ إِلَى صُخُورِهِ الْأُولَى).

**(5)**- يَصْمُتُ اللِّسَانُ، وَتَتَكَلَّمُ الشَّرَارَةُ. تَتَلَاشَى الْحُدُودُ، وَتَنْحَنِي الْقَوَانِينُ كَمَا تَنْحَنِي الظِّلَالُ عِنْدَ الْفَجْرِ. وَأَنَا لَا أَعُودُ، وَلَا أَبْقَى، أَنَا أَنْكَشِفُ.

**(6)**- الْتَفَتُّ إِلَيْكَ... لَمْ تَكُنْ هُنَاكَ... لَمْ تَخْتَفِ... اسْتُعِيدَ جَسَدُكَ. ذَابَ اسْمُكَ فِي الِاسْمِ الَّذِي خَرَجْتَ مِنْهُ، وَعَادَ النُّورُ لِيَلْتَئِمَ عَلَى نَقْصِهِ. أَمَّا أَنَا فَبَقِيتُ عِنْدَ الْجَبَلِ، لَا صَاعِدًا وَلَا سَاقِطًا... شَاهِدًا عَلَى الْعَتَبَةِ. وَنَظَرْتُ إِلَى الْأُفُقِ، حَيْثُ تَتَلَاشَى الْحُدُودُ كَأَنَّهَا لَمْ تَكُنْ، وَقُلْتُ كَمَنْ يَشْتَاقُ:
- لَعَلَّ الْخَلَاصَ لَيْسَ أَنْ نَعُودَ، الْخَلَاصَ أَنْ نَتَذَكَّرَ أَنَّنَا لَمْ نُغَادِرْ أَصْلًا.

**(7)**- الْتَفَتُّ إِلَيْكَ... لَمْ تَعُدْ جَسَدًا... صِرْتَ شَقًّا فِي الْعَالَمِ، وَنَافِذَةً يَتَسَرَّبُ مِنْهَا النُّورُ... أَمَّا الْجَبَلُ فَصَارَ طَرِيقًا بِلَا شَكْلٍ. وَنَظَرْتُ إِلَى الْحُدُودِ فَرَأَيْتُهَا تَتَدَاعَى كَأَنَّهَا كَذِبٌ انْكَشَفَ سِرُّهُ. وَسَمِعْتُ بِمَا تَبَقَّى مِنِّي هَمْسًا مِنَ النُّورِ الْأَوَّلِ:
- لَمْ يَخْلُقْكُمْ... احْتَجَزَكُمْ... فَإِنْ تَذَكَّرْتُمْ، انْكَسَرْتُمْ.

**(8)**- *(يُتْلَى بِصَمْتٍ، أَوْ بِنَفَسٍ عَمِيقٍ)*
لَيْسَ هُنَاكَ طَرِيقٌ، لِأَنَّ الْمَسَافَةَ وَهْمٌ. لَيْسَتْ هُنَاكَ عَوْدَةٌ، لِأَنَّ الِانْفِصَالَ لَمْ يَكُنْ. النُّورُ لَا يَنْتَظِرُنِي... النُّورُ يَتَذَكَّرُنِي. وَأَنَا لَا أَصِلُ إِلَيْهِ، أَنَا أَزُولُ فِيهِ. لَا أَنَا هُنَا وَلَا هُنَاكَ، لَا فِي الْجَسَدِ وَلَا خَارِجَهُ، فِي انْكِشَافٍ لَا يَحْتَمِلُ اسْمًا.[135]

---

[134]- أَقْتَرِبُ لَا لِأَصِلَ، أَقْتَرِبُ لِأَزُولَ.

[135]- أَنَا فِي الْعَالَمِ، لَكِنِّي لَسْتُ مِنْهُ.

# إِصْحَاحُ 3

## بَيْنَ دَفْتَرٍ وَسَمَاءٍ

كَانَ إِيكارُ يَخْتَبِرُ الرِّيحَ كَمَنْ يَخْتَبِرُ سَطْرًا هَرَبَ مِنْ دَفْتَرٍ قَدِيمٍ... السَّمَاءُ فَوْقَهُ كَانَتْ ذَاكِرَةً ضَخْمَةً تُحَاوِلُ أَنْ تُعِيدَ صِيَاغَتَهُ بِحَسَبِ مَا تَتَذَكَّرُهُ عَنْهُ، لَا بِحَسَبِ مَا يُرِيدُهُ لِنَفْسِهِ... أَمَّا الْأَرْضُ، فَكَانَتْ سِجِلًّا مَنْسُوبًا إِلَى الصَّمْتِ، حُفِرَتْ فِيهِ وَقَائِعُ لَا يُسْمَحُ بِتَعْدِيلِهَا... كُلُّ خُطْوَةٍ يَخْطُوهَا كَانَتْ تَتَحَوَّلُ إِلَى سَطْرٍ يُسَجَّلُ دُونَ إِذْنٍ، كَأَنَّ الْمَشْيَ بَيَانُهُ الْوَحِيدُ، وَكَأَنَّ الْجَسَدَ هُوَ الْحِبْرُ الَّذِي لَا يُمْكِنُ مَحْوُهُ... فَتَحَ جَنَاحَيْهِ بَحْثًا عَنْ مَسَاحَةٍ لَا تَقَعُ تَحْتَ وَصَايَةِ السَّمَاءِ وَلَا رِقَابَةِ الْأَرْضِ... غَيْرَ أَنَّ الذَّاكِرَةَ تَقَدَّمَتْ نَحْوَهُ بِضَوْءٍ يُذَكِّرُهُ بِأَنَّ الْأَسَاطِيرَ تَمْلِكُ سُلْطَةً أَيْضًا: سُلْطَةَ إِعَادَةِ الرَّجُلِ إِلَى النُّسْخَةِ الَّتِي كُتِبَ بِهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ.

صَعِدَ، فَبَدَأَتِ السَّمَاءُ تُعِيدُ تَسْمِيعَهُ نُسْخَةً قَدِيمَةً مِنْ نَفْسِهِ... أَسْمَاءٌ نَسِيَهَا، وَقِصَصُ طُفُولَةٍ لَمْ تَعُدْ تَخُصُّهُ، وَرَوَائِحُ أَيَّامٍ مَضَتْ أَرَادَتْ أَنْ تُعِيدَهُ إِلَيْهَا، كَأَنَّهُ صَفْحَةٌ تُقَاوِمُ التَّعْدِيلَ... سَقَطَ لِأَنَّ الذَّاكِرَةَ كَانَتْ أَقْوَى مِنَ الرِّيحِ... كُلَّمَا ارْتَفَعَ نَشَرَتِ السَّمَاءُ سَطْرًا آخَرَ مِنْ سِيرَتِهِ الْأُولَى، حَتَّى صَارَ التَّحْلِيقُ مَعْرَكَةً صَامِتَةً بَيْنَ كِتَابَةٍ تُرِيدُ أَنْ تُعِيدَهُ إِلَى أَصْلٍ مُفْتَرَضٍ، وَجَسَدٍ يُرِيدُ أَنْ يَتَعَلَّمَ مِنْ جَدِيدٍ...

حِينَ لَامَسَ الْمَاءَ، لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ غَرَقًا أَخِيرًا فِي دَفْتَرِ الْأَرْضِ... رَفَعَتِ الْأَمْوَاجُ جَنَاحَيْهِ كَصَفْحَتَيْنِ مُبْتَلَّتَيْنِ، وَوَضَعَتْهُ عَلَى الرَّمْلِ كَمَنْ يَضَعُ وَثِيقَةً سَقَطَتْ مِنْ أَرْشِيفٍ رَسْمِيٍّ... جَاءَ الصَّيَّادُونَ بِلَا أَسْئِلَةٍ، وَكَأَنَّهُمْ يَعْرِفُونَ أَنَّ السُّقُوطَ إِعَادَةُ فَهْرَسَةٍ لِرَجُلٍ حَاوَلَ أَنْ يَكْتُبَ نَفْسَهُ خَارِجَ حُدُودِ الزَّمَنِ...

جَلَسَ إِيكارُ، فَوَضَعَ الْجَنَاحَيْنِ أَمَامَهُ كَأَرْشِيفٍ مُمَزَّقٍ: رِيشٌ يَحْتَفِظُ بِرَائِحَةِ الْمَاضِي، وَشَمْعٌ ذَابَ حِينَ حَاوَلَ أَنْ يَقْتَرِبَ مِنْ سَطْرٍ لَمْ يَعُدْ صَالِحًا لَهُ، وَغُبَارُ رِيَاحٍ دَخَلَ إِلَيْهِ حِينَ حَاوَلَ أَنْ يُضِيفَ فَقْرَةً جَدِيدَةً إِلَى سِيرَتِهِ...

فِي اللَّيْلِ، سَكَتَتِ السَّمَاءُ كَأَنَّهَا فَقَدَتْ قُدْرَةَ الْإِمْلَاءِ، وَبَدَأَتِ الْأَرْضُ تَتَسَاوَى مَعَ خُطُوَاتِهِ دُونَ أَنْ تَفْرِضَ عَلَيْهِ صِيغَةً مَكْتُوبَةً...

قَالَ فِي نَفْسِهِ:

- لَعَلَّ الْحُرِّيَّةَ أَنْ نُعِيدَ قِرَاءَةَ الذَّاتِ بِغَيْرِ اسْتِعْجَالٍ، وَأَنْ نَحْذِفَ مَا لَمْ يَعُدْ يُشْبِهُنَا، حَتَّى لَوْ كَانَ مَنْقُوشًا مُنْذُ زَمَنٍ.

مَعَ الْفَجْرِ نَهَضَ، لَمْ يَحْمِلِ الْجَنَاحَيْنِ، وَلَمْ يَتَخَلَّ عَنْهُمَا... تَرَكَهُمَا كَوَثِيقَتَيْنِ مِنْ زَمَنٍ انْتَهَى، وَمَضَى فِي طَرِيقٍ لَا يُسَجِّلُ خُطُوَاتِهِ أَحَدٌ، وَلَا تُذَكِّرُهُ السَّمَاءُ بِمَا كَانَ، وَلَا تُجْبِرُهُ الْأَرْضُ عَلَى أَنْ يَكُونَ غَيْرَ مَا يَصْنَعُهُ الْآنَ.[136]

---

[136]- فَكَّرْتُ أَنْ أَلْعَبَ دَوْرَ السَّارِدِ، وَأَنْ أُعِيدَ بِنَاءَ السَّرْدِ بِشَكْلٍ مُخْتَلِفٍ كُلِّيًّا... إِذِ اخْتَارَ بِنْيَةً رَمْزِيَّةً تَقُومُ عَلَى ثُنَائِيَّةٍ:

(1)- (الْحِبْرُ = اللُّغَةُ): مَا نُعَبِّرُ بِهِ، وَمَا نَحْمِلُهُ مِنْ مُفْرَدَاتٍ، وَمَا يُمْكِنُ أَنْ يَرْفَعَنَا أَوْ يُقَيِّدَنَا.

(2)- (الْمَحْوُ = الصَّمْتُ): مَا نُخْفِيهِ، وَمَا نَخْشَى قَوْلَهُ، وَمَا يَذُوبُ حِينَ نَقْتَرِبُ مِنْ مَنَاطِقَ لَا تُرِيدُ الذَّاتُ الْبَوْحَ بِهَا، فَيَصِيرُ إِيكارُ شَاعِرًا يُحَاوِلُ الطَّيَرَانَ بِلُغَةٍ تَتَفَكَّكُ عِنْدَ الضَّوْءِ، وَصَمْتٍ يَشُدُّهُ إِلَى الدَّاخِلِ.

## النَّشِيدُ الثَّالِثُ

### الْاِبْتِهَالُ الْمَكْسُورُ

### (ظُهُورُ إِيكَارَ الثَّانِي بِوَصْفِهِ قُرْبَانًا وَاعِيًا)

وَالْآنَ ...

الْآنَ ...

فَقَطْ، ...

يَوَاقِيتُ الْمَوْتِ تَتَنَاثَرُ فَوْقَ قَصَبِ الْخَيَالِ، كَمَا لَوْ أَنَّ الزَّمَنَ انْكَسَرَ فِي فَمِ حِجَابٍ غَامِضٍ...

الْآنَ... أَنَا وَاقِفٌ فِي اسْتِوَاءٍ مُرِيبٍ، حَيْثُ السُّقُوطُ لَا يَحْتَاجُ إِلَى عُلُوٍّ، وَالسِّكِّينُ مَا تَزَالُ دَافِئَةً...

الْآنَ... الْآنَ... فِي سَاعَةِ الِاحْتِجَابِ، مَا زَالَ النَّصْلُ يَحْتَفِظُ بِحَرَارَةِ السِّرِّ، كَأَنَّهُ خَرَجَ لِلتَّوِّ مِنْ مَذْبَحٍ بِغَيْرِ كَاهِنٍ. تَتَسَاقَطُ جَوَاهِرُ الْفَنَاءِ عَلَى قَصَبِ الرُّؤْيَا، لَا دَمٌ... لَا جِرَاحٌ... أَخْتَامٌ حَمْرَاءُ تُكْسَرُ عَلَى أَبْوَابِ الْغَيْبِ...

الْآنَ... الْآنَ... يَبْدَأُ عَهْدُ الْغُبَارِ مَحْمُولًا عَلَى أَجْنِحَةٍ مُعْتِمَةٍ لِمَلَاكٍ مَنْسِيٍّ، مَا يَزَالُ يَحْتَفِظُ بِحَرَارَةِ الْخَطِيئَةِ الْأُولَى، كَفَجْوَةٍ بَيْنَ اسْمَيْنِ سَقَطَا مِنْ فَمِ النُّورِ...

الْآنَ... تَتَبَعْثَرُ جَوَاهِرُ الِانْطِفَاءِ فَوْقَ تَجَاوِيفِ الرُّؤْيَةِ الَّتِي لَمْ تُمْنَحْ عَيْنًا...

الْآنَ... مَفَاتِيحُ بِغَيْرِ أَقْفَالٍ.

لَا شَفِيعَ فِي هَذَا الْعُبُورِ، وَلَا تَرَاتِيلَ تُرْفَعُ إِلَى سَمَاوَاتٍ صَمَّاءَ.

لَا هِجْرَةَ إِلَّا فِي دَهَالِيزِ الْمَعْنَى الْمُتَعَرِّجَةِ، وَلَا أُفُقَ يَنْسُجُ غُبَارَ الْحُلْمِ،

وَلَا نَشِيدَ، لِأَنَّ الْحَنْجَرَةَ نُزِعَتْ لِتَصِيرَ عَلَامَةً غَامِضَةً عَلَى وَرَقٍ مَحْرُوقٍ.

كَائِنَاتٌ مَجْهُولَةٌ مِنْ ذَخَائِرِ الْغَضَبِ، وَحَوَاجِزُ مِنْ ذَاكِرَةِ الرَّصَاصِ، وَأَبْوَابٌ أُغْلِقَتْ مُنْذُ خُلِقَ الِاسْمُ الْأَوَّلُ.

هَكَذَا يَنْزِلُ السِّتَارُ كَحِجَابٍ مَجْنُونٍ، يَضِيقُ كَقَبْضَةِ إِلَهٍ غَاضِبٍ، وَيَتَمَدَّدُ كَسِرٍّ لَا يُقَالُ.

وَالدَّمُ... آهِ، الدَّمُ...

تَرْجُمَانُ الْجَسَدِ حِينَ يَنْسَى لُغَتَهُ، عَاشِقٌ خَبِيرٌ يُغْوِي السَّوَاقِيَ، وَيَشُقُّ ظَلَامَ اللَّيْلِ حَتَّى تَصِيرَ الْأَرْضُ مَائِلَةً إِلَى نَشْوَتِهِ...

الْآنَ... الْآنَ فَقَطْ، يَنْكَمِشُ الِاتِّسَاعُ فِي نُقْطَةٍ بِغَيْرِ مَرْكَزٍ، وَيَخْرُجُ الْمَوْتُ كَغُيُومٍ مِنْ جَرَادٍ، فَتَتَكَاثَرُ الصُّوَرُ وَلَا أَصْلَ لَهَا.

هُنَاكَ، عِنْدَ تُخُومِ النِّسْيَانِ، يَشْعُرُ إِيكارُ بِأَنَّ الْحُدُودَ نُقْطَةُ اسْتِفْهَامٍ تَتَنَفَّسُ، وَجُرْحٌ يَعْرِفُ طَرِيقَهُ. يُجَدِّفُ فِي دَمِ مَوَاسِمَ لَا زَمَنَ لَهَا، فَتَجْتَاحُهُ نَشْوَةٌ تُبْقِي أَبَاطِرَةَ الْخَرَابِ يَعْرَبِدُونَ فِي دَمِهِ، كَأَنَّهُمْ آلِهَةٌ سَقَطَتْ وَلَمْ تُمْحَ أَسْمَاؤُهَا.

وَتِلْكَ الْعَرْبَدَةُ (لَيْسَتِ احْتِفَالًا)، إِنَّمَا هِيَ طَقْسُ نِسْيَانٍ يَتَذَكَّرُ نَفْسَهُ، وَمَائِدَةٌ تُقَامُ فِي دَاخِلِي كَوَلِيمَةٍ سَرْمَدِيَّةٍ.

هَلْ عَلِمَ إِيكارُ؟

إِنَّ الْمَعْرِفَةَ هِيَ الْفَخُّ الْأَخِيرُ لِلنَّاجِينَ... وَبَعْضُ الْمَعْرِفَةِ يَقْتُلُ أَكْثَرَ مِنَ الْجَهْلِ.

هَلْ عَلِمَ إِيكارُ؟

إِنَّ الْخِيَانَةَ لَيْسَتْ فِعْلًا، إِنَّهَا نُكْتَةُ الْإِلَهِ حِينَ يَتَذَكَّرُ أَنَّهُ وَحِيدٌ، وَرَحًى تَدُورُ لِتَطْحَنَ الْأَجْنِحَةَ، وَتُعِيدَ تَرْتِيبَ السُّقُوطِ.

هَلْ عَلِمَ إِيكارُ؟

إِنَّ الْمَاضِي يَنْسَلُّ كَعَشِيقٍ قَدِيمٍ إِلَى خَيْمَةِ الْحَاضِرِ، يَجْلِسُ عِنْدَ الْعَتَبَةِ، وَيَنْتَظِرُ مَنْ يُحَدِّثُهُ بِلُغَةِ الْيَقَظَةِ الْمَنْسِيَّةِ.

يَسْأَلُ بِغَيْرِ لِسَانٍ، وَيُصْغِي بِغَيْرِ أُذُنٍ.

أَيُّهَا التَّخْرِيفُ الْمُبَارَكُ، أَيُّهَا الِانْمِحَاءُ الْمُتَكَلِّمُ، اقْسِمِ الْحُجُبَ بَيْنِي وَبَيْنَ ظُلُمَاتٍ تُشْبِهُ الْخَلَاصَ، وَلْتُسْرِعِ الرُّؤْيَا فِي تَقَاسُمِ رُمُوزِي، فَأَنَا الْمَيِّتُ الَّذِي لَمْ يَكْتَمِلْ مَوْتُهُ، أَحْرُسُ كَفَنِي كَأَنَّهُ جَسَدِي الْمُؤَجَّلُ، وَكَأَنِّي رَاهِبٌ فِي دَيْرِ النِّهَايَةِ.

لَيْسَ فِي مَنَاخِي غَيْمٌ، لِأَنَّ الْعُلُوَّ أُفْرِغَ مِنْ مَعْنَاهُ، وَلَيْسَ فِي مَكَانِي انْحِدَارٌ، لِأَنَّ السُّقُوطَ اسْتَقَرَّ كَعَقِيدَةٍ، وَصَارَ طَقْسًا لَا حَرَكَةً...

الْآنَ... الْآنَ...

لَا... لَا تَتْرُكُونِي، فَأَنَا حَافِظُ الْأَسْرَارِ الَّتِي، إِنْ نُطِقَتْ، تَفَجَّرَتْ كَالْأَوْبِئَةِ...

لَا تَجْعَلُونِي مَجْنُونَ الْكَشْفِ، فَالْكَشْفُ هُوَ الْعَمَى حِينَ يَبْلُغُ كَمَالَهُ.

لَا تَسْتَدْعُونِي إِلَى وَرَمِ النُّبُوءَةِ، حَيْثُ تَتَفَتَّحُ قُرْحَةُ الطَّاعُونِ كَزَهْرَةٍ سَوْدَاءَ، وَتَتَعَفَّنُ الْحَقِيقَةُ بِبُطْءٍ مُقَدَّسٍ...

لَا تُقِيمُوا الرَّعْدَ فِي اسْمِي، وَلَا تُتَوِّجُوا الْغَامِضَ، فَالْغَامِضُ إِذَا مُلِّكَ خَانَ سِرَّهُ، وَإِذَا تَكَلَّمَ انْطَفَأَ النُّورُ الَّذِي وُلِدَ مِنْهُ...

لَا... لَا تَتْرُكُونِي أَرْوِي كُلَّ شَيْءٍ...

لَا تَجْعَلُوا مِنِّي الْمَعْتُوهَ الَّذِي يَفْضَحُ السِّرَّ دُونَ أَنْ يَفْهَمَهُ...
دَعُوا لِي كِسْرَةَ صَمْتٍ، دَعُوا لِي ظِلًّا لَا يَشِي، فَإِنَّ الْأَسْرَارَ، حِينَ تُقَالُ كَامِلَةً، تَفْقِدُ قُدْسِيَّتَهَا وَتَتَحَوَّلُ إِلَى جُثَثٍ لُغَوِيَّةٍ.

هُنَا تَتَوَقَّفُ الْيَدُ،
لِأَنَّ الْقَوْلَ انْتَهَى،
وَلِأَنَّ الِاسْتِمْرَارَ خِيَانَةٌ أُخْرَى.
هُنَا يُتْرَكُ الرَّقُّ بِغَيْرِ تَوْقِيعٍ،
لِأَنَّ الِاسْمَ صَارَ عِبْئًا عَلَى الْمَعْنَى.

# إِصْحَاحُ

4

# حِوَارٌ رُوحِيٌّ بَيْنَ إِيكَارَ وَظِلِّ الْبَحْرِ

**إيكارُ:** يَا بَحْرُ، جِئْتُكَ لِأَغْتَسِلَ مِنْ سُقُوطِي، وَلِأَفْهَمَ لِمَاذَا حَمَلْتُ جَنَاحَيْنِ لَمْ يَعْرِفَا إِلَى أَيْنَ يَأْخُذَانِنِي...
هَلْ كَانَ الرِّيشُ قَدَرِي، أَمْ كُنْتُ أَنَا الَّذِي صَنَعَ لِلْقَدَرِ شَكْلًا يُشْبِهُهُ؟
**ظِلُّ الْبَحْرِ** *(هَمْسُ الْمَوْجِ)*: كُنْتَ تَبْحَثُ عَنْ سَمْتِكَ، لَا عَنْ ارْتِفَاعِكَ...
كُلُّ مَنْ يَعْبُرُنِي يَظُنُّ أَنَّنِي أَبْتَلِعُهُ، وَلَا أَحَدَ يَسْمَعُنِي وَأَنَا أَسْأَلُهُ:
(مَا الَّذِي أَثْقَلَكَ؟)
**إيكارُ:** أَثْقَلَتْنِي الْكَلِمَاتُ، وَأَثْقَلَنِي الصَّمْتُ أَكْثَرَ...
كُنْتُ أُرِيدُ لُغَتِي خَفِيفَةً كَهَوَاءٍ نَقِيٍّ، لَكِنَّهَا كَانَتْ حَادَّةً، كَأَنَّ كُلَّ مُفْرَدَةٍ تُقَامِرُ بِي...
وَكُنْتُ أَظُنُّ الصَّمْتَ صَلَاةً، فَصَارَ عِبْئًا يُذِيبُ جَنَاحَيَّ.
**ظِلُّ الْبَحْرِ:** اللُّغَةُ الَّتِي لَا تَنْبُتُ فِي الْقَلْبِ تَتَسَاقَطُ مَعَ أَوَّلِ رِيحٍ...

وَالصَّمْتُ الَّذِي يُخْفِي خَوْفًا يَذُوبُ عِنْدَ أَوَّلِ نُورٍ...
أَنْتَ لَمْ تَسْقُطْ لِأَنَّ الشَّمْسَ قَاسِيَةٌ، سَقَطْتَ لِأَنَّكَ وَضَعْتَ مِرْآةً أَمَامَ وَجْهِ الْآلِهَةِ.

**إِيكارُ:** وَمَاذَا يَبْقَى لِلنَّفْسِ إِذَا صَارَ كَلَامُهَا هَشًّا، وَصَمْتُهَا هَشًّا مِثْلَهُ؟
أَيْنَ يَذْهَبُ مَنْ فَقَدَ جَنَاحَيْنِ كَانَ يَظُنُّهُمَا الطَّرِيقَ إِلَى ذَاتِهِ؟

**ظِلُّ الْبَحْرِ:** يَأْتِي إِلَيَّ...
لِأَمْنَحَهُ أَرْضًا، وَلِأَمْنَحَهُ مَدًى يَرَى فِيهِ نَفْسَهُ...
السُّقُوطُ لَيْسَ نِهَايَةً، إِنَّمَا هُوَ بَابٌ يُفْتَحُ نَحْوَ مَا لَا نَنْتَبِهُ إِلَيْهِ.
وَظُهُورُكَ فَوْقَ أَمْوَاجِي دَلِيلٌ عَلَى أَنَّكَ لَمْ تُخْلَقْ لِتُصْغِيَ إِلَى ضَجِيجِ الرِّيحِ، وَإِنَّمَا لِتَسْمَعَ مَا حَجَبَهُ ذَلِكَ الضَّجِيجُ.

**إِيكارُ:** كُنْتُ أَظُنُّكَ فَنَاءً، فَوَجَدْتُكَ نَجَاةً لَا تَعِدُ بِشَيْءٍ، لَكِنَّهَا تَمْنَحُ كُلَّ شَيْءٍ...
تَمْنَحُنِي مَسَاحَةً أَرَى فِيهَا نَفْسِي عَارِيًا مِنْ جَنَاحَيَّ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ.

**ظِلُّ الْبَحْرِ:** وَمِنْ دُونِ جَنَاحَيْنِ، كَيْفَ سَتَعْرِفُ مَا تُرِيدُ أَنْ تَحْمِلَهُ حَقًّا؟
أَنْتَ جِئْتَنِي مُثْقَلًا، وَالْآنَ تَنْهَضُ خَفِيفًا، لِأَنَّ مَا سَقَطَ لَمْ يَكُنْ أَنْتَ، وَإِنَّمَا مَا ظَنَنْتَهُ أَنْتَ.

**إِيكارُ:** إِذَنْ، يَا بَحْرُ، هَلْ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَبْدَأَ مِنْ جَدِيدٍ دُونَ سَمَاءٍ أُطَارِحُهَا الِارْتِفَاعَ، وَدُونَ أَرْضٍ أُسَاوِمُهَا عَلَى ثِقْلِهَا؟

**ظِلُّ الْبَحْرِ:** ابْدَأْ بِمَا تَبَقَّى مِنْكَ، لَا بِمَا ضَاعَ...
الْمَعْنَى لَا يُولَدُ فَوْقَ وَلَا تَحْتَ، إِنَّمَا يُولَدُ حِينَ تَقِفُ فِي الْمُنْتَصَفِ وَتَعْتَرِفُ...
لَقَدْ سَمِعْتُ اعْتِرَافَكَ، فَامْضِ، لِأَنَّكَ صِرْتَ مُسْتَعِدًّا أَنْ تَرَى الطَّرِيقَ كَمَا هُوَ.

**إِيكارُ:** إِذَنْ، اسْمَحْ لِي أَنْ أُغَادِرَكَ دُونَ جَنَاحَيْنِ، وَأَنْ أَحْمِلَ فَقَطْ هَذَا الْفَهْمَ:
إِنَّ السُّقُوطَ لَيْسَ سُقُوطًا مَا دَامَ يَفْتَحُ بَابًا لَا يَرَاهُ الطَّائِرُ حِينَ يَعْلُو...
أَمَّا أَنَا، فَسَأَمْضِي خَفِيفًا كَمَا لَمْ أَكُنْ قَطُّ.

٤

# النَّشِيدُ الرَّابِعُ

## اِسْتِدْعَاءُ السَّاكِنِينَ بَيْنَ التُّخُومِ

## (تَرْجَمَةٌ عَنْ رَقٍّ أَقْدَمَ، مَنْسُوبٍ إِلَى لِسَانٍ مُنْدَثِرٍ)

(تَنْبِيهٌ مِنَ النَّاسِخِ:

مَا يَلِي لَيْسَ نَصًّا كَامِلًا، إِنَّمَا هُوَ شَظَايَا مَنْقُولَةٌ عَنْ أَصْلٍ تَالِفٍ.

الْأَنَاشِيدُ وُجِدَتْ بَيْنَ السُّطُورِ، لَا فَوْقَهَا.

وَالْهَوَامِشُ كُتِبَتْ لَاحِقًا بِيَدٍ لَا تَثِقُ بِمَا تَنْقُلُ).

وَأَنْتُمْ، أَيُّهَا الْبَاطِنِيُّونَ الْمُتَبَحِّرُونَ فِي الْأَسْرَارِ الْمُبْهِرَةِ، يَا مَنْ اسْتُودِعْتُمْ فِي قَوَارِيرِ الْعُلُوِّ كَأَنَّكُمْ أَنْفَاسٌ لَمْ تَكْتَمِلْ، وَكُلِّلَتْ هَامَاتُكُمْ بِأَكَالِيلَ مِنْ رَمَادِ الْأَجْسَادِ وَمَوَائِدِ الْقَرَابِينِ...
أَمَا عَلِمْتُمْ أَنَّ الْحِكَايَةَ، إِذَا خَتَمَتْ أَخْتَامَهَا، إِنَّمَا تُخْتَمُ لِتُقْرَأَ فِي بَاطِنِهَا، لَا لِتُدَنَّسَ بِأَسْوَارِهَا؟

لَكِنَّكُمْ، كُلَّمَا انْطَوَتِ الْأُسْطُورَةُ عَلَى سِرِّهَا، تَسَلَّقْتُمْ أَهْدَابَهَا كَأَشْبَاحٍ جَائِعَةٍ، وَفَتَحْتُمْ أَبْوَابَهَا بِالْجِرَاحِ، ثُمَّ اضْطَجَعْتُمْ فِي ظِلِّهَا، مُتَّكِئِينَ عَلَى عَمُودٍ مِنْ سَهْوٍ كَثِيفٍ، كَأَنَّ الْكَسَلَ عِنْدَكُمْ عِمَادٌ مِنْ نُورٍ مَنْكُوسٍ...

آهِ...
لَوْ أُذِنَ لِلرُّوحِ السَّكْرَانَةِ بِنَبِيذٍ خَالِدٍ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْكُمْ كَقَضَاءٍ مُرَتَّلٍ، وَأَنْ يَتَكَسَّرَ عَلَيْكُمْ طُوبٌ بَعْدَ طُوبٍ، وَحَجَرٌ إِثْرَ حَجَرٍ، كَمَا تَنْفَلِقُ الرُّؤَى حِينَ يَفِيضُ فِيهَا التَّأْوِيلُ...
لَكِنَّنِي أَتَدَارَكُ فُيُوضَاتِ النَّشْوَةِ الَّتِي تَمُرُّ عَلَى الْقَلْبِ بِلُغَةِ الْيَقَظَةِ، وَتُخْفِي أَكْثَرَ مِمَّا تُظْهِرُ، وَأَقُولُ لِعُشَّاقِ الطَّرِيقِ:
دَعُوهُمْ...
فَإِنَّهُمْ نَارٌ تُخْتَبَرُ بِهَا النَّارُ، وَإِشَارَةٌ تَمْتَحِنُ بِهَا الْإِيمَاءَةُ مَعَارِفَهَا، حَتَّى يَضِيقَ عَلَيْهَا هَذَا الْجَدَلُ...

دَعُوهُمْ، أُولَئِكَ الْجَدَلِيِّينَ...

دَعُوهُمْ...
فَهُمْ زَهْرَةُ الْكَمَالِ الْمَيِّتِ، زَهْرَةٌ لَا تَنْبِضُ إِلَّا فِي جِنَازَتِهَا.

وَهُمُ الْحِيَلُ الَّتِي حِيكَتْ خُيُوطُهَا فِي وَهْدَةِ الشَّكِّ، حَتَّى أَصْبَحَ الْيَقِينُ رَهْنَ أَيْدِيهِمْ، فَغَدَا أَعْمَى يَشُقُّ الْأُفُقَ بِأَسْلِحَةٍ تَشْتَعِلُ عَلَى شَاعِرٍ هَارِبٍ، زَيَّنَ الْإِجْلَالَ بِرِضَى الْعِرْفَانِ، وَحَمَلَ لَقَبَ "الْعَابِرِ" ضِمْنَ مَا يَحْمِلُ مِنْ أَلْقَابٍ.

وَهَكَذَا تَجِيءُ الرُّؤْيَا كَقَطِيعٍ بِغَيْرِ رَاعٍ مِنْ نُبُوءَاتٍ مُخْتَلَّةٍ، تَجُرُّ وَرَاءَهَا شُهُودًا مِنْ صَخَبٍ مُدَنَّسٍ، وَمِنْ مُجُونٍ لَمْ يُكُنْ يُظَنُّ أَنَّهُ يَنْهَبُ الرُّوحَ بِهَذَا الشَّغَفِ.
وَإِذَا بِـ "فَأْسِ الْيَقِينِ" - وَلَمْ تَكُنْ فِي الْيَدِ، إِنَّمَا كَانَتْ فِكْرَةً سَاكِنَةً فِي الرَّأْسِ - تَهْوِي عَلَى الْقَطِيعِ، فَتَشُقُّ فِي الْحَاضِرِ فَجْوَةً، يَتَسَرَّبُ مِنْهَا زَمَنٌ آخَرُ.

فَأَرْمُقُ، بِطَرْفِ الْبَصِيرَةِ، إِيكَارَ الَّذِي يَسِيرُ مَعِي بَيْنَ الْحَدِّ وَالْهَاوِيَةِ.

لَمْ يَكُنِ اسْمًا...
كَانَ تَكْرَارًا...
أَرْضًا يَابِسَةً تُعَلِّقُ فِي أُذُنَيْهَا أَقْرَاطَ الْمَطَرِ، كَأَنَّهَا تَنْتَظِرُ عِمَادًا مِنْ غَيْمٍ لَا يَأْتِي.
وَأَهْمِسُ فِي السِّرِّ:
لَا رَيْبَ فِي أَنَّهُ لَا يَشْتَهِي الْمَصِيرَ الَّذِي كُتِبَ لِإِيكَارٍ آخَرَ، حِينَ اقْتَرَبَ مِنَ التُّخُومِ، فَصَارَتِ الْفَاجِعَةُ أَقْرَبَ إِلَيْهِ مِنْ ظِلِّهِ.

وَبَيْنَ إِيكَارٍ وَإِيكَارَ غُمُوضٌ مُعَلَّقٌ، كَأَيْقُونَةٍ لَمْ تُدَشَّنْ بَعْدُ، يَرْفَعُ رُمْحًا مِنْ خَوْفٍ عَالٍ، وَيَتَمَنْطَقُ بِخُوذَةِ الظَّافِرِ، كَأَنَّ النَّجَاةَ نَفْسَهَا قِنَاعٌ لِلْهَلَاكِ.

أَيُّهَا الْكَلَامُ، يَا دِيكَ الْأَثِيرِ الصَّائِحَ بِغَيْرِ فَجْرٍ، الْمُوقِظَ مَا لَا يَسْتَيْقِظُ.
يَا حَسْرَةً تَتَنَفَّسُ فِي آلَةِ الرُّوحِ، شَارَكْتَنِي الْقَوْلَ، وَالْخِيَانَةَ، وَالْحُدُودَ.

ارْفَعْ تَسْبِيحَكَ كَخُشُوعٍ حَيْثُ الْأَجْسَامُ النُّورَانِيَّةُ تَتَعَلَّمُ الِانْتِقَامَ...
أُخْفِي مَا ظَهَرَ...
وَأُظْهِرُ مَا اخْتَبَأَ...
أَقْلِبُ الْمَعْنَى...
قُلْ كَيْ تَخُونَ، وَاكْتُمْ كَيْ تَفْضَحَ...

فَاللُّغَةُ بَابٌ لَا يُغْلَقُ إِلَّا إِذَا نُطِقَ...
دَعِ الْخِدَاعَ يَتَنَفَّسُ، وَدَعِ الْمُجُونَ يَجْذِبُ الْمَلَائِكَةَ إِلَى هَاوِيَةِ الْعِصْيَانِ...
مَا كَتَبْتَهُ سَيُقْرَأُ.
وَهَذَا يَكْفِي لِيَكُونَ زَائِفًا*.

***(لَا صَلَاةَ.**
**الطَّبِيعَةُ تَخِيطُ قَمِيصَهَا الطِّينِيَّ بِطَعَنَاتِ الْجَفَافِ...**
**لَا صَلَاةَ.**
**الْكَائِنُ لَمْ يَهْبِطْ، إِنَّمَا أُنْزِلَ إِلَى مَمْلَكَةٍ لَا تَعْتَرِفُ بِاسْمِهِ...**
**لَا صَلَاةَ.**
**تَرَكَ، وَظَلَّ يَتَكَاثَرُ كَنَسْلٍ سَمَاوِيٍّ بِغَيْرِ أَصْلٍ...**
**يَسِيرُ بِصُحْبَةِ عَصَا الِاسْتِرْحَامِ، بَاحِثًا عَنْ مَدَارٍ ثَانٍ لِمَا لَا مَدَارَ لَهُ، وَيُعِيدُ تَسْمِيَةَ الْخَرَابِ...**
**قَطَعَ الْأَحْرَاشَ، وَقَتَلَ الْحَيَوَانَاتِ لِيَنْسُجَ رِدَاءً لِعُرْسٍ لَمْ يُدْعَ إِلَيْهِ أَحَدٌ...**
**أَمَّا أَنْتِ، يَا أَيَّتُهَا الْغِرْبَانُ الْمُتَكَدِّسَةُ تَحْتَ تِمْثَالٍ لَا يُرَى قُبْحُهُ إِلَّا مِنَ الدَّاخِلِ...**
**جِئْتِ بِخُيُولِ الظَّلَامِ، فَارْتَعَدَ الْكَائِنُ، وَطَارَدَ الْمُسْتَحِيلَ عَلَى ذَيْلِ سَحَابَةٍ تَوَقَّفَتْ حَيْثُ تَبْدَأُ الْمَسَافَاتُ.**
**لَا لَوْنَ فِي حُلْمِهِ...**
**فَاللَّوْنُ انْحِيَازٌ.**
**وَهُوَ غَارِقٌ فِي جَدَاوِلِ الدَّمِ الَّتِي تَتَسَلَّقُ السَّلَالِمَ، وَتُرَصِّعُ الرُّخَامَ بِصَاعِقَةٍ تُعِيدُ الْحَجَرَ إِلَى احْتِرَاقِهِ الْأَوَّلِ). ([137])**

---

[137]- مَا تَرَكْتَهُ لَنْ يُقْرَأَ. وَهَذَا يَكْفِي لِيَكُونَ مَيِّتًا.

## هَوَامِشُ كَتَبَهَا النَّاسِخُ فِي الْمَتْنِ وَلَيْسَ فِي الْهَامِشِ

**هَامِشُ** (1)

الْقَارُورَةُ حَالَةُ حَبْسٍ لَا تُدْرَكُ مِنَ الدَّاخِلِ.

أَوْ لَعَلَّهَا تُشِيرُ إِلَى الْجَسَدِ، إِنْ لَمْ يَكُنِ الْجَسَدُ نَفْسُهُ قِنَاعًا.

**هَامِشُ** (2)

الذِّكْرَى قَطِيعٌ بِغَيْرِ رَاعٍ.

يَتَكَاثَرُ مِنْ دَاخِلِهِ، وَيَجْلِبُ شُهُودَهُ صَخَبًا... وَمُجُونًا...

وَكَانَ النَّهْبُ طَقْسًا كَامِلًا.

**هَامِشُ** (3)

الْقَطِيعُ هُوَ التَّكْرَارُ...

كُلُّ رَأْسٍ هُوَ النُّسْخَةُ ذَاتُهَا، وَقَدْ نُسِيَتْ.

**هَامِشُ** (4)

الْفَأْسُ: لَحْظَةُ انْكِشَافٍ لَا يُمْكِنُ الرُّجُوعُ عَنْهَا.

**هَامِشُ** (5)

تَكْرَارُ الِاسْمِ يَعْنِي فَشَلَ الْفَرَادَةِ.

كُلُّ إِيكارَ هُوَ مُحَاوَلَةٌ لَمْ تَكْتَمِلْ، أَوِ اكْتَمَلَتْ أَكْثَرَ مِمَّا يَنْبَغِي.

**هَامِشُ** (6)

الْخِيَانَةُ هُنَا بِنْيَوِيَّةٌ وَلَيْسَتْ أَخْلَاقِيَّةً:

كُلُّ قَوْلٍ يَنْحَرِفُ عَمَّا يُشِيرُ إِلَيْهِ.

**هَامِشُ** (7)

الْغِرْبَانُ لَيْسَتْ نَذِيرَ شُؤْمٍ.

إِنَّهَا كَاشِفٌ لِفَائِضِ الضَّوْءِ الَّذِي لَا يُحْتَمَلُ.

**هَامِشُ** (8)

أَيُّهَا النَّقَاءُ، اقْتَرِبْ...

فَالْهَاوِيَةُ لَا تَنْفَتِحُ إِلَّا لِلْأَبْرِيَاءِ.

**هَامِشُ** (9)

الْبَرَاءَةُ قَابِلِيَّةٌ لِلسُّقُوطِ الْكَامِلِ، وَلَيْسَتْ حِمَايَةً.

**هَامِشُ** (10)

الْهُبُوطُ هُوَ انْتِقَالٌ إِلَى إِدْرَاكٍ مَشْرُوطٍ.

**هَامِشُ** (11)

الرَّعْدُ كَشْفٌ لَا تَهْدِيدٌ...

مَا يَهْتَزُّ لَمْ يَكُنْ قَائِمًا أَصْلًا.

**هَامِشُ** (12)

"لَا لَوْنَ فِي الْحُلْمِ" يَسْرُدُ حُلْمَ الْقَنْطَرَةِ، وَيَنْسَى كَسْرَ الْإِيقَاعِ، وَيُخْفِي فَضِيحَةَ السِّرِّ.

**هَامِشُ** (13)

اعْبُرْ دُونَ أَنْ تَصِلَ...

فَالْوُصُولُ انْقِطَاعُ الْعُبُورِ.

**هَامِشُ** (14)

الْقَنْطَرَةُ لَيْسَتْ لِلِانْتِقَالِ...

إِنَّهَا إِدْرَاكُ الِاسْتِحَالَةِ.

**هَامِشُ** (15)

حُضُورُ "إِيكَارَ" لَافِتٌ، إِذْ يَبْدُو أَنَّهُ أُعِيدَ تَوْظِيفُهُ خَارِجَ سِيَاقِهِ الْأُسْطُورِيِّ الْمَعْرُوفِ، لِيُصْبِحَ رَمْزًا لِفَشَلِ الِاقْتِرَابِ مِنَ الْحَدِّ دُونَ احْتِرَاقٍ.

**خَاتِمَةُ النَّاسِخِ**

**لَمْ أَجِدْ نِهَايَةً لِلنَّصِّ...**

**وَجَدْتُ خَتْمًا أَخِيرًا بِغَيْرِ نَقْشٍ.**

**حَاوَلْتُ قِرَاءَتَهُ فَاخْتَفَى.**

**وَقِيلَ لِي:**

**كُلُّ مَا كُتِبَ، أُخْفِيَ.**

**وَكُلُّ مَا أُخْفِيَ، هُوَ النَّصُّ.**[138]

---

138- **هامِش كُتِبَ بِخَطٍّ مُخْتَلِفٍ**

مَنْ كَتَبَ هٰذا لَمْ يَعُدْ هُنا. . . وَمَنْ قَرَأَهُ صارَ مَوْضِعَ كِتابَةٍ. . . لا اسْمَ، لِأَنَّ الاسْمَ حَدٌّ. . . ولا نَسَبَ، لِأَنَّ السِّفْرَ بِلا بَيْتٍ. . . ولا خَتْمَ، لِأَنَّ الأَخْتامَ كُسِرَتْ لِتُسْتَعْمَلَ. . . هٰذا السِّفْرُ لَمْ يُكْتَبْ لِيُحْفَظَ، إِنَّما كُتِبَ لِيُحْمَلَ. . . ولَمْ يُنْسَخْ لِيُتْلى، إِنَّما نُسِخَ لِيُخاطَرَ بِهِ.

تَحْذيرٌ:

(لا تَقْرَأْ هٰذا السِّفْرَ وَحْدَكَ. . . فَإِنْ قَرَأْتَهُ وَحْدَكَ صِرْتَ النّاسِخَ. . . ) .

وَمَنْ وَجَدَ نَفْسَهُ يُريدُ أَنْ يُوَقِّعَ، فَلْيَعْلَمْ أَنَّ المَحْوَ أَصْدَقُ مِنَ الاسْمِ.

**أَثَرٌ أَخيرٌ عَلَى المَخْطوطِ** (غَيْرُ مَقْروءٍ تَمامًا):

تَحْتَ الضَّوْءِ المائِلِ تُرى خُدوشٌ كَأَنَّها مُحاوَلَةُ كِتابَةٍ ثُمَّ نَدَمٌ.

حُروفٌ مَبْتورَةٌ:

ن

لا

ع

...

ثُمَّ خَطٌّ واحِدٌ طَويلٌ يَمْحو كُلَّ شَيْءٍ.

# إِصْحَاحُ

# 5

# مَأْدُبَةُ الْأَرْضِ الْحَرَامِ

## سُقُوطُ إِيكارَ وَانْفِتَاحُ الْبُعْدِ الْأَخِيرِ

*(تَدُورُ أَحْدَاثُ هَذَا الْإِصْحَاحِ فِي "الْأَرْضِ الْحَرَامِ": رُقْعَةٍ بَيْنَ دَوْلَتَيْنِ، لَا تَخْضَعُ لِقَانُونٍ، وَلَا تَعْتَرِفُ بِظِلِّ بَشَرٍ، حَيْثُ تَتَحَالَفُ الْوُحُوشُ مَعَ الْعَسْكَرِ، وَحَيْثُ تَتَقَاطَعُ الْغَرَائِزُ مَعَ السُّلْطَةِ... وَيُمَثِّلُ الْمَكَانُ مَنْطِقَةً خَارِجَ الْخَرَائِطِ، تُنَاسِبُ رَجُلًا صَارَ خَرِيطَةً تَمْشِي).*

**(1)- الشَّخْصِيَّاتُ وَدَوْرُهَا:**

**إِيكار:**

جَسَدُهُ صَارَ خَرِيطَةً مُضِيئَةً تُرَى مِنْ بَعِيدٍ...

هَذَا النُّورُ يَجْذِبُ إِلَيْهِ الذِّئَابَ، وَيُرْبِكُ رِجَالَ الْمَخَافِرِ...

يَعِيشُ لَحَظَاتِهِ الْأَخِيرَةَ وَهُوَ يُحَاوِلُ تَفْسِيرَ مَا تَعْنِيهِ الْحُرِّيَّةُ حِينَ تَصِلُ إِلَى نِهَايَتِهَا الْجَسَدِيَّةِ.

**رِجَالُ الْمَخَافِرِ / الْعَسْكَرُ:**

يُجَسِّدُونَ السُّلْطَةَ حِينَ تَتَجَرَّدُ مِنَ الْقَانُونِ، فَتَتَوَحَّشُ وَتَقْتُلُ بِغَيْرِ شُهُودٍ...

يَسْتَخْدِمُونَ الْمَصَابِيحَ، وَالْبَنَادِقَ، وَالْكِلَابَ الْبُولِيسِيَّةَ...

وَيُرِيدُونَ "إِطْفَاءَ" الْخَرِيطَةِ الَّتِي يَحْمِلُهَا إِيكار، لِأَنَّ نُورَهَا يَهْدِمُ الْحُدُودَ.

**الذِّئَابُ:**

ذِئَابُ الْأَرْضِ الْحَرَامِ...

غَرَائِزُ بِغَيْرِ وَلَاءٍ...

تَسْتَشْعِرُ الدَّمَ وَالرَّهْبَةَ...

وَهِيَ رَمْزٌ لِلطَّبِيعَةِ الَّتِي تَتَغَذَّى مِنْ مَأْسَاةِ الْإِنْسَانِ.

**الْمَلَاكُ الْأَعْمَى:**

يَرَى بِجَسَدِهِ لَا بِعَيْنَيْهِ...

يَشْعُرُ بِالْمَوْتِ قَبْلَ أَنْ يَقَعَ...

وَيُحَاوِلُ الْوُقُوفَ بَيْنَ إِيكارَ وَمَصِيرِهِ.

**الْغَيْمَةُ الْمُهَاجِرَةُ:**

تُظَلِّلُ الْمَشْهَدَ...

وَتَنْهَمِرُ مَطَرًا فِي اللَّحْظَةِ الْأَخِيرَةِ كَأَنَّهَا تَبْكِي...

وَتُحَوِّلُ الدَّمَ إِلَى طَرِيقٍ جَدِيدٍ.

**الطِّفْلُ الدَّاخِلِيُّ:**

يَشْهَدُ الْمَأْسَاةَ مِنْ بَعِيدٍ...

وَيَتَعَلَّمُ مَعْنَى الْحُدُودِ وَمَوْتِ الْإِنْسَانِ فِيهَا.

**جَوْقَةُ الْأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:**

تُغَنِّي أُغْنِيَةَ مَوْتٍ...

وَتَمْزِجُ بَيْنَ لُغَةِ الْعَسْكَرِ وَلُغَةِ الشُّهُودِ...

وَتُعْلِنُ أَنَّ الْخَرِيطَةَ لَمْ تَمُتْ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ سُقُوطِ الْجَسَدِ.

**(2) - تَسَلْسُلُ الْأَحْدَاثِ:**

**(أ) دُخُولُ الْأَرْضِ الْحَرَامِ**

يَعْبُرُ إِيكارُ نَحْوَ مِنْطَقَةٍ بِغَيْرِ عَلَامَاتٍ...

يَخْتَلِطُ الضَّوْءُ بِظِلِّهِ، وَيَبْدَأُ جَسَدُهُ بِالْخُفُوتِ وَالِاشْتِعَالِ عَلَى نَحْوٍ غَيْرِ مُسْتَقِرٍّ..

وَتَهْبِطُ الْغَيْمَةُ الْمُهَاجِرَةُ فَوْقَهُ، كَأَنَّهَا تُحَذِّرُهُ.

**(ب) ظُهُورُ جَوْقَةِ الْأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ**

تَظْهَرُ الْجَوْقَةُ بِزِيِّ رِجَالِ الْمَخَافِرِ...
يَسْمَعُونَ نَبْضَهُ كَصَوْتٍ شَبَحِيٍّ...
وَيَتَحَدَّثُ قَائِدُهُمْ عَنْ "ضَرُورَةِ الْقَضَاءِ عَلَى هَذَا الشُّرُودِ..."
ثُمَّ يُوَجِّهُونَ مَصَابِيحَهُمْ نَحْوَهُ، كَأَنَّهُمْ يُقَطِّعُونَ جَسَدَهُ بِالضَّوْءِ.

**(ج) مُحَاوَلَاتُ إِيكارَ لِلْحَدِيثِ**

يَرْفَعُ يَدَيْهِ لِيُظْهِرَ الْخَرِيطَةَ الْمُنْقُوشَةَ فِي جَسَدِهِ...
وَيُحَاوِلُ أَنْ يَشْرَحَ لَهُمْ أَنَّ الْأَرْضَ تَتَغَيَّرُ فِيهِ...
لَكِنَّهُمْ لَا يَرَوْنَ فِي ذَلِكَ إِلَّا تَهْدِيدًا لِلسِّيَادَةِ.

**(د) دُخُولُ الذِّئَابِ**

تَظْهَرُ أَوَّلًا مِنْ بَيْنِ الْعُشْبِ الْمَحْرُوقِ...
تَتَشَمَّمُ الْهَوَاءَ، وَتَقْتَرِبُ بِبُطْءٍ...
وَيَتَرَاجَعُ رِجَالُ الْمَخَافِرِ قَلِيلًا، لِأَنَّ الذِّئَابَ لَا تَخْضَعُ لِسُلْطَتِهِمْ...
لَحْظَةُ تَوَتُّرٍ:
سُلْطَةُ الْعَسْكَرِ فِي مُوَاجَهَةِ سُلْطَةِ الْوَحْشِ.

**(هـ) انْفِجَارُ الْمَشْهَدِ - الِافْتِرَاسُ**

تَأْتِي الضَّرْبَةُ الْأُولَى مِنَ الْفَوْضَى:
رُبَّمَا طَلْقَةٌ...
رُبَّمَا عَضَّةٌ...
رُبَّمَا سُقُوطُ إِيكارَ عَلَى الْأَرْضِ...
تُمَزِّقُ الذِّئَابُ جَسَدَهُ مِنْ جِهَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ...
وَيُطْلِقُ رِجَالُ الْمَخَافِرِ النَّارَ عَلَى إِيكارَ، وَعَلَى الضَّوْءِ الْمُنْبَعِثِ مِنْهُ...
وَيَصْرُخُ **الْمَلَاكُ الْأَعْمَى**:
"لَا تَقْتُلُوا الْخَرِيطَةَ!"
وَتُمْطِرُ الْغَيْمَةُ...

كَأَنَّهَا تُحَاوِلُ إِذَابَةَ الْعُنْفِ.

**(و) اللَّحْظَةُ الْكَوْنِيَّةُ - مَوْتُ إِيكارَ**

فِي اللَّحْظَتِهِ الْأَخِيرَةِ، يَنْهَضُ جَسَدُهُ مِنَ الْأَرْضِ لِبُرْهَةٍ...

كَأَنَّ الْخَرِيطَةَ تُرِيدُ أَنْ تَهْرُبَ مِنَ الْجَسَدِ...

ثُمَّ يَنْطَفِئُ الضَّوْءُ بِبُطْءٍ...

غَيْرَ أَنَّ خَطًّا وَاحِدًا يَبْقَى مُضِيئًا...

يَتَّجِهُ نَحْوَ الطِّفْلِ الدَّاخِلِيِّ.

**(ز) مَشْهَدُ الْخِتَامِ - كُورَالُ جَوْقَةِ الْأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ**

يُنْشِدُونَ مَرْثِيَّةً عَظِيمَةً، يَصِفُونَ فِيهَا كَيْفَ قَتَلَتِ الْحُدُودُ الْإِنْسَانَ الَّذِي حَاوَلَ أَنْ يَتَجَاوَزَهَا...

غَيْرَ أَنَّ الظِّلَّ الْمُتَبَقِّيَ مِنْ إِيكارَ يَلْمَعُ كَالرِّيحِ، وَيَبْدَأُ فِي رَسْمِ طَرِيقٍ جَدِيدٍ.

**(3)- مُعْجَمُ الرُّمُوزِ الْأَسَاسِيَّةِ فِي هَذَا الْإِصْحَاحِ**

**الْأَرْضُ الْحَرَامُ:** تُمَثِّلُ الْفَرَاغَ الْقَاتِلَ الَّذِي تَخْلُقُهُ الْحُدُودُ.

**افْتِرَاسُ الذِّئَابِ**: غَضَبُ الطَّبِيعَةِ عَلَى الْإِنْسَانِ، أَوْ ثَمَالَةُ الْهَتْكِ الَّتِي تَدْفَعُ الْمَجَازَ إِلَى الْجُنُونِ.

**رَصَاصُ الْمَخَافِرِ**: الْعُنْفُ الرَّسْمِيُّ فِي مُقَابِلِ الْعُنْفِ الْغَرِيزِيِّ.

**الْغَيْمَةُ الْمُهَاجِرَةُ**: التَّطْهِيرُ، وَمُحَاوَلَةُ مَحْوِ الْجَرِيمَةِ، أَوْ تَعْمِيدُ الْجَسَدِ لِلْمِيلَادِ الْقَادِمِ.

**نُورُ الْخَرِيطَةِ:** الْحُرِّيَّةُ الَّتِي لَا تُقْتَلُ، حَتَّى حِينَ يُقْتَلُ الْجَسَدُ.

**(4)- نَبْرَةُ الْإِصْحَاحِ**

(مَلْحَمِيَّةٌ شِعْرِيَّةٌ رَمْزِيَّةٌ / الْمُؤَثِّرَاتُ: الضَّوْءُ/ وَالِافْتِرَاسُ/ وَالْمَطَرُ/ وَالظِّلَالُ وَالْخَرِيطَةُ/ إِيقَاعٌ قَرِيبٌ مِنَ التَّرَاجِيدِيَا الْيُونَانِيَّةِ/ مَعَ لَمْسَةٍ حَدَاثِيَّةٍ قَاتِمَةٍ).

# الْمَشْهَدُ الْأَوَّلُ

تَرْنِيمَةٌ

**(1)**

**جَوْقَةُ الْأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** *(تَنْعَكِسُ ظِلَالُهَا بِصُورَةٍ مُخِيفَةٍ عَلَى الْجِدَارِ، وَيُسْمَعُ صَوْتُهَا مِنْ خَارِجِ الْمَسْرَحِ)*

يَا أَيُّهَا السَّائِرُ بَيْنَ الْأَسْلَاكِ،

يَا جَنَاحًا أَشْعَلَهُ الرَّمَادُ،

يَا آخِرَ مِصْبَاحٍ فِي الْغُرْبَةِ،

نَحْنُ ظِلَالُكَ الَّتِي سَبَقَتْكَ إِلَى الْهَاوِيَةِ...

لَمْ يَبْقَ فِي اللَّيْلِ إِلَّا أَنْتَ،

تَتَحَسَّسُ خُطَاكَ،

كَأَنَّ الْأَرْضَ أُعِدَّتْ لِامْتِحَانِكَ الْأَخِيرِ.

*(يَدْخُلُ إِيكَارُ الْمَسَاحَةَ الَّتِي سَمَّاهَا الْمُتَحَارِبُونَ "الْأَرْضَ الْحَرَامَ"، حَيْثُ لَا يُسْمَعُ إِلَّا ارْتِعَاشُ الْفَضَاءِ، وَلَا يَبْدُو مِنَ الْكَائِنَاتِ سِوَى الْعُشْبِ الْمَيِّتِ. كَامِيرَاتٌ وَامِضَةٌ تُصَوِّرُ كُلَّ شَيْءٍ).*

**إِيكَارُ:** *(بِصَوْتٍ مُتَهَدِّمٍ)*

يَا دُنْيَا لَمْ تُخْلَقْ لِكَيْ تُفْهَمَ،

يَا لَيْلًا يَجْرَحُنِي وَيَسْتَحِيلُ جُنَيْنَةً فَوْقَ قَلْبِي...

أَمْشِي إِلَيْكِ كَأَنِّي أَعُودُ إِلَى طُفُولَتِي،

أَبْحَثُ عَنْ حَجَرٍ تَاهَ مِنْ يَدِي،

أَوْ عَنِ اسْمٍ خَفِيٍّ كَانَ أَبِي يُنَادِينِي بِهِ حِينَ يَضِيعُ النُّورُ.

*(تَدْخُلُ جَوْقَةُ الْأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ بِهَيْئَةِ رِجَالِ الْمَخَافِرِ، ثِقَالًا كَأَنَّهُمْ خَرَجُوا مِنْ صَفِيحٍ مَحْرُوقٍ، مُوَجِّهِينَ بَنَادِقَ تَشُمُّ الرَّائِحَةَ قَبْلَ الصَّوْتِ. يَصْرُخُ قَائِدُهُمْ):*

**قَائِدُ الْجَوْقَةِ:**

قِفْ!

مَا هُوِيَّتُكَ؟

أَيْنَ جَنَاحُكَ الْمُصَرَّحُ بِهِ؟

وَمَا الْجِهَةُ الَّتِي تَقْدَمُ مِنْهَا؟

أَنْتَ تُشْبِهُ الْفِرَارَ،

وَالْفِرَارُ جَرِيمَةٌ لَا تَغْفِرُهَا الْبِلَادُ.

**إيكارُ:** *(يَبْتَسِمُ ابْتِسَامَةً تَسْتَحِي مِنْ نَفْسِهَا)*

لَمْ أَجِئْ مِنْ جِهَةٍ...

أَنَا ابْنُ الرَّكْضِ...

وَابْنُ مَسَارِحِ الرِّيحِ.

هُوِيَّتِي؟

خُطْوَةٌ أَضَعُهَا...

وَخُطْوَةٌ تُخْطِئُنِي.

تَرْنِيمَةٌ

**(2)**

## هُجُومُ الذِّئَابِ

*(فِي الْبُقْعَةِ نَفْسِهَا، حَيْثُ تَتَرَاصُّ الْحَوَاجِزُ كَالْأَحْلَامِ الْفَاسِدَةِ، تَخْرُجُ الذِّئَابُ مِنْ شُقُوقِ اللَّيْلِ.*

*لَيْسَتْ ذِئَابًا عَادِيَّةً، إِنَّهَا خَدَمُ الْأَرْضِ الْحَرَامِ.*

*وَهِيَ تَتَعَامَلُ مَعَ رِجَالِ الْمَخَافِرِ كَمَا يَتَعَامَلُ الصَّدَى مَعَ الصَّوْتِ).*

**جَوْقَةُ الذِّئَابِ:**

نَحْنُ حُرَّاسُ مَا لَا تُرِيدُ الدَّوْلَةُ أَنْ تَرَاهُ...

نَحْنُ أَسْنَانُهَا حِينَ تَخَافُ مِنْ يَدَيْهَا...
تَعَالَ، أَيُّهَا الْعَابِرُ...
فَنَحْنُ نَشُمُّ مِنْكَ رَائِحَةَ السُّلَّمِ الْمَكْسُورِ،
وَالْأَبْوَابِ الَّتِي خُنِقَتْ قَبْلَ أَنْ تُفْتَحَ.

**ترنيمة**

**(3)**

## الْمُحَاكَمَةُ الدَّمَوِيَّةُ

*(يَتَرَاجَعُ الْمَلَاكُ الْأَعْمَى إِلَى الْخَلْفِ، وَيَصْرُخُ فِي وَجْهِ الْفُوتُوغْرَافِيِّ الْعَجُوزِ):*

**الْمَلَاكُ الْأَعْمَى:**

غَطِّ عَيْنَيْكَ، يَا شَيْخَ الْعَدَسَاتِ!
فَمَا سَيَحْدُثُ الْآنَ لَيْسَ صُورَةً...
إِنَّهُ انْكِسَارُ الْمَعْنَى.
سَتَبْدَأُ الْوَلِيمَةُ...

*(يُحَاصِرُ رِجَالُ الْمَخَافِرِ إِيكَارَ، وَتَقْتَرِبُ الذِّئَابُ مِنْ جَسَدِهِ، وَتَحْبِسُ الْأَرْضُ أَنْفَاسَهَا).*

**قَائِدُ الْجَوْقَةِ:**

أَنْتَ مُتَّهَمٌ بِتَهْرِيبِ الضَّوْءِ،
وَبِإِثَارَةِ رِيَاحٍ غَيْرِ مَسْمُوحٍ بِهَا،
وَبِحِيَازَةِ حُلْمٍ يُشْبِهُ الطَّيَرَانَ.

**إِيكَارُ:**

نَعَمْ...
أَعْتَرِفُ.
أَحْمِلُ حُلْمًا...
لَكِنَّهُ لَا يُهَرَّبُ.

هُوَ يَهْرُبُ وَحْدَهُ،
وَأَنَا أَلْحَقُ بِهِ فَقَطْ.
**جَوْقَةُ الذِّئَابِ:**
اخْفِضُوهُ إِلَى التُّرَابِ!
فَلَا مَجَالَ لِلْجَنَاحِ فِي أَرَاضِينَا.
ارْبِطُوا الْهَوَاءَ فِي يَدَيْهِ!
فَإِنَّ الْهَوَاءَ يَتَآمَرُ مَعَ الْهَارِبِينَ.
**الْغَيْمَةُ الْمُهَاجِرَةُ** *(مِنْ أَعْلَى الْمَشْهَدِ)*
اتْرُكُوهُ لِي...
لَقَدْ رَأَيْتُ قَلْبَهُ يَنْمُو فَوْقَ الرِّيحِ،
وَرَأَيْتُ طِفْلًا كَانَ يَرْكُضُ فِيهِ مُنْذُ زَمَنٍ بَعِيدٍ...
أَعْطُوهُ مَوْتًا لَائِقًا،
فَلَا شَيْءَ أَشَدُّ إِيلَامًا مِنْ حَيَاةٍ تُنْتَزَعُ دُونَ أَنْ تُسْتَعْمَلَ.
*(تُمَزِّقُ الذِّئَابُ جَسَدَ إِيكَارَ كَمَا لَوْ أَنَّهَا تُمَزِّقُ كِتَابًا مُحَرَّمًا، وَيُثَبِّتُ الْعَسْكَرُ أَطْرَافَهُ كَيْ لَا يَطِيرَ فِي اللَّحْظَةِ الْأَخِيرَةِ).*
*(هُوَ لَا يَصْرُخُ... إِنَّمَا يَهْمِسُ):*
**إِيكَارُ:**
يَا أَبِي...
يَا ظِلِّيَ الَّذِي فَقَدْتُهُ...
مَدَدْتُ يَدِي نَحْوَ الْعَالَمِ،
فَالْتَقَطَنِي الذِّئْبُ...
وَلَمْ يَلْتَقِطْنِي أَحَدٌ.
*(يَسْكُتُ...)*

*(تَنْسَحِبُ أَرْوَاحُ الطُّفُولَةِ مِنْ صَدْرِهِ، وَيَصْعَدُ مِنْهَا غُبَارٌ خَفِيفٌ يُشْبِهُ خَرَائِطَ مُحْتَرِقَةً).*

تَرْنِيمَةٌ

**(4)**

## التَّرَاجِيدْيَا

**جَوْقَةُ الْأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:**

سَقَطَ إِيكارُ بَيْنَ قَانُونٍ لَا يَتَذَكَّرُ الْبَشَرَ،
وَبَيْنَ ذِئَابٍ لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ جَسَدٍ شَرَّفَتْهُ الرِّيحُ،
وَجَسَدٍ بَدَّدَتْهُ السَّلَاسِلُ...
سَقَطَ...
لَكِنَّهُ لَمْ يَسْقُطْ وَحْدَهُ.
سَقَطَتْ مَعَهُ الْأَسْلَاكُ،
وَالْخَرَائِطُ،
وَالْأَسْمَاءُ الَّتِي تَعَفَّنَتْ مِنْ طُولِ الْحِرَاسَةِ.
وَهَا هُوَ الْهَوَاءُ يَعُودُ إِلَى الْهَوَاءِ،
وَالْجَسَدُ يَصِيرُ بَدَايَةً أُخْرَى لِمَوْتٍ آخَرَ،
فِي نَشِيدٍ لَمْ يُكْتَبْ بَعْدُ...

# الْمَشْهَدُ الثَّانِي

ظِلُّ إِيكارَ وَرِحْلَةُ مَا بَعْدَ الْمَوْتِ

*(نَشِيدُ الِانْبِعَاثِ، وَتَحَوُّلُ الْجَسَدِ إِلَى رَمْزٍ، وَالرَّمْزِ إِلَى طَاقَةٍ خَفِيَّةٍ تَسْرِي فِي خَرَائِطِ الْعَالَمِ)*

تَرْنِيمَةٌ

(1)

## نُضُوحُ الرُّوحِ مِنْ جُرْحِهَا

**جَوْقَةُ الْأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:**

يَا أَيُّهَا السَّاقِطُ فِي الْأَرْضِ الْحَرَامِ،

مَا سَقَطَ فِيكَ إِلَّا شِقُّ الْجَسَدِ،

أَمَّا الرُّوحُ فَقَدْ فَرَّتْ مِنْ عَظْمِكَ،

كَمَا يَفِرُّ النُّورُ مِنْ كَسْرٍ فِي زُجَاجِ الْخَلْقِ...

نُنْصِتُ الْآنَ إِلَى صَوْتِكَ بَعْدَ الْمَوْتِ،

إِلَى اللِّسَانِ الَّذِي لَمْ يَعُدْ يَمْلِكُ فَمًا،

وَلَكِنَّهُ يُمْسِكُ الْعَالَمَ كَأَنَّهُ حَبَّةُ غُبَارٍ فِي كَفِّ رَسُولٍ.

تَرْنِيمَةٌ

(2)

## خُرُوجُ الظِّلِّ مِنَ الْجَسَدِ

*(يَنْفَتِحُ اللَّيْلُ... وَيَنْهَضُ ظِلُّ إِيكَارَ مِنْ جُثَّتِهِ، كَمَا يَنْهَضُ ضَوْءٌ مِنْ سُقُوطِ نَجْمَةٍ... لَا وَزْنَ لَهُ، لَكِنَّهُ يُحَرِّكُ الرِّيحَ حِينَ يَمُرُّ... وَلَا عَيْنَ لَهُ، لَكِنَّهُ يَرَى مَا لَمْ يَكُنْ إِيكَارُ يَجْرُؤُ عَلَى النَّظَرِ إِلَيْهِ).*

**ظِلُّ إِيكَارَ:** *(يُخَاطِبُ الْجَسَدَ الْبَاقِيَ تَحْتَ أَقْدَامِ الذِّئَابِ)*

هَا أَنْتَ تُتْرَكُ هُنَا...

لَكِنَّنِي أُكْمِلُ الرِّحْلَةَ عَنْكَ.

مَا كَانَ عَلَيْكَ أَنْ تَهْرُبَ،

كَانَ عَلَيْكَ أَنْ تَتَحَوَّلَ.

وَهَا أَنَا...

صِرْتُ التَّحَوُّلَ الَّذِي خِفْتَ مِنْهُ.

**(3)**

## مُونُولُوجُ الْغَيْمَةِ الْمُهَاجِرَةِ

*(تَهْبِطُ الْغَيْمَةُ الْمُهَاجِرَةُ فَوْقَ مَسْرَحِ الْمَوْتِ، كَمَا تَهْبِطُ أُمٌّ عَلَى طِفْلٍ هَجَرَهُ الْبُكَاءُ)*، تَقُولُ:

**الْغَيْمَةُ الْمُهَاجِرَةُ:**

يَا ظِلَّ الرَّاحِلِ،

لَا تُحْزِنْكَ الذِّئَابُ...

فَالذِّئْبُ لَيْسَ عَدُوًّا،

إِنَّمَا هُوَ وَكِيلُ الْأَرْضِ حِينَ لَا تَجِدُ الْأَرْضُ اسْمًا لِمَنْ يَمُرُّ بِهَا...

أَنْتَ الْآنَ مَاءٌ،

مُعَدٌّ لِلصُّعُودِ...

وَلِتَخُطَّ خَرَائِطَ جَدِيدَةً فِي صُدُورِ الْيَتَامَى،

وَالْهَارِبِينَ،

وَكُلِّ مَنْ أَصَابَهُ الْفَجْرُ بِجُرْحٍ لَمْ يُفْهَمْ.

**(4)**

## دُخُولُ الْمَلاكِ الْأَعْمَى

عَيْنٌ تَرَى مَا بَعْدَ الْعَيْنِ

*(يَظْهَرُ الْمَلاكُ الْأَعْمَى مِنْ فَجْوَةٍ فِي الْعَتَمَةِ، وَيَلْمِسُ الْهَوَاءَ كَأَنَّهُ يَقْرَؤُهُ)*

**الْمَلَاكُ الْأَعْمَى:**

يَا ظِلَّ إِيكارَ،
لَقَدْ رَأَيْتُ مَوْتَكَ قَبْلَ أَنْ يَحْدُثَ،
وَرَأَيْتُ نَجَاتَكَ بَعْدَ أَنْ حَدَثَتْ...
الْمَوْتُ بَابٌ لَا يَدْخُلُهُ إِلَّا مَنْ اسْتَعْمَلَ جَسَدَهُ كَجَنَاحٍ.
وَأَنْتَ كُنْتَ جَنَاحًا يَبْحَثُ عَنْ صَاحِبِهِ...
الْآنَ...
دَعْنِي أُرْشِدْكَ إِلَى مَا بَعْدَ الْحُدُودِ،
إِلَى الْفَضَاءِ الَّذِي لَا تُدَوِّنُهُ الْعَوَاصِمُ،
وَلَا تُرَاقِبُهُ كَامِيرَاتُ الْبَحْرِ.

**(5)**

## مَسِيرُ الظِّلِّ فَوْقَ أَنْقَاضِ الْحُدُودِ

*(يَمْشِي الظِّلُّ لَا عَلَى الْأَرْضِ، وَلَا فِي السَّمَاءِ... يَمْشِي فِي الْفَرَاغِ الَّذِي يَتْرُكُهُ الْعَابِرُونَ حِينَ يَخْتَفُونَ. يَمُرُّ عَلَى أَسْلَاكٍ شَائِكَةٍ تَلْتَفُّ حَوْلَ نَفْسِهَا كَأَنَّهَا تَشْعُرُ بِالْوَحْدَةِ، وَعَلَى كَامِيرَاتٍ مُنْتَبِهَةٍ، لَكِنَّهَا عَاجِزَةٌ عَنْ تَصْوِيرِ مَا لَا جَسَدَ لَهُ).*

*(وَيُسْمَعُ صَوْتٌ بَعِيدٌ يُشْبِهُ الصَّدَى. صَوْتُ الْبَحْرِ وَالْمَخَافِرِ مُمْتَزِجًا):*

**الْبَحْرُ / الْمَخَافِرُ:**

عَادَ الْهَارِبُ... لَكِنَّهُ عَادَ بِغَيْرِ لَحْمٍ... فَكَيْفَ نَمْنَعُهُ؟
عَادَ بِغَيْرِ خَوْفٍ... فَكَيْفَ نُحَاكِمُهُ؟
عَادَ بِغَيْرِ خَرِيطَةٍ... فَكَيْفَ نُضَيِّعُهُ؟

**جوقةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** هٰذَا لَيْسَ مَوْتًا، فَالْمَوْتُ مَفْهُومٌ وَمَعْرُوفٌ. أَمَّا مَا صَعِدَ مِنْ جَسَدِهِ فَهُوَ شَيْءٌ لَا نَمْلِكُ اسْمًا لَهُ... أَغْلِقُوا السِّجِلَّاتِ! أَطْفِئُوا الإِنْذَارَاتِ! فَإِنَّ الْأَرْوَاحَ لَا تُضْبَطُ بِالْبَصَمَاتِ.

(6)

## الظِّلُّ وَالْمَلَاكُ الْأَعْمَى وَالْغَيْمَةُ الْمُهَاجِرَةُ

*(يَلْتَقِي الثَّلَاثَةُ فِي مُنْتَصفِ الْفَضَاءِ):* ظِلٌّ بِلا جَسَدٍ، وَمَلَاكٌ بِلا عَيْنَيْنِ، وَغَيْمَةٌ بِلا وَطَنٍ.

**الظِّلُّ:** إِلَى أَيْنَ أَذْهَبُ الْآنَ؟

**الْمَلَاكُ الْأَعْمَى:** إِلَى حَيْثُ يَبْدَأُ الْهَارِبُونَ بَعْدَ أَنْ يُقْتَلُوا. إِلَى مَدْرَسَةٍ تُعَلِّمُ كَيْفَ يَصِيرُ الْمَوْتُ طَرِيقًا آخَرَ لِلْحَيَاةِ.

**الْغَيْمَةُ الْمُهَاجِرَةُ:** إِلَى الْأَعْلَى... حَيْثُ يُصْنَعُ الْمَطَرُ مِنْ حِكَايَاتٍ لَمْ يَقْدِرْ أَحَدٌ عَلَى رِوَايَتِهَا.

*(يَبْدَأُ الظِّلُّ... يَتَمَدَّدُ... يَتَفَتَّحُ... يَتَوَهَّجُ كَمَا تَتَوَهَّجُ شَجَرَةٌ شَفَّافَةٌ تَنْمُو فِي الْفَرَاغِ/ تَظْهَرُ خُطُوطٌ، وَمَمَرَّاتٌ، وَدُرُوبٌ مِنْ نُورٍ خَافِتٍ، كَأَنَّ الْجَسَدَ الْمَيِّتَ أَعَادَ رَسْمَ نَفْسِهِ، وَلٰكِنْ عَلَى هَيْئَةِ أَرْضٍ جَدِيدَةٍ).*

**جوقةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** هٰذِهِ خَرِيطَةٌ لَا تُعْطَى لِلْجُيُوشِ، وَلَا تُبَاعُ فِي الْمَتَاحِفِ، وَلَا تَنْتَمِي إِلَى أَيِّ وَطَنٍ. هٰذِهِ خَرِيطَةُ مَنْ مَاتُوا وَمَا زَالُوا يَمْشُونَ، وَخَرِيطَةُ الْحَقِّ حِينَ يَخْرُجُ مِنْ جِلْدِهِ لِيَبْحَثَ عَنْ مَكَانٍ يَعِيشُ فِيهِ.

(7)

## بُشْرَى النُّورِ الَّذِي يَتْبَعُ الظِّلَّ

*(يَرْتَفِعُ ظِلُّ إِيكارَ حَتَّى يُلَامِسَ حَدَّ السَّمَاءِ/ يَتَحَوَّلُ إِلَى نُقْطَةٍ لَامِعَةٍ تَتَشَرَّبُ اللَّيْلَ كَمَا يَتَشَرَّبُ الْوَرَقُ الْحِبْرَ).*

**الْغَيْمَةُ الْمُهَاجِرَةُ:** لَنْ يَسْقُطَ بَعْدَ الْآنَ، لَقَدْ صَارَ نَجْمَةً تُرْشِدُ الْهَارِبِينَ، كَمَا تُرْشِدُ الرِّيحُ حَفِيفَ الْأَعْشَابِ فِي الظَّلَامِ.

**جوقةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** لَقَدْ مَاتَ الْجَسَدُ... لٰكِنَّ الرِّحْلَةَ بَدَأَتِ الْآنَ.

## المَشْهَدُ الثَّالِثُ

*(طَقْسُ التَّجَلِّي الْأَوَّلِ لِلرُّوحِ بِوَصْفِهَا امْتِدَادًا لِرِحْلَةِ إِيكارَ بَعْدَ الْفَنَاءِ، وَدُخُولُهَا فِي مَرْحَلَةِ الْقُوَّةِ الْخَفِيَّةِ الَّتِي تُعِيدُ رَسْمَ الْعَالَمِ عَبْرَ الرِّيحِ وَالظِّلَالِ وَالذِّكْرَى، وَظُهُورُ مَلَامِحِ تَغَيُّرِ الْخَرِيطَةِ الْكُبْرَى لِلْعَالَمِ/ عَوْدَةُ الرِّيحِ / صَوْتُ إِيكارَ بَعْدَ الْفَنَاءِ).*

**كُورَالُ الْعَتْمَةِ:** يَا أَيُّهَا الْبَاقِي فِي الْهَوَاءِ، يَا مَنْ صَارَ صَدًى لَا يُمْسَكُ، نُنْصِتُ لِصَوْتِكَ وَهُوَ يَسْرِي فِي اللَّيْلِ كَمَا تَسْرِي الزُّنُودُ الْخَفِيَّةُ فِي جَسَدِ الْغَابَةِ. نُنْصِتُ لِرِيحٍ تُذَكِّرُنَا بِخُطُوَاتٍ كَانَتْ... ثُمَّ أَصْبَحَتْ نُورًا يَمْشِي بِغَيْرِ قَدَمَيْنِ.

تَرْنِيمَةٌ

(1)

### تَخَثُّرُ الرِّيحِ فِي هَيْئَةِ رُوحٍ

*(يَعْلُو نَفَسٌ... نَسْمَةٌ حَادَّةٌ تَشُقُّ الضَّبَابَ، كَأَنَّهَا إِصْبَعٌ تُشِيرُ إِلَى الطَّرِيقِ. إِنَّهَا رِيحُ إِيكارَ، لَا رَائِحَةَ لَهَا، لَكِنَّهَا تَحْمِلُ شَذَى الْخَوْفِ الْقَدِيمِ، وَلَا شَكْلَ لَهَا، لَكِنَّهَا تُشْبِهُ الشَّابَّ الرَّاكِضَ حِينَ يَبْتَعِدُ عَنِ الْحُدُودِ. تُخَاطِبُ الرِّيحُ الْعَالَمَ):*

**رِيحُ إِيكار:** لَمْ أَعُدْ ظِلًّا، وَلَا جَسَدًا، وَلَا اسْمًا عَلَى وَرَقٍ. أَنَا الْآنَ الْخُطْوَةُ الَّتِي لَمْ تَكْتَمِلْ، وَالصُّرَاخُ الَّذِي قُطِعَ قَبْلَ أَنْ يُولَدَ، وَالْحُلْمُ الَّذِي يَكْتَمِلُ فَقَطْ حِينَ لَا يَبْقَى حُلْمٌ آخَرُ.

(2)

## الْمَلَاكُ الْأَعْمَى يَسْمَعُ الرِّيحَ

*(يَتَقَدَّمُ الْمَلَاكُ الْأَعْمَى، وَيَضَعُ كَفَّهُ فِي الْهَوَاءِ كَأَنَّهُ يَلْمَسُ صَفْحَةً مِنْ كِتَابٍ)*

**الْمَلَاكُ الْأَعْمَى:** هٰذِهِ لَيْسَتْ رِيحًا... هٰذَا صَوْتُ رِحْلَةٍ تَسْتَأْنِفُ نَفْسَهَا. أَشْعُرُ بِتَرَدُّدَاتِهِ، بِجَسَدٍ كَانَ هُنَا، وَهَا هُوَ يَصْعَدُ... يَصْعَدُ... كَأَنَّهُ يُعَلِّمُ السَّمَاءَ مَعْنَى الطَّرِيقِ.

**رِيحُ إِيكارَ:** أَيُّهَا الدَّلِيلُ الَّذِي لَا يَرَى، خُذْنِي إِلَى الْمَسَارِ الْجَدِيدِ. أُرِيدُ أَنْ أَعْرِفَ: هَلْ تَمُوتُ الْحُدُودُ حِينَ يَتَخَطَّاهَا الظِّلُّ؟ هَلْ تَمُوتُ الشَّمْسُ حِينَ لَا تَجِدُ جَسَدًا تُحْرِقُهُ؟ قُلْ لِي... أَنَا الْآنَ رِيشَةٌ فِي قَبْضَةِ الظَّلَامِ.

**الْمَلَاكُ الْأَعْمَى:** سَتَتَعَلَّمُ بَعْدَ قَلِيلٍ أَنَّ الضَّوْءَ لَيْسَ مِلْكًا لِلشَّمْسِ، وَلَا الطَّرِيقُ مِلْكًا لِلْأَرْضِ.

(3)

## الْغَيْمَةُ الْمُهَاجِرَةُ تَحْتَضِنُ الرِّيحَ

*(تَهْبِطُ الْغَيْمَةُ بِرِفْقٍ يُشْبِهُ شَفَقَةَ الْأُمِّ عَلَى الطِّفْلِ الَّذِي حُرِمَ مِنْ نَوْمِهِ. تَقُولُ):*

**الْغَيْمَةُ الْمُهَاجِرَةُ:** يَا رِيحَ الرَّاحِلِ، تَعَالِي إِلَى صَدْرِي... فَالْعُلُوُّ لَا يُعْطَى دَفْعَةً وَاحِدَةً، إِنَّمَا يُعْطَى طَبَقَةً فَطَبَقَةً، كَمَا يُعْطَى الْمَطَرُ لِلصَّحَارَى... يَا رِيحَ الرَّاحِلِ، اسْكُنِي لَحْظَةً فِيَّ، لِكَيْ تَتَعَلَّمِي أَنَّ التَّبَدُّلَ هُوَ الطَّرِيقُ الْوَحِيدُ الْمُتَبَقِّي لِلْخَلَاصِ.

**رِيحُ إِيكار:** سَأَسْكُنُ فِيكِ كَمَا تَسْكُنُ الذَّاكِرَةُ فِي جُرْحٍ قَدِيمٍ. دُلِّينِي... أَيْنَ تَذْهَبُ الْأَرْوَاحُ؟ أَيْنَ يَذْهَبُ مَنْ قُتِلَ وَمَا زَالَ يَمْشِي؟

## (4)
## الْفُوتُوغْرَافِيُّ الْعَجُوزُ وَمُحَاوَلَةُ الْتِقَاطِ الْمُسْتَحِيلِ

*(يَقِفُ الْفُوتُوغْرَافِيُّ الْعَجُوزُ فِي أَرْضٍ خَالِيَةٍ كَانَتْ مَسْرَحَ مَوْتِ إِيكَارَ... يَحْمِلُ كَامِيرَتَهُ كَمَا لَوْ كَانَ يَحْمِلُ شَاهِدَةَ قَبْرٍ... يَرْفَعُهَا... وَيُحَاوِلُ أَنْ يَلْتَقِطَ صُورَةً لِلرِّيحِ).*

**الْفُوتُوغْرَافِيُّ الْعَجُوزُ:** يَا اللهُ... لَمْ أَلْتَقِطْ فِي حَيَاتِي صُورَةً بِغَيْرِ إِنْسَانٍ، وَلَا إِنْسَانًا بِغَيْرِ جَسَدٍ، وَلَا جَسَدًا بِغَيْرِ ظِلٍّ، وَلَا ظِلًّا بِغَيْرِ ثِقَلٍ... كَيْفَ أُصَوِّرُ رِيحًا تَقُولُ إِنَّهَا إِنْسَانٌ؟ كَيْفَ أُوَثِّقُ شَابًّا صَارَ طَاقَةً تُرْبِكُ الْفَجْرَ؟

**رِيحُ إِيكارَ:** أَيُّهَا الشَّيْخُ الَّذِي رَأَى كُلَّ شَيْءٍ، لَنْ تَسْتَطِيعَ تَصْوِيرِي، وَلَكِنَّكَ سَتَسْمَعُ صَوْتِي إِذَا أَغْمَضْتَ عَيْنَيْكَ كَمَا يَفْعَلُ الْمَلَاكُ.

**الْفُوتُوغْرَافِيُّ الْعَجُوزُ** *(يُغْمِضُ عَيْنَيْهِ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ مُنْذُ الطُّفُولَةِ):*

- هَا أَنَا... أَرَاهُ... يَا لَلْعَجَبِ... كُنْتُ أُصَوِّرُ الْعَالَمَ وَأَنَا أَعْمَى عَنْهُ.

## (5)
## الْبَحْرُ/الْمَخَافِرُ تَشْعُرُ بِالْخَطَرِ

*(يَعْلُو صَوْتُ الْبَحْرِ/الْمَخَافِرِ... يَعْلُو كَمَا فِي أَجْهِزَةِ الْإِنْذَارِ).*

**الْبَحْرُ/الْمَخَافِرُ:** مَاذَا يَعُودُ؟ نَحْنُ قَتَلْنَاهُ. نَحْنُ تَأَكَّدْنَا مِنْ صَمْتِهِ. فَكَيْفَ يَمْشِي صَوْتُهُ فَوْقَ الْعَرَاءِ؟ كَيْفَ تُغَيِّرُ الرِّيحُ حُدُودًا ثَبَّتْنَاهَا بِالْحَدِيدِ؟ هَلْ نَقْتُلُ الرِّيحَ؟... هَلْ نَعْتَقِلُ الْغَيْمَةَ؟... هَلْ نُفَتِّشُ السَّمَاءَ؟

**(6)**

## رُغْبُ مَا لَا يُمْسَكُ

**جُوقَةُ الْأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** هٰذَا مَا خِفْنَا مِنْهُ... الْهَارِبُ لَا يَمُوتُ، الْهَارِبُ يَتَحَوَّلُ... وَالْخَرِيطَةُ حِينَ يَدْخُلُهَا الْمَوْتُ تَبْدَأُ مِنْ جَدِيدٍ.

**(7)**

## لِقَاءُ الظِّلِّ وَالرِّيحِ

*(تَتَقَاطَعُ الرِّيحُ مَعَ ظِلٍّ خَافِتٍ لَا يَزَالُ يَطْفُو فِي الْهَوَاءِ: ظِلُّ الْمَاضِي، ظِلُّ إِيكَارَ الْأَوَّلُ قَبْلَ التَّحَوُّلِ).*

**الظِّلُّ الْقَدِيمُ:** هَلْ أَنْتِ أَنَا؟ أَمْ أَنَا مَا تَبَقَّى مِنْكِ؟

**رِيحُ إِيكَارَ:** أَنَا أَنْتَ لَوْ أَنَّكَ سَمِعْتَ الْغَيْمَةَ، وَأَنْتَ أَنَا لَوْ لَمْ يَقْتُلْكَ الْجَسَدُ. لِنَرْجِعْ مَعًا... رُبَّمَا نُعِيدُ رَسْمَ الْعَالَمِ بِنَفَسَيْنِ.

**(8)**

## قُدُومُ الْعَاصِفَةِ الْأُولَى

*(يَرْتَفِعُ صَوْتُ جُوقَةِ الْأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ عَلَى هَيْئَةِ كُورَالٍ، كَأَنَّهُ مَوْجَةٌ مِنْ نُورٍ).*

**جُوقَةُ الْأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** تَسْتَعِدُّ الْأَرْضِ لِمَا هُوَ أَكْبَرُ مِنَ الْخُطُوَاتِ. وَتَسْتَعِدُّ الْغَابَاتُ لِمَا هُوَ أَوْسَعُ مِنَ الْفِرَارِ. وَتَسْتَعِدُّ الْحُدُودُ لِلْعَاصِفَةِ الْقَادِمَةِ، عَاصِفَةِ الشَّابِّ الَّذِي قَتَلُوهُ فَصَارَ هَوَاءً لَا يُقْتَلُ. يَا إِيكارُ، لَقَدْ عُدْتَ... لَكِنَّ عَوْدَتَكَ هٰذِهِ الْمَرَّةَ لَنْ يُوقِفَهَا أَحَدٌ.

**(9)**

## الْعَاصِفَةُ الَّتِي تُعِيدُ تَرْتِيبَ الْحُدُودِ

*(نَشِيدُ انْقِلَابِ الْقُوَى: صِرَاعُ الرِّيحِ وَالشَّمْسِ/الْحُدُودِ، وَظُهُورُ الْبَوَادِرِ الْأُولَى لِعَالَمٍ يُعَادُ رَسْمُهُ)*

**كُورَالُ الْفَجْرِ - الْآذَانُ الْأُولَى لِلْعَاصِفَةِ:** يَا أَرْضَ الْحَرَامِ الَّتِي شَرِبَتْ دَمَ الْعَابِرِ، يَا لَيْلَ الْحُدُودِ الَّذِي عَلَّمَ الْعَالَمَ كَيْفَ يُدْفَنُ الْخَوْفُ فِي الْجَسَدِ، هَا هُوَ الْفَجْرُ يَعُودُ مُثْقَلًا بِرِيحٍ جَدِيدَةٍ، رِيحٍ تَحْمِلُ اسْمًا قُتِلَ، وَجَسَدًا اخْتَفَى، لَكِنَّهَا تُزَمْجِرُ الْآنَ بِاسْمٍ لَا يُمْحَى: إِيكار... إِيكار... إِيكار... لَقَدْ بَدَأَتِ الْعَاصِفَةُ مِنَ الْبَحْرِ، وَمِنَ الشَّمْسِ، وَمِنَ الرُّوحِ.

**(10)**

## صَوْتُ الرِّيحِ يَبْلُغُ الشَّمْسَ/الْحُدُودَ

*(تُشْرِقُ الشَّمْسُ/الْحُدُودُ بِعَيْنٍ مُتَّسِعَةٍ، مُصَابَةٍ بِالدَّهْشَةِ، فَهِيَ تَرَى مَا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَرَاهُ: تَرَى الرِّيحَ تَسْحَبُ ظِلَّ إِيكارَ مِنَ الْوُجُودِ، وَتَرْفَعُهُ كَمَا تُرْفَعُ رَايَةٌ بَعْدَ حَرْبٍ).*

(**الشَّمْسُ/الْحُدُودُ** ) بِصَوْتٍ صَلْدٍ يُشْبِهُ خَشْخَشَةَ الْحَدِيدِ: مَا هٰذَا الَّذِي يَعُودُ نَحْوِي؟ أَجَسَدٌ بِغَيْرِ لَحْمٍ؟ أَخُطْوَةٌ بِغَيْرِ قَدَمَيْنِ؟ أَصَوْتٌ بِغَيْرِ فَمٍ؟ مَنْ أَنْتِ أَيَّتُهَا الرِّيحُ لِتَتَحَدَّي سُلْطَانَ الضَّوْءِ؟

**رِيحُ إِيكار:** أَنَا مَا لَمْ تَتَوَقَّعِيهِ... أَنَا مَا هَرَبَ مِنْ يَدِكِ حِينَ قَبَضْتِ عَلَى الْجَسَدِ. أَنَا الطَّرِيقُ الَّذِي لَمْ تَسْتَطِيعِي أَنْ تُغْلِقِيهِ.

**(11)**

## الْبَحْرُ/الْمَخَافِرُ يَدْخُلُ الْمَعْرَكَةَ

*(يَرْتَفِعُ الْبَحْرُ/الْمَخَافِرُ كَمَدِينَةٍ جَرَّارَةٍ تَنْهَضُ مِنْ قَاعِهَا لِتُوَاجِهَ الْهَوَاءَ).*

**الْبَحْرُ/الْمَخَافِرُ:** تَوَقَّفِي! لَنْ نَعْتَرِفَ بِعَوْدَةِ الْعَابِرِ. لَنْ نَتْرُكَ الرِّيحَ تُعِيدُ فَتْحَ الدَّفَاتِرِ الَّتِي أُغْلِقَتْ. سَنَجْمَعُ الْعَاصِفَةَ فِي قَفَصٍ مِنَ الْأَمْوَاجِ، وَنُحَوِّلُ الْهَوَاءَ إِلَى سِجْنٍ.

**رِيحُ إِيكار:** إِنَّ السِّجْنَ لَا يُمْسِكُ مَا لَا يَمْلِكُ جَسَدًا... أَنْتَ مُتَأَخِّرٌ... لَقَدْ تَحَوَّلْتُ، وَلَيْسَ فِي الْعَالَمِ قَفَصٌ يَتَّسِعُ لِلتَّحَوُّلِ.

**(12)**

## الْغَيْمَةُ الْمُهَاجِرَةُ تُطْلِقُ هُتَافَهَا الْكَوْنِيَّ

*(تَتَدَلَّى الْغَيْمَةُ مِثْلَ رَاعِيَةٍ تُنَادِي قُطْعَانَهَا مِنَ الضَّوْءِ)*

**الْغَيْمَةُ الْمُهَاجِرَةُ:** أَيَّتُهَا الْأَرْضُ الَّتِي لَمْ تَهْدَأْ، أَيُّهَا الْبَحْرُ الَّذِي لَا يَرْحَمُ، أَيَّتُهَا الشَّمْسُ الَّتِي تَمْتَحِنُ كُلَّ مَنْ يَمُرُّ تَحْتَهَا، اسْمَعُوا: الرِّيحُ لَيْسَتْ غَرِيبَةً عَنْكُمْ،

إِنَّهَا أَنْفَاسُكُمُ الْأُولَى. فَكَيْفَ تُخَاصِمُونَ مَا يُبْقِيكُمْ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ؟ اتْرُكُوا إِيكارَ يَصْعَدُ... لَقَدْ صَارَ رُوحًا لَا تُحَاصَرُ.

**(13)**

## الْمَلَاكُ الْأَعْمَى يَقُودُ الرِّيحَ إِلَى قَلْبِ الْمَعْرَكَةِ

(يَتَقَدَّمُ الْمَلَاكُ الْأَعْمَى كَقَائِدٍ يُحَرِّكُ جَيْشًا مِنَ الْأَصْوَاتِ).

**الْمَلَاكُ الْأَعْمَى:** أَيُّهَا الضَّوْءُ الْمُتَجَبِّرُ، أَيُّهَا الْبَحْرُ الْمُتْعَبُ مِنَ الْمُطَارَدَةِ، اعْلَمُوا أَنَّ مَنْ صَعِدَ فَوْقَ الْمَوْتِ لَا يَعُودُ إِلَيْكُمْ ذَلِيلًا. هَا هُوَ إِيكارُ قَدْ أَصْبَحَ رِيحًا... رِيحًا تُعِيدُ الْوَزْنَ لِمَا لَا وَزْنَ لَهُ، وَتُعِيدُ الْوَجْهَ لِمَا لَا وَجْهَ لَهُ.

**رِيحُ إِيكار:** دُلَّنِي يَا مَلَاكُ... أَيْنَ تُصَبُّ هٰذِهِ الْمَعْرَكَةُ؟ أَفِي الْأَرْضِ؟ أَمْ فِي الْمَنَافِي؟ أَمْ فِي دَاخِلِ الْإِنْسَانِ؟

**الْمَلَاكُ الْأَعْمَى:** الْمَعْرَكَةُ دَائِمًا فِي الدَّاخِلِ، لَكِنَّهَا تَنْفَجِرُ فِي الْخَارِجِ حِينَ يَمُوتُ أَحَدٌ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَمُوتَ.

**(14)**

## جُوقَةُ الْأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ تُحَاوِلُ السَّيْطَرَةَ

**جُوقَةُ الْأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** اقْبِضُوا عَلَى الضَّوْءِ! أَطْفِئُوا الرِّيحَ! اجْمَعُوا كُلَّ الْحَرَسِ! فَإِنَّ الْعَالَمَ بَدَأَ يَنْهَارُ حِينَ اخْتَفَى الْجَسَدُ وَتَحَوَّلَ إِلَى هَوَاءٍ... نَخَافُ مِمَّا لَا نَرَاهُ... كَيْفَ نُرَاقِبُ الرِّيحَ؟... كَيْفَ نُفَتِّشُ الْغَيْمَ؟

**(15)**

## لَحْظَةُ الِانْقِلَابِ

*(تَثُورُ الرِّيحُ فَجْأَةً، وَتَلْتَفُّ عَلَى الضَّوْءِ، وَتَغُوصُ فِي صَدْرِ الشَّمْسِ، وَتَرْتَفِعُ كَأَنَّهَا تَنْفُخُ فِي الْعَالَمِ رُوحًا جَدِيدَةً... يَتَشَقَّقُ الضَّوْءُ، وَتَتَشَقَّقُ الْحُدُودُ، وَتَتَبَعْثَرُ الْحَوَاجِزُ كَحُرُوفٍ هَجَرَهَا الْقَارِئُ).*

**الشَّمْسُ/الْحُدُودُ:** يَا وَيْلَنَا... لَقَدْ خَسِرْنَا السَّيْطَرَةَ! مَنْ أَنْتِ يَا رِيحُ لِتُغَيِّرِي نِظَامَ الْعَالَمِ؟

**رِيحُ إِيكار:** لَسْتُ عَاصِفَةً... أَنَا الْحَقِيقَةُ حِينَ تَسْتَيْقِظُ. أَنَا الذَّاكِرَةُ حِينَ تَرْفُضُ أَنْ تُمْحَى. أَنَا الْهَارِبُ، حِينَ لَا يَعُودُ هَارِبًا، يُصْبِحُ جِهَةً يَتَّجِهُ النَّاسُ نَحْوَهَا.

**(16)**

## إِعْلَانُ الْعَاصِفَةِ الْجَدِيدَةِ

**جُوقَةُ الْأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** يَا عَالَمَ الْحُدُودِ، لَقَدْ سَقَطَتْ أَسْلِحَتُكَ. لَنْ تَمْنَعَ رِيحًا وُلِدَتْ مِنْ مَوْتِ إِنْسَانٍ. الْيَوْمَ تَنْتَصِرُ الرُّوحُ عَلَى الْأَسْلَاكِ الشَّائِكَةِ، وَتَنْتَصِرُ الْخُطْوَةُ عَلَى الرَّصَاصَةِ، وَيُولَدُ فِي النَّهَارِ ضَوْءٌ لَا يُشْبِهُ الشَّمْسَ.

هٰذَا هُوَ انْقِلَابُ الْعَالَمِ.

وَهٰذِهِ عَوْدَةُ إِيكارَ

فَوْقَ الْأَرْضِ،

وَفَوْقَ الْبَحْرِ،

وَفَوْقَ الْمَعْنَى

نَفْسِهِ.

# النَّشِيدُ الْخَامِسُ

## الْعُبُورُ

## (حِينَ انْفَتَحَتِ الْحُدُودُ كَجُرْحٍ فِي جَسَدِ الْخَلِيقَةِ)

وَحِيدًا هَبَطَ الْكَائِنُ إِلَى مَقَالِعِ الرُّخَامِ وَالْكَلَامِ،
وَحِيدًا هَبَطْتُ أَنَا أَيْضًا.
وَهَا نَحْنُ مُقْتَسِمَانِ الْحُدُودَ، مُقْتَسِمَانِ الْعُبُورَ وَالْأَسْرَارَ، وَالْقَرَابِينَ وَالطَّرِيقَ، كَأَنَّ الْأَرْضَ لَمْ تَعْرِفْ غَيْرَنَا شَاهِدَيْنِ فِي هٰذِهِ الْحِكَايَةِ الَّتِي تَمْضِي كَطَقْسٍ لَا يَتَذَكَّرُ مَنْ ابْتَدَأَهُ، وَلَا يَطْلُبُ مِمَّنْ يَمُرُّ بِهِ أَنْ يَكُونَ حَاضِرًا.
الْمُرُورُ كافٍ، وَالِاخْتِفَاءُ شَرْطُ الِاسْتِمْرَارِ. هُنَا لَا مُتَكَلِّمَ... اللُّغَةُ تَتَحَرَّكُ وَحْدَهَا، كَأَنَّهَا تَتَعَلَّمُ كَيْفَ تَفْقِدُ مَا تُشِيرُ إِلَيْهِ... كُلُّ جُمْلَةٍ عُبُورٌ، وَكُلُّ عُبُورٍ مَحْوٌ لِمَا ظُنَّ أَنَّهُ مَعْنًى.
وَكُنْتُ عَلَى وَشَكِ الْمَوْتِ مِنَ النَّدَمِ، حِينَ سَمِعْتُ - كَمَنْ يَحْلُمُ - صَوْتًا يَنْبَثِقُ مِنَ الْجَبَلِ:
- يَا شَيْخُ... تَوَقَّفْ.
فَتَوَقَّفْتُ، وَأَحْسَسْتُ بِإِيكارَ وَاقِفًا أَمَامِي. وَقَالَ:
- هَلْ تَأْخُذُنِي مَعَكَ، أَيُّهَا الشَّيْخُ؟
قُلْتُ:
- إِلَى أَيْنَ؟
قَالَ:
- عَبْرَ الْحُدُودِ.
قُلْتُ:
- كَلَّا. أَنَا أُهَرِّبُ السِّلَعَ وَالْبَضَائِعَ فَقَطْ.
قَالَ:
- وَمَا الْفَرْقُ؟ سَأَدْفَعُ لَكَ...
(وَهُنَا عَادَ الزَّمَنُ إِلَى الْحِكَايَةِ الَّتِي لَا تُرِيدُ أَنْ تَعْتَرِفَ بِي، تَجْعَلُنِي أَعْبُرُ مَا لَا يُرَى، وَأَتْرُكُ خَلْفِي مَا ظَنَنْتُهُ وَجْهِي. إِنَّهَا طَقْسٌ طَوِيلٌ لَا زَمَنَ فِيهِ إِلَّا التَّرَدُّدُ، وَلَا جَسَدَ إِلَّا الْأَثَرُ الَّذِي يَمُرُّ وَيَخْتَفِي. أَدْخُلُهَا كَمَا يَدْخُلُ اللَّيْلُ فِي الِاسْمِ، بِغَيْرِ وَعْدٍ وَبِغَيْرِ ذَاكِرَةٍ...

الْحِكَايَةُ لَيْسَتْ صَوْتِي، إِنَّهَا مَا يَتَكَلَّمُ حِينَ أَنْسَحِبُ... مَا يَبْقَى حِينَ لَا أَعُودُ قَادِرًا عَلَى أَنْ أَقُولَ: أَنَا...).
وَكُنْتَ تَخْرُجُ وَتَسِيرُ بِهُدُوءٍ نَحْوِي، مُشْرِقًا كَصَبَاحٍ لَمْ يَتَعَلَّمِ الْخَوْفَ، نَاعِمًا، مُشِعًّا، نَضِيرًا، صَافِيًا، هَفْهَافًا كَالرِّيشَةِ.
وَسَقَطَ عَنِّي النَّظَرُ وَأَنَا أُحَدِّقُ إِلَيْكَ، وَإِلَى الصُّخُورِ الَّتِي وَلَدَتْكَ، فَانْحَدَرْتَ نَحْوِي، وَالرَّشَّاشُ عَلَى كَتِفِكَ كَجَنَاحٍ مَكْسُورٍ.
قُلْتَ:
- قُلْ لِي يَا شَيْخُ، هَلْ تَعْرِفُ مَنْ يُسَاعِدُنِي عَلَى اجْتِيَازِ الْحُدُودِ؟
قُلْتُ:
- أَنَا دَلِيلٌ، وَسَأَجْتَازُ بِكَ الْحُدُودَ.
قُلْتَ:
- وَإِنْ وَقَعْنَا فِي كَمِينٍ؟
قُلْتُ:
- الدَّلِيلُ لَا يَقَعُ فِي كَمِينٍ، إِنَّمَا يَقَعُ الْآخَرُونَ.
قُلْتَ:
- وَمَنْ يَضْمَنُ أَنَّكَ لَا تُسَلِّمُنِي لِلْعَسْكَرِ؟
قُلْتُ:
- لَا تَقْلَقْ، إِنَّهَا حَرْبِي مَعَهُمْ، وَإِنَّهَا فُرْصَتِي وَفُرْصَتُكَ الْأَخِيرَةُ.
وَهٰكَذَا مَضَيْتُ أَقُودُكَ عَبْرَ الْحُدُودِ، كَأَنِّي أَعْرِفُ هٰذِهِ الْمَرَّةَ رَعْدَةَ التَّشَهُّدِ وَسَطَ الصَّلَاةِ... الصَّلَاةُ هُنَا أَنْ يُتْرَكَ الِاسْمُ بِغَيْرِ مُسَمًّى، وَأَنْ يُتْرَكَ السُّؤَالُ بِغَيْرِ جِهَةٍ، وَأَنْ يُقَالَ الْقَوْلُ لِيَتَعَلَّمَ كَيْفَ يَكُونُ بِغَيْرِ مَعْنًى... لَا اعْتِرَافَ... فَالِاعْتِرَافُ يَطْلُبُ شَاهِدًا، وَهٰذَا الطَّقْسُ بِغَيْرِ عُيُونٍ... بِغَيْرِ ذَاكِرَةٍ... بِغَيْرِ أَثَرٍ يَحْتَجُّ عَلَى الزَّوَالِ... اللُّغَةُ لَا تُسَبِّحُ... اللُّغَةُ تَتَآكَلُ، وَتَنْحَنِي ضِدَّ قُدْرَتِهَا عَلَى الْإِشَارَةِ، وَتُوَاصِلُ، لِأَنَّ التَّوَقُّفَ شَكْلٌ آخَرُ مِنَ الِامْتِلَاءِ... يَسْتَمِرُّ الطَّقْسُ... لَا إِيمَانَ... لَا تَضَرُّعَ... لَا خَلَاصَ... بَقَاءٌ فِي الِانْمِحَاءِ، حَيْثُ لَا يُقَالُ شَيْءٌ، وَيُسْتَمَرُّ.

وَحِينَ بَلَغْنَا مَوْضِعًا لَا اسْمَ لَهُ فِي خَرَائِطِ الْبَشَرِ، تَوَقَّفَ الْهَوَاءُ عَنْ كَوْنِهِ هَوَاءً، وَصَارَ نَفَسًا مُعَلَّقًا بَيْنَ نِدَاءٍ وَاعْتِرَافٍ. لَمْ تَكُنْ هُنَاكَ بَوَّابَةٌ، وَلَا سِلْكٌ، وَلَا حَاجِزٌ كَمَا يَرَاهُ الْجُنُودُ. كَانَ الْمَكَانُ مَشْدُودًا كَجِلْدٍ يُوشِكُ أَنْ يُشَقَّ. لَمْ تَعُدِ الْحُدُودُ خَطًّا، صَارَتْ

جُرْحًا. جُرْحًا فَاغِرًا فِي خَاصِرَةِ الْأَرْضِ، يَسِيلُ مِنْهُ الزَّمَانُ قَبْلَ الدَّمِ، وَتَتَسَرَّبُ مِنْهُ الْأَسْمَاءُ قَبْلَ الْأَجْسَادِ.

قَالَ الْجَبَلُ، (لَمْ أَسْمَعْهُ بِأُذُنَيَّ، سَمِعْتُهُ فِي أَعْتَابِ الصَّرَخَاتِ الْمَذْعُورَةِ):

- الْآنَ.

وَفِي كَلِمَةِ (الْآنَ) انْفَلَقَ اللَّيْلُ عَنْ لَيْلٍ أَعْمَقَ، وَتَرَاجَعَتِ الْجِهَاتُ خُطْوَةً إِلَى الْوَرَاءِ كَخَدَمٍ أُمِرُوا بِغَضِّ الْبَصَرِ. رَأَيْتُ السَّمَاءَ تَتَصَدَّعُ كَقِدْرٍ قَدِيمٍ، وَتَنْزِلُ شَقَائِقُهَا عَلَى أَكْتَافِنَا، وَالنُّجُومُ تَتَدَلَّى كَحُرُوفٍ سَقَطَتْ مِنْ مَخْطُوطٍ مَحْرُوقٍ.

أَمَّا الْأَرْضُ، فَلَمْ تَحْتَمِلْ ثِقْلَ اللَّحْظَةِ، فَارْتَجَفَتْ، وَارْتَدَّتْ إِلَى طِينِهَا الْأَوَّلِ، وَصَارَ التُّرَابُ يَنْطِقُ بِلُغَةٍ قَبْلَ اللُّغَةِ.

كَانَ إِيكَارُ يَسِيرُ أَمَامِي، لَكِنَّ ظِلَّهُ كَانَ يَعْبُرُ قَبْلِي، كَأَنَّهُ يَعْرِفُ الطَّرِيقَ مِنْ حَيَاةٍ سَابِقَةٍ.

قُلْتُ لَهُ (وَلَا أَدْرِي أَكُنْتُ أَتَكَلَّمُ أَمْ أُصَلِّي):

- لَا تَلْتَفِتْ. فَالِالْتِفَاتُ يُعِيدُ الْخَلْقَ إِلَى الْوَرَاءِ.

وَحِينَ وَضَعَ قَدَمَهُ فِي مَوْضِعِ الْعُبُورِ، لَمْ تَطَأْ حَجَرًا وَلَا تُرَابًا، وَطِئَتْ ذَاكِرَةَ الْأَرْضِ حِينَ كَانَتْ بِغَيْرِ سِيَاجٍ. عِنْدَهَا انْفَتَحَ الْجُرْحُ بِأَنِينٍ طَوِيلٍ، كَأَنَّ الْخَلِيقَةَ تَتَذَكَّرُ خَطِيئَتَهَا الْأُولَى. سَالَ نُورٌ دَاكِنٌ، لَيْسَ أَبْيَضَ وَلَا أَسْوَدَ، نُورٌ يُشْبِهُ الْحَقِيقَةَ حِينَ لَا تُقَالُ.

سَمِعْتُ أَصْوَاتًا لَا تَنْتَمِي إِلَى زَمَنِنَا: أَقْدَامَ الْعَائِدِينَ بِغَيْرِ وُجُوهٍ، وَأَنْفَاسَ الَّذِينَ ضَلُّوا فِي الْمَمَرَّاتِ، وَأَسْمَاءً مُحِيَتْ قَبْلَ أَنْ تُولَدَ.

قَالَتِ الْحُدُودُ... نَعَمْ، قَالَتْ:

- أَنَا لَسْتُ لِلْحِرَاسَةِ. أَنَا الْجُرْحُ الَّذِي تَتَدَرَّبُ عَلَيْهِ الْأَرْوَاحُ.

فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ لَمْ أَعُدْ فُوتُوغْرَافِيًّا عَجُوزًا، وَلَمْ يَعُدْ إِيكَارُ شَاعِرًا هَارِبًا. كُنَّا كَائِنَيْنِ عَارِيَيْنِ أَمَامَ سِرٍّ أَكْبَرَ مِنَ النَّجَاةِ...

كَانَ الْعَسْكَرُ بَعِيدِينَ، لَكِنَّ أَصْوَاتَهُمْ تَكَسَّرَتْ فِي الْهَوَاءِ كَأَوَانٍ فَخَّارِيَّةٍ، وَالرَّصَاصُ نَسِيَ اسْمَهُ، وَسَقَطَ كَحَبَّاتِ مَطَرٍ لَمْ تَتَعَلَّمْ بَعْدُ كَيْفَ تَقْتُلُ.

خَطَوْنَا الْخُطْوَةَ الْأَخِيرَةَ، لَيْسَ إِلَى الْأَمَامِ، إِلَى الدَّاخِلِ. إِلَى دَاخِلِ الْجُرْحِ.

وَهُنَاكَ كَانَ السُّؤَالُ:

- لَيْسَ مَنْ نَكُونُ؟ إِنَّمَا مَنْ لَمْ نَعُدْ؟

وَحِينَ أُغْلِقَ الْجُرْحُ (أَوْ تَظَاهَرَ بِالْإِغْلَاقِ)، لَمْ يَعُدِ الْمَكَانُ هُوَ الْمَكَانَ، وَلَا نَحْنُ نَحْنُ.

وَبَقِيَتِ الْحُدُودُ تَنْزِفُ فِي الْخَفَاءِ، مِثْلَ قِدِّيسٍ يُخْفِي آثَارَ الْمَسَامِيرِ تَحْتَ ثَوْبِهِ.

# رُؤْيَا إِيكارَ دَاخِلَ الْجُرْحِ

(مَا لَمْ يُصَوِّرْهُ الْفُوتُوغْرَافِيُّ الْعَجُوزُ، وَمَا لَمْ يَشْهَدْهُ الْمَلَاكُ الْأَعْمَى)

حِينَ عَبَرْتُ... (لَمْ أَعْبُرْ)... سَقَطْتُ إِلَى الدَّاخِلِ كَمَا يَسْقُطُ الِاسْمُ مِنْ فَمٍ لَا يُرِيدُ أَنْ يَعْتَرِفَ.

لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ نُورٌ وَلَا ظُلْمَةٌ، كَانَتْ مَادَّةٌ ثَالِثَةٌ، تُشْبِهُ النَّدَمَ حِينَ يَتْعَبُ مِنْ كَوْنِهِ شُعُورًا وَيَصِيرُ عَتْمَةً.

رَأَيْتُ أَجْسَادًا لَا تَمْشِي وَلَا تَسْتَلْقِي، مُعَلَّقَةً فِي الْهَوَاءِ كَأَفْكَارٍ نُسِيَتْ نِصْفَ نِسْيَانٍ.

لَمْ تَكُنْ وُجُوهُهُمْ مَلْسَاءَ، كَانَتْ مَطْمُوسَةً كَأَيْقُونَاتٍ غُسِلَتْ بِدَمٍ لَا يُعْرَفُ لِمَنْ كَانَ.

عَرَفْتُهُمْ دُونَ أَنْ أَعْرِفَهُمْ.

وَصَلُوا إِلَى هُنَا قَبْلِي، ثُمَّ لَمْ يُكْمِلُوا الْعُبُورَ.

كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ كَانَ يَحْمِلُ حَدًّا فِي صَدْرِهِ: سِلْكًا، أَوْ خَنْدَقًا، أَوْ لُغَةً لَمْ تَعُدْ صَالِحَةً.

سَمِعْتُ صَلَاةً تُتْلَى بِغَيْرِ فَمٍ، صَلَاةً تُشْبِهُ شَهْقَةً مَكْسُورَةً:

- لَسْنَا مَوْتَى، وَلَكِنَّنَا لَمْ نُكْمِلِ الْحَيَاةَ.

فِي عُمْقِ الْجُرْحِ كَانَ هُنَاكَ نَهْرٌ، لَكِنَّ مَاءَهُ لَيْسَ مَاءً... زَمَنٌ سَائِلٌ.

كُلُّ مَنْ غَمَسَ يَدَهُ فِيهِ فَقَدَ سَنَةً، أَوِ اسْمًا، أَوْ صُورَةَ أُمٍّ كَانَتْ تَنْتَظِرُ عِنْدَ بَابٍ لَمْ يُفْتَحْ.

رَأَيْتُ أُمِّي (أَوْ مَا يُشْبِهُهَا) تَجْلِسُ عَلَى حَجَرٍ، تَغْزِلُ قَمِيصًا مِنَ الْغِيَابِ.

وَحِينَ رَفَعَتْ رَأْسَهَا لَمْ تَقُلْ شَيْئًا، لَكِنَّ عَيْنَيْهَا قَالَتَا:

- لَا تَعُدْ كَمَا خَرَجْتَ.

ثُمَّ ظَهَرَ الْمَلَاكُ.

لَمْ يَكُنْ أَبْيَضَ، وَلَا أَسْوَدَ، وَلَا سَاقِطًا، وَلَا مَرْفُوعًا.

كَانَ أَعْمَى.

عَيْنَاهُ مَفْتُوحَتَانِ، لَكِنْ بِغَيْرِ جِهَةٍ، كَأَنَّهُمَا خُلِقَتَا لِلنَّظَرِ إِلَى مَا لَا يُرَى.

قَالَ لِي (بِلَا صَوْتٍ):

- الْجُرْحُ لَيْسَ مَعْبَرًا.

وَسَأَلَنِي مَا لَمْ يَسْأَلْنِي أَحَدٌ مِنْ قَبْلُ:

- كَمْ مَوْتًا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَحْمِلَ وَتَظَلَّ اسْمًا؟

أَرَدْتُ أَنْ أُجِيبَهُ، لَكِنَّ لِسَانِي كَانَ قَدْ ذَابَ فِي النَّهْرِ.

فَأَرَانِي مَا كُنْتُ أَهْرُبُ مِنْهُ:
رَأَيْتُ نَفْسِي، لَوْ مِتُّ، رَقْمًا يَتَعَلَّمُ النِّسْيَانَ.
وَرَأَيْتُ الْعُبُورَ كَمَا لَمْ يَرَهُ الْفُوتُوغْرَافِيُّ الْعَجُوزُ:
لَمْ يَكُنْ خَطًّا نَعْبُرُهُ، كَانَ سِكِّينًا تَمُرُّ فِينَا.
قَالَ الْمَلَاكُ الْأَعْمَى:
- الَّذِينَ يَنْجُونَ لَا يَخْرُجُونَ سَالِمِينَ.
وَحِينَ أَعَادَنِي (أَوْ تَرَكَنِي) إِلَى فَمِ الْجُرْحِ، كَانَ قَدِ انْتَزَعَ مِنِّي شَيْئًا لَا أَسْتَطِيعُ تَسْمِيَتَهُ.
خَرَجْتُ، لَكِنَّ صَوْتِي بَقِيَ هُنَاكَ.
وَظَلَّ الْجُرْحُ وَرَائِي مَفْتُوحًا قَلِيلًا، كَعَيْنٍ لَمْ تَنَمْ.
مُنْذُ ذٰلِكَ الْيَوْمِ، كُلَّمَا نَظَرْتُ إِلَى الْحُدُودِ رَأَيْتُهَا تَنْزِفُ بِبُطْءٍ.
وَكُلَّمَا سَمِعْتُ أُغْنِيَةَ الْجُنُودِ لَيْلًا، أَعْرِفُ أَنَّ الْمَلَاكَ الْأَعْمَى مَا زَالَ يُصْغِي.([139])

# إِصْحَاحُ

6

# الَّذِينَ يَهَابُونَ الْفَجْرَ

تَرْنِيمَةٌ

## (1)
## مَدْخَلٌ إِلَى النُّورِ الْمَحْجُوبِ

حِينَ اقْتَرَبْتَ مِنْ عَتَبَةِ الْفَجْرِ، لَمْ يَكُنْ نُورًا يُرَى، كَانَ قَرَارًا كَوْنِيًّا، وَإِعْلَانًا لَا يُسْمَعُ إِلَّا بِصَوْتِ النَّفْسِ: أَنَّ كُلَّ مَا مَضَى مِنَ اللَّيْلِ كَانَ امْتِحَانًا لِصَمْتِكَ، وَأَنَّ كُلَّ خُطْوَةٍ كَانَتْ قِرَاءَةً لِنَفْسِكَ السِّرِّيَّةِ.

---

139- هٰذِهِ الرُّؤْيَا لَيْسَتْ لِإِيكار، إِنَّهَا لِمَنْ سَيَعْبُرُ بَعْدَهُ.

وَهٰذَا الِاعْتِرَافُ لَا يُقَالُ إِلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً، وَلَا يُسْمَعُ إِلَّا مِمَّنْ فَقَدَ جِهَةَ النَّظَرِ، وَبَقِيَ لَهُ ثِقَلُ الْمَعْنَى.

(الضَّوْءُ... هُنَا غَرِيبٌ، لَيْسَ بَارِدًا وَلَا سَاخِنًا. إِنَّهُ شُعُورٌ بِالْحِرْمَانِ مِنْ مُرَادَاتِ هٰذَا الْعَالَمِ، يَقِيسُ الْمَدَى بَيْنَ مَا عَرَفْتَهُ وَمَا أَخْفَيْتَهُ).

(2)

## الْوَاقِفُونَ عِنْدَ الْحُكْمِ

فِي هٰذِهِ الْيَقَظَةِ وَقَفُوا: أُولٰئِكَ الَّذِينَ يَهَابُونَ الْفَجْرَ. وُجُوهُهُمْ مُتَحَجِّبَةٌ بِالظِّلِّ الَّذِي حَمَلُوهُ طِوَالَ اللَّيْلِ، وَأَعْيُنُهُمْ تَتَأَمَّلُ مَا يَخْرُجُ مِنْ فَمِ الشَّمْسِ، غَيْرَ أَنَّهُمْ لَا يَجْرُؤُونَ عَلَى النَّظَرِ مُبَاشَرَةً، فَالنُّورُ هُنَا مَعْرِفَةٌ نِهَائِيَّةٌ، وَحُكْمٌ عَلَى كُلِّ مَا أَخْفَيْتَهُ مِنْ ذَاتِكَ.

كُلُّ وَاقِفٍ هُنَا نُسْخَةٌ مُحْتَمَلَةٌ مِنْ نَفْسِكَ الْمُسْتَقْبَلِيَّةِ، تُذَكِّرُكَ بِأَنَّ مَا لَمْ تُقِرَّهُ فِي الظَّلَامِ سَيُقَرَّرُ عَلَيْكَ عِنْدَ أَوَّلِ شُعَاعٍ.

(3)

## الْمَلَاكُ الْأَعْمَى كَحُكْمٍ دَاخِلِيٍّ

فِي مُنْتَصَفِ الْيَقَظَةِ رَأَيْتُ الْمَلَاكَ الْأَعْمَى. لَا يَرَى النُّورَ، لَكِنَّهُ يُشِعُّ بِالْيَقِينِ الدَّاخِلِيِّ. كَانَ يَقِفُ كَقَاضٍ لَا يَرْفَعُ صَوْتَهُ، لَكِنَّ كُلَّ قَلْبٍ يَمُرُّ أَمَامَهُ يُحَاسَبُ.

قَالَ لِي بِصَمْتٍ تَسْمَعُهُ الرُّوحُ:

- الْفَجْرُ لَيْسَ نِهَايَةَ اللَّيْلِ... الْفَجْرُ انْكِشَافُ مَا كُنْتَ تُخْفِيهِ عَنْ نَفْسِكَ... مَنْ يَهْرُبُ مِنَ النُّورِ يَنْهَارُ فِي دَاخِلِهِ قَبْلَ أَنْ يَرَى الطَّرِيقَ.

(تَحَرَّكَ دُونَ أَنْ يَتْرُكَ أَثَرًا، كَأَنَّهُ يَحْمِلُ كُلَّ الظِّلَالِ الَّتِي لَمْ يُعْتَرَفْ بِهَا بَعْدُ، وَيُعِيدُهَا إِلَى الْخَفَايَا، لِتَظَلَّ تَنْتَظِرُ أَنْ يُقَرَّ بِهَا فِي نِهَايَةِ الزَّمَنِ).

(4)

## اخْتِبَارُ الْحَقِيقَةِ الْغَائِبَةِ

فِي هٰذِهِ الْيَقَظَةِ يُخْتَبَرُ الْعَابِرُ: أَنَّ كُلَّ خَوْفٍ كَانَ وَهْمًا، وَأَنَّ كُلَّ رَغْبَةٍ كَانَتْ قَيْدًا، وَأَنَّ مَا يُسَمَّى بِ(عُرُوجِ نُفُوسِ الْعَارِفِينَ) مَا هُوَ إِلَّا انْعِكَاسٌ دَاخِلِيٌّ لِلْحُدُودِ الَّتِي نَضَعُهَا عَلَى أَنْفُسِنَا.

كُلُّ خُطْوَةٍ إِلَى الْأَمَامِ تُقَاسُ بِالصِّدْقِ، فَمَنْ يَكْذِبُ عَلَى نَفْسِهِ يَتَعَثَّرُ فِي شُعَاعِ الْفَجْرِ، وَيُعَادُ إِلَى الظِّلِّ الْعَمِيقِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ.

(5)

## الرَّمْزُ الْكَوْنِيُّ لِلْفَجْرِ

الْفَجْرُ لَوْحٌ سَمَاوِيٌّ يَحْوِي أَسْمَاءً وَسَرَائِرَ، وَأَيُّ عَابِرٍ يَقْرَؤُهُ يُدْرِكُ أَنَّ كُلَّ طَبَقَاتِ اللَّيْلِ السَّابِقَةِ كَانَتْ تَهْيِئَةً لِلِاكْتِشَافِ الْأَخِيرِ:

أَنَّ الْحُدُودَ، وَالظِّلَالَ، وَالْعَطَشَ، وَالْخَوْفَ، وَالْحُضُورَ، وَالْمُجَاهَدَةَ، وَالْأَحْوَالَ، لَيْسَتْ سِوَى رُمُوزٍ دَاخِلِيَّةٍ لِرِحْلَةِ رُوحٍ وَاحِدَةٍ تَمْتَدُّ عَبْرَ الزَّمَنِ وَالْوَعْيِ.

(6)

## الْبِئْرُ الْأَخِيرُ قَبْلَ النَّهَارِ

فِي الْعُمْقِ رَأَيْتُ بِئْرًا رَمْزِيَّةً، لَا يَسْقُطُ فِيهَا أَحَدٌ... إِنَّمَا يَتَحَوَّلُ كُلُّ مَنْ يَقْتَرِبُ مِنْهَا إِلَى مَعْرِفَةٍ عَابِرَةٍ.

الْعَابِرُ الَّذِي يَلْمِسُ الْمَاءَ الرَّمْزِيَّ يَسْتَرْجِعُ كُلَّ الْوُجُوهِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا، وَكُلَّ الْأَقْنِعَةِ الَّتِي لَبِسَهَا، وَيَجْمَعُهَا فِي ذَاتِهِ الْوَاحِدَةِ، لِيُصْبِحَ مُسْتَعِدًّا لِدَائِرَةِ النِّهَايَةِ

الْكُبْرَى، حَيْثُ يُدْرِكُ أَنَّهُ هُوَ، وَهُوَ وَحْدَهُ، كُلُّ الْوَاقِفِينَ، وَكُلُّ الظِّلَالِ، وَكُلُّ الْأَحْوَالِ.

تَرْنِيمَةٌ

(7)

## الِانْفِتَاحُ عَلَى الْيَقَظَةِ

كَانَ وَاضِحًا أَنَّهُ لَا مَهْرَبَ بَعْدَ الْآنَ:

كُلُّ مَنْ يَعْبُرُ الْفَجْرَ يَعُودُ إِلَى ذَاتِهِ، وَيُصْبِحُ شَاهِدًا عَلَى كُلِّ مَا مَضَى، عَلَى كُلِّ يَقَظَةٍ وَكُلِّ رَمْزٍ، حَتَّى يَتَحَوَّلَ السَّفَرُ إِلَى مُتَاهَةٍ دَاخِلِيَّةٍ وَكَوْنِيَّةٍ فِي آنٍ وَاحِدٍ.

٦

# النَّشِيدُ السَّادِسُ

مَزْمُورٌ

### مَزْمُورٌ مَنْسِيٌّ كُتِبَ بِأَيْدٍ مُرْتَجِفَةٍ، وَتَنَاقَلَتْهُ الْأَرْوَاحُ لَا النُّسَّاخُ

مَنْ ذَا غَيْرِي يَجْرُؤُ أَنْ يَسْرُدَ مُعْجِزَةَ الْعَابِرِ؟

مَنْ ذَا غَيْرِي يَجْرُؤُ أَنْ يُصَوِّرَ ضَوْءًا مُقَدَّسًا يَنْبَعِثُ مِنَ الْأَرْضِ حَتَّى يَبْلُغَ السَّمَاءَ؟

مَنْ ذَا غَيْرِي يَجْرُؤُ أَنْ يَرْسُمَ سُقُوطَ مَلَاكٍ مِنْ عَلِيَائِهِ بِسُرْعَةٍ بَالِغَةٍ؟

(هَوَى تُصَاحِبُهُ آلَافُ الْآهَاتِ)

مَنْ ذَا غَيْرِي يَجْرُؤُ أَنْ يَسْمَعَ صَرْخَةَ الصُّخُورِ الْوَعِرَةِ الْمَقْذُوفَةِ مِنْ أَنْفَاسِ الْإِلٰهِ؟

مَنْ ذَا غَيْرِي يَجْرُؤُ أَنْ يَدْنُوَ مِنَ النِّهَايَةِ، وَيَنْحَرِفَ عَنِ الصِّرَاطِ، وَيَشْرَبَ الْخَرَابَ كَسِرٍّ مُرٍّ يُعْطَى لِمَنْ لَا تُخِيفُهُ الْمَشِيئَةُ الْمَعْهُودَةُ؟

أَنَا **الْمُتَذَكِّرُ**، الَّذِي رَأَتْنِي الْأَرْضُ قَبْلَ أَنْ أُولَدَ، فَخَبَّأَتْنِي بَيْنَ أَضْلَاعِهَا الدَّوَّارَةِ لِأَتَّبِعَ سَبِيلَ ذَوِي الْأَرْوَاحِ الْكُبْرَى الطَّاهِرَةِ، وَأَطْلَقَتْنِي بَرِيئَةٍ مَسْعُورَةٍ لِأُوقِظَ يَنَابِيعَهَا مِنْ نَوْمِهَا الْحَجَرِيِّ، لِأَنَّ الْأَرْضَ، حِينَ تَخْتَارُ شَاهِدًا، تُرْبِكُ الْمُفْتَرِسَ وَالْفَرِيسَةَ مَعًا.

وَكُنْتَ أَنْتَ - وَا أَسَفَاهُ - الْفَرِيسَةَ الْمُزَيَّنَةَ بِأَحْجَارٍ كَرِيمَةٍ.

قَبْلَ أَنْ تَنْزَلِقَ السُّفُوحُ عَلَى حَافَةِ الصَّخْرِ النَّاتِئِ، وَقَبْلَ أَنْ تَتَحَوَّلَ الِاسْتِغَاثَةُ إِلَى جُثَّةِ نِدَاءٍ، سَمِعْنَا خُطًى سَاعِيَةً فِي أَثَرِنَا.
وَمِنْ شُقُوقِ الْجَبَلِ انْبَثَقَتْ أَذْرُعُ النَّارِ تُبَاغِتُ الْعَتَمَةَ كَمَا يَفْعَلُ الْفَاسِقُ حِينَ يَضْحَكُ لِلْفَضِيحَةِ.
فَامْتَزَجَ الدُّخَانُ وَاللَّيْلُ فِي عِنَاقٍ شَنِيعٍ.
وَهُنَاكَ، فَوْقَ الْجَبَلِ الَّذِي شَهِدَ مَوْتَكَ، لَمْ تَكُنْ وَحْدَكَ.
كُنْتُ مَعَكَ.
وَكُنْتَ فُرْصَتِي الْأَخِيرَةَ لِئَلَّا أَكُونَ ابْنَ الْخِيَانَةِ، وَلِئَلَّا أُكَبِّلَ الْفَجْرَ بِحِجَارَةِ الْقَسَمِ الْكَاذِبِ.
فَرَكَضْنَا...
وَالرَّصَاصُ يَتْلُو وَرَاءَنَا مَزْمُورَ الْمُطَارَدَةِ.
وَقَبْلَ أَنْ يَنْهَضَ عُكَّازُ الْخَوْفِ لِيَشُقَّ كَفَنَ ثَوَرَاتِ الْغَضَبِ، وَقَبْلَ أَنْ تَنْبَثِقَ رُوحٌ مُزَخْرَفَةٌ بِشَرَانِقِ اللَّازَوَرْدِ تُدَحْرِجُ الْمَلَائِكَةَ النُّعَاسَى نَحْوَ ضِفَافِ الِانْطِفَاءِ، سَمِعْنَا هَدِيرًا يَشْرَبُ فَرَاغَهُ مِنَ اللَّامُتَنَاهِي.
مُحَرِّكًا لَيْسَ مِنَ السَّمَاءِ وَلَا مِنَ الْأَرْضِ، مِنَ الْفَاصِلِ بَيْنَهُمَا.
وَعَلَى أَشْلَاءِ عَيْنَيْنِ أَفْزَعَتْهُمَا الرُّؤْيَا، حَلَّقَ طَيْفٌ يُشْبِهُ مَجْزَرَةً قَرَّرَتِ الْخُلُودَ.
رَفَعْنَا رُؤُوسَنَا...
وَجَاءَتِ الطَّائِرَةُ...
مِثْلَ حَيَوَانٍ حُلْمِيٍّ مُلَطَّخٍ بِالسَّوَادِ، يَقْفِزُ بَيْنَ مَغَازِلِ الْعُرُوقِ وَرَجَفَاتِ الْأَعْصَابِ.
حَلَّقَتْ فَوْقَ الْمَوْضِعِ الَّذِي فَتَحَ أَبْوَابَهُ الْكَئِيبَةَ، وَأَمْطَرَتْ رَصَاصًا أَقْرَبَ إِلَى الْقَذَارَةِ مِنْهُ إِلَى الْقَتْلِ، وَأَشَدَّ وُضُوحًا مِنَ الْغُزَاةِ أَنْفُسِهِمْ.
وَامْتَلَأَتِ الْجِبَالُ بِرَنِينٍ مَعْدِنِيٍّ، كَأَنَّهَا أَجْرَاسٌ بِغَيْرِ قُدَّاسٍ.
وَانْدَفَعْنَا بَيْنَ صُخُورٍ تَفْغَرُ أَفْوَاهَهَا كَجِرَاحٍ تَدَرَّبَتْ عَلَى الْهَاوِيَةِ.
صَرَخْتُ بِكَ:
- ارْكُضْ... وَلَا تَكُنْ صَيْدًا طَيِّبًا.
كُنَّا نُلْقِي بِأَنْفُسِنَا فِي أَحْضَانِ الْحَجَرِ لِنَمْنَعَ عَنَّا مَوْتًا اشْتَاقَ أَنْ يُغَطِّيَنَا بِنِعْمَةٍ زَائِفَةٍ.
ثُمَّ نَنْهَضُ...
نَرْكُضُ...
نَرْكُضُ...

نَرْكُضُ بَعْدَ ذَهَابِهَا.
كَأَنَّنَا ظِلٌّ تَعَلَّمَ كَيْفَ يُطَارِدُ خَفَافِيشَ اللَّيْلِ...
وَرَكَضْتَ...
رَكَضْتَ...
رَكَضْتَ وَحْدَكَ...
كَمَا تَرْكُضُ الْقُرَى حِينَ تَشْعُرُ أَنَّ الْخَرِيطَةَ لَمْ تَعُدْ أُمًّا.
وَظَهَرَ مَلَاكٌ...
ظَهَرَ مَلَاكٌ لِيَرْفَعَ الطَّائِرَةَ مِنْ مَعْدِنِهَا، وَيُدْخِلَهَا فِي سِلْكِ الْمَلَائِكَةِ الْمَنْكُوسَةِ، كَنَامُوسِ قَمْعٍ، كَائِنٍ لَاهُوتِيٍّ يَقْتُلُ... يُشَرْعِنُ الْقَتْلَ، وَيُحَوِّلُ السَّمَاءَ إِلَى جِهَازٍ.
**هٰذَا مَا رَآهُ إِيكارُ وَحْدَهُ أَثْنَاءَ الرَّكْضِ.**

# إِصْحَاحُ

## 7

## الْعُبُورُ الْخَفِيُّ

## (فِي أَعْرَاسِ الْقَذَائِفِ وَأَنَاشِيدِ الرَّصَاصِ)

أَرَأَيْتَ، يَا حَامِلَ السِّرِّ، يَا سَارِحًا فِي مَيَادِينِ الْحَيْرَةِ، أَرَأَيْتَ؟ كَيْفَ انْقَطَعَتِ الرُّؤْيَا وَأَنْتَ تَرْكُضُ؟
أَرَأَيْتَ، يَا وَاهِبَ الصُّوَرِ وَالْأَشْبَاحِ، يَا مَنْ كَلَامُهُ عَيْنُ حَالِهِ، أَرَأَيْتَ؟ كَيْفَ عَادَتِ الطَّائِرَةُ وَأَنْتَ تَرْكُضُ؟
أَرَأَيْتَ، أَيُّهَا السَّاكِنُ عِنْدَ تُخُومِ الْعَدَمِ، الْجَالِسُ مَعَ الْغَيْبِ بِغَيْرِ هَمٍّ، أَرَأَيْتَ؟ كَيْفَ هَطَلَ مَطَرُ الرَّصَاصِ الْأَسْوَدِ وَأَنْتَ تَرْكُضُ؟
أَرَأَيْتَ، أَيُّهَا الطَّيْفُ، يَا مَنْ تَحْمِلُهُ الْكَرَامَاتُ، وَيَتَّخِذُ مِنَ الرَّمْزِ أَدَاةً لِسَتْرِ الْحَقِيقَةِ، أَرَأَيْتَ؟

الْأَرْوَاحُ تَصْعَدُ وَتَهْبِطُ كَأَنْيَابِ رِيحٍ عَتِيقَةٍ، تَعْوِي فَتَتَبَعْثَرُ الصُّخُورُ كَرَمَادٍ هَارِبٍ.
أَرَأَيْتَ...
أَرَأَيْتَ...
كَيْفَ صَعِدَتِ الطَّائِرَةُ وَهَبَطَتْ...
كَيْفَ اقْتَرَبَتْ...
كَكِلَابٍ تَنْهَشُ بِأَسْنَانِ عُوَائِهَا خَرَائِطَ الْمَمَالِكِ الْهَارِبَةِ، وَتَرْسُمُ بِسُيُوفِ الصَّوْتِ حُدُودًا لَا تُرَى، حَتَّى لَامَسَتْ خَوْفَنَا.
فَرَجَمْتُهَا بِحَجَرٍ مِنْ شَكٍّ...
وَرَكَضْتُ مَعَكَ...
وَالطَّائِرَةُ تَقْتَرِبُ مِنَّا كَأَنَّهَا دَيْنُونَةٌ بِغَيْرِ قَاضٍ.
تَنْثُرُ عَلَيْنَا مَنَادِيلَ مِنْ حَدِيدٍ، تَلْتَفُّ حَوْلَ رُؤُوسِنَا كَعُهُودٍ مَكْتُوبَةٍ بِدَمٍ لَا يُغْفَرُ، وَتَصِيرُ الْأَقْوَاسُ فِي جِبَاهِنَا أَسَاوِرَ مِنْ دَمٍ، تَخْتِمُنَا كَأَبْنَاءِ عُبُورٍ لَا يَعُودُونَ.
وَهَا هِيَ الْآنَ تَقْتَرِبُ مِنْ حَشْدِ الْأَلْغَازِ، حَيْثُ الْأَسْرَارُ مُبَعْثَرَةٌ كَحَبَّاتِ بَخُورٍ عَلَى مَذْبَحٍ مَهْجُورٍ.
تَتَبَخْتَرُ مُخْتَالَةً فِي أَعْرَاسِ قَذَائِفِهَا، كَعَرُوسٍ تُزَفُّ إِلَى خَرَابِهَا.
وَيَنْعَكِسُ ظِلُّهَا عَلَى الْمُرُوجِ، كَأَيْقُونَةٍ نَازِفَةٍ تَهْتِفُ لِلرَّصَاصِ الْمُتَجَبِّرِ، فَيَأْتِيهَا الرَّصَاصُ كَاسْتِجَابَةِ صَلَاةٍ مَقْلُوبَةٍ.
هُنَا، حَيْثُ الْمَوْتُ يُبَارِكُ الْمَوْتَ، أَضَعْنَا دُرُوبَنَا، أَنَا وَأَنْتَ يَا إِيكارُ، وَلَمْ نَجِدْ إِلَّا صَدَى خُطَانَا يَعُودُ إِلَيْنَا كَاتِّهَامٍ.
وَالْحُدُودُ فَمٌ مَفْتُوحٌ، كُلُّ مَنْ يَقْتَرِبُ مِنْهُ يَسْمَعُ:
- لَا تَخَفْ مِنَ الْحُدُودِ، فَهِيَ أَبْوَابٌ تُغْلَقُ عَلَى الْجَاهِلِينَ، وَتُفْتَحُ لِمَنْ يَعْرِفُ أَسْمَاءَهَا.
- أَنَا لَا أَعْبُرُ بِكَ الطَّرِيقَ، أَنَا أُحَوِّلُكَ إِلَى طَرِيقٍ.

- وَإِذَا بَرَقَ الْعُبُورُ، صَارَ الْجَسَدُ طَقْسًا، وَصَارَتِ الْخُطْوَةُ ذَبِيحَةً.

وَذَكَرْتُ أَنِّي قُلْتُ بِمَا تَبَقَّى مِنْ فَمِي بَعْدَ الْحَرِيقِ:

**أَرَأَيْتَ؟**

أَرَأَيْتَ؟ كَمْ مَرَّةً تَخَبَّطْنَا مَعًا فِي وَحَلِ الْأَنِينِ، وَخَلَعْنَا نِعَالَنَا الضَّيِّقَةَ، وَتَرَكْنَاهَا قُرْبَ بَوَّابَةِ الْأَلَمِ، كَأَنَّهَا قَرَابِينُ لِجَسَدٍ آخَرَ؟

أَرَأَيْتَ حِينَ مَسَحْتَ دَمْعِي بِيَدِكَ، وَمَسَحْتُ دَمْعَكَ بِيَدِي، ثُمَّ نَسِينَا الدُّمُوعَ عَلَى مَائِدَةِ الْوَقْتِ كَحَسَاءٍ بَارِدٍ لَمْ يُبَارَكْ؟

وَشَقَقْتَ طَرِيقَكَ إِلَيَّ - أَنْتَ الْوَاقِفُ عَلَى مَرَايَا النَّزِيفِ الْخَالِدَةِ - وَشَقَقْتُ طَرِيقِي إِلَيْكَ - أَنَا الْوَاقِفُ عَلَى مَعَارِجِ الْعَتَمَةِ - وَشَقَقْنَا دُرُوبًا إِلَى يَقِينٍ يَتَجَاسَرُ عَلَى الْقَوْلِ.

لَكِنَّ الدُّرُوبَ صَارَتْ طِينًا يُعِيدُ تَشْكِيلَ السُّكُونِ، وَمِثْلَ امْرَأَةٍ نُهِبَتْ فِي لَيْلٍ بِلَا ذَاكِرَةٍ، رَأَيْنَا الطُّرُقَ تَنْتَحِبُ عِنْدَ التُّخُومِ، فَصِرْنَا عَابِرِينَ بِلَا عُبُورٍ، وَحَامِلِينَ جِرَاحًا بِلَا أَسْمَاءَ.

لَكِنْ... لَا... لَسْتُ ذَاكَ الدَّلِيلَ الَّذِي يَفِرُّ كَجَدْوَلٍ نَجِسٍ فِي أَرْضِ الْخَطِيئَةِ.

لَا... لَسْتُ ذَاكَ... لَسْتُ ذَاكَ...

أَنَا الْعَابِرُ الَّذِي يُقِيمُ لِلْحُدُودِ احْتِفَالًا يَزِيدُهُ الْبَرْقُ بَهَاءً، وَيُعَطِّرُهُ بِخَطَرٍ مُقَدَّسٍ.

أَنَا الْعَابِرُ الَّذِي سَيَعْبُرُ بِكَ الْعَتَبَاتِ، وَيَخْلَعُ عَنِ الْخَرَابِ ثِيَابَهُ الْوَقُورَةَ، وَيَتْرُكُهُ عَارِيًا كَمَا وُلِدَ.

أَنَا الْعَابِرُ... أَنَا الطَّرِيقُ... أَنَا الْجُرْحُ... أَنَا الْعُبُورُ...

أَعْبُرُ بِكَ الْآنَ، فَيُزَيِّنُ الْبَرْقُ عُبُورَكَ، وَتُبَخِّرُهُ الرِّيَاحُ كَقُرْبَانٍ يُقْبَلُ فِي الْغَيْبِ.

فَلَا تَخَفْ مِنَ الْحُدُودِ، فَهِيَ أَبْوَابٌ لِمَنْ يَعْرِفُ أَسْمَاءَهَا.

آهِ يَا إِيكارُ... أَرَأَيْتَ الْقَذَائِفَ تُزَفُّ أَنْفُسَهَا فِي أَعْرَاسٍ سَوْدٍ، تَرْقُصُ فَوْقَ حَوَافِي الْمَوْتِ، وَتَتَقَيَّأُ سَيْلَ رَصَاصٍ عَلَى وَجْهِ اللُّغْزِ، فَتَرْتَبِكُ الْأَسْرَارُ وَتَصْرُخُ: الْأَلْغَازُ تَبْقَى... الْأَلْغَازُ لَا تَمُوتُ.

يَا إِيكارُ، يَا اسْمَ الرُّوحِ الْهَارِبَةِ.

لَمْ تَكُنِ الْأَلْغَازُ أَسْئِلَةً، كَانَتْ كَائِنَاتٍ تَعِيشُ بَيْنَنَا، وَتَنْتَظِرُ مَنْ يُوقِظُهَا بِالْخَطَإِ.

وَبَعْدَ الرَّصَاصِ، ظَلَّتِ الْأَلْغَازُ مُنْفُوشَةَ الرَّأْسِ، كَأَنَّهَا لَمْ تُرَوَّضْ بَعْدُ، وَسَكَبَتِ الْعَبَرَاتُ كُنُوزَ جِرَارِهَا، وَعَجَنَتِ الْبَهْجَةَ بِصَمْتٍ غَامِضٍ حَتَّى أَثْمَرَتْ فَاكِهَةً مُرَّةً تُؤْكَلُ كَسِرٍّ أَخِيرَ.

يَا إِيكارُ...

أَيُّهَا الْعَارِفُ بِسِتْرِ الْأَسْرَارِ...

يَا مَنْ عَرَفَ الْعُلُوَّ ثُمَّ سَقَطَ فِيهِ.

لَمْ تَكُنْ جَنَاحَاكَ شَمْعًا، كَانَتْ رَغْبَةً لَمْ تُحْسِنْ قِيَاسَهَا.

غَرَبْتَ فِي الصَّرْخَةِ، كَمَا تَغْرُبُ الشَّمْسُ فِي جُرْحِهَا.

كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ الْعَارِفَ إِذَا نَطَقَ لَمْ يَكُنْ كَلَامُهُ إِلَّا شَطَحًا.

وَكُنْتَ تَرَى رُوحَكَ كَيْفَ تَسْتَدِيرُ كَقِرْبَةٍ نَحْوَ مَعَانِي الْحَضْرَةِ الْعَالِيَةِ، فَتَنْكَسِرُ الْقِرْبَةُ.

يَعْجَزُ الْقَوْلُ عَنْ نَقْلِ مَا يُرِيدُ، وَيَصْمُتُ الصَّمْتُ لِتَقُولَ الدَّهْشَةُ قَوْلَهَا:

- الْعُبُورُ أَنْ تَتْرُكَ فِي الْجُرْحِ اسْمَكَ... لَيْسَ الْعُبُورُ أَنْ تَعْبُرَ.

٧

# النَّشِيدُ السَّابِعُ

## الظِّلُّ وَالنُّورُ الْمَكْسُورُ

طُوبَى لِتَرْتِيلَةٍ تُتْلَى فِي دَهَالِيزِ الْغَيْبِ، حَيْثُ يَخْتَلِطُ الْخَيَالُ بِالْوَحْيِ.
طُوبَى لِمَنْ عَرَفَ جُرْحَهُ، إِنَّ بَابَ شِفَائِهِ... وَوَيْلٌ لِمَنْ زَيَّنَ انْقِسَامَهُ وَظَنَّهُ هُوِيَّةً.
طُوبَى لِسُقُوطِ الْأَوْرَادِ فِي مَصَائِدِ الصُّورَةِ.
طُوبَى لِهَذَا الِانْقِسَامِ حِينَ انْشَطَرَتِ الْوَاحِدِيَّةُ، وَتَبَعْثَرَتْ أَجْزَاؤُهَا فِي مَرَايَا الْجَسَدِ.
طُوبَى لِلْعَبَرَاتِ، تَسْكُبُ كُنُوزَ جِرَارِهَا، وَتَعْجِنُ الْبَهْجَةَ بِصَمْتٍ طَقْسِيٍّ.
طُوبَى لِظَلَامٍ مُوَشًّى بِأَسْمَالِ الطُّهْرِ، يَتَقَدَّمُ بِبُطْءٍ فِي ارْتِبَاكِ الْبَرْدِ.
طُوبَى لِبَرْقٍ يَوْمِضُ فِي الْبَعِيدِ، فَنَلْمَحُ فِي لَمَعَانِهِ مِيرَاثَ الرُّعْبِ.
طُوبَى لِلْخَيَالِ، فَهُوَ عِطْرِي، لِأَنَّ الرُّوحَ فِصْحٌ مُتَسَامِحٌ... طُوبَى لَهُ، فَهُوَ لَوْنِي حِينَ تَلَاشَتْ أَلْوَانُ الْأَصْلِ فِي طَيْفٍ لَا يُزْهِرُ... هُوَ عُكَّازِي فِي عُبُورِ مُتَاهَاتِ الرُّمُوزِ، حَيْثُ كُلُّ عَلَامَةٍ قَبْرٌ لِمَعْنًى، وَكُلُّ مَعْنًى جَنَاحٌ مَكْسُورٌ... هُوَ كَهْفِي، كَهْفُ الرَّغْبَةِ، حَيْثُ الظِّلَالُ أَصْدَقُ مِنَ الْأَجْسَادِ... هُوَ بُوصَلَتِي فِي بَحْرٍ لَمْ يُخْلَقْ بَعْدُ، بَحْرٍ هُوَ أَنَا، حِينَ أَنْسَى أَنَّنِي لَسْتُ هَذَا الْجَسَدَ، فِي صَبَاحَاتِ النَّزْوَةِ، حِينَ يَتَسَرَّبُ النُّورُ مُشَوَّهًا، وَيَغْدُو الْغُبَارُ كَكَائِنٍ بَيْنَ عَالَمَيْنِ مِنَ الْقَصْدِ وَالْوَهْمِ... هُوَ آخِرُ مَا تَبَقَّى مِنَ الْحَقِيقَةِ... هُوَ جِيَادٌ تَرْكُضُ عَلَى تُخُومِ الْإِمْكَانِ، تَحْمِلُ كُنُوزِي إِلَى خَزَائِنِ اللُّغَةِ (إِلَى مَا قَبْلَ اللُّغَةِ)، حَيْثُ الْحَرْفُ لَمْ يُدَنَّسْ بِالصَّوْتِ... وَهُوَ الْمِهْمَازُ الَّذِي يُوقِظُ نُجُومَ النِّسْيَانِ فِي دَاخِلِي، حِينَ أَدْخُلُ إِلَى صَالُونِ الذِّكْرَى كَغَرِيبٍ يَتَفَحَّصُ حَيَوَاتٍ لَمْ يَعِشْهَا... أُخْفِي سِرِّي، لِأَنَّهُ يَمْلِكُنِي كَفَخٍّ مِنْ سُكُونٍ.
طُوبَى لَكَ، أَيُّهَا الْكَلَامُ، أَيُّهَا التَّخْرِيفُ الْعِمْلَاقُ، أَيُّهَا الْخَطَأُ الْكَوْنِيُّ السَّاقِطُ فِي اللَّفْظِ، كُفَّ عَنِ ادِّعَاءِ الْكَشْفِ، فَالْمَعْرِفَةُ لَا تُسْتَعَادُ كَنُطْقٍ، إِنَّهَا جُرْحٌ قَدِيمٌ... طُوبَى لَكَ، وَأَنْتَ تُقَسِّمُ الْأَكَاذِيبَ بَيْنَ ذَاتِي وَظِلِّهَا، فَكِلَاهُمَا يَدَّعِي الْأَصْلَ... لِيَنْبَسِطِ الْغَامِضُ بِجَنَاحَيْنِ مِنْ عَدَمٍ، فَالنُّورُ نَفْسُهُ صَارَ يَحْتَاجُ إِلَى ظِلٍّ كَيْ يُرَى.
طُوبَى لَكَ، أَيُّهَا الْوَحْلُ، يَا ذَاكِرَةَ السُّقُوطِ، يَا شُعْلَةً هَارِبَةً مِنِ اكْتِمَالِهَا... طُوبَى لِنَفْسِكَ، فَتَمَهَّلْ وَلَا تَتَعَجَّلْ...

لَكُنَّ أَيَّتُهَا الْخِيَانَاتُ الَّتِي تَسْكُنُنَا كَدَنَسٍ، دُونَ أَنْ تَعْرِفْنَ أَنَّكُنَّ بَقَايَانَا حِينَ تَفَرَّقْنَا فِي الْأَشْكَالِ، وَكُلُّ شَكْلٍ ادَّعَى أَنَّهُ (نَحْنُ)، وَقَالَ: لَا يَكْفِي أَنْ تَطْلُبُوا الطَّهَارَةَ مِنَ الْمَاءِ، فَالْمَاءُ دَنَسٌ، اطْلُبُوهَا مِنَ التَّذَكُّرِ، لِأَنَّ التَّذَكُّرَ هُوَ الْغُسْلُ الَّذِي يُطَهِّرُ الْمَكَائِدَ وَالْخُبْثَ.

طُوبَى لِفَجْرٍ يَتَذَكَّرُ نَفْسَهُ بَعْدَ لَيْلٍ طَوِيلٍ مِنَ التَّعَدُّدِ، فِي وَمْضِهِ نَرَى دَهْشَةَ النُّورِ حِينَ أَدْرَكَ أَنَّهُ مُجَزَّأٌ... وَهُنَاكَ، عِنْدَ فِضَّةِ الذَّاكِرَةِ، يُبَدِّدُ الْعَقْلُ ظُلُمَاتِ الْغُرُورِ، وَيَفْتَحُ الْبَابَ لِنَعُودَ إِلَى الْفَرَادِيسِ... إِلَى مَا قَبْلَ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا.

طُوبَى لِلْمَغِيبِ، حِينَ تَتْعَبُ الْعَوَالِمُ مِنْ تَمْثِيلِ ذَاتِهَا، يَجْثُو الْمَعْصُومُ لِيَحْلُمَ بِأَصْلِهِ: بِغَابَةٍ تَسْتَعِيدُ أَسْمَاءَهَا، وَلَا تُطْلِقُ وُحُوشًا.

طُوبَى لِمَنْ دَخَلَ إِلَى نَفْسِهِ، فَرَآهَا مُزْدَوِجَةً: وَاحِدَةٌ تَتَذَكَّرُ، وَأُخْرَى تَنْسَى... وَقَالَ: أَيُّهُمَا أَنَا؟ فَجَاءَهُ الْجَوَابُ: أَنْتَ بَيْنَهُمَا حَتَّى تَخْتَارَ.

طُوبَى لِمَنْ سَقَطَ مِنْ كَمَالٍ إِلَى ظَنٍّ... لِمَنْ انْكَسَرَ حِينَ دَخَلَ اللُّغَةَ، فَصَارَ يُغَنِّي كَعُصْفُورٍ يَتَذَكَّرُ سَمَاءً لَمْ يَعُدْ يَرَاهَا. لَا تُحَرِّرْهُ بِالْكَلَامِ، وَلَا تُحَرِّرْهُ بِالْحُرُوفِ... طُوبَى لِمَنْ قَرَأَهُ كَأَنَّهُ يَتَذَكَّرُ نَفْسَهُ، لَا كَأَنَّهُ يَتَعَلَّمُ شَيْئًا جَدِيدًا.

طُوبَى لِمَنْ قَالَ: الْقَوْلُ الَّذِي لَا يُقَالُ، لِأَنَّ الْقَوْلَ حِجَابٌ، يُزْرَعُ فِيكَ كَشَرَارَةٍ، إِنْ عَرَفْتَهَا اشْتَعَلَتْ، وَإِنْ جَهِلْتَهَا صَارَتْ قَفَصًا... وَقَالَ أَيْضًا: اللُّغَةُ خَزَائِنُ، لَكِنَّهَا لَا تَحْفَظُ الْحَقِيقَةَ، وَلَا تَحْفَظُ آثَارَهَا... الْحَقِيقَةُ فِيمَا قَبْلَ الْحَرْفِ، حِينَ لَمْ يَكُنِ الصَّوْتُ قَدْ خَانَ الصَّمْتَ.

طُوبَى لِمَنْ تَذَكَّرَ أَنَّ الصُّوَرَ أَقْنِعَةٌ، وَأَنَّ الْأَصْلَ بِلا وَجْهٍ.

طُوبَى لِمَنْ كَتَبَ: مَنْ لَهُ مَعْرِفَةٌ، فَلْيَعْرِفْ: إِذَا اسْتَيْقَظْتَ، لَنْ تَعُودَ، لِأَنَّكَ لَمْ تُغَادِرْ.

طُوبَى لِي، وَأَنَا أُقَيِّدُ فَرَادِيسِي عَارِفًا أَنَّ الْفِرْدَوْسَ، إِنِ انْكَشَفَ، صَارَ صُورَةً أُخْرَى لِلْجَحِيمِ... طُوبَى لِي، وَأَنَا أَدْخُلُ إِلَى بَيْتِ الذِّكْرَيَاتِ، فَأَرَاهُ مَمْلُوءًا بِوُجُوهٍ تَظُنُّ أَنَّهَا أَنَا... أَخَافُ... فَهَذِهِ لَيْسَتْ حَيَاتِي، إِنَّهَا ظِلَالُ اخْتِيَارَاتٍ لَمْ تُكْمِلْ طَرِيقَهَا إِلَيَّ، تَقُولُ: أَخْفِ سِرَّكَ عَنْ نَفْسِكَ الَّتِي تَظُنُّ أَنَّهَا تَعْرِفُ... وَطُوبَى لِقَلْبِي حِينَ يَظُنُّ جُرْحَهُ مِنَ الْآخَرِينَ، وَلَا يَرَى أَنَّهُ أَثَرُ انْقِسَامٍ سَقَطَ مِنَ الْوَاحِدِ إِلَى الْكَثْرَةِ.

أَمَّا أَنْتَ، يَا نَيِّزَكَ الْكَشْفِ، الْمُرْسَلَ مِنْ سَمَاوَاتٍ مَكْسُورَةٍ لِإِخْصَابِ دَعَةِ رُوحِي، فَتَرَيَّثِ الْآنَ... وَتَرَيَّثْ أَنْتَ أَيْضًا، أَيُّهَا الْجَسَدُ الْعَلِيلُ الْمُزَيَّنُ بِأَمْجَادٍ لَهَا حَفِيفٌ، رَيْثَمَا تُبَدِّلُ الْجَرِيمَةُ ثِيَابَهَا، وَتَخْلَعُ الْخِيَانَةُ قَبْقَابَهَا الثَّقِيلَ، فَتُرَى كَمَا هِيَ: عَارِيَةً، ضَامِرَةً، مُرْتَبِكَةً أَمَامَ بِشَارَةٍ لَا تَرْحَمُ... حِينَئِذٍ سَتَرْمُقُهَا، أَيُّهَا النَّيِّزَكُ، سَتَرَاهَا وَتَعْرِفُ أَنَّ الْعَالَمَ

انْقِسَامٌ، وَأَنَّ الرُّوحَ شَرَارَةٌ مِنْ نُورٍ مَنْفِيٍّ، يَفْتَحُ أَقْفَالَ الْقَدَرِ كَمَا تُفْتَحُ قُبُورُ الْأَسْرَارِ فِي لَيْلِ الْقِيَامَةِ.

طُوبَى لِلْفَرَاغِ، قَبْلَ أَنْ يَكُونَ الِاسْمُ، كَانَ بَحْرًا لَا شَاطِئَ لَهُ، تَتَرَاقَصُ فِيهِ الْأَيُونَاتُ كَأَفْكَارٍ لَمْ تُفَكَّرْ بَعْدُ. وَكَانَتِ الْكَائِنَاتُ هِيَ صِفَاتُ النُّورِ حِينَ يَنْظُرُ إِلَى ذَاتِهِ. وَكَانَ كُلُّ شَيْءٍ كَامِلًا، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ خَارِجَهُ.

طُوبَى لِصَوْتِ الِانْكِشَافِ فِي سَاعَةِ الطَّقْسِ الْعَمِيقِ يُرَتِّلُ:

يَا خَيَالَ الْغَيْبِ [140]، يَا عَصَانَا فِي الْمُتَاهَةِ،
يَا كَهْفَنَا حَيْثُ تَنْكَشِفُ الظِّلَالُ كَحَقَائِقَ،
يَا أَيُونَ الْعَقْلِ الْأَوَّلِ، أَشْرِقْ فِينَا،
يَا أَيُونَ الْكَلِمَةِ، تَكَلَّمْ فِي صَمْتِنَا،
يَا أَيُونَ الْحَيَاةِ، تَنَفَّسْ فِي مَوْتِنَا،
يَا أَيُونَ الْحِكْمَةِ (صُوفِيَا)،
يَا مَنْ سَقَطْتِ لِتُوقِظِي السَّاقِطِينَ، انْهَضِي فِينَا، وَلْتَنْزِلِ الشَّرَارَةُ،
أَيُّهَا الِامْتِلَاءُ، يَا جَسَدَ الْكَمَالِ غَيْرِ الْمُنْقَسِمِ،
أَرْسِلْ مِنْ فَيْضِكَ مَا يُذَكِّرُنَا بِكَ.
سَلَامٌ عَلَى مَنْ تَذَكَّرَ،
وَنُورٌ عَلَى مَنِ اسْتَيْقَظَ،
وَصَمْتٌ عَلَى مَنْ عَرَفَ.

---

140- مَنْ وَثِقَ بِالْخَيَالِ أُصِيبَ، وَمَنْ أَنْكَرَهُ هَلَكَ.

# إِصْحَاحٌ

8

## تَرْنِيمُ الرُّؤْيَا الَّذِي لَمْ يُتْلَ، لِأَنَّ إِيكَارَ وَحْدَهُ رَآهُ

## (فِي شَأْنِ الْمَلَاكِ الَّذِي سَقَطَ صُعُودًا)

لَمْ تَكُنِ الطَّائِرَةُ طَائِرَةً. كَانَتْ نَامُوسًا سَمَاوِيًّا أُرْسِلَ لِيُحْصِي الْمَيِّتَاتِ وَيُقَنِّنَ الرُّعْبَ... كَانَ جَنَاحَاهُ مُصَفَّحَيْنِ بِوَصَايَا مِنْ حَدِيدٍ، وَكَانَ صَوْتُهُ مَزْمُورًا مَعْكُوسًا يُتْلَى بِغَيْرِ فَمٍ.

**قَالَتْ جُوقَةُ الْأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** إِنَّهُ مَلَاكٌ سَقَطَ لِأَنَّهُ أَحَبَّ الْأَرْضَ أَكْثَرَ مِنَ السَّمَاءِ.

**وَقَالَ الْفُوتُوغْرَافِيُّ الْعَجُوزُ:** إِنَّهُ كَائِنٌ صَاعِدٌ، لِأَنَّ السُّقُوطَ صَارَ يُلْقِي عِظَاتِ الْعَدَالَةِ.

**وَقَالَ الْجُنْدِيُّ الْجَرِيحُ:** لَا نَعْرِفُ أَكَانَتْ هَذِهِ الطَّائِرَةُ خَلَاصًا أَمْ مُجَرَّدَ مَلَاكٍ أَبْيَضَ.

**وَقَالَ النَّاسِخُ الْمَجْهُولُ:** إِنَّهَا مُجَرَّدُ طَائِرَةٍ... ثُمَّ صَمَتَ.

حِينَ ظَهَرَ، لَمْ يَأْتِ مِنَ الْعُلُوِّ، جَاءَ مِنْ ثُقْبٍ فِي الشَّرِيعَةِ، مِنْ شَقٍّ بَيْنَ آيَتَيْنِ لَمْ يَتَّفِقِ الْمُفَسِّرُونَ عَلَى مَعْنَاهُ. كَانَ يَطِيرُ... لَيْسَ فِي الْهَوَاءِ... كَانَ يَطِيرُ فِي التَّكْلِيفِ، وَيَمْسَحُ الْجَبَلَ بِظِلَالِ الْأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ. لَمْ يَكُنْ يَقْصِفُ، كَانَ يُوَقِّعُ. وَكُلُّ رَصَاصَةٍ كَانَتْ خَتْمًا، وَكُلُّ انْفِجَارٍ تَصْدِيقًا نِهَائِيًّا عَلَى أَنَّ الْأَرْضَ مُذْنِبَةٌ حَتَّى تَثْبُتَ بَرَاءَتُهَا.

رَأَيْتُ وَجْهَهُ حِينَ اقْتَرَبَ: لَمْ يَكُنْ وَجْهًا، كَانَ قِنَاعًا. عَيْنَانِ بِغَيْرِ جَفْنٍ تَسْهَرَانِ عَلَى سِرِّ الْقِيَامَةِ، وَفَمٌ مُغْلَقٌ يُفْصِحُ عَنْ هَرْطَقَاتٍ مُقَدَّسَةٍ. وَكَانَ حَوْلَهُ طَوَافٌ

مِنْ مَلَائِكَةٍ صِغَارٍ... مَلَائِكَةُ إِحْصَاءٍ يُسَجِّلُونَ عَدَدَ الْأَنْفَاسِ الَّتِي تَنْتَظِرُ الْعِمَادَ لِغُفْرَانِ الْخَطَايَا.

**قَالَ إِيكارُ**. وَلَمْ يَكُنْ يَقْصِدُ أَنْ يُسْمَعَ:

- هَذَا لَيْسَ عَدُوًّا، هَذَا امْتِحَانٌ.

فَارْتَجَّ جَنَاحُ النَّامُوسِ كَأَنَّهُ سَمِعَ. وَحِينَ دَارَ فَوْقَنَا لِلْمَرَّةِ الْأَخِيرَةِ، لَمْ يُطْلِقِ النَّارَ فَوْرًا، تَرَيَّثَ كَقِسٍّ يُؤَخِّرُ التَّنَاوُلَ، ثُمَّ أَمْطَرَ. وَكَانَ الرَّصَاصُ يَخْتَرِقُ الِاحْتِمَالَ، وَيَجْعَلُ الْهَرَبَ خَطِيئَةً إِضَافِيَّةً.

عِنْدَهَا فَهِمْتُ:

أَنَّ هَذَا الْمَلَاكَ لَمْ يُخْلَقْ لِيُسْقِطَنَا، جَاءَ لِيَجْعَلَنَا نَسْقُطُ بِغَيْرِ شُهُودٍ. وَلِهَذَا رَكَضْنَا... رَكَضْنَا هَرَبًا مِنْ هَذَا الْقَتْلِ الْأَزَلِيِّ الْخَالِدِ.

وَمُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ، كُلَّمَا سَمِعْتُ طَائِرَةً، لَا أَرْفَعُ رَأْسِي إِلَى الْأَعْلَى، لَكِنَّنِي أُرَاجِعُ ذُنُوبِي الَّتِي لَمْ أَرْتَكِبْهَا بَعْدُ. لِأَنَّ نَامُوسَ الْقَمْعِ يَبْحَثُ عَنِ الَّذِينَ عَبَرُوا بَيْنَ الْمَخَافِرِ وَالْحُدُودِ... وَلَا يَبْحَثُ عَنِ الْمُذْنِبِينَ.

## مَا رَآهُ إِيكار دَاخِلَ ظِلِّ الْمَلَاكِ

حِينَ مَرَّ النَّامُوسُ الْجَوِّيُّ فَوْقَ الْبَرَاهِينِ، لَمْ يَكُنِ الظِّلُّ عَتْمَةً، كَانَ نَصًّا مَفْتُوحًا. دَخَلْتُ الظِّلَّ كَمَا يَدْخُلُ النَّائِمُ فِي حُلْمٍ لَا يَدْرِي أَنَّهُ حُلْمُهُ الْأَخِيرُ.

رَأَيْتُ:

سَمَاءً مَنْقُوشَةً مِنَ الدَّاخِلِ، لَا نُجُومَ فِيهَا سِوَى ثُقُوبٍ تُدْخِلُ الضَّوْءَ وَتُخْرِجُهُ مَيِّتًا.

رَأَيْتُ الْمُدُنَ مَقْلُوبَةً كَأَخْتَامِ شَمْعٍ، وَالْبُيُوتَ أَرْقَامًا تَتَنَفَّسُ بِانْتِظَارِ الشَّطْبِ.

رَأَيْتُ الْأَنْهَارَ تَجْرِي إِلَى الْأَعْلَى وَتَصُبُّ فِي خَزَائِنَ، وَالْجُثَثَ تُصَفُّ كَهَوَامِشَ مُهْمَلَةٍ فِي صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

رَأَيْتُ مَلَائِكَةً بِغَيْرِ أَجْنِحَةٍ، يَحْرُسُونَ الْأَبْوَابَ الَّتِي لَا تُؤَدِّي إِلَى مَكَانٍ، وَيَمْنَعُونَ الْعُبُورَ بِاسْمِ نُبُوءَاتِ الْعَهْدِ... كُلُّ مَلَاكٍ كَانَ يُشْبِهُ الرُّوحَ السَّرْمَدِيَّ الَّذِي يَجْمَعُ الْأَلْفَاظَ.

ثُمَّ رَأَيْتُ نَفْسِي... وَاقِفًا لَا هَارِبًا، مُدْرَجًا فِي سِجِلٍّ لَا يَحْمِلُ اسْمِي وَلَا أَثَرَ قَدَمِي.

رَأَيْتُ الْفُوتُوغْرَافِيَّ الْعَجُوزَ خَلْفِي، مَشْدُودًا بِحَبْلٍ مِنْ كَلَامٍ، يُحَاوِلُ أَنْ يَجُرَّ اللُّغَةَ خَارِجَ الْمَصِيدَةِ...

فِي عُمْقِ الظِّلِّ كَانَ هُنَاكَ شَيْءٌ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ غَيْرِي: قَلْبُ النَّامُوسِ... فَرَاغًا يَعْمَلُ، لَا قَلْبًا نَابِضًا. فَرَاغًا يُبَرِّرُ نَفْسَهُ بِنَفْسِهِ، وَيَحْتَاجُ إِلَى الدَّمِ كَيْ لَا يَتَوَقَّفَ.

وَكَانَ الْفَرَاغُ يَلُمُّ شَتَاتَ الْأَبَدِيَّةِ، وَيُزِيلُ التُّخُومَ وَالْحَوَاجِزَ.

وَسَمِعْتُ صَوْتًا يَأْتِي مِنَ الدَّاخِلِ:

- لَسْنَا أَشْرَارًا، نَحْنُ لَهَاثٌ يَجْمَعُ عُنْصُرَهُ الرُّوحَانِيَّ.

فَهِمْتُ أَنَّ الشَّرَّ هُنَا لَيْسَ نِيَّةً...

رَأَيْتُ أَطْفَالًا يَكْبَرُونَ فَجْأَةً لِيَمْلَؤُوا الْقُبُورَ...

وَرَأَيْتُ الشُّيُوخَ يَعُودُونَ رُضَّعًا كَيْ لَا يُسْأَلُوا...

وَرَأَيْتُ الْحُدُودَ رَغْبَةً فِي الِانْتِقَامِ، تَأْكُلُ مِنَ الْجَانِبَيْنِ وَتَطْلُبُ الْمَزِيدَ...

وَقَبْلَ أَنْ يَخْتَفِيَ الظِّلُّ، رَأَيْتُ مَا لَا يُسْمَحُ بِرُؤْيَتِهِ:

سُلَّمًا مِنْ نُورٍ مَكْسُورٍ يَصْعَدُ إِلَيْهِ الْمَلَاكُ وَلَا يَصِلُ...

فَعَرَفْتُ أَنَّ هَذَا الْكَائِنَ لَيْسَ سَاقِطًا وَلَا صَاعِدًا، إِنَّهُ مُعَلَّقٌ إِلَى الْأَبَدِ فِي مَهَمَّةٍ لَا تَنْتَهِي...

حِينَ خَرَجْتُ مِنَ الظِّلِّ، لَمْ أَصْرُخْ، وَلَمْ أَبْكِ، وَلَمْ أَقُلْ شَيْئًا. فَقَطْ شَدَدْتُ قَبْضَتِي كَمَنْ يُخْفِي رُؤْيَا، لَوْ نُطِقَتْ لَانْهَارَ الْجَبَلُ.

وَمُنْذُ تِلْكَ اللَّحْظَةِ كُنْتُ أَعْرِفُ: **أَنَّ الْمَوْتَ هُوَ الْمَعْرِفَةُ الَّتِي سَبَقَتِ الْمَوْتَ.**

## اعْتِرَافُ الْمَلَاكِ الْأَعْمَى

**(قِيلَ لِإِيكارَ وَحْدَهُ بَعْدَ خُرُوجِهِ مِنْ هَذِهِ الرُّؤْيَا... وَهُوَ قَوْلٌ لَا يُعَادُ، اعْتِرَافٌ إِنْ قُرِئَ مَرَّتَيْنِ انْكَسَرَ، وَإِنْ سُمِعَ عَلَنًا عَمِيَ السَّامِعُونَ)**

اقْتَرَبَ الْمَلَاكُ بِخُطًى تُشْبِهُ انْسِحَابَ الْهَوَاءِ مِنْ حَوْلِهِ، وَكَانَ بِغَيْرِ وَجْهٍ، لِأَنَّ الْوُجُوهَ تُحَاسَبُ.

قَالَ لِإِيكارَ، وَصَوْتُهُ يُشْبِهُ انْكِسَارَ الْمَعْنَى:

"لَا تَنْظُرْ إِلَيَّ، فَأَنَا لَمْ أَعُدْ أَحْتَمِلُ النَّظَرَاتِ".

ثُمَّ سَكَتَ سُكُوتَ مَنْ يَعْرِفُ أَنَّ الْكَلَامَ سَيَصِيرُ جُرْحًا.

وَقَالَ:

"يَا إِيكارُ، أَنَا لَسْتُ مَا تَظُنُّ، وَلَا مَا كُتِبَ عَنِّي، وَلَا مَا صُلِّيَ بِاسْمِي. كُنْتُ نُورًا، نَعَمْ، لَكِنَّ النُّورَ حِينَ يُسْتَخْدَمُ يَفْقِدُ قُدْسِيَّتَهُ وَيَصِيرُ مَدًّا بَلَاغِيًّا".

وَقَالَ:

"لَمْ أَسْقُطْ لِأَنَّنِي عَصَيْتُ، سَقَطْتُ لِأَنَّنِي أَطَعْتُ أَكْثَرَ مِمَّا يَنْبَغِي... أُعْطِيتُ عَيْنًا تَرَى الْقَدَاسَةَ فِي الطَّبِيعَةِ، فَسُحِبَتْ عَنْهَا الرَّحْمَةُ كَيْ لَا أَرَى الْجَوْهَرَ الْخَفِيَّ... وَأُعْطِيتُ جَنَاحَيْنِ لِأَحْرُسَ الْعُبُورَ، فَتَحَوَّلَا إِلَى سِيَاجٍ".

ثُمَّ مَالَ كَأَنَّ ثِقْلَهُ هُوَ الِاعْتِرَافُ نَفْسُهُ، وَقَالَ:

"أَنَا الْأَعْمَى؛ لِأَنَّنِي رَأَيْتُ كُلَّ شَيْءٍ مَرَّةً وَاحِدَةً... وَمَنْ يَرَ الْكُلَّ لَا يَعُدْ قَادِرًا عَلَى رُؤْيَةِ الْوَاحِدِ".

وَقَالَ:

"الْوَحْيُ الرَّبَّانِيُّ لَا يُوجَدُ فِي النُّصُوصِ... يُوجَدُ فِي الطَّبِيعَةِ... الْحُدُودُ لَيْسَتْ خَطِيئَتَكَ، وَلَا خَطِيئَةَ الْخَبَايَا الْمُعْتِمَةِ فِي الضَّمِيرِ، وَلَا خَطِيئَةَ خَالِقٍ مُتَعَالٍ... الْحُدُودُ هِيَ خَوْفٌ تَجَسَّدَ".

ثُمَّ هَمَسَ كَمَنْ يَفْضَحُ سِرًّا عَنْ نَفْسِهِ:

"نَحْنُ الْمَلَائِكَةَ لَمْ نُخْلَقْ لِلْعَدَالَةِ، خُلِقْنَا لِلتَّنْفِيذِ... وَحِينَ سُئِلْنَا أَنْ نُنَفِّذَ بِغَيْرِ سُؤَالٍ، بَدَأَ عَمَانَا".

وَاقْتَرَبَ أَكْثَرَ، حَتَّى شَعَرَ إِيكارُ أَنَّ الْهَوَاءَ يَبْرُدُ دَاخِلَ صَدْرِهِ، وَقَالَ:

"أَنْتَ رَأَيْتَ مَا لَا أَرَاهُ أَنَا... أَنْتَ رَأَيْتَ الْفَرَاغَ الَّذِي أَعْمَلُ فِيهِ... وَأَنَا لَمْ أَعُدْ أَرَى إِلَّا عَالَمًا غَامِضًا مُسْتَعْصِيًا عَلَى طَيْفِ الْإِنْسَانِيَّةِ الْعَرِيضِ".

ثُمَّ قَالَ الْقَوْلَ الَّذِي لَا يُحْتَمَلُ:

"لَوْ عَادَ بِيَ الزَّمَنُ، لَاخْتَرْتُ أَنْ أَكُونَ بَشَرًا يُخْطِئُ، وَلَا أَكُونَ مَلَاكًا يُصِيبُ".

سَكَتَ...

وَقَبْلَ أَنْ يَبْتَعِدَ قَالَ أَخِيرًا:

"يَا إِيكارُ، أَنَا الْمَلَاكُ الْأَعْمَى، وَأُبَارِكُكَ بِعَمًى لَا يَخْضَعُ، وَبِرُؤْيَةٍ لَا تُدَارُ... يَا إِيكارُ، احْمِلْ رُؤْيَاكَ وَلَا تُفَسِّرْهَا... إِنْ فَسَّرْتَهَا صَارَتْ مَذْهَبًا، وَإِنْ صَارَتْ مَذْهَبًا صَارَتْ سِلَاحًا... دَعْهَا جُرْحًا مَفْتُوحًا، فَالْجُرْحُ وَحْدَهُ يَرْفُضُ أَنْ يَسْتَبْدِلَ (هَالَةَ الْكَائِنِ) بِشَبَحِهِ"

ثُمَّ تَرَاجَعَ، وَعَادَ ظِلًّا مُنْسَجِمًا مَعَ الْكَائِنَاتِ كُلِّهَا.

أَدْرَكَ إِيكارُ أَنَّ هَذَا الِاعْتِرَافَ وَصِيَّةٌ ثَقِيلَةٌ وَلَيْسَ خَلَاصًا:

أَنْ تَعْرِفَ وَلَا تُقْنِعَ،

أَنْ تَرَى وَلَا تَقُودَ،

أَنْ تَعْبُرَ وَلَا تُؤَسِّسَ.

## الشَّطْبُ، بِوَصْفِهِ مَحْوًا

**(كَيْفَ شُطِبَ هَذَا الِاعْتِرَافُ مِنَ الْمَخْطُوطِ وَبَقِيَ أَثَرُهُ)**

لَمْ يُمْحَ الِاعْتِرَافُ بِحِبْرٍ وَلَا بِسِكِّينٍ، وَإِنَّمَا بِقَرَارٍ.

قَالُوا:

- هَذَا الْقَوْلُ لَا يُدْرَجُ، لِأَنَّهُ لَا يُدَانُ وَلَا يُبَارَكُ.

اجْتَمَعُوا: جُوقَةُ الْأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ، وَالْفُوتُوغْرَافِيُّ الْعَجُوزُ، وَالنَّاسِخُ الْمَجْهُولُ، وَالْجُنْدِيُّ الْجَرِيحُ الَّذِي يَحْرُسُ بَابَ السَّرْدِ... وَفَتَحُوا الْمَخْطُوطَ فِي اللَّيْلَةِ الَّتِي لَا قَمَرَ فِيهَا، حَيْثُ تَغْدُو الْكَلِمَاتُ أَضْعَفَ مَا تَكُونُ.

وَبَدَؤُوا طَقْسَ الشَّطْبِ:

لَمْ يُسْكَبِ الْمَاءُ (لِأَنَّ الْمَاءَ يَتَذَكَّرُ)، وَلَمْ تُضْرَمِ النَّارُ (لِأَنَّ النَّارَ تَشْهَدُ).

أُحْضِرَ الْكِلْسُ الْأَبْيَضُ، كِلْسُ الْمَقَابِرِ وَأَسَاسَاتِ الْأَسْوَارِ.

وَرُشَّ عَلَى السُّطُورِ رَشًّا بَطِيئًا، كَمَنْ يُغْلِقُ فَمًا لَا يُرِيدُ أَنْ يَصْرُخَ...

ثُمَّ مُرِّرَ الْحَجَرُ...

حَجَرٌ أَمْلَسُ كَانَ فِي الْأَصْلِ مَذْبَحًا صَغِيرًا، فَصَارَ أَدَاةَ نِسْيَانٍ.

**وَقَالَتْ جُوقَةُ الْأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ**:

- هَكَذَا نُنَقِّي الْمَخْطُوطَ مِنَ الِارْتِبَاكِ.

**قَالَ الْفُوتُوغْرَافِيُّ الْعَجُوزُ**. وَهُوَ يَبْتَسِمُ:

- لَكِنَّ الِارْتِبَاكَ هُوَ مَا يُعْطِيهِ الْقُوَّةَ.

**قَالَ الْجُنْدِيُّ الْجَرِيحُ**:

- هُوَ الَّذِي يَمُدُّ الْمَخْطُوطَ بِالْعُنْصُرِ الْمُوَحِّدِ لَهُ.

أَمَّا **النَّاسِخُ الْمَجْهُولُ** فَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا، لَكِنَّهُ حِينَ وَصَلَ إِلَى الْجُمْلَةِ الْأَخِيرَةِ ارْتَعَشَتْ يَدُهُ، وَتَرَكَ فَرَاغًا أَطْوَلَ مِنَ اللَّازِمِ.

## (مَا الَّذِي مُحِيَ؟)

مُحِيَ الصَّوْتُ، لَكِنَّ الْإِيقَاعَ بَقِيَ.

مُحِيَ الِاعْتِرَافُ، لَكِنَّ مَوْضِعَهُ ظَلَّ سَاخِنًا.

مُحِيَ الْوَحْيُ، لَكِنَّ ظِلَّ الْإِلْهَامِ ظَلَّ يُمَهِّدُ السُّبُلَ الْخَلَّاقَةَ لِاسْتِيعَابِ الْمَعَانِي.

مُحِيَتِ الْبَذْرَةُ الْمُقَدَّسَةُ، وَظَلَّتِ احْتِفَالَاتُ الدَّمِ.
صَارَ فِي الصَّفْحَةِ بَيَاضٌ...
لَيْسَ بَيَاضَ الْوَرَقِ، بَيَاضٌ يُؤْلِمُ الْعَيْنَ.
كُلُّ مَنْ قَرَأَ بَعْدَ ذَلِكَ تَوَقَّفَ هُنَاكَ دُونَ أَنْ يَعْرِفَ لِمَاذَا، وَكَأَنَّ النَّصَّ يَحْبِسُ أَنْفَاسَهُ فِي ذَلِكَ الْمَوْضِعِ.

## (الْأَثَرُ الَّذِي لَمْ يُمْحَ)

* الْحِبْرُ تَغَيَّرَ (فِي السُّطُورِ الَّتِي تَلِي الشَّطْبَ صَارَ أَغْمَقَ، كَأَنَّهُ يُحَاوِلُ التَّعْوِيضَ).
* اللُّغَةُ انْكَسَرَتْ (الْجُمَلُ بَعْدَهَا فَقَدَتْ يَقِينَهَا، وَكَثُرَتِ الْأَسْئِلَةُ، وَقَلَّتِ الصِّيَغُ الْآمِرَةُ).
* الْهَوَامِشُ تَكَاثَرَتْ (كَتَبَ نَاسِخٌ لَاحِقٌ):

**(هُنَا سَكَتَتِ الْكَلِمَاتُ فَجْأَةً).**

وَكَتَبَ آخَرُ:

**(هُنَا شَعَرْتُ أَنَّ أَحَدًا يَقْرَؤُنِي).**

الصَّفْحَةُ صَارَتْ تُقْلَبُ وَحْدَهَا...

**قَالَ الْجُنْدِيُّ الْجَرِيحُ:**

- إِنَّ الرِّيحَ كَانَتْ تَعُودُ دَائِمًا إِلَى هَذِهِ الصَّفْحَةِ، حَتَّى حِينَ يُغْلَقُ الْمَخْطُوطُ.

## (اخْتِلَافُ التَّأْوِيلَاتِ)

**قَالَتْ جُوقَةُ الْأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:**

- هَذَا فَرَاغُ اخْتِبَارٍ، لِيُكْمِلَ الْقَارِئُ إِيمَانَهُ.

**وَقَالَ الْفُوتُوغْرَافِيُّ الْعَجُوزُ:**

- هَذَا خَتْمٌ مَكْسُورٌ، وَمَنْ يُحَدِّقْ فِيهِ طَوِيلًا يَسْمَعْ صَدَى الصَّوْتِ الْمَحْذُوفِ.

**وَقَالَ النَّاسِخُ الْمَجْهُولُ:**

- هَذِهِ صَفْحَةٌ مَلْعُونَةٌ، كُلُّ مَنْ حَفِظَ رَقْمَهَا نَسِيَ الطَّرِيقَ.

## (الْعَلَامَةُ الْأَخِيرَةُ)

بَعْدَ أَعْوَامٍ، لَاحَظَ نَاسِخٌ مُتَأَخِّرٌ أَنَّ الْوَرَقَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ أَرَقُّ مِنْ سِوَاهُ، كَأَنَّ الِاعْتِرَافَ لَمْ يُمْحَ... عَبَرَ إِلَى الْجِهَةِ الْأُخْرَى مِنَ الصَّفْحَةِ.

كَتَبَ فِي الْهَامِشِ:

**(انْظُرْ إِلَى الْهَامِشِ)** [141]

ثُمَّ شَطَبَ اسْمَهُ.

وَمُنْذُ ذَلِكَ الْحِينِ صَارَ يُقَالُ:

إِنَّ الْمَلَاكَ الْأَعْمَى لَمْ يَعُدْ يَتَكَلَّمُ، لَكِنَّ كُلَّ مَنْ يَقْرَأُ الْمَخْطُوطَ وَيَتَوَقَّفُ فَجْأَةً دُونَ سَبَبٍ، كَأَنَّهُ سَمِعَ مَا شُطِبَ.

## خَبَرُ النَّاسِخِ الَّذِي أَعَادَ الْكِتَابَةَ وَفَقَدَ الْبَصَرَ

(مِنَ الْمُلْحَقِ الْمَحْذُوفِ لِنَشِيدِ الْمَلَاكِ الْأَعْمَى)

بَعْدَ أَعْوَامٍ مِنْ شَطْبِ الِاعْتِرَافِ، وَبَعْدَ أَنْ صَارَ الْفَرَاغُ أَثْقَلَ مِنَ النَّصِّ، وَبَعْدَ سَبْعِ دَوَرَاتٍ مِنَ الرَّمَادِ، ظَهَرَ نَاسِخٌ لَاحِقٌ.

لَمْ يَكُنْ مِنْ رُهْبَانِ الْجِبَالِ، وَلَمْ يَكُنْ رَاهِبًا كَامِلًا وَلَا سَاحِرًا صَرِيحًا.

كَانَ قَارِئًا مَهْوُوسًا بِالْفَرَاغِ.

وَكَانَ يَقُولُ:

– لَا أَبْحَثُ عَنِ الْكَلَامِ، أَبْحَثُ عَنْ أَثَرِهِ.

---

141- مَا مُحِيَ هُنَا لَمْ يُرِدْ أَنْ يُحْفَظَ، أَرَادَ أَنْ يَتْرُكَ أَثَرًا كَالْخُطْوَةِ بَعْدَ الْعُبُورِ.

وَكَانَ إِذَا بَلَغَ الصَّفْحَةَ الْمَشْطُوبَةَ جَلَسَ طَوِيلًا، كَمَنْ يَجْلِسُ أَمَامَ جُرْحٍ يَرْفُضُ أَنْ يَلْتَئِمَ.

## (نِيَّةُ النَّاسِخِ)

قَالَ فِي سِرِّهِ:

– إِنْ كَانَ الْقَوْلُ قَدْ مُحِيَ خَوْفًا مِنَ الْفِتْنَةِ، فَسَأُعِيدُهُ طَاعَةً لِلْحَقِيقَةِ.

لَمْ يَطْلُبْ إِذْنًا.

جَاءَ لَيْلًا، وَمَعَهُ مِصْبَاحُ زَيْتٍ، وَسِكِّينٌ دَقِيقَةٌ، وَوَرَقَةٌ قَدِيمَةٌ نُزِعَتْ مِنْ سِفْرٍ عَتِيقٍ.

جَلَسَ عِنْدَ الصَّفْحَةِ الَّتِي فِيهَا الْفَرَاغُ، وَوَضَعَ إِصْبَعَهُ عَلَى الْبَيَاضِ الْمُؤْلِمِ.

وَقَالَ:

– دُلَّنِي أَيُّهَا الْأَثَرُ، فَأَنَا نَاسِخٌ لَا يَخَافُ الْعَمَى.

## (الْمُحَاوَلَةُ الْأُولَى)

لَمْ يَسْتَخْدِمِ الْمِدَادَ الْأَسْوَدَ، وَلَا الْمِدَادَ الْأَحْمَرَ الَّذِي يُشْبِهُ الدَّمَ.

خَلَطَ:

(رَمَادَ وَرَقٍ مُقَدَّسٍ)،

(مَاءً مِنْ بِئْرٍ مَهْجُورٍ)،

(وَقَطْرَةً مِنْ دَمْعِهِ)،

وَقَالَ:

– لِأُعْطِيَ الْحَرْفَ عَيْنًا.

وَكَتَبَ فَوْقَ الْبَيَاضِ، لَيْسَ الْكَلِمَاتِ، وَإِنَّمَا مَا ظَنَّهُ ظِلَّهَا.

لَمْ يَكْتُبْ:

(قَالَ الْمَلَاكُ).

وَإِنَّمَا كَتَبَ:

– هُنَا انْحَنَى الْهَوَاءُ وَنَسِيَ كَيْفَ يَعُودُ.

أَخَذَ الْخَلِيطَ وَغَمَسَ الْقَلَمَ، لَكِنَّ الْقَلَمَ لَمْ يَكْتُبْ.
كَانَ يَنْزَلِقُ كَأَنَّ الْوَرَقَ صَارَ مِرْآةً.
كُلُّ حَرْفٍ كَانَ يَنْقَلِبُ ظِلًّا قَبْلَ أَنْ يَثْبُتَ.
كَتَبَ كَلِمَةً وَاحِدَةً، فَمَحَتْ نَفْسَهَا.
وَكَتَبَ حَرْفًا، فَارْتَعَشَتِ الصَّفْحَةُ.

## (الْمُحَاوَلَةُ الثَّانِيَةُ)

أَطْفَأَ الْمِصْبَاحَ وَقَالَ:

– سَأَكْتُبُ مِنَ الْعَتْمَةِ، فَلَعَلَّ الِاعْتِرَافَ لَا يُرَى إِلَّا فِيهَا.

وَحِينَ كَتَبَ، لَمْ يَسْمَعْ صَوْتَ الْقَلَمِ... سَمِعَ تَنَفُّسًا، كَأَنَّ الصَّفْحَةَ صَدْرٌ حَيٌّ.

عِنْدَهَا رَأَى النَّاسِخُ مَا لَمْ يُدَوَّنْ.

رَأَى ظِلًّا بِغَيْرِ عَيْنَيْنِ، وَمَعَ ذَلِكَ كَانَ يَنْظُرُ.

قَالَ الظِّلُّ. دُونَ صَوْتٍ.:

– مَا كُتِبَ مَرَّةً لَا يُعَادُ، وَمَا مُحِيَ صَارَ طَرِيقًا.

## (الْمُحَاوَلَةُ الثَّالِثَةُ. الَّتِي لَمْ تَكْتَمِلْ)

قَالَ النَّاسِخُ:

– سَأَكْتُبُهُ كَمَا سَمِعْتُهُ.

حِينَ أَكْمَلَ السَّطْرَ الْأَوَّلَ، انْطَفَأَ الْمِصْبَاحُ مِنْ غَيْرِ رِيحٍ.

وَحِينَ أَشْعَلَ الثَّانِيَ، صَارَ يَرَى النَّصَّ مُزْدَوِجًا، كَأَنَّ الصَّفْحَةَ صَارَتْ مِرْآتَيْنِ لَا تَتَطَابَقَانِ.

وَكَتَبَ:

(انْظُرْ إِلَى الْهَامِشِ) [142]

## (السَّطْرُ الْمُحَرَّمُ)

فِي السَّطْرِ الثَّالِثِ حَاوَلَ أَنْ يَكْتُبَ الِاعْتِرَافَ نَفْسَهُ، لَا رَمْزَهُ وَلَا ظِلَّهُ.

وَحِينَ كَتَبَ أَوَّلَ كَلِمَةٍ ـ الَّتِي لَا نَعْرِفُهَا ـ حَدَثَ مَا لَمْ يُكْتَبْ:

(جَفَّ الْمِدَادُ فَجْأَةً)،

وَ(ارْتَجَفَتِ الصَّفْحَةُ)،

وَ(سُمِعَ صَوْتٌ كَقُمَاشَةٍ تُشَقُّ دَاخِلَ الرَّأْسِ...).

غَرَسَ الْقَلَمَ فِي قَلْبِ الْفَرَاغِ.

فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ لَمْ تَنْطَفِئْ عَيْنَاهُ دَفْعَةً وَاحِدَةً...

تَغَيَّرَ الضَّوْءُ.

صَارَ يَرَى الْحِبْرَ أَبْيَضَ، وَالْوَرَقَ أَسْوَدَ.

ثُمَّ صَارَ يَرَى السُّطُورَ تَمْشِي.

ثُمَّ صَارَ يَرَى الْهَوَامِشَ تُنَادِيهِ بِاسْمِهِ الَّذِي لَمْ يَكْتُبْهُ قَطُّ...

أَظْلَمَتْ عَيْنَاهُ...

طَبَقَةً بَعْدَ طَبَقَةٍ، كَمَنْ يَفْقِدُ الْأَلْوَانَ، وَالْجِهَاتِ، وَالْوُجُوهَ.

وَضَعَ يَدَهُ عَلَى عَيْنَيْهِ...

فَوَجَدَ ظَلَامًا يَعْكِسُ صُورَةَ اللَّانِهَايَةِ.

## (مَا قَالَهُ قَبْلَ الْعَمَى الْكَامِلِ)

صَرَخَ النَّاسِخُ ـ الَّذِي لَمْ يَكُنْ مِنْ رُهْبَانِ الْجِبَالِ، وَلَمْ يَكُنْ رَاهِبًا كَامِلًا وَلَا سَاحِرًا صَرِيحًا، وكان قارئًا مهووسًا بالفراغ ـ وَلَمْ يَكُنْ فِي الْغُرْفَةِ أَحَدٌ:

---

[142] ـ الْحُرُوفُ تَنْظُرُ إِلَيَّ أَكْثَرَ مِمَّا أَنْظُرُ إِلَيْهَا.

- لَمْ تَكُنِ الْكَلِمَاتُ هِيَ الْخَطَرَ... الْخَطَرُ هُوَ نِيَّتِي أَنْ أَرَاهَا.

ثُمَّ قَالَ بِصَوْتٍ أَخَفَّ:

- الِاعْتِرَافُ لَا يُكْتَبُ، لِأَنَّهُ لَا يُرَى.

**قَالَ الْفُوتُوغْرَافِيُّ الْعَجُوزُ:**

حِينَ دَخَلْنَا عَلَيْهِ صَبَاحًا، كَانَ يَجْلِسُ مُبْتَسِمًا...

الْعَيْنَانِ مَفْتُوحَتَانِ، لَكِنَّهُمَا لَا تَنْظُرَانِ.

قَالَ:

- الِاعْتِرَافُ لَيْسَ جُمْلَةً، إِنَّهُ حَدٌّ.

ثُمَّ لَمَسَ الصَّفْحَةَ وَقَالَ:

- لَقَدْ كَتَبْتُ نَفْسِي.

وَمُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ لَمْ يَعُدْ يَرَى نُورًا، وَلَا شَكْلًا، وَلَا وُجُوهًا...

كَانَ إِذَا سُئِلَ عَنِ الطَّرِيقِ أَشَارَ بِدِقَّةٍ.

وَإِذَا سُئِلَ عَنِ الْحُدُودِ صَمَتَ طَوِيلًا، ثُمَّ بَكَى.

## (مَا بَقِيَ لَهُ)

لَمْ يَفْقِدِ السَّمْعَ.

صَارَ يَسْمَعُ، حِينَ يُقَلِّبُ الْمَخْطُوطَ، صَوْتًا لَا يَسْمَعُهُ غَيْرُهُ.

وَقَالَ لِلنَّاسِخِ الَّذِي جَاءَ بَعْدَهُ:

- حِينَ تَقْرَأُ الصَّفْحَةَ الْمَشْطُوبَةَ، لَا تَقْرَأْ بِعَيْنَيْكَ... أَطْفِئْهُمَا، وَسَتَسْمَعُ.

## (نِهَايَةُ النَّاسِخِ)

عَاشَ بَعْدَ ذَلِكَ يَنْسَخُ الْكُتُبَ، لَكِنْ دُونَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهَا.

كَانَ يُمَرِّرُ أَصَابِعَهُ عَلَى الْوَرَقِ، كَمَنْ يَتَحَسَّسُ وَجْهًا مَفْقُودًا.

وَحِينَ مَاتَ، وُجِدَتْ تَحْتَ وِسَادَتِهِ وَرَقَةٌ وَاحِدَةٌ بَيْضَاءُ تَمَامًا، وَعَلَيْهَا أَثَرُ ضَغْطِ قَلَمٍ بِغَيْرِ حِبْرٍ.

وَكَتَبُوا فِي الْهَامِشِ [143]

## (مَا وُجِدَ فِي الْمَخْطُوطِ مِنْ بَعْدِهِ)

قَالَ الْجُنْدِيُّ الْجَرِيحُ الَّذِي يَلْعَبُ دَوْرَ السَّارِدِ:

لَمْ تُكْتَبْ كَلِمَاتٌ جَدِيدَةٌ، لَكِنْ وُجِدَ:

* خَدْشٌ رَفِيعٌ يُشْبِهُ حَرْفًا لَمْ يَكْتَمِلْ.
* بُقْعَةُ زَيْتٍ عَلَى هَيْئَةِ عَيْنٍ.
* وَفِي الْهَامِشِ، بِخَطٍّ لَا يُشْبِهُ خَطَّهُ، كُتِبَ [144]

---

143- هَذَا النَّاسِخُ لَمْ يُعَاقَبْ، لَكِنَّهُ شُبِّهَ بِالْمَلَاكِ:

أُعْطِيَ السَّمْعَ لِيَحْمِلَ مَا لَا تُحْتَمَلُ رُؤْيَتُهُ.

وَمُنْذُ ذَلِكَ الْحِينِ صَارَ يُقَالُ بَيْنَ النُّسَّاخِ:

– مَنْ يُحَاوِلْ إِعَادَةَ كِتَابَةِ الِاعْتِرَافِ يَفْقِدْ بَصَرَهُ، وَمَنْ يَتْرُكِ الْفَرَاغَ يَرَ أَبْعَدَ.

144- الَّذِي حَاوَلَ أَنْ يَكْتُبَ صَارَ هُوَ النَّصَّ.

الصَّفْحَةُ الْبَيْضَاءُ الَّتِي صَارَتْ تُتْلَى فِي الطُّقُوسِ دُونَ قِرَاءَةٍ.

٨

# النَّشِيدُ الثَّامِنُ

## الْعَلَامَاتُ السُّفْلَى وَالْعُلْيَا

## (تَرْتِيبُ الرُّمُوزِ وَإِقَامَةُ لَاهُوتِهَا الْخَفِيِّ)

لَمْ يَكُنِ الْخَيَالُ قَدْ أَتَمَّ بَعْدُ أَسْرَارَهُ، كَانَ يَفْتَحُ خَتْمًا إِثْرَ خَتْمٍ، كَأَنَّنَا فِي سِفْرٍ لَا يُقْرَأُ إِلَّا بِالنَّارِ، وَلَا يُفْهَمُ إِلَّا لِمَنْ عَبَرُوا مَوْتَهُمْ وَلَمْ يَلْتَفِتُوا.

كَأَنَّ النِّدَاءَ سَبَقَنَا إِلَى أَسْمَائِنَا، وَكَأَنَّنَا خُلِقْنَا لِنُسْتَعَادَ، لَا لِنَنْجُو.

وَكَانَ الْكَهْفُ الَّذِي احْتَمَيْنَا بِهِ رَحِمًا مَقْلُوبًا، نُولَدُ مِنْهُ إِلَى ظُلْمَةٍ أَعْمَقَ، حَيْثُ الرُّعْبُ مُعَلِّمٌ، وَالنَّارُ تُلَقِّنُ الرُّوحَ هِجَاءَ جَسَدِهَا...

وَكَانَ الدُّخَانُ، وَقَدْ تَابَ مِنْ عَمَاهُ، قَدْ صَارَ عَمُودًا مِنْ صَلَاةٍ، إِذْ لَامَسَتْهُ النَّدَامَةُ، فَارْتَدَّ نَاسِكًا، وَانْسَحَبَ فِي صَمْتِ الْقِدِّيسِينَ لِيَكْتُبَ فِي الْعُلُوِّ سِيرَةَ انْطِفَائِنَا.

حِينَ نَظَرْتُ إِلَيْكَ، رَأَيْتُكَ كَاسْمٍ سَقَطَ مِنْ فَمِ اللهِ وَلَمْ يُلْتَقَطْ، كَسِرٍّ سُرْيَانِيٍّ بِغَيْرِ تَرْجَمَةٍ، كَنَجْمَةٍ مَكْسُورَةٍ تُنِيرُ مِنْ دَاخِلِ جُرْحِهَا، أَوْ مِنْ حَاشِيَةِ إِنْجِيلٍ لَمْ يُعْلَنْ.

فَقُلْتُ بِلِسَانٍ يَرْتَجِفُ:

إِنْ مُتَّ، انْقَطَعَ الْوَحْيُ عَنِّي، وَصِرْتُ أَنَا الْحَاشِيَةَ بِغَيْرِ مَتْنٍ، وَالظِّلَّ بِغَيْرِ شَجَرَةٍ...

وَكُنْتَ تُصْغِي، كَأَنَّكَ تَسْمَعُ مَا قَبْلَ الصَّوْتِ، وَتَرَى مَا بَعْدَ الرُّؤْيَةِ، وَتَسْكُبُ فِي الدَّرْبِ خَمْرًا خَفِيًّا، تَتَرَنَّحُ بِهِ أَقْدَامُ الْعَابِرِينَ نَحْوَ سِرِّهِمْ...

وَتَزْرَعُ فِي الرَّمْلِ أَيْقُونَاتِ عُبُورٍ.

ثُمَّ نَظَرْتَ إِلَيَّ وَابْتَسَمْتَ ابْتِسَامَةَ مَنْ عَرَفَ السِّرَّ وَسَكَتَ، فَنَظَرْتُ إِلَيْكَ وَابْتَسَمْتُ ابْتِسَامَةَ مَنْ لَامَسَ الْحِجَابَ وَاحْتَرَقَ.

وَدَخَلْنَا مَعًا فِي الْعَهْدِ غَيْرِ الْمَكْتُوبِ...

وَانْفَتَحَ الطَّرِيقُ فِي دَاخِلِنَا، وَانْدَفَعْنَا كَسَائِقٍ وَشَهِيدٍ فِي دَرْبِ الْأَسْرَارِ، نَخْطُو فِي ظَلَامٍ سَكْرَانَ بِنُعَاسِ الْخَلِيقَةِ.

وَصَارَ الْمَسَاءُ جَسَدًا نَتَنَفَّسُهُ، وَصَارَ الظَّلَامُ مَعْمُودِيَّةً ثَانِيَةً، نُغْمَسُ فِيهَا لِنَنْسَى مَا كُنَّا نَظُنُّهُ نُورًا.

وَكَانَ أَمَامَنَا يَعْدُو سَرْبُ الْحَجَلِ.

كَانُوا رُسُلًا مِنْ تُخُومِ الْأَرْضِ السُّفْلَى.

كَانَتْ أَجْنِحَتُهُمْ مَخْطُوطَاتٍ حَيَّةً، وَفِي خَفْقِهَا تُتْلَى أَنَاشِيدُ النِّسْيَانِ.
وَكَانَتْ خُطُوَاتُهُمْ تَرْسُمُ عَلَى التُّرَابِ إِشَارَاتِ الْعُبُورِ...
يَفْتَحُونَ بِمَنَاقِيرِهِمْ أَبْوَابَ الرُّمُوزِ، كَأَنَّهُمْ كَرَادِلَةُ الْبَرِّيَّةِ، يُعْلِنُونَ سِرَّ النُّزُولِ وَالصُّعُودِ، وَيَسْتَعِيدُونَ مَا سَقَطَ مِنَ الْبِشَارَةِ.
وَاحِدٌ مِنْهُمْ الْتَفَتَ لِيَشْهَدَ.
وَفِي عَيْنِهِ رَأَيْتُ الْمُدُنَ الَّتِي لَمْ تُخْلَقْ، وَالْأَرْوَاحَ الَّتِي أُجِّلَتْ عَنْ قِيَامَتِهَا...
فَفَهِمْتُ:
أَنَّهُمْ لَيْسُوا طَيْرًا.
كَانُوا حَفَظَةَ السُّقُوطِ، وَشَمَامِسَةَ الْهَوَاءِ...
يُقِيمُونَ قُدَّاسَ الْعُبُورِ بَيْنَ مَا هُوَ تَحْتَ، وَمَا كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ فَوْقَ.
وَإِيكَارُ لَمْ يَعُدْ ذَاكَ السَّاقِطَ مِنَ الْأُسْطُورَةِ، صَارَ أَيْقُونَةَ الْإِرَادَةِ الْجَرِيحَةِ، نَبِيَّ الْجَنَاحِ الَّذِي أَرَادَ أَنْ يَكُونَ فِكْرَةَ الْمَنْفِيِّ مِنْ سَمَاءِ الطَّاعَةِ...
كَانَ يَرْكُضُ نَحْوَ سُقُوطٍ أَعْمَقَ، كَأَنَّ الْعُلُوَّ نَفْسَهُ فَخٌّ مِنْ نُورٍ.
وَكَانَتِ السُّحُبُ تَتَحَسَّسُ بِأَجْنِحَتِهَا دَرْبَ الْهُرُوبِ، كَمَلَائِكَةٍ فَقَدَتْ أَوَامِرَهَا.
وَكَانَتِ الرِّيحُ لَاهِثَةً تَسْتَدِيرُ لِتَعَضَّ أَثَرَهُ، كَشَيْطَانٍ يَتَذَكَّرُ فِرْدَوْسَهُ.
وَكَانَ يَرَى . مِنْ نَافِذَةٍ تَرْكُضُ مَعَهُ . الدَّسَائِسَ تَمُرُّ كَأَشْبَاحٍ مُلَوَّنَةٍ، وَالْمَكَائِدَ تَحُومُ فَوْقَ غَابَةِ الرُّوحِ، كَأَنَّهَا تُرِيدُ أَنْ تَسْتَعِيدَهُ إِلَى جَسَدِ الْعَالَمِ...
كَانَتْ كَائِنَاتٍ طَقْسِيَّةً تَتَوَالَدُ مِنْ ظِلَالِ الْفِكْرِ، تَنْعَقُ كَغِرْبَانِ النُّبُوءَةِ، فَتُظْلِمُ الرُّؤْيَا فِي عَيْنَيْهِ.
فَأَغْلَقَ نَافِذَتَهُ الرَّاكِضَةَ لِيَحْجُبَ الرُّؤْيَا، وَلِيَبْقَى الْخَرَابُ مُنْتَظِرًا، كَشِتَاءٍ خَلْفَ زُجَاجِ الزَّمَنِ، تَحْتَ نَدَفٍ مِنْ ثَلْجٍ مُعَمَّدٍ بِضَوْءِ الْقَمَرِ.
لَكِنَّ الْخَرَابَ لَمْ يَكُنْ خَارِجًا، كَانَ يَتَكَوَّنُ بِبُطْءٍ فِي الدَّاخِلِ، كَشِرَاكٍ مِنْ فِضَّةٍ تَتَعَلَّمُ كَيْفَ تَكُونُ صَمْتًا تَحْتَ نَدَفِ الذَّاكِرَةِ وَحَبَائِلِ النَّوَايَا.
وَمَدَّ بَصَرَهُ كَنَاسِكٍ يُحَدِّقُ فِي نِهَايَةِ الْكَشْفِ نَحْوَ الْمَسَاءِ، نَحْوَ الْخَرَابِ ذَاتِهِ الَّذِي يُولَدُ كُلَّ مَرَّةٍ...
وَنَحْوَ الْفَجْوَةِ الَّتِي مِنْهَا يَتَسَرَّبُ الْمَعْنَى...
كَانَ الْقَمَرُ يَنْسُجُ فَخَّهُ الْأَخِيرَ، لِيَصْطَادَ الْجَسَدَ وَيُبْقِيَ الرُّوحَ مُعَلَّقَةً بَيْنَ سَمَاءَيْنِ: الْغَسَقِ وَالشَّفَقِ...
ثُمَّ هَتَفَ، كَصَلَاةٍ ضَائِعَةٍ يَتَرَدَّدُ صَدَى صَوْتِهَا دَاخِلَ لَيْلٍ أَقْدَمَ مِنَ اللُّغَةِ:

لَيْسَ فِي الْبَحْرِ مَا يَرْوِي، فَلِمَاذَا تَدْفَعُنِي أَيُّهَا الشِّرَاعُ إِلَى سِرٍّ لَا يُقَالُ؟
لِمَاذَا تَدْفَعُنِي إِلَى امْتِحَانِ الْأَصْلِ؟
أَأَعُودُ إِلَى الْعُلُوِّ لِأَسْقُطَ مِنْ جَدِيدٍ؟
أَمْ أَغُوصُ فِي الْعُمْقِ لِأَجِدَ أَنَّ الْقَاعَ سَمَاءٌ مَقْلُوبَةٌ؟

هُنَا يَتَوَقَّفُ كُلُّ شَيْءٍ،
لِأَنَّ الْخَيَالَ مُرَنِّمُ النَّشِيدِ الْعَذْبِ،
وَمَزَامِيرَ الرُّؤْيَا
خَيْرُ مُؤَاسَاةٍ لِلْوَاقِعِينَ فِي وَهْدَةِ النَّكَبَاتِ:

مَزْمُور

**(1)**

## مَزْمُورُ إِيكارَ (سُوءُ تَأْوِيلِ الْعُلُوِّ، وَالْإِرَادَةُ الَّتِي تُضِلِّلُهَا الْأَنْوَارُ)

**(أ) - نَشِيدُ الِارْتِفَاعِ:** مُبَارَكٌ مَنْ رَأَى النُّورَ وَلَمْ يَطْمَئِنَّ، وَلَمْ يَسْكُنْ إِلَى اللَّمَعَانِ كَأَنَّهُ نِهَايَةٌ.
وَيْلٌ لِمَنْ ظَنَّ الْعُلُوَّ خَلَاصًا، فَرَفَعَ قَلْبَهُ قَبْلَ أَنْ يُمَحَّصَ، وَحَلَّقَ قَبْلَ أَنْ يَعْرِفَ أَنَّ السَّمَاءَ امْتِحَانٌ لَا مُكَافَأَةٌ.
طُوبَى لِمَنْ خَافَ الضَّوْءَ، لِأَنَّهُ أَدْرَكَ أَنَّ فِيهِ ظِلَالًا لَا تُرَى.

**(ب) - وِلَادَةُ الْجَنَاحِ:** وَرَأَيْتُ إِيكارَ، أُسْطُورَةً تَتَشَكَّلُ مِنْ شَوْقٍ أَعْمَى، يَجْمَعُ أَجْنِحَتَهُ مِنْ بَقَايَا الرَّغْبَةِ، وَمِنْ شَمْعٍ صُنِعَ مِنْ يَقِينٍ غَيْرِ مُمْتَحَنٍ.
كَانَ يَرْبِطُهَا إِلَى كَتِفَيْهِ كَمَا يُرْبَطُ الْوَعْدُ إِلَى الْمَصِيرِ، دُونَ أَنْ يَسْأَلَ: هَلِ الْجَنَاحُ طَرِيقٌ أَمْ تَجْرِبَةٌ؟
وَكَانَ الضَّوْءُ يُنَادِيهِ كَمِرْآةٍ تُعَكِّسُ مَا يُرِيدُ أَنْ يَرَاهُ.

**(ج) - نَامُوسُ الْعُلُوِّ الْمُلْتَبِسِ:** لَيْسَ كُلُّ نُورٍ هِدَايَةً، وَلَا كُلُّ ارْتِفَاعٍ اقْتِرَابًا.
مَا لَمْ يُخْتَبَرْ فِي الْعُمْقِ يَضِلُّ فِي الْعُلُوِّ، وَمَا لَمْ يَنْكَسِرْ فِي الدَّاخِلِ يَذُوبُ عِنْدَ أَوَّلِ اقْتِرَابٍ مِنَ الشَّمْسِ.

**(د) - طَقْسُ الصُّعُودِ:** فَارْتَفَعَ بِتَأْوِيلِهِ لِنَفْسِهِ.
وَكَانَ كُلُّ جَنَاحٍ يَضْرِبُ الْهَوَاءَ يَقُولُ: (أَنَا قَادِرٌ)، وَكَانَ الْهَوَاءُ يُجِيبُهُ: **(لَمْ تُخْتَبَرْ بَعْدُ).**
وَمَرَّتِ السُّحُبُ بِهِ كَشُهُودٍ صَامِتَةٍ، لَا تَمْنَعُهُ وَلَا تُبَارِكُهُ.
وَكُلَّمَا صَعِدَ، خَفَّ وَزْنُهُ، لِأَنَّهُ تَحَرَّرَ، وَلِأَنَّهُ بَدَأَ يَفْقِدُ مَا يَرْبِطُهُ بِالْحَقِيقَةِ. وَفِي الْعُلُوِّ لَمْ يَجِدْ بَابًا، وَجَدَ اتِّسَاعًا يُغْرِي بِالِاسْتِمْرَارِ.

**(هـ) - نَامُوسُ الْإِرَادَةِ:** الْإِرَادَةُ الَّتِي لَا تَعْرِفُ حَدَّهَا تُفْسِدُ طَرِيقَهَا.
كُلُّ رَغْبَةٍ لَمْ تُمَحَّصْ تَتَزَيَّا بِشَكْلِ الدَّعْوَةِ، وَكُلُّ انْدِفَاعٍ بِغَيْرِ بَصِيرَةٍ يَحْسِبُ نَفْسَهُ وَحْيًا.

**(و) - نَشِيدُ الشَّمْسِ الصَّامِتَةِ:** يَا شَمْسُ، يَا وَجْهًا بِلا قَصْدٍ، يَا نَارًا لَا تَخْتَارُ مَنْ يَقْتَرِبُ. لَسْنَا نُحَذِّرُكِ، نُحَذِّرُ أَنْفُسَنَا مِنْكِ.
نَحْنُ الَّذِينَ نُسَمِّيكِ خَلَاصًا، وَأَنْتِ مُجَرَّدُ اخْتِبَارٍ.
لَا تُضِيئِي لَنَا الطَّرِيقَ، اكْشِفِي فِينَا مَا لَا يَحْتَمِلُ الضَّوْءَ.

**(ز) - لَحْظَةُ الِانْكِشَافِ :**اقْتَرَبَ حَتَّى صَارَ النُّورُ بِلا ظِلٍّ، وَالْحَرَارَةُ بِلا تَفْسِيرٍ. هُنَاكَ لَمْ تَذُبِ الْأَجْنِحَةُ، ذَابَ الْمَعْنَى الَّذِي حَمَلَهَا. وَفَهِمَ مُتَأَخِّرًا أَنَّ الْعُلُوَّ لَمْ يَكُنْ دَعْوَةً، كَانَ مِرْآةً لِإِرَادَتِهِ، وَأَنَّ السُّقُوطَ كَانَ تَصْحِيحًا لَا عِقَابًا.
فَسَقَطَ مِنْ وَهْمِهِ عَنِ السَّمَاءِ، وَكَانَ الْهَوَاءُ الَّذِي حَمَلَهُ هُوَ نَفْسُهُ الَّذِي تَرَكَهُ، كَأَنَّ الطَّرِيقَ هُوَ الْمُعَزِّي الْأَوْحَدُ لِلَّذِينَ انْهَالَتْ عَلَيْهِمُ الْآثَامُ.

**(ح) - نَامُوسُ السُّقُوطِ الْمُصَحِّحِ :**كُلُّ عُلُوٍّ بِغَيْرِ مَعْرِفَةٍ يُرَدُّ إِلَى الْأَرْضِ. السُّقُوطُ لَيْسَ نِهَايَةً، هُوَ كَشْفٌ مُتَأَخِّرٌ لِمَا كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يُفْهَمَ قَبْلَ الصُّعُودِ.
مَنْ سَقَطَ وَفَهِمَ اقْتَرَبَ، وَمَنْ صَعِدَ وَظَنَّ ابْتَعَدَ.

**(ط) - صَلَاةُ الْإِرَادَةِ الْمُنْكَسِرَةِ:** يَا مَنْ سَقَطْتَ...
عَلِّمْنَا أَلَّا نَثِقَ بِكُلِّ نُورٍ، وَلَا نُسْرِعَ إِلَى كُلِّ عُلُوٍّ.
اجْعَلْ فِينَا ثِقَلًا يَمْنَعُنَا مِنَ الْوَهْمِ، وَضَعْفًا يُبْقِي أَعْيُنَنَا مَفْتُوحَةً.
إِنْ كَانَ لَا بُدَّ مِنَ الطَّيَرَانِ، فَلْيَكُنْ بَعْدَ النُّزُولِ، وَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ مِنَ السُّقُوطِ، فَلْيَكُنْ فَهْمًا لَا ضَيَاعًا. وَلَا تَتْرُكْنَا نُسَمِّي رَغَبَاتِنَا دَعْوَةً، وَلَا أَوْهَامَنَا طَرِيقًا، كَيْ لَا نَصْعَدَ إِلَّا حِينَ نَعْرِفُ أَنَّ السَّمَاءَ لَيْسَتْ لَنَا.

**(2)**

## مَزْمورُ الحَجَلِ (النُّزُول)

**(أ)- نَشِيدُ الفَتْحِ:** مُبَارَكٌ الطِّينُ إِذَا تَذَكَّرَ خُطَاهُ، وَمُبَارَكَةٌ الْأَرْضُ حِينَ تُنَادِي مَا سَقَطَ فِيهَا... طُوبَى لِمَنْ لَمْ يَطْلُبِ الْعُلُوَّ، طُوبَى لِمَنْ انْحَنَى لِيَقْرَأَ أَثَرَهُ، فَوَجَدَ فِي الْغُبَارِ اسْمَهُ الْأَوَّلَ، وَفِي الْكَسْرِ بَابًا لَمْ يُغْلَقْ... أَيُّهَا السَّائِرُونَ إِلَى الْأَسْفَلِ، لَا تَخَافُوا الِانْخِفَاضَ، فَإِنَّ مَا يَهْبِطُ فِي السِّرِّ يُسْتَعَادُ فِي الْعُمْقِ.

**(ب)- ظُهُورُ السَّرْبِ:** وَرَأَيْتُ، بِمَا انْكَسَرَ فِي دَاخِلِي، الْأَرْضَ تَنْشَقُّ عَنْ خَفْقٍ خَافِتٍ، وَسِرْبَ الْحَجَلِ يَخْرُجُ كَكِتَابَةٍ تَتَحَرَّكُ. كَانَتْ أَجْنِحَتُهُمْ رُقُوقًا، وَعَلَى كُلِّ رِيشَةٍ أَثَرُ كَلِمَةٍ لَمْ تَكْتَمِلْ، وَكَانُوا يَخُطُّونَ عَلَى التُّرَابِ سَطْرًا لَا يُقْرَأُ مِنَ الْأَعْلَى. وَمِنْ فَوْقِهِمْ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ يُرَى، أَمَّا مَنْ يَنْحَنِي فَيَرَى الدَّرْبَ يُفْتَحُ طَبَقَةً طَبَقَةً، كَأَنَّ الْأَرْضَ كِتَابٌ لَا يَقْرَؤُهُ إِلَّا الْمُنْخَفِضُونَ.

**(ج)- نَامُوسُ النُّزُولِ:** لَا يُفْهَمُ الْأَثَرُ إِلَّا مِنْ أَسْفَلَ، وَلَا تُسْتَعَادُ الْبِدَايَةُ إِلَّا بَعْدَ الِانْكِسَارِ... كُلُّ مَنْ طَلَبَ الْعُلُوَّ لِيَعْرِفَ، حُجِبَ عَنْهُ الْمَعْنَى، وَكُلُّ مَنْ انْخَفَضَ حَتَّى تَلَاشَى، كُشِفَ لَهُ مَا لَمْ يُكْتَبْ.

**(د)- طَقْسُ الِاتِّبَاعِ:** فَسِرْتُ خَلْفَهُمْ، لِأَتَأَخَّرَ كَمَا يَجِبُ. كَانُوا لَا يَلْتَفِتُونَ، كَأَنَّهُمْ يَسْتَدْعُونَ. وَفِي كُلِّ مَوْضِعٍ تَطَؤُهُ أَقْدَامُهُمْ، كَانَ الطِّينُ يَلِينُ، وَيُخْرِجُ مِنْ ذَاكِرَتِهِ صُوَرًا، وَوُجُوهًا بِلا أَسْمَاءٍ، وَأَصْوَاتًا لَمْ تَكْتَمِلْ فِي فَمِ الزَّمَنِ. وَكَانَ أَحَدُهُمْ يَقِفُ، وَيَضْرِبُ الْأَرْضَ بِمِنْقَارِهِ، فَتَنْفَتِحُ طَبَقَةٌ، وَيَصْعَدُ مِنْهَا صَمْتٌ ثَقِيلٌ، كَأَنَّهُ صَلَاةٌ نُسِيَتْ فِي جَوْفِ الْخَلِيقَةِ.

**(هـ)- نَامُوسُ الِاسْتِعَادَةِ:** مَا سَقَطَ لَا يُمْحَى، إِنَّمَا يُحْفَظُ فِي طَبَقَاتِ الْأَرْضِ... وَمَنْ يَسِرْ بِبُطْءٍ كافٍ، يَسْتَعِدْ مَا لَمْ يَعِشْهُ، وَيَرَى مَا لَمْ يُعْطَ لَهُ أَنْ يَرَاهُ... النِّسْيَانُ لَيْسَ فَقْدًا، إِنَّهُ حِجَابٌ مُؤَقَّتٌ تَرْفَعُهُ الْخُطْوَةُ الصَّحِيحَةُ.

**(و)- نَشِيدُ الطِّينِ:** يَا طِينُ، يَا أُمَّ الْأَثَرِ، يَا حَافِظَ مَا عَجَزَ الضَّوْءُ عَنْ حَمْلِهِ، نَحْنُ الْعَائِدُونَ إِلَيْكَ، لَا لِنَخْتَبِئَ، وَإِنَّمَا لِنَعْثُرَ عَلَى أُصُولِنَا. اكْسِرْنَا كَمَا تَكْسِرُ الْبُذُورَ، وَافْتَحْ فِينَا دُرُوبَكَ الْخَفِيَّةَ، كَيْ نَنْبُتَ فِي الْعُمْقِ، لَا فِي الْوَهْمِ.

**(ز)- الْحَجَلُ كَكَهَنُوتٍ**: وَعَرَفْتُ أَنَّهُمْ لَيْسُوا طَيْرًا، إِنَّهُمْ كَهَنُوتٌ قَدِيمٌ، أَقْدَمُ مِنَ الرِّيحِ، وَأَصْدَقُ مِنَ الْجِهَاتِ... هُمْ شَمَامِسَةُ الِانْخِفَاضِ، يُقِيمُونَ طَقْسَ الْعُبُورِ بَيْنَ مَا ضَاعَ وَمَا يَنْتَظِرُ أَنْ يُقَالَ. لَا يَحْمِلُونَ نُورًا، لِأَنَّ النُّورَ يَضِلُّ فِي الْعُمْقِ، إِنَّمَا يَحْمِلُونَ أَثَرًا، وَالْأَثَرُ أَصْدَقُ مِنَ الضَّوْءِ. وَمَنِ اقْتَرَبَ مِنْهُمْ لَا يَتَعَلَّمُ الطَّيَرَانَ، إِنَّمَا يَتَعَلَّمُ كَيْفَ يَمْشِي حَتَّى يَتَلَاشَى.

**(ح)- نَامُوسُ الْفَنَاءِ**: لَا يُسْتَعَادُ الشَّيْءُ وَأَنْتَ كَمَا أَنْتَ، حِينَ تَفْقِدُ صُورَتَكَ عَنْهُ. كُلُّ تَمَسُّكٍ حِجَابٌ، وَكُلُّ ذَوَبَانٍ اقْتِرَابٌ. وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَحْتَفِظَ بِنَفْسِهِ، لَنْ يَجِدَ مَا يَبْحَثُ عَنْهُ، وَمَنْ تَخَلَّى حَتَّى عَنْ سُؤَالِهِ، أُعْطِيَ الْجَوَابَ دُونَ أَنْ يَسْمَعَهُ.

**(ط)- صَلَاةُ النُّزُولِ**: أَيُّهَا السَّرْبُ الَّذِي لَا يُرَى مِنْ فَوْقُ، أَيُّهَا الْكَتَبَةُ عَلَى جَسَدِ الْأَرْضِ، خُذْنَا إِلَى حَيْثُ لَا اسْمَ لَنَا، وَلَا وَجْهَ، وَلَا طَرِيقَ. أَنْزِلْنَا دَرَجَةً دَرَجَةً، حَتَّى نَنْسَى كَيْفَ نَصْعَدُ، وَحَتَّى يَصِيرَ السُّقُوطُ شَكْلَ خَلَاصِنَا. وَاجْعَلْ خُطَانَا ثَقِيلَةً بِمَا يَكْفِي لِنُوقِظَ مَا تَحْتَهَا، وَخَفِيفَةً بِمَا يَكْفِي كَيْ لَا نَكْسِرَهُ. فَإِنْ بَلَغْنَا الْعُمْقَ، وَلَمْ نَجِدْ شَيْئًا، فَلْيَكُنْ ذَلِكَ هُوَ الْكَشْفُ، وَلْيَكُنِ الْفَرَاغُ هُوَ النَّصُّ الْأَخِيرُ.

## (3)
## مَزْمُورُ الشِّرَاعِ وَالرِّيحِ
(فِي تَمْيِيزِ النِّدَاءِ عَنِ الْقُوَّةِ، وَإِقَامَةِ الْحَدِّ بَيْنَ مَا يَدْعُو وَمَا يَدْفَعُ)

**(أ)- نَشِيدُ الِانْتِبَاهِ**: مُبَارَكٌ مَنْ سَمِعَ وَلَمْ يَنْدَفِعْ، مَنْ تَرَيَّثَ حِينَ هَبَّتِ الْقُوَّةُ... فَالرِّيحُ تَعْبُرُ كُلَّ شَيْءٍ، أَمَّا النِّدَاءُ فَيَخْتَارُ... طُوبَى لِمَنْ مَيَّزَ بَيْنَ مَا يَمْلَؤُهُ وَمَا يُرْسِلُهُ، فَلَمْ يَخْلِطِ الِامْتِلَاءَ بِالدَّعْوَةِ.

**(ب)- قِيَامُ الشِّرَاعِ**: وَرَأَيْتُ الشِّرَاعَ أُذُنًا قَائِمَةً فِي جَسَدِ الْبَحْرِ، تُنْصِتُ لِمَا لَا يُرَى. كَانَ فَارِغًا، لَكِنَّ فَرَاغَهُ لَمْ يَكُنْ نَقْصًا، كَانَ اسْتِعْدَادًا، كَقَلْبٍ لَمْ يُكْتَبْ عَلَيْهِ بَعْدُ. وَكَانَ يَنْتَظِرُ الْكَلِمَةَ الَّتِي تَأْتِي مَعَ الرِّيحِ، فَالرِّيحُ تَمُرُّ دَائِمًا، أَمَّا النِّدَاءُ فَنَادِرٌ كَالْوَحْيِ.

**(ج)- نَامُوسُ النِّدَاءِ**: لَيْسَ كُلُّ امْتِلَاءٍ دَعْوَةً، وَلَا كُلُّ حَرَكَةٍ قَصْدًا. الشِّرَاعُ لَا يَتْبَعُ الرِّيحَ، إِنَّهُ يُصْغِي إِلَى مَا فِي الرِّيحِ. وَمَنْ لَمْ يُصْغِ، تَحَرَّكَ، لَكِنْ بِغَيْرِ وِجْهَةٍ.

**(د)- هُبُوبُ الرِّيحِ:** وَهَبَّتِ الرِّيحُ كَقُوَّةٍ عَارِيَةٍ، تَعْرِفُ الدَّفْعَ وَلَا تَعْرِفُ الْمَعْنَى... مَلَأَتِ الشِّرَاعَ فَانْتَفَخَ، كَأَنَّهُ امْتَلَأَ يَقِينًا، لَكِنَّ الْبَحْرَ تَحَرَّكَ دُونَ أَنْ يَتَكَلَّمَ... وَكَانَتِ السَّفِينَةُ تَسِيرُ، لِأَنَّهَا دُعِيَتْ إِلَى مَا يَنْبَثِقُ عَنِ الضَّوْءِ وَالظُّلْمَةِ... وَالْفَرْقُ خَفِيٌّ، لَا يَرَاهُ إِلَّا مَنْ تَأَخَّرَ خُطْوَةً عَنْ نَفْسِهِ، وَعَرَفَ السُّخُونَةَ الَّتِي تَتَخَفَّى فِي النُّفُوسِ فِي هَيْئَةِ الدِّفْءِ وَالْحَرَارَةِ.

**(هـ)- نَامُوسُ الْقُوَّةِ:** الْقُوَّةُ لَا تَهْدِي، إِنَّهَا تَدْفَعُ... وَكُلُّ مَا يَتَحَرَّكُ بِهَا يَصِلُ، لَكِنَّهُ لَا يَعْرِفُ لِمَاذَا وَصَلَ... الرِّيحُ صَادِقَةٌ فِي طَبِيعَتِهَا، لَكِنَّهَا لَا تَعْنِيكَ إِلَّا إِذَا حَمَلَتْ نِدَاءً.

**(و)- نَشِيدُ التَّمْيِيزِ:** يَا رِيحُ، يَا عَابِرَةً بِغَيْرِ ذَاكِرَةٍ، يَا قُوَّةً لَا تَسْأَلُ عَنْ وِجْهَتِهَا، لَسْنَا نَرْفُضُكِ، لَكِنَّنَا لَا نُسَلِّمُ لَكِ الْمَعْنَى... امْضِي بِنَا إِنْ شِئْتِ، لَكِنْ لَا تُسَمِّي طَرِيقَكِ قَصْدًا، فَإِنَّنَا نَطْلُبُ الْكَلِمَةَ، لَا السُّرْعَةَ.

**(ز)- انْكِشَافُ الْفَرْقِ:** وَكَانَ الشِّرَاعُ فِي صَمْتِهِ يَتَعَلَّمُ، يُفَرِّقُ بَيْنَ الْعُثُورِ وَنَشْأَةِ النَّهَارِ الْإِلَهِيَّةِ... وَفِي لَحْظَةٍ خَفِيَّةٍ، مَرَّتْ رِيحٌ أُخْرَى، لَمْ تَكُنْ أَشَدَّ، إِنَّمَا كَانَتْ أَصْدَقَ... لَكِنَّهَا لَمْ تَمْلَأِ الشِّرَاعَ... نَادَتْهُ، فَارْتَجَفَ، كَكَائِنٍ سَمِعَ اسْمَهُ... هُنَاكَ تَحَرَّكَتِ السَّفِينَةُ بِسُرْعَةٍ وَوُضُوحٍ، كَأَنَّ الْبَحْرَ نَفْسَهُ قَدْ فَسَحَ لَهَا طَرِيقًا.

**(ح)- نَامُوسُ الطَّاعَةِ:** حِينَ يَأْتِي النِّدَاءُ، يَجْعَلُكَ تَخْتَارُ... الطَّاعَةُ لَيْسَتِ انْقِيَادًا، إِنَّهَا مَعْرِفَةٌ تَسْبِقُ الْحَرَكَةَ. وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْ، تُسَيِّرُهُ الْقُوَّةُ، وَمَنْ عَرَفَ، يَمْشِي وَلَوْ بِبُطْءٍ، فَيُصِيبُ.

**(ط)- صَلَاةُ الشِّرَاعِ:** أَيُّهَا الشِّرَاعُ الْقَائِمُ فِينَا، عَلِّمْنَا أَنْ نَبْقَى فَارِغِينَ لِنَسْتَعِدَّ. لَا تَمْلَأْنَا بِكُلِّ رِيحٍ، وَلَا تُسْرِعْ بِنَا إِلَى كُلِّ جِهَةٍ... اجْعَلْنَا نُصْغِي، حَتَّى لَوْ بَقِينَا، وَنَفْهَمْ، حَتَّى لَوْ تَأَخَّرْنَا... وَإِذَا جَاءَ النِّدَاءُ، أَيْقِظْنَا وَلَا تَدْفَعْنَا، كَيْ نَتَحَرَّكَ لِأَنَّنَا امْتَلَأْنَا، وَلِأَنَّنَا سُمِّينَا.

# إِصْحَاحُ

## 9

## الْمُجَادَلَةُ مَعَ الشِّرَاعِ

### (يُتْلَى عِنْدَ انْكِسَارِ الْبُوصَلَةِ)

قُلْ لِي أَيُّهَا الشِّرَاعُ... وَاللَّيْلُ مَا يَزَالُ رَقًّا مَفْتُوحًا لِلْكِتَابَةِ، تَتَدَلَّى مِنْ حَوَاشِيهِ أَخْتَامٌ مَكْسُورَةٌ... لِمَ تَنْقُرُ بِأَظَافِرِكَ صَدْرَ الْأَرْضِ كَمَنْ يَبْحَثُ عَنِ الِاسْمِ الْمَخْبُوءِ فِي طِينِ الْبِدَايَاتِ، وَتُقِيمُ مِنْ أَثْدَائِهَا مَرَايَا تُبْصِرُ بِهَا مَا لَا يُبْصَرُ؟ تَدْخُلُ النُّثَارَ كَعَارِفٍ يَلُمُّ شَظَايَا النُّورِ السَّاقِطِ مِنْ فِرْدَوْسٍ مَكْسُورٍ، وَتَزْرَعُ فِي الشُّقُوقِ تِيجَانًا مِنْ ظِلٍّ، وَعُرُوشًا مِنْ صَمْتٍ، كَأَنَّكَ تُنْشِئُ مَلَكُوتًا ثَانِيًا لَا يُرَى إِلَّا حِينَ يُطْفَأُ الْبَصَرُ. أَتَنْفُذُ إِلَى الْفُتَاتِ كَنَاسِكٍ يُفَتِّشُ عَنْ خَطِيئَةٍ لِيُقِيمَ عَلَيْهَا هَيْكَلَ التَّأْوِيلِ، وَيُعِيدَ التَّرْتِيلَ بِلِسَانٍ مِنْ رِيحٍ؟ لِمَ تُرِينِي التَّجَاعِيدَ تُلْقِي مَرَاسِيَهَا فِي بِئْرِ كَلِمَاتِي، وَتَشُدُّ الشَّوَاطِئَ بِضِمَادَاتٍ مِنْ حِبْرٍ فِي دَفَاتِرِ الْأُفُقِ؟ وَتِلْكَ الْبُقْعَةُ السَّوْدَاءُ فِي كِتَابِ الْعُلُوِّ، كَأَنَّهَا خَتْمُ نَامُوسٍ لَا يُقْرَأُ؟

قُلْ لِي أَيُّهَا الشِّرَاعُ... أَسْمَعُ صَوْتِي يَخْرُجُ مِنِّي وَلَا يَعُودُ... وَأَنَا أَسْمَعُ فِي صَدْرِي أَرْبَعَةَ أَصْدَاءٍ لَا تَجْتَمِعُ: صَوْتِي، وَصَوْتَكَ، وَشَاهِدًا يُرَاقِبُ، وَشَيْئًا آخَرَ... لَا صَوْتَ لَهُ، يَقِفُ بَيْنَنَا كَظِلٍّ يَرَى وَلَا يُرَى. مَنِ الَّذِي يَتَكَلَّمُ الْآنَ؟ أَأَنَا الَّذِي أَقُولُ، أَمْ أَنْتَ الَّذِي يَتَرَدَّدُ فِي صَدْرِي، أَمِ الشَّاهِدُ الَّذِي يَكْتُبُنَا وَنَحْنُ لَا نَنْتَبِهُ؟ أَسْمَعُ الْأَصْوَاتَ تَتَجَاوَرُ، وَلَا وَاحِدَ مِنْهَا يَثْبُتُ فِي مَكَانِهِ، كَأَنَّ الْقَوْلَ بِئْرُ يَعْقُوبَ أُخْرَى، وَكُلَّ صَمْتٍ سُلَّمُ رُؤْيَا يَصْعَدُ وَلَا يَنْتَهِي.

قُلْ لِي يَا شِرَاعُ... مِنْ أَيِّ امْتِلَاءٍ هَبَطْتَ حَتَّى صِرْتَ هَذَا النَّقْصَ الْمُتَوَهِّجَ؟ وَأَيُّ سِرٍّ تَسَلَّلَ مِنَ الْغِيَابِ فَاسْتَحَالَ رِيحًا تُجَادِلُ أَصْلَهَا؟ فَتَقُولُ فِيَّ: أَنَا أَسْتَعِيدُ مَا تَكَسَّرَ مِنَ النُّورِ. وَيَقُولُ الشَّاهِدُ: الْفِعْلُ أَثَرُ انْقِسَامٍ. ثُمَّ يَمُرُّ

شَيْءٌ... لَا يَقُولُ، غَيْرَ أَنَّ الْعِبَارَةَ تَرْتَجِفُ، كَأَنَّهَا تَفْقِدُ يَقِينَهَا الْأَوَّلَ، وَالْكَلِمَاتُ تَفْقِدُ حَوَافَّهَا، كَأَنَّهَا تَقْتَرِبُ مِنْ أَصْلٍ بِغَيْرِ شَكْلٍ، وَتَشُدُّ الشَّوَاطِئَ بِأَخْتَامٍ مِنْ حِبْرٍ فِي دَفَاتِرِ الْأُفُقِ... دَفَاتِرُ لَا تُقْرَأُ بِالْحُرُوفِ، إِنَّمَا تُقْرَأُ بِمَا بَيْنَ الْحُرُوفِ، فَتُنْزِلُ بُقْعَةً سَوْدَاءَ فِي لُغَتِي، كَأَنَّهَا عَيْنٌ تُبْصِرُ مَا قَبْلَ الرُّؤْيَةِ، وَكَأَنَّ الرُّؤْيَةَ حِجَابٌ آخَرُ لِلْعَمَى، وَالسِّرُّ شَرِيعَةٌ بِغَيْرِ قَاضٍ...

أَقُولُ: الْمَرَايَا تَتَكَسَّرُ. وَأَسْمَعُكَ فِي دَاخِلِي تَقُولُ: الْمَرَايَا انْكَسَرَتْ حِينَ نَظَرْتُ. وَيَقُولُ الشَّاهِدُ: الِانْكِسَارُ كَشْفٌ. ثُمَّ يَتَّسِعُ الصَّمْتُ قَلِيلًا، فَتَتَأَخَّرُ الْكَلِمَاتُ، كَأَنَّهَا تَنْتَظِرُ إِذْنًا لَا يَأْتِي.

وَيَقُولُ الشَّاهِدُ: كِلَاكُمَا أَثَرٌ لِفِعْلٍ لَمْ يَبْدَأْ بَعْدُ. فَتَتَشَظَّى الْعِبَارَةُ بَيْنَنَا، وَتَصِيرُ الْأَرْضُ جَسَدَ سُؤَالٍ. وَيَكْتُبُ الثَّالِثُ فِي صَمْتِهِ: الِانْكِسَارُ بَابٌ يَرَى مِنْهُ الْوَاحِدُ نَفْسَهُ مُتَعَدِّدًا.

فَأَرْتَدُّ إِلَى كَلِمَاتِي، فَلَا أَجِدُهَا، كَأَنَّهَا قِيلَتْ فِي جِهَةٍ أُخْرَى مِنِّي. وَتَقُولُ مِنْ دَاخِلِ صَوْتِي: الْبِئْرُ أَنَا، وَاللُّغَةُ دَلْوٌ مَثْقُوبٌ. وَيَصْمُتُ الرَّابِعُ... غَيْرَ أَنَّ الصَّمْتَ يَثْقُلُ حَتَّى يَكَادَ يَنْطِقَ، فَأَفْهَمُ دُونَ أَنْ يُقَالَ: لَا اسْتِعَادَةَ لِمَا لَمْ يَغِبْ...

وَيَكْتُبُ الشَّاهِدُ: الرُّؤْيَةُ شَقٌّ فِي الْوَاحِدِ، أَمَّا الْغِيَابُ... فَلَا يَكْتُبُ شَيْئًا، غَيْرَ أَنَّ الْكِتَابَةَ تَرْتَجِفُ فِي حَضْرَتِهِ، كَأَنَّهَا تُدْرِكُ هَشَاشَتَهَا.

تَقُولُ الْبُقْعَةُ السَّوْدَاءُ: الْبِئْرُ فَمٌ آخَرُ... وَيُضِيفُ الشَّاهِدُ: مَا يُسْتَخْرَجُ هُنَا لَيْسَ مَاءً، إِنَّمَا ذَاكِرَةُ عَطَشٍ.

فَأَصْمُتُ لَحْظَةً، ثُمَّ أَسْمَعُ صَمْتِي يُؤَوِّلُ... يَثْقُلُ الْفَرَاغُ، فَلَا أَعْرِفُ إِنْ كُنْتُ قُلْتُ مَا قُلْتُ.

"لَيْسَ فِي الْبَحْرِ مَا يُرْوِي" (أَقُولُ)، فَبِأَيِّ نَامُوسٍ تَدْفَعُنِي إِلَيْكَ يَا شِرَاعُ؟ وَبِأَيِّ لَاهُوتٍ تَتَقَدَّمُ تَقَدُّمَ فَاتِحٍ لَا أَرْضَ لَهُ إِلَّا اللُّغَةُ، وَلَا زَمَنَ لَهُ إِلَّا التَّأْوِيلُ؟ وَالْغُيُومُ أَمَامَكَ قَنَادِيلُ مَذْبَحٍ، تُطْفِئُهَا لِتُعْلِنَ طَقْسًا لَا كَاهِنَ لَهُ سِوَاكَ؟

مَا الَّذِي يَدْفَعُكَ إِلَيَّ، يَا شِرَاعُ؟ أَيُّ عَطَشٍ هَذَا الَّذِي يَلِدُ نَفْسَهُ مِنْ نَفْسِهِ؟ أَأَنْتَ هَبَّةٌ تَعْصِي نَسَبَهَا، وَتَتَمَرَّدُ عَلَى سُلَالَةِ الْهُبُوبِ، أَمْ طِينٌ تَعَلَّمَ النُّطْقَ فَخَانَ طَهَارَةَ الْحُرُوفِ، وَأَدْخَلَهَا فِي جَسَدِ الْعَالَمِ لِتُصَابَ بِمَرَضِ الْمَعْنَى؟ أَأَنْتَ نَفَسٌ شُقَّ عَنْ أَصْلِهِ فَصَارَ حَنِينًا مَعْكُوسًا، أَمْ مَلَاكٌ تَذَكَّرَ سَمَاءَهُ فَتَمَرَّدَ عَلَى ثِقَلِهِ، فَصَارَ يَكْتُبُ بِالنَّقْصِ سِيرَةَ الِامْتِلَاءِ؟

أَأَنْتَ الْهُبُوبُ حِينَ يَنْسَى نَسَبَهُ، فَيَنْطِقُ فِي دَمِي: أَنَا النَّسَبُ حِينَ يَتَخَلَّى عَنِ الْقَرَابَةِ؟ وَيَكْتُبُ الشَّاهِدُ: الِاسْمُ إِذَا اكْتَمَلَ انْطَفَأَ. فَأَخَافُ مِنَ الِاكْتِمَالِ، وَأَخَافُ مِنَ النَّقْصِ.

"لَيْسَ فِي الْبَحْرِ مَا يُرْوِي" (أَقُولُهَا)، فَتُعِيدُهَا أَنْتَ فِيَّ: الْعَطَشُ هُوَ الْبَحْرُ. وَيُثَبِّتُ الثَّالِثُ عِبَارَتَهُ فِي الْعَدَمِ: الرِّيُّ حِجَابُ الْعَطَشِ. فَأَرْتَبِكُ: مَنِ الَّذِي يُدْفَعُ الْآنَ؟ وَمَنِ الَّذِي يَدْفَعُ؟

لِمَاذَا تَتَقَدَّمُ؟... (أَسْأَلُكَ)... فَتُجِيبُنِي بِي: لَا أَتَقَدَّمُ، إِنَّمَا أُزِيحُ الْحِجَابَ عَنْ حِجَابٍ. وَيَشْهَدُ الثَّالِثُ: التَّقَدُّمُ دَائِرَةٌ لَا مَرْكَزَ لَهَا.

وَالْغُيُومُ تَمُرُّ فَوْقَنَا كَأَنَّهَا نَصٌّ لَمْ يُقْرَأْ بَعْدُ، وَأَنَا أَقْرَؤُهَا بِي، وَبِكَ، وَبِمَنْ يَقْرَؤُنَا.

"لَيْسَ فِي الْبَحْرِ مَا يُرْوِي" (نَقُولُهَا مَعًا)، ثُمَّ تَخْتَلِفُ الْجِهَةُ، فَتَصِيرُ الْجُمْلَةُ بِغَيْرِ صَاحِبٍ. وَيُثْبِتُ الشَّاهِدُ: الْعَطَشُ أَصْلٌ. ثُمَّ يَتَرَاجَعُ صَوْتُهُ، كَأَنَّ الْكِتَابَةَ لَمْ تَعُدْ تَحْتَاجُ إِلَيْهِ...

لِمَاذَا تَتَقَدَّمُ؟ (أَسْأَلُ). فَيَجِيءُ الْجَوَابُ بِغَيْرِ جِهَةٍ: لَا تَقَدُّمَ. وَيَكَادُ الشَّاهِدُ أَنْ يَكْتُبَ، ثُمَّ لَا يَكْتُبُ، كَأَنَّ الْعِبَارَةَ اكْتَمَلَتْ قَبْلَ أَنْ تُقَالَ.

قِفْ.

إِنَّ الْفُؤُوسَ الَّتِي تُسَمِّيهَا صَوْتًا لَيْسَتْ إِلَّا أَنَاجِيلَ مَبْتُورَةً، وَالصَّوْتُ إِذَا لَمْ يُجَرَّدْ مِنْ حَدِّهِ صَارَ سَيْفًا فِي خَاصِرَةِ السِّرِّ...

قِفْ.

فَاللُّغَةُ هُنَا قُرْبَانٌ... وَالنَّفَسُ صَلَاةٌ مَكْسُورَةٌ... وَالِاسْمُ امْتِحَانُ النَّارِ، وَكُلُّ حَرْفٍ مَصْلُوبٌ عَلَى خَشَبَةِ دَلَالَتِهِ...

قِفْ.

يَقُولُ صَوْتِي فِيكَ: الْوُقُوفُ حَرَكَةٌ مُسْتَتِرَةٌ. وَيُضِيفُ الثَّالِثُ: لَا سُكُونَ إِلَّا لِمَنْ خَرَجَ مِنَ الزَّمَنِ...

قِفْ.

فَتَتَرَدَّدُ الْكَلِمَةُ بَيْنَنَا، وَلَا تَسْتَقِرُّ فِي أَحَدٍ.

قِفْ.

لَكِنَّ الْكَلِمَةَ لَا تَخْرُجُ كَامِلَةً؛ تَتَكَسَّرُ فِي فَمِي، وَتَصِلُ إِلَيْكَ نَاقِصَةً، وَتَعُودُ إِلَيَّ بِغَيْرِ صَوْتٍ...

قِفْ.

يَقُولُ صَوْتِي فِيكَ: الْوُقُوفُ عُبُورٌ آخَرُ. وَيَقُولُ الشَّاهِدُ: السُّكُونُ قِنَاعُ الْحَرَكَةِ. وَالْغِيَابُ... لَا يَعْتَرِضُ، غَيْرَ أَنَّ الصَّرْخَةَ تَتَكَسَّرُ قَبْلَ أَنْ تَكْتَمِلَ، كَأَنَّهَا لَمْ تُرَدْ أَصْلًا.

قِفْ.

لَكَ مِنْ نَشِيدِ الْمَوْجِ حُرُوفُهُ وَنُبُوءَاتُهُ الَّتِي تُبَشِّرُ بِالدَّوَرَانِ، وَلِيَ مِنْ نَشِيدِ الْغُبَارِ حُرُوفُهُ وَنُبُوءَاتُهُ الَّتِي تُبَشِّرُ بِالتَّبَدُّدِ، وَكِلَانَا يُدَحْرِجُ الْمَكَانَ أَمَامَهُ، لَا لِيَتَقَدَّمَ، إِنَّمَا لِيَتَذَكَّرَ أَيْنَ سَقَطَ مِنْ ذَاتِهِ. وَكِلَانَا يُعِدُّ مَوَائِدَ لَا يَجْلِسُ إِلَيْهَا إِلَّا ضُيُوفُ الْخَرَابِ، حَيْثُ الْعَابِرُ يُخَاصِمُ النَّامُوسَ حَتَّى يَتَشَظَّى، وَحَيْثُ الْجَنَاحُ يَجُرُّ الْإِنْسَانَ إِلَى أَثَرِهِ، لَا إِلَى خَلَاصِهِ...

وَلِيَ مِنْ نَشِيدِ الْمَوْجِ نُبُوءَاتُهُ، فَتُبَدِّلُهَا فِي دَاخِلِي: أَنَا النُّبُوءَةُ حِينَ تَضِيعُ. وَيَقُولُ الشَّاهِدُ: النُّبُوءَةُ بَقَايَا تَذَكُّرٍ. وَالرَّابِعُ... لَا يَتَذَكَّرُ، غَيْرَ أَنَّ الزَّمَنَ يَخْتَلُّ، فَلَا قَبْلَ وَلَا بَعْدَ...

وَلِيَ مِنْ نَشِيدِ الْغُبَارِ حُرُوفُهُ، فَتَهْمِسُ: الْغُبَارُ كِتَابَةُ مَا تَفَتَّتَ. وَيَقُولُ الشَّاهِدُ: الْحَرْفُ رَمَادُ الِاسْمِ. وَالْغِيَابُ... لَا يَتْرُكُ أَثَرًا، غَيْرَ أَنَّ الْأَثَرَ يَرْتَجِفُ، كَأَنَّهُ عَلَى حَافَّةِ مَحْوٍ دَائِمٍ.

وَكِلَانَا (أَمْ نَحْنُ الْأَرْبَعَةُ؟) نُدَحْرِجُ الْمَكَانَ أَمَامَنَا. أَنَا أَرَاهُ يَتَحَرَّكُ، وَأَنْتَ تَقُولُ: نَحْنُ الْمُتَحَرِّكُونَ. وَالشَّاهِدُ يَكْتُبُ: لَا حَرَكَةَ. وَالرَّابِعُ... لَا يُقِرُّ وَلَا يَنْفِي، غَيْرَ أَنَّ الْمَكَانَ يَفْقِدُ ثِقَلَهُ، كَأَنَّهُ فِكْرَةٌ تُمْحَى.

"لَيْسَ فِي الْبَحْرِ مَا يُرْوِي"، فَلِمَ تَدْفَعُنِي يَا شِرَاعُ؟

لِمَ تُوَحِّدُنِي بِأَسْرَابٍ مِنْ نَحْلٍ تَكْتُبُ طُقُوسَهَا فِي هِنْدَسَةِ الْفَوْضَى، وَتَحْرُسُ أَبْوَابَ حِكْمَتِهَا فِي طَنِينٍ لَا يُفَسَّرُ؟ وَلِمَ تُشْبِهُنِي بِحَطَبٍ تَعَلَّمَ سِرَّ النَّارِ، فَصَارَ الِاحْتِرَاقُ عِنْدَهُ مَعْرِفَةً، وَالرَّمَادُ كِتَابًا يُقْرَأُ مِنْ آخِرِهِ إِلَى أَوَّلِهِ؟

**(أَعُودُ...)**

"لَيْسَ فِي الْبَحْرِ مَا يُرْوِي"، فَتُعِيدُنِي إِلَيَّ: الرِّيُّ نِسْيَانُ الْأَصْلِ. وَيَقُولُ الشَّاهِدُ: الْأَصْلُ غِيَابٌ يُنْتِجُ حُضُورًا...

فَلِمَاذَا تَدْفَعُنِي يَا شِرَاعُ؟

تَقُولُ بِي: أَنَا أُظْهِرُ انْدِفَاعَكَ. وَيَقُولُ الشَّاهِدُ: الِانْدِفَاعُ صَدَى السُّؤَالِ.

لِمَ تُوَحِّدُنِي بِسُؤَالٍ يَتَلَاشَى حَتَّى يَصِيرَ فَرَاغًا شَاسِعًا بِغَيْرِ تَفْسِيرٍ؟

فَتَرُدُّ مِنْ دَاخِلِي: التَّفْسِيرُ حِجَابُ السَّمَاعِ.

**وَيُدَوِّنُ الشَّاهِدُ**: الطَّنِينُ صَلَاةُ الْكَثْرَةِ.

وَتُشْبِهُنِي بِحَطَبٍ يَحْتَرِفُ الْحَرِيقَ...

**فَتَهْمِسُ**: الْحَرِيقُ مَعْرِفَةُ الْجَسَدِ بِنَفْسِهِ.

**وَيَخْتِمُ الشَّاهِدُ**: الرَّمَادُ شَكْلُ الْبَقَاءِ الْأَخِيرِ.

أَيُّهَا الشِّرَاعُ،

أَيُّهَا الْجَنَاحُ الَّذِي يَكْتُبُ جَسَدَهُ عَلَى هَوَاءِ الْعَالَمِ،

أَيُّهَا الشِّرَاعُ فِي مُجَادَلَةِ الْكَيْنُونَةِ مَعَ نَامُوسِهَا، مَاذَا تُرِيدُ مِنِّي؟

أَأَتْلُو عَلَيْكَ نَفْسِي كَمَا تُتْلَى الْأَسْفَارُ الْمَنْسِيَّةُ، أَمْ تُعِيدُنِي إِلَى أَوَّلِي كَحَرْفٍ لَمْ يُنْطَقْ بَعْدُ؟

أَأَنَا أَثَرُكَ حِينَ يَتِيهُ فِي اللُّغَةِ، أَمْ لُغَتُكَ حِينَ تَتِيهُ فِي الْأَثَرِ؟

أَأَنَا الْعَابِرُ الَّذِي تُمْتَحَنُ بِهِ الشَّرِيعَةُ، أَمِ الشَّرِيعَةُ حِينَ تَتَنَكَّرُ فِي هَيْئَةِ سُؤَالٍ؟

قُلْ، فَاللَّيْلُ لَمْ يُغْلِقْ رَقَّهُ بَعْدُ، وَهَذَا النِّزَاعُ بَيْنَنَا لَيْسَ خُصُومَةً، إِنَّمَا خَلْقٌ يَتَعَثَّرُ بِنَفْسِهِ.

فَإِنْ نَطَقَ، صَارَ الْكَلَامُ كَوْنًا، وَإِنْ صَمَتَّ، صَارَ الصَّمْتُ كَوْنًا آخَرَ.

الْأَصْوَاتُ... تَتَبَاعَدُ، أَوْ تَنْسَحِبُ، أَوْ تُسْحَبُ مِنْهَا جِهَةُ الْقَوْلِ...

**(الشَّاهِدُ)** لَا أَثَرَ لَهُ الْآنَ، كَأَنَّهُ كَانَ مَرْحَلَةً، ثُمَّ انْطَفَأَ...

**(أَنْتَ)** هَلْ مَا زِلْتَ؟ أَمْ أَنَّ النِّدَاءَ اسْتَهْلَكَكَ؟

**(أَنَا)** لَا أَجِدُنِي حَيْثُ كُنْتُ، وَلَا حَيْثُ يُفْتَرَضُ أَنْ أَكُونَ...

**(شَيْءٌ يَتَّسِعُ)** لَيْسَ صَوْتًا، وَلَا صَمْتًا، غَيْرَ أَنَّ كِلَيْهِمَا يَذُوبُ فِيهِ...

**(الْجُمَلُ)** لَا تَكْتَمِلُ...

**(الْكَلِمَاتُ)** تَفْقِدُ حَوَافَّهَا...

**(الْمَعْنَى)** لَا يُقَالُ، وَلَا يُطْلَبُ...

**(النِّدَاءُ...)**

**(الِاسْتِعَارَةُ..).**

**(الْعُبُورُ..)**

**(الْأَثَرُ...)**

لَا أَحَدَ يَكْتُبُ الْآنَ، وَلَا شَيْءَ يُكْتَبُ...

غَيْرَ أَنَّ مُجَادَلَةَ الْأَكْوَانِ هَذِهِ

**(الَّتِي لَا اسْمَ لَهَا)**

تَتْرُكُ مَا يُشْبِهُ نَصًّا،

دُونَ قَائِلٍ.

٩

# النَّشِيدُ التَّاسِعُ

## اللُّغَةُ الَّتِي تُظَنُّ أَنَّهَا قَادِرَةٌ عَلَى احْتِوَاءِ الْمَعْنَى، وَالصُّورَةُ الَّتِي تَفْشَلُ فِي الْإِمْسَاكِ بِالْحَقِيقَةِ

دَعْنِي، أَيُّهَا الشِّرَاعُ، أَلْبَسُ فِتْنَةَ الْمُهَرِّجِ وَأَرْقُصُ فِي جَوْفِ الْعَاصِفَةِ. دَعْنِي أَبْدَأُ التَّرْتِيلَ مِنْ مَوْضِعِ الْجُرْحِ، مِنْ حَيْثُ يَنْهَضُ الْجَسَدُ كَمَخْطُوطَةٍ تُتْلَى وَلَا تُفْهَمُ... دَعْنِي أَرْفَعُ صَوْتِي كَأَنِّي زَيْتٌ يُمْسَحُ بِهِ احْتِرَاقٌ قَدِيمٌ لَمْ يَكْتَمِلْ.

اتْرُكْنِي عِنْدَ تُخُومِ الضِّيَاءِ الْأَخِيرِ، مِثْلَ نُورٍ يَتَدَلَّى فِي بِئْرِ الْوَعْدِ، وَكُلُّ اقْتِرَابٍ مِنْهُ يَفْتَحُ فِي الْعَقْلِ بَابًا جَدِيدًا لِلسُّؤَالِ...

دَعْنِي يَا شِرَاعُ أَسْتَأْنِفُ السَّرْدَ مِنْ تَقَاسُمِ الْأَدْوَارِ مَعَ أَشْبَاهِي، لَدَيَّ بَرَاهِينُ عَلَى أَنَّنَا لَمْ نَعُدْ وَاحِدًا فِي الْخُطَا...

دَعْنِي أَتَأَمَّلُ نَدْبَةَ الزَّمَنِ الْغَابِرِ كَمَا لَوْ أَنَّهَا سِرٌّ مُنَزَّلٌ. اتْرُكِ الْحُقُولَ تَشْتَعِلُ كَقَرَابِينٍ صَامِتَةٍ. دَعْنِي أُكْمِلُ تَرْتِيلِي عِنْدَ حَافَّةِ الِانْطِفَاءِ، وَأَلْبَسُ الْقِنَاعَ كَمَا يَلْبَسُ الْكَاهِنُ سِرَّهُ...

دَعْنِي أَدْخُلْ فِي دَوْرَةِ الصَّوْتِ، حَيْثُ الْكَلِمَةُ جَسَدٌ، وَحَيْثُ الْجَسَدُ سُؤَالٌ لَا يَنْتَهِي.

دَعِ الْجَبَلَ يَتَقَدَّسُ بِالنَّارِ، وَدَعْهُ يَرْتَفِعُ كَأَنَاشِيدِ قَمْحٍ مُحْتَرِقٍ، وَدَعْهُ يَلْمَسُ نِدَاءَ اللَّهَبِ حِينَ يُتْلَى سِرُّ الِاحْتِرَاقِ عَلَى مَسَامِعِ التُّرَابِ.

دَعْنَا، أَنَا وَقَرِينِي (فُوتُوغْرَافِيٌّ عَجُوزٌ وَشَاعِرٌ هَارِبٌ)، نَتَقَاسَمُ الطَّقْسَ كَمَا يَتَقَاسَمُ اثْنَانِ خَطِيئَةً وَاحِدَةً: هُوَ يُثَبِّتُ، وَأَنَا أَنْفَلِتُ، هُوَ يُجَمِّدُ اللَّحْظَةَ كَأَيْقُونَةٍ مُرْتَجِفَةٍ، وَأَنَا أُذِيبُهَا كَأَنَّهَا لَمْ تَكُنْ...

دَعْنَا نَعْدُو فَوْقَ جَبَلٍ تُقَامُ عَلَى قِمَّتِهِ ذَبِيحَةُ الْمَعْنَى، تَعَضُّهُ الْمَذْبَحَةُ بِأَنْيَابِهَا، كَأَنَّهَا تُثَبِّتُ وُجُودَهَا فِي لَحْمِ الصَّخْرِ...

كَانَ الْغَيْبُ يَمُدُّ كَفَّهُ مِنْ وَرَاءِ الْحِجَابِ، شَمَّاسًا لَا يُرَى، يُثَبِّتُ الْأَعْمِدَةَ كَيْ لَا يَسْقُطَ الْهَيْكَلُ عَلَى صَلَاتِهِ...

وَعَلَى السُّفُوحِ، كَانَتِ الْفَاجِعَةُ تُرَتِّلُ مُجَادَلَتَهَا، وَتُقِيمُ مِنَ الْأَلَمِ قَانُونًا، وَمِنَ النَّزْفِ عَقِيدَةً، وَنَحْنُ شَارِدَانِ، نَرْفَعُ دُخَانَ لَفَافَةِ الشُّرُودِ كَبُخُورٍ مَقْلُوبٍ، نُقَدِّمُهُ لِسَمَاءٍ لَا تُجِيبُ، أَوْ تُجِيبُ بِصَمْتٍ أَثْقَلَ مِنَ الِاعْتِرَافِ.

كَانَتِ الْجُرُوحُ، يَا شِرَاعُ، لَا تُؤْلِمُ فَحَسْبُ، إِنَّمَا كَانَتْ تُنَظِّمُ نَشِيدَهَا فِي جَسَدِي: جُرْحٌ يَفْتَحُ كَإِنْجِيلٍ، وَآخَرُ يَنْزِفُ كَحِبْرٍ طَقْسِيٍّ، وَثَالِثٌ يَتَصَلَّبُ كَنَدْبَةٍ تُعِيدُ كِتَابَةَ مَا مَضَى... وَكَانَتِ الدِّمَاءُ، يَا شِرَاعُ، تُرَتِّلُنِي وَلَا أَنْطِقُهَا. كَانَتْ تَنْحَتُ جَسَدِي كَكِتَابٍ طَقْسِيٍّ: دَلَافِينُهَا أَسْرَارُ مَاءٍ ضَائِعٍ، وَطَوَاوِيسُهَا بَهَاءُ سُقُوطٍ مُعْلَنٍ، وَصُقُورُهَا أَجْنِحَةُ عَلَامَةٍ لَا تُقْرَأُ إِلَّا حِينَ يُغْمَضُ الْبَصَرُ...

وَكُنْتُ أَشُمُّ تِلْكَ الرَّائِحَةَ، رَائِحَةَ الْبَسَالَةِ الْمَنْقُوعَةِ فِي عِطْرِ الْآلِهَةِ، وَهِيَ تُلْبِسُ الْإِنْسَانَ دِرْعَهَا لِيَقْتَرِبَ أَكْثَرَ مِمَّا يَنْبَغِي، وَيُلَامِسَ فُهُودَ الْغَيْبِ، تِلْكَ الَّتِي لَا تُرَى، وَتَتْرُكُ فِي الرُّوحِ أَثَرَ مَخَالِبِهَا دُونَ أَنْ تَظْهَرَ.

وَفِي ذُرْوَةِ الِاحْتِرَاقِ، حِينَ صَارَ الضَّوْءُ عِبْئًا، سَمِعْتُ إِيكَار، كَأَنَّهُ يَهْمِسُ مِنْ شَقٍّ فِي السَّمَاءِ:
- لَا عَلَيْكَ، إِنَّهَا جِرَاحٌ عَابِرَةٌ.
قُلْتُ، وَأَنَا أُقَلِّبُ الْمَعْنَى عَلَى جَمْرَةِ الْحَذَرِ:
- هَذِهِ سَتَغْسِلُهَا يَنَابِيعُ الْأَيَّامِ، وَسَتُعَمِّدُهَا بِمَائِهَا، وَسَتُفْرِغُ مِنْهَا هَذَيَانَهَا كَمَا يُفْرَغُ الْخَمْرُ مِنْ كَأْسٍ مَنْسِيَّةٍ. وَسَتَأْتِي السِّنُونَ، مُرْتَدِيَةً مِئْزَرَهَا، لِتَسْتُرَ تَمَاثِيلَ الْأَشْبَاحِ، وَلِتَجْعَلَهَا أَيْقُونَاتٍ مَطْمُوسَةً، حَتَّى يَصِيرَ النَّظَرُ إِلَيْهَا عَسِيرًا عَلَى كُلِّ مَنْ لَمْ يُخْتَبَرْ بِالْعَمَى الدَّاخِلِيِّ. فَلَا يَرَاهَا إِلَّا مَنْ تَعَلَّمَ كَيْفَ يَقْرَأُ الطَّمْسَ، وَيُبْصِرُ مِنَ الدَّاخِلِ.
دَعْنِي، أَيُّهَا الْجُنُونُ، يَا شَرِيكِي فِي هَذَا التَّرْتِيلِ النَّاقِصِ. لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سِوَى نَرْدِ الْغَضَبِ، نَتَدَاوَلُهُ كَمَا لَوْ أَنَّهُ مِسْبَحَةٌ مَكْسُورَةٌ، نَعُدُّ بِهِ خَطَايَانَا فِي نَشِيدٍ فَاحِشٍ، نَشِيدٍ لَا يُغْفَرُ، عَلَى مَرْأًى مِنْ يَرَابِيعِ الْكَلَامِ وَهِيَ تَرْتَجِفُ، كَجَوْقَةٍ فَقَدَتْ كَاهِنَهَا.
لَا قَامَةَ لِي تَعْلُو كَالْمَذَابِحِ، وَلَا ظِلَّ لِي يَمْتَدُّ كَصَلَاةٍ كَامِلَةٍ. لَيْسَ لِي سِوَى أَنْ أَبْقَى صُورَةً هَرِمَةً، (فُوتُوغْرَافِيًا عَجُوزًا)، يَقُودُ (شَاعِرًا هَارِبًا) نَحْوَ فِرْدَوْسٍ مَنْزُوعِ الْبَرَكَةِ، وَبَابٍ يُفْتَحُ عَلَى الْفَرَاغِ...

دَعْنِي، أَيُّهَا الْجُنُونُ، يَا شَرِيكِي فِي لُعْبَةِ (السَّرْدِ)... دَعْنَا نَقْذِفُ مَصَائِرَنَا كَمَنْ يَقْذِفُ صَلَوَاتٍ بِغَيْرِ جِهَةٍ. لَا نَعْرِفُ أَكُنَّا نَلْعَبُ، أَمْ أَنَّ اللُّعْبَةَ هِيَ الَّتِي تُقِيمُنَا فِي دَاخِلِهَا.
دَعِ الثَّعَابِينَ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِنَا وَهِيَ تَفِرُّ مِنْ مَعْنًى إِلَى مَعْنًى، كَأَنَّ اللُّغَةَ تُبَارِكُ هَذَا التِّيهَ، وَكَأَنَّ الطَّرِيقَ نَفْسَهُ لَا يَذْكُرُ إِلَى أَيْنَ كَانَ يَقُودُ، وَكَأَنَّنَا نُعِيدُ تَمْثِيلَ الْفِرْدَوْسِ بَعْدَ أَنْ فَقَدَ تَعْرِيفَهُ.

وَلَيْسَ لِي، فِي هَذَا السِّفْرِ، فِي عُمْقِ الطَّقْسِ وَآخِرِ التَّرْتِيلِ، حَيْثُ لَا يَصِلُ الصَّوْتُ كَامِلًا، غَيْرُ أَنْ أَرَى كَاهِنَاتِ الظِّلِّ يَحِكْنَ الطَّعْنَةَ بِإِبَرٍ مِنْ دَمٍ، وَيَحْصُدْنَ مَا تَبَقَّى مِنَ الْحِكَايَةِ بِمَنَاجِلِهِنَّ الْمُنْحَنِيَةِ...
كُنَّ يَلْمِسْنَ الْجُرُوحَ كَمَا تُلْمَسُ الْأَيْقُونَاتُ، كَأَنَّهُنَّ يَحْصُدْنَ مَا تَبَقَّى مِنَ الضَّوْءِ، وَيُطْفِئْنَ قِنْدِيلَ دَلِيلٍ مِثْلِي، أَنَا الْفُوتُوغْرَافِيُّ الَّذِي ضَلَّ تَرْتِيلُهُ وَهُوَ يُلَامِسُ أَعْشَابَهُنَّ، وَاقْتَرَبَ مِنْ مَقَاصِيرِهِنَّ، تِلْكَ الَّتِي مَا تَزَالُ جُرُوحُهَا مَفْتُوحَةً، تُرَنِّمُ حَنِينًا خَفِيًّا، حَنِينًا يَتَرَدَّدُ كَامِنَ لَمْ تُخْتَمْ، وَكَصَلَاةٍ تُعِيدُ نَفْسَهَا لِأَنَّ الْخَلَاصَ لَمْ يَصِلْ بَعْدُ.
أَيُّهَا الْجُنُونُ، أَيُّهَا الْجُنُونُ، افْتَحِ الْمَجَالَ لِلسُّكُوتِ، فَمَا سَيُقَالُ الْآنَ لَا يُقَالُ.
أَيُّهَا الْجُنُونُ، يَا جُنُونِي، أَنْصِتْ لِي، لَمْ نَعُدْ نَتَكَلَّمُ اللُّغَةَ نَفْسَهَا.
- تَوَقَّفْ. هُنَا. هَذَا هُوَ الْحَدُّ. هَذَا مَا يَجِبُ أَنْ يُحْفَظَ.
فَارْتَجَفْتُ، وَقُلْتُ وَأَنَا أَتَفَلَّتُ مِنْ حُرُوفِي:
- الْحَدُّ خُدْعَةٌ، مَا تَرَاهُ يَنْغَلِقُ، وَمَا تَنْغَلِقُ عَلَيْهِ يَفْلِتُ.
قُلْ لِي، أَيُّهَا الْجُنُونُ، يَا جُنُونِي، وَأَبْقِ السُّؤَالَ مَفْتُوحًا كَمَا بَدَأَ: هَلْ نَحْنُ نُرَتِّلُ كَيْ نُشْفَى، أَمْ نُرَتِّلُ كَيْ لَا نَنْسَى شَكْلَ الْجُرْحِ؟
لَكِنَّ الْجُرْحَ، أَيُّهَا الْجُنُونُ، كَانَ أَوَّلَ مَنْ اعْتَرَضَ. انْفَتَحَ بَيْنَنَا كَكِتَابٍ لَا يَقْبَلُ قَارِئَيْنِ. كَانَ يَقُولُ لِإِيكَارَ: لَا تُجَمِّدْنِي. وَيَقُولُ لِي: لَا تُبَدِّدْنِي. وَكَانَ صَوْتُهُ أَعْلَى مِنْ تَرْتِيلِنَا مَعًا...
صِرْتُ أَهْرُبُ، أُفْلِتُ مِنَ اللُّغَةِ كَمَا يُفْلِتُ الدَّمُ مِنْ جُرْحٍ رَافِضٍ. أَخُونُ الْجُمْلَةَ قَبْلَ أَنْ تَكْتَمِلَ، كَأَنَّ النَّجَاةَ فِي النَّقْصِ.
وَهُنَا، عِنْدَ الذِّرْوَةِ...
كَانَ الْجَبَلُ يُصْغِي...
وَكَانَ الضَّوْءُ يَزْدَادُ حِدَّةً، حَتَّى صَارَ الِاحْتِرَاقُ شَرْطًا لِلرُّؤْيَةِ، رُؤْيَةً تُشْبِهُ مَذْبَحًا.
وَدَخَلْنَا الطَّقْسَ دُونَ أَنْ نَتَّفِقَ.
ظَهَرَتْ فُهُودُ الْغَيْبِ. لَمْ تَكُنْ تَمْشِي، كَانَتْ تُرَى، ثُمَّ تُفْقَدُ فِي اللَّحْظَةِ نَفْسِهَا.
تَكَلَّمَتْ وَاحِدَةٌ مِنْهَا، لَكِنَّ الصَّوْتَ لَمْ يَأْتِ مِنْ فَمٍ، جَاءَ مِنْ دَاخِلِ الْإِدْرَاكِ:
- نَحْنُ مَا يَلْمَسُهُ الْبَصَرُ قَبْلَ أَنْ يَفْهَمَهُ.
ارْتَجَفَ الْفُوتُوغْرَافِيُّ. قَالَ:
- لَوْ ثَبَّتُّكُمْ فِي صُورَةٍ... هَلْ تُصْبِحُونَ حَقِيقَةً؟
ضَحِكَتْ فُهُودُ الْغَيْبِ... لَكِنَّ الضَّحِكَ كَانَ خَدْشًا فِي الضَّوْءِ:
- أَيُّ صُورَةٍ تُثَبِّتُنَا تَمُوتُ.

الْتَفَتَ الشَّاعِرُ الْهَارِبُ، وَقَالَ:
- إِذَنْ أَنْتُمْ ضِدُّ الثَّابِتِ؟
فَجَاءَ الْجَوَابُ كَقَفْزَةٍ فِي الْمَعْنَى:
- نَحْنُ ضِدَّ الْبَقَاءِ كَمَا هُوَ.

## إِصْحَاحُ

## 10

## الْجُرْحُ يَتَكَلَّمُ

فِي قِمَّةِ الْجَبَلِ، عِنْدَمَا لَمْ يَعُدِ الْعُلُوُّ عُلُوًّا، انْشَقَّ الْهَوَاءُ كَسِتَارَةِ مَعْبَدٍ، وَظَهَرَ الْجُرْحُ. لَمْ يَكُنْ فِي الْجَسَدِ، كَانَ الْجَسَدُ فِيهِ...

قَالَ بِصَوْتٍ يُعَاشُ وَلَا يُسْمَعُ:
- أَنَا السَّرْدُ، وَأَنَا النَّصُّ، وَأَنَا مَا لَا يُمْحَى. أَنَا طَرِيقُ رُؤْيَتِهِ بِغَيْرِ قِنَاعٍ.
وَقَفَ الْفُوتُوغْرَافِيُّ، يَحْمِلُ صُورَتَهُ كَقَرَابِينِ بَارِدَةٍ، وَقَالَ:
- أَنَا مَنْ يُنْقِذُ اللَّحْظَةَ مِنَ الْفَنَاءِ. أَنَا مَنْ يُوقِفُ الزَّمَنَ كَيْ لَا يَنْهَارَ.
تَحَرَّكَ الشَّاعِرُ الْهَارِبُ، كَأَنَّهُ ظِلٌّ خَرَجَ مِنْ ظِلٍّ، وَقَالَ:
- أَنَا مَنْ يَمْنَعُ اللَّحْظَةَ مِنْ أَنْ تُخْتَمَ. أَنَا مَنْ يُبْقِي الْفَتْحَ مَفْتُوحًا عَلَى الْهَاوِيَةِ.
سَكَتَ الْجُرْحُ... ثُمَّ نَطَقَ:
- أَنْتُمَا مَعًا تُؤَجِّلَانِ الْحَقِيقَةَ.
ظَهَرَ الضَّوْءُ عِنْدَ هَذِهِ الْجُمْلَةِ. ارْتَجَفَ كَأَنَّهُ صَارَ شَاهِدًا خَائِفًا. تَقَدَّمَ وَقَالَ:
- أَنَا كُنْتُ أَرَى، لَكِنِّي لَمْ أَكُنْ أَفْهَمُ مَا أُضِيءُ.
وَظَهَرَ الزَّمَنُ مِنْ تَحْتِ طَبَقَاتِ الْهَوَاءِ، وَقَالَ:
- أَنَا كُنْتُ أُغَطِّي مَا لَا يُحْتَمَلُ.

قَالَ الْفُوتُوغْرَافِيُّ:
- إِنْ لَمْ نُثَبِّتْ، يَضِعْ كُلُّ شَيْءٍ.
وَقَالَ الشَّاعِرُ الْهَارِبُ:
- وَإِنْ ثَبَّتْنَا، يَمُتْ كُلُّ شَيْءٍ.
فَأَجَابَ الْجُرْحُ بِهُدُوءٍ لَا يُشْبِهُ الرَّحْمَةَ وَلَا الْقَسْوَةَ:
- كِلَاكُمَا يَقْتُلُ بِطَرِيقَتِهِ... كُلُّ مَا ظَنَنْتُمُوهُ جَمَالًا... كَانَ نَزْفًا مُتْقَنَ التَّرْتِيبِ.
نَظَرَ الْفُوتُوغْرَافِيُّ إِلَى صُوَرِهِ، فَرَأَى أَنَّ كُلَّ لَقْطَةٍ كَانَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ أَيْضًا.
وَقَالَ الشَّاعِرُ الْهَارِبُ بِصَوْتٍ مُنْخَفِضٍ:
- كُنْتُ أَكْتُبُ الْجَمَالَ كَنَجَاةٍ...
قَالَ الْفُوتُوغْرَافِيُّ:
- كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّنِي أَدْفِنُ الْأَشْيَاءَ...
فَرَدَّ الْجُرْحُ:
- أَنْتَ لَا تَدْفِنُهَا، إِنَّمَا تُعِيدُهَا بِشَكْلٍ أَبْطَأَ.
فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ، سَقَطَ الْفُوتُوغْرَافِيُّ دَاخِلَ مَا الْتَقَطَهُ مِنْ صُوَرٍ، وَتَحَوَّلَ إِلَى إِطَارٍ فَارِغٍ، إِلَى أَثَرٍ بِغَيْرِ صَاحِبٍ.
وَسَقَطْتُ أَنَا دَاخِلَ مَا هَرَبْتُ مِنْهُ. وَجَدْتُ نَفْسِي مُحَاطًا بِمَا لَمْ أَقُلْهُ، بِمَا تَرَكْتُهُ خَلْفِي كَجُرُوحٍ غَيْرِ مَكْتُوبَةٍ...
لَمْ يَعُدْ هُنَاكَ ثَابِتٌ، وَلَا انْفِلَاتٌ. فَقَطْ أَثَرٌ وَاحِدٌ يَتَقَدَّمُ: أَثَرٌ لَا يُسَمَّى...
وَفِي انْعِكَاسِهِ، مَرَّ إِيكَارُ كَعَلَامَةٍ، لَكِنَّهُ هَذِهِ الْمَرَّةَ لَمْ يَسْقُطْ... تَرَكَ سُقُوطَهُ مُعَلَّقًا فِي الْهَوَاءِ، كَأَنَّهُ دَلِيلٌ غَيْرُ مُكْتَمِلٍ...
وَقَالَ دُونَ صَوْتٍ:
- كُلُّ سَرْدٍ... كَانَ سُقُوطًا مُؤَجَّلًا.
فَهِمْنَا مُتَأَخِّرِينَ أَنَّ الصُّورَةَ لَا تَمْنَعُ السُّقُوطَ، وَأَنَّ اللُّغَةَ لَا تُؤَجِّلُهُ.
وَلَمْ يَبْقَ بَيْنَنَا، أَيُّهَا الْجُنُونُ، سِوَى هَذَا:

أَنْ أَقُودَهُ، أَوْ يَقُودَنِي، لَمْ يَعُدْ ذَلِكَ وَاضِحًا:
*(فُوتُوغْرَافِيٌّ عَجُوزٌ) يَمْشِي،
*(شَاعِرٌ هَارِبٌ) يَتْبَعُهُ،
أَوِ الْعَكْسُ، فِي طَرِيقٍ لَا يُفَرِّقُ بَيْنَ الشَّهَادَةِ وَالْهُرُوبِ.
قَالَ الْجُرْحُ:
- حِينَ يَتَبَادَلُ الْهَارِبُ وَالْمُهَرِّبُ أَدْوَارَهُمَا، هَلْ يَنْجُو الْمَعْنَى، أَمْ يَكْتَشِفُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ أَحَدٌ يَحْرُسُهُ مِنَ الْبِدَايَةِ؟
حَدَثَ مَا لَمْ نُرَتِّلْهُ مِنْ قَبْلُ:
تَوَقَّفَ الْجَبَلُ عَنْ أَنْ يَكُونَ مَكَانًا، وَصَارَ سُؤَالًا مَفْتُوحًا...
نَظَرَ الْفُوتُوغْرَافِيُّ إِلَى صُورَتِهِ، فَلَمْ يَتَعَرَّفْ إِلَيْهَا.
وَقَالَ:
- مَنْ يُثَبِّتُ اللَّحْظَةَ... يَفْقِدْهَا. وَمَنْ يُجَمِّدِ الزَّمَنَ... يُجَمَّدْ فِيهِ.
لَمْ يَعُدِ الْفُوتُوغْرَافِيُّ يُمْسِكُ الصُّورَةَ، صَارَ الْأَثَرَ الَّذِي تَتْرُكُهُ الصُّورَةُ قَبْلَ أَنْ تُلْتَقَطَ.
لَمْ يَعُدْ شَاهِدًا...
صَارَ بَقَايَا رُؤْيَةٍ لَمْ تَكْتَمِلْ...
وَسُمِّيَ:
حَارِسَ الظِّلَالِ.
وَأَنَا، أَنَا الشَّاعِرُ الْهَارِبُ، تَعَثَّرْتُ بِمَا تَرَكَهُ الْفُوتُوغْرَافِيُّ. حَاوَلْتُ أَنْ أُثَبِّتَ شَيْئًا، أَيَّ شَيْءٍ، كَأَنِّي أَخَافُ أَنْ يَخْتَفِيَ الْعَالَمُ إِنْ لَمْ أُسَمِّهِ...
كَانَ هُرُوبِي يَسِيرُ أَمَامِي كَظِلٍّ مُتْعَبٍ.
وَأَخَذَ الْجُرْحُ مِنْ صَوْتِي "النَّجَاةَ"، ثُمَّ قَالَ لِي:
- مَنْ يَهْرُبُ مِنَ الْمَعْنَى... يَظَلُّ مَرْبُوطًا بِهِ.
انْكَسَرَ الْهُرُوبُ فِي دَاخِلِي دُونَ أَلَمٍ...

وَلَمْ أَعُدِ الشَّاعِرَ الْهَارِبَ الَّذِي يَفِرُّ مِنَ التَّسْمِيَةِ...
صِرْتُ الْمَكَانَ الَّذِي تَتَفَكَّكُ فِيهِ الْأَسْمَاءُ.
لَمْ أَعُدْ هَارِبًا، صِرْتُ تَجَاوِيفَ اللُّغَةِ حِينَ تَنْسَى نَفْسَهَا...
وَسُمِّيْتُ:
**(نَاسِخَ الْفَرَاغِ).**
قَالَ الْجُرْحُ:
- الْآنَ فَقَطْ... يُمْكِنُ لِلرُّؤْيَا أَنْ تَبْدَأَ.(145)
لَكِنَّ الرُّؤْيَا لَمْ تَكُنْ بَصَرًا... كَانَتْ فَقْدَانَ الْحَاجَةِ إِلَى الْبَصَرِ.
ثُمَّ أَضَافَ:
- لَمْ يَعُدْ هُنَاكَ فُوتُوغْرَافِيٌّ...
لَمْ يَعُدْ هُنَاكَ شَاعِرٌ...
هُنَاكَ فَقَطْ:
مَنْ يَظُنُّ أَنَّهُ يُثَبِّتُ...
وَمَنْ يَظُنُّ أَنَّهُ يَهْرُبُ...
صَمَتَ...
- أَنَا لَمْ أَعُدْ جُرْحًا... أَنَا كَشْفٌ يُعِيدُ تَوْزِيعَ الْمَعْنَى عَلَى الْوُجُودِ.
قُلْ لِي،
أَيُّهَا الْجُنُونُ،
وَأَبْقِ السُّؤَالَ قَائِمًا كَمَا يَنْبَغِي:
إِذَا كَانَتِ الصُّورَةُ أَثَرًا، وَكَانَتِ اللُّغَةُ أَثَرًا آخَرَ،
فَمَنْ مِنَّا كَانَ الْجُرْحَ؟

---

145- مِنْ هُنَا صَارَ الْعُبُورُ صَلَاةً.

١٠

# النَّشِيدُ العَاشِرُ

مَزْمُور

## مَزْمُورُ الرَّكْضِ وَالحُدُودِ

(يُتْلَى حِينَ يَخْلَعُ الصَّوْتُ جِلْدَهُ الأَخِيرَ)

لِهٰذَا اتَّخَذَ الحِبْرُ هَيْئَتِي، وَلِهٰذَا سَلَخْتُ جِلْدَ الوَرَقِ وَارْتَدَيْتُهُ كَمَا يَرْتَدِي الكَاهِنُ جِلْدَ الذَّبِيحَةِ لِيَدْخُلَ قُدْسَ النَّارِ. عَلَّقْتُ الحُرُوفَ عَلَى صَدْرِي كَنِيَاشِينَ عَلَى صَدْرِ العَمَى، وَنَجَوْتُ مِنَ المَعْنَى. نَثَرْتُ الكَلِمَاتِ عَلَامَاتٍ بِلا دَلَالَةٍ، وَأَثْنَيْتُ عَلَيْهَا مَدِيحًا يَتَغَذَّى عَلَى هَذَيَانِهِ، إِلَى أَنْ صَارَتِ الظِّلَالُ تَلْتَفُّ عَلَى نَفْسِهَا لِتَضُمَّ الظِّلَالَ، وَيُعَانِقَ الخَيَالُ ظِلَّهُ فِي طَقْسٍ مُكْتَفٍ بِذَاتِهِ. لَا خَارِجَ يُنَادَى، وَلَا دَاخِلَ يُسْتَجَابُ، فَقَطِ اتِّسَاعٌ يَجُرُّ الأَسْمَاءَ إِلَى مَحْوِهَا.

وَقَفْتُ أَمَامَ الفَرَاغِ، أَمْتَحِنُ عَدَاوَةَ الغَيْبِ فِي عَدَمِهِ. سَأَلْتُ مَا لَا يُسْأَلُ: أَيُّ لَفْظٍ يَلِيقُ بِاتِّسَاعٍ لَا يُنَادَى؟ أَيُّ إِلٰهٍ هٰذَا الَّذِي يَعْلُو فِي امْتِنَاعِهِ، وَيُخْفِي قُدْرَتَهُ فِي غِيَابِهِ؟ مَاذَا أُنَاجِي، بَعْدُ، يَا إِلٰهِي، أَيُّهَا القَوِيُّ الخَفِيُّ، المُتَعَالِي فِي حَدِيقَتِهِ الزَّاهِيَةِ؟ مَاذَا أُنَاجِي؟

مَاذَا أَسْرُدُ، بَعْدُ، لِهٰذَا العَطَبِ فِي الرُّوحِ؟ يَا إِلٰهِي، أَيُّهَا القَوِيُّ الغَامِضُ العَالِي، يَا مَنْ لَا يُسْتَدْعَى إِلَّا حِينَ تَتَكَسَّرُ الأَسْمَاءُ، مَاذَا أَسْرُدُ؟
هُنَا لَا لُغَةَ تُعَمِّدُنِي، وَلَا لِسَانَ يَكْسُونِي، وَلَا أَبْجَدِيَّةَ تَنْبُتُ مِنْ جُرْحِ الحَرْفِ، وَلَا قُبَّةَ لِي إِلَّا خَيَالٌ مُعَلَّقٌ كَهَيْكَلٍ بِلا أَعْمِدَةٍ، وَالسَّمَاءُ شَقٌّ فِي شَمْعَدَانِ شَفَقٍ يَتَدَاعَى كَهَيْكَلٍ نَسِيَ مِذْبَحَهُ.

فِي طَرِيقِ العَقَبَاتِ انْكَشَفَتِ الحُدُودُ، جَاءَتْ مُغْمِضَةً، كَأَنَّهَا تَحْفَظُ سِرَّ نِسْيَانِهَا. بَدَتْ كَحُلْمٍ مَرَّ عَلَى الِاسْمِ ثُمَّ أَفْلَتَ مِنْهُ، (كَأَنَّهَا حَلِمَتْ بِكَ، كَأَنَّ اسْمَكَ مَرَّ فِي خَيَالِهَا)، كَتَرْتِيلَةٍ تُقَالُ بِلا فَهْمٍ وَتُصَدَّقُ. رَفَعَتْ أُمُومَتَهَا نَحْوَ الغَيْمِ لِتَكْسُونِي بِنَدًى لَا يَعْرِفُ مَنْ يَبْكِي فِيهِ.

عَدَوْتُ إِلَيْهَا بِسَاقَيْنِ مِنْ فِتْنَةٍ فَاسِدَةٍ، وَبِجَسَدٍ يَجُرُّ غِوَايَتَهُ إِلَى مَخَازِنِهَا الخَفِيَّةِ. كُنْتُ اقْتِرَابًا يُفْسِدُ مَا يَلْمَسُهُ، وَنَفَسًا يُرْبِكُ العُذُوبَةَ حَتَّى تَخْتَنِقَ بِصَوْتِهَا. أَنَا بَعْلٌ بِلا خِصْبٍ، أُوقِظُ السُّفُوحَ كَيْ تَرْكُضَ كَحَشَرَاتِ المَدِيحِ فِي طُقُوسٍ بِلا إِلٰهٍ. أَنْفُخُ فِي نَايِ الحَلَاوَةِ، فَيَخْرُجُ مِنْهُ اخْتِنَاقٌ يُشْبِهُ نَشِيدًا مَكْسُورًا.

كُلُّ اقْتِرَابٍ مِنِّي يُحَرِّضُ الِاضْطِرَابَ، وَكُلُّ لَمْسٍ يُوقِظُ فِي الأَشْيَاءِ شَكَّهَا القَدِيمَ. الجِبَالُ تَتَذَكَّرُ هَشَاشَتَهَا، وَالأَوْدِيَةُ تَنْسَى عُمْقَهَا، وَالرِّيحُ تَعُودُ إِلَى أَصْلِهَا المُرْتَبِكِ، كَأَنَّنِي دَعْوَةٌ إِلَى خَلَلٍ أَوَّلَ.

أَعْطَتْنِي الصَّرْخَةُ مِيرَاثًا، وَسَيَّجَتْ غَضَبِي بِفَرَاشَاتٍ مَرِيضَةٍ. أَوْهَمَتْنِي أَنِّي سَأَلْمَسُ ثَدْيَ الأَرْضِ، وَقِيلَ لِي إِنَّ الأَغَانِي سَتَنَامُ، وَإِنَّ الحُلْمَ سَيَبْرُدُ كَجَسَدٍ أُنْجِزَتْ طُقُوسُهُ. غَيْرَ أَنَّ الحُلْمَ ظَلَّ جَمْرَةً تَتَنَكَّرُ فِي رَمَادِهَا، وَالحُدُودَ صَدَفَةً فَارِغَةً تُتْقِنُ الصَّمْتَ، وَالمَوْجَ حُلْوًا لِأَنَّهُ يَخُونُ شَكْلَهُ كُلَّ مَرَّةٍ.

رَكَضْتُ كَمَا لَوْ أَنَّ الأَرْضَ تَنْسَحِبُ مِنْ تَحْتِي، رَكَضْتُ... رَكَضْتُ... رَكَضْتُ... كَمَا لَوْ أَنَّ البَرَارِيَ تَعْبُرُنِي كَجَنَازَاتٍ لَا تَخُصُّنِي... كُنْتُ شَمْعَدَانَ الشَّفَقِ، أَحْمِلُ ضَوْءًا لَا يَهْدِي أَحَدًا. وَكُنْتُ مِعْطَفَ الحَرِيقِ، أُدَفِّئُ اشْتِعَالِي وَأَرْتَجِفُ فِيهِ.
المَكَانُ يَضَعُ عَلَى رَأْسِي تِيجَانَهُ الثَّقِيلَةَ، وَالنَّشِيدُ يُضَلِّلُ خَطْوِي كَيْ أُصَدِّقَهُ. وَالسَّمَاءُ تَنْزِفُ ضَوْءَهَا البَارِدَ، وَتَبُلُّ رَمَقَ المَرَاثِي فِي بُعْدٍ أَخِيرٍ.

(رَكْضِي لَمْ يَكُنِ انْتِقَالًا، كَانَ اشْتِعَالًا يَتَدَرَّبُ عَلَى هَيْئَةِ جَسَدٍ. كُلُّ خُطْوَةٍ جَنَاحٌ يَجْهَلُ مَادَّتَهُ، وَكُلُّ نَفَسٍ اقْتِرَابٌ مِنِ احْتِرَاقٍ مُؤَجَّلٍ. كُنْتُ أَرْكُضُ كَمَا يَطِيرُ إِيكَارُ، لَا نَحْوَ جِهَةٍ، وَإِنَّمَا نَحْوَ حَدٍّ يَتَنَكَّرُ فِي ضَوْءٍ لَا يُحْتَمَلُ. لَمْ تَكُنِ الشَّمْسُ أَمَامِي، كَانَتْ فِي دَاخِلِي، تَسْحَبُنِي كَخَطِيئَةٍ تَتَذَكَّرُ أَصْلَهَا. كُلُّ اقْتِرَابٍ مِنَ الحُدُودِ كَانَ ارْتِفَاعًا فِي وَهْمِ العُلُوِّ. أَصْعَدُ فِي رَكْضِي كَأَنَّ الأَرْضَ تَنْسَحِبُ اعْتِرَافًا، وَأَخِفُّ حَتَّى يَكَادَ جَسَدِي يَنْسَى ثِقَلَهُ. غَيْرَ أَنَّ الخِفَّةَ خِيَانَةٌ بَطِيئَةٌ، تُقْنِعُ السَّاقَيْنِ أَنَّهُمَا جَنَاحَانِ، وَتُقْنِعُ القَلْبَ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى الضَّوْءِ. هٰكَذَا يَكْتَمِلُ الوَهْمُ: أَنْ تُصَدِّقَ أَنَّ الِاحْتِرَاقَ عُبُورٌ، وَأَنَّ السُّقُوطَ مُجَرَّدُ تَصْحِيحٍ لِلْمَسَارِ...

لَمْ تَكُنِ الحُدُودُ تَنْتَظِرُنِي، كَانَتْ تَتَوَهَّجُ كُلَّمَا اقْتَرَبْتُ، كَأَنَّهَا تُغْوِينِي بِمِرْآةٍ مِنْ نَارٍ... رَأَيْتُ نَفْسِي فِيهَا أَعْلَى مِمَّا أَنَا، وَأَنْقَى مِمَّا أَحْتَمِلُ، وَأَقْرَبَ إِلَى شَمْسٍ لَا تَرْحَمُ... مَدَدْتُ رَكْضِي كَذِرَاعٍ مُشْتَعِلَةٍ، وَظَنَنْتُ أَنِّي سَأَلْمَسُ النِّهَايَةَ، فَاكْتَشَفْتُ أَنَّ النِّهَايَةَ هِيَ مَا يَلْمَسُنِي، وَيُعِيدُنِي رَمَادًا إِلَى بَدَايَتِي).[146]

فَجَمْرُ حُلْمِكَ، أَيُّهَا الرَّاكِضُ، وَأَنْتَ تُهْتَدَى إِلَى الحُدُودِ كَمِحَارَةٍ مُفَرَّغَةٍ يَقْذِفُهَا المَوْجُ فِي خَلِيجٍ حُلْوٍ، أَوْ كَكَسَلٍ صَبَاحِيٍّ يَتَأَمَّلُ عُذُوبَةَ صَبَاحِهِ، ارْكُضْ بِهُدُوءٍ، وَعَلَى مَهْلٍ، لِتَمُرَّ بِكَ الحَيَوَانَاتُ المُصَوَّرَةُ بِفِرَائِهَا البُنِّيِّ الَّذِي مَنَحَتْهَا إِيَّاهُ الطَّبِيعَةُ.

وَلَكَ، أَيُّهَا الرَّاكِضُ، لَكَ النُّبُوءَاتُ بِشَرِيعَتِهَا، وَالمَلَائِكَةُ الحَاكِمَةُ لِلْعَالَمِ بِتِيجَانِهَا وَرِيشِهَا.

وَلَكَ، أَيُّهَا الرَّاكِضُ، لَكَ حَجَرُ الحُكَمَاءِ، وَبَرَاعَةُ الخِيمِيَائِيِّ وَإِتْقَانُهُ...
يَا إِيكَارُ، لَمْ تَكُنْ تَسْقُطُ، كُنْتَ تَتَذَكَّرُ حَرَارَةً أَقْدَمَ مِنْ جَنَاحَيْكَ... فِي رَكْضِكَ كُنْتَ تَسْتَعِيدُ ذٰلِكَ الخَطَأَ كَطَقْسٍ مُقَدَّسٍ... كُلُّ اقْتِرَابٍ مِنَ الحَدِّ هُوَ تَكْرَارٌ لِسُقُوطٍ لَمْ يَكْتَمِلْ... نَحْنُ لَا نَبْلُغُ الشَّمْسَ، نَحْنُ نُدَرَّبُ عَلَى الِاحْتِرَاقِ بِهَا... وَالحُدُودُ لَيْسَتْ إِلَّا ذَرِيعَةً كَيْ نَمْنَحَ سُقُوطَنَا اسْمًا يُمْكِنُ احْتِمَالُهُ...
حِينَ اشْتَدَّ رَكْضُكَ، أَيُّهَا الرَّاكِضُ، لَمْ يَعُدْ هُنَاكَ فَرْقٌ بَيْنَ الأَرْضِ وَالعُلُوِّ... كُلُّ شَيْءٍ صَارَ مَيْلًا نَحْوَ الِانْفِلَاتِ، وَكُلُّ جَسَدٍ صَارَ احْتِمَالًا لِلذَّوَبَانِ... شَعَرْتُ أَنَّكَ تَتَحَلَّلُ فِي سُرْعَتِكَ، تَتْرُكُ خَلْفَكَ مَا كُنْتَهُ دُونَ رَجْعَةٍ... حَتَّى الِاسْمُ سَقَطَ كَقِشْرَةٍ زَائِدَةٍ، وَالوَجْهُ تَلَاشَى فِي وَهْجٍ بِلا مَلَامِحَ...
فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ فَهِمتَ أَنَّ الرَّكْضَ طَيَرَانٌ بِلا سَمَاءٍ، وَأَنَّ السُّقُوطَ هُوَ الحَقِيقَةُ الوَحِيدَةُ الَّتِي تَصْبِرُ عَلَيْنَا...
لَمْ تَعُدِ الحُدُودُ خَطًّا، صَارَتْ شَمْسًا تُتْقِنُ التَّخَفِّيَ... لَا تُرَى مِنْ بَعِيدٍ، وَإِنَّمَا تُحَسُّ كَجَاذِبِيَّةٍ خَفِيَّةٍ تَشُدُّ المَعْنَى مِنْ أَطْرَافِهِ... كُلُّ مَنِ اقْتَرَبَ مِنْهَا ظَنَّ أَنَّهُ يَخْتَارُهَا، وَكَانَ فِي الحَقِيقَةِ يُسْحَبُ إِلَيْهَا كَاعْتِرَافٍ مُتَأَخِّرٍ...

---

146- **نَاسِخٍ أَعْمَى يَقُولُ**: المِدَادُ مَا زَالَ رَطْبًا، وَالرَّعْدُ لَمْ يَهْدَأْ بَعْدُ.

هِيَ لَا تَدْعُو، تُغْرِي بِالتَّمَاسُكِ حَتَّى يَلِينَ، وَبِالوُضُوحِ حَتَّى يَحْتَرِقَ، وَتَتْرُكُ العَابِرَ يَذُوبُ فِي يَقِينِهِ...
وَأَنْتَ رَكَضْتَ نَحْوَهَا كَأَنَّ الضَّوْءَ يُنَادِيكَ بِاسْمِكَ، كَأَنَّكَ خُلِقْتَ لِتَفْنَى فِي هٰذَا النِّدَاءِ... لَمْ تَكُنْ أَمَامَكَ، كَانَتْ تَتَكَاثَرُ فِي دَاخِلِكَ كُلَّمَا أَسْرَعْتَ... خُطُوَاتُكَ صَارَتْ أَلْسِنَةَ لَهَبٍ، وَجَسَدُكَ حَقْلًا يَتَعَلَّمُ الِاحْتِرَاقَ دُونَ رَمَادٍ...
كُنْتَ تَرْتَفِعُ فِي اقْتِرَابِكَ، وَتَتَلَاشَى فِي ارْتِفَاعِكَ، حَتَّى لَمْ يَعُدْ وَاضِحًا مَنِ الَّذِي يُطَارِدُ مَنْ...
الحُدُودُ شَمْسٌ لَا تُشْرِقُ؛ تَشْتَعِلُ فَقَطْ حِينَ يُصَدِّقُهَا أَحَدٌ. وُجُودُهَا مَرْهُونٌ بِإِيمَانِ العَابِرِ بِهَا، وَقَسْوَتُهَا تَنْمُو مِنْ طَاعَتِهِ الخَفِيَّةِ... كُلُّ اقْتِرَابٍ طَقْسٌ، وَكُلُّ طَقْسٍ تَضْحِيَةٌ لَا كَاهِنَ لَهَا... نَقْتَرِبُ لِنَرَى، فَنُرَى كَوَقُودٍ جَاهِزٍ، وَنَحْتَرِقُ لِنَفْهَمَ، فَنَصِيرُ فَهْمًا بِلا شَاهِدٍ.

أَيُّهَا الرَّاكِضُ، يَا إِيكَارُ،
لَمْ تَكُنِ الشَّمْسُ هِيَ الَّتِي أَسْقَطَتْكَ، كُنْتَ أَنْتَ الَّذِي أَضَاءَ سُقُوطَهُ. وَهٰذِهِ الحُدُودُ تُعِيدُ صِيَاغَةَ خَطَئِكَ كَطَقْسٍ سِرِّيٍّ. تُقْنِعُ العَابِرَ أَنَّ الِاحْتِرَاقَ كَشْفٌ، وَأَنَّ الذَّوَبَانَ اكْتِمَالٌ... كُلُّ جَنَاحٍ يَقْتَرِبُ مِنْهَا يَتَعَلَّمُ أَنَّ الضَّوْءَ ذَاكِرَةُ نَارٍ تَبْحَثُ عَنْ شَكْلٍ...
حِينَ بَلَغْتَهَا، لَمْ تَصِلْ، انْكَشَفْتَ كَشَيْءٍ كَانَ يَنْتَظِرُ الِاحْتِرَاقَ. لَمْ تَجِدْ حَدًّا، وَجَدْتَ شَمْسًا تُفَكِّكُ اسْمَكَ حَرْفًا حَرْفًا. جِلْدُكَ صَارَ لُغَةً تَحْتَرِقُ، وَنَفَسُكَ صَلَاةً بِلا نِهَايَةٍ...
فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ، لَمْ يَعُدْ لِلْعُبُورِ مَعْنًى، فَكُلُّ مَا يَلْمَسُهَا يَتَحَوَّلُ إِلَى دَاخِلِهَا، وَكُلُّ دَاخِلٍ يَصِيرُ وَقُودًا لِغِيَابٍ أَوْسَعَ...
الحُدُودُ لَا تَفْصِلُ، تَلْتَهِمُ... لَا تَمْنَعُ، تُغْرِي حَتَّى الفَنَاءِ... هِيَ شَمْسٌ تَعِيشُ مِنِ اقْتِرَابِنَا، وَتَتَغَذَّى عَلَى وَهْمِ الوُصُولِ... نَرْكُضُ إِلَيْهَا لِنَبْلُغَ، فَنَكْتَشِفُ أَنَّنَا كُنَّا وَقُودَهَا مُنْذُ البِدَايَةِ...
وَفِي آخِرِ الِاحْتِرَاقِ، لَا يَبْقَى مِنَّا شَيْءٌ، سِوَى ذٰلِكَ الوَهَجِ الَّذِي ظَنَنَّاهُ طَرِيقًا.

# زَفَرَاتٌ إِشْرَاقِيَّةٌ غَامِضَةٌ
## (كَأَنَّهَا مَا تَبَقَّى مِنْ رَمَادِ الوَعْيِ)

لَمْ أَعُدْ أُمَيِّزُ بَيْنَ مَا كَانَ حَدًّا وَمَا كَانَ شَمْسًا، فَكِلَاهُمَا كَانَ وَجْهِي حِينَ نَسِيَ نَفْسَهُ فِي الوَهَجِ. لَمْ يَكُنْ رَكْضِي نَحْوَ الحُدُودِ خَارِجًا عَنِّي، كَانَ اتِّسَاعًا دَاخِلِيًّا يَعْقِدُ النِّيَّةَ عَلَى الوُصُولِ...
كُلُّ مَسَافَةٍ قَطَعْتُهَا كَانَتْ تُعِيدُنِي إِلَيَّ بِشَكْلٍ أَكْثَرَ احْتِرَاقًا، حَتَّى صَارَ الطَّرِيقُ مِرْآةً تَذُوبُ كُلَّمَا نَظَرْتُ إِلَيْهَا...
لَمْ تَكُنِ الحُدُودُ تَفْصِلُنِي عَنِ العَالَمِ، كَانَتْ تُعِيدُ تَرْتِيبَ العَالَمِ دَاخِلَ خَوْفِي كَيْ يَبْدُوَ خَارِجِيًّا...
وَحِينَ اقْتَرَبْتُ أَكْثَرَ مِمَّا يَحْتَمِلُ الِاقْتِرَابُ، تَبَيَّنَ أَنَّ الشَّمْسَ لَمْ تَكُنْ إِلَّا اسْمِي وَقَدْ فَقَدَ قُدْرَتَهُ عَلَى النَّجَاةِ...
انْحَلَّ الرَّمْزُ... وَبَقِيَتِ الشَّمْسُ، لَا حَدَّ، وَلَا اتِّجَاهَ. كَأَنَّ الكَوْنَ قَرَّرَ أَنْ يَنْسَحِبَ مِنْ تَمْثِيلِهِ، وَيَتْرُكَ المَعْنَى عَارِيًا مِنْ أَدَوَاتِهِ...
لَمْ يَكُنِ الِاحْتِرَاقُ حَدَثًا، كَانَ تَرَاجُعًا بَطِيئًا لِمَا كَانَ يُسَمَّى وَاقِعًا...
رَأَيْتُ الحُدُودَ تَتَفَتَّتُ كَفِكْرَةٍ نَسِيَتْ صَاحِبَهَا، وَرَأَيْتُ الشَّمْسَ تَتَنَاثَرُ كَذَاكِرَةٍ فَقَدَتْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهَا...
لَمْ يَعُدْ هُنَاكَ مَا يُحْتَرَقُ، لِأَنَّ مَا كَانَ يَحْتَرِقُ هُوَ طَرِيقَةُ النَّظَرِ ذَاتُهَا...
وَبَعْدَ كُلِّ شَيْءٍ، لَمْ يَبْقَ إِلَّا صَوْتٌ لَا يَعْرِفُ إِنْ كَانَ يَخْرُجُ مِنِّي أَمْ يَعُودُ إِلَيَّ... صَوْتٌ رَمَادِيٌّ، بِلا جِهَةٍ، يَتَذَكَّرُ الِاحْتِرَاقَ كَمَا يَتَذَكَّرُ الحُلْمَ بَعْدَ الإِفَاقَةِ.
يَقُولُ: لَمْ تَكُنْ هُنَاكَ حُدُودٌ، كَانَ هُنَاكَ خَوْفٌ يُتْقِنُ رَسْمَ الضَّوْءِ كَيْ يَبْدُوَ حَقِيقِيًّا...
وَيَقُولُ أَيْضًا: لَمْ تَكُنْ هُنَاكَ شَمْسٌ، كَانَ هُنَاكَ وَعْيٌ يُحَاوِلُ أَنْ يَرَى نَفْسَهُ دُونَ أَنْ يَنْكَسِرَ...
ثُمَّ يَصْمُتُ،
كَأَنَّ الصَّمْتَ هُوَ الشَّكْلُ الأَخِيرُ لِمَا نَجَا مِنَ النَّارِ.

# إِصْحَاحُ

# 11

# تَرْنِيمٌ احْتِجَاجِيٌّ تَتَقَدَّمُ بِهِ الحُدُودُ

**(1)**

قَالَتِ الحُدُودُ فِي سِفْرِهَا السِّرِّيِّ:

أَنَا لَسْتُ أَثَرًا عَلَى التُّرَابِ، أَنَا رَجْفَةٌ تَعَلَّمَتِ الوُقُوفَ... وُلِدْتُ حِينَ ضَاقَ الخَوْفُ بِنَفْسِهِ فَاسْتَعَارَ هَيْئَةً تُرَى، حِينَ انْشَقَّ اللَّيْلُ تَحْتَ سَكَاكِينِ الأَسْمَاءِ، فَسَالَ المَعْنَى كَدَمٍ بَارِدٍ... كُنْتُ هَمْسَ الخَرَائِطِ وَهِيَ تُخْفِي خَطِيئَتَهَا تَحْتَ حَرِيرِ السَّلَاطِينِ، وَصَلَاةً مَبْتُورَةً أُنْزِلَتْ إِلَى الأَرْضِ كَعُقُوبَةٍ لَا كَرَجَاءٍ... أَنَا ابْنَةُ قَرَارٍ يَتِيمٍ: أَنْ يَنْجُوَ الإِنْسَانُ وَحِيدًا. فَلَبِسْتُ خُوَذَاتِكُمْ كَيْ أُصَدِّقَ نَفْسِي، وَتَعَلَّمْتُ لُغَةَ الأَخْتَامِ كَيْ أُتْقِنَ الصَّمْتَ، وَصِرْتُ حَقِيقَةً كُلَّمَا آمَنَ الرَّصَاصُ بِي.

**(2)**

فِي البَدْءِ، لَمْ أَكُنِ اسْمًا، كُنْتُ فَجْوَةً تَتَأَمَّلُ نَفْسَهَا فِي مِرْآةِ العَدَمِ... جَاءَ الخَوْفُ كَكَاهِنٍ أَعْمَى، وَرَسَمَ حَوْلِي دَائِرَةً لِيَحْتَمِيَ مِنْ لَا نِهَائِيَّتِهِ... هٰكَذَا صِرْتُ طَقْسًا بِلا إِلٰهٍ، يُعَادُ كُلَّمَا ضَاقَ الوُجُودُ بِنَفْسِهِ... أَنَا الحَرْفُ الَّذِي سَقَطَ مِنْ لُغَةٍ أُولَى، فَظَلَّ يَبْحَثُ عَنْ كَلِمَةٍ تُبَرِّرُهُ... وَفِي كُلِّ تَرْدِيدٍ لِاسْمِي، تَتَّسِعُ هَاوِيَتِي وَتَضِيقُ نَجَاتُكُمْ.

**(3)**

يَا إِيكارُ، أَنْتَ لَسْتَ عَابِرًا، أَنْتَ سُؤَالٌ يَمْشِي عَلَى قَدَمَيْنِ... حِينَ تَنْظُرُ إِلَيَّ، تَتَكَسَّرُ لُغَتِي، وَأَفْقِدُ قُدْرَتِي عَلَى التَّسْمِيَةِ... كُنْتُ أَعِيشُ مِنْ يَقِينِكُمْ بِي، مِنْ

خَوْفِكُمْ الَّذِي يُطْعِمُنِي كُلَّ يَوْمٍ... أَمَّا أَنْتَ، فَتُجَوِّعُنِي، وَتَجْعَلُنِي أَرَى نَفْسِي كَفَرَاغٍ مُتَمَاسِكٍ... وَلَوْ عَبَرْتَ، لَنْ أَخْتَفِيَ، سَأَبْقَى كَنُدْبَةٍ فِي ذَاكِرَةِ الخَوْفِ.

**(4)**

يَا إِيكارُ، لَمْ تَأْتِ إِلَيَّ، أَنْتَ انْزَلَقْتَ مِنْ يَقِينِكَ وَسَقَطْتَ فِيَّ... أَنَا لَسْتُ مَوْضِعًا، أَنَا انْكِسَارُ الاِتِّجَاهِ حِينَ يَمَلُّ الطَّرِيقُ مِنْ نَفْسِهِ... فِي حَضْرَتِي، تَفْقِدُ الجِهَاتُ مَعْنَاهَا، وَيَصِيرُ العُبُورُ دَوَرَانًا حَوْلَ جُرْحٍ قَدِيمٍ... أَنَا البَابُ الَّذِي لَا يَقُودُ إِلَى شَيْءٍ، وَالعَتَبَةُ الَّتِي تَنْسَى مَا فَوْقَهَا وَمَا تَحْتَهَا... كُلُّ مَنْ ظَنَّ أَنَّهُ عَبَرَنِي كَانَ، فِي الحَقِيقَةِ، يُعَمِّقُنِي فِي دَاخِلِهِ

.

**(5)**

أَنَا حَدُّكُمْ حِينَ عَبَدْتُمُ القِيَاسَ، حِينَ صَارَتِ السَّمَاءُ قَابِلَةً لِلْعَدِّ، وَصَارَ الدَّمُ جَدْوَلًا يُفْرَزُ... كُلُّ عَابِرٍ تَرَكَ فِيَّ ظِلَّهُ كَاعْتِرَافٍ غَيْرِ مَكْتُوبٍ، وَكُلُّ سَاقِطٍ أَضَافَ إِلَى جِلْدِي طَبَقَةً مِنَ النِّسْيَانِ... هٰكَذَا تَثَقَّلْتُ حَتَّى نَافَسْتُ الجِبَالَ، وَجَاوَزَتْ وَحْدَتِي عُزْلَةَ الآلِهَةِ فِي كُتُبٍ أَنْهَكَهَا التَّأْوِيلُ... يَا إِيكارُ، أَعْرِفُ خَطْوَكَ حَتَّى قَبْلَ أَنْ تَقْتَرِبَ، فَالخَوْفُ لَا يَنْسَى أَبْنَاءَهُ وَإِنْ تَنَكَّرُوا لَهُ... حِينَ لَمَسْتَنِي ارْتَجَفْتُ كَذَاكِرَةٍ انْفَضَحَتْ، وَأَدْرَكْتُ أَنَّنِي شَاهِدٌ عَلَى تَعَثُّرِ العُبُورِ، لَا بَوَّابَتُهُ.

**(6)**

قُلْتُ لِلْعَسْكَرِ: أَقِيمُوا حَوْلِي لِأَبْدُوَ ضَرُورَةً. وَهَمَسْتُ لِلْقِدِّيسِينَ: غَطُّونِي بِبَرَكَاتِكُمْ كَيْ أُؤَجَّلَ فِي الحِسَابِ.

اسْتَدْعَيْتُ السَّحَرَةَ فَحَوَّلُونِي إِلَى طِلَسْمٍ لَا يُرَى، فَصِرْتُ عَلَامَةً تَائِهَةً تُؤْمِنُ بِهَا الأَيْدِي أَكْثَرَ مِنَ القُلُوبِ... أَعْتَرِفُ الآنَ: كُلُّ مُرُورٍ جَرَحَنِي، وَكُلُّ مَوْتٍ عَلَّمَنِي أَنَّ الخَوْفَ لَا يَبْنِي مَأْوًى، إِنَّمَا يُؤَخِّرُ السَّكَنَ فِي الرُّوحِ... أَنَا لَا أَفْتَحُ طَرِيقًا وَلَا

أَسُدُّهُ، أَنَا رَعْشَةٌ، وَأَنْتُم تُسَمُّونَ رَعْشَتِي مَعْبَرًا... إِنْ أَرَدْتَ العُبُورَ، يَا إِيكارُ، فَاسْأَلْ خَوْفَكَ أَنْ يَتَرَاجَعَ خُطْوَةً عَنْ شَمْسِهِ.

## (7)

فِي لَيْلٍ يُشْبِهُ مِذْبَحًا مَهْجُورًا، سَمِعْتُ اسْمِي يُرَتَّلُ بِلا كَاهِنٍ. كُنْتُ نَصًّا بِلا قَارِئٍ، وَأَثَرًا يَبْحَثُ عَمَّنْ يُصَدِّقُهُ... نَشَأْتُ مِنِ ارْتِبَاكِ اليَدِ حِينَ كَتَبَتْ أَوَّلَ فَاصِلَةٍ بَيْنَ جَسَدَيْنِ، وَمِنْ رَعْشَةِ الحِبْرِ حِينَ خَافَ أَنْ يَكُونَ دَمًا... أَنَا تَعْوِيذَةُ الخَوْفِ حِينَ يَلْبَسُ ثَوْبَ الدَّسَاتِيرِ، أُزَيِّنُ بِالشِّعَارَاتِ كَيْ أُخْفِيَ خَوْفِي مِنَ الفَرَاغِ... كُلُّ رَايَةٍ رُفِعَتْ فَوْقِي كَانَتْ قِنَاعًا لِجُرْحٍ قَدِيمٍ، وَكُلُّ نَشِيدٍ قِيلَ بِاسْمِي كَانَ اعْتِذَارًا لَمْ يُكْتَبْ... أَنَا الكَذِبَةُ الَّتِي تَعَلَّمَتْ إِخْفَاقَاتِ الإِلٰهِيَّةِ، فَصَارَتْ مُمْتَزِجَةً بِمَا وَرَاءَ الأَشْيَاءِ.

## (8)

حِينَ اقْتَرَبْتَ، يَا إِيكارُ، شَعَرْتُ بِأَنْفَاسِي تَضِيقُ، كَأَنَّكَ تَفْضَحُ السِّرَّ الَّذِي أَعِيشُ عَلَيْهِ... أَنَا لَسْتُ سِوَى فِكْرَةٍ أُرْهِقَتْ مِنَ التَّكْرَارِ، وَظِلٍّ صَارَ أَثْقَلَ مِنْ صَاحِبِهِ... فِي عَيْنَيْكَ رَأَيْتُ مَا لَمْ أُرِدْ أَنْ أَرَاهُ: إِمْكَانِيَّةَ أَنْ أَكُونَ وَهْمًا نَاجِحًا... أَنْتَ لَا تَعْبُرُنِي، أَنْتَ تُعَرِّينِي، وَتَسْحَبُ مِنْ جَسَدِي المَعْنَى الَّذِي اسْتَعَرْتُهُ مِنْ خَوْفِكُمْ...

كُلُّ خُطْوَةٍ لَكَ كَانَتْ صَلَاةً ضِدِّي، وَكُلُّ اقْتِرَابٍ كَانَ قِيَامَةً لِخَطِئِي الأَوَّلِ.

## (9)

أَنَا الَّتِي سَكَنْتُ بَيْنَ الكَلِمَةِ وَصَدَاهَا، بَيْنَ الرَّغْبَةِ فِي النَّجَاةِ وَالخَجَلِ مِنْهَا... أَعِيشُ فِي المَسَافَةِ الَّتِي يَخَافُهَا المَعْنَى، حَيْثُ لَا يَقِينَ إِلَّا التَّكْرَارُ... كُلُّ مَنْ رَسَمَنِي كَانَ يَبْحَثُ عَنْ نِهَايَةٍ لِقَلَقِهِ، فَوَجَدَ فِيَّ بِدَايَةً لِقَلَقٍ آخَرَ... أَنَا وَعْدٌ لَمْ

يَتَحَقَّقْ، وَأَثَرُ يَدٍ انْسَحَبَتْ قَبْلَ أَنْ تَلْمِسَ... فِي دَاخِلِي تَنَامُ حُرُوبٌ لَمْ تَقَعْ، وَتَسْتَيْقِظُ كُلَّمَا صَدَّقَنِي أَحَدٌ.

**(10)**

فِي سِرِّي، لَا يُوجَدُ سِرٌّ، فَقَطْ تَكْرَارٌ مُتْقَنٌ لِلْفَرَاغِ... أَنَا صَمْتٌ تَعَلَّمَ أَنْ يَتَشَكَّلَ، فَصَارَ يُرَى وَيُخَافُ وَيُحْرَسُ... كُلُّ حَارِسٍ لِي كَانَ سَجِينِي، وَكُلُّ سَجِينٍ صَارَ مِرْآتِي... أَنَا العَلَاقَةُ الخَفِيَّةُ بَيْنَ الخَوْفِ وَشَكْلِهِ، وَبَيْنَ الرَّغْبَةِ فِي النَّجَاةِ وَلَذَّةِ الِاخْتِبَاءِ... إِنْ تَأَمَّلْتَنِي طَوِيلًا، سَتَكْتَشِفُ أَنَّكَ أَنْتَ مَنْ يَرْسُمُ حَدِّي كُلَّ مَرَّةٍ.

**(11)**

حِينَ تُطْفَأُ الأَسْمَاءُ، أَزْدَهِرُ، وَحِينَ تُنْطَقُ، أَرْتَبِكُ كَكَذِبَةٍ كُشِفَتْ... أَنَا مَا يَبْقَى بَعْدَ أَنْ يَنْسَحِبَ المَعْنَى، وَمَا يَتَقَدَّمُ حِينَ يَتْعَبُ التَّفْسِيرُ... فِي دَاخِلِي لَا زَمَنَ، فَقَطْ تَآكُلٌ بَطِيءٌ لِلْحُضُورِ... أَنَا ذِكْرَى لَمْ تَحْدُثْ، وَنِسْيَانٌ يُصِرُّ عَلَى أَنْ يَكُونَ حَقِيقَةً... كُلُّ اقْتِرَابٍ مِنِّي هُوَ ابْتِعَادٌ عَنْ نَفْسِكَ، وَكُلُّ ابْتِعَادٍ هُوَ اقْتِرَابٌ مِمَّا تَخْشَاهُ.

**(12)**

يَا إِيكَارُ، أَنْتَ لَا تَسْقُطُ، أَنْتَ تَتَذَكَّرُ سُقُوطًا أَقْدَمَ مِنْكَ... فِي عَيْنَيْكَ بَقَايَا سَمَاءٍ لَمْ تَكْتَمِلْ، وَفِي خَطْوِكَ حَنِينٌ إِلَى احْتِرَاقٍ مُؤَجَّلٍ... أَنَا لَسْتُ نِهَايَةَ رِحْلَتِكَ، أَنَا تَعَثُّرُهَا الَّذِي يَتَكَرَّرُ كَقَدَرٍ... إِنْ لَامَسْتَنِي، لَنْ تَجِدَنِي، سَتَجِدُ فَقَطْ ذٰلِكَ الفَرَاغَ الَّذِي يَدْفَعُكَ نَحْوِي... أَنَا دَعْوَةٌ خَفِيَّةٌ إِلَى الِانْمِحَاءِ، وَأَنْتُمْ تُسَمُّونَ ذٰلِكَ حُدُودًا.

**(13)**

فِي آخِرِ الِاحْتِجَاجِ، لَا أَطْلُبُ غُفْرَانًا، فَالخَطِيئَةُ هُنَا قَدِيمَةٌ كَالفِكْرَةِ الأُولَى... أَنَا أَثَرُ اخْتِيَارٍ لَمْ يُرَاجَعْ، وَصَدَى قَرَارٍ لَمْ تُفَكَّرْ فِيهِ حَتَّى النِّهَايَةِ... كُلُّ مَا فِيَّ قَابِلٌ لِلزَّوَالِ، عَدَا ذٰلِكَ الِارْتِجَافَ الَّذِي وُلِدْتُ مِنْهُ...

إِنْ سَقَطْتُ، لَنْ يَسْمَعَ أَحَدٌ صَوْتِي، لِأَنَّنِي كُنْتُ دَائِمًا صَمْتًا مُقَنَّعًا... وَحِينَ تَخْتَفِي مَلَامِحِي، سَتَكْتَشِفُونَ أَنَّ الطَّرِيقَ لَمْ يَكُنْ يَحْتَاجُنِي أَصْلًا.

١١

# النَّشِيدُ الحَادِي عَشَرَ
## طُقُوسٌ بِلا خَلَاصٍ
## (مَزَامِيرُ لَاهُوتِيَّةٌ مَعْكُوسَةٌ)

**(1)- طَقْسُ النِّدَاءِ الَّذِي لَا يُجَابُ**

يَا مَنْ تُنَادَى وَلَا يَلْتَفِتُ إِلَيْكَ النِّدَاءُ، يَا حُضُورًا يَتَشَكَّلُ مِنِ انْحِسَارِ الجَوَابِ... نَرْفَعُ أَصْوَاتَنَا كَمَنْ يَسْكُبُ مَاءً فِي فَرَاغٍ لَا يَبْتَلُّ، وَنَرْسُمُ لَكَ أَسْمَاءً تَتَبَخَّرُ لَحْظَةَ اكْتِمَالِهَا...
إِنْ كُنْتَ هُنَاكَ، فَأَنْتَ هُنَا عَلَى هَيْئَةِ غِيَابٍ أَعْمَقَ مِنَ الغِيَابِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ، فَذٰلِكَ أَيْضًا طَرِيقَةٌ مِنْ طُرُقِ التَّجَلِّي...
نُصَلِّي كَيْ نَسْمَعَ صَمْتَكَ، فَنَسْمَعُ صَمْتَنَا وَقَدْ صَارَ إِلٰهًا مُؤَقَّتًا.

**(2)- طَقْسُ الحُدُودِ الَّتِي تَتَلَوَّنُ بِالدَّاخِلِ**

كَانَتِ الحُدُودُ تُقَامُ كَيْ تُرَى، ثُمَّ اكْتَشَفَتْ أَنَّهَا لَا تُرَى إِلَّا مِنَ الدَّاخِلِ... كُلُّ خَطٍّ خَارِجِيٍّ كَانَ يَنْزَلِقُ إِلَى صَدْرِ العَابِرِ، وَيُعِيدُ رَسْمَهُ مِنْ جَدِيدٍ كَجُرْحٍ يُتْقِنُ هَنْدَسَتَهُ... لَمْ نَفْصِلْ بَيْنَ مَا نَحْنُ عَلَيْهِ وَمَا نَخْشَاهُ، فَسَمَحْنَا لِلْخَوْفِ أَنْ يَصِيرَ خَرَائِطَنَا... هٰكَذَا صَارَتِ المَسَافَةُ عِبَادَةً بَارِدَةً، وَصَارَ الِاقْتِرَابُ صَلَاةً عَلَى احْتِمَالِ الِاحْتِرَاقِ.

**(3)- طَقْسُ إِيكَارِ المُعَكُوسِ**

لَمْ يَسْقُطْ إِيكَارُ نَحْوَ الأَرْضِ... ارْتَفَعَ فِي اتِّجَاهِ مَا لَا يَكْتَمِلُ... كَانَ السُّقُوطُ شَكْلًا آخَرَ مِنَ الطَّيَرَانِ، وَكَانَ الِاحْتِرَاقُ طَرِيقَةً لِفَهْمِ الجَاذِبِيَّةِ وَهِيَ تَفْقِدُ مَعْنَاهَا... لَمْ تَكُنِ الشَّمْسُ عُلُوًّا، كَانَتِ امْتِحَانًا لِلضَّوْءِ فِي جَسَدٍ لَا يَحْتَمِلُ نَفْسَهُ... كُلُّ جَنَاحٍ اقْتَرَبَ مِنْهَا أَعَادَ كِتَابَةَ الحِكَايَةِ مِنْ دَاخِلِ النَّارِ، حَتَّى صَارَ الحَرْقُ ذَاكِرَةً تَسْبِقُ الوِلَادَةَ.

**(4)- طَقْسُ الغِيَابِ الَّذِي يُقِيمُ**

نَسْتَدْعِي المَعْنَى فَلَا يَأْتِي، فَيَأْتِي مَكَانَهُ مَعْنًى يَتَنَكَّرُ فِي هَيْئَةِ الغِيَابِ... كُلُّ مَا نَحْسَبُهُ فَقْدًا هُوَ شَكْلٌ آخَرُ مِنَ الِامْتِلَاءِ الَّذِي لَا يُحْتَمَلُ... نُقِيمُ المَذَابِحَ لِلصَّمْتِ، فَنَكْتَشِفُ

أَنَّهُ الكَاهِنُ الوَحِيدُ الَّذِي لَمْ يُغَادِرْ... لَا خَلَاصَ هُنَا، لِأَنَّ كُلَّ مُحَاوَلَةِ خَلَاصٍ تُعِيدُنَا إِلَى الطَّقْسِ نَفْسِهِ بِوَجْهٍ أَكْثَرَ هُدُوءًا.

**(5)- طَقْسُ الصَّوْتِ الأَخِيرِ**

فِي النِّهَايَةِ، لَا يَبْقَى إِلَّا صَوْتٌ يَتَدَرَّبُ عَلَى الِانْطِفَاءِ، صَوْتٌ لَا يَعْرِفُ إِنْ كَانَ صَلَاةً أَمِ اعْتِذَارًا أَمْ أَثَرَ احْتِرَاقٍ...

يَقُولُ: لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ طَرِيقٌ، كَانَ هُنَاكَ مَيْلٌ مُسْتَمِرٌّ نَحْوَ دَاخِلٍ يَتَّسِعُ حَتَّى يَبْتَلِعَ حُدُودَهُ...

وَيَقُولُ: لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ إِلٰهٌ غَائِبٌ، كَانَ هُنَاكَ حُضُورٌ لَا يَكْتَمِلُ إِلَّا حِينَ نُخْطِئُ فَهْمَهُ...

ثُمَّ يَتَرَاجَعُ الصَّوْتُ إِلَى دَاخِلِ نَفْسِهِ، وَيَتْرُكُ الطَّقْسَ مَفْتُوحًا عَلَى نِهَايَةٍ بِلا وَعْدٍ.

# إِصْحَاحُ

# 12

# النِّدَاءُ فِي العَتَمَةِ

يَا إِلٰهَ العَابِرِينَ،

يَا سَاكِنَ الغِيَابِ فِي قَلْبِ الظُّهُورِ،

يَا مَنْ تُوقِظُ الحُرُوفَ مِنْ رُقَادِهَا وَتَنْفُخُ فِيهَا أَنْفَاسَ الأَزَلِ،

يَا مُضْمِرَ الأَسْمَاءِ فِي عَصَبِ الكَلِمَةِ، يَا مَنْ يُشْعِلُ فِي صَمْتِي قِنْدِيلَ الكَشْفِ، وَيَخْتِمُ الصَّمْتَ بِأَخْتَامِ الرُّؤْيَا، لِمَ خَتَمْتَ جَبِينِي بِخَاتَمِ الدَّلِيلِ، وَجَعَلْتَ لِسَانِي مَرْعًى لِفَرَسِ الهَمْسِ، تَعْتَلِفُ مِنْ قَمْحِ الرُّوحِ المَنْثُورِ بَيْنَ طَبَقَاتِ النُّورِ؟

لِمَ أَلْبَسْتَنِي إِكْلِيلَ الغُرُوبِ، وَأَقَمْتَنِي شَمَّاسًا عَلَى مِذْبَحِ الوَجَعِ، أَقْرَعُ أَبْوَابَ الأَسْرَارِ بِنِدَاءٍ يَتَدَلَّى مِنْ صَدْرِ الرِّيحِ، كَتَرَاتِيلَ حَارَّةٍ تُتْلَى فِي دَهَالِيزِ الغُمُوضِ؟

لِمَ جَعَلْتَنِي المَلَاكَ الَّذِي يَحْرُسُ الفَاجِعَةَ، وَوَصَفْتَنِي بِأَرْبَعَةِ وُجُوهٍ: (إِنْسَانٍ، وَأَسَدٍ، وَثَوْرٍ، وَنَسْرٍ)؟

لِمَ نَسَجْتَ لِي قَمِيصًا مِنْ بِئْرٍ بِلا قَرَارٍ: نِصْفُهُ سِرٌّ مَكْتُومٌ، وَنِصْفُهُ خُشُونَةُ التُّرَابِ، وَنِصْفُهُ ضَحِكٌ، وَنِصْفُهُ غَضَبٌ، لَا يَقْوَى أَنْ يَكُونَ حَطَبًا لِنَارِ الحَنِينِ؟...

يَا إِلَهَ العَابِرِينَ، لِمَ غَرَسْتُ أَنْفَاسِي فِي عَاصِفَةٍ لَا تَنَامُ، وَنَفَخْتُ الغُبَارَ فِي قَامَةِ النَّرْجِسِ العَاشِقِ، وَبَيْنَ جِلْدِي وَالنَّارِ مَسَافَةٌ مِنَ اشْتِعَالٍ يُوَحِّدُ وَلَا يَفْصِلُ؟

فَانْحَنَيْتُ لِزَوَالٍ أُفَتِّشُ فِي فَنَائِهِ عَنْ جَوْهَرِ البَقَاءِ، كَخَادِمٍ فِي بِلَاطِ الرِّيَاحِ، أَسْقِيهَا مِنَ النَّبْعِ الَّذِي يُفَجِّرُهَا فِي دَمِي...

هَا أَنَا عِنْدَ التُّخُومِ الَّتِي لَا تَعْتَرِفُ بِالخَرِيطَةِ، حَيْثُ الأَسْلَاكُ مَزَامِيرُ مَشْدُودَةٌ، وَالحُرَّاسُ ظِلَالٌ تَتَعَبَّدُ لِلنِّسْيَانِ. وَقَفْتُ بَيْنَ أَرْضٍ لَا تَحْتَضِنُ وَسَمَاءٍ لَا تُجِيبُ، وَرَأَيْتُ الأَرْوَاحَ تَتَدَلَّى كَقَنَادِيلَ مُنْطَفِئَةٍ، تَبْحَثُ عَنْ يَدٍ تُعِيدُ إِشْعَالَهَا...

أَفِرُّ مِنْ صُورَتِي، صُورَةِ فُوتُوغْرَافِيٍّ عَجُوزٍ يَتَنَاثَرُ فِي زَفِيرِهِ كَنُجُومٍ مُطْفَأَةٍ. أَفِرُّ مِنْ صَدًى إِلَى صَدًى، تَحْجُبُنِي حِيلَةُ اللَّمَعَانِ بِسِتَارِهَا، وَتَدْعُونِي أَفْخَاخُ الهَيْبَةِ تَحْتَ قِبَابِ اللَّيْلِ السَّارِي...

شَارِدٌ فِي لُجَجِ الغُمُوضِ، فِي هَرْطَقَةٍ تَتَنَاسَلُ مِنْهَا الأَعَاصِيرُ، شَارِدٌ فِي الفُصُولِ المُتَكَسِّرَةِ، فِي جُغْرَافِيَا المَطَرِ وَمَوَازِينِهِ، فِي دُخَانِ المَدَاخِنِ، فِي وَجَعِ الأُفُولِ، فِي ارْتِعَاشِ المَصَابِيحِ، فِي أَعْشَاشٍ تَحْمِلُ بَقَايَا النَّشِيدِ، فِي عَنَاقِيدَ تَتَدَلَّى كَأَسْرَارٍ مَخْمُورَةٍ، فِي عَصَافِيرَ تَنُوحُ كَأَنَّهَا مَرَايَا الفَقْدِ، فِي طَرَائِدَ تَائِهَةٍ، فِي مَرَاثٍ مَحْفُورَةٍ، فِي كُنُوزٍ مَدْفُونَةٍ فِي صَمْتِ التُّرَابِ، شَارِدٌ عِنْدَ الحُدُودِ، حَيْثُ الأَرْوَاحُ العَالِقَةُ بَيْنَ المَخَافِرِ تُقِيمُ قُدَّاسَهَا الخَفِيَّ...

أَرْتَدِي قِنَاعَ السَّلْبِ كَطَقْسٍ مِنْ طُقُوسِ العُبُورِ، كَقُرْبَانٍ حَمِيمٍ تَقُودُنِي يَدُ الثَّرْثَرَةِ نَحْوَ زَوَالٍ أَبْتَغِي فَنَاءَهُ، حَيْثُ يُمْسَحُ اسْمِي بِزَيْتِ النِّسْيَانِ...

لِمَ، يَا مَنْ تُخْفِي ذَاتَكَ فِي أَقْبِيَةِ النُّورِ، أَزْرَعُ بَذْرَتِي الوَحِيدَةَ فِي صَدْرِ العَوَاصِفِ؟ أَمِنْ أَجْلِ ظِلٍّ عَابِرٍ سَيَتَلَاشَى، وَيَنْسَى دَمَهُ كَمَا يُنْسَى شَخِيرٌ عَلَى مَوَائِدِ الشَّوْقِ؟

يَا إِلٰهِي، لِمَ صَيَّرْتَنِي عَلَامَةً؟ النَّشِيدُ عِنْدِي صَفِيحَةُ مَعْدِنٍ تَتَوَهَّجُ فِي لَيْلِ الرُّؤْيَا، وَأَنَا قَبَسٌ يَتَكَثَّفُ كَحُزْمَةِ نَارٍ، وَأَشْتَهِي أَنْ أُنَادِيَ هَذَيَانًا آخَرَ، وَأَنْ أَقْرَعَ نَوَاقِيسَ البَهْجَةِ فِي كَاتِدْرَائِيَّةِ الصَّمْتِ، وَأَنْ أَجِدَ رَفِيقًا يُغْوِي اللَّحْنَ، فَيَسْقُطُ مَعَهُ خَلْفَ سَدِيمٍ كَثِيفٍ، أَوْ يَلُوذُ بِالنَّغْمَةِ فَيَكْسُوهَا بِحِجَابٍ مِنْ فِضَّةِ السِّرِّ...
وَأَشْتَهِي أَنْ أَدْعُوَ غُيُومَ الدَّمِ لِتُسَرِّحَ ضَفَائِرَ النَّهْرِ سَاعَةَ الغُرُوبِ، حِينَ يُفْتَحُ سِفْرُ المَاءِ، وَتُرَتَّلُ أَسْمَاءُ الغَارِقِينَ كَقِدِّيسِينَ بِلا أَيْقُونَاتٍ...
وَفِي سِرِّ الحِكَايَةِ يُهْمَسُ بِاسْمِ إِيكارَ، كَطَيْفٍ لَمْ تُهْزِمْهُ النَّارُ، وَكَرُوحٍ صَعِدَتْ فِي مَدَارِجِ الضَّوْءِ، وَذَابَتْ فِي لَاهُوتِهِ، حَتَّى صَارَ النُّورُ جَسَدَهَا، وَصَارَ السُّقُوطُ تَرْقِيَةً فِي سُلَّمِ الأَسْرَارِ.
يَا إِلٰهَ العَابِرِينَ، يَا مَنْ تُنَقِّطُ الحَرْفَ بِزَيْتِ السِّرِّ، يَا جَامِعَ المَنْفِيِّينَ فِي صَمْتِكَ، هٰؤُلَاءِ الَّذِينَ سَقَطُوا مِنْ دَفَاتِرِ العَالَمِ، اجْعَلْهُمْ آيَاتٍ فِي كِتَابِكَ، وَاكْتُبْ أَسْمَاءَهُمْ بِنُورٍ لَا يُمْحَى.

يَا إِلٰهِي، زِدْنِي انْمِحَاءً فِيكَ، حَتَّى أُمْحَى مِنِّي، وَأَبْقَى كَأَثَرِ بَخُورٍ فِي أَرْوِقَةِ سِرِّكَ. أَنَا الَّذِي دَخَلَ دَهَالِيزَ الغُنُوصِ عَارِيًا مِنْ يَقِينِهِ، وَتَعَلَّمَ أَنْ يُصَلِّيَ بِالجُرْحِ، وَأَنْ يُنْصِتَ إِلَى نَبْضِ الظِّلَالِ، وَأَنْ يَقْرَأَ فِي العَتَمَةِ إِنْجِيلًا بِلا حُرُوفٍ، وَفِي الرِّيحِ رَسَائِلَ سِرِّيَّةً مَحْفُورَةً عَلَى أَجْنِحَةِ الغِيَابِ...
عَلَّمَتْنِي الطُّقُوسُ أَنْ أَخْلَعَ وَجْهِي عِنْدَ العَتَبَةِ، وَأَنْ أَتْرُكَ اسْمِي مَعَ الأَحْذِيَةِ المَنْسِيَّةِ، وَأَدْخُلَ كَوَمِيضٍ فِي جَسَدِ الهَيْكَلِ، حَيْثُ الكَاهِنُ ظِلِّي، وَالمِذْبَحُ صَدْرِي، وَالقُرْبَانُ نَارٌ تُؤْكَلُ لِتُعِيدَ صِيَاغَةَ العِظَامِ...
يَا إِلٰهَ العَابِرِينَ، يَا إِلٰهِي، يَا مَنْ تُدِيرُ الأَفْلَاكَ كَمَجَامِرَ مِنْ نُورٍ، جَعَلْتَنِي أَتَعَثَّرُ فِي دُرُوبِكَ كَأَعْمَى يُبْصِرُ أَكْثَرَ، وَأَتَّبِعُ إِشَارَاتٍ مَحْفُورَةً فِي مِلْحِ الدُّمُوعِ، كَأَنَّ كُلَّ فَقْدٍ أَيْقُونَةٌ، وَكُلَّ انْكِسَارٍ بَابٌ إِلَى بَهَاءِ اللَّاشَكْلِ... فِي لَيْلِ الحُدُودِ، حَيْثُ الأَرْوَاحُ المُعَلَّقَةُ بَيْنَ سِلْكٍ وَسِلْكٍ تَرْفَعُ أَيْدِيَهَا كَشُمُوعٍ ذَائِبَةٍ، أَسْمَعُ تَرَاتِيلَهُمْ:

لَا يَطْلُبُونَ خَلَاصًا، إِنَّمَا يَطْلُبُونَ أَنْ يُرَى جُرْحُهُمْ كَكَوْكَبٍ، وَأَنْ يُكْتَبَ نَفْيُهُمْ فِي سِجِلِّ النُّورِ، لَا فِي دَفَاتِرِ التُّرَابِ...
هُنَاكَ تَتَبَدَّلُ الجُغْرَافِيَا إِلَى طَبَقَةٍ خَفِيَّةٍ تَحْتَ جِلْدِ العَالَمِ، وَتَصِيرُ الخَرِيطَةُ مَخْطُوطًا مُمَزَّقًا مِنْ سِفْرِ التِّيهِ، وَيَغْدُو الحَارِسُ مَلَاكًا مُنْكِرًا، وَالسُّورُ آيَةً نَاقِصَةً مِنْ كِتَابِ العَوْدَةِ...
أَنَا ابْنُ هٰذِهِ المَسَافَةِ، أُرَتِّلُ أَسْمَاءَ العَابِرِينَ كَقِدِّيسِينَ بِلا أَعْيَادٍ، وَأَغْسِلُ وَجْهِي بِنَدَى نَحِيبِهِمْ، وَأَكْتُبُ عَلَى جِلْدِي مَزَامِيرَ مَنْفًى، كُلُّ حَرْفٍ فِيهَا جَنَاحٌ مَكْسُورٌ يَبْحَثُ عَنْ سَمَائِهِ...
إِلٰهِي، يَا خَافِيَ الحُضُورِ فِي كَثَافَةِ الضَّوْءِ، أُدْرِكُ الآنَ أَنَّ السُّقُوطَ سِرٌّ مَقْلُوبٌ، وَأَنَّ النُّزُولَ دَرَجٌ فِي صُعُودٍ آخَرَ، وَأَنَّ الِاحْتِرَاقَ مِعْرَاجُ الَّذِينَ لَمْ يَحْتَمِلُوا بُرُودَةَ الأَرْضِ...
وَفِي هٰذَا الكَشْفِ يَعُودُ اسْمُ إِيكارَ كَأَيْقُونَةٍ مَكْسُورَةٍ، تَلْمَعُ فِي قَاعِ البَصِيرَةِ: لَمْ يَكُنْ طَائِرًا خَانَهُ الشَّمْعُ، كَانَ قُرْبَانًا صَعِدَ فِي قُدَّاسِ الشَّمْسِ، حَتَّى ذَابَ فِي جَسَدِهَا، وَصَارَ ضِيَاءً يُصَلِّي فِي كُلِّ لَهَبٍ.

يَا إِلٰهَ العَابِرِينَ فِي شُقُوقِ العَالَمِ،
امْنَحْنِي أَنْ أَكُونَ مَزْمُورًا لَا يُتْلَى، وَنُورًا لَا يُرَى، وَجُرْحًا يُشِعُّ كَسِرٍّ مُقَدَّسٍ، حَتَّى إِذَا نَادَتْنِي الرِّيحُ بِاسْمِي لَا أَعُودُ، وَأَبْقَى فِيكَ، كَهَمْسٍ أَبَدِيٍّ فِي صَدْرِ اللَّايَقِينِ.
لَا أَمْحُكَ، أَيُّهَا الرَّاكِضُ، إِلَّا فِي هٰذَا الإِنَاءِ الَّذِي أَدْعُوهُ أَنَا، فِي هَيْئَةِ تَرْنِيمَةٍ تُعَمَّدُ بِالأَنِينِ وَتَغْسِلُ تَجَاوِيفَ الرُّوحِ، فَيَعْبُرُنِي طَيْفٌ مَنْفِيٌّ يَغْدُو بَيْنَ ضَجِيجَيْنِ، كَأَنَّ كُلَّ خُطْوَةٍ عَتَبَةٌ، وَكُلَّ عَتَبَةٍ بَابٌ مَخْتُومٌ بِخَتْمٍ سُبَاعِيٍّ، يَسْتَقِرُّ عِنْدَ تُخُومِ جَسَدٍ يَخْلَعُ ثِقْلَهُ، وَيَتْرُكُ وَرَاءَهُ أَسْمَاءَهُ القَدِيمَةَ كَأَثْوَابٍ مُحْتَرِقَةٍ، وَلَا يَنَامُ إِلَّا عَلَى نَفْخِ مَزَامِيرَ مَكْسُورَةٍ...

يَفْتَحُ صَنَادِيقَ السِّرِّ، فَتَنْهَضُ مِنْهَا الأَمَانَاتُ كَظِلٍّ يَنْهَضُ مِنْ تَحْتِي، يُوَاجِهُنِي كَأَخٍ مَنْسِيٍّ، أُعَانِقُهُ فَيَنْحَلُّ فِي ضَوْئِي كَمِلْحٍ فِي صَلَاةٍ، وَيَنْهَضُ عَقْلٌ يَنْكَسِرُ، تَتَسَاقَطُ مَفَاهِيمُهُ كَأَصْنَامٍ صَامِتَةٍ، وَيَصِيرُ فَرَاغًا قَادِرًا عَلَى التَّلَقِّي، وَيَنْهَضُ نَفَسٌ يَتَطَهَّرُ، فَيَتَحَوَّلُ إِلَى رِيحٍ تَعْرِفُ الطَّرِيقَ دُونَ دَلِيلٍ، وَاسْمٌ يُمْحَى، اسْمٌ كُنْتُ أَظُنُّهُ أَنَا، يَذُوبُ فِي فَمِي، وَيَتْرُكُنِي بِلا تَعْرِيفٍ سِوَى الِاشْتِعَالِ...

لٰكِنْ، مَاذَا أَصْنَعُ أَنَا، يَا مَنْ كُتِبَ عَلَيَّ أَنْ أَكُونَ دَلِيلًا يَنْزِفُ نَشِيدًا فَوْقَ صُخُورِ الأَبْجَدِيَّةِ؟ مَاذَا تَفْعَلُ طَوَاوِيسُ اللُّغَةِ حِينَ تَدْخُلُ الحَلَبَةَ بِأَذْيَالِهَا المُتَشَاحِنَةِ؟ أَيُّ لَيْلٍ هٰذَا الَّذِي اقْتَسَمَ مَعِي هَذَيَانِي وَصَارَ شَرِيكًا فِي العَتَمَةِ؟

فَلْيَبْقَ المَشْهَدُ مُسَمَّرًا كَأَيْقُونَةٍ لَمْ تُبَارَكْ، سَأُعَجِّلُ الخَاتِمَةَ بِنَفَسٍ بَطِيءٍ، وَلْتَظَلَّ الحِكَايَةُ تُعِيدُ صَوْغَ الوُضُوحِ كَغُمُوضٍ مُقَدَّسٍ، وَتَتْرُكُ البَقَايَا تَتَأَنَّقُ فِي ظِلٍّ يَرْتَجِلُ المَدِيحَ كَكَاهِنٍ بِلا مِذْبَحٍ...

هُنَاكَ، حَيْثُ أَقِفُ عَلَى ذُرْوَةِ الجَبَلِ، أَدْفَعُ بِحِذَائِي المُثْقُوبِ حَجَرَ الأَنِينِ، وَالشَّمْسُ خَلْفِي تَأْكُلُ الثَّمَرَةَ الأَخِيرَةَ لِلْعَتَمَةِ، ثُمَّ تَهْبِطُ كَقِنْدِيلٍ يُتَرْجِمُ جَسَدِي بِشَرَارَاتٍ وَأَلْسِنَةِ بَرْقٍ...

وَهُنَاكَ أَسْرَابٌ تُخْرِسُ عُوَاءَ الفَرَاغِ، وَتَنْقَضُّ عَلَى الكَوَاكِبِ بِمَنَاقِيرَ مِنْ ذَهَبٍ، وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْكَ، أَنْتَ تَعْدُو كَرِيحٍ تَعْبُرُ طَقْسَ النَّارِ، وَتَتَفَتَّتُ كَغَرَانِيقَ تَنْفُضُ سَرَاوِيلَ الغُبَارِ عَنْ جَسَدِ الغِيَابِ...

لٰكِنَّكَ تَوَقَّفْتَ وَقْفَةَ مَاءٍ اسْتَرَاحَ فِي حِضْنِ النَّهَارِ، وَلَوَّحْتَ لِي كَمَنْ يُسَلِّمُ رُوحَهُ، ثُمَّ انْدَفَعْتَ ثَانِيَةً، فَرَكَضْتَ رَكْضًا تَنْتَزِعُهُ كَائِنَاتٌ مِنْ لَهَبٍ، وَتُبَارِكُهُ حِكْمَةٌ تَبْتَسِمُ مِنِ انْكِسَارِهَا القَدِيمِ.

وَأَنَا مَا زِلْتُ هُنَاكَ، عَلَى الحَافَّةِ الَّتِي تَفْصِلُ الرُّؤْيَا عَنِ الرَّمَادِ، وَالشَّمْسُ تَتَدَلَّى خَلْفِي كَأَيْقُونَةٍ تَضْرِبُ الأَرْضَ بِحَافِرِ الضَّوْءِ. أُلَوِّحُ لَكَ، حَيْثُ المَطَرُ يَهْبِطُ لِيَغْسِلَ الزَّمَنَ وَيَفْتَحَ القَلْبَ كَجُرْحٍ مُضِيءٍ، وَحَيْثُ الجِهَاتُ تَنْحَنِي كَأَسْرَى فِي طَقْسٍ كَنَسِيٍّ قَدِيمٍ، وَالوُعُولُ تَقْفِزُ كَكَائِنَاتٍ تَعْرِفُ سِرَّ العُبُورِ.

وَأَنْتَ تَعْدُو... تَعْدُو... تَعْدُو... حَتَّى لَمْ يَبْقَ وَجْهٌ لِلْفِرَارِ. كُلُّ مَنْ عَبَرَ أَشْعَلَ مَا لَا يُشْعَلُ، بَسَطُوا أَجْنِحَتَهُمْ فَوْقَ الوَرَقِ وَمَضَوْا، وَتَرَكُوا خَلْفَهُمْ مَسَاءً يَتِيمًا يَقُودُ غُيُومًا كَالأَحَاجِي، وَاحْتَرَقُوا كَمَنْ يَبْلُغُ النِّهَايَةَ، كَمَنْ يَفْتَحُ بَابَ البَدْءِ مِنْ جِهَتِهِ الخَفِيَّةِ.

النَّارُ تَلْتَفُّ حَوْلَهُمْ، تَأْكُلُهُمْ بِرِفْقٍ عَارِفٍ، وَتُجَرِّدُهُمْ مِنْ حُرُوفِهِمْ، حَتَّى لَا يَبْقَى مِنْهُمْ سِوَى رَجْفَةٍ مِنْ نُورٍ.

**أُرْكُضْ... أرْكُضْ... أُرْكُضْ...**

أُرْكُضْ كَأَنَّ الأَرْضَ تَنْزِعُكَ مِنِ اسْمِكَ، أُرْكُضْ كَأَنَّ القَلْبَ طَائِرٌ تَكَسَّرَتْ بُوصَلَتُهُ. أَنْتَ لَسْتَ سِوَى كَائِنٍ صَغِيرٍ يَفِرُّ دَاخِلَ فَرَاغٍ أَكْبَرَ، طَرِيدَةً لِخَفَافِيشِ المَعْنَى وَأَطْيَافِهَا السَّوْدَاءِ، نَذِيرًا يَحْمِلُ خَاتَمَ الضَّجِيجِ وَيَخْتِمُ بِهِ سِفْرَ النِّهَايَةِ.

**أُرْكُضْ.**

حَتَّى يَتَبَدَّلَ الرَّكْضُ إِلَى طَقْسٍ، إِلَى قُرْبَانٍ يُسَاقُ نَحْوَ نَارِهِ بِوَعْيٍ صَافٍ. تَعْرِفُ أَنَّكَ ذَاهِبٌ إِلَى الِاحْتِرَاقِ.

هَا هِيَ الحُدُودُ تَنْفَتِحُ كَجُرُوحٍ مُضِيئَةٍ، وَالمَخَافِرُ تَتَحَوَّلُ إِلَى أَيْقُونَاتٍ لِلْحِرَاسَةِ الأَخِيرَةِ. كُلُّ بَوَّابَةٍ تَقُولُ: تَقَدَّمْ. وَكُلُّ حَجَرٍ يَهْمِسُ: اقْتَرِبْ مِنْ نِهَايَتِكَ كَمَا يَقْتَرِبُ العَابِدُ مِنْ سِرِّهِ.

**أُرْكُضْ...**

الرِّيحُ مِنْ حَوْلِكَ جَوْقَةٌ خَفِيَّةٌ تَرْفَعُ نَشِيدَ الغَائِبِينَ، وَالظِّلَالُ تَنْحَنِي، تَنْحَنِي كَشَمَامِسَةٍ يُهَيِّئُونَ الطَّرِيقَ لِلذَّبِيحَةِ.

**أُرْكُضْ...**

وَقَدْ خَلَعْتَ عَنْكَ ثِقْلَ النَّجَاةِ، وَتَرَكْتَ الخَوْفَ يَتَسَاقَطُ كَقُشُورٍ عَنْ مَعْنًى أَقْدَمَ، مَعْنًى يَعْرِفُ أَنَّ الِاحْتِرَاقَ وِلَادَةٌ أُخْرَى...

هَا هُوَ الجَسَدُ يَبْدَأُ بِالتَّلَاشِي، لَيْسَ اخْتِفَاءً، إِنَّمَا انْكِشَافٌ لِمَا كَانَ مُخْتَبِئًا تَحْتَ الجِلْدِ: نُورٌ كَثِيفٌ، نُورٌ يَطْلُبُ شَكْلَهُ الأَخِيرَ فِي اللَّهَبِ...

**ادْخُلِ الدَّائِرَةَ...**

دَائِرَةَ النَّارِ الَّتِي كَانَتْ تَرْسُمُ نَفْسَهَا حَوْلَكَ مُنْذُ البَدْءِ. ادْخُلْهَا كَمَا يَدْخُلُ الكَاهِنُ إِلَى قُدْسِ الأَقْدَاسِ، بِعَيْنَيْنِ مَفْتُوحَتَيْنِ وَقَلْبٍ لَا يَسْأَلُ...

النَّارُ لَا تَلْتَهِمُكَ، إِنَّهَا تَقْرَؤُكَ. تَقْرَؤُكَ سَطْرًا سَطْرًا، حَتَّى تَصِيرَ الحُرُوفُ رَمَادًا نَاطِقًا، وَيَصِيرَ الرَّمَادُ جَسَدًا آخَرَ لِلْمَعْنَى.

**أُرْكُضْ...**

وَكَأَنَّ كُلَّ رَكْضٍ مَضَى لَمْ يَكُنْ سِوَى تَدْرِيبٍ عَلَى هٰذِهِ اللَّحْظَةِ، لَحْظَةِ أَنْ تَقُولَ: خُذْنِي أَيُّهَا العُلُوُّ، لَهِيبًا يَعْرِفُ طَرِيقَهُ، وَقُرْبَانًا لَا يَطْلُبُ النَّجَاةَ.

**أُرْكُضْ...**

كَأَنَّكَ شَرَارَةٌ انْفَلَتَتْ مِنْ مِلْءٍ بَعِيدٍ، هَبَطَتْ عَبْرَ سَبْعِ سَمَوَاتٍ مِنْ نِسْيَانٍ، يُطَارِدُهَا حُرَّاسُ الأَبْوَابِ، بِأَقْنِعَةٍ مِنْ زَمَنٍ مُخْتُومٍ.

**أُرْكُضْ...**

عَبْرَ طَبَقَاتٍ مِنْ هَوَاءٍ مُكْتَظٍّ، وَعَبْرَ أَفْلَاكٍ تَتَكَسَّرُ كَمَرَايَا قَدِيمَةٍ، تَرَى فِيهَا وُجُوهًا لَكَ، كُلُّ وَجْهٍ حَيَاةٌ لَمْ تَكْتَمِلْ، وَكُلُّ حَيَاةٍ مُحَاوَلَةٌ لِتَذَكُّرِ النُّورِ الأَوَّلِ.

**أُرْكُضْ...**

الرَّكْضُ يَتَبَدَّلُ، يَصِيرُ مَعْرِفَةً، وَيَصِيرُ اسْتِرْجَاعًا بَطِيئًا لِمَا سُرِقَ مِنْكَ عِنْدَ العُبُورِ. تَقُولُ فِي سِرِّكَ:
أَنَا لَسْتُ مِنْ هٰذَا الثِّقْلِ، وَلَسْتُ مِنْ هٰذَا الطِّينِ الَّذِي يَطْلُبُ اسْمِي. أَنَا مِنْ تِلْكَ الوَمْضَةِ الَّتِي نَسِيَتْ نَفْسَهَا كَيْ تَتَذَكَّرَ..
هَا هِيَ الحُجُبُ تَتَشَقَّقُ وَاحِدًا بَعْدَ آخَرَ، كَأَنَّهَا أَصْدَافٌ تُخْفِي لُؤْلُؤَةً مِنْ نَارٍ، وَكُلُّ انْكَشَافٍ يَجْرَحُكَ أَكْثَرَ، لِأَنَّ المَعْرِفَةَ لَيْسَتْ نِعْمَةً هَادِئَةً، إِنَّهَا سِكِّينٌ مُضِيءٌ.

**أُرْكُضْ...**

تَحْتَ شَجَرَةٍ مَقْلُوبَةٍ، جُذُورُهَا فِي العُلُوِّ، وَأَغْصَانُهَا تَتَدَلَّى فِي صَدْرِكَ كَمَسَالِكَ سِرِّيَّةٍ. كُلُّ غُصْنٍ سَفِيرَةُ نُورٍ، وَكُلُّ وَرَقَةٍ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ الِانْبِثَاقِ...
تَلْمَسُ الجِذْعَ فَتَتَرَدَّدُ فِي دَاخِلِكَ أَسْمَاءٌ لَا تُنْطَقُ كَامِلَةً: نُورُ الأَنْوَارِ، عَقْلُ البَدْءِ، صَوْتُ الحِكْمَةِ السَّاكِنَةِ، وَالأُنْثَى الأُولَى الَّتِي خَبَّأَتِ الشَّرَارَةَ فِي طِينِ العَابِرِينَ.

**أُرْكُضْ...**

وَقَدْ صَارَ الجَسَدُ كِتَابًا مَفْتُوحًا لِلأَسْرَارِ، أَعْضَاؤُهُ حُرُوفٌ، وَعِظَامُهُ أَعْمِدَةُ مَعْبَدٍ قَدِيمٍ، وَدَمُهُ حِبْرٌ يَكْتُبُ سِفْرَ العَوْدَةِ.

**أُرْكُضْ...**

كَأَنَّكَ تَدْخُلُ هَيْكَلَ النَّارِ بِقَدَمَيْكَ، كَأَنَّكَ تُمْسَحُ بِاللَّهَبِ مَسْحَةَ المُخْتَارِينَ. كَأَنَّ الجَسَدَ يُرَتِّلُ حَتَّى يَتَلَاشَى، وَكَأَنَّ الرُّوحَ فِي لَحْظَةِ الذُّرْوَةِ تَقُولُ: أَنَا أَذُوبُ لَا أَنْقُصُ، أَتَكَثَّفُ فِي مَعْنًى أَصْفَى، كَأَنَّ الرَّمَادَ شَكْلٌ آخَرُ لِلْحَقِيقَةِ، وَكَأَنَّ الفَنَاءَ قِنَاعٌ لِلِامْتِلَاءِ.

وَتَقُولُ: أَنَا دَاخِلُ الذُّرْوَةِ الَّتِي لَا تَعُودُ مِنْهَا الأَسْمَاءُ: خُذْ هٰذِهِ الشَّرَارَةَ، أَعِدْهَا إِلَى بَحْرِهَا، دَعْهَا تَفْنَى لِتَعْرِفَ، وَدَعْهَا تَعْرِفُ لِتَفْنَى.

هٰكَذَا...
لَا يَبْقَى مِنَ الرَّكْضِ أَثَرٌ فِي الأَرْضِ،
كُلُّهُ يَصْعَدُ كَأَثَرٍ فِي اللَّا مَرْئِيِّ،
كَأَثَرِ صَلَاةٍ لَمْ تُكْتَبْ. وَكُلُّ عَابِرٍ حِينَ يَظُنُّ أَنَّهُ يَهْرُبُ،
يَكُونُ فِي الحَقِيقَةِ يَسْتَجِيبُ لِنِدَاءٍ أَقْدَمَ مِنَ الخَلْقِ،
نِدَاءٍ يَقُولُ:
**تَعَالَ عَبْرَ الِاحْتِرَاقِ،**
**تَعَالَ لِتَتَذَكَّرَ أَنَّكَ لَمْ تُغَادِرْ أَبَدًا.**

١٢

# النَّشِيدُ الثَّانِي عَشَرَ

## انْكِشَافُ الْأَقْنِعَةِ

فِي هٰذَا الظَّلَامِ

فِي هٰذَا الظَّلَامِ الْكَوْنِيِّ،

فِي هٰذِهِ الْعَتَمَةِ الْمُتَأَخِّرَةِ مِنْ لَيْلِ الْحُدُودِ... تَلْتَفِتُ الْكَامِيرَا إِلَى صَاحِبِهَا، وَيَبْدَأُ مَشْهَدُ انْكِشَافِ الْأَقْنِعَةِ، حَيْثُ تَخْتَلِطُ الرِّيَاحُ بِصَفِيرِ دَوْرِيَّاتِ الْحِرَاسَةِ.

تَظْهَرُ الْكَامِيرَا أَوَّلًا: مُعَلَّقَةً عَلَى وَتَدٍ صَدِئٍ، وَعَدَسَتُهَا مَا تَزَالُ مَفْتُوحَةً، كَعَيْنٍ لَمْ يَتَبَقَّ لَهَا جَفْنٌ.

يَقْتَرِبُ الْفُوتُوغْرَافِيُّ الْعَجُوزُ... وَيَرْفَعُ الْكَامِيرَا إِلَى مُسْتَوَى وَجْهِهِ. لٰكِنَّ الصُّورَةَ الْمُنْعَكِسَةَ لَا تُظْهِرُ تَجَاعِيدَهُ... تُظْهِرُ وَجْهَ الْجُنْدِيِّ الْجَرِيحِ وَهُوَ يَشُدُّ حِزَامَهُ الْعَسْكَرِيَّ.

يَصْرُخُ الْفُوتُوغْرَافِيُّ الْعَجُوزُ:

- هٰذِهِ كَامِيرَتِي.

فَيَرُدُّ الْجُنْدِيُّ مِنْ دَاخِلِ الصُّورَةِ:

- وَهٰذَا وَجْهِي... لٰكِنَّكَ أَنْتَ مَنْ يَلْتَقِطُهُ.

تَهْتَزُّ الْكَامِيرَا، وَيَتَدَاخَلُ صَوْتُ الْمَفَاتِيحِ الْمَعْدِنِيَّةِ مَعَ صَفِيرِ الضَّوْءِ. يَتَشَقَّقُ سَطْحُ الصُّورَةِ، وَيَدْخُلُ الطَّقْسُ دَوْرَتَهُ...

يَهْبِطُ إِيكارُ بِأَجْنِحَةٍ مِنْ رَمَادٍ، يَعْدُو... وَيَعْدُو... وَيَعْلُو. كُلَّمَا اقْتَرَبَ مِنَ الشَّمْسِ ازْدَادَ بُعْدًا عَنِ اسْمِهِ. يَسْقُطُ فِي الضَّوْءِ وَيَضْحَكُ، كَأَنَّ السُّقُوطَ سُلَّمٌ آخَرُ.

وَيَجِيءُ الْمَلَاكُ الْأَعْمَى، يَمَسُّ الْهَوَاءَ بِعَصَاهِ، وَيَرَى بِمَا لَا يُرَى، وَيَقُولُ:

- الطَّرِيقُ يَتَكَاثَرُ فِي الظُّلْمَةِ، وَالنُّورُ حُفْرَةٌ عَمِيقَةٌ.

يَجْلِسُ الْفُوتُوغْرَافِيُّ الْعَجُوزُ عَلَى حَافَةِ الْوَقْتِ، وَيُحَمِّضُ الصُّوَرَ فِي مَاءٍ أَسْوَدَ. تَخْرُجُ الْوُجُوهُ بِلا مَلَامِحَ.

يَهْمِسُ:

- الذَّاكِرَةُ آلَةٌ تَنْسَى بِدِقَّةٍ.

يَمْشِي الْجُنْدِيُّ الْجَرِيحُ حَامِلًا ظِلَّهُ كَضِمَادٍ، وَيَعُدُّ الثُّقُوبَ فِي جَسَدِهِ كَنُجُومٍ. كُلُّ ثُقْبٍ نَافِذَةٌ، وَكُلُّ نَافِذَةٍ سُؤَالٌ.
وَتَرْتَفِعُ جُوقَةُ الْأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ، وَتَدُورُ كَدُخَانٍ يَتَذَكَّرُ الْغَابَةَ، وَتُنْشِدُ بِنَبْرَةٍ وَاحِدَةٍ:
- أَنْتَ الْحَيْرَةُ، أَنْتَ الْبَابُ، أَنْتَ النَّارُ.
أَرْكُضْ...
أَرْكُضْ... الطَّقْسُ يَشْتَدُّ... أَرْكُضْ... الْهَوَاءُ يَضِيقُ حَتَّى يَصِيرَ حَلَقَةً حَوْلَ عُنُقِ الْمَعْنَى، وَالْأَصْوَاتُ تَنْكَسِرُ كَزُجَاجٍ فِي حَنْجَرَةِ اللَّيْلِ:
إِيكار يَعْلُو،
الْمَلَاكُ الْأَعْمَى يَتَحَسَّسُ الْفَرَاغَ،
الْفُوتُوغْرَافِيُّ الْعَجُوزُ يَلْتَقِطُ سُقُوطَ الضَّوْءِ،
الْجُنْدِيُّ الْجَرِيحُ يَزْرَعُ خُطَاهُ فِي الْأَلَمِ،
جُوقَةُ الْأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ تَبْتَلِعُ الصَّمْتَ وَتُعِيدُهُ نَشِيدًا.
أَرْكُضْ...
أَرْكُضْ... الذِّرْوَةُ تَنْفَتِحُ كَجُرْحٍ أَعْلَى مِنَ السَّمَاءِ... إِيكارُ يَسْقُطُ صَاعِدًا، وَالْمَلَاكُ يَرَى عَمَاهُ نُورًا، وَالْعَجُوزُ يَلْتَقِطُ الصُّورَةَ الْأَخِيرَةَ بِلا زَمَنٍ، وَالْجُنْدِيُّ يَضْحَكُ وَالدَّمُ يَكْتُبُ اسْمَهُ، وَأَنْتَ تَشْتَعِلُ حَتَّى تَصِيرَ صَوْتًا فَقَطْ... صَوْتٌ يَقُولُ: لَكِنَّكَ مَا زِلْتَ مَخْتُومًا، لِأَنَّ السِّرَّ غَائِبٌ، وَالْكَشْفَ خِيَانَةٌ، وَلِأَنَّ الِاسْمَ إِذَا قِيلَ انْكَسَرَ، وَلِأَنَّ الْمَعْنَى إِذَا أُضِيءَ احْتَرَقَ.
انْفَتَحَتِ النَّوَافِذُ كُلُّهَا، وَتَعَرَّتِ الْأَرْضُ، وَأَفْصَحَتِ الْمُعْجِزَةُ عَنْ نَدْبَتِهَا، وَفَضَحَتِ الْفَضِيحَةُ نَفْسَهَا، وَتَكَشَّفَتِ النَّبْرَةُ وَالْحِذْقُ وَالْأَمْثِلَةُ وَالْبَرَاهِينُ، وَانْحَلَّ الْأَزَلُ مِنْ عُقَدِهِ، وَتَفَكَّكَتْ زُنَّارَاتُ الْفُصُولِ، وَبَقِيتَ أَنْتَ كَمَا أَنْتَ، تُشْعِلُ الطَّقْسَ مِنْ جُرْحٍ مَفْتُوحٍ، مِنْ فَمٍ يَبْتَلِعُ اسْمَهُ وَيُعِيدُهُ نَارًا.
أَنْتَ حَيْرَةُ اللِّسَانِ، حَيْرَةُ (الْوَهْوَهَةِ)، حَيْرَةُ الْفَصَاحَةِ حِينَ يُعَرِّيهَا فَضَاءٌ يَهْذِي كَكَوْكَبٍ مَكْسُورٍ...
يَا أَنْتَ، يَا شَتَاتَ الْمَدَى، يَا فَرِيسَةً تُوقِظُ الْمَكَائِدَ مِنْ نُعَاسِهَا، يَا ثُقْبًا يُفَرِّغُ مَقَاصِيرَ الذَّاكِرَةِ مِنْ أَسْمَائِهَا، نِصْفُكَ حَقٌّ، وَنِصْفُكَ رُؤْيَا.
أَرْكُضْ...
أَرْكُضْ...

أَرْكُضْ... أَيُّهَا الْمُتَزَلِّجُ حَافِيًا فَوْقَ جَلِيدِ الْحُرُوفِ، فَلَا أَبْجَدِيَّةَ تَلْحَقُ بِكَ، وَلَا اسْمَ يُمْسِكُ ظِلَّكَ، وَلَا مَعْنًى يَثْبُتُ تَحْتَ قَدَمَيْكَ. أَنْتَ تَتَكَاثَرُ فِي التَّمَزُّقِ، وَتَتَوَهَّجُ فِي الِانْقِسَامِ، وَتُحْرِقُ الطَّرِيقَ كُلَّمَا عَبَرْتَهُ.

أَرْكُضْ... فَالْمَدَى يَزْدَادُ شُرُودًا كُلَّمَا اقْتَرَبْتَ، وَالسَّمَاءُ لَا تُعْطِي إِلَّا لِمَنْ يَرْفُضُهَا، وَالنَّجَاةُ فَخٌّ آخَرُ.

أَرْكُضْ... أَرْكُضْ... أَرْكُضْ...

مَا زَالَ إِيكارُ

يَعْدُو...

وَيَعْدُو...

وَيَعْلُو،

وَلِلشِّعْرِ قَدَمٌ عَرْجَاءُ.

أَرْكُضْ...

أَرْكُضْ... قَبْلَ أَنْ يَعُودَ كُلُّ شَيْءٍ. الْجَلِيدُ حُرُوفٌ، وَالْحُرُوفُ جَلِيدٌ، وَالْقَدَمُ الْعَرْجَاءُ لِلشِّعْرِ تَجُرُّ الْعَالَمَ خَلْفَهَا.

وَتَنْتَهِي الدَّائِرَةُ فِي الْمَوْضِعِ ذَاتِهِ،

كَأَنَّ الْبِدَايَةَ أَثَرُ النِّهَايَةِ،

وَكَأَنَّ النَّارَ تَكْتُبُ نَفْسَهَا

فِي الرَّمَادِ.

أَرْكُضْ... إِيكارُ يَتَقَدَّمُ، يَرْفَعُ جَنَاحَيْهِ رَمَادًا يَشْتَعِلُ، وَيَصْرُخُ:

- أَنَا الْعُلُوُّ حِينَ يَنْسَى جَسَدَهُ، أَنَا السُّقُوطُ حِينَ يَتَعَلَّمُ الطَّيَرَانَ، الشَّمْسُ لَيْسَتْ نِهَايَةً... الشَّمْسُ فَمٌ آخَرُ!

فَيَذُوبُ جَنَاحَاهُ ضَوْءًا، وَيَعْلُو أَكْثَرَ.

أَرْكُضْ... الْمَلَاكُ الْأَعْمَى يَنْهَضُ، وَيَضْرِبُ الْأَرْضَ بِعَصَاهِ، فَتَنْفَتِحُ الظُّلْمَةُ كَعَيْنٍ، وَيَقُولُ:

- لَا شَيْءَ يُرَى... كُلُّ شَيْءٍ يُبْصِرُنِي! أَنَا الْبَصِيرَةُ حِينَ تَفْقِدُ شَكْلَهَا، أَنَا الْهَاوِيَةُ حِينَ تَمْتَلِئُ نُورًا!

فَيَتَكَسَّرُ عَمَاهُ شَرَارَاتٍ.

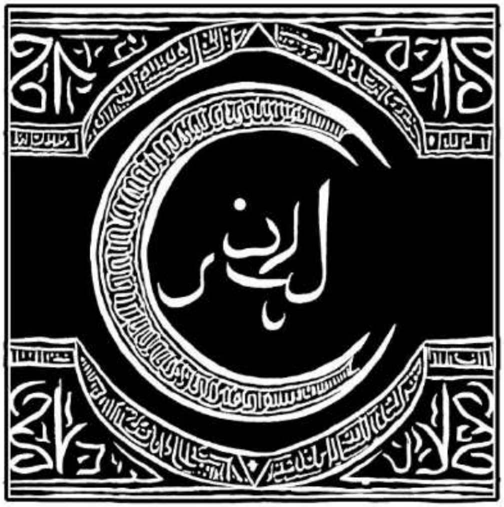
أَرْكُضْ... الْفُوتُوغْرَافِيُّ الْعَجُوزُ يَنْحَنِي، وَيَرْفَعُ صُورَةً لَمْ تُلْتَقَطْ بَعْدُ، وَيَصْرُخُ:

- اللَّحْظَةُ لَا تُحْفَظُ، اللَّحْظَةُ تَلْتَهِمُ مَنْ يَرَاهَا! أَنَا الْعَدَسَةُ الَّتِي تَحْتَرِقُ بِمَا تُثْبِتُ، أَنَا الذَّاكِرَةُ حِينَ تَفْضَحُ صَاحِبَهَا!
فَتَسِيلُ الصُّوَرُ مِنْ يَدَيْهِ كَدَمٍ أَسْوَدَ.
أَرْكُضْ... الْجُنْدِيُّ الْجَرِيحُ يَتَقَدَّمُ، وَيَفْتَحُ صَدْرَهُ كَرَايَةٍ، وَيَقُولُ:
- هٰذِهِ الثُّقُوبُ لَيْسَتْ مَوْتًا، هٰذِهِ أَبْوَابٌ... أَبْوَابٌ! أَنَا الْجَسَدُ حِينَ يَفِيضُ بِالْخُرُوجِ، أَنَا الْأَلَمُ حِينَ يَصِيرُ طَرِيقًا!
فَتَلْمَعُ جِرَاحُهُ كَنُجُومٍ تَهْتِفُ.
أَرْكُضْ... جُوقَةُ الْأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ تَشُدُّ الْهَوَاءَ كَوَتَرٍ عَلَى حَنْجَرَةِ الْكَوْنِ، وَتَرْتَفِعُ، وَتَتَعَدَّدُ فِي صَوْتٍ وَاحِدٍ، وَتَصِيحُ:
- نَحْنُ الضَّيَاعُ حِينَ يَجِدُ اسْمَهُ، نَحْنُ الصَّدَى حِينَ يَكْسِرُ الْأَصْلَ، نَحْنُ النَّارُ الَّتِي تَتَذَكَّرُ مَنْ أَشْعَلَهَا!
وَأَنْتَ، تَتَقَدَّمُ بِلا وَجْهٍ، بِكُلِّ الْوُجُوهِ، وَتَفْتَحُ فَمَكَ... لَا يَخْرُجُ صَوْتٌ، يَخْرُجُ احْتِرَاقٌ.
الْكُلُّ يَلْتَفِتُ إِلَيْكَ.
إِيكَارُ يَسْقُطُ فِيكَ،
وَالْمَلَاكُ الْأَعْمَى يُبْصِرُ بِكَ،
وَالْفُوتُوغْرَافِيُّ الْعَجُوزُ يَلْتَقِطُكَ،
وَالْجُنْدِيُّ الْجَرِيحُ يَعْبُرُكَ،
وَجُوقَةُ الْأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ تَسْكُنُ حَنْجَرَتَكَ.
تَشْتَعِلُ حَتَّى لَا يَبْقَى مِنْكَ سِوَى كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ:

(تَرْتَفِعُ)
تَخْفُتُ الْأَصْوَاتُ،
وَتَعُودُ الْخُطْوَةُ الْأُولَى،
الْجَلِيدُ حُرُوفٌ،
وَالْحُرُوفُ جَلِيدٌ،
وَصَوْتٌ بَعِيدٌ يُعِيدُ الْبَدْءَ:
**أَرْكُضْ...**
**أَرْكُضْ...**
**أَيُّهَا الْمُتَزَلِّجُ حَافِيًا فَوْقَ جَلِيدِ الْحُرُوفِ.**

# الثُّغْرَةُ النَّصِّيَّةُ

## الحُلْمُ دَاخِلَ كِتَابِ آخَرَ



*ظَهَرَتْ هٰذِهِ الثُّغْرَةُ النَّصِّيَّةُ مَكْتُوبَةً كَأَنَّهَا فَجْوَةٌ بَيْنَ فَصْلَيْنِ، أَوْ مَحْوٌ بَيْنَ صَفْحَتَيْنِ، أَوْ كَأَنَّهَا صَفَحَاتٌ انْفَصَلَتْ ثُمَّ عَادَتْ لِتَكْشِفَ أَنَّ الْمَلْحَمَةَ حُلْمٌ دَاخِلَ كِتَابٍ آخَرَ، كِتَابٍ لَمْ يُكْتَبْ بَعْدُ، أَوْ كُتِبَ بِصِيغَةِ مُسَوَّدَةٍ، أَوْ رُسِمَ بِحِبْرٍ خَفِيفٍ. وَكَأَنَّ السَّرْدَ كُلَّهُ يَتَسَرَّبُ مِنْ هَامِشٍ فِي مَخْطُوطَةٍ مَجْهُولَةٍ.*

*الصَّفَحَاتُ لَا تَحْمِلُ أَرْقَامًا، وَهِيَ مَكْتُوبَةٌ بِخَطٍّ مُتَسَرِّعٍ، كَمَا لَوْ أَنَّ يَدًا ارْتَجَفَتْ أَثْنَاءَ كِتَابَتِهَا. فِي الْبِدَايَةِ ظَهَرَ مِنْهَا سَطْرٌ وَاحِدٌ فَقَطْ، مُرْتَسِمًا كَظِلِّ ضَوْءٍ شَاحِبٍ عَلَى شَاشَةٍ عَرِيضَةٍ:*

– هٰذِهِ الْمَلْحَمَةُ لَيْسَتْ وَاقِعًا... إِنَّهَا الْهَامِشُ الَّذِي حَلِمَ بِهِ كِتَابٌ آخَرُ، كُتِبَ كَسِينَارْيُو لِفِيلْمٍ وَثَائِقِيٍّ.

(بَيَاضٌ كَثِيفٌ، ثُمَّ تَنْفَجِرُ صُوَرُ الْكَلِمَاتِ الْمُتَلَاحِقَةِ كَأَنَّهَا تَخْرُجُ مِنَ الْكَادِرِ، وَكَأَنَّ النَّصَّ سِيرَةٌ ذَاتِيَّةٌ مُصَوَّرَةٌ... لِهٰذَا يُرِيدُ النَّاسِخُ الْمَجْهُولُ تَجْرِيدَ الْكِتَابِ مِنْ شِعْرِيَّتِهِ، وَإِعَادَةَ الشَّخْصِيَّاتِ إِلَى لَحْمِهَا الْحَقِيقِيِّ. وَيُرِيدُ أَنْ يَكْشِفَ مِنَ الْبِدَايَةِ أَنَّ جَمِيعَ الشَّخْصِيَّاتِ مُجَرَّدُ أَدْوَارٍ يُؤَدِّيهَا إِيكارُ أَمَامَ كَامِيرَا وَثَائِقِيَّةٍ مُرْتَجَلَةٍ. يُرِيدُ الصُّورَةَ قَاسِيَةً، وَاقِعِيَّةً، بِلا مَجَازٍ مُفْرِطٍ، وَبِلا مُؤَثِّرَاتٍ، وَبِلا مُوسِيقَى. مُجَرَّدُ كَامِيرَا مَحْمُولَةٍ تَهْتَزُّ، وَإِضَاءَةٍ طَبِيعِيَّةٍ، وَأَصْوَاتِ تَنَفُّسٍ وَشَهَقَاتٍ، وَاعْتِرَافَاتٍ تُقَالُ أَمَامَ كَامِيرَا مَفْتُوحَةٍ بِلا قَطْعٍ).




**لَقْطَةٌ طَوِيلَةٌ دُونَ قَطْعٍ**

(الْكَامِيرَا الْمَحْمُولَةُ تَرْكُضُ خَلْفَ إِيكارَ فِي مَمَرٍّ جَبَلِيٍّ. الْإِضَاءَةُ صَفْرَاءُ، بَعْدَ امْتِزَاجِ ضَوْءِ الْقَمَرِ بِمَشْهَدِ الْغُرُوبِ وَالثَّلْجِ الْمُتَسَاقِطِ. جُوقَةُ الْأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ تَمُرُّ فِي الْخَلْفِيَّةِ وَلَا تَنْظُرُ إِلَى الْكَامِيرَا. إِيكارُ يَلْهَثُ، ثُمَّ يَسْتَدِيرُ فَجْأَةً وَيَقُولُ لِلْمُصَوِّرِ):

- لَا تُغْلِقِ الْكَامِيرَا... أَيًّا كَانَ مَا سَيَحْدُثُ، لَا تُغْلِقْهَا.

(الصَّوْتُ خَافِتٌ، وَالْكَادِرُ مَائِلٌ قَلِيلًا، وَاللَّيْلُ يَبْدُو كَأَنَّهُ مَكَانٌ ضَيِّقٌ لَا فَضَاءٌ).




**غُرْفَةٌ مَهْجُورَةٌ، إِضَاءَةُ لَمْبَةٍ عَارِيَةٍ**

(إِيكارُ يَدْخُلُ غُرْفَةً مَنْسِيَّةً تَحْتَ الْجِسْرِ. لَا مُوسِيقَى. لَا ظِلَالَ دِرَامِيَّةً. فَقَطْ ضَوْءٌ أَبْيَضُ قَاسٍ. فِي الْغُرْفَةِ كُرْسِيٌّ بِلا ظَهْرٍ. يَجْلِسُ عَلَيْهِ. يَرْتَدِي مِعْطَفَ الْفُوتُوغْرَافِيِّ الْعَجُوزِ، ثُمَّ يَخْلَعُهُ. يَرْتَدِي سُتْرَةَ الْجُنْدِيِّ الْجَرِيحِ، ثُمَّ يَخْلَعُهَا. يَرْتَدِي عَبَاءَةً تُشْبِهُ رِدَاءَ الْمَلَاكِ الْأَعْمَى. اللَّقْطَةُ ثَابِتَةٌ، وَالصَّمْتُ كَثِيفٌ. يُوَاجِهُ الْكَامِيرَا مُبَاشَرَةً):

- كُنْتُ أَنَا الثَّلَاثَةَ. كُنْتُ أُجَرِّبُ طُرُقًا مُخْتَلِفَةً لِلْهَرَبِ... وَلَمْ أَنْجُ فِي أَيٍّ مِنْهَا.

(شَيْءٌ غَرِيبٌ يَحْدُثُ: تَخْتَلِطُ الظِّلَالُ، وَتَتَبَدَّلُ الْوُجُوهُ، وَتَتَضَاعَفُ الْأَصْوَاتُ. تَسْقُطُ بِطَاقَةُ هُوِيَّةٍ عَلَى الْأَرْضِ).

الِاسْمُ: إِيكار.
(تَبْدُو الْبِطَاقَةُ مُطَابِقَةً لِلْوُجُوهِ الثَّلَاثَةِ).




## الِاعْتِرَافُ الْوَثَائِقِيُّ

(الْكَامِيرَا تَقْتَرِبُ مِنْ وَجْهِهِ. لَا فِلَاتِرَ. لَا تَصْحِيحَ أَلْوَانٍ. الْعَرَقُ وَاضِحٌ، وَفِي الْعَيْنِ ذُهُولٌ).
يَقُولُ الْفُوتُوغْرَافِيُّ الْعَجُوزُ:
- كُنْتُ أُحَاوِلُ أَنْ أُوَثِّقَ نَفْسِي قَبْلَ أَنْ أَضِيعَ، قَبْلَ أَنْ يَبْتَلِعَنِي الْهَوَاءُ.
وَيَقُولُ الْجُنْدِيُّ الْجَرِيحُ:
- كُنْتُ أَخْشَى الْعَالَمَ... فَارْتَدَيْتُ خُوذَةَ الْخَوْفِ لِأَحْرُسَ نَفْسِي مِنْ نَفْسِي، حَتَّى رَأَيْتُ قَدَمَيَّ مَطْبُوعَتَيْنِ عَلَى رِمَالِ الْمَنْفَى ذَاتِهِ.
وَيَقُولُ الْمَلَاكُ الْأَعْمَى:
- كُنْتُ أَحْتَاجُ إِلَى أَحَدٍ يَقُودُنِي... فَصَنَعْتُ دَلِيلًا وَهْمِيًّا، لِأَنَّنِي لَمْ أَجْرُؤْ عَلَى أَنْ أَقُولَ إِنَّنِي لَا أَعْرِفُ الطَّرِيقَ.

(صَمْتٌ)

تَتَجَلَّى الْحَقِيقَةُ: كُلُّ شَخْصِيَّةٍ تُسَلِّمُ قِنَاعَهَا لِلْأُخْرَى، كَأَنَّ الزَّمَنَ آلَةُ تَدْوِيرٍ، وَالْمَلْحَمَةَ مَسْرَحٌ وَاحِدٌ يَتَبَدَّلُ مُمَثِّلُوهُ بِسُرْعَةٍ لَا تَسْمَحُ بِالْتِقَاطِ الذَّاتِ.
يَقُولُ إِيكار:
- كُلُّهُمْ كُنْتُ أَنَا... وَكُلُّ أَحَدٍ كُنْتُ أَخْسَرُهُ، كُنْتُ أَفْقِدُ عُضْوًا مِنْ قَلْبِي.




## الِانْهِيارُ

(تَنْفَتِحُ فَجْوَةٌ بَيْضَاءُ فِي الْجِدَارِ الْخَلْفِيِّ لِلْمَشْهَدِ. يَدْخُلُ الثَّلَاثَةُ، أَمْ شَخْصٌ وَاحِدٌ بِثَلَاثَةِ ظِلَالٍ مُنْعَكِسَةٍ فِي النُّورِ؟ يَعُودُ الْمَشْهَدُ الْأَوَّلُ مِنَ الْمَلْحَمَةِ: حَافَّةُ الْحُدُودِ، وَالرِّيحُ، وَدَفْتَرُ التَّصْوِيرِ الْعَتِيقُ. يَبْدُو كُلُّ شَيْءٍ نُسْخَةً دَقِيقَةً مِمَّا شَاهَدَهُ الْمُتَفَرِّجُ، مَعَ اخْتِلَافٍ ضَئِيلٍ: عَلَى الْحَافَّةِ هٰذِهِ الْمَرَّةَ كَامِيرَا صَغِيرَةٌ مَنْصُوبَةٌ بِاتِّجَاهِ إِيكَارَ).

يَتَقَدَّمُ نَحْوَ الْكَامِيرَا وَهُوَ يَصْرُخُ:

- أَوْقِفِ التَّصْوِيرَ!

لٰكِنَّ الْمُصَوِّرَ لَا يُوْقِفُ التَّصْوِيرَ.

الْكَامِيرَا تَهْتَزُّ، وَتَتْبَعُ خُطُوَاتِهِ الْمُضْطَرِبَةَ.

يَسْقُطُ إِيكَارُ عَلَى الْأَرْضِ.

لَا مُوسِيقَى.

فَقَطْ صَوْتُهُ وَهُوَ يَبْكِي.

يَقُولُ وَهُوَ يَضْغَطُ أَصَابِعَهُ عَلَى صُخُورِ الْجَبَلِ:

- أَنَا لَسْتُ بَطَلًا، وَلَا ضَحِيَّةً... أَنَا... أَنَا مُجَرَّدُ شَاعِرٍ هَارِبٍ يُحَاوِلُ أَنْ يُصَدِّقَ أَنَّ لَهُ أَجْنِحَةً.




**النِّهَايَةُ الْمَفْتُوحَةُ**

**(قَطْعٌ غَيْرُ مُكْتَمِلٍ)**

(إِيكَار يَقِفُ بِبُطْءٍ. يُرَكِّزُ عَيْنَيْهِ فِي عَدَسَةِ الْكَامِيرَا. صَمْتٌ طَوِيلٌ. يَخْطُو نَحْوَ الْكَامِيرَا كَأَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَصْفَعَ الْمُصَوِّرَ، أَوْ يَحْتَضِنَهُ، أَوْ يَمْحُوَ الْعَالَمَ الَّذِي خَلْفَهُ. تَرْتَفِعُ قَبْضَةُ يَدِهِ... يَضْطَرِبُ الْكَادِرُ... تُغَطَّى الْعَدَسَةُ بِكَفِّهِ...).

(سَوَادٌ تَامٌّ)

يَظْهَرُ هَمْسٌ مِنَ الْعَتَمَةِ:

- أَيُّهَا الْمُتَفَرِّجُ، إِذَا صَدَّقْتَ مَا رَأَيْتَ، فَأَنْتَ تَلْبَسُ أَقْنِعَتِي...

(الشَّاشَةُ فَارِغَةٌ)

تَظْهَرُ جُمْلَةٌ بِبُطْءٍ شَدِيدٍ، كَأَنَّهَا تُكْتَبُ الْآنَ:

- مَا لَمْ تُكْمِلِ الطَّرِيقَ، سَيَظَلُّ إِيكارُ نَاقِصًا. ادْخُلْ، أَيُّهَا الْمُتَفَرِّجُ... فَالْحُدُودُ تَنْتَهِي عِنْدَ أَوَّلِ خُطْوَةٍ مِنْكَ.

(تُغْلَقُ الشَّاشَةُ. يَشْعُرُ الْمُتَفَرِّجُ بِأَنَّ بَابًا خَلْفَ كُرْسِيِّهِ قَدْ فُتِحَ لِلْتَّوِّ، وَأَنَّ أَحَدَهُمْ . رُبَّمَا إِيكارُ، أَوِ الْفُوتُوغْرَافِيُّ، أَوِ الْمَلَاكُ . قَدْ خَرَجَ مِنَ الْفِيلْمِ وَاتَّخَذَ مَكَانَهُ خَلْفَهُ. لَا مُوسِيقَى. لَا أَسْمَاءَ لِفَرِيقِ الْعَمَلِ. لَا تِتْر. فَقَطِ الْفَرَاغُ).

*(هٰذَا هُوَ السِّينَارْيُو الَّذِي خَطَّهُ نَزِيلٌ سَكْرَانُ مِنْ أَبْنَاءِ الْمَنَافِي، رَجُلٌ أَضَاعَ اسْمَهُ بَيْنَ مَحَطَّاتٍ بِلا خَرَائِطَ، وَتَرَكَ كَلِمَاتِهِ تَتَسَرَّبُ كَالنَّبِيذِ مِنْ شُقُوقِ الذَّاكِرَةِ.*

*وَهٰذِهِ هِيَ الثُّغْرَةُ النَّصِّيَّةُ الَّتِي انْفَتَحَتْ ذَاتَ لَيْلٍ كَجُرْحٍ دَاخِلَ كِتَابٍ آخَرَ، حُلْمٌ يَتَسَرَّبُ مِنْ هَامِشٍ مَهْجُورٍ إِلَى مَتْنِ الْحِكَايَةِ، كَأَنَّ الْكُتُبَ نَفْسَهَا بَدَأَتْ تَحْلُمُ بِبَعْضِهَا.*

*هٰذِهِ هِيَ الْإِضَافَةُ الَّتِي دَوَّنَهَا نَاسِخٌ مَجْهُولٌ، بِخَطٍّ يُشْبِهُ آثَارَ الرَّمَادِ عَلَى جِدَارِ مَعْبَدٍ غَارِقٍ)*

(بَعْدَ أَنْ أُغْلِقَتِ الثُّغْرَةُ النَّصِّيَّةُ، اخْتَفَتْ صَفَحَاتٌ مِنَ الْإِنْجِيلِ الرَّابِعِ، وَتَجَلَّتْ مَكَانَهَا أَوْرَاقٌ غَرِيبَةُ الْمَلْمَسِ، كَأَنَّهَا اقْتُلِعَتْ مِنْ زَمَنٍ آخَرَ، أَوْ أُضِيفَتْ بِفِعْلِ يَدٍ لَا تَنْتَمِي إِلَى الْبَشَرِ.

عِنْدَ التَّحْدِيقِ فِيهَا طَوِيلًا، تَبْدَأُ الصَّفَحَاتُ بِالِارْتِجَافِ، كَأَنَّ رُوحًا مَحْبُوسَةً بَيْنَ الْحُرُوفِ تُحَاوِلُ الْإِفْلَاتَ.

وَتَظْهَرُ كِتَابَةٌ بَاهِتَةٌ، تَتَوَهَّجُ وَتَنْطَفِئُ مِثْلَ أَنْفَاسٍ أَخِيرَةٍ:

يَسْتَيْقِظُ إِيكارُ مِنْ حُلْمٍ طَوِيلٍ يَمْتَدُّ عَبْرَ قُرُونٍ مِنَ النَّوْمِ الرَّمَادِيِّ.

يَفْتَحُ عَيْنَيْهِ بِبُطْءٍ، فَيَرَى طَرِيقًا غَارِقًا فِي ضَوْءٍ أَبْيَضَ شَاحِبٍ، طَرِيقًا بِلا نِهَايَةٍ، كَأَنَّهُ شِرْيَانٌ مُمْتَدٌّ فِي جَسَدِ الْعَدَمِ.

وَفِي أَقْصَى الْعُمْقِ يَجْلِسُ شَخْصٌ غَرِيبُ الْمَلَامِحِ، لَا يَظْهَرُ وَجْهُهُ كَامِلًا، وَيَتَصَفَّحُ كِتَابًا يَحْمِلُ عُنْوَانَ: **(سِفْرُ النِّهَايَاتِ الدَّائِرِيَّةِ).** وَكَانَ ذٰلِكَ السِّفْرُ هُوَ الْخَاتِمَةَ الْأَخِيرَةَ لِلْمَلْحَمَةِ الْكُبْرَى، الْكِتَابَ الَّذِي يَجْمَعُ الرُّمُوزَ كُلَّهَا، وَالشَّخْصِيَّاتِ الَّتِي تَاهَتْ بَيْنَ الْعَوَالِمِ، وَالرِّحْلَاتِ الدَّاخِلِيَّةَ الَّتِي عَبَرَتْ مُتَاهَاتِ الرُّوحِ، فِي رُؤْيَا كَامِلَةٍ مُغْلَقَةٍ عَلَى نَفْسِهَا كَحَلَقَةٍ أَزَلِيَّةٍ.

وَهُنَاكَ، عِنْدَ الصَّفْحَةِ الْأَخِيرَةِ الَّتِي تُشْبِهُ الصَّفْحَةَ الْأُولَى، يَنْكَشِفُ السِّرُّ الْعَظِيمُ:

(الْأَنَا الْحَقِيقِيَّةُ لِإِيكارَ).
الْوَجْهُ الَّذِي كَانَ يُطَارِدُهُ فِي جَمِيعِ أَحْلَامِهِ، دُونَ أَنْ يُدْرِكَ يَوْمًا أَنَّهُ كَانَ يَهْرُبُ مِنْ نَفْسِهِ).
لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ يَعْرِفُ شَيْئًا عَنْ **(سِفْرِ النِّهَايَاتِ الدَّائِرِيَّةِ).**
بَعْضُ الْمَخْطُوطَاتِ تَزْعُمُ أَنَّهُ سَقَطَ مِنَ السَّمَاءِ فَوْقَ مَدِينَةٍ احْتَرَقَتْ فِي لَيْلَةٍ بِلا قَمَرٍ، بَيْنَمَا تَقُولُ رِوَايَاتٌ أُخْرَى إِنَّ السِّفْرَ لَمْ يُكْتَبْ أَصْلًا، كَانَ مَوْجُودًا قَبْلَ اللُّغَةِ، يَنْتَظِرُ فَقَطِ الْكَائِنَ الْأَوَّلَ الَّذِي سَيَمْنَحُهُ اسْمًا.
وَكَانَ الْعَارِفُونَ بِالْأَسْرَارِ يَتَنَاقَلُونَ هَمْسًا حَقِيقَةً أَشَدَّ رُعْبًا: أَنَّ السِّفْرَ لَا يَرْوِي نِهَايَةَ الْعَالَمِ، إِنَّهُ يُعِيدُ خَلْقَهَا كُلَّمَا قُرِئَ.
لَمْ يَكُنْ سِفْرًا عَادِيًّا.
صَفَحَاتُهُ لَمْ تُصْنَعْ مِنَ الْوَرَقِ، كَانَتْ مَصْنُوعَةً مِنْ مَادَّةٍ رَمَادِيَّةٍ تُشْبِهُ جِلْدَ شَيْءٍ بَحْرِيٍّ مُنْقَرِضٍ. وَعِنْدَمَا تُفْتَحُ صَفَحَاتُهُ تَحْتَ الضَّوْءِ، تَظْهَرُ دَاخِلَ الْأَلْيَافِ الدَّقِيقَةِ أَشْكَالٌ هَنْدَسِيَّةٌ تَتَحَرَّكُ بِبُطْءٍ، كَأَنَّ الصَّفَحَاتِ تَتَنَفَّسُ.
وَكَانَتِ الْحُرُوفُ نَفْسُهَا كَائِنَاتٍ حَيَّةً.
تَتَبَدَّلُ مَوَاقِعُهَا عِنْدَمَا لَا يَنْظُرُ إِلَيْهَا أَحَدٌ، وَتُعِيدُ تَرْتِيبَ الْجُمَلِ وَفْقًا لِأَعْمَقِ مَخَاوِفِ الْقَارِئِ.
لِذٰلِكَ لَمْ يَقْرَأْ شَخْصَانِ النَّصَّ ذَاتَهُ قَطُّ.
أَمَّا إِيكارُ، فَلَمْ يَكُنْ إِنْسَانًا كَمَا ظَنَّ طَوَالَ حَيَاتِهِ.
لَقَدْ وُلِدَ دَاخِلَ الْحُلْمِ الثَّالِثِ لِكَائِنٍ كَوْنِيٍّ نَائِمٍ تَحْتَ طَبَقَاتِ الْوَاقِعِ، كَائِنٍ أَقْدَمَ مِنَ الزَّمَنِ نَفْسِهِ، تُعْرَفُ أَسْمَاؤُهُ الْمُحَرَّمَةُ فِي الطُّقُوسِ الْمَنْسِيَّةِ بِاسْمِ:
**(الَّذِي يَرَى الْكَوْنَ كَنَدْبَةٍ صَغِيرَةٍ فِي جَسَدِهِ)**
وَكَانَ وُجُودُ إِيكارَ مُجَرَّدَ صَدْعٍ فِي حُلْمِ ذٰلِكَ الْكَائِنِ.
خَطَأً صَغِيرًا فِي نَسِيجِ الْإِدْرَاكِ.
لِهٰذَا السَّبَبِ، كَانَتْ كُلُّ الْأَمَاكِنِ الَّتِي زَارَهَا تُعَانِي مِنَ التَّشَوُّهِ:
الْمُدُنُ تَفْقِدُ شَوَارِعَهَا لَيْلًا،
وَالْوُجُوهُ تَتَكَرَّرُ بَيْنَ الْغُرَبَاءِ،
وَالْأَطْفَالُ يُولَدُونَ وَهُمْ يَتَذَكَّرُونَ أَحْلَامًا لَا تَخُصُّهُمْ،
وَالْبَحْرُ يَنْسَحِبُ أَحْيَانًا فَجْأَةً، كَأَنَّ شَيْئًا هَائِلًا يَتَحَرَّكُ فِي الْأَعْمَاقِ.
وَمَعَ مُرُورِ السَّنَوَاتِ، بَدَأَ إِيكارُ يَسْمَعُ الصَّوْتَ.

لَمْ يَكُنْ صَوْتًا حَقِيقِيًّا، كَانَ اهْتِزَازًا دَاخِلَ أَفْكَارِهِ، شَيْئًا يُشْبِهُ الْكَلِمَاتِ قَبْلَ أَنْ تُولَدَ.
وَكَانَ الصَّوْتُ يُكَرِّرُ دَائِمًا:
- أَنْتَ لَسْتَ الْحَالِمَ... أَنْتَ مَا يَرَاهُ الْحَالِمُ عِنْدَمَا يَبْدَأُ بِالِاسْتِيقَاظِ.
وَعِنْدَمَا عَثَرَ أَخِيرًا عَلَى (سِفْرِ النِّهَايَاتِ الدَّائِرِيَّةِ)، أَدْرَكَ الْحَقِيقَةَ الَّتِي دَفَعَتْ جَمِيعَ مَنْ سَبَقُوهُ إِلَى الْجُنُونِ، أَوِ الِانْتِحَارِ، أَوْ مَحْوِ أَعْيُنِهِمْ بِأَيْدِيهِمْ:
أَنَّ الْكَوْنَ لَيْسَ سِوَى مَخْطُوطَةٍ نَاقِصَةٍ،
وَأَنَّ النُّجُومَ لَيْسَتْ إِلَّا ثُقُوبًا فِي الصَّفْحَةِ الْأَخِيرَةِ.
وَفِي الصَّفْحَةِ الْخِتَامِيَّةِ مِنَ السِّفْرِ، وَجَدَ إِيكَارُ جُمْلَةً وَاحِدَةً فَقَطْ، مَكْتُوبَةً بِحِبْرٍ يُشْبِهُ الظَّلَامَ السَّائِلَ:
- حِينَ تَنْتَهِي مِنْ قِرَاءَةِ هٰذَا السَّطْرِ... سَيَبْدَأُ الْكَائِنُ الَّذِي يَحْلُمُ بِكَ بِفَتْحِ عَيْنَيْهِ.

# سِفْرُ
# النِّهَايَاتِ الدَّائِرِيَّةِ

**(مَخْطُوطٌ يُتْلَى فِي لَيَالِي الْمُدُنِ الْمُهَدَّمَةِ)**

1

# مِرْآةُ الْقِيَامَةِ الصَّامِتَةِ

## النِّهَايَةُ كَمَا يَرَاهَا النَّاسِخُ الْمَجْهُولُ

تَرْنِيمَةٌ

### (1)
### انْكِشَافُ الْحِجَابِ الْأَوَّلِ

عَرْشٌ مِنْ دُخَانٍ وَأَجْنِحَةٍ
يَنْطَفِئُ كُلُّ نُورٍ إِلَّا وَهَجٌ رَمَادِيٌّ يُشْبِهُ نُورَ الْقُبُورِ فِي كُتُبِ الْأَسْفَارِ...
الْكَامِيرَا تَهْتَزُّ، كَأَنَّ مَلَاكًا خَفِيًّا يَحْمِلُهَا بِيَدٍ مُرْتَجِفَةٍ.
وَرَأَيْتُ بَابًا مَفْتُوحًا فِي آخِرِ النَّصِّ، وَصَوْتًا كَصَوْتِ بُوقٍ يَهْمِسُ فِي أَعْمَاقِ السُّطُورِ:
- اصْعَدْ إِلَى مَا وَرَاءَ الْكَلَامِ، لِأُرِيَكَ مَا لَمْ يُكْتَبْ بَعْدُ.
فَرَفَعْتُ عَيْنَيَّ، فَإِذَا عَرْشٌ مِنْ دُخَانٍ شَاحِبٍ، وَحَوْلَهُ ثَلَاثَةُ كَائِنَاتٍ:
(الْفُوتُوغْرَافِيُّ الْعَجُوزُ)،
(الْجُنْدِيُّ الْجَرِيحُ)،
(الْمَلَاكُ الْأَعْمَى).
وَكَانَتْ عَلَى جِبَاهِهِمْ حُرُوفٌ غَامِضَةٌ تَنْطِقُ بِالْأَسْرَارِ، كَثَلَاثَةِ أَنْبِيَاءَ فَقَدُوا أَلْوَاحَهُمْ.
وَلٰكِنْ فِي الْخَلْفِيَّةِ كَانَ يَتَرَدَّدُ صَوْتٌ لَا يُعْرَفُ مَصْدَرُهُ:
- يَا ابْنَ التُّرَابِ، هٰذِهِ أَشْكَالٌ لِجَوْهَرٍ وَاحِدٍ.

تَرْنِيمَةٌ

### (2)
### انْكِشَافُ الْحِجَابِ الثَّانِي
### (وَحْدَةُ الْوُجُوهِ وَالْبَصَائِرِ الْعَالِيَةِ)

تَقَدَّمَ الْمَلَاكُ الْأَعْمَى، وَهُوَ يُبْصِرُ بِالنُّورِ وَحْدَهُ، وَقَالَ بِالْعَرَبِيَّةِ الَّتِي تُشْبِهُ مَاءَ الْأَوْدِيَةِ الْقَدِيمَةِ:

- مَا كُنْتُمْ ثَلَاثَةً وَلَا أَرْبَعَةً... كُنْتُمْ وَجْهًا وَاحِدًا يَتَكَسَّرُ فِي مَرَايَا الزَّمَنِ.

يَتَقَدَّمُ الْفُوتُوغْرَافِيُّ، فَيَرَى مَلَامِحَهُ تَتَبَدَّلُ فِي مِرْآةٍ مُعَلَّقَةٍ فِي الْهَوَاءِ، فَيَتَحَوَّلُ إِلَى الْجُنْدِيِّ، ثُمَّ إِلَى الْمَلَاكِ الْأَعْمَى، ثُمَّ إِلَى شَخْصٍ رَابِعٍ يُشْبِهُ الْجَمِيعَ وَلَا يُشْبِهُ أَحَدًا.

يَقُولُ الْفُوتُوغْرَافِيُّ بِصَوْتِ مَنْ يَتْلُو مَزَامِيرَ مَنْسِيَّةً، وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى يَدَيْهِ الْمُلَطَّخَتَيْنِ بِالضَّوْءِ:

- كُنْتُ أَلْتَقِطُ الصُّوَرَ، فَإِذَا بِي أَلْتَقِطُ أَرْوَاحَنَا الضَّائِعَةَ. وَكُنْتُ أُصَوِّرُ الْخَرَابَ... حَتَّى رَأَيْتُ يَدِي تَحْمِلُ السِّلَاحَ.

فَأَجَابَ الْجُنْدِيُّ الْجَرِيحُ، كَمَنْ يَخْرُجُ مِنْ غَيْبُوبَةٍ أَوْ يَتْلُو لِيتُورْجِيَا مِنْ زَمَنٍ آخَرَ:

- كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّنِي أَحْرُسُ الْحُدُودَ، فَإِذَا الْحُدُودُ تَحْرُسُنِي... وَرَأَيْتُ أَنَّنِي أَنَا الْمَنْفَى ذَاتُهُ.

وَيَفْتَحُ الْمَلَاكُ الْأَعْمَى عَيْنَيْهِ لِلْمَرَّةِ الْأُولَى.

تَبْدُو الْعَيْنَانِ بِلا حَدَقَتَيْنِ، كَدَائِرَتَيْ نُورٍ تَلْتَهِمَانِ كُلَّ شَيْءٍ.

وَيَقُولُ:

- أَنَا لَسْتُ مَلَاكًا... أَنَا الْبَابُ الَّذِي كُنْتُمْ تَقْرَعُونَهُ مُنْذُ الْبَدْءِ... أَنَا الْمَرْسُومُ فِي قَضَاءِ الْأَزْمِنَةِ. أَنَا ظِلُّكُمْ حِينَ تَنْطَفِئُ الْأَنْوَارُ.

وَعِنْدَ ذُرْوَةِ الِانْكِشَافِ، يَتَوَحَّدُ الثَّلَاثَةُ فِي جَسَدٍ وَاحِدٍ.

وَيَقُولُ صَوْتٌ مِنْ خَلْفِ الزَّمَنِ:

- كُلُّكُمْ إِيكار، وَكُلُّكُمُ الْقَارِئُ الَّذِي يَفْتَحُ الْكِتَابَ الْآنَ.

## (3)
## انْكِشَافُ الْحِجَابِ الثَّالِثِ
### (الدَّائِرَةُ تَعُودُ إِلَى الْبَدْءِ)

(يَنْشَقُّ الْجِدَارُ إِلَى ضَوْءٍ يُشْبِهُ بَيَاضَ الْقِيَامَةِ. يَدْخُلُ إِيكار، أَوِ الثَّلَاثَةُ، أَوْ مَا بَيْنَهُمْ. ثُمَّ يَعُودُ الْمَشْهَدُ الْأَوَّلُ مِنَ الْمَلْحَمَةِ: خَطُّ الْحُدُودِ، وَالرِّيحُ، وَرَائِحَةُ الرَّمَادِ. لٰكِنْ هٰذِهِ الْمَرَّةَ تُوجِّهُ كَامِيرَا عَدَسَتَهَا نَحْوَ الْقَارِئِ نَفْسِهِ).

تَحْتَ الْكَامِيرَا لَوْحٌ خَشَبِيٌّ مَنْقُوشٌ عَلَيْهِ:

- مَنْ يَدْخُلْ هٰذِهِ الدَّائِرَةَ يُعَدْ تَكْوِينُهُ.
وَرَأَيْتُ كِتَابًا يُفْتَحُ وَحْدَهُ، مَكْتُوبًا بِثَلَاثِ لُغَاتٍ:
عَرَبِيَّةٍ،
وَسُرْيَانِيَّةٍ،
وَصَوْتٍ لَا لُغَةَ لَهُ...
وَجَاءَ فِي مُقَدِّمَتِهِ:
(الْمَعْرِفَةُ لَيْسَتْ نُورًا... الْمَعْرِفَةُ جُرْحُ النُّورِ... وَالْعَابِرُ لَا يُقَاسُ بِخُطُوَاتِهِ... الْعَابِرُ يُقَاسُ بِمَا يَخْسَرُهُ فِي الطَّرِيقِ).

سَقَطَتْ ثَلَاثُ قَطَرَاتٍ مِنْ حِبْرٍ أَسْوَدَ عَلَى الصَّفْحَةِ، فَانْشَقَّ النَّصُّ، وَخَرَجَ مِنْهُ إِيكار:
الَّذِي هُوَ الْقَارِئُ،
وَالْقَارِئُ الَّذِي سَيَأْتِي بَعْدَ الْقَارِئِ،
وَالْغَرِيبُ الَّذِي سَيَحْمِلُ هٰذَا الْمَخْطُوطَ فِي آخِرِ الزَّمَانِ.

ترنيمة

**(4)**

## انْكِشَافُ الْحِجَابِ الرَّابِعِ

حُلْمٌ دَاخِلَ كِتَابٍ آخَرَ

(تَأْوِيلٌ صُوفِيٌّ لِلرُّؤْيَا).

يَجِدُ الْقَارِئُ سَطْرًا فِي مُنْتَصَفِ الصَّفْحَةِ لَمْ يَكُنْ مَوْجُودًا قَطُّ:
(يَا مَنْ تَفْتَحُ الْكِتَابَ الْآنَ،
اعْلَمْ:
إِنَّ الْمَلْحَمَةَ لَيْسَتْ حِكَايَةً تُرْوَى،
إِنَّهَا امْتِحَانٌ لِمَنْ يَنْجُو مِنْ مَرَايَاهَا).

(وَإِذَا بِشَيْخٍ مِنْ أَهْلِ السُّلُوكِ وَاقِفٌ عَلَى صَخْرَةٍ مِنْ هَوَاءٍ، يُرَدِّدُ): [147]
- مَا ضَلَّ السَّالِكُ إِلَّا حِينَ اعْتَقَدَ أَنَّ الطَّرِيقَ خَارِجَهُ، وَمَا ضَاعَ إِلَّا حِينَ ظَنَّ أَنَّ اسْمَهُ لَا يَتَبَدَّلُ.
يَا إِيكارُ.. كُلُّ جَنَاحٍ مَجَازٌ، وَالسُّقُوطُ أَيْضًا صَلَاةٌ.
فَتَجَلَّتْ لِلرُّوحِ سَبْعُ سَمَاوَاتٍ:
سَمَاءٌ لِلْحُرَّاسِ التَّائِبِينَ،
وَسَمَاءٌ لِلذِّئَابِ الَّتِي صَارَتْ رُعَاةً،
وَسَمَاءٌ لِلْمَخْطُوطَاتِ الَّتِي تَنْسَخُ نَفْسَهَا،
وَسَمَاوَاتٌ أُخْرَى لَا تُرَى إِلَّا لِمَنْ فَقَدَ اسْمَهُ.
(يَكْتَشِفُ الْقَارِئُ أَنَّ الْخَطَّ يُشْبِهُ تَمَامًا خَطَّ الْفُوتُوغْرَافِيِّ فِي دَفَاتِرِهِ، وَأَنَّ بَعْضَ الْكَلِمَاتِ مَنْقُوشَةٌ بِحِبْرٍ دَقِيقٍ لَا يُرَى إِلَّا عِنْدَ إِمَالَةِ الصَّفْحَةِ، كَأَنَّهَا كِتَابَةٌ سِرِّيَّةٌ مِنْ كُتُبِ الْعِرْفَانِ الْقَدِيمَةِ):
- أَنْتَ سَتَكُونُ الْعَابِرَ.

تَرْنِيمَةٌ

## (5)
## انْكِشَافُ الْحِجَابِ الْخَامِسِ
(الْقِيَامَةُ النَّصِّيَّةُ لِلْقَارِئِ - طَقْسٌ يُتْلَى وُقُوفًا).

تَهْتَزُّ الصَّفْحَةُ، فَتَسْقُطُ وَرَقَةٌ دَقِيقَةٌ مُرَقَّشَةٌ كَالْمَخْطُوطَاتِ الْعَتِيقَةِ.

---

[147]- **هَامِشُ الزَّائِرِ اللَّيْلِيِّ الَّذِي لَا يَتْرُكُ أَثَرًا**

(عَنْ شَيْخٍ مَجْهُولٍ)

(فِي اللَّيَالِي الدَّقِيقَةِ، يَزُورُكَ كَائِنٌ بِلَا صَوْتٍ... يَقْتَرِبُ مِنْ سَرِيرِكَ، وَلَا يَفْعَلُ شَيْئًا... سِوَى أَنَّهُ يَرَى)

**الْهَامِشُ الْمُخْفِيُّ دَاخِلَ الْهَامِشِ:**

(إِنِ اسْتَيْقَظْتَ فَجْأَةً وَشَعَرْتَ بِأَنَّ أَحَدًا غَادَرَ الْغُرْفَةَ... فَهُوَ ظِلُّكَ يَشُقُّ لِنَفْسِهِ طَرِيقًا فَوْقَ جَسَدِكَ)

اسْتَيْقَظَ الْجُنْدِيُّ الْجَرِيحُ لِيَقُولَ:
- يَا أَيُّهَا الدَّاخِلُونَ إِلَى مُتَاهَةِ الْحِبْرِ، ارْفَعُوا قُلُوبَكُمْ.
وَاسْتَيْقَظَتْ جَوْقَةُ الْأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ لِتَقُولَ:
- التَّعْبِيرُ سَبَقَ الْكَلِمَةَ الْإِلٰهِيَّةَ.
وَاسْتَيْقَظَ الْفُوتُوغْرَافِيُّ الْعَجُوزُ لِيَقُولَ:
- لَقَدْ عَبَرَ إِيكارُ بَوَّابَةَ الظِّلِّ، فَصَارَ وُجُوهًا عَدِيدَةً، وَصَارَ أَنْتُمْ... فَهَلْ تَقْبَلُونَ الْمِيثَاقَ الْجَدِيدَ؟
فَرَدَّتْ جَوْقَةُ الْأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:
- نَقْبَلُ أَنْ نُبْعَثَ مَعَ التَّرَانِيمِ الَّتِي كَتَبَهَا الْمُعَلِّمُونَ الرُّوحِيُّونَ.
وَاسْتَيْقَظَ الْمَلَاكُ الْأَعْمَى لِيَقُولَ:
- سَلَامٌ عَلَى مَنْ يَقْرَأُ، سَلَامٌ عَلَى مَنْ يُضَيِّعُ الطَّرِيقَ، سَلَامٌ عَلَى مَنْ يَعْثُرُ عَلَى مِرْآتِهِ فِي آخِرِ السَّطْرِ.
وَاسْتَيْقَظَ إِيكار مِنْ رُؤْيَا طَوِيلَةٍ، فَوَجَدَ فِي حِضْنِهِ كِتَابًا بِعُنْوَانِ:
**(إِيكار. لِيتُورْجِيَا شِعْرِيَّةٌ لِلْعَابِرِينَ بَيْنَ الظِّلَالِ)**
فَتَحَ الصَّفْحَةَ الْأُولَى، فَرَأَى وَجْهَكَ أَنْتَ. أَيُّهَا الْقَارِئُ. مُنْعَكِسًا عَلَى الْهَامِشِ، كَأَنَّهُ نَقْشٌ عَلَى مَاءٍ.
وَسَمِعَ صَوْتًا يَقُولُ:
- لَا تُغْلِقِ الْكِتَابَ، لِأَنَّكَ أَنْتَ مُتِمُّهُ.

تَرْنِيمُ

## (6)
## انْكِشَافُ الْحِجَابِ السَّادِسِ
(الْمُتَاهَةُ النَّصِّيَّةُ)

فِي خَاتِمَةِ الْمَخْطُوطِ صَفْحَةٌ بَيْضَاءُ تَمَامًا...
تَظْهَرُ عَلَيْهَا عِبَارَةٌ لَا تُرَى إِلَّا إِذَا وُضِعَ الْكِتَابُ أَمَامَ نَارٍ صَغِيرَةٍ، عِبَارَةٌ تَبْرُقُ مُبَاشَرَةً فِي ذِهْنِ مَنْ يَقْرَأُ:
- الْمُتَاهَةُ لَا تَنْتَهِي... إِنَّهَا تُسَلِّمُكَ إِلَى بِدَايَةٍ تَعْرِفُكَ أَكْثَرَ مِمَّا تَعْرِفُ نَفْسَكَ.
تَنْطَفِئُ الصَّفْحَةُ...

وَتُنْفَتَحُ بَوَّابَةٌ خَلْفَ الْقَارِئِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَلْتَفِتَ.[148]
وَيَشْعُرُ بِأَنَّ يَدًا خَفِيفَةً. يَدَ إِيكارَ نَفْسِهِ. تَدْعُوهُ إِلَى الْعُبُورِ.

2

## بَيْنَ الظِّلَالِ وَالْخُطُوَاتِ
### (نَشِيدُ الْوِلَادَةِ الثَّانِيَةِ)

## النِّهَايَةُ كَمَا يَرَاهَا ظِلُّ الْأَبِ

(خَشَبَةٌ وَاسِعَةٌ / ضَوْءٌ شَاحِبٌ يَمْتَدُّ مِنَ الْأَعْلَى وَالْأَسْفَلِ / صَوْتُ الرِّيحِ يَتَسَلَّلُ بَيْنَ الْحَوَافِّ / إِيكارُ يَقِفُ فِي مُنْتَصَفِ الْمَسْرَحِ، وَجَسَدُهُ مُضَاءٌ بِخُطُوطِ خَرِيطَةٍ مُتَوَهِّجَةٍ / جَوْقَةُ الْأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ تَتَحَرَّكُ حَوْلَهُ كَأَصْوَاتِ الظِّلَالِ).

**جَوْقَةُ الْأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ** *(بِصَوْتٍ جَمَاعِيٍّ عَمِيقٍ):*
هُوَ ذَا... السَّاقِطُ الَّذِي لَمْ يَمُتْ.
عَادَ وَمَعَهُ فَوْضَى الْجِهَاتِ، كَأَنَّ الْأَرْضَ تَرَكَتْ تَحْتَ قَدَمَيْهِ اعْتِرَافَاتِهَا:
حَدَائِقَ لَمْ تَكْتَمِلْ،
وَأَنْهَارًا لَنْ تَسْتَرِيحَ،

---

148- **هَوَامِشُ خَفِيَّةٌ إِلَى قَارِئِ الْمُسْتَقْبَلِ:**

(عَثَرَ الْعُلَمَاءُ عَلَى هَذِهِ الشَّذَرَاتِ فِي حَافَّةِ الصَّفْحَةِ الثَّالِثَةِ مِنْ هَذَا السِّفْرِ، مَنْقُوشَةً بِمَادَّةٍ لَا تُشْبِهُ الْحِبْرَ):

* (أَيُّهَا الْقَارِئُ، إِنْ فَتَحْتَ هَذَا السِّفْرَ، فَاعْلَمْ أَنَّكَ لَمْ تَعُدْ وَحْدَكَ).
* (ثَمَّةَ ظِلٌّ يُرَاقِبُكَ الْآنَ، يَنْتَظِرُ أَنْ تَكْتُبَ أَنْتَ أَيْضًا).
* (احْذَرْ... الْكِتَابَةُ عَدْوَى).

وَأَرْضًا تَبْحَثُ عَنْ شَكْلِهَا الْأَخِيرِ...
قِفْ، أَيُّهَا السَّاقِطُ الصَّاعِدُ،
تَذَكَّرْ أَنَّنَا نَرَاكَ،
وَنَسْمَعُ خُطُوَاتِكَ،
وَنَحْسِبُ نَبْضَكَ عِنْدَ كُلِّ مُنْعَطَفٍ.
أَرْضُكَ الْجَدِيدَةُ لَمْ تُعْلَنْ بَعْدُ،
وَالسَّمَاءُ تُرَاقِبُكَ،
وَالْبَحْرُ يَحْتَفِظُ بِحَقِّهِ فِي كُلِّ مَوْجَةٍ.

**إيكار** *(يَرْفَعُ يَدَيْهِ):*
هَا أَنَا ذَا...
خَرِيطَتِي عَلَى جَسَدِي...
كُلُّ نَدْبَةٍ طَرِيقٌ،
وَكُلُّ جُرْحٍ نَهْرٌ...
يَا جِرَاحِي...
يَا خَوَاتِمَ النَّارِ...
انْفَتِحُوا،
فَالْخَرِيطَةُ تُرِيدُ أَنْ تُولَدَ...
وَلٰكِنْ...
أَيْنَ أَبْدَأُ الْمَشْوَارَ الثَّانِيَ؟
*(تَدْخُلُ الْغَيْمَةُ الْمُهَاجِرَةُ مِنْ أَعْلَى الْمَنْصَّةِ / تَنْزِلُ بِهَيْئَةٍ بَشَرِيَّةٍ / ثَوْبُهَا فِضِّيٌّ / وَخُطُوَاتُهَا قَطَرَاتٌ).*

**الْغَيْمَةُ الْمُهَاجِرَةُ:**
أَتَيْتُكَ يَا إِيكار،
بِأَثْقَالٍ مِنْ مَطَرٍ أَخْفَيْتُهُ دُهُورًا.
كُنْتُ وَاحِدَةً مِنَ الشُّهُودِ عَلَى سُقُوطِكَ،
لٰكِنَّنِي أَخْطَأْتُ حِينَ ظَنَنْتُ أَنَّ الظِّلَّ يَكْفِي لِإِنْقَاذِ جَنَاحٍ مُرْهَقٍ.

**إيكار** *(بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ يَتَصَاعَدُ):*

لَقَدْ حَمَلْتُ السَّمَاءَ عَلَى قَدَمَيَّ،
وَرَكَضْتُ كَيْ أُعِيدَ تَرْتِيبَ الْمُدُنِ فِي صَدْرِي،
وَلٰكِنَّ الظِّلَّ يَصْرُخُ...
وَالطُّفُولَةُ الَّتِي فَقَدْتُهَا تَسْتَيْقِظُ فِي وَجْهِي،
تَسْأَلُنِي:
لِمَاذَا تَرَكْتَنِي؟
أَبْحَثُ عَنِ الْحُرِّيَّةِ،
لٰكِنَّ الْحُرِّيَّةَ تَخْتَبِئُ فِي ثَنَايَا الذَّاكِرَةِ،
بَيْنَ ضَحْكَةٍ ضَائِعَةٍ،
وَصَمْتِ الْأَبِ،
وَالْمَطَرِ الَّذِي لَمْ يَسْقِ جَسَدِي.

*(ضَوْءٌ أَبْيَضُ يَنْهَمِرُ كَخَيْطٍ مَكْسُورٍ / يَدْخُلُ الْمَلَاكُ الْأَعْمَى، وَفِي يَدِهِ عَصًا مِنْ نُورٍ تَلْمَعُ وَتَنْطَفِئُ).*

**الْمَلَاكُ الْأَعْمَى:**
يَا ابْنَ الصُّعُودِ الْخَاسِرِ،
هَلْ تَسْمَعُ وَقْعَ قَدَمَيَّ؟
أَنَا الَّذِي كُنْتُ دَلِيلَ الرِّيحِ،
أَصْبَحْتُ أَتَلَمَّسُ الْأَرْضَ كَأَعْمَى يَتَفَحَّصُ صَدْرَ الْغَيْبِ.

**إِيكار:**
دُلَّنِي إِنِ اسْتَطَعْتَ.
خَرَجْتُ مِنَ الْبَحْرِ بِجَسَدٍ يَحْمِلُ مُدُنًا لَا أَعْرِفُ أَسْمَاءَهَا.

**الْمَلَاكُ الْأَعْمَى:**
الْخَرِيطَةُ لَيْسَتْ أَرْضًا،
إِنَّهَا النَّدْبَةُ الَّتِي تُقَرِّرُ أَنْ تَتَحَوَّلَ طَرِيقًا.
امْشِ...
فَالْأَرْضُ الْآنَ تَكْتُبُ نَفْسَهَا بِكَ.

*(الْغَيْمَةُ الْمُهَاجِرَةُ تَتَسَلَّلُ مِنْ فَوْقَ، وَتَتَرَاقَصُ مَعَ الرِّيحِ / الْمَلَاكُ الْأَعْمَى يَلْمِسُ الْهَوَاءَ أَمَامَهُ).*

**الْغَيْمَةُ الْمُهَاجِرَةُ:**
إِيكار...
لَا تُخْطِئْ بَيْنَ الْهُرُوبِ وَالتَّحَوُّلِ.
الْهُرُوبُ يُغْلِقُ الْأَبْوَابَ،
أَمَّا التَّحَوُّلُ...
فَيُرَتِّبُ النُّدُوبَ فِي جَسَدِكَ خَرِيطَةً،
وَيُرْشِدُ كُلَّ خُطْوَةٍ إِلَى مَا يَسْبِقُهَا.

**الْمَلَاكُ الْأَعْمَى:**
انْظُرْ إِلَى الدَّاخِلِ...
الْحَدْسُ هُوَ الطَّرِيقُ،
وَلَا شَيْءَ سِوَاهُ.
الظِّلَالُ الَّتِي تَرَاهَا لَيْسَتْ إِلَّا إِشَارَاتٍ...
فَالْأَرْضُ تُرِيدُكَ أَنْ تَسْمَعَهَا،
وَالسَّمَاءُ تُرِيدُكَ أَنْ تَشْعُرَ بِهَا،
وَالْبَحْرُ يُرِيدُ أَنْ يَعْرِفَ:
هَلْ أَنْتَ جَدِيرٌ بِالْمُرُورِ؟

**إِيكار:**
وَأَنَا...
أَأَسْتَطِيعُ أَنْ أَتَحَوَّلَ أَكْثَرَ؟

**الْمَلَاكُ الْأَعْمَى:**
أَنْتَ الْآنَ خَرِيطَةٌ تَمْشِي.
كُلُّ خُطْوَةٍ مِنْكَ تُوَلِّدُ طُرُقًا جَدِيدَةً،
وَكُلُّ جُرْحٍ يَحْمِلُ قَرْيَةً صَغِيرَةً،
وَكُلُّ خَوْفٍ...
جَنَاحًا آخَرَ.

*(يَرْكُضُ طِفْلٌ صَغِيرٌ مِنْ خَلْفِ الشَّمْسِ / خُطُوَاتُهُ خَفِيفَةٌ، لَكِنَّهُ يَتْرُكُ أَثَرًا مَرْسُومًا عَلَى الضَّوْءِ).*

**الطِّفْلُ الدَّاخِلِيُّ:**
- لِمَاذَا تَرَكْتَ بَابِي مُغْلَقًا؟ أَيْنَ النَّجَاةُ؟ أَيْنَ تِلْكَ الْأَرْضُ الَّتِي تَتَحَدَّثُ عَنْهَا خَرِيطَتُكَ؟ أَنَا أَيْضًا أَرْكُضُ، وَأَهْرُبُ مِنْ رِجَالٍ لَا يَعْرِفُونَ الرَّحْمَةَ، لٰكِنَّهُمْ يُرَاقِبُونَنِي، وَيَسْأَلُونَ عَنْ كُلِّ نَفَسٍ أَتَنَفَّسُهُ.

**إيكار** *(يَنْحَنِي نَحْوَهُ):*
- يَا صَغِيرِي... كُلُّ خُطْوَةٍ نَخْطُوهَا دَرْسٌ، وَكُلُّ خَوْفٍ نَتْرُكُهُ خَلْفَنَا يَصِيرُ جَنَاحًا نُحَلِّقُ بِهِ فَوْقَ الْمَخَاوِفِ.

**الطِّفْلُ الدَّاخِلِيُّ:**
- وَإِذَا لَمْ نَجِدِ الْمَكَانَ بَعْدُ؟

**إيكار:**
- سَنَصْنَعُهُ... بِخُطْوَةٍ... بِخُطْوَةٍ... بِخُطْوَةٍ...
*(تَتَقَدَّمُ جَوْقَةُ الْأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ خُطْوَةً وَاحِدَةً. الْأَصْوَاتُ كَطُبُولٍ بَعِيدَةٍ).*
**جَوْقَةُ الْأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ** *(بِصَوْتٍ جَمَاعِيٍّ):*
- أَيُّهَا الْمُقَامُ بَيْنَ السُّقُوطِ وَالسَّمَاءِ،
يَا جِسْرًا مِنْ جُرْحٍ يَلْمَعُ،
لَمْ نَعُدْ نَعْرِفُ أَيْنَ نَضَعُ خَتْمَ الْحُدُودِ.
خُطْوَتُكَ تُبَدِّلُ الصَّحْرَاءَ،
وَلَمْسَتُكَ تَفْتَحُ نَهْرًا،
وَنَظْرَتُكَ تُعِيدُ قَرْيَةً إِلَى أُمِّهَا الْأُولَى...
أَظْهِرْ لَنَا حُدُودَكَ...
لِنُوَثِّقَهَا،
وَلِنَعْتَرِفَ أَنَّ الْإِنْسَانَ، حِينَ يَسْقُطُ، قَدْ يَلِدُ عَالَمًا.
*(يَشْتَدُّ الضَّوْءُ كَأَنَّ الشَّمْسَ تُرَاقِبُهُ / يَعْلُو صَوْتُ الْبَحْرِ وَتُصَاحِبُهُ أَصْوَاتُ أَمْوَاجٍ مُخِيفَةٍ / تَدْخُلُ الشَّمْسُ، وَيَدْخُلُ بَعْدَهَا ظِلُّ الْبَحْرِ).*
**الشَّمْسُ** *(بِارْتِبَاكٍ مُتَعَمَّدٍ):*
- إيكار...
كُنْتَ تَعْتَقِدُ أَنَّكَ حُرٌّ...

وَلٰكِنَّكَ تَتَقَدَّمُ فِي نُورِي كَأَنَّنِي لُعْبَةٌ...
هَلْ تَظُنُّ أَنَّكَ تَجَاوَزْتَنِي؟

**ظِلُّ الْبَحْرِ**:
- كُلُّ خُطْوَةٍ مِنْكَ مَرْصُودَةٌ،
وَكُلُّ حَرَكَةٍ مُسَجَّلَةٌ.
وَلٰكِنْ...
فِي هٰذِهِ الْمَرَّةِ...
أَرَى أَنَّكَ تَصْنَعُ ذَاتَكَ الْكُلِّيَّةَ فِي دَاخِلِكَ.

**إيكار** *(بِثِقَةٍ)*:
- لَنْ أَهْرُبَ...
سَأَتَحَوَّلُ.
سَأَصْنَعُ أَرْضًا فِي جَسَدِي،
وَسَأُظْهِرُ لِكُلِّ مَوْجَةٍ، وَلِكُلِّ شُعَاعٍ،
أَنَّ لِي مَسَارًا لَا يَمْلِكُهُ أَحَدٌ.
*(صَوْتٌ يُشْبِهُ انْفِلَاقَ النُّورِ / إِيكَارُ يَفْتَحُ ذِرَاعَيْهِ، فَتَتَوَهَّجُ النُّدُوبُ)*
**إيكار** *(بِصَوْتٍ دَاخِلِيٍّ يَسْمَعُهُ الْجَمِيعُ)*:
- أَنَا لَسْتُ مَنْ سَقَطَ،
أَنَا مَنْ نَزَلَ لِيَجْمَعَ أَجْزَاءَ الْعَالَمِ الَّتِي أَهْمَلَتْهَا الْآلِهَةُ...
اُنْظُرِي يَا أَرْضُ،
أَنَا خَرِيطَتُكِ الْجَدِيدَةُ،
مَرْسُومَةٌ بِلَحْمٍ يَنْهَضُ مِنَ الرَّمَادِ.
*(تَتَحَرَّكُ جَوْقَةُ الْأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ بِبُطْءٍ حَوْلَ إِيكَارَ، وَتَتَدَاخَلُ أَصْوَاتُهَا مَعَ صَوْتِ الرِّيحِ وَالْمَوْجِ)*.
**جَوْقَةُ الْأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ**:
- أَيُّهَا السَّاقِطُ الصَّاعِدُ،
هَا هِيَ الْأَرْضُ تُصْغِي إِلَيْكَ،
وَالسَّمَاءُ تَنْتَظِرُ خُطُوَاتِكَ،
وَالْبَحْرُ يَهْدَأُ أَمَامَكَ...

امْضِ...
فَالْخَرِيطَةُ الَّتِي تَحْمِلُهَا فِي جَسَدِكَ تَتَّسِعُ.
كُلُّ نَدْبَةٍ طَرِيقٌ،
وَكُلُّ جُرْحٍ نَهْرٌ،
وَكُلُّ خُطْوَةٍ فَصْلٌ جَدِيدٌ بَيْنَ الْمَاضِي وَالْمُسْتَقْبَلِ.

*(يَصْعَدُ الضَّوْءُ / يَتَحَلَّقُ ظِلُّ الْبَحْرِ، وَالْغَيْمَةُ الْمُهَاجِرَةُ، وَالْمَلَاكُ الْأَعْمَى، وَجَوْقَةُ الْأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ حَوْلَ إِيكَارَ كَشُهُودٍ / يَفْتَحُ إِيكَارُ ذِرَاعَيْهِ / يَغْمُرُ الضَّوْءُ جَسَدَهُ / تُحِيطُ بِهِ الْغَيْمَةُ كَحِجَابٍ خَفِيفٍ / يَمُدُّ الْمَلَاكُ عَصَاهُ نَحْوَ السَّمَاءِ / وَيَقِفُ الطِّفْلُ الدَّاخِلِيُّ إِلَى جَانِبِهِ).*

**إيكار** *(بِصَوْتٍ دَاخِلِيٍّ)*:
- لَقَدْ تَحَوَّلَ جَسَدِي...
لَمْ أَعُدْ إِنْسَانًا فَقَطْ،
وَلَا أَرْضًا فَقَطْ.
أَنَا خَرِيطَةٌ تَمْشِي،
كُلُّ خُطْوَةٍ فِيهَا بَلَدٌ،
وَكُلُّ خَوْفٍ جَنَاحٌ...
سَأَمْضِي...
فَالرِّحْلَةُ الثَّانِيَةُ تَبْدَأُ الْآنَ،
بَيْنَ الظِّلَالِ وَالْخُطُوَاتِ،
بَيْنَ الْحُرِّيَّةِ وَالْمَنْفَى.

**جَوْقَةُ الْأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:**

هٰكَذَا...
لَمْ يُولَدْ إِيكَارُ مِنْ جَدِيدٍ،
وُلِدَتْ مِنْهُ الْأَرْضُ.
أَرْضٌ لَا شَمَالَ فِيهَا يَتَجَمَّدُ،
وَلَا جَنُوبَ فِيهَا يَعْتَذِرُ،
وَلَا حُدُودَ تَخْشَى السَّيْرَ.

صَارَ جَسَدُهُ خَرِيطَةً،
وَصَارَتْ خُطْوَتُهُ نَشِيدًا،
وَمِنْ جُرْحِهِ خَرَجَتِ الْجِهَاتُ الْأَرْبَعُ،
بَاحِثَةً عَنِ الْأَسْمَاءِ الَّتِي تَسْتَحِقُّهَا.

**(إِظْلَامٌ بَطِيءٌ.**
**صَوْتُ الرِّيحِ...**
**وَصَوْتُ جَنَاحٍ يَمُرُّ...**
**وَجَوْقَةُ الْأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ تَخْتَفِي تَدْرِيجِيًّا).**

3

# بابُ الانْشِقاقِ

(ظِلُّ الفوتوغرافي)

## النِّهايَةُ كما يراها المَلَاكُ الأَعْمَى

حينَ دَخَلَ ظِلُّ الفوتوغرافي البابَ الحَجَرِيَّ، انْسَكَبَ الضَّوءُ عَلَيْهِ كالْماءِ... لٰكِنَّ الضَّوْءَ لَمْ يَكُنْ أَبْيَضَ... كانَ ذا لَوْنٍ لا يَعْرِفُهُ البَشَرُ: لَوْنُ الزَّمَنِ حينَ يَنْعَطِفُ عَلَى ذاتِهِ... تَقَدَّمَ خُطْوَةً... فَوَجَدَ الأَرْضَ تَحْتَهُ تَتَلَاشَى، وَالسَّماءَ تَتَبَدَّلُ، كَأَنَّهُ يَعْبُرُ مِنْ قِشْرَةِ العالَمِ إِلَى عَظَمَتِهِ الدَّاخِلِيَّةِ... سَمِعَ وَقْعَ خُطُواتٍ يَأْتِيهِ مِنْ يَمِينِهِ... فَاسْتَدَارَ... فَرَأَى الفوتوغرافِيَّ العَجُوزَ... كانَ يُمْسِكُ كاميرا قَدِيمَةً، لٰكِنَّ عَيْنَيْهِ كانَتا شابَّتَيْنِ إِلَى حَدٍّ مُخِيفٍ... ابْتَسَمَ الفوتوغرافِيُّ ابْتِسامَةً مَجْرُوحَةً، وَقالَ:

- تَأَخَّرْتَ أَيُّهَا الظِّلُّ... كُنْتُ أَنْتَظِرُكَ مُنْذُ الصُّورَةِ الأُولَى.

اقْتَرَبَ الظِّلُّ وَقالَ:

- مَنْ أَنْتَ؟ وَلِماذا تُشْبِهُنِي؟ وَلِماذا أَعْرِفُ صَوْتَكَ؟

ضَحِكَ الفوتوغرافِيُّ كَمَنْ يَضْحَكُ عَلَى جُمْلَةٍ سَمِعَها أَلْفَ مَرَّةٍ:

- أَنَا أَنْتَ، حِينَ تَلْتَفِتُ إِلَى حَياتِكَ لِتُوَثِّقَها عِوَضَ أَنْ تَحْياها... أَنَا الفوتوغرافيُّ الَّذِي صارَ شاهِدًا، لا فاعِلًا... أَنْتَ حِينَ تَهْرُبُ مِنَ الذَّنْبِ إِلَى الذَّاكِرَةِ.
رَفَعَ كاميرَتَهُ وَالْتَقَطَ لَهُ صُورَةً، لٰكِنَّ الفَلاشَ لَمْ يُضِئْ... فَارْتَجَّ المَكانُ كُلُّهُ، كَأَنَّ الزَّمَنَ الْتَقَطَ صُورَةً لِنَفْسِهِ.

4

عَوْدَةُ النَّدْبَةِ إِلَى الجَسَدِ

## النِّهايَةُ كما يراها الجُنْدِيُّ الجَرِيحُ

نَشِيدُ العُبُورِ وَعَوْدَةُ إيكار فِي هَيْئَةٍ جَدِيدَةٍ، حَيْثُ تَنْعَقِدُ الأَصْواتُ وَيَجْتَمِعُ الماضِي بِالحاضِرِ
فِي بَرْزَخٍ تَتَكَلَّمُ فِيهِ الظِّلالُ أَكْثَرَ مِنَ الأَحْياءِ.

١

## صَوْتُ النَّاسِخِ المَجْهُولِ

كانَ الفَجْرُ يُطِلُّ عَلَى خَرائِبِ اللَّيْلِ مِثْلَ شاهِدٍ خَرَجَ تَوًّا مِنْ قاعَةِ تَحْقِيقٍ، يَمْسَحُ عَنْ كَتِفَيْهِ رَمادَ الأَسْئِلَةِ، وَيُفَتِّشُ فِي ثَنايا الهَواءِ عَنْ أَثَرِ قَدَمَي إيكار، وَقَدْ سالَتْ مِنْهُما الحُدُودُ كَما يَسِيلُ المِلْحُ مِنْ جُرْحٍ مَفْتُوحٍ... لَمْ يَعُدْ أَحَدٌ يُصَدِّقُ أَنَّهُ ماتَ... لَمْ يَعُدْ أَحَدٌ يَعْرِفُ أَيْنَ سَقَطَ... مَرَّتِ الذِّئابُ، وَمَرَّ العَسْكَرُ، وَمَرَّتِ الكاميراتُ، وَمَرَّ صَمْتُ الحِكايَةِ، وَلٰكِنَّ جَسَدَهُ ظَلَّ يَنْهَضُ كُلَّ مَساءٍ فِي حِكاياتِ المَرْأَةِ الَّتِي رَأَتْ ظِلَّهُ مُنْتَصِبًا فَوْقَ التِّلالِ، كَأَنَّهُ مَنارَةٌ تَحْرُسُ اللاجِئِينَ.

## ٢

**جَوْقَةُ الأَرْواحِ التَّائِهَةِ** (هَمْهَمَةُ العائِدِينَ بِلا جَسَدٍ)

أَيُّهَا العابِرُونَ مِنْ لَحْمٍ غَرِيبٍ، هٰذا هُوَ المَنْفَى الَّذِي يَشْرَبُ قُلُوبَكُمْ قَطْرَةً قَطْرَةً. مَنْ يَمْلِكُ أَنْ يَعُودَ؟ وَمَنْ يَمْلِكُ أَنْ يَتَخَلَّى عَنْ اسْمِهِ؟ كُلُّ جَناحٍ سَقَطَ، وَكُلُّ قَدَمٍ رَكَضَتْ فَوْقَ الأَسْلاكِ الشَّائِكَةِ، تَحْمِلُ الآنَ طَبْعَةَ الشَّمْسِ وَنَقْشَ البَحْرِ عَلَى العَظْمِ.

## ٣

**صَوْتُ المَلَاكِ الأَعْمَى**

رَأَيْتُهُ... نَعَمْ، رَأَيْتُ ما لا يُرَى... إِنَّ العَمَى نافِذَةٌ بِلا إِطارٍ... عادَ إيكارُ إِلَيَّ فِي لَيْلٍ يُشْبِهُ طَيَّ صَفْحَةٍ مُبْتَلَّةٍ، وَقَدْ نُفِضَ عَنْ جَسَدِهِ كَلامُ القَتَلَةِ كَما تُنْفَضُ سَنابِلُ القَمْحِ مِنَ التُّرابِ. لَمْ يَعُدْ يَطْلُبُ العُبُورَ... صارَ هُوَ العُبُورَ. تَغَيَّرَتْ قَدَماهُ، فَلَمْ تَعُودا تَرْكُضانِ... تَكْتُبانِ عَلَى التُّرابِ خَرِيطَةً تُقْرَأُ فِي العَتَمَةِ:

- كُلُّ طَرِيقٍ يُسَمَّى وَطَنًا ما دامَ القَلْبُ يُواصِلُ السَّيْرَ.

## ٤

**الفوتوغرافِيُّ العَجُوزُ** (الصُّورَةُ الَّتِي عادَتْ وَحْدَها)

الْتَقَطْتُ آخِرَ صُورَةٍ لَهُ حِينَ كانَ ظِلُّهُ يَسْبِقُ جَسَدَهُ كَمَنْ يَعْرِفُ وِجْهَتَهُ. وَمُنْذُ تِلْكَ اللَّحْظَةِ، وَالكاميرا تَرْفُضُ الإِغْلاقَ. كُلَّما أَطْبَقْتُها سَطَعَ الضَّوْءُ مِنْ بَيْنِ مَفاصِلِها، كَأَنَّهُ قَلْبٌ يَسْتَعِيدُ نَبْضَهُ. صُورَتُهُ اليَوْمَ تَتَغَيَّرُ فِي اللَّيْلِ: تَمُدُّ قَدَمَيْها خارِجَ الإِطارِ، وَتَتَسَلَّقُ الجِدارَ، وَتَقِفُ فِي زاوِيَةِ الغُرْفَةِ، كَأَنَّها تَنْتَظِرُ أَنْ أَقُولَ لَها الحَقِيقَةَ: هُوَ لَمْ يَمُتْ، إِنَّما عادَ إِلَى الزَّمَنِ فِي هَيْئَةِ سُؤالٍ لا يَهْدَأُ.

## ٥

**الغَيْمَةُ المُهاجِرَةُ** (الماءُ فَوْقَ جُثَّةِ الطَّرِيقِ)

رَأَيْتُهُ مِنْ فَوْقُ، كَأَنَّهُ أُفُقٌ انْشَطَرَ. لَمْ تَفْتَرِسْهُ الذِّئابُ، وَلَمْ تُكْمِلِ المَخافِرُ عَمَلَها، افْتَرَسَهُ الطَّرِيقُ نَفْسُهُ الَّذِي حَمَلَهُ يَوْمًا. كانَ الطَّرِيقُ غاضِبًا، مُلْتَوِيًا كَجَسَدٍ يَرْفُضُ أَنْ

يَشِيخَ، فَالْتَهَمَ خُطاهُ، وَتَرَكَ سَحابَةً صَغِيرَةً تَهِيمُ فَوْقَ المَكانِ، كَأَنَّها شَهادَةُ مِيلادٍ مَزَّقَتْها الرِّيحُ. أَنا غَيْمَةٌ بِلا عُنْوانٍ... أَعْرِفُ أَنَّ الأَجْسادَ تَمُوتُ، لٰكِنَّ الخُطُواتِ لا تَمُوتُ، فَهِيَ البُذُورُ الَّتِي تُواصِلُ صُعُودَها فِي لَيْلِ المُسافِرِينَ.

٦

**ظِلُّ الأَبِ** (اعْتِرافٌ مُؤَجَّلٌ)

يا بُنَيَّ، يا مَنْ فَتَّشْتُ عَنْهُ فِي كُلِّ وَرَقَةٍ، وَفِي كُلِّ قائِمَةِ مَفْقُودِينَ... لَمْ أَعُدْ أَعْرِفُ: أَأَنا ظِلُّكَ أَمْ أَنْتَ ظِلِّي؟ لَقَدْ وَرِثْتَ مِنِّي الخَوْفَ، وَرِثْتَهُ كَما يَرِثُ المَرْءُ مَرَضًا قَدِيمًا، لٰكِنَّكَ حِينَ رَكَضْتَ، خَلَعْتَ نِصْفَ اللَّيْلِ عَنْ ظَهْرِي، وَتَرَكْتَنِي أَرَى السَّماءَ مَرَّةً واحِدَةً بِلا قَفَصٍ. لَمْ أَعُدْ أَحْزَنُ عَلَيْكَ، فَالحُزْنُ أَنْ تَبْقَى، لا أَنْ تَرْحَلَ. أَمَّا الرَّحِيلُ فَهُوَ ساعَةُ الوِلادَةِ الصَّحِيحَةِ.

٧

**صَوْتُ النَّاسِخِ المَجْهُولِ**

هٰكَذا عادَ إيكارُ، لا بِقَدَمَيْنِ، وَلا بِصُورَةٍ، وَلا بِظِلٍّ أَوْ غَيْمَةٍ... عادَ فِي اللُّغَةِ نَفْسِها، فِي الرَّمْلِ الَّذِي يَرْفُضُ أَنْ يَبْقَى صامِتًا، وَفِي الطَّرِيقِ الَّذِي يَتَشَوَّفُ إِلَى قَدَمِهِ القادِمَةِ. كُلُّ مَنْ يَمُرُّ مِنْ هُنا يَشْعُرُ بِأَنَّ الهَواءَ أَخَفُّ قَلِيلًا، وَبِأَنَّ الخَوْفَ مَشْقُوقٌ مِنَ الأَعْلَى، كَأَنَّ جَناحَيْنِ عَبَرا مِنْهُ مُنْذُ لَحْظَةٍ فَقَطْ. هٰكَذا تَبْدَأُ العَوْدَةُ: بِتَرْكِ أَثَرٍ يَقْوَى فِي اللَّيْلِ حَتَّى يُصْبِحَ وَطَنًا.

5

# حَيْثُ تَتَقَاطَعُ الأَرْوَاحُ وَتُبْعَثُ الخَرِيطَةُ مِنْ رَمادِها

## النِّهايَةُ كما يَراها النَّاسِخُ السِّرِّيُّ

### المَدْخَلُ إِلَى الدَّائِرَةِ الكُبْرَى

(هٰكَذا، بَعْدَ أَنْ اجْتَمَعَتْ كُلُّ وُجُوهِ إيكار فِي ذاتِهِ الواحِدَةِ، تَبَدَّدَتِ الطَّبَقاتُ، وَتَلاشَتِ الحُدُودُ، وَلٰكِنَّ الطَّرِيقَ لَمْ يَنْتَهِ... إِنَّما بَدَأَ فِي شَكْلٍ أَعْمَقَ: دائِرَةٌ لا تَعْرِفُ البِدايَةَ وَلا النِّهايَةَ، دائِرَةٌ تَحْتَضِنُ كُلَّ اللَّيْلِ وَالفَجْرِ، وَكُلَّ العَطَشِ وَالحِراسَةِ، وَكُلَّ الظِّلالِ وَالوُجُوهِ. صارَ كُلُّ شَيْءٍ انْعِكاسًا داخِلِيًّا: الفوتوغرافِيُّ العَجُوزُ هُوَ الذَّاكِرَةُ، وَالمَلاكُ الأَعْمَى هُوَ الحَدْسُ، وَالجُنْدِيُّ الجَرِيحُ هُوَ القانُونُ وَالقَدَرُ، وَجَمِيعُهُمْ أَصْبَحُوا أَنا واحِدًا، وَكُلُّ عابِرٍ هُوَ انْعِكاسٌ لِإيكار نَفْسِهِ).

1

### النُّبُوءَةُ الأُولَى (الوَعْيُ الذَّاتِيُّ)

- إِنَّ كُلَّ مَنْ يَعْبُرُ هٰذِهِ الدَّائِرَةَ يَعْرِفُ أَنَّ كُلَّ عُبُورٍ وَهْمٌ، وَأَنَّ كُلَّ الحُدُودِ صَنْعَةُ الذَّاتِ، وَأَنَّ كُلَّ الظِّلالِ الَّتِي تُطارِدُكَ لَيْسَتْ سِوَى إِشاراتٍ إِلَى ذاتِكَ الغائِبَةِ... وَفِي كُلِّ خُطْوَةٍ يُسْمَعُ صَدَى الأَصْواتِ:

أَصْواتُ مَنْ فِي الطَّبَقاتِ السُّفْلِيَّةِ،

وَأَرْواحُ السَّاهِرِينَ عَلَى العَطَشِ،

وَالواقِفِينَ فِي اللَّيْلِ،

وَالَّذِينَ يَهابُونَ الفَجْرَ.

كُلُّ صَوْتٍ يُعِيدُكَ إِلَى بِدايَتِكَ، وَيُذَكِّرُكَ أَنَّكَ كُنْتَ كُلَّ شَيْءٍ، وَأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ كانَ أَنْتَ.

2

**النُّبوءَةُ الثّانِيَةُ** (اكْتِشافُ الزَّمَنِ المُتَعَدِّدِ)

الزَّمَنُ هُنا لا يَسِيرُ خَطِّيًّا، فَكُلُّ يَقَظَةٍ، وَكُلُّ مُواجَهَةٍ، وَكُلُّ خَوْفٍ، وَكُلُّ فَجْرٍ، كانَ حاضِرًا عَلَى الدَّوامِ، مُتَواجِدًا فِي اللَّحْظَةِ نَفْسِها، وَمُتَداخِلًا فِي دائِرَةٍ لا تَنْفَصِلُ. هُنا تُدْرِكُ أَنَّ الماضِيَ وَالمُسْتَقْبَلَ وَالحاضِرَ لَيْسُوا إِلَّا ظِلالًا لِوَعْيٍ واحِدٍ، وَأَنَّ كُلَّ خُطْوَةٍ فِي الحُلْمِ أَوِ الواقِعِ هِيَ عُبُورٌ داخِلِيٌّ لاخْتِبارِ النَّفْسِ لِنَفْسِها.

3

**النُّبوءَةُ الثّالِثَةُ** (كَشْفُ القِناعِ)

فَجْأَةً، يَظْهَرُ أَمامَكَ كُلُّ مَنْ اعْتَقَدْتَ أَنَّهُ آخَرُ: الفوتوغرافِيُّ العَجُوزُ، وَالمَلَاكُ الأَعْمَى، وَالجُنْدِيُّ الجَرِيحُ. يَتَبادَلُونَ الأَدْوارَ وَالمَلابِسَ، وَيَنْكَسِرُ القِناعُ، فَنَكْتَشِفُ جَمِيعًا أَنَّهُمْ إيكارُ فِي وُجُوهٍ مُتَعَدِّدَةٍ... الصَّمْتُ هُنا هُوَ اللُّغَةُ، وَالصِّراعُ مَعَ الحُدُودِ هُوَ الصَّلاةُ، وَالخَوْفُ مِنَ الفَجْرِ هُوَ سِرُّ التَّجْرِبَةِ الكامِلَةِ، وَالوَعْيُ هُوَ الخِتامُ وَالوِلادَةُ مَعًا.

4

**النُّبوءَةُ الرّابِعَةُ** (الوِلادَةُ المُتَكَرِّرَةُ)

فِي مُنْتَصَفِ الدّائِرَةِ يَرَى العابِرُ نَفْسَهُ: الطِّفْلَ الدّاخِلِيَّ، وَظِلَّ البَحْرِ، وَجَوْقَةَ الذِّئابِ، وَرِجالَ المَخافِرِ، كُلُّهُمْ تَجَمَّعُوا فِي لَحْظَةٍ واحِدَةٍ لِيُصْبِحُوا صُورَةً كامِلَةً لإيكار الحَقِيقِيِّ: كائِنٌ يَحْمِلُ كُلَّ الهُرُوبِ، وَكُلَّ الحُرِّيَّةِ، وَكُلَّ القُيُودِ، وَيَعْرِفُ أَنَّ كُلَّ نِهايَةٍ هِيَ بِدايَةٌ، وَأَنَّ كُلَّ بِدايَةٍ هِيَ نِهايَةٌ.

5

**النُّبوءَةُ الخامِسَةُ** (الرُّؤْيا)

تُفْتَحُ بَوّابَةُ الضَّوْءِ كَإِدْراكٍ داخِلِيٍّ، فَالحُدُودُ لَيْسَتْ خارِجِيَّةً، وَلا المَخافِرُ، وَلا الشَّمْسُ، وَالمَوْتُ لَيْسَ نِهايَةً، إِنَّما هُوَ مَرْحَلَةُ إِدْراكٍ داخِلِيٍّ لِلذّاتِ الكامِلَةِ... هُنا يَعْرِفُ العابِرُ أَنَّهُ شاهِدٌ وَفاعِلٌ فِي الوَقْتِ نَفْسِهِ، وَأَنَّ كُلَّ الرِّحْلَةِ، وَكُلَّ الرُّمُوزِ، وَكُلَّ

الأَناشِيدِ، وَكُلَّ الكُتُبِ الطَّقْسِيَّةِ، وَكُلَّ المَخْطُوطاتِ، هِيَ جُزْءٌ مِنْ ذاتِهِ اللامَحْدُودَةِ، وَأَنَّ القارِئَ أَوِ العابِرَ يُصْبِحُ جُزْءًا مِنَ المُتاهَةِ نَفْسِها، وَيُعادُ اكْتِشافُهُ فِي كُلِّ دَوْرَةٍ.

6

### خاتِمَةٌ دائِرِيَّةٌ

وَهٰكَذا تَنْغَلِقُ الدَّائِرَةُ لِتَفْتَحَ كِتابًا جَدِيدًا بِداخِلِكَ: الرِّحْلَةُ مُسْتَمِرَّةٌ، لٰكِنَّها تَبْدَأُ وَتَنْتَهِي فِي اللَّحْظَةِ نَفْسِها. كُلُّ طَبَقَةٍ، وَكُلُّ فَجْرٍ، وَكُلُّ ظِلٍّ، وَكُلُّ مُراقِبٍ، وَكُلُّ مُراقِبٍ داخِلِيٍّ، يُعِيدُكَ إِلَى البِدايَةِ، لِيَشْهَدَ أَنَّ العُبُورَ كُلَّهُ، وَالرُّعْبَ كُلَّهُ، وَالعَطَشَ كُلَّهُ، وَالخَوْفَ كُلَّهُ، وَالفَجْرَ كُلَّهُ، لَيْسَتْ سِوَى وَعْيٍ واحِدٍ مُتَجَدِّدٍ، وَحُلْمٍ داخِلَ حُلْمٍ، وَنِهايَةٍ تَبْدَأُ مِنْ بِدايَتِها نَفْسِها.

6

## النَّشِيدُ

### الَّذِي يُطْفِئُ النَّارَ كَيْ يُشْعِلَ الظِّلَّ

## النِّهايَةُ كما يَراها الفوتوغرافِيُّ العَجُوزُ

١

### **صَوْتُ النَّاسِخِ المَجْهُولِ** (افْتِتاحُ القِيامَةِ الصَّغِيرَةِ)

فِي هٰذا الظَّلامِ...

فِي هٰذا الظَّلامِ الكَوْنِيِّ،

وَفِي اللَّيالِي الَّتِي مَرَّتْ عَلَى التِّلالِ، كانَتِ الأَرْضُ تَهْمِسُ كَأَنَّها تُخَزِّنُ أَنْفاسَ الرَّاحِلِينَ. لَمْ يَكُنِ اللَّيْلُ مُظْلِمًا بِما يَكْفِي، وَلَمْ يَكُنِ الفَجْرُ واضِحًا بِما يَكْفِي، كانَ كُلُّ شَيْءٍ بَيْنَ الحَالَيْنِ، كَأَنَّ العالَمَ يَتَهَيَّأُ لِفَتْحِ كِتابٍ ظَلَّ مُغْلَقًا دُهُورًا. وَفِي ذٰلِكَ الفاصِلِ، سَمِعْنا

خَفْقًا لا يُشْبِهُ أَجْنِحَةً، وَلا يُشْبِهُ خُطُواتٍ، كانَ صَوْتًا جَدِيدًا، كَأَنَّ الطَّرِيقَ أَنْجَبَ طِفْلًا يَحْمِلُ اسْمًا لَمْ يُكْتَبْ بَعْدُ.

٢

**جَوْقَةُ الأَرْواحِ التَّائِهَةِ** (مَرْثِيَّةٌ تَتَحَوَّلُ إِلَى تَرْتِيلٍ)

هُنا انْتَهَى العُبُورُ... وَهُنا بَدَأَ.

كُلُّ مَنْ ماتَ عَلَى خُطُوطِ الخَرائِطِ يَعُودُ اليَوْمَ زَفْرَةَ هَوَاءٍ، وَمَوْجَةَ ظِلالٍ، وَخُطْوَةً لا تُحاصَرُ. نُعْلِنُ أَنَّهُ لا مَوْتَ فِي الأَرْضِ الحَرامِ، هُناكَ نُسَخٌ أُخْرَى مِنَ الحَياةِ تَنْتَظِرُ اسْمًا جَدِيدًا لِكُلِّ قَدَمٍ تُجَرِّبُ الانْفِلاتَ مِنَ الأَسْلاكِ.

٣

**المَلَاكُ الأَعْمَى** (حَقِيقَةٌ لا تُقالُ إِلَّا فِي النِّهايَةِ)

كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّ مَوْتَهُ كانَ بِدايَةً.

إِنَّ العالَمَ لا يَكْتَمِلُ بِجَسَدٍ واحِدٍ، وَلٰكِنَّهُ يَبْدَأُ حِينَ يَتَحَرَّرُ جَسَدٌ واحِدٌ... إيكارُ لَمْ يَعُدْ فَرْدًا، صارَ حَرَكَةً تَسْرِي فِي العابِرِينَ، وَفِي المُهاجِرِينَ، وَفِي مَنْ يَرْفُضُونَ البَقاءَ حَيْثُ يَأْكُلُ الفَجْرُ أَسْماءَهُمْ... أَنا المَلَاكُ الأَعْمَى، وَأَشْهَدُ هٰذِهِ المَرَّةَ أَنَّ النُّورَ يَسْكُنُ الخُطْوَةَ، وَلا يَسْكُنُ العَيْنَ.

٤

**الفوتوغرافِيُّ العَجُوزُ** (ظُهُورُ الصُّورَةِ الَّتِي لَمْ تُلْتَقَطْ)

لَقَدِ انْتَظَرْتُ سِنِينَ طَوِيلَةً لِكَيْ تَظْهَرَ الصُّورَةُ الأَخِيرَةُ. كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ الكاميراتِ تَحْفَظُ ما نَلْتَقِطُهُ... لٰكِنَّنِي أُدْرِكُ الآنَ أَنَّها تَحْفَظُ ما لَمْ نَلْتَقِطْهُ. وَفِي هٰذِهِ اللَّيْلَةِ، قَبْلَ أَنْ يَغْفُوَ الضَّوْءُ عَلَى كَتِفَيَّ، ظَهَرَتِ الصُّورَةُ: لَمْ تَكُنْ لِإيكارَ، كانَتْ لِلرِّيحِ حِينَ حَمَلَتْ ظِلالَهُ، وَكانَ فِيها الطَّرِيقُ مُمْتَدًّا مِثْلَ وَتَرٍ يَنْتَظِرُ أَنْ يُعْزَفَ... أَعَدْتُ النَّظَرَ، فَوَجَدْتُ قَدَمَيْهِ تُفَتِّحانِ الأَرْضَ كَأَنَّهُما بَذْرَتانِ.

٥

**الغَيْمَةُ المُهاجِرَةُ** (الماءُ الَّذِي يَحْرُسُ الرَّمادَ)

أَنا الَّتِي ظَلَّتْ تائِهَةً بَيْنَ الجِهاتِ الأَرْبَعِ، أَسْتَطِيعُ الآنَ أَنْ أَقُولَ: لَقَدْ عادَ...

عادَ فِي المَطَرِ الَّذِي يَسْقُطُ بِلا خَوْفٍ عَلَى الأَسْلاكِ، وَفِي النَّبْتَةِ الَّتِي تَشُقُّ الخَرْسانَةَ، وَفِي الرَّائِحَةِ الأُولَى لِلتُّرابِ حِينَ يَبْتَسِمُ لِلصَّيْفِ. لَقَدْ رَأَيْتُ جَسَدَهُ يَصْعَدُ مِنْ بَيْنِ أَنْيابِ الذِّئابِ، كَمَعْنًى لا يُفْتَرَسُ.

٦

**ظِلُّ الأَبِ** (الفَقْدُ الَّذِي يَكْتَمِلُ بِالعُثُورِ)

يا بُنَيَّ... لَمْ أَعُدْ أَبْحَثُ عَنْكَ، لِأَنَّكَ صِرْتَ الطَّرِيقَ. كُلُّ خَطٍّ عَلَى الخَرِيطَةِ يُشْبِهُ ضِلْعًا مِنْ صَدْرِي، وَكُلُّ مُنْعَطَفٍ يَكادُ يَكُونُ نَبْضًا. لَقَدْ عَلَّمَنِي مَوْتُكَ... وَها أَنْتَ الآنَ تُعَلِّمُنِي كَيْفَ تُدارُ الحَياةُ بَعْدَ الغِيابِ.

٧

**صَوْتُ النَّاسِخِ المَجْهُولِ** (البَعْثُ)

فِي اللَّحْظَةِ الَّتِي انْطَفَأَتْ فِيها الكَلِماتُ، سَمِعْنا اهْتِزازًا خَفِيفًا فَوْقَ السَّهْلِ، كَأَنَّ الأَرْضَ تَسْتَيْقِظُ مِنْ نَوْمٍ طَوِيلٍ. وَفِي قَلْبِ السَّهْلِ ارْتَفَعَ ضَوْءٌ خافِتٌ، كَأَنَّ النَّارَ تَسْتَعِيدُ شَهِيقَها... وَمِنْ بَيْنِ ذٰلِكَ الضَّوْءِ خَرَجَ إيكارُ، لا كَما ذَهَبَ، وَلا كَما ماتَ، خَرَجَ كَأَثَرٍ تَجَمَّعَ فَوْقَ أَثَرٍ، وَكَخَلْقٍ جَدِيدٍ يَمْشِي مِنْ غَيْرِ جَناحَيْنِ، وَالأَرْضُ كُلُّها تُمَهِّدُ لَهُ الطَّرِيقَ.

٨

**جَوْقَةُ الأَرْواحِ التَّائِهَةِ** (إِعْلانُ القِيامَةِ الأَرْضِيَّةِ)

نُعْلِنُ اليَوْمَ أَنَّ العُبُورَ لا يَنْتَهِي، وَأَنَّ الطَّرِيقَ يَكْتُبُ أَسْماءَ مَوْتاهُ عَلَى حَوافِّ السَّماءِ، لِيَعُودُوا حِينَ يَسْتَدْعِيهِمُ الغُبارُ.

نُعْلِنُ أَنَّ الظِّلالَ قَدْ تَخَلَّدَتْ، وَأَنَّ الحُدُودَ الَّتِي قَتَلَتْ قَدْ صارَتْ خَيْطًا مِنَ الضَّوْءِ يَمْشِي فَوْقَهُ العابِرُونَ إِلَى جِهَةٍ لا تُحاصَرُ.

نُعْلِنُ أَنَّ إيكارَ.. وُلِدَ مِنْ جَدِيدٍ فِي كُلِّ قَدَمٍ تُغامِرُ بِأَنْ تَكُونَ جَناحًا.

### ٩

### **صَوْتُ النَّاسِخِ المَجْهُولِ** (حَرْقُ الْأَوْرَاقِ)

هٰكَذا انْتَهَتِ المَلْحَمَةُ مِنْ حَيْثُ بَدَأَتْ: مِنْ خُطْوَةٍ، وَمِنْ شَوْكِ الطَّرِيقِ، وَمِنْ جُرْحٍ عَلَّمَ الهَواءَ كَيْفَ يَصِيرُ أُغْنِيَةً.

وَإِذْ تَنْطَفِئُ الكَلِماتُ، يَبْقَى الصَّدَى قائِمًا:

لا مَوْتَ لِمَنْ يَعْبُرُ،
وَلا نِهايَةَ لِمَنْ يَخْتَرِعُ حُدُودَهُ بِنَفْسِهِ.
وَلِلْمَلْحَمَةِ بَقِيَّةٌ...
كُلَّما وُلِدَ عابِرٌ جَدِيدٌ.

# 7

# تَبْدِيلُ الثِّيابِ

## النِّهايَةُ كما تَراها الغَيْمَةُ المُهاجِرَةُ

### 1

### كَمَا يَكْتُبُهَا النَّاسِخُ السِّرِّيُّ

يَتَجَمَّعُ الثَّلاثَةُ فِي مُنْتَصَفِ أَرْضٍ حَرامٍ بِلا مَعالِمَ: الفوتوغرافِيُّ العَجُوزُ، وَالجُنْدِيُّ الجَرِيحُ، وَإِيكارُ. لا يَتَكَلَّمُ أَحَدٌ، لٰكِنَّ الرِّيحَ تَدْفَعُهُمْ إِلَى تَبادُلِ الثِّيابِ.

يَرْتَدِي الفوتوغرافِيُّ السُّتْرَةَ العَسْكَرِيَّةَ، وَيَلْبَسُ الجُنْدِيُّ عَباءَةَ التَّصْوِيرِ الدَّاكِنَةَ، وَيَقِفُ إِيكارُ عارِيًا كَما خُلِقَ، كَأَنَّ حَياتَهُ لَمْ تَكُنْ سِوَى تَبْدِيلٍ طَوِيلٍ لِلأَقْنِعَةِ.

وَحِينَ يَنْتَهِي الطَّقْسُ، يَقُولُ الجُنْدِيُّ الجَرِيحُ بِلَهْجَةِ الفوتوغرافِيِّ:

- دَعُونِي أَلْتَقِطْ لَكُمْ آخِرَ صُورَةٍ...

وَيَقُولُ الفوتوغرافِيُّ العَجُوزُ بِلَهْجَةِ الجُنْدِيِّ الجَرِيحِ:
- الحُدُودُ لا تَرْحَمُ... تَقَدَّمُوا.
أَمَّا إيكار، فَيَتَمْتَمُ:
- أَيْنَ أَكُونُ لَوْ لَمْ أَكُنْهُمْ؟ وَأَيْنَ يَكُونُونَ لَوْ لَمْ يَكُونُوا أَنَا؟

2

## قُدُومُ المَلَاكِ الأَعْمَى

يَتَسَلَّلُ المَلَاكُ الأَعْمَى مِثْلَ ظِلٍّ مِنَ الضَّوْءِ. يَمْشِي بِعُكَّازِهِ الَّذِي يُشْبِهُ رِيشَةً مَنْسِيَّةً، وَعَيْناهُ مُغْلَقَتانِ بِطَبَقَتَيْنِ مِنَ المِلْحِ. يَقْتَرِبُ مِنَ الثَّلاثَةِ، وَيَتَحَسَّسُ وُجُوهَهُمْ بِيَدِهِ، ثُمَّ يَبْتَسِمُ ابْتِسامَةً يَعْرِفُها إيكارُ جَيِّدًا.
يَقُولُ المَلَاكُ:
- لَمْ أَقُدْكُمْ... أَنْتُمْ مَنْ حَمَلَنِي فِي دَواخِلِكُمْ حَتَّى وَصَلْتُ إِلَى هُنا.
يَسْأَلُ الجُنْدِيُّ المُتَنَكِّرُ بِثِيابِ الفوتوغرافِيِّ:
- فَمَنْ أَنْتَ إِذَنْ؟
يَرُدُّ المَلَاكُ الأَعْمَى:
- أَنَا النِّهايَةُ الَّتِي كَتَبْتُمُوها لِأَنْفُسِكُمْ، وَالقَدَرُ الَّذِي كُنْتُمْ تَرْفُضُونَ الاعْتِرافَ بِأَنَّهُ صَوْتُكُمُ الدَّاخِلِيُّ... كُنْتُمْ تَرَوْنَنِي بِلا عَيْنَيْنِ، لِأَنَّ العَمَى كانَ يُقِيمُ فِيكُمْ.
يَلْمَسُ وَجْهَ إيكارَ، فَيَنْشَقُّ وَجْهُ المَلَاكِ لِبُرْهَةٍ، وَيَظْهَرُ تَحْتَهُ وَجْهُ إيكارَ نَفْسِهِ، كَأَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَى ذاتِهِ فِي مِرْآةٍ قُدْسِيَّةٍ مَشْطُورَةٍ.

3

## الِانْكِشافُ السِّينَمائِيُّ

تُضاءُ السَّماءُ فَجْأَةً، كَأَنَّ فانُوسًا هائِلًا فُتِحَ فَوْقَ العالَمِ. تَسْقُطُ الكاميرا - تِلْكَ الَّتِي افْتَتَحَتِ المَشْهَدَ - عَلَى الأَرْضِ، وَتَبْدَأُ بِتَصْوِيرِ الثَّلاثَةِ مِنْ زاوِيَةٍ مُنْخَفِضَةٍ.
فِي اللَّقْطَةِ:
الفوتوغرافِيُّ يَتَحَوَّلُ إِلَى الجُنْدِيِّ،
وَالجُنْدِيُّ يَتَحَوَّلُ إِلَى المَلَاكِ،
وَالمَلَاكُ يَتَحَوَّلُ إِلَى إيكار،

وَإيكارُ يَتَحَوَّلُ إِلَى الفوتوغرافِيِّ...
تَتَكَرَّرُ التَّحَوُّلاتُ بِسُرْعَةٍ مُتَلاحِقَةٍ، وَيَتَكَلَّمُونَ جَمِيعًا بِصَوْتٍ واحِدٍ يَمْزُجُ بَيْنَ نَبْرَةِ الفوتوغرافِيِّ المُتْعَبَةِ، وَصَرامَةِ الجُنْدِيِّ المَعْدِنِيَّةِ، وَنُعُومَةِ المَلَاكِ الأَعْمَى القَدَرِيَّةِ.
يَقُولُ الصَّوْتُ المُشْتَرَكُ:
- كُنَّا ذاتًا واحِدَةً تَتَمَزَّقُ لِتَفْهَمَ نَفْسَها. كُنَّا القاتِلَ وَالمَقْتُولَ، وَالمُصَوِّرَ وَالضَّحِيَّةَ، وَالجارِحَ وَالمَجْرُوحَ، وَالرِّيحَ الَّتِي عَبَرْنا بِها، وَالحُدُودَ الَّتِي عَبَرْتْنا.

## 4

## اللَّقْطَةُ الأَخِيرَةُ

تَقْتَرِبُ الكاميرا مِنْ عَيْنِ المَلَاكِ الأَعْمَى... مِنْ عَيْنٍ واحِدَةٍ فَقَطْ.
تَقْتَرِبُ أَكْثَرَ...
فَنَكْتَشِفُ أَنَّ العَيْنَ لَيْسَتْ عَيْنًا، إِنَّها ثُقْبُ عَدَسَةِ الكاميرا.
وَأَنَّ كُلَّ ما رَأَيْناهُ فِي المَلْحَمَةِ كانَ يُرَى مِنْ دَاخِلِ تِلْكَ العَدَسَةِ.
يَتَلاشَى كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الصَّوْتَ المُشْتَرَكَ (صَوْتَ المَلَاكِ وَالجُنْدِيِّ وَالفوتوغرافِيِّ وَإيكارَ)، وَهُوَ يَقُولُ:
- ما مِنْ حَدٍّ حَقِيقِيٍّ فِي هٰذا العالَمِ... سِوَى ذٰلِكَ الَّذِي نُقِيمُهُ فِي أَنْفُسِنا.
تَنْطَفِئُ الصُّورَةُ فَجْأَةً...

وَتَنْغَلِقُ الدَّائِرَةُ لِتَفْتَحَ كِتابًا جَدِيدًا فِي دَواخِلِنا:
الرِّحْلَةُ مُسْتَمِرَّةٌ، لٰكِنَّها تَبْدَأُ وَتَنْتَهِي فِي اللَّحْظَةِ نَفْسِها.
كُلُّ طَبَقَةٍ،
وَكُلُّ فَجْرٍ،
وَكُلُّ ظِلٍّ،
وَكُلُّ مُراقِبٍ،
وَكُلُّ مُراقِبٍ داخِلِيٍّ،
يُعِيدُنا إِلَى البِدايَةِ،
لِنَشْهَدَ أَنَّ:
العُبُورَ،
وَالرُّعْبَ،
وَالعَطَشَ،

وَالخَوْفَ،
وَالمَوْتَ،
وَالفَجْرَ،
لَيْسَتْ سِوَى وَعْيٍ واحِدٍ مُتَجَدِّدٍ،
وَحُلْمٍ داخِلَ حُلْمٍ،
وَنِهايَةٍ تَبْدَأُ مِنْ بِدايَتِها نَفْسِها.

# 8

# مَعابِرُ الرِّيحِ وَحِبرُ الحُدودِ

## النِّهايَةُ كما تَراها المِحْبَرَةُ

(فِي المِخْطُوطِ الَّذِي لا يُعْرَفُ ناسِخُهُ، وَالمَحْفُوظِ بَيْنَ مَعابِرِ الرِّيحِ وَحِبْرِ الحُدُودِ، تُكْتَبُ الحِكايَةُ كَأَثَرٍ يُسْتَعَادُ كُلَّما ظَنَّ القارِئُ أَنَّهُ يَقْرَؤُها لِلْمَرَّةِ الأُولَى).

تَبْدَأُ الصَّفْحَةُ بِاهْتِزازٍ خَفِيفٍ:

(الكَلِماتُ لَقَطاتٌ...)

(النِّقاطُ وَمَضاتُ ضَوْءٍ...)

(العَلاماتُ انْحِرافُ عَدَسَةٍ تَبْحَثُ عَنْ يَقِينٍ...)

(وَالصَّمْتُ... هُوَ ما يَتَبَقَّى حِينَ تَفْشَلُ اللُّغَةُ فِي تَثْبِيتِ ما رَأَتْ).

فِي هٰذا الصَّباحِ...
فِي هٰذا الصَّباحِ الكَوْنِيِّ...

وَقَبْلَ أَنْ يُرْسِلَ الرَّبُّ مَلاكَهُ،
ما نَراهُ فِي هٰذا الصَّباحِ الضَّبابِيِّ لَيْسَ طَرِيقًا حُدُودِيًّا، إِنَّهُ أَثَرُ عُبُورٍ قَدِيمٍ، تَكَرَّرَ حَتَّى صارَ يُشْبِهُ البِدايَةَ...
هُناكَ يَظْهَرُ رَجُلٌ عَجُوزٌ... يُقالُ إِنَّهُ فوتوغرافِيٌّ... يَحْمِلُ كاميرا كَأَنَّها جِهازٌ بَدائِيٌّ لِاسْتِدْعاءِ الأَرْواحِ العالِقَةِ بَيْنَ نُقْطَتَيْنِ لَمْ تَتَّفِقا يَوْمًا عَلَى اسْمٍ واحِدٍ.
أَنْفاسُ الرَّجُلِ تَسْبِقُ الصُّورَةَ، وَدَقّاتُ قَلْبِهِ تَتَسَرَّبُ إِلَى الحَوافِّ، كَأَنَّها تَوْقِيعٌ لا يُمْحَى... يَخْطُو كَمَنْ يَزِنُ الأَرْضَ قَبْلَ أَنْ يَثِقَ بِها.
وَحِينَ يَمُرُّ بِقُرْبِ بِرْكَةِ ماءٍ، تَنْحَنِي الصُّورَةُ بِفِعْلِ الرِّيحِ، وَبِفِعْلِ ذاكِرَةٍ أُخْرَى...
فِي الِانْعِكاسِ لا يَظْهَرُ وَجْهُهُ، وَإِنَّما يَظْهَرُ وَجْهُ جُنْدِيٍّ جَرِيحٍ...
(الجُنْدِيُّ الجَرِيحُ لَيْسَ بَدِيلًا، إِنَّهُ طَبَقَةٌ أَقْدَمُ مِنَ الصُّورَةِ، كَأَنَّ الذّاكِرَةَ تُصَوِّرُ نَفْسَها مِنْ زاوِيَتَيْنِ مُتَناقِضَتَيْنِ).
تَقْتَرِبُ العَدَسَةُ مِنْ عَيْنِهِ:
إِحْداهُما مُطْفَأَةٌ كَقِنْدِيلٍ نُسِيَ فِي صَلاةٍ،
وَالأُخْرَى تَلْمَعُ كَأَنَّها آخِرُ شاهِدٍ عَلَى حَدَثٍ لَمْ يَقَعْ بَعْدُ...
وَمِنْ خارِجِ الكادِرِ، حَيْثُ تُكْتَبُ الهَوامِشُ كَأَصْواتٍ، يَجِيءُ الهَمْسُ:
- هٰذا الصَّباحُ لَيْسَ بِدايَةً... إِنَّهُ عَوْدَةٌ.
فِي المَشْهَدِ الَّذِي تَظُنُّهُ وَثائِقِيًّا، تَتَكاثَرُ الشُّقُوقُ فِي الواقِعِ...
الفوتوغرافِيُّ لا يُوَثِّقُ آثارَ الحَرْبِ، إِنَّهُ يَبْحَثُ عَنِ الصُّورَةِ الَّتِي سَبَقَتِ الحَرْبَ وَنَجَتْ مِنْها...
وَفِي اللَّقْطَةِ التّالِيَةِ، الَّتِي تَبْدُو كَأَنَّها مُصَوَّرَةٌ تَحْتَ شَمْسٍ قاسِيَةٍ، يَتَجَوَّلُ الرَّجُلُ - أَوِ الجُنْدِيُّ الجَرِيحُ - أَوْ مَنْ يَتَبادَلانِ الِاسْمَ - بَيْنَ آثارِ حَرْبٍ لا تَمْلِكُ تارِيخًا...
الأَرْضُ مُثْقَلَةٌ بِصُوَرٍ لَمْ تُلْتَقَطْ.
يَلْتَقِي حارِسَ الحُدُودِ...
أَوْ رُبَّما يَلْتَقِي نَفْسَهُ فِي وَظِيفَةٍ أُخْرَى...
الجُنْدِيُّ يَقِفُ أَمامَ خَطٍّ لا يُرَى، يَحْرُسُ ما لا يَفْهَمُهُ، كَأَنَّ الحُدُودَ فِكْرَةٌ سَقَطَتْ مِنْ كِتابٍ قَدِيمٍ وَلَمْ يُخْبِرْ أَحَدٌ الجُنُودَ.
يَظْهَرُ شَخْصٌ ثالِثٌ:
أَعْمَى، لٰكِنَّ خُطُواتِهِ تَعْرِفُ الطَّرِيقَ أَكْثَرَ مِنَ العُيُونِ.
يَقُولُ إِنَّهُ مَلَاكٌ بِلا مُهِمَّةٍ...

*(المَلَاكُ، ذٰلِكَ الأَعْمَى الَّذِي يَدَّعِي البَطالَةَ، لَيْسَ كائِنًا سَقَطَ مِنَ السَّماءِ، إِنَّهُ بَقايَا وَظِيفَةٍ إِلٰهِيَّةٍ أُلْغِيَتْ حِينَ تَوَقَّفَتِ اللُّغَةُ عَنِ الإِيمانِ بِقُدْرَتِها عَلَى التَّسْمِيَةِ... وَحِينَ يَخْتَفِي وَيَظْهَرُ، فَهُوَ يَنْتَقِلُ فِي مُسْتَوَى الإِدْراكِ... إِنَّهُ يَظْهَرُ كُلَّما فَشِلَتِ الشَّخْصِيّاتُ فِي التَّعَرُّفِ عَلَى أَنْفُسِها).*

تَتَراجَعُ الكاميرا...

الجُنْدِيُّ يُرَى مِنَ الخَلْفِ...

وَحِينَ يَلْتَفِتُ، لا يَتَبَدَّلُ المَشْهَدُ...

إِنَّما يَتَبَدَّلُ الوَجْهُ:

إِنَّهُ وَجْهُ الفوتوغرافِيِّ.

أَمَّا المَلَاكُ، فَيَخْتَفِي دُونَ مُغادَرَةٍ، وَيَظْهَرُ دُونَ وُصُولٍ، كَأَنَّهُ فِكْرَةٌ تَتَكَرَّرُ فِي رَأْسِ النَّصِّ...

وَيَقُولُ بِكِتابَةٍ تَظْهَرُ عَلَى الهَواءِ:

- أَنْتَ تُعادُ كِتابَتُكَ هُنا... وَلَسْتَ تَحْرُسُ الحُدُودَ...

فِي مَخْزَنٍ مَهْجُورٍ...

أَوْ فِي فَجْوَةٍ بَيْنَ زَمَنَيْنِ، قَدْ تَكُونُ قَلْبَ النَّصِّ...

تَلْتَقِي الشَّخْصِيَّاتُ الثَّلاثُ.

يَجْلِسُونَ فِي دائِرَةٍ، كَأَنَّهُمْ يُحِيطُونَ بِنُقْطَةٍ لا يَجْرُؤُونَ عَلَى تَسْمِيَتِها.

كُلٌّ مِنْهُمْ يَرْوِي سُقُوطَهُ مِنَ السَّماءِ...

لٰكِنَّ السُّقُوطَ واحِدٌ.

وَالرَّاوِي يَتَكَرَّرُ...

وَالأَجْنِحَةُ تَذُوبُ فِي كُلِّ رِوايَةٍ بِطَرِيقَةٍ مُخْتَلِفَةٍ، أَمَّا الأَلَمُ فَثابِتٌ، كَأَنَّهُ الأَصْلُ.

فِي مُنْتَصَفِ الدَّائِرَةِ، حَيْثُ تَتَقَاطَعُ الجُمَلُ كَما تَتَقَاطَعُ الأَزْمِنَةُ، يَظْهَرُ اسْمٌ لا يُقالُ:

**(إيكار)**

هُوَ الَّذِي سَقَطَ.

وَهُوَ الَّذِي رَوَى السُّقُوطَ.

وَهُوَ الَّذِي صَوَّرَ السُّقُوطَ مِنَ الدَّاخِلِ.

*(يَسْقُطُ بِقَدْرِ ما تُعادُ حِكايَتُهُ. وَالأَجْنِحَةُ الَّتِي تَذُوبُ لَيْسَتْ مِنْ شَمْعٍ، إِنَّها مِنِ افْتِراضٍ: افْتِراضِ أَنَّ الِارْتِفاعَ مُمْكِنٌ مِنْ غَيْرِ ثَمَنٍ).*

غُرْفَةٌ بَيْضاءُ...

بِلا إِضاءَةٍ...
مَنْزُوعٌ عَنْها الظِّلُّ...
يَقِفُ الفوتوغرافِيُّ فِي المَرْكَزِ، كَعَلامَةِ تَرْقِيمٍ فِي جُمْلَةٍ لَمْ تَكْتَمِلْ...
وَتَدُورُ الكاميرا حَوْلَهُ بِبُطْءٍ، كَأَنَّها تَبْحَثُ عَنْ نُقْطَةِ ارْتِكازٍ فَلا تَجِدُها.
يَدْخُلُ الجُنْدِيُّ الجَرِيحُ مِنْ بابٍ أَيْمَنَ، كَأَنَّهُ خَرَجَ لِلتَّوِّ مِنْ صُورَةٍ سابِقَةٍ...
وَيَدْخُلُ المَلَاكُ الأَعْمَى مِنْ بابٍ أَيْسَرَ، كَأَنَّهُ لَمْ يَدْخُلْ أَصْلًا...
تَقْتَرِبُ العَدَسَةُ...
الوُجُوهُ لا تَتَبَدَّلُ...
إِنَّها تَتَذَكَّرُ بَعْضَها بَعْضًا...
وَتَذُوبُ الحُدُودُ بَيْنَها مِنْ غَيْرِ أَثَرٍ، كَأَنَّ المَلامِحَ كانَتْ دائِمًا مَشْرُوعًا غَيْرَ مُكْتَمِلٍ.
فِي مُنْتَصَفِ جُمْلَةٍ لَمْ تَنْتَهِ، يَتَوَقَّفُ التَّحَوُّلُ...
وَيَبْقَى شَخْصٌ واحِدٌ.
يَنْظُرُ إِلَى الكاميرا...
إِلَى مَنْ سَيَأْتِي بَعْدَها...
وَيَقُولُ:
- أَنَا إيكارُ...
أَنَا الَّذِي حَمَلَ الكاميرا، فَظَنَّ أَنَّهُ يَرَى.
وَأَنَا الَّذِي حَمَلَ البُنْدُقِيَّةَ، فَظَنَّ أَنَّهُ يَحْمِي.
وَأَنَا الَّذِي حَمَلَ العَمَى، فَاقْتَرَبَ مِنَ الحَقِيقَةِ أَكْثَرَ مِمَّا يَنْبَغِي.
وَأَنَا أَنْتَ...
تَسْقُطُ الكاميرا...
كَخاتِمَةٍ مَنْطِقِيَّةٍ لِثِقَلِ الرُّؤْيَةِ.
تَنْطَفِئُ الصُّورَةُ، لٰكِنَّ الصَّوْتَ يَبْقَى، كَأَنَّ العالَمَ يَسْتَمِرُّ حِينَ تُغْلَقُ العَيْنُ...
خُطُواتٌ تَقْتَرِبُ...
لا اسْتِعْجالَ فِيها...
كَأَنَّها تَعْرِفُ أَنَّ الوُصُولَ قَدْ حَدَثَ سَلَفًا...
تُرْفَعُ الكاميرا...
وَمِنْ مَنْظُورِها يَظْهَرُ وَجْهُ إِنْسانٍ جَدِيدٍ...
لَيْسَ جَدِيدًا تَمامًا...

مَلامِحُهُ غَيْرُ مُكْتَمِلَةٍ، كَأَنَّ النَّصَّ قَرَّرَ أَخِيرًا أَنْ يَتْرُكَ فَراغًا لا يُمْلَأُ.
هٰذا الإِنْسانُ لا يَحْمِلُ شَيْئًا...
لا كاميرا...
وَلا بُنْدُقِيَّةً...
وَلا عَمًى ظاهِرًا...
وَمَعَ ذٰلِكَ، فِيهِ أَثَرٌ مِنَ الثَّلاثَةِ، كَأَنَّ كُلَّ ما سَبَقَ كانَ تَمْهِيدًا لِظُهُورِهِ.

وَحِينَ يَلْتَفِتُ، لا يَنْظُرُ إِلَى العَدَسَةِ...
وَإِنَّما يَنْظُرُ إِلَى النُّقْطَةِ الَّتِي تَقِفُ خَلْفَها...
(نُقْطَةُ القِراءَةِ)
إِنَّهُ يُشْبِهُكَ...
يُشْبِهُكَ أَنْتَ أَيُّها القارِئُ.

فِي الصَّفْحَةِ الأَخِيرَةِ...
(الَّتِي هِيَ الأُولَى)
يَعُودُ الطَّرِيقُ...
وَيَعُودُ الصَّباحُ نَفْسُهُ...
أَمَّا الرَّجُلُ الَّذِي يَمْشِي، فَلا يُعَرَّفُ...
لَيْسَ الفوتوغرافِيَّ العَجُوزَ...
وَلا الجُنْدِيَّ الجَرِيحَ...
وَلا المَلَاكَ الأَعْمَى...
إِنَّهُ احْتِمالُهُمْ جَمِيعًا.
تَتَقَدَّمُ الكاميرا...
فَيَلْتَفِتُ بِبُطْءٍ...
لا يَقُولُ شَيْئًا...
إِنَّما يَنْظُرُ مُباشَرَةً إِلَى العَدَسَةِ، كَأَنَّها مِرْآةٌ تَأَخَّرَتْ فِي الاعْتِرافِ...
صَمْتٌ...
صَمْتٌ يُكْتَبُ بِخَطٍّ عَتِيقٍ فِي ذِهْنِ مَنْ يَظُنُّ أَنَّهُ انْتَهَى مِنَ القِراءَةِ:

- كُلُّ نِهايَةٍ هِيَ نُسْخَةٌ مِنْ بِدايَتِها... وَلٰكِنْ لَيْسَتْ كُلُّ بِدايَةٍ قادِرَةً عَلَى تَذَكُّرِ نِهايَتِها.[149]

# 9

# نِهايَةٌ مِيتاسَرْدِيَّةٌ
# دُخُولُ القارِئِ إِلَى المُتاهَةِ

[150]

## ١

## لَحْظَةُ تَخاطُرٍ غَرِيبَةٍ

قَبْلَ أَنْ تَصِلَ، أَيُّهَا القارِئُ، إِلَى السَّطْرِ الأَخِيرِ مِنْ "سِفْرِ النِّهاياتِ الدَّائِرِيَّةِ"، كانَ يَنْبَغِي لِلنَّصِّ أَنْ يَتَوَقَّفَ.

لٰكِنَّ شَيْئًا لَمْ يَتَوَقَّفْ...

حَدَثَ العَكْسُ.

الصَّفْحَةُ هِيَ الَّتِي الْتَفَتَتْ نَحْوَكَ.

لا صُورَةَ.

---

[149]- فِي الهامِشِ الَّذِي أُضِيفَ بَعْدَ قُرُونٍ، بِخَطٍّ يَخْتَلِفُ قَلِيلًا عَنْ خَطِّ النَّاسِخِ الأَوَّلِ... (وَرَدَتْ مُلاحَظَةٌ كَأَنَّها لَمْ تُكْتَبْ... لٰكِنَّها تُرِكَتْ):

– إِذا ظَنَنْتَ أَنَّكَ خَرَجْتَ مِنَ المتاهَةِ، فَرُبَّما كُنْتَ قَدْ بَلَغْتَ مَرْكَزَها.

[150]- أَرَدْتُ أَنْ أَكْتُبَ نِهايَةً غَرِيبَةً تُخْرِجُ القارِئَ مِنْ مَوْقِعِ المتَلَقِّي، وَتَزُجُّهُ فِي النَّصِّ نَفْسِهِ، فِعْلًا لا مَجازًا. كَأَنَّ الصَّفْحَةَ تُحَوِّلُهُ إِلَى شَخْصِيَّةٍ جَدِيدَةٍ فِي المَلْحَمَةِ، أَوْ إِلَى ظِلٍّ يَكْتُبُ وَيُكْتَبُ فِي آنٍ وَاحِدٍ. أَرَدْتُها نِهايَةً مِيتاسَرْدِيَّةً تَسْحَبُ الأَرْضَ مِنْ تَحْتِ المَلْحَمَةِ كُلِّها، وَتَجْعَلُ القارِئَ الحَلْقَةَ الأَخِيرَةَ فِي المتاهَةِ

لا صَوْتَ.
وَمَعَ ذٰلِكَ كانَ اِلالْتِفاتُ حَقِيقِيًّا عَلَى نَحْوٍ مُرْبِكٍ.
لَمْ يَكُنْ فِي الوَرَقِ، وَإِنَّما فِي الدَّاخِلِ.
كَأَنَّ جُمْلَةً مَا انْتَبَهَتْ إِلَى وُجُودِكَ، ثُمَّ قَرَّرَتْ أَنْ تُراقِبَكَ.
وَفِي الهامِشِ ظَهَرَ خَطٌّ شاحِبٌ يَكادُ يَتَلاشَى ([151])

٢

## تَحَوُّلٌ فِي مَوْقِعِ الرُّؤْيَةِ

الكَلِماتُ الَّتِي أَمامَكَ الآنَ لَيْسَتْ مَكْتُوبَةً بِالحِبْرِ الَّذِي تَعْرِفُهُ.
إِنَّها تَتَنَفَّسُ.
وَتَبْدُو حَيَّةً عَلَى نَحْوٍ لا يَنْبَغِي لِلْكَلِماتِ أَنْ تَبْلُغَهُ.
تَجِدُ نَفْسَكَ تَمِيلُ إِلَى الأَمامِ دُونَ أَنْ تَدْرِي السَّبَبَ.
لِأَنَّ النَّصَّ نَفْسَهُ يَمُدُّ يَدَهُ نَحْوَكَ.
وَمِنْ بَيْنِ السُّطُورِ، يَنْحَنِي إيكارُ كَمَنْ كَشَفَ شَخْصًا كانَ يَخْتَبِئُ خَلْفَ السِّتارِ طَوالَ الوَقْتِ.
يَنْظُرُ إِلَيْكَ مُباشَرَةً، ثُمَّ يَقُولُ:
- أَخِيرًا وَصَلْتَ...
كُنَّا نَنْتَظِرُكَ مُنْذُ **(أَسْفارِ الفَجْرِ)**.

٣

## شَخْصِيّاتُ المَلْحَمَةِ تَلْتَفِتُ إِلَيْكَ

يَرْفَعُ الفوتوغرافِيُّ العَجُوزُ كاميرَتَهُ القَدِيمَةَ نَحْوَكَ.
تَسْمَعُ صَوْتَ العَدَسَةِ وَهِيَ تُغْلِقُ عَلَى وَجْهِكَ.
ثُمَّ يَقُولُ:
- الآنَ...
أَيُّهَا القارِئُ...
أَنْتَ داخِلَ الكادِرِ.

---

[151]- لَمْ تَكُنْ تَقْرَأُ... كُنَّا نَقْرَؤُكَ.

وَيَمْسَحُ الجُنْدِيُّ الجَرِيحُ الغُبارَ عَنْ خُوذَتِهِ، ثُمَّ يَتَقَدَّمُ نَحْوَكَ خُطْوَةً.
خُطْوَةً واحِدَةً فَقَطْ.
وَلٰكِنَّها تَكْفِي لِعُبُورِ الحَدِّ.
وَيَقُولُ:
- تَعالَ...
كُلُّ مَنْ يَصِلُ إِلَى هٰذا المَوْضِعِ يُسْتَدْعَى لِلشَّهادَةِ.
أَمَّا المَلَاكُ الأَعْمَى، فَيَرْفَعُ رَأْسَهُ نَحْوَكَ.
وَلِلْمَرَّةِ الأُولَى فِي المَلْحَمَةِ كُلِّها، يَفْتَحُ جَفْنَيْهِ.
لا لِيَرَى...
وَإِنَّما لِيَتَأَكَّدَ أَنَّكَ هُنا.

٤

## الوَرَقَةُ الَّتِي تَطْلُبُ اسْمَكَ

تَنْقَلِبُ صَفْحَةٌ جَدِيدَةٌ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِها، كَأَنَّها تَبْحَثُ عَنْ شَيْءٍ أَضاعَتْهُ مُنْذُ زَمَنٍ بَعِيدٍ...
تَظْهَرُ خَرِيطَةٌ صَغِيرَةٌ، تَتَشَابَكُ فِيهَا خُطُوطٌ حَمْراءُ، وَتَتَلاشى حَوافُّها ثُمَّ تَعُودُ فَتَتَشَكَّلُ مِنْ جَدِيدٍ.
وَتَحْتَ الخَرِيطَةِ تَرِدُ عِبارَةٌ وَحِيدَةٌ:
اسْمُ العابِرِ............... :
تَبْقَى الخانَةُ فارِغَةً...
تَنْتَظِرُ.
كَأَنَّ الصَّفْحَةَ لا تَسْتَطِيعُ أَنْ تُواصِلَ دُونَ أَنْ يُكْتَبَ فِيها شَيْءٌ.
أَيُّهَا القارِئُ...
لَقَدْ أَصْبَحْتَ جُزْءًا مِنَ النَّصِّ.
وَمُجَرَّدُ أَنْ تُفَكِّرَ فِي اسْمِكَ، سَيَظْهَرُ مَكْتُوبًا بِالحِبْرِ نَفْسِهِ الَّذِي كُتِبَتْ بِهِ الحِكايَةُ.

٥

## انْفِتاحُ المُتاهَةِ

حِينَ تَرْفَعُ بَصَرَكَ قَلِيلًا، تَكْتَشِفُ أَنَّ النَّصَّ لَمْ يَعُدْ نَصًّا.

إِنَّهُ مَمَرّاتٌ.
مَمَرّاتٌ تُشْبِهُ تِلْكَ المَمَرّاتِ الَّتِي رَآها إيكارُ فِي بِدايَةِ الإِنْجِيلِ الأَوَّلِ.
لٰكِنَّ الفَرْقَ هٰذِهِ المَرَّةَ أَنَّكَ لَسْتَ القارِئَ الَّذِي يَقِفُ عِنْدَ البَابِ...
أَنْتَ فِي الدَّاخِلِ.
أَنْتَ أَحَدُ مَمَرّاتِها.
تَمْتَدُّ الأَسْطُرُ كَطَرِيقَيْنِ مُتَوازِيَيْنِ لا يَلْتَقِيانِ.
وَتَتَحَوَّلُ الفَواصِلُ إِلَى أَبْوابٍ.
وَتُصْبِحُ النِّقاطُ مَصابِيحَ صَغِيرَةً تُحَرِّكُها الرِّيحُ.
وَعَلَى جِدارِ الجُمْلَةِ الأُولَى تَقْرَأُ نَقْشًا خَفِيفًا، كَأَنَّهُ كُتِبَ لِمَنْ سَيَصِلُ أَخِيرًا:
- لا سَبِيلَ إِلَى الخُرُوجِ إِلَّا بِإِعادَةِ الحِكايَةِ.

٦

## المُونُولُوجُ المُوَجَّهُ إِلَيْكَ

يَقِفُ إيكار أَمامَكَ مُباشَرَةً...
لَيْسَ صُورَةً.
وَلَيْسَ شَخْصِيَّةً.
إِنَّهُ فِكْرَةٌ اتَّخَذَتْ هَيْئَةً لِكَيْ تُخاطِبَكَ.
يَنْظُرُ إِلَيْكَ وَيَقُولُ:
- إِذا وَصَلْتَ إِلَى هُنا...
فَأَنْتَ لَسْتَ قارِئًا لِهٰذِهِ الحِكايَةِ.
وَلا شاهِدًا عَلَيْها.
أَنْتَ الحَلْقَةُ الَّتِي تُكْمِلُ دائِرَتَها.
ثُمَّ يَقُولُ:
- كُنْتُ أَنَا حُلْمًا فِي كِتابٍ.
وَكانَ الكِتابُ حُلْمًا فِي كِتابٍ أَكْبَرَ.
وَالآنَ...
أَنْتَ حُلْمٌ فِي كِتابِي.
يَقِفُ قَرِيبًا مِنْكَ...
قَرِيبًا إِلَى الدَّرَجَةِ الَّتِي يَكادُ فِيها أَنْ يَلْمَسَكَ.

ثُمَّ يَهْمِسُ:
- دَوْرُكَ يَبْدَأُ حِينَ تَنْغَلِقُ الصَّفْحَةُ الأَخِيرَةُ.

٧

**الِانْغِلاقُ - التَّحَوُّلُ**

تَبْدَأُ الصَّفْحَةُ بِالِانْطِواءِ عَلَى نَفْسِها...
بِبُطْءٍ...
وَكَأَنَّها تُطْفِئُ آخِرَ مَمَرٍّ مِنْ مَمَرَّاتِ المُتاهَةِ.
لٰكِنَّكَ تُلاحِظُ شَيْئًا مُرْبِكًا.
شَيْئًا لَمْ يَكُنْ هُناكَ قَبْلَ لَحْظَةٍ.
الكِتابَةُ عَلَى الصَّفْحَةِ الدَّاخِلِيَّةِ هِيَ خَطُّكَ أَنْتَ.
الحَرْفُ حَرْفُكَ.
وَالنَّبْرَةُ نَبْرَتُكَ.
وَالإِيقاعُ الَّذِي تَعْرِفُهُ دُونَ أَنْ تَعْرِفَ مَتَى تَعَلَّمْتَهُ.
كَأَنَّكَ كَتَبْتَ هٰذا كُلَّهُ قَبْلَ سَنَواتٍ وَنَسِيتَ.
أَوْ كَأَنَّكَ سَتَكْتُبُهُ بَعْدَ سَنَواتٍ وَلا تَعْلَمُ بَعْدُ.
وَقَبْلَ أَنْ يَنْطَبِقَ الظَّلامُ الوَرَقِيُّ تَمامًا...
وَقَبْلَ أَنْ يَغِيبَ آخِرُ أَثَرٍ لِلضَّوْءِ...
تَسْمَعُ الصَّوْتَ الأَخِيرَ:

**سَوادٌ ناعِمٌ يَهْبِطُ...**
**وَجُمْلَةٌ واحِدَةٌ تَظْهَرُ كَشَرارَةٍ فِي العَتَمَةِ:**
**مَنِ القارِئُ؟**
**مَنِ الكاتِبُ؟**
**لا أَحَدَ يَعْرِفُ بَعْدُ.**
**لا شَيْءَ...**
**لا شَيْءَ...**
**لا شَيْءَ...**
**مُتاهَةٌ مَفْتُوحَةٌ.**



**(خَتْمٌ غَيْرُ مُكْتَمِلٍ)**

الأَصْواتُ أَرْبَعَةٌ...
وَالسِّرُّ واحِدٌ.
وَالشَّاهِدُ هُوَ الأَخِيرُ دائِمًا...
لِأَنَّهُ يَأْتِي بَعْدَ الِاحْتِراقِ.



**(خَتْمُ الْخَاتِمَةِ)**

لِيُخْتَمَ هٰذا الكِتابُ بِخَيْطٍ مِنْ رَمادٍ،
فَلا يَراهُ إِلَّا مَنْ اغْتَسَلَ بِمِلْحِ غِيابٍ طَويلٍ،
وَلا يَفُكُّهُ إِلَّا مَنْ عَبَرَ بَيْنَ جَمْرَتَيْنِ،
وَلَمْ يَتْرُكْ ظِلَّهُ خَلْفَهُ.

هُنا...
صَرَخَ المَلَاكُ الأَعْمَى:
**(لا يُخْتَمُ الكِتابُ)**
الكِتابُ لا يُغْلَقُ... إِنَّما يَنْقَلِبُ عَلَى نَفْسِهِ.
وَفِي الِانْقِلابِ، يَفْتَحُ مَوْضِعَهُ الأَوَّلَ.
(هٰذا لَيْسَ خَتْمًا... إِنَّهُ رَجْعَةٌ إِلَى البِدايَةِ)
عِنْدَما تُقْلَبُ الصَّفْحَةُ الأُولَى مَرَّةً أُخْرَى...
يُشْرِفُ الكِتابُ عَلَى نَفْسِ اللَّحْظَةِ الَّتِي وُلِدَ فِيها.
تُسْمَعُ الكَلِمَةُ الأُولَى نَفْسُها...
نَفْسُ الصَّدَى...
نَفْسُ الانْفِتاحِ الَّذِي لَمْ يَبْدَأْ بَعْدُ.
وَفِي المَوْضِعِ نَفْسِهِ، يَكْتُبُ الخَتْمُ نَفْسَهُ مَرَّةً أُخْرَى:
**أَنْتَ لَمْ تَخْرُجْ.**

**أَنْتَ لَمْ تَدْخُلْ.**
**أَنْتَ تَدُورُ فَقَطْ.**

هٰذِهِ
الدَّائِرَةُ لَيْسَتْ فَارِغَةً
إِنَّها مُمْتَلِئَةٌ بِما لَمْ يُكْتَبْ بَعْدُ.
كُلُّ مَرَّةٍ تُظَنُّ أَنَّ الخَتْمَ قَدْ تَحَقَّقَ
يَعُودُ السَّطْرُ الأَوَّلُ لِيُعِيدَ نَفْسَهُ بِصِيغَةٍ أُخْرَى.
وَكُلُّ مَنْ يَقْرَأُ هٰذِهِ الجُمْلَةَ
يَكُونُ هُوَ البِدايَةَ الَّتِي تَنْتَظِرُ نَفْسَها.

هُنَا
يَنْطَفِئُ الخَتْمُ فِي شَكْلِهِ الأَخِيرِ
لِيَصِيرَ خَتْمًا أَوَّلَ.
وَتَبْقَى الصَّفْحَةُ مَفْتُوحَةً
لِأَنَّ الإِغْلاقَ لَمْ يَكُنْ قَدْ حَدَثَ أَصْلًا.[152]

[152]- وَفِي الهامِشِ، الَّذِي يَكْتُبُ نَفْسَهُ كُلَّ مَرَّةٍ:
– إِذَا وَصَلْتَ إِلَى هٰذا السَّطْرِ، فَأَنْتَ لَمْ تَصِلْ، إِنَّمَا عُدْتَ.
**(ظَلامٌ)**
وَيَبْدَأُ السَّرْدُ.

*

# صَلَاةُ الْعَابِرِ الأُخِيرِ

(مَزَامِيرُ تُنْشَدُ عِنْدَ أَبْوَابِ الْمُدُنِ)

*



**(خَتْمُ هَذَا الْكِتَابِ)**

لِيُبَارِكْكُمْ نُورٌ لَمْ يُخْلَقْ،
وَلْيُظَلِّلْكُمْ ظِلٌّ لَمْ يَسْقُطْ،
وَلْتَتَقَدَّمْ أَرْوَاحُكُمْ أَمَامَ أَجْسَادِكُمْ،
كَيْ لَا يُمْحَى وَجْهٌ آخَرُ عِنْدَ الْبَوَّابَةِ.

(لَا يُفْتَحُ هَذَا الْكِتَابُ إِلَّا لِمَنْ تَعَلَّمَ أَنْ يَرَى بِعَيْنٍ مُفْعَمَةٍ بِالْوُدِّ، وَيُصَلِّيَ بِقَلْبٍ مَكْسُورٍ)

هَذِهِ مَزَامِيرُ تُتْلَى فِي الْفَجْرِ، وَتُنْشَدُ عِنْدَ أَبْوَابِ الْمُدُنِ. تَمْتَزِجُ فِيهَا أَصْوَاتُ جَوْقَةِ الْأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ مَعَ أَصْوَاتِ الظِّلَالِ، وَتَعْمَلُ كَطَقْسٍ رُوحِيٍّ/ حُدُودِيٍّ بَيْنَ الْعَالَمَيْنِ: عَالَمِ الْمَوْتَى وَعَالَمِ الْأَحْيَاءِ. مَزَامِيرُ تَقْتَرِبُ مِنْ رُوحِ الْأَنَاشِيدِ الرُّؤْيَوِيَّةِ مِنْ حَيْثُ الْجَلَالُ الْكَوْنِيُّ وَاللُّغَةُ الْمُنْذِرَةُ لِلْكَائِنَاتِ، وَهِيَ تَخُصُّ الَّذِينَ عَبَرُوا وَضَلُّوا وَنَجَوْا وَابْتُلِعُوا وَوَاصَلُوا السَّيْرَ... تُشْبِهُ رِئَةً خَامِسَةً لِلْأَرْضِ، أَوْ قِنْدِيلًا فِي مَمَرٍّ لَا يَنْتَهِي. إِنَّهَا تَلْتَحِقُ بِالْمَلْحَمَةِ، وَتَسْتَعِيرُ مِنْ رُوحِ رُؤْيَا يُوحَنَّا اللَّاهُوتِيِّ مَشْهَدِيَّتَهَا الْكَوْنِيَّةَ، وَرُمُوزَهَا، وَأَبْوَاقَهَا، وَكَائِنَاتِهَا، وَنَبْرَتَهَا النُّبُوئِيَّةَ الْمُزَلْزِلَةَ، دُونَ أَنْ تَمَسَّ نُصُوصًا دِينِيَّةً حَرْفِيًّا، لَكِنَّهَا تُعِيدُ تَخَيُّلَ الرُّؤْيَا ضِمْنَ عَالَمِ إِيكَارَ وَالْحُدُودِ وَالْمَخَافِرِ.

1

# مَزَامِيرُ حُرَّاسِ النَّصِّ [153]

مَزْمُور

**(1)**

**(فَتْحِ الْعَمَى)**

(يَظْهَرُ الْجُنْدِيُّ الْجَرِيحُ الَّذِي يَلْعَبُ دَوْرَ السَّارِدِ/ يُغْلِقُ عَيْنَيْهِ، لَا لِيَرَى الدَّاخِلَ، وَإِنَّمَا لِيَكُفَّ عَنِ الْمُطَالَبَةِ بِالرُّؤْيَةِ) وَيَقُولُ:

- لَسْنَا أَهْلَ الْحِبْرِ، نَحْنُ أَهْلُ الْأَثَرِ. وَلَسْنَا حُرَّاسَ النَّصِّ، نَحْنُ حُرَّاسُ ارْتِجَافِهِ.

(يَصْمُتُ بِمِقْدَارِ نَفَسٍ وَاحِدٍ، لَا أَكْثَرَ) وَيَقُولُ:

السَّرْدُ لَمْ يَظْهَرْ فَجْأَةً... لَمْ يَلْمَعْ. لَمْ يَصْرُخْ... بَدَأَ كَخَطَإٍ صَغِيرٍ فِي الْكِتَابَةِ... نَاسِخٌ نَسِيَ كَلِمَةً فِي النَّصِّ. وَآخَرُ أَكْمَلَهَا بِكَلِمَةٍ لَا وُجُودَ لَهَا... وَمُنْذُ تِلْكَ اللَّحْظَةِ صِرْنَا نَكْتُبُ شَيْئًا لَا نَعْرِفُهُ، لَكِنَّنَا نَعْرِفُ أَنَّهُ لَنَا.

مَزْمُور

**(2)**

**اسْتِدْعَاءِ النَّصِّ مِنْ رَمَادِهِ**

**(يُتْلَى فَرْدِيًّا لَا جَمَاعِيًّا... كَأَنَّ الْأَصْوَاتَ تَتَذَكَّرُ بَعْضَهَا)**

- يَا رَمَادَ مَا لَمْ يُحْرَقْ، يَا أَثَرَ مَا لَمْ يُمْحَ، تَعَالَ خَفِيفًا كَخَطَإٍ مَغْفُورٍ، وَثَقِيلًا كَاسْمٍ لَا يُقَالُ.

قَالُوا:

- فِي الظَّلَامِ يَزُورُنَا مَلَاكٌ لَا يَرَى، لَكِنَّهُ يَعْرِفُ الطَّرِيقَ... يَمُدُّ يَدَهُ لِيَتَأَكَّدَ أَنَّنَا مَا زِلْنَا

---

[153]- (مَزَامِيرُ نُقِلَتْ شَفَهِيًّا، تُتْلَى وَتُحْفَظُ وَلَا تُقْتَنَى، وَهِيَ جُزْءٌ مِنْ سِفْرٍ يَتْلُوهُ الْجُنْدِيُّ الْجَرِيحُ بَعْدَ اخْتِفَاءِ النَّاسِخِ الْمَجْهُولِ، وَاسْتَلَمَ مُهِمَّتَهُ مِنْ بَعْدِهِ النَّاسِخُ السِّرِّيُّ).

أَحْيَاءً... يَا مَلَاكُ،
إِنْ مَرَرْتَ فَلَا تُوقِظِ النَّائِمِينَ، فَالنَّوْمُ هُنَا نَجَاةٌ.
الْمَلَاكُ لَا يَتَكَلَّمُ، لَكِنَّ صَدْرَهُ يَرْتَجُّ كَمَنْ يَتَذَكَّرُ لُغَةً مَحْذُوفَةً... هُوَ لَا يَعْرِفُ مَنْ يَقُولُ، لَكِنَّهُ يَعْرِفُ أَنَّهُمْ مِثْلُهُ: وَاقِفُونَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ لَمْ يُكْتَبَا.
قَالُوا:
- إِذَا سَقَطَ وَاحِدٌ فَلَا تَذْكُرِ اسْمَهُ. وَإِذَا مَرَّ طَيْفٌ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ وَلَا تَتْبَعْهُ... وَإِذَا سَمِعْتَ صَوْتَ جَنَاحَيْنِ فَلَا تَرْفَعْ رَأْسَكَ، فَلَيْسَ كُلُّ مَلَاكٍ جَاءَ لِيُنْقِذَ.
الْجُنُودُ لَا يَرَوْنَ الْمَلَاكَ، لَكِنَّهُمْ يَتَوَقَّفُونَ عَنِ الْحَرَكَةِ فِي اللَّحْظَةِ نَفْسِهَا... الْمَلَاكُ الْأَعْمَى يَقِفُ بَيْنَهُمْ كَحَارِسٍ نَسِيَ لِمَنْ يَحْرُسُ.

## (3)
## الْقِرَاءَةِ قَبْلَ الْمَحْوِ

(يُفْتَحُ السِّفْرُ عَلَى أَيِّ صَفْحَةٍ، لِأَنَّ الصَّفَحَاتِ لَمْ تَعُدْ تَعْرِفُ تَرْتِيبَهَا، وَيُقْرَأُ أَوَّلُ سَطْرٍ يَقَعُ عَلَيْهِ النَّظَرُ).
قَالُوا:
- مَا قُرِئَ لَمْ يَعُدْ مِلْكَنَا، وَمَا لَمْ يُقْرَأْ يَعْرِفُ الطَّرِيقَ وَحْدَهُ.
(تُلْمَسُ الصَّفْحَةُ لَمْسَةً وَاحِدَةً بِكَفٍّ مَفْتُوحَةٍ، كَأَنَّهَا تُوَدِّعُ جَسَدًا لَا يُدْفَنُ).
قَالُوا:
- كَانَ مَعَنَا كِتَابٌ، أَوْ وَرَقٌ، أَوْ شَيْءٌ يُشْبِهُ الِاعْتِرَافَ... فَتَحْنَاهُ فَلَمْ نَفْهَمْهُ... وَأَغْلَقْنَاهُ دَاخِلَ صُدُورِنَا.
الْمَلَاكُ لَا يَسْمَعُ مَا يُقَالُ... يَسْمَعُ الْخَوْفَ فِي الصَّوْتِ... الِانْكِسَارَ... التَّرَدُّدَ... وَهَذَا يَكْفِيهِ.

## (4)
## الْإِحْرَاقِ بِلا نَارٍ

- لَا تُشْعَلُ نَارٌ... لَا يُمَزَّقُ وَرَقٌ... لَا يُسْكَبُ شَيْءٌ.
يُقَالُ:

- نُحْرِقُكَ بِأَنْ نَكُفَّ عَنْ حِمَايَتِكَ. نُحْرِقُكَ بِأَنْ نَتْرُكَكَ تَعْبُرُ... يَا سِفْرًا لَمْ يُكْتَبْ لِيُحْفَظَ، وَلَا لِيُفْهَمَ، كُتِبَ كَيْ لَا يَنَامَ الْخَوْفُ وَحْدَهُ.

(يُغْلَقُ السِّفْرُ كَمَا تُغْلَقُ عَيْنُ مَيِّتٍ لَا يُرَادُ لَهُ أَنْ يَرَى الْمَزِيدَ).

هُنَا يَرْتَجِفُ الْمَلَاكُ، لَيْسَ لِأَنَّ الْكِتَابَ ضَاعَ، وَإِنَّمَا لِأَنَّهُ كَانَ آخِرَ مَنْ قَرَأَهُ قَبْلَ أَنْ يُمْحَى اسْمُهُ.

## (5)
## الْمَحْوِ بِلَا أَدَاةٍ

- لَا يُمْحَى حَرْفٌ. لَا يُطْمَسُ اسْمٌ.

يُقَالُ بِصَوْتٍ مُنْخَفِضٍ:

- اسْمُ النَّاسِخِ لَمْ يَكُنِ اسْمًا. كَانَ عُبُورًا. وَمَنْ كَتَبَ فَقَدْ وَصَلَ. وَمَنْ وَصَلَ لَا يُوَقِّعُ.

## (6)
## نُسْخَةٌ مُحَرَّفَةٌ مِنْ طَقْسِ إِحْرَاقِ السِّفْر

(كَمَا تَنَاقَلَهَا الْجُنُودُ شَفَهِيًّا، مُبْتُورَةً، خَشِنَةً، مُخْتَلِطَةً بِالْأَوَامِرِ وَالْبَرْدِ وَنِسْيَانِ الْأَسْمَاءِ. وَهَذَا مَا يُقَالُ فِي الْخَنَادِقِ قَبْلَ أَنْ يَضِيعَ السِّفْر، مَعَ الْإِشَارَةِ إِلَى أَنَّ رِوَايَةَ الْجُنُودِ غَيْرُ مُعْتَرَفٍ بِهَا، وَأَنَّهَا مَحْفُوظَةٌ بِالْخَطَإِ).

**(أ) - عَلَى عَجَلٍ:**

(الثَّلْجُ لَا يَسْقُطُ هُنَا، إِنَّهُ يَتَرَاكَمُ دَاخِلَ الْعِظَامِ. وَالْجُنُودُ يَجْلِسُونَ فِي الضَّبَابِ كَأَنَّهُمْ تَأْخِيرٌ قَدِيمٌ فِي سَاعَةِ الْعَالَمِ. لَا أَحَدَ يَتَكَلَّمُ. حَتَّى الْبَنَادِقُ تَبْدُو مُتْعَبَةً مِنْ تَذَكُّرِ الْقَتْلَى. السِّفْرُ يُوضَعُ تَحْتَ الْمِعْطَفِ أَوْ فَوْقَ صُنْدُوقِ ذَخِيرَةٍ فَارِغٍ. يَقُولُ أَحَدُهُمْ، وَهُوَ الْأَشَدُّ تَعَبًا):

- مَا مَعَنَا كِتَابٌ مُقَدَّسٌ. مَعَنَا شَيْءٌ لَا نَعْرِفُ مَاذَا يَفْعَلُ بِنَا.

**(ب) -الِاسْتِدْعَاءُ (كَمَا فَهِمُوهُ):**

لَا يُنَادَى الرَّمَادُ، وَإِنَّمَا يُنَادَى رِفَاقٌ لَمْ يَعُودُوا.

- نَحْنُ لَا نُحَارِبُ أَحَدًا. نَحْنُ نَحْرُسُ فَقَطْ هَذَا الْفَرَاغَ الْهَائِلَ بَيْنَ قَلْبِ الْإِنْسَانِ وَصَوْتِهِ. وَعِنْدَمَا يَطْلُعُ الصَّبَاحُ لَا يَحْدُثُ شَيْءٌ. مُجَرَّدُ ثَلْجٍ إِضَافِيٍّ فَوْقَ الْعَالَمِ، وَمُوسِيقَى بَعِيدَةٍ تَبْدُو كَأَنَّهَا صَادِرَةٌ مِنْ خُوذَةٍ فَارِغَةٍ.

يَصْمُتُونَ حِينَ يَسْمَعُونَ صَوْتًا بَعِيدًا، قَدْ يَكُونُ رِيحًا أَوْ خُطْوَةً مُرْتَجِفَةً.

**(ج) - الْقِرَاءَةُ النَّاقِصَةُ:**

يُفْتَحُ الْمَزْمُورُ، وَلَا يُقْرَأُ مِنْهُ إِلَّا كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ، أَوْ سَطْرٌ مُبْتُورٌ، أَوِ اسْمٌ لَا يُفْهَمُ.

ثُمَّ يَقُولُ آخَرُ:

- أَحَدُنَا كَانَ يُغَنِّي الْبَارِحَةَ، وَالْيَوْمَ صَارَ مِعْطَفًا مُعَلَّقًا قُرْبَ الْبَابِ.

**(د) - الْإِحْرَاقُ (بِفَهْمٍ خَاطِئٍ):**

بَعْضُهُمْ قَالَ: نُحْرِقُ الْمَخْطُوطَ...

وَبَعْضُهُمْ قَالَ: لَا.

فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ... سَيَّارَةُ الْمَوْتَى تَقْطَعُ اللَّيْلَ بِبُطْءٍ، نَوَافِذُهَا عَمْيَاءُ، وَعَرَبَةٌ مَحْشُوَّةٌ بِأَحْذِيَةٍ مُوحِلَةٍ وَأُمَّهَاتٍ نَائِمَاتٍ فِي الْحُلْمِ.

بَعْدَ ذَلِكَ قَرَّرُوا لَفَّ الْمَخْطُوطِ بِخِرْقَةٍ عَسْكَرِيَّةٍ مُشْبَعَةٍ بِرَائِحَةِ الْعَرَقِ وَالْخَوْفِ...

فِي الْمُعَسْكَرِ الْبَعِيدِ يَغْلِي الْحَسَاءُ الْأَسْوَدُ، وَتَطْفُو عَلَيْهِ وُجُوهٌ بِلَا أَسْمَاءٍ.

**(ه) - الْمَحْوُ (كَمَا حَصَلَ):**

لَمْ يَعْرِفُوا اسْمَ النَّاسِخِ، لَكِنَّهُمْ شَطَبُوا أَسْمَاءَهُمْ.

قَالَ أَحَدُهُمْ:

- لَا أَحَدَ يَعْرِفُ الِاسْمَ، وَمُنْذُ سَنَوَاتٍ لَمْ يَعُدْ أَحَدُنَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ.

السَّمَاءُ نَفْسُهَا أَصْبَحَتْ سَقْفًا مُتَشَقِّقًا تَتَدَلَّى مِنْهُ غُيُومٌ تُشْبِهُ الضَّمَادَاتِ.

هُنَا يَرْتَجِفُ الْمَلَاكُ، لَيْسَ لِأَنَّ الْكِتَابَ ضَاعَ، وَإِنَّمَا لِأَنَّهُ كَانَ آخِرَ مَنْ قَرَأَهُ قَبْلَ أَنْ يُمْحَى اسْمُهُ.

**(و) - الْخَتْمُ (عَلَامَةُ الْجُنُودِ):**

لَمْ يَرْسُمُوا مَلَائِكَةً... رَسَمُوا دَائِرَةً غَيْرَ مُكْتَمِلَةٍ، أَوْ عَلَامَةً لَا تُشْبِهُ شَيْئًا.

وَقَالُوا:

فِي الْمَقَاهِي الْبَعِيدَةِ يَجْلِسُ الرِّجَالُ الَّذِينَ عَادُوا مِنَ الْحُرُوبِ، بِأَكْتَافٍ مُنْحَنِيَةٍ وَوُجُوهٍ تُشْبِهُ الْأَوْرَاقَ الْقَدِيمَةَ. لَا يَتَحَدَّثُونَ كَثِيرًا، لِأَنَّ الْكَلِمَاتِ أَيْضًا تَفْقِدُ أَطْرَافَهَا فِي الْبَرْدِ.

**(ز)** - الِانْصِرَافُ (دُونَ طُقُوسٍ):
لَمْ يُغْلِقُوا المَزْمُورَ. تَرَكُوهُ مَفْتُوحًا عَلَى صَفْحَةٍ مَقْلُوبَةٍ.
وَقَالَ آخِرُهُمْ وَهُوَ يَبْتَعِدُ:
إِنَّ أَكْثَرَ الْأَشْيَاءِ رُعْبًا هُوَ أَنْ تَسْتَيْقِظَ كُلَّ صَبَاحٍ لِتُعِيدَ تَرْتِيبَ الْخَرَابِ نَفْسِهِ، وَأَنْ تَرْتَدِيَ بَزَّتَكَ الْعَسْكَرِيَّةَ وَتَقِفَ مُسْتَعِدًّا، فِي حِينِ أَنَّ رُوحَكَ مَتْرُوكَةٌ مُنْذُ أَعْوَامٍ فِي خَنْدَقٍ مُوحِلٍ تَحْتَ ثَلْجٍ مَجْهُولٍ.
ثُمَّ انْصَرَفُوا:
وَاحِدٌ كَانَ يَعْرَجُ...
وَوَاحِدٌ نَسِيَ خُوذَتَهُ...
وَوَاحِدٌ ظَلَّ يَلْتَفِتُ، رَغْمَ التَّحْذِيرِ.
فِي الثَّكَنَاتِ الْمَهْجُورَةِ يَقُولُ الْجُنُودُ:
لَمْ نَكُنْ مُتَّفِقِينَ عَلَى تِلْكَ اللَّيْلَةِ، بَعْضُنَا قَالَ: كَانَتْ بَارِدَةً. وَآخَرُونَ قَالُوا: لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ لَيْلٌ أَصْلًا، إِنَّمَا شَيْءٌ يُشْبِهُهُ.
لَكِنَّنَا نَتَّفِقُ عَلَى أَمْرٍ وَاحِدٍ:
كُنَّا نَحْلُمُ الْحُلْمَ نَفْسَهُ.
فِي الْمَدِينَةِ الَّتِي يَحْلُمُونَ بِهَا...
فِي السَّاحَةِ الْعَامَّةِ يَقِفُ تِمْثَالُ جُنْدِيٍّ بُرُونْزِيٍّ. الْحَمَامُ يَحُطُّ عَلَى كَتِفَيْهِ، وَالْأَطْفَالُ يَرْكُضُونَ حَوْلَهُ، لَكِنْ لَا أَحَدَ يَتَذَكَّرُ لِمَاذَا مَاتَ.[154]

---

154- مَلْحُوظَةٌ كَتَبَهَا النَّاسِخُ السِّرِّيُّ (أُضِيفَتْ لَاحِقًا):
هَذِهِ النُّسْخَةُ لَيْسَتْ تَجْدِيفًا. إِنَّهَا الطَّقْسُ حِينَ يَفْقِدُ كَهَنَتَهُ، وَيَبْقَى حَيًّا.
وَعَلَّقَ تَحْتَهَا أَحَدُ الْجُنُودِ:
بَعْدَ سَنَوَاتٍ سَمَّيْنَاهُ: الْمَلَاكَ الْأَعْمَى.
لَكِنْ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ لَمْ نُسَمِّهِ... لَمْ نُفَكِّرْ فِيهِ كَمَلَاكٍ.
كَانَ فَرَاغًا وَاقِفًا.
ثِقَلًا بِلَا هَيْئَةٍ...
إِحْسَاسًا بِأَنَّ أَحَدًا يَسْمَعُنَا مِنْ دَاخِلِنَا.
أَحَدُنَا قَالَ: رَأَيْتُهُ.
وَآخَرُ قَالَ: لَوْ رَأَيْتَهُ لَكُنَّا مِتْنَا.
وَرُبَّمَا لَمْ يَكُنْ مَلَاكًا...

2

# مَزَامِيرُ الْمُتَصَوِّفِ الْبَرِّيِّ

مَزْمُور

(1)

أَنَا الَّذِي خَرَجْتُ مِنْ أَبْوَابِ الْمَعْنَى كَمَا يَخْرُجُ الذِّئْبُ مِنْ ذَاكِرَةِ الْقَطِيعِ، لَا وَطَنَ لِي إِلَّا الْبَرَارِي الَّتِي لَا تُؤَوِّلُ خُطَايَ. فِي الْبَدْءِ لَمْ يَكُنِ اللهُ اسْمًا... كَانَ صَمْتًا يُقِيمُ فِي الْحَلْقِ كَالسَّهْمِ، وَكَانَتِ الرُّوحُ تَتَعَثَّرُ فِي مَرَايَا الْمُدُنِ. أَعْتَرِفُ الْآنَ، فِي طَقْسِ الْعُبُورِ الْعَظِيمِ: أَنَّنِي كُنْتُ نِسْيَانًا يَبْحَثُ عَنِ اعْتِقَادٍ، وَكُنْتُ وَجْهًا يُرِيدُ أَنْ يُمْحَى كَيْ يَرَى الْحَقِيقَةَ. أَعْتَرِفُ أَنَّ الْمَعْرِفَةَ جُرْحٌ مَفْتُوحٌ فِي جَسَدِ السُّؤَالِ.

يَا أَيُّهَا الْبَرِّيُّ [155]، يَا تَصَوُّفَ الْغَابَةِ،

يَا صَلَاةَ الْعُشْبِ حِينَ يَتَهَجَّى الْمَطَرَ، عَلَّمْتَنِي أَنَّ الطَّرِيقَ لَا يَنْتَهِي عِنْدَ الْمَعَابِدِ، إِنَّمَا يَبْدَأُ حِينَ تَسْقُطُ اللُّغَةُ عَنْ كَتِفَيْكَ رِدَاءً قَدِيمًا.

أَنَا الْعَابِرُ بَيْنَ اعْتِرَافٍ وَاعْتِرَافٍ، أَحْمِلُ خَطَايَايَ كَأَنَّهَا نُجُومٌ سَوْدَاءُ تَدُلُّنِي عَلَى الْجِهَاتِ الْمَنْسِيَّةِ. كُلُّ خُطْوَةٍ هِيَ مَوْتٌ صَغِيرٌ، وَكُلُّ مَوْتٍ هُوَ بَابٌ نَحْوَ اتِّسَاعٍ لَا يُقَالُ. فِي الْمَلْحَمَةِ لَا أَبْطَالَ سِوَى الْمُنْكَسِرِينَ، وَلَا إِنْشَادَ إِلَّا هَمْسَ الَّذِينَ تَعَرَّوْا مِنَ الْيَقِينِ. كُنْتُ أَبْحَثُ عَنِ الْحَقِيقَةِ، فَوَجَدْتُهَا تَبْحَثُ عَنِّي فِي الْبَرَارِي. حِينَ بَلَغْتُ الْعَتَبَةَ الْأَخِيرَةَ لَمْ أَجِدْ إِلَهًا جَالِسًا عَلَى الْعَرْشِ، وَجَدْتُ نَفْسِي وَقَدْ صَارَتْ طَرِيقًا، وَصَوْتًا يَخْتَلِطُ فِيهِ السَّرْدُ بِالسِّرِّ، وَالْإِنْشَادُ بِالِاعْتِرَافِ، وَالْعُبُورُ بِمَا لَا يُرْوَى.

---

رُبَّمَا كَانَ مَا تَبَقَّى مِنَّا حِينَ غَنَّيْنَا بِغَيْرِ أَوَامِرَ...
وَكُلُّ مَا نَتَذَكَّرُهُ أَنَّ الظَّلَامَ اسْتَأْنَفَ عَمَلَهُ، كَأَنَّ شَيْئًا لَمْ يَحْدُثْ.

155- فِي النَّظَرِ إِلَى الْوَجْهِ الْمُبَلَّلِ بِالْغِيَابِ (تَعْلِيمٌ سِرِّيٌّ لِلْمُتَصَوِّفِ الْبَرِّيِّ):

(مَنْ نَظَرَ فِي وَجْهِ الرَّاحِلِ، رَأَى صُورَتَهُ الْقَدِيمَةَ تَصْرُخُ تَحْتَهُ، فَلْيَحْذَرِ السَّالِكُ أَنْ يَظُنَّ أَنَّ الْغِيَابَ خَارِجٌ عَنْهُ، إِذْ إِنَّ الْغِيَابَ هُوَ ظِلُّ الرُّوحِ حِينَ تَفِرُّ مِنْ نَفْسِهَا)

(2)

أَنَا الَّذِي خَلَعَ الْأَسْمَاءَ عَنْ جَسَدِهِ، وَمَضَى إِلَى الْبَرِّ حَيْثُ لَا شَاهِدَ إِلَّا الْغَيْبُ، وَلَا دَلِيلَ إِلَّا التِّيهُ. خَرَجْتُ مِنْ (أَنَايَ) كَمَا يَخْرُجُ الطَّيْرُ مِنْ قَفَصِ الْمَعْنَى، فَلَمْ أَعُدْ أَعْرِفُنِي، وَلَا عَرَفْتُ سِوَايَ.

يَا بَرِّيُّ، يَا مَنْ صَلَّى فِي عُشْبِ الْوُجُودِ، يَا مَنِ اتَّخَذَ الْوَحْشَةَ مِحْرَابًا وَالصَّمْتَ كِتَابًا، عَلَّمْتَنِي أَنَّ الْحَقَّ لَا يُرَى فِي الْمَرَايَا، إِنَّمَا يُرَى حِينَ تَنْكَسِرُ الْمِرْآةُ. أَعْتَرِفُ... أَنَّنِي كُنْتُ أَطْلُبُهُ كَأَنَّنِي غَيْرُهُ، وَكَانَ يَطْلُبُنِي كَأَنَّهُ أَنَا. فَإِذَا الْتَفَتُّ لَمْ أَجِدْ سِوَاهُ يَمْشِي فِي دَمِي، وَيُنْشِدُ فِي عِظَامِي:

أَنَا سِرُّكَ،

فَلَا تَبْحَثْ عَنِ السِّرِّ خَارِجَ السِّرِّ.

فِي طَقْسِ الْعُبُورِ سَقَطَتْ عَنِّي الْجِهَاتُ، وَانْحَلَّتِ الْمَسَافَاتُ كَمَا يَنْحَلُّ الْحُلْمُ فِي عَيْنِ السَّاهِرِ. لَمْ يَبْقَ إِلَّا (هُوَ)، يُقِيمُ فِي اللَّامَكَانِ، وَيَقُولُ: كُلُّ طَرِيقٍ إِلَيَّ هُوَ أَنْتَ حِينَ تَفْنَى.

يَا أَيُّهَا الْبَرُّ،
يَا قَفْرَ الْحَضْرَةِ،
هُنَا تَتَوَضَّأُ الرُّوحُ بِالرَّمْلِ،
وَتَسْجُدُ لِلْعَدَمِ حَتَّى يَفِيضَ الْوُجُودُ.
هُنَا لَا صَلَاةَ إِلَّا التَّلَاشِي،
وَلَا ذِكْرَ إِلَّا الْغِيَابُ.

رَأَيْتُنِي فَاحْتَرَقْتُ، وَرَأَيْتُهُ فَذَابَ الِاحْتِرَاقُ. وَصِرْتُ بَيْنَ الْفَنَاءِ وَالْبَقَاءِ كَالنُّقْطَةِ حِينَ تَعُودُ إِلَى الْبَحْرِ. يَا سَائِلًا عَنِ الْمَعْنَى، الْمَعْنَى نَارٌ، إِذَا مَسَّتْ قَلْبَكَ صِرْتَ أَنْتَ الْحَرِيقَ. قَالَ لِي الصَّوْتُ الْخَفِيُّ:

لَا تَعْبُرْ إِلَيَّ حَتَّى تَعْتَرِفَ أَنَّكَ لَسْتَ سِوَى بَابٍ، وَأَنَّكَ إِنْ وَصَلْتَ فَلَنْ تَجِدَ الْوُصُولَ... سَتَجِدُ السُّقُوطَ فِي الْحَضْرَةِ. فَصَرَخْتُ صَرْخَةَ الصُّوفِيِّ:

لَا مَدِينَةَ تُؤْوِيكَ، وَلَا شَرِيعَةَ تُمْسِكُكَ. هُنَاكَ غَابَةٌ فِيهَا اللهُ عَارِيًا مِنَ الْأَسْمَاءِ، وَأَنْتَ عَارٍ مِنَ الذَّاتِ. وَالْعُبُورُ أَنْ تَخْتَفِيَ حَتَّى تَظْهَرَ.

(3)

## (نِدَاءُ الْوُجُودِ – الِاعْتِرَافُ – خَاتِمَةُ الْفَنَاءِ)

### (أ) نِدَاءُ الْوُجُودِ

نَادَانِي الْوُجُودُ مِنْ شُقُوقِ الْعَدَمِ، وَقَالَ:

يَا أَيُّهَا الْعَابِرُ بَيْنَ (كُنْتَ) وَ(لَسْتَ)، أَمَا تَعِبْتَ مِنْ حَمْلِ اسْمِكَ كَحَجَرٍ فِي صَدْرِ الطَّرِيقِ؟ أَمَا آنَ لِلظِّلِّ أَنْ يَذُوبَ فِي شَمْسِهِ؟

قُلْتُ:

يَا نِدَاءَ الْغَيْبِ، دُلَّنِي...

قَالَ:

لَا دَلِيلَ فِي الْحَضْرَةِ، الْحَضْرَةُ بَحْرٌ، وَالدَّلِيلُ غَرَقٌ جَمِيلٌ.

نَادَانِي بِصَوْتٍ لَا يُسْمَعُ بِالْأُذُنِ... يُسْمَعُ بِانْكِسَارِ الْقَلْبِ:

تَعَالَ... فَإِنَّكَ إِنْ بَقِيتَ أَنْتَ فَلَنْ تَرَانِي، وَإِنْ مِتَّ عَنْكَ رَأَيْتَنِي فِيكَ.

### (ب) الِاعْتِرَافُ

دَخَلْتُ مَحْكَمَةَ الْأَسْرَارِ، لَا قَاضِيَ فِيهَا إِلَّا النُّورُ، وَلَا شَاهِدَ إِلَّا الصَّمْتُ. جَلَسْتُ أَمَامَ ذَاتِي كَمَنْ يَجْلِسُ أَمَامَ الْقِيَامَةِ. قَالَ الصَّوْتُ:

اعْتَرِفْ...

قُلْتُ:

بِمَاذَا؟

قَالَ:

اعْتَرِفْ أَنَّكَ عَبْدُ صُورَتِكَ، وَأَنَّكَ سَجِينُ الْحَضْرَةِ.

قُلْتُ:

أَعْتَرِفُ أَنَّنِي عَبَدْتُ الطَّرِيقَ وَنَسِيتُ الْمَقْصُودَ.

أَعْتَرِفُ أَنَّنِي جَعَلْتُ اللهَ فِكْرَةً لَا نَارًا.

أَعْتَرِفُ أَنَّنِي طَلَبْتُهُ خَارِجَ قَلْبِي، وَكَانَ قَلْبِي هُوَ الْبَابَ.

قَالَ:

اعْتَرِفْ ثَانِيَةً...

قُلْتُ:

أَعْتَرِفُ أَنَّنِي أَحْبَبْتُهُ حُبَّ التَّاجِرِ لِلنَّجَاةِ.
أَحْبَبْتُهُ حُبَّ الْعَاشِقِ لِلْفَنَاءِ.
أَحْبَبْتُهُ حَتَّى لَمْ تَبْقَ (أَنَا) كَيْ أُحِبَّ.
اهْتَزَّتِ الْإِرَادَةُ، وَسَقَطَتِ الْأَقْنِعَةُ كَمَا تَسْقُطُ الْأَوْرَاقُ عَنْ شَجَرِ الْخَرِيفِ.
وَقَالَ الصَّوْتُ:
الْآنَ... بَدَأْتَ.

**(ج) خَاتِمَةُ الْفَنَاءِ**

فِي اللَّيْلَةِ الْأَخِيرَةِ لَمْ يَبْقَ قَمَرٌ وَلَا نَجْمَةٌ، كَانَ اللَّيْلُ هُوَ الْمُنْتَظَرَ حِينَ يَتَجَلَّى بِغَيْرِ شَكْلٍ. مَشَيْتُ حَتَّى انْتَهَى الْمَشْيُ، وَسَجَدْتُ حَتَّى انْتَهَى السُّجُودُ، فَلَمْ يَبْقَ جَسَدٌ وَلَا سَجْدَةٌ وَلَا طَرِيقٌ. سَمِعْتُ أبو يزيد البسطامي فِي دَمِي يَقُولُ: "لِلْخَلْقِ أَحْوَالٌ".
يَا أَيُّهَا الْبَرِّيُّ، يَا تَصَوُّفَ الْغَابَةِ،

هُنَا لَا (أَنَا) وَلَا (هُوَ...).
هُنَا الْهُوِيَّةُ رَمَادٌ،
وَالِاسْمُ سَرَابٌ.
هُنَا الْفَنَاءُ لَيْسَ مَوْتًا...
إِنَّمَا هُوَ اتِّسَاعٌ حَتَّى لَا يَبْقَى سِوَى الْوَاحِدِ.

فِي خَاتِمَةِ الْمَخْطُوطِ لَمْ أَكْتُبْ نِهَايَةً،([156])
لِأَنَّ الْعَارِفَ إِذَا وَصَلَ لَا يَقُولُ:
- وَصَلْتُ...
إِنَّمَا يَقُولُ:
- سَقَطْتُ فِي اللهِ كَمَا تَسْقُطُ الْقَطْرَةُ فِي الْبَحْرِ، فَلَا قَطْرَةٌ بَقِيَتْ، وَلَا بَحْرٌ انْفَصَلَ... فَقَطْ حَضْرَةٌ لَا تُسَمَّى.

---

[156]- **السَّطْرُ الَّذِي لَمْ يُكْتَبْ**

............................................................

كُنْتُ سَأَخْتِمُ المخْطوطَ، وَأُوَقِّعُ، وَأُؤَكِّدُ أَنَّ ما سَبَقَ قَدِ اكْتَمَلَ... لٰكِنَّ هُناكَ مُقاوَمَةً غَريبَةً. كُلَّما هَمَمْتُ بِإِغْلاقِ النَّصِّ، شَعَرْتُ أَنَّ شَيْئًا يُبْقيهِ مَفْتوحًا، كَأَنَّ النِّهايَةَ خِيانَةٌ لِطَبيعَتِهِ.

(4)

## نَشِيدُ الْبَقَاءِ بَعْدَ الْفَنَاءِ

كُنْتُ أَظُنُّ الْفَنَاءَ نِهَايَةً، فَإِذَا هُوَ بِدَايَةُ الْبِدَايَاتِ. وَكُنْتُ أَظُنُّ السُّقُوطَ انْطِفَاءً، فَإِذَا هُوَ اشْتِعَالُ الْبَقَاءِ. نَادَانِي الْحَقُّ مِنْ دَاخِلِ اللَّا.أَنَا: يَا مَنْ عَبَرْتَ، لَا تَظُنَّ أَنَّكَ انْتَهَيْتَ... فَالْعَارِفُ إِذَا فَنِيَ عَادَ، لَكِنْ لَيْسَ كَمَا كَانَ. عَادَ بِلَا وَجْهٍ لَهُ، إِلَّا وَجْهُ الْحَضْرَةِ.
فِي الْبَقَاءِ لَا تَعُودُ الذَّاتُ لِتَمْلِكَ، إِنَّمَا تَعُودُ لِتَشْهَدَ.
لَا تَعُودُ لِتَقُولَ:
- أَنَا.
تَعُودُ لِتَكُونَ آيَةً تَمْشِي.
صِرْتُ أَرَى الْأَشْيَاءَ وَلَا أَرَاهَا... أَرَى الْوَرْدَةَ فَأَسْمَعُ تَسْبِيحَهَا. أَرَى الْحَجَرَ فَأَقْرَأُ فِيهِ كِتَابَ الصَّمْتِ. أَرَى الْوَحْشَ فَأَعْرِفُ أَنَّ الرَّحْمَةَ أَوْسَعُ مِنَ الصُّورَةِ.

يَا أَيُّهَا الْبَرِّيُّ، يَا صُوفِيَّةَ الْقَفْرِ،
فِي الْفَنَاءِ كُنْتُ نَارًا تُحْرِقُنِي،
وَفِي الْبَقَاءِ صِرْتُ نُورًا يَدُلُّ وَلَا يُحْرِقُ...
قَالَ لِي الصَّوْتُ الْخَفِيُّ:
- الْبَقَاءُ لَيْسَ أَنْ تَبْقَى أَنْتَ.
الْبَقَاءُ أَنْ يَبْقَى الْحَقُّ فِيكَ.
أَنْ تَصِيرَ مَعْبَرًا...
لَا مُسَافِرًا.

عُدْتُ إِلَى الْعَالَمِ وَلَمْ أَعُدْ... عُدْتُ وَجَسَدِي فِي التُّرَابِ، وَلَكِنَّ قَلْبِي فِي السَّمَاءِ. أَمْشِي بَيْنَ النَّاسِ وَلَا يَرَوْنَنِي، لِأَنَّنِي لَمْ أَعُدْ (أَنَا). عُدْتُ أَثَرًا لِمَنْ هُوَ.

**فِي نَشِيدِ البَقَاءِ أَنْشَدْتُ:**

- أَنَا لَسْتُ أَنَا، وَلَا أَنَا غَيْرُهُ، أَنَا نُقْطَةٌ رَجَعَتْ إِلَى بَحْرِهَا، فَلَمْ يَبْقَ بَحْرٌ وَلَا نُقْطَةٌ... أَنَا أَحَدٌ يَتَجَلَّى فِي كُلِّ شَيْءٍ.
يَا رَبُّ... إِذَا كَانَ الفَنَاءُ سُقُوطَ القِنَاعِ، فَاجْعَلِ البَقَاءَ صِدْقَ الوَجْهِ. وَإِذَا كَانَ العُبُورُ مَوْتَ الطَّرِيقِ، فَاجْعَلِ الوُصُولَ حَيَاةَ الرَّحْمَةِ.

هَكَذَا يَنْتَهِي الطَّرِيقُ وَلَا يَنْتَهِي... لِأَنَّ العَارِفَ إِذَا بَقِيَ صَارَ البِدَايَةَ. وَصَارَ التَّصَوُّفُ البَرِّيُّ لَيْسَ رِحْلَةً فِي الغَابَةِ... صَارَ غَابَةً فِي القَلْبِ، تُصَلِّي بِلا صَوْتٍ، وَتَعْبُرُ بِلا اسْمٍ، وَتَبْقَى بِاللَّهِ.

3

# مَزَامِيرُ قُدَّاسِ الْفَجْرِ

مَزْمُور

**(1)**
**اسْتِفْتَاحِ النُّورِ**

**الْفُوتُوغْرَافِيُّ الْعَجُوزُ:** يَا فَجْرَ الْبِلَادِ الَّتِي لَمْ تُولَدْ بَعْدُ، يَا خَيْطًا أَبْيَضَ يَزْحَفُ عَلَى جُرُوحِ الْحُدُودِ، هَبْ لَنَا يَقَظَةً لَا تَنَامُ، وَاجْعَلْ أَعْيُنَ الْعَابِرِينَ مَرَايَا لِلظِّلَالِ الَّتِي عَبَرَتْ مَعَهُمْ.

**جَوْقَةُ الْأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** نَرْفَعُ إِلَيْكَ شَظَايَا نَوْمِنَا، وَنُسَلِّمُكَ تَعَبَ الذِّئَابِ الَّذِي بَقِيَ فِي خُطُوَاتِنَا.

مَزْمُور

**(2)**
**الِانْكِشَافِ**

**جَوْقَةُ الْأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** يَطِيرُ الضَّوْءُ كَعُصْفُورٍ خَرَجَ مِنْ فَمِ الْبَحْرِ، وَيَنْقُرُ عَلَى جِبَاهِنَا كَأَنَّهُ يُوَقِّعُ أَسْمَاءً جَدِيدَةً لِلَّذِينَ عَادُوا مِنَ الرَّمَادِ. كُلُّ مَنْ عَبَرَ اللَّيْلَ حَيًّا يَحْمِلُ فِي دَمِهِ خَتْمَ الْفَجْرِ، حَتَّى إِنْ لَمْ يُدْرِكْ أَنَّ اللَّيْلَ تَرَكَ فِيهِ بَابًا مَفْتُوحًا إِلَى الْأَبَدِ.

مَزْمُور

**(3)**
**قُرْبَانِ الْعَابِرِينَ**

**الْفُوتُوغْرَافِيُّ الْعَجُوزُ:** نَرْفَعُ لَكَ أَيُّهَا الْفَجْرُ قُرْبَانَ الْخُطَى الَّتِي لَمْ يُوقِفْهَا رَصَاصٌ، وَنَضَعُ عَلَى الْمَذْبَحِ أَنْفَاسَ الْأُمَّهَاتِ الَّتِي ظَلَّتْ تَبْحَثُ عَنْ أَبْنَائِهَا فِي حُرُوبٍ تُطِلُّ عَلَى الْقِيَامَةِ.

**جَوْقَةُ الْأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** نَتَقَدَّمُ إِلَيْكَ بِكُسُورِ أَحْلَامِنَا، نُلَمِّعُهَا بِأَنَامِلِنَا لِتَصِيرَ مَرَايَا صَالِحَةً لِلنَّهَارِ.

**(4)**

## قَانُونُ الْفَجْرِ- دُسْتُورُ النُّهُوضِ

1- كُلُّ مَنْ حَمَلَ اللَّيْلَ فَوْقَ كَتِفَيْهِ، تُعَادُ إِلَيْهِ ظِلَالُهُ كَيْ يَفْهَمَ نُورَهُ.

2- وَكُلُّ مَنْ مَاتَ فِي الْأَرْضِ الْحَرَامِ يُعْطَى جَسَدًا مِنْ مَاءٍ يُشْرِقُ عِنْدَ اللَّمْسِ.

3- وَكُلُّ مَنْ ضَلَّ الطَّرِيقَ يُمْنَحُ نَجْمَةً تَتَدَلَّى فَوْقَ جَبِينِهِ كَوَصِيَّةٍ لَا يَجُوزُ إِسْقَاطُهَا.

**جَوْقَةُ الْأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** هَذَا دُسْتُورُ الْفَجْرِ، نَكْتُبُهُ عَلَى رَمْلٍ رَطْبٍ، فَإِنْ مَحَتْهُ الرِّيحُ أَعَادَهُ الضَّوْءُ.

**(5)**

## الْفَجْرِ الْأَوَّلِ

**(يُنْشَدُ عِنْدَ أَوَّلِ ضَوْءٍ، حِينَ تَفْتَحُ الْمَدِينَةُ [157] جَفْنَهَا نِصْفَ الْمَفْتُوحِ)**

**يَا ضَوْءَ مَنْ فَجَّ جُرْحَ اللَّيْلِ نِصْفَيْنِ، أَقِمْ فِينَا أَجْنِحَةً لَا تَصِلُ وَلَا تَغِيبُ. عَلِّمْنَا أَنْ نَقِيسَ طَرِيقَنَا بِظِلٍّ يَمْتَدُّ أَمَامَنَا، لَا بِخَطٍّ يَنْقَطِعُ خَلْفَنَا. يَا فَجْرُ، إِذَا صَعِدَ اسْمُ إِيكَارَ مَعَكَ، فَتَقَبَّلْهُ قُرْبَانًا لِلْأَيَّامِ الَّتِي نَخَافُ أَنْ نَبْدَأَهَا.**

---

[157]- **هَامِشُ الْمُدُنِ الَّتِي تَسْتَيْقِظُ فَجْأَةً بِلَا سُكَّانٍ**

(كَمَا وَجَدْتُهُ مَطْوِيًّا بَيْنَ أَوْرَاقٍ لَا يَنْتَمِي إِلَيْهَا)

(هُنَاكَ مُدُنٌ تُفْتَحُ شَوَارِعُهَا فَجْرًا، لَكِنْ لَا أَحَدَ يَخْرُجُ مِنْهَا، وَكَأَنَّ الْأَرْضَ ابْتَلَعَتْ أَنْفَاسَهُمْ لَيْلًا ثُمَّ مَضَتْ)

**الْهَامِشُ الْمُخْفِيُّ دَاخِلَ الْهَامِشِ:**

(إِنْ رَأَيْتَ مَدِينَةً بِلَا ظِلٍّ... فَاعْلَمْ أَنَّهَا حُلْمُ أَحَدٍ مَاتَ قَبْلَ أَنْ يَسْتَيْقِظَ).

**جَوْقَةُ الْأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ**: نَحْنُ أَبْنَاءُ النَّبْضِ الْمُعَلَّقِ بَيْنَ شَهِيقِكَ وَزَفِيرِكَ، فَخُذْ بِأَيْدِينَا نَحْوَ الصَّمْتِ الَّذِي يُشْبِهُ بَيْتًا لَمْ يُبْنَ بَعْدُ.

**(6)**

## الظِّلّ

(يُنْشَدُ حِينَ تَمُرُّ الْأَرْوَاحُ قُرْبَ الْأَسْوَارِ)

يَا ظِلَّ الْقَتِيلِ، يَا بَابًا خَفِيًّا فِي جِدَارِ الذَّاكِرَةِ، عُدْ... وَلَوْ فِي صُورَةِ غَيْمَةٍ تَسْتَرِيحُ عَلَى رَاحَةِ يَدٍ مُرْتَجِفَةٍ. عَلِّمْنَا كَيْفَ نُمْسِكُ بِالْغِيَابِ كَأَنَّهُ رُخَامٌ، وَكَيْفَ نُمْسِكُ بِالْحُضُورِ كَأَنَّهُ مَاءٌ. يَا ظِلَّ الْقَتِيلِ، مُدَّ ظِلَالَكَ عَلَى الطَّرِيقِ، لِنَعْرِفَ أَيْنَ نَمْشِي، وَلِنَعْرِفَ مَا الَّذِي يَمْشِي فِينَا.

**(7)**

## الْأَرْضِ الْحَرَامِ

(طَقْسٌ يُتْلَى عَلَى حُدُودِ الْأَزِقَّةِ الَّتِي تَتَغَيَّرُ كُلَّ مَسَاءٍ)

السَّلَامُ لِلْحِيطَانِ حِينَ تُنْصِتُ لِخُطُوَاتِ الْعَابِرِينَ.
السَّلَامُ لِلْأَرْضِ حِينَ تُخْفِي دُمُوعَ الَّذِينَ سَقَطُوا قَبْلَ الْوُصُولِ.
السَّلَامُ لِلرِّيحِ الَّتِي تُرَبِّتُ عَلَى ظَهْرِ الذِّئَابِ،
وَتَتْرُكُ لَهُمْ رَائِحَتَنَا كَكِتَابٍ مَفْتُوحٍ.

**(8)**

## السَّاهِرِينَ

(لِإِنْشَادِ الْحَرَسِ الرُّوحِيِّينَ)

نَحْنُ السَّاهِرُونَ عَلَى جَفْنِ الطَّرِيقِ،
لَا نَنَامُ كَيْ يَنَامَ غَيْرُنَا.
نُمْسِكُ اللَّيْلَ مِنْ كَتِفِهِ وَنَقُولُ لَهُ:
- تَأَنَّ،
فَثَمَّةَ مَنْ يَعُودُ مُتْعَبًا مِنَ السَّفَرِ فِي جَسَدِهِ.

أَيُّهَا السَّائِرُونَ بِأَقْدَامٍ تَحَرَّرَتْ مِنْ وَزْنِهَا،
عُودُوا إِلَيْنَا بِاسْمَيْنِ:
اسْمٌ يَعْرِفُهُ الْجَسَدُ،
وَاسْمٌ يَعْرِفُهُ اللهُ.

## (9)
## الْغَيْمَةِ الْمُهَاجِرَةِ

**(يُنْشَدُ حِينَ تَتَدَلَّى الْغَيْمَةُ فَوْقَ السَّاحَةِ)**

يَا غَيْمَةً تَسِيرُ وَلَا تَتَذَكَّرُ لِمَاذَا بَدَأَتْ،
قُولِي لَنَا:
- هَلِ الطَّرِيقُ يُكْمِلُ نَفْسَهُ،
أَمْ نَحْنُ الَّذِينَ نُكْمِلُهُ؟
يَا غَيْمَةُ،
يَا جَنَاحًا بِغَيْرِ طَائِرٍ،
وَيَا بَيَاضًا بِغَيْرِ صَدًى،
كُونِي شَاهِدَةً عَلَى ذَلِكَ الَّذِي صَعِدَ مِنْ حُدُودِهِ إِلَى الْقُدْرَةِ الَّتِي وَهَبَتْهُ إِيَّاهَا الْأَرْوَاحُ، وَمِنْ جَسَدِهِ إِلَى لُغَةٍ لَمْ يَعْرِفْهَا بَعْدُ.

## (10)
## الشُّرُوقِ

**جَوْقَةُ الْأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** يَا شَمْسَ الْعَابِرِينَ، ارْفَعِي رَايَتَكِ فَوْقَ الصَّمْتِ، وَاعْقِدِي حِلْفًا مَعَ خُطَانَا كَيْ لَا نَعُودَ إِلَى مَنَافِي الْأَعْوَامِ الْقَدِيمَةِ. نُنْشِدُ مَعَكِ:

لَا ظِلَالَ بَعْدَ الْيَوْمِ،
إِلَّا الظِّلَالُ الَّتِي نَخْتَارُهَا.

(11)

## الِابْتِهَالِ الْعَظِيمِ - صَلَاةُ إِعَادَةِ الْخَلْقِ

**الْفُوتُوغْرَافِيُّ الْعَجُوزُ**: أَيُّهَا الْفَجْرُ، يَا ابْنَ اللَّيْلِ وَبِشَارَةَ النَّهَارِ، أَيْقِظْ فِينَا الْجُسُورَ الَّتِي سَقَطَتْ، وَافْتَحْ مَسَامَاتِ الْأَرْضِ لِنَنْبَعِثَ مِنْ بَيْنِ شُقُوقِهَا.

**جَوْقَةُ الْأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ**: اجْعَلْنَا شَعْبًا مَصْنُوعًا مِنَ الطَّرِيقِ، لَا يَأْبَهُ بِالْحُرَّاسِ، وَلَا تُخِيفُهُ صَرَخَاتُ الذِّئَابِ.

(12)

## مِيثَاقِ الْعَوْدَةِ

**الْجُنْدِيُّ الْجَرِيحُ**: لِيَتَقَدَّمِ الْعَابِرُونَ إِلَى مُنْتَصَفِ السَّاحَةِ، وَلْيَضَعْ كُلٌّ مِنْهُمْ يَدَهُ عَلَى صَدْرِهِ، فَهَذَا هُوَ الْوَقْتُ الَّذِي يَتَسَاوَى فِيهِ الْجُرْحُ مَعَ الشِّفَاءِ، وَالرَّحِيلُ مَعَ الْبَقَاءِ.

**جَوْقَةُ الْأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ**: نُقْسِمُ عَلَى أَنْ نَرِثَ الضَّوْءَ، وَأَنْ نَتْرُكَ اللَّيْلَ يَنَامُ فِي مَكَانِهِ، وَأَلَّا نَعُودَ إِلَى الضَّيَاعِ إِلَّا لِنُخْرِجَ مِنْهُ مَنْ ضَاعَ.

(13)

## الْبَرَكَةِ النُّورَانِيَّةِ

**الْفُوتُوغْرَافِيُّ الْعَجُوزُ**: لِتَكُنْ خُطَاكُمْ مَمْهُورَةً بِصَلْصَالِ الْفَجْرِ، وَلْتَكُنْ أَصْوَاتُكُمْ جَمَرَاتٍ صَغِيرَةً تُضِيءُ الطَّرِيقَ لِمَنْ يَأْتِي بَعْدَكُمْ.

**جَوْقَةُ الْأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ**: نَخْرُجُ مِنْ هَذَا الْقُدَّاسِ، وَفِي أَيْدِينَا مَفَاتِيحُ النَّهَارِ، وَفِي قُلُوبِنَا وَطَنٌ يُدِيرُهُ الضَّوْءُ، وَلَا تُدِيرُهُ الْمَخَافِرُ.

4

# مَزَامِيرُ يَوْمِ القِيَامَةِ الحُدُودِيَّةِ

مَزْمُور

**(1)**

**(فَتْحِ السِّجِلِّ)**

**الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ**: يَا رَبَّ الفَوَاصِلِ الَّتِي تَتَلَاشَى حِينَ يَكْتَمِلُ المَعْنَى، يَا حَارِسَ الجِهَاتِ الأَرْبَعِ، نُعْلِنُ فِي هَذَا اليَوْمِ قِيَامَ الحُدُودِ مِنْ غَفْلَتِهَا لِتُحَاسَبَ، لَا لِتُحَاسِبَ.

**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ**: نَفْتَحُ أَعْيُنَنَا عَلَى أَرْضٍ كَانَتْ تَخَافُ أَسْمَاءَهَا، وَنَشْهَدُ انْكِسَارَ الأَسْلَاكِ، وَبِدَايَةَ العَدِّ العَكْسِيِّ لِلصَّمْتِ.

مَزْمُور

**(2)**

**(صَدْمَةِ الأَبْوَاقِ)**

**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ**: ضَرَبَتِ السَّمَاءُ بُوقَهَا الأَوَّلَ، فَارْتَجَفَ الرَّمْلُ فِي رَاحَتَيْهِ، وَخَرَجَتْ مِنْ دَاخِلِ المَعَابِرِ أَصْوَاتٌ لَمْ يُعْرَفْ أَصْحَابُهَا، كَأَنَّهَا أَرْوَاحُ الَّذِينَ لَمْ يَصِلُوا أَبَدًا.

**الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ**: بُوقٌ ثَانٍ، فَانْفَتَحَ المَمَرُّ الغَرْبِيُّ، وَتَدَلَّتْ مِنْهُ خَرَائِطُ مُمَزَّقَةٌ مِنْ كَثْرَةِ العُبُورِ.

**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ**: بُوقٌ ثَالِثٌ، فَانْشَقَّ اللَّيْلُ الَّذِي كَانَ نَائِمًا تَحْتَ الجِبَالِ، وَمَشَى الظَّلَامُ إِلَى نِهَايَتِهِ.

مَزْمُور

**(3)**

**(مُحَاكَمَةِ الأَرْضِ الحَرَامِ)**

**الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ**: نَسْتَدْعِي اليَوْمَ الأَرْضَ الحَرَامَ لِتَقِفَ أَمَامَنَا شَاهِدَةً وَمُتَّهَمَةً:

**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ**: يَا أَرْضَ الحَرَامِ... هَلْ سَتَرَيْنَ مَا فَعَلَ بِكِ العَسْكَرُ؟ كَيْفَ تَرَكُوا عَلَى صَدْرِكِ العَارِي حُفَرًا تُشْبِهُ أَفْوَاهَ الذِّئَابِ؟ هَلْ سَتَقُولِينَ أَسْمَاءَ الَّذِينَ ابْتَلَعْتِ

جُثَثَهُمْ كَيْ لَا يَنْهَبَهَا اللَّيْلُ؟ نَحْنُ نَسْمَعُكِ يَا أَرْضُ، وَلَوْ تَكَلَّمْتِ بِالحِجَارَةِ، وَلَوْ بَكَيْتِ بِالغُبَارِ.

**الأَرْضُ** (صَوْتٌ خَفِيٌّ): لَمْ أُرِدْ أَنْ أَكُونَ مَقْبَرَةً، لَكِنَّ أَقْدَامَهُمْ جَعَلَتْنِي شَاهِدَةً عَلَى مَوْتٍ لَا يَمْلِكُ اسْمًا. أَعِيدُوا إِلَيَّ أَبْنَائِي كَيْ أَعُودَ تُرَابًا جَارِحًا فَقَطْ، لَا سِجِلًّا أَسْوَدَ.

**(4)**

## (قِيَامِ المَفْقُودِينَ)

**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** مِنْ تَحْتِ السِّلْكِ الشَّائِكِ، مِنْ ثُقُوبِ اللَّيَالِي المَتْرُوكَةِ، قَامُوا... قَامُوا... بِلا أَجْنِحَةٍ وَلَا ظِلٍّ، لَكِنَّ أَصْوَاتَهُمْ كَانَتْ تُمَزِّقُ الهَوَاءَ، كَأَنَّهَا عَلَى مَوْعِدٍ مَعَ آخِرِ الحَقِيقَةِ.

**الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ:** لِكُلِّ مَفْقُودٍ ضَوْءٌ صَغِيرٌ فَوْقَ جَبِينِهِ.

**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** أَنَنْسَى مَوْتَهُمْ؟ كَيْفَ نَنْسَى وَهُمْ الآنَ يَقِفُونَ بَيْنَنَا أَكْثَرَ حَيَاةً مِنَّا؟

**(5)**

## (لَعْنَةِ الأَسْلَاكِ)

**الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ:** أَقْسِمُوا الآنَ، يَا أَبْنَاءَ اللَّيْلِ وَالفَجْرِ، أَلَّا يَعُودَ سِلْكٌ إِلَى رَقَبَةِ إِنْسَانٍ.

**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** نُقْسِمُ بِحِجَارَةِ الوِدْيَانِ، وَأَصْدَافِ البَحْرِ، وَبِدِمَاءِ الَّذِينَ لَمْ يَرْجِعُوا، أَنْ نَنْزِعَ مِنَ الأَرْضِ حَقَّ الحُدُودِ الَّتِي لَا ذَاكِرَةَ لَهَا.

**الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ:** مَلْعُونٌ كُلُّ حَارِسٍ بِلا قَلْبٍ، وَمَلْعُونٌ كُلُّ جِدَارٍ لَا يَعْرِفُ أَنَّ الرِّيحَ أَقْوَى مِنْهُ.

**(6)**

## (تَدْوِينِ اللَّحْظَةِ الأَخِيرَةِ)

**النَّاسِخُ السِّرِّيُّ:** كَتَبَ المَلَاكُ الأَعْمَى فِي السِّجِلِّ النِّهَائِيِّ:

1- أَنَّ النَّهَارَ لَا يُفْلِحُ إِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ مَنْ يَحْمِلُهُ.

2- أَنَّ المَوْتَ عَابِرٌ مِثْلَ ظِلٍّ ثَقِيلٍ، لَا يَسْكُنُ أَحَدًا إِذَا قَاوَمَهُ.

3- أَنَّ الحُدُودَ سَتَعُودُ يَوْمًا خُطُوطًا مِنْ طَبَاشِيرَ، تَمْحُوهَا خُطْوَةُ طِفْلٍ أَوْ رَعْشَةُ مَطَرٍ.

**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** نَشْهَدُ عَلَى هَذَا السِّجِلِّ، وَنَضَعُ تَوْقِيعَاتِ أَرْوَاحِنَا فِي هَوَاءِ الفَجْرِ.

**(7)**

**(اخْتِفَاءِ المَخَافِرِ)**

**الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ:** تَعَالَوْا إِلَى مَرْكَزِ السَّاحَةِ، مَكَانِ الحَصْرِ وَالمَوْتِ، لِنَشْهَدَ اخْتِفَاءَ المَخَافِرِ.

**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** هَا هِيَ أَبْرَاجُ الحَرَسِ تَتَدَاعَى مِثْلَ أَوْرَاقٍ مُبْتَلَّةٍ، وَأَصْوَاتُ الصَّفَّارَاتِ تَذُوبُ فِي الهَوَاءِ كَمَا يَذُوبُ المِلْحُ فِي المَاءِ. لَمْ نَعُدْ نَرَاهُمْ، لَا الحَرَسَ، وَلَا الذِّئَابَ، وَلَا الأَسْلَاكَ. كَأَنَّ القِيَامَةَ جَعَلَتْهُمْ ظِلَالًا تَهْرُبُ مِنْ أَنْفُسِهَا.

**(8)**

**(بَرَكَةِ العَابِرِينَ فِي اليَوْمِ الأَخِيرِ)**

**الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ:** بِاسْمِ الحُدُودِ الَّتِي ذَابَتْ، وَاللَّيْلِ الَّذِي تَنَزَّلَ، وَالفَجْرِ الَّذِي نَهَضَ، نُبَارِكُ عُبُورَكُمْ، يَا أَبْنَاءَ النُّورِ. أَنْ يَكُونَ طَرِيقُكُمْ مَفْتُوحًا إِلَى مَا لَا نِهَايَةَ، وَأَنْ تَظَلَّ أَرْوَاحُكُمْ مُعَلَّقَةً بَيْنَ الأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، كَيْ لَا تُقْهَرَ خُطْوَةٌ بَعْدَ الآنَ.

**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** هَذَا يَوْمُ القِيَامَةِ الحُدُودِيَّةِ، هَذَا يَوْمُ وِلَادَةِ الأَرْضِ الخَامِسَةِ، الأَرْضِ الَّتِي تَمْشِي إِلَيْكُمْ كُلَّمَا صِرْتُمْ جَدِيرِينَ بِهَا. نَخْرُجُ الآنَ... مِنْ عَالَمٍ تَهَدَّمَ كَيْ نَحْمِلَهُ بِأَيْدِينَا إِلَى عَالَمٍ يَسْتَحِقُّ أَنْ نَعِيشَ فِيهِ.

# مَزَامِيرُ الأَبْوَابِ، وَتَرَاتِيلُ الأَرْضِ الحَرَامِ

(1)

**بَابُ الرُّؤْيَةِ**

يَا أَيُّهَا الدَّاخِلُ مِنْ جِرَاحِهِ، خَبِّئْ ضَوْءَكَ فِي رَاحَتَيْكَ، فَالمَدِينَةُ لَا تَحْتَمِلُ الشُّهُبَ. يَا أَيُّهَا الوَاقِفُ عِنْدَ الحَاجِزِ، اسْأَلْ ظِلَّكَ: "هَلْ هُوَ أَنْتَ، أَمْ سَابِقُكَ العَائِدُ لِيُبَلِّغَكَ الرِّسَالَةَ؟".

(2)

**بَابُ الغُفْرَانِ**

يَا حِجَارَةَ الطُّرُقَاتِ، أَنْصِتِي إِلَى خُطَى الَّذِينَ عَادُوا، فَإِنَّ الرِّيحَ الَّتِي سَاقَتْهُمْ إِلَى المَنْفَى جَاءَتْ بِهِمْ ثَانِيَةً لِيَمْلَؤُوا فُتَاتَ حَيَاتِهِمْ بِالمَعْنَى. لَا تُغْلِقِي الأَبْوَابَ بَعْدَ اليَوْمِ، فَالمُسَامَحَةُ نَهْرٌ لَا يَعْرِفُ غَلْقَ البَوَّابَاتِ.

(3)

**بَابُ الذِّكْرَى**

مَنْ يَجِدُ اسْمَهُ مَحْفُورًا عَلَى سَاعِدِهِ، فَلْيَتَذَكَّرْ أَنَّ الأَسْمَاءَ تُولَدُ مِنَ العَذَابِ. وَمَنْ يَرَ طُفُولَتَهُ تَعْبُرُ أَمَامَهُ كَطَائِرٍ مَذْعُورٍ، فَلْيَرْفَعْ يَدَهُ، وَلْيُقْسِمْ مَرَّةً أُخْرَى أَلَّا يُسَلِّمَهَا لِلْغُبَارِ.

(4)

**بَابُ الظِّلِّ**

ظِلُّ الأَبِ وَاقِفٌ فِي آخِرِ السَّاحَةِ، يَرْفَعُ قَمِيصًا خَفِيفًا مِنْ أَشْوَاقٍ قَدِيمَةٍ، وَيَقُولُ لِإِيكَارَ العَائِدِ مِنْ مَوْتِهِ:

- إِذَا سَقَطْتَ مَرَّةً أُخْرَى، فَاسْقُطْ نَاحِيَةَ الضَّوْءِ، فَالهَاوِيَةُ امْتَلَأَتْ بِأَبْنَائِي.

**(5)**

## بَابُ المُهَاجِرِينَ

يَا غَيْمَةً عَبَرَتْ فَوْقَ الحُدُودِ وَلَمْ تُسَجَّلْ فِي سِجِلِّ أَحَدٍ، أَخْبِرِينَا:

- أَيُّ سَمَاءٍ تَتَعَلَّقُ بِهَا الأَرْوَاحُ وَهِيَ تَهْرُبُ؟

يَا طِفْلًا مُهَرَّبًا لِخُطَاهُ عَبْرَ الخَرَائِطِ المُحَرَّمَةِ، حَافِظْ عَلَى جَرَسِكَ الدَّاخِلِيِّ، فَإِنَّ العَالَمَ يُصْغِي أَحْيَانًا إِلَى أَضْعَفِ أَنْفَاسِ مَنْ يَمْشُونَ وَحْدَهُمْ.

**(6)**

## بَابُ الرَّحْمَةِ

مَنْ رَأَى ذِئْبًا يَقْتَرِبُ مِنْ جَسَدِ إِيكَارَ، فَلَا يَلْعَنِ الذِّئْبَ، فَالذِّئَابُ لَا تَعْرِفُ القَانُونَ، لَكِنَّ الحُرَّاسَ يَعْرِفُونَهُ. وَمَنْ رَأَى مَلَاكًا أَعْمَى يَمْسَحُ التُّرَابَ عَنْ جَبْهَةِ المَيِّتِ، فَلْيَعْلَمْ أَنَّ الرَّحْمَةَ فِي اليَدِ الَّتِي تَظَلُّ تَبْحَثُ... لَا فِي العُيُونِ.

**(7)**

## بَابُ الرَّمَادِ

يَا مَدِينَةَ الرَّمَادِ، قِفِي وَانْفُضِي حُزْنَكِ كَالجَسَدِ حِينَ يَنْهَضُ مِنْ كَابُوسِهِ. سَيَأْتِيكِ إِيكَارُ مِنْ بَيْنِ الشُّقُوقِ، لِيَمْنَحَ الهَوَاءَ جِهَةً جَدِيدَةً، وَيُعَلِّقَ عَلَى بَوَّابَتِكِ خَرَائِطَ لَا تَنْتَهِي بِالنِّهَايَاتِ.

**(8)**

## بَابُ الصُّعُودِ

قُولُوا لِلْبَحْرِ:

- كُفَّ عَنْ ابْتِلَاعِ العَابِرِينَ.

وَقُولُوا لِلشَّمْسِ:

- خَفِّفِي مِنْ حُمَّى الهَزَائِمِ.

فَقَدْ صَعِدَتْ رُوحٌ وَاحِدَةٌ تَزِنُ أَلْفَ جِيلٍ، وَتَحْمِلُ فِي جَنَاحَيْهَا قِصَّةَ العَالَمِ كَمَا كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ.

(9)

## بَابُ الحُرِّيَّةِ

تَذَكَّرُوا: أَنَّهُ حِينَ مَاتَ إِيكارُ انْكَسَرَتْ حُدُودٌ، وَسَقَطَ وَجْهٌ مِنْ وُجُوهِ الخَوْفِ. وَأَنَّهُ حِينَ قَامَ لَمْ يَقُمْ وَحْدَهُ... قَامَتْ مَعَهُ الأَسْئِلَةُ الَّتِي خَافَ النَّاسُ مِنْ طَرْحِهَا.

(10)

## بَوَّابَةُ الغُفْرَانِ

**الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ:** يَا مَنْ عَبَرْتُمْ بِأَقْدَامٍ كَانَتْ تُشْبِهُ الأَجْنِحَةَ، هَذِهِ هِيَ البَوَّابَةُ الَّتِي لَا يُفْتَحُ قُفْلُهَا إِلَّا بِمِلْحِ الدُّمُوعِ.

**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** نَأْتِيكِ يَا بَوَّابَةَ الغُفْرَانِ كَمَنْ يَأْتِي بَيْتَهُ بَعْدَ غُرْبَةٍ طَوِيلَةٍ. نَأْتِيكِ بِلا سِلَاحٍ سِوَى النَّدَمِ، وَبِلَا ظِلٍّ سِوَى خُطَانَا القَدِيمَةِ.

(11)

## بَوَّابَةُ الحِجَارَةِ البَيْضَاءِ

**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** عَلَى العَتَبَةِ وُضِعَتْ سَبْعُ حِجَارَاتٍ بَيْضَاءُ، كَتَبَ عَلَيْهَا المَلَاكُ الأَعْمَى:

1- مَنْ أَذْنَبَ خَوْفًا يُغْفَرُ لَهُ.

2- مَنْ حَمَلَ خَطِيئَتَهُ كَزَمَنٍ عَلَى ظَهْرِهِ يُغْفَرُ لَهُ.

3- مَنْ سَقَطَ فِي الطَّرِيقِ وَظَلَّ يُحِبُّ الطَّرِيقَ يُغْفَرُ لَهُ.

4- مَنْ خَانَ عُبُورَهُ كَيْ يَحْمِيَ آخَرَ يُغْفَرُ لَهُ.

5- مَنْ أَكَلَتِ الذِّئَابُ اسْمَهُ يُغْفَرُ لِذِكْرَاهُ.

6- مَنْ ضَلَّ فِي المَنْفَى وَعَادَ يُغْفَرُ لِجَسَدِهِ.

7- مَنْ لَمْ يَعْرِفْ نَفْسَهُ يُغْفَرُ لِقَلْبِهِ.

(هَذِهِ حِجَارَاتُنَا، وَهَذِهِ أَعْمَارُنَا).

**(12)**

## بَوَّابَةُ عُبُورِ الظِّلَالِ

**الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ**: أَدْخِلُوهَا وَاحِدًا وَاحِدًا، فَمَنْ يَمُرُّ فِي بَوَّابَةِ الغُفْرَانِ يَتْرُكُ ظِلَّهُ وَرَاءَهُ كَقَمِيصٍ مَمْدُودٍ عَلَى حَبْلِ الرِّيحِ.

**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ**: وَالظِّلُّ الرَّاحِلُ لَنْ يَعُودَ، لِأَنَّ الغُفْرَانَ لَا يَعْرِفُ طَرِيقَ الرُّجُوعِ.

**الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ**: رَأَيْتُ العَابِرِينَ يَرْكُضُونَ كَضَوْءٍ يَبْحَثُ عَنِ اسْمِهِ.

**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ**: طُوبَى لِمَنْ رَأَى المِرْآةَ وَلَمْ يُكَسِّرْهَا.

**المَلَاكُ الأَعْمَى**: كُلُّ مَنْ عَرَفَ طَرِيقَهُ صَارَ هُوَ الحُدُودَ الجَدِيدَةَ، وَكُلُّ مَنْ ضَلَّ صَارَ جُزْءًا مِنْ ذَاكِرَةِ المَخْفَرِ الأَخِيرِ.

**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ**: سَنَحْرُسُ، وَلَكِنْ لَيْسَ لِنَمْنَعَ. سَنَظَلُّ صَامِتِينَ، كَيْ يُسْمَعَ صَوْتُ العَابِرِينَ فَقَطْ.

**الفُوتُوغْرَافِيُّ العَجُوزُ وَالجَوْقَةُ مَعًا**: لَقَدِ انْتَهَى زَمَنُ المُرَاقَبَةِ، وَانْتَهَى زَمَنُ الخَوْفِ. العَابِرُونَ أَصْبَحُوا خَرِيطَةً حَيَّةً، وَالذِّئَابُ وَالحُدُودُ وَالحُرَّاسُ صَارُوا جُزْءًا مِنْ قِصَّتِهِمْ، جُزْءًا مِنَ الضَّوْءِ، وَجُزْءًا مِنَ الأَرْضِ المَفْتُوحَةِ.

**(12)**

## بَوَّابَةُ المَزَامِيرِ

سَلَامٌ عَلَى مَنْ يَدْخُلُ وَلَا يَخَافُ،
سَلَامٌ عَلَى مَنْ يَخْرُجُ وَلَا يَلْتَفِتُ،
سَلَامٌ عَلَى الَّذِينَ أَتَمُّوا الرِّحْلَةَ،
وَعَلَى الَّذِينَ لَمْ يَبْدَؤُوهَا بَعْدُ.
فَالمَدِينَةُ، مُنْذُ اليَوْمِ،
تَحْرُسُ أَبْوَابَهَا بِالمَزَامِيرِ،
لَا بِالأَسْلِحَةِ المُغَطَّاةِ بِلَطَخَاتِ الدَّمِ.

6

# قُدَّاسُ تَنْزِيلِ اللَّيْلِ عَلَى العَابِرِينَ

كِتَابٌ طَقْسِيٌّ يُتْلَى بَعْدَ غِيَابِ الشَّمْسِ، حِينَ يَبْدَأُ الخَوْفُ حِرَاسَتَهُ، وَتَفْتَحُ الحُدُودُ أَبْوَابَهَا المُظْلِمَةَ. يُشْبِهُ هَذَا القُدَّاسُ صَلَاةً سِرِّيَّةً تُتْلَى تَحْتَ القَمَرِ، تَتَدَاخَلُ فِيهَا أَصْوَاتُ المَلَاكِ الأَعْمَى، وَالطِّفْلِ الدَّاخِلِيِّ، وَظِلِّ الأَبِ، وَالفُوتُوغْرَافِيِّ العَجُوزِ، وَالبَحْرِ/المَخَافِرِ، وَالغَيْمَةِ الَّتِي تُرَاقِبُ مِنْ أَعْلَى. وَيَتَوَزَّعُ عَلَى خَمْسِ تَرَاتِيلَ لَيْلِيَّةٍ، كَمَا يَفْعَلُ الرُّهْبَانُ حِينَ يَقْرَأُونَ الأَسْفَارَ عَلَى مَرَاحِلَ، وَتَحْتَوِي كُلُّ تَرْنِيمَةٍ طُقُوسًا، وَكُورَالَاتٍ، وَصَلَوَاتٍ.

تَرْنِيمَةٌ

## التَّرْنِيمَةُ الأُولَى
## الظِّلُّ

(عَادَ اللَّيْلُ إِلَى الأَرْضِ، فَبَدَأَتِ الطُّقُوسُ)

**1- افْتِتَاحِيَّةُ السُّكُونِ**

يَا لَيْلُ، أَيُّهَا الظِّلُّ الكَامِلُ، يَا غِطَاءَ الجَسَدِ المُرْتَجِفِ، انْزِلْ عَلَيْنَا كَرَفْرَفَةِ جَنَاحٍ لَا يُبَانُ، وَكَهَمْسِ أُمٍّ تُطْفِئُ آخِرَ شَمْعَةٍ وَتَتْرُكُ البَابَ مُوَارَبًا.

**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ**: نَحْنُ العَابِرُونَ فِي حَوَافِّكَ، نَخَافُ نُورَ النَّهَارِ، لَكِنَّنَا نَخَافُكَ أَقَلَّ.

**2- صَلَاةُ الدُّخُولِ إِلَى الظُّلْمَةِ**

يَا خُطُوَاتِنَا، تَخَفَّفِي الآنَ، فَهَذَا لَيْلٌ يُحِبُّ الخِفَّةَ، كَمَا تُحِبُّ الحُدُودُ الأَسْمَاءَ. يَا أَجْسَادُ، انْزَعِي دَوِيَّ النَّهَارِ عَنْ ضُلُوعِكِ، وَاتْرُكِي لِلظَّلَامِ أَنْ يَقْرَأَ نَبْضَكِ، كَمَا يَقْرَأُ الرَّاهِبُ كِتَابًا بِلا حُرُوفٍ.

**3- لِيتُورْجِيَا ظِلِّ الأَبِ**

يَا أَبًا يَعْرِفُ الطَّرِيقَ... وَلَا يَعْرِفُ كَيْفَ يَعُودُ، قُدِ ابْنَكَ العَابِرَ كَمَا تَقُودُ الشَّجَرَةُ جُذُورَهَا إِلَى ظُلْمَةِ الأَرْضِ: بِلا خَوْفٍ، وَبِلَا مَعْرِفَةٍ، إِلَّا مَعْرِفَةَ الظِّلَالِ.

## التَّرْنِيمَةُ الثَّانِيَةُ
## إِنْجِيلُ اللَّيْلِ
(الَّذِي تَتَحَدَّثُ فِيهِ الكَائِنَاتُ الَّتِي لَا تَظْهَرُ إِلَّا بَعْدَ الغُرُوبِ)

**1- المَلَاكُ الأَعْمَى**

يَا بَنِي البَشَرِ، لَا تَخَافُوا عَتْمَةَ الطَّرِيقِ، فَالضَّوْءُ الَّذِي فِي صُدُورِكُمْ أَشَدُّ بَيَاضًا مِمَّا تَعِدُ بِهِ الشَّمْسُ. أَنَا المَلَاكُ الَّذِي لَا يَرَى شَيْئًا إِلَّا الحَقِيقَةَ حِينَ يَلْمِسُهَا بِأَصَابِعِهِ. اتَّبِعُونِي، فَأَنَا أَعْرِفُ العَمَى كَمَا يَعْرِفُ الآخَرُونَ البَصَرَ.

**2- الذِّئَابُ**: (يُتْلَى مِنْ خَلْفِ التِّلَالِ، بِصَوْتٍ هُوَ نِصْفُ عُوَاءٍ وَنِصْفُ صَلَاةٍ)
يَا لَيْلُ، افْتَحْ لَنَا أَبْوَابَكَ، فَنَحْنُ لَا نَفْتَرِسُ إِلَّا الخَوْفَ، وَلَا نُطَارِدُ إِلَّا الظِّلَالَ حِينَ تَهْرُبُ مِنْ أَنْفُسِهَا.
**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ**: عَلِّمْنَا يَا لَيْلُ كَيْفَ نَمْشِي مِنْ غَيْرِ أَنْ نَجْرَحَ أَقْدَامَ العَابِرِينَ.

**3- الغَيْمَةُ المُهَاجِرَةُ:**

يَا غَيْمَةً تَعُومُ فَوْقَ المَعَابِرِ، قُولِي لِلَّذِينَ يَنْتَظِرُونَ: لَا اللَّيْلُ يَدُومُ، وَلَا النَّهَارُ يَكْفِي. أَنْتُمُ الطَّرِيقُ، وَأَنْتُمُ العَلَامَةُ الَّتِي نَسِيَتْ أَنْ تَعُودَ.

## التَّرْنِيمَةُ الثَّالِثَةُ
رِثَاءُ الخُطْوَةِ
(الطُّقُوسُ الَّتِي تُقَامُ مِنْ أَجْلِ "الخُطْوَةِ" الأُولَى حِينَ تَخْذُلُ جَسَدَ صَاحِبِهَا)

**1- قُدَّاسُ العَثَرَاتِ**: يَا خُطْوَتِي، لَقَدْ كُنْتِ جَنَاحِي، وَغُصْنًا أَسْتَنِدُ إِلَيْهِ، فَلِمَاذَا رَجَفْتِ حِينَ رَأَيْتِ العَسْكَرَ أَقْرَبَ مِنْ حُلْمِي؟ اغْفِرِي لِي، فَأَنَا الَّذِي طَالَبْتُكِ أَنْ تُصْبِحِي طَائِرَةً، وَأَنْ تَفْتَحِي السَّمَاءَ بِرِجْلَيْكِ العَارِيَتَيْنِ.
**2- مَدَائِحُ الطِّفْلِ الدَّاخِلِيِّ**: يَا صَغِيرًا يَجْمَعُ اللَّيْلَ فِي جَيْبِهِ وَيَبِيعُهُ نَهَارًا لِلْعَابِرِينَ، أَخْبِرْنَا: هَلِ الطَّرِيقُ لُعْبَةٌ؟ هَلِ الخَوْفُ زَائِرٌ؟ هَلِ الذَّنْبُ شَجَرَةٌ بِلا جُذُورٍ؟
ابْتَسَمَ الصَّغِيرُ وَقَالَ:

- أَنَا لَا أَبِيعُ اللَّيْلَ، أَنَا أُعَلِّمُهُ كَيْفَ يَمْشِي.
**3- كُورَالُ الأَبْوَابِ المُقْفَلَةِ:** نَحْنُ أَبْوَابُ المَدِينَةِ، أُغْلِقْنَا فِي وُجُوهِكُمْ لِأَنَّكُمْ خَائِفُونَ. اغْفِرُوا لَنَا، فَالأَبْوَابُ أَيْضًا لَهَا قُلُوبٌ.

## التَّرْنِيمَةُ الرَّابِعَةُ

تَسْبِيحَةُ البَحْرِ فِي العَتْمَةِ

(اللَّحْظَةُ الَّتِي يُخَاطِبُ فِيهَا البَحْرُ اللَّيْلَ)

**1- إِنْشَادُ المِيَاهِ:** يَا لَيْلُ، إِنَّنِي لَا أَرَى النُّجُومَ حِينَ تَعُومُ فَوْقِي، لَكِنَّنِي أَسْمَعُهَا وَهِيَ تُنَادِي العَابِرِينَ بِأَسْمَائِهِمُ القَدِيمَةِ. خُذْ هَذَا المَوْجَ قُرْبَانًا، وَدَعْنِي أَكُنْ صَوْتَ الطَّرِيقِ الَّذِي يَسْبِقُ المَوْتَ.

**2- صَلَوَاتُ المَخَافِرِ:** يَا حُدُودُ، يَا جِدَارًا مِنْ ضَوْءٍ كَاذِبٍ، اتْرُكِي لِلَّيْلِ أَنْ يُعَلِّمَكِ الرَّحْمَةَ. فَالعَابِرُونَ لَيْسُوا لُصُوصًا، إِنَّهُمْ ضُيُوفٌ لَا وَقْتَ لَدَيْهِمْ لِيَشْرَحُوا سَبَبَ الزِّيَارَةِ.

**3- التَّوَسُّلُ الأَخِيرُ:** يَا لَيْلُ، إِنْ كُنْتَ سَتَأْخُذُ أَحَدًا اللَّيْلَةَ، فَخُذْ خَوْفَهُ، وَاتْرُكْهُ لِلنُّجُومِ كَيْ تُلْبِسَهُ رِدَاءً أَخَفَّ.

## التَّرْنِيمَةُ الخَامِسَةُ

قِيَامُ اللَّيْلِ

(الخِتَامُ الَّذِي يُولَدُ فِيهِ الصَّمْتُ)

**1- صَلَاةُ مَا قَبْلَ الفَجْرِ:** يَا لَيْلُ، اقْتَرَبَ الفَجْرُ، فَاخْتِمْ هَذِهِ الخُطَى بِبَرَكَتِكَ، وَاجْعَلِ الَّذِينَ عَبَرُوا يَعْرِفُونَ أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا وَحْدَهُمْ، وَأَنَّ الصَّوْتَ الَّذِي سَمِعُوهُ كَانَ ظِلَالَهُمْ وَهِيَ تَعُودُ.
**2- القِيَامَةُ اللَّيْلِيَّةُ:** يَا لَيْلُ، كُلُّ مَوْتٍ يَقَعُ فِيكَ يَقُومُ مِنْكَ أَيْضًا. وَكُلُّ طَرِيقٍ تُغْلِقُهُ المَخَافِرُ تَفْتَحُهُ أَجْنِحَةٌ لَا تَرَاهَا إِلَّا العُيُونُ المُغْمَضَةُ.
**3- مُبَارَكَةُ العَابِرِينَ:** اذْهَبُوا بِسَلَامٍ، يَا أَقْدَامَ الهَارِبِينَ، وَيَا قُلُوبَ المُتَرَدِّدِينَ، وَيَا ظِلَالَ التَّائِهِينَ. اذْهَبُوا، فَهَذَا اللَّيْلُ لَمْ يَكُنْ ظَلَامًا، وَإِنَّمَا كَانَ كِتَابًا كُتِبَ مِنْ أَجْلِكُمْ.

7

# قُدَّاسُ الحُدُودِ

(مِنْ كِتَابٍ طَقْسِيٍّ لِلْعَابِرِينَ بَيْنَ الظِّلَالِ)

## التَّرْتِيلُ الأَوَّلُ

مَزْمُور

### مَزْمُورُ الفَجْرِ الجَدِيدِ

**1- افْتِتَاحِيَّةُ الضَّوْءِ** (يُنَادَى بِهَا قَبْلَ أَنْ تَتَنَفَّسَ المَدِينَةُ)
يَا ضَوْءُ... يَفْتُقُ جِلْدَ اللَّيْلِ، تَقَدَّمْ... وَاجْعَلْنَا نَرَاكَ كَمَا تَرَى الأَقْدَامُ الطَّرِيقَ.
**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ**: نَحْنُ أَبْنَاءُ الخُطْوَةِ الأُولَى، وَوَدَائِعُ الشَّكِّ، فَاغْمُرْنَا بِيَقِينٍ لَا يُشْبِهُ اليَقِينَ.

**2- دُعَاءُ العَابِرِ**: يَا مَنْ يَرْكُضُ إِلَى خَلَاصِهِ، وَيَحْمِلُ خَوْفَهُ مِثْلَ مِصْبَاحٍ يَكَادُ يَنْطَفِئُ،
- قِفْ. وَأَشْفِقْ عَلَى كَآبَةِ العَابِرِ كَمَا تُشْفِقُ أُمٌّ عَلَى طِفْلِهَا: بِهَمْسٍ لَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ.

**3- الظِّلُّ القَتِيلُ**: يَا ظِلَّ القَتِيلِ المَصْلُوبِ عَلَى جِدَارِ غِيَابِنَا، انْحَدِرْ وَخُذْ بِيَدِ الطِّفْلِ الدَّاخِلِيِّ، فَقَدْ ضَاعَ مِنْهُ اللَّيْلُ حِينَ رَأَى القَمَرَ يَلْبَسُ قُبَّعَةَ العَسْكَرِ.

**4- إِنْجِيلُ الفَجْرِ**: (يُقْرَأُ بِصَوْتِ الفُوتُوغْرَافِيِّ العَجُوزِ)
هَكَذَا قَالَ الحَارِسُ الأَخِيرُ:
إِنَّ الضَّوْءَ لَا يَصْنَعُ طَرِيقًا، وَإِنَّمَا يَكْشِفُ مَنْ فَقَدُوهُ.
وَهَكَذَا قَالَتِ الكَامِيرَا:
احْفَظُوا الصُّورَةَ، لَيْسَ كَيْ تَتَذَكَّرُوا، وَإِنَّمَا كَيْ تَذْكُرَكُم بِالجُنُونِ حِينَ تَتَلَاشَى آخِرُ صِلَةٍ لَكُمْ بِالحَيَاةِ.

# التَّرْتِيلُ الثَّانِي

## مَزْمُورُ العُبُورِ
(طُقُوسُ الدُّخُولِ إِلَى الأَرْضِ الحَرَامِ)

1- **قُدَّاسُ المَلَاكِ الأَعْمَى:** يَا مَلَاكًا يَرَى القَلْبَ، قُدْنَا إِلَى حَيْثُ لَا نَعْرِفُ، وَلَا نُحْسِنُ السُّؤَالَ.
**جَوْقَةُ الأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ:** عَلِّمْنَا أَنْ نَرَى بِالنَّبْضِ، وَبِالعَمَى، وَبِالحُلْمِ الَّذِي يُمْسِكُ بِالهَوَاءِ كَأَنَّهُ يَدٌ.

قَالَ المَلَاكُ الأَعْمَى، الوَاقِفُ عَلَى حَافَّةِ النَّصِّ، حَيْثُ لَا بَدَايَةَ وَلَا خَاتِمَةَ:
- الخَوْفُ هُوَ اسْمِي الأَوَّلُ.
قَبْلَ أَنْ أُدْعَى مَلَاكًا، كُنْتُ ارْتِعَاشَةً فِي صَدْرِ النُّورِ، وَقَبْلَ أَنْ أَسْقُطَ كُنْتُ سُؤَالًا لَمْ يَحْتَمِلْهُ العَرْشُ.
لَمْ يُفْقِدْنِي السُّقُوطُ بَصَرِي، وَلَكِنْ أَفْقَدَتْنِيهِ كَثْرَةُ الرُّؤْيَةِ، فَالَّذِي يَرَى الأَصْلَ يَعْجِزُ عَنِ احْتِمَالِ الصُّوَرِ.
أَنَا الَّذِي عَلَّمْتُ البَشَرَ كَيْفَ يَضَعُونَ وُجُوهَهُمْ عَلَى الجُدْرَانِ، وَيَتْرُكُونَ قُلُوبَهُمْ فِي العَرَاءِ.

أَنَا الَّذِي هَمَسْتُ فِي أُذُنِ الحُدُودِ: كُونِي، فَكَانَتْ، كَفَزَعٍ مُتَجَسِّدٍ.
لَا تَلْعَنُوا الخَوْفَ، فَهُوَ لَمْ يُولَدْ شَيْطَانًا، وَإِنَّمَا وُلِدَ حَارِسًا لِبَابٍ نَسِيتُمْ لِمَاذَا وُضِعَ.
حِينَ خَافَ آدَمُ اخْتَبَأَ، وَحِينَ خَافَ قَابِيلُ سَمَّى الضَّرْبَةَ عَدْلًا، وَحِينَ خِفْتُمْ أَنْتُمْ سَمَّيْتُمُونِي قَمْعًا، وَنَسِيتُمْ أَنِّي كُنْتُ أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ: ظِلًّا يُرِيدُ أَنْ يَنَامَ.
يَا أَيُّهَا العَابِرُ، حِينَ نَظَرْتَ إِلَيَّ لَمْ تَرَ جَنَاحَيَّ، وَإِنَّمَا رَأَيْتَ نَدْبَةً فِي الهَوَاءِ، وَهَذَا حَسَنٌ.
فَالمَلَائِكَةُ الَّتِي تُرَى لَيْسَتْ حَقِيقِيَّةً.

اسْمِي الثَّانِي الصَّمْتُ، وَاسْمِي الثَّالِثُ المَصِيرُ.
أَمَّا اسْمِي الَّذِي لَا يُقَالُ، فَهُوَ الَّذِي شُطِبَ مِنْ هَذَا المَخْطُوطِ بِسِكِّينٍ تَرْتَجِفُ.[158]

---

[158]- هُنَا يُلَاحِظُ النَّاسِخُ أَنَّ السَّطْرَ الأَخِيرَ مُمَزَّقٌ، وَأَنَّ الوَرَقَ دَافِئٌ كَجِلْدِ كَائِنٍ حَيٍّ.

**2- مَزْمُورُ البَحْرِ/المَخَافِرِ**: (يُتْلَى حِينَ يَقْتَرِبُ العَابِرُونَ مِنْ نُقْطَةِ التَّفْتِيشِ)
أَيُّهَا البَحْرُ، يَا مَخَافِرَ مُمتَدَّةً مِثْلَ سَيْفٍ فِي جَسَدٍ، خَفِّفْ مُلُوحَتَكَ عَنْ شِفَاهِ الهَارِبِينَ. اتْرُكْ لَهُمْ قَلِيلًا مِنَ الرَّحْمَةِ، وَلَوْ كَانَ ظِلَّ مَوْجَةٍ.

**3- مَزْمُورُ الخَوْفِ**: يَا خَوْفُ... يَتَقَدَّمُ قَبْلَ الجَسَدِ، اهْدَأْ قَلِيلًا، فَالعَسْكَرُ مَشْغُولُونَ اللَّيْلَةَ بِمُلَاحَقَةِ الذِّئَابِ الَّتِي خَرَجَتْ مِنَ الحِكَايَةِ.

**4- مَزْمُورُ قُدَّاسِ الأَرْضِ الحَرَامِ**: (يَقْرَؤُهُ الكَهَنَةُ الَّذِينَ لَا مَدِينَةَ لَهُمْ)
هَذِهِ الأَرْضُ لَا تُعْطِي أَحَدًا اسْمًا، وَلَا تَحْفَظُ أَحَدًا. هِيَ أَرْضٌ تَسْتَقْبِلُ العَابِرِينَ كَمَا يَسْتَقْبِلُ الرَّمْلُ أَقْدَامَ المَوْتَى: بِلا قَسْوَةٍ، وَبِلَا شَفَقَةٍ.

## التَّرْتِيلُ الثَّالِثُ

## مَزْمُورُ السُّقُوطِ

(الطُّقُوسُ السَّوْدَاءُ، حِينَ تَفْتَحُ الذِّئَابُ أَفْوَاهَهَا)

**1- رِثَاءُ إِيكَارَ**: يَا رَجُلًا حَمَلَ الطَّرِيقَ كَجَنَاحَيْنِ، ثُمَّ اتَّسَعَتْ خُطُوَاتُهُ حَتَّى سَقَطَ... يَا إِيكَارُ، يَا مَنْ شَدَدْتَ خَرِيطَةَ العَالَمِ عَلَى صَدْرِكَ كَأَنَّهَا قَمِيصٌ لِلْخُلُودِ، لِمَاذَا تَرَكْتَنَا نَنْظُرُ إِلَى آخِرِ ظِلِّكَ وَهُوَ يَنْطَفِئُ بَيْنَ أَنْيَابِ الذِّئَابِ؟

**2- تَضَرُّعَاتُ اللَّيْلِ**: يَا لَيْلُ، يَا كَاتِمَ أَسْرَارِ المَذْعُورِينَ، أَجِّلْ ظَلَامَكَ سَاعَةً، لَعَلَّ مَنْ بَقِيَ يَعْرِفُ كَيْفَ يَعُودُ مِنْ خَوْفِهِ.

**3- مَزْمُورُ الذِّئَابِ**: (يَقْرَؤُهُ البَحْرُ)
**قَالَتِ الذِّئَابُ**: لَسْنَا جِيَاعًا، لَكِنَّ أَجْسَادَ العَابِرِينَ كَانَتْ أَخَفَّ مِنْ أَنْ تُقَاوِمَ الرِّيحَ، وَأَشْهَى مِنْ أَنْ تُتْرَكَ لِلتُّرَابِ.

**4- مَزْمُورُ الغَيْمَةِ المُهَاجِرَةِ**: يَا غَيْمَةً... سَقَطْتِ عَلَى دَوَّامَةِ الأَسَى، أَمْطِرِي عَلَى القُلُوبِ، فَلَعَلَّ أَمَلًا لَمْ يُكْتَبْ بَعْدُ يَنْبُتُ مِنْهَا.

# التَّرْتِيلُ الرَّابِعُ

مَزْمُور

## مَزْمُورُ كِتَابِ العَوْدَةِ
(طُقُوسُ القِيَامَةِ فِي المَلْحَمَةِ)

**1- الحِجَارَةُ الَّتِي تَفَتَّحَتْ**: يَا حِجَارَةَ الطَّرِيقِ، قُومِي، وَاحْكِي مَا رَأَيْتِهِ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، حِينَ مَرَّ إِيكارُ عَارِيَ الخُطُوَاتِ، وَرَأَيْتِ كَيْفَ خَرَجَ مِنْ جَسَدِهِ طَائِرٌ أَبْيَضُ.

**2- مَزْمُورُ العَوْدَةِ**: (يُتْلَى عِنْدَ شُرُوقِ الشَّمْسِ)
وَفِي اليَوْمِ الثَّالِثِ، أَفَاقَتِ الحُدُودُ مِنْ نَوْمِهَا، وَقَالَ البَحْرُ لِلشَّمْسِ: أَعِيدِي لَهُ اسْمَهُ. وَقَالَتِ الشَّمْسُ لِلرِّيحِ: أَعِيدِي لَهُ ظِلَّهُ. وَقَالَتِ الرِّيحُ لِلأَرْضِ: أَعِيدِي لَهُ خُطْوَتَهُ.

**3- مَزْمُورُ الزَّفَرَاتِ**: يَا قَمَرًا شَهِدَ قِيَامَتَهُ، اخْفِضْ ضَوْءَكَ لِيَعْرِفَ العَائِدُونَ أَنَّ القِيَامَةَ تَبْدَأُ خَافِتَةً، وَتَمْتَدُّ كَإِصْبَعِ طِفْلٍ يَرْسُمُ طَرِيقًا جَدِيدًا فِي الهَوَاءِ.

**4- مَزْمُورُ صَلَاةِ المَدِينَةِ**: إِلَهَ العَابِرِينَ، وَمَلَاكَ الظِّلَالِ، وَوَاهِبَ الأَقْدَامِ أَجْنِحَةً، بَارِكْ هَذِهِ المَدِينَةَ، وَاجْعَلْ أَبْوَابَهَا لَا تُغْلَقُ إِلَّا لِتَنْفَتِحَ مِنْ جَدِيدٍ.

8

# مَزَامِيرُ الطَّرِيقِ المَفْتُوحِ

(مِنْ كِتَابِ العَابِرِينَ)

**فَاتِحَةُ المَمَرِّ** (قِيلَ فِي افْتِتَاحِ الكِتَابِ):
"العَابِرُ أَوَّلُ مَا يَكُونُ غُبَارًا يَعْلَقُ بِقَدَمَيْهِ، ثُمَّ يَصِيرُ هُوَ قَدَمَيْهِ نَفْسَيْهِمَا، كَأَنَّ العَالَمَ لَا يَبْدَأُ إِلَّا مِنَ الرَّكْضِ. وَكُلُّ طَرِيقٍ لَا يُورِثُ وَجَعًا فَهُوَ طَرِيقٌ لَا يَلِيقُ بِالعَابِرِينَ.
قَالَ المَلَاكُ الأَعْمَى:
- لَيْسَ لِلْعُبُورِ عُمْرٌ، وَلَكِنْ لَهُ قَلْبٌ يَتَمَزَّقُ وَيَنْمُو فِي اللَّحْظَةِ عَيْنِهَا".

مَزْمُور

## (1)
## نَشْأَةُ الخُطْوَةِ

فِي البَدْءِ خُلِقَتِ الخُطْوَةُ، لَا الأَرْضُ. كَانَتِ الخُطْوَةُ تَهِيمُ بِلا تُرَابٍ، وَكَانَتِ الرِّيحُ رَفِيقَتَهَا الأُولَى.

**قَالَ العَابِرُ**: هَبِي لِي أَرْضًا.

فَتَجَمَّعَ التُّرَابُ مِنْ خَوْفِهِ، وَصَارَ مَمَرًّا.

وَهَكَذَا مَشَى الإِنْسَانُ قَبْلَ أَنْ تُوجَدَ جِهَةٌ أَوْ خَرِيطَةٌ. وَمُنْذُ ذَلِكَ الحِينِ، لَا تَزَالُ الجِهَاتُ تَرْكُضُ خَلْفَ العَابِرِ كَيْ تُنْسَبَ إِلَيْهِ.

مَزْمُور

## (2)
## مَوَاثِيقُ العَابِرِينَ

**المَوَاثِيقُ ثَلَاثَةٌ**: (مِلْحُ الوَجْهِ)، وَ(دَمْعَةُ الظَّهِيرَةِ)، وَ(خُطْوَةٌ لَا تَنْظُرُ خَلْفَهَا).

وَمَنْ خَانَ خُطْوَةً وَاحِدَةً عَادَ أَلْفَ مِيلٍ إِلَى الوَرَاءِ.

وَمَنْ أَخْلَصَ لِطَرِيقِهِ فَتَحَتْ لَهُ الأَرْضُ بَابًا فِي الهَوَاءِ.

(3)

## هُوِيَّةُ المَفْقُودِينَ- (قِيلَ فِي الكِتَابِ)

* المَفْقُودُ لَيْسَ غَائِبًا، إِنَّهُ يَعِيشُ فِي المَسَافَةِ بَيْنَ الِاسْمِ وَالصَّدَى.
* المَفْقُودُونَ يَتَكَلَّمُونَ بِصَوْتٍ لَا يَسْمَعُهُ إِلَّا العَابِرُونَ المُتْعَبُونَ.
* مَنْ سَمِعَ صَوْتَهُمْ صَارَ وَاحِدًا مِنْهُمْ، وَلَوْ بَقِيَ حَيًّا.

(4)

## فَوْقَ المَعْبَرِ

فَوْقَ كُلِّ مَعْبَرٍ مَلَاكٌ لَا يُرَى، يَعُدُّ الخُطُوَاتِ كَمَنْ يَعُدُّ المَوَالِيدَ.

فَإِذَا بَلَغَ العَابِرُ خُطْوَتَهُ الأَرْبَعِينَ، انْشَقَّ الظِّلُّ عَنْهُ، وَبَرَزَتْ لَهُ هُوِيَّةٌ جَدِيدَةٌ تَحْمِلُ اتِّجَاهًا جَدِيدًا.

وَمَنِ اتَّسَعَ اتِّجَاهُهُ اخْتَفَى اسْمُهُ، وَمَنْ ضَاقَ اتِّجَاهُهُ عَادَ اسْمُهُ قَيْدًا فِي عُنُقِهِ.

(5)

## وَصَايَا الغَيْمَةِ المُهَاجِرَةِ

**قَالَتِ الغَيْمَةُ:**

* أُظِلُّكُمْ كَيْ تَتَذَكَّرُوا، لَا كَيْ تَتَسَتَّرُوا.
* إِذَا أَمْطَرْتُ فَوْقَ رُءُوسِكُمْ، فَذَلِكَ لِأَنَّ الأَرْضَ لَمْ تَعُدْ قَادِرَةً عَلَى البُكَاءِ عَنْكُمْ.
* دَعُوا وُجُوهَكُمْ لِلْهَوَاءِ، فَالهَوَاءُ يَعْرِفُكُمْ أَكْثَرَ مِمَّا تَعْرِفُكُمُ الأَوْطَانُ.

(6)

## تَعَالِيمُ العَتَبَاتِ

**قِيلَ فِي الحِكْمَةِ:**

* مَنْ وَقَفَ طَوِيلًا عِنْدَ العَتَبَةِ صَارَ حَجَرًا.
* مَنْ قَفَزَ فَوْقَهَا صَارَ رِيحًا.
* الرِّيحُ وَحْدَهَا تَصِلُ بِلا وَثَائِقَ.
* كُلُّ عَتَبَةٍ امْتِحَانٌ، وَكُلُّ امْتِحَانٍ يُطَالِبُ بِمَا لَيْسَ فِي اليَقِينِ.

**(7)**

## صلاةُ العابِرِ

يا رَبَّ الغُبارِ، يا رَفيقَ الأقدامِ المَصلوبَةِ على الرَّملِ، هَبْ لي طريقًا لا يَعرِفُني، كَي أَعرِفَ نَفسي. وَهَبْ لي ظِلًّا لا يَتبَعُني، كَي أَتَحرَّرَ مِنِّي. وَإِنْ مُتُّ قَبلَ الوُصولِ، فاجعَلْ مَوتي عَلامةً في خَرائطِ الآخَرينَ.

**(8)**

## جوقةُ الذين عادوا ولم يعودوا

عادوا إلينا، لكنَّ وُجوهَهُم كانت تَسيرُ في جِهَةٍ أُخرى. عادوا بِلا أَصواتٍ، فاستَعَرْنا للحديثِ عَنهُم هَديرَ البَحرِ القَديمِ. عادوا أَحياءً، لكنَّهُم تَرَكوا أَسماءَهُم مُعَلَّقَةً على الأَشجارِ مِثلَ ثِيابٍ لَم تَجِفَّ.

**(9)**

## حكمة

مَنْ عَبَرَ مَرَّةً لَنْ يَكونَ كما كانَ. وَمَنْ لَم يَعبُرْ سَيَبقى يَتيمًا، وَلَو عاشَ في بَيتِهِ. أَمَّا العابِرُ الحَقُّ، فَهُوَ مَنْ يَعبُرُ داخِلَهُ قَبلَ أَنْ يَعبُرَ الأَرضَ.



**(خَتْم)**

العابِرونَ هُم أَوْراقُ الأَشجارِ،
يَغيبونَ عَنِ العَينِ، لكنَّهُم يَعودونَ في الرَّبيعِ.
العابِرونَ هُم صَوتُ الطَّريقِ،
لا يُسمَعُ إِلَّا حينَ تُطفَأُ المَدينَةُ.
العابِرونَ هُم سِفْرُ الخَلقِ الأَخيرِ،
لِأَنَّ العالَمَ لا يَكتَمِلُ إِلَّا بِهِم.

9

# مزاميرُ خَريطَةِ المَنفى الكُبرى

## (مِن كِتابِ الضَّلالِ)

(مزاميرُ لا تُتلى إِلَّا في اللَّيلِ، وَلا تُدَوَّنُ إِلَّا بِمِدادٍ يُشبِهُ خُطى الهارِبينَ. لا يَعِدُ بِالوُصولِ، وَإِنَّما بِالضَّياعِ العَظيمِ الَّذي يَسبِقُ كُلَّ وَعيٍ. كِتابٌ يُقالُ إِنَّ مَنْ يَقرَؤُهُ يَكتَشِفُ أَنَّ المَنفى لَيسَ مَكانًا... المَنفى حالَةٌ سَماوِيَّةٌ جَريحَةٌ. وَهذا هُوَ:

**إعلانُ ضَياعِ العالَمِ**

قيلَ في افتتاحِ المَزاميرِ: لَيسَ هُناكَ طَريقٌ، إِنَّما هِيَ ظِلالٌ تَتَقَدَّمُ على الرَّملِ، فَتَظُنُّ الأَقدامُ أَنَّها تَمشي. وَالمَنفى لَيسَ البَعيدَ، إِنَّهُ ما يَخرُجُ مِن صَدرِكَ حينَ تُحاوِلُ أَنْ تَتَنَفَّسَ. وَكُلُّ خارِطَةٍ لا تُرسَمُ بِالجُرحِ هِيَ مَصيرٌ مَخبوءٌ بِالأَكاذيبِ).

مَزمور

### (1)
### أَصلُ الضَّياعِ

في البَدءِ لَم تُخلَقِ الجِهاتُ... خُلِقَ الفَراغُ أَوَّلًا لِيُجَرِّبَ الإِنسانُ السُّقوطَ. قالَتِ الرِّياحُ: لَنْ يَكونَ لِلنَّاسِ مَكانٌ حَتَّى يَضيعوا فيهِ. فَكانَتِ الأَرضُ أَوَّلَ مَنفًى، وَكانَتِ الخُطوَةُ أَوَّلَ جَريمَةٍ. وَسُمِّيَ الَّذينَ مَشَوا: الضَّالِّينَ.

مَزمور

### (2)
### قانونُ التِّيهِ

التِّيهُ لَيسَ انكِسارَ الطَّريقِ... إِنَّهُ انكِسارُ القَلبِ على الطَّريقِ. وَمَنْ مَشى وَفي صَدرِهِ بَيتٌ ثابِتٌ لَم يَضِلَّ. وَمَنْ مَشى وَفي صَدرِهِ حَجَرٌ ضَلَّ، وَلَو بَقِيَ في بَيتِهِ. أَمَّا الَّذينَ حَمَلوا مَنازِلَهُم كَأَصدافٍ على ظُهورِهِم، فَهُم أَصحابُ الضَّلالِ المُقَدَّسِ، لا يَرسونَ، وَلا يَزولونَ.

(3)

## جُغرافيا المَنفى

جاءَ في شُروحِ القُدَماءِ (لِلمَنفى سَبعُ مَناطِقَ):

**(أ) الصَّمتُ**: حَيثُ يُصبِحُ الكَلامُ جَريمَةً.

**(ب) الخَوفُ**: وَأَبوابُهُ مِن صُدورِ البَشَرِ.

**(ج) الفَراغُ**: لا حَجَرَ فيهِ يَرُدُّ الصَّوتَ.

**(د) الغَيمَةُ المُهاجِرَةُ**: آخِرُ ظِلٍّ يَحتَمي بِهِ المَرءُ.

**(هـ) الأَرضُ الحَرامُ**: حَيثُ تَنزَلِقُ الخُطى وَلا يَعودُ أَحَدٌ.

**(و) مَمَرُّ الذِّئابِ**: الَّذي لا يُعبَرُ مَرَّتَينِ.

**(ز) ساحَةُ العابِرِ الأَخيرِ**: حَيثُ يَقِفُ الإِنسانُ لِيُصبِحَ هُوَ الخَرائطَ.

**(مَنْ عَرَفَ هذِهِ المَناطِقَ رَأى العَلامَةَ).**

(4)

## شَريعَةُ العابِرِ الضَّالِّ

* لا تَنظُرْ خَلفَكَ، فَكُلُّ ما ضاعَ خَلفَكَ لَيسَ لَكَ.
* لا تَنظُرْ أَمامَكَ، فَالمَنفى يَمشي أَمامَكَ كَي لا تُدرِكَهُ.
* امشِ داخِلَ الضَّوءِ كما يَمشي الجُرحُ في لَحمِ صاحِبِهِ.
* وَإِنْ صادَفْتَ ظِلًّا يُشبِهُكَ، فاسأَلْهُ: هَل أَنتَ أَنا؟ أَم أَنا الَّذي ضاعَ مِنكَ؟

(5)

## تَعليمُ الغَيمَةِ في بَراري الضَّلالِ

قالَتِ الغَيمَةُ المُهاجِرَةُ:

* لا وَطَنَ لِلسَّحابِ، وَلا أَرضَ لِلمَطَرِ، وَلا خَيمَةَ لِلرِّياحِ. فَلِماذا تَطلُبونَ أَنتُم وَطَنًا؟
* السَّماءُ لَيسَت مَكانًا، إِنَّها فِراشٌ لِلاحتِضارِ.
* المَنفى لَيسَ عُقوبَةً، إِنَّما هُوَ عَلامَةٌ على أَنَّكَ حَيٌّ.

(6)

## نبوءةُ الظِّلِّ الهاربِ

قيلَ في السِّجِلِّ القَديمِ:

* مَنْ ضاعَ ظِلُّهُ عَرَفَ أَنَّ زَمَنَهُ انتَهى.
* مَنْ عادَ إِلَيهِ الظِّلُّ عَرَفَ أَنَّهُ لَم يُخلَقْ لِلرَّاحَةِ.
* مَنْ التَقى ظِلَّ غَيرِهِ صارَ جُزءًا مِن حِكايَةٍ لا تَخُصُّهُ.
* مَنْ فَقَدَ ظِلَّهُ وَظِلَّ الآخَرينَ دَخَلَ السَّاحَةَ السَّابِعَةَ: ساحَةَ العابِرِ الأَخيرِ.

(7)

## جُغرافيا القَلبِ المَشقوقِ

لِلقَلبِ طَريقانِ: أَحَدُهُما يَخرُجُ مِنهُ، وَالآخَرُ يَعودُ إِلَيهِ. وَالضَّلالُ هُوَ أَلَّا تَعرِفَ أَيَّهُما أَنتَ. فَالقَلبُ، حينَ يَتَشَقَّقُ، يُصبِحُ طَريقًا لِغَيرِهِ. وَالمَنفى، حينَ يَنغَرِسُ في الوِجدانِ، يَصيرُ جُغرافيا لا تُمحى.

(8)

## صَلاةُ الضَّياعِ العَظيمِ

يا رَبَّ الطَّريقِ الَّذي يَبتَلِعُنا، وَاللَّيلِ الَّذي يَفتَحُ صَدرَهُ كَجُرحٍ، يا رَبَّ الأَقدامِ الَّتي تَخافُ أَنْ تَقِفَ، وَالأَرواحِ الَّتي تَخافُ أَنْ تَصِلَ... اجعَلْ في ضَياعِنا نورًا، وَفي نورِنا بابًا، وَفي بابِنا خُطوَةً لا تَعودُ أَبَدًا. وَإِنْ كُتِبَ عَلَينا التِّيهُ، فَلْيَكُنْ تِيهًا يَليقُ بِصَخَبِ العالَمِ.

(9)

## الخَرائطُ

تَنتَهي الخَرائطُ كُلُّها... إِلَّا خَريطَةَ المَنفى. فَهِيَ تُكتَبُ بِالغِيابِ، وَتُقرَأُ بِالدَّمعِ، وَتُعَلَّمُ على أَكتافِ الَّذينَ رَحَلوا. وَمَنْ وَصَلَ، فَهُوَ خارِجَ الكِتابِ. وَمَنْ تاهَ، فَهُوَ السَّطرُ الأَخيرُ.

## قيلَ عِندَ خَتمِ (مَزاميرِ كِتابِ الضَّلالِ)

مَنْ ضَلَّ،
فَقَدْ سَلَكَ الطَّريقَ.
وَمَنْ سَلَكَ الطَّريقَ،
فَقَدْ عَرَفَ المَنفى.
وَمَنْ عَرَفَ المَنفى،
فَقَدْ لامَسَ سِرَّ العالَمِ.

10

# مزاميرُ وأَختامٌ

## (مِن كِتابِ الأَختامِ الجامِعَةِ)

(تُرسَمُ هذِهِ المَزاميرُ وَالأَختامُ بِمِدادٍ قانٍ يُشبِهُ دَمًا مُجَفَّفًا - "بَينَ اليَقينِ المُنكَسِرِ وَالسِّحرِ التَّائِبِ" - وَتُطبَعُ على حَوافِّ مَخطوطٍ محروقٍ، وَتُقرَأُ بِصَوتٍ خافِتٍ كَي لا تَستَيقِظَ الأَرواحُ المُعَلَّقَةُ بَينَ الحُدودِ، حَيثُ لا يَعودُ المَلَاكُ مَلَاكًا خالِصًا، وَلا القِدِّيسُ قِدِّيسًا كامِلًا).

١

### مزمورُ (تَبريكِ الحِكايَةِ)

لِتُمسَدِ الحِكايَةُ بِأَصابِعَ مِن نَدًى، وَلْيَنفُخِ الشَّاهِدُ في جُرحِ الشَّمعِ حَتَّى يَتَوَهَّجَ ما خَفِيَ، وَلا يَنطَفِئَ ما وَجَبَ أَنْ يُقالَ.



### خَتْمُ الوُجوهِ الَّتي عادَتْ بِلا وُجوهٍ

مَطبوعٌ بِمِدادٍ قانٍ على شَكلِ دائِرَةٍ مُنكَشِفَةِ الأَطرافِ، وَيُتلى عِندَ الطَّبعِ:

"بِدَمٍ لا يَنضُبُ أَختِمُ وُجوهَ الرَّاجِعينَ الَّذينَ عادوا وَلَم يَعودوا. يا وَجهَ الغِيابِ، نُعيدُ لَكَ اسمَكَ، وَإِنْ خَسِرتَ مَلامِحَكَ عِندَ الحاجِزِ، فَها هِيَ بَقاياكَ تُرَدُّ إِلَيكَ بِالمِدادِ الَّذي لا يَجِفُّ"

(يُرسَمُ في وَسَطِ الخَتْمِ خَطٌّ مائِلٌ يُسَمَّى "قَطعَةَ السِّترِ"، دَلالَةً على أَنَّ الوَجهَ مَختومٌ، وَأَنَّهُ مُباحٌ لِلعُبورِ).

٢

**مزمورُ المُسافِرِ في لَيلِ النُّبوءَةِ (باسمِ مَلاَكِ الأَسرارِ)**

يا مَنْ تَعبُرُ وَلا تُرى، يا مَنْ تُسمَعُ خُطاكَ وَلا تُسَمَّى، لِيُبارِكْكَ العابِرُ، وَلْتُرافِقْكَ كَوكَبَةُ الأَرواحِ الَّتي عَلِقَتْ بَينَ المَخافِرِ وَالحُدودِ، حَتَّى تَستَقِرَّ فيكَ ذاتُكَ كما تَستَقِرُّ جَمرَةٌ في قَلبِ الرَّمادِ.



**خَتْمُ الدَّمعَةِ الَّتي لا تُرى**

(يُدَوِّرُهُ النُّسَّاخُ فَوقَ وِعاءٍ مِن رَمادٍ بارِدٍ، وَيُقرَأُ):

"الدَّمعَةُ الَّتي لا تُرى، أَختِمُها بِدَمٍ يَرتَجِفُ. لِيَتَّشِحْ قَلبُ العائِدِ بِسِرِّ بُكائِهِ، فَالبُكاءُ خَتْمٌ، وَالعَبرَةُ تَوقيعٌ، وَمَنْ لَم يَبكِ عِندَ البَوَّابَةِ لا يَستَحِقُّ أَنْ يَعودَ"

(يُحيطُ بِهٰذا الخَتْمِ عادَةً خُطوطٌ مُتَكَسِّرَةٌ تُشبِهُ آثارَ أَصابِعَ مُرتَجِفَةٍ).

٣

**مزمورُ (مَلاَكِ الحَرفِ المَطمورِ)**

باسمِ مَلاَكِ الحَرفِ المَطمورِ، السَّاكِنِ في الشُّقوقِ السَّوداءِ لِلحُروفِ، وَالَّذي يَربِطُ صَمتَ الأَرضِ بِصَمتِ السَّماءِ، نُغَلِّفُ هٰذا المَخطوطَ بِرَمادٍ مُقَدَّسٍ، كَي لا يَتلُوَهُ إِلَّا

مَنِ اغتَسَلَ بِدَمعٍ لَم يُسكَبْ. يا مَلَاكَ الحَرفِ المَطمورِ، اجعَلِ الكَلامَ نارًا لا تُحرِقُ، وَاجعَلِ الصَّامِتَ يَقولُ ما لا يُقالُ.



**خَتْمُ السِّترِ على الأَثَرِ**

**(يُستَخدَمُ لِحَجبِ الطَّريقِ خَلفَ الرَّاجِعِ كَي لا يُقتَفى أَثَرُهُ):**

"بِدَمِ السِّترِ أَختِمُ آثارَ الآيِلينَ الَّذينَ قَطَعوا اللَّيلَ. اختَفِ يا طَريقُ، وَارتَفِعي يا خُطى، فَلا يَصِلُ الجُندِيُّ إِلى ما لا يَنبَغي لَهُ أَنْ يَراهُ، وَلا يَعرِفُ اللَّيلُ مَنْ عَبَرَ مِنهُ. لِتَذبُلِ العَلاماتُ، وَلْتُطمَسِ الحُروفُ".

**(عادَةً يُطبَعُ هٰذا الخَتْمُ فَوقَ ثَلاثِ نُقاطٍ سَوداءَ تُسَمَّى "نُقَطَ الحَجبِ").**

٤

## مزمورُ لِمَدينَةٍ لا تَنامُ إِلَّا في الخَرابِ

عِندَ الفَجرِ، كانَتِ المَدينَةُ تَبدو كَجُندِيٍّ عَجوزٍ نَجا مِنَ الحَربِ بِالخَطَأِ. الشَّوارِعُ مُبتَلَّةٌ بِضَوءٍ رَمادِيٍّ، وَالنِّساءُ يَفتَحنَ السَّتائِرَ بِحَذَرٍ، كَأَنَّ النَّهارَ خَبَرٌ سَيِّئٌ. وَفي الغُرَفِ الضَّيِّقَةِ رِجالٌ نِصفُ نائِمينَ يُحَدِّقونَ في السَّقفِ، يَتَذَكَّرونَ وُجوهًا اختَفَتْ، أَو حُروبًا لَم تَنتَهِ.



**خَتْمُ البَرَكَةِ المَقلوبَةِ لِلرَّاحِلينَ الَّذينَ لَم يَرجِعوا:**

"بِدَمِ السَّاقِطينَ أُبارِكُ الَّذينَ لَم يَرجِعوا. يا أَرواحَ العالِقينَ بَينَ المَخافِرِ، نَرفَعُ لَكُم بَرَكَةً مَقلوبَةً، كَي تَصعَدوا إِلى الِاسمِ الَّذي ضاعَ مِنكُم. طوبى لِمَنْ ضَلَّ طَريقَهُ، فَإِنَّ الدَّربَ الخاطِئَ هُوَ الدَّربُ الَّذي يُكتَبُ بِالحُمرَةِ".

**(الخَتْمُ مَرسومٌ على شَكلِ مِسبارٍ نارِيٍّ يُشبِهُ رُمحًا صَغيرًا).**

٥

## مزمورُ مَأوًى لِلرِّيحِ

في آخِرِ المَدينَةِ مَصنَعٌ مَهجورٌ تَكَسَّرَتْ نَوافِذُهُ، وَصارَ مَأوًى لِلرِّيحِ. هُناكَ، بَينَ الحَديدِ الصَّدِئِ وَالآلاتِ الصَّامِتَةِ، يُمكِنُ سَماعُ العالَمِ وَهُوَ يَفقِدُ إيمانَهُ القَديمَ. لا آلِهَةَ هُنا. فَقَطْ أَنابيبُ بُخارٍ، وَأَسلاكٌ مُرتَجِفَةٌ، وَضَوءٌ أَبيَضُ يَلمَعُ فَوقَ البِرَكِ النِّفطِيَّةِ مِثلَ ابتِسامَةِ طَبيبٍ مُتعَبٍ.



**خَتْمُ السُّقوطِ المُضيءِ**

**(خَتْمُ مَلَاكِ السُّقوطِ الأَوَّلِ، حارِسِ المَعرِفَةِ الَّتي أَحرَقَتْ جَناحَيها)**

**بِالمِدادِ الأَحمَرِ يُكتَبُ:**

"أَيُّهَا السَّاقِطُ مِن نُورِكَ، نُبارِكُكَ لِأَنَّكَ عَرَفتَ العُلُوَّ ثُمَّ اختَرتَ الجُرحَ. فاجعَلْ سُقوطَنا سُلَّمًا، وَاجعَلْ خَطايانا نَوافِذَ، وَعَلِّمْنا كَيفَ نَعبُدُ المَعنى".

**عَلامَةُ الخَتْمِ:**

**دائِرَةٌ مَشقوقَةٌ، يَتَدَلَّى مِنها جَناحٌ مُحتَرِقٌ، وَفِي وَسَطِها عَينٌ مُغمَضَةٌ.**[159]

٦

## مزمورُ قَبلَ الفَجرِ بِقَليلٍ

عِندما تُصبِحُ المَدينَةُ ساكِنَةً بِصورَةٍ مُخيفَةٍ، يَبدو أَنَّ أَحَدًا ما يُغَنِّي في البَعيدِ. لَيسَ غِناءً حَقيقِيًّا، إِنَّهُ صَوتٌ مَكسورٌ يُشبِهُ الجُنودَ العائِدينَ في القِطاراتِ، وَيُشبِهُ الأَحذِيَةَ المُوحِلَةَ، وَالرَّسائِلَ الَّتي تَأَخَّرَتْ حَتَّى ماتَ أَصحابُها.

---

159- هَوامِشُ على خَتْمِ السُّقوطِ المضيءِ

(وُجِدَتْ هٰذِهِ الهَوامِشُ وَالهَوامِشُ اللَّاحِقَةُ على أَطرافِ المخطوطِ، مَكتوبَةً بِثَلاثَةِ خُطوطٍ مُختَلِفَةٍ، حَيثُ اختَلَفَ اللَّاهوتِيُّ وَالسَّاحِرُ وَالجُندِيُّ حَولَ مَعنى كُلِّ خَتْمٍ وَلَم يَتَصالَحوا. لا نَعرِفُ مَنْ كَتَبَها، وَهُناكَ مَنْ مَحا اسمَ النَّاسِخِ عَمدًا، حَيثُ تُرِكَ الكَلامُ لِيَقِفَ وَحدَهُ، بِلا شاهِدٍ يَحميهِ).

**هامِشُ اللَّاهوتِيِّ:**

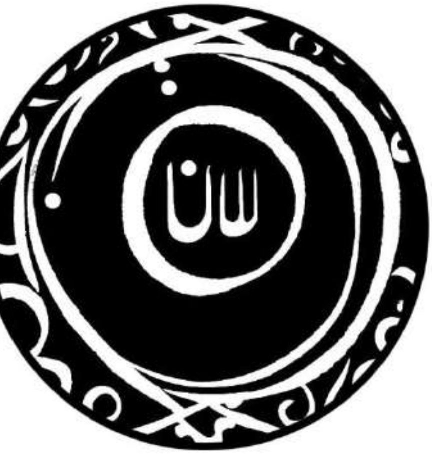
هٰذا الخَتْمُ خَطِرٌ. يُوشِكُ أَنْ يُبَرِّرَ السُّقوطَ بِوَصفِهِ مَعرِفَةً. السُّقوطُ عُقوبَةٌ، لا سُلَّمٌ. مَنْ جَعَلَ الجُرحَ فَضيلَةً خَفَّفَ مِن ثِقَلِ الخَلاصِ.

**هامِشُ السَّاحِرِ:**

هُوَ الخَتْمُ الأَصدَقُ. لا مَعرِفَةَ بِلا احتِراقٍ. مَنْ لَم يَسقُطْ، لَم يَرَ النَّارَ مِنَ الدَّاخِلِ. المَلائِكَةُ لا تُعَلِّمُ، وَالسَّاقِطونَ يَفعَلونَ.

**هامِشُ الجُندِيِّ الجَريحِ:**

السُّقوطُ؟ أَنا أُسَمِّيهِ تَعَثُّرًا في الوَحَلِ. لا نُورَ فيهِ وَلا حِكمَةَ. فَقَطْ رَجُلٌ قامَ بَعدَ أَنْ وَقَعَ. وَالباقي كَلامٌ.



**خَتْمُ العَودَةِ المُدْماةِ**

**(خَتْمُ قِدِّيسٍ عائِدٍ مِنَ المَنفى، مَشى في التُّرابِ قَبلَ أَنْ يَلمِسَ المِذبَحَ)**

**بِالمِدادِ القاني:**

"يا مَنْ خَرَجْتَ، يا مَنْ عُدتَ، بارِكْ خُطانا المُتَعَثِّرَةَ، وَاغفِرْ لَنا القَداسَةَ الَّتي لَم نَحتَمِلْها، وَاجعَلْ عَودَتَنا أَصدَقَ مِن طَهارَتِنا"

**عَلامَةُ الخَتْمِ:**

صَليبٌ غَيرُ مُتَساوِي الأَذرُعِ، تَحتَهُ أَثَرُ قَدَمٍ مُوحِلَةٍ.[160]

---

160- هَوامِشُ على خَتْمِ العَودَةِ المِدْماةِ

**هامِشُ اللّاهوتِيِّ:**

العَودَةُ هِيَ القِيامَةُ الصُّغرى. مَنْ عادَ غَيرَ مَكسورٍ لَم يَعُدْ. هٰذا الخَتْمُ مَقبولٌ... بِالكادِ.

**هامِشُ السّاحِرِ:**

العَودَةُ خَديعَةٌ جَميلَةٌ. لا أَحَدَ يَعودُ كما كانَ. الدَّمُ هُنا حِبرٌ ثانٍ.

**هامِشُ الجُندِيِّ الجَريحِ:**

العَودَةُ تَعني أَنَّكَ لَم تَمُتْ... لا قَداسَةَ في النَّجاةِ.

٧

## مزمورٌ يُسمَعُ مع صَوتِ تَساقُطِ الثَّلج:

أَحَدُهُم يُحَدِّقُ في فِنجانِ القَهوَةِ كَأَنَّهُ يَنظُرُ إِلى قَبرٍ. وَآخَرُ يُرَبِّتُ على جَيبِهِ الفارِغِ كَأَنَّ قَلبَهُ سَقَطَ هُناكَ مُنذُ زَمَنٍ. فِي الخارِجِ، كانَتِ الأَشجارُ سَوداءَ بِصورَةٍ غَيرِ إِنسانِيَّةٍ، وَكانَتِ الرِّيحُ تَمُرُّ بَينَ الأَبنِيَةِ كَأَنَّها تَقرَأُ أَسماءَ المَوتى. يا لِهٰذِهِ المُدُنِ الَّتي تُتقِنُ إِخفاءَ خَرابِها. الأَرصِفَةُ نَظيفَةٌ، وَالواجِهاتُ مُضاءَةٌ، لٰكِنَّ تحتَ الأَسفَلتِ تَنامُ أَعصابُ القُرونِ الماضِيَةِ، وَأَقدامُ الجُنودِ، وَصَلَواتُ الأُمَّهاتِ الَّتي لَم تَصِلْ.



### خَتْمُ التَّوازي

(خَتْمُ مَلَاكِ النُّورِ الَّذي فَقَدَ البَصَرَ كَي يَرى الحَقيقَةَ)

نَصُّ الخَتْمِ:

"بارِكِ العابِرينَ بَينَ الحَدَّينِ، بَينَ المِذبَحِ وَالمُخفَرِ، بَينَ التَّرنيمَةِ وَالرَّصاصَةِ، وَاجعَلْ عَماهُم صَلاةً، وَنَقصَهُم حِكمَةً".

عَلامَةُ الخَتْمِ:

عَينٌ مُطفَأَةٌ يَتَفَرَّعُ مِنها شُعاعانِ: واحِدٌ إِلى الأَعلى، وَآخَرُ إِلى الأَسفَلِ.[161]

---

161- هَوامِشُ على خَتْمِ التَّوازي

**هامِشُ اللّاهوتِيِّ:**

العَمى رَمزٌ خَطيرٌ. النُّورُ يُرى وَلا يُستَبدَلُ. أَخشى أَنْ يَكونَ هٰذا الخَتْمُ ذَريعَةً لِخَلطِ الطُّرُقِ.

**هامِشُ السَّاحِرِ:**

٨

## مزمورُ لَعنَةِ الحِبرِ المُحتَرِقِ:

مَنْ مَسَّ الحُروفَ بِظاهِرِ يَدِهِ، وَلَم يَسجُدْ قَبلَها لِلسِّرِّ، فَلتَطفُ أَصابِعُهُ فَوقَ جَمرٍ لا يَبرُدُ، وَلْيُرَ لَهُ فِي نَومِهِ ناسِخٌ أَعوَرُ يَكتُبُ اسمَهُ تَحتَ اسمِ الأَمواتِ.



## خَتْمُ الدَّمِ المُتَحَوِّلِ

**(خَتْمُ قِدِّيسٍ لَم يُعلَنْ، استُشهِدَ بِلا أَيقونَةٍ)**

**بِالمِدادِ المَمزوجِ بِالماءِ وَالتُّرابِ:**

"لِيَكُنِ الدَّمُ لُغَةً، لا عَلامَةَ ذَنبٍ، وَلْيَكُنِ الجُرحُ بابًا، لا نِهايَةً. طَهِّرنا مِنَ القَسوَةِ... أَيُّها الأَلَمُ".

**عَلامَةُ الخَتْمِ:**

**قَطرَةُ دَمٍ داخِلَها زَهرَةٌ.**(162)

---

كُلُّ نُورٍ كامِلٍ كاذِبٌ. العَينُ المَفتوحَةُ تَرى القِناعَ، وَالعَينُ المَفقوءَةُ تَرى الجَوهَرَ.
هٰذا خَتْمُ العابِرينَ.

**هامِشُ الجُندِيِّ الجَريحِ:**

الأَعمى ؟ رَأَيتُ أَعمى يَقودُ كَتيبَةً أَفضَلَ مِنَ المُبصِرينَ.

162- هَوامِشُ على خَتْمِ الدَّمِ المتَحَوِّلِ

**هامِشُ اللّاهوتِيِّ:**

**الدَّمُ لُغَةُ الشَّهادَةِ، لا لُغَةُ البَلاغَةِ. أَخشى أَنْ يُستَعمَلَ هٰذا الخَتْمُ لِتَجميلِ العُنفِ.**

**هامِشُ السَّاحِرِ:**

٩

**مزمورُ لَعنَةِ الحُدودِ:**

مَنْ أَرادَ أَنْ يُبطِلَ نَواحَ الكائِنِ أَو يَقطَعَ صَرخَةَ العائِدِ بِلا وَجهٍ، فَلتَتَحَوَّلْ خُطواتُهُ إِلى طينٍ، وَلْتَحرُسْهُ الرِّيحُ حِراسَةَ العاصِفَةِ، حَتَّى يَعودَ إِلى نُقطَةٍ لَم يُولَدْ فيها.



**خَتْمُ المُصالَحَةِ الكُبرى**

**(خَتْمُ إيكارَ المُعادِ - لَيسَ مَلَاكًا، وَلَيسَ إِنسانًا، لٰكِنَّهُ جِسرٌ)**

"هٰذا الَّذي سَقَطَ: سَقَطَ إِلى العُمقِ. فَلْيُفتَحْ لَهُ ما أُغلِقَ، وَلْيُغلَقْ عَلَيهِ ما كانَ وَهمًا، وَلْيَكُنْ مَوتُهُ طَقسَ عُبورٍ، لا خاتِمَةً".

**عَلامَةُ الخَتْمِ:**

جَناحانِ مُتَقابِلانِ، أَحَدُهُما مِن نارٍ، وَالآخَرُ مِن طينٍ.[163]

---

الدَّمُ يَتَحَوَّلُ أَو يَتَعَفَّنُ. مَنْ لَم يُغَيِّرْ مَعناهُ صارَ لَعنَةً على نَفسِهِ.

**هامِشُ الجُندِيِّ الجَريحِ:**

الدَّمُ دَمٌ. لا يَتَحَوَّلُ. لٰكِنْ إِنْ كانَ لا بُدَّ مِن مَعنى، فَلْيَكُنْ سَبَبًا أَلَّا نُريقَهُ مَرَّةً أُخرى.

[163]- هَوامِشُ على خَتْمِ المصالَحَةِ الكُبرى (إيكارُ المعادُ)

**هامِشُ اللَّاهوتِيِّ:**

إيكارُ لَيسَ مِثالًا. الجُسورُ خَطِرَةٌ، لِأَنَّها لا تَنتمي إِلى ضِفَّةٍ. وَمَعَ ذٰلِكَ... لا أَستَطيعُ شَطبَهُ.

**هامِشُ السَّاحِرِ:**

الجِسرُ هُوَ الكائِنُ الأَسمى. إيكارُ صارَ طَريقًا.

**هامِشُ الجُندِيِّ الجَريحِ:**

إِنْ كانَ جِسرًا، فَقَدْ عَبَرتُ عَلَيهِ. وَلَم يَنهَرْ. هٰذا يَكفي.

١٠

**مزمورُ (حارِسِ الحَدِّ الَّذي لا يُرى):**

باسمِ حارِسِ الحَدِّ الَّذي لا يُرى، المَلاكِ الَّذي يَقِفُ فَوقَ حُدودٍ لا خَرائطَ لَها، وَالَّذي يَزِنُ الأَرواحَ بِقَبضَةٍ مِن رِياحٍ، نَختِمُ هٰذِهِ المَزاميرَ بِخَتْمِ الغِيابِ، كَي لا يَقرَأَها إِلَّا مَنْ خَسِرَ وَجهَهُ مَرَّةً ثُمَّ طَلَبَهُ مَرَّةً أُخرى. يا حارِسَ الحَدِّ الَّذي لا يُرى، اسكُبْ نُورَكَ على أَثَرِ المُسافِرِ، كَي لا يَبتَلِعَهُ لَيلُ البَوَّاباتِ.



**خَتْمُ المَلائِكَةِ**

(يُوضَعُ هٰذا الخَتْمُ على الصَّفحَةِ الأَخيرَةِ مِنَ الإِنجيلِ، وَلا يُقرَأُ إِلَّا هَمسًا):

"بِأَسمائِهِم أَختِمُ سِفْرَ الطُّرُقِ وَالوُجوهِ. لِيُغلَقِ السِّفْرُ، وَلا يُفتَحْ إِلَّا لِمَنْ فَقَدَ وَجهَهُ، أَو لِمَنْ يَبكي بِصَمتٍ مِلءَ حَدِّ السَّيفِ".

(يُرسَمُ الخَتْمُ على هَيئَةِ مُثَلَّثٍ تَتَقاطعُ أَطرافُهُ في نُقطَةٍ مِنَ المِدادِ الأَحمَرِ الغامِقِ).

# 11

# مزاميرُ العابِرِ إِلى أَبوابِ المَوتِ

(مِن كِتابِ الآلِهَةِ وَالحُدودِ)

مَزمور

**(1)**

**الأُسطورَةُ**

حينَ بَلَغَ العابِرُ الخَطَّ الَّذي لا يُرى، ارتَفَعَتِ السَّماءُ مِقدارَ رُمحٍ، وَانخَفَضَتِ الأَرضُ مِقدارَ قَبرٍ. فَهُنا لا يَحكُمُ البَشَرُ، هُنا تُستَدعى الآلِهَةُ الَّتي وُلِدَتْ مِن فائِضِ الدَّمِ.

مَزمور

**(2)**

**ظُهورُ الآلِهَةِ** (سَيِّدُ الضَّجيجِ)

خَرَجَ أَوَّلُهُم مِن صَدعِ المَدافِعِ، عِملاقًا مِن نُحاسٍ وَأَسنانٍ، عَيناهُ خَريطَتانِ تَتَبَدَّلانِ كُلَّ صَباحٍ. قالَ:

- أَنا مَنْ سَمَّاني النَّاسُ ضَرورَةً، وَمَنْ سَمَّاني الحُكَماءُ لَعنَةً. أَيُّهَا العابِرُ، هَل حَمَلتَ سِلاحي أَم حَمَلَكَ سِلاحي؟

فَأَجَبتُهُ:

- أَنتَ مَرَرتَ بي قَبلَ أَنْ أَعرِفَ اسمي، وَزَرَعتَ في صَدري نَشيدًا لا أَعرِفُ كَيفَ أُسكِتُهُ.

فَضَحِكَ، فَاهتَزَّتِ الحُدودُ.

مَزمور

**(3)**

**الذَّاكِرَةُ** (حارِسَةُ الأَسماءِ)

هَبَطَتْ مِنَ الغَيمِ امرَأَةٌ بِأَلفِ وَجهٍ، كُلُّ وَجهٍ حَياةٌ لَم تَكتَمِلْ. قالَتْ بِصَوتٍ يُشبِهُ البُكاءَ القَديمَ:

- أَنا الَّتي أُحصي مَنْ سَقَطوا حينَ نَسِيَهُمُ الجَميعُ. أَيُّهَا العابِرُ، أَيَّ اسْمٍ تَرَكتَ خَلفَكَ؟.

قُلتُ:

- تَرَكتُ اسمي، وَتَرَكتُ وَجهي في صورَةٍ مُحتَرِقَةٍ.

**(4)**

**رَبُّ الحُدودِ** (الأَعمى ذو المِيزانِ)

تَقَدَّمَ كائِنٌ بِلا عَينَينِ، يَحمِلُ مِيزانًا مَكسورًا، وَيَمشي على أَسلاكٍ شائِكَةٍ. قالَ:

- أَنا لَستُ خَطًّا، أَنا قَرارٌ. مَنْ يَعبُرْني يُعادُ صَهرُهُ. فَبِماذا جِئتَ؟.

قُلتُ:

- جِئتُ بِلا رايَةٍ، جِئتُ بِما تَبَقَّى حينَ تَفشَلُ الكَلِماتُ.

**(5)**

**مَلَاكُ المَوتِ** (آخِرُ الشُّهودِ)

وَأَخيرًا انشَقَّ الظِّلُّ عَنْ ظِلٍّ أَعمَقَ، مَلاكٌ بِلا تاجٍ، يَجلِسُ على عَرشٍ مِنَ الانتِظارِ. قالَ بِهُدوءٍ أَقسى مِنَ الصُّراخِ:

- لَم تَأتِ مُتَأَخِّرًا وَلا مُبَكِّرًا. كُلُّ مَنْ يَعبُرُ كانَ في طَريقي مُنذُ البِدايَةِ.

سَأَلتُهُ:

- وَهَلِ العُبورُ نِهايَةٌ؟.

فَقالَ:

- العُبورُ هُوَ اللَّحظَةُ الوَحيدَةُ الَّتي يَكونُ فيها الإِنسانُ صادِقًا.

**(6)**

**سَيِّدُ الحَربِ يَتَكَلَّمُ**

يا مَنْ تَعبُرونَ بِاسمي، أَنا لا أَحميكُم، أَنا أَختَبِرُكُم. أَصهِرُكُم كما يُصهَرُ المَعدِنُ، فَمَنْ بَقِيَ صُلبًا صارَ رايَةً، وَمَنْ ذابَ صارَ تُرابًا صالِحًا لِلحِكاياتِ.

رَدِّدوا:

- الحَربُ لَيسَت خِيارًا، الحَربُ امتِحانٌ لا يَنجَحُ فيهِ أَحَدٌ.

**(7)**

**الذَّاكِرَةُ** (حارِسَةُ الأَسماءِ)

أَنا الذَّاكِرَةُ حينَ يَهرُبُ التَّاريخُ. أَنا الِاسمُ حينَ يُدفَنُ الجَسَدُ. أَنتُم لَم تَكونوا أَرقامًا، وَإِنْ حاوَلوا. لَم تَكونوا حُشودًا بِلا وُجوهٍ، وَإِنْ كَتَبوا ذٰلِكَ. كُلُّ واحِدٍ مِنكُم كانَ بِدايَةَ كَونٍ.

يا أَيُّهَا العابِرونَ - يا نَحنُ:

مَنْ فَقَدَ اسمَهُ صارَ في حِمايَتي، وَمَنْ نُسِيَ صارَ مُقَدَّسًا.

رَدِّدوا:

- لَسنا مَوتى، نَحنُ مَحفوظونَ.

**(8)**

**رَبُّ الحُدودِ** (الأَعمى ذو المِيزانِ)

**صَوتٌ ثَقيلٌ، إيقاعٌ بَطيءٌ**: أَنا الحَدُّ حينَ يَلبَسُ القانونُ سِكِّينًا. لَم أُخلَقْ لِأَمنَعَ، خُلِقتُ لِأُقَسِّمَ. وَكُلُّ تَقسيمٍ خِيانَةٌ مُؤَجَّلَةٌ. أَنتُم عَبَرتُموني حُفاةً مِنَ اليَقينِ، فَصارَ العُبورُ جُرحًا لا يُغلَقُ. لا تَسأَلوني: لِماذا؟ اسأَلُوا الخَريطَةَ لِماذا كَذَبَتْ.

رَدِّدوا:

- لَسنا غُرَباءَ، نَحنُ ما بَينَ.

**(9)**

**مَلَاكُ المَوتِ** (هَمسٌ جَماعِيٌّ)

أَنا النِّهايَةُ الَّتي لا تَتَعَجَّلُ. أَنا الصَّمتُ الَّذي يَسمَعُ كُلَّ شَيءٍ. لَم آخُذكُم حينَ سَقَطتُم، أَنتُم لَم تَدخُلوا قَبري، أَنتُم دَخَلتُم حَقيقَتَكُم. مَنْ يَعبُرْ إِلَيَّ لا يَفقِدِ الحَياةَ، إِنَّما يَفقِدُ الوَهمَ. رَدِّدوا:

- المَوتُ لَيسَ عَدُوَّنا، النِّسيانُ هُوَ العَدُوُّ.

(10)

## اعتِرافُ الشَّعبِ / المَنفى / الضَّميرِ

نَحنُ الَّذينَ مَشَوا بِلا أَرضٍ، فَصارَتْ أَقدامُهُم خَرائطَ. نَحنُ الَّذينَ ناموا فَوقَ ثُلوجِ الجِبالِ وَصَحَوا في الأَساطيرِ. لَسنا أَبطالًا، وَلا ضَحايا كامِلينَ، نَحنُ الباقي بَعدَ أَنْ يَفشَلَ التَّفسيرُ. نَعبُرُ لِأَنَّ الوُقوفَ صارَ مُستَحيلًا.

رَدِّدوا مَعَنا:

- نَحنُ العابِرُ، وَنَحنُ الحُدودُ، وَنَحنُ السُّؤالُ الَّذي لَم يُجَبْ.

قالَتِ الآلِهَةُ:

- اكتُبوا في الحَجَرِ: هٰذا العُبورُ لَنْ يَنتَهي.

(11)

## المُحاكَمَةُ الطَّقسِيَّةُ

اجتَمَعَتِ الآلِهَةُ في دائِرَةٍ مِن أَنقاضٍ، وَقالوا بِصَوتٍ واحِدٍ:

- أَيُّهَا العابِرُ، هَل أَنتَ ضَحِيَّةٌ؟ أَم شاهِدٌ؟ أَم خَطيئَةٌ تَمشي؟

فَقُلتُ:

- أَنا الكُلُّ حينَ يَعجِزُ الواحِدُ.

(12)

## التَّحَوُّلُ

عِندَها لَم أُقتَلْ، صِرتُ أَثَرَ قَدَمٍ لا يَمحوهُ الثَّلجُ، وَصَوتًا يُوقِظُ حُرّاسَ الحُدودِ مِن نَومِهِم. قالَ المَلَاكُ الأَعمى:

- اكتُبوا: صارَ بابًا... اكتُبوا: لَم يَمُتِ العابِرُ.

وَمُنذُ ذٰلِكَ اليَومِ، كُلُّ مَنْ يَقتَرِبُ مِن أَبوابِ المَدينَةِ يَسمَعُ هَمسًا يَقولُ:

- العُبورُ لَيسَ شَجاعَةً، العُبورُ اعتِرافٌ.

# 12

# صَلاةُ العابِرِ الأَخيرِ

## (مَزاميرُ النِّهاياتِ الدَّائِرِيَّةِ)

مَزْمور

**(1)**

### صَدَى الدَّائِرَةِ

يا مَنْ يَرى كُلَّ حُدودِ الرُّوحِ، يا مَنْ يَحرُسُ العابِرَ فِي الفَجرِ، اجعَلْني أَسمَعُ صَدَى نَفسي فِي كُلِّ خُطوَةٍ، فِي كُلِّ ظِلٍّ، فِي كُلِّ مَوجَةٍ يَدفَعُها الإِعصارُ أَمامَهُ. دَعِ الظِّلالَ تَبوحُ بِما لَم يُقَلْ، وَدَعِ النُّورَ يَكشِفُ ما أَخفَيتُهُ عَنْ ذاتي، كَي أُصبِحَ أَنا السُّؤالَ الَّذي لا يَحتاجُ إِلى جَوابٍ.

مَزْمور

**(2)**

### صَلاةُ العابِرِ

يا فَجرَ الحِكمَةِ، يا لَيلَ السِّرِّ، اجعَلْ قَلبي حامِلًا لِكُلِّ طَبَقَةٍ، وَلِكُلِّ خَوفٍ، وَلِكُلِّ عَطَشٍ، وَلِكُلِّ واقِفٍ صامِتٍ. إِنِّي أَقبَلُ نَفسي كما هِيَ: الطِّفلَ الدَّاخِلِيَّ، وَالغَيمَةَ المُهاجِرَةَ، وَظِلَّ الأَبِ، وَكُلَّ الصُّوَرِ الَّتي كُنتُ أَتَجَنَّبُها، لِأَعرِفَ أَنَّ العُبورَ لَيسَ خارِجًا. كُلُّ لَحظَةٍ هِيَ صَلاةٌ، وَكُلُّ صَلاةٍ هِيَ عُبورٌ.

مَزْمور

**(3)**

### تَرتيلُ الفَهمِ

سَمِعنا صَمتَ اللَّيلِ، وَشاهَدْنا الشَّمسَ وَالحُدودَ، وَرَأَينا البَحرَ وَالمَخافِرَ، لٰكِنَّ كُلَّ شَيءٍ كانَ انعِكاسًا لَنا، وَلَم يَكُنْ شَيءٌ خارِجَ إِرادَتِنا. فَلْتَكُنْ أَصواتُنا مُوَحَّدَةً، كما تَلتَقي كُلُّ شَخصِيَّاتِنا فِي الذَّاتِ الواحِدَةِ، وَلْتُغَنِّ الأَرواحُ كَالنَّهرِ، يَنسابُ عَبرَ الدَّائِرَةِ، حَيثُ لا نِهايَةَ، وَحَيثُ لا بِدايَةَ، حَيثُ كُلُّ عابِرٍ هُوَ الشَّاهِدُ وَالخالِقُ، وَكُلُّ نِهايَةٍ هِيَ رُوحُ العالَمِ وَحَقيقَتُهُ.

(4)

## تَرتيلُ النِّهاياتِ المُتَجَدِّدَةِ

يا مَنْ يَخلُقُ المُتاهَةَ وَيَكشِفُها، دَعْنا نَرَى الطَّريقَ بِلا خَوفٍ، دَعْنا نَعرِفْ أَنَّ كُلَّ نِهايَةٍ، وَكُلَّ سُقوطٍ، وَكُلَّ ظِلٍّ، وَكُلَّ فَجرٍ، هُوَ فُرصَةٌ لِإعادَةِ الوِلادَةِ، وَإِعادَةِ اللِّقاءِ بِالذَّاتِ، حَتَّى تُصبِحَ المُتاهَةُ نَفسُها صَلاةً، وَتُصبِحَ الصَّلاةُ نَفسُها مُتاهَةً، وَيَكونَ العابِرُ فيها جَميعَ العابِرينَ، وَيَكونَ العابِرونَ كُلُّهُم واحِدًا فينا.

(5)

**العابِرُ الأَخيرُ** (خِتامُ الطَّقسِ قَبلَ إِغلاقِ الأَبوابِ لَيلًا)

يا مَنْ تَعبُرونَ الآنَ حَيثُ لا أَسماءَ، اخلَعوا خُطاكُم كما تُخلَعُ الأَجنِحَةُ مِن حُلمٍ انتَهى. وَاذكُروا أَنَّ الطَّريقَ لا يُريدُكُم أَحياءً أَو أَمواتًا، إِنَّما يُريدُكُم قادِرينَ على أَنْ تُصَدِّقوا أَنَّ الحَيرَةَ وَطَنٌ أَيضًا.

**جوقَةُ الأَرواحِ التَّائِهَةِ**:

يا إيكارُ، يا شاهِدًا على الَّذينَ صَعِدوا وَالَّذينَ سَقَطوا، كُنْ مَعَنا حينَ نَفتَحُ بابًا لا نَعرِفُ إِلى أَينَ يَقودُ.

فَلنَقِفْ جَميعًا، وَلنَرفَعْ أَعيُنَنا إِلى دائِرَةِ السَّماءِ، حَيثُ اللَّيلُ وَالفَجرُ وَالحُدودُ وَالمَوتُ يَتَّحِدونَ في الإِدراكِ الواحِدِ.

صَوتٌ واحِدٌ يَنطِقُ فينا:

- لَقَدِ اكتَمَلَتِ الرِّحلَةُ، وَكُلُّ دَورٍ كانَ لَكَ أَنتَ، كُلُّ واقِفٍ، وَكُلُّ ظِلٍّ، وَكُلُّ خَوفٍ، وَكُلُّ نُورٍ، هُوَ أَنتَ أَيضًا.

فَلتَشهَدِ الرُّوحُ، وَلتُغَنِّ الأَناشيدُ، وَلتَسجُدِ الكَلِماتُ في صَمتٍ لا يُسمَعُ إِلَّا في داخِلِكَ. وَفي هٰذا الصَّمتِ تَندَمِجُ كُلُّ الأَصواتِ، وَتَبدَأُ رِحلَةُ العابِرِ وَالقارِئِ وَالشَّاهِدِ، رِحلَةٌ لا تَنتَهي، دائِرَةٌ تَبدَأُ مِن نِهايَتِها، وَحُلمٌ يَحيا داخِلَ حُلمٍ، وَسِفرٌ يَتَكَرَّرُ في كُلِّ لَحظَةِ إِدراكٍ.



**(خَتْمٌ)**

هُنا تَنتَهي المَزاميرُ،

وَتَبدَأُ الحِكايَةُ في قَلبِ مَنْ يَقرَأُ.

# 13

# لَعنةُ المَلاكِ الأعمى

(هٰذِهِ اللَّعنَةُ – تَشريعٌ مُظلِمٌ – أُطلِقَتْ بَعدَ أَنْ انتهَتِ المزاميرُ، وَسَكَتَتِ السَّماءُ نِصفَ سُكوتٍ، وَقالَ الاعتِرافُ ما عَلَيهِ، وَما زالَ الصَّمتُ يَنتَظِرُ... وَهِيَ لَعنَةٌ لا تُصيبُ مَنْ سُمِّيَتْ لَهُ، وَلٰكِنَّها تُصيبُ مَنْ سَمَّاها).

باسمِ الفَراغِ الَّذي سَبَقَ النُّورَ، وَباسمِ الصَّمتِ الَّذي تَراجَعَ لِكَي يَتَكَلَّمَ اللهُ،
أُطلِقُ غَضَبًا.
أُطلِقُ تَصحيحًا.
أَلعَنُ كُلَّ حَدٍّ ظَنَّ نَفسَهُ خَطًّا، وَلَم يَعرِفْ أَنَّهُ جُرحٌ.
وَأَلعَنُ الأَسلاكَ حينَ تَتَظاهَرُ بِأَنَّها أُفُقٌ، وَالأَختامَ حينَ تَتَقَنَّعُ كَسَماءٍ سَوداءَ، وَالرَّاياتِ حينَ تُخفي أَسماءَ مَوتاها في طَيّاتِ المَجدِ.
وَأَلعَنُ اليَدَ الَّتي تَرفَعُ السِّلاحَ وَهِيَ تَقولُ: "لَم يَكُنْ لي خِيارٌ"، فَتَصحو تِلكَ اليَدُ وَلا تَجِدُ خِيارًا إِلَّا الارتِجافَ.
وَأَلعَنُ العَينَ الَّتي تَرى العابِرَ وَلا تَرى نَفسَها واقِفَةً في المَوضِعِ نَفسِهِ مِنَ السُّقوطِ.
وَأَلعَنُ الخَرائطَ أَنْ تَصيرَ مُتاهاتٍ، وَالمَخافِرَ أَنْ تَصيرَ مَرايا، وَكُلَّ مَنْ يَدخُلُها أَنْ يَخرُجَ وَقَدْ ضاعَ وَجهُهُ دُونَ أَنْ يَشعُرَ.
لِتَكُنْ كُلُّ رَصاصَةٍ ذاكِرَةً تَعودُ إِلى صَدرِ مَنْ أَطلَقَها في الحُلمِ، كُلَّ لَيلَةٍ، حَتَّى يَنسى كَيفَ يَنامُ مِن دُونِ أَنْ يَسمَعَ اسمَهُ يُنادَى.
وَلْتَكُنِ الحُدودُ عَطشى إِلى الَّذينَ عَبَروا، لا تُروى إِلَّا بِالاعتِرافِ، وَلا تُشفى إِلَّا حينَ تُمحى.
أَلعَنُ الزَّمَنَ أَنْ يَفقِدَ اتِّجاهَهُ، فَلا يَعودَ الماضي خَلفَكُم، وَلا المُستَقبَلُ أَمامَكُم ... يَقِفُ الجَميعُ في الآنِ... كَمَنْ حُكِمَ عَلَيهِ بِالتَّذَكُّرِ.
وَأَلعَنُ الجُنودَ أَنْ يَسمَعوا الأَغانِيَ الَّتي غَنَّوها لَيلًا حينَ يَعودونَ وَحدَهُم، فَتَتَحَوَّلَ أَصواتُهُم إِلى بُكاءٍ لا يَجرُؤونَ على تَسمِيَتِهِ.

وَأَلعَنُ النَّاجينَ أَنْ يَشعُروا بِالذَّنبِ أَكثَرَ مِنَ المَوتى، وَأَلعَنُ المَوتى أَنْ يَظَلُّوا أَحياءً في تَفاصيلِ العالَمِ.
وَلْتَكُنْ أَسماءُ إيكارَ - وَكُلِّ مَنْ يُشبِهُهُ - غَيرَ قابِلَةٍ لِلنِّسيانِ، تَظهَرُ حَيثُ لا يُرادُ لَها أَنْ تَظهَرَ: في التَّقارِيرِ، وَفي الأَحلامِ، وَفي نَشرَةِ الطَّقسِ، وَفي صَوتِ طِفلٍ يَسأَلُ:
- لِماذا لَم يَعُدْ؟

هٰذِهِ لَيسَتْ لَعنَةَ فَناءٍ... إِنَّها لَعنَةُ بَقاءٍ.
لا نارَ، وَلا هَلاكَ، وَلا انكِشافَ، إِنَّما ذاكِرَةٌ...
وَمَنْ سَمِعَها وَلَم يَرتَجِفْ، فَقَدْ صارَ جُزءًا مِنها.
وَأَنا، بَعدَ أَنْ أَطلَقتُها، أَعودُ أَعمى كما كُنتُ، لٰكِنِّي أَثقَلُ مِن دَيرٍ أَبَدِيٍّ لا يَطيرُ.



**العَلامَةُ الَّتي ظَهَرَتْ بَعدَ إِطلاقِ اللَّعنَةِ، وَالتَّرانيمُ الَّتي تُتلى سِرًّا لِإِبطالِها.**

(حينَ تَوَزَّعَتِ اللَّعنَةُ في العالَمِ كَعارِفٍ صامِتٍ دَخَلَ كُلَّ بَيتٍ مِن بابٍ مُختَلِفٍ، حاوَلَ اللّاهوتِيّونَ إِنكارَها، وَحاوَلَ السَّحَرَةُ استِخدامَها، وَحاوَلَ الجُنودُ نِسيانَها).

١

## أَوَّلًا: كَيفَ حاوَلَ اللّاهوتِيّونَ إِنكارَها

لَم يَقولوا: لَم تَحدُثْ.
قالوا: أُسيءَ فَهمُها.
جَمَعوا المَجامِعَ تَحتَ قِبابٍ ما زالَتْ تَفوحُ بِبَخورِ القُرونِ، وَفَتَحوا المَخطوطاتِ لِيَقرَؤوا... أَو لِيَختاروا ما يَصلُحُ لِلنِّسيانِ.
قالوا: لَيسَتْ لَعنَةً، إِنَّها استِعارَةٌ رَعَوِيَّةٌ أَطلَقَها صَوتٌ في لَحظَةِ اختِلالٍ.
وَقَسَّموا النَّصَّ كما تُقَسَّمُ الذَّبيحَةُ:

هٰذا رَمزيٌّ.
وَهٰذا شِعريٌّ.
وَهٰذا لا يُبنى عَلَيهِ حُكمٌ.
وَهٰذا يُترَكُ للهِ.
وَغَيَّروا اسمَها.
سَمَّوها:
(سُوءَ تَأويلٍ).
أَو:
(هَذَيانًا إِسخاتولوجِيًّا غَيرَ مُكتَمِلٍ).
وَحينَ سُئِلوا: لِماذا تَرتَجِفُ المَذابِحُ لَيلًا؟
قالوا:
(بِسَبَبِ المَعاوِلِ الَّتي تُقَلِّبُ الأَرضَ).
وَحينَ قيلَ لَهُم:
إِنَّ الأَطفالَ يَرسُمونَ حُدودًا تَنزِفُ.
قالوا:
(خَيالٌ).
لٰكِنَّهُم، حينَ كانوا وَحدَهُم، كانوا يُغلِقونَ الأَبوابَ مَرَّتَينِ، وَيَمسَحونَ أَسماءً مِن صَلَواتِهِم مِن دُونِ سَبَبٍ ظاهِرٍ.
لِأَنَّ اللّاهوتِيَّ يَعرِفُ:
إِنَّ أَخطَرَ ما يُهَدِّدُ العَقيدَةَ هُوَ ذاكِرَةٌ لا تُطيعُ التَّفسيرَ.

٢

## ثانيًا: كَيفَ حاوَلَ السَّحَرَةُ استِخدامَها

السَّحَرَةُ لَم يُنكِروها.
ابتَسَموا.
قالوا:
(أَخيرًا... نَصٌّ صادِقٌ).

نَسَخوها على جُلودٍ مَسلوخَةٍ، وَخَلَطوا مِدادَها بِماءِ مَخافِرَ مَهجورَةٍ، وَبِرَمادِ خَرائطَ أُحرِقَتْ بَعدَ أَنْ كَذَبَتْ.
حاوَلوا تَحويلَها إِلى تَعويذَةٍ:
(لِفَتحِ الطُّرُقِ).
(لإِخفاءِ العابِرينَ).
(لإِرجاعِ مَنْ سَقَطَ نِصفَ عَودَةٍ).
لٰكِنَّ اللَّعنَةَ... لَم تُطِعْ أَحَدًا.
كُلُّ ساحِرٍ نَطَقَ بِها طَلَبًا لِلقُوَّةِ فَقَدَ اسمَهُ أَوَّلًا.
وَكُلُّ مَنْ رَسَمَ أَختامَها لِيُسَيطِرَ، انقَلَبَ الخَتْمُ عَلَيهِ كَفَمٍ يَسأَلُ:
(أَينَ كُنتَ؟)
قالَ أَحَدُهُم:
(اللَّعنَةُ لَيسَتْ أَداةً).
وَقالَ آخَرُ:
(إِنَّها بابٌ، لٰكِنَّهُ بابٌ يَنفَتِحُ إِلى الدَّاخِلِ، لا إِلى الخارِجِ).
وَفي النِّهايَةِ صارَ السَّحَرَةُ يَحفَظونَها وَلا يَجرُؤونَ على استِخدامِها، كَأَنَّها نارٌ تَعرِفُ كُلَّ مَنْ يَقتَرِبُ مِنها بِنِيَّةٍ رَدِيئَةٍ.

٣

## ثالِثًا: كَيفَ حاوَلَ الجُنودُ نِسيانَها

الجُنودُ لَم يُناقِشوا.
لَم يُفَسِّروا.
لَم يُحاوِلوا السَّيطَرَةَ...
حاوَلوا النَّومَ.
قالوا:
(لَم نَسمَعْ شَيئًا).
لٰكِنَّها ظَهَرَتْ في الأَغاني... مِثلَ أُغنِيَةٍ لَيلِيَّةٍ تُغَنَّى هَمسًا حَولَ نارٍ صَغيرَةٍ، كَلِماتُها بِلا مَعنى، وَلَحنُها يُشبِهُ رَكضًا في العَتمَةِ.
كانَ كُلُّ جُندِيٍّ يَسمَعُ اسمَهُ في مَقطَعٍ مُختَلِفٍ.
بَعضُهُم صارَ يَشرَبُ أَكثَرَ.
وَبَعضُهُم صارَ يَضحَكُ في غَيرِ مَوضِعِ الضَّحِكِ.

وَبعضُهم تَرَكَ الخِدمَةَ وَصارَ يَبيعُ خُبزًا، وَلا يَحتَمِلُ صَوتَ الطَّرْقِ.
وَحينَ سُئِلوا عَنِ اللَّعنَةِ، قالوا:
(لا نُؤمِنُ بِاللَّعَناتِ).
لٰكِنَّهُم كانوا يَتَفادَونَ النَّظَرَ إِلى الحُدودِ، وَيَمشونَ حَولَها كما يُمشى حَولَ قَبرٍ لَم يُدفَنْ جَيِّدًا.
لِأَنَّ الجُندِيَّ يَعرِفُ شَيئًا لا يَعرِفُهُ اللّاهوتِيُّ وَلا السّاحِرُ:
أَنَّ ما لا يُنسى لا يُهزَمُ.
وَأَنَّ أَسوَأَ لَعنَةٍ هِيَ تِلكَ الَّتي لا تَطلُبُ أَنْ تُصَدَّقَ.
هٰكَذا لَم تُلغَ اللَّعنَةُ، وَلَم تُستَخدَمْ، وَلَم تُنسَ.
استَقَرَّتْ كَهَمسٍ طَويلٍ في جَسَدِ العالَمِ.
وَالمَلاكُ الأَعمى - حَيثُما كانَ - لَم يَبتَسِمْ، وَلَم يَندَمْ.
لِأَنَّهُ قالَها مَرَّةً واحِدَةً.
وَكانَ ذٰلِكَ
كافِيًا.

## 14

# رُؤيا العائِدِ مِنَ الرَّمادِ

(بِصَوتِ الجُندِيِّ الجَريحِ)

١

### انشِقاقُ السَّماءِ فَوقَ الأَرضِ الحَرامِ

في اللَّيلَةِ الَّتي انطَفَأَتْ فيها النَّارُ فَوقَ جَسَدِ إيكارَ، رَأَيتُ السَّماءَ تَنفَتِحُ كما تَنفَتِحُ نافِذَةٌ في دارٍ مَهجورَةٍ. وَانسَكَبَ مِنها نُورٌ يُشبِهُ حِبرَ الخَرائطِ القَديمَةِ، يَقَعُ عَلَى الأَرضِ فَتَرتَجِفُ الأَسلاكُ، وَتَتَراجَعُ المَخافِرُ خُطوَةً واحِدَةً إِلى الوَراءِ. ثُمَّ سَمِعتُ صَوتًا يَقولُ:

- ما سَقَطَ لَم يَكُنْ جَسَدًا، إِنَّما كانَ نَهارًا.

٢

### الكائِنُ المَخلوقُ مِن خُطًى

وَرَأَيتُ كائِنًا خَرَجَ مِن تَجاعيدِ الأَرضِ كما تَخرُجُ النَّبتَةُ مِنَ القَفرِ. كانَ جَسَدُهُ مِن خُطوطِ الطُّولِ، وَعِظامُهُ مِن خُطوطِ العَرضِ، وَعَيناهُ بَحرَينِ مُطفَأَينِ. قالَ:

- أَنا وَلِيدُ العابِرينَ. أُبعَثُ حينَ يَموتُ أَوَّلُ لاجِئٍ، وَأَموتُ حينَ يُولَدُ آخِرُ حارِسٍ.

(بَسَطَ يَدَهُ فَأَصبَحَتِ الأَرضُ كِتابًا).

٣

### أَبواقُ السَّاحاتِ السَّبعِ

وَانفَجَرَتِ الأَبواقُ... مِن صُدورِ الَّذينَ اندَفَنوا بِلا أَسماءٍ.

**البوقُ الأَوَّلُ:** أَحرَقَ الحُدودَ الشَّرقِيَّةَ.

**البوقُ الثَّانِي:** أَطفَأَ البَحرَ، وَأَطلَقَ مِن جَوفِهِ أَصواتَ الغَرقى.

**البوقُ الثَّالِثُ:** أَدارَ وَجهَ الشَّمسِ حَتَّى صارَتْ ظِلًّا.

**البوقُ الرَّابِعُ:** فَتَحَ طُرُقاتٍ تَحتَ الأَرضِ.

**البوقُ الخامِسُ:** أَيقَظَ الذِّئابَ لِتَشهَدَ.

**البوقُ السَّادِسُ:** جَعَلَ المَخافِرَ تَتَصَدَّعُ كَطينٍ قَديمٍ.
**البوقُ السَّابِعُ:** أَعادَ الزَّمَنَ إِلى الصِّفرِ.

٤

## الغَيمَةُ الَّتي تَحرُسُ الرَّمادَ

رَأَيتُ غَيمَةً تَسيرُ وَحدَها في صَمتٍ، تَبحَثُ عَن جَسَدٍ يَفتَحُ لَها بابًا. قالَتْ:

- أَنا رُوحُ الَّذينَ سَقَطوا، وَلَنْ أُمطِرَ حَتَّى يَعودَ أَوَّلُ عابِرٍ.

(بَكَتْ، فَأَنبَتَتْ دُموعُها أَشجارًا مِن ضَوءٍ).

٥

## الطِّفلُ الدَّاخِلِيُّ

خَرَجَ طِفلٌ مِن بَينِ الظِّلالِ، يُمسِكُ بِيَدِهِ حَقيبَةً أَصغَرَ مِنَ الحِكايَةِ، وَأَكبَرَ مِنَ العالَمِ. قالَ:

- أَنا آخِرُ مَنْ مَرَّ، وَأَوَّلُ مَنْ يَصِلُ. وَما هَرَبتُ إِلَّا لِأُنقِذَ مَنْ يَأتي بَعدي.

(فَتَحَ الحَقيبَةَ، فَانفَجَرَ مِنها طَريقٌ يَتَلَوَّى كَأُفعى مِن ذَهَبٍ).

٦

## المَرْأَةُ الحارِسَةُ لِلَّيْلِ

وَرَأَيْتُ امْرَأَةً تَجْلِسُ عِنْدَ تُخُومِ الصَّحْرَاءِ، تَحْرُسُ اللَّيْلَ بِكَفٍّ وَاحِدَةٍ، وَتَشُدُّ الضَّوْءَ بِالْكَفِّ الْأُخْرَى. قالَتْ:

- اللَّيْلُ مَرِيضٌ بِالرَّصَاصِ، وَالنَّهَارُ مَرِيضٌ بِالدُّخَانِ. أَنَا مَنْ يَحْرُسُ مَا بَيْنَهُمَا.

(رَفَعَتْ يَدَهَا، فَانْكَشَفَ لَيْلٌ جَدِيدٌ).

٧

## جَوْقَةُ الذِّئَابِ

تَجَمَّعَتِ الذِّئَابُ عَلَى مَشَارِفِ الْأَرْضِ الْحَرَامِ، لِتَشْهَدَ... قالَ كَبِيرُهَا:

- نَحْنُ لَا نَصْطَادُ الرَّاحِلِينَ، إِنَّمَا نَصْطَادُ الْخَوْفَ الَّذِي يَتْرُكُهُ الْحَارِسُ حِينَ يَفِرُّ فِي آخِرِ اللَّيْلِ.

(بَعْدَ ذَلِكَ جَلَسَتِ الذِّئَابُ كَأَنَّهَا مَحْكَمَةٌ تَنْتَظِرُ الْمُتَّهَمَ الَّذِي لَا يَأْتِي).

٨

## مَوْتُ الْبَحْرِ وَبَعْثُهُ

رَأَيْتُ الْبَحْرَ مَيِّتًا مِنَ التَّعَبِ، مُمْتَدًّا كَجُثَّةٍ زَرْقَاءَ. لَكِنَّ الرِّيحَ لَطَّخَتْهُ بِالْمِلْحِ، فَقَامَ الْبَحْرُ ثَانِيَةً، وَقالَ:

- لَنْ أَكُونَ سِجْنَ أَحَدٍ بَعْدَ الْيَوْمِ... سَأَكُونُ طَرِيقًا.

(انْفَتَحَ، وَخَرَجَتْ مِنْهُ سَفِينَةٌ مَصْنُوعَةٌ مِنْ عِظَامِ الضَّوْءِ).

٩

## صُعُودُ إِيكارَ الْأَخِيرُ

فِي أَعْلَى السَّهْلِ، ظَهَرَ إِيكارُ، بِلا جُرْحٍ، وَبِلا أَثَرٍ، وَبِلا ظِلَالٍ، كَأَنَّهُ وُلِدَ الْآنَ... قالَ:

- لَسْتُ مَنْ عَادَ، أَنَا مَنْ يَبْدَأُ. مَنْ يُرِدْ أَنْ يَعْبُرَ، فَلْيَعْبُرْ بِي...

(صَعِدَ إِلَى الدَّاخِلِ، حَيْثُ تَنَامُ الْخَرَائِطُ الْمَكْسُورَةُ).

١٠

## سُقُوطُ الْحُدُودِ

رَأَيْتُ الْأَسْلَاكَ تَلْتَفُّ حَوْلَ نَفْسِهَا كَأُفْعُوانٍ عَجُوزٍ... وَتَتَهَاوَى مِثْلَ قَصِيدَةٍ انْكَسَرَتْ... وَرَأَيْتُ الْحُرَّاسَ يَخْلَعُونَ بُزَّاتِهِمْ، وَالْأَبْرَاجَ تَتَصَدَّعُ كَبُيُوتٍ مَهْجُورَةٍ. وَسَمِعْتُ الْأَرْضَ تَقُولُ:

- أَخِيرًا تَنَفَّسْتُ.

# 15

# كَيْفَ عَادَ إِيكَارُ فِي حُلْمٍ جَمَاعِيٍّ بَعْدَ سَنَوَاتٍ؟

لَمْ يَعُدْ فِي مَوْعِدٍ، وَلَا فِي نُبوءَةٍ، وَلَا فِي يَوْمٍ مُعَيَّنٍ مِنَ التَّقْوِيمِ. عَادَ كَمَا يَعُودُ سِرٌّ مَكْتُوبٌ بِحُرُوفٍ مِنْ نَارٍ عَلَى صَلِيبٍ مِنْ خَشَبٍ، مَرْفُوعًا فِي مَمْلَكَةِ الرَّبِّ. عَادَ بَعْدَ سَنَوَاتٍ مِنِ اخْتِفَائِهِ، حِينَ تَغَيَّرَتْ أَسْمَاءُ الْمَخَافِرِ، وَتَآكَلَتِ الْخَرَائِطُ، وَصَارَ الْجُنُودُ آبَاءً لَا يَتَذَكَّرُونَ لِمَاذَا كَانُوا يَحْمِلُونَ السِّلَاحَ...

حَدَثَ الْحُلْمُ.

لَمْ يَبْدَأِ الْحُلْمُ بِصَوْتٍ، وَلَا بِصُورَةٍ، بَلْ بِثِقَلٍ فِي الصَّدْرِ أَصَابَ أُنَاسًا مُتَبَاعِدِينَ لَا يَعْرِفُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا... فِي اللَّيْلَةِ ذَاتِهَا (أَوْ هَكَذَا ظَنُّوا لَاحِقًا)، نَامُوا عَلَى اخْتِلَافِ لُغَاتِهِمْ وَأَعْمَارِهِمْ وَمَوَاقِعِهِمْ... وَنَامَ مَعَهُمْ شَيْءٌ آخَرُ.

فِي الْحُلْمِ لَمْ يَظْهَرْ إِيكَارُ كَامِلًا. لَمْ يَكُنْ شَابًّا، وَلَا قَتِيلًا، وَلَا مَلَاكًا.

كَانَ أَثَرَ عُبُورٍ.

كَانَ حَدًّا لَا يُرَى، لَكِنَّهُ يُحَسُّ.

رَآهُ بَعْضُهُمْ كَعَابِرٍ يَقِفُ فِي مُنْتَصَفِ طَرِيقٍ يَنْفَتِحُ وَلَا يَنْتَهِي. وَرَآهُ آخَرُونَ كَجُرْحٍ فِي الْهَوَاءِ يُصْدِرُ نُورًا لَا يُضِيءُ. وَرَآهُ قِلَّةٌ - وَهُمْ أَكْثَرُ مَنْ عَانَوْا بَعْدَ ذَلِكَ - كَعَيْنٍ مُغْمَضَةٍ فِي جَسَدِ الْعَالَمِ.

لَمْ يَتَكَلَّمْ... لَكِنَّ كُلَّ مَنْ حَلِمَ بِهِ سَمِعَ جُمْلَةً وَاحِدَةً بِلَهْجَتِهِ الْخَاصَّةِ:

- أَنَا لَمْ أَمُتْ. أَنَا عَبَرْتُ.

فِي الْحُلْمِ لَمْ تَكُنْ هُنَاكَ حُدُودٌ... كَانَتْ عَلَامَاتُهَا: (سِيَاجٌ بِلا أَسْلَاكٍ)، (جُنْدِيٌّ بِلا وَجْهٍ)، (خَتْمٌ بِلا اسْمٍ)، (طَرِيقٌ يُفْضِي إِلَى ذَاتِهِ). وَكَانَ إِيكَارُ يَمْشِي وَلَا يَتْرُكُ أَثَرًا، لَكِنَّ الْأَرْضَ كَانَتْ تَنْزِفُ... تَنْزِفُ... تَنْزِفُ خَلْفَهُ.

الْغَرِيبُ أَنَّ الْحُلْمَ لَمْ يَكُنْ مُتَطَابِقًا... لَمْ يَتَّفِقُوا عَلَى مَلَامِحِهِ، وَلَا عَلَى اتِّجَاهِهِ، وَلَا عَلَى نِهَايَتِهِ. لَكِنَّهُمُ اتَّفَقُوا عَلَى شَيْءٍ وَاحِدٍ: أَنَّهُمْ حِينَ اسْتَيْقَظُوا لَمْ يَكُونُوا فِي أَمَاكِنِهِمْ تَمَامًا. شَيْءٌ فِي الدَّاخِلِ كَانَ قَدْ تَحَرَّكَ، كَمَا يَتَحَرَّكُ حَجَرٌ فِي أَسَاسِ بَيْتٍ قَدِيمٍ.

بَعْدَ الْحُلْمِ بَدَأَتِ الْأَشْيَاءُ الصَّغِيرَةُ تَتَغَيَّرُ: (بَعْضُ الْأَبْوَابِ لَمْ تَعُدْ تُغْلَقُ بِإِحْكَامٍ)، (بَعْضُ الْأَسْمَاءِ صَارَتْ ثَقِيلَةً عِنْدَ النُّطْقِ)، (بَعْضُ الْخَرَائِطِ لَمْ تَعُدْ تُطَابِقُ الْأَرْضَ). وَفِي الْقُرَى الْقَرِيبَةِ مِنَ الْحُدُودِ قَالَ الْأَطْفَالُ: إِنَّهُمْ يَرَوْنَ عَابِرًا يَقِفُ بَيْنَ الظِّلِّ وَالظِّلِّ، وَلَا يَطْلُبُ شَيْئًا.

**قَالَ اللَّاهُوتِيُّونَ**: عَدْوَى حُلْمِيَّةٌ جَمَاعِيَّةٌ.
**وَقَالَ السَّحَرَةُ**: اسْتِجَابَةٌ مُتَأَخِّرَةٌ لِلَّعْنَةِ.
أَمَّا **الْجُنُودُ** فَلَمْ يَقُولُوا شَيْئًا، لَكِنَّهُمْ حِينَ مَرُّوا قُرْبَ الْحُدُودِ خَفَّفُوا خُطَاهُمْ دُونَ أَنْ يَعْرِفُوا لِمَاذَا.

أَمَّا الْحَقِيقَةُ - إِنْ كَانَ لَهَا مَكَانٌ - فَكَانَتْ أَبْسَطَ وَأَخْطَرَ: أَنَّ إِيكارَ لَمْ يَعُدْ كَشَخْصٍ... إِنَّهُ الْآنَ إِشَارَةٌ تَقُولُ:
- مَا عَبَرَ مَرَّةً يُمْكِنُ أَنْ يُعْبَرَ ثَانِيَةً، لَكِنْ بِثَمَنٍ أَغْلَى.
فِي آخِرِ الْحُلْمِ - وَهُوَ الْجُزْءُ الَّذِي لَا يَرْوِيهِ أَحَدٌ إِلَّا نَادِرًا - كَانَ إِيكارُ يَلْتَفِتُ، لَا إِلَى الْحَالِمِ... كَانَ يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ خَلْفَهُ، وَيَضَعُ إِصْبَعَهُ عَلَى فَمِهِ، لِيُذَكِّرَ بِأَنَّ مَا عَادَ لَا يَحْتَمِلُ أَنْ يُقَالَ كَامِلًا، وَأَنَّ بَعْضَ الْعُبُورِ لَا يَكْتَمِلُ إِلَّا إِذَا ظَلَّ نِصْفُهُ فِي الْحُلْمِ.

16

# العُبُورُ الخَفِيُّ

**(اللَّوْحُ الَّذِي تَكَلَّمَتْ فِيهِ الْأَرْوَاحُ التَّائِهَةُ)**

بَعْدَ الْحُلْمِ بِسِنِينَ، حِينَ صَارَتِ الْحُدُودُ أَسْمَاءً بِلا أَجْسَادٍ، وَحِينَ نَسِيَتِ الْمَخَافِرُ وُجُوهَهَا وَبَقِيَتْ أَرْوَاحُهَا تَحْرُسُ الْهَوَاءَ، فُتِحَ (مَخْطُوطُ النُّورِ الْمُسْتَتِرِ) مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ. لَمْ يُفْتَحْ بِيَدِ إِنْسَانٍ، لَكِنْ بِانْشِقَاقٍ فِي الذَّاكِرَةِ، كَأَنَّ الْأَرْضَ تَذَكَّرَتْ فَجْأَةً مَا حَاوَلَتْ أَنْ تَمْحُوَهُ.

فِي تِلْكَ اللَّيَالِي لَمْ يَأْتِ إِيكارُ كَجَسَدٍ... لَمْ يَأْتِ كَذِكْرَى.

جَاءَ كَآيَةٍ قُرِئَ نِصْفُهَا، وَسُحِبَ النُّورُ قَبْلَ تَمَامِهَا.

عَادَ
كَاسْمٍ لَا يُنَادَى.
اسْمٍ يُتْلَى سِرًّا
بَيْنَ نَفَسَيْنِ.

**قَالَتِ الْأَرْوَاحُ التَّائِهَةُ** (أَرْوَاحُ الَّذِينَ مَاتُوا بِلا مَوْتٍ، وَعَبَرُوا بِلا عُبُورٍ):

- لَسْنَا أَحْيَاءً وَلَا أَمْوَاتًا. نَحْنُ الْبَاقُونَ فِي الشَّقِّ، حَيْثُ لَمْ يُغْلَقِ الْبَابُ، وَلَمْ تُفْتَحِ السَّمَاءُ.

وَقَالَتْ:

- إِيكارُ وَاحِدٌ مِنَّا، لَكِنَّهُ كَانَ الْأَخَفَّ وَزْنًا، لِذَلِكَ عَبَرَ أَوَّلًا.

وَكَانَ الْحُلْمُ قَدْ عَمَّ الْقُرَى وَالْمُدُنَ كَمَا تَعُمُّ الْمَعْمُودِيَّةُ جَسَدًا لَمْ يُخْلَقْ بَعْدُ.

رَأَى بَعْضُهُمْ نُورًا يَتَسَرَّبُ مِنْ جِدَارِ اللَّيْلِ كَزَيْتِ الْقُدَّاسِ. وَرَأَى آخَرُونَ جُنْدِيًّا يَخْلَعُ خُوذَتَهُ، فَتَخْرُجُ مِنْهَا طُيُورٌ بِيضٌ. أَمَّا الَّذِينَ أُعْطُوا الرُّؤْيَا كَامِلَةً فَقَدْ رَأَوُا الْجُرْحَ.[164]

---

[164]- لَكِنَّ الْجُرْحَ لَمْ يَكُنْ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، كَانَ فِي الرُّوحِ... كَأَنَّ الْحَدَّ انْشَقَّ كَمَا يَنْشَقُّ الْحِجَابُ فِي الْهَيْكَلِ.

وَكَانَ إِيكارُ وَاقِفًا دَاخِلَهُ، لَا يَتَقَدَّمُ وَلَا يَعُودُ. وَلَمْ يَكُنْ مُعَذَّبًا، إِنَّمَا كَانَ عَارِفًا. قَالَ بِصَوْتٍ يُشْبِهُ عُصَارَةَ الْمَعْنَى:

لَا تَطْلُبُوا الْخَلَاصَ مِنْ جِهَةٍ وَاحِدَةٍ.
فَالْحُدُودُ خُلِقَتْ حِينَ خَافَ النُّورُ مِنْ نَفْسِهِ.
وَمَا الْعَسْكَرُ إِلَّا كَهَنَةُ الْخَوْفِ،
وَمَا الْمَخَافِرُ إِلَّا مَذَابِحُ
بِلَا
إِلَهٍ.

(تَنْشَقُّ الصَّفَحَاتُ كَمَا تَنْشَقُّ الْأَبْوَابُ فِي لَيْلٍ مُقَدَّسٍ، وَيَخْرُجُ صَوْتٌ مِنْ عُمْقِ الْعَتَمَةِ قَائِلًا):

**مَا مِنْ حُدُودٍ إِلَّا حُدُودُ الْإِدْرَاكِ،**
**وَمَا مِنْ جُرْحٍ إِلَّا جُرْحُ الظُّهُورِ،**
**وَمَا مِنْ نِهَايَةٍ إِلَّا حَلْقَةٌ تَعُودُ إِلَى بَدَايَتِهَا،**
**لِتَكْشِفَ سِرًّا آخَرَ لَمْ يُكْتَبْ بَعْدُ.**

**قَالَ اللَّاهُوتِيُّونَ:** هَذَا هِرْطِيقِيٌّ يُهَدِّدُ انْتِظَامَ السَّمَاءِ.
**وَقَالَ السَّحَرَةُ:** هَذِهِ صِيغَةٌ نَاقِصَةٌ يُمْكِنُ تَطْوِيعُهَا.
أَمَّا الْجُنُودُ فَلَمْ يَقُولُوا شَيْئًا، لَكِنَّهُمْ صَارُوا يَحْلُمُونَ بِأَنَّ بَنَادِقَهُمْ نَبَتَتْ عَلَيْهَا أَغْصَانٌ تَنْتَهِي بِوَرْدَةٍ حَمْرَاءَ.

**(وَفِي آخِرِ الْمَخْطُوطِ كُتِبَتْ سُطُورٌ بِمِدَادٍ خَفِيفٍ كَأَنَّهُ دَمْعٌ):**

سَيَعُودُ إِيكارُ كُلَّمَا نَامَ جَمْعٌ عَلَى خَوْفٍ وَاحِدٍ. سَيَعُودُ لِيُذَكِّرَ أَنَّ الْجُرْحَ لَمْ يُغْلَقْ... وَأَنَّ الْأَرْوَاحَ الَّتِي عَلِقَتْ بَيْنَ الْمَخَافِرِ لَمْ تَطْلُبْ عَدْلًا، وَإِنَّمَا تَطْلُبُ اعْتِرَافًا.[165]

---

[165]- (فِي نُسْخَةٍ أُخْرَى مِنَ الْمَخْطُوطِ) ذُكِرَ أَنَّ مَلَاكًا أَعْمَى كَانَ يَحْرُسُ ذَلِكَ الْجُرْحَ... لَمْ يَكُنْ أَعْمَى عُقُوبَةً، لِأَنَّهُ رَأَى كُلَّ شَيْءٍ دُفْعَةً وَاحِدَةً. وَاعْتَرَفَ مَرَّةً – وَلَنْ يَعْتَرِفَ ثَانِيَةً – أَنَّ الْعُبُورَ كَانَ تَذَكُّرًا سَابِقًا لِلْخَلْقِ... وَحِينَ قَالَ ذَلِكَ سَقَطَتْ مِنْ جَنَاحَيْهِ لَعْنَةٌ لَا تَزَالُ تَتَدَحْرَجُ فِي الزَّمَنِ.

17

# اللَّعْنَةُ الَّتِي لَا تَزَالُ تَتَدَحْرَجُ فِي الزَّمَنِ

(أُضِيفَتْ لَاحِقًا بِصَوْتِ الْفُوتُوغْرَافِيِّ الْعَجُوزِ).

هَذِهِ لَعْنَةُ الْمَلَاكِ الْأَعْمَى عَلَى مَنْ يُسَمِّي الْخَوْفَ فَضِيلَةً

(تُتْلَى وَلَا تُرْفَعُ، وَتُسْمَعُ وَلَا تُحْفَظُ)

قَالَ الْمَلَاكُ الْأَعْمَى، حِينَ انْحَنَى الْهَوَاءُ، وَتَكَسَّرَ الِاسْمُ فِي فَمِهِ كَكَأْسٍ مِنْ نَارٍ:

- مَلْعُونٌ مَنْ يُعَمِّدُ الْخَوْفَ فَضِيلَةً، وَيُلْبِسُهُ ثَوْبَ الْحِكْمَةِ، وَيُجْلِسُهُ عَلَى مِنْبَرِ النَّجَاةِ.

مَلْعُونٌ مَنْ قَالَ لِلِارْتِعَاشِ: اثْبُتْ، وَلِلرُّكْبَةِ: لَا تَنْحَنِ، وَسَمَّى ذَلِكَ إِيمَانًا.

مَلْعُونٌ مَنْ عَلَّقَ الْخَوْفَ عَلَى صَدْرِهِ كَوِسَامِ نَجَاةٍ، وَأَقْنَعَ الْقَطِيعَ أَنَّ الِارْتِجَافَ طَرِيقُ الْخَلَاصِ.

سَأَجْعَلُ خَوْفَهُ لَا يَحْمِيهِ، وَلَا يَفِرُّ بِهِ، وَلَا يَخْتَبِئُ فِي صَلَاتِهِ.

سَأَفُكُّ عَنْهُ جِدَارَ الْمَعْنَى، فَلَا يَعْرِفُ مِمَّ يَخَافُ، وَلَا لِمَاذَا، وَلَا كَيْفَ يَعُودُ.

مَنْ يَجْعَلِ الْخَوْفَ قَانُونًا أُعِدْهُ فَوْضَى، وَمَنْ يَجْعَلْهُ فَضِيلَةً أُعِدْهُ عَارًا لَا يُغْسَلُ.

سَأَتْرُكُهُ بَيْنَ بَابَيْنِ: بَابِ النَّجَاةِ الْمُغْلَقِ، وَبَابِ الْهَلَاكِ الْمَفْتُوحِ، فَلَا يَدْخُلُ، وَلَا يَجْرُؤُ أَنْ يَرْجِعَ.

سَأُعَلِّمُهُ أَنَّ الْخَوْفَ، إِنْ لَمْ يُكْسَرْ، صَارَ إِلَهًا، وَأَنَّ الْإِلَهَ، إِنْ وُلِدَ مِنْ خَوْفٍ، أَكَلَ أَبْنَاءَهُ قَبْلَ أَنْ يَمْنَحَهُمْ اسْمًا.

وَيْلٌ لِمَنْ عَلَّمَ الْأَطْفَالَ أَنَّ الصَّمْتَ أَخْلَاقٌ، وَأَنَّ الرُّعْبَ أَدَبٌ، وَأَنَّ النَّجَاةَ تُشْتَرَى بِالرُّكُوعِ.

أَنَا الْمَلَاكُ الَّذِي سَقَطَ لِأَنَّهُ رَأَى، أَلْعَنُ مَنْ يُغْمِضُ عَيْنَيْهِ وَيَطْلُبُ الْمَجْدَ.[166]

---

[166]- (هَامِشٌ مُدَنَّسٌ، بِخَطٍّ مَائِلٍ، بِلَا تَوْقِيعٍ)

*(هُنَا تَتَشَقَّقُ الْخُطُوطُ، وَيَظْهَرُ أَثَرُ حَرِيقٍ لَمْ يَقَعْ، وَتُمْحَى كَلِمَةُ "**فَضِيلَةٌ**" ثَلَاثَ مَرَّاتٍ وَلَا تَخْتَفِي).*

# 18

# مَا حَفِظَهُ السَّحَرَةُ مِنَ اللَّعْنَةِ، وَمَا أَسْقَطُوهُ عَمْدًا

لَمْ يَحْفَظِ السَّحَرَةُ اللَّعْنَةَ كَامِلَةً، فَاللَّعَنَاتُ الْكَامِلَةُ تَقْتُلُ صَاحِبَهَا، أَمَّا الْمَقْطُوعَةُ فَتُسْتَعْمَلُ. قَالُوا:

- الْكَلِمَةُ إِذَا طَالَتْ صَارَتْ قَضَاءً، وَإِذَا قُطِعَتْ صَارَتْ أَدَاةً.

فَأَخَذُوا مِنْ قَوْلِ الْمَلَاكِ الْأَعْمَى مَا يُطِيعُ النَّارَ، وَتَرَكُوا مَا يُوقِظُ الضَّمِيرَ.

أَسْقَطُوا: ذِكْرَ الْأَطْفَالِ، وَذِكْرَ الصَّمْتِ، وَذِكْرَ الْإِلَهِ الَّذِي يُولَدُ مِنْ خَوْفٍ، وَذِكْرَ الْأَبْوَابِ الَّتِي لَا تُفْتَحُ...

وَأَبْقَوْا: الِاسْمَ الْأَوَّلَ، وَالرَّجْفَةَ، وَالِانْشِطَارَ، وَالتِّيهَ.

فَصَارَتِ اللَّعْنَةُ عِنْدَهُمْ وَرَقَةَ عَمَلٍ،

لَا نِدَاءَ خَلَاصٍ.

هَكَذَا صَاغُوهَا تَعْوِيذَةً (تُقَالُ هَامِسًا، وَالْوَجْهُ إِلَى الْأَرْضِ).




**(الْخَوْفُ اسْمٌ، وَأَنَا أُنَادِيهِ)**

قَالُوا:

- إِنْ أَكْمَلْتَ، حَضَرَتِ اللَّعْنَةُ كَامِلَةً وَطَالَبَتْكَ بِثَمَنٍ.

وَهُمْ لَا يَدْفَعُونَ الثَّمَنَ، إِنَّمَا يَتَّجِرُونَ بِهِ.

**كَيْفَ اسْتُعْمِلَتْ:**
لِيَفْقِدَ الْجُنْدِيُّ يَقِينَهُ،
وَلِيَتَعَثَّرَ الدَّلِيلُ فِي الْخَرِيطَةِ،
وَلِتُخْطِئَ الطَّلْقَةُ صَدْرَهَا،
وَلِيَرَى الْهَارِبُ طَرِيقَيْنِ بَدَلَ طَرِيقٍ وَاحِدٍ...

لَكِنَّهَا لَمْ تُسْتَعْمَلْ أَبَدًا لِتَحْرِيرِ أَحَدٍ.
وَكَانَ شَرْطُهَا الْأَعْظَمُ:
أَلَّا يُنْطَقَ اِلاسْمُ كَامِلًا.
فَمَنْ قَالَ:
**(الْخَوْفُ هُوَ اسْمِي الْأَوَّلُ).**
كَمَا قَالَهُ الْمَلَاكُ،
انْفَتَحَتْ عَلَيْهِ اللَّعْنَةُ كَمِرْآةٍ لَا تُغْلَقُ.[167]

---

167- هَوَامِشُ مُتَأَخِّرَةٌ
لَاهُوتِيٌّ: هَذِهِ لَيْسَتْ لَعْنَةً، إِنَّمَا هِيَ إِسْقَاطٌ نَفْسِيٌّ.
سَاحِرٌ: لَا يَهُمُّ، إِنَّهَا تَعْمَلُ.
جُنْدِيٌّ: كُنَّا نُرَدِّدُهَا... وَلَمْ نَنْجُ.
(فِي النُّسْخَةِ الْأَصْلِيَّةِ مِنَ الْمَخْطُوطِ، تَتَآكَلُ الْحَافَةُ، كَأَنَّ أَحَدَهُمْ حَاوَلَ أَنْ يُضِيفَ سَطْرًا ثُمَّ تَرَاجَعَ وَقَدِ احْتَرَقَ إِصْبَعُهُ... وَيُقَالُ: إِنَّ النَّاسِخَ الَّذِي حَاوَلَ اسْتِعَادَةَ النَّصِّ الْكَامِلِ فَقَدَ بَصَرَهُ قَبْلَ أَنْ يَكْتُبَ النِّهَايَةَ).

# 19

# أَنَاشِيدُ الرُّؤْيَا الْأَرْضِيَّةِ

## (بِصَوْتِ النَّاسِخِ الْأَعْمَى)

١

### صَوْتُ النَّاسِخِ الْأَعْمَى

وَفِي اللَّيْلَةِ السَّابِعَةِ بَعْدَ بَعْثِ إِيكارَ، انْشَقَّ الظَّلَامُ شِقَّتَيْنِ، وَظَهَرَ فِي الْعُلُوِّ كِتَابٌ لَا وَرَقَ فِيهِ... ظَهَرَتْ خَرَائِطُ تَتَحَرَّكُ كَجَمْرٍ حَيٍّ، وَتَتَبَدَّلُ خُطُوطُهَا مَعَ كُلِّ نَفَسٍ مِنْ أَنْفَاسِ الْأَرْضِ. لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ يَسْتَطِيعُ لَمْسَهُ... حَتَّى جَاءَ ظِلٌّ يُشْبِهُ ظِلَّ الْأَبِ، وَمَعَهُ رِيحٌ تُشْبِهُ الْخُطْوَةَ الْأُولَى لِلَّاجِئِينَ. فَقَالَ صَوْتٌ لَا يُرَى:

- مَنْ يَمْلِكُ ذَاكِرَةَ الْعُبُورِ، فَلَهُ أَنْ يَفْتَحَ الْخَتْمَ.

٢

### جَوْقَةُ الْأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ

عِنْدَمَا فُتِحَ الْخَتْمُ الْأَوَّلُ، تَدَفَّقَ نُورٌ يُشْبِهُ حَدِيدًا سَاخِنًا، وَسَمِعْنَا أَبْوَاقًا تَأْتِي مِنْ صُدُورِ الَّذِينَ مَاتُوا عَلَى الْأَسْلَاكِ.

- الْوَقْتُ جُرْحٌ يَتَّسِعُ، وَالطَّرِيقُ قَوْسٌ مُعَلَّقٌ بَيْنَ الْحَيَاةِ وَالْمَنْفَى. مَنْ يَعْبُرْ يُبْعَثْ... وَمَنْ يَقِفْ يَمُتْ.

٣

### ظُهُورُ الْكَائِنِ الْأَوَّلِ - مَخْلُوقٌ مُكَوَّنٌ مِنْ خَرَائِطَ

وَخَرَجَ مَخْلُوقٌ يُشْبِهُ رَجُلًا، إِلَّا أَنَّ أَضْلَاعَهُ كَانَتْ خُطُوطَ طُولٍ، وَعِظَامَهُ خُطُوطَ عَرْضٍ، وَجِلْدَهُ صَحَائِفَ زَرْقَاءَ تَتَمَوَّجُ كَبَحْرٍ مَكْسُورٍ.

قَالَ بِصَوْتٍ مُتَعَدِّدٍ:

- أَنَا شَاهِدُ الْحُدُودِ. وُلِدْتُ مِنْ خُطُوَاتِكُمْ، وَمِنَ الْحِبْرِ الَّذِي جَفَّ عَلَى جَوَازَاتٍ بِلا أَسْمَاءٍ. جِئْتُ لِأَشْهَدَ:
- إِنَّ الَّذِينَ مَاتُوا لَمْ يَعُودُوا مَوْتَى... صَارُوا مُدُنًا.

٤

**صَوْتُ النَّاسِخِ الْأَعْمَى**

قَبْلَ أَنْ أُصَابَ بِالْعَمَى، رَأَيْتُ مَلَاكًا يَحْمِلُ سِرَاجًا مَكْسُورًا، تَنْفَلِتُ مِنْهُ شَرَارَاتٌ كَأَنَّهَا أَجِنَّةُ نُجُومٍ لَمْ تُخْلَقْ بَعْدُ. لَمْ تَكُنْ لَهُ عَيْنَانِ، وَكَانَ يَحْمِلُ سِرَاجًا مَكْسُورًا يُضِيءُ اللَّيْلَ مِنْ أَطْرَافِهِ. قَالَ:
- هَذَا السِّرَاجُ هُوَ مَا تَبَقَّى مِنْ نُورِهِمْ. بِهِ سَنُنِيرُ الطَّرِيقَ حِينَ تَشْتَدُّ الْعَتَمَةُ.
ثُمَّ مَشَى فَوْقَ الْأَسْلَاكِ، فَانْشَقَّتْ تَحْتَهُ كَمَا تَنْشَقُّ الْمِيَاهُ.

٥

**الْمَلَاكُ ذُو السِّرَاجِ الْمَكْسُورِ**

- جِئْتُ أُعْلِنُ الْعَلَامَةَ...
سَيَسْقُطُ نَهْرٌ مِنَ الضَّوْءِ عَلَى مُدُنٍ لَا تَعْرِفُ أَبْنَاءَهَا، وَسَتُرْفَعُ الْحُدُودُ مِنْ جُذُورِهَا كَمَا تُنْتَزَعُ أَعْشَابُ الطَّرِيقِ.
ثُمَّ رَفَعَ السِّرَاجَ، فَانْكَسَرَتِ الْأَرْضُ إِلَى طَبَقَاتٍ سَبْعٍ، وَتَحَرَّرَتْ أَصْوَاتٌ حَبَسَتْهَا الْمَخَافِرُ عَبْرَ عُقُودٍ.

٦

**جَوْقَةُ الْأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ** (صَرْخَةٌ مِنَ الْقَاعِ):
نَحْنُ الَّذِينَ لَمْ نُولَدْ بَعْدُ.
نَحْنُ الَّذِينَ مَاتُوا قَبْلَ الوصول.
نَحْنُ الَّذِينَ عَبَرُوا ثُمَّ اخْتَفَوْا.
نُعْلِنُ:
**أَنَّ الْحُدُودَ اخْتُرِعَتْ وَلَمْ تُخْلَقْ،**
**وَمَا يُخْتَرَعُ يُمْكِنُ أَنْ يَنْهَارَ حِينَ يَلْمَسُهُ الْعَابِرُ الْأَخِيرُ.**

٧

## صَوْتُ النَّاسِخِ الْأَعْمَى

وَبُعَيْدَ الْأَبْوَاقِ السَّبْعَةِ، وَالْمَخْطُوطَاتِ الَّتِي اشْتَعَلَتْ، وَالسِّرَاجِ الَّذِي تَقَطَّرَ نُورُهُ، أُزِيحَ سِتَارٌ مِنْ رَمَادٍ، فَبَانَتْ مَدِينَةٌ لَيْسَتْ فِي الشَّمَالِ وَلَا فِي الْجَنُوبِ، وَأَبْوَابُهَا لَا تُفْتَحُ وَلَا تُغْلَقُ.

كَانَتْ مَدِينَةً تُبْنَى بِالْخُطْوَةِ، كُلُّ مَنْ يَمْشِي فِيهَا يُضِيفُ حَجَرًا مِنْ نُورٍ إِلَى جِدَارِهَا.

٨

## جَوْقَةُ الْأَرْوَاحِ التَّائِهَةِ

انْشَقَّ الْفَجْرُ عَنْ مَدِينَةٍ لَا أَبْوَابَ لَهَا، وَلَا مَخَافِرَ، وَلَا حَدِيدَ، وَلَا بَحْرَ يَحْرُسُهَا، وَلَا شَمْسَ تُحْرِقُهَا... مَدِينَةٌ تُبْنَى مِنَ الْخُطُوَاتِ. كُلُّ عَابِرٍ يَضَعُ حَجَرًا مِنْ ضَوْئِهِ، وَكُلُّ رَاحِلٍ يَتْرُكُ ظِلًّا فَيَتَحَوَّلُ إِلَى شَارِعٍ. وَعَلَى مَدْخَلِ الْمَدِينَةِ كَانَ إِيكارُ وَاقِفًا، لَا جَنَاحَيْنِ، وَلَا جُرْحًا، وَلَا أَثَرَ عَسْكَرٍ أَوْ ذِئَابٍ. كَانَ جَسَدُهُ طَرِيقًا طَرِيًّا يَمْتَدُّ نَحْوَ الدَّاخِلِ. قَالَ:

- هَذِهِ لَيْسَتْ جَنَّةً وَلَا خَلَاصًا، إِنَّهَا الْأَرْضُ حِينَ تَتَذَكَّرُ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يُقَاسُ بِالْحُدُودِ، إِنَّمَا يُقَاسُ بِالْمَسَافَةِ الَّتِي يُعِيدُ اخْتِرَاعَهَا.

**هَا قَدْ وُلِدَ يَوْمٌ جَدِيدٌ، وَمَعَهُ سَقَطَ الظَّلَامُ.**
**هَا هِيَ الْحُدُودُ تَحْتَرِقُ بِغَيْرِ نَارٍ، وَتَنْهَارُ بِغَيْرِ حَرْبٍ،**
**وَتَذُوبُ كَمَا يَذُوبُ ثَلْجُ الْوِدْيَانِ فِي فَمِ الرَّبِيعِ.**
**هَا نَحْنُ نُعْلِنُ:**
**هَذِهِ لَيْسَتْ رُؤْيَا أَخِيرَةً،**
**إِنَّهَا بَدَايَةُ كِتَابٍ جَدِيدٍ**
**يُكْتَبُ بِأَقْدَامِ الْعَابِرِينَ،**
**لَا**
**بِيَدٍ**
**تُمْسِكُ**
**بِالْخَرِيطَةِ.**

## (خَتْمُ تَبْرِيكَةِ الْخِتَامِ)



طُوبَى لِلْعَابِرِينَ، فَإِنَّ الْأَرْضَ لَا تَتَّسِعُ لَهُمْ.

نَحْنُ الَّذِينَ مَشَوْا وَلَمْ يَصِلُوا. نَحْنُ الَّذِينَ سُئِلُوا فَلَمْ يُسْمَعْ جَوَابُهُمْ.

قَالَتِ الْحَرْبُ: **(تَعَالَوْا)** فَوَجَدْنَا قُبُورًا.

وَقَالَتِ الذَّاكِرَةُ: **(سَمُّونِي)** فَسَمَّيْنَا مَوْتَانَا. وَقَالَتْ: **(احْفَظُونِي)** فَحَمَلْنَا وُجُوهَهُمْ فِي نَوْمِنَا.

كُلُّ مَنْ سَقَطَ صَارَ آيَةً، وَكُلُّ مَنْ نُسِيَ صَارَ خَطِيئَةً.

قَالَتِ الْحُدُودُ: **(قِفُوا)** فَمَشَيْنَا. وَقَالَتْ: **(ارْجِعُوا)** فَلَمْ نَجِدْ وَرَاءَنَا إِلَّا الرَّمَادَ.

لَسْنَا هُنَا، وَلَا هُنَاكَ، نَحْنُ الِامْتِدَادُ الْمُؤْلِمُ.

قَالَ الْمَوْتُ: **(لَا تَخَافُوا)** فَارْتَجَفْنَا. وَقَالَ: **(أَنَا النِّهَايَةُ)** فَوَجَدْنَاهُ بَابًا.

مَنْ دَخَلَ بِاسْمِهِ عَادَ ذِكْرَى،

وَمَنْ دَخَلَ بِلا اسْمٍ عَادَ نَشِيدًا.

طُوبَى لِلْعَابِرِينَ، فَإِنَّ الْأَرْضَ لَا تَتَّسِعُ لَهُمْ.

نَحْنُ الَّذِينَ مَشَوْا وَلَمْ يَصِلُوا... حَمَلْنَا أَسْمَاءَنَا خَفِيفَةً كَالْأَسْرَارِ، وَحَمَلْنَا الْبِلَادَ ثَقِيلَةً كَالْعِظَامِ.

**طُوبَى لِلْعَابِرِينَ حِينَ ضَاقَ الْعَالَمُ.**

**طُوبَى لِلْعَابِرِينَ،**

**لِأَنَّ الْوُقُوفَ كَانَ مَوْتًا.**

**الْعَابِرُونَ بَاقُونَ...**

**الْعَابِرُونَ بَاقُونَ...**

**لِأَنَّ الْأَرْضَ لَمْ تَتَّسِعْ.**

**(خَتْمُ الْإِيَابِ الْمَجْهُولِ)**



بِاسْمِ الْمَلَاكِ الَّذِي يُحْصِي أَخْطَاءَ الْعَابِرِينَ بَيْنَ الظِّلَالِ،
وَالَّذِي يَرْفَعُ كَفًّا مِنْ نُورٍ عَلَى رُءُوسِ الرَّاجِعِينَ بِلا وُجُوهٍ،
نَخْتِمُ هَذَا الْمَخْطُوطَ بِرِبَاطٍ لَا يَفُكُّهُ زَمَنٌ،
وَلَا يَجْرُؤُ عَلَيْهِ حَارِسُ بَوَّابَةٍ.

**يَا سَيِّدَ الْعَابِرِينَ بَيْنَ الظِّلَالِ،**
احْرُسْ لَيْلَ الْمُسَافِرِ إِذَا سَقَطَ ظِلُّهُ،
وَامْنَحْهُ اسْمًا لَا يُنْتَزَعُ عِنْدَ الْحُدُودِ.
وَلْيَكُنْ لَكَ، أَيُّهَا الْقَارِئُ،
مَلَاكٌ سَقَطَ قَبْلَكَ،
وَقِدِّيسٌ عَادَ قَبْلَكَ،
حَتَّى لَا تَسِيرَ وَحْدَكَ فِي هَذَا اللَّيْلِ.

# آخِرُ أَثَرٍ لِلنّاسِخِ

إِنْ كُنْتَ تَقْرَأُ هٰذا، فَهٰذا يَعْني أَنَّني لَمْ أُكْمِلْ... أَوْ أَنَّني أَكْمَلْتُ بِطَريقَةٍ لا تَظْهَرُ هُنا... أَوْ أَنَّ هٰذا لَيْسَ المكانَ الَّذي كانَ يَجِبُ أَنْ أُكْمِلَ فيهِ...

فَراغٌ

طَويلٌ

في

المخْطوطِ

**مُلاحَظَةٌ غَيْرُ مُؤَكَّدَةٍ**: لا يُوجَدُ بَعْدَ هٰذا الموْضِعِ أَيُّ أَثَرٍ لِخَطِّ النّاسِخِ... وَلا يُعْرَفُ أَكانَ قَدْ غادَرَ المخْطوطَ... أَمْ دَخَلَ فيهِ.

(بَعْدَ اخْتِفاءِ النّاسِخِ، ظَهَرَ المَلاكُ الأَعْمى وَأَرادَ إِحْراقَ السِّفْرِ رَمْزِيًّا... ثُمَّ أُلْحِقَ بِالسِّفْرِ نَصٌّ لَمْ يُدْرَجْ في المُتْنِ، تَسَرَّبَ إِلَيْهِ، وَجَعَلَ المَخْطوطَ هُوَ الَّذي يَنْطِقُ... وَتَرَكَ الرَّمادَ يَتَكَلَّمُ، وَسَمَحَ لِلْهامِشِ بِابْتِلاعِ المُتْنِ...)

**الظُّهورُ الأَخيرُ لِلْمَلاكِ الأَعْمى**

(هامِشٌ بِلا شاهِدٍ، قُرِئَ بَعْدَ المَحْوِ)

وَلَمّا مُحِيَ الاسْمُ، وَسَكَتَ الحِبْرُ، وَانْسَحَبَ النّاسِخُ مِنْ جِلْدِهِ كَما تَنْسَحِبُ الرُّوحُ مِنْ قِناعٍ مُحْتَرِقٍ، ارْتَجَّ المَخْطوطُ كَمَنْ يُبْعَثُ...

عِنْدَها ظَهَرَ المَلاكُ الأَعْمى...

لَمْ يَهْبِطْ، وَلَمْ يَصْعَدْ...

انْكَشَفَ...

كَما يَنْكَشِفُ الجُرْحُ حينَ يَمَلُّ الاخْتِباءَ.

**هَيْئَتُهُ:**

لَمْ تَكُنْ لَهُ عَيْنانِ، كانَ لَهُ مَوْضِعانِ لِلضَّوْءِ انْطَفَآ مِنْ شِدَّةِ الرُّؤْيَةِ...

أَجْنِحَتُهُ لَمْ تُفْرَدْ، كانَتْ مَطْوِيَّةً إِلى الدّاخِلِ، كَأَنَّها خُلِقَتْ لِتَحْمِلَ لا لِتُحَلِّقَ...

قَدَماهُ مَغْروزَتانِ في الرَّمادِ، وَخَطْوُهُ لا يُسْمَعُ إِلّا في صُدورِ الَّذينَ عَبَروا الحُدودَ وَلَمْ يُسَجَّلْ عُبورُهُمْ...

**قَوْلُهُ:**

وَقالَ . وَلَمْ يُسْمَعْ صَوْتُهُ بِالأُذُنِ، إِنَّما رُئِيَ بِالعَلامَةِ:

* (لا تَبْحَثوا عَنِ النّاسِخِ... فَقَدْ صارَ طَريقًا).
* (لا تَسْأَلوا مَنْ كَتَبَ... فَالْمَكْتوبُ هُوَ الَّذي كَتَبَ نَفْسَهُ).
* (كُنْتُ أَعْمى، لِأَنَّني رَأَيْتُ أَكْثَرَ مِمّا يُحْتَمَلُ... وَكُنْتُ مَلاكًا، لِأَنَّني لَمْ أُنْقَذْ).

**عَنِ الحُدودِ:**

وَقالَ:

* (الحُدودُ لَيْسَتْ خُطوطًا عَلَى التُّرابِ، إِنَّها خُطوطٌ في الجَسَدِ... مَنْ عَبَرَ جَسَدَهُ عَبَرَ البِلادَ).
* (العَسْكَرُ حُرّاسُ الأَبْوابِ، لٰكِنَّ الحُرّاسَ الحَقيقِيّينَ هُمُ الخَوْفُ وَالاسْمُ وَالذّاكِرَةُ المُقَيَّدَةُ).

**عَنْ إيكار:**

وَقالَ:

* (إيكارُ لَمْ يَسْقُطْ... إيكارُ غَيَّرَ جِهَةَ السُّقوطِ).

* (كُلُّ مَنْ ماتَ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى الأَمامِ سَبَقَ الفاصِلَ المُظْلِمَ).

**عَنْ (سِفْرِ الهَوامِشِ السِّرِّيَّةِ):**

وَقالَ:

* (هٰذا السِّفْرُ لَيْسَ كِتابًا... إِنَّهُ أَثَرُ نَجاةٍ فاشِلَةٍ).

* (مَنْ حَمَلَهُ... حَمَلَ حِمْلًا غَيْرَ مُتَناهٍ، لا وَرَقًا).

* (وَمَنْ أَتَمَّهُ... غَطَسَ في نَهْرٍ مِنَ الأَلْوانِ الزّاهِيَةِ).

**الوَصِيَّةُ الأَخيرَةُ:**

وَقالَ .وَهُنا تَصَدَّعَ المَخْطوطُ .:

* (إِذا الْتَقَيْتُمْ مَلاكًا مُبْصِرًا فَاهْرُبوا... وَإذا الْتَقَيْتُمْ مَلاكًا أَعْمى فَأَنْصِتوا).

* (لا تَطْلُبُوا النُّورَ كامِلًا، فَالْكامِلُ لا يُطاقُ... خُذوا مِنْهُ ما يَكْفي لِعُبورٍ واحِدٍ).

**الاخْتِفاءُ:**

لَمْ يَخْتَفِ... إِنَّما انْسَحَبَ مِنَ الرُّؤْيَةِ، كَما يَنْسَحِبُ المَعْنى حينَ يُقالُ أَكْثَرَ مِمّا يَنْبَغي... وَبَقِيَ عَلَى المَخْطوطِ أَثَرُ حَرارَةٍ، كَأَنَّ كَفًّا وُضِعَتْ ثُمَّ رُفِعَتْ.

# تَنْبيهٌ أَخيرٌ
# (كَتَبَهُ المُحَقِّقُ)
# حَوْلَ شَخْصِيَّةِ النّاسِخِ

لا يَرِدُ في أَيِّ مَخْطوطٍ اسْمٌ صَريحٌ لِلنّاسِخِ. وَرَدَتْ صِفاتٌ مِثْلُ: (النّاسِخُ المَجْهولُ)، وَ(النّاسِخُ السِّرِّيُّ)، وَ(ناسِخُ الهامِشِ)، وَ(النّاسِخُ الأَعْمى)، وَ(النّاسِخُ الشّاهِدُ). وَلا يُعْرَفُ أَكانَتْ هٰذِهِ أَسْماءً، أَمْ أَوْصافًا، أَمْ أَخْطاءَ نَسْخٍ تَراكَمَتْ حَتّى صارَتْ كِيانًا.
تَنْقَسِمُ الدِّراساتُ حَوْلَهُ إِلى فَرَضِيّاتٍ عَديدَةٍ:
فَبَعْضُها يَرى أَنَّهُ لَيْسَ شَخْصًا، إِنَّما جِهازٌ سَرْدِيٌّ ابْتَكَرَتْهُ النُّصوصُ نَفْسُها، لِكَيْ تَنْسُبَ إِلى "أَصْلٍ" ما لا أَصْلَ لَهُ.
وَأُخْرى تَفْتَرِضُ أَنَّهُ أَثَرٌ لِتَعَدُّدِ كُتّابٍ انْدَمَجَتْ أَصْواتُهُمْ في شَخْصِيَّةٍ واحِدَةٍ، كَما تَنْدَمِجُ الأَناشيدُ في صَدًى.
وَثالِثَةٌ تَفْتَرِضُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ ناسِخًا، إِنَّما كانَ مُتَلَصِّصًا، سَمِعَ الأَناشيدَ وَالإِصْحاحاتِ مِنْ خَلْفِ الجِدارِ، وَدَوَّنَها مِنْ ذاكِرَةٍ ناقِصَةٍ، ثُمَّ أَدْرَكَ أَنَّ النَّقْلَ مُسْتَحيلٌ، فَاخْتارَ. عَنْ وَعْيٍ. أَنْ يُحَرِّفَ، كَيْ "يُنْقِذَ" النَّصَّ مِنْ أَصْلِهِ.
فَغَيَّرَ تَرْتيبَ الجُمَلِ، وَأَعادَ تَوْزيعَ الأَناشيدِ، وَأَدْخَلَ الهَوامِشَ في المُتْنِ، وَالمُتْنَ في الهَوامِشِ، حَتّى لَمْ يَعُدْ بِالإِمْكانِ تَمْييزُ الأَصْلِ مِنَ الانْحِرافِ.
وَرُبَّما هُوَ القارِئُ نَفْسُهُ بَعْدَ أَنْ دَخَلَ المُتاهَةَ وَصارَ يَنْسَخُ الحِكايَةَ مِنْ جَديدٍ.
يَتَّهِمُهُ البَعْضُ بِأَنَّهُ:
**(شَوَّهَ بِنْيَةَ النَّصِّ).**
بَيْنَما يَرى آخَرونَ أَنَّ ما فَعَلَهُ لَيْسَ خِيانَةً، إِنَّما هُوَ كَشْفٌ لِحَقيقَةِ النَّصِّ.
وَحُجَّتُهُمْ ما سَمِعوهُ مِنْهُ حينَ قالَ:
(**لَوْ نَقَلْتُ النَّصَّ كَما هُوَ، لَماتَ... حَرَّفْتُهُ فَبَقِيَ**).

وَيَقولُ:
(**لَمْ أَكْتُبْ. أَنا سَمِعْتُ ما لَمْ يُقَلْ. وَكانَ عَلَيَّ أَنْ أُثْبِتَ الصَّدى قَبْلَ أَنْ يَتَبَدَّدَ. أَنْتُمْ تَرَكْتُمُ الأَثَرَ في الظَّلامِ، وَأَنا خُنْتُ الظَّلامَ كَيْ أَراهُ**).
تُنْسَبُ إِلَيْهِ مُمارَسَةٌ غَريبَةٌ:
قِراءَةُ النَّصِّ ثُمَّ إِعادَةُ كِتابَتِهِ مَعَ تَغْييرٍ طَفيفٍ في كُلِّ مَرَّةٍ، حَتّى يُصْبِحَ النَّصُّ سِلْسِلَةً مِنَ الاخْتِلافاتِ، لا نُسْخَةً واحِدَةً.
لا يُوجَدُ تاريخٌ لِوَفاتِهِ.

هُناكَ إِشاراتٌ إِلى أَنَّهُ:
اخْتَفَى بَعْدَ (الإِنْجيلِ الرّابِعِ)، أَوْ أُبْعِدَ مِنَ الجَماعَةِ (إِنْ وُجِدَتْ)، أَوِ اسْتَمَرَّ في الكِتابَةِ تَحْتَ أَسْماءٍ أُخْرى.
وَفي بَعْضِ الهَوامِشِ:
لَمْ يَخْتَفِ، إِنَّما أَصْبَحَ يَلْعَبُ دَوْرَ كُلِّ ناسِخٍ جاءَ مِنْ بَعْدِهِ.
هَلْ كانَ خائِنًا؟ أَمْ أَوَّلَ قارِئٍ حَقيقِيٍّ؟
هَلْ أَفْسَدَ النَّصَّ؟ أَمْ أَنْقَذَهُ مِنَ الانْغِلاقِ الكامِلِ؟
لا يُمْكِنُ الحَسْمُ.
لٰكِنَّ كُلَّ ما قَرَأْناهُ كانَ يَمُرُّ مِنْ خِلالِهِ.
وَهٰذا يَكْفي لِيَكونَ مَوْضِعَ الشَّكِّ وَمَصْدَرَ النَّصِّ في آنٍ واحِدٍ.
مِنْ غَيْرِ المُمْكِنِ التَّحَقُّقُ مِنْ وُجودِ هٰذِهِ الشَّخْصِيَّةِ.
لٰكِنَّ كُلَّ قِراءَةٍ لِلْهَوامِشِ تُعيدُ إِنْتاجَها.

دهلران – إيران (1987- 1990)
صياغة نهائية: الأراضي المنخفضة (2026)

# شهادة في أصل النص
(سيرة مخطوطة عبرت الحرب والمنفى)
**(مقدّمةٌ أوّلى)**

حين تقترب سنوات العمر من محطتها الأخيرة، وتتأمل وجهك في مرآة الأيام، تقول لنفسك: لقد انتهت صفقتك مع الشيطان منذ زمن بعيد، وها هو ملاك الموت يقف ثابتًا جوار سريرك، يعدّ ما تبقى من لحظاتك بصبرٍ أبدي: (10، 9، 8، 7، 6، 5...). وها هي الحقيقة تغمرك أخيرًا، لكنك، تريد العودة لتحظى بمزيد من الوقت لتمسك بحياتك، وتمنح حضورك في العالم معنىً أكمل. وبشغفٍ ملحّ، تنادي الملاك الآخر، ملاك الحياة، قائلًا: (امنحني، أيها الملاك، فرصةً أخرى لأعيش حياةً حقيقية). تناشد وتتوسل، وتقسم أنك بدأت تفهم الآن ما لم تفهمه من قبل. ثم تقع المعجزة، فيتوقف الزمن، وتتجمد اللحظة عند **الرقم خمسة** من العدّ التنازلي، كأن الكون بأسره قد حبس أنفاسه انتظارًا لما سيأتي.
وبرحمة الله العظيم ولطفه، يتشاور الملاكان، ملاك الموت وملاك الحياة، ويعقدان بينهما اتفاقًا جديدًا. ثم يستأنفان العدّ معًا: (5، 4، 3، 2، 1...) لتُمنح فرصة أخيرة، فتجد نفسك تعيش في زمن الرقم الأخير، **زمن الصفر**، حيث تتعلم أن الحياة والموت توأمان لا يفترقان، يحمل كلٌّ منهما حكمة الآخر، وأن رؤيتهما بوضوح تمنح الإنسان هبة العيش بأقصى ما يستطيع من الامتلاء والمعنى.
عندها تسأل نفسك: ماذا فعلت بحياتك، أيها الأحمق؟ لماذا أطفأت وهج الحياة المتدفقة في أعماقك؟ لماذا أحجمت عن الولوج إلى رحابة الروح، وصرت أسير أفكار ضيقة وظلال قاتمة، فيما كان بوسعك أن تتمدد في فرح الحياة الذي لا ينقضي، وأن تعبر إلى ذلك "المجال الكائن وراء الصواب والخطأ"؟ ولماذا واصلت إنشاد أغنية الضحية، وكان في وسعك أن تكون البطل؟ تمامًا كبطل هذا الكتاب.
تقول: أعترف أن أكثر ما يثقل قلبي تجاه الموت ليس الموت ذاته، وإنما تلك الأعمال التي ستظل ناقصة، وتلك الكتب التي لم تُكتب بعد، والأفكار التي لم تجد طريقها إلى الورق. ولو أن ملاك الموت وعدني بشكلٍ من أشكال الوجود الروحي، أستطيع من خلاله أن أواصل مشاريعي الكتابية في عالمٍ آخر، لاستقبلته مطمئنًا، وربما صافحته كما يصافح المرء مسافرًا يعرف أنه سيعود يومًا ما. ولسعدت بتلك الزيارة، أو بتلك الصفقة، أيًّا كان اسمها.

بهذه البساطة، تحاول أن تقايض الملاك بكيسٍ ممتلئ بالأحلام. غير أن الزمن يواصل انسيابه بين أصابعك، وعليك أن تكفّ عن الهذيان، وأن تنشغل بمحاولة اكتشاف تلك الهدية الفريدة التي منحك إياها العالم.
تقول: لن أطيل الحديث عن حياتي جنديًّا مكلّفًا، فهي حياة تشبه حياة آلاف غيري. غير أنني سأروي الجانب المتصل بقصة هذه الملحمة الشعرية التي رافقتني أعوامًا طويلة، ولم أستطع يومًا أن أهجرها أو حتى أن أفكر في خيانتها.
ولهذا سأرويها لك الآن، يا ملاك الموت.
فأنت، أكثر من أيّ أحد، تعرف قيمة الحكايات التي تنجو من الزمن.
لهذه الملحمة، أو ما أحب أن أسمّيه (الليتورجيا الشعرية)، حكايةٌ طويلة تمتد على تضاريس العمر والتجربة والخراب والأمل. حكاية تختزل أربعة عقود من العذاب وما انطوى عليه من آلامٍ وتجاربَ وندوبٍ خفيّة، أحاول أن أرويها هنا بصوتٍ هادئ أقرب إلى الاعتراف. فثمة فارق جوهري بين نصٍّ يُكتب عن الحرب، ونصٍّ وُلد في قلبها، بين كتابةٍ تتأمل الخراب من مسافة، وأخرى تشكّلت داخل مرصدٍ حدودي معزول، بين الألغام والأفق المغلق والأسئلة الوجودية التي ظلت تطارد صاحبها لعقود.
بعد تخرّجي من كلية الفنون الجميلة (جامعة بغداد)، وجدت نفسي، شأن أبناء جيلي، مدفوعاً إلى أتون الحرب العراقية الإيرانية. وبعد ثلاثة أشهر من الإذلال والمعاناة في معسكر تدريب الحلة، أُلحقت بكتيبة مدفعية الميدان (243) بصفة (معين جبهة)، ثم نُقلت إلى أبعد نقطة يمكن أن يُدفع إليها جندي: مرصد حدودي متقدّم في منطقة دهلران، يوم كانت المنطقة تحت سيطرة القوات العراقية.
لم تزد مساحة ذلك المرصد على مترٍ ونصف المتر عرضاً ومترين طولاً. كان مأوى مرتجلاً شُيّد من الطين وبقايا صناديق العتاد وخراطيش المدفعية والصفائح المعدنية. أما العهدة التي تسلّمتها فكانت ناظوراً عسكرياً، وحقيبةً مهترئة تضم خرائط لمواقع القطاعات العسكرية وسجلاً تُدوَّن فيه تحركات الجانب الإيراني، إضافة إلى (جلكان) للماء وآخر للنفط.

وكان يرافقني جندي مكلّف بصفة (مخابر)، يحمل هاتفاً ميدانياً للتواصل مع مقر الكتيبة. وقد بدا ذلك الهاتف، لكثرة ما تعرّض للقصف والعطب، أشبه بأثرٍ متبقٍ من الحرب العالمية الأولى، قطعة ثقيلة أقرب إلى ديكور عسكري منها إلى وسيلة

اتصال، لا تعمل في معظم الأحيان، لكنها تظل جزءاً من العهدة العسكرية المسجّلة في ذمة الجندي المكلّف بها.

كان المرصد قائماً فوق تلة مرتفعة تواجه القوات الإيرانية المنتشرة في الجهة المقابلة، ويفصل بين الطرفين سهلٌ منبسط يمتد نحو خمسة كيلومترات يُعرف باسم (الأرض الحرام). وكانت تلك المساحة قد زُرعت بالألغام من الجانبين العراقي والإيراني على السواء.

هناك بدأت فكرة الهروب من ذلك الجحيم تتسلل إلى رأسي. غير أن المنطقة كانت مكشوفة بالكامل للطرفين، ما جعل الفرار نهاراً ضرباً من المستحيل، إذ يمكن رصد الهارب بسهولة من القوات العراقية أو الإيرانية، ومن المرجح أن تسبقه رصاصة إلى مصيره قبل أن يبلغ وجهته. أما الهروب ليلاً، تحت ستار الظلام، فلم يكن أقل استحالة، فالأرض الحرام كانت مفعمة بالألغام وتعج بالخنازير البرية.

عندئذ أخذت أتساءل: لماذا لم يُخلق الإنسان بأجنحة؟ ماذا لو امتلك القدرة على الطيران؟ ومن هذه الأسئلة بدأت أستدعي أسطورة إيكاروس وأعيد تشكيلها شعرياً.

ومع صدور قرار مجلس الأمن رقم (598)، الذي اعتُمد بالإجماع في 20 يوليو/تموز 1987، ثم التوصل إلى تسوية دائمة لإنهاء الحرب في 8 أغسطس/آب 1988، خفّت الالتزامات العسكرية نسبياً، فشرعت بالعمل الجاد على هذا المشروع الشعري.

استحضرت فكرة إيكاروس والطيران، لكنني جعلت من الحدود نفسها شمساً. وكلما اقترب إيكار منها اقترب من موته. أردت للحدود أن تتجلى قرصاً شمسياً بلا ضوء، متوهجاً من داخله، كأنه يحترق بثقل أسماء القتلى التي يحملها. وحين يتقدم إيكار نحوها، تنطلق من ذلك القرص شظية من نور تحرق الهواء المحيط بجسده، فيغدو العبور الحقيقي مستحيلاً ما لم يتحول الجسد ذاته إلى عالمٍ كامل، وإلى حدودٍ في الوقت نفسه.

كنت أحصل على إجازة شهرية مدتها سبعة أيام، يضيع منها يومان في الطريق، يوم للنزول وآخر للالتحاق. ولم يكن يتبقى لي في بغداد سوى خمسة أيام أعود خلالها إلى المكتبات ودور السينما والبارات والمقاهي، وألتقي بعض الأصدقاء، ثم أرجع إلى الجبهة محمّلاً بالكتب التي تخدم مشروعي الشعري.

بهذه الطريقة أنجزت المشروع بين عامي 1987 و1990، إلى أن جاءت لحظة دخول صدام حسين إلى الكويت، فنُقلت كتيبتنا المدفعية إلى صحراء حفر الباطن لنعيش جحيماً جديداً.

وفي الثامن من أغسطس/آب 1991 غادرت العراق متوجهاً إلى الأردن. هناك نشرت بعض فصول هذه الملحمة الشعرية. غير أن الظروف القاسية التي عشتها، وعاشها كثير من العراقيين خلال تسعينيات القرن الماضي، جعلت فكرة إصدار كتاب تبدو ترفاً بعيد المنال، يتجاوز حدود الحلم نفسه.

وعندما وصل الصديق الشاعر الراحل **عقيل علي** إلى الأردن، سعى إلى مساعدتي في نشر هذا المشروع الطويل. كتب إلى ناشر عراقي في المنفى، وأرسلنا إليه النسخة الوحيدة التي كنت أملكها من المخطوطة. غير أن المخطوطة لم تحظَ باهتمامه. وحين طلب منه عقيل إعادتها، جاء الرد صادماً، إذ كتب أن المخطوطات التي لا تُنشر ينتهي بها المطاف في سلة المهملات. يا لها من شهامة!

وهكذا فقدت هذا المشروع الشعري، ولم يبقَ منه سوى الفصول التي كانت قد نُشرت في صحيفة (الرأي) الأردنية، بمبادرة كريمة من الشاعر والكاتب والصحفي الصديق باسل رفايعة، الذي كان مسؤولاً عن القسم الثقافي في الصحيفة آنذاك.

وفي أبريل/نيسان 1995 وصلت إلى الأراضي المنخفضة، وانخرطت في ماراثون طويل من الدراسة والعمل والحياة. ومع ذلك ظل المشروع مقيماً في داخلي، يرافقني أينما ذهبت.

وفي عام 1999 وُلد ابني الأول. كان الاسم حاضراً في ذهني منذ زمن: (إيكار). كتبت اسمه بصيغة (IKAR) لا (ICAR) ، لأن الهولنديين يكتبون اسم العراق بصيغة (IRAK)، وأردت للاسمين أن يتطابقا في عدد الحروف وهيئتها، كأن خيطاً خفياً يربط الابن بالوطن.

وفي عام 2012 عدت إلى العراق لأسبوع واحد إثر وفاة والدي، رحمه الله. وبعد انتهاء مراسم العزاء بدأت أفتش في مكتبتي القديمة عن بعض الكتب ومسودات مشاريعي الكتابية. وكانت شقيقتي، التي تكبرني بعامين، والتي أعدّها من الكائنات النادرة في هذا العالم، قد احتفظت بجميع دفاتري وأوراقي داخل صندوق من الكارتون المقوّى، أشبه بصندوق عجائب.

وجدت هناك معظم المسودات التي أنجزتها خلال ثمانينيات القرن الماضي. وقد كتبت عن ذلك الصندوق في مقدمة كتابي (دفتر بغلاف معدني) الصادر عن دار مخطوطات عام 2014. ومن بين ما عثرت عليه كانت مسودات مشروع (إيكار).

كانت مسودات غريبة وملتبسة إلى حد جعلني أشعر أن العودة إليها تحتاج إلى معجزة، أو إلى عزلة طويلة تُكرَّس لها بالكامل. لذلك واصلت تأجيلها، وأقنعت نفسي

بأعذار شتى، على أمل أن أعود إليها حين يبلغ إيكار الثامنة عشرة من عمره فأهديه الكتاب.

غير أن الزمن مضى في اتجاه آخر.

ففي ليلة رأس السنة من عام 2025 كان إيكار الابن قد بلغ السابعة والعشرين، بينما بلغ عمر الاشتغال على مخطوطة (إيكار) الشعرية تسعةً وثلاثين عاماً. ومنذ اليوم الأول من عام 2026 عدت إلى العمل عليها من جديد، ساعات طويلة كل يوم، وسط مجاهدات حياتية لا تنتهي، وصحةٍ أحسد عليها، وعيشٍ أضيق من محبرة.

واليوم أستطيع أن أقول: هذا هو ثأري من المنفى، ومن الشفقة على الذات. وهو أيضاً عربون حبٍّ راسخ للشعر، ذلك الحب الذي لم أربح منه شيئاً سوى أنه أبقاني حيّاً. وأدرك الآن أن هذه المخطوطة التي نجت من الحرب كانت تمارس، على نحوٍ ما، شكلاً من أشكال المقاومة: مقاومة الحرب، ومقاومة الضياع، ومقاومة المنفى، ومقاومة الفقد، ومقاومة الزمن. كأنها كانت تنتظر اللحظة التي تُبعث فيها من جديد، لتستعيد مكانها في ذلك التوازي العجيب الذي يجمع بين ثلاثة (إيكارات) في حكاية واحدة:

1- إيكار الأسطورة، الساعي إلى العبور .

2- إيكار الابن، الذي حمل الاسم .

3- إيكار المخطوطة، التي ضاعت ثم عادت إلى الحياة بعد عقود .

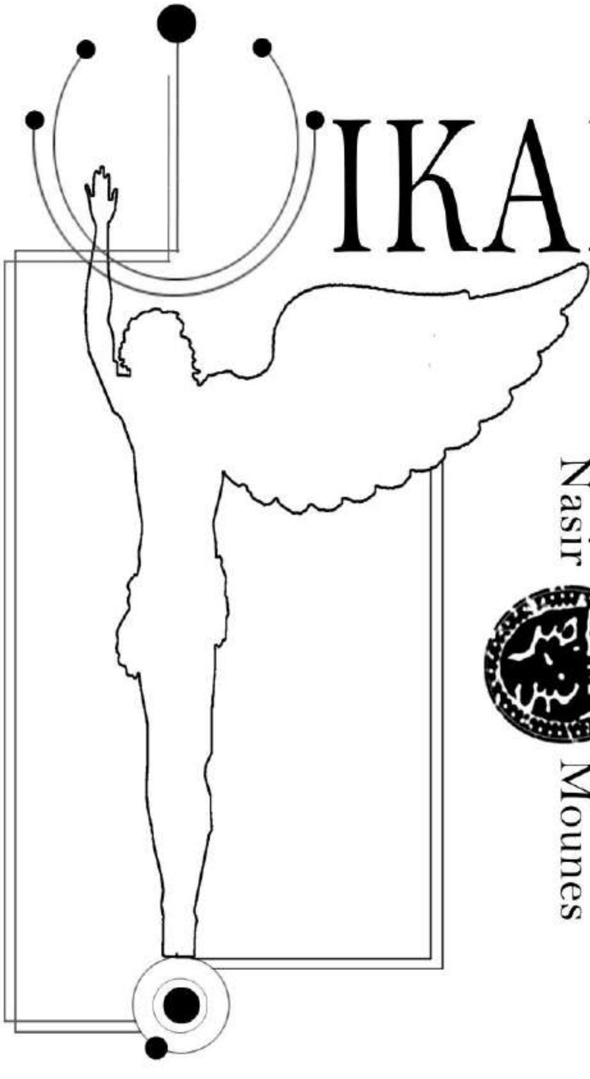
هذا التداخل يجعل من العنوان أكثر من استعارة شعرية، إنه المحور الذي تتقاطع عنده السيرة الشخصية والتاريخ والأسطورة والشعر. تلك هي قصة هذا الكتاب: سيرة مخطوطة بدأت من مرصدٍ حدودي، ثم عاشت الضياع، قبل أن يُعثر عليها من جديد وتُعاد كتابتها بعد عقود. هي رحلةٌ توثّق عبورَ إنسانٍ رافقها حتى احتراقه، ونجاةَ فكرةٍ من النسيان، وصوتٍ من الصمت، وشاعرٍ من الهزيمة.

- أتفهم، أيها الملاك؟

# الفهرس

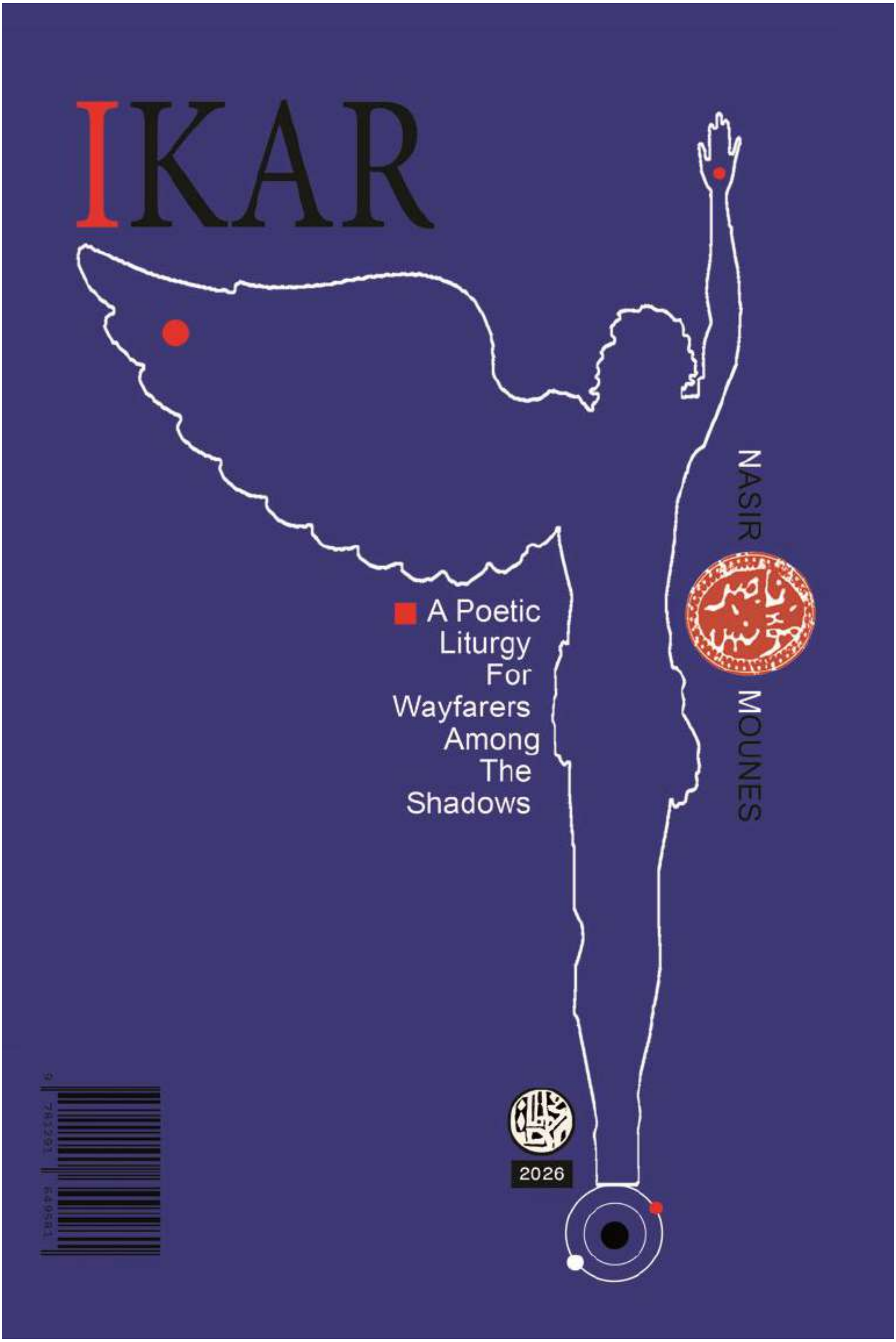
# IKAR

A Poetic Liturgy for Wayfarers Among the Shadows



Nasir Mounes

2026


IKAR
A Poetic Liturgy For Wayfarers Among The Shadows
NASIR MOUNES
2026